

تاريخ
الأدب
العربي
٤

دكتور شوقي ضيف

العصر العباسي الثاني



دار المعارف بمصر

تاريخ
الأدب العربي

٤

العصر العباسي الثاني

تأليف
الدكتور شوقي ضيف

الطبعة الثانية



دار المغارف بمطرو

العصر العباسي الثاني

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

هذا الجزء الرابع من تاريخ الأدب العربي خاصّ بالعصر العباسي الثاني ، وقد تناولتُ فيه الحياة السياسية وما حدث فيها من تحوّل مقاليد الحكم من أيدي الفُرس إلى أيدي التُرك . ولم يكونوا أصحاب ثقافة ولا حضارة ، ولا كان لهم معرفةٌ بإدارة ولا بنظم سياسية ، ففسدت الأداة الحكومية فساداً شديداً . وكانت هناك طبقةٌ تغرق في الترف والنعيم ، وكان جمهور الشعب يعيش في الضنك والبؤس . وظلت الحياة العقلية مزدهرةً بما نُقل — وما كان يُنقل — من الثقافات الأجنبية . مما هيأ لظهور فلاسفة عظام وعلماء بارعين في جميع العوام اللغوية والبلاغية والنقدية والتاريخية والإسلامية والكلامية .

وصوّرتُ نشاط الشعر حينئذ وكيف تمثّل الشعراء خصائص العربية ودقائقها الجمالية والموسيقية تمثلاً تاماً ، وكيف أوْدعوا أشعارهم ذخائر فكرية غزيرة ، مما جعلهم يجدّون في الموضوعات القديمة والأخرى المُستحدثة في العصر العباسي الأول صوراً مختلفة من التجديد ، تحفيلُ بما لا يكاد يُحصى أو يُستقصى من الأفكار المبتكرة والأخيلة المُبتدعة . وظلّوا يُنمّون الشعر التعليمي وينظّمون فيه التاريخ وغير التاريخ من صنوف المعرفة .

وبحثُ بحثاً تحليلياً تاريخياً أعلام الشعراء في العصر ، وهم علي بن الجهم والبُحْثَرِيُّ وابن الرومي وابن المعتز والصنوبريّ ، أما ابن الجهم فكان داعيةً للمتوكل يصبح مهللاً مع كل عمل له ، وأروعُ أشعاره ما نظمّه في الاستعطاف وفي تصوير صلابة نفسه حين ادلهمت له الخطوب ونزلت به الكوارث . وكان البُحْثَرِيُّ الشاعرَ الرسميّ في بلاط الخلفاء من زمن المتوكل إلى زمن المعتمد ، وأشعاره تمثل النزعة المحافظة التي سادت حينئذ في الشعر ونقده وتذوقه ، مع ما سُحّر

له فيها من تلاوين الجمال الموسيقي الأسر وأنغامه وألحانه الرائعة ، ومع مهارته في وصف المعارك البحريّة ومظاهر الحضارة والعُمُران . وكان يقابله ابن الرومي ممثلاً النزعة التجديدية في الشعر وموضوعاته وأساليبه ومعانيه ، وقد نفذ بعبقريته النادرة إلى لون جديد من شعر الطبيعة الرائع ولون جديد آخر من الهجاء الساخر ، غير أفكار وخواطر وتصويرات لم تخطر لمعاصريه ولا لسابقيه على بال . وتبرز حياة ابن المعتز وبيئته المترنة ومأساة أبيه وجده في أشعاره ، وهي تزخر بالصور والأخيلة . وكان الصنوبري يُعنى بصنعة الشعرية ، وهو من شعراء الطبيعة ، ويُعدّ أول ناظم للثلجيات في العربية .

وعرضت لكثيرين وراء هؤلاء الأعلام ، ووزعتهم على طوائف متقابلة ، فشعراءُ للسياسة مع الخلفاء العباسيين أو مع الشيعة أو مع بعض الثوّار ، وشعراءُ لبعض الوزراء والولاة والقواد ، وشعراءُ هجاء عاديّ أو مرير ، وشعراءُ غزل عفيف أو ماديّ صريح . وشعراءُ لهُو ومجون ، وشعراءُ زهد وتصوف ، وشعراءُ شعبيون . وحاولتُ أن أتحدث في كل طائفة عن خير من يمثلونها ، مع تصوير موجز لشخصياتهم الأدبية .

ومضيتُ أبحث النثر والتحام الفلسفة فيه بالعبارة الأدبية مصوراً كيف تعاونتُ بيئاتٌ مختلفة في وضع مقاييسه البلاغية ، وكانت الخطابة قد ضعفت ، ولكن الوعظ نشط نشاطاً واسعاً ، وتحول من مواعظ زهدية إلى مواعظ صوفيّة ، وأخذ ينشأ نثر صوفيّ شعبيّ يعتمد على القصص والحكاية بأسلوب بسيط تفهمه العامة . وتكثر المناظرات في جميع البيئات العلمية ، وتصبح من طوابع الكتابات الأدبية . وتُجمّع أقاصيص كثيرة عربية وغير عربية في صور متقابلة من القندح والمدح . وتظل الرسائل الديوانية مزدهرة بفضل كُتّابها النابهين . وتنشط الرسائل الإخوانية ، ويساعد ضيق رُقعتها على أن يتكاثر فيها التأنق والتنميق . ويكتب ابن المعتز رسالةً أدبية يملؤها بسجع كثير . ولا نصل إلى عصر الخليفة المقتدر حتى يصبح السجع اللغة العامة للنثر الأدبي جميعه .

وبحثتُ أعلام الكتاب حينئذ ، وهم إبراهيم بن العباس الصوليّ ، والجاحظ ، وابن قتيبة ، وسعيد بن حمّيد ، وأبو العباس بن ثّوابة . وكان الصوليّ أول رئيس

لديوان الرسائل في العصر، وعنه كانت تصدر الكتابات الديوانية من منشورات وغير منشورات، وهو يُعْنَى بدقة ألفاظه واصطفاء كلماته وحُسن جرسها في الأداء. والجاحظ أكبر كتّاب العصر غير منازع، وكتاباتهِ مرآة صافية لعصره بجميع طبقاته، مع ما يَسْرَى فيها من الاستطراد ومن روح الدعابة، ومع ما تموج به من أسلوب الازدواج الرائع. وقد عرضت خمسة ألوان من فنه النَثْرِي، هي المناظرة، والرسائل الإخوانية، والرسائل الأدبية، والقَصَص، والنوادر. وابن قتيبة أكبر مؤلف أدبي بعده، وهو يمزج في كتابه: «عيون الأخبار» بين الثقافات العربية والإسلامية والفارسية والهندية واليونانية وكذلك ثقافة أهل الكتاب. وبذلك ألغى الحواجز بين تلك الثقافات مَثْبِتًا أنها أقواس وهمية، فقد استحالت جميعها في كتابه ثقافة عربية، ولم يَعُدْ يرتفع صوت للشعوية. ويتشبه ابن قتيبة كثيرًا بالجاحظ في تمسكه بالواقع ومزج الهزل بالجيد وفي استخدامه لأسلوب الازدواج من حين إلى حين. وما زال سعيد بن حميد يَرْقَى في الدواوين، حتى أسند له ديوان الرسائل، وكان يُعْنَى بالتدقيق في ألفاظه ومعانيه، نافذًا من خلال حَيْل عقلية كثيرة إلى أفكار مبتكرة طريفة، مع تقطيعات صوتية تُضْفِي على أسلوبه جمالا. ويسلمعُ اسم أبي العباس بن ثَوَابَة، وكان بدوره من رؤساء ديوان الرسائل، وكان يكثر من التأنق والتكلف في كتابته، مما جعله يَسْتَعْمِدُ فيها أحيانًا السجع، مع العناية بالتصوير، ومع وزن الكلام بمعياري بيانٍ دقيق. والله وَلِيُّ الْهُدَى والتَّوْفِيق.

القاهرة في أول مايو سنة ١٩٧٣ م.

شوق ضيف

الفصل الأول

الحياة السياسية

١

استيلاء الترك على مقاليد الحكم

مرّ بنا في العصر العباسي الأول كيف هيّأ العباسيون لقيام دولتهم عن طريق الدعوة السريّة لإمام هاشمي يخلّص الموالى فُرساً وغير فرس من حكم بني أمية الجائر ، محقّقاً لهم المساواة المشروعة - بحكم الإسلام - بينهم وبين العرب في جميع الحقوق الاقتصادية والسياسية والاجتماعية . وسرعان ما أقبلت الجيوش الحراسانية مكسحة كل ما لقيها من مقاومة للدولة الأموية حتى قضت عليها قضاء مبرماً . وأعلن العباسيون أنهم أصحاب الحق الشرعي في الحكم والخلافة ، وبذلك استأثروا بها من دون أبناء عمهم العلويين ، مما جعل كثيرين منهم يشعرون عليهم طوال العصر ، كما جعل أنصارهم يدعون لبيتهم العلوي سرّاً كلما وجدوا إلى ذلك سبيلاً ، في حين مضى العباسيون يعلنون أنهم أصحاب حق إلهي في الحكم والسلطان وتمادوا في حكم استبدادي أشد ما يكون الاستبداد محيطين أنفسهم بكثيرين من الحجاب ، أما الشعب فلم يزد في رأيهم عن أن يكون أدوات مسخرة لجمع الخراج والضرائب الفادحة ، مما دفع لقيام ثورات إيرانية مختلفة ، على نحو ما صورنا ذلك في كتاب العصر العباسي الأول . وحقّاً كانت أعلى المناصب وأكثرها في أيدي الفرس ، وكان منهم أكثر الوزراء والقواد ، غير أن العباسيين نكبوهم نكبات متوالية ، على نحو ما هو معروف عن نكبة البرامكة ونكبة بني سهل . ونشب من جرّاء ذلك عداء شديد بين الفرس والعرب ، فالعرب يريدون استرداد مجدهم في العصر الأموي والفرس لا يكتفون بما لهم من مجد حادث في الدولة ، وكانهم يريدون أن يستعيدوا مجد دولتهم الساسانية القديمة ويمحقوا العرب محقّقاً ، مما أعدّ

لظهور تيار شعوبى بغيض رافقه تيار إلحاد وزندقة لا يقلُّ عنه عنفًا ولا محاولة لهدم الإسلام والعروبة جميعًا . وفى أثناء ذلك كانت الثورات مضطربة فى شرق الدولة ، وكلما خمدت ثورة اندلعت أخرى ، وكان آخرها اندلاعًا ثورة بابك الخُرَّمى فى آذربيجان التى ظلت نحو عشرين عامًا والتى كلفت الدولة كثيرًا من الجيوش إلى أن سَحَقَهَا المعتصم وقواده سَحَقًا .

وقد أخذ المعتصم حينئذ يفكر فى عنصر جديد يعتمد عليه فى حروبه سوى الفرس ، فثوراتهم لا تنقطع ، وأما نبيهم فى إحياء مجدهم القوي لا تخمد ، واستظهارهم للشعبوية والزندقة لا تهدأ فورته ، وهذاه تفكيره إلى الاعتماد على عنصر من الرقيق اشتهر لعصره بالصبر تحت ذلال الرماح ، مع حذقه بالرى يمنة ويسرة ومقبلا ومدبرًا ، وهو الرقيق التركى الذى كثر توافده على بغداد والعراق ، فأخذ يستكثر من شرائه وطلبه من سمرقند وفَرَغانة وأشروسنة إلى أن بلغت عدته ثمانية عشر ألفًا^(١) ، وكل يوم يزيد ، حتى ضاقت به بغداد وشوارعها . وكان جمهور هذا الرقيق بدوًا جُفَاء فكانوا يركبون الخيل ويركضونها فى الشوارع فتطأ بعض الشيوخ والأطفال والنساء ، مما اضطر المعتصم أن يبني لهم مدينة سامراء^(٢) شمالى بغداد ، وانتقل معهم إليها ، وظلت حاضرة للخلفاء حتى أواخر عهد المعتصم سنة ٢٧٦ للهجرة .

وكان ذلك تحولاً خطيراً فى تاريخ الدولة العباسية ، فقد كانت تعتمد كل الاعتماد على الفرس وكانوا أصحاب مدنية وحضارة فبشوها فى الحياة العربية ، وأعدوا لنهضة حضارية واسعة تستقى منهم ومن موارد الإسلام والعروبة ومن الثقافات الأجنبية المختلفة ، وخاصة الثقافتين اليونانية والفارسية . أما الترك فلم يكونوا أصحاب ثقافة ولا مدنية ولا حضارة ، إذ كانوا بدوًا لا يعرفون الصناعة ولا الزراعة ولا التجارة ولا الفنون ولا الآداب ولا قواعد الملك والسياسة ، إنما هم سكان صحار وقفار وحرب وجلاد وبأس ومراس ، وقد صورهم الجاحظ تصويراً دقيقاً فى رسالته التى

(١) النجوم الزاهرة ٢/ ٢٣٣ .

وسامراء فى دائرة المعارف الإسلامية وبلدان الخلافة الشرقية تأليف لسترانج وترجمة بشير فرنيس وكوركيس عواد .

(٢) انظر فى تخطيط سامراء والسبب فى بنائها كتاب البلدان لليعقوبى ومعجم البلدان لياقوت

تحدث فيها عن مناقبهم قائلا: « الترك أصحاب عَمَد (خيام) وسكان فياف وأرباب مواشٍ ، وهم أعراب العجم . . . فعين لم تشغلهم الصناعات والتجارات والطب والفلاحة والهندسة ، ولا غَرْسٌ ولا بُنْيَانٌ ولا شَقٌّ أنهار ولا جباية غلَّات ، ولم يكن همهم غير الغزو والغارة والصَّيد وركوب الخَيْل ومقارعة الأبطال وطلب الغنائم وتدويخ البلدان ، وكانت همهم إلى ذلك مصروفة ، وكانت لهذه المعاني والأسباب مسخرة ومقصورة عليها وموصونة بها ، أحكموا ذلك الأمر بأسره وأتوا على آخره ، وصار ذلك هو صناعتهم وتجارتهم ولذَّتْهم وفخرهم وحديثهم وسمهم ، فلما كانوا كذلك صاروا في الحرب كالليونانيين في الحكمة وأهل الصين في الصناعات... وكآل ساسان في الملك والرياسة » .

وهؤلاء البدو الموغلون في البداوة الذين لم يُعرَفوا بحضارة ولا ثقافة ولا عُرِفوا بزراعة ولا صناعة ولا تجارة ولا بسلطان ولا بسياسة سرعان ما قبضوا على زمام الحكم، والمعتمَصم هو الذي هيأ لهم ذلك لا يجعلهم جُنْدَ الخلافة العباسية فحسب ، بل أيضاً باتخاذهم مدينةً خاصة وجعلها عاصمة الدولة ، فأتاح لهم الفرصة كي يُخَلِّقَ بينهم في المستقبل وبين الخلفاء ، فيصبحوا مسخرين بأيديهم يصرفونهم كما يشاءون . وإيس ذلك كل ما صنع فقد ولَّى كبيرهم « إشناس » مصر وجعل له الحق في أن يوَلِّى عليها ولاية من قبَله ، فكان يُدْعَى له فيها على المنابر ^(١) . وبذلك فتح المعتمَصم الباب لقواد الترك كي يمسكوا بزمام الشئون الإدارية بجانب ما أمسكوا به من زمام الشئون العسكرية . وخلفه ابنه الواثق فزاد الطين بِلَّةً إذ وُلِّى إشناس من يابه في بغداد إلى آخر أعمال المغرب ، جاعلا له أمر كل هذه البلدان يوَلِّى عليها من شاء بدون مراجعته ، واستخلفه على السلطنة وألبسه وشاحين بجوهر ^(٢) . وإيس ذلك فحسب ما أسبغه على الترك ، فقد وُلِّى على الجانب الشرقي للدولة من كُورْدَجلة حتى خراسان والسند « إيتاخ » ^(٣) حتى إذا تَوَلَّى إشناس سنة ٢٣٠ منحه مَرْتَبته وأكثر أعماله ^(٤) . ولم يقف تجنُّى الواثق على الخلفاء من بعده عند هذا الحد ، فقد ارتكب خطأ خطيراً في حقهم بانصرافه عن اتخاذ ولي عهد بعده للخلافة ، وسرعان

(١) النجوم الزاهرة ٢/ ٢٢٩ .

(٢) اليعقوبي ٢/ ٢٠٥ .

(٣) اليعقوبي ٢/ ٢٠٦ .

(٤) اليعقوبي (طبعة النجف) ٢/ ٢٠٥ .

والنجوم الزاهرة ٢/ ٢٥٢ .

ما استغلّ قوادُ الترك : إيتاخُ وصاحباه وصيفُ وبُغا الكبير هذه الفرصة حين توفى سنة ٢٣٢ للهجرة ، إذ حملوا رجال الدواة على البيعة للمتوكل ، وكان ذلك نذير شؤم إذ أصبحت تولية الخلفاء فيما بعد بيد الترك ، وعمّا قليل سيصبح عزهم — كما سنرى — بأيديهم ، وبذلك يتحول إليهم السلطان جميعه ، ونصبح منذ خلافة المتوكل بإزاء عصر جديد هو العصر العباسي الثاني .

ويبدو أن المتوكل تنبّه — منذ استيلائه على الحكم — إلى خطورة ازدياد النفوذ التركي ، مما دفعه إلى التخلص سريعاً من إيتاخ ، وكان قد صار إليه أمر الجيش والأتراك والمغاربة والموالى وديوان الخبر أو البريد والحجابة والقيام على دار الخلافة ، وكأنه نائب للخليفة ، بل لكانما أصبح الخليفةُ ولا سلطان له ، مما جعل المتوكل يوحى إلى بعض أوليائه أن يشيروا على إيتاخ بالاستئذان للحج ، وما إن خرج من سامراء وأبعد في الطريق إلى مكة حتى عزله المتوكل عن الحجابة وولاها وصيفاً تركي^(١) . وهي سياسة سيتبناها الخلفاء بعد المتوكل أن يضربوا قواد الأتراك بعضهم ببعض . وعاد إيتاخ من الحج ودخل بغداد فقبض عليه حاكمها بأمر من المتوكل وأودعه غياهب السجون مقيداً بالحديد إلى أن توفى لسنة ٢٣٥ . ولكن المتوكل لم يسدّد للترك ضربة قاضية ، بل أخذ يراوغهم ، مما جعله يضيف بُغا الكبير إلى وصيف في الحجابة . وتوالى السنوات وهو ضيقُ بقيادة الترك ويفكر في التخلص منهم جميعاً ويهديه تفكيره في سنة ٢٤٣ أن يترك سامراء ويتخذ دمشق حاضرة له ، حتى يصبح بمنأى عن الترك وشروهم ، ويَسَخِّصُ إليها في ذى القعدة ، ويبدو أن فكرته ذاعت في الناس مما جعل يزيد بن محمد المهلبى ينشد من قصيدة طويّة^(٢) :

أظنّ الشام تَشُمّت بالعراقِ إذا عزم الإمامُ على انطـلاقِ
فإن تدعِ العراقَ وساكنيها فقد تُبلى المليحةُ بالطلاقِ

ودخل المتوكل دمشق في صفر لسنة ٢٤٤ عازماً على المقام بها ونقل دواوين الخلافة إليها ، وأمر أن يُسَنَّى له بها بعض القصور . غير أن الترك فطنوا لمأربه ، وأنه يريد الإطاحة بهم فطالبوا برواتبهم ، وهو سيف سيظلون يشهرونه على الخلفاء

(٢) الطبرى ٢٠٩/٩ .

(١) تاريخ الطبرى (طبع دار المعارف)

١٦٧/٩ وما بعدها .

كلما أرادوا منهم أمراً أو أرادوا لهم عزلاً ، واضطر المتوكل أن ينزل على إرادتهم وأن يبرح دمشق بعد نحو شهرين^(١) . وعاودته الفكرة ، ولكن لا بعيداً ، بل قريباً ، شمالى سامراء ، إذ فكر في انتقاله إلى الماحوزة على بعد ثلاثة فراسخ منها وأقطع القواد وحواشيه فيها ، وسماها « الجعفرية » ، وبني لنفسه فيها قصره « الجعفرى » وقصراً سماه « لؤلؤة » وقصوراً أخرى . وفى أثناء ذلك أخذ يجفئ الترك ويجيل الآراء فى استئصالهم والاستبدال بهم ، وكان أول ما صنعه من ذلك أن ضمَّ إلى وزيره عبيد الله بن يحيى بن خاقان اثنى عشر ألفاً من العرب^(٢) ، وكأنه يريد أن يعيد العرب إلى الجيش وقيادته . وترامت شائعات بأنه يريد أن يفتك بحاجبيه وصيف وبُغا الكبير وغيرهما من قواد الترك ، فصمَّوا على مبادرته ، وكانت الأور قد ساءت بينه وبين ابنه المنتصر ولى عهده ، فوضع يده فى أيديهم ، وعزموا على قتله والتخلص منه ، وأعدوا لذلك نفرّاً من أصاغر الترك . منهم بُغا الشراى وباغر وموسى بن بُغا الكبير فدخلوا عليه هو ووزير الفتاح بن خاقان فى ليلة من ليالى شوال سنة ٢٤٧ للهجرة ، وقتلوهما غير مراعين فيهما عهداً ولا ذمة^(٣) . ومن حينئذ أصبح للترك كل شىء فى الدواة ولم يعد للخلفاء شىء ، وفى ذلك يقول ابن الطقطقى : « استولى الأتراك منذ قتل المتوكل على المملكة ، واستضعفوا الخلفاء ، فكان الخليفة فى يدهم كالأسير ، إن شاءوا أبقوه ، وإن شاءوا خلعه ، وإن شاءوا قتلوه »^(٤) .

واعلى المنتصر عرش الخلافة بأيدى قتلة أبيه من الترك ، بايعوه ثم أخذوا له البيعة من الناس ، ولم يلبثوا أن حضّوه على خلع أخويه المعتز والمؤيد من ولاية العهد بعده ، وكان المتوكل أبرمها لهما مع المنتصر ، فخشى الترك أن يخلفه أحدهما فبيطش بهم ثاراً لأبيه ، وتسمَّ خلعهما . وتوفى المنتصر بعد ستة أشهر من خلافته لسنة ٢٤٨ فاجتمع بُغا الكبير وبُغا الصغير وأوتامش ابن أخت بُغا الكبير ، وكانوا قد أخذوا المواثيق على مَنْ سواهم من قواد الترك والمغاربة والأشروسنة على

(١) مروج الذهب للمسعودى (طبعة دار

الأندلس) ٣٢/٤ والطبرى ٢١٠/٩ .

(٢) التنبيه والإشراف للمسعودى (طبعة أوروبا)

ص ٣٦١ .

(٣) طبرى ٢٢٥/٩ .

(٤) الفخرى فى الآداب السلطانية (طبع

المطبعة الرحمانية بمصر) ص ١٨١ .

أن يرتضوا من يرضونه للخلافة، واختاروا أحمد بن محمد بن المعتصم وأقبوه بالمستعين، وبايعوه وبايعه الناس. وتوفي بَغَا الكبير وأصبح أوتامش المتصرف الأول في شئون الدولة، وأخذ يختزن أموالها هو وشاهك وأم المستعين، فكل ما يرد من الآفاق يصير إلى الثلاثة، ووصيف وبَغَا الشرايى الصغير بمعزل من ذلك مما أثار حفيظتهما على أوتامش وجعلهما يغريان به القواد الآخرين حتى ثاروا عليه وسفكوا دمه وانتهبوا داره^(١). واستدارا إلى باغر قاتل المتوكل، وكان شره قد تعاظم في قصر الخلافة فقتلوه بدوره. وسُم المستعين حركات الترك ودساتهم، فرأى النزول إلى بغداد والاستقرار بها، وجزعوا لصنيعه، فأرسلوا إليه وفدأ يسترضيه سنة ٢٥١، ولكنه رفض العودة إلى سامراء، فخلعوه، وبايعوا المعتز بالله ولى العهد القديم للمتوكل بعد المنتصر، فكان هناك خليفة مولى بسامراء وخليفة معزول ببغداد، هو المستعين، ونشبت الحرب بينهم وبينه، وحاصروا بغداد، وما زالوا به حتى خلع نفسه من الخلافة وانحدروا به إلى «واسط» وهناك تم تدبير قتله^(٢). وبذلك أصبحت الخلافة خالصة للمعتز سنة ٢٥٢ وسمع بأن نفرأ من الترك يراودون أخاه المؤيد على تولي الخلافة وعزله، فسجنه ثم فتل به. وأخذ يحاول الفتك بقواد الترك مستثيراً ضدهم المغاربة والفراغنة، وفتك بوصيف وبَغَا الشرايى الصغير قاتل أبيه، يقول المسعودى: «ولما رأى الأتراك إقدام المعتز على قتل رؤسائهم وإعماله الحيلة في إفنائهم وأنه قد اصطنع المغاربة والفراغنة صاروا إليه بأجمعهم لأربع بقين من رجب سنة خمس وخمسين ومائتين وجعلوا يقرعون بذنوبه ويوبخونه على أفعاله وطالبوه بالأموال (رواتبهم) وكان المدبر لذلك صالح بن وصيف مع قواد الأتراك^(٣). وأرسلوا تسواً إلى بغداد في طلب محمد بن الواثق، وأمروا المعتز بأن يخلع نفسه من الخلافة وصدع بأمرهم، وبايعوا محمداً ولقبوه بالمهتدى، وسجنوا المعتز ثم قتلوه سريعا. وحاول المهتدى أن يسير سيرة عمر بن عبد العزيز في العدل ورفع المظالم والاقتصاد في النفقات، ويقال إنه أمر بإخراج آنية الذهب والفضة من الخزائن فكسرت وضربت دنانير ودراهم، وقرب العلماء ورفع منازل الفقهاء وحرّم الشراب ونهى عن القيان فثقلت وطأته على الخاصة والعامة. وكان قد مضى مثل ابن عمه المعتز يفتك برؤساء الأتراك وقادتهم

(٣) مروج الذهب ٩٣/٤ .

(١) طبرى ٢٦٣/٩ .

(٢) طبرى ٣٤٨/٩ ومروج الذهب ٧٧/٤ .

وفي مقدمتهم صالح بن وصيف وبايكباك أسد زعمائهم ، فقتلوه في رجب (١) سنة ٢٥٦ .

ويتولى الخلافة المعتمد أحمد بن المتوكل ، ببايعه الترك ثم تبايعه العامة ، وكانت ثورة الزنج قد نشبت في عصر المهدي ، وعبثاً استطاع قواد الترك أن يُجهزوا عليها ، إذ استفحل شرها وتفاقم ، فضعف شأنهم من جهة ، وشغلوا من جهة ثانية عن لعبهم المعتاد بالخلفاء ، وخلد معهم وسفك دمائهم . ويتاح للمعتمد ودولته قائد عظيم من أهل بيته هو أخوه أبو أحمد طلحة الملقب بالموفق فيفقد بنفسه المعارك مع الزنج ومع من ثاروا بإيران ويكتسب له الظفر والقضاء على الزنج قضاءً مبرماً ، وبذلك يرد إلى الخلافة العباسية هيبتها ، ويحظى الترك رعوهم لها ولا يعود نسمع بفتنة حجاب الخليفة عليه وتديرهم لخلعه ، وكانوا حينئذ يارجوخ وكيغلق وكنمر بن طاشتمر ، وقد ظلوا جميعاً يصدعون لأوامره وأوامر أخيه الموفق حتى توفيا جميعاً ، وبويع من بعده لسنة ٢٧٩ ابن أخيه الموفق أبو العباس أحمد ولقب بالمعتضد ، وكان قد أبلى مع أبيه في حرب الزنج وغيرها من الحروب بلاء حسناً فهاهه الترك وقوادهم ، ونراه في سنة ٢٨٢ يقبض على كبيرهم بكنمر بن طاشتمر ويسجنه ويصادر أمواله وضياعه ولا يحركون ساكناً رهبة منه وهيبة له (٢) ، وظلوا من بعده خائعين لابنه المكتفي الذي ولي الخلافة سنة ٢٨٩ غير أنه اقترف خطأ فاحشاً إذ ارتضى أخاه المقتدر وهو صبي ولياً للعهد من بعده ، وكان حريماً به أن يجعل ولاية العهد في شخص حصيف من أهل بيته يستطيع أن يقف الترك وقادتهم عند حد من السلطان لا يتجاوزونه . وتوفي سنة ٢٩٥ فخلفه المقتدر وهو في الثالثة عشرة من عمره ، وعظم كلام الناس فيه ، وقالوا كيف يلي الخلافة من لم يبلغ الحلم ، وأجمع أمرهم على أن يتولاها عبد الله بن المعتز ، وأخذ له البيعة على الناس محمد بن داود ابن الجراح الفقيه والأديب المشهور ، وبايعه القضاء والعدل ، وتلقب بالمنتصف وقيل بالراضى وقيل بالقائم بالحق وتقلد ابن الجراح الوزارة ولكن الأمر لم يدم له أكثر من يوم وليلة ، إذ ثار الترك عليه يتقدمهم كبيرهم مؤنس ، وأخذ عنوةً وقتل ، وتفجع عليه كثير من الشعراء . أما ابن الجراح فاستمر مدة ثم انكشف أمره ،

(١) طبرى ٤٥٦/٩ وروج الذهب ٩٦/٤ . (٢) طبرى ٤٠/١٠ .

وقُتِل بدوره ، وعادت الخلافة إلى المقتدر^(١) ، وعاد الترك إلى نفوذهم القديم قبل المعتمد وأخيه الموفق . وزاد الأمور سوءاً أن أم المقتدر « شغب » وهى أم ولد رومية شربت مؤنساً فى تصريح شئون الحكم والسياسة ، فكانت الوزارة لا تُسند إلى شخص فى عام حتى ينحى عنها فى عام قابل ، ودارت الأيام ، فإذا مؤنس يسخط على المقتدر وتعود مع السخط قصة رواتب الجند ، ويتفاقم الأمر بينهما فى سنة ٣١٧ ويُعزَل الخليفة ويؤاى أخوه محمد ويلقب بلقب القاهر بالله ، ويُرْتَقى الفتق بين مؤنس والمقتدر فيعيد به إلى الخلافة ويجدد له البيعة^(٢) . وما تلبث السماء أن تكفور ، فيعود الصدام بين مؤنس والمقتدر ، ويُقتل الخليفة سنة ٣٢٠ ويولى مؤنس الخلافة بعده القاهر بالله ، وكان شجاعاً غير أنه كان أحق أهوج شديد الإقدام على سفك الدماء ، وكان لا يكاد يصحو من سكر ، ومع ذلك حرم على الناس الخمر والسباع ، واستطاع القضاء على مؤنس ونفر من القواد^(٣) ففسد ما بينه وبين الترك وسرعان ما خلعه سنة ٣٢٢ وسملوا عينيه^(٤) ، وبايعوا بعده الراضى بالله أبا العباس أحمد بن المقتدر ، وظل يلى الخلافة حتى توفى سنة ٣٢٩ . وفى عهده تغلب أصحاب السيوف ولم يعد للخليفة سوى الاسم . وكان شاعراً بليغاً سمحاً واسع الغطاء مات وهو فى الثانية والثلاثين من عمره ، وخلفه أخوه المتقى بالله ، وكان تقياً صالحاً ، إلا أنه لم يكن على بصر بالحكم والسياسة ، فحدثت فى زمنه فن وحروب كثيرة بين الجند ونهبت دار الخلافة ، وقُبض عليه لسنة ٣٣٣ وخُلِع وسُملت عيناه^(٥) . وتولاها بعده المستكنى بالله ابن المكتفى ، ولم يكد يدور به عام فى خلافته حتى نزل معز الدولة البويهى بغداد ، فلقبه المستكنى بأمر الأمراء وأعطاه الطوق والسوار وآلة السلطنة وعقد له لواء . غير أن معز الدولة لم يلبث أن أمر بالقبض عليه ، فخلع من الخلافة ونهبت داره وسُملت عيناه^(٦) ، وبذلك ينتهى العصر العباسى الثانى بدخول البويهيين الفرس بغداد وزوال تسلط الترك وقوادهم على مقاليد الحكم دون مأب .

- (١) طبرى ١٠/١٤٠ - ١٤١ .
 (٢) تكملة تاريخ الطبرى للهمدانى (طبع المطبعة .
 الكاثوليكية ببيروت) ص ٥٨ .
 (٣) مروج الذهب ٢٢١/٤ والهمدانى ص ٧٨ .
 (٤) مروج الذهب ٢٢١/٤ والفخرى ص ٢٠٥ .
 والهمدانى ص ٨٠ .
 (٥) الفخرى ص ٢١٠ ومروج الذهب ٢٤٧/٤ .
 والهمدانى ص ١٤٣ .
 (٦) مروج الذهب ٢٧٦/٤ والفخرى ص ٢١٢ .
 والهمدانى ص ١٤٩ .

تدهور الخلافة

رأينا الترك يسيطرون على أداة الحكم بعد مقتل المتوكل في السنوات الثمان التي تلتها، ثم منذ عصر المقتدر، إذ كانوا هم الحكام الحقيقيين للدولة، ولم يكن للخلفاء حينئذ أى سلطان، ومن أين يأتيهم السلطان والترك يولّونهم ويعزّونهم بل يسفكون دماءهم وكل ما يأتون من الأمر أو يدعون فإنما هو بتدبيرهم؟ وصور ذلك بعض الشعراء لعهد الخليفة المستعين (٢٤٨ - ٢٥٢ هـ)، فقال (١):

خليفةٌ في قَفَصٍ بين وصيفٍ وبُغا
يقول ما قالوا له كما يقول الببغا

فالخليفة حينئذ كان أشبه ما يكون بببغاء في قفص يردّ ما يقوله مخاطبه ولا أمر يملكه، فالأمر كله لحاجبيه: وصيف وبغا، حتى إذا دارت فكرة خلعه بذهنيهما خلعه، وولّيا بعده المعتز بالله (٢٥٢ - ٢٥٥ هـ) ويروى أنه لما جلس على سرير الخلافة أحضر أصحابه المنجمين وسألوهم كم يظل خليفة للمسلمين؟ وكم يعيش؟ وكان بالجلس بعض الظرفاء فقال: أنا أعرف من هؤلاء المنجمين بمقدار خلافته وعمره، فقالوا له: فكم تقول إنه يعيش؟ وكم يملك؟ فقال: طالما أراد الترك ذلك، فلم يبق في المجلس أحد إلا غلبه الضحك (٢). ولم يمكث المعتز في دست الخلافة سوى ثلاث سنوات إذ سرعان ما خلعه الترك وسفكوا دمه، وولوا بعده المهتدى (٢٥٥ - ٢٥٦ هـ) وكان حسن السيرة ورعاً تقيّاً اطرح الملاحى وحرّم الشراب والغناء، وكأنما آذت الترك سيرته الطاهرة فخلعوه، وولوا المعتمد (٢٥٦ - ٢٧٩ هـ)، وكان منهمكاً في اللهو واللذات غير أن أخاه طلحة الذى لُقّب بالموفق نهض بالأمر من دونه فثبّت الخلافة إلى أبعد حد، وأعاد إليها مجزموه وعزمه وجده هيبته ومكانتها المهدرة، وقد ترك

(٢) الفخرى ص ١٨١.

(١) مروج الذهب ٦١/٤.

أخاه عاكفًا على ملذاته ، واحتمل أعباء الخلافة في البطولة والحرب والنفوذ من المشكلات الصعاب ، بحيث أصبح هو الخليفة الحقيقي ، أما أخوه المعتمد فلم يكن له من الخلافة سوى الاسم وصور ذلك بنفسه قائلاً (١) :

أليس من العجائب أن مثلي يرى ما قل ممتنعاً عليهِ
وتؤخذُ باسمه الدنيا جميعاً وما من ذاك شيء في يديهِ

وتصادف أن توفي الموفق قبل المعتمد بقليل وكان ولياً للعهد ، فجعل المعتمد ولاية العهد لابنه المعتضد وكان مثل أبيه بطلاً مغواراً ، فولى الخلافة بعد عمه المعتمد (٢٧٩ - ٢٨٩) ، فأكمل لها ما أحاطها به أبوه من العزة والمهابة ، فلم يرتفع للترك في عهده صوت ، وكان اسمه - كما مرّ بنا - أبا العباس أحمد فتلقب بالمعتضد بالله ، وفيه يقول ابن تغرى بردى : « كان المعتضد شجاعاً مهيباً أسمى نحيفاً معتدلاً الخلق ظاهر الجبروت وافر العقل شديد الوطأة من أفراد رجالات بني العباس وشجعانهم ، كان يتقدم إلى الأسد وحده » ، ويقول : « هو آخر خليفة عقد ناموس الخلافة ثم أخذ أمر الخلفاء بعده في إدبار » (٢) . وخلفه ابنه المكتفي (٢٨٩ - ٢٩٥ هـ) وكان قصير النظر فاتخذ ولي عهده أخاه المقتدر وهو لا يزال صبيّاً ، فولى بعده الخلافة (٢٩٥ - ٣٢٠ هـ) ، وسنه ثلاث عشرة ، فكان كل ما أحكمه جده الموفق وأبوه المعتضد قوّضه في لحظات ، فبمجرد أن تسلم مقاليد الحكم وهو غلام عاد للترك سلطانهم وطغيانهم وعاد معهما الخلع وسفك الدماء ، وزادوا ستملّ الأعين .

وإذا كان المكتفي أخطأ في أواخر العصر بتولّى أخيه المقتدر للعهد وهو صبي فلن المتوكل اقترف بدوره خطأ عظيماً في أوائل العصر ، إذ عقد ولاية العهد لثلاثة من أبنائه (٣) ، وكان حريّاً به أن يتعظ بجده الرشيد وتوايته العهد للأمين والمأمون والقاسم ، مما جرّ بلاء كبيراً ذهب ضحيته الأمين وأحرقت بغداد على نحو ما مرّ بنا في كتاب العصر العباسي الأول ، فكان حريّاً بالتوكل ألا يعرض أبنائه

(١) الديارات للشابشي (الطبعة الثانية - مطبعة . (٣) طبرى ١٧٥/٩ وروج الذهب ٥/٤

والنجوم الزاهرة ٢٨٠/٢

المعارف ببغداد) ص ١٠١ .

(٢) النجوم الزاهرة ١٢٧/٣ - ١٢٨ .

للتنافس على الخلافة ، وكان المنتصر أولهم في الولاية ، ويليه المعتز والمؤيد ، فأوغر المتوكل صدره حتى أصبح خصماً له . وإذا كانت حادثة الرشيد جرّت مقتل ابنه الأمين فإن صنيع المتوكل أدى إلى مقتله وسفك دمه . وكأن المتوكل هو الذى هباً للترك أن يغلبوا على الخلافة وأن يصبحوا هم أصحاب السلطان الحقيقى يؤثرون ويعزلون ويستجنون ويقتلون ، وتمادوا فى ذلك حتى ردّ الموفق إلى الخلافة مهاجتها ، وتبعه فى صنيعه ابنه المعتضد ، ولكن لم يلبث المكتفى أن هوى بها من حائق ، فعاد إلى الترك كل سلطانهم وكل بغيهم وعدوانهم على الخلافة والخلفاء .

وكان من أهم الأسباب فى تدهور الخلافة العباسية أن كثرة الخلفاء انغمست فى اللهو والترف والإقبال على كل متاع مادية من بناء قصور باذخة ومعيشة كُفّلت لها كل وسائل النعيم وأدواته ، وأولهم المتوكل ، ونراه لا يبنى لنفسه بسامراء قصرأ واحداً ، بل قصوراً ينفق عليها أموالاً طائلة ، منها الشاه والعروس والشبذاز والبديع والغريب والبرج ، ويقال إنه أنفق على القصر الأخير مليوناً وسبعمائة ألف دينار . وبنى فى سنة ٢٤٦ بالماحوزة على بعد ثلاثة فراسخ من سامراء شمالاً قصوراً عدة ، منها الجعفرى والهارونى واللواؤة ، كلفته ملايين الدنانير ^(١) . ويروى أنه سأل شخصاً حين أتمّ بناء الجعفرى كيف قولك فى دارنا هذه ؟ فأجابه بقوله : إن الناس بنوا الدور فى الدنيا وأنت بنيت الدنيا فى دارك ^(٢) ، وهو سقّةٌ وخرقٌ ، فالخليفة لا يفكر إلا فى نفسه وملذاته ، وكأن ليس هناك جيوش تُعدّ للحرب بأسلحتها وعددها الكثيرة ، وكأن ليس هناك رعية يقوم الخليفة على مصالحها ، فيبنى لها المستشفيات ويوفر لها الغذاء والكساء ، بل الرعية تكدح وتشقى وتدق مرارة الشقاء والكدح لينعم الخليفة ويلهو ويبنى القصور ويملاها بالجواري من كل لون . وتبع الخلفاء المتوكل يقتنون بسيرته السيئة ، ما عدا المهتدى والمتقى وكانت مدة خلافتها قصيرة ، وحتى المعتضد الفارس الحازم حزمًا لا يدايه حزم يقول عنه المسعودى لم تكن له رغبة إلا فى النساء والبناء ، ويذكر أنه أنفق على قصره المعروف بالثرى أربعمائة ألف دينار ، وكان مجموعة من الدور والقصور تمتد ثلاثة فراسخ ^(٣) ، ثم تكون النكبة الكبرى بتولى المقتدر الخلافة وهو صبي ، ويقال إنه كان فى قصره أحد عشر

(٢) مروج الذهب ٤/١٤٧ .

(٣) مروج الذهب ٤/١٤٥ .

(١) معجم البلدان فى سامراء والطبرى ٩/٢١٢ .

ومروج الذهب ٤/٤٠ والنجوم الزاهرة ٢/٣٢٠ .

ألف غلام خصي من الروم والصقالبة والسودان ، ويقال أيضاً إنه أتلف من الأموال ثمانين مليوناً من الدنانير ^(١) غير ما بدّده من الجواهر الثمينة التي كانت تحتفظ بها خزائن الدولة منذ خلفائها الأولين .

وطبيعي أن يقضى هذا السفه على هيئة الخلافة وأن يستلها الترك وخاصة حين يطلبون للجيش رواتبه فيجدون الخزينة خالية الوفاض . وقد فسد حينئذ الحكم فساداً شديداً ، إذ كان الوزراء يرتشون ومثلهم الولاة على الأقاليم وكبار الكتاب ، بل إنهم جميعاً كانوا يختلسون أموال الخراج والضرائب وما كان يصير إلى الدولة من البلدان المختلفة ، وقد بدأ هذا الوباء بأخرة من العصر العباسي الأول في زمن الواثق إذ صادر في سنة ٢٢٩ للهجرة كتاب الدواوين واستخلص منهم نحو مليوني دينار ^(٢) ، وكلما تقدمنا في العصر العباسي الثاني اتسع الخرق ولم يعد من الممكن رتقُه ، ولذلك مظهر واضح هو كثرة المصادرات لأموال الوزراء والكتاب ، إذ نرى المتوكل يصادر أموال ابن الزيات وزير آبائه ، ويصادر أموال كاتبه عمر بن الفرج الرُّخَجِيّ . ويقال إنه أخذ من أمواله ما قيمته مائة وعشرون ألف دينار وأخذ من أخيه نحو مائة وخمسين ألفاً ^(٣) ، ونكب كاتباً ثانياً استوزره مدة قليلة يسمى أبا الوزير واستخلص منه مائتي ألف دينار ^(٤) ، ونكب كاتباً ثالثاً من كتاب التوقيع يسمى نجاح بن سلمة وأخذ منه ومن ابنه مائة وأربعين ألف دينار ^(٥) ، ونكب القاضي أبا الوايد محمد بن أحمد بن أبي دؤاد واستخلص منه مائة وستين ألف دينار ^(٦) ، ونكب يحيى بن أكرم قاضي قضاته واستخلص منه خمسة وسبعين ألف دينار ^(٧) . وأثرى قواد الترك في السنوات التي تلت ثراء فاحشاً وأثرى كثير من الوزراء ، ونرى المعتمد يصادر أموال وزيره إسماعيل بن بلبل ويسفك دمه كما يصادر أموال وزيره سليمان بن وهب وابنه عبيد الله ويستخلص منهما تسعمائة ألف دينار ^(٨) .

ومعنى ذلك أن الوزراء ومثلهم الكتاب والولاة كانوا يختلسون أموال الدولة والأمة ، ويخيّل إلى الإنسان أنه لم يعد هناك موظف كبير في الدولة لا يقترف

(٥) طبرى ٢١٥/٩ .

(١) النجوم الزاهرة ٢٣٤/٣ .

(٦) مروج الذهب ١٤/٤ .

(٢) طبرى ١٢٥/٩ .

(٧) طبرى ١٩٧/٩ .

(٣) طبرى ١٥٨/٩ ومروج الذهب ١٩/٤ .

(٨) النجوم الزاهرة ٤٠/٣ .

(٤) الفخرى ص ١٧٧ .

هذه الجريمة النكراء . وكان الولاة يرشون الوزراء ليظلوا في ولاياتهم ، وبلغت الرشوة أحياناً مائتي ألف دينار غير ما يرافقها من التحف والهدايا^(١) ، وحتى رجال الحسبة كانوا يرتشون ويختلسون الأموال ، في أثناء مراقبتهم للتجار وحركة البيع والشراء في الأسواق على نحو ما يروى عن أحمد بن الطيب بن مروان السرخسي الفيلسوف ، إذ خان الأمانة في ولايته الحسبة ببغداد ، وكان جملة ما أخذه مائة وخمسين ألف دينار^(٢) . ولا نبالغ إذا قلنا إنه كان يتورط في هذا الاختلاس وما يطوى فيه من الرشوة أكثر موظفي الدولة ، وخاصة من كانوا منهم يقومون على جباية الضرائب وأموال الخراج ، وكثيراً ما كانوا يعدّون أصحاب الضياع والأعيان وذوى الوجاهة بالضرب والسحب على الوجوه والرسف في القيود وصَبّ الزيت على رؤسهم أو النقط وتعليقهم في الجُدر من أيديهم وأرجلهم ، حتى يستخرجوا منهم كل ما يريدون من أموال ، ويصور ذلك ابن المعز في أرجوزته^(٣) التي أرخ فيها خلافة المعتضد وأعماله الجليلة مبيّناً كيف كانت تجبى أموال الخراج قبله في قسوة بل في عنف بل في أهوال من التعذيب والتنكيل ، يقول :

فَكَمْ وَكَمْ مِنْ رَجُلٍ نَبِيلٍ	ذِي هَيْبَةٍ وَمَرْكَبٍ جَلِيلٍ
رَأَيْتُهُ يُعْتَلُّ بِالْأَعْوَانِ	إِلَى الْحُبُوسِ وَإِلَى الدِّيَوَانِ
وَجَعَلُوا فِي يَدِهِ حَبَالًا	مِنْ قَنْبٍ يَقَطُّعُ الْأَوْصَالَ
وَعَلَّقُوهُ فِي عُرَى الْجِدَارِ	كَأَنَّهُ بَرَادَةٌ فِي الدَّارِ
وَصَفَّقُوا قَفَاهُ صَفَقَ الطَّبْلِ	نَضْبًا بَعِينَ شَامِتٍ وَخِلٍ
وَصَبَّ سَجَانُ عَلَيْهِ الزَّيْتَا	فَصَارَ بَعْدَ بَرْقَةٍ كَمَيْتَا

ويمضى ابن المعز فيذكر أنهم ما يزالون يعدّون المرء بصنوف العذاب حتى لا تبقى فيه قدرة على المقاومة ، فيتوسل إليهم أن يعرضوه على التجار كي يقرضوه بعض أموالهم ، أو حتى يبيعهم بعض عقاره ، وأن يؤجلوه لذلك خمسة أيام ، وبعد لأي يجعلونها أربعة ، ويأتيه أصحاب الربا الفجرة ، فيقرضونه واحداً

(٣) انظر الديوان (طبعة دار صادر بيروت)

(١) الفخرى ص ١٧٨ .

(٢) مروج الذهب ١٧٠/٤ .

بعشرة ، ويكتبون عليه صكاً بأنه باع ضيعته ، وينزل على إرادتهم ، حتى يخلص من هذا التعذيب الذى لا يطاق بدفع ما يريده أرباب الخراج . ويقول ابن المعتز إن المعتضد أزال هذا التعذيب وقمع هذا الظلم الصارخ ، ولكنه كان قمعاً إلى أجل محدود ، إن كان حقاً قمعه أو استطاع قمعه . ويصور لنا ابن المعتز كيف كان هؤلاء الحباة يبتزون أموال التجار أصحاب الجواهر والأموال العريضة ، وخاصة من كانت له معاملات منهم مع الدولة ، فقد كانوا يدعون عليه أن للسلطان عنده ودائع يجب أن يردها ، وكانوا لا يزالون يتفننون فى تعذيبه :

حتى إذا ملَّ الحياةَ وضَجِرَ وقال ليت المال جمعاً فى سَقَرِ
أعطاهم ما طلبوا فأُطْلِقَا يستعمل المشى ويمشى العنقا

والعنقُ مشية سريعة ، وكأنه يخشى أن يردوه إلى التعذيب ، فهو يطير طيراناً . وويل لمن كان يرث عن أبيه ميراثاً ضخماً ، فقد كانوا يحاولون الاستيلاء على ميراثه بطرق شتى ، إذ يسجنونه ، ويطلبون إليه أن يثبت أنه ابن المتوفى ، وما يزالون يضربونه ويلكمونه ويصفعونه ، يقول ابن المعتز :

وأسرفوا فى لَكمِهِ ودفعِهِ وانطلقت أكفُهُم فى صَفْعِهِ
ولم يزل فى أَضيقِ الحُبُوسِ حتى رى إليهم بالكيسِ

وكاننا لم نعد بإزاء دولة تحكم بقوانين الشريعة الإسلامية ، وإنما أصبحنا بإزاء لصوص ومختلسين وقطاع طرق . وما إن نجم عصر المقتدر على صدر الأمة حتى يفسد الحكم فساداً لا حد له ، وقد استوزر اثني عشر وزيراً منهم من وزر له المرتين والثلاث ، أولهم ابن الفرات ، ويروى أنه حاسب كتّاب العطاء فوجد لهم خيانة بلغت نحو مائة ألف دينار ^(١) ، ولم يلبث المقتدر أن صادره فى سنة ٢٩٩ واستولى على أمواله وإقطاعاته ، فاجتمع له نحو سبعة ملايين من الدنانير ^(٢) ، ومع الشك فى أمانته على هذا النحو نراه يعود إلى الوزارة حتى إذا توفى فى سنة ٣١٢ وجد له من الدنانير ما يزيد على عشرة ملايين ^(٣) . وولى الوزارة بعد إقالته الأولى منها

(١) صلة تاريخ الطبرى لعريب ص ٢٥ .

(٣) النجوم الزاهرة ٢١٢/٣ .

(٢) عريب ص ٢٦ .

الخائف، وكان سيء السيرة، فأخذ يبيع الولايات غير مراعى الأمانة عهداً ولا ذمة، ويقال إنه ولّى على الكوفة في يوم واحد تسعة عشر والياً أخذاً من كل واحد منهم رشوة حسبما تيسر، وفيه يقول بعض معاصريه^(١):

وزيرٌ لا يملُ من الرِّقَاعَةِ يولّى ثم يعزل بعد ساعة
إذا أهلُ الرُّشَا صاروا إليه فأحظى القوم أوفرهم بضاعة

ونعجب أن تُدرّ إقتلاعات الوزير في عهد المقتدر مائة وسبعين ألف دينار سنوياً^(٢)، ولا يكفيه هذا الراتب الضخم ويختلس ويسرق أموال الدولة والأمة حتى يصبح من ذوى الملايين. وبذلك نفهم كيف كان بعض الوزراء حينئذ يبذل في سبيل حصوله على الوزارة خمسمائة^(٣) ألف دينار، مؤملاً أن يستردها في أسرع وقت. ويروى أن حامد بن العباس حين وزر للمقتدر أهداه بستاناً أنفق عليه مائة ألف دينار وفرشه باللبود الخراسانية^(٤). واستوزر المقتدر بعده ابن الفرات ثانية، فاستخلص منه مليوناً وثلاثمائة ألف، ويقال إنه كان ينفق على موائده يومياً مائتي دينار^(٥)، في حين كان المستكنى ينفق بأخرة من العصر على مائده كل يوم خمسين ألف درهم^(٦). وكان الولاة يستنّون سنة الوزراء في نهب الأموال واختلاسها^(٧).

وبهذه الصورة كانت أموال الدولة تُخْتَلَسُ وتُسَهَبُ، ينهبها ويختلسها الولاة والكتّاب والوزراء، ينعمون ويتزوّنون، والشعب يتمرّع في البؤس والحرمان والشقاء، وكأنما تعطلت أداة الحكم، بل لقد فسدت فساداً لا يتقف عند حد. وكان مما زاد في هذا الفساد غلبة النساء على الحكم، فكان كثيراً ما يصرفنه بحسب أهوائهن، وكن يقتنين الجواهر الباهظة الأثمان والضياع والمقارن والأموال الطائلة، حتى يقال إن المستعين مات وفي خزائن الدولة نحو نصف مليون دينار، على حين كان في خزائن أمه مليون دينار كاملة^(٨)، وكانت أم المعتز أكثر منها جشعاً، ويقال إن

- | | |
|---------------------------------|--------------------------------|
| (١) الفخرى ص ١٩٨ وعريب ص ٢٩-٣٠. | (٦) الهمداني ص ١٤٨. |
| (٢) الهمداني ص ٥١. | (٧) النجوم الزاهرة ١٨٣/٣ وعريب |
| (٣) الفخرى ص ٢٠٢. | ص ٣١ والهمداني ص ١٣. |
| (٤) الهمداني ص ٢٢. | (٨) طبرى ٢٨٤/٩. |
| (٥) الهمداني ص ٣٦. | |

قواد الترك طلبوا من ابنها قبل قتله خمسين ألف دينار ، فلم يجدها في خزائن الدولة ، ففزع إليها يطلب منها أن تقرضه هذا المبلغ ، حتى يَسْقُدَ نفسه به من القتل ، فأُنكرت أن يكون عندها مال ، وخُلِعَ ابنها وقُتِلَ بعد أيام ، وصادر أموالها حاجبه صالح بن وصيف ، وملاؤه العجب حين وجد في خزانة لها مليوناً من الدنانير ، غير جواهر قُدِّرَت قيمتها بمليون دينار . ولما رأى وصيف ذلك قال : قُبِّحَها الله ، عرَّضت ابنها للقتل في خمسين ألف دينار يدفعها رواتب للجيش ، وعندها هذا كله في خزانة واحدة من خزائنها ^(١) . وثالثة الدواهي الطامة شغب أم المقتدر ، وهي أم ولد رومية ، كانت تمسك بيديها زمام الأمر والنهي في الدولة ، وكانت تستعين بقهرمانتها ثمل ، وأقعدتها في الرُّصافة كل يوم جمعة للنظر في المظالم ، فكانت تكتب بأحكامها على رقاع الناس بحضرة الفقهاء والقضاة ^(٢) . وأثَّرتْ شغب حتى كان دخلها في العام من غلات ضياعها مليون دينار ^(٣) ، ويقال إنها غضبت على إحدى وصيفاتها ، فاستخلصت ثمل منها مليوناً من الدنانير ^(٤) ، كأن مليون دينار في أيدي نساء القصر وجواريه شيء عادي تتملكه أي وصيفة . وكان المقتدر متلافياً فأنفق أموال الدولة على النساء وأهداهن جواهرها وتحفها النفيسة ، من ذلك إهداؤه الدرة اليتيمة — التي ظل آباؤه يحتفظون بها حقبةً طويلاً — لبعض حطاياه ، وكانت زنتها ثلاثة مثاقيل . وأهدى حظية ثانية سُبُحَةَ جَوهَر لم يُرَ مثلاً ، قيمتها ثلثمائة ألف دينار ، وأهدى حظية ثالثة فَصَّ ياقوت اشتراه الرشيد بثلثمائة ألف دينار ، ويقال إنه أنفق على ختان أبنائه ستمائة ألف دينار ^(٥) . وكان كل ذلك وقع في يد معنوه ، فهو ينثره يميناً وشمالاً . واستولى قواد الترك لعهدده على كثير من الإقطاعات والضيايع ، ويقال إن إقطاعات يانس الموفق المتوفى سنة ٣١١ كانت تغلُّ له سنوياً ثلاثين ألف دينار ^(٦) . وكانت قهرمانة شريفة هي علم الشيرازية تستولى على كل أمور الدولة لعهد المستكني ^(٧) .

وعلى هذا النحو لم يعد الخلفاء يحكمون منذ عهد المقتدر المشنوم ، فقد أصبح

- | | |
|--|-----------------------------------|
| (١) طبري ٣٩٥/٩ والنجوم الزاهرة ١٩٣/٣ . | (٥) الهمداني ص ٦٥ والفخرى ص ١٩٢ . |
| (٢) عريب ص ٥٠ والنجوم الزاهرة ١٩٣/٣ . | والنجوم الزاهرة ٢٣٤/٣ . |
| (٣) النجوم الزاهرة ٢٣٩/٣ . | (٦) عريب ص ٨٠ . |
| (٤) الهمداني ص ٣١ . | (٧) الهمداني ص ١٤٣ . |

الترك والنساء والجند هم الذين يصرفون أمور الدولة ، وعمّ الفساد وانتشرت الدسائس والمؤامرات ، وفسدت أداة الحكم فساداً شديداً ، حتى لنجد أبا جعفر بن شيرزاد حاكم بغداد نيابة عن توزون لعهد الخليفة المتقي يؤمّن ليصاً فاتكاً هو حمدي ، ويشترط عليه أن يدفع له شهرياً خمسة عشر ألف دينار ، في حين يكبس هو بيوت الناس بالمشاعل والشموع وينهب منها ما يريد من الأموال والجواهر . ويستظهر ابن تغرى بردى أن هذا اللص هو الذي سُمّي عند العامة في سالف الأعصار أحمد الدنف ، وقصته في ألف ليلة وأيلة مشهورة (١) .

وهيّا ذلك منذ أوائل العصر لا إلى نهب الأموال والجواهر فحسب ، بل إلى نهب الأقاليم والولايات ، فإذا أسره طاهر بن الحسين قائد المأمون تقيم انفسها في خراسان إمارة تظل بها حتى سنة ٢٥٩ غير أن صلتهم بالدواة ظلت حسنة وظلوا يرسلون لها الضرائب ، وكان منهم نفر يتولون شرطة بغداد حتى بعد انتهاء حكمهم لخراسان وما وراء النهر . وفي سنة ٢٤٧ للهجرة استطاع يعقوب بن الليث الصفار أن يقيم الإمارة الصفارية في إقليم بلوخستان شرق إيران ، ومدّ حدودها حتى شملت كرمان إلى الجنوب من إيران كما شملت أفغانستان والسند ، واستولى على ما بيد محمد بن طاهر آخر الحكام الظاهريين في خراسان . وتوفي يعقوب لسنة ٢٦٥ فخلفه أخوه عمرو حتى سنة ٢٨٧ إذ قضى عليه السامانيون حكام ما وراء النهر . وحدث في سنة ٢٥٥ أن أهدى المعتز بایکباک حاجبه مصر فوائى عليها أحمد بن طواون فاستقل بها ومدّ حكمه إلى الشام ، وخلفه على الإقليمين ابنه خمارويه ، وزواج ابنته بوران من المعتضد مشهور . وظلت تلك الإمارة الطولونية في أبناء أحمد بن طواون وأحفاده حتى سنة ٢٩٢ إذ عادت في عهد المكتفي إلى حظيرة الدواة ، فوائى عليها عيسى النوشري ، وتبعه ولاية مختلفون إلى أن وليها محمد ابن طُغُج الإخشيد ولايته الثانية سنة ٣٢٣ فأسس بها الإمارة الإخشيدية التي ظلت تلي شئون مصر حتى تسلمها منها المعز الفاطمي سنة ٣٥٨ . وإمارة السامانيين في خراسان وما وراء النهر أطول هذه الإمارات عمراً ، فقد بدأت حوالى سنة ٢٦١ وظلت إلى ما بعد هذا العصر حتى سنة ٣٨٩ وكانت العلاقة بينها وبين الخلافة

العباسية حسنة ، فكان أمراؤها يتواونها بعهود من الخلفاء حتى تكون ولايتهم شرعية ، وأذن لهم الخلفاء في أن تُدَكَّرَ أسماءهم معهم في خطبة الجمعة وأن يضرِّبوا أسماءهم على الدنانير ، وكانوا سُنِّيَّين ، ودعم ذلك الصلة بينهم وبين الخلافة .

ولا نصل إلى أواخر العصر ، حتى يتغلب كثير من الحكام على ولاياتهم ، فتصبح فارس والرَّيَّ وأصبهان والجل في أيدي بني بويه ، وخراسان في يد نصر بن أحمد الساماني ، وطَبَرِسْتَان وجُرْجَان في يد الديلم ، وكِرْمَان في يد محمد بن إلياس ، والموصل وديار ربيعة وبكر ومضر في أيدي بني حمدان ، والأهواز وواسط والبصرة في يد البريدي ، واليامة والبحرين في يد أبي طاهر الجَسَّابِي القرمطي ، ومصر والشام في يد محمد بن طغج الإخشيد ، والمغرب وإفريقية في يد القائم بأمر الله ابن المهدي الفاطمي الملقب بأمر المؤمنين ، والأندلس في يد عبد الرحمن الناصر الأموي . ولم يبق في يد الخليفة سوى بغداد ، واستولى عليها منه — كما أسلفنا — البويهيون وخلعوه ، وولَّوْا المطيع لله ، وأصبحوا هم الذين يولِّون الوزراء والقضاة والولاة وأصحاب الشرطة والحسبة ، ولم يعد للخليفة سوى سلطان اسمي وأن يدْعَى له على المنابر ، وخفَّضت نفقاته ، وقُرِّرت له نفقة طفيفة .

وليست هذه الكوارث كل ما حاق بالخلافة العباسية في العصر العباسي الثاني ، فقد نشبت ثورات كثيرة استنزفت موارد الدولة ، وخاصة ثورتي الزنج والقرامطة ، أما الزنج فقد استطاع الموفق لعهد أخيه المعتمد أن يقضي بعد جهاد عنيف عليهم وعلى ثورتهم قضاء مبرماً ، وأما القرامطة فقد ظلوا حتى نهاية العصر ينازلون الدولة وينزلون بها خسائر فادحة في الرجال والأموال ، ولعل من الخير أن نخص كلا من الثورتين بكلمة موجزة .

٣

ثورة الزنج

شغلت هذه الثورة الدولة أربع عشرة سنة ونحو أربعة أشهر لم تَضَعْ فيها الحرب أوزارها منذ رمضان سنة ٢٥٥ للهجرة حتى صفر سنة ٢٧٠ وكان الذي

أعدَّ لها وأشعلها رجل فارسي من ورزَين: قرية من قرى الرّى بليزان ، زعم في أول الأمر أنه من بنى عبد القيس سكان البحرين ، وفيهم أخذ ينشر آراءه الثورية ضد الدولة لأوائل العقد السادس من القرن الثالث الهجري ، فنبهه نفر قليل . وأحسَّ كأن البحرين لن تتبعه ، فتركها إلى البصرة لسنة ٢٥٤ وأخذ ينشر فيها آراءه ، وارتفع أمره إلى الولى فطلبه ، غير أنه أسرع بالخروج منها إلى بغداد ، حتى إذا استدّار العام عاد بفكرة جديدة هي أن يثير الزنج الذين كانوا يكسحون السباخ هناك ، وكان يسخرهم كبار الملاك الإقطاعيين في هذا الكسح وفي زرع أرضهم لقاء أجرزهد لايسد ما يحتاجون إليه من الغذاء البسيط والكساء الخشن . ومضى يثيرهم ويتجمعون إليه ، ورأى إحكاماً لدعوته أن يُسبغ عليها صبغة دينية ، فزعم أنه يُوحى إليه وأن العناية الإلهية بعثته واختارته لإنقاذ الزنج من جور الملاك الظالمين ، وأشاع أن اسمه على بن محمد ووصل نسبه بإمام الزيدية : زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، حتى يثبت حقه الشرعى في الثورة ضد الخلافة العباسية^(١) ، وهو نسب مكنوب إذ هو فارسي كما قدمنا ، وحققاً نجد ابن المعتز ينعتة في الأرجوزة التي تمثلنا ببعض أبياتها فيما أسلفنا بأنه علوى إذ يقول عنه :

والعلوى قائدُ الفُساقِ وبائعُ الأحرارِ في الأسواقِ

ونؤمن بأن ابن المعتز تعمد ذلك حتى يلطّخ العلويين خصوم أسرته بعارِ هذا الرجل الذى لم يكن يرعى في الأمة إلاّ ولا ذمة على نحو ما سيتضح عما قليل . وكان لا يزال يردّد بأن العباسيين انغمسوا في لثم الخمر والمجون والمعاصى ، وأنه تجب حربهم حتى يتخلص الناس من شرورهم ، وحتى يردّ الأمر إلى نصابه وإلى مستحقه العلويين من أمثاله المنتسبين إليهم زوراً وبهتاناً .

وكان الزنج يبلغون ألوفاً ، وكلهم يعملون في كسّح السباخ والزراعة ، وكانوا يُجلبون من شرق إفريقيا ، وسرعان ما التفوا حول هذا الثائر والتف معهم كثير من عبيد الفرات بحيث غلّدت الثورة كأنها ثورة العبيد على السادة الجائرين ، وثبتت

ودراسات في المصور العباسية المتأخرة لعبد العزيز
الدورى (طبع بغداد) ص ٧٩ .

(١) طبرى ٤١٠/٩ وروج الذهب ١٠٨/٤
والفخرى ص ١٨٦ والنجوم الزاهرة ٢١/٣

ذلك في نفوسهم أن صاحبهم كان يدعو إلى تحريرهم ، وهي دعوة كريمة ، غير أنه لم يمحض فيها إلى النهاية ، إذا استباح في حروبه استرقاق الأحرار ، مما يؤكد أنه لم يكن يفكر جدياً في إلغاء الرق . ويدل أكبر الدلالة على أنه لم يكن محرراً للعبيد حقاً ولا كان علوياً ما رواه المسعودي عنه من أنه « كان ينادي في عسكره على المرأة من ولد الحسن والحسين والعباس بن عبد المطلب وغيرهم من ولد هاشم وقريش ومن سائر العرب وأبناء الناس ، فتباع الجارية بالدرهمين والثلاثة ، وينادي عليها بنسبها : هذه ابنة فلان ، ولكل زنجي منهم العشرة والعشرون والثلاثون . . . واستغاثت به امرأة هاشمية من ولد الحسن بن علي بن أبي طالب كانت عند بعض الزنج ، وسألته أن ينقلها إلى غيره من الزنج أو يعتقها مما هي فيه ، فقال لها : هو مولك وأولى بك من غيره»^(١). وأو كان علوياً ما استباح استرقاق العلويات ، وأو كان ثائراً على الرق داعياً إلى تحرير العبيد بإخلاص ما أسقط العبودية عن الزوج وردّها على الأحرار ، بل كان يُبقي لهم حرّيتهم . ويبدو أنه لم تدر بذهنه خطة واضحة لنمط من أنماط الاشتراكية يصحح به معيشة الناس عبيداً وأحراراً ويصلح به أوضاعهم المالية والاقتصادية. ولذلك حوّل ثورته سريعاً من ثورة ضد الملاك الإقطاعيين إلى ثورة ضد الدولة ، فالدولة يجب أن تقاوم ويقاوم معها الخلفاء وولاتهم . ويذهب بعض المؤرخين إلى أنه كان يعتقد آراء الأزارقة من الخوارج إذ كان يستحلّ مثلهم قتل نساء المسلمين وأطفالهم ، وكان يرى رأيهم في أن المسلمين جميعاً كافرون وينبغي قتالهم واستئصالهم حتى لا تبقى منهم باقية ، ويحاول المسعودي أن يبرهن على أنه كان يؤمن بمبادئ الخوارج بشواهد مختلفة ، منها أنه كان يبدأ خطبه بعبارة الخوارج المشهورة التي رددوها حين ثاروا في وجه علي بن أبي طالب : « ألا لا حكم إلا لله » ، وأنه كان يردد أن الذنوب تفضي إلى الشرك على نحو ما كان يقول الخوارج من قديم بأن مرتكب الكبيرة كافر ، وأنه هو وأصحابه كانوا إذا خطبوا على المنابر ترحموا - مثل الخوارج الأوّلين - على أبي بكر وعمر ولم يذكروا عثمان وعلياً غضباً عليهما ولعنوا جابرة الأمويين والعباسيين^(٢) . وعلى نحو ما اعتزل الخوارج الأوّلون على بن أبي طالب إلى حروراء بقرب الكوفة مهاجرين عن الجماعة

وراجع النجوم الزاهرة ٤٨/٣ .

(١) مروج الذهب ١٢٠/٤ .

(٢) انظر مروج الذهب ١٠٨/٤ ، ١١٩ .

الضالة ، كما هاجر الرسول عليه السلام عن أهل مكة إلى المدينة ، كذلك هاجر صاحب الزنج باتباعه إلى سَبِيحَة بَمَآخِرِ أَنْهَارِ الْبَصْرَةِ تسمى سَبِيحَة أَبِي قَرَّة ، فأقام فيها ، وأمر أصحابه باتخاذ الأكواخ بها ، وبثَّ الزنج والسود يُغيّر بهم على القرى وينهب الأموال والدواب^(١) ، ثم تحوّل إلى الجانب الغربى من نهر أبى الحصيب واتخذ عليه مدينة^(٢) سماها « المختارة » بنسى له فيها دوراً حصينة ، وأمر أصحابه بالبناء فيها .

وكرّرت إغاراته على البصرة وقراها ، فاستغاث أهلها بالخليفة المهتدى ، فأرسل إليهم فى سنة ٢٥٦ جيشاً أكثره من الفرسان فلم يستطع الوصول إلى مدينة صاحب الزنج لكثرة ما كان يقوم دونها من القنوت والنخيل والأدغال . ويشعر صاحب الزنج بقوته ، فيقتحم مدينة الأبلّة مما يلي نهر دجلة ويقتل بها خلقاً كثيراً ، ويُشعل بها ناراً تأتى على كثير من منازلها ، إذ كانت مبنية من خشب الساج ، ويُعمل فيها النهب والسلب . ويهاجم بعدها مدينة عبّادان ، وكان أهلها قد سمعوا ما صنعه بمدينة الأبلّة ، فألقوا له عن يد ، وانضمّ إليه من كان بها من العبيد ، ونهب كل ما كان بها من السلاح والمثونة . وولّى وجهه نحو مدينة الأهواز فدخلها بعد مناوشات قليلة ، واستولى على كل ما كان بها من الأسلاب والأمتعة^(٣) .

وتولى المعتمد الخلافة ، فأرسل إليه فى سنة ٢٥٧ هـ جيشاً كثيفاً انتصر على بعض كتائبه ، غير أن الزنج استمروا منه بالقنوت والأدغال ، فاضطر إلى الانسحاب ، ونازلهم منصور بن جعفر الخياط بجيش ثان لم يصنع شيئاً^(٤) . وما يلبث صاحبهم أن يهاجم البصرة . وكان يردّد على مسامع أصحابه أنه اجتهد فى الدعاء عليها أن يصيبها الخراب من جميع جهاتها ، وأنه خطب فى أمرها ، فقبل له : إنما البصرة خُبْرَةٌ لك تأكلها من جوانبها . وانضمّ إليه حينئذ كثير من الأعراب ، هاجمها بهم وبأتباعه من الزنج والعبيد فى أثناء صلاة أهلها إحدى الجمعات ، وقد انقضّ عليها من ثلاث جهات ، معملاً فيها النهب والسلب والقتل وإشعال

(٣) انظر الطبرى ٤٧٠/٩ وما بعدها .

(٤) طبرى ٤٧٨/٩ .

(١) طبرى ٣٧/٩ .

(٢) طبرى ٤٧٠/٩ .

النار^(١)، وتقول أقل الروايات مبالغة إن عدد القتلى بلغ ثلثمائة ألف بين ذكر وأنثى وشيخ وطفل وإنه أحرق المسجد الجامع وأحال البلدة أنقاضاً ، يقول المسعودي : « واحتفى الناس ذعراً في الدور والآبار ، وكانوا يظهرون بالليل فيأخذون الكلاب فيذبجونها ويأكلونها ، وكذلك الفئران والسنانير ، وأفنوها حتى لم يقدرُوا منها على شيء ، وكانوا إذا مات منهم الواحد أكلوه ، وعدموا مع ذلك الماء العذب »^(٢) وتسامع الناس والشعراء في بغداد وسامراء بهذه النكبة المروعة التي حلت بالبصرة ، فبكوها بدموع غزار ، وفي مقدمتهم ابن الرومي ، وقصيدته :

ذَا دَ عَنْ مُقْلَى لَذِيذَ الْمَنَامِ شَغَلَهَا عَنْهُ بِالدَّمُوعِ السَّجَامِ

ندبٌ حارٌّ لها وتفعج وتوجع لما نزل بها من تلك الكارثة التي لا تكاد تتخيلها الأوهام ، وقد مضى يصور قتلى الزنج وصرعاهم وانتهاكهم الحرمات وسببهم الخرائر المصنونات ممزقات الثياب داميات الوجوه ، وكيف أشعلوا النيران فيها وحوّلوا قصورها تلالاً ورماداً ، وكيف ملثوا شوارعها بالرءوس والجثث والأيدى والأرجل المبتورة ، وهو في تضاعيف ذلك يستصرخ الأمة لنجدة البصرة والذّيان عن الحرمات والفتك بالزنج الذين ارتكبوا آثاماً يشيب لها الولدان فتكماً لا يُبقي ولا يَدْرُ .

وكأنما استجابت الدواة لصرخة ابن الرومي ، فجهّزت جيشاً ضخماً بقيادة الموفق أخى الخليفة المعتمد ، وكان بطلا لا يبارى وصاحب رأى وحزم لا يدانيه حزم وتدبير لا يشبهه تدبير ، غير أن الزنج وصاحبهم استروا منه بالقنوات وبالأدغال الملتفة والنخيل الكثيف . فندب إليهم منصور بن جعفر بن دينار فاستباحوا عسكره وقتلوه . فتقدم الموفق إلى نهر يسمى نهر معقل ، ونازل الزنج وهزمهم مراراً وأسر قائداً من قوادهم هو يحيى البحراني وأرسل به إلى سامراء حيث ذُبِحَ وأُحْرِقَ^(٣) . وعاد الموفق إلى سامراء ، وخلف على قتال الزنج موسى بن بغا ، ونشبت حروب متتابعة قُتِلَ فيها كثير من الجانبين^(٤) . ويولّى المعتمد في سنة ٢٦١ على الأهواز قائداً من قواده يسمى أبا الساج ، ويناظر الزنج وترجع كفتهم ، ويدخلون الأهواز وينهبونها ويحرقون دورها^(٥) .

(٤) طبري ٥٠٤/٩ .

(٥) طبري ٥١٣/٩ .

(١) طبري ٤٨١/٩ .

(٢) مروج الذهب ١١٩/٤ .

(٣) طبري ٤٩١/٩ .

وتُشغَلُ اللؤلؤة وقائدها الموفق ببيعقوب بن الليث الصفار ، وكان قد استولى على سجستان وكرمان وفارس وقضى على الطاهريين واستولى منهم على خراسان ، وأقبل بجموعه في سنة ٢٦٢ يريد الاستيلاء على بغداد ، ولم يكده يلم بدبير العاقول على بعد اثني عشر ميلاً منها حتى تصدّى له الموفق وهزمه هزيمة ساحقة ، فرّ على أثرها إلى الأهواز ، وإلى ذلك يشير ابن المعتز في أرجوزته آفة الذكر إذ يقول عن الموفق :

وحاربَ الصفّار بعد الزّنجِ فطار إلا أنه في سَرَجِ
وفرّ من قُدّامه فراراً وكان قدماً بطلا كرّاراً

وظل الموفق مشغولاً به بعد هزيمته إلى أن توفي سنة ٢٦٥ . وفي هذه الأثناء وجد صاحب الزنج الفرصة سانحة له ، فكان يُغيّر على بعض المدن ، يفتك بأهلها وينهبها من مثل الأهواز وواسط ودست ميسان . وكانت أنبأؤه لا تزال تصل إلى الموفق ، فصمم على منازلته ثانياً ، وجهّز لحربه جيشاً جراراً تسنده سفن حربية ، وأسند قيادته إلى ابنه أبي العباس . (الذي ولي الخلافة بعد عمه المعتمد وتلقّب بالمعتضد) وكان شجاعاً حازماً من أهل الرأي الصائب مثل أبيه ، فعخف إليه في ربيع الآخر لسنة ٢٦٧ فواقع قائداً يسمى سليمان بن جامع ومزق جنوده واستولى على ما كان بيده من قرى دجلة^(١) ، ودخل مدينة واسط وردّها على أهلها ، وعسكر بجيشه في جوارها ، وأخذ يقف بنفسه على القرى والمسالك المؤدية إلى صاحب الزنج ومدينته . وجمع له الزنج وحشدوا واتخذوا سفناً تسمى بالسُمَيْرِيَّات ، لكل منها أربعون مجدافاً والملاحون من فوقها يحملون السيوف والرماح والتروس ، ولكن أبا العباس عرف كيف يُنزل بهم هزيمة نكراء ، استولى في أثناءها على أكثر سُمَيْرِيَّاتهم^(٢) ، وأخذت هزائمهم تتلاحق . وبلغ الموفق نبأ بأن صاحب الزنج يعدّ جيشاً كثيفاً لمساعدة قائديه : سليمان بن جامع وعلي بن أبان ، فأعدّ جيشاً ضخماً بدوره لنصرة ابنه ، ومضى معه إلى حصن الزنج الشمالي في البطيحة الذي سمّوه باسم « المدينة المنية » وأوقعاً بقائده لهم يسمى الشعراني ويجنده وقعة ماحقة . واتخذ

(١) طبرى ٥٥٧/٩ وما بعدها .

(٢) طبرى ٥٦١/٩ .

الموفق حينئذ خطة سديدة أن يعفو عمن يستسلم له من جند العدو ويضمه إلى جيشه واستسلم له كثيرون^(١). واتجه إلى حصن الزنج الأوسط الذى سموه مدينة « المنصورة » وكان بجوار « طهيتا » والتقى هناك بسليمان بن جامع وأصحابه ، فقتل منهم مقتلة عظيمة ، واستولى على المدينة وكل ما بها من الأموال والذخائر والميرة ، وفرّ سليمان على وجهه لا يلوى ، وفرّ كثيرون من الزنج إلى الآجام المحيطة بالمدينة ، وأعلن الموفق مرة ثانية أنه يعفو عفواً تاماً عن كل من يستسلم راضياً ، واستسلم له كثيرون ، فكان يخلع عليهم ويضمهم إلى جيشه . وكانت سياسة قوية إذ أخذ كثيرون من أتباع صاحب الزنج يغادرون معسكره إلى معسكر الموفق^(٢). ومضى إلى الأهواز والقرى التى بينها وبين فارس ، وفرّ عنها سريعاً قائدان من قواد الزنج هما المهلبى وبهبوذ بن عبد الوهاب تاركين وراءهما عتاداً ضخماً من الميرة احتواها الموفق . وكاتبه كثيرون من فرسان هذين القائدين وجنودهما يطلبون الأمان فأمنهم وسلكهم فى جيشه ، واستأمن قائد اسمه « منتاب » وكثير من المقاتلين فى سميريات الزنج وسفنههم^(٣). وتقدم الموفق بجموعه إلى المدينة « المختارة » حاضرة صاحب الزنج آخر معاقله . ورأى من مناعتها ما جعله يؤمن بأن حصارها سيطول ، فبنى لجيشه أمامها على الضفة الثانية لدجلة مدينة سماها « الموفقية » شيد فيها جميع المرافق ، وساق إليها أصناف المنافع ، وشدّد فى حصار المختارة ، حتى غدت كأنها سجن كبير لصاحبها وأتباعه ، ونادى بأن الأمان مبسوط للناس أحمرهم وأسودهم ، واستسلمت له من الزنج جموع كثيرة ، إذ رأوا صاحبهم كالأسير وقد عزّته الميرة والمؤن ، وفى ذلك يقول ابن الرومى للموفق من قصيدة طويالة^(٤) :

حَصَرْتَ عَمِيدَ الزَّنجِ حَتَّى تَخَاذَلْتُ قُوَاهُ وَأَوْدَى زَادُهُ الْمُتَزَوِّدُ
فَظَلُّ وَلَمْ تَقْتُلْهُ يَلْفِظُ نَفْسَهُ وَظَلَّ وَلَمْ تَأْسِرْهُ وَهُوَ مُقَيَّدُ
تُفَرِّقُ عَنْهُ بِالْمَكَائِدِ جُنْدَهُ وَتَزِدَادُهُمْ جُنْدًا ، رَجُدُكَ مُحْصَدُ^(٥)
وما زال الموفق يحاصر المدينة وصاحبها حتى رأى أن يشنّ عليها حملة حاسمة سنة ٢٦٩ إذ هاجمت سفنه الحربية قصر صاحب الزنج وصمم على الفرار منه ، والتقى

(٤) زهر الآداب للحصرى ١٩٤/٣ .

(٥) محمّد : مجتمع محكم .

(١) طبرى ٥٦٦/٩ وما بعدها .

(٢) طبرى ٥٧١/٩ وما بعدها .

(٣) طبرى ٥٧٥/٩ وما بعدها .

الموفق في هذه الأثناء يجيش له في غربي نهر أبي الحصيب فمزقه شرمزق ،
 وطلب الأمان كثيرون من الزنج وقوادهم وفي مقدمتهم الشعرائي وشبل^(١) بن سالم .
 وجمع الموفق المستأمنة من الزنوج العارفين بمسالك المدينة المختارة ومضايق طرقها
 وحصونها كي يحضوه النصيحة في الوصول إلى صاحبها ، ودكوه راضين ، فاستولى
 على قصره في صفر لسنة ٢٧٠ بعد موقعة عظيمة ، وواغاه البشير بقتله ، فخر الله
 ساجداً على ما أولاه ، وأمر بصلب قائدیه سليمان بن جامع وعلى^(٢) بن أبان المهلبی .
 وكان الموفق قد جرح جرحاً بليغاً في صدره في أثناء المعارك الأخيرة ، ولم يثنه ذلك
 عن الحرب حتى كُتب له فيها النصر المبين ، ولذلك يقول ابن المعتز في تهنته بهذا
 النصر من قصيدة صور فيها بطواته : (٣) .

شَقَّ الصَّفوفَ بسيفه وَشَفَى حَزَازَاتِ الإِحْنِ
 دَامِيَ الجِرَاحِ كَأَنَّهَا وَرَدُ تَفَتَّحَ فِي غُصْنِ

وبذلك انتهت ثورة الزنج ، ويقال إنه ذهب ضحيتها نحو مليون ونصف ،
 وأمر الموفق بالنداء في أهل البصرة والأبلّة وكور دجلة والأهواز واسط بقتل صاحب
 الزنج ورجوع كل مواطن إلى داره وبلده آمناً على نفسه وماله وأهله^(٤) .

٤

ثورة القرامطة

مرّ بنا في كتاب العصر العباسي الأول أن الشيعة كانوا فرقاً ، وظلت هذه
 الفرق نشطة في العصر العباسي الثاني ، وأهمها فرقة الزيدية التي حملت السلاح
 دائماً في وجه العباسيين ، ثم فرقة الإمامية التي كانت تعيش على التقية وتعمل سراً
 ضد العباسيين ، وقد انقسمت مبكرة إلى اثني عشرية آمنت بأن الإمامة توالى
 في اثني عشر إماماً ، آخرهم محمد المهدي المنتظر المتوفى سنة ٢٦٠ للهجرة ، وإلى
 إسماعيلية نسبة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق ، وكان قد توفي قبل أبيه ، فقالوا إن

(٣) ذيل زهر الآداب ص ١٥٧ .

(٤) طبري ٩ / ٦٦٣ .

(١) طبري ٩ / ٦٤٣ .

(٢) طبري ٩ / ٦٥٤ وما بعدها .

الإمامة انتقلت منه إلى ابنه محمد ، لأنها تنتقل حتماً إلى الابن الأكبر ، حتى لو مات في عهد أبيه . وأخذت تتكوّن سريعاً حول محمد الحركة ^(١) الإسماعيلية ، وكان الذى نظّمها ووضع مبادئها عبد الله بن ميمون القداح ، وهو فارسى كان واسع المعرفة بجميع المذاهب والأديان ، وأخذ في سرعة يكوّن حول محمد بن إسماعيل جمعية سرية تعمل على تفويض الدواة العباسية ، وكان يستعين على جذب الناس إليه بطرق تتناسب مع كل شخص ، فأشخاص يجذبهم بالسحر والشعوذة ، وأشخاص يجذبهم بإظهار التقوى والنسك . وكان يزعم أن دينه دين النور الخالص ، ودعا كل أعضاء جمعيته إلى الاشتراك في كل ما يكسبون مقيماً بينهم ضرباً من الألفة . وبدأ بدعوته في موطنه بالأهواز ، ثم تركها إلى البصرة ومعه رفيقه الحسين الأهوازي ، وأحس بمطاردة وإلى البصرة لهما ، فهرب مع رفيقه إلى « سلكمية » بقرب اللاذقية في الشام ، ومن هناك أخذ يرسل دعائه إلى العراق ، كما أخذ ينظم الدعوة الإسماعيلية بائناً فيها تعاليم مانوية فارسية وفلسفية يونانية غير بعض تعاليم جلبها من فرق الشيعة الغالية كفرقة الخطابية . ودعا في قوة إلى فكرة التأويل في الآيات القرآنية حتى يمكن فهم معانيها الباطنة المستترة أو قل معانيها الخفية التي تروى إليها من بعيد . وزعم أن تاريخ الأمة ينقسم إلى حلقات ، كل حلقة يمثلها سبعة من الأئمة ، سابعهم هو الإمام الناطق الذى ينسخ بشريته ما قبله من الشرائع ، أما الأئمة الستة قبله فأئمة صامتون . وزعم أيضاً أن أئمة الدعوة قسمان : أئمة حقيقيون مستورون أو مستقرون ، وأئمة بجانبهم مستودعون وهم رموز الدعاة المسمون بالحجج ، وبذلك أصبح هو نفسه إماماً مستودعاً ، وتبعه على ذلك أبناؤه ، ومن هنا جاء الشك في نسب الأسرة الفاطمية الإسماعيلية التي حكمت مصر نحو قرنين من الزمان ، فهل كان أئمتها مستقرين أو كانوا مستودعين ؟ وجعل ابن ميمون الدعوة مراتب يصعد فيها التابعون ، وهي سبع مراتب ، مرتبة للعامة ، ومرتبة لمن فوقهم ، ومرتبة لمن مرّ عليه عام ، ومرتبة لمن مرّ عليه عامان ، ومرتبة لمن مرّ عليه ثلاثة أعوام ، ومرتبة لمن مرّ عليه أربعة أعوام ، ثم المرتبة السابعة ، وجعلت المراتب فيما بعد تسعاً .

وما يلبث عبد الله بن ميمون — وقيل بل ابنه أحمد خلفه — أن يرسل الحسين

(١) انظر في الحركة الإسماعيلية والقرامطة
كتاب عبد العزيز الدوي ص ١٢٦ وما بعدها .

الأهوازي إلى الكوفة وسوادها ليدعو إلى الجمعية ، فالتقى في السواد بنبطى يحمل بعض الغلات على أثوار له اسمه حمدان ، كان أهل قريته يلقبونه — فيما زعم الطبرى — لقباً بنبطياً هو قرهط لاحمرار عينيه الدائم^(١) ، وزعم بروكلمان أن معنى هذا اللقب المعلم السرى^(٢) . وكأنما وجد الأهوازي في هذا الرجل طلبته ، فدعاه إلى مذهبه واستجاب له في حماسة بالغة ، وأحسن الأهوازي بدنو أجله ، فعهد إليه برياسة الدعوة ، وجدد فيها حتى أصبحت له فرقة كبيرة دُعيت جميعها باسم القراهطة نسبة إليه . وكان داهية فأخذ في تنظيم الحركة ، وفرض على جميع أتباعه أن يدفع كل منهم سنوياً درهماً واحداً ، ثم جعله ديناراً تأهباً للانتقال إلى دار الهجرة ، وفرض على أهل المرتبة السابعة سبعة دنائير ، ولم يلبث أن فرض على كل إنسان من أتباعه أن يؤدي إليه خمس ماله ، وأخيراً فرض عليهم جميعاً الألفة ، وهى الشركة فى الأموال ، وبذلك هياً لظهر نظام اشتراكى كامل . ولما اطمأن إلى نجاح دعوته أخذ يحل لأتباعه ترك الفرائض الدينية وأن يتخذوا بيت المقدس قبلتهم ويحجوا إليه ، وزعم لهم أن الصوم يومان فى السنة : يوم عيد المهرجان ويوم عيد النيروز وأن النبذ حرام والخمر حلال ، ووضع قانوناً هو أن كل من حاربه وجب قتله ، ومن لم يحاربه وخالفه يجب أخذ الجزية منه^(٣) . وفى سنة ٢٧٧ اتخذ لأتباعه دار هجرة بقرب الكونة سماها « مهما باد » نزلها كثيرون من الرجال والنساء . وكان أكبر معاونيه فى حركته صهره عېدان ، ويُدّكر له كتاب صور فيه طريق التابع ومراتبه السبع آتفة الذكر التى تنتهى به إلى الخضوع المطلق للإمام الخفى أو المستر ومثليه من الأئمة المستودعين .

وأقبل على الانضمام إلى الدعوة كثير من الفلاحين فى سواد الكوفة والبصرة لما وعدتهم به من تغيير ظروفهم الاقتصادية السيئة ، إذ كان الملاك الإقطاعيون يسومونهم سوء العذاب مع التقدير الشديد فى الأجور ، وانضم إليها أيضاً كثير من الطبقة الكادحة فى المدن ممن كانوا يعيشون فى بؤس مدقع ، وقد وعدهم جميعاً حمدان وأتباعه بأنهم سينقلونهم من الشقاء إلى السعادة ومن الفقر وذله إلى الغنى وعزه . غير أنهم لم يقفوا

(١) الطبعة العربية) ص ٢٢٩ .

(١) طبرى ١٠/٢٦ .

(٣) طبرى ١٠/٢٥ وما بعدها .

(٢) تاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان

جميعاً بدعوتهم عند إنشاء مجتمع اشتراكي ، إذ مضوا يدعون إلى التحلل من الدين الحنيف وفروضة حتى ليقول البغدادى إنهم أنكروا البعث والحساب والجنة والنار ، وقالوا : هل الجنة إلا هذه الدنيا ونعيمها وهل النار وعذابها إلا ما فيه أصحاب الشرائع من التعب والنصب في الصلاة والصيام والحج والجهاد ^(١) ، وزعموا : « أن الأنبياء كنوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وكل من ادعى النبوة كانوا أصحاب نواميس ومخاريق أحبوا الزعامة على العامة ، فخدعهم بنيرانجات واستعبدهم بشرائعهم » ^(٢) . ومضى حمدان يتخذ لهم أعلاماً بيضاء دلالة على أن دينهم دين النور ، ويقال إنه كان يكتب عليها : (وزريد أن نمنن على الذين استضعفوا في الأرض وجعلهم أئمةً وجعلهم الوراثين) .

وقد أرسل مبكراً دعاة إلى اليمن جاهدوا فيها بدعوته وأحدثوا شعباً كثيراً ، ونزل « كلواذى » وأخذ يدير منها دعوته ، ومن أهم دعائه الذين اتخذهم حينئذ أبو سعيد الحسن بن بهرام الجنائى . وجسابة من قرى بحر فارس ، وقد أرسل به إلى جنوبى إيران ، واستطاع أن ينشر هناك الدعوة ، والتف حوله كثيرون اتخذ من نفسه مشرفاً على إدارة أموالهم . غير أن ولاية العباسيين تنبها لحركته هناك وصادروا ما جمع من أموال ، ففر على وجهه إلى حمدان ، يبلغه الخبر ، فأمره أن يتجه إلى منطقة أخرى ، واختار له الأحساء في منطقة البحرين ، وهناك استجابت له قبيلة عبد القيس وعشائرها البدوية ، واستطاع لسنة ٢٨٦ أن ينشئ في تلك الأصقاع النائية دولة اشتراكية جعل عاصمتها « المؤمنية » بدلا من « هجر » العاصمة القديمة وهى المسماة اليوم باسم « الهفوف » « وفي السنة نفسها أغار على « القطيف » القريبة من البصرة وقتل من لقيه بها من الرجال والنساء ^(٣) . وفي السنة التالية هددت جنوده البصرة ^(٤) . وأحس حمدان بقوته فأخذ يدفع أتباعه إلى الإغارة على قرى السواد ، وتصدى لهم بلر غلام الطائى . وأوقع بهم على غرة بنواحي رومستان وقتل منهم مقتلة عظيمة ^(٥) . ويعودون إلى الانتشار في سواد الكوفة لسنة ٢٨٩ ويفتك بهم شبل غلام الطائى ويقع في أسره قائدهم المعروف بابن أبى قوس ^(٦) ، فيرسل به إلى المعتضد ،

(٤) طبرى ١٠ / ٧٥ .

(٥) طبرى ١٠ / ٨٢ .

(٦) فى الطبرى : فوارس .

(١) الفرق بين الفرق للبغدادى (طبعة محمد

محمى الدين عبد الحميد ص ٢٩٥ .

(٢) المصدر نفسه ص ٣٠٢ .

(٣) طبرى ١٠ / ٧١ .

فيضرب عنقه ، ويظلمه على الجسر في جماعة من القرامطة ، ويذكر ذلك ابن المعتز في أرجوزته آتفة الذكر ، مندداً بالدعوة القرمطية ، قائلاً :

ابنُ أبي قَوْسٍ لهمُ نبيُّ إمامٌ عدلٌ لهمُ مرَضِيٌّ
خَفَّفَ عنهم من صلاةِ الفَرَضِ وقال : ناب بعضها عن بعض
فاذهبْ إلى الجِسرِ تجده فارساً على طِمْرٍ^(١) لَأَسِيرَ جالساً
وتلك عقي الغيِّ والضلالِ والكُفرُ بالرحمن ذي العِلالِ

وهو يسجل هنا على القرامطة جهلهم حتى ايزعمون أن ابن أبي قوس نبي ، مع تخفيفهم للصلاة وكفرهم بالرحمن ، وسجل عليهم في الأرجوزة قبل هذه الأبيات الشريعة الجديدة التي اتخذوها وأنهم يجاهدون فيها عن إمام مختف لا يظهر أبداً ومنذ هذا التاريخ الذي قُتل فيه ابن أبي قوس يختفي من العراق وسواده اسم حمدان وصهره عبدان ، ونفاجاً بداعية يتولى زعامة القرامطة مكانهما يسمى زكرويه^(٢) . ويبدو أنهما أحساً بتغير في المبادئ التي^(٣) كانا يدعوان إليها ، فأرسل حمدان بعبدان إلى سَلَمِيَّة ليقف على حقائق الأمور ، فوجد أحمد بن عبد الله بن ميمون القداح توفى وخلفه ابنه الحسين ، ولما اجتمع به سأله عن الإمام الذي يدعون إليه وعن حُجَّتِهِ ، فعجب الحسين من سؤاله ، وقال له : « من هو الإمام إذن ؟ » فأجابه عبدان إنه محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق الذي دعا له أبوك وكان حجته ، فاستنكر الحسين القداحي إجابته ، وقال له : إن الإمام إنما كان والده ، وحلَّ هو محله الآن . وعندئذ أدرك عبدان حقيقة القَدَّاحين وأنهم تظاهروا بالدعوة لمحمد بن إسماعيل خداعاً للناس وتمويهاً عليهم حتى يجتذبوهم إلى صفوفهم . وعاد عبدان إلى حمدان فوقفه على حقيقة الأمر ، وأشار عليه بوقف الدعوة وأن يجمع الدعاة ويبين لهم الحقيقة . وأخذ حمدان برأيه ، فوقف الدعوة في الأماكن القريبة منه ، ولم يستطع توضيحها لمن كانوا في الأماكن النائية ، وترك كلواذى واختفى هو وصهره عبدان من مسرح التاريخ ، ويبدو أن

١٠ / ٩٤ .

(١) طمر : : فرس .

(٣) الدورى ص ١٦٥ .

(٢) كان أحد دعاة قرمط المهين . الطبرى

القداحين عملوا على اغتيالهما ، واتخذ زكرويه أداة لتنفيذ هذا الاغتيال .
وعلى هذا النحو صارت رئاسة الدعوة في سواد الكوفة والعراق إلى زكرويه
الدندانى ، وكان أعظم نشاطاً من حمدان قرمط وصهره عبدان ، ولما رأى الدولة
تتعقب القرامطة بسواد الكوفة وأنه لا غناء عندهم سعى في استغواء البدو من أسد
وطي وقيم وغيرهم ، وتابعته منهم جماعات ، غير أن كثرة البدو المحيطين بجنوبى
العراق لم تستجب له ، فأرسل أولاده يحيى والحسين ومحمداً إلى عشائر قبيلة كلب
في بادية السماوة بين العراق والشام ، فأصاخوا لهم وبايعوهم ، وكان مما زعموه
لهم أنهم من ولد محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق ، حتى إذا رأوهم يدعونهم
إلى العقيدة القرمطية نفروا منهم ولم يتابعهم إلا بنو العليص ، إذ بايعوا في آخر
سنة ٢٨٩ يحيى بن زكرويه متلقباً لهم بالشيخ وزاعماً أنه أبو عبد الله على بن محمد
ابن إسماعيل بن جعفر الصادق ، وقيل بل زعم أن اسمه محمد بن عبد الله . وزعم
لهم فيما زعم أن أباه - ودعاه أباً محمود - يدعو له ، وأنه يتبعه في السواد بالعراق وفي
المشرق والمغرب مائة ألف ، وأيضاً زعم لهم فيما زعم أن ناقته التى يركبها مأمورة ،
وأنهم إذا اتبعوها في لقاء عدو نزل عليهم الفتح المبين ، وتكهن لهم أو ادعى
فيهم الكهانة ، وأظهر لهم عضداً له ناقصة ، وذكر أنها آيته^(١) . ومضى في
سنة ٢٩٠ بمن تبعوه يعيثُ فساداً في المدن السورية ، وكانت تتبع حينئذ الدولة
الطولونية ، وكانت تعاني من ضعف شديد ، وكانت قد ولت عليها طُغُجاً
الإخشيدى قبل ولايته على مصر ، فأرسل لابن زكرويه جيشاً سرعان ما هُزم
وقُتل قائده^(٢) . وقصد ابن زكرويه الرقة في جمع كثير يَقتُلُ وينهب ، وواقع
هناك جيشاً للخليفة المكتفى وهزمه وقتل قائده . وحاصر دمشق غير أنها
صمدت لحصاره ، وسرعان ما قُتل على أبوابها ، فبايع أتباعه أخاه الحسين ونادوا
به خليفة من بعده ، وزعم لهم بدوره أنه أحمد بن عبد الله بن إسماعيل بن جعفر
الصادق ، وأظهر لهم شامة في وجهه المثلث ذكر أنها آيته ، ولذلك سُمى بصاحب
الشامة ، ووفد عليه ابن عجم له يسمى عيسى بن مهرويه ، فزعم أنه مثله من نسل
جعفر الصادق ولقبه المدثر ، وزعم أنه المقصود بسورة المدثر^(٣) ! وأجابه كثير

(٣) طبرى ١٠ / ٩٦ .

(١) طبرى ١٠ / ٩٥ .

(٢) طبرى ١٠ / ٩٧ .

من البدو ، واشتدت شوكته ، فزحف بجموعه على دمشق وخافه أهلها فصالحوه على خراج يؤدونه إليه . وتقدّم إلى حمص ، فتغلب عليها ، وخطب له على منابرها باسم المهدي المنتظر ، ثم سار إلى حماة والمعرة وبعلبك يقتل ويسفك الدماء وينهب . ونزل سلمية ، وبدأ يقتل من بها من بني هاشم ثم قتل أهلها أجمعين حتى صبيان الكتائب ، ولم يبق بها عيناً تطرف^(١) . ويظهر أنه كان يريد القضاء على الأئمة المستودعين من أسرة القداحين ومن وراءهم من الأئمة المستورين إن كان يوجد أحد منهم حقاً ، حتى يصفو الجو له وإمامته ودعوته وخلافته ، ويزي الطبري يحتفظ بكتاب منه إلى بعض عماله يستهله على هذا النمط : « بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله أحمد بن عبد الله المهدي ، المنصور بالله ، الناصر لدين الله ، القائم بأمر الله ، الحاكم بحكم الله ، الداعي إلى كتاب الله ، الذاب عن حرّم الله ، المختار من ولد رسول الله ، أمير المؤمنين ، وإمام المسلمين ، ومذلّ المنافقين ، خليفة الله على العالمين ، وحاصد الظالمين ، وقاصم المعتدين ، ومبيد الملحدّين ، وقاتل القاسطين ، ومهلك المفسدين ، وسراج المبصرين ، وضياء المستضيئين ، ومشتت المخالفين ، والقائم بسند سيد المرسلين ، وولد خير الوصيين ، صلى الله عليه وعلى أهل بيته الطيبين ، وسلّم كثيراً . . . »^(٢) .

وواضح أن الحسين بن زكرويه لم يكتف بأن يكون إماماً مستودعاً مثل القداحين ، بل رأى أن يكون الإمام المستور نفسه ، ولذلك ادّعى له نسباً إلى محمد ابن إسماعيل بن جعفر الصادق ، وتلقب بالمهدي وخليفة الله أمير المؤمنين . وفرّ منه عبيد الله المهدي رأس الدولة الفاطمية ، ومضى في فراره حتى شمالي إفريقيا . ولما تكاثرت فظائعه وضجّ أهل الشام منه بالشكوى إلى الخليفة المكتفي أرسل إليهم جيشاً جراراً بقيادة محمد بن سليمان ، فنازل الحسين وأتباعه بالقرب من حماة في المحرم لسنة ٢٩١ وسحقهم سحقاً ذريعاً . ففرّ كثيرون من جنده إلى البوادي ، وفر على وجهه مع بعض خاصته إلى الشرق ميمماً الفرات ، وأسروا هناك جميعاً ، وصلّوا ببغداد مع عشرات من القرامطة جيء بهم من الكوفة ، وكان بينهم بغداديون ذاقوا المصير نفسه^(٣) . ويذكر الطبري أن أخاً لصاحب الشامة - لعله الأخ الثاني

(٢) طبري ١٠ / ١٠٨ .

(١) طبري ١٠ / ١٠٠ .

(٢) طبري ١٠ / ١٠٥ .

المسمى محمداً - عاث ببعض الأعراب في نواحي دمشق لسنة ٢٩٣ ثم صار إلى طبرية فغلب عليها ودخلها وقتل عامة أهلها من الرجال والنساء ونهبها وانصرف إلى ناحية البادية^(١). وأرسل زكرويه في السنة نفسها داعية له إلى بادية الشام يسمى أبا غانم ، فالتفّ حوله كثيرون وانتهب بهم بعض المدن القريبة من البوادي مثل بُصْرَى وأذرعَات ، وتعقبتهُم جنود الخلافة من ماء إلى ماء ، وقتل أبا غانم أحدُ أتباعه^(٢) فقصي على تلك الثورة . وبذلك تنتهي حركة زكرويه في بوادي الشام ، إذ يقضي العباسيون عليهم هناك قضاء مبرماً ، وأحكم لهم ذلك أنهم قضوا في الوقت نفسه على الدولة الطولونية التي كانت قد ضعفت ضعفاً شديداً ، مما مكن لزكرويه وأبنائه وأتباعه أن يحدثوا هناك شعباً وفتناً كثيرة .

واستعادت الدولة سيطرتها كاملة على سواد الكوفة ومن كان به من أتباع زكرويه ويذكر المؤرخون أنه أنفذ إلى البدو داعية له من أهل السواد يسمى القاسم بن أحمد يدعوهم للخروج معه ومع شيعته من سواد الكوفة ، واجتمع له كثيرون ، حتى إذا كان الحرم من سنة ٢٩٤ هاجم قوافل الحجاج في أوبتها من المسجد الحرام ونهب جميع ما كان معها من الأموال مما قدّرت قيمته بنحو مليونين من الدنانير وقتل من الحاج نحو عشرين ألفاً ، وبلغ النبا بغداد ، فندب له الخليفة المكتفي وصيف بن صوارتكين في جيش جرار ، فلقيه في الرابع من شهر ربيع الأول وقتل من شيعته مقتلة عظيمة ، وخلص بعض الجند إلى زكرويه فضر به بالسيف وهو فارّ ضربة اتصلت برأسه ، فاستسلم ، وأخذه أسيراً ، وأسروا نائبه وخواصه وابنه وأقاربه وكاتبه وامراته ، وحمل وهو جريح فتوفي في الطريق إلى بغداد من أثر الضربة^(٣) . وبذلك قضى على حركة زكرويه في سواد الكوفة وبوادي الشام قضاء نهائياً .

وإذا كانت حركة القرامطة قد باءت في هاتين المنطقتين بإخفاق ذريع فإنها نجحت إلى حد بعيد في منطقة الأحساء والبحرين على يد أبي سعيد الحسن بن بهرام الجنابي الذي مرّ ذكره آنفاً ، وكان من كبار دعاة حمدان قرمط ، واستطاع أن

(٣) طبري ١٠/١٢٤ وعريب ص ١١
والنجوم الزاهرة ٣/١٥٩ .

(١) طبري ١٠/١٢١ والنجوم الزاهرة

٣/١٥٨ .

(٢) طبري ١٠/١٢٢ .

يؤسس هناك دولة ظلت آماداً متطاولة إلى نحو منتصف القرن الرابع إذ دخلوا منذ سنة ٣٥٨ في طاعة الخليفة العباسي وخطبوا له على المنابر . وكانت تسود في دولة أبي سعيد الروح الاشتراكية التي بشَّها أستاذه حمدان قرمط ، وعظم أمره . وكثيراً ما كان يحدث لعهد الخليفة المكتفي أن يتقدم بجنوده نحو البصرة ، وتلقاه جيوش الخلافة ، ويقتل الطرفان قتالا شديداً^(١) . وما زال يسوس دولته ، حتى قتله غلام له صقلي في سنة ٣٠١ وقتل معه جماعة من قواده^(٢) ، فقام بالأمر من بعده ابنه أبو طاهر سليمان بن الحسن الحنَّاني ، ونراه يهاجم البصرة بأتباعه بمجرد استيلائه على الحكم^(٣) ، حتى إذا كانت سنة ٣٠٧ عاد إلى مهاجمتها وإعمال النهب والسلب فيها^(٤) . ودخلها لسنة ٣١١ في ألف وسبعمائة من أتباعه ، وضعوا السيف في أهلها ، وقتلوا واليها سبكاً المفلحي ، وأحرقوا المربد وبعض الجامع ومسجد قبر طلحة ، وظل بها سبعة عشر يوماً يحمل على إبله ما نهبه من الأموال والمتاع^(٥) . وفي السنة التالية رصد الحاج في مقدمهم من مكة لشهر المحرم وأخذ يوقع بقوافلهم ، وينهب الأموال ، ويأسر ويقتل ، وجاء الخبر إلى بغداد بذلك فوقع النوح والبكاء وخرج النساء منشّرات الشعور مسودات الوجوه يلطمن ويندبن^(٦) . وفي سنة ٣١٣ سار الحجاج من بغداد ومعهم جعفر بن ورقاء في ألف فارس ، فلقبهم أبو طاهر ، فناوشهم بالحرب ، فخاف الناس ورجعوا إلى بغداد ، فاتجه إلى الكوفة ، فقاتلوه ورجعت كفته ودخل البلدة وأقام بها ستة أيام ينهب ويسلب ، وكان مما نهبه منها أربعة آلاف ثوب وشي وثلاثة راوية زيت^(٧) . وفي سنة ٣١٥ خرج في ألف فارس وخمسة آلاف راجل متجهين إلى الكوفة ، وعلم المقتدر فجهز لحربه يوسف بن أبي الساج في عشرين ألفاً ، وتقاتلا على أبواب الكوفة ، ودارت الدوائر على ابن أبي الساج وأسر جريحاً ، وقُتلت جماعة كثيرة من أصحابه . وبلغ ذلك المقتدر فراعته الخبر ، وندب مؤنساً لقتاله ، فخرج بالعساكر إلى الأنبار في أربعين ألفاً ، وانضم إليه أبو الهيثم بن حمدان وإخوته في أصحابهم وأعوانهم ، ووقعت بينهما

- | | |
|----------------------------------|---|
| (١) طبرى ١٠/٧٥ ، ٧٩ ، ٨٥ . | (٤) النجوم الزاهرة ٣/١٩٧ . |
| (٢) طبرى ١٠/١٤٨ ، والهمداني ص ١٤ | (٥) الهمداني ص ٤٠ والنجوم الزاهرة ٣/٢٠٧ . |
| والنجوم الزاهرة ٣/١٨٢ . | (٦) الهمداني ص ٤٣ والنجوم الزاهرة ٣/٢١١ . |
| (٣) الهمداني ص ١٤ . | (٧) الهمداني ص ٤٨ والنجوم الزاهرة ٣/٢١٣ . |

مناوشات ليست بذات بال ، مما أغرى أبا طاهر بمنازلة بلدان كثيرة في جنوب العراق سالباً ناهباً سافكاً للدماء^(١) . وفي السنة التالية دخل الرحبة جنوبي قَرْقِيسِيَاء شاملي العراق ، ووضع فيها السيف ، فبعث إليه أهل قَرْقِيسِيَاء يطلبون الأمان فأمنها ، ثم دخلها . وتوجه إلى الرقة ، فأخذها ، وتفاقم أمره وكثر أتباعه^(٢) . حتى إذا كان موسم الحج لسنة ٣١٧ حدثت الطامة الكبرى إذ وافى أبو طاهر الحاج يوم التَّروِيَةِ ، وهم يهلُّون ويلبُّون ، وقتل الحجاج قتلاً ذريعاً في فيجاج مكة وداخل البيت الحرام وهم متعلقون بأستاره ، ويقال إنه قتل منهم نحو عشرة آلاف ، طُرح كثير منهم في بئر زمزم ، وعرَّى البيت من كسوته وقلع بابه واقتلع الحجر الأسود وأخذه معه إلى هجر ، وظل هناك حتى رُدَّ إلى موضعه في عهد الخليفة المطيع سنة ٣٣٩ . ونهب جميع التحف التي زين بها الخلفاء الكعبة على مر الأزمنة وما كانوا رصَّعوها به من الجواهر النفيسة ، ويقال إنه كان يجلس على باب الكعبة والحجيج يُصرَّعون حوله في المسجد الحرام ، وهو ينشد مثل قوله :

أَنَا لِلَّهِ وَبِاللَّهِ أَنَا يَخْلُقُ الْخَلْقَ وَأُفْنِيهِمْ أَنَا

ويقال إنه كان زنديقاً لا يصلي ولا يصوم ولا يؤدي فرائض الإسلام ، مع تظاهره بأنه مسلم وزعمه أنه داعية عبيد الله المهدي بإفريقيا^(٣) . ولم يحج أحد منذ هذا التاريخ حتى سنة ٣٢٦ ، خوفاً من شره وشر أتباعه من القرامطة ، غير أن شره لم ينحسر عن العراق ، إذ هاجم الكوفة لسنة ٣١٩ ، وعاد المهجوم عليها في سنة ٣٢٥ ونازلته جنود الخلافة في سنة ٣٣٠ ، ومات في شهر رمضان لسنة ٣٣٢ بالجُرد رى بعد أن تقطعت بسببه أوصاله وأطرافه وهو ينظر إليها ، وبعد أن طال عذابه ورأى في جسده العِبر . وخلفه أخوه سعيد^(٤) بن الحسن الجُنَّابِي ، وهو الذي رُدَّ الحجر الأسود إلى مكانه بالكعبة ، وكان العراق قد دخل في حكم البويهيين فضعف شأن قرامطة البحرين والأحساء ، واضطروا بأخرة إلى الدخول في طاعة الخلافة العباسية ونسبوا عقيدتهم القرمطية .

الزاهرة ٢٢٤ / ٣ .

(١) الهمداني ص ٥٢ والنجوم الزاهرة ٢١٧ / ٣ .

(٤) الهمداني ص ١٠٢ ، ١٣٩ والنجوم

(٢) النجوم الزاهرة ٢٢٠ / ٣ .

الزاهرة ٢٢٨ / ٣ ، ٢٧٥ ، ٢٨١ .

(٣) الهمداني ص ٦٢ عريب ص ٩٥ والنجوم

أحداث مختلفة

لعل أهم ما أمر به المتوكل في أوائل خلافته وَقَفُ القول بخلق القرآن وإنهاء حمل الناس بالقوة عليه وما كان من العنف بجلَّة الفقهاء السنيين وفي مقدمتهم أحمد ابن حنبل ممن رَفَضُوا اعتناق هذا القول، وكانت المحنة بذلك بدأت - كما مرَّ في كتابنا العصر العباسي الأول - منذ عصر المأمون سنة ٢١٢ ، إذ جعل القول بخلق القرآن عقيدة رسمية للدولة وكتب إلى الآفاق بامتحان الفقهاء فيها ، فمن لم يعلن جهاراً اعتناقه لها ضُرب وقُيِّد وأُرسل إلى بغداد لمحاكمته وجبسه. وتظل المحنة قائمة في عهد المعتصم ، وإن خَفَّت حَدَّتْهَا كثيراً ، ثم تعود إلى الاشتداد لعهد الواثق ويعود معها العنف بالفقهاء ممن لا يجاهرون بأن القرآن مخلوق . حتى إذا ولي المتوكل أمر بوقف هذا العنف وكل ما اتصل به من امتحان وأن يترك الناس الخوض في ذلك ويهتموا بالحديث والسنة^(١). وبذلك هياً لأن يأفل شأن الاعتزال ورجاله الذين دفعوا إلى هذه المحنة وظلوا يمدونها بالخطب الجزل، حتى أطفأ المتوكل نارها المشتعلة وأحالها رماداً، وكان لذلك أثر بعيد في الحياة العقلية والفنية ، فقد أفل نجم المعتزلة أصحاب الفكر الحر، وتأنق نجم أهل السنة المحافظين ، وأخذ الذوق المحافظ يسود في كل شيء في الشعر وفي الغناء ، وحتى في الدراسات الدينية ، إذ ظهر مذهب داود الظاهري الذي يرفض القياس .

وثار في أذربيجان لسنة ٢٣٤ ، محمد بن البعيث وقضى على ثورته . وتدخل سنة ٢٣٦ ، فيأمر المتوكل بهدم قبر الحسين في كربلاء وهدم ما حوله من المنازل والدور وأن يُحَرِّثَ ويُنْزَعَ ويُسْقَى موضع قبره ويُسْمَعِ الناس من إتيانه ، فحَرِّثَ الموضع وزُرِعَ ما حوَّله حتى يزول أثره ، وحلت بذلك محنة عظيمة على آل أبي طالب وشيعتهم . ويقول المسعودي إنه حين انتهى الفعلة إلى الحفرة وموضع اللحد لم يروا فيه أثر جثة ولا غيرها^(٢). ويقول الطبري : نُدِى في

(١) مروج الذهب ٣/٤ والنجوم الزاهرة ٢/٢٧٥ . (٢) مروج الذهب ٤/٥١ .

الناس : من وجدناه عند قبره بعد ثلاثة بعثنا به إلى السجون ، فامتنع الناس من المصير إليه^(١). وكان ذلك إنذاراً شديداً للعلويين ، فلم يتحرك منهم أحد لعهد المتوكل خشية بطشه ، وبالمثل لم يتحرك الخوارج لا في الموصل ولا في خراسان .

وتظل الغزوات الصيفية للروم البيزنطيين - ويسمونها الصائفة - قائمة طوال عصر المتوكل ، وينزلون في سنة ٢٣٩ دمياط وينهبون كثيراً من الأمتعة والأموال ، ثم يفرون إلى البحر المتوسط وما وراءه^(٢). ويحاولون الإغارة على سُميسِساط وبعض الثغور في شمالي الشام والموصل ، ويُنزل بهم على بن يحيى الأرمني في سنة ٢٤٥ هزائم متلاحقة^(٣)، ويدور العام ، فينكل بهم في غزو الصائفة ويعود بأسلاب وغنائم كثيرة ، كما ينكل بهم الفارس المغوار عمر بن عبد الله الأقطع وتكثر مغامره ، ويغزوهم الفضل بن قارن في عشرين مركباً ويفتح حصن أنطاكية^(٤). وما يزال غزو صقلية مستمراً في عهد المتوكل منذ نزول العرب بها في عصر المأمون حتى تستسلم نهائياً^(٥). وفي ديوان البحتری غزوة بحرية دمّر فيها أسطول المتوكل بقيادة أحمد بن دينار أسطول الروم لم يعرض لها المؤرخون^(٦).

ويولّي المتوكل سنة ٢٣٧ محمد بن عبد الله بن طاهر الشرطة وأعمال السواد في العراق ونيابته في بغداد ، وهي وظيفة تشبه وظيفة المحافظ لعصرنا ، وظل يتولاها حتى وفاته سنة ٢٥٣ وظلت بعده في بيته طويلاً . وفي سنة ٢٤١ ثارت البجة في شمالي السودان على والي مصر وامتنعت من دفع الخراج ، واشتبك معها محمد بن عبد الله المعروف بالقمى في سلسلة من المعارك توالى فيها انتصاراته ، وما زال يقاتلهم حتى أنابوا إلى الطاعة وعادوا إلى أداء ما كانوا يؤدونه من الخراج^(٧). وفي سنة ٢٤٤ غضب المتوكل على بختيشوع المتطبب وصادر أمواله وأمر بنفيه إلى البحرين^(٨). ويقول المسعودي : « كانت أيام المتوكل أحسن أيام وأنصرها من استقامة الملك وشمول الناس بالأمن والعدل »^(٩).

١٨٠ ، ٢٢٨ وما بعدها .
(٦) ديوان البحتری (طبع دار المعارف) ٩٨٠/٢ .
(٧) طبرى ٩ / ٢٠٣ وما بعدها .
(٨) طبرى ٩ / ٢١١ .
(٩) مروج الذهب ٤ / ٤ .

(١) طبرى ٩ / ١٨٥ .
(٢) طبرى ٩ / ١٩٣ وانظر العرب والروم
لفاز يلييف ترجمة محمد عبد الهادي شعيرة ص ١٨٧ .
(٣) طبرى ٩ / ٢١٨ .
(٤) طبرى ٩ / ٢١٩ .
(٥) العرب والروم ص ١١٥ ، ١٢٩ ،

وخلفه ابنه المنتصر في شوال سنة ٢٤٧ ، وكانت خلافته قصيرة لم تزد على ستة أشهر ، وفيها وجه جيشاً كثيفاً بقيادة وصيف لغزو الصائفة^(١) . ولعل أهم أعماله أنه أمر بالكف عن العلويين وألا يمنع أحد من زيارة كربلاء والنجف وما بهما من قبور آل أبي طالب ، وأمر برد أرض فدك في الحجاز إلى أولاد الحسن والحسين ، وأطلق أوقاف العلويين جميعاً وأمر ألا يتعرض أحد لشيعتهم بأذى أو مكروه^(٢) . وخرج لعهد محمد بن عمرو الشاري بناحية الموصل ، وتجمع حواه كثيرون من الخوارج تزعمهم وحضهم على الثورة وانضم إليهم كثيرون من الأكراد ، فوجه إليه جيشاً بقيادة سيما التركي ، هزمه هزيمة ساحقة ، وساقه مع طائفة من أصحابه أسيراً إلى سامراء ، فقتلوا وصلبوا جميعاً^(٣) . وفي عهده بدأ يعقوب ابن الليث الصفار ثورته في سجستان وتحرك إلى هراة^(٤) .

ويتولى الخلافة المستعين بالله نحو ثلاث سنين وثمانية أشهر ، وفي عهده يعود أبناء عمه الطالبيين إلى التحرك ، فيخرج بالكوفة لسنة ٢٤٨ يحيى بن عمر الطالبي حفيد زيد بن علي زين العابدين ، ويرسل إليه المستعين بجيش كثيف يقضى على ثورته ويُقتل ويُحتمل رأسه إلى بغداد ويُصلب ويبكيه كثير من الشعراء لورعه وتقواه^(٥) ، وجيمية ابن الرومي في رثائه والتفجع عليه مشهورة ، وفيها يقول :

سلامٌ ورينحانٌ وروحٌ ورحمةٌ عليك وممدودٌ من الظل سَجَسَجٌ^(٦)

وفي سنة ٢٥٠ يخرج الحسن بن زيد ، وهو من حفدة زيد بن علي زين العابدين ابن علي بن أبي طالب ، وكان خروجه بطبرستان ويغلب هناك على بلاد الديلم جميعها^(٧) ، ويظل ثابتاً لجيوش الدولة العباسية حتى يلبي نداء ربه لعهد المعتمد سنة ٢٧٠ ويخلفه من بعده أخوه محمد^(٨) . ويخرج على المستعين علويون مختلفون

والفخرى ص ٢٤٠ .

(١) طبري ٢٤٠/٩ والعرب والروم ص ٢١٧ .

(٢) مروج الذهب ٤ / ٥١ .

(٦) سجسج : معتدل لا حار ولا شديد البرد .

(٣) طبري ٢٥٥/٩ ومروج الذهب ٤ / ٥٣ .

(٧) طبري ٢٧١/٩ ومروج الذهب ٤ / ٦٨ .

(٤) طبري ٢٥٥/٩ .

(٨) طبري ٢٦٦/٩ ومروج الذهب ٤ / ٦٨ ،

(٥) طبري ٢٦٦/٩ ومروج الذهب ٤ / ٦٣ .

بالرّى وقزوين والكوفة ويقضى عليهم جميعاً^(١). ويتحرك بعض الحوارج ويلقاهم المصير نفسه^(٢). وتحدث حينئذ أكبر فاجعة أصابت الغزاة المقاتلين في جبهة الروم إذ استشهد في سنة ٢٤٩ بطلان مغواران من أهل البأس والنجدة والمكيدة في الحروب ، هما عمر بن عبيد الله الأقطع وعلى بن يحيى الأرونى اللذان طالما دوّخا الروم وأنزلا بهم هزائم ساحقة ، أما عمر فكان يغزو الصائفة في جمع من أهل مَسَطِية فلقية لإمبراطور بيزنطة في جيش جرار بلغ خمسين ألفاً ، ونشب القتال بينهما ، واستبسل عمر في الجموع القليلة التي كانت معه استبسالاً رائعاً ، ولكنهم استطاعوا لكثرتهم أن يحيطوا به ، فاستشهد في ألف من المسلمين الأبرار ، بعد أن أبلوا في المعركة بلاءً عظيماً . وأما على فكان قد انصرف من الثغور إلى ديار بكر شامى العراق ، وجاءه نعي عمر المفجع ، فاستشاط غضباً وأسرع إليه في أربعمائة مقاتل ، وهو لا يعلم عدّة الروم ، فأحاطوا به مثل صاحبه ، ومضى إلى ربه شهيداً^(٣).

وبويع بالخلافة المعتز في المحرم من سنة ٢٥٢ وفي عهده أوقع مفلح بعبد العزيز ابن أبى دلف الثائر بالكرج وهزمه هزيمة نكراء^(٤) ، ودخل مفلح لسنة ٢٥٥ طبرستان ، وهزم الحسن بن زيد العلوى وأحرق منازله ، وفر الحسن إلى الديلم ، وتوجه مفلح نحوه^(٥). وعلا حينئذ شأن يعقوب بن الليث الصفار ، واستولى على كرمان وفارس^(٦). وأقطع المعتز حاجبه بايكباك مصر لسنة ٢٥٤ فولى عليها أحمد بن طولون ، وسرعان ما أسس بها الدولة الطولونية .

وتولى الخلافة المهتدى في سنة ٢٥٥ ومكث في الخلافة أحد عشر شهراً ، وكان صالحاً تقيّاً عادلاً طاهر السيرة ، أمر بالمعروف ونهى عن المنكر وحرّم الشراب والاختلاف إلى القيان للسمع ، وبنى قبة جلس فيها لاستقبال العام والخاص ، والنظر في المظالم وأقل من المطعم والمشرب ، وكان يخطب بنفسه خطبة الجمعة ويؤم الناس في المسجد الجامع ، وكانت الخلفاء قبله تنفق على موائدها في كل يوم

(٤) طبرى ٣٧٣/٩ .

(١) مروج الذهب ٦٩/٤ .

(٥) طبرى ٣٨٢/٩ .

(٢) طبرى ٣٠٨/٩ .

(٦) طبرى ٣٨٢/٩ وما بعدها .

(٣) طبرى ٢٦١/٩ ومروج الذهب ١٢٥/٤ .

والعرب والروم ص ٢٢٠ ، ٢٢٤ .

عشرة آلاف درهم ، فأزال ذلك وجعل لماندته وسائر مؤنه كل يوم نحو مائة درهم ، وكان يواصل العبادة والصيام^(١) ، فبدأ غريباً عن روح العصر ، وثقل حكمه على الأتراك فأعملوا الحيلة عليه حتى قتلوه . وفي عهده بدأ أمر صاحب الزنج يظهر على نحو ما مرّ بنا في غير هذا الموضع .

وخلفه المعتمد في رجب سنة ٢٥٦ وكان يؤثر اللذة ويعكف على الملاهي غير أنه رُزق حظوة بأخيه أبي أحمد الموفق وكان حازماً مقداماً بعيد النظر عارفاً بأور الحرب وشئون السياسة ، فغلب على الخلافة وتديرها ، وأصبح المعتمد معه كالحجور عليه . وكانت الخلافة العباسية تردّت في هوة بعيدة القرار ، فأعاد إليها هيبتها ، وقضى كما مرّ بنا على ثورة الزنج قضاء مبرماً ، وهزم يعقوب بن الليث الصفار هزيمة نكراء ، اضطر على إثرها إلى الفرار لبقاء على نفسه من الموفق وجنوده . وتحركت حينئذ الخوارج في الموصل وخراسان ، وقضى على حركاتها جميعاً^(٢) . وكان القواد من أصحاب الثغور وغيرهم لا يزالون ينازلون الروم في الصوائف وفي مقدمتهم البطل يازمان الذي نكّل بهم لسنة ٢٧٤ ودارت السنة فغزاهم في البحر ، وأخذ لهم أربعة مراكب^(٣) .

وبلى الخلافة المعتضد لسنة ٢٧٩ ، وكان صورة قوية للحزم والجد اللذين ليس بعدهما جد وحزم ، كما كان فارساً شجاعاً وبطلا مغواراً أنقذ الخلافة مع أبيه الموفق من الزنج الثائرين الذين دوخوا القواد قائداً تلو قائداً . وفي أيامه سكنت الفتن وصلحت البلدان واستقامت له الأمور ورخصت الأسعار . وأدبل له دائماً من المخالفين عليه ، وكانت جيوشه تغدو وتروح بالنصر ، وممن ظفر بهم هرون الشاري الذي خرج بالموصل^(٤) وثار عليه بأصبهان والجليل في سنة ٢٨٣ بكر بن عبد العزيز بن أبي دلف العجلي الشيباني فوجه إليه عيسى النوشري ففرّ من أمامه ، ثم عاد إلى الظهور في سنة ٢٨٤ ، وقضى على ثورته . ونازل له السامانيون محمد بن زيد العلوي أخا الحسن الذي مرّ ذكره ، إذ هاجموه بطبرستان وقتلوه على أبوابها^(٥) لسنة ٢٨٧ . ونازلوا له الترك وفتحوا حاضرتهم وأسروا ملكهم وامراته خاتون ونحواً من

(٤) طبرى ١٠/٤٣ .

(٥) طبرى ١٠/٨١ وروج الذهب ٤/١٧٧ .

(١) مروج الذهب ٩٧/٤ ، ١٠٣ .

(٢) طبرى ٩/٥١٢ ، ٥٣٢ .

(٣) طبرى ١٠/١٣ وما بعدها .

عشرة آلاف مع ما أخذوا من الأسلاب والغنائم الوافرة^(١)، وغزت جيوشه الروم وكبدتهم خسائر فادحة، وغزاهم قائده راغب في البحر لسنة ٢٨٥، واستولى منهم على مراكب كثيرة، غير ما أغرقه، وضرب أعناق ثلاثة آلاف منهم وفتح كثيراً من حصونهم^(٢). ويغادر أبو عبد الله الشيعي في عهده الشام إلى المغرب وينزل بقبيلة كتامة ويدعوهم إلى عبيد الله المهدي جد الخلفاء الفاطميين الذي كان قد فر من الحسين بن زكرويه، على نحو ما أسلفنا في حديثنا عن القرامطة والإسماعيلية^(٣). ويحدث لعهد المعتضد حادث مفرج إذ يوغر دميانة أحد قواده في الثغور صدره على أهل طرسوس لشيء كان في نفسه منهم، ويشير عليه أن يحرق سفنهم التي كانوا يغزون فيها الروم. والعجب العجيب أن يصيح له المعتضد المعروف بكياسته، غير أن هذا الشيطان عرف كيف يؤثر فيه، فأمر بإحراق جميع سفنهم البحرية وإحراق جميع آلاتها الحربية، يقول الطبري: «وكانت خمسين مركباً قد أنفقت عليها أموال جليلة فأضر ذلك بالمسلمين وكسر في أعضادهم وقوى به الروم وأمنوا أن يُغزوا في البحر أو تُدَمَّر سفنهم وأساطيلهم فيه»^(٤).

ويتولى الخلافة المكتفي سنة ٢٨٩، وكان يتوخى العدل والإنصاف في حكمه، فردَّ المظالم إلى أهلها ومالت إليه قلوب الرعية. وفي عهده تَمَّ القضاء على زكرويه القرمطي ومن بقي من أنبائه وفتح جيشه المقيم بطرسوس أنطاكية على ساحل البحر المتوسط عنوة، وقتل من أهلها خمسة آلاف، وأسر مثلهم، واستولى على ستين مركباً للروم حملها ما غنم من الرقيق والمتاع والذهب والفضة^(٥). ويذكر آدم مئير أنه في السنة نفسها، وهي سنة ٢٩٣، استولى المسلمون على مدينة سالونقي ثانية مدن الدولة البيزنطية وأسروا من أهلها اثنين وعشرين ألفاً^(٦). وفي السنة التالية غزت جنود المكتفي سلندو وآلس وفتح الله عليهم وقتلوا من أهلها مقتلة كبيرة^(٧). وفي السنة نفسها ظهر السفياقي بالشام، ودعا إلى نفسه، وتبعه نفر، فحملوا جميعاً مقيدين إلى باب المكتفي^(٨).

(٦) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري لآدم مئير ترجمة الدكتور أبي رييدة (الطبعة الأولى) ٥/١.

(٧) طبري ١٣٠/١٠.

(٨) طبري ١٣٥/١٠.

(١) طبري ٣٤/١٠.

(٢) طبري ٦٨/١٠.

(٣) انظر النجوم الزاهرة ١٢٤/٣.

(٤) طبري ٨٠/١٠.

(٥) طبري ١١٧/١٠.

ويخلفه أخوه المقتدر سنة ٢٩٥ وهو ابن ثلاث عشرة سنة ، وما يوافي شهر ربيع الأول لسنة ٢٩٦ ، حتى يجتمع كثيرون من الكتاب والقضاة وذوى الرأى ويَجْمَعُوا على خلعه وتولية ابن المعتز ، وتم له البيعة ، ولا يكاد يمضى عليه يوم وليلة حتى ينتقض الأمر عليه كما مر بنا فى غير هذا الموضع ، فيُقْتَل وتُردّ الخلافة على المقتدر ، ويصبح لعبة فى أيدى الترك يحركونه كما يشاءون ، وتعود الدولة إلى سيرتها القديمة السيئة قبل المعتمد وأخيه الموفق . وكان فى بيت المال يوم تولى الخلافة خمسة عشر مليوناً من الدنانير بدّها كلها ، وبدّد معها القناطير المقنطرة من الأموال التى كانت تُجَبِّى من أطراف الدولة الواسعة . وتحكمت أمه « شغب » ووصيفاتها فى شئون الدولة ، وعاد الأتراك إلى طغيانهم وفسادهم ، فكثر الرشوة وعمّ الظلم والبغى ، وكثر الوزراء وكثرت مصادراتهم ومصادرات الكتّاب والتجار ، كما كثر الاستيلاء على أموال ذوى اليسار بغير حق ، مما ألّما به فى غير هذا الموضع . وكان هذا الفساد سبباً فى كثرة الفتن والثورات ، وما توافى سنة ٣٠٠ للهجرة حتى يثور على الدولة بطبرستان والديلم الأطروش العلوى وهو الحسن بن على الحسى ، لقب نفسه بالداعى ، واستطاع أن يَدْخُل فى الإسلام كثيرين استجابوا له ، وبني لهم المساجد ، وكان حصيفاً فاضلاً أصلح الله الديلم به ^(١) . وأغار الروم على اللاذقية بَحْرًا وَسَبَوًا منها . خلقاً كثيراً ، وردّ دميانة قائد الأسطول العربى فى البحر المتوسط على هذا الغزو فى السنة نفسها وهى سنة ٢٩٨ فغزا بأسطوله قبرص وفتح بها كثيراً من الحصون وحرّق وسبّى كثيرين ^(٢) . وفى سنة ٣٠٤ غزا مؤنس بلاد الروم من ناحية مَلَكُشِيَّة وفتح حصوناً كثيرة ^(٣) ، وردّ الروم على هذا الغزو فى سنة ٣١٤ فدخلوا مَلَكُشِيَّة بالسيف ، وقتلوا وسبوا ، وظلّوا فيها أياماً ^(٤) . وفى سنة ٣١٣ فتحت بلوخستان ، وكانت لا تزال وثنية فدخلت فى دين الله .

وتولى الخلافة القاهر بالله سنة ٣٢٠ ، وكان مولعاً بالشراب والغناء ، وكان سفاكاً للدماء ، شديد البطش بمن يغضب عليه من الأتراك ، وقتل منهم نفراً فى مقدمتهم مؤنس الملقب بالمظفر أكبر الحجاب فى عصره وعصر المقتدر ، وهابه الناس وخشوا

(١) طبرى ١٤٩/١٠ وروج الذهب ٢١٩/٤ (٣) النجوم الزاهرة ٣/ ١٩٠ .

والنجوم الزاهرة ٣/ ١٨٥ . (٤) النجوم الزاهرة ٣/ ٢١٥ .

(٢) مروج الذهب ٤/ ٢١٨ .

صواته ، ومع إدمانه للخمر أمر بتحريمها وتحريم السماع وقبص على المغنين وكسر آلات اللهو وأمر بتتبع الجوارى من المغنيات^(١) ، وما زال مخوف السطوة حتى احتيل عليه بعد سنة ونصف من خلافته فخلع وسُملت عيناه ، وهو أول من عوقب هذا العقاب الصارم من الخلفاء ، وهى عادة بيزنطية ذميمة ، وقد عاش بعدها سبعة عشر عاماً .

وخلفه الراضى بالله ابن أخيه المقتدر سنة ٣٢٢ ، وكان سمحاً جواداً مقرباً للعلماء والأدباء ، ولم يكن ينصرف عنه أحد من ندمائه إلا بخلاعة أو صلبة ، ومن أهمهم أستاذه الصولى أبو بكر محمد بن يحيى وابن الأنبارى . وخصه الصولى بترجمة ضافية فى كتابه الأوراق ، فى القسم الخاص بأبناء الخلفاء ، روى فيها طائفة كبيرة من أشعاره ، وهو آخر خليفة له شعر مدون ، وآخر خليفة انفرد بتدبير الجند ، وآخر خليفة خطب فى صلاة الجمعة ، وآخر خليفة جالس الندماء^(٢) . وفى عهده قُتل ابن مقلّة الأديب والخطاط المشهور بعد أن اعتلى كرسى الوزارة مراراً . وعظّم أمر ابن رائق بعد تولى الوزارة ، إذ قلّده الراضى جميع أمور الدولة ، غير أنه لم يلبث أن صار محجوراً عليه وكالأسير فى يده^(٣) . وفى أوائل عهده سنة ٣٢٤ شَنَّ سيف الدولة الحمدانى أول حرب على الدمستق فى آمد^(٤) ، وتوالت بعد ذلك حروبه مع البيزنطيين .

ويتولى الخلافة المتقى سنة ٣٢٩ ، وكان ناسكاً تقياً يصوم الدهر ، ولم يشرب التبيذ قط ولا اتخذ جلساء ولا ندماء ، وكان يقول : المصحف نديمى ولا أريد جلساء غيره ، غير أنه كان تعس الحظ إذ جاء بأخرة وقد فسدت الأمور وأفلت الزمام من يد الدولة ، لاشتداد المنافسة بين الوزراء والأمراء وخاصة آل البريدى بالموصل . وبلغ من اضطراب الأحوال أن استولى أبو الحسين البريدى على بغداد ، ومضى البريدى يسوم الناس ظلماً فادحاً فى الخراج وغير الخراج ، ويأخذ أموال التجار وغيرهم غصباً ، أما الخليفة فليجأ إلى الحمدانيين فى الجزيرة ،

(١) التنبيه والإشراف

ص ٣٨٨ والنجوم الزاهرة ٢ / ٢٣٩ .

(٢) النجوم الزاهرة ٣ / ٢٧١ .

(٣) النجوم الزاهرة ٣ / ٢٥٨ .

(٤) نفس المصدر والصفحة .

وما زال ينتقل معهم إلى أن قدموا به إلى بغداد وهرب منها البريدي ، وخلع حينئذ على الحسن بن عبد الله بن حمدان ولقبه بناصر الدولة وعلى أخيه عليّ ولقبه بسيف الدولة^(١) . ولم تهدأ الأمور في بغداد فقد تفاقم أمر العبيّارين وازداد النهب حتى خلت الدور من أهلها وعُطلت المساجد والأسواق وأغلقت الحمامات . وكأنما كتب على المتقي أن يعيش سني خلافته بائساً تعيساً . حتى القصور وقبابها يصيبها الدمار فقد سقطت لأوائل خلافته قبة قصر المنصور الخضراء ، وكأنما كان ذلك إيذاناً بأفول نجم الدولة العباسية ، إذ كانت تلك القبة تاج بغداد وعلمها المعلم^(٢) . وفي سنة ٣٣١ زحف الروم على أرزن بأرمينية وميسافارقين ونصيبين بديار بكر ، فقتلوا وسبوا كثيرين ، وطلبوا من أهل مدينة الرها منديلاً من كنيسة لها زعموا أن المسيح عليه السلام مسح به وجهه فارتسمت صورته ، وقالوا إن سلمتموه لنا أطلقنا كل من بأيدينا من أسرى المسلمين . وكاتب الخليفة المتقي في ذلك ، فاستفتى الفقهاء والقضاة ، واختلفوا في الرأي ، ورجحت كفة من قالوا بإعطائهم إياه ، لأن خلاص المسلمين من الأسر أوجب . فأرسل المنديل إلى الروم وأطاعت الأسارى ، وحملوا المنديل إلى القسطنطينية ، وخرج البطريرك ورجال الدين والدولة لاستقباله في موكب كبير^(٣) . وما زالت الأمور تسوء والحكم يزداد فساداً ، وتوقف جهاد الروم ، ونهب الحجاج وقُطعت الطرق ، وأخذت دعائم الدولة تتداعى تداعياً شديداً ، ولم يلبث توزون القائد التركي للمتقي أن غدر به ، فقبض عليه وخلعه ، لقاء سبائة ألف دينار أخذها من أحد الطامحين إلى الاستيلاء على الخلافة ، وتولت الجارية الشيرازية «حُسن» سمل عينيه بيد غلام لها سندی . وعاش بعد خلعه خمساً وعشرين سنة^(٤) ، ومات توزون بعد خلعه بقليل .

ويخلفه المستكفي سنة ٣٣٣ بعد أن تأمر عليه مع توزون والجارية الشيرازية ، ونادراً ما كان يهناً بأيامه في الخلافة ، إذ كان يتقاذفه الترك وهذه المرأة الجشعة ، فلم يهدأ له بال . ولم يدر عليه عام في خلافته حتى دخل بنوبويه بغداد وصارت

(١) النجوم الزاهرة ٢٧٤/٣ وما بعدها . ٢٧٨/٣ ومتر ٥/١ .

(٢) النجوم الزاهرة ٢٧٠/٣ (٤) الهمداني ص ١٤٢ والنجوم الزاهرة

(٣) الهمداني ص ١٣٥ والنجوم الزاهرة . ٢٨٢/٣ ومتر ١٦/١ .

إليهم مقاليد الأمور ، وسرعان ما طلبوا إليه أن يمتنع نفسه ، فنزل على مشيئتهم ،
غير أنه اشترط ألا يقطع شيء من أعينائه ، وكان المطيع أخو المتقى هو الذي خلفه
فأمر بأن تُسَمَّلَ عيناه انتقاماً لأخيه . وبذلك انتهت الحقب التي استول فيها
الأتراك على مقاليد الخلافة العباسية ، وأنزلوا بالخلفاء ما لا يطاق من الذل والهوان .

الفصل الثاني

الحياة الاجتماعية

١

طبقات المجتمع

كان يتوزع مجتمع العصر العباسي الثاني ثلاث طبقات أساسية : طبقة عليا تشتمل على الخلفاء والوزراء والقواد والولاة ومن يلحق بهم من الأمراء وكبار رجال الدولة ورعوس التجار وأصحاب الإقطاع من الأعيان وذوى اليسار ، وطبقة وسطى تشتمل على رجال الجيش وموظفي الدواوين والتجار والصناع الممتازين ، ثم طبقة دنيا تشتمل على العامة من الزّراع وأصحاب الحرف الصغيرة والخدم والرقيق ، ويأتى فى إثر تلك الطبقات أهل الذمة .

وكانت الطبقة الأولى تغرق فى النعيم ، يتقدمها الخلفاء وكانت تُجسبى إليهم أموال الخراج من سواد العراق وأقاصى الدولة وأدانيها غير ما كان يجبي من المكوس على الواردات والصادرات ، وعادة كان الوالى يرسل إلى بغداد ما تبقى لديه من الإنفاق على شئون إمارته وحاجتها من المساجد والبياراتات ومن بها من الجند والموظفين . وذكر ابن خردادبة أن الدخل من سواد العراق لسنة ٢٤٠ للهجرة بلغ ثمانية وسبعين مليوناً من الدراهم ، وبلغ دخل جزء منه فى عهد المعتضد لسنة ٢٨٠ مليونين وخمسمائة وعشرين ألفاً من الدنانير^(١) . وتدهور الدخل فى عهد المقتدر ومع ذلك نرى خراج سواد العراق يباغ مليوناً وخمسمائة وسبعة وأربعين ألف دينار ، ويورد الصابى مع هذا الإحصاء الدخل العام لهده فى سنة ٣٠٦ ، ويذكر أنه بلغ أربعة عشر مليوناً وثمانمائة وتسعة وعشرين ألفاً وثمانمائة وأربعين ديناراً^(٢) .

(١) كتاب الوزراء للهلال بن المحسن الصابى

(٢) رسوم دار الخلافة للهلال الصابى من

وكانت هذه القناطير المقنطرة من الدراهم والدنانير تُسَنَّفَقُ سنوياً ، وقلما كان يتبقى منها شيء ويقال إنه لما ولي المعتضد (٢٧٩ - ٢٨٩ هـ) ادّخر من كل سنة من سني خلافته مليون دينار ، بلغ ما ادخره تسعة ملايين ^(١) ، وخلفه ابنه المكتفي (٢٨٩ - ٢٩٥ هـ) ، فبلغ بالمُدَّخَر أربعة عشر مليوناً ^(٢) . وجاء بعده المقتدر فلم يقف عن الادخار فحسب ، بل أتلف كل المدَّخَر مع ما صار إليه من أموال الخراج سنوياً وبما كانت تُغَلِّه الضياع السلطانية الواسعة ، حتى قالوا إنه بدَّد - كما مرَّ بنا في الفصل الماضي - ثمانين مليوناً من الدنانير . ويورد الصابى في كتابه : الوزراء ورسوم دار الخلافة أثباتاً ^(٣) بما كان يُسَنَّفَقُ على حواشي الخليفة وداره في عصر المعتضد والمقتدر (٢٩٥ - ٣٢٠ هـ) ، وهي تصور عِظَمَ هذه النفقات . فقد كان يُسَنَّفَقُ على القصر والحرم والخدم أكثر من ستين ألف دينار شهرياً وكان يُسَنَّفَقُ على المطابخ الخاصة والعامة أكثر من عشرة آلاف دينار شهرياً ، بل قد يبلغ ذلك أكثر من ثلاثين ألفاً ، غير ما يُسَنَّفَقُ على البوابين من البيض والسودان وكان يبلغ ألف دينار ، وغير ما يُسَنَّفَقُ على المماليك والحرس وكانوا يُعَدُّون بالآلاف ، وغير ما ينفق على المرسومين لخدمة الدار من القراء وأصحاب الأخبار والمنجمين والبوقيين والمضحكين والطبالين وأصحاب الصيد والملاحين في السفن وأصحاب المشاغل والأطباء ، ويقول الصابى إن نفقة ذلك كله وما يجري مجراه مما يلزم الدار كان يبلغ أكثر من مليونين وخمسمائة ألف دينار سنوياً . ويقال إنه كان في الدار لأيام المكتفي عشرون ألف غلام للحرس وعشرة آلاف خادم من السود والصقالبة ، أما في أيام المقتدر فكان بها أحد عشر ألف خادم منهم سبعة من السود وأربعة من الصقالبة وأربعة آلاف امرأة بين حرة ومملوكة وألوف من الغلمان الحُجَّريَّة (المقيمين في الحُجَرِ) ، وكانت النوبة لحفظة الدار خمسة آلاف غير أربعمائة من الحراس ، وكان عدد الفراشين ثمانمائة ^(٤) . ويروي المؤرخون أن الراضى (٣٢٢ - ٣٢٩ هـ) ، عمل على القَصْد الشديد في نفقات دار الخلافة ، حتى بلغت مع

المعتضد كانت سبعة آلاف دينار يومياً .

(٤) رسوم دار الخلافة ص ١٠ ويقال

إن الخدم في عهد المتوكل كانوا سبعمائة .

انظر الديارات للشابشى (الطبعة الثانية) ص ١٦٠ .

(١) كتاب الوزراء ص ١٨٩ .

(٢) كتاب الوزراء ص ١٩٠ .

(٣) الوزراء ص ١١ وما بعدها ورسوم

دار الخلافة ص ٢١ ويذكر الصابى

في الكتاب الأول أن نفقات الحضرة لمهد

شدة الحذف والاقتصاد ثلاثة آلاف دينار^(١) يومياً .

وقد بدأ العصر بالمتوكل ، ويتمال إن النفقات لم تبلغ في عصر من عصور انحفاء ما بلغت في عصره ، وخاصة في بناء القصور ، وقد أحدث فيها البناء الموسوم باسم البناء الحبري ، وكان يُجعل فيه دون القصر ثلاثة أبواب عظام ، وكان في الراق مجلس الخليفة ، وأمامه بيتان بهما خواصه وعلى اليمين خزانة الكسوة وعلى اليسار ما يُحتسج إليه من الشراب^(٢) . وكان كلما بنى قصراً أتبعه بآخر ، حتى بلغت قصوره نحو العشرين ، وهي : بركوار (دار المنفعة) والشاه والعروس والبركة والجوسق والخمار والجعفرى والغريب والبديع والصبيح والمديح والشيداز والقصور والجامع والقلاية والبرج والمتوكلية والبهو والواوئة ، وبلغ ما أنفقه على تلك القصور مائتين وأربعة وسبعين مليوناً من الدراهم^(٣) . وكان البرج من أجملها زينة إذ جعل فيه صور عظيمة من الذهب والفضة ، وبركة جعل فرشها ظاهراً وباطناً صفائح الفضة ، وشجرة ذهب على أغصانها وفروعها طيور تغرد وتصفر مكحلة بالجوهر ، وسميت طوبى (من أشجار الجنة) . واتخذ له سرير كبير من الذهب عليه تمثال سبعين عظيمين ودرج عليه صور السباع والنسور . وألبيست حيطان القصر من الداخل والخارج بالفسيفساء والرخام المذهب ، ويقال إن نفقة هذا القصر وحده بلغت مليوناً وسبعمائة ألف دينار^(٤) . وتبارى الخلفاء بعد المتوكل في بناء القصور ، فبنى المعتز ابنه قصره المعروف باسم التاج أو الساج وكان قصراً ضخماً^(٥) ، وبنى المعتمد (٢٥٦ - ٢٧٩ هـ) قصره المعشوق على شاطئ دجلة^(٦) ، وبنى المعتمد قصر الثرى ، وكان أبنية متلاصقة ، ووصل بينها وبين قصر التاج بسرداب طويل لتمشى فيه حظاياها ، وفيه يقول ابن المعتز^(٧) :

وَبُنَيَانِ قَصْرٍ قَدْ عُلَتْ شُرَفَاتُهُ كَصَفِّ نِسَاءٍ قَدْ تَرَبَّعْنَ فِي الْأَزْرِ

(٥) انظر ياقوت في التاج وديوان البحرى

(طبع دار المعارف) ١٤٨٣/٣ .

(٦) ديوان البحرى ١٤٦٧/٣ .

(٧) ديوان ابن المعتز (طبعة دار صادر

بيروت) ص ٢١٥ وانظر معجم البلدان في الثرى .

(١) رسوم دار الخلافة ص ٣٠ .

(٢) مروج الذهب ٤/٤ .

(٣) الديارات للشابثى (الطبعة الثانية) ص

١٥٩ .

(٤) الديارات ص ١٦٠ وانظر المروج

٤٠/٤ .

ولعل في كثرة هذه القصور ما يشير إلى أن دار الخلافة كانت واسعة ، وكان القصر الواحد أحياناً يمتد إلى فرسخ أو يزيد ، ويقال إن قصر الثريا كان يمتد إلى ثلاثة فراسخ وإنه كلّف المعتضد - كما قدمنا في الفصل الماضي - أربعمائة ألف دينار . وكأنما كانت دار الخلافة وقصورها أشبه بمدينة ، ومرّ بنا آنفاً عدد من كان بها في عصر المكتفي والمقتدر من الغلمان والحرس والخدم ، وأنهم كانوا يُعَدُّون بالآلاف ، فطبيعي أن يكون بها فلاحون وأكرّة للعمل ومساجد وحمامات تفوت الحصر حتى قالوا إن الحمامات بلغت بها . أحياناً أربعمائة^(١) . وكانت الدار تشتمل على بساتين وجداول متصلة بدجلة وقباب شتى وأروقة وبرك ومياه جارية .

وكان الوزراء يعيشون في هذا النعيم نفسه لما كانوا يأخذونه من رواتب ضخمة وإقطاعات وما كانوا يختلسونه لأنفسهم من أموال الدولة ، ويقال إن الوزير كان يأخذ إقطاعاً يدرّ عليه مائة وسبعين ألف دينار ، حتى إذا كان عهد المقتدر أجري عليه راتب قدره خمسة آلاف دينار في كل شهر ، ثم صار سبعة آلاف^(٢) . ولكي نتصور مبلغ ثراء الوزراء يكفي أن نعرف أن المعتمد (٢٥٦ - ٢٧٩) استخلص - كما مرّ بنا في الفصل الماضي - من وزيره سليمان بن وهب وابنه عبيد الله نحو مليون دينار ، ويروي أنه أحصى ما وجد لوزيره صاعد من الرقيق والمتاع والكسوة والسلاح والآلات في خاصة نفسه دون ما وُجد لأخيه عبدون فكان مبلغه ثلثمائة ألف دينار ، وكان مبلغ غلته في سائر ضياعه مليوناً وثلثمائة ألف^(٣) . ويذكر المؤرخون عن ابن الفرات وزير المقتدر أنه كان يملك - كما ذكرنا في غير هذا الموضع - من الفضة والضياع والأثاث ما يزيد على عشرة ملايين من الدنانير . وكانت لسليمان بن وهب دار كبيرة جعلتها الدولة بعده لكل وزير حتى سنة ٣٢٠ ، وكانت تسمى دار المخرم ، وكانت مساحتها تربو على ثلثمائة ألف ذراع^(٤) . وكانت دار ابن الفرات مدينة ضخمة حتى كان بها فوجان من الخياطين^(٥) ، ويقال إنه

(١) رسوم دار الخلافة ص ٨ .

(٤) مسكويه ٤١٠/٥ .

(٥) كتاب الوزراء ص ١٧٦ .

(٢) كتاب الوزراء ص ٢٨٢ ، ٣٥١ .

(٣) مروج الذهب ١٢١/٤ .

لما عُيِّنَ وزيراً زاد ثمن الشمع في يوم تعيينه لأنه كان من رسمه ألا يخرج أحد من داره وقت العشاء إلا ومعه شمعة، وسُقِيَ في داره في ذلك اليوم وليلته أربعون ألف رطل ثلجاً^(١).

وكان للوزير بدار الخلافة بناء مفرد يجلس فيه والخواص والخواشي بين يديه إلى أن يستدعيه الخليفة، وكان يَخْدُو إليه الكِتَابَ، فيقنهم على الأعمال المطاوعة منهم ويسلم إلى كل كاتب ما يتعلق بديوانه ويوصيه بما يريد منه، ثم يروحون إليه بما عملوا، وفي أثناء ذلك تُعْرَضُ عليه الكتب بالنفقات والتسبيبات والحسابات^(٢)، والكتّاب جلوس بين يديه كلٌّ في مكانه ومعه دواته.

وكان الوزير يتخذ مثل الخليفة حرساً على باب داره وقد يُعَدُّون بالعشرات^(٣) وكان مجلسه يَغْصُ بغلمان مسلّحين، وكان يركب إلى دار الخلافة وبين يديه الحجاب والقواد والغلمان، ويقال إنه كان لحامد بن العباس أحد وزراء المقتدر أربعمائة مملوك يحملون السلاح أمامه، وكل مملوك نفر من المماليك والغلمان يتبعونه، ويَرَوَى بعض الكتاب أنه أحصى الموائد المنصوبة في داره فوجدها ثلاثين ونيفاً ويقال، بل كانت أربعين، وكان يجلس إلى كل مائدة ثلاثون رجلاً، وعلى كل واحدة جدى أو جداء وبارد وحلوى مما لذ وطاب^(٤). وكان الوزير يتولّى إدارة مالية البلاد والقيام على الدخل والخرج وفرض الضرائب. واشتهر غير بيت بتولية الوزارة مثل بيت بنى وهب وأصلهم من نصارى العراق، وعمل كثير منهم في الدواوين وبلغوا فيها أعلى المناصب، أما الوزارة فتولاها منهم في هذا العصر أربعة، كان في مقدمتهم سليمان بن وهب الذي مرَّ بنا ذكره ثم ابنه عبيد الله، ثم ابن عبيد الله القاسم، ويقال إن المكثي زوّج ابنه أبا أحمد من ابنته، وإنه خلع عليه أربعمائة خلعة، أما الصداق فكان مائة ألف دينار^(٥)، وأنفق على

(١) كتاب الوزراء ص ٦٣ ، ١٩٥ .

(٢) كتاب الوزراء ص ٢٣٨ .

(٣) كتاب الوزراء ص ١٢١ .

(٤) كتاب الوزراء ص ١١٢ والنجوم

الزاهرة ٢٠٨/٣ والهمداني ص ٢٠ ، ٣٧ .

(٥) النجوم ١٣١/٣ .

الوليمة أكثر من عشرين ألف دينار^(١).

وعلى نحو ما كان الوزراء والخلفاء يعيشون في هذا الترف كان يعيش فيه أيضاً القواد ، وكان بيدهم مصير الخلفاء وكانوا يفدون أنفسهم منهم بكل ما يطلبون من أموال ، وكانوا يُقَطِّعونهم إقطاعات كثيرة على نحو ما كانوا يقطعون الوزراء ، فكانت لهم ضياع واسعة تغلُّ عليهم أموالاً وفيرة ، ولعل خليفة لم يكن من الإقطاع لهم كما أكثر المقتدر ، ويقال إن إقطاعات يانس الموفقي في عهده كانت تغلُّ سنوياً ثلاثين ألف دينار . وبلغ حينئذ من مكانة القواد أن خلع المقتدر على مؤنس لقب المظفر^(٢) ، ولما قدم بغداد في عام ٣١٢ للهجرة ركب الوزير ابن الفرات للسلام عليه وتهنئته بمقدمه^(٣) ، وهو ما لم تجربه عادة وزير من قبله ، فقد أصبح القواد يقدِّمون على الوزراء . وكان لهم حجائبهم وممايكهم وحشهم وخدمهم ونفقاتهم الواسعة على نحو ما كان للوزراء . وبالمثل كان ولاية الأقاليم ، وكان حامد ابن العباس الذي مر بنا ذكره قبل توليته الوزارة للمقتدر والياً على فارس والبصرة ومن ولايتهما كون ثروته الواسعة . ويروى أن خمارويه صاحب مصر حين زوج ابنته قطر الندى من المعتضد الخليفة العباسي حمل معها من الجهاز ما لم ير مثله ولا يُسمع به ، وكان ابن الجصاص الجواهري البغدادي القائم على الجهاز ، ويقال إنه سأله هل بقي بيني وبينك من الحساب شيء ؟ فأجابته كَسْرٌ (باق) طفيف وإذا هو أربعمائة ألف دينار^(٤) ، فما بالنا إذن بنفقات الجهاز كله . ويتوقف المؤرخون ليقصوا لنا هدايا الصفار وإلى فارس للمعتضد وما كان معها من تماثيل وملايين الدراهم وصناديق الثياب^(٥) . وكان مما أرسله لإسماعيل بن أحمد الساماني وإلى خراسان إلى المكتفي سنة ٢٩٢ ثلثمائة بغير عليها صناديق فيها المسك والعنبر والثياب من كل لون^(٦) . وكانما أموال الولايات ودخولها كانت ملكاً للولاية ينفقونها في بذخهم ويهدونها بحسب مشيئاتهم . وتوفي سنة ٣٠١ على بن أحمد الراسبي وكان متوايماً من حدود واسط في العراق إلى جُنْدِسابور ومن السوس إلى شهرزور ، وخلف مليون دينار ومن آنية الذهب والفضة ما قيمته مائة ألف دينار

(٤) النجوم ٦٢/٣ .

(٥) مروج الذهب ١٤٨/٤ .

(٦) النجوم ١٥٦/٣ .

(١) عريب ص ٥٣ .

(٢) النجوم ٢٠٣/٣ .

(٣) الوزراء ص ٥٠ .

ومن الخنزير ألف ثوب ، وخلف ألف فرس وألف بغل وألف بعير ، وكان له ثمانون طرازاً (مصنع ثياب) تُنسج فيها الثياب التي للملبوسه ^(١) وملبوس حرمة وحواشيه وخدمه .

وكان أبناء البيت العباسي يتقاضون من الدولة رواتب ثابتة ، ومثلهم العلويون والهاشميون بصفة عامة ، وكثيرون منهم كانوا يتولون مناصب هامة ، وكان منهم دائماً من يحج بالناس في كل عام . وكان الخلفاء ما يزالون يقطعون المقرئين منهم إقطاعات وضياء كثيرة ، بالإضافة إلى كثير من الضياع التي كانوا يرثونها عن آبائهم وأجدادهم . وكان الوزراء كثيراً ما يتقربون إليهم بالهدايا والعطايا ، ويقال إن علي بن عيسى وزير المقتدر كان ينفق في كل سنة ٤ على شحته — أربعين ألف درهم في صلات الطالبين والعباسيين وأولاد الأنصار والمهاجرين وفي مصالح الحرمين ^(٢) وكان المعتضد يجزى على أبناء المتوكل وأولادهم ذكوراً وإناثاً ألف دينار شهرياً ، وكان يجزى على أولاد الواثق والمهتدي والمستعين خمسمائة دينار في الشهر ^(٣) .

وأعان ذلك كله على اتساع الطبقة الأرستقراطية وأن تنشأ أجيال من أبنائها غارقة في الدعة والنعيم ، وفي مقدمتهم أبناء الخلفاء والوزراء والقواد والأمراء وبالمثل أبناء كبار الكتاب ، وكثيراً ما كان يصل آباؤهم إلى الوزارة ، وحتى من لم يصل إلى الوزارة كان يتقاضى أحياناً مائة دينار في الشهر وقد يرتفع راتبه إلى خمسمائة ^(٤) ، غير ما كان يأتيهم من الهدايا وأحياناً من الرشوة وخاصة من عمال الخراج . وكان منصب القاضي منصباً رفيعاً ، وكان يتقاضى راتباً عالياً مائة وعشرين أو مائتين من الدنانير ^(٥) ، ومن الحق أن منهم من كان يتعفف عن أخذ شيء نظير عمله ، ولكن من الحق أيضاً أن منهم من كان مترفاً وسع الرزق مثل إبراهيم بن جابر القاضي بجلب والعواصم من أرض الشام إذ يروي المسعودي أنه « قطع لزوجته أربعين ثوباً تسترياً وقصباً (حريراً) وأشباه ذلك من الثياب في يوم واحد وخلف أموالاً عظيمة » ^(٦) .

٢٠ ، ٣١٤ .

(١) النجوم الزاهرة ٣/ ١٨٣ .

(٥) الولاة والقضاة للكندي ص ٣٧٧ ،

(٢) كتاب الوزراء ص ٣٢٢ .

٤٢١ .

(٣) كتاب الوزراء ص ٢٠ .

(٦) مروج الذهب ٤/ ١٧٤ .

(٤) كتاب الوزراء ص ١٥٦ وانظر ص

وكان يدخل في هذه الطبقة الأرستقراطية ورثة الإقطاع والضيايع الواسعة وكبار التجار الذين كانوا يتجرون برعوس أموال ضخمة في مطالب تلك الطبقة من أدوات الترف والزينة ، وكان في مقدمتهم النخاسون الذين كانوا يجابون الرقيق والجواري من أطراف الأرض ، وتجار الطرف النفيسة التي كانت تجلبها السفن من جميع أنحاء العالم . وبالمثل تجار الجواهر ويكفي أن نذكر ابن الحصاص التاجر الجوهري البغدادى الذى أشرف على جهاز قَطْر الندى بنت خمارويه كما أسلفنا ، فقد هيا لها من الثياب والجواهر وأدوات الزينة ما كلف أباه مائات الألوف ، وحين صودرت أمواله لعهد المقتدر سنة ٣٠٢ للهجرة أُخِذَ منه من المال والجوهر ما عدَّ بالملايين حتى قيل إنه بلغ ستة عشر مليوناً من الدنانير ، ويقول المسعودى : « الذى صَحَّ مما قُبِضَ من ماله من العين (الذهب) والورق (الفضة) والجوهر والفرش والثياب والمستغلات خمسة ملايين وخمسمائة ألف دينار »^(١) . وكانت كل طائفة من التجار تقيم في سوق واحد فيقال سوق النخاسين وسوق الوراقين ، وكان من أقربهم إلى الترف البزازون (تجار الأقمشة) والعطاريون . وكانت أسواق الأخيرين وأصحاب الدهون والخزازين (تجار الحرير) والجوهريين والصيدالة بعضها إلى جانب بعض ببغداد . وكان الأطباء يحصلون على أموال ضخمة ، وخاصة أطباء دار الخلافة وبمارستانات بغداد ، وتزخر كتب طبقات الأطباء بملايين الدراهم والدنانير التي صارت إليهم من الخلفاء ، ويقول محمد بن زكريا الرازى الطبيب المشهور إن سبب تعلقه بتعلم الطب إنه أصيب برمد في عينه ، فأبى الطبيب الذى عرض نفسه عليه أن يعالجه إلا بخمسمائة دينار^(٢) . وحتى الشعراء والعلماء والندماء كان منهم من يغدق عليهم الخلفاء الصلوات ، وكذلك الوزراء ، حتى ليغدون من عليّة القوم مثل على بن يحيى المنجم الذى أثرى ثراء طائلا من منادمتة للخلفاء .

وإذا تركنا الطبقة العليا إلى الطبقة الوسطى وجدنا كثيرين يندمجون فيها ، وفي مقدمتهم علماء العربية والفقه والتفسير والحديث ، وكان كثير منهم يأخذ رواتب

(٢) حكماء الإسلام للبيهق ص ٢١ .

(١) مروج الذهب ٢١٨/٤ والنجوم

١٨٥/٣

من الدولة ، وكان منهم معلمون يختلف إليهم الناشئة ، وكانوا يدفعون إليهم أجوراً قليلة ، حتى لقد تكون رغفاناً من الخبز أحياناً ، وكانت هذه الرغفان تختلف اختلاف أسر الصبيان في الغنى والفقر ، ولذلك ضربت الأمثال في الاختلاف والتفاوت متفاوت رغفان المعلم واختلافها في الجودة ، وكان من الآباء من يدفع أجر أولاده دراهم معدودة . وكان من يعلم أولاد الطبقة العليا تنهال عليه الهبات ويقدر له راتب شهري معلوم .

ويدخل في عداد هذه الطبقة المغنون والشعراء وكان كثير منهم تدفق عليه الأموال تدفقاً ، وسنعرض لذلك في موضع آخر ، والمهم أن هذا التدفق كان خاصاً بأفراد منهم ارتفعوا إلى الطبقة الأرستقراطية وعاشوا في بذخ وترف شديد ، أما عامة منهم فيسلكون في الطبقة الوسطى ، وقد رأينا كبار الكتاب في الدواوين ينتظمون في الطبقة العليا ، ولكن كان وراءهم عشرات إن لم يكن مئات يعملون في الدواوين ويأخذون رواتب متوسطة ، وخاصة في دواوين الخراج ودواوين الجيش وفي أعمال الحسبة ورقابة الأسواق وفي البريد ودواوين الأخبار وفي المكوس والضرائب الجمركية . ويضمّ إلى كتّاب الدواوين وعمّالها رؤساء الجند ممن يسلّمون القادة ، فلم تكن لهم رواتبهم الرفيعة ، ولكن كانت لهم رواتب متوسطة تكفل لهم رزقاً حسناً .

ومن هذه الطبقة أوساط الصنّاع وخاصة من كانوا يقومون على أثاث المساكن والأزياء والطعام ، ويدخل في الأثاث صناعة البسط والسجاجيد والبارق والمقاعد والتخوت والوسائد . وكان مركز الصناعات الأسواق مثلها مثل التجارات ، وكانوا جميعاً يتناولون غداهم بمطاعم في أسواقهم أو في دكاكينهم ، وكانوا لا يتركونها إلا في المساء . وكان هناك جهازة كثيرون لاستبدال النقود ، وكانت هناك فنادق للغرباء ، وكانت المساكن تستأجر وكذلك أثاثها . وإذا عرفنا أنه كان يسكن بغداد بضعة ملايين في تقدير بعض المؤرخين عرفنا كثرة من كان بها من التجار والصنّاع ، ونجد من كبارهم من كان يربح في صفقة واحدة ألف الدنانير^(١) ، أما أوساطهم

(١) الوزراء والكتاب للجيشياري (طبعة

الجلبي) ص ١٨٥ ، ٣١٩ .

فقلما كان يزيد رأس أموالهم في تجارتهم على ثلاثة آلاف دينار^(١)، وكان الناس يودعون أموالهم لدى بعض التجار الأمناء للاتجار لهم بها مناصفة في الأرباح . ونستطيع أن نتصور مستوى المعيشة في بغداد مما يروى من أن الأسرة المتوسطة كان يكفيها شهرياً خمسة وعشرون درهماً ، كأن نفقات اليوم المتوسطة لا تحتاج إلى أكثر من درهم واحد^(٢) . وفي الفرج بعد الشدة للتونخي خبر يدل على مستوى الحياة وأوسط ما كان الناس يتجرون فيه ، إذ يُروى عن شخص رقيق الحال أنه ورث أربعين ألف دينار فجأة وعلى غير انتظار ، فبنى لنفسه داراً بألف دينار ، واشترى آلات وفرشاً وثياباً وجواري ثلاثاً بسبعة آلاف دينار ، وأعطى تاجراً ألفي دينار ليتاجر له فيها ، وخزن عشرة آلاف للشدائد ، واشترى بالباقي ضيعة تُغزل له في كل سنة ما يزيد على مقدار نفقته^(٣) . وقد لا يصور ذلك حياة الطبقة الوسطى تماماً ، ولكنه يشير إلى أن نفقاتها لم تكن كبيرة ، وكان يُعَدُّ من يقنّى سبعمائة دينار صاحب ثروة كبيرة ، وكثير من الصناع والتجار لم تكن ثرواتهم تزيد على ذلك ، وهم الذين كانوا يندمجون في الطبقة الوسطى من الأمة .

وتأتى بعد ذلك الطبقة العامة من الرعية ، وهى التى كان يقع عليها عبء العمل كله في الزراعة وفي الصناعات الصغيرة وفي خدمة أرباب القصور ، فهى التى تعمل في الإقطاعات والضيايع ، وهى التى تقوم على تقديم أسباب الحياتين للطبقتين الوسطى والعليا ، عاملة تارة أو صانعة ، أو خادمة تارة ثانية . فكل ما تنقلب فيه الطبقتان من النعيم إنما هو من أيدي هذه الطبقة العامة ، يسلبونه منها بطرق شتى ولا يبقون لها سوى الضنك والضيق والبؤس والشقاء . ومرّت بنا في الفصل السابق ثورة الزنج وكيف أنهم كادوا يدمرون الدولة تدميراً ، لشدة نقمتهم على الأوضاع التى كانت سائدة ، وما كادت تخدم حتى هبّت ثورة القرامطة ، وعنت بالدولة هى الأخرى عنفاً شديداً ، وشاعت معها فكرة المهدي المنتظر الذى ينشر العدالة بين الناس في الأرض ، ولو أن دعوة القرامطة وُجّهت توجيهاً سليماً على أساس العدالة التى

(٢) مصارع العشاق ص ١٥٩ .

(٣) الفرج بعد الشدة للتونخي ١٧/٢ .

(١) البخلاء للجاحظ (طبعة دار الكتاب

المصرى) ص ١٠١ .

لا تصلح حياة الناس بدونها وبيان فساد الحكم العباسي حيثئذ وما داخله من جور وعسف لنجحت إلى أقصى حد ، ولكنها وُجِهَتْ توجيهًا خاطئًا على أساس دعة باطنية ، حتى لكأنما مُحى منها مقصد الإصلاح الاجتماعي ، ولذلك أخفقت إخفاقًا ذريعًا .

وسائل شتى كانت تُبَسِّرُ بها أعمال هذه الطبقة العامة وما بأيديها من أموال قليلة ، أما من يعملون في الأرض من الأكره والزراع فكانوا عبيدًا لا يُتْرَكُ لهم إلا ما يسد رمقهم ، وإن سده كان ذلك شيئًا كثيرًا . وأما صغار الصناع والتجار الأصاغر والفعايلة والفرّاشون والبوابون وكل من يؤلفون الطبقة العامة فقد كان مثلهم مثل رقيق الأرض لا يكادون يجدون ما يتبلّغون به إلا نادرًا وحين يعملون في الدولة بأجر مهما يكن طفيفًا ، لأنه يضمن لهم القوت اليومي . وكان من يوجد لديه مال كأنما يقع تحت طائلة العقاب بسبب كثرة الضرائب التي كانت تُفَرَضُ حتى على الأسواق وما يُصنَعُ فيها وما يباع ويُشْتَرى . وما زاد هذه الطبقة بؤسًا أن الأسعار لم تكن ثابتة ، فكثيراً ما كان يرتفع ثمن القمح والشعير حتى يصبح حصول العامة عليهما عسيراً وحتى لتجار بالشكوى إلى الخليفة ، على نحو ما صنع أهل البصرة في عهد المعتضد إذ أرسلوا وفدًا كبيراً إليه يشكو ما نزل بمدينةتهم من غلاء فاحش أملين أن يمدّ الخليفة لهم يد المساعدة^(١)

وكانت هذه الطبقة تعمل في كل المهن الحقيمة ، ومن المؤكد أنه نشأت طبقات كثيرة حيثئذ من الحرّفيين أو المهنيين وأن التخصص أخذ طريقه إليهم ، فكان لكل حرفة أصحابها الخاصون ، يؤكد ذلك ما روى من أن الجاحظ لم تكن له حلقة على وجه بابه إذا أراد اصطفاقه فطلب من نجار أن يثقب له موضعها ، فلما ثقبه قال له : قد جَوَّدت الثقب وانظرْ أي نجّار يدق فيها « الرّزّة »^(٢) وكان من النجارين من كان للثقب ومن كان لتركيب الرّزّة ، وهو ما يعنى الاختصاص الدقيق . ولا ريب في أن ذلك هو الذي أدّى إلى أن تنشأ في العالم العربي من قديم فكرة النقابات للحرّفيين والصناع وإن كانت حيثئذ

(١) روج الذهب ١٤٩/٤ .

(٢) الحيوان ٢٧٦/٣ - ٢٧٧ .

لا تعدو دَوْرَ النشأة البسيطة .

وأدّى بؤس هذه الطبقة العامة إلى أن ينشأ فيها كثير من القَرَّادِينَ وأصحاب الملاهى الصغيرة الطَوَّافِينَ والحوَّاثِينَ كما ينشأ فيها كثير من المهرجين الذين ينقطعون لإضحاك الطبقتين الوسطى والعليا ، وكان منهم من يتصل بخليفة أو وزير فتبسم له الدنيا . ونشأ فيها أيضاً كثير من رَاضَةِ الخيل والسوَّاس وأصحاب القنص والصيد بالكلاب والفهود . ونشأت طبقة من الأدباء المتسولين المسمون بالمُكْدِينَ ، وكانوا حينئذ خليطاً من هؤلاء الأدباء ومن متظاهرين بالنسك ، مستعملين كل حيلة من شعر أو تُقْى أو رُقْية ، فهم يطلبون المال من كل طريق ، مستخدمين كل حيلة . ويدل دلالة قوية على ما كانت تعانيه هذه الطبقة العامة من البؤس والعيش المر أن كثُر بها اللصوص ، حتى غدوا في أوقات كثيرة مصدر خطر عظيم ببغداد ، لكثرتهم ، ولشدة فتكهم ، ويشير الجاحظ إليهم في كتاباته مراراً كما يشير إلى رؤسائهم وأنه كانت لهم مروءة الفرسان ، وكأنهم كانوا امتداداً لصعاليك الجاهلية^(١) .

وراء تلك الطبقات الدنيا والوسطى والعليا كان هناك عدد ضخم من أهل الديانات الأخرى ، من النصارى واليهود والمجوس والصابئة ، وكانوا يسمون أهل الذمة إشارة إلى أنهم في ذمة الإسلام وعهده ورعايته وما وضعه من مبادئ التسامح الرائع ، فإذا هم يصفون ويُحَرِّسُونَ ويُحَرِّسُ نساؤهم وأسرهم ، حتى ليصبح لكل أهل ملة منهم كياناتهم الخاص فلهم معابدهم ولهم رؤسائهم الدينيون : للنصارى مثلاً الجاثليق والبطرك . ولهم محاكمهم الخاصة التى تفصل بينهم فى خصوصياتهم . تسامح لم يَعْرِفه دين ولم يَعْرِفه أمة قبل الإسلام ، ولا ظلم ولا جور ، بل عدالة مطلقة تعمهم وحماية بدون حدود ، وليس عليهم للدولة إلا ضريبة مالية محدودة هى الجزية التى لم يكن يدفعها إلا القادر على حمل السلاح ، أما المريض بعلّة لا بُرءَ منها وذوو العاهات والأطفال والنساء والشيوخ ورجال الدين فى كل ملة فلا يؤدون شيئاً ، ولم تكن هذه الضريبة أو الجزية تتعدّى ثلاثة دنانير لأصحاب

(١) انظر قصة خالد بن يزيد فى مطالع كتاب البخل .

الثراء الطائل منهم، ودينارين لتوسطى الثراء وديناراً لعامتهم ممن يتكسبون كسباً لا يضرهم معه دفعه، وكانت قيمة الدينار حينئذ نحو اثني عشر درهماً، وهذا كل ما يدفعونه في العام المتطول، وهو في حقيقته لم يكن سوى ضريبة دفاع عنهم. ويتراوح ما كان يؤديه أهل الذمة ببغداد في أوائل القرن الثالث بين مائة وعشرين ألف درهم ومائتي ألف^(١)، مما يدل على أن دافعي الجزية في تلك الحقب كانوا لا يزيدون على نحو عشرين ألفاً، فإذا أضفنا إليهم العاجزين عن الكسب من النساء والأطفال والشيوخ وغيرهم ممن ذكرناهم آنفاً تبين أن عدد أهل الذمة حينئذ ببغداد كان لا يقل عن نحو ستين ألفاً. وكانوا جميعاً يشدُّون إلى أوساطهم زناير أشبه بأحزمة.

وكان أهل بغداد وغيرا ببغداد من المسلمين يعاملونهم معاملة حسنة، فكانوا يوسعون لهم في كل عمل معهم، وكانت العامة تأنس خاصة للمسيحيين منهم، إذا كانوا يؤثرونهم على الجوس ويرونهم أسلم صدوراً من اليهود، كما يقول الجاحظ في رسالته الرد^(٢) على النصارى، وفيها يذكر أن الخلفاء والولاة قربوهم منهم واستخدموهم في الدواوين وقاموا لهم على كثير من شئونهم وأنهم كانوا ينهضون بحرف جليلة مثل العطاراة والصيرفة، وكان منهم أطباء الخلفاء والوزراء وعلمية القوم وأطباء البيارستانات، حتى استقر في أنفس الناس أن الطبيب الحاذق لا يكون إلا مسيحياً. أما اليهود فكانوا يعملون في أحقر المهن، حتى ليقول الجاحظ في الرسالة آنفة الذكر: «لا تجد اليهودى إلا صباغاً أو دباًغا أو قصاباً (جزاراً) أو شعاباً (مصلح جزار وأخذية)»؛ ويقول ابن قتيبة إنهم أنتم خلق الله فناء^(٣). وكان النصارى يتخذون أفخر الدواب والثياب والخدم ويتمتعون مثل العلية بلعب الصوالحة، وحتى تشتموا بأسماء المسلمين مثل الحسن والحسين كما يقول الجاحظ أيضاً. ويأمر المتوكل لسنة ٢٣٥، بأن يلبس أهل الذمة كلهم الطيالس العسلية

(١) كتاب الخراج القديمة (طبع ليدن) (١) (٢) أدب الكاتب لابن قتيبة (طبعة ليدن)

ص ٢٥٠ وابن الخرداذبة ص ١٢٠ (٣) ص ٦٦ (٤) ص ١٢٠

(٢) انظرها في ثلاث رسائل للجاحظ نشر فنكل (٢) ص ١٢٠

ويشدوا في أوساطهم الزنانير وأن يركبوا السروج برّيب الخشب ويجعلوا على مؤخرها كرتين ومن لبس قلنسوة مثل قلنسوة المسلمين يجعل عليها زرين ، وأمر أيضاً أن يجعلوا رقعتين على ثياب مماليكهم يخالف لونهما لون الثوب الموضوعين عليه ، وتوضع إحدى الرقعتين على الصدر والأخرى خلف الظهر ، وكل من الرقعتين بمقدار أربع أصابع ويكون لونها عسلياً ، وتلبس المرأة منهم إزاراً عسلياً وأمر بهدم بيعهم وكنائسهم المحدثّة وألا يستعان بهم في الدواوين وأعمال الدولة، حتى لا تجرى أحكامهم على المسلمين^(١).

ويبدو أنه منذ المتوكل أخذت هذه الأوامر الشديدة تخفّف عن النصارى حتى لنجدته هو نفسه يجعل النفقة في سنة ٢٤٥ على بناء قصره الجعفري بيد دليل بن يعقوب النصراني كاتب بغا^(٢). وكثر أهل الذمة بعده في الدواوين ولعل ذلك ما جعل العامة في سنة ٢٧٢ للهجرة تثور عليهم^(٣).

ويعظم أمر أهل الذمة في أواخر القرن الثالث ، إذ يكثر استخدامهم في الكتابة وفي أمور المسلمين فيأمر المقتدر سنة ٢٩٦ ألا يستخدم أحد منهم إلا في الطب والجهنزة وأن يطالبوا بلبس العسلي وتعليق الرقاع المصبوغة على أظهرهم^(٤) ، ومع ذلك نرى وزيره ابن الفرات يتخذ منهم أربعة كتّاب كان يدعوهم يومياً إلى طعامه مع خمسة آخرين اختصّ بهم جميعاً^(٥).

وواضح من هذا كله ما يدل على أن أهل الذمة لم يكونوا مضطهدين طوال العصر وأن الأوامر التي كانت تصدر أحياناً بالتشديد عليهم لم تكن تنفذ، وأنهم كانوا يعملون في مختلف الأعمال حتى الوظائف الديوانية وأعمال الخراج . وكان كثير منهم — وخاصة من النصارى — يعيشون في نعيم غلق لما يصير إليهم من الطب والصيرفة والأعمال التجارية المربحة .

(٤) النجوم الزاهرة ١٦٥/٣ .

(٥) كتاب الوزراء ص ٢٤٥ وانظر ص ٩٥ .

(١) طبرى ١٧١/٩ وانظر ١٩٦/٩ .

(٢) طبرى ٢٧٢/٩ .

(٣) طبرى ٩/١٠ .

الحضارة والترف والملاهي

رأينا تفنن الخلفاء والوزراء في بناء القصور ، حتى يشبه بعضها مدناً صغرى تمتلئ بالأبنية والأفنية والأساطين والقباب والبساتين والجداول والبرك والنافورات ، مع التأني في أبوابها ونوافذها وشرفاتها وزخرفة حيطانها بالنقوش والصور وتعليق الستائر الحريرية عليها ، ومع ما يموج فيها من البسط والسجاجيد والطنافس والمناضد والتحف المرصعة بالجواهر

وقد افتتح العصر بالمتوكل وقصوره الباذخة التي كلفت الدولة ملايين الدنانير ، ويكفي لتصور ما كان في عصره من بذخ وترف شديد أن نروي ما قصه الرواة عن حقهله الذي أقامه بمناسبة إعدار (ختان) ابنه المعتز ، فقد أمر وزيره الفتح بن خاقان أن يلتمس في خزائن الفرش بساطاً لإيوان قصر البركوار الذي أقام فيه الإعدار ، وأن يكون في طوله وعرضه ، وكان طوله مائة ذراع وعرضه خمسين ، ووجد طلبته : بساطاً مذهباً مبطناً ، يقال إن التجار قوموه بعشرة آلاف دينار . وبسط في الإيوان ووضع للمتوكل في صدره سرير ، مُدَّ بين يديه أربعة آلاف مرفع (كرسي) مذهبة مرصعة بالجواهر وعليها تماثيل العنبر والند والكافور . ومدت الموائد وتعدى للمتوكل والناس . وجلس على السرير ، وأحضِرَ الأمراء والقواد والندماء فأجلسوا على مراتبهم ، وحجى بأوعية مملوءة دراهم ودنانير نصفين ، صبَّت فيها حتى ارتفعت . ووزع الغلمان الشراب ، ودعوا كل من يشرب إلى أن يأخذ ثلاث حفنات أو ما حملت يده من ذلك المال . وكان الناس يجمعونه في أكمامهم الواسعة ويخرجون إلى غلمانهم فيدفعونه إليهم ويعودون إلى مجالسهم . وكلما خلا وعاء مما فيه أتى الفراشون بما يملؤه من الدنانير والدرهم حتى يعود كما كان . ونخلع على سائر

مَنْ حضر ثلاث خلع ، وحُملوا عند انصرافهم من الحفل على الخليل المطهّمة ، وأعتق المتوكل ألف رقبة ، وأمر لكل عتيق بمائة درهم وثلاثة أثواب . وكان في صحن الدار بين يدي الإيوان أربعمائة جارية بين أيديهن أطباق الفواكه من كل صنف ، وخمسة آلاف باقة نرجس ، وعشرة آلاف باقة بنفسج . ترف لا يماثله ترف ! . ونثر المتوكل على هؤلاء الجوارى وخدم الدار والحاشية عشرين مليون درهم ، ونثرت زوجته قبيحة أم المعتز مليون درهم على المزين ومن كانوا في جانبه من الغلمان وبعض الجنود وقهارة الدار والخدم الخاصة من البيضان والسودان . مَال يَنْفَق وَيَعْرِى بَدُون حِسَاب ، وكأَنَّمَا أَمْسَكَ بِهِ سَقَاء ، لَا يَعْرِفُونَ حَقُّوْكَ لَرَغِيَّةٍ وَلَا يَقْدِرُونَ مَسْئُوْلِيَّةٍ . وحضر الحفل كثير من الندماء في مقدمتهم ابن حمدون وابن المنجم ، وكثير من الشعراء في مقدمتهم الحسين بن الضحّاك وعلى ابن الجهم ، وكثير من المغنين في مقدمتهم عمرو بن بانة وابن المكي وعشّعت سليمان الطيال وصالح الدفاف وزُناَم الزامر ، وكثير من المغنيات في مقدمتهن عريب وبذعة جاريتهما وشارية وجواريها . ويُقال إنه أنفق على هذا الإعذار أو الختان ستة وثمانون مليوناً من الدراهم ^(١) . سفه ما بعده سفه ! وعلى هذا النحو كانت ملايين الدراهم والدراهم تُنْفَق بَدُون حِسَاب وبدون أى رقابة في حفلات القصر ، وهى حفلات أمدّت القصر في كتاب ألف ليلة وليلة بكل ما يقع في الخيال الواهم من بلذخ وترف لا يضفاف له ، وبدلاً من أن توجه هذه الملايين إلى مرافق الشعب وحاجاته أو إلى إعداد الجيوش في حروب الترك والبيزنطيين كانت تبتدّد هذا التبديد الأحمق والشعب يكدح ويشقى ويسبل عرقه مبراراً ويتجرّع غصص البؤس والحُرمان ليعبث المتوكل وغير المتوكل بأمواله ، فإذا قصور شاء تُبْسَنى ويُنْفَق فيها الملايين تلو الملايين ، وإذا هي تستحيل إلى مقاصف يدور فيها الكاس والطاس وتُنشَر حمول الذهب والفضة . ويروى أن المتوكل شرب يوماً في القصر السالف ذكره المسمى بالبركوار ، فقال لندمائه ، ولم تكن الأيام أيام ورود ورياحين : أرأيتم إن عملنا احتفالاً بالورود

(١) الديارات للشابقي (الطبعة الثانية)

أَوْ كَمَا نَظْفَقَ بِالْفَارِسِيَّةِ : « شَاذْ كَلَاه » ، فَقَالُوا لَهُ : لَا يَكُونُ الشَّاذُّ كَلَاهٌ إِلَّا بِالْوَرْدِ ،
وَلَيْسَتْ الْأَيَّامُ أَيَّامَ وَرْدٍ فَقَالَ : مَا ادْبَحُوا إِلَى عِبِيدِ اللَّهِ بْنِ يَحْيَى - وَكَانَ أَحَدَ وَزَرَائِهِ -
فَجَازَئِرُهُ ، فَقَالَ لَهُ : « ضَرْبٌ لِي دِرَاهِمٌ ، فِي كُلِّ دِرْهَمٍ حَبِيبَتَانِ مِنَ الْفَضَّةِ » ، فَسَأَلَهُ :
بِكَمْ الْمُقَدَّلُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَأَجَابَهُ خَمْسَةَ مِائَتَيْنِ دِرْهَمٍ ، فَأَمَرَ عِبِيدَ اللَّهِ بِضَرْبِهَا ،
فَضَرْبَتْ ... وَأَمَّا الْمُتَوَكِّلُ بِضَرْبِهَا ، فَقَالَ لَهُ : « اصْنَعِ طَائِفَةً مِنْهَا بِالْحُمْرَةِ وَطَائِفَةً
بِالْصَفْرِ وَطَائِفَةً بِالسَّوَادِ » ، وَأَتَرَكَ طَائِفَةً عَلَى بَخَالِهَا . فَصَنَعَ عِبِيدَ اللَّهِ بِأَمْرِهِ ،
ثُمَّ تَقَدَّمَ الْمُتَوَكِّلُ إِلَى خُدَمِهِ وَجَوَاشِيهِ - وَكَانُوا سَبْعِمِائَةً - فَأَمَرَهُمْ أَنْ يُعْدِيَ كُلَّ مِنْهُمْ
قَبَاعَ جَدِيداً ، وَلَنْسُقَ بِخِلَافِ لَوْنِ قَبَاعِ ضَاحِكِهِ وَقَلْبُوسَتِهِ ، فَفَعَلُوا . ثُمَّ تَجَسَّسَ يَوْمًا فِيهِ
رِيحٌ ، فَأَمَرَ أَنْ تُنْصَبَ قُبَّةٌ لَهَا أَرْبَعُونَ بَاباً ، فَاصْطَبَحَ فِيهَا وَالنَّدَمَاءُ حَوْلَهَا ،
وَعَلَى الْخَلِيمِ الْكِسْوَةُ الْجَدِيدَةُ ، وَأَمَرَ الْمُتَوَكِّلُ بِشَرْ الدِّرَاهِمِ كَمَا يَشُرُّ الْوَرْدُ ، طَائِفَةً طَائِفَةً ،
فَتَشَرَّتْ تَبَاعُجاً ، وَكَانَتْ الرِّيحُ تَحْمِلُهَا لِحَفَّتَيْهَا ، فَتَطَّيَّرُ فِي الْهَوَاءِ كَمَا يَطَّيَّرُ
الْوَرْدُ (١) ، فَتَلْعَقُ قَبْضَةً فِي ، فَتَلْعَقُ قَبْضَةً فِي الْمَلَأِ ، وَتَقِي كَالَهُ

وَكُلُّ هَذَا مِنَ الْفَرَاغِ وَمِنَ التَّرَفِ الْمَفْرُطِ ، فَإِذَا الْخُلَفَاءُ يَنْعَمُونَ بِالْحَيَاةِ إِلَى حُدُودِ
السُّقْفِ وَالْهَوَسِ : وَطِيقَاتُ مِنْ وَرَائِهِمْ قَتَرٌ عَلَيْهَا فِي الرِّزْقِ ، فَهِيَ تَعِيشُ فِي ضَنْكٍ
وَضَيْقٍ شَدِيدٍ . وَلَعَلَّ هَذَا هُوَ السَّبَبُ فِي أَنَّ الشَّعْبَ لَمْ يَهْتَمَّ بِأَيِّ أَهْتَامٍ بِمَا كَانَ يَجْرِي فِي
الْقَصْرِ مِنْ تَحْكُمِ الْأَثَرِ فِي الْخُلَفَاءِ ، كَمَا نَهَمَ لَا يَعْنُوهُمْ فِي شَيْءٍ . وَكُلُّ يَوْمٍ
يَسْمَعُونَ بِجَدِيدٍ مِنْ هَوَسِهِمْ وَسَفْهِهِمْ ، كَمَا يَسْمَعُونَ أَنَّ الْمُتَوَكِّلَ حِينَ انْتَهَى مِنْ بِنَاءِ
قَصْرِهِ الْجَعْفَرِيَّ اسْتَدْعَى أَصْحَابَ الْمَلَاهِي ، فَقَدَّمُوا لَهُ بَعْضَ الْمَسَاحِرِ وَالْمَلَاعِبِ
الْمُصْحَكَةِ ، وَمَنْحَهُمْ مِائَتَيْنِ مِنَ الدِّرَاهِمِ . وَبَحَقُّ يَقُولُ الْمَسْعُودِيُّ إِنَّ التَّفَقُّاتَ
لَمْ تَبْلُغْ فِي وَقْتٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ مَا بَلَغَتْهُ فِي أَيَّامِ الْمُتَوَكِّلِ . وَكَانَ أَكْثَرُ أَهْنَائِهِ عَلَى غِرَارِهِ
مِنْ مِثْلِ الْمُعْتَزِّ ، وَكَانَ يَكْثُرُ مِنْ عَقْدِ مَجَالِسِ الشَّرَابِ فِي قُصُورِهِ ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ
رَكَّبَ مِنَ الْخُلَفَاءِ مَجْلِيَةَ الذَّهَبِ (٢) . وَلَمْ يَتَوَقَّفْ هَذَا الْبَذْخُ وَالرَّفَافَةُ طَوَالَ الْعَصْرِ ،
وَيَصُورُ ذَلِكَ مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ اسْتِقْبَالَ الْمُقَدَّرِ لِرَسُولِ مَلِكِ الرُّومِ سَنَةِ ٣٠٥ لِلْهَجْرَةِ
وَقَدْ جَاءُوا يَطْلُبُونَ عَقْدَ هَدَنَةٍ ، إِذْ فَرَشَتْ قُصُورُهُ بِأَجْمَلِ الْفَرَشِ وَبُسِلَتْ دَارُ الْخِلَافَةِ
فَسَالِيحُهَا (٣) ، فَتَلْعَقُ قَبْضَةً فِي الْمَلَأِ ، وَتَقِي كَالَهُ

(١) مروج الذهب ٣٩/٤

(١) الديارات ص ١٦٠ .

(٢) مروج الذهب ٩٤/٤ ٣٩٢٨١٠

(٢) طبرى ٢١٢/٩ .

ودها ليزها وممراتها وصحونها بالهند والسلاح ، وابتدأ ذلك من باب الشَّمَّاسية إلى دار الخلافة ، وكان عدد الجند مائة وستين ألفاً بالدروع والسلاح ومن تحتهم الخيل بسروج الذهب والفضة ، وكان عددُ الغلمان سبعة آلاف خادم وسبعمائة حاجب بالبرزة الرائقة والسيوف والمناطق المحلاة . وكان في دجلة الشدائد والطيارات والزبازب والشبَّارات والزلاّلات والسَّمَّيريات (سفن شتى) بأفضل زينة وعلى أحسن تعبئة . وسار رسل ملك الروم ومن معهم من الموكب إلى أن وصلوا إلى دار الخلافة ، ودخلوا قصر الجوسق بين بستانين رائعين ، ورأوا بركة عجيبة يمدُّها جدول وبها أربع طيارات مذهبة مزينة بالديبقي المطرز ، ثم أدخلوا قصر الشجرة ، وهي شجرة من الفضة كانت قائمة وسط بركة مدورة ، ولها ثمانية عشر غصناً عليها الطيور والعصافير المذهبة والمفضضة تصفر ، والشجرة تمايل وورقها يتحرك على نحو ما تحدث الرياح للأشجار الطبيعية ، ثم أدخلوا إلى قصر الفردوس وبه من الفرش ما لا يقوّم ، وفي الدهاليز عشرة آلاف درع مذهبة معلقة^(١) ، مما راع رسل ملك الروم روعة شديدة .

ويقول هلال بن المحسن الصابى جرت العادة أن يكون جلوس الخليفة على كرسي مرتفع في عرش أرمي من الحرير أو من الخز وأن يلبس قباء أسود من الإبريسم (الحرير) وعلى رأسه معمة سوداء ، ويتقلّد سيف الرسول عليه السلام ويلبس خُفّاً أحمر ويضع بين يديه مصحف عثمان وعلى كتفيه بُردة النبي صلى الله عليه وسلم ويمسك بقضيبه ، ويقف الغلمان والخدم من خلف السرير وحواليه متقلدين بالسيوف ، وفي أيديهم الطَّبَرَزِينات والدَّبَابيس (من أسلحة الحروب) . وكان يقوم من وراء السرير وجانيه خدم صقالية يذبّون عن الخليفة بالمذابِ المقمّعة بالذهب والفضة ، وتُمدّ أمامه ستارة ديباج إذا دخل الناس رُفعت ، وإذا أريد صَرْفُهم مُدَّت . ورُتب في الدار قريباً من المجلس خدم بأيديهم قِسيّ البندق يرمون بها الغربان والطيور لئلا ينعب ناعب أو يصوت مصوت . ترف ليس فوقه ترف ، حتى أذن الخليفة يجرسونها من أصوات الغربان والطيور ! . وكان زى الأمراء من أهل البيت العباسي الأقبية السود ، ويلبس القضاة الطيالة

(١) رسوم دار الخلافة للصابى ص ١١ وما بعدها
والنجوم الزاهرة ١٩٢/٣ .

والقلنسوات الضخمة^(١). ويلبس الوزراء الأقبية السود وينتطقون بالسيوف وقد يلبسون دراعة وقميصاً ومبطنة وخفياً^(٢). وكان السود هو اللباس الرسمي العام، وكانوا يلبسون في أرجلهم الجوارب والأحذية السود المشدودة بالزنابير. وفي يوم الموكب كان يحضر حاجب الحجاب بأكمل لباسه من القباء الأسود والعمامة السوداء والسيف والمنطقة، وأمامه الحجاب ونوابهم، ويجلس في الدهليز من وراء الستر، ثم يحضر الوزير وقائد الجيش، ويتكامل الناس فيراسل حاجب الحجاب الخليفة، فإذا أذن الإذن العام دخل وحده حتى يقف في الصحن ويقبل الأرض، ثم يؤذن له بتقديم الناس، فيخرج ويدعو ولي العهد إن وجد، وكذلك أولاد الخليفة، إن كان له أولاد، ثم يدخل الوزير، ويمشي الحجاب بين يديه إلى مقربة من العرش، فإذا قرب تأخروا عنه، وتقدم الوزير بعد تقبيل الأرض إلى أن يدنو من الخليفة فلن مدّ يده إليه أخذها وقبلها وتراجع حتى يقف في يمين العرش على بعد خمسة أذرع منه، ويدخل بعده قائد الجيش أو أميره فيقبل الأرض ويقف على يسار العرش، ثم يدخل أصحاب الدواوين والكتّاب، ثم القواد ونواب الحاجب على مراتبهم، ويقفون يميناً وشمالاً على رسومهم، ثم ينادى على بنى هاشم والقضاة ومن يلبسون القلانس ويسلمون ويقفون منفردين، ثم يقع الإذن العام فيدخل الخند ويقفون صفين. وكل ذلك تعقيد أدت إليه الحضارة والترف وأن الناس لا يشتركون في الحكم ولا يشاطرون فيه، فتحول إلى رسوم وشكليات وآداب لا يعرفها العرب ولا يعرفها الإسلام. وكان للوزراء بالمثل مواكبهم، وكذلك كان للقواد، ويروى أن نازوك أحد قواد المقتدر كان يمشى في موكبه بين يديه أكثر من خمسمائة فراش بالشموع الموكبية سوى حملة المشاعل^(٣).

وكان يرافق هذه الأبهة أبهة في المسكن والملبس والمطعم، فكانت الستور الجميلة تعلق دائماً على حيطان المسكن، وكانت تُفَرِّش أرض غرفه وممراته وصحنه بالبسط والسجاجيد، وتمتد فوقها المقاعد والوسائد والنفار، وكانت القصور تكتظ بذلك اكتظاظاً شديداً، ويصور ذلك من بعض الوجوه أن المتوكل حين غضب على عمر بن فرج الرُّخَّجِي أحد كبار موظفي الدولة، وصادر أمواله،

(٣) رسوم دار الخلافة ص ١٠.

(١) رسوم دار الخلافة ص ٩٠.

(٢) كتاب الوزراء للصابي ص ٣٢٥.

خملت فُرُشاً وأمتعة من داره على خمسين بعيراً^(١)، فما بالنائب ما كان في قصور
الوزراء، فضلاً عن الخلفاء، من فرش فخمة. وعلى نحو ما كانوا يهتمون بالفرش كانوا
يهتمون بالثياب، حتى كانت صناعتها أهم الصناعات وأرقاها. وكان الصناع يتفننون
في صنعها من الحرز والديباج والحرير. ويروى صاحب الديارات أن المتوكل جلس
 يوماً في أحد قصوره على عرش من الذهب وعليه ثياب وشى مشقة، وأمر ألا
 يدخل عليه أحد إلا في ثياب وشى مثله^(٢)، وكان الخدم يقفون بين يديه وعليهم
 ثياب خمراء موزدة^(٢). ويقال إن المستعين هو الذي أحدث لبس الأكرام الواسعة
 فجعل عرضها ثلاثة أشبار، وصغر القلائس، وكانت طويلة كأقباع القضاة^(٤).
 وكان المعتضد يلبس الثياب الدبقية الرفيعة التي كانت تصنع بعصر الثياب الحريرية
 التي كانت تصنع بمدينة تيسر وغيرها من المدن الفارسية^(٥)، ويروى أن إسحق بن
 إبراهيم المصعبي حاكم بغداد لعهد المتوكل أهدى إلى عمرو بن بانه مغني العصر
 عشرة أثواب خزر أقلها قيمة بمائة دينار^(٦)، وكان خليفته على بغداد محمد بن
 عبد الله بن طاهر يتأنق في ثيابه، وقيل إنه كان بينها ثوبان من الوشى قيمتهما
 ألف وخمسمائة دينار^(٧)، وفر بنا أن الراسبي والى إيران كان له مصنع خاص تنسج فيه
 ثيابه وثياب خواشيه وأصحابه. وكان الشعراء مثل المغنين يلبسون الحرز والوشى
 والثياب الحريرية^(٨). وكانوا يلبسون في الشتاء القراء والثياب الصوفية، واشتهر ثوب
 باسم المنظر كان يصنع من القماش المشمع للوقاية من المطر. وثرى البخري
 يسأل إبراهيم بن الحسن بن سهل ثوباً منه^(٩). ولبسوا الجوارب الصوفية والقطنية
 والحريرية والأحذية الخمراء^(١٠). ويبدو أن الرجال كانوا يتنافسون في اقتناء الحجارة
 الكريمة، إذ نرى نفراً منهم حين تصادر أمواله انصأدروا بينها جواهر ثمينة تبلغ
 قيمتها ألاف الدنانير^(١١)، وكانت خزائن الخلفاء تكتظ بالجواهر من كل صنف،

(١) طبري ٩/ ١٣٧، تاريخ الخلفاء ١٢٣، الديارات ص ٨٠.

(٢) الديارات ص ٨٠، تاريخ الخلفاء ١٢٣، الديارات ص ٨٠.

(٣) الديارات ص ٥٧، ديوان البحري (طبع دار المعارف) ١٩٢٢/ ٢.

(٤) خروج الذهب ٩٤/ ٤، تاريخ بغداد ١١٠٠، والأغاني ٨٥/ ٦.

(٥) مروج الذهب ١٢٨/ ٦، طبري ٩/ ١٦١، تاريخ الخلفاء ١٢٣.

(٦) الديارات ص ٤٤.

ويُذكرُ كثرُ أنه كان عند المستعين فصُّ ياقوت أحمر اشتراه الرشيد بأربعين ألف دينار^(١)، ويروى أن المقتدر طلب الصناديق وأوعيتها المحفوظة بالخزائن، فاختار منها مائة حبة، ونظمها سُبُحَةً يسبح بها، وعرضت على تجار الجواهر فقوّموا كل حبة منها بمائة ألف دينار أو تزيد^(٢).

وكان النساء حرائر وجواري يبالغن في أناقتهن وزينتهن، فكان يلبسن ثياب السملن والإستبرق والوشى النفيس من كل لون وكن يتجلين بالجواهر من كل صنف: من الذهب والفضة والزمرد والياقوت واللؤلؤ، وكن يتخذن منها تيجاناً وعقوداً وأقراطاً وخلائل، وكن يضعنّها بصور مختلفة على عصائبهن ومراوحهن. ويروى أنه كان لدى أقيحة زوجة المتوكل وأم المعز ثلاثة أسفاط: سَفَطٌ مملوء زمرداً، وسَفَطٌ مملوء ياقوتاً، وسَفَطٌ مملوء دراً كبيراً، وقوّمَت الأسفاط فبلغت قيمتها مليونين من الدنانير. وكان النساء يتخذن أمشاطاً من الصدف والصندل^(٣). وكن يتفنن في أوضاع شعورهن على رؤوسهن وجباههن، وقد يلوينها على أصداعهن في هيئة حرف النون أو على هيئة العقرب، وفي ذلك يقول ابن المعز^(٤):

لوكى صدغه كالنون من تحت طرة ممسكة تزهى رباع جبين
ويقول أيضاً^(٥):

رسم يتيه بحسن صورته عبت الفتور بلحظ مقلته
وكان عقرباً صدغه وقف لئلا دنت من نار وجنته
وكن يتعطرن بطيب المسك كما أشار إلى ذلك ابن المعز في البيت الأول وبطيب

الغالية والزعفران والعنبر. ويقال إن عريب المغنية المتوفاة سنة ٢٧٧ عن سن عالية كانت تغسل شعرها من أسبوع إلى أسبوع وتغلفه في كل أسبوع بستين مثقالاً من المسك والعنبر^(٦). ويقول الجاحظ إن المرأة من الطبقة الوسطى حين كانت تهوى ابنتها للزواج كانت تحليها بالذهب والفضة وتكسوها الثياب الحريرية وتزورها

(١) مروج الذهب ٨٣/٤. (٢) ديوان ابن المعز (نشر دار صادر بيروت) (٣) مروج الذهب ٨٣/٤. (٤) ديوان ابن المعز (نشر دار صادر بيروت) (٥) مروج الذهب ٨٣/٤. (٦) مروج الذهب ٨٣/٤.

(٢) طبري ٩/٣٩٥: ١١٠ (٢) ص ٥٢٤ (٣) مروج الذهب ٨٣/٤.

(٣) نساء الخلفاء لابن البهي (طبع دار (٥) الديوان ص ١٠٠ (٢) مروج الذهب ٨٣/٤.

المعارف ص ٥٦٦ (٥) (٦) أغاني (طبعة العاصي) ٨٨/٨٨٧: ٨٨٧.

بالطبيب العَبَق^(١) . وازدهرت حينئذ بفارس صناعة الروائح العطرية من الزهور والورود والرياحين المتنوعة .

وتفننوا في المطاعم إلى غير حد ، تدل على ذلك المصنفات الكثيرة التي ألقت حينئذ في فن الطبخ للحارث بن بُسْخَنَر (من المغنين) ولإبراهيم بن العباس الصولى ولعلى بن يحيى المنجم ولجسَّطة البرمكى وغيرهم على نحو ما يشير إلى ذلك ابن النديم في كتابه الفهرست^(٢) ، وكان الخلفاء يأكلون في آنية الذهب والفضة ، ويذكر أن المكتفى كانت تقدِّم على مائدته عشرة ألوان في كل يوم سوى صنوف الحلواء^(٣) ، وكان ما يقدم قبل الخليفة القاهر على مائدة الخلفاء من صنوف الطعام والحلواء يقدر بثلاثين ديناراً^(٤) ، ويقال إن ثمن المسك الذى كان يُنْفَقُ يومياً في مطبخه عشرة دنانير^(٥) فما بالناس بما كان ينفق على الطعام والحلواء والفاكهة . . . وبالمثل كان الوزراء يسرفون في الإنفاق على طعامهم وموائدهم ، ومرَّ بنا أنه كان لحامد بن العباس وزير المقتدر أربعون مائدة يختلف إليها في كل غداء أفواج من الناس . ويقول الصابى في كتابه الوزراء إنه كان لابن الفرات مطبخان : مطبخ للخاصة ، ومطبخ للعامة ، وكان يقدم إلى الأخير يومياً تسعون رأساً من الغنم وثلاثون جدياً غير المئات من الدجاج ، وكان الخبَّازون وأصحاب الحلواء يعملون ليل نهار . ويصف لنا الصابى مائدته الخاصة به وبأصحابه المقربين ، فيقول : إنه كان يدعو إلى طعامه في كل يوم تسعة من أصفياه الكُتَّاب ، وكان بينهم أربعة نصارى : « فكانوا يقعدون من جانبيه وبين يديه ، ويقدم إلى كل واحد منهم طبق فيه أصناف الفاكهة الموجودة في الوقت من خير شيء ، ثم يُجْعَلُ في الوسط طبق كبير يشتمل على جميع الأصناف ، وكل طبق فيه سِكِّين يقطع بها صاحبها ما يحتاج إلى قطعه من سفرجل وخوخ وكثرى ، ومعه طست زجاج يُرْمَى فيه بالثفل . فإذا بلغوا من ذلك حاجتهم واستوفوا كفايتهم شبات الأطباق وقُدِّمت الطسوت والأباريق ، فغسلوا أيديهم ، وأحضرت المائدة مغشاة بدبقي فوق مكبة خيازر ، ومن تحتها سفرة (مفرش) آدم فاضلة عنها ، وحوالها مناديل . . . فإذا

(١) البخلاء (طبعة دار الكتاب المصرى) ص ٢٥ . (٢) مروج الذهب ١٩١/٤ .

(٢) الفهرست لابن النديم (الطبعة الثانية) (٤) عريب ص ١٨٣ .

(٥) كتاب الوزراء ص ٣٥٢ . للمكتبة التجارية بمصر (ص ٤٥٤) .

وُضعت رُفعت المكبة (غطاء الآنية) والأغشية ، وأخذ القوم في الأكل ، وابن الفرات يحدثهم ويؤانسهم ويباسطهم . فلا يزال على ذلك ، والألوان تُوضَعُ وتُرفَعُ أكثر من ساعتين . ثم ينهضون إلى مجلس في جانب المجلس الذي كانوا فيه ويغسلون أيديهم ، والفرّاشون قيام يصبون الماء عليهم ، والخدم وقوف على أيديهم المناديل الدبقيّة ورطليّات ماء الورد لمسح أيديهم وصبّه على وجوههم^(١) وكان العباسيين لم يتركوا للمدينة الحديثة شيئاً .

وكان في بيوت الكبراء شرابي يعنى بالشراب وآلته وبالفاكهة والروائح^(٢) ، وكان بجانبه الشواء والطبّاخ والخبّاز والخبّاص وهو الذي يصنع الحلوى ، وفي كتاب البخلاء للجاحظ وغيره من كتب العصر أسماء أطعمة كثيرة مثل السكّاج ، وهو لحم يُطَبّخُ بخلّ ويضاف إليه شيء من الزعفران لتطيب رائحته ، والمضيرة وهي لحم ممزوج ببعض التوابل ، والشارقات وهي شرائح مشوية من اللحم ، والطهاج وهو طعام من لحم وبيض وبصل ، والحريسة وهي لحم وماء وسميد إلى غير ذلك من أطعمة كثيرة . ثم الحلوى من الفطائر والرقاق ، ومنها اللوزينج ، وكان يتخذ من اللوز والدقيق والفسق ويرشُ بماء الورد ، ومنها الفالودج وهو حلوى من النشا وعسل النحل والسمن ، والخشكّان وهو كعك يُحشّى بالجزر والسكر . ثم الأشربة ومنها الجلاب وهو شراب ممزوج بماء الورد . وكانت تقدّم مع الطعام المشهيات ويسمونها النُفْل ، وكانت تتألف - كما في عصرنا - من أشياء حريفة . وكتبوا كثيراً عن آداب الطعام نجد ذلك منشوراً في كتاب البخلاء للجاحظ وعيون الأخبار لابن قتيبة وأدب النديم لكشاجم وكتاب الموشى للوشاء ، وفيه فصل طريف عن زى الظرفاء في الطعام .

وكانوا يفصلون وقت الشراب عن وقت الطعام ، وفيه يكون السمر ، ودائماً نجد الندماء ، وكان لكل خليفة ندماءه من العلماء والمنجمين والأطباء ومن يوردون

(١) كتاب الوزراء ص ٢٤٠ .

(٢) كتاب الفرج بعد الشدة للتونسي ١١/٢ .

النوادر والفكاهات ومن يعرفون كيف يرضونه في مناعات صفوة وساعات سخطة ، وكانت تغمرهم الصلوات السنينة على نحو ما يروى عن علي بن يحيى النجم وما قيل من أنه وصله من المتوكل وحده ثلثمائة ألف دينار ، وكان نديماً ممتازاً ، فهو شاعر وطبيب وأديب ومضحك وصاحب نوادر . وتخصصت أسرة حمدون بهذه الصناعة ، وهي من سلالة حمدويه صاحب الزنادقة في عصر المهدي ، فكان إبراهيم بن حمدون ينادم المعتصم ثم الواثق ولحق عصر المتوكل ، وكان ينادم المعتمد منهم أبو محمد بن حمدون ، أما أبو عبد الله أحمد بن حمدون فكان ينادم المتوكل وغيره من الخلفاء ، ويقال إن المتوكل وصله في مدة خلافته بثلثمائة وستين ألف دينار وإن المستعين وصله بأكثر مما وصله به المتوكل^(١) . ونجد في بلاط المتوكل كثيرين من الندماء ، ومنهم أبو العبر وأبو العنيس الصيمري الذي قلد أمامه البحري في إنشاده الشعر تقليداً مضحكاً . وكان المعتمد كثير الندماء مثل المتوكل ، وفي مروج الذهب حديث دقيق لبعض ندمائه عن آلات الطرب والغناء والرقص ، ويقول المسعودي بعقب ذلك : « والمعتمد مجالسات ومذاكرات ومجالس في أنواع من الأدب ، منها مدح النديم وذكر فضائله »^(٢) ، ولا بد أن يكون كشاجم استفاد في كتابه « أدب النديم » من ذلك فوائد كثيرة . وكان المعتمد يفرد حجرة للندماء ، ليستدعيهم منها ، وكان لكل منهم نوبته أو دوره^(٣) . واشتهر الرازي بأنه كان يوسع في مجالسه للندماء « ولم يكن ينصرف عنه أحد من ندمائه في أي يوم إلا بصلة أو خلعة أو طيب ، منهم محمد بن يحيى الصولي وواحد من بني حمدون »^(٤) . وكان للوزراء ندمائهم ، بل كان أيضاً لعلية القوم وكبار الموظفين في الدولة ، ويكنى أن نعرف مثلاً أن أحمد بن المدير كان له سبعة ندماء لا يأنس بغيرهم ولا ينسبط إلى سواهم^(٥) ، ومن المؤكد أن وظيفة هؤلاء الندماء هي التي ادفع الجاحظ إلى كتابة مصنفه البخلاء للتسلية والتندير ، وكثر من حوله

(١) معجم الأدباء (طبع القاهرة) ٢١٧/٢ . (٤) مروج الذهب ٢٤٤/٤ .

(٢) مروج الذهب ١٣٨/٤ . (٥) مروج الذهب ١٦٣/٤ .

(٣) تاريخ بغداد ٢٨٠/٧ . (٦) مروج الذهب ٢٤٤/٤ .

التأليف في المغفلين وأصحاب النوادر والفكاهات^(١) . وكانوا يشغفون - وفي مقدمتهم الخلفاء - بضروب كثيرة من الملاحى ، ويقال إن مجالس المتوكل كانت تمتلئ باللعب والهزل^(٢) ، ومن كان يعجب بهم أصحاب السجاجة أو كما نقول الآن التمثيل الهزلى ، الذين كانوا يقلدون الناس في حركاتهم وأصواتهم^(٣) . وكان هو وخلفاؤه كثيراً ما ينفرجون على نطاح الكباش والديكة^(٤) وتواب السباع والفيلة . ويحكى عبيد الله بن عبد الله بن طاهر أن المعتز استدعاه ، حتى إذا كان بمجلسه أسمع غناء شارية وزمر زمام ، وأراه آلة عملها أحمد بن موسى الخوارزمي من نحاس يرسل فيها الماء فيسمع لها زمر السرناى (آلة من آلات الطرب) ، ثم أدخله إلى نافذة رأى منها الفيل والسبع كيف يتواثبان^(٥) . ومن أهم ملاحيم لعبة الشطرنج ، وكان من يحسنها تفتتح له أبواب الخلفاء والوزراء والكبراء مثل أبى القاسم التوزي الشطرنجى ، ومثل محمد بن يحيى الصولى ، ويقال إن المكتفى استفاد منه حين علم بإحسانه لعبة الشطرنج ، وجعله يلعب بين يديه مع لاعب آخر كان مشهوراً بلبه هو الماوردى ، ولكن الصولى قهره وغلبه^(٦) . ويحدثنا المسعودى بعقب ذلك عن الشطرنج وكيف أنه كان يلعب على رقعة آدم مربعة حمراء ، ويعرض لآلته وأنواعها واختلاف هيئاتها ، فيذكر بجانب الرقعة المربعة السالفة رقعة مستطيلة ورقعة مدورة ورقعة نجمية وتسمى الفلكية . ويقول المسعودى إنه استحدثت في زمانه رقعة للشطرنج تسمى الجوارحية ، سموها كل بيت من أبياتها باسم نجارحة من جوارح الإنسان ، ويقول إن لاعبيها وهواتها فنوناً من الهزل والنوادر البديعة . وكانوا يلعبون ويبرهنون في لعبة الشطرنج ، وكذلك في لعبة النرد (الطاولة) ، وكانوا يلعبونها عادة على رقعة

(١) الفهرست ص ٤٤٩ .
(٢) مروج الذهب ٤/٤٩ .
(٣) مروج الذهب ٤/٤٩ .
(٤) الفهرست ص ٤٤٩ .
(٥) مروج الذهب ٤/٤٩ .
(٦) مروج الذهب ٤/٤٩ .

(١) الفهرست ص ٤٤٩ .
(٢) مروج الذهب ٤/٤٩ .
(٣) مروج الذهب ٤/٤٩ .
(٤) الفهرست ص ٤٤٩ .
(٥) مروج الذهب ٤/٤٩ .
(٦) مروج الذهب ٤/٤٩ .

بها أربعة وعشرون منزلاً بثلاثين حجراً وفصين يجرى بهما اللعب كما هو معروف في عصرنا . وكان إبراهيم بن المدبر وزير المعتمد مشغولاً به وكان ماهراً فيه ، فكان يطلب بلعبه القمار وكسب الرهان ، ويروى صاحب الديارات أنه ربح من شخص ذات يوم عشرين ديناراً^(١) .

واعلم ملهى لم يشغل الناس كما شغلهم الغناء ، وسنعرض لذلك في موضع آخر ، وكثيراً ما كانوا يتجمعون في تلك الحقب للفرجة على سباق الخيل ، حتى كانت أيامه أشبه بأيام الأعياد . وكذلك كان اللعب بالصوالجة على الخيل ، حيث تضرب كرة ويتقاذفها الحيالة والفرسان ، وكانت في دور الخلفاء ميادين خاصة لتلك اللعبة^(٢) ، وكان يلعبها الخلفاء والوزراء والقواد وحواشيهم ، ويروى أن عبيد الله بن يحيى ابن خاقان وزير المعتمد دخل ميداناً في داره يوم جمعة ليضرب الصوالجة مع بعض غلمانه ، فركب فرسه ، وثقل ، فصدمه غلامه رشيق ، فسقط عن فرسه ميتاً^(٣) . ويصور ابن قتيبة هذه اللعبة والتفوق فيها ، فيقول إن الضارب يضرب الكرة بالصولجان خلسةً من تحت مخزّم الدابة لقاء لبنتها ، وعليه أن يحسن كفة الدابة في شدة جريانها متوقياً من الصرعة والصدمة المفاجئة .

وكانوا يخرجون للصيد والقنص أفواجاً ، واشتهر غير خليفة بالخروج له ومعه الكلاب والصقور والفهود ، وكان من أشد الخلفاء شغفاً به المعتضد « وكان كالمعتصم في أكثر أموره ومآربه وأشبه به من سائر بيته وبنيه من الخلفاء في محبته لمباشرة الحرب والصيد وما أشبههما ، ولم يكن ينفك من حرب إلا إلى صيد ولا من صيد إلا إلى حرب ، وكان يخرج لصيد الأسد ، فيخيم عليها حتى لا يبقى منها باقية »^(٤) وكان ابنه المكتفي مشغولاً مثله بالصيد « وكان أكثر ما يُد منه الصيد بالفهد والعقاب ، وهما سبعا الضواري والجوارح ، ويباشر ذلك بنفسه ويمتحنها فيه لشدة الشغف به

(٣) النجوم الزاهرة ٣/ ٣٨ .

(١) كتاب الديارات ص ١١ .

(٤) المصايد والمطارد لكشاجم (طبع بغداد) ص ٥ .

(٢) كتاب الوزراء ص ١٣٨ .

والارتياح إليه»^(١). ومنذ أبي نواس والشعراء يكثرون من النظم فيه بجميع صوره ، ويعرض كشاجم آلاته عرضاً مفصلاً في كتابه المصايد والمطارد ، كما يعرض روائع ما قيل فيه من أراجيز وأشعار كانوا يسمونها الطرديات . ومن طريف ملاهيهم المهارشة بين القردة والفيلة^(٢).

وكانت العامة تجد تسليتها المحببة عند قُصَّاص كانوا منتشرين في طرقات بغداد وكانوا يقصون عليها نوادر الأخبار وغرائبها ، ويبدو أنهم كثروا كثرة مفرطة حتى لنرى المعتمد يأمر في سنة ٢٧٩ بالنداء في بغداد ألا يقعد على الطريق ولا في المسجد الجامع قاصٌّ ولا صاحب نجوم ولا زاجر^(٣). وكان اللعب بخيال الظل معروفاً حينئذ ، وكان يعتمد على الهزل والسخرية والإضحاك^(٤). وكان هناك كثير من المضحكين الذين يتفنون في طرق الهزل ، وكان كثير منهم يخلط هزله بمحاكاة لهجات التازين ببغداد من الأعراب والحراسانيين والزوج والفرس والهنود والروم أو يحاكون العميان ، وكأنما يجمع الحاكى سمات من يحكيه جميعاً ، وقد يحاكون بعض الدواب وخاصة الحمير^(٥). ومن أشهر هؤلاء الحكَّائين المضحكين لعصر المعتضد ابن المغازلي ، وكان يتكلم على الطريق ويقص على الناس أخباراً ونوادر ومضاحك ، وكان في نهاية الحذق لا يستطيع من يراه إلا أن يضحك ، وكان لا يدع حكايته لأعرابي أو مكى أو نسجدي أو تركي أو نبطي أو زنجي أو سِنْدِي إلا حكاها ، وكان يخلط ذلك بنوادر تضحك الثكلى ، وسمع به المعتضد فأحضره ، فما زال يذكر له نوادر وهو مئاسك ، حتى أخرجه عن طوره ووقاره إلى الضحك ، فضرب بيده وفحص الأرض بقدمه ، واستلقى من كثرة الضحك وغلبته عليه^(٦).

(١) المصايد والمطارد ص ٧ .

(٢) الحيوان ٦٢/٧ .

(٣) طبرى ٨٠/١٠، ٨٤ والنجوم الزاهرة ٣/٨٠ .

(٤) الديارات ص ١٨٧ وما بعدها .

(٥) البيان والتبيين ٦٩/١ .

(٦) مروج الذهب ١٦٣/٤ .

الريقيق والجواري والغناء

كان الريقيق منتشراً في كل مكان ، في القصور وفي الأكواخ وفي الصناعات وفي الزراعة ، وكان كثيراً كثرة مفرطة ، فمنه السندی ومنه الإفريقي الزنجي والحبيشي والسوداني ومنه التركي والصقلبي ، ومنه الصيني والحراساني والأرمني والبربري ، وكأغلب كانت تجمتع فيه كل الأجناس . ومع أن الإسلام قصر الرق على من يؤخذ في الحرب أسيراً كافراً ، فقد مضى المسلمون — محاكين شعوب العالم القديم — يفسحون للتجارة فيه وجلبه من البلاد الأجنبية ، وكأنهم لم يستطيعوا أن يبطلوا هذه العادة عند الأمم المغلوبة كما كان منتظراً ، بل لقد شاركهم فيها . ولم تلبث تجارة الريقيق في ديار الإسلام أن أصبحت ذات شأن عظيم ، حتى إيسني لها في كل مدينة كبيرة سوق خاصة يقوم على مراقبتها موظف يسمى قيسم الريقيق . ويذكر العقوبي أن سوق سامراء في القرن الثالث الهجري كانت مربعة ، وبها طرق متشعبة ، وفيها الحمر والغرف والحوانيت (١) .

ومعروف أن الإسلام عمل على تحرير الريقيق بوسائل شتى ، إذ جعله فداء لأعظم الجنايات مثل القتل خطأ وأخفها مثل الحنث في اليمين ، وأباح للعبد حتى التملك وأن يكاتب صاحبه على جزء من المال يدفعه من العمل ، حتى إذا وقاه ردت إليه حريته . واستطاع كثير من الأرقاء المحررين أن يصلوا إلى أعظم المناصب في الدولة ، وكان من هؤلاء الأرقاء من يتمتعون بجاه عظيم مثل قواد الترك طوال العصر (٢) ، غير أن جمهوراً كبيراً منهم كان يعامل معاملة سيئة ، وخاصة الزنوج الذين كانوا يقومون بأعمال الحرث والزراعة في البصرة ، مما جعلهم يثورون لعصر المعتمد — كما مر بنا — ثورة عارمة . ولا ريب في أن هذه المعاملة السيئة تخالف روح الإسلام مخالفة صريحة ، لا من حيث استرقاق الناس بالشراء لا بالحرب فقط ، بل أيضاً من حيث أخذهم بالعنف والعسف والظلم ، فقد دعا القرآن

(١) جغرافية العقوبي ص ٢٥٩ . (٢) جغرافية العقوبي ص ٢٥٩ .

والحديث جميعاً إلى الإحسان للأرقاء والبرِّ بهم والمعاملة الكريمة على نحو ما يلقانا في آية سورة النساء: (وبالوالدين إحساناً وبذى القربى واليتامى . . . وما ملكتم أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً) ، وفي الحديث النبوي: «شر الناس من أكل وحده ومنع رِفْدَه (عطاءه) وضرب عبده» ، وفيه أيضاً: «العبيد إخوانكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم ما يغلبهم ، فإن كلفتموهم فأعينوهم» ، وكانت الجارية بمجرد أن يستولدها سيدها تصبح أم ولده ، وليس له حق بيعها ، وابنها حر مثل أبيه ، وبمجرد موت سيدها تصبح حرة . وفي مواضع كثيرة من القرآن والحديث نجد الدعوة قوية إلى تحرير العبيد ، ولذلك كان كثيراً ما يوصي الرسول من ملكوهم بعقبتهم بعد موتهم ، ويُرَوِّى أن المعتصم أوصى بعد موته بعق ثمانية آلاف من مماليكه ، ومثله كان يصنع الوزراء والكبراء من الأمة .

على كل حال كان الأرقاء كثيرين كثرة مفرطة ، وكان أهم ما يقومون به في المدن الخدمة ، ويقول المسعودي إن الخدم كانوا عادة من السودان أو الصقالبة أو الروم أو الصين^(١) . ويبدو أن جمهورهم كانوا من الحصيان ، ومع أن الإسلام حرَّم الخساء تحريماً باتاً نجد الحصيان منتشرين في العالم الإسلامي انتشاراً واسعاً . وكانوا يُخصَّصون خارج حدود الدولة الإسلامية : في بيزنطة وأواسط آسيا ، ثم يُجلبون ويباعون في أسواق الرقيق ببغداد وغير بغداد ، ويتردّد ذكرهم كثيراً منذ أواخر القرن الثاني الهجري . «وكانت انتشارهم باعثاً على أن تلبس بعض الجوارى المسمَّين بالغلّاميات ملابسهم ، وترتبط بذلك حادثة مشهورة فإن زبيدة أم الأمين حين رآته يستكثر من الحصيان اتخذت الجوارى المقدودات الحسان الوجوه ، وعمّمت رعوسهن ، وجعلت لهن الطرر والأصداغ والأقفية (صور من تجميل أوضاع الشعر على الرأس تشبهها بالفتيان) وألبستهنّ الأقفية والقراطق والمناطق (ملابس الفتيان) فاستقلودهن وبرزت أردافهن ، وبعثت بهن إلى ابنها الأمين ، فاختلفن بين يديه ، فاستحسنهن ، واجتذبن قلبه إليهن وأبرزهن للناس»^(٢) فقتلده كثير من أهل بغداد ، وظل ذلك من بعده حتى عصر الخليفة القاهر المتوفى

(١) مروج الذهب ٤/ ١٥٨ .

(٢) مروج الذهب ٤/ ٢٢٦ .

سنة ٣٢٢ إذ يروى بعض الإخباريين أنه رأى في قصره جوارى يلبسن القراطيد والأقبية والطُرَر ومناطق الذهب والفضة^(١).

وكثرة الحصيان هي التي هيأت لظهور هؤلاء الغلاميات ، ويكفي أن نذكر ما قاله المؤرخون من أنه كان في قصر المقتدر أحد عشر ألف غلام خصي^(٢). ومنذ أواسط القرن الثالث أخذ الناس — احتراماً لمن صارت إليهم مقاليد الأمور منهم ، وخاصة من الترك — يسمون الخصيَّ الخادم والأستاذ^(٣). ولم يكونوا يستطيعون التعرض للخصيان البيض خوفاً من الترك وبطشهم ، أما السود فكانت العامة تكثر من الصياح بهم : يا عقيق^(٤). ويروى المسعودي أن الخدم السود جأروا بالشكوى إلى المعتضد لما يلحقهم في الأزقة والشوارع والدروب وسائر الطرق من الصغير والكبير من العوام إذ كانوا جميعاً يصيحون بهم : « يا عقيق صُب ماء واطرح دقيق يا غاق (صوت الغراب) يا طويل الساق »^(٥). وكان المضحكون الهزليون في الطرق كثيراً ما يحاكون الخدم المختلفين وأصواتهم^(٦).

وكانت الإماء والجوارى في الدور والقصور أكثر من الحصيان وأرقاء الرجال ، إذ أباح الإسلام للمسلم أن يملك ما شاء من الجوارى والإماء ، وكثير من الرجال كانوا يفضلونهن على الحرائر ، لأنهن كن من أجناس وأشكال مختلفة ، ولم يكن بينهن وبين الرجال حوائل الحجاب مثل الحرائر اللائي يقترون بهن وهم لا يعرفون من أمرهن شيئاً ، بخلاف الجارية فإنها كانت معرضة لهم في دور النخاسين ، فكانوا يختارونها بحسب مشيئتهم وموقعها في أنفسهم ، بخلاف الحرائر فقد كان الحجاب يحول بينهم وبين التعرف عليهن ، وكانوا يُضطَرُّون لاتخاذ دلائل يصفونهن لهم ، وقلما يتطابق الوصف مع الحقيقة . وكان بين الجوارى المعروضات للبيع دائماً كثير من الفاتنات الفارسيات والحراسانيات والأرمنيات والتركيات والروميات ، فكن يستأثرن بقلوب الرجال . ومن أجل ذلك لم يكونوا يعددون زوجاتهم ، فقد كفاهم اتخاذ الجوارى والإماء هذا التعدد ، وأكبوا عليه إكباباً .

(٤) طبري ٥٣/١٠ .

(٥) مروج الذهب ١٧١/٤ .

(٦) مروج الذهب ١٦٣/٤ ، ١٦٤ .

(١) مروج الذهب ٢٢٧/٤ .

(٢) النجوم الزاهرة ٢٣٤/٣ .

(٣) مروج الذهب ١٧٨/٤ ، ١٨٠ .

وكان إمامهم في ذلك الخلفاء فإنهم أكثروا من الجوارى كثرة مفرطة ، حتى ليروى أنه كان لدى المتوكل منهن أربعة آلاف جارية ^(١) ، وهي رواية مبالغ فيها ، غير أنها تدل على ما ثبت لدى الناس من كثرة جواريه ، ويقال إنه لما أفضت إليه الخلافة أهدها عبيد الله بن طاهر هدية فيها مائتا وصيف ووصيفة ، وكان في الهدية محبوبة ^(٢) . وكانت شاعرة مغنية ف وقعت عنده أعظم موقع واقرن بها ، ووفت له بعد موته وفاء منقطع النظير . وظلت هذه السيول تتدافع إلى قصر الخلافة طوال العصر من كل قطر ، ويروى أن زيادة الله بن الأغلب أهدى المكنى حين ولي الخلافة مائة وخمسين جارية ^(٣) . ولعلنا لا نعجب بعد ذلك إذا عرفنا أن أمهات الخلفاء في العصر كن من الجوارى ، وخاصة جوارى الترك والروم ، وكُنَّ يتدخلن في شئون الحكم ، فكل جارية تحاول أن تقيم في المناصب العليا أقرباءها والمقربين منها ، على نحو ما كانت تصنع أم المقتدر بأخرة من العصر ، حتى فسد الحكم لعهد فساداً لا يمكن إصلاحه ، وفسحت لأخيها الرومي المسمى غريباً في النفوذ والسلطان ، فزاد الطين بلة ، وزاد بلة ثانية بما أتاحت لقهرمانتها أم موسى من إسنادها نقابة بني هاشم لأخيها ، وأتاحت لقهرمانتها الثانية ثمل — كما مر بنا في غير هذا الموضع — أن تقعد في الرصافة كل يوم جمعة للنظر في المظالم .

وكانت الجارية الجميلة تباع بألف دينار وأكثر ، وكان الناس يغدون ويروحون إلى سوق الرقيق ودور النخاسين يتفرجون على الوافدات الجديديات من الجوارى الفاتنات ، وكان النخاسون يجمعون منهن كثيرات ، حتى لقد كانت رعوس أموالهم تبلغ الألوف ، ويقول ابن المعتز عن نخاس منهم يسمى أحمد بن الحارث إنه كان يجتمع أحياناً عنده من الرقيق ما يبلغ مائة ألف دينار ^(٤) ، ويذكر أبو الفرج الأصبهاني عن نخاس يسمى أبا عمير أنه كان له جوارهن ظرف وأدب ، وكان ابن البواب الشاعر يألف جارية منهن يقال لها عبادة ويكثر غشيان منزل أبي عمير من أجلها فأصابه ضيق شديد ، فانقطع عن زيارتها ثم نازعته نفسه إلى

(١) مروج الذهب ٤/ ٤٠ .

(٢) أغاني (سأسي) ١٣٢/١٩ ونساء

(٣) مروج الذهب ٤/ ٢٠٠ .

(٤) طبقات الشعراء لابن المعتز (طبع دار

المعارف) ص ٤٢٦ .

الخلفاء لابن الساعي ص ٩٢ .

لقاتها وصعب عليه الصبر عنها ، فأتى عبادة ، ووجد الجارية ورفاقه يعاتبونه على تأخره عنهم وعن صاحبته ، ولم يلبث أن أنشأ يقول :

لو تشكى أبو عمير قليلاً لأتيناه من طريق العيادة
ففضينا من العيادة حقاً ونظرنا في مُقلى عباده

فقال أبو عمير : مالى ولك يا أخى ، انظر في مقلى عبادة متى شئت غير ممنوع ، ودعنى أنا في عافية لا تتمنى لى المرض لتعودنى^(١). وواضح من امتناع ابن البواب عن زيارة أبى عمير حين ألت به ضيقة أن الشعراء وغيرهم حين كانوا يختلفون إلى دور النخاسين كانوا يحملون معهم كثيراً من الهدايا للنخاسين وجواريتهم ، مما كان يكلفهم أموالاً كثيرة ، وإلى ذلك يشير الجاحظ في رسالته عن القيان إذ يذكر عن النخاس «أن من فضائله أن الناس يقصدونه بالرغبة كما يقصدونها الخلفاء والعظماء فيزار ولا يكلف الزيارة ، ويوصل ولا يحتمل على الصلة ، ويهدى إليه ولا تقضى منه الهدية»^(٢). ويصور الجاحظ تفنن الجارية في اللعب بألباب الرجال ، إذ لا تزال تنصب أشراكها باللحظ والتبسم وإظهار الشوق إلى طول مكث من يختلف إليها والحزن لفراقه والصبابة لسرعة عودته ، فإذا أحسست أنه وقع في الشراك أوهمته أنها تعلقت به وأنه شجّوها في فكرها وضميرها وليلها ونهارها وأنها لا تريد سواه ولا تؤثر أحداً على هواه وأنها لا تبتغيه لماله وهداياه وإنما لنفسه ، ثم جمّسته بعضوض تفاحها وتحيات من ريحانها وزودته بخصلة من شعرها وقطعة من ثيابها ، يقول الجاحظ وربما زارته في بيته وأمكنته من القبلة فما فوقها . لذلك لا نعجب حين نراهن يتسعرن قلوب الشعراء ، وحين نرى الشعراء عاكفين عليهن وقد بذلن لهن كل ما استطاعوا من هدايا وتحف وطرف نفيسة ، وفي ذلك يقول على بن الجهم متحدثاً عن جوارى نخّاس يسمى المفضل وابتزازهن وابتزاز صاحبهن أموال من يزورونهن^(٣) :

أوانس ما فيهنّ للضيف حشمة ولا ربهن بالمهيب المبجل

(٣) ديوان ابن الجهم (نشر المجمع العلمي

العربي بدمشق) ص ٥٢ .

(١) أغاني (سامى) ٢٠ / ٤٣ .

(٢) رسائل الجاحظ نشر فنكل ص ٧٣ .

يُسَرُّ إِذَا مَا الضَّيْفُ قَلَّ حَيَاؤُهُ وَيَغْفُلُ عَنْهُ وَهُوَ غَيْرُ مَغْفُلٍ
وَلَا يَدْفَعُ الْأَيْدَى السَّفِيهَةَ غَيْرَةً إِذَا نَالَ حِطًّا مِنْ لِبُوسٍ وَمَأْكَلٍ
لَكَ الْبَيْتُ مَا دَامَتْ هَدَايَاكَ جَمَّةً وَدُمْتَ مَلِيًّا بِالشَّرَابِ الْمَعْسَلِ

وكان دار النخاس تعد « باراً » كبيراً وجواريه ما يزلن يختلفن إلى رؤاده .
وكان كثيرات منهن مثقفات بفنون الآداب ، فكن يجذبن الرجال والشباب
والشعراء بجماهن وعدوبة حديثهن ، بل كان منهن كثيرات يحسنن نظم الشعر مثل
فضل الشاعرة ومثل محبوبة جارية المتوكل .

ولم يكن المجتمع العباسي يُعنى بفن كما كان يعنى بالغناء والموسيقى ، ويتضح
ذلك من كثرة الكتب المترجمة منذ مطالع العصر في الفن الموسيقي على نحو
ما يتضح في أوائل ترجمة إسحق الموصلي في كتاب الأغاني وكذلك ما ساقه منها
كتاب الفهرست لابن النديم ، ولم يلبث العرب أن شاركوا مشاركة قوية في هذا التأليف
منذ الخليل بن أحمد صاحب العروض المتوفى سنة ١٧٠ للهجرة . ويتكاثر هذا
التأليف في القرن الثالث ، وخاصة في بيئة المتفلسفة مثل الكندي وله في الموسيقى
كتب مختلفة^(١) ، وكذلك لتلميذه^(٢) أبي الطيب السرخسي ولقسطنطين^(٣) بن لوقا
البعلبكي ، فلكل هؤلاء مؤلفات في الموسيقى أحصاها ابن النديم في فهرسته .
وخلف من بعدهم الفارابي بأخرة من العصر فأراني على كل سالف وخالف من
اليونان والعرب جميعاً على نحو ما يتضح في مصنفه كتاب الموسيقى الكبير ، وقد
استطاع أن يدخل تحسينات على آلة القانون الإغريقية . وعلى نحو ما يسوق
ابن النديم كتب المتفلسفة في الموسيقى يسوق كتب المغنين فيها وفي الغناء والمغنين
والمغنيات ، ولإسحق الموصلي في ذلك نشاط واسع ، ومن أشهر من خلفوه في القرن
الثالث على التأليف في هذا الفن بَدَلُ^(٤) ، وكان لها كتاب في الأغاني يشتمل
على اثني عشر ألف صوت ، ودنانير البرمكية ويقول أبو الفرج لها كتاب مجرد
في الأغاني مشهور^(٥) ، ومن ذكرهم ابن النديم التصني وله كتاب في الأغاني ألفه

(٤) الأغاني (سأسي) ١٥ / ١٣٨ .

(٥) الأغاني (سأسي) ١٦ / ١٣١ .

(١) الفهرست ص ٣٧٣ .

(٢) الفهرست ٢١٩ ، ٣٨٠ .

(٣) الفهرست ص ٤٢٤ .

على حروف المعجم للمتوكل^(١).

ومنهم جمحظة وله كتاب في الطنبوريين^(٢)، ويذكر أبو الفرج أن لعمر وبن بانه كتاباً في الأغاني يُعَدُّ من الأصول المهمة فيها^(٣)، كما يذكر أنه كان لأحمد ابن يحيى المكي كتاب سماه المجرد في الأغاني كان يحتوي على أربعة عشر ألف صوت^(٤)، وكان لمحمد بن علي بن أمية المعروف باسم أبي حشيشة كتاب في أخبار الطنبوريين^(٥). وعمل في هذا العصر كثير من المغنين على تحسين آلات الغناء وتغذيته بالألحان الأجنبية، وخاصة أن كثرتهم كانت من الموالى فرساً وغير فرس، بل إن منهم من اخترع بعض الآلات مثل زُنام الزامر، فقد اخترع نايّاً نُسب إليه، فقيل ناي زُنمى^(٦). ومما يدل على ما كان للغناء حينئذ من سمو المنزلة أننا نجد طائفة من الخلفاء والأمراء وكبار رجال الدولة تشارك في وضع أصواته مثل المنتصر^(٧) والمعتز^(٨) والمعتد^(٩) وابن المعتز^(١٠) وعبيد^(١١) الله بن عبد الله بن طاهر، واشتهر بأنه كان يستطيع أن يجمع ألحاناً كثيرة في صوت واحد، وكانت له كتب في النغم وعلل الأغاني.

وكانت تتقابل في الغناء حينئذ مدرستان: مدرسة محافظة تتمسك بالأصول والأوضاع الموروثة ويمثلها إسحق الموصلي، ومدرسة مجدة لا تزال تضيف إلى التراث الفني في الغناء أصواتاً وأنغاماً وألحاناً ويمثلها إبراهيم بن المهدي، ويحكى أبو الفرج بعض وجوه الخلاف بينه وبين إسحق، فيقول إنهما كانا يختلفان في مدلول بعض المصطلحات، فما كان يسميه إسحق ثقيلاً أولاً وخفيفه كان يسميه إبراهيم بن المهدي ثقيلاً ثانياً وخفيفه، وما كان يسميه إسحق ثقيلاً ثانياً وخفيفه كان يسميه إبراهيم بن المهدي ثقيلاً أولاً وخفيفه، ويقول أبو الفرج: «وأما التجزئة والقسمة فإنهما أفنيا أعمارهما في تنازعهما فيهما، حتى كان يمضي لهما

(٧) أغاني (دار الكتب) ٣٠٩/٩ وانظر

في أصوات أخيه أبي عيسى الأغاني ٢٠١/١٠.

(٨) أغاني ٢٠٥/٩.

(٩) أغاني ٣٢٣/٩.

(١٠) أغاني ٢٧٧/١٠.

(١١) أغاني ٤٠/٩ وما بعدها.

(١) الفهرست ص ٢١٤.

(٢) الفهرست ص ٢١٤.

(٣) أغاني (دار الكتب) ٢٦٩/١٥.

(٤) أغاني ٣١١/١٦.

(٥) الفهرست ص ٢١٤.

(٦) تاج العروس للزبيدي ٣٣٠/٨.

الزمان الطويل لا تنقطع مناظرتهم ومكاتبتهما في قسمة وتجزئة صوت واحد^(١) . وقد توزع المغنين والمغنيات في القرن الثالث ، فكان من ينكر تغيير الغناء القديم يأخذ بمذهب إسحق ، ومن رأى التجديد والتغيير في الألحان يأخذ بمذهب ابن المهدي . ونستطيع أن نعين أهم من تعصبوا لهذا أو ذاك ، فمن كان يتعصب لإسحق من المغنين المشهورين في هذا العصر أحمد بن يحيى المكي ، وله ترجمة^(٢) في كتاب الأغاني وكان إسحق يقدمه ويؤثره ، ولحق عصر المستعين ، وكان ابنه محمد يحدق الغناء على شاكلته ولحق عصر المعتمد . ومن كان ينهج منهج إسحق بنان ، وكان أخص الناس بالمتوكل والمتنصر ، وكان إذا اجتمع هو وزمام الزامر على الضرب بالعود والزمر أحسنًا وفتنا وأعجبا . ومنهم أيضاً عبد الله^(٣) بن أبي العلاء ، وقد عُمر إلى آخر أيام المعتصد وكانت تقوّم دابته وثيابه إذا ركب بألف دينار ، وابنه أحمد كان من المغنين النابهين . ومن كان على نهج إسحق أيضاً القاسم بن زرور وولده وجواري آل هاشم وآل الفضل بن الربيع ومن جرى مجراهم ممن تمسك بالغناء القديم وحمله كما سمعه^(٤) . ومن كان على مثاله أيضاً الزبير بن دحمان ، وكان متعصباً لإسحق ، في حين كان أخوه عبد الله يتعصب لابن المهدي ، فكان كل منهما يرفع من صاحبه ويشيد بذكره ، يقول أبو الفرج : « فعلا الزبير بتقديم إسحق له » لجلائته عند الناس وتمكنه منهم وقبولهم منه^(٥) ، وكأن أنصار إسحق كانوا أكثر نفراً إذ كان الذوق العام يميل إلى المحافظة أكثر مما يميل إلى التجديد ، ولم يكن ذلك شيئاً خاصاً بالغناء ، بل كان عاماً فيه وفي الشعراء ، فقد كان الشعراء والمغنون جميعاً يستمسكون بالتقاليد الموروثة . ومن كان ينزع منزع إبراهيم بن المهدي ورغباته في التجديد بالغناء عمرو بن بانه ، المنسوب إلى أمه ، وكان المتوكل أنيساً به ، ونال منه جوائز كثيرة « وكان يذهب بمذهب إبراهيم بن المهدي في الغناء وتجنيسه ويخالف إسحق ويتعصب عليه تعصباً شديداً ويواجهه بذلك وينصر إبراهيم بن المهدي عليه »^(٦) ، ويقول أبو الفرج إنه علم الغناء عشرة من الغلمان ، وطال عمره حتى سنة ٢٧٨ وكان يشاركه في مذهبه محمد بن الحارث بن بسخر ،

(٤) أغاني (دار الكتب) ٧٠/١٠ .

(٥) أغاني (سلي) ١٤٤/٢٠ .

(٦) أغاني (دار الكتب) ٢٦٩/١٥ .

(١) أغاني ٩٦/١٠ وما بعدها .

(٢) أغاني ٣١١/١٦ .

(٣) أغاني سلي ١١٤/٢٠ .

وكان من المتعصبين على إسحق ، ويقول أبو الفرج : « أخذ الغناء عن إبراهيم بن المهدي ومن بحره استقى » ، وكان يُغَنِّي على المعزفة فنقله ابن المهدي إلى العود وواظب عليه حتى حذقه^(١) ، وكان الخلفاء يسكبون عليه أموالهم سكباً ، وخرَّج كثيرات من الجوارى اللاتي برعن في الغناء .

وعلى نحو ما كان المغنون حزينين : حزباً يتبع إسحق الموصلى وحزباً يتبع إبراهيم بن المهدي كذلك كانت المغنيات ، ومن كان يأخذ منهن بمذهب إسحق عريب وجواريهما من أمثال تحفة الزمارة وبدعة ، وترجم أبو الفرج ترجمة ضافية لها^(٢) ذكر في صدرها أنها كانت نهاية في الجمال والظرف وحسن الصوت وجودة الضرب وإتقان الصنعة والمعرفة بالنغم والألحان ورواية الأشعار ، اشتراها الأمين من مولاها المراكبي وكان عمرها سبعة عشر عاماً ونظمها في جواريه الغلاميات ، واشتراها المأمون بعده بخمسين ألف درهم ، ثم اشتراها المعتصم بمائة ألف وأعتقها فهي مولاته ، وظلت تغنى طوال حياتها وماتت عن سن عالية سنة ٢٧٧ لعهد المعتصم ، وقد أمر على بن يحيى المنجم أن يجمع غناءها الذي صنعتها فأخذ منها دفاترها وصحفها التي كانت سجلت فيها أصواتها ، وكتب ذلك كله فكان ألف صوت بارع ، واشتهرت جاريته بدعة^(٣) بالغناء وإتقانه على طريقة الموصلى ، وعاشت حتى سنة ٣٠٢ . وحاول بعض أعيان بغداد شراءها فطلب إلى على بن يحيى المنجم أن يفاوض عريب في شرائها بمائة ألف دينار ، وجعل له عشرين ألفاً ، ورفضت بدعة فأعتقتها عريب ، ويقال إنها خلفت مالا كثيراً وجوهرًا وضياعاً وعقارات . أما اللاتي كن يتعصبن لإبراهيم بن المهدي فعلى رأسهن شارية^(٤) جاريته ، وكان قد اشتراها بثمانية آلاف درهم ، حتى إذا أخرجها وذاع صيتها عرض عليه المعتصم فيها سبعين ألف دينار ، فأبى أن يبيعها له ضناً بها ، واشتراها المعتصم بعد ذلك من تركته بخمسة آلاف وخمسمائة دينار . وكان المعتر يأنس لغنائها ، وطالت حياتها حتى لحقت المعتصم ، وكان يأبى أن يلحن له أشعاره سواها وسوى عريب ، وأمرها ذات مرة وقد غنته صوتاً بألف ثوب من الثياب الأنيقة . ومن جواريهما اللاتي

١٥٠/١٠ والهمداني ص ١٥ .

(٤) أغاني (دار الكتب) ٣/١٦ وما

بعدها .

(١) أغاني (سأى) ٨٢/٢٠ .

(٢) أغاني ١٧٥/١٨ وما بعدها .

(٣) أغاني ١٢٥/١٩ وعريب ٣٨ والطبري .

اشتهر بالغناء على طريقتها وطريقة ابن المهدي : مهرجان ومطرب وقمرية وشرة وقد اشتراها المعتمد بعشرة آلاف دينار

ومن كنَّ يحسنَّ الغناء فريدة^(١) زوجة المتوكل وجاريته محبوبة^(٢) وقلم^(٣) الصالحية وشاجي^(٤) جارية عبيد الله بن عبد الله بن طاهر ، وقد نسب إليها كل ما صنعه من الغناء والأصوات . وكانت هناك جماعة كبيرة اشتهرت بالغناء على الطنبور في مقدمتها أبو حشيشة^(٥) الطنبوري الذي عاش إلى عصر المعتمد ، وسليمان^(٦) بن القصار الطنبوري ، وكان المعز أنيساً به ، ويقال إنه غناه يوماً صوتاً فأعطاه مائة دينار مكيّة ومائتين مما ضرب لخزائنه ، وجمحة البرمكي وله ترجمة طويلة في معجم الأدباء ، وعمر^(٧) الميذاني ولم يكن في الطنبوريين أصح غناء وأكثر تصرفاً منه ، وعبيدة^(٨) الطنبورية ، وكانت تتقن الضرب على الطنبور إتقاناً بعيداً . وكثيراً ما كان يأخذ الغناء شكل جوقة ، وكانت آلات الغناء عادة أربعاً هي العود والجناك والقانون والمزمار . وقد يوضع مكان القانون الطنبور^(٩) . وكثيراً أيضاً ما كان يقترن الغناء بالرقص ، وفي مروج الذهب للمسعودي فصل^(١٠) طريف يوضح صلته بالغناء والموسيقى وما كانت ترتفع به الخناجر من أشعار ، وفيه تسمى أنواع الرقص وفنونه بأسماء أوزان الشعر من مثل الخفيف والرمل والمزج ، وبالمثل كانوا يقيسون الغناء ، مما يدل أقوى الدلالة على الصلة الوثيقة بين الفنون الأربعة : الغناء والموسيقى والرقص والشعر .

وكان للجواري في هذا الجو المشيع بالموسيقى والغناء أثر كبير في شيوع الظرف والرقعة واللفظ ، إذ دفعوا الشباب والشيوخ إلى تمثل كثير من العواطف والمشاعر التي تملأ قلوبهم ليناً وبراً وعطفاً ووداً ، وقد خلّبوا ألبابهم بحديثهن الساحر الذي يصب في القلوب تارة رحيقاً وتارة حريقاً ، حديث العشق وما يشيع فيه من

- | | |
|--------------------------------------|----------------------------------|
| (١) أغاني ١١٤/٤ . | (٦) أغاني (دار الكتب) ١١٢/١٤ . |
| (٢) أغاني (سلي) ١٣٢/١٩ . | (٧) أغاني (سلي) ٦٦/٢٠ . |
| (٣) أغاني (دار الكتب) ٣٤٧/١٣ . | (٨) أغاني ١٣٤/١٩ . |
| (٤) أغاني (سلي) ٤٢/٨ ونشوار المحاضرة | (٩) التنوخي على المستطرف ١٤٤/٢ . |
| ٦٣/١ والديارات ص ١١١ وما بعدها . | (١٠) مروج الذهب ١٣٧/٤ . |
| (٥) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٥٧/٣ | |

العواطف والمواجد ونور الأمل وظلام اليأس وما قد يتحول إليه من حب مادي كثير الشباك : شبك التضرع والأمل والطلب ، وحبّ أفلاطوني نقي كثير الحجب : حجب الطّهْر واليأس والبراءة ، مما جعل الشعر يكتظ بمعاني الرقة واللفظ المفرطين كما يكتظ بالظرف حتى ليصبح للظرفاء تقاليد خاصة في الزى والنظر وتناول الطعام والشراب ، وقد أفرد لها الوشاء فصلاً خاصاً في كتابه « الموشى » يدل على رقة الحسّ أوسع دلالة . ونستطيع أن ندخل في فنون الظرف التي أشاعها الجوّاري حينئذ إعجابهم بالأزهار وتعلقهم بها وشغف كثيرات منهن بكل زهر وريحان ، حتى لتلحق بالقصور حدائق كثيرة ويقام كثير من البساتين . وألهمت الأزهار الشعراء بكثير من الأشعار ، حتى ليصبح وصف الطبيعة باباً مهماً من أبواب الشعر ، وليس ذلك فحسب ، فقد أحس الشعراء في الأزهار معاني السلوى في الحب والوصل ودنوه واتصاله وانقطاعه ، إلى غير ذلك من معان لا تحصى ، كأن يحس شاعر في معنى الورد الخجل لاحمراره ويحس آخر انقطاع الوصل لسرعة ذبوله ، أو يحس شخص في البنفسج عودة الوصل ورجوعه . وكانوا يتهادون بالأزهار والرياحين دالين بها على أمثال تلك المعاني ، كما كان يحمي بها بعضهم بعضاً ، وكثرت التحية عندهم بالتفاح ، وكانت الجارية تترك على التفاحة أثر أخذها بقمها ، وقد تشققها بالمسك أو بالغالية أو بغيرهما من أنواع الطيب ، وقد تكتب عليها بيتاً أو بيتين تدل بهما على اللوعة ، ويقول ابن المعتز^(١) :

وآثار وصلٍ في هواكِ حفظتها تحيات ربحانٍ وعضات تُفّاح

وكن يكتبن أبيات الحب الرقيقة على الثياب والأكام والقلائس والعصابات والطرر والذوائب والمناديل والبسط والوسائد والأسرة^(٢) ، ويروى أن عريب كانت تلبس قميصاً موشحاً بالذهب ، كتّبت في وشاحه :

وإني لأهواه مسيئاً ومحسنأ وأقضى على قلبي له بالذي يقضى
فحتى متى روح الرضا لا ينالنى وحتى متى أيام سخطك لا تمضى

(طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ٤٢٥/٦

وما بعدها .

(١) الديوان ص ١٣٩ .

(٢) انظر الموشى للوشاء والعقد الفريد

وكن يتنافسن في التهادى بالتحف الحميمة وتبعهم الشباب والرجال . وليس ذلك فحسب ، فقد كن يتثقفن بثقافات العصر ، وعلمن على شيوع الثقافة ، إذ كان منهن كثيرات يروين الأشعار والأخبار ، وينظمن الشعر نظاماً بديعاً .

٤

الحجون والشعوبية والزندقة

رأينا في كتابنا العصر العباسي الأول كيف كانت موجة الحجون حادة ، وقد انتقلت إلى هذا العصر بحدتها ، إن لم تكن زادت حدة فوق حدة ، إذ ظل الناس يسمعون في شرب الخمر واحتساء كتوسها ، مدمنين عليها لا يرعون ولا يزدجرون . ومعروف أن القرآن الكريم حرّمها ، ولذلك أجمع الفقهاء على تحريمها ، لحجى ذلك بنص القرآن ، وما كان محرّماً بنصه لا يحلّ منه قليل ولا كثير . أما النبيذ فسكّره محرم أيضاً بالقياس ، غير أن اجتهاد بعض فقهاء العراق الأحناف أداهم إلى تحليل بعض الأنبيذة غير المسكرة كنبيذ التمر والعسل والتين والبسر وكالزبيب المطبوخ أدنى طبخ . فشرب الناس هذه الأنبيذة وشربها الخلفاء ، وتجاوزوا ما حلّله الأحناف إلى المسكر المحرم من الأنبيذة وغيرها ، وفي ذلك يقول ابن الرومي :

أباح العراقُ النبيذَ وشُرْبُهُ وقال حَرَامان : المُدَامَةُ والسُّكْرُ
وقال الحجازيُّ : الشرايان واحدٌ فحلّ لنا من بين قَوْلَيْهِمَا الخَمْرُ
سأخذ من قَوْلَيْهِمَا طرفيهما وأشربها لا فارق الوازرَ الوِزْرُ

وابن الرومي يريد بالحجازي الشافعي وبالعراق أبا حنيفة ، وقد استحدث لنفسه مذهباً ثالثاً لم يحل فيه الأنبيذة المسكرة فحسب بل أحلّ أيضاً الخمر ، وساد هذا المذهب لا بين أضرابه من الشعراء فحسب بل بين كثير من الناس ، وإن كان يجب أن نحتاط بالقياس إلى الخلفاء ، وأن نظن أنهم إنما تورطوا في

(١) ديوان ابن الرومي (اختيار وتصنيف كامل كيلاني) ص ٧٨ .

الأنبذة فلم يبقوا عند أنواعها المحللة ، بل شربوا أنواعها المسكرة . وكان المتوكل يعقد في قصوره مجالس كثيرة للمنادمة والشراب ، وكان يحب الشرب ومن حوله الورد والرياحين^(١) وكان المعتز ابنه يزور الأديرة للشراب^(٢) ، وكان يشرب في قصوره بين ندمائه والمغنون يغنون بين يديه ، كما كان يشرب في البساتين^(٣) . وفرغ المعتز - كما مر بنا في غير هذا الموضع - للهو والشراب ، ويقول المسعودي : « كان مشغوفاً بالطرب والغالب عليه المعاقرة ومحبة أنواع الهو والملاهي^(٤) ، وديوان ابن المعتز مليء بالخمير ودنانها وكثوسها وغسوقها وصبوحها . وكان القاهر مدمناً شرب الخمر^(٥) » كما كان مولعاً بالغناء والسماع وجعله ذلك يأمر بأن تباع الجوارى المغنيات على أنهن لا يعرفن الغناء حتى يحصل منهن على من يريد بأرخص الأثمان ، وبالمثل حرم الخمر على الناس وكأنه يريد أن يعيها وحده^(٦) ، وكان الراضى عاهد ربه ألا يشرب وظل على ذلك سنتين من خلافته مع إذنه لجلسائه وندمائيه بالشرب ، ثم وجدوا له رخصة من يمينه فكفّر عنها وعاد إلى الشراب ، وآخر الخلفاء المستكنى وكان قد ترك الشراب ، فلما ولي الخلافة دعا به تنوَّاً وعاد إلى شربه^(٧) .

وعلى هذا النحو كانت قصور الخلافة في عصور كثير من الخلفاء كأنها مقاصف للشراب والسماع والغناء ، وبالمثل كانت قصور الأمراء والوزراء وكبار أصحاب المناصب في الدولة وعلية القوم ، وتورط فيها بعض القضاة عن طريق التبيذ المحلل ، كما تورط كثير من علماء اللغة وغيرهم أمثال ابن دُرَيْد ، كان يعكف عليها عكوفاً شديداً ، ويقول أبو حفص بن شاهين : « كنا ندخل عليه فنستحي مما نرى من العيدان المعلقة والشراب وقد جاوز التسعين^(٨) . وأوغل الشعراء فيها إيغالا . ومن يتصفح كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني يحس أن بعض الناس أدمنوها إدماناً شديداً . وكانوا يعقدون لها المجالس في المساء والليل والصباح ، وآثروا ألا يقل عدد

(٥) النجوم الزاهرة ٣/٢٤٥ .

(٦) ابن الأثير (طبعة أوربا) ٨/٢٠٤ .

(٧) مروج الذهب ٤/٢٦٧ .

(٨) النجوم الزاهرة ٣/٢٤١ .

(١) الديارات ص ١٦٠ وانظر في صبح .

المتنصر أغاني (سامي) ١٧/١٣٠ .

(٢) الديارات ص ١٦٤ وما بعدها .

(٣) الديارات ص ١٦٦ وما بعدها .

(٤) مروج الذهب ٤/١٣١ .

الندماء عن ثلاثة ، وكان يدور عليهم بها السقاة والساقيات من الغلمان والحواري
وكانوا يزینون مجالس الشراب بالورود والرياحين ، كما كانوا يزینون رؤوسهم أحياناً
بأكاليل الزهر .

وكان كرخ بغداد يكتظ بالمقينين وكانوا منبئين أيضاً في سامراء ، وتحولوا بدورهم
إلى ما يشبه حانات كبيرة ، ففيها الخمر ، وفيها القيان المغنيات ، وفيها الحواري
الظريقات الأدبيات ، وكان الشعراء يختلفون إلى هذه الدور أو قل إلى هذه الحانات
ومثلهم الناس من حولهم فيعبون من كثوسها ويتمتعون بالسمع ومغازلة الحواري
والقيان .

وكانت البساتين حول سامراء وبغداد تمتلئ بحانات الخمر والسمع ، وكان
الشعراء والناس يختلفون إليها ، وقد يختلفون بأنفسهم إلى زاوية في بستان ويتخذون
منها لأنفسهم حانة ، يشربون فيها على أزهار الرياض وأبصارهم تمتلئ بجمال الحواري
وآذانهم تتمتع بالسمع ، وكثيراً ما يصور الشعراء هذا المتاع المضاعف بجمال
الطبيعة وجمال المرأة ونشوة الخمر من مثل قول البحترى ^(١) :

اشربْ على زهر الرياض يشُربه زَهْرُ الخدود وزهرة الصَّهْبَاءِ
من قهوة تُنسى الهموم وتبعث الـ شَوْقَ الذي قد ضلَّ في الأحشاءِ

وكان من يعملون بالحانات من الأجانب سواء الرجال والنساء ، ويقول الجاحظ :
« من تمام آلة الخمار أن يكون ذمياً وأن يكون اسمه آذين أو مازيار أو أزدانقازار
أو ميسا أو شلوما ويكون أرقط الثياب مخنوم العنق » ^(٢) وتختلط في النص أسماء
فارسية ونصرانية ويهودية . أما الحواري فكان من القيان الأجنيبات غالباً ، وكانت
تعج بهم حانات البساتين وحانات الكرخ ودور المقينين ، والشباب والشعراء
يختلفون إليهن ، وكن من أجناس مختلفة ، وقلما كن يشعن بشيء من الكرامة أو
يستشعن شيئاً من التحفظ والاحتشام ، بل لقد كن يتفنن في الحيل التي يجذبن
بها الرجال ، وكن يستكثرن من الخيلان بطرق غير مستقيمة ، فدفعن إلى

(٢) البيان والتبيين (طبع مطبعة لجنة التأليف والترجمة
والنشر) ٩٢/١ .

(١) الديوان ٦ / ١ .

كثير من الفجر والحجون ، وكل شيء من حولهن يُغريهن على هذا السلوك الآثم ، وصور ذلك الجاحظ ، فقال : « كيف تسلم القينة من الفتنة أو يمكنها أن تكون عفيفة ، وإنما تُكْتَسَبُ الأهواء وتعلّم الألسن والأخلاق بالمنشأ ، وهى إنما تنشأ من لدن مولدها إلى أوان وفاتها فيما يصدّ عن ذكر الله من هو الحديث . . . وبين الخلاء والحجان ومن لا يُسمّع منه كلمة جيد ، ولا يُرجعُ منه إلى ثقة ولا دين ولا صيانة مروءة . وتروى الحاذقة منهن أربعة آلاف صوت (أغنية) فصاعداً يكون الصوت فيما بين البيتين إلى أربعة أبيات ، وعددُ ما يدخل في ذلك من الشعر إذا ضُرب بعضه ببعض عشرة آلاف بيت ، ليس فيها ذكر الله إلا عن غفلة ولا ترهيب من عقاب ولا ترغيب في ثواب ، وإنما بُنيت كلها على ذكر . . . القيادة والعشق والصبوة والشوق والغدّة ، ثم لا تنفكُ من الدراسة لصنعتها منكبةً عليها تأخذها من المطارحين الذين طرّحهم كله تجميش وإنشادهم مُراودة » ^(١) . وكان الزوار ينالون منهن ما يريدون ما داموا يقدمون للمقيمين هداياهم النفيسة ، وكان بدورهن يتخذن من بينهم المعشوقين ، فما يزلن يغمزن هذا بعين وذاك بعين ، وما يزلن يُقمن من حولهن الشباك ، وكثير من الشعراء والشباب يتعثرون فيها ، وكثيرون كانوا يصلون إلى قلوبهن ، وهن لا يحتشمن ولا يتحرّجن ، ودائماً يُقمن حفلات الغناء والموسيقى والرقص .

واستحالت الأديرة في هذا الجو الماجن إلى دور للعبث واللهو ، وهياً لها ذلك أنها كانت تقدّم لرؤادها الخمور المعتقة . وكانت متناثرة في ضواحي بغداد وسامراء وغيرهما من مدن العراق ، فحوّلها الشعراء والناس إلى مجالس للخمر والحجون ، وأكثروا من التغنى بها ووصف متاعهم بخمورها ونشوتها وسقاتها من الرهبان والراهبات ، حتى لتؤكّف في ذلك كتب مستقلة مثل كتاب « الديارات » للشابشي وهو يكتظ بأشعار ابن المعتز وغيره ، وله يذكر لياليه بالمطيرة إحدى متزهات سامراء وبالكرخ وحاناته وبدير السوسى وراهباته ^(٢) :

(١) انظر ثلاث رسائل للجاحظ نشر فنكل

(٢) الديارات ص ١٤٩ .

ص ٧١ وما بعدها .

ياليالى بالمطيرة والكرّ خ ودير السوسى بالله عودى
كنت عندى أنموذجات من الجدة لكنها بغير خلود

وكانت هناك أيام سنوية يخرج فيها أهل سامراء وبغداد وغيرهما من مدن العراق للهو والقصف والمجون وهى أيام الأعياد: أعياد الإسلام وأعياد الفرس وأعياد النصارى ، وكانت تشبه كرنفالات ضخمة يلهو الناس فيها لهواً مباحاً وغير مباح ويتفرجون على القصاص والحكّائين وأصحاب المسارح الهزلين ، أما أعياد الإسلام فهى ~~التي يقيمونها في عيد الفطر وعيد الأضحى . وفي ديوانى~~ البحترى وابن المعتز إشارات لهما مختلفة^(١) ، وأما أعياد الفرس فن أهمها عيد النيروز فى أول الربيع ، وهو أول السنة الفارسية ، وينوه الشعراء بذكره كثيراً كقول البحترى يهنئ المعتمد به وبلحظات سروره^(٢) :

لا تخلُ من عيش يكرّ سروره أبداً ونيروز عليك معاد

وكانو يكترون من التهادى فيه ، ويروى أن المتوكل كان يهدى فيه هدايا متنوعة فيها تماثيل من عنبر وورود حمراء^(٣) . وكانو يخرجون فيه إلى المتنزهات والبساتين يقصفون ويمرحون ويلهون ملاهى مختلفة . ومن أعياد الفرس عيد المهرجان فى أول الشتاء ، وفيه يقول البحترى^(٤) :

وكانّ الأيام أوثر بالحُسنة ن عليها ذو المهرجان الكبير

ولابن الرومى قصيدة طويلة يهنئ فيها عبيد الله بن عبد الله بن طاهر به ، وقد حشد فيها كثيراً من فنون اللهو فيه^(٥) ، وكان للفرس عيد يسمى عيد السّدق كانوا يوقدون فيه النيران على الجبال والتلال ، ويظلمون يجمعون لها الأحطاب أياماً ، ومن أشهر ما كان فى هذا العيد احتفال مرداويج الديلمى أمير الجبل فى غربى إيران به ، ويقال كان فى السماء الذى صنعه فيه ألف رأس من البقر^(٦) .

(٥) ديوان ابن الرومى (نشر كيلانى)

ص ٨٢ .

(٦) مسكويه ٥/٧٩ ؛ وأبو الفدا فى عام

٣٢٣ وابن الأثير ٨/٢٢٢ .

(١) انظر ديوان البحترى ١٠٧١/٢ ،

١٠٩٦ وديوان ابن المعتز ص ١٨١ ، ٢٤٧ .

(٢) ديوان البحترى ٧٣٤/٢ .

(٣) الديارات ص ٥٧ .

(٤) الديوان ٨٨٧/٢ .

أمّا أعياد النصارى فكان تقريباً لكل دير عيد يخرج فيه الناس إليه للهو والمجون والهزل ، وكانت لهم أعياد عامة ، منها عيد الميلاد وكانو يكثرون فيه من إيقاد الشموع والنيران^(١) ، ومنها عيد الشعانين أو عيد الزيتونة وهو يقع في يوم الأحد الذي يسبق عيد الفصح من كل سنة ، وكان النصارى يتقلدون فيه الصلبان ويتوشحون بالمناديل المنقوشة ويحملون بأيديهم الخوص والزيتون . وكان الدير الأعلى في الموصل يحتفل بهذا العيد احتفالاً كبيراً . ومن أعيادهم عيد الفصح ، وعندهم أن عيسى قام فيه بعد الصلب بثلاثة أيام ، وكان يحتفل به دير سماو شرقى بغداد ، ولا يبقى أحد من أهل الطرب واللّهو إلا قصده للقصف والمجون ، وفيه يقول محمد بن عبد الملك الهاشمي^(٢) :

ولرُبَّ يومٍ في سماو تمَّ لي فيه السرور وعُيِّتَ أحزانهُ
فتلاعبتُ بعقولنا نشواته وتوقّدتُ بخدودنا نيرانه
حتى حسبتُ لنا البساط سفينةً والديرَ ترقصُ حولنا حيطانه

وكان يقام في أكتوبر عيد للقديسة أشمونى في قُطر بَزل ، وهى قرية فى شمالي بغداد كانت أشبه بجحانة للخمارين ، وكان الناس يذهبون من بغداد وسامراء إلى هذا العيد عن طريق الدواب أرضاً والسفن فى دجلة بجرّاً ، متنافسين فيما يُغلّشرونه هناك من زبيهم وزينتهم ومباهين بما يُعِدُّونه لقصفهم ، وكانوا يضربون فى شط القرية وديرها وحاناتها وأكنافها الخيم والفساطيط وتعزف عليهم القيان وهم يحتسون كثوس الحمر ، وبالمثل كانوا يصنعون فى عيد دير الزندورد بالجانب الشرقى لبغداد ، وفيه يقول جحظة^(٣) :

ديرٌ تدور به الأفداحُ مترعةً من كهفٍ ساقٍ مريض الطَّرفِ وسنانِ
والعودُ يتبعه نايٌ يوافقه والشَّدُّ يُحكِّمه غُصْنٌ من البانِ

ولا شك فى أن كل ما قدمنا أعددنا لانتشار المجون والخلاعة فى سامراء وبغداد ،

(٢) الديارات ص ١٤ .

(٣) الديارات ص ٣٣٨ .

(١) ابن الأثير ٢٢٢/٨ وأبو الفدا فى

عام ٣٢٣ .

إذ كانت الخمر في كل مكان وبمعها القيان والجواري المبتذلات ، فكان طبيعياً أن يعم كثير من الشعر الصريح ، بل المفرط في إباحيته وفي التعبير عن الغرائز الجسدية . ولم يكن كل ما في المدينتين العراقيتين الكبيرتين المجون وآثامه ، بل كان هناك تقي كثير ونسك وعبادة ، وهو ما حماهما من السقوط . على أن هؤلاء المجان والخلعاء تورطوا في آفة مزرية ، هي آفة الشغف بالغلaman المرد ، وهي آفة ورثوها عن العصر العباسي الأول . على أن من أصحاب هذا الغزل المزري من ارتفعوا به عن أدراة المادة ، وجعلوه غزلاً أفلاطونياً نقياً ، وسفصل القول في ذلك في أثناء حديثنا عن شعراء الغزل ، على نحو ما هو معروف عن الفقيه محمد بن داود الأصفهاني وتعلقه بمحمد بن جامع الصيدلاني . ولا بد أن نذكر أن كثيرين من الفقهاء وعلماء الدين والوعاظ كانوا لا يزالون يشددون الذكر على المجون وما اتصل به من خمور ومن سماع ، ويتأثيرهم حاول - كما قدمنا - المهتدي أن يحمل الناس على الجادة ، فحرم الشراب ونهى عن القيان والسماع إليهن ، غير أن العامة والخاصة استطالوا حكمه واحتال عليه الأتراك حتى قتلوه بعد سنة واحدة من خلافته ، وصنع صنيعة بأخرة من العصر المتقي ، ولكنه لقي سريعاً المصير نفسه . ويذكر ابن الأثير أنه في عام ٣٢٣ للهجرة دبّر الحنابلة ببغداد حملة شعواء على المجون وفتشوا دور القواد والعامة ، وكانوا كلما وجدوا نبذاً أراقروه أو آلة للغناء حطموها أو مغنية ضربوها ، وحرّموا على الرجال رفقة الصبييان والغلaman^(١) .

وظلت مستعرة في هذا العصر نيران الشعوبية على نحو ما كانت مستعرة في العصر العباسي الأول ، إذ مضى كثيرون يشيدون بقضائل الشعوب القديمة وحضاراتها ومدنيتها ، وفي مقدمتها الفرس بسياساتهم وآدابهم والروم بعلومهم وفلسفاتهم والهند بسحرها ومعارفها الرياضية وغير الرياضية . وانضم إلى هذه الدعوة كثيرون من أبناء الشعوب الأخرى ، من النبط والسريان ، وغيرهما ، منوهين جميعاً بما كان بديارهم من علوم وآداب وفنون وعمارة . وكأنما ذهب أدراج الرياح مناداة الإسلام بهدم القوارق العصبية بين القبائل والقوارق الجنسية بين الشعوب ، وكأنما كان هؤلاء الشعوبيون يبتغون أن يحدّثوا صدعاً لا يلتئم ولا يمكن رأبه بين أفراد الأمة ، وقد لجأوا في

(١) ابن الأثير ٢٢٩/٨ وما بعدها .

تصوير ما كان عليه الجاهليون - وعرب البوادي لعصرهم - من العيش الخشن ومن الغلظة والأطعمة اليابسة الجافة ، وكيف أن العرب كانوا - ولا يزال كثير من منهم - بدواً رعاة أغنام وإبل ، وأين هم من ملك الأكاسرة والقيصرة ؟ وأين هم من الحضارة الفارسية الرومية ؟ وأين هم من علوم الروم والفرس ؟ وكان كثير من العلماء قد كتب في إفاضة عن مثالب القبائل في القديم ، فاستغل الشعوبيون ذلك واتخذوا منه أسلحة لدعوتهم ، وحتى فضائل العرب من مثل الكرم والشجاعة حاولوا طمسها . ناقضين لها نقضاً .

وتصدى الجاحظ وابن قتيبة لهذه النزعة الآثمة ورداً عليها ردّاً عنيفاً ، أما الجاحظ فعقد في كتابه « البيان والتبيين » باباً طويلاً سماه « كتاب العصا » صور فيه طعن الشعوبية على العرب في خطابتهم ، إذ كانوا يشيرون فيها بالعصى والمخاصر ، كما كانوا يتكئون على القيسي ، مما يصرف - في رأى الشعوبيين - الحاطر ويشغل ذهنه في أثناء الخطابة . وزعموا أن الخطابة ليست ميزة ينفرد بها العرب دون سواهم ، إذ هي في جميع الأمم حتى الزنج . وزعموا - فيما زعموا - أن الفرس أخطب من العرب وأن لهم في صناعة البلاغة كتباً متوارثة . وطعنوا على العرب أيضاً في أسلحتهم الحربية الساذجة بالقياس إلى أسلحة الفرس والروم وما عرّفوا به من التنظيمات الحربية وآلات الحرب المضخمة من مثل المجانيق والعرادات . وكل ذلك نازعهم فيه الجاحظ في عنف شديد ، ولكن يبلغ كل ما كان يريد من إفحامهم ومقاومتهم جعل كتابه « البيان والتبيين » ردّاً مفحماً عليهم ، إذ خصصه لعرض الثقافة العربية الخالصة في صورها المختلفة من الخطابة والشعر والأمثال ، كى يروا رؤية العين ما في هذه الثقافة من قيم بلاغية وجمالية ، فينتهوا عن مزاعمهم ويثوبوا إلى نندهم . وأما ابن قتيبة فألف في الرد عليهم مبحثاً سماه ^(١) « كتاب العرب أو الرد على الشعوبية » وهو في مطالعه يذكر أن من أشد الشعوبيين عداوة للعرب قوماً من كتاب الدواوين امتعضوا لآداب أقوامهم ، حتى اعتزى أو انتسب نفر منهم إلى أشراف العجم وأساورتهم ، داخلين بذلك في باب فسيح من الدعوى

والنسب المتهم لا حجاب عليه ولا مدافع عنه ، ويقول إنهم كانوا يُزرون على الحكم والأمثال العربية ويتجسسون بما يروون عن الفرس واليونان من آداب وعلوم . ولم يكتف بعنفه عليهم في هذا المبحث الطريف ، فقد عنف بهم في مقدمة كتابه « أدب الكاتب » مصوراً قصورهم عن النهوض بوظيفتهم الأدبية في الدواوين لنقص ثقافتهم العربية ، وحاول محاولة طريفة في كتابه « عيون الأخبار » أن يجمع بين تلك الثقافة والثقافات الأجنبية ليبين أنها كلها ضرورية ولا تعارض بينها بوجه من الزجود مما قضى على الشعوبية قضاء مبرماً على نحو ما سنصور ذلك في الفصول التالية .

ومن أهم الكتاب الذين كانوا يستشعرون هذه النزعة الحمقاء سعيد بن حميد بن البختكان ، وكان من أبناء دهاقين الفرس وزعم أنه من سلالة ملوكهم ، وله في الشعوبية والتعصب لقومه كتب مختلفة، منها كتاب فضل العجم على العرب وافتخارها^(١) . ويبدو أن الجاحظ وابن قتيبة جميعاً استطاعا أن يقضيا قضاء مبرماً على الشعوبية فقلما نسمع بعدهما بشعر شعوبى أو بمن ألف في الشعوبية وانصر لها . وقد أشرنا في كتاب العصر العباسى الأول إلى أن بعض الباحثين أدخل في هؤلاء الشعوبيين من يقولون بالتسوية بين العرب وغيرهم ، ويجب أن ينحوا عن هذه الجماعة الضالة ، لأنهم كانوا في الواقع ينادون بنظرية الإسلام وما دعا إليه من المساواة بين جميع الأفراد في الأمة عربياً وغير عرب ، مساواة تشمل جميع الحقوق والواجبات بحيث لا يَفْضَلُ مسلم صاحبه إلا بالتقوى والعمل الصالح كما جاء في الذكر الحكيم : (يأيتها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير) . وأيضاً كما جاء في خطبة حجة الوداع : « أيها الناس إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد . كلكم لآدم وآدم من تراب ، أكرمكم عند الله أتقاكم ، وليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى » ، وبذلك يتضح أن التسوية بين الشعوب هي نظرية الإسلام ، فلا عربى يفضل أعجمياً ولا أعجمى يفضل عربياً من حيث النسب والقومية ، إذ ليست العروبة ولا العجمة في الإسلام ميزة تُعلَى من شأن صاحبها ، فالناس جميعاً سواسية . وإذن فمن

الخطأ أن نحمل القائلين بالتسوية على الشعوبيين أو على القول بالشعبوية، إنما الشعوبيون هم الذين يُعلّون الأعاجم على العرب وينادون بعدم التسوية حانقين حنقاً شديداً على كل ما هو عربي ، بل إن الضغينة لتأكل قلوبهم أكلاً فإذا هم يودون لو ثأروا لآبائهم من العرب حين أزالوا ملكهم ونقضوا عروشهم فردوهم إلى ديارهم على أعقابهم مدحورين . ومن كان يذهب هذا المذهب في الحماقة والجهالة والعداوة للعرب المتوكلي الشاعر المنسوب إلى المتوكل لأنه كان من ندمائه ، إذ يقول في شعوبية حاكمة ذميمة^(١) :

أنا ابنُ الأكارم من نسلِ جَمٍّ وحائزُ إرثِ ملوكِ العجمِ
وطالبُ أوتارهم جَهْرَةً فمن نام عن حقِّهم لم أنمِ
فقلْ لبني هاشمٍ أجمعين هلموا إلى الخلع قبل الندمِ
وعودوا إلى أرضكم بالحجاز لأكل الضُّباب ورعى الغنمِ
فإني سأعلو سريرَ الملوك بعددِ الحُسام وحرفِ القلمِ

وواضح أن قلب المتوكلي يضطرم حقداً وضغينة على العرب ، حتى ليطن نفسه أنه من أبناء جم أو جمشيد الملك الفارسي القديم وأنه قد وكل إليه أخذ الثأر أو الآثار من هؤلاء الذين قوضوا ملك آبائه ، وإنه ليتجه إلى حكام الأمة من بني هاشم مهتداً لهم متوعداً ومنذراً أن يبادروا إلى خلع أنفسهم والعودة إلى موطنهم الأصلي في الحجاز ، ليعيشوا كما كان يعيش آباؤهم معيشة غليظة خشنة يأكلون فيها اليرابيع والضباب ، ويرعون الأغنام ، على نحو ما يرعى ويأكل نازلة القفر والفلوات ، وكأنه نسي أن بني هاشم من قريش سكان مكة في القديم وأنهم لم يكونوا رعاة ولا أهل جفاء وخيام ، ولكنها الشعوبية العمياء الرعناء .

ولعل أسوأ ما أدت إليه هذه الشعوبية الحمقاء الزناقة والزنادقة الذين كانوا يبغضون العرب وكل ما اتصل بهم من إسلام وغير إسلام . ويوضح ذلك الجاحظ قائلا : « إن عامة من ارتاب بالإسلام إنما كان أول ذلك رأى الشعوبية والتمادي فيه وطول الجدل المؤدى إلى الضلال ، فإذا أبغض شيئاً أبغض أهله ، وإن أبغض تلك اللغة أبغض تلك الجزيرة ، وإذا أبغض تلك الجزيرة أحب من أبغض تلك

الجزيرة ، فلا تزال الحالات تنتقل به حتى ينسلخ من الإسلام ، إذ كانت العرب هي التي جاءت به ، وهي السلف والقدوة»^(١) . ومرةً بنا في العصر العباسي الأول أن الزندقة إنما كان يُوصمُ بها أولاً من يتابعون ماني في عقيدة النور والظلمة وما اتصل بها من مبادئ ، بالضبط كما كانت تطلق عند الفرس . والزنادقة المعتنقون لهذه الأفكارهم الذين كانوا يحاكون زمن المهدي وابنه الرشيد ، ثم اتسع مدلولها فشملت كل من اعتنق نحلة فارسية من نحل الجوس كنحلة المزدكية وما دعت إليه من التحلل الخلقي والإباحية المسرفة ، واتسعت أوسع من ذلك فشملت كل إلحاد بالدين الحنيف أو بالديانات مطلقاً وكل مجاهرة بالعصيان والإثم والفسق . ومر بنا أيضاً في العصر العباسي الأول كيف أن المتكلمين - وفي مقدمتهم المعتزلة - تجردوا لخداهم ونقض أقوالهم وآرائهم الخبيثة ، وعقدوا لذلك مناظرات كانوا يُفحّمونهم فيها إفحاماً شديداً ، على نحو ما صور ذلك الجاحظ عن النظام في كتابه الحيوان ، وألقوا أيضاً الكتب والرسائل الطوال .

ولم تهدأ حركة الإلحاد والزندقة في هذا العصر التالي ، بل لقد اشتد أوارها ، إذ تحول كثيرون منهم إلى التشكيك في النبوات عامة ، وكان من أشدهم نقسراً بدءوا حياتهم في صفوفهم المعتزلة ، وما زالوا يُبسطون الإلحاد حتى افتضح أمرهم وانكشف سرهم ، وفي طليعتهم أبو عيسى الوراق المتوفى سنة ٢٤٧ للهجرة^(٢) وكان في أول أمره معتزلياً ، وأحسن المعتزلة فيه إلحاده فطرده عنهم ، فتحول شيعياً رافضياً ، وينعت الخياط بأنه كان مانوياً يؤمن بأزلية النور والظلمة وقدم العالم^(٣) ، ويبدو أنه أنكر النبوات وأن له في ذلك بعض الرسائل^(٤) . وقد أثر تأثيراً واسعاً في تلميذه أبي الحسين أحمد بن إسحق الراوندي^(٥) المولود فيما بين سنتي ٢٠٥ و ٢١٥

الإسلام لعبد الرحمن بدوي (نشر مكتبة النهضة المصرية) وانظر في ترجمة ابن الراوندي ووفاته مروج الذهب ٢٣/٤ وابن خلكان ومعاهد التنصيص (طبعة بولاق) ٧٦/١ ورسالة الجنان لليانعي ١٤٤/٢ ، ٢٣٧ والنجوم الزاهرة ١٧٥/٣ وشذرات الذهب لابن العماد ٢٣٥/٢ ومقدمة نيرج لكتاب الانتصار وتاريخ أبي الفدا في عام ٢٩٣ .

(١) الحيوان ٢٢٠/٧ .
(٢) مروج الذهب ٢٣/٤ .
(٣) كتاب الانتصار (طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ١٥٢ .
(٤) انظر مجموعة من النصوص غير المنشورة متعلقة بتاريخ التصوف في الإسلام لماسينيون (طبع باريس ١٩٢٩) ص ٨٢ .
(٥) انظر في ابن الراوندي وأستاذه أبي عيسى الوراق كتاب من تاريخ الإلحاد في

وكان يعتنق في أول الأمر الاعتزال وصنّف عدداً من الكتب في مناصرته ونشره بين الناس ، ثم تحول عنه إلى التشيع على مذهب الرافضة مثل أستاذه أبي عيسى وصار أعنف خصوم المعتزلة في القرن الثالث الهجري ، بل لقد تهادى في ذلك حتى كفر بالدين وجميع الديانات وألف في ذلك كتباً مختلفة يسميها صاحب الفهرست باسم الكُفريات . ولما ارتفع اسمه إلى مسامع الحكام خشى مغبة ذلك وأن يُرمَى به في غياهب السجون فاختبأ في منزل أبي عيسى بن لاوى اليهودى الأهوازي ، وله صنّف بعض كفرياتة ، وما زال مخبئاً بمنزله حتى ترفى على ما يقول المسعودى وابن خلكان حوالى سنة ٢٥٠ للهجرة وقال ابن الجوزى وابن تغرى بردى إنه توفى سنة ٢٩٨ ويرجح التاريخ الثانى ما يذكره ابن الأنبارى في نزهة الألباء بترجمة المبرد عن كتابه المتعصب وأنه لم يكتب له الرواج ، لأن ابن الراوندى المالمحد رواه .

وسقطت كتب ابن الراوندى في العصور التالية من أيدي الزمن ، فلم يصلنا منها شيء ، ولكن وصلتنا شذور ومقتطفات في كتب بعض من ردوا عليه أو من ترجموا له ، من ذلك كتاب المجالس المؤيدية لهبة الله الشيرازى داعى دعاة الفاطميين لعصر المستنصر إذ جلب اقتباسات^(١) من كتابه « الزمردة في دفع النبوات » وفيها نراه يردُّ إنكار النبوات إلى البراهمة الهندو تضييلاً حتى يبعد التهمة عن نفسه ، وكأنه إنما يتكلم بلسانهم ، وهو يستهلُّ كلامه بأن الله أنعم على الإنسان بالعقل ليميز الحسن من القبيح والخير من الشر ، وإذن فلا داعى للرسول ، لأنهم إما أن يؤكدوا هذا التمييز العقل الذى يُغنى عنهم فيه العقل ، وإما أن يبطلوه أو ينقضوه وحينئذ تكون نبوتهم عبثاً ولا حاجة للإنسان بها ، ويقول إن الرسول عليه السلام أتى بما ينافر العقول من مثل الصلاة وشعائر الحج ومناسكه ، وينفى المعجزات النبوية ، ويزعم أن فصاحة القرآن ليست معجزة وخاصة بالقياس إلى العجم الذين لا يدركون النصاحة العربية . ويردد نفي المعجزات النبوية وأن الملائكة نصروا رسول الله في غزوة بدر وأنه أُسرى به إلى بيت المقدس ، ويمضي في لغو من هذا النوع ، ونرى ابن الجوزى ينقل في كتابه المنتظم شذرات^(٢) أخرى من مصنفه الزمردة ،

(١) انظر في هذه الاقتباسات وتحليلها كتاب من تاريخ الإلحاد في الإسلام ٧٥-١٨٨ .
(٢) راجعها في كتاب من تاريخ الإلحاد في الإسلام ص ١١١ .

ويبدو أن ابن تغرى بردى نقلها عنه ، من ذلك أنه كان يقول : « إنا نجد في كلام أكرم بن صيفى الحكيم الجاهلى أحسن من (إنا أعطيناك الكوثر) و (قل أعوذ برب الفلق) وإن الأنبياء وقعوا (اهتدوا إلى) بطلسمات تجذب كما أن المغناطيس يجذب الحديد أما قوله صلى الله عليه وسلم لعمار : تقتلك الفئة الباغية (كان مع على بن أبى طالب فى صفين وقتله جيش معاوية) : فإن المنجم — فى رأيه — يقول مثل هذا إذا عرف المولد وأخذ الطالع . ويقول ابن الجوزى : « كان ابن الرواندى وأبو عيسى محمد بن هرون الوراق الملحد يتراميان بكتاب « الزمرد » ويدعى كل واحد منهما على الآخر أنه تصنيفه ، وكانا يتوافقان على الطعن فى القرآن ^(١) » . أما كتابه الكفرى الثانى الذى خصَّ به الرد على القرآن فهو كتاب « الدماغ » ، ويقال إنه صنف هذا الكتاب إرضاء لليهودى الذى كان يؤويه ، وهو فيه ينكر إعجاز القرآن كما مر بنا فى حديث داعى الدعاة الفاطمى : ويزعم أن فى كلام الجاهليين ما هو أفصح منه وأبلغ ، ويقول ابن الجوزى إنه بدأ فيه بالطعن فى القرآن وبلاغته حتى لقد زعم — بهتاناً وزوراً كبيراً — أن به أخطاء لغوية .

ولعل فى ذلك ما يصور — من بعض الوجوه — الهجمات العنيفة التى كان يصوبها الملحدون فى القرن الثالث الهجرى إلى الإسلام والقرآن الكريم بل إلى الديانات عامة . ومن هنا نفهم السر فى أن الخليفة المعتمد حلف الوراقين لسنة ٢٧٩ ألاَّ يبيعوا كتب الكلام والجدل والفلسفة ^(٢) ، فقد كان من المتنلسفة والمتكلمين من يبطنون الإلحاد ^(٣) والزندقة ويدخلونهما على ما يصنفون من الكتب . وكان أهم من نقض على ابن الرأوندى كثرياته معاصره أبو الحسين عبد الرحيم بن محمد المعروف بالخياط ، وقد نشر له المستشرق نيرج كتابه « الانتصار والرد على ابن الراوندى الملحد ما قصد به من الكذب على المسلمين والطعن عليهم » ، وكذلك عنى بالرد عليه معاصره أبو على ^(٤) محمد بن عبد الوهاب

كتب له فى مقدمتها الزمردة والدماغ .
انظر من تاريخ الإلحاد فى الإسلام ص ١٦٢
ويورد الكتاب هنا من نقضوا كتابه فى تفصيل
وإسهاب .

(١) من كتاب تاريخ الإلحاد فى الإسلام

ص ١١٣ .

(٢) طبرى ٢٨/١٠ وابن تغرى بردى ٨٠/٣ .

(٣) الفهرست ص ٤٨٧ .

(٤) يقول ابن الجوزى إنه نقض خمسة

الجسبائي . وكان أهم من ورث عن ابن الراوندي إلحاده وزندقته وطعنه على الدين الحنيف ، بل على جميع الديانات الطيب أبو بكر محمد^(١) بن زكريا الرازي المتوفى سنة ٣٢٠ ، وكان كيميائياً ماهراً إلا أنه اتبع هواه وضل ضللاً بعيداً إذ مضى على هدى ابن الراوندي وأشباهه ينكر النبوات وألف في ذلك كتابه « مخاريق الأنبياء » وسقط بدوره من يد الزمن ، إلا أن أبا حاتم الرازي أورد في كتابه « أعلام النبوة » اقتباسات كثيرة منه ردَّ عليها ونقضها نقضاً ، وقد حلَّلها الدكتور بدوي تحليلاً^(٢) جيداً ، وأظهر أنه يتابع في حججه وأدلته ابن الراوندي ، فالعقل يكفي وحده لمعرفة الخير والشر ، ولا حكمة ولا داعي لإرسال الأنبياء ، وأيضاً لا معنى لأن يخص الله نفرأ (يريد الأنبياء) من البشر لإرشادهم وتوجيههم ، والناس جميعاً متساوون في الفطن والمواهب . وبرهانه المنكسر ما ذكره من أن الأنبياء متناقضون فيما بينهم ، زاعماً أن اختلافهم لم يصدروا فيه عن الله جاهلاً بأنه كان من حكمة الله أن يحدث هذا الاختلاف تخفيفاً على الناس ورحمة بهم . وينتقد الأديان عامة ويدخل فيها ديانات المجوسية ، كما ينقد الكتب المقدسة ، ويزعم أنها جميعها زائفة بالتناقض ، وأن خيراً منها للناس العلوم التي استنبطها الفلاسفة والعلماء بعقولهم . وهو خلط بين حاجات البشر المادية وحاجاتهم الروحية . ولعل في هذا كله ما يصور نشاط الملحدين والزنادقة في العصر وكان لهم المعتزلة والمتكلمون بالمصداق فتقضوا آراءهم وأوضحوا ما فيها من فساد وزيف ودحضوها دحضاً .

٥

الزهد والتصوف

يجب ألا يتبادر إلى الأذهان من حديثنا عن الزندقة والشعوذية والمجون في العصر العباسي الثاني أنه كان عصرأ ملحداً غلبت عليه العنصرية كما غلب المجون

(٢) انظر كتاب من تاريخ إلحاد في

الإسلام ص ١٩٨ .

(١) انظر في ترجمته الفهرست ص ٥١٨

وابن أبي أصيبعة والقفطي ص ٢٧١ ودائرة

المعارف الإسلامية .

والإلحاد وانحلال الأخلاق فإن ذلك إنما كان يشيع في طبقات خاصة ، أما المجون فكان يشيع في الطبقة المترفة ، وأما الشعبية فكانت تشيع بين نفر من أبناء الأعاجم ، وبالمثل الزندقة كانت مقصورة على أفراد . ومن الخطر أن نجعل ذلك كله صفات عامة للمجتمع ، فقد كان المجتمع مجتمعاً إسلامياً ، وكانت الطبقة العامة فيه حسنة الإسلام تتمسك بفرائضه وسننه وشعائره ، ولم تكن تعرف الترف ولا ما يجير إليه من مجون وانحلال وفساد في الأخلاق ، إنما كانت تعرف الشظف والبؤس والحرمان ، وكانت ساخطة سخطاً شديداً على المجان وعلى الشعبيين والملاحدين من أعداء الإسلام والعروبة .

وإذا كانت الحانات ودور النخاسة اكتظت في بغداد وسامراء وغيرهما من مدن العراق بالخمر والقيان والضرب على الآلات الموسيقية ، وشركتها في ذلك البساتين والأديرة من بعض الوجوه فإن مساجد سامراء وبغداد وغيرهما كانت مكتظة بالعباد والنساء وكانوا أكثر كثرة من المجان وأهل الفساد . وكان في كل مسجد حلقة ، بل حلقات لوعاظ مختلفين كانوا لا يزالون يذكرون الناس بالله واليوم الآخر وأنهم معروضون يوم الحساب فيما إلى الجنة والنعيم وإما إلى النار والجحيم . واختلط الوعظ بقصص ديني كثير على ، نحو ما صورنا ذلك في كتاب العصر العباسي الأول ، وكثر حينئذ النساء والزهاد في متاع الحياة الدنيا ، وعاشوا معيشة كلها شظف وتقص وتبتل وعبادة ، وأقرأ في تراجم الفقهاء والمحدثين لهذا العصر فستجدهم أو على الأقل ستجد كثيرهم وهم يُعَدُّون في العالم الإسلامي بالمئات إن لم يكن بالآلاف قد أخذوا أنفسهم بالانصراف عن متاع الحياة الدنيا ، بل لكأنما تجردوا للجهاد في سبيل ذلك أسوة بزاهد الأمة الأول محمد صلى الله عليه وسلم ، منتظرين ما عند الله من النعيم الخالد الذي لا يزول . ويكفي أن نرجع إلى ترجمة واحد منهم مثل إبراهيم^(١) بن إسحق الحربي ، وكان من كبار المحدثين ، وكان لا يأخذ على محاضراته في الحديث أجراً من أحد ، إذ عزف عن كل متاع في الحياة ، وعاش معيشة زاهدة مبالغة في الزهد إلى أقصى حد ، حتى إنه ليرفض

(١) راجع في ترجمته تاريخ بغداد ٢٧/٦ و١٩٠/٢ والنجوم الزاهرة ١١٦/٣ ويقال :

كان يقاس بابن حنبل في علمه وزهده .

(١) راجع في ترجمته تاريخ بغداد ٢٧/٦ و١١٢/١ والأنساب للسماعني

١٦٢ وصفة الصفوة ٢٢٨/٢ وشذرات الذهب

في إباء أى مال يأتيه من خليفة أو صاحب سلطان أو جاه ، ويرُوى أن المعتضد أرسل إليه بعشرة آلاف درهم مع بعض أتباعه ، فردّها ، وعاد الرسول يقول له إن المعتضد يسألك أن تفرقها في جيرانك ، فقال له : عافاك الله ، هذا ما لم نشغل أنفسنا بجمعه فلا نشغلها بتفرقه ، قل لأمر المؤمنين إن تركتنا أقمنا وإلا تحولنا عن جوارك .

وظل يلزمه صداع خمساً وأربعين سنة بدون أن يخبر به أحداً ، وقد أفى من عمره ثلاثين سنة لا يأكل إلا رغيفاً واحداً في اليوم والليلة ، إن جاءت به زوجته أو إحدى بناته أكله وإلا بقى جائعاً ظامئاً إلى الليلة الثانية . وهى درجة رفيعة في الزهد ، وكان على غراره كثيرون من المحدثين والفقهاء يصومون الدهر ويعيشون على الكفاف بل على أقل من الكفاف كما يعيشون على العبادة والورع .

وأخذت تتسع في هذا العصر موجة التصوف ، وكانت مقدماتها أخذت تظهر منذ أواخر القرن الثانى الهجرى عند إبراهيم بن أدهم وشقيق الباخى صاحب اليد الطولى في مبدأ التوكل وإشاعته^(١) بين أوائل المتصوفة ومعروف الكرخى الذى أشاع مبدأ المعرفة الإلهية وأنها غاية المتصوف وحدها لا النجاة من عذاب الآخرة^(٢) . ويعرض القشيري في رسالته أقوالاً مختلفة في اشتقاق كلمة صوفى ، وهل هى من الصوف لأنهم كانوا يلبسونه تمييزاً لهم من أهل الرّقّة والتنعيم ، أو هى من الصّفّاء أو هى من الصّفّة نسبة إلى أهل الصفة الذين كانوا ينقطعون للعبادة في المسجد لعهد الرسول عليه السلام ، ولا يندلى القشيري برأى حاسم ، وذهب البيروني إلى أنها مشتقة من كلمة صوفيا اليونانية بمعنى الحكمة^(٣) . ويبدو أن أوجه الآراء الرأى القائل بأن الكلمة مشتقة من الصوف لأن كثيرين من الزهاد في القرن الثانى الهجرى كانوا يلبسونه ، وشاع لبسه بين المتصوفة بعد ذلك .

ومنذ أواسط القرن الماضى يُعنى المستشرقون بدراسة التصوف وبيان التأثيرات الأجنبية التى أثرت في نشأته وتطوره ، وكان من أسبقهم إلى ذلك فون كريمر ،

(١) النجوم الزاهرة ٢/٢١ .

والنشر ص ٥ .

(٢) في التصوف الإسلامى لنيكلسون ترجمة

(٣) ما للهند من مقولة للبيروني (الطبعة

أبي العلا عفيفي وطبع لجنة التأليف والترجمة

الأوربية) ص ١٦ .

وكان يذهب إلى أن التصوف يشتمل على عنصرين أساسيين ، عنصر مسيحي وعنصر بوذي هندي ، ويتضح العنصر الثاني — عنده — في فكرة وحدة الوجود التي تمثلها ، كما يقول ، الحلاج في أواخر القرن الثالث^(١) الهجري . وذهب نيكلسون فيما بعد إلى أن الحلاج لم يتمثل هذه الفكرة لاهو ولا غيره من متصوفة القرن الثالث . ومن شدد على التأثير الأجنبي جولدتسيهر ، إذ ربط بين التصوف وتعاليم الأفلاطونية الحديثة وما يندرج فيها من مذهب الفيض ووحدة الوجود ، كما ربط بينه وبين البوذية^(٢) الهندية . وخفف من حدة القول بهذا التأثير الأجنبي ماسينيون في بحوثه عن الحلاج ، إذ ذهب إلى أن التصوف نشأ من صميم الإسلام نفسه ، وإن تأثر في الطريق بمؤثرات الثقافة الهيلينية التي كانت منتشرة في الشرق منذ ميلاد المسيح^(٣) . وبالمثل خفف من حدة القول بالتأثير الأجنبي نيكلسون ، وإن لاحظ مع مر الزمن ، كما هو الشأن عند ذى الذن وتأثره في رأيه بالأفلاطونية الحديثة إذ كان على علم بالحكمة اليونانية الشائعة في عصره ، وأيضاً كما هو الشأن عند أبي يزيد البسطامي وتأثره في رأيه بالفلسفة الهندية الفارسية . على أنه مضى في بحوثه يُعَلِّي من شأن التأثير الإسلامي في نشأة التصوف ، ويقال من أهمية التأثيرات الأجنبية ، وكان أهم معول هدم به القول بهذه التأثيرات ما كان قد تبادر لكثير من الباحثين من إيمان أبي يزيد البسطامي والحلاج بنظرية وحدة الوجود ، فقد نقاها عنهما ، ولم يثبتها إلا منذ ابن عربي المتوفى سنة ٦٣٨ . وبذلك انتهى إلى القول بأن جميع الأفكار التي وُصفت بأنها دخيلة على المسلمين ووليدة ثقافة أجنبية غير إسلامية إنما هي وليده الزهد والتصوف اللذين نشأ في الإسلام وكانا إسلاميين في الصميم^(٤) .

وإذن فالتصوف إسلامي في جوهره وفي نشأته ونموه وتطوره ، وهو الرأي العلمى الصحيح ، ولكى نتصور التصوف في دقة في أثناء هذا العصر ، يحسن أن نستعرض أئمتة الذين غرسوا مبادئه وأحواله ومقاماته ومصطلحاته في نفوس العصور التالية ،

(٣) راجع مقدمة عفيق لكتاب نيكلسون السال .

(٤) انظر مقدمة عفيق وكتاب في التصوف الإسلامى في مواضع مختلفة .

(١) انظر نيكلسون في مبعثه عن الحلاج ومقدمة عفيق .

(٢) العقيدة والشريعة في الإسلام لجولدتسيهر (طبعة دار الكاتب المصرى) ص ١٣٦ وما بعدها .

وأولهم الحارث^(١) بن أسد المحاسبي المتوفى سنة ٢٣٤ وقد نُشرت له رسائل مختلفة ، وهي تدل بوضوح على أنه جَدُّ في ربط التصوف بالشريعة على طريقة أهل السنة . وكان يعتقد مذهب الشافعي ويرى أن الرافضة خرجوا على حدود الإسلام وملته ، ولذلك يروى أنه لما مات أبوه وكان هو في عَوَز وإملاق في حين خَلَف أبوه ثروة طائلة رفض أن يأخذ منها درهمًا ، لأن أباه كان رافضيًا ، وقال : أهل ملتين لا يتوارثان . ومن أهم ما يميزه بين خلفائه ومعاصريه من المتصوفة أنه دعا في قوة إلى محاسبة النفس ومراقبتها ومجاهدتها وتركيتها باتباع الكتاب والسنة ، وهو أول من فرق بين التوكل على الله وبين الرضا بقضاء الله وأحكامه ، وجعله — وتابعه في ذلك متصوفة العراق — من الأحوال التي لا تكتسب ، على حين جعله متصوفة خراسان من المقامات^(٢) ، ورفض أن يفرض التوكل إلى عدم التكسب ، فلا بد من السعي في الأرض سعيًا ينال به الإنسان الفضل والثواب .

وكان يعاصره ذو النون^(٣) المصري المتوفى سنة ٢٤٥ ويرى نيكلسون أنه الواضح الحقيقي لأسس التصوف ، إذ هو — كما يقول ابن تغري بردي — أول من تكلم في مصر في الأحوال والمقامات ، ويعمم ذلك نيكلسون ، فيجعله لا أستاذ المصريين وحدهم في التصوف ، بل أستاذ المشاركة أيضًا ، وينقل عن تذكرة الأولياء للجاي حديثه عن العارف والمعرفة ، وفيه قسم المعرفة ثلاثة أقسام : قسمًا مشتركًا بين عامة المسلمين ، وقسمًا خاصًا بالفلاسفة والعلماء ، وقسمًا خاصًا بالأولياء الذين يرون الله بقلوبهم . وبذلك فَصَّل المعرفة الصوفية عن المعرفة العلمية والفلسفية ، فالأولى قلبية ، تنزع نحو القلب ، وتعتمد على التجربة الحدسية ، والثانية عقلية

(١) نشأ في البصرة ثم انتقل في شبابه إلى بغداد ، انظر في ترجمته تاريخ بغداد ٢١١/٨ والأنساب للسمعاني ٥٠٩ وابن خلكان وطبقات الشافعية للسبكي ٢٧٥/٢ ورمآة الجنان ١٤٢/٢ والنجوم الزاهرة ٣١٦/٢ والتهذيب لابن حجر ١٣٤/٢ وكتاب طبقات الصوفية للسلمي (طبع باريس) ص ٤٦ .

(٢) انظر باب الرضا في الرسالة القشيرية .

(٣) راجع في ترجمة ذي النون وآرائه الفهرست

ص ٥١٧ وطبقات الصوفية للسلمي ص ٢٣ ، وتاريخ بغداد ٣٩٣/٨ وتاريخ دمشق لابن عساكر ٢٧١/٥ ورمآة الجنان للياقبي ١٤٩/٢ والنجوم الزاهرة ٣٢٠/٢ والطبقات الكبرى للشعراني ٥٩/١ وأخبار الحكماء للقفطي ١٨٥ وشذرات الذهب ١٠٧/٢ ورسالة القشيري في ص ٩ وفي مواضع متفرقة ونيكلسون ص ٧ وما بعدها .

تعتمد على الأفكار كما تعتمد على المنطق . ومن هنا كان التصوف ليس علماً ولا فلسفة ولا مذهباً ، وإنما هو أحوال ومقامات ، ويقال إنه سُئل كيف عرف ربه ؟ فقال : « عرفتُ رَبِّي بِرَبِّي ولولا رَبِّي لما عرفتُ رَبِّي » ، وسُئل عن الذكر ، فقال : « هو غيبة الذاكر عن الذكر » ، وقال : « ليس من احتجب عن الخلق بالخلوة كمن احتجب عنهم بالله » . وكأنه هو الذى وصل فى قوة بين التصوف وعلم الباطن ، أو قل هو الذى فسح فيه للباطن ، وقد قال إنه مقصور على الخواص من أهل الله ومن هنا فرق دائماً بين الخواص والعوام ، ومن قوله : « توبة العوام تكون من الذنوب وتوبة الخواص تكون من الغفلة » . وكان يقول : « إياك أن تكون بالمعرفة مدعيًا » يقصد معرفة الصوفية القلبية القائمة على الإدراك الحدسى . ومن قوله أيضاً : « الصوفى مَنْ إذا نطق أبان نطقه عن الحقائق وإن سكت نطقت عنه الجوارح بقطع العلائق » وكان يقول إن العارف (الصوفى) لا يلزم ربه فى حالة واحدة وإنما يلزمه فى الحالات كلها . وكانت تجرى فى كلامه ألفاظ المحبة والوجد ، وكان يقول علامة التوكل انقطاع المطامع . وكان يقول : « من علامات الحب لله متابعة حبيب الله فى أخلافه وأفعاله وأوامره وسننه » . وفى ذلك ما يدل بوضوح على أنه لم يحدث عنده أى انفصام بين التصوف والشريعة ، فهو يكملها بمحتواه وممارساته العملية ، بل هو لا يكون له قوام بدونها ، وبدون ما شرعت من فرائض ونوافل وعبادة وتقوى .

وكان السَّيِّ^(١) السَّقَطِي المتوفى سنة ٢٥١ شيخ متصوفة بغداد وإمامهم فى وقته ، وكان تاجراً فهجر التجارة ولزم بيته وانقطع للعبادة ، ويقال إنه أول من تكلم ببغداد فى لسان التوحيد وحقائق الأحوال ، أو هو بعبارة أخرى أول من تكلم فى المقامات والأحوال هناك ، وبذلك يكون أول تال لذى الذنوب تحدث فيها حديثاً مستفيضاً . وكان يقول : « التوكل الانخلاع عن الحول والقوة » : « من علامات المعرفة بالله القيام بحقوق الله » ، وهو بذلك كان يصل بين التصوف والشريعة ، بل يجعلها قوامه ، ويوضح ذلك أنه سُئل عن المتصوف من هو ؟ فقال :

« هو اسم لثلاثة معان ، هو الذى لا يطفى نور معرفته نورَ ورعه ولا يتكلم بباطن عن علم ينقضه عليه ظاهر الكتاب ، ولا تحمله الكرامات من الله على هتك أستار محارم الله »^(١) ، وهو يذكر الكرامات ولعله لم يكن يريد معناها الدقيق الذى عُرِف للكلمة فيما بعد وأن الله يُجْزى على أيدى الأولياء ما يشبه معجزات الأنبياء . وكان يكثر من الحديث عن محبة الله منشداً :

مَنْ لَمْ يَبْتَ وَالْحَبُّ حَشْوُ فؤَادِهِ لَمْ يَدْرِ كيف تَفْتَتِ الأَكْبَادِ
ويبدو أنه كان يأخذ نفسه بمجاهدات زهدية وتقشفية عنيفة .

وإذا كان ذو النون هو الذى أدخل فى التصوف بقوة النزعة نحو المعرفة الإلهية ، فإن أبا يزيد طينور^(٢) بن عيسى البسطامي المتوفى سنة ٢٦١ هو الذى أدخل فيه — على ما يظهر — فكرة الفناء فى الذات العلية ، وقد أثبت له نيكلسون كثيراً من الأقوال من مثل قوله : « للخلق أحوال ولا حال للعارف لأنه مُحِيت رسمه وفنيت هُويته بهُويته غيره » ، وغُيِّبَتْ آثاره بآثار غيره » ، وقوله : « خرجت من الحق إلى الحق حتى صاح منى فى : يا مَنْ أَنْتَ أنا ! فقد تحققت بمقام الفناء فى الله » . وروى من أقواله التى تنعكس عليها أفكار وحدة الوجود قوله : « سبحانه ما أعظم شأنى » وقوله : « خرجت من بايزيديتي كما تخرج الحية من جلدها ، ونظرت فإذا العاشق والمعشوق والعشق واحد ، لأن الكل واحد فى عالم التوحيد » . ويمكن أن يردَّ هذان القولان وما ساقه نيكلسون من أقوال له أخرى إلى فكرة الفناء . وما نسبوه إليه أيضاً قصة معراجهِ إلى السماء وقد قصَّها العطار بالتفصيل إذ روى عنه قوله : « صعدت إلى السماء وضربت قبتي بإزاء العرش » . ولا شك فى أنها قصة منحوالة عليه هى وأقواله التى قد تفهم منها فكرة وحدة الوجود على نحو ما أشار إلى ذلك الذهبى فى كتابه ميزان الاعتدال إذ قال : « وقد نقلوا عنه أشياء يشك فى صحتها عنه ، منها : « سبحانه » و : « ما فى الجبَّة إلا الله » و : « ما النار ؟! لأستندنَّ إليها غداً وأقول

مختلفة وطبقات الشعراء ٦٥/١ وميزان الاعتدال للذهبي ٣٤٦/٢ والنجوم الزاهرة ٣٥/٣ ونيكلسون ص ٢٢ وما بعدها .

(١) تهذيب ابن عساكر ٧٨/٦ ونيكلسون

ص ٢٩ .

(٢) انظر فى ترجمته طبقات الصوفية للسلمي

ص ٦٠ وابن خلكان والرسالة للشيرازي فى مواضع

اجعلنى لأهلها فداءً ، وما الجنة ؟ ! إنها لعبة صبيان . ونسب إليه أهل بلده بسطام - فى الجنوب الشرقى لبحر الخزر - أنه زعم أن له معراجاً إلى السماء كمعراج الرسول عليه السلام . ولعل فى ذلك ما يدل على أنه وضعت على لسانه من قديم أقوال وقصص غريبة ، وكأنه تحول شخصية أسطورية فى تاريخ التصوف ورجاله ، ويبدو أنه كانت تجرى على لسانه شطحات وعبارات موهمة كثيرة أعدت لأن تصبح له هذه الشخصية ، غير أنه مما لا ريب فيه أنه صاحب فكرة الفناء فى الذات الإلهية ، تلك الفكرة التى أخذت مكاناً مهماً فى التصوف الإسلامى . ويبدو أنه أول من أدخل فى التصوف فكرة السكر بجانب فكرة العشق الإلهى ، فى الرسالة القشيرية أن معاصره الصوفى يحيى بن معاذ كتب إليه : « سكرت من كثرة ما شربت من كأس مبهة الله » فأجابه : « غيرك شرب بحور السموات والأرض وما روى بعد ولسانه خارج من العطش ، ويقول هل من مزيد »^(١) ، وكان ينكر ما يردده الناس عن كرامات الصوفية . وكان يؤمن بأن التصوف لا يقوم بدون الشريعة والحفاظة على فرائضها والصدور بأوامرها ونواهيها^(٢) .

ونشعر أن معالم التصوف ومبادئه أخذت فى الوضوح منذ أوائل النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى ، حتى لتنشأ طبقه تحاضر فيه مثل يحيى بن معاذ الذى ذكرناه آنفاً ، ومثل أبى حمزة الصوفى المتوفى سنة ٢٦٩ ، هو أول من تكلم على رموز المناير ببغداد فى اصطلاحات الصوفية من صفاء الذكر جمع الهمة والعشق والقرب والأنس^(٣) ، ومثل أبى سعيد الخراز المتوفى سنة ٢٧٧ وهو أول من توسع فى الكلام عن الفناء^(٤) . ويظهر حينئذ حمدون^(٥) القصَّار النيسابورى المدفى عام ٢٧١ وقد ذهب بعيداً فى تقشفه ، إذ دَعَا مريديه إلى سلوك طريق الملامة باز يتظاهروا

- | | |
|---|--|
| (١) الرسالة القشيرية ص ١٤٦ وانظر | والنهي وحفظ حدود الشريعة . |
| شذرات الذهب ١٤٣/٢ . | (٣) النجوم الزاهرة ٤٦/٣ . |
| (٢) انظر ترجمته فى ميزان الاعتدال ، ويقول | (٤) طبقات الصوفية للسلمى ص ٢٢٣ . |
| الذهبي : ما أحلى قوله : لو نظرتم إلى رجل | (٥) انظر السلمى ص ١١٤ وكتاب الملامية |
| أعطى من الكرامات حتى يرتفع فى الهواء فلا | والصوفية وأهل الفتوة لأبى العلا عفيف . |
| تفتروا به حتى تنظروا كيف هو عند الأمر | |

باتخاذ أشياء ينكرها الشرع ، حتى يتلومهم العوام من حولهم فلا يقفوا على حقيقة تصوفهم وإخلاصهم لله ، ومنهم انتشر مذهب الملازمة بنيسابور ، إذ يُسَبِّدون في مظهر المذنبين دائماً ، مما أعدَّ للقعود - فيما بعد - عن النهوض بفرائض الشريعة . أما في هذا العصر فنجد المتصوفة دائماً يعلنون تمسكهم بها ، حتى ليقول سهل ابن عبد الله التستري الصوفي المتوفى سنة ٢٨٣ : « أصولنا سبعة أشياء : التمسك بكتاب الله تعالى ، والاقتداء بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأكل الحلال ، وكف الأذى ، واجتناب الآثام ، والتوبة ، وأداء الحقوق » ^(١) وفي رسالة القشيري أنه كان ينكر الكرامات إنكاراً شديداً .

وأهم صوفي ظهر بأخرة من القرن الثالث الجنيد ^(٢) المتوفى سنة ٢٩٧ ويُنعَت بالقواريري الخزّاز ، لأن أباه كان يبيع الزجاج وكان هوبيع الخزّ ، وأصله من نهاوند بالقرب من همدان ، إلا أن مولده ومنشأه ببغداد ، وهو ابن أخت السري السقطي وعنه أخذ الطريقة ، وأخذها السري بدوره عن معروف الكرخي . وكان ورده في اليوم ثلثمائة ركعة وثلثين ألف تسيّحة ، وفي طبقات الصوفية للسلمي أنه كان يقول : « ما أخذنا التصوف عن القليل والقال ، ولكن عن الجوع وترك الدنيا وقطع المألوفات والمستحسنات » . ويقال إنه أقام عشرين سنة لا يأكل إلا من الأسبوع إلى الأسبوع ، وكان يصلي كل ليلة أربعمائة ركعة . وكان يقول : « طريقنا مضبوط بالكتاب والسنة . ومن لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث ولم يتفقه لا يُقْتَدَى به » . وتردد على لسانه كلمتا الطريق والمريد ، مما يدل على أنه أخذ يشيع منذ العصر العباسي الثاني نظام الطرق والمريدين في التصوف ، فلإمام الصوفي طريقة ، يحملها عنه مريدوه من تلاميذه وأتباعه وينشرونها في موطنه وغير موطنه من العالم الإسلامي . وأتاح هذا النظام البقاء لكثير من طرق الصوفية ، وصبغها بصبغة جاهلية شعبية ، وإن كان قد رُشِّح لأن يكون الارتباط في الطريقة بالإمام الصوفي نفسه لا بمبادئه وأفكاره ، وبذلك أوجد صلة وثيقة بين الشيخ

الشافعية للسبكي ٢/٢٦٠ ورواة الجنان لليافى

٢/٢٥١ والنجوم الزاهرة ٢/١٦٩ وشذرات

الذهب ٢/١

(١) السلمي ص ٢٠٣ .

(٢) انظر في ترجمة الجنيد تاريخ بغداد

٧/٢٤١ والرسالة القشيرية في مواضع مختلفة

وابن خلكان والسلمي ص ١٤١ وطبقات

ومريديه وتلاميذه ، فكانوا يأترون بتوجيهاته ، وكانوا يحيطونه بهالة من الإجلال والتوقير ، هيأت فيما بعد لأن تصبح لكل شيخ قداسته . وكان الجنيد يستخدم أسلوباً مليئاً بالمبالغات في الترغيب والترهيب زائراً بالألفاظ الطنانة الكثيرة الإيهام والإيحاء ، وأخذ عنه تلاميذه الحلاج هذا الأسلوب وأصبح ميزة أساسية له في أقواله وأشعاره ، وهو أسلوب كثرت فيه الشطحات ، ولاحظ ذلك القدماء إذ نرى السراج في كتابه اللمع يعرض طائفة من شطحات الجنيد ويفسرهما تفسيراً بيناً . وأشهر تلاميذ الجنيد الحسين بن منصور المشهور باسم الحلاج وسنعرض له بالحديث في غير هذا الموضع .

ومن أهم الصوفيين المتأخرين في العصر الحكيم^(١) الترمذى محمد بن علي بن الحسن بن بشر المتوفى سنة ٣٢٠ وكان يحاول صنع أسس فلسفية لعلم الكلام ، غير أنه مضى يدرس التصوف وتعمق فيه كما تعمق في دراسة اتجاهات الشيعة ، وعاش للتصوف يؤلف فيه كتباً كثيرة . ويقال إنه هو الذى أدخل بقوة نظرية الولاية في البيئات الصوفية وكل ما جرت إليه من إيمان بكرامات الصوفية أولياء الله وصفوته في خلقه ، وقد ألف فيها كتاباً سماه ختم الولاية زعم فيه أن للأولياء خاتماً كما أن للأنبياء خاتماً وأن الولاية تفضل النبوة لقوله عليه السلام : « يغبطهم النبيون والشهداء » إذ لو لم يكن الأولياء أفضل منهم ما غبطوهم !! وذكر في الكتاب المذكور أن عيسى يعود في آخر الزمان ، وبذلك يكون خاتم الأولياء ، وثار عليه أهل بلده « ترمذ » ففر إلى نيسابور وبها توفى . وقال السبكي : دافع عنه السلمى معتذراً عنه ببعده فهم الفاهمين . وعلى كل حال يُعَدُّ الترمذى الحكيم أول من عمل على إشاعة فكرة الاعتقاد بولاية الصوفية وما جرت إليه من تصور الكرامات .

ومنذ أواخر القرن الثالث الهجرى تلقانا ظاهرة جديدة في بيئات المتصوفة ، فقد كان السابقون منهم لا ينظمون الشعر بل يكتفون بإنشاد ما حفظوه من أشعار المحبين ، وهم في أثناء ذلك يتواجدلون وجداً لا يشبهه وجد ، أما منذ أبي الحسين النورى

ورسالة القشيري في مواضع مختلفة وتذكرة الحفاظ للذهبي ٢١٨/٢ .

(١) انظر في ترجمة الحكيم الترمذى طبقات الصوفية للسلمى ص ٢١٦ وطبقات الشافعية للسبكي ٢٤٥/٢ وطبقات الشعراني ١٠٦/١

المتوفى سنة ٢٩٥ فإن صوفيين كثيرين بنظمون الشعر معبرين به عن التبايع قلوبهم في الحب آمليين في الشهود مستسلمين متضرعين ، مصورين كيف يستأثر حبهم لربهم بأفئدتهم استشاراً مطلقاً ، نذكر منهم سمنون أبا الحسين الخواص المتوفى سنة ٣٠٣ وأبا علي الروذباري المتوفى سنة ٣٢٢ والشبلي دُلف بن جحدر المتوفى سنة ٣٣٤ وجميعهم من تلامذة الجنييد .

وواضح مما تقدم أن العصر العباسي الثاني لم يكد ينتهى حتى تأصلت في التصوف فكرة المعرفة الإلهية ومحبة الله ، كما تأصلت فكرة أن الصوفية أولياء الله ، وسرى في موضع آخر كيف أن الحلاج أحاط الرسول عليه السلام بهالة قدسية تشبه الهالة التي يحيط بها المسيحيون المسيح عليه السلام ، وكان لكل ذلك أثر عميق في حياة التصوف وتطوره على مر الأجيال .

الفصل الثالث

الحياة العقلية

١

الحركة العلمية

دعا الإسلام أُمَّته في قوة إلى العلم والتعلم ، فبمجرد أن اكتسح العرب العراق وإيران والشام ومصر مضوا ينهلون من كل الثقافات والمعارف التي كانت منبثة في هذه البلدان ، وأسعفهم في ذلك أنهم عرباً شعوبها وأخذت بنفسها تعرب لهم كل مدخراتها وكنوزها الثقافية ، وتجرد بعض العرب لمعرفة اللغات الأجنبية التي كانت تحمل تلك الكنوز والمدخرات ، وما ينتقضي القرن الثاني الهجري حتى تكون قد دخلت العربية سيول ثقافية وعلمية لا حصر لها ، مما مكّن العرب أن يتحوّلوا سريعاً إلى أمة علمية تُعنى بكل جوانب العلم الذي كان معروفاً عند الأمم القديمة وخاصة الفرس والهنود والسرّيان واليونان ، وتشارك فيه مشاركة جادة خصبة ، وتضيف إليه علوماً جديدة تتصل بالقرآن والشرعة والشعر واللغة والنحو والعروض .

ونشط التعليم حينئذ نشاطاً واسعاً فمن تعلّم للناشئة بالكتاتيب إلى تعليم للشباب بالمساجد، وكان الناشئة يبدعون بتعلم الخط والكتابة والقراءة ويحفظون بعض السور القرآنية ، ويشيدون بعض الأشعار والأمثال ، ويدرسون شيئاً من الحساب والسنن والفرائض والنحو والعروض ، وعنى معلمو البنات بتحفيظهن القرآن وخاصة سورة النور ، على نحو ما صورنا ذلك كله في كتاب العصر العباسي الأول نقلاً عن

الجاحظ ، وذكر هو وابن قتيبة أسماء طائفة مشهورة من معلمى الكتاتيب ، ونراه يخصهم برسالة لا تزال منها بقايا بين رسائله المطبوعة على هامش كتاب الكامل للامبرد ، وفيها يصور نوادرهم وحمقاتهم المضحكة ، ومن حينئذ أصبحت شخصية معلم الكتّاب تدور بين الشخصيات الهزلية فى أدبنا العربى ، ويقول محمد بن حبيب العالم اللغوى المتوفى سنة ٢٤٥ : إذا قلت للرجل ما صناعتك ؟ فقال : معلم صبيان فاصفّ ، يشير إلى حماقته ، وكان ينشد :

مَنْ عَلَّمَ الصَّبِيَّانَ صَبَّوْا عَقْلَهُ حَتَّى بَنَى الْخُلَفَاءُ وَالْخُلَفَاءُ^(١)
وَصَبَّوْا عَقْلَهُ : جعلوه مثل عقلهم : عقل الصبيان حمقاً وبلاهة ، وكأنما تصيب عقله عدوى من عقولهم لطول ملاسته لهم ، وابن حبيب يعمم ذلك حتى فيمن يعلمون أبناء الخلفاء وآباءهم حين كانوا فى المهد صغاراً . ويقول ابن قتيبة إنهم كانوا يعلمون الصبيان على حسب الهدايا التى كانت تأتيتهم من آبائهم^(٢) ، أو بعبارة أدق على حسب الأجور التى كانوا يأخذونها منهم .

وطبيعى ألا تكون حياة معلم الكتّاب على هذا النحو رافهة ، بل كان كثيراً ما يحفُّ بها الضيق والبؤس على نحو ما يحدثنا الرواة عن أبى زيد البلخى المتوفى عام ٣٢٢ وكان فى بدء حياته معلم كتّاب ، وقد شكّا شكوى مرة حينذاك من حياته^(٣) البائسة . وكثير من اللغويين والنحاة قبل أن ينالوا شهرتهم العلمية بدعوا معلمى صبية مثل يعقوب بن السكيت المتوفى سنة ٢٤٣ ، فقد كانت له فى مطالع حياته حلقة فى درب القنطرة ببغداد يؤدّب فيها مع أبيه صبيان العامة^(٤) . ويخيّل إلى الإنسان كأنما أولاد العامة جميعاً كانوا يختلفون إلى الكتاتيب لما استقر فى نفوس آبائهم من ضرورة التعلم وأنه مثل الطعام والشراب لا يمكن الاستغناء عنه ، وأن من لم يتعلم فى صغره فاته العلم فى كبره ، ومشأوا العلم فى الكبر بالنقش على الماء ، وفى الصغر بالنقش على الحجر يثبت ولا يزول أبداً . وكان الأولاد يكتبون فى ألواح من الآبنوس أو الخشب ، كل على حسب قدرة أبيه

(١) معجم الأدباء لياقوت (طبعة القاهرة)

المصرية) ٣٩/٤ .

١١٢/١٨ .

(٣) معجم الأدباء ٨١٤٦٥/٣ .

(٢) عيون الأخبار (طبعة دار الكتب

(٤) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٢٧٣/١٤ .

المادية ، وكان المعلمون يأخذونهم بالتأديب ، فيضربونهم أحياناً أو يحبسونهم ، حتى يؤدوا واجباتهم على خير وجه .

وكان معلمو أبناء الخاصة أحسن حالاً ومعاشاً من معلمى أبناء العامة ، ومع ذلك نرى الجاحظ يأبى لحالم إذ يقول : « يكون الرجل نحويّاً عروضيّاً وقسّاماً فَرَضِيّاً وحسن الكتاب جيد الحساب حافظاً للقرآن راوية للشعر وهو يرضى أن يعلم أولادنا بستين درهماً ، ولو أن رجلاً كان حسن البيان حسن التخريج للمعاني ليس عنده غير ذلك لم يرض بألف درهم »^(١) وهذا إنما ينصب على معلمى أبناء الطبقة الوسطى ، أما من كانوا يعلمون أبناء الخلفاء والوزراء والأمراء والقواد وكبار رجال الدولة والأعيان وكبار التجار فكانوا يحظون براتب كبيرة ، فمثلاً يعقوب ابن السكيت الذى بدأ ، كما أسلفنا ، معلم كتابيب حين عهد إليه بعض الحكام فى تعليم ابنه جعل له راتباً شهريّاً خمسمائة درهم وسرعان ما جعلها ألفاً ، واتخذهُ المتوكل لتعليم ولده وأسنى له الراتب وأجزل فى العطاء^(٢) ، ولما أسند محمد بن عبد الله ابن طاهر نائب المتوكل على بغداد وجماعة من الخلفاء بعده تعليم ابنه إلى ثعلب الإمام الكوفي النحوى المشهور ظل ثلاث عشرة سنة يتناول الغداء معه على مائدته ، وفرض له أن يأخذ يومياً خبزاً فاخراً ولحماً كثيراً حين انصرافه إلى منزله وجعل له ألف درهم شهريّاً . وقالوا إنه حين مات خلّف واحداً وعشرين ألف درهم وأبى دينار وحوانيت أو دكاكين بباب الشام فى بغداد قيمتها ثلاثة آلاف دينار^(٣) ، ويقال إن الخاقانى وزير المقتدر أو لم وليمة ضخمة بمناسبة دخول ابن له الكتّاب وأعطى المعلم ألف دينار .

ولم تكن هناك مراحل للتعليم مثلنا اليوم ، بل كان الكتّاب يحل محل تعليمنا الابتدائى والإعدادى ، ومن يريد أن يكمل تعليمه بعده يختلف إلى حلقات المساجد ، وكانت أشبه بمعاهد عليا ، فلم تكن فقط دوراً للعبادة ، بل كانت أيضاً دوراً ، بل قل جامعات ، للعلم والعلماء ، إذ كان لكل عالم فى كل فرع من فروع

المصرية (١٤٧/١) وما بعدها ومعجم
الأدباء ١٢٥/٥ .

(١) البيان والتبيين ٤٠٣/١ .
(٢) تاريخ بغداد ٢٧٣/١٤ .
(٣) إنباه الرواة للقفلى (طبعة دار الكتب

العلم حلقة كبرى ، يتحلق فيها طلابه من حوله . وكان عادة يستند إلى أسطوانة في المسجد ، ثم يملئ محاضراته والطلاب يكتبون ، وإذا كانوا كثيرين بحيث لا يسمعه البعيد عنه ردّد مُستَمَل كلامه حتى يستطيع البعيدون عنه سماع ما يقوله وكتابته ، وكان العالم لا يغير مكان حلقة الذي اختاره منذ نهض بالتدريس ، ويروى أن نَقْطَوِيَه المتوفى سنة ٣٢٣ ظل يملئ دروسه في اللغة والنحو بجامع المنصور ببغداد خمسين سنة وهو جالس إلى أسطوانة بعينها لا يزال مكانه منها^(١) . وكانت أكثر الحلقات طلاباً حلقات المتكلمين والفقهاء ، أما المتكلمون فأكثرة ما كان يجري بينهم من مناظرات كان الطلاب يختلفون إليها للفرجة والتعلم ، وأما الفقهاء فلأن الإمام بالفقهاء كان الوسيلة إلى تولى مناصب الحسبة والشرطة والقضاء والولاية أحياناً . وكان الطلاب يمسكون في أيديهم بالأقلام والأوراق للكتابة وأمامهم محابريهم ، وكانوا يُعَدُّون بالمئات في بعض الحلقات ، ويروى أن الطبري حين سأله الطلاب الحنابلة عن إمامهم ابن حنبل وخلافه مع بعض الفقهاء وأجابه بأن خلافه لا يُعَدُّ أو لا يُؤْبَهُ له رموه بمحابريهم وكانت ألوفاً^(٢) .

وكانت المساجد حينئذ أشبه بجامعات حرة ، فالطلاب يختلفون إلى من يشاءون الاستماع إليه بدون أى شرط ، منهم من يأخذ الفقه أو الكلام أو الحديث النبوي أو التفسير أو اللغة أو النحو أو الشعر ، وكثير منهم كان يأخذ ما عند شيخ ، ثم يتحول عنه إلى شيخ آخر أو حلقة أخرى ، ويبدو أن بعض علماء النحو واللغة كان يتقاضى من طلابه أجوراً على حسب قدرتهم ، ففي أخبار الزجاج أنه رغب في تعلم النحو فلزم حلقة المبرد بجامع بغداد لتعلمه ، فسأله أى شيء صناعتك ؟ فأجابه : أخطر الزجاج وكسبني في كل يوم درهم ونصف ، وأريد أن تهتم بتعليمي وأنا أعطيك كل يوم درهماً ، وسأظل أعطيك إياه أبد الدهر ، فلزمه وعنى بتخريج ، وطلبت منه أسرة معلماً شاباً يعلم أولادهم النحو فسمّاه لهم ، وعلم أولادهم وظل يعطى المبرد في كل شهر ثلاثين درهماً ويزيده بما يقدر عليه^(٣) . ويبدو أن المبرد كان شحيحاً بعلمه ، إذ في تاريخه أن المتوكل والفتح بن خاقان وزيره كانا يجزلان له في العطاء حتى إذا توفيا أجرى عليه محمد بن عبد الله بن طاهر حاكم بغداد راتباً

(٣) معجم الأدباء ١ / ١٣١ .

(١) معجم الأدباء ١ / ٢٥٦ .

(٢) معجم الأدباء ١٨ / ٥٨ .

شهرياً ، ويتوفى فيتابع أخوه عبيد الله الذى خلفه على بغداد لإجراء الرواتب عليه ، وهو مع ذلك كله لا يتورع عن أن يأخذ من طالب فقير درهماً كل يوم .

على كل حال كان المبرد مثله مثل المحاضرين الكبار بالمساجد ترعاهم الدولة وتفرض لهم رواتب شهرية ، وكانوا أنواعاً كثيرة ، فمنهم فقهاء ومنهم لغويون ونحاة ومنهم محدثون ومفسرون ، ومنهم أدباء يأخذون من كل علم بطرف وعلى أيديهم كان يتخرج الندماء . وكان كل عالم وصاحب فن يأخذ راتبه مع جماعته ، وكان منهم من يسلك في جماعات كثيرة ، فيأخذ مع كل جماعة الراتب الذى تأخذه ، كالأزجاج تلميذ المبرد ، فقد جعل المعتضد له راتباً في الفقهاء وراتباً في العلماء وراتباً في الندماء ، فبلغ راتبه من الدولة ثلثمائة دينار شهرياً^(١) . وكان الموفق يجزى على ثعلب راتباً سنياً^(٢) . وكان المقتدر يجزى على ابن دريد العالم اللغوى المتوفى سنة ٣٢١ خمسين ديناراً في كل شهر^(٣) . وكان أبو الحسن بن الفرات وزير المقتدر يطلق لطلاب الحديث سنوياً عشرين ألف درهم^(٤) . وكان القضاة ورجال الحسبة من الفقهاء يتقاضون رواتب كثيرة ، حتى ليسرى بعضهم من راته ثراء طائلاً ، على نحو مامراً بنا في الفصل الماضى عن إيرادهم بن جابر القاضى بجلب .

ولم يكن الخلفاء العباسيون ووزرائهم وحدهم الذين عملوا على تنشيط العلم وإعطاء الرواتب الجزيلة للقضاة والعلماء من كل صنف ، فقد كان يشركهم في ذلك حكام الولايات ، وفي مقدمتهم أسرة الصفاريين حكام سجستان ، إذ نرى أبا عبد الله البوشنجى شيخ أهل الحديث بنيسابور المتوفى سنة ٢٩١ يذكر أنه أخذ من تلك الأسرة سبعمائة ألف درهم ، ولما دالت دولتهم تحول عنهم إلى السامانيين ببخارى ، ففرضوا له راتباً مجزياً^(٥) ، وقد بعثوا في إمارتهم بتشجيعهم للعلماء نهضة علمية عظيمة ، ويروى أن أميرهم إسماعيل بن أحمد الساماني كان يصل محمد بن نصر المروزي إمام المحدثين في دياره المتوفى سنة ٢٩٤ بأربعة آلاف درهم كل سنة ، وكان أخوه إسحق يصله بمثلها ، كما يصله بمثلها سكان موطنه سمرقند^(٦) .

(١) الفهرست ص ٩٦ وإنباء الرواة ١٦١ / ١٦١ .

(٢) معجم الأدباء ١٤١ / ٥ وإنباء الرواة

١٤٢ / ١ .

(٤) كتاب الوزراء للصافي ص ٢٠١ .

(٥) طبقات الشافعية للسبكي ١٩٢ / ٢ .

(٦) السبكي ٢٤٨ / ٢ .

(٣) انظر ترجمته في ابن خلكان .

ولم يكن حكام الولايات يُنفقون على علماء ولايتهم وحدهم ، بل كانوا ينفقون أيضاً على كل من ينزل بها من العلماء الوافدين الذين قد يقيمون بها شهراً أو أشهراً ، ومن طريف ما يُروى من ذلك أن الرحلة في طلب الحديث إلى مصر جمعت بين محمد ابن نصر المروزي آنف الذكر ومحمد بن إسحق بن خزيمة النيسابوري المتوفى سنة ٣١١ ، ومحمد بن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠ ومحمد بن هرون الروياني المتوفى سنة ٣٠٧ ولم يبق عندهم ما يقوتهم ، فاتفق رأيهم على أن يخرج أحدهم فيسأل لأصحابه الطعام ، وإذا هم بالشموع ورسول من قبل والى مصر يدقّ عليهم الباب ، وسألهم أين محمد بن نصر فقبل له هو هذا فأخرج صرة فيها خمسون ديناراً فدفعها إليه ثم قال لهم أيكم محمد بن جرير ؟ فقالوا هو هذا ، فأعطاه صرة فيها خمسون ديناراً ، وكذلك صنع مع محمد بن إسحق بن خزيمة ومحمد بن هرون الروياني ، ثم قال لهم إن الأمير يقسم عليكم إذا نفذت هذه الدنانير أن تبعثوا إليه أحدكم^(١) . على أنه يجب أن نعرف أنه كان هناك كثيرون وراء الولاة والوزراء والخلفاء من أعيان الأمة وأثريائها يمدّون العلماء بالمكافآت والأموال الجزيلة بل ربما أمدوا الطلاب تشجيعاً وحشاً على طلب العلم ، ويروى أن ابن زرة تاضي دمشق المتوفى سنة ٣٠٢ كان يهب لمن يحفظ مختصر المزني في الفقه الشافعي مائة دينار^(٢) . وكان ابن ماسي يُنفذ إلى أبي عمر اللغوي المعروف باسم غلام ثعلب من وقت إلى وقت كفايته^(٣) ، وسنرى في حديثنا عن علوم الأوائل القناطير المقتطعة من الأموال التي كانت تنفق على الأطباء والمترجمين . ولا بد أن نشير هنا إلى أن نَقَرّاً من الفقهاء والمحدثين وحتى من القضاة كانوا يأبون أن يأخذوا على عملهم وتعليمهم أجراً ، كما مر بناء في الحديث عن زهاد الأمة أمثال إبراهيم الحربي ، وكان كثيرون منهم يعيشون من التجارة أو من الوراقة أو من بعض الحرف الصغيرة . غير أن الكثرة الغامرة كانت تعيش من رواتب الدولة ، ومن وضعوا أنفسهم موضع الحماة للعلوم والآداب من الوزراء والسراة ، وكان كثيراً ما يهديهم العلماء والأدباء آثارهم ، فيهدونهم بدورهم كثيراً من أموالهم وخير مثل يصور ذلك الجاحظ ، فقد أهدى كتابه « الحيوان » إلى محمد بن عبد الملك الزيات فأعطاه خمسة آلاف

(٣) السبكي ١٩٠/٣ .

(١) السبكي ٢٥١/٢ .

(٢) السبكي ١٩٧/٣ .

دينار ، وأهدى كتابه «البيان والتبيين» إلى أحمد بن أبي دؤاد فأعطاه أيضاً خمسة آلاف دينار ، وأهدى كتابه : «الزرع والنخيل» إلى إبراهيم بن العباس الصولي فأعطاه مثلهما خمسة آلاف دينار . وكلهم كانوا من كبار رجال الدولة . وصنف للفتح ابن خاقان وزير المتوكل رسالته في فضائل الترك فأجرى عليه راتباً شهرياً من خزانة الدولة^(١) . وأمثال الجاحظ كثيرون في كل فن وفي كل علم كانوا يناولون هذه العطايا الجزيلة ويأخذون الرواتب السنية على جهودهم في المحاضرات للطلاب وفي تأليف الكتب وتصنيفها ، مما أشعل في نفوس الشباب والناس محبة العلم والعكوف عليه ، حتى يُعَدُّوا من أهله ، وفي شرفه وفضله يقول الجاحظ^(٢) :

يطيب العيش إذ تَلَقَى لَبِيأً غَدَاهُ الْعِلْمُ وَالرَّأْيُ الْمَصِيبُ
فيكشف عنك حيرة كل جَهْلٍ وَفَضْلُ الْعِلْمِ يَعْرِفُهُ الْأَرِيبُ
سقام الجِرْصِ ليس له دواءٌ وداءُ الجهل ليس له طبيبٌ

وكانت الطريقة الشائعة في المحاضرات ، وخاصة محاضرات المتكلمين والمحدثين واللغويين هي الإملاء ، ويعرض السيوطي لإملاء اللغويين حينئذ ، فيقول : «أولى ثعلب مجالس عديدة في مجلد ضخيم ، وأملى ابن دُرَيْدَ مجالس كثيرة ، وأملى أبو محمد القاسم بن الأنباري وولده أبو بكر ما لا يحصى ، وطريقهم في الإملاء كطريقة المحدثين سواء ، يكتب المستملي أول القائمة : «مجلس أملاه شيخنا فلان بجامع كذا في يوم كذا ، ويورد التاريخ ، ثم يورد المُمْلِيَّ بأُسْناده كلاماً عن العرب والفصحاء فيه غريب يحتاج إلى التفسير ثم يفسره ، ويورد من أشعار العرب وغيرها بأسانيده ومن الفوائد اللغوية بإسناد وغير إسناد ما يختاره . . . وآخر من علامته أملى على طريقة اللغويين أبو القاسم الزجاجي له آمال كثيرة في مجلد ضخيم ، وكانت وفاته سنة ٣٣٩هـ^(٣) . وبلغ من عناية العلماء المملين حينئذ أن كانوا - وخاصة أهل الحديث - يراجعون ما كتبه تلاميذهم ، ويكتبون لمن يأنسون منهم القدرة على روايته عنهم شهادة بأنهم أجازوا لهم تلك الرواية ، ويسمى ذلك

(١) معجم الأدباء ٧٩/١٦ ، ٩٩ (طبع إدارة الطباعة المنيرية بمصر) ٥٨/١ .

(٢) المزهر (طبعة الحلبي) ٣١٣/٢ .

(٣) معجم المرتضى (طبعة الحلبي) ١٩٥/١ .

(٢) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر

عند المحدثين باسم الإجازة ، وهي شهادة قيمة على صحة الرواية^(١) . وقد يسجل التلميذ على نسخته أنها من سماع هذا الشيخ أو ذاك ، وقد يسجل أنه قرأها عليه ، وقد يسجل له ذلك الشيخ . وكان الشيخ أحياناً يملئ عملاً له في بلد ، ثم ينتقل إلى بلدة أخرى ويعلمه مضيفاً إليه أو مهذباً ، وكانوا ينصون على ذلك ، مثل معجم الجوهرة لابن دُرَيْد ، إذ نصوا على أنه مختلف النسخ كثير الزيادة والنقصان ، لأنه أملاه مراراً بفارس وبيغداد ، فلما تعدد الإملاء زاد المعجم ونقص ، ويقول ابن التديم أصح النسخ نسخة أبي الفتح عبد الله بن أحمد النحوي ، لأنه كتبها من عدة نسخ وقرأها عليه^(٢) . وتلك هي أعلى مرتبة في تحقيقنا العلمى الحديث للكتب ، إذ نراجع مخطوطات الكتاب ونعرضه عليها ، ونستخلص منه أصلاً صحيحاً غاية الصحة ، وقد اهتموا مبكرين إلى ذلك يرشدهم نظر علمى سديد . وكان كثير من العلماء حين يُملئ كتاباً ثم يزيد فيه ويضيف يهمل نسخته أو نسخه الأولى ، ولا يقرئ سوى النسخة الأخيرة ، على نحو ما يلقانا عند أبي عمرو المطرز ، فإنه أملئ في سنة ٣٢٦ كتابه الياقوت في اللغة ، ثم رأى الزيادة فيه فأمله على تلاميذه ثانية سنة ٣٢٩ ، ثم رأى أن يضيف إليه بعض إضافات ، فجمع نسخه وعارضها بعضها على بعض سنة ٣٣٢ وجعل هذه العرضة الصورة النهائية للكتاب وأهدر ما سواها من الصور السابقة^(٣) .

وكان من أهم ما عمل على إشعال الجذوة العلمية وإمدادها بوقود جزل لا ينفد مناظرات العلماء في المساجد وقصور الخلفاء والوزراء في الكلام وفي الفقه وفي اللغة والنحو وغير ذلك من العلوم التي كان يشتد فيها الخلاف والجدل . وكان الشباب يختلف في المساجد إلى هذه المناظرات ، ليتعلم قرع الحجة بالحجة وغلبة الخصم بالحق وبالباطل أحياناً ، وتفيض كتب المتكلمين بأخبار هذه المناظرات وكذلك كتب الفقهاء واللغويين والنحاة وكثيراً ما أثيرت في أثناء هذه المحاورات بعض القضايا والمسائل كمقضية العشق في مجلس المنتصر^(٤) وأنواع اللهو والملاهي في مجلس المعتمد^(٥) .

(٣) الفهرست ص ١١٩

(٤) مروج الذهب ٥٥ / ٤

(٥) مروج الذهب ١٣١ / ٤

(١) انظر في أقدم هذه الإجازات كتابنا

البحث الأدبي ص ١٥٧

(٢) الفهرست ص ٩٧

وكان استخدام الورق في الكتابة وتصنيف الكتب استخداماً عاماً منذ عصر الرشيد عاملاً مهماً في ازدهار الحركة العلمية حينئذ ، فقد كانوا يكتبون قبل عصره غالباً في الجلود والقراطيس المصنوعة بمصر من ورق البردي وكانوا يكتبون في ورق الكاغد المستورد من الصين وكان مرتفع الثمن جداً ، فنقلوا صناعته إلى بغداد في عصر الرشيد ، إذ أنشأ الفضل بن يحيى البرمكي وزيره مصنعاً للورق ، فرخص ثمنه ، وانتشرت الكتابة فيه لخفته ، وسرعان ما كثرت الكتب والمصنفات ، كما كثر الوراقون الذين يعيشون من نسخها ، وأنشأ كثيرون منهم دكاكين للتجارة فيها ، واختلف إليها الشباب والعلماء لا لشراء الكتب والمؤلفات فحسب ، بل ليقروا فيها وينهلوا من مصنفاتها ، وكانوا يكترونها لذلك ويبيتون فيها يقرءون على المصابيح ويقيّدون أو ينسخون ما يشاءون من الأفكار والصحف والرسائل . وعمل ذلك على نهضة الحركة العلمية نهضة واسعة ، إذ أصبحت الكتب والمصنفات تحت أعين الطلاب والشباب وبأيديهم ، يتزودون منها كما يريدون أزواداً كانت أيسر وأسهل من التلّقى عن الشيوخ والعلماء في المساجد ، إذ كانت تجمع لهم مسائل العلم الذي يريدونه وأصوله وفروعه ، ويصور ذلك الجاحظ مقارناً بين من يطلب الفقه عن طريق الاختلاف إلى حلقات العلماء ومن يطلبه عن طريق الكتب ودكاكين الوراقين ، يقول : « وقد تجد الرجل يطلب الآثار (الحديث) وتأويل القرآن ويجالس الفقهاء خمسين عاماً ، وهو لا يُعَدُّ فقيهاً ولا يُجَمَّلُ قاضياً ، فما هو إلا أن ينظر في كتب أبي حنيفة وأشباه أبي حنيفة ويحفظ كتاب الشروط في مقدار سنة أو سنتين حتى تمر ببابه فتظن أنه من بعض العمال ، وبالحرى ألا يمر عليه من الأيام إلا اليسير حتى يصير حاكماً (قاضياً) على مصر من الأمصار أو بلد من البلدان » (١) . وارواج هذه التجارة حينئذ اتخذ كثير من العلماء المحاضرين بالمساجد وراقين يقيّدون إملأاتهم ويذيعونها في الناس ، ويذكر ابن النديم وراقى المبرد لإسماعيل ابن أحمد الزجاجي وإبراهيم بن محمد الساسي (٢) ، ويذكر ياقوت من وراقى الجاحظ زكريا (٣) بن يحيى ، ومن حين إلى آخر تلقانا أسماء هؤلاء الوراقين في تراجم العلماء وأخبارهم .

(١) الحيوان للجاحظ (طبعة الحلبي) ١ / ٨٧ . (٢) معجم الأدباء ١٦ / ١٠٦ .

(٢) الفهرست ص ٩٥ .

وبجانب الوراقين ودكاكينهم التي كانت تحلّ حينئذ محل دور النشر والطباعة كانت هناك مكتبات يختلف إليها الناس والشباب في كل مكان ، ويشيد أبو معشر البلخي المتوفى سنة ٢٧٢ بعناية ملوك الفرس بالمكتبات وما كان بها من كتب مودعة أصناف علوم الأوائل^(١) ، وقد ذكرنا في كتاب العصر العباسي الأول خزانة الحكمة التي شادها ببغداد هرون الرشيد ، وأقام عليها يوحنا بن ماسويه لترجمة الكتب الطبية القديمة ، وكيف تحوّل بها المأمون إلى ما يشبه معهداً علمياً كبيراً إذ ألحق بها مرصداً ضخماً ، ووظّف بها كثيرين للترجمة . وقد تأسست مكتبات كثيرة في العصر ، منها ما كان عاماً ، ومنها ما كان خاصاً ، أما العام فعلى رأسه مكتبات المساجد ، إذ كان كثير من العلماء يقفون كتبهم عليها ليفيد منها الطلاب ، ولقد هم في ذلك السّرة . وعنى بعض المثقفين والعلماء ببناء مكتبات عامة يتزود منها الناس أزواداً علمية مختلفة ، ومن أشهرها حينئذ مكتبة على بن يحيى المنجم نديم الخلفاء من زمن المتوكل إلى زمن المعتد وكان أديباً مثقفاً ثقافة واسعة كما كان شاعراً ، وكانت له ضيعة نفيسة بنى فيها قصرًا جليلاً جعله خزانة كتب عظيمة وسماه خزانة الحكمة مشاكلة لخزانة الرشيد والمأمون ، وكان الناس يؤمنونها من كل بلد ، فيقيمون فيها ويعكفون على المصنفات العلمية دارسين ، والكتب مبدولة لهم ، والنفقة مشتملة عليهم من مال على بن يحيى ، فقدم عليها أبو معشر من خراسان يريد الحج ، وهو إذ ذاك لا يحسن شيئاً ذا بال من النجوم ، فلما رآها هاله أمرها ، فأقام بها وأضرب عن الحج ، وتعلم فيها علم النجوم وتعمق فيه حتى ألحد كما يقول ياقوت ، وحتى كان ذلك آخر عهده بالحج وبالدين والإسلام أيضاً^(٢) ، ويذكر ياقوت أن جعفر بن محمد بن حمدان الموصلى الشافعي — من أدباء العصر وعلمائه — أسس مكتبة مלאها بكتب من جميع العلوم والفنون ، وقفها على كل طالب للعلم ، وكان لا يمنع أحداً من دخولها ، فهي مفتوحة للجميع ، وإذا ألمّ بها معسر أو بائس فقير صُرف له ورق للكتابة فيه وفضة أودراهم لمعاشه . وكانت تُفتَح في كل يوم ، وكان ابن حمدان يجلس في بعض غرفها ، ويحاضر قاصديها ملىً عليهم من أشعاره وأشعار غيره وحكايات مستطرفة وشذوراً من الفقه وما يتعلق به^(٣) . ولا يكاد يكون

(٢) معجم الأدباء ٧ / ١٩١

(١) الفهرست ص ٢٤٨

(٢) معجم الأدباء ١٥ / ١٥٧

هناك عالم أو أريب نابه أو سرّى إلا وله مكتبة خاصة تموج بالكتب ، وكانوا يوظفون لها بعض الوراقين كما كانوا يجلّدونها^(١) ويتفننون في العناية بكتابتها وتجليدها ، وكان المانوية شديدي الاهتمام بزخرفة كتبهم^(٢) يريدون أن يجعلوها تحفاً فنية استمالة للقراء . ويتوقف الجاحظ في كتابه « الحيوان » ليعجب من مكتبة إسحق بن سليمان العباسي وما كانت تزخر به من الكتب والأسفاط والرقوق والقماطر والدفاتر والمساطر والمحابر^(٣) ، وكانت لابن حنبل مكتبة قدّرت كتبها باثني عشر حملاً وعدلاً^(٤) ، أما الفتح بن خاقان وزير المتوكل المتوفى سنة ٢٤٨ فكانت له خزانة كتب جمعها له علي بن يحيى المنجم لم ير أعظم منها كثرة وحسناً ، وكان يحضر مجلسه فصحاء الأعراب وعلماء البصرة والكوفة^(٥) ، وكانت لثعلب مكتبة حافلة ، قوم خيران الوراق ما يساوي عشرة دنائير منها بثلاثة ، ومع ذلك بلغ ثمنها ثلثمائة دينار^(٦) ، وكذلك كانت لأبي بكر محمد بن القاسم الأنباري مكتبة كبيرة ، وسأله بعض أصحابه كم يحفظ منها ؟ قال : ثلاثة عشر صندوقاً^(٧) . ونسوق خبراً يدل على عظم المكتبات الخاصة عند بعض الأفراد ، فقد روى الرواة أن أبا عمر غلام ثعلب كان يؤدّب ولد القاضي أبي عمر محمد بن يوسف فأملى عليه ثلاثين مسألة بشواهدا من كلام العرب واستشهد في تضاعيفها بيتين غريبين جداً ، فعرضهما القاضي أبو عمر على ابن دريد وابن الأنباري وابن مِقْسَم فلم يعرفهما ولا عرفوا غالب ما استشهد به من أبيات : وقال ابن دريد : هذا مما وضعه أبو عمر من عنده . فلما جاء أبو عمر ذكر له القاضي ما قال ابن دريد . فطلب من القاضي أن يحضر له ما في داره من دواوين العرب ، فلم يزل يأتيه منها بشاهد لما ذكره بعد شاهد ، حتى خرج من الثلاثين مسألة وشواهدا ، ثم قال للقاضي : وأما البيتان فإن ثعلباً أنشدناهما وأنت حاضر فكتبتهما في دفترك فطلب القاضي دفتره ، فإذا هما فيه^(٨) وتلك مكتبة قاض كان بها جميع دواوين العرب ، ولو لم تحدث هذه القصة لما عرفنا شيئاً

(٥) معجم الأدباء ١٦ / ١٧٤ .

(٦) إنباه الرواة ١ / ١٤٨ .

(٧) معجم الأدباء ١٨ / ٣٠٧ .

(٨) السبكي ٣ / ١٩١ .

(١) رسائل الجاحظ (طبع مطبعة لجنة التأليف

والترجمة والنشر) ص ٧٤ .

(٢) الحيوان ١ / ٥٥ .

(٣) الحيوان ١ / ٦٠ .

(٤) السبكي ٢ / ٢٧ .

عنها ، فما بالنّا بمكتبات المؤلفين العظام في العصر ، وكثير منهم ألّف مكتبة ضخمة فلو لم يكن له سوى مؤلفاته لكانت لديه منها خزانة كتب حافلة ، ويكفي أن نذكر مثلاً الجاحظ وقد خلف من الكتب العظام وعشرات الرسائل ما يؤلف مكتبة كبيرة . وما لا ريب فيه أن مكتبته كانت تحتوي المصنفات التي جمع منها المادة اللغوية والأدبية والكلامية لكتبه . ونذكر بجانبه الطبري ، وقد أحصى بعض تلاميذه الأوراق التي كتبها وألّف منها كتبه ، فقال إنه مكث أربعين سنة يكتب في كل يوم أربعين ورقة ، وحسب آخرون أوراق كتبه من يوم ولد إلى أن مات فوجدوه كتب كل يوم أربع عشرة ورقة^(١) .

ويحسُّ كل من يتعقب الحركة العلمية في العصر كأن سابقاً نشب بين العلماء والعلم ، فهم يجدُّون في طلبه وتحصيله وهم يصارعونه صراعاً متصلاً يريدون أن يذلّوه ويقهروه في جميع الميادين . وهو صراع كان يداخله شغف شديد به ، كما كان يداخله إيمان بأنه لن يخضع لهم إلا إذا تجرّدوا له وتوفّروا عليه وأمضوا فيه بياض النهار وسواد الليل في غير كلل ولا ملل ، بل في حب لا يفوقه حب ، ويحدثنا الرواة عن كثيرين عشقوا الكتب أو بعبارة أخرى العلم عشقاً لا يشبهه عشق ، ويقول أبو هفان : « لم أر قط ولا سمعت من أحبّ الكتب أكثر من ثلاثة : الجاحظ فإنه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته كأنّما ما كان حتى إنه كان يكثرى دكاكين الوراقين ويبست فيها للنظر ، وانفتح بن خاقان فإنه كان يحضر لمجالسة المتوكل ، فإذا أراد القيام لحاجة أخرج كتاباً من كمه أو خُفّه وقرأه في مجلس المتوكل إلى حين عوّده إليه ، وإسماعيل بن إسحق القاضي فإني ما دخلت إليه إلا رأيته ينظر في كتاب أو يقلب كتباً أو يستفّضها^(٢) » .

وهذا الشغف العلمي الشديد هو الذي دفع العلماء إلى الرحلة من بلد بعيد إلى بلد بعيد طلباً للعلم ، مهما تجشّموا في ذلك من مشاق ، فكان اللغويون يرحلون إلى البوادي محتملين ما فيها من شظف العيش وخشونته في سبيل جمع اللغة ، وكان الفقهاء يرحلون بدورهم للتلمذ على أئمتهم ، ومثلهم العلماء المختلفون في كل فرع من فروع العلم ، ومن خير ما يصور ذلك ما رواه ياقوت عن أبي زيد البلسنجي أحمد

ابن سهل من أن نفسه دعتة وهو في عنفوان شبابه إلى أن يرحل عن بلسخ ويدخل أرض العراق ويمجثو بين أيدي العلماء ويقتبس منهم العلوم ، فتوجه إليها راسحاً مع الحاج وأقام بها ثمانى سنوات ، فطوَّف البلاد المتاخمة لها ، وأق الكبار والأعيان وتلامذ لأبى يوسف يعقوب بن إسحق الكندى ، وحسب من عنده علوماً جمّة ، وتعمّق في علم الفلسفة ، وهجم على أسرار علم التنجيم والهيئة ، وبرّز في علوم الطب والطبائع وبحث في أصول الدين^(١) . وأكبر من شُغفوا بالرحلة في العصر المحدثون ، لأن الصحابة كانوا قد نزلوا في أمصار العالم الإسلامى من إيران إلى المغرب ، وكانوا يروون أحاديث كثيرة عن الرسول حملها عنهم تلاميذهم من التابعين ومن جاءوا بعدهم ، فكان في كل مصر أحاديث لا تعرفها الأمصار الأخرى ، فرحل مصنفو الحديث وحفّاظه في طلبها من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب ، ورحلة البخارى من خراسان إلى مدن إيران والعراق والحجاز والشام ومصر مشهورة ، ومثله بقمية المحدثين الذين جمعوا متفرقات الأحاديث في العالم الإسلامى . وسرى الرحلة تشيع بين المترجمين إلى بلاد الروم ، كما سنها تشيع بين الجغرافيين ليصفوا ما شاهدوه بأعينهم ، وكذلك سنها تشيع بين المؤرخين من أمثال المسعودى .

ويبدو أن الشغف المفرط بالعلم لم يكن مقصوراً على الطبقات الخاصة من العلماء ومن يبتغون من الطلاب أن يكونوا على شاكله أساتذتهم المتخصصين ، بل كان حظاً مشتركاً بين الطبقات العامة ، إذ كان العلم مطروحاً في المساجد مباحاً للجميع ، وكذلك في المكتبات العامة ، ولم يكن هناك كتاب طريف إلا وتعرضه دكاكين الوراقين . ويدل على ذلك أكبر الدلالة أن من يرجع إلى تراجم العلماء سيجد كثرتهم الغامرة من الطبقة العامة ، وتصور ذلك ألقابهم من مثل الحدّاد والخزّاز والقوّاريرى والتّمّار والقوّاس والنّبّال والقلائل والطار والمطرز . وأبعد من ذلك وأعمق أن نجد الجاحظ في رسالته «الرد على النصارى» يشكو من مناقشة العامة للملحدّين والزنادقة في آرائهم الضالة ، لعدم معرفتهم الدقيقة بتلك الآراء وما يفندوها من الأدلة الساطعة ، حتى ليقول : «ومن البلاء أن كل إنسان من المسلمين يرى أنه متكلم وأنه ليس أحد أحقّ بمحاجة الملحدّين من أحد» ، وكأن كل

فرد من أفراد العامة لعصره كان يظن نفسه نال حظاً أو حظوظاً من مناهج المتكلمين في جدال أصحاب الملل والنحل الضالة . وظاهرة ثانية تدل على مدى تغلغل الثقافة بين جميع أفراد الأمة بلا استثناء، إذ نرى من النساء من يختلفن إلى حلقات المتكلمين^(١) والفقهاء وغيرهم ، ويبدو أنه برزت حينئذ في الثقافة الدينية غير امرأة حتى لرى - كما مر بنا - قهرمانة لأم المقتدر ، هي شمائل ، تجلس في سنة ٣٠٦ لسماع المظالم والحكم بين المتظالمين ويجلس معها القضاة والعلماء ، واختلف الفقهاء حينئذ في جواز ولاية المرأة للقضاء ، وأجاز ذلك الطبري^(٢) ، وهي فتوى تدل على ما بلغته المرأة من التعمق في الفقه وعلوم الشريعة لهذا العصر ، ولابن بسام المتوفى سنة ٣٠٣ أبيات يقول فيها^(٣) :

ما للنساء وللكتبا بة والعمالة والخطابة

وقد يدل البيت على أن من النساء حينئذ من كنَّ يطالبن بمساواة المرأة بالرجل في الوظائف المهمة مثل كتابة الدواوين وولاية الأقاليم والخطابة في المحافل العظام . ولم تكن هذه الجوانب وحدها ثمار اشتراك الطبقة الشعبية العامة في العلم والثقافة ، فقد كانت هناك ثمرة مهمة غاية الأهمية ، هي محاولة أن يصبح العلم شعبياً بحيث لا يعلو على أفهام العامة ، وبحيث يصل إليهم من أسهل الطرق وأيسرها ، ويتضح ذلك عند الجاحظ في كتابه « البيان والتبيين » و « الحيوان » وعند ابن قتيبة في كتابه « عيون الأخبار » . ومررنا أن الجاحظ أراد بكتابة « البيان والتبيين » أن يردَّ على الشعوبية ردّاً مفحماً ببيان ما تحمل الثقافة العربية في الخطابة والشعر والأمثال من قيم بلاغية رائعة ، ونضيف هنا أنه أراد أن يذلل هذه الثقافة بعرضها في أسلوب عصرى يقربها من أفهام العامة بحيث تُسَيِّغها بدون أى عسر أو مشقة . وبوون بعيد بين عرض هذه الثقافة عند اللغويين من أمثال الأصمعي وأبي عبيدة وأبي زيد وعرضها عند الجاحظ في البيان والتبيين ، فهي عند الأولين جافة جفافاً شديداً ولا يستطيع غير المتخصصين فهمها والفقه بمسائلها العويصة ، أما في البيان والتبيين فعذبة سائغة لا للطبقة الوسطى من المثقفين فقط . بل أيضاً للطبقة الشعبية الدنيا . وبالمثل عرضه

(١) انظر ترجمة الأشعري في ابن خلكان . (٣) صبح الأعشى (طبعة دار الكتب المصرية)

(٢) الأحكام السلطانية لماوردي ص ١٠٧ . ٦٤/١ .

لهذه الثقافة في كتابه الثاني « الحيوان » فهو يقرب هذه الثقافة من الشعب ، بحيث يجد فيها لذة ومتاعاً ، وهو يمزج بينها وبين ما عُرِف عند أرسطو وغيره من علم الحيوان ، ليتضح أن هذا العلم لم يكن غريباً ولا بعيداً عن العرب ، بل لقد استظهروا منه كثيراً في أشعارهم . وهو لا يقرب هذا العلم من العامة وحده ، بل يقرب أيضاً علم الكلام ونظريات أصحابه من المعتزلة أمثال النظام ، بل أدق الدقائق من هذه النظريات وما حملت من براهين عقلية سديدة ، وكأنما كان يريد للعامة أن تتمثل هذه البراهين حتى تتسلح عقلياً في مناقشتها للمسائل ومحاورتها لأصحاب الملل وخاصة النصارى كما أسلفنا منذ قليل . وأما كتاب عيون الأخبار فقد عرض في مجلداته الأربعة الثقافات المعاصرة له عرضاً بسيطاً سهلاً ، حتى يجعل قطوفها دانية للعامة ، وحتى لا يظنوا — كما أشرنا إلى ذلك في غير هذا الموضع — أن بينها تعارضاً ، فتلك آداب الفرس وتقاليدهم في السياسة والحكم ، وتلك وصايا العرب في القضاء وغير القضاء وخطبهم وأشعارهم ، وتلك أقوال المسيح عليه السلام وأقوال أصحاب الكتب السماوية في الزهد ، وتلك أحكام وقواعد في الطعام والنبات والحيوان منقولة عن اليونان . وكل ذلك يسوى منه الكتاب في لغة سهلة يسيرة واضحة أشد الوضوح ، بحيث تتيح له أن يتغلغل في طبقة الشعب ، وبحيث يتبين في وضوح أنه لا توجد حواجز ولا سدود بين الثقافة العربية والثقافات الأجنبية وما قد يُظَنُّ من ذلك كله إنما هو أقواس وهمية . وبلغ من قرب هذا الكتاب من نفوس جميع طبقات الشعب الخاصة والعامة أن أكبَّ الناس على ما فيه من آداب الفرس وأهملوا كل ما صور هذه الآداب من كتب أخرى ، إذ استطاع ابن قتيبة أن يعطيها صبغة شعبية تجعلها واضحة كل الوضوح ، كما استطاع أن يكتسبها بأساليبه البديعة ثوباً عربياً ناصعاً ، بحيث أصبحت في ثوبها الجديد أنصع وأبهى وأنضر من ثوبها القديم .

٢

علوم الأوائل : نقل ومشاركة وتفلسف

تحدثنا في كتاب العصر العباسي الأول عن حركة الترجمة فيه وكيف أنها شملت كل ما استطاع العرب نقله من علوم الهند والفرس واليونان ، وكان أكثر ما نقلوه عن الفرس والهند في مجال الفلك والرياضيات ، ونقلوا عن اليونان العصر العباسي الثاني

إما عن اليونانية مباشرة وإما عن السريانية والفارسية مجموعات العلوم التي تتصل بهم من الرياضيات والعلوم الطبيعية ، وسرعان ما أخذوا يشاركون في هذا التراث فإذا يوحنا بن ماسويه ينفذ إلى إضافة مباحث جديدة في التشريح ، وإذا هم يضعون لحركات الأفلاك زيجات وجداول جديدة أكثر دقة من المأثورات الفارسية واليونانية ، وإذا محمد بن موسى الخوارزمي ينشئ عصرًا جديدًا في التاريخ العالمي للرياضيات فيكشف علم الجبر وقواعده ويعطيه اسمه الذي عُرف به في العالم كله . والدولة هي التي هيأت لذلك كله منذ أبي جعفر المنصور ، فقد شجعت على الترجمة والنقل بكل الوسائل ، ولم يلبث هرون الرشيد أن أنشأ دار الحكمة وجلب إليها المترجمين من مدرسة جنديسابور الفارسية ومن السريان والفرس ، وخلفه المأمون فاستحالت هذه الدار جامعة كبرى ، إذ ألحق بها مرصدًا ومكتبة ضخمة ، وأرسل البعوث إلى بيزنطة وبلاد الروم تأتية بالمأثورات اليونانية المختلفة ، وأخذت هذه المأثورات تستولى على معظم النشاط في النقل والترجمة ، حتى أصبحت لها نهائيًا الغلبة على المأثورات الفارسية والهندية .

وأشرنا في حديثنا عن الترجمة في العصر العباسي الأول إلى ما تُرجم عن اليونانية من الأصول المختلفة ، فقد ترجمت في الرياضيات النظريات الفلكية الإغريقية ومن أهم مصنفاتها التي عُنِيَ النقلة بترجمتها كتاب المجسطي لبطليموس الإسكندري ، كما عنوا بترجمة كتاب الأصول لأقليدس في الهندسة ، وترجموا كثيرًا من المؤلفات اليونانية في العلوم الطبيعية وخاصة ما اتصل عند أرسطو بعلم الحيوان وبوصف النباتات مما يهم الصيدالة ، وترجموا في الطب مصنفات جالينوس وبقرات . وترجموا لكثيرين من اليونان غير أرسطو ، فترجموا لأفلاطون وغير أفلاطون مصنفات مختلفة . ويلاحظ أن العرب استعانوا في هذه الترجمة بالسريان ، وكانوا قد نقلوا إلى لغتهم قبل الإسلام كثيرًا من المأثورات اليونانية ، وتصادف أن أخذوها من علماء المذهب الأفلاطوني الجديد ، مع ما أضافوه إليها من شروح اقتبسوها من آراء أفلاطون أو من الأفلاطونية الجديدة المتأثرة بفيثاغورس أو بالرواقيين . وليس ذلك فحسب ، فإن السريان فيما يبدو نسبوا إلى أرسطو وأفلاطون كتبًا كثيرة ، ونُقلت إلى العرب بهذه النسبة الخاطئة ، مثل كتاب

الربوبية المنسوب خطأ إلى أرسطو ومخوره بحوث في النفس والإنسان تُمزجُ بقِصص كثيرة وبقواعد في السياسة والصحة والتغذية . على أن كثيراً مما نسبوه إليه صحيح وخاصة ما يتصل بالطب والحيوان والعلوم الطبيعية . وكلما تقدمنا مع الزمن كثر الاهتمام به وبترجمة آثاره ، حتى غدا المعلم الأول للعرب وعلمائهم وفلاسفتهم المختلفين ، وخاصة في علم المنطق والطبيعات ، أما في الرياضيات فكان أساتذتهم فيها فيثاغورس وبطليموس وأقليدس .

ويذهب العصر العباسي الأول ، ونمضي في العصر العباسي الثاني فنجد حركة النقل والترجمة تزداد حدة وقوة وتزدهم الترجمة عن اليونانية نمواً عظيماً ، ويتم لها الانتقال من الترجمة الحرفية التي تمتلئ بالعثرات والصعوبات اللفظية إلى ترجمة الفقر والعبارات بالمعنى ترجمة دقيقة . وهذا هو السر في أننا نجد كثيراً في ترجمات المترجمين أنهم أعادوا ترجمة هذا الكتاب أو ذلك مما ترجمه الحجاج بن مطر وغيره من مترجمي العصر العباسي الأول . ويخيل إلى الإنسان أنهم لم يتركوا حينئذ كتاباً يونانياً في أصله اليوناني أو في ترجمته السريانية إلا ترجموه إلى العربية . وكان الذي أذكى الترجمة والنقل حينئذ الأموال الضخمة التي كان يُغدقها المتوكل وغيره من الخلفاء على المترجمين ، ويكفي أن نذكر ما أهداه المتوكل إلى حنين بن إسحاق المتوفى سنة ٢٦٤ فإنه أهداه ثلاث دور من دوره وحمل إليها كل ما تحتاج إليه من الأثاث والفرش والآلات والكتب وأنواع الستائر الأنيقة وأقطعه بعض الإقطاعات وجعل له راتباً شهرياً خمسة عشر ألف درهم غير ثلاثة خلد من الروم وغير ما أسبغه على أهله من الأموال والخيل والإقطاعات^(١) . وكان الوزراء بدورهم يغدقون على المترجمين أموالاً كثيرة ، سواء أهدوا إليهم بعض ترجماتهم أو ألّفوه على هدى ما قرءوه في اللغتين اليونانية والسريانية ، وفي أخبار قسطا بن لوقا أنه أهدى إبراهيم بن المدبر كتابين كما أهدى الحسن بن مخلد وزير المعتمد كتاباً^(٢) . وفي أخبار إسحق بن حنين أنه كان منقطعاً إلى القاسم بن عبيد الله وزير المعتضد^(٣) . وكان ثابت بن قرة لا ينقطع عن إسماعيل

(٢) ابن أبي أصيبعة ص ٢٣٠ .

(٣) ابن أبي أصيبعة ص ٢٧٤ .

(١) طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة

(نشر مكتبة دار الحياة ببيروت) ص ٢٧٠ .

ابن بلبل وزير المعتمد وله ألف مقالة في الهندسة^(١) وكان كثير من الأطباء يكلفون المترجمين نقل كتب طبية أو كتب تتصل بالطب ، يقول ابن أبي أصيبعة : « وكان مما نُقلت له الكتب اليونانية وترجمت باسمه جماعة من أكابر الأطباء مثل يرخنا بن ماسويه وجبرائيل بن بختيشوع وابنه بختيشوع وداود بن سراييون وسلامون بن بنان واليسع وإسرائيل بن زكريا بن الطيفوري وحبيش بن الحسن^(٢) . وكانت هناك أسر وأفراد كثيرون يَعُدُّون أنفسهم حماة للترجمة والمترجمين ، وكانوا يتنافسون في هذه الحماية مع أنفسهم ومع الخلفاء ، ذكر منهم ابن أبي أصيبعة طائفة^(٣) ، منها على^(٤) بن يحيى المنجم صاحب خزانة الحكمة التي سبق أن تحدثنا عنها ، وأحمد بن المدبر . ومن نَوَّه بهم القدماء طويلاً في هذا الجانب بنو موسى^(٥) بن شاكر وهم محمد والحسن وأحمد ، وكان الأول والثاني يُشغَفَان بالهندسة في حين شُغِف الثالث بالحيل (الميكانيكا) وكان لهم مرصد أسسوه على دجلة ، وكانوا يُغلقون رواتب شهرية على جماعة من المترجمين بينهم حنين بن إسحق وحبيش ابن أخته وثابت بن قرة ، ويقال إنها كانت تبلغ في الشهر خمسمائة دينار^(٦) . وكل هذا الاهتمام بالترجمة والإنفاق عليها والتنافس فيها أحدث ازدهاراً عظيماً لها في العصر العباسي الثاني فقد أكبَّ المترجمون على المأثورات الإغريقية في كل فروع العلم والفلسفة يترجمونها ، وكادوا لا يبقون كتاباً بدون ترجمة وبدون شرح أو تلخيص . ومن يرجع إلى ابن أبي أصيبعة والقفطي تهويله الكثرة الغامرة مما ترجموه ، إذ يبلغ أحياناً عند المترجم الواحد مئات الكتب والرسائل ، سوى ما أَلَفَّوه وصنّفوه .

وأهم المترجمين حينئذ وأشهرهم حنين^(٧) بن إسحق المتوفى سنة ٢٦٤ وكان طبيباً

(١) ابن أبي أصيبعة ص ٢٦٠ وانظر ترجمة الرازي ص ٤١٤ وكثرة من ألف الكتب بأسمائهم وأهداها إليهم .
(٢) انظر في الفهرست ص ١٢٣ والقفطي ص ١٧١ وابن أبي أصيبعة ص ٢٥٧ والدوميلي ص ١٣٢ ، ١٣٩ وتاريخ الفلسفة في الإسلام لدى بور (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر - الطبعة الرابعة) ص ٣٧ .

(١) ابن أبي أصيبعة ص ٣٠٠ .
(٢) ابن أبي أصيبعة ص ٢٨٤ .
(٣) ابن أبي أصيبعة ص ٢٨٣ .
(٤) انظر أيضاً تاريخ الحكماء للقفطي (طبعة ليزر) ص ١٣٢ .
(٥) راجع في بنو موسى ابن أبي أصيبعة ص ٢٦٠ والفهرست ص ٣٩٢ والقفطي ص ٣١٥ ، ٤٤١ والعلم عند العرب للدوميلي (نشر الجامعة العربية) ص ١٣٩ .

مسيحيًا نسطوريًا من مدرسة جندبسا بور ، رحل إلى بلاد الروم وتعلم اليونانية وكان يجيد بجانبها السريانية والفارسية والعربية ، وهو وابنه إسحق^(١) وابن أخته حبش^(٢) أكثر المترجمين في العصر إنتاجًا ، وكانوا يعملون معًا ، فنسبت بعض الترجمات لهذا تارة ولذاك تارة أخرى . وكان يعاونهم تلاميذ كثيرون ، يدل على ذلك ما جاء في ترجمة حنين من أن الخليفة المتوكل « جعل له كتابًا نحاريير عالمين بالترجمة يترجمون بين يديه وهو يتصفح ما ترجموا ، وفي مقدمتهم أصطفن بن بسيل^(٣) » ، ويبدو من اسمه أنه يوناني الأصل . وكان حنين يُشغف بترجمة الكتب الطبية ، وقد ترجم للجالينوس منها عشرت إلى العربية والسريانية ، غير ما أصلحه لتلاميذه من آثاره مما ترجموه إلى اللغتين . ويصور لنا في مقدمة بعض الكتب التي ترجمها مدى دقته العلمية في الترجمة إذ كان لا يزال يجمع للكتاب الذي يريد ترجمته كل ما يمكنه من نسخ ، حتى إذا اجتمعت له قابل بينها وعارض عباراتها بعضها على بعض واستخلص للكتاب ترجمة دقيقة^(٤) . وكان ابنه إسحق يعنى بترجمة الكتب الحكيمة والفلسفة ، فلم يقف عنايته مثله على الكتب الطبية ، ولذلك كثرت ترجماته لأرسطو وأفلاطون وأرسطيدس وبطليموس . أما حبش فعنى مثل خاله بترجمة الكتب الطبية . واشتهر أصطفن بأنه كان أول من ترجم كتاب ديوسقوريدس في النبات وكتاب أوريباسيوس في الأدوية المنردة^(٥) .

وبجانب هذه المدرسة الكبيرة للترجمة وأستاذها حنين كان هناك مترجمون يفوقون الحصر ، من أشهرهم ثابت^(٦) بن قرة المتوفى سنة ٢٨٨ ومن أهم ما ترجمه كتاب الأصول لأفلاطون ، ويقول ألدومبيلي إن النص العربي يصلح النص الإغريقي في

(٤) انظر أصول نقد النصوص ونشر الكتب
لبرجستراسر (طبع مطبعة دار الكتب المصرية)
ص ٩٤ .

(٥) الففطى ص ٧٤ وألدومبيلي ص ١٤٢ .

(٦) راجع الفهرست ص ٣٩٤ والقفطى

ص ١١٥ وابن أبي أصيبعة ص ٢٩٥ ودى

بورص ٣٧ وألدومبيلي ص ١٤٢ .

(١) راجع الفهرست ص ٤٢٩ والقفطى
ص ٨٠ وابن أبي أصيبعة ص ٢٧٤ ودى
بورص ٣٧ وألدومبيلي ص ١٤٢ .

(٢) انظر الفهرست ص ٤٢٨ والقفطى
ص ١٧٧ وابن أبي أصيبعة ص ٢٧٦
وى بورص ٣٧ وألدومبيلي ص ١٤٢ .

(٣) ابن أبي أصيبعة ص ٢٦٢ والقفطى

ص ١٧١ .

مواضع مختلفة ، وترجم كتاب أرسطو في النبات تفسير نيقولاوس ، وله كتاب قرسطون في نظرية الميزان واعتدال الأجسام الميكانيكية ، وكان له أثر كبير في لاتينية العصور الوسطى كما يقول ألدومبيل ، ومن مصنفاته كتاب الذخيرة في الطب ألفه لابنه سنان . ومن أبنه المترجمين حينئذ قسطا^(١) بن لوقا البعلبكي المتوفى سنة ٣٠٠ وكان مسيحياً من أصل يوناني ، ومن ترجماته شرح الإسكندر الأفروديسي وشرح جون فيلوبون على السماع الطبيعى وكتاب آراء الفلاسفة المنسوب إلى فلوطرخس وكتاب الحيل لهيرون المنشور في ليمزج سنة ١٩٠٠ وكان قد ترجمه للخليفة المستعين . وترجم لإبراهيم بن المدبر كتابه الجامع في الدخول إلى علم الطب غير كتب أخرى ألفها أو ترجمها لكثيرين . وله رسالة صغيرة في الفرق بين النفس والروح ترجمت إلى اللاتينية . وخاتمة هؤلاء المترجمين النابهين أبو بشر متى^(٢) ابن يونس ، وكان من أصل يوناني ، وقد عُني بترجمة جميع آثار أرسطو في المنطق وغير المنطق ، وترجم له كتاب الشعر ترجمة مضطربة ، لأنه يدور - كما هو معروف - حول المأساة اليونانية ، ولم يكن العرب ولا المترجمون حينئذ يتصورونها، ولذلك يكون لمتى عذره في اضطراب ترجمته لهذا الكتاب^(٣) . وقد انتهت إليه رئاسة المنطقين في عصره ، وله مناظرة في المنطق والنحو مع السيرافي سنة ٣٢٠ احتفظ بها ياقوت في معجمه^(٤) .

وبمتى بن يونس ينتهى عصر الترجمة العظيم ، ومنذ أوائل هذا العصر ، بل منذ عصر المأمون ، يشارك العرب في علوم الأوائل التي ترجموها ، بحيث يظهر عندهم علماء يزاحمون العلماء الأوائل عند الأمم القديمة بمناكب ضخمة ، ويكفى أن نذكر محمد بن موسى الخوارزمي وابتكاره لعلم الجبر الذى أشرنا إليه في غير هذا

الرحمن بدوى في كتاب فن الشعر لأرسطو مع الترجمة العربية القديمة لمتى بن يونس نشر مكتبة النهضة المصرية .
(٣) انظر كتابنا البلاغة تطور وتاريخ (طبع دار المعارف) ص ٧٦ .
(٤) انظر معجم الأدباء ١٨٠/٨ .

(١) انظر الفهرست ص ٤٢٤ والقفطى ص ٢٦٢ وابن أبى أصيبعة ص ٣٢٩ ، وألدومبيل ص ٤٢٤ والقفطى ص ٢٦٢ وابن أبى أصيبعة ص ٣٢٩ وألدومبيل ص ١٥٥ ، ١٦٥ دى بورص ص ٣٩ .
(٢) راجع الفهرست ص ٤٢٩ وابن أبى أصيبعة ص ٣١٧ والقفطى ص ٣٢٣ وعبد

الموضع والذي ليس له سابقة عند علماء الأوائل ، وله شروح على كتاب أقليدس في الهندسة وكتاب بطليموس في الجغرافية ، وقد خلّف فيها أول كتاب عربي جغرافي سماه صورة الأرض ، ونشطت الكتب والمباحث الجغرافية منذ هذا التاريخ المبكر. ومع افتتاح هذا العصر العباسي الثاني يؤلف عبيد الله بن خرداذبة الفارسي الأصل كتابه « المسالك والممالك » وهو يصرح في مطالعه بأنه اعتمد في بيان حدود الأرض ومسالكها على كتابات بطليموس . وأخذ غير عالم يتناول هذا الموضوع ، تناوله أبو عبد الله الجيهاني وأبو زيد البلخي ، وأهم منهما ابن الفقيه ، غير أنه لم يذكر إلا المدائن العظمى ولذلك سمّى كتابه « البلدان » . وأدق منه وأمهر علمياً يعقوبى أحمد بن يعقوب العباسي ، إذ نراه في كتابه الذي سماه أيضاً باسم البلدان يعتمد على الرحلة والطواف ببلاد ديار الإسلام واصفاً لها وصف المشاهد المثبت من الأخبار . وبذلك تم تكامل علم الجغرافيا عند العرب . واهتموا حينئذ بإفراد جزيرة العرب وجغرافيتها ببعض الكتب على نحو ما نجد عند الهمداني المتوفى سنة ٣٣٤ في كتابه « صفة جزيرة العرب » .

وعلى نحو ما نهضوا حينئذ بعلم الجغرافيا نهضوا بالرياضيات والفلك ، يتقدمهم محمد بن موسى الخوارزمي ، ومن تلاميذه في مرصد المأمون حبش الحاسب ، وله جداول فلكية مهمه . ومن نابى الفلكيين في أواسط العصر أحمد ابن محمد بن كثير الفرغاني وكتابه : « أصول الفلك » له ترجمات كثيرة إلى اللاتينية ، وترك هناك تأثيراً كبيراً حتى عصر كوبرنيقوس^(١) ، وله كتب مختلفة في الأسطرلاب . ومن الفلكيين الذين اشتهروا حينئذ شهرة واسعة أبو معشر الباقى المتوفى سنة ٢٧٢ وكان له تأثير واسع في العرب ومسيحيي العصور الوسطى وترجمت له كتب كثيرة إلى اللغة اللاتينية^(٢) . ومن الفلكيين النابيين في العصر الفضل^(٣) بن حاتم النيرنزي المتوفى سنة ٣١٠ وكان متقدماً في علم الهندسة وهيئة الأفلاك وحركات النجوم وله شروح على أصول أقليدس ترجمها جيران دى كريمونا ونشرها كورتزه في لينيز سنة ١٨٩٩ وله شروح أيضاً على كتاب بطليموس في الفلك وزيج على مذهب

في فهرست ص ٤٠٠ والقفطى ص ١٥٢ .

(٣) انظر فيه الدوميل ص ١٥٥ ، ١٦٢

والفهرست ص ٤٠٣ والقفطى ص ٢٥٤ .

(١) الدوميل ص ١٦٧ وانظر في ترجمة

الفرغاني الفهرست ص ٤٠٣ والقفطى ص ٢٨٦ .

(٢) الدوميل ص ٢٦٩ وراجع ترجمته

الهند وكتابتها « السند هند » وكتاب سميت القبة أو معرفة اتجاهها . وكان يعاصره البتاني^(١) محمد بن جابر بن سنان المتوفى سنة ٣١٧ « ولا يُعلم أحد في الإسلام بلغ مبالغه في تصحيح أرصاد الكواكب وامتحان حركاتها » وكان له مرصد في الرقبة على نهر الفرات ، وله زيج جليل ضمته أرصاد النيرين وإصلاح الحركات المثبتة لهما في كتاب المجسطى لبطليموس ، وترجم زيجه إلى اللاتينية ، وقد لخص نلّينو أهمية مباحثه الفلكية وتصحيحه لبطليموس كثيراً من أخطائه في دراسته القيمة عنه بدائرة المعارف الإسلامية .

وبالمثل نهضت العلوم الطبية والطبيعية وكانت تشمل حينئذ الصيدلة والكيمياء ، وقد أنتج العصر العباسي الأول أكبر كيميائي في تلك الحقب القديمة ، وهو جابر بن حيان ، وسبق أن ألمنا به في كتابنا عن العصر المذكور ، وكان قد تُرجم كتاب الحيوان لأرسطو وعلى هديه ألف الجاحظ كتابه « الحيوان » في هذا العلم ، وحلل بلاسيوس هذا الكتاب في مجلة إيزيس العدد الرابع عشر سنة ١٩٣٩ مبيناً ما يشتمل عليه من الطبيعة الكيميائية وعلم الحيوان وعلم الإنسان^(٢) . وظل المترجمون يتوفرون على ترجمة كتب الصيدلة والكيمياء والطب ، وكل يحاول تصحيح ترجمة من سبقه وإفادة الأطباء بكل ما يستطيع . ومرّ بنا أنهم كانوا يشجعون بأموالهم الغدقة الترجمة وأن كثيراً من الكتب تُرجم باسمهم . ومن أهمهم بختيشوع^(٣) ابن جبرائيل بن بختيشوع ، وبلغ من كثرة ثرائه أن كان يضاهي الخليفة المتوكل في الزينة والفرش والمأكل والمشرب ، ويقال إنه وصف لامتوكل دواء في بعض وعكاته فأمر له بثلاثمائة ألف درهم وثلاثين تختاً من الثياب ، ونقل له حنين كثيراً من كتب جالينوس الطبية . وكان يعاصره سابور^(٤) بن سهل المسيحي صاحب بیمارستان جنديسابور المتوفى سنة ٢٥٥ واشتهر بكتاب له في الصيدلة كان يقع في ٢٢ باباً وظل الأطباء والصيدالون يعتمدون عليه حتى ظهر كتاب ابن التلميد في القرن السادس .

القفطى أنه كان يلبس الجبة المثقلة بالوشى قيمتها ألف دينار .

(٤) انظر في سابور الفهرست ص ٤٢٧

والقفطى ص ٢٠٧ وابن أبي أصيبعة ص ٢٣٠

والدوميل ص ١٧٠ ، ١٧٢ .

(١) انظر فيه الدوميل ص ١٥٥ ، ١٦٨

والفهرست ص ٤٠٣ والقفطى ص ٢٨٠ .

(٢) الدوميل ص ٩٦ .

(٣) راجع فيه الفهرست ص ٤٢٧ والقفطى

ص ١٠٢ وابن أبي أصيبعة ص ٢٠١ وفي

ومن كبار الأطباء في العصر سنان^(١) بن ثابت بن قرة الذي أسلم على يد الخليفة القاهرة بالله ، وقد عاش حتى سنة ٣٣١ وتقلد مارستانات بغداد الخمسة سنة ٣٠٤ وبني في سنة ٣٠٦ مارستانين كبيرين ، أحدهما للخليفة المقتدر وكانت نفقته مائتي دينار في كل شهر والثاني لأمه وكانت النفقة عليه شهرياً ستمائة دينار وأقام للوزير ابن الفرات مارستاناً ثانياً ببغداد سنة ٣١١ كانت النفقة عليه شهرياً ، مائتي دينار ، وبني لبجكم حاكم بغداد سنة ٣٢٩ مارستاناً رابعاً ببغداد على الشاطئ الغربي لدجلة وزوده بالأطباء والأدوات المختلفة . ومن طريف ما يروى أن نجد حامد بن العباس أحد وزراء الخليفة المقتدر يأمره أن يفرد أطباء للمسجونين يزورونهم يومياً ومعهم الأدوية والأشربة ، وظل ذلك تقليداً مرعياً حتى نهاية العصر ، ونراه يأمره أيضاً بإرسال متطبين إلى الفلاحين في سواد العراق بحوض دجلة والفرات يطوفون به ويقيمون في كل جانب منه المدة التي تدعو إليها الحاجة ، ومعهم خزانة الأدوية والأشربة . ويبدو أن المتطبين كثروا في العصر ، حتى ليذكر ابن أبي أصيبعة أن عددهم في جانبي بغداد وحدها بلغ في سنة ٣١٩ ثمانمائة رجل ونيفاً وستين سوى من كان في خدمة السلطان .

وطبيب المسلمين غير مدافع في العصر ، كما يقول القفطى ، هو أبو بكر محمد^(٢) بن زكريا الرازي المتوفى حوالي سنة ٣٢٠ وُلد كما يتبين من اسمه بالري ، وسبق أن عرضنا له في حديثنا عن الزندقة وألمنا بكتابه « مخاريق الأنبياء » وقد بدأ حياته بدراسة العلوم الرياضية ، ثم اشتغل بالكيمياء والطب ، وعمل في بیمارستان موطنه وبیمارستانات بغداد وتنقل في مدن إيران وخراسان ، وألف باسم كثيرين من الأمراء وذوى الجاه طائفة من كتبه المهمة ، وترجم إلى اللاتينية كثير من كتبه الطبية وظل حجة الطب غير مدافع حتى القرن السابع عشر ، وما زال المستشرقون يُعَنِّون به وبآثاره حتى اليوم وقد نُشر في باريس سنة ١٩٣٣

(٢) انظر في ترجمته المراجع المذكورة في حديثنا عنه بين الزنادقة في الفصل السابق ، وراجع دى بورص ١٤٧ والدوميل ص ١٧١ - ١٧٨ .

(١) راجع سنان بن ثابت في فهرست ص ٣٩٤ ، ٤٣٥ ، والقفطى ص ١٩٠ وابن أبي أصيبعة ص ٣٠٠ والنجوم الزاهرة ٢٧٩ ، ١٩٣/٣ .

فهرس كتبه الذى ذكره البيرونى ومنه تبين أنه خلّف فى الطب ٥٦ كتاباً وفى الطبيعيات ٣٣ وفى الفلسفة ١٧ وفى الرياضيات ١٠ وفى الميتافيزيقا ٦ وفى المنطق ٨ وفى علم الكلام ١٤ وفى الكيمياء ٢٣ وأكبر كتبه فى الطب كتابه الحاوى ، وهو دائرة معارف طبية ضخمة ، وقد ترجمت منه أجزاء إلى اللاتينية ، واستخرج منه ماكس ما يرهوف ٣٣ ملاحظة إكلينيكية لها خطرهما . وبلى هذا الكتاب الطبى فى الأهمية كتابه المنصورى الذى أهده إلى الأمير السامانى بخراسان المنصور بن إسحق ، وهو كتاب نفيس ، تُرجم إلى اللاتينية مراراً فى العصور الوسطى وعصر النهضة . وتُرجم له أيضاً إلى اللاتينية مراراً كتابه فى الجُدَرى والحصبة ، وهو بحث طبي رائع فى الوبائيات ، وله ترجمات حديثة إلى الإنجليزية والفرنسية والألمانية . ولم يُعَنَ بالطب الجسمى وحده فقد عنى أيضاً بالطب النفسى ، إذ ألف كتاباً فى الطب الروحانى نشرته جامعة القاهرة ، وهو فيه يُكَبِّر من شأن العقل عارضاً النقاىص الخلقية التى تسبب الأمراض والعلل النفسية مبيّناً أن المصاب بها إذا حَكَم معياره العقلى موازناً بين نفعه وضرره تخلص من تلك العلل والأمراض وفارقه إلى غير مآب . وكان ينصح الأطباء أن يوهمو مرضاهم أنهم أصحاء وإن لم يثقوا بذلك لأن مزاج الجسم فى رأيه تابع لأخلاق النفس . وكان يهتم بالكيمياء معلناً أن الفيلسوف لا يكون فيلسوفاً حقاً إلا إذا تعلم صناعة الكيمياء ومهر فيها ، وله فيها كتب مختلفة كما قدمنا . وكان يؤمن بخمسة مبادئ قديمة تأثر فيها بفلاسفة اليونان مثل إنبادوقليس وأنكساجوراس وهى : الله تعالى والنفس الكلية والهوى الأولى والمكان المطلق والزمان المطلق ، وكان يؤمن بتقديم هذه المبادئ وأنه لا بد منها لوجود العالم .

وكان طبيعياً وقد نُقلت الفلسفة اليونانية إلى العربية أن تصبح للعرب بدورهم فلسفة ذات طوابع مستقلة ، ومر بنا أن ما تُرجم إليهم من تلك الفلسفة صُبغ بالصبغة الأفلاطونية الجديدة عن طريق تأثر السريان بها ، وكان ذلك سبباً فى أن تشوب فلسفتهم تلك النزعة . ولعل أول فيلسوف عربى بالمعنى الدقيق لكلمة فيلسوف نلتقى به فى هذا العصر هو الكندى^(١) يعقوب بن إسحق ، وهو عربى أصيل من

الإسلامية وبحسباً للشيخ مصطفى عبد الرازق
فى مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة لعام =

(١) انظر فى الكندى فهرست ص ٣٧١ والقفطى
ص ٣٦٦ وابن أبى أصيبعة ص ٢٨٥ ودائرة المعارف

قبيلة كندة ، ولذلك لُقب فيلسوف العرب ، نشأ بالبصرة ثم تركها إلى بغداد ويبدو أنه أكبَّ في نشأته على الاعتزال ، ولعل ذلك ماجعل نجمه يأفل فيما بعد حين أفل نجم المعتزلة لعهد المتوكل . ولا تُعرَفُ سنة وفاته ويبدو أنه عاش حتى أواخر العقد السادس من القرن الثالث . وله كتب ورسائل تعد بالعشرات بل بالمئات ، وهي تبلغ عند ابن النديم نحو مائتين وأربعين وعند القفطى نحو ما تتين وثلاثين وعند ابن أبي أصيبعة نحو مائتين وثمانين ، وتتناول العلوم الرياضية والهندسية والفلكية والجغرافية والطبيعية والمنطق والأخلاق والسياسة والكلام والجدل والطب . وقد تُرجم كثير منها إلى اللاتينية وأثّر في شعوبها تأثيراً عميقاً ، ويقول ألدوميللي إن كتابه في الهندسة أثّر تأثيراً ملحوظاً في روجر بيكون . وقد يفهم من بعض ما كتبه ابن أبي أصيبعة وغيره عنه أنه كان يترجم عن اليونانية والسريانية ويرى الباحثون أنه لم يكن يعرفهما ، إنما كان يُصْلَحُ ويصحح بعض ما تُرجم عنهما ، وله تهذيبات لكثير مما تُرجم ، وله أيضاً شروح وتعليقات . ويذكر ابن النديم وغيره أن له كتباً في التوحيد والعدل والاستطاعة أو حرية الإرادة ، مما قد يدل على اتجاهه الاعتزالي ، ومما يدل بقوة على هذا الاتجاه عنده إشادته بالعقل . وهو فيلسوف إسلامي بالمعنى الدقيق ، إذ له رسائل في إثبات النبوة والدفاع عنها دفاعاً قوياً ، وكان يذهب إلى أن العالم محدث مخالفًا بذلك أرسطو في زعمه أنه قديم ، وذهب إلى أن النفس بسيطة وأنها من نور الله ، وعنهما صدر عالم الأفلاك ، والنفس الإنسانية تفيض عن هذه النفس الكلية ، وهي تتصل بالحدس ، ولكنها تظل في جوهرها مستقلة عنه ، حتى إذا فارقت التذت لذة كبيرة ، وقال إن الكواكب لا تؤثر فيها ، لأنها إنما تؤثر في الأمور الطبيعية . وله بحوث فلسفية في الرياضة ، ولكنها دون بحوثه الطبيعية وفيما وراء الطبيعة . وربما كانت أهم نظرية فلسفية له طبع بها الفيلسوف الإسلامية هي نظريته في أن العقل مصدر المعارف وتقسيمه له إلى عقل فاعل هو الله ، وعقل

فؤاد الأهواني لمجموعة أخرى من رسائله ، وكتاب دور العرب في تكوين الفكر الأوربي لعبد الرحمن بدوي (طبع دار الآداب بيروت) .

= ١٩٣٣ ودي بورص ١٧٦ وألدوميل ص ١٤٩ ، ١٥٣ ومقدمة الدكتور محمد عبد الهادي أبي ريدة لرسائل الكنتي الفلسفية (طبع مطبعة الاعتماد بالقاهرة ، وكذلك مقدمة الدكتور أحمد

بالقوة يكمن في داخل الإنسان ، وعقل بالملكة هو العقل المنفعل بعد حصول المعقولات فيه ، وعقل مبين يؤدي للغير معقولاته . ومما قرره أن الحواس تُدرك الجزئيات والصور المادية في حين أن العقل يُدرك الكلّيات وما يتصل بها من الأنواع والأجناس . وذهب إلى تناهي الجسم والزمان والحركة من جهة الفعل لا من جهة القوة ، وهاجم الكيمياء هجوماً عنيفاً ، وأكبر الظن أنه إنما كان يقصد ضرباً خاصاً من الكيمياء شاع في عصره ، هو المتصل بالسحر والخرافة وكشف الأسرار .

وإذا كان العصر قد افتتح بفيلسوف هو الكندي فإنه اختتم أيضاً بفيلسوف له مكانة كبيرة في الفلسفة الإسلامية هو الفارابي ^(١) أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان المتوفى سنة ٣٣٩ ويقال إنه من أصل فارسي ، وأد في فاراب من بلاد الترك فيما وراء النهر . ويبدو أنه تلقن في نشأته ما كان في خراسان من علوم الأوائل وسرعان ما مضى يطلبها في بغداد ، وأكبّ على الرياضيات والطبيعيات والإنهيات واستوعب ذلك كله استيعاباً منقطع القرين ، وسرعان ما أخذ يوفق بينه وبين الدين الحنيف من جهة وبينه وبين العقل الذي أكبره الكندي من جهة أخرى ، واستطاع أن ينفذ من خلال ذلك إلى تشكيل الفلسفة الإسلامية في صورتها المبكرة ، بحيث عدّ فيلسوف المسامحين غير مدافع . وأعل أول ما يلاحظ على فلسفته أنها تعني بالإلهيات ، فهو لا يعني بالطبيعيات ، وهو يرغب عن فيثاغورس وأضرابه من الرياضيين . ويتضح إكباره العقل في اهتمامه بالمنطق وما يؤدي إليه من استنباطات كلية مما جعله يُعْنَى بشرح كتبه عند أرسطو وتفصيل مسائله من تصور وتصديق وقضايا وبراهين وأقيسة ومراتب ظنّ متفاوتة ، ويتعمق في بحث الكلّيات . وفي كل جانب من فلسفته الإلهية يتضح فكره العقلي المنطقي ، من ذلك ذهابه إلى أن كل موجود إما واجب الوجود وإما ممكن ، وبذلك جعل أول صفة لله هي أنه

بورص ١٩٢ ومقدمة ديتريشي لرسائله (طبعة لندن) ، وانظر مجموعة أخرى طبعت في حيدر آباد وظهر الإسلام لأحمد أمين (الطبعة الأولى) ٢ : ١٣١ .

(١) راجع في الفارابي الفهرست ص ٣٨٢ والقفطي ص ٢٧٧ وابن أبي أصيبعة ص ٦٠٣ ودائرة المعارف الإسلامية وبحثاً للمرحوم الشيخ مصطفى عبد الرزاق في الجزء السابع من مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ودي

الموجود الواجب الوجود في حين أن كل ما عداه ممكن الوجود أو بعبارة أخرى حادث فهو القديم وحده . وصلة هذه الفكرة بالدين الحنيف واضحة ، وهو عنده الموجود الأول الفرد بالذات ولاجنس له ولا تركيب فيه ولا يمكن حده ، إذ هو لا يتحيز في مكان ، وهو أكمل الموجودات ويجب أن تكون معرفتنا به أكمل معرفة . وإذا كانت معرفتنا بالرياضيات أكمل من معرفتنا بالطبيعيات للتعميم السارى في قضاياها وجب أن تكون معرفتنا به فوق معرفتنا بالرياضيات والطبيعيات جميعاً . وقيس من الفلسفة قيساً يمزجه بقبس آخر من التصوف لعصره ، فإذا هو يذهب إلى أن الله يفيض عنه منذ الأزل مثاله وهو العقل الأول الذى يحرك الفلك الأكبر ، وتلى هذا العقل عقول الأفلاك الثمانية ، وهى التى تصدر عنها الأجرام السماوية ، والعقول التسعة مجتمعة هى ملائكة السماء ومرتبهم في الوجود مرتبة ثانية ، وفي المرتبة الثالثة العقل الفعال في الإنسان وهو روح القدس الذى يصل العالم العلوى بالعالم السفلى . وفي المرتبة الرابعة النفس الكلية . ومنها روح العقل وتأثير أفراد الإنسان . وفي المرتبة الخامسة الصورة . وفي السادسة المادة . والدرجات الثلاث الأولى : الله وعقول الأفلاك والعقل الفعال ليست أجساماً ، أما الدرجات الأخرى فتلابس الأجسام . وواضح الأثر الإسلامى في هذا التفلسف ، فقد ذكر الله وهو العلة الأولى عند الفلاسفة وذكرت الملائكة وروح القدس مع محاولة وضع تفسير جديد لهما . وكان يذهب إلى أن النفس كمال الجسم ، أما كمال النفس فهو العقل . وبحث في السعادة مبحثاً تأثر فيه أيضاً بالتصوف تحدث فيه عن شروطها ودرجاتها ، وصرح في قوة بأن اللذات العقلية والروحية تفوق اللذات المادية الجسمية ، وأن السعادة لا تُطلب لغاية وراءها وإنما تُطلب لذاتها ، وأداتها في رأيه الأفعال والأخلاق الحميلة ، وهى لا تُدرك إلا إذا تحررت النفس الناطقة من أغلال المادة والشهوات . ويصرح في كتابه آراء أهل المدينة الفاضلة بأن الحاكم ينبغي أن يكون متحلياً بكل الفضائل الإسلامية والفلسفية متجنباً اللذات الجسمية ، إذ فيه تتمثل المدينة بخيرها وشرها ، فإذا كان خيراً فاضلاً كانت المدينة فاضلة ، وإذا كان شراً فاسقاً انهارت المدينة وفسد الحكم فيها فساداً شديداً . وهو يذكر النبوة كثيراً ، وهى عنده أعلى مرتبة يبلغها الإنسان في العلم والعمل ، وهو يضعها - كى يوضحها - في مرتبة وسطى بين الإدراك الحسى

والمعرفة العقلية الخاصة . ونحن إنما لمسنا السطح فقط لنصور فلسفة الفارابي ، وهي فلسفة إسلامية عقلية استمدت من روحانية الإسلام ومن نظريات العقل ومن أفكار الفلاسفة وخاصة أرسطو وأفلاطون مازجة بين هذه العناصر جميعاً ، مستخلصة منها فلسفتنا الإسلامية الوسيطة وأصولها السديدة .

٣

علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد والتاريخ

رأينا في كتاب العصر العباسي الأول مدى التنافس الذي نشب بين علماء البصرة والكوفة في جمع اللغة وكيف كانوا يرحلون إلى نجد والبوادي ومعهم قوافير المداد وأحمال الصحف ليدونوا كلمات اللغة من ينابيعها الأصلية . وقدمضى كثيرون من علماء البلدين وتلاميذهما ببغداد في هذا العصر يخرجون إلى البادية ونجد لمشاهدة الأعراب والسماع منهم لما يجري على ألسنتهم من أقوال وأشعار وأضافوا إلى ذلك ما سمعوه من أساتذتهم الأصمعي والمفضل الضبي وأبي زيد وأضرابهم . وأخذ تلاميذهم يحملون عنهم رواياتهم ، وسرعان ما تكون في هذا العصر السند ، إذ يقول العالم اللغوي مثل الأشناندي أبي عثمان سعيد بن هرون المتوفى سنة ٢٨٨ : عن التوزي أبي محمد عبد الله بن محمد بن هرون المتوفى سنة ٢٣٣ عن أبي نصر أحمد ابن حاتم الباهلي عن الأصمعي . ومعروف أن علم الأصمعي حمله مع أحمد بن حاتم جماعة منهم الأثرم أبو الحسن علي بن المغيرة المتوفى سنة ٢٣١ والزيادي أبو إسحق إبراهيم بن سفيان المتوفى سنة ٢٤٩ والرياشي العباس بن الفرج المتوفى سنة ٢٥٧ . وكل أولئك وأضرابهم من رواة اللغويين القدماء كانوا يعتمدون قبل كل شيء على الإملاء ، وكان تلاميذهم يحرصون عليه مخافة دخول غلط عليهم في قراءة النصوص . ومع ذلك كان منهم من يأخذ أحياناً عن الكتب ، وكانوا يميزونه من سواه ، خشية أن يكون قد صحف فيما قرأ ، واتسع التصحيح حتى ألف فيه العلماء كتباً مفردة . وجعلهم الاهتمام بالسند يتأثرون برجال الحديث في تجريح الرواة وتعديلهم ، وكان علماء البصرة في ذلك أشد تحرجاً من علماء الكوفة وبغداد ، وبالمثل تأثروا بهم في تلقيب بعض الروايات بألقاب الجودة والضعف ، ويؤثر عن ابن الأنباري

الكوفي المتوفى سنة ٣٢٨ قوله : « الكلمات قسمان : كلمات متواترة وآحاد ، فأما المتواترة فلغة القرآن وما تواتر من السنّة وكلام العرب ، وهذا قطعى يفيد العلم ، وأما الآحاد فما تفرّد بنقله بعض أهل اللغة ولم يوجد فيه شرط التواتر^(١) . وكانوا يجمعون فيما يُمْلُونَه أشتاتاً من بعض أقوال العرب وأشعارهم وأقاصيصهم ، ومما يصور ذلك مجالس ثعلب الكوفي المتوفى سنة ٢٩١ . وأحياناً كانوا يؤلفون الكتاب فى أقوال وأشعار وأمثال حيثما اتفق مثل مجالس ثعلب ، وأحياناً يجمعون كلمات فى موضوع واحد مثل كتاب المذكر والمؤث ليعقوب بن السكيت الكوفي المتوفى سنة ٢٤٣ وكتاب النخل وكتاب الطير لأبى حاتم سهل بن محمد بن عثمان السجستاني البصرى المتوفى سنة ٢٥٠ . وكان طبيعياً أن تظهر حينئذ معاجم تحصى كلمات اللغة إحصاء دقيقتاً دالة على معانيها ، ولم يلبث أن تداول الوراقون معجم العين المنسوب إلى الخليل حتى إذا كان ابن دريد محمد بن الحسن البصرى المتوفى سنة ٣٢١ وجدناه يؤلف معجمه اللغوى الكبير : الجمهرة فى اللغة ، وعلى الرغم من نقد القدماء له وقول نبطويه الكوفى معاصره المتوفى سنة ٣٢٨ إنه ليس أكثر من تحريف لمعجم العين للخليل يعدّ عملاً باهراً . ودفعتهم فكرة تعليم اللغة للناشئة إلى أن يجمعوا كثيراً من الألفاظ والعبارات الغربية فى طائفة من الموضوعات والمعانى ويؤلفوا فيها كتاباً مثل كتاب الألفاظ لابن السكيت ، وهو يحتوى كثيراً من أبيات الرجز المسرفة فى الغرابة ومن الألفاظ المهجورة ، وهو جانب يميز اللغويين الكوفيين إذ كانوا يكثرّون من رواية الغريب المهجور فى مصنفاتهم . وعُنُوا فى هذا العصر أشد العناية بجمع دواوين الشعر القديم جَمْعاً علمياً ، عماده التوثق والتحقيق ، وهو عمل يُعَدُّ متممًا لما نهض به فى العصر الماضى المفضل الضبى والأصمعى وابن الأعرابى ، وكانوا يضيفون إلى الدواوين غالباً شروحاً للتوضيح ، ويشتهر فى هذا المجال محمد بن حبيب البصرى و ثعلب الكوفى والسكرى أبو سعيد الحسن بن الحسين البصرى تلميذ الرياشى وأصغر تلاميذ الأصمعى المتوفى سنة ٢٧٥ وكان شديد الطموح ، فلم يكتف بجمع دواوين طائفة كبيرة من الشعراء ، بل مضى يجمع دواوين القبائل ، ويقال إنه جمع منها نيفاً وثمانين ، لم يُبْقِ الزمن منها إلا قطعاً من ديوان هذيل

نُشرت في خمس مجموعات أربع منها في أوربا وواحدة طُبعت في دار الكتب المصرية ، ودائماً نراه يذكر ما اختلف فيه أئمة البصريين والكوفيين في رواية أبيات وألفاظها المختلفة . و صنفوا كثيراً من المختارات الشعرية ، وكان مما صنفوه في العصر الماضي المعلقات والمفضليات والأصمعيات ، أما في هذا العصر فن أهم ما صنفوه من كتب الاختيارات جمهرة أشعار العرب لأبي زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي ، ولا تُعَلِّمُ سنة وفاته بالضبط ، ولكن الوسائط في مقدمته لكتابته بينه وبين علماء القرن الثاني جيلان أو ثلاثة مما يؤكد أنه عاش في أواخر القرن الثالث الهجري ، ومختاراته تضم تسعاً وأربعين قصيدة موزعة على سبعة أقسام ، في كل قسم سبع قصائد ، والقسم الأول خاص بالمعلقات ، وتغلب القصائد الجاهلية على المجموعة ، وتتميز بالقصائد الطويلة . ويُعَسِّى ابن الأنباري بشرح مفصل على المفضليات يسوق فيم الفروق بين الروايتين البصرية والكوفية لأبيات هذه المجموعة الكبيرة . وعُني حينئذ شاعران بعمل ديوانين للحماسة هما أبو تمام والبحترى ، وكان اللغويين جعلوا فكرة الاختيار من الشعر القديم والحديث تعم في جميع البيئات . وظهرت عندهم بقوة فكرة عمل مختارات من الشعر والنثر تُقَرَّرَ بهما من أفهام الشباب والناشئين عامة ، فصنع المبرد كتابه « الكامل » وبه مختارات كثيرة ذلَّلها ويسرَّها لشُداة الأدب واللغة . وكانما أحسنَ الجاحظ وابن قتيبة ، كما مر بنا ، أن غاية اللغويين من هذا التيسير والتذليل لا تزال أبعد من أن يحققوها ، لأن فكرة التعليم اللغوي من أجل اللغة قبل كل شيء لا تزال غالبية عليهم ، فألف الجاحظ البيان والتبيين ليدخل على هذه الفكرة الأفكار الجمالية والبلاغية ، وألف ابن قتيبة كتابه عيون الأخبار ليدخل بدوره عليها الأفكار الفارسية واليونانية ، مازجاً بينها مزجاً يثير رغبة الناشئة والشباب في قراءته ، وألف بجانبه مصنفه « أدب الكاتب » ليضرم في قلوبهم الحمية للفصحى وتنقية اللغة مما لا بسها أو يكاد يلا بسها من الشوائب الأعجمية والعامية . وألَّفت في العصر كتب كثيرة ^(١) تصوّر ما يلحن فيه العامة ، منها ما هو لأحمد بن حاتم الذي مر ذكره أو لأبي حاتم السجستاني أو للمازني أبي عثمان بكر بن محمد البصري المتوفى سنة ٢٤٩ أو للمفضل بن سلامة

(١) انظر كتاب الفهرست ص ٨٩ ،

الكوفي المتوفى سنة ٢٩٠ ونيف بقصد جذب الشباب والمتأدبين إلى دوائر الفصحى. وللغاية نفسها ألف ثعلب كتابه «الفصيح» جامعاً فيه كثيراً من الصياغات الفصيحة الناصعة، كما ألف عبد الرحمن بن عيسى الهمداني المتوفى سنة ٣٢٧^(١) مصنفه «الألفاظ الكتابية» وهى عقود نظم فيها درراً من الصياغات البليغة الزاخرة بحيوية دافقة: وعلى غرارها ما جمعه قدامة بن جعفر المتوفى سنة ٣٣٧ فى كتابه «جواهر الألفاظ» وبذلك بث اللغويون فى نفوس كثيرين مشاركتهم فى تحبيب العربية للناشئة والشباب المتأدبين بوسائل كثيرة. ومنها وسيلة لم نتحدث حتى الآن عنها، ونقصد ما حاوله بعض اللغويين من اتخاذ بعض القصص وسيلة تعليمية، إذ كانوا يقصون بعض حكايات عن الأعراب، مدججين فيها بعض ألفاظ غريبة كى يسهل على الناشئة حفظها، ومن اشتهر باتخاذ هذه الوسيلة التعليمية ابن دريد إذ ألف أربعين أقصوصة قصيرة - كان يسمى كلا منها حديثاً -^(٢) لغرض التعليم اللغوى وتبسيطه وتيسيره، وبذلك أوحى لبديع الزمان أن يؤلف فيما بعد مقاماته مبتغياً بها الوجهة التعليمية نفسها.

ومن يرجع إلى كتابنا «المدارس النحوية» يطلع فى وضوح على نشاط النحاة فى العصر، فقد كانت المدرستان البصرية والكوفية قائمتين، وأخذت المدرسة البغدادية طريقها إلى الظهور بأخرة من العصر. وإلى المدرسة البصرية يرجع الفضل فى إقامة صرح النحو العربى بكل ما يتصل به من قواعد، لافى هذا العصر بل فى العصر السابق له، وخاصة منذ الخليل بن أحمد، فهو الذى صاغه فى صورته العامة المعروفة بأبوابه وعوامله ومعمولاته وكل ما سند بناءه من سماع وتعليل وقياس قويم. وأتم سيويوه صنيعه فى مصنفه «الكتاب» الذى عدّه النحاة آية كبرى لا سابقة لها ولا لاحقة. وخلفه الأخفش الأوسط، ففسح للغات والقراءات الشاذة محتجاً لها ومدافعاً دفاعاً سديداً. وفى هذه الأثناء استطاع الكسائى وتلميذه الفراء أن يشيدا فى الكوفة مدرسة نحوية، تعتمد على صورة النحو البصرى العامة وتستقل بطابع تميزها، من حيث بسط القياس وقبضه ومن حيث الاتساع فى الرواية ومن

(١) راجع مقدمة الألفاظ الكتابية (طبعة (٢) زهر الآداب للحصرى ١/ ٣٠٧ بيروت سنة ١٨٨٥).

حيث وضع بعض المصطلحات الجديدة ، ومن حيث تلقيب بعض العوامل والمعمولات ، وعنى الفراء خاصة بإنكار بعض القراءات الشاذة .

وعلى هذه الشاكلة لا ينتهى العصر العباسى الأول ، حتى تكون المدرستان البصرية والكوفية تميزتا تميزاً تاماً ، وكان أهم الأئمة البصريين فى هذا العصر المازنى والمبرد ، أما المازنى فهو بكر^(١) بن محمد الملقب بأبى عثمان المتوفى كما مر آنفاً سنة ٢٤٩ وهو تلميذ الأخفش الأوسط ، وكان لساناً قوى الحجة ، وله مناظرات مأثورة مع ابن السكيت وغيره من الكوفيين أفرحهم فيها بأدلته القاطعة ، وعاش يلرس لطلابه وتلاميذه كتاب سيويه ، وله حوله تعليقات وشروح عدة ، منها تفاسير كتاب سيويه والديباج فى جوامعه ، وصنف فى علل النحو كتاباً ، وعنى بالتصريف عناية واسعة جعلته يخصه بكتاب التصريف ، ولابن جنى عليه شرح مبسوط سماه « المنصف » . وفى كتاب « المدارس النحوية » طائفة من آرائه فى النحو احتفظ بها النحاة فى مصنفاتهم ، وهو أول من أعطى علم التصريف صيغته النهائية فى كتابه السالف ذكره ، ويقول فى مطالعه بعد ذكره أمثلة الأسماء والأفعال المجردة والمزيدة : « إنما كتبت لك فى صدر هذا الكتاب هذه الأمثلة (الأبنية) لتعلم كيف مذاهب العرب فيما بنت من الأسماء والأفعال ، فإذا سئلت عن مسألة فانظر هل بنت العرب على مثالها ، فإن كانت بسنت فابن مثل ما بنت . . . وسأصنع لك من كل شيء من هذا الباب رسماً تقيس عليه ما كان مثله^(٢) » . وهو يعدّ أول من فتح بقوة باب التمارين غير العملية فى الصرف ، إذ نراه يبنى من ضرب على مثال جعفر أو على مثال سفرجل وما إلى ذلك من أبنية غير مستعملة فى اللغة^(٣) . وكان يتشدد فى الأخذ بالقياس ، مما جعله يردّ - على هدى الفراء - بعض القراءات التى تشذ على قواعد النحو ومقاييسه^(٤) . وأنبه تلاميذه المبرد محمد^(٥) ابن يزيد الأزدي إمام نحاة البصرة لزمه المتوفى سنة ٢٨٥ وهو آخر أئمتهم المهمين ،

(٤) المدارس النحوية (طبع دار المعارف)

ص ١١٩ .

(٥) راجع فى ترجمة المبرد تاريخ بغداد

٣٨٠ / ٣ وإنباه الرواة ٢٤١ / ٣ ومعجم

الأدباء ١١١ / ١٩ .

(١) انظر فى ترجمة المازنى تاريخ بغداد

٩٣ / ٧ ، وإنباه الرواة ٢٤٦ / ١ ومعجم

الأدباء ١٠٧ / ٧ .

(٢) راجع المنصف على التصريف ٩٥ / ١ .

(٣) انظر المنصف ١٧٣ / ١ وما بعدها .

وفيه يقول ابن جني : « كان يُعَدُّ جيلاً في العلم ، وإليه أفضت مقالات أصحابنا (البصريين) وهو الذي نقلها وحرَّرها وأجرى الفروع والعلل والمقاييس عليها ^(١) » وكان يشرح لتلاميذه كتاب سيبويه وكتب الأخفش والمازني وله مصنفات كثيرة ، منها كتاب الكامل في اللغة والأدب الذي أشرنا إليه فيما أسلفنا من حديث وكتاب المقتضب في النحو المطبوع في القاهرة بتحقيق محمد عبد الحلاق عزيمة ، وهو كتاب نفيس ، وطُبِعَ له كتابه « الفاضل » ونسب عدنان وقحطان ، وسقطت من يد الزمن مصنفات له كثيرة . وأهميته في تاريخ النحو البصري إنما ترجع - كما لاحظ ابن جني - إلى أنه حرَّرَ مسائل النحو البصري وقواعده ، وإلى أنه اشتق من أصوله فروعاً كثيرة ، وإلى أنه بسط فيه كثيراً من العلل والمقاييس التي لم يُسَبِّقَ إليها ، وقد نفذ إلى كثير من التعريفات والآراء المبتكرة في العوامل المحذوفة والمضمرة والمفوضة ، وبالمثل في المعمولات ومواقعها في الإعراب ، واستكثر من العلل كثرة مفرطة ، فكل رأى لا بد له من علة أو علل تسنده ، كما استكثر من القياس ، مع اعتداده بالسمع عن العرب ومع حس أدبي دقيق في التذوق اللغوي . وله تلاميذ كثيرون ، لعل أهمهم الزجاج لإبراهيم بن السري المتوفى سنة ٣١٠ وهو امتداد له في عنايته بكتاب سيبويه وفي تصنيفه لبعض الكتب النحوية وفي محاولته النفوذ إلى بعض الآراء المبتكرة مع العناية بالتعليل والقياس . ومن تلاميذه المهتمين ابن السراج أبو بكر محمد بن السري المتوفى سنة ٣١٦ وقد عكف على المنطق حتى أتقنه ، وعاش يقرأ لتلاميذه كتاب سيبويه وفي مقدمتهم السيرافي وأبو علي الفارسي ، وله كتاب الأصول عُنِيَ فيه عناية واسعة بعلل النحو ومقاييسه ، انتزعه من كتاب سيبويه ، وأثَّرَ دراسته للمنطق واضحة فيه وفي تقاسيمه .

وإذا تركنا المدرسة البصرية إلى المدرسة الكوفية وجدنا لها إماماً مشهوراً في هذا العصر هو ثعلب ^(٢) أبو العباس أحمد بن يحيى المتوفى سنة ٢٩١ وقد قرأ على شاذل الكسائي والفراء كتاب سيبويه وكتب الأخفش ، وأضاف إلى ذلك زاداً كبيراً حصَّله من الشعر القديم ودواوينه ومن القراءات والحديث النبوي . وذكر

(١) سر صناعة الإعراب لابن جني ١/ ١٣٠ . وإنباه الرواة ١/ ١٣٨ ومعجم الأدباء

١٠٢/٥

(٢) انظر في ثعلب تاريخ بغداد ٥/ ٢٠٤

مترجموه له مصنفات كثيرة في النحو واللغة والقراءات والأمثال والمنتخبات الشعرية والنثرية ، وقد وصلنا منها « الفصيح » الذي عرض له في غير هذا الموضع والذي ابتغى به تقويم ألسنة المبتدئين. وطُبع له كتابه « المجالس » وهو إملاءات لختارات شعرية ونثرية تكتظ بالنحو والأشعار الغربية والشاذة والقراءات والأمثال والأخبار والأقوال المنشورة . وصنَّع طائفة كبيرة من الدواوين القديمة . ومن يرجع إلى كتابه المجالس وما تناثر في كتب النحاة له من آراء يحده يطبق تطبيقاً دقيقاً آراء أستاذه الفراء وأستاذيهما جميعاً الكسائي وكل ما أصلاه لمدرستهما الكوفية من أصول في النحو ومن مصطلحات وألقاب جديدة وما كانا يأخذان به أنفسهما من التوسع في الرواية عن العرب والاعتداد بالشواذ اللغوية . وله كتاب مطبوع يسمى قواعد الشعر ، وسنعرض له في حديثنا عن البلاغة والنقد . وله — مثل المبرد منافسه — تلاميذ كثيرون ، لعل أهمهم أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري المتوفى — كما مر بنا — سنة ٣٢٨ ، وتضاف إليه مصنفات كثيرة في غريب الحديث وعلوم القرآن وفي اللغة وكتابه الأضداد فيها مطبوع وأيضاً في النحو . وعنى مثل أستاذه بإخراج الدواوين الشعرية القديمة ، وسبق أن تحدثنا عن شرحه للمفضليات ، وهو مليء بمعارفه الواسعة في اللغة والأشعار والأخبار . وكان — فيما يظهر — مثقفاً ثقافة منطقية ، فدعم النحو الكوفي بكثير من العلل السديدة .

وتنشأ بأخرة من العصر المدرسة البغدادية متميزة بمنهجها القائم على الانتخاب من آراء المدرستين البصرية والكوفية مع النفوذ إلى كثير من الآراء المبكرة ، وقد تداولها جيلان : جيل مبكر كانت تغلب عليه النزعة الكوفية من أمثال ابن كيسان ، وجيل تال كانت تغلب عليه النزعة البصرية من أمثال الزجاجي . ولكي تتضح المدرسة وهاتان النزعتان نقف قليلاً عند ابن كيسان والزجاجي . أما ابن كيسان^(١) فهو أبو الحسن محمد بن أحمد بن كيسان المتوفى سنة ٢٩٩ وهو تلميذ ثعلب والمبرد ، وأهله ذلك لكي ينتخب من آرائهما آراءه النحوية ، ولم يكتف بذلك فقد حاول النفوذ إلى بعض الآراء الجديدة ، وكان في أول أمره كوفياً ، فعنى ببسط

العلل لآراء الأئمة الكوفيين ، تُسَعِّفه في ذلك ثقافة منطقية عميقة ، وجعله ذلك يصطبغ بصبغة كوفية ، حتى بعد استقلاله عن تلك المدرسة ، وقد أُلِّفَ فيها وفي المدرسة البصرية كتابه « اختلاف البصريين والكوفيين » وإياه وراءه كتب في النحو والتصريف ، وكتاب مهم في علل النحو قال القدماء إنه كان يقع في ثلاثة مجلدات ، وأعله هو الذي عرض فيه احتجاجاته لآراء المدرسة الكوفية . ويعرض كتاب المدارس النحوية ما اختاره من آراء المدرسة البصرية وكذلك من آراء المدرسة الكوفية ، ثم ما نفذ إليه من آراء اجتهادية انفرد بها من دون غيره من أئمة المدرستين . وهو بذلك مثل دقيق من أمثلة المدرسة البغدادية التي كانت تمزج بين آراء المدرستين السالفتين وتحاول أن تتخذ لنفسها آراء جديدة فريدة . والزجاجي^(١) هو أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحق المتوفى سنة ٣٣٧ تلميذ الزجاج البصري ، وإياه مصنفات كثيرة ، طُبِعَ منها كتاب الحمل وهو مختصر في النحو كانت له شهرة مدوية في العصور الوسطى وشرح شروحا لا تكاد تحصى ، وطُبِعَ أيضاً له أماليه الوسطى مع تعليقات للشنقيطي ، ومجالس العلماء وهي مناظرات بينهم في مسائل لغوية ونحوية ، وكتاب الإيضاح في علل النحو ، وقد عرض فيه علل النحو عند البصريين والكوفيين ملاحظاً أن ابن كيسان وأضرابه من الجيل البغدادى الأول هم الذين وضعوا للنحو الكوفي أكثر علله واحتجاجاته ، وقد يضيف من عنده وجوهاً من العلل ، يدعم بها العلل الكوفية والبصرية جميعاً . وهو بالمثل في النحو ينتخب من آراء الطرفين ويضيف آراء جديدة ، وإذا كان ابن كيسان تتضح عنده نزعة كوفية فالزجاجي على العكس تتضح عنده نزعة بصرية ، إذ كثيراً ما يقف مع البصريين مناضلاً مدافعاً ، وكأنه كان إرهاباً لغلبة النزعة البصرية على النزعة الكوفية في المدرسة البغدادية ، على نحو ما سيتضح فيما بعد عند أبي على الفارسي وابن جني .

ونشطت في العصر الأنظار البلاغية ، وفي كتابنا « البلاغة تطور وتاريخ » ما يصور مراحل نشأتها في العصر العباسي الأول ونموها في هذا العصر ، فقد مضى كثيرون من الكتّاب مثل ابن المقفع ومن الشعراء مثل بشار يبدون بعض

ملاحظات بلاغية على ما يُكسِبُ الكلام حسناً وجمالاً حتى إذا ظهر مسلم بن الوليد اتخذ ما اكتشفه الأدباء من محسنات مذهبياً وأطلق عليه لأول مرة اسم البديع ، وكان يشمل وجوه حُسْنٍ بيانية وبديعية ، وأخذ اللغويون من أمثال الأصمعي وأبي عبيدة في هذه الأثناء يبدون بعض ملاحظات على وجوه الحسن في الكلام ، وألف الأصمعي كتاباً في التجنيس وسجل بعض ألوان هنا وهناك مثل الطباق والالتفات ، في حين عُنِيَ أبو عبيدة معاصره - وخاصة في كتابه « مجاز القرآن - ببيان بعض الخصائص البلاغية مثل التقديم والتأخير والتشبيه والكناية والاستعارة . وأخذ المتكلمون - وخاصة المعتزلة - يعنون بالبحث في وجوه البلاغة ، وجعلهم ذلك يحاولون التعرف على ما عند الأمم الأجنبية منها وأضافوا إليه كثيراً من ملاحظاتهم . ومضى اللغويون والأدباء طوال القرن الثالث للهجرة يحاولون التعرف على مواطن الجمال والبلاغة في الكلام ، ونثر ابن قتيبة في كتابه : « تأويل مشكل القرآن » ملاحظات متنوعة عن الخصائص البيانية والأسلوبية ، على حين ألم المبرد في كتابه « الكامل » بالكناية والتشبيه ، وفصّل القول فيهما تفصيلاً جيداً ، وانسابت من ذلك كله مسارب إلى كتاب قواعد الشعر لثعلب . غير أن هذه الجهود كلها ليست شيئاً بالقياس إلى ما نثره الجاحظ المعتزلي المتكلم المتوفى سنة ٢٥٥ في كتابه « البيان والتبيين » و « الحيوان » وهو يتحدث طويلاً عن فكرة مطابقة الكلام لمقتضى الحال التي شاعت فيما بعد عند البلاغيين ، ويتسع في الحديث عن الإيجاز والإطناب ومواضعهما وعن أصوات الكلام وموسيقاه ومواقع الألفاظ ومواضعها التي لا تعدوها وعن السجع والازدواج والاقتباس ، وحلل الاستعارة بأقسامها المختلفة تحليلاً بديعاً ، وألم بالتشبيه وبكثير من فنون البديع واستنبط فناً جديداً منها هو المذهب الكلامي . وبذلك كان يُعَدُّ المؤسس الحقيقي لمباحث البلاغة العربية .

وأخذت تتضح منذ مطالع العصر بينات ^(١) ثلاث تتناول كل منها البلاغة تناولاً متميزاً ، وهي بيئة اللغويين المحافظين وبيئة المتفلسفين والمترجمين المحددين وبيئة المعتزلة المعتدلين ، أما البيئة الأولى فكانت تحاول بكل ما استطاعت

(١) انظر في هذه البيئات كتاب البلاغة وما بعدها .

أن تفرض المثال العربى القديم ، فهو النموذج الذى يحسن أن يحاكى ، وكل ما سواه غثٌ سقيم ، وأخذت تتجه إلى ملاحظات نحوية ولغوية مدرسية على نحو ما يتضح فى كتاب الموشح للمرزابانى . وأما البيئة الثانية بيئة المتفلسفة والمترجمين فكانت مجددة مسرفة فى التجديد، إذ رأت من الواجب أن تتخذ الفلسفة اليونانية ومعايير اليونان البلاغية أصولاً فى تقويم البلاغة العربية ، مما جعل البيئة اللغوية تعلن النكير عليها وكان يقف معها أصحاب البلاغة العربية الخالصة وكانوا أكثر نفعاً وأنصاراً لما قلناه فى غير هذا الموضع من أنه سادت فى العصر نزعة محافظة غلبت فيه على كل شئ . وكان طبيعياً أن تغلب على الذوق الأدبى العام . وكان المتكلمون — وفى مقدمتهم المعتزلة — يقفون موقفاً معتدلاً بين الطرفين المتعارضين ، إذ يقرعون ما لدى الأجانب من مقاييس بلاغية ويقرنونها إلى أنظار العرب فى البلاغة ، بل إنهم يُخضعونه للذوق العربى الأصيل ومقاييسه على نحو ما يتضح عند الجاحظ فى كتابه البيان والتبيين ، وبذلك التحموا بالبيئة اللغوية المحافظة . وكان حرياً بالمتفلسفين ورفقائهم من المترجمين أن يثوبوا إلى رشدهم وينضموا إلى المتكلمين فى موقفهم السديد ، ولكن المسألة لم تكن مسألة عقلية أو منطقية يُحْتَكَمُ فيها إلى المنطق والعقل ، بل كانت مسألة شعوبية ، فهى التى أمدتهم فى هذا الموقف بوقود جزل من الخصام والجدال والحجاج ، وكانوا لا يزالون يدعون أن كل ما شُغِف به الشعراء لهذا العصر من محسنات بيانية وبديعية إنما مرده إلى البلاغة اليونانية ، ولذلك تصدى لهم ابن المعتز فى كتابه « البديع » يُشَبِّت أن فنونه التى يلهجون بها فنون عربية خالصة، إذ تتعمق فى القدم حتى العصر الجاهلى، وكل ما للمحدثين من أمثال بشار وأبى تمام إنما هو الإكثار منها، وهو إكثار جعلهم — كما يقول — يحسنون فيها تارة، وتارة يسيئون إساءة شديدة . ومضى فى الكتاب يدرس فنونه الأساسية ، وهى عنده خمسة ، الاستعارة والتجنيس والطباق ورد الأعجاز على ما تقدمها والمذهب الكلامى ، وإنما خص هذه الفنون بالدراسة لأنها كانت موضع الأخذ والرد بين أصحاب الفلسفة وأصحاب البلاغة العربية الخالصة . على أنه لم يلبث أن ضم إليها ثلاثة عشر فناً بسطها بسطاً ، وهى الاتفات والاعتراض والرجوع والخروج من معنى إلى معنى وتأكيده المدح بما يشبه الذم وتجاهل العارف والهزل يراد به الجلد وحسن التضمين والتعريض

والكناية والإفراط في الصفة أو المبالغة وإعانات الشاعر نفسه في القوافي أو ما سُمي فيما بعد باسم لزوم ما لا يلزم وحسن الابتداءات. ويمكن أن نضم إلى هذا المبحث الفصل في البديع وفنونه مبحثاً لابن طباطبا المتوفى سنة ٣٢٢ في كتابه « عيار الشعر » جعل موضوعه التشبيه ، مفصلاً القول في أنواعه تفصيلاً دقيقاً .

ولم تقف البيئة الفلسفية مكتوفة الأيدي أمام ابن المعتز وكتابه البديع ، فقد تجرّد منهم كثيرون لنقل كتابي الشعر والخطابة لأرسطو ، واشتهر نَقْلُ مَتْنِ بن يونس لأوطما ونَقْلُ إسحق بن حنين لثانيهما . ولم يلبث قدامة المتوفى سنة ٣٣٧ الذي اشتهر حينئذ بثقافته الفلسفية أن حاول صنع تشريع لبلاغة الشعر العربي مستضيئاً من حين إلى حين بما كتبه أرسطو في كتابه الشعر ، وسمّى صنيعه « نقد الشعر » . وإن نعرض الآن لما في الكتاب من نقد فسنعرض له عما قليل ، إنما نعرض لما فيه من حديث عن المحسنات البديعية ، وقد حاول جاهداً أن يبدّل ويعدل في بعض المصطلحات التي وضعها ابن المعتز معارضة له ، وكأنه إنما ألّف كتابه محادّة لكتاب البديع ، واستطاع أن يضيف إلى محسنات ابن المعتز الثمانية عشر ثلاثة عشر محسنًا جديداً أهمها الترصيع والغلو وصحة التقسيم وصحة المقابلات وصحة التفسير والتتيميم والمبالغة والإشارة والإرداف والتمثيل . وبعضها يتداخل مع محسنات ابن المعتز . وكتاب ثان أنتجته بيئة المتفلسفة هو كتاب البرهان في وجوه البيان لإسحق ابن سليمان بن وهب ، وكان معاصراً لقدامة ، ويتضح فيه أنه يريد أن يخضع البلاغة العربية للبلاغة اليونانية وما كتبه فيها أرسطو عن الشعر والخطابة بأقوى مما حاول قدامة ، حتى لنراه يضيف إلى انتفاعه بكتابي أرسطو السالفين كتابيه في المنطق والجدل ، مازجاً ذلك بمباحث المتكلمين وفقهاء الشيعة ، وكأنما تستعجم البلاغة عنده ، وقد حاول أن يطبق بعض ما ذكره أرسطو من وجوه البلاغة ، ولكنه فاته في كثير من الأحوال أن يُحسّن هذا التطبيق ، واقترح بعض ألقاب ومصطلحات جديدة لم يكتب لها الذبوع كما كُتِبَ لنظائرها عند قدامة وابن المعتز ، ويبدو أن أصحاب البلاغة العربية التالين ضاقوا به وبكتابه ، فلم يذكروه ولم ينقلوا عنه . وكان ذلك سبباً فيما بعد ، لأن ينصرف الناس عن هذه البلاغة الأعجمية وأذواق أصحابها المتفلسفين ، وأن يستميلهم المتكلمون المعتدلون ببحوثهم البلاغية ،

حتى ليسيطروا ويبحثهم على العصور والأجيال التالية .

وإذا كانت البلاغة خطت خطوات واسعة في سبيل تحولها إلى علم في هذا العصر فكذلك النقد خطا بدوره خطوات كثيرة نحو تقنين مسأله ، ولا بد من ملاحظتين قبل الحديث فيه ، أولاهما أن أكثر الكتب التي عرضنا لها في البلاغة عرضت له ، وثانيتهما أن البيئات اللغوية والاعتزالية والفاسفية التي تحدثنا عنها في البلاغة هي نفسها التي حاولت أن تشرع النقد وأن تضع له معايير ومقاييسه . وأولى هذه البيئات البيئة اللغوية المحافظة ، وقد هاجم الجاحظ ذوقها في غير موضع من كتاباته^(١) ، وأعله كان يأخذ عليها اهتمامها بالغريب في الأشعار ونسيانها أو إهمالها جوانب الجمال والبلاغة فيها ، مما جعله يؤلف كتابه «البيان والتبيين» على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضع . ومن المحقق أن روحها كانت محافظة ، ولكن من المحقق أيضاً أنها هي التي نقدت الشعر القديم لأول العهد به ، وهي التي ميزت وثيقه من منحوه ، مع كثير من الأحكام والفتات النقدية الجديدة ، وأعل كتاب طبقات فحول الشعراء لابن سلام المتوفى سنة ٢٣١ خيره ما يصور عمل هذه البيئة المحافظة حتى عصره ، ونراه يعرض فيه قضية الانتحال في الشعر القديم عرضاً علمياً رائعاً ، موضعاً عبث القبائل والرواة المختلفين به ومدى ما دخله من فساد ، ثم تقدم يضع الشعراء في طبقات حسب جودتهم الفنية ، راوياً لكل منهم كثيراً مما صححته البصرة له وخاصة في العصر الجاهلي . ونمضي إلى العصر العباسي الثاني فنلتقي بشعرب وكتابه «قواعد الشعر» وهو كتيب مدرسي جاف وزع فيه الشعر توزيعاً نحوياً على أربعة أنواع : أمر ونهى وخبر واستخبار ، وتحدث عما تجرى فيه من أغراض الشعر ومن التشبيه ، وعرض لبعض ملاحظات نقدية سطحية ، وليس في الكتاب نظرية نقدية ، إنما هي لمحات سريعة ، وقد سمي الطباقي الأضداد وسمى الجناس المطابق ، وتابعه في التسمية الأخيرة قدامة . والكتاب لا يضيف إلى النقد العربي شيئاً ذا قيمة يمكن الوقوف عنده . وفي الحق أن البيئة اللغوية أخذت تتخلف في مجال النقد ، على نحو ما تخلفت في مجال الدراسات البلاغية ، إذ لم يعد يلقانا فيها سوى ملاحظات طائفة كأن نجد عند المبرد في كتابه «الكامل» كلمة هنا أو هناك

عن صحة المعنى أو جزالة اللفظ أو رداءته أو عوار الفكرة أو استغلاقتها أو ضرورة الشعر والموسيقى ، وشركه في مثل هذه الملاحظات كثير من اللغويين بحيث نراهم يخصصون كتباً في أخطاء الشعراء مثل كتاب أخطاء أبي تمام في الألفاظ والمعاني لأحمد بن عبيد الله بن عمار المتوفى سنة ٣١٩ .

وإذا كانت البيئة اللغوية لم تستطع أن تتطور مع روح العصر في نقدها ، بل ظلت به عند نقد لغوى جاف لا يكون نظرية ولا ما يشبه نظرية فإن بيئة المعتزلة استطاعت أن تتمثل في نقدها روح العصر مع المحافظة على روح العربية والتقاليد الموروثة ، ومراً بنا في الحديث عن البلاغة أنها كانت توازن بين معايير البلاغة اليونانية ومعاييرها العربية وأنها لم تحاول أن تعلّى الأولى على الثانية ، إنما حاولت أن تفيد منها بدون أن تطغى على الفكر العربى وبيانه وبلاغته . ويمكن أن يلاحظ ذلك بوضوح عند بشر بن المعتمر المعتزلى المشهور وقرينه أو معاصره الجاحظ ، أما بشر فنراه في الصحيفة التى دونها له الجاحظ في البيان ^(١) يدعو إلى الملاءمة بين الكلام وأحوال السامعين ونفسياتهم ، وهى فكرة مطابقة الكلام لمقتضى الحال التى كانت شائعة عند اليونان في أحاديثهم عن البلاغة والنقد ، كما يدعو إلى البعد عن التكلف واستكراه المعانى والألفاظ وتجنب الغريب المتوعر فى الألفاظ والتراكيب ، وينفذ إلى فكرة طريفة هى أن شرف المعنى لا يرجع إلى أنه من معانى الخاصة أو من معانى العامة ، فكل ^٢ فى موضعه شريف ، ومدار الشرف على الملاءمة بين الكلام ومقامه ، ويدعو فى قوة إلى تبسيط الأسلوب وجعله فى لغة وسطى بين لغة البلو الجافة الخشنة وبين لغة العامة المسففة المبتذلة . ويخلفه الجاحظ ، وتستعر نار المتفلسفة والشعوبية جميعاً ، فينادى بأن مدار الجمال فى القرآن الكريم إنما يعود إلى نظامه الذى تنقطع الرقاب دون محاكاته ، ويمد ^٣ فى قوة ملاحظة يشر عن اللغة الوسطى ، حتى يتلاءم مع الحدائث ومع روح العصر ، فالألفاظ يجب ألا تكون ساقطة عامية ولا غريبة وحشية ، ويجب أن يلائم الخطيب بين كلامه والسامعين فلا يورد خطيب على الجماهير اصطلاحات المتكلمين ، ولا إيجاز موضع وللإطناب موضع

(١) البيان والتبيين ١ / ١٣٥ وانظر البلاغة تطور وتاريخ ص ٤٣ .

لا في الألفاظ وحدها، بل أيضاً في الأساليب، ويلاحظ أن الأديب شاعراً أو نائراً معجّنه اللغوى الخاص، وهى ملاحظة دقيقة، وعرض طويلاً للفظ وفصاحته وجزالته ورقته وتناسبه مع ما قبله وما بعده في الكلام حتى الكأن واشجّة من الرحم تربط بينه وبين الأسرة اللفظية التى يسلك فيها. وأنكر الترادف ذاهباً إلى أن لكل لفظة معناها الخاص الذى يفتقر قليلاً أو كثيراً عن معنى أو معانى مرادفها، وعاب مراراً التكلف وفرق بينه وبين التنقيح. وجعله إعجابه باللفظ المونق يشيد به مضائلاً من المعانى وقيمتها، وكأنما كان يريد أن يسقط إلى الأبد ما تقواه الشعوبية عن كثرة المعانى في الآداب الأعجمية؛ وكذلك ما تقواه البيئة المتفاسفة عن المعانى الفلسفية اليونانية، إذ هى تحمل أفكاراً صحيحة، ولكن ينقصها جمال الصياغة وحسن السبك والرصف والنظم. ومع إعجابه بالشعر العربى القديم كان يعجب بالشعر الحديث، حتى ليفضل أبا نواس على كل من سبقه من الشعراء^(١). وهو معنى ما نقول من اعتدال المعتزلة وأنهم كانوا يوازنون بين القديم والحديث وبين معايير النقد العربى واليونانى ملائمين بين ذلك كله نافذين إلى نقد عربى عباسى حديث.

وأفاد ابن قتيبة من نظرات الجاحظ النقدية إفادة واسعة، مع أنه لم يكن من المعتزلة بل كان من أهل السنة، ولكنه اشترك معه كما مرّ بنا في غير هذا الموضع في الرد العنيف على الشعوبية، ونراه يكتب مقدمة طويلة اكتابه الشعر والشعراء يضمونها كثيراً من آرائه النقدية، وتارة يوافق الجاحظ في بعض آرائه وتارة يخالفه، فما وافقه فيه رفض معيار القدم والحداثة في الحكم على الشعراء فلا يُسنطَرُ إلى متقدم بعين الجلالة ولا إلى متأخر بعين الاحتقار، بل يوزن كل منهما بموازين الجودة الفنية الدقيقة. ووافقه في فكرة الطبع والتكلف، واستعار قبساً من فكرته عن المطابقة بين الكلام وأحوال النفس استضاء به في بيان الدوافع النفسية التى تبعث على قول الشعر كالطمع والغضب والشوق والطرب، كما استعار قبساً من فكرة

مصراعيه للنقاد، وقد أخذوا في أواخر هذا العصر يخصون بعض الشعراء بمباحث مستقلة فيها مثل كتاب سرقات أبى نواس ليموت ابن الزرع المتوفى سنة ٣٣٤ وسرقات البحتري لأحمد بن أبى طاهر المتوفى سنة ٣٨٥.

(١) الحيوان ٢/ ٢٧ وانظر في تحليلنا لآرائه كتاب البلاغة: تطور وتاريخ ص ٤٦ وما بعدها وكتابنا «النقد» (طبع دار المعارف) وقد أشرنا فيه إلى حديثه عن السرقات، وهو أول من فتح بابها على

بشر بن المعتز عن الأديب ألا يُقبل على عمله إلا إذا كان مستعداً له استعداداً كاملاً ، فتحدث عن العلاقة بين الشاعر والأوقات التي يستحب فيها نظم الشعر . وخالف الجاحظ في قصر الجمال الفني على اللفظ فجعله شركة بينه وبين المعنى ، فقد يحسن اللفظ والمعنى معاً وقد يقبحان معاً ، وقد يحسن أحدهما ويقبح الآخر . وكل ذلك كان يبشر بأن ابن قتيبة لن يتردد إلى الوراء وخاصة أنه سَوَّى بين القدم والحدثة في الشعر ولكنه عاد فطلب إلى الشاعر ألا يحيد عن منهج المتقدمين في نظام القصيدة . وملتقى في أواخر العصر بناقد يتأثر بالجاحظ في كثير من آرائه النقدية ، كما يتأثر بابن قتيبة في رده الجمال الفني إلى اللفظ والمعنى معاً ، وهو ابن طباطبا صاحب عيار الشعر ، ونراه في مواضع من كتابه يشير إلى تماسك المعاني وارتباط أول الكلام بما يليه ، ويشدد في وحدة السياق وأن تتواصل أبيات القصيدة حتى تغدو بناءً محكمًا بل حتى تغدو كأنها جسد واحد لا يمكن وضع عضو فيه مكان عضو آخر ، وكأنما أحس ما يردده النقاد في هذا العصر من فكرة الوحدة العضوية في القصيدة بحيث يطرد فيها التناقض والاتحام حتى تصبح كلا واحداً ، بل حتى كأنها لفظة واحدة ومعنى واحد^(١) .

ولم نتحدث حتى الآن عن البيئة الثالثة بيئة المتفلسفة في النقد ، وأعل خبر من يمثلها قدامة في كتابه «نقد الشعر» وهو في مطالعه يصرح ولا يجمع بأنه إنما سيعنى بعلم جسد الشعر ورديته وأن أحداً لم يسبقه إلى وضع هذا العلم في العربية . ويجعل الكتاب في ثلاثة فصول ، يخصص أولها بتعريف الشعر وبيان أجزائه ، والثاني بنعوت الحدود في الشعر ، والثالث بنعوت الرداءة . ويقف عند تعريف الشعر وقفة منطقية يستمد فيها بوضوح من منطق أرسطو وما ذكره عن الحدود والتعريفات وأجزائها ، ويبدو هنا أنه لم يفهم نظرية أرسطو في المحاكاة وأن المعول في الشعر عليها لا على الوزن ، وجاءه ذلك من سوء الترجمة لكتاب الشعر عند متى بن يونس فإن كثيراً من معاني الكتاب في الأصل طُمست طمساً ، وهو ما جعل قدامة يضطرب في الإفادة منه على صور شتى . وأجزاء الشعر عند قدامة اللفظ والمعنى والوزن والقافية ،

(١) راجع في تحليل عيار الشعر كتاب
البلاغة تطور وتاريخ ص ١٢٣ .

ويقول إن نعوت الجودة تتصل بكل منها مفردة ومركبة ، ونراه يتأثر في هذا الفصل بنظرية الحدود الوسطى التي شُغف بها أرسطو في حديثه عن الأخلاق ، ويفيض في الفصل الثاني في الحديث عن نعوت الجودة ، ويعرض لأغراض الشعر ، ويحاول متأثراً بطريقة أرسطو أن يضع لها قواعد كلية عامة ، وهو في هذه القواعد يستمد كثيراً من كتابي الخطابة والشعر لأرسطو ، وكأنه يريد بكل ما يستطيع من قوة أن يخضع البلاغة العربية للبلاغة اليونانية ، وخانه التوفيق في كثير من الأحيان ، ولولا ما أضافه إلى ابن المعتز من بعض فنون البديع لتناسى النقاد التالون كتابه ولم يلتفتوا إليه أي التفات (١) .

ولا بد أن نلاحظ بصفة عامة أن الذوق الذي كان مسيطرًا على النقد والشعر جميعاً كان ذوقاً محافظاً ، وكان طبيعياً أن يُرفض نقد الميتافلسفة المفرطين في التجديد. وكان من المنتظر للغويين الذين يمثلون بدقة النزعة المحافظة أن يسيطروا على الحركة النقدية ولكنهم لم يستطيعوا لسبب مهم ، وهو أنهم لم ينفذوا إلى وضع نظرية أو أصول من شأنها أن تشيع ، ولذلك سيطر المتكلمون الذين استطاعوا أن يضعوا للنقد أصولاً ورسوماً واضحة ، وساعد على سيطرتهم أنهم لم يكونوا يرفضون القديم بل كانوا يوازنون بينه وبين روح العصر كما أسلفنا ، وبذلك ظلوا يحافظون للشعر على تقاليده الموروثة .

ونشطت في العصر الكتابات التاريخية نشاطاً عظيماً فن كتابة في تاريخ السيرة النبوية إلى كتابة في الأحداث الإسلامية والأمم والدول ، وكتابة في المدن ، وكتابة في التراجم والطبقات ، ومرّ بنا في كتاب العصر العباسي الأول أن ممن عنوا بالسيرة النبوية حينذاك ابن إسحاق وراوى سيرته ابن هشام والواقدي ومحمد بن سعد في كتابه الطبقات وكذلك المدائني أبو الحسن علي بن محمد المتوفى سنة ٢٣٤ ، وله كتب ورسائل كثيرة في السيرة النبوية وفي تاريخ القبائل والخلفاء بلغت عند ابن النديم نحو ٢٣٠ مصنفًا . ومن أهم المؤرخين للسيرة النبوية في العصر أبو زرعة (٢) عبد الرحمن بن عمرو الحافظ شيخ الشام في وقته المتوفى سنة ٢٨٢ ، وفي مكتبة

(٢) انظر في أبي زرعة تاريخ دمشق لابن

عساكر ٧ / ٢٧٤ والنجوم الزاهرة ٣ / ٨٧ .

(١) انظر في تحليل نقد الشعر كتاب

البلاغة تطور وتاريخ ص ٧٨ .

الفتاح بإستانبول مخطوطة من هذه السيرة . وكتب كثيرون في الأحداث الإسلامية وفي تاريخ الأمم والدول منهم يعقوبى الذى مر ذكره بين الجغرافيين وتاريخه فى ثلاثة أجزاء طُبِعَ بأوربا وبالنجف فى العراق ، ومنهم البلاذرى ^(١) أحمد بن يحيى بن جابر المتوفى سنة ٢٧٩ ، وله كتاب فتوح البلدان المعروف نشره دى خويه بليدن فى القرن الماضى ونشر بالقاهرة مراراً ، وله كتاب أنساب الأشراف فى التراجم والتاريخ طُبِعَت منه بعض أجزاء وبعض قطع ويعاد نشره كاملاً فى دار المعارف بالقاهرة . وكان يعاصره أبو حنيفة ^(٢) الدينورى المتوفى سنة ٢٨٢ صاحب كتاب الأخبار الطوال المنشور أولاً بليدن ، ثم بعد ذلك فى القاهرة ، وزراه يستهله بالحديث عن تاريخ الإسكندر والفرس ودولتهم الساسانية ، ثم يتحدث عن فتوح العراق وحروب صفين وتاريخ الأمويين وما كان فيه من مقتل الحسين وأحداث المختار بن أبى عبيد ، ثم يوجز فى الحديث عن الخلفاء من عبد الملك إلى المعتصم . وأتاحت ترجمة تاريخ الأمم القديمة وخاصة الفرس فى العصر العباسى الأول والكتابات الكثيرة عن الرسل والأنبياء لمحمد ^(٣) بن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ أن يكتب تاريخه الضخم : « أخبار الرسل والملوك » ، وهو تاريخ للعالم منذ بدء الخليقة حتى عصره ، وزراه حين يصل إلى تاريخ الهجرة النبوية ينهج فى الكتاب منهج الحوليات فكل سنة مستقلة بأحداثها حتى إذا تمت أيامها انتقل إلى السنة التالية حتى يصل إلى سنة ٣٠٢ واتبع طريقة المحدثين ، فكل خبر وكل حادثة تُروى مع إسنادها ، وتتعدد الروايات ويتعدد الإسناد ليقابل المؤرخ الحصيف بين الروايات مع رواياتها ويستخلص منها الخبر الصحيح ، وله نشرات مختلفة فى ليدن وفى مصر ، وطبعته الأخيرة بدار المعارف محققة ومزودة بفهرس دقيق . ومن أهم المؤرخين فى العصر المسعودى ^(٤) أبو الحسن على بن الحسين المتوفى سنة ٣٤٥ وله

الحفاظ ٢ / ٢٥١ وطبقات القراء ٢ / ١٠٦
وطبقات الشافعية ٣ / ١٢٠ .
(٤) راجع ترجمته فى الفهرست ص ٢٢٥
ومعجم الأدياء ١٣ / ٩٠ وتذكرة الحفاظ ٣ / ٧٠
والنجوم الزاهرة ٣ / ٣١٥ .

(١) انظر معجم الأدياء ٨٩ / ٥ والنجوم
الزاهرة ٣ / ٨٣ والفهرست ص ١٧٠ .
(٢) راجعه فى الفهرست ص ١٢٢ ومعجم
الأدياء ٢ / ٢٦ .
(٣) انظر ترجمته فى تاريخ بغداد
١٦٢ / ٢ ومعجم الأدياء ١٨ / ٤٠ وتذكرة

كتب تاريخية مختلفة ، وهى تندفق بحوية جمّة ، إذ أخذ نفسه بالطواف فى البلدان الإسلامية فى الشام وإيران والهند وزنجبار ومصر والبلاد البعيدة الخارجة عن عالم الإسلام حول بحر الخزر وركب المحيط الهندى والهادى إلى الصين فى رفقة التجار ، فأتسعت مداركه ، ومن أهم كتبه التاريخية مروج الذهب ، طبع فى باريس ثم فى مصر ويبروت طبعات مختلفة ، وهو يبدأ فيه بتاريخ الخليقة منذ نشأتها ويتحدث عن الأمم القديمة وبلدانها ومشاهداته فيها ، ثم يوجز السيرة النبوية ، حتى إذا انتهى منها أخذ يتحدث عن الخلفاء خليفة خليفة حتى المطبع لله سنة ٣٣٦ وله كتاب التنبيه والإشراف وهو موجز تاريخى ، وطبع له بمصر الجزء الأول من كتابه أخبار الزمان .

وبجانب هذه الكتب التاريخية العامة نجد كتباً خاصة ببعض المدن مثل أخبار أهل البصرة لأبى زيد عمر بن شبة المتوفى سنة ٢٦٤ وتاريخ واسط لأسلم بن سهل بن زياد المتوفى سنة ٢٨٨ وتاريخ أصبهان لابن منده الأصبهانى المتوفى سنة ٣٠١ وتاريخ الموصل لأبى زكريا يزيد بن محمد الأزدى المتوفى سنة ٣٣٤ وأهم من هذه الكتب جميعاً تاريخ بغداد لأحمد بن أبى طاهر الملقب بطيفور المتوفى سنة ٢٨٠ وهو من مصادر تاريخ الطبرى ، وقد نشر كلر Keller الجزء السادس منه . وذكرنا فى كتاب العصر العباسى الأول مدى اهتمام مؤرخى العصر بالأنساب والأيام ، وظل ذلك بعدهم مستمراً إذ نرى ابن الأنبارى يعنى فى شرحه للمفضليات بالأيام عناية واسعة ، وللزبير بن بكار المتوفى سنة ٢٥٦ كتاب ضخمة فى نسب قریش وأخبارهم ، نشر منه بالقاهرة محمود أحمد شاكر مجلداً كبيراً . وألفت فى العصر كتب كثيرة فى رجال الحديث للبخارى وغيره ، وانتقل التأليف فى الرجال إلى التأليف فى الشعراء ، فألف ابن قتيبة كتابه « الشعر والشعراء » وألف ابن المعتز كتابه « طبقات الشعراء المحدثين » وهما منشوران ، وألف يحيى بن على بن يحيى المنجم المتوفى سنة ٣٠٠ كتابين مفقودين هما البارع فى أخبار الشعراء المولدين والباهر فى أخبار الشعراء المخضرمين من بشار إلى مروان أبى حفصة . وألفت كتب فى الوزراء وكتّاب الدواوين مثل كتاب الوزراء والكتاب لمحمد بن عبدوس الجهمش يارى المتوفى سنة ٣٣١ وهو مطبوع . وأفردت كتب لأخبار العباسيين وأشعارهم مثل كتاب

الأوراق لمحمد بن يحيى الصولي المتوفى سنة ٣٣٥ وقد نشر منه المستشرق دان (Dunne) أخبار الشعراء المحدثين وهو تراجم لطائفة منهم ، ونشر منه أيضاً أخبار الراضى المتقى ، وأشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم ، وهو كتاب جدير بالتحقيق والنشر . وأخذوا يهتمون بالسيرة الفردية ، فألف أبو عبد الله محمد ابن عبد الله بن الحكم المتوفى سنة ٢٦٢ كتاباً في سيرة عمر بن عبد العزيز طبع بالقاهرة ، وألف بمصر أبو جعفر أحمد بن يوسف بن الداية المتوفى سنة ٣٤٠ كتاباً في سيرة أحمد بن طولون وابنه خمارويه . وعلى هذا النحو نشط التأليف في التاريخ لهذا العصر نشاطاً واسعاً ، فمن تأليف في السير إلى تأليف في الطبقات وتأليف في الأمم والدول وتأليف في المدن ، وكادوا لا يتركون في التاريخ جانباً إلا رصده ووسجلوه ودونوه .

٤

علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه

معروف أن القرآن الكريم حُمل عن الرسول صلى الله عليه وسلم تلاوةً ومشافهةً ، واشتهر بتلاوته قراء مشهورون منذ الصدر الأول في مقدمتهم الخلفاء الراشدون وزيد بن ثابت وأبي بن كعب وعبد الله بن مسعود وأبو موسى الأشعري وغيرهم من جلة الصحابة أمثال عبد الله بن عباس ، وخلفتهم أجيال من التابعين في كل بلد إسلامي ، كلهم يحافظون على تلاوته بجميع حروفه وحركاته كما أثرت عن الرسول الكريم ، وأخذوا يُعَدُّون بالعشرات ، وأخذ يتبع كل قارئ منهم تلاميذ يلازمونه ويأخذون عنه قراءته بأدق صورة ممكنة ، وفي الوقت نفسه أخذ قراء مؤسِّقون يروون قراءات عن ابن مسعود وإمام أهل الكوفة أو عن علي بن أبي طالب أو عن غيرهما من جلة الصحابة ، فتكاثر القراءات ، حتى لوجد أبا عبيد القاسم بن سلام يؤلف كتاباً يحتوي على أكثر من عشرين قراءة .

ونمضى بعده إلى العصر العباسي الثاني ، فتستمر القراءات في كثرتها ، وتبدو الحاجة واضحة إلى عالم بالقراءات يختار منها طائفة تذيب وتنتشر في العالم الإسلامي ، ويؤكد الحاجة إلى ذلك أن بعض القراء كان لا يجد حرجاً في القراءة بشواذ منها متناهية في الشذوذ^(١) ، وحينئذ تجرّد للنهوض بهذه المهمة الخطيرة أبو بكر أحمد^(٢) ابن موسى بن مجاهد التميمي إمام القراء ببغداد منذ سنة ٢٩٠ فأكبَّ على القراءات وكتبها المصنفة ، واستخلص منها سبعاً هي قراءات نافع في المدينة وعبد الله بن كثير في مكة وعاصم وحمرزة والكسائي في الكوفة وأبي عمرو بن العلاء في البصرة وعبد الله بن عامر في دمشق ، اتخذها إماماً للناس ، وألف في ذلك كتابه السبعة ، وكل من يراجعه يرى الجهد الهائل الذي أدّاه عن علماء القراءات في عصره ، فكل إمام من السبعة تُذكرُ الطرق التي روى بها ابن مجاهد قراءته ، وينص في الكتاب على الاختلاف بين الطرق للإمام الواحد فضلاً عن الطرق مجموعة لكل الأئمة . وانبرى من بعده تلميذه أبو علي الفارسي لكتابة شرح على هذا المصنف : « السبعة » يحتاج فيه لوجوه القراءات المبثوثة به وجهاً ووجهاً ، سماه كتاب الحجة . وألف ابن مجاهد كتاباً ثانياً في شواذ القراءات ، عني ابن جني بشرحه على نحو ما عني أستاذه أبو علي الفارسي بشرح السبعة ، سماه المحتسب ، وهو محقق ومنشور بالقاهرة . ونما تفسير القرآن الكريم في هذا العصر نمواً واسعاً ، واتضحت فيه اتجاهات أربعة سيطرت على اتجاهاته في العصور التالية ، هي اتجاه التفسير بالمأثور ، والتفسير بالرأى أو التفسير الاعتزالي ، والتفسير الشيعي ، والتفسير الصوفي ، أما التفسير بالمأثور فقد بلغ القمة المرجوة التي كانت تنتظره عند محمد بن جرير الطبري ، إذ استطاع أن يجمع في تفسيره عن طريق الروايات المسندة كل ما أثر

يصحّف بعض الكلمات ويستخرج لها وجوهاً ظنية . وكل منهما ناظره ابن مجاهد واءترف بخطه وتوبته من صنيعه بخضرة القراء والفقهاء .

(٢) انظر في ترجمة ابن مجاهد طبقات القراء لابن الجزري ١٣٨/١ وطبقات الشافعية ٥٧/٣ والنجوم الزاهرة ٢٥٨/٣ .

العصر العباسي الثاني

(١) انظر في ذلك مقدمتنا لكتاب السبعة لابن مجاهد (طبع دار المعارف) حيث أوضحنا هناك موقف ابن مجاهد من معاصره ابن شنبوذ لقراءته حروفاً تخالف مصحف عثمان المجمع عليه ، وكذلك موقفه من ابن مقسم العطار لقراءته حروفاً تخالف الإجماع وإن كانت موافقة لخط المصحف العثماني ومعروف أنه لم يكن منقوفاً ، فكان

عن التابعين والصحابة في تفسير الآي القرآنية . وكان الصحابة يحملون كل ما ذكره الرسول من تفسير لبعض آياته وبعض كلماته . وتفسير الطبرى من هذه الناحية يمكن أن يُستَخدم منه تفسير الرسول عليه السلام ، وكذلك من عُرِفوا بكثرة التفسير من الصحابة والتابعين مثل ابن عباس وابن مسعود وتلاميذهما من مثل مجاهد وعكرمة . وما يلاحظ عنده أنه لم يتوسع في حتمل الإسرائيليات ، إذ كان يرى أنه لا غناء فيها وخاصة في التفاصيل التي لا يضر الجهل بها ، كمسألة المائدة التي أنزلت على عيسى في سورة المائدة في الآيات ١١٢ إلى ١١٥ فإنه وجد عند أصحاب الإسرائيليات من يتحدثون عما كان عليها من طعام هل كان سمكاً أو خبزاً أو ثمرأ من ثمار أهل الجنة فقال إن العلم بذلك غير نافع ، وبالمثل الآية رقم ٢٠ من سورة يوسف إذ باعه إخوته (بثمان بسخس دراهم معدودة) فقد وجدهم يتساءلون عن عدد الدراهم . هل كانت عشرين أو اثنين وعشرين أو أربعين ، فأضرب عن ذلك قائلاً إنه « ليس في العلم بمبلغ ذلك فائدة تقع في دين ... والإيمان بظاهر التنزيل فرض وما عداه ففوضىوع عنا تكلف علمه » . ودائماً يذكر مع كل آية القراءات المختلفة فيها ، ويعرض لمعنى الكلمات من الوجهة اللغوية ويستشهد عليه بالأشعار الجاهلية والإسلامية ، وكثيراً ما يفضل شرح معنى للفظ على شرح معنى آخر . وكان يأخذ بفكرة حرية الإرادة التي أخذ بها المعتزلة ، ولكنه لم يتعصب لهم ، بل جادلهم في بعض آرائهم وردّها عليهم من مثل رأيهم في الرؤية البصرية لله وتأويلهم لها ويعلن مراراً أنه يقف مع السلف كما في الآية رقم ٧٤ من سورة البقرة وأنه يحسن أن يراعى المفسر المعنى الظاهر للفظ بدون تأويل ، والأساس الذي لا محيد عنه هو عرض أقوال الصحابة والتابعين وعلماء الأمة لتبين معاني التنزيل الصحيحة الدقيقة .

ومنذ القرن الثاني يرجع المعتزلة إلى القرآن مفسرين مستشهدين ومتمثلين ، محتكمين إلى عقولهم ، ومحاولين أن يطابقوا بينه وبين آرائهم ، وأداهم ذلك إلى أن يحملوا منذ أول الأمر على أصحاب التفسير بالمأثور الذين كانوا يقفون أحياناً مع ظاهر الآيات . وكانوا أحياناً لا يحكمون عقولهم فيما يسمعون ، فيروون غرائب لا يصدقها العقل السليم ، وفي الجزء الرابع من كتاب الحيوان للجاحظ حملات شعواء للنظام

على أمثال هؤلاء المفسرين ، وكان طبيعياً ألا يقفوا عند تفسير آيات بعينها تخالف آراءهم الاعتزالية ، بل يحاولوا بسط هذه الآراء في تفسير القرآن جميعه ، وأول تفسير عندهم هو تفسير أبي بكر الأصم المتوفى حوالى منتصف القرن الثالث وتفسيره مفقود ، وأهم منه تفسير أبى على الجببائى محمد بن عبد الوهاب المتوفى سنة ٣٠٣ ، وهو يبد بعض المحققين بالقاهرة فى سبيل نشره ، ولا بد أنه يمتلى* بالتأويلات الاعتزالية ، ولا ريب فى أن الزحشرى انتفع به فى تفسيره انتفاعاً كبيراً .

وتأويلات المعتزلة لآى الذكر الحكيم إنما كانت تأويلات عقلية ، وكان وراءهم فريقان يؤولان القرآن تأويلات اعتقادية ، وهم الشيعة والصوفية ، وكان الشيعة يخرجون عن ظاهر القرآن ملتزمين تأويلات بعيدة ، إذ يذهبون إلى أن لفظاً بعينه يُقصدُ به على أو غيره من أئمتهم وأن لفظاً آخر يقصد به خصم من خصومهم ، وصور ذلك ابن قتيبة عنهم ، فقال إن منهم من يزعم أن الحبس والطاغوت فى الآية رقم ٦٠ من سورة النساء هما معاوية وعمرو بن العاص^(١) . ونسبوا لأئمتهم تفسيرات مبكرة ، فى مقدمتها تفسير نسبوه إلى جعفر الصادق المتوفى سنة ١٤٨ وتفسير ثان نسبوه إلى الحسن العسكرى المتوفى سنة ٢٦٠ وهو آخر الأئمة الظاهرين عند الإمامية . وتفسيراتهم من هذه الناحية تطبع بطابع الرواية عن أئمتهم وآل البيت بعامة . أما تأويل المتصوفة حينئذ فلم يكن يبعد عن ظاهر اللفظ ببعد التفسير الشيعى ، إذ كان كل مآربه أن يوضح من خلال بعض الآيات بعض الأفكار الصوفية ، وربما كان أقدم تفسير لهم هو تفسير سهل التستبرى المتوفى حوالى سنة ٢٨٣ ونراه فى آية سورة النور : (الله نور السموات والأرض - إلى قوله : والله بكل شىء عليم) يجعل النور المحمدى فى سابق الأزل أساساً للآية . وكأن سهلاً سبق الحلاج فى فكرة النور المحمدى الأزل .

وقد عرضنا فى كتاب العصر العباسى الأول لتطور منهج التأليف فى الحديث النبوى وأنه بدأ بتصنيفه على أبواب الفقه غالباً . وأن خير ما يصور هذه الطريقة

(١) انظر تفسير غلاة الشيعة فى كتاب تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص ٨٤ .

كتاب الموطأ لمالك بن أنس المتوفى سنة ١٧٩ ثم نشأت طريقة ثانية توزع فيها الأحاديث على روايتها من الصحابة ، فتجمع الأحاديث مثلاً التي رواها أبو هريرة بدون نظر إلى اختلاف موضوعاتها الفقهية ، فالأساس وحدة الصحابي لا وحدة الموضوع ، على نحو ما هو معروف عن مسند ابن حنبل المتوفى سنة ٢٤١ ، وظل محدثون يؤلفون على هذه الطريقة حتى نهاية هذا العصر مثل أبي عبد الله محمد بن نصر المروزي المتوفى سنة ٢٩٤ وتوجد من مسنده مخطوطتان بمكتبة دار الكتب المصرية . وأخذت تقترن بهذه الطريقة سريعاً طريقة ثانية هي امتداد للطريقة الأولى آنفة الذكر ، وكأنما رأوا أن الإفادة من طريقة المساند يكتنفها غير قليل من الصعوبة إذ لا بد لمن يريد الاطلاع على حديث ، لراوٍ من الصحابة في مسألة من مسائل الفقه ، من قراءة كل ما له من أحاديث ، وكانت دراسات الفقه تمت حينئذ واجتاج الفقهاء إلى الاطلاع سريعاً على بعض الأحاديث للاحتجاج بها في كتبهم وضد مجادليهم ، وأول مصنف وصلنا من هذه الطريقة هو مصنف عبد الله بن محمد بن أبي شيبة المتوفى سنة ٢٣٥ . ثم ألفت مصنفاتها الستة المشهورة ، وهي الجامع الصحيح للبخاري المتوفى سنة ٢٥٦ والصحيح لمسلم المتوفى سنة ٢٦١ والسنن لابن ماجه المتوفى سنة ٢٧٣ وسنن أبي داود المتوفى سنة ٢٧٥ والجامع للترمذي المتوفى سنة ٢٧٩ وسنن النسائي المتوفى سنة ٣٠٣ وتعدّ أصبح كتب الحديث المؤلفة لا في هذا العصر وحده بل في جميع العصور . ولم يكن الاعتماد في هذه المصنفات وما يماثلها على دراسة الكتب ، وإنما كان الاعتماد على الرواية ولقاء الرجال ، مما جعل المحدثين يرحلون إلى الأمصار الإسلامية المختلفة يجمعون من هنا وهناك ما تفرق من الأحاديث على نحو ما هو معروف عن البخاري في تطوافه بأكثر مدن خراسان وإيران والعراق والشام والحجاز ومصر . وظل المحدث الكبير يعتمد على حافظته في إملائه الأحاديث ، وكانوا إذا نزلوا بلدًا ربما تعرضوا لامتحان العلماء لهم كي يعرفوا مدى حفظهم ، ويحكي عن البخاري أنه قدم بغداد ، فاجتمع أصحاب الحديث ورأوا اختباره فعمدوا إلى مائة حديث ، قلبوا متونها وأسانيدھا بأن جعلوا الإسناد مع غير منته ، واجتمع الناس ، فألقوها على البخاري ، فأنكرها حديثاً حديثاً ، حتى إذا فرغوا أخذ يرويها راداً كل متن إلى إسناده ، وله في

ذلك حكايات أخرى عجيبة^(١). ومن طريف ما يروى في هذا الجانب أن أبا داود صاحب السنن المذكور آنفاً كان له ابن من حفاظ الحديث هو عبد الله قدم سجستان ذات مرة ، فسألوه أن يحدّثهم ، فقال لهم : ليس معي أصل ، فقالوا متعجبين : ابن أبي داود وأصول ! وأثاروه ، فأملئ عليهم ثلاثين ألف حديث من حفظه ، وعاد إلى بغداد فوجد المحدثين يذكرون قصته مع غير قليل من الريبة ، ولم يلبثوا أن أرسلوا إلى سجستان من يكتب لهم نسخة من الأحاديث التي أملاها ، فكتبت وجرىء بها ، وعُرضت على الحفاظ ، فخطأوه في ستة أحاديث ، منها ثلاثة حدّث بها كما سمعها ، وثلاثة أخطأ فيها ، وكأنه لم يخطئ في كل عشرة آلاف حديث إلا في حديث واحد^(٢).

ولا بد أن نقف قليلاً عند البخارى ومسلم انرى مبلغ دقتهما في رواية الحديث ورفضهما لضعيفه ، أما البخارى^(٣) محمد بن إسماعيل فقد أمضى ستة عشر عاماً يجمع صحيحه من أفواه الرواة الثقات في مختلف الأمصار ، وكل حديث معه سنده من زمنه إلى زمن الصحابي راويه الأول ، وهو يدرس ويفحص ، حتى لا يروى إلا الحديث الصحيح الذي لا يترقى إليه شك ، يفحص المتن ويفحص الرواة ليعرف المتهم من الوثيق عقيدة وقوة حافظته وخلوا من شوائب الكذب والغفلة ، ولذلك كان طبيعياً أن يؤلف تاريخه الكبير في الرجال ، ويروون عنه أنه كان يقول : « قتل اسم في التاريخ إلا وله عندى قصة » وكان عفّ اللسان لا يشتد في تجريح المتهمين من الرواة ، بل يكتفى بمثل قوله : « فيه نظر » أو « سكتوا عنه » أو « هو منكر الحديث » . وجمع في صحيحه — كما يقول ابن حجر في مقدمته لشرحه عليه — ٧٣٩٧ حديثاً وإذا أضفنا إلى ذلك الأحاديث التي استأنس بها بلغت أحاديثه ٩٠٨٢ ، ويقال إنه انتخبها من نحو مائتي ألف حديث محكّماً في انتخابه شروطاً غاية في الشدة ، حتى يحيطها بأقوى سياج من الصحة والثقة . وأول شروطه

وكتاب الجرح والتعديل لابن أبي حاتم

(طبع حيدر آباد) ق ٢ ج ٣ ص ١٩١

وفيات الأعيان لابن خلكان (طبعة

محمد محيى الدين عبد الحميد) ٣ / ٣٢٩ .

(١) طبقات الشافعية ٢ / ٢١٨ .

(٢) السبكي ٣ / ٣٠٨ .

(٣) انظر في ترجمته تهذيب التهذيب

٤٧ / ٩ وشذرات الذهب ٢ / ١٣٤ وطبقات

الحنابلة بن أبي يعلى (طبع القاهرة) ١ / ٢٧١

أن يكون الإسناد متصلاً ، فلا يسقط من رواته أحد ، وأن يكون كل راو مسلماً ، معروفاً بالصدق ، وعدم التدليس ، والتخليط ، عدلاً ، ضابطاً ، حافظاً ، سليم الذهن ، قليل الوهم ، سليم الاعتقاد ، وكان يرى أن رواية كل إمام من أئمة الحديث يختلفون في درجة الصلة به . فأصحاب الدرجة الأولى من لازموه في السفر والحضر ، ووراءهم من لم يلازموه سوى مدة قصيرة ، واشترط في رواية أسانيدهم أن يكونوا من أصحاب الدرجة الأولى ، وبذلك اشترط في الراوى المشافهة والملازمة . وقد يقال إن في الصحيح أحاديث لا يتصل فيها الرواة يريدون التي ذكرت — كما قدمنا — للاستثناس فقط ، وقد أخرجها ابن حجر في عده لأحاديث الكتاب كما مرّ آنفاً وكتاب الجامع الصحيح يبدأ بالحديث عن الوحي والإيمان وتتوالى كتب الفقه وأبوابه ، ويتقحم عليها أبواباً أخرى كحديثه عن بدء الخلق والجنة والنار وتراجيم الأنبياء ومناقب قريش وفصائل الصحابة والمهاجرين والأنصار والسيرة النبوية والمغازي والأطعمة والأشربة والأدب وتعبير الرؤيا . وختمه بكتاب التوحيد . وهو موزع على ٩٧ كتاباً تشتمل على ٣٤٥٠ باباً وبعضها فيه أحاديث كثيرة وبعضها فيه حديث واحد ، وقد يوضع عنوان الباب دون كتابة شيء تحته ، وكأنه كان ينوى أن يكتب فيما بعد تحته بعض الأحاديث وعاجله الموت . ومعروف أن الكتاب لم يكن قد وُضع في صورته النهائية . وهو يُعَدّ بحق أصحّ كتب الحديث إذ تحرّى البخارى في جمعه تحريّاً ليس له سابقة ولا لاحقة في تاريخ مصنفات الحديث ، باذلاً جهداً عنيفاً تنقطع دونه الأمانى .

وأما مسلم فهو مسلم^(١) بن الحجاج القشيري النيسابوري المتوفى سنة ٢٦١ وصحيحه مثل صحيح البخارى في الثقة والمنزلة ، وقد روى أكثر أحاديث البخارى ولكن بطرق أخرى غير طرق أسانيدهم ، ورتبه على كتب الفقه وأبوابه كما صنع البخارى ، ولكنه لم يستكثر منها مثله . ونراه في مقدمة صحيحه يذهب إلى أن الأحاديث ثلاثة أقسام : قسم رواه الحفاظ المتقنون لا يترقى إليه الشك . وقسم رواه المستورون المتوسطون في الحفظ وهو يهبط درجة عن سابقه ،

١٦٧/٢ ومراة الجنان لليافى ١٧٤/٢

ومقدمة النووى بشرحه عليه .

(١) انظر في مسلم تاريخ بغداد ١٠/١٣

وتذكرة الحفاظ للذهبي (طبع حيدر آباد)

وقسم رواه الضعفاء والمتروكون ، ويقول إنه إذا فرغ من رواية القسم الأول أتبعه القسم الثاني ، أما القسم الثالث فإنه يهمله ولا يعرج عليه . وتصريحه بأنه يروى من القسم الثاني جعل المحدثين من قديم يضعون صحيحه في منزلة دون منزلة صحيح البخارى ، بل إن منهم من حمل عليه مثل أبى زرعة^(١) الرازى . على أن هناك من قدم على صحيح البخارى^(٢) لأنه أدق منه تأليفاً ، وساد ذلك خاصة بين حفاظ المغرب فكانت كثرتهم تفضله على صحيح البخارى . والحق أنه لا يفضل من وجهة التوثيق الخالصة ، لسبب مهم ، وهو أن البخارى اشترط فى الرواة الملازمة فى السفر والحضر لمن يروون عنهم ، فى حين تخفف من ذلك مسلم ، فاكتفى بالمشافهة والمعاصرة ولم يطلب الملازمة . وما لا ريب فيه أن صحيح مسلم مع ذلك يُعَدّ فى الذروة من التوثيق ، إذ كان دقيقاً غاية الدقة ، حتى إنه ليزك الفروق بين روايات الحديث ، ولو كانت حرفاً ، وكان على علم لا يبارى فى معرفة رجال الحديث المؤثّقين والمتهمين . وذكروا أن عدد أحاديثه نحو ٧٢٧٠ حديثاً . وهو مع صحيح البخارى أعلى كتب الحديث منزلة وأوفرها حظاً من الصحة والتوثيق ويليهما الكتب الأربعة التى سميها آنفاً التى يطلق عليها معهما اسم كتب الصحاح الستة ، وهى سنن أبى عبد الله محمد بن يوسف بن ماجه^(٣) القزوينى وقد اشتهر برحلته الكثيرة فى ديار الإسلام ، وتُعدّ هذه السنن أضعف كتب الصحاح الستة لأن ابن ماجه ضمنها كثيراً من الأحاديث الضعيفة ، ويقال إنها لم توضع فى سلك الكتب الستة إلا منذ المائة السادسة للهجرة ، والكتاب الثانى سنن أبى داود سليمان^(٤) بن الجارود بن الأشعث الأزدي السجستانى ، ولم يسلك فيها غير أحاديث الفقه والتشريع ، ولعله لذلك حظى بتقدير رفيع بين المحدثين . وثالث الكتب الجامع لأبى عيسى محمد^(٥) ابن عيسى بن سهل الترمذى وقد عُنِيَ فيه بأحاديث الأحكام وذكر معها من احتج بها من أهل المذاهب . ولذلك كان الكتاب يفيد فائدة جلّى من يعنُون

ورآة الجنان الياقنى ١٨٩/٢ وطبقات

الشافعية ٢/٢٩٣ .

(٥) انظر تذكرة الحفاظ ١٨٧/٢ والتهذيب

لابن حجر ٢٨٧/٩ وميزان الاعتدال

١١٧/٣ والأنساب للسماوى الورقة ١٠٦ .

(١) تاريخ بغداد ٢٧٤/٤

(٢) طبقات الشافعية ٢٧٦/٣ .

(٣) تذكرة الحفاظ للذهبي ٢٠٩/٢

(٤) انظر فى ترجمة أبى داود تاريخ

بغداد ٥٥/٩ وتذكرة الحفاظ ١٦٧/٢

بدراسة الخلاف بين الفقهاء. ورابع الكتب سنن أبي عبد الرحمن أحمد^(١) بن شعيب ابن علي النسائي ، وقد غنى فيه بصيغ ونصوص في المعاملات ، كما غنى برواية أحاديث الاستعاذات والأدعية التي تقال في الصلاة . وبجانب هذه الصحاح الستة ألفت كتب أحاديث مختلفة في العصر ، كما ألفت كتب مختلفة في الرجال أى رواة الحديث ، من أهمها تاريخ البخارى الذى أشرنا إليه ، ويلحقه في الأهمية كتاب التاريخ الكبير لأبى بكر أحمد ابن أبى خيثمة زهير بن حرب تلميذ ابن حنبل المتوفى سنة ٢٧٩ وفيه تحدث عن تعديل الرواة وتجريحهم . وعُنت البيئات الشيعة بأن يكون لها حظ في الاهتمام بالحديث ، ومن أهم الكتب التى صنفتها كتاب جامع لأحاديث الإمامين : جعفر الصادق وموسى الكاظم ، جمعه أبو العباس عبد الله بن جعفر بن الحسين بن مالك بن جامع الحميرى القمى فى أواخر القرن الثالث الهجرى . وواضح من ذلك كله مدى النشاط الذى نهض به المحدثون فى تأليف كتب الحديث لهذا العصر ، ويكفى أنه ألفت فيه كتب الصحاح الستة التى شغلت المحدثين بالتعليق والشرح والتفسير طوال العصور الماضية .

وكان هذا العصر متمماً للعصر العباسى الأول فى نشاط الدراسات الفقهية والتشريعية ، وقد رأينا هناك كيف أن المذاهب الفقهية الأربعة تكونت نهائياً ، وظل الاجتهاد نشيطاً ، فالفقهاء يجتهدون ويتناظرون ويختلفون ويكثرون من التأليف والمصنفات ، وتظهر مذاهب ثانوية لا يُكْتَسَبُ لها البقاء ، سوى مذهب داود الظاهرى ، ولكن ظهورها يحمل الدلالة الواضحة على حرية الاجتهاد الفقهى حينئذ وأن أبوابه كانت مفتوحة على مصاريعها . وكان طبيعياً أن يصبح لكل مذهب مجموعة كبيرة من أساتذته وشيوخه يذيعونه فى العالم الإسلامى ، ومن أهمهم فى المذهب الحنفى أبو بكر أحمد^(٢) بن عمر الشيبانى الحصاف المتوفى سنة ٢٦١ وله كتاب أحكام الوقف وهو منشور بالقاهرة وكتاب الحيل والمخارج فى الفقه ، وهو منشور فى هانوفر والقاهرة . ولا يقل عنه أهمية فى هذا المذهب أبو جعفر

(٢) انظر فى الحصاف الجواهر المضية لابن أبى الوفاء ٨٧/١ والفوائد البهية للكنوى ١٧ .

(١) انظره فى تذكرة الحفاظ ٢/٢٧٦ والتهذيب لابن حجر ١/٣٦ ومرآة الجنان لليافى ٢/٢٤٠ وشدرات الذهب ٢/٢٣٩ والسبكي ٣/١٤

أحمد^(١) بن محمد بن سلامة الحَجَّسْرِي الطحَاوِي المتوفى سنة ٣٢١ وقد انتهت إليه بمصر رئاسة أصحاب أبي حنيفة ، وهو الذى نشر بها المذهب وعمل على إذاعته ، وله معانى الآثار ، وهو منشور فى جزأين بمدينة لخنو وكتاب مشكل الآثار وهو منشور بجيدر آباد ، ولا تزال له كتب كثيرة غير منشورة أحصاها بروكلمان . وقد حمل المذهب المالكي عن مؤسسه مالك بن أنس كثيرون فى مصر والمغرب والأندلس ولع من فقهاء المذهب فى هذا العصر عبد السلام^(٢) بن سعيد بن حبيب التنوخى المشهور باسم سحنون القيروانى المتوفى سنة ٢٤٠ وهو الذى نشر المذهب فى المغرب ودفعه إلى أن يشيع فى جميع أرجائها ، وله فيه مصنفه الذى ظل اسمه يدوى هناك منذ ظهوره ، وهو المدونة الكبرى التى لا تزال تتخذ المرجع الأساسى بتلك الديار لتعليم الفقه المالكي وتدرسه ، وقد نُشرت بالقاهرة من قديم ، ونشرت لها شروح مختلفة . وقد خلف الشافعى وعمل على نشر مذهبه وعنى بالتصنيف فيه كثيرون فى مقلمتهم تلاميذه المصريون : البويطى والربيع المرادى ، وأهم منهما المُرْزَنِي^(٣) أبو إبراهيم إسماعيل بن يحيى المتوفى سنة ٢٦٤ ناصر المذهب وبدرسمائه كما يقول السبكي ، وله مختصر من علم الإمام النفيس محمد بن إدريس ظل الشافعية يتدارسونه طويلا ، وفيه يقول أبو العباس أحمد بن سريج المتوفى سنة ٣٠٦ أكبر أئمة المذهب لآخر القرن الثالث الهجرى الذى انتشر منه فى أكثر الآفاق^(٤) :

لَصِيقُ فَوَادَى مِنْدَ عَشْرِينَ حَجَّةً وَصَيْقَلُ ذَهْنِي وَالْمَفْرَجُ عَنْ هَمِّي
جَمُوعُ الْأَصْنَافِ الْعُلُومِ بِأَسْرَهَا فَأَخْلَقُ بِهِ أَنْ لَا يَفَارِقَهُ كُمِّي
وطبع هذا المختصر على هامش كتاب الأم للشافعى . وكان أحمد بن حنبل قد تتلمذ للشافعى ثم استقل بمذهب فقهي خاص اعتمد فيه على الحديث النبوى ، وبذلك عدَّ مذهبه مثالا لأهل السنة . ومن أهم أتباعه فى هذا العصر

- | | |
|--|---|
| (١) راجعه فى الجواهر المضية ١٠٢/١ | الحنان للياقنى ١٥١/٢ . |
| وتذكرة الحفاظ للذهبي ٢٩/٣ والأنساب | (٣) انظره فى وفيات الأعيان وشذرات الذهب |
| للسمعاني ١٥٧ وتاريخ دمشق لابن عساكر | ١٤٨/٢ والأنساب للسمعاني ٥٢٧ ومراة |
| ٢/٥٤٢ والنجوم الزاهرة ٢/٢٣٩ . | الحنان للياقنى ١٧٧/٢ والنجوم الزاهرة |
| (٢) انظره فى الديباج المذهب لابن فرحون | ٣/٣٩ وطبقات الشافعية للسبكي ٩٣/٢ . |
| (طبع فاس) ١٧١ وابن خلكان ومراة | (٤) السبكي ٣١/٣ . |

أبو القاسم عمر^(١) بن الحسين بن عبد الله الخرق المتوفى سنة ٣٣٤ ، وله في الفقه الحنبلي كتاب المختصر في الفقه ، طُبِعَ في القاهرة بشرح عبد الله بن أحمد ابن قدامة أكبر أئمة المذهب الحنبلي في القرن السابع الهجري .
وهيأ الاجتهاد الفقهي الواسع في هذا العصر لظهور مذاهب فقهية وراء المذاهب الأربعة الكبرى ، برز منها خاصة المذهب الظاهري نسبة إلى أبي سليمان^(٢) داود بن علي بن خلف الأصبهاني الظاهري المتوفى سنة ٢٧٠ ، وكان يتبع في أول أمره مذهب الشافعي ويتعصب له ، ثم أسس له مذهباً عُرف بمذهب أهل الظاهر ، وهو مذهب يقوم على إنكار القياس في الدين ومساائل التشريع ، لأن القياس عقلي والدين إلهي ، ويكفي لبيان الأحكام ما في القرآن والحديث من عموم . ومن أجل ذلك كان يرى الوقوف عند ظاهر الكتاب والسنة وعدم فتح الأبواب للقياس والآراء التي تنبثق عنه . وفي رأينا أن ظهور هذا المذهب يُعَدُّ إشارة واضحة في العصر إلى بروز نزعة محافظة قوية في دراسات الفقه ، وقد كُتِبَ له أن يذيع في الأندلس والمغرب فيما بعد ، وأن يتممَّس له فقهاء نابهن مثل ابن حزم ، بل أحياناً دول مثل دولة الموحدين في الأندلس والمغرب .

٥

الاعتزال وانبثاق المذهب الأشعري

مرَّ بنا في كتاب العصر العباسي الأول كيف نشأ الاعتزال ونما وازدهر وكثر أعلامه وأتباعه ، وكيف أحوالوا البصرة وبغداد إلى ساحتين كبيرتين للجدال في المسائل العقيدية والدفاع عن الدين الحنيف وكل ما اتصل به من توحيد الله وحقائق النبوة والثواب والعقاب في الآخرة ، ولم يكونوا يوجهون دفاعهم إلى أصحاب المال والتسلح الأخرى فحسب ، بل أيضاً إلى الحبيبة والمرجثة والشيعية الغالية ، ونازلوا الدهريين

والسبكي ٢٨٤/٢ والياقني ١٨٤/٢
والنجوم الزاهرة ٤٧/٣ وشذرات الذهب
١٥٨/٢

(١) طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى ٣٣١
والأنساب للسماعي ١٩٥ وتاريخ بغداد
٢٣٤/١١ والنجوم الزاهرة ٢٨٩/٣ .

(٢) انظره في تاريخ بغداد ٣٦٩/٨

والمناويين الشنويين نزلاً عنيماً . وكانت مناظراتهم لهذه الفرق لا تتوقف يوماً ، والناس يتجمعون حولهم في المساجد يسمعون ويتفرجون ، وقد جذبوا الشباب إليهم ، بحيث كانت حلقاتهم أكبر الحلقات وأوفرها سامعين . وقد عكفوا على الثقافات والمعارف الأجنبية يتزودون بها ، وخاصة الفلسفة اليونانية وما يتصل بها من منطق ، وسرعان ما كوّنوا لأنفسهم مذهباً ضخماً تميز بأصوله الخمسة المعروفة ، وهي التوحيد والعدل والوعد والوعيد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والقول بأن مرتكب الكبيرة في منزلة وسطى بين منزلي المؤمن والكافر . وأخذوا على هدى ثقافتهم يتعمقون في مسائل الطبيعة وما وراء الطبيعة ، وإذا أتمتهم ينفذون إلى آراء جديدة كل الجدة في البحوث الطبيعية والفلسفية والإلهية ، بل إن منهم من استطاع أن يكون له فلسفة مستقلة ، فتلك فلسفة واصلية نسبة إلى واصل بن عطاء المتوفى لآخر العصر الأموي ، وهذه فلسفة بشرية نسبة إلى بشر بن المعتمر أو ثمامية نسبة إلى ثمامة بن أشرس أو هذيلية نسبة إلى أبي الهذيل أو نظامية نسبة إلى النظام . وعلى هذا النحو لم يتكون للاعتزال أئمة أو باحثون ممتازون فقط بل تكون له هؤلاء الفلاسفة في العصر العباسي الأول ، وهو العصر الذي بلغ فيه الاعتزال الذروة المأمولة ، حتى لتصبح له السيطرة التامة على الحكم في عهد المأمون والمعتصم والواثق ، فإذا أتمته يحملون علماء الدين كرهاً على القول بخلق القرآن ، وتنشب الحنة المعروفة ، ويُمْتَحَنُ كثير من الفقهاء ويسامون العذاب . وكان ذلك نذير شؤم ، إذ أسخطوا الفقهاء والمحدثين والناس عليهم ، وسرعان ما دالت دولتهم مع افتتاح العصر العباسي الثاني ، إذ ولي المتوكل الخلافة ولم يلبث أن أعلن إبطال القول بخلق القرآن ، واستقدم المحدثين إلى سامراء عاصمته وأجزل عطاياهم وأمرهم بالجلوس إلى الناس وإظهار السنة والأخذ بالتسليم . وكان من أثر ذلك أن اندحر المعتزلة على حين انتصر الفقهاء والمحدثون ، وأخذ كثير منهم يجرحون المعتزلة ، وقوى نفوذهم وسلطانهم على العامة ، ولم يستطع المعتزلة بعد ذلك أن يستردوا سلطانهم .

على أن الاعتزال استمر في نشاطه ، وخاصة أن كثيرين من تلاميذ فلاسفته الذين سميناهم عاشوا في العصر العباسي الثاني ، ومنهم من طالت حياتهم فيه ،

فكان طبيعياً أن يظل له جهابذته وأن تظل له حلقاته في البصرة وبغداد ، بل إن كثيرين من المعتزلة الجدد في العصر استطاعوا أن يكوّنوا لهم فلسفة أو كما اصطلاح القدماء فرقة نسبت إليهم ، وفي مقدمتهم الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ وهو تلميذ النظام ، وكان واسع الثقافة إذ لم يترك ثقافة أجنبية إلا اطلع عليها وخاصة الثقافة اليونانية وما يتصل بها من الفلسفة الطبيعية والمنطق ، وقد ظل يدافع عن المعتزلة ويجادل خصومهم جدالاً عنيفاً ، وله في ذلك كتاب مستقل سماه « فضيلة المعتزلة » . ويقول ابن المرتضى في كتابه طبقات المعتزلة : « إنه أغرى بشيئين : كون المعارف ضرورية والكلام على الرافضة ^(١) » والمراد الرد على الرافضة من الشيعة وبيان ما في اعتقاداتهم من فساد. ويفسر الأشعري قوله بأن المعارف ضرورية بأنه كان يذهب إلى أن « ما بعد الإرادة فهو للإنسان بطبعه وليس باختيار ، وليس يقع منه فعل باختيار سوى الإرادة ^(٢) » ويزيد الشهرستاني ذلك بياناً بقوله : « انفرد الجاحظ بمسائل منها قوله إن المعارف كلها ضرورية طباع وليس شيء من ذلك من أفعال العباد ، وليس للعبد كسب سوى الإرادة وتحصل أفعاله منه طباعاً » ^(٣) . ويقول البغدادي في الفرق بين الفرق . « مما نسب إلى الجاحظ قوله : « إن المعارف كلها طباع ، وهي مع ذلك فعل للعباد وليست باختيار لهم ، ووافق ثمانية ابن الأشرس في أن لا فعل للعباد إلا الإرادة ، وأن سائر الأفعال تنسب إلى العباد على معنى أنها وقعت منهم طباعاً وأنها وجبت بإرادتهم ^(٤) » . وأجل في ذلك كله ما يوضح رأيه في أن المعارف ضرورية طباع ، يريد أنها تحصل بلا اكتساب ، إنما كل ما هناك أن الإنسان يوجه إليها إرادته ، فتحدث اضطراراً وطبيعة ومثلها أفعال الإنسان تحدث طبيعة واضطراراً ما دامت قد اتجهت إليها إرادته ، فالمدار على الإرادة ، وما يحدث بعدها فناشي عنها ، ويقول الشهرستاني إنه : « كان يقول بإثبات الطبائع للأجسام كما قال الطبيعيون من الفلاسفة ، وقال باستحالة عدم الجوهر فالأعراض تتبدل والجوهر لا يجوز أن يفنى » ، ويقول أحمد أمين : « وهي عبارة

(١) انظر كتاب طبقات المعتزلة لابن

المرتضى (طبع بيروت) ص ٦٧ .

الحلبي ١ / ٧٥ .

(٢) الفرق بين الفرق للبغدادي ص ١٧٥ .

(٣) مقالات الإسلاميين ٢ / ٤٠٧ .

على إيجازها تدل على معان عديدة فهو يقرر فيها القوانين الطبيعية للأشياء، فللماء وللنار ولأشياء هذا العالم كلها قوانين طبيعية لا تتخلف ، وهو يقرر المبدأ الهام الحديث وهو أن المادة لا تنعدم ، فالجوهر عنده لا يفنى وإنما تتغير الأعراض فجوهر المادة ثابت لا ينعدم ، وإنما يتحول ويتغير فيكون مرة ماء ومرة زرعاً ومرة معدناً ومرة خشباً ، وهذه كلها أعراض طارئة على المادة ، وإن شئت فقل : إنها طارئة على العناصر الأولية التي تتكون منها المواد^(١) . وذكر الشهرستاني تكملة لنظرية الجاحظ في الطباع أنه كان يقول في أهل النار « إنهم لا يخلدون فيها عذاباً بل يصيرون إلى طبيعتها » ، وأنه كان يقول : النار في الآخرة تجذب أهلها إلى نفسها بدون أن يدخل أحد فيها ، فهي التي تدخلهم نفسها وتخلد بهم فيها . وقد رد أبو الحسين الخياط على نسبة هذا القول إلى الجاحظ ، وقال إنه مما نسبته إليه ابن الراوندي الكذاب ، وقال إنه كذب عليه أيضاً في نسبته إليه إحالة فناء الأجساد وعدمها^(٢) . ولعل في ذلك ما ينبهنا إلى أنه يجب الاحتياط في التعرف على آراء المعتزلة وأنه يحسن استقاؤها من كتبهم الخاصة .

وعاصر الجاحظ وتلاه كثير من المعتزلة في البصرة وبغداد ، وهم يكونون في هذا العصر الطبقات السابعة والثامنة والتاسعة من كتاب طبقات المعتزلة لابن المرتضى ، ومن أهمهم أبو يعقوب يوسف بن عبد الله بن إسحق الشحام من أصحاب أبي الهذيل ، وإليه انتهت رئاسة المعتزلة في البصرة في وقته^(٣) ، وكان يعاصره في بغداد جعفر بن مبشر وجعفر بن حرب ، وكانا ورعين زاهدين ، ويسوق أبو الحسين الخياط في كتابه الانتصار بعض آرائهما ، ويذكر أن أولهما صنّف كتباً كثيرة في الفقه ، وأن له كتاباً في الردّ على أصحاب الرأي والقياس في الشريعة^(٤) .

ومن تلامذة جعفر بن مبشر أبو الحسين عبد الرحيم بن محمد بن عثمان الخياط الذي عاش حتى نهاية القرن الثالث الهجري . وكان من أكثر المعتزلة علماً بأقوالهم

(١) ضحى الإسلام (طبع ونشر مكتبة

النهضة - الطبعة السابعة) ٣ / ١٣٥ .

(٢) الانتصار للخياط ص ٢١ - ٢٢ .

(٣) طبقات المعتزلة ص ٧١ .

(٤) الانتصار ص ٨١ .

واختلافاتهم ، وكان فقيهاً مثل أستاذه ومحدثاً مرموقاً . وله كتب كثيرة في الرد على ابن الراوندى ، نُشر منها - كما مر بنا في غير هذا الموضع - كتاب الانتصار والرد على ابن الراوندى الملحد ، وهو يدل بوضوح على سعة معرفته بآراء المعتزلة ، وكان ابن الراوندى نسب إليهم آراء كثيرة غير صحيحة ، فزيّفها وبيّن بطلانها ، ومن عجب أن نرى البغدادى فى الفرق بين الفرق والشهرستانى فى الملل والنحل ينسبان إليهم بعض هذه الآراء ، كما يتضح من المقارنة بين ما جاء فيهما عن الجاحظ مثلاً وما جاء فى كتاب الانتصار . ويمكن من هذا الكتاب استخلاص كثير من آراء الخياط مؤلفه ، ومن آرائه المهمة ذهابه إلى أن المعلوم يُعَدّ شيئاً ، محتجاً بأن الشيء ما يعلم ويخبر عنه ، وبذلك عَدَّ الجوهر جوهرًا فى العلم والعرض عرضاً فى العلم ، وأطلق على المعلوم لفظ الثبوت^(١) .

وأنبه من هؤلاء المعتزلة جميعاً وأشهر أبو على^(٢) محمد بن عبد الوهاب الجبائى المتوفى سنة ٣٠٣ وهو تلميذ أبى يعقوب الشحام البصرى ، وهو وابنه أبو هاشم من معتزلة البصرة . ولعل خير ما يصور آراءه كتاب مقالات الإسلاميين للأشعرى تلميذه وفيه أنه كان يرى أن الله سبحانه لم يزل عالماً بالأشياء والجواهر والأعراض وأن الأشياء تُعَلَّم أشياء قبل كَوْنِها وتُسَمَّى أشياء قبل كونها وكذلك الجواهر والحركات والسكون والألوان والطعوم والأراييح والإرادات^(٣) . وكأنه فى موقفه إزاء الأشياء يلتقى بالخياط فى رأيه الذى مرَّ بنا آنفً ، وقد حاول بعض خصومهما أن يلزهما بأنهما يقولان بأزلية الأشياء وقدم الأجسام والجواهر والأعراض ، ومن المحقق أنهما لم يقولوا بذلك إنما يريدان أزلية العلم الإلهى . ومن تنمة رأى أبى على أنه كان يرى أن ما علم الله أنه يكون لا بد أن يكون . وكان يرى أن من الذنوب صغائر وكبائر ، وأن الصغائر تستحق غفرانها باجتنب الكبائر ، وأن الكبائر تُحْبِطُ الثواب على الإيمان ، وكان يذهب إلى أن العزم على الكبيرة كبيرة والعزم على الكفر كفر^(٤) . وكان يقول إن الله خير بما

يلوى ، الجزء الخاص بالمعتزلة والأشاعرة

ص ٢٨٠ وما بعدها .

(٣) مقالات الإسلاميين ١ / ٢٢٢ .

(٤) مقالات الإسلاميين ١ / ٣٠٥ .

(١) الشهرستانى ١ / ٧٧ .

(٢) انظر فى ترجمة أبى على الجبائى وآرائه

طبقات المعتزلة لابن المرتضى ص ٨٠ ومقالات

الإسلاميين للأشعرى فى مواضع مختلفة والشهرستانى

٧٨ / ١ ومذاهب الإسلاميين لعبد الرحمن

فعل من الخير ، وقال إن الأمراض والأسقام ليست بشرّ في الحقيقة وإنما هي شرّ في المجاز ، وكذلك كان قوله في جهنّم إذ كان يقول إن عذابها ليس بخير ولا بشرّ في الحقيقة ، لأن الخير هو النعمة وما للإنسان فيه منفعة ، والشر هو العيب والفساد وعذاب جهنّم ليس بصالح ولا بفساد وليس برحمة ولا منفعة ، ولكنه عدل وحكمة^(١) . وكان يرى أن معنى قوله تعالى : (الله نور السموات والأرض) إنما هو على سبيل التوسع ، ومعناه أنه هادى أهل السموات والأرض ، وأنهم يهتدون به كما يهتدون بالنور والضياء وقال إنه لا يجوز أن نسميه نوراً على الحقيقة إذ هو ليس من جنس الأنوار^(٢) . وكان يُجَلُّ العقل إجلالاً شديداً ، وهو إجلال كان يتابع فيه المعتزلة ، حتى لم يمكن أن نسميهم جميعاً باسم العقليين ، غير أنه مضى في الشوط إلى نهايته « فأثبت - وتابعه ابنه أبو هاشم - شريعة عقلية ، وردّ الشريعة النبوية إلى مقدّرات الأحكام ومؤقتات الطاعات التي لا يتطرق لإيها عقل ولا يهتدى إليها فكر^(٣) » . ويقال إن تلاميذه حرّروا ما أملاه فوجدوه مائة وخمسين ألف ورقة ، ولم يبق من مصنفاته الكثيرة سوى تفسيره .

وأبو هاشم^(٤) الجُبَّانِي عبد السلام بن محمد بن عبد الوهاب المتوفى سنة ٣٢١ لا يقل عن أبيه أبي علي الجُبَّانِي شهرة ، بل إنه يُقدِّمه في الشهرة وذبوع لاسم ، بل لقد تحول المعتزلة في القرن الرابع الهجري إلى مذهبه وآرائه ، مؤمنين بأنه لم يبلغ غيره في الكلام مبلغه . وأبوه هو أستاذ الذي خرّجه في المباحث الاعتزالية ، وهو يتفق معه في كثير من آرائه ، وينفرد عنه في آراء كثيرة أيضاً ، يقول ابن المرتضى : « وقد استنكر بعض الناس خلافه على أبيه ، وليست مخالفة التابع للمتبع في دقيق الفروع بمستنكر ، وفي ذلك يقول أبو الحسن الكرخي :

يقولون بين أبي هاشم وبين أبيه خلافٌ كثيرٌ
فقلتُ وهل ذاك من ضائِرٍ وهل كان ذلك مما يَضِيرُ

والفهرست ص ٢٦١ والمثل والنحل للشهرستاني
٧٨/١ وما بعدها والفرق بين الفرق للبغدادى
(طبعة محي الدين عبد الحميد) ص ١٨٤
ومذاهب الإسلاميين لبدي ١/ ٣٣٠ .

(١) مقالات الإسلاميين ٢/ ١٩٥ .
(٢) مقالات الإسلاميين ٢/ ١٩٢ .
(٣) الشهرستاني ٨١/١ .
(٤) انظر في ترجمة أبي هاشم تاريخ
بغداد ١١/ ٥٥ وطبقات المعتزلة ص ٩٤

فخلُّوا عن الشيخ لا تعرضوا لبحر تضايقُ عنه البحورُ
وإن أبا هاشم تِلَّوهُ إلى حيث دار أبوه يدورُ
ولكن جَرى من لطيف الكلام كلامُ خفيٍّ وعالمُ غزيرُ

فهو قد دار مع أبيه في آراء كثيرة ، واستقل عنه في أخرى استقلالاً ، لا يضيره ، فحبُّه أباه وتقديره شيء ، وحبُّه الحقيقة الاعتزالية وتقديره إياها شيء آخر . وأدرك الشهرستاني ما بين الأب والابن من الاتفاق ، فجمع بينهما في فصل واحد ، عارضاً فيه أولاً وجوه اتفاقهما ، ثم ذكر ما خالف فيه أبو هاشم أباه . ولعل أهم نظرية عُرف بها هي نظرية الأحوال ، وهي نظرية تتصل بصفات الله الأزلية ، ومعروف أن المعتزلة نفوها من قديم ذاهبين إلى أنها هي عين الذات الإلهية ، فالله عالم بذاته ، أى علامه هو ذاته ، وهكذا بقية الصفات ، وقال أبو على الجبائي إن الله عالم لذاته وقادر لذاته ، وهلم جرأ ، وتنبيه أبو هاشم إلى فساد قول أبيه لما يترتب عليه من جعل الله علة لصفاته ^(١) . فحاول النفوذ إلى رأى دقيق وهادئ عقله إلى أن الصفات أحوال تدرك بها الذات على نحو إدراكها للدعاني الكاكية ، ويوضح ذلك الشهرستاني قائلاً : « عند أبي هاشم هو عالم ذاته أى ذو حالة هي صفة معلومة وراء كونه ذاتاً موجوداً إنما تُعَلِّمُ الصفة على الذات لا بانفرادها ، فأثبت أحوالاً هي صفات لا موجودة ولا معدومة ولا معلومة ولا مجهولة ، أى هي على حيالها لا تُعَرَّفُ كذلك بل مع الذات ، قال : والعقل يدرك فرقاً ضرورياً بين معرفة الشيء مطلقاً وبين معرفته على صفة ، فليس من عرف الذات عرف كونه عالماً ولا من عرف الجوهر عرف كونه متحيزاً قابلاً للعرض ^(٢) » . وهي نظرية دقيقة ، إذ حاول بها أبو هاشم أن يلغى ما قد يُظنُّ من نفي المعتزلة : أبى الهذيل العلاف وأضرابه للصفات الأزلية عن الله أنه ليس لها وجود مع أنها مكررة مرددة في الذكر الحكيم ، فقد ذهب إلى أنها في حال وسطى لا موجودة ولا معدومة ، وأنها تُدْرَكُ كما تدرك الكليات بدون أن تكون هي نفسها عين الذات ، وكأنه خشى أن يؤول ذلك عند بعض الناس إلى أن تكون جواهر أو أقانيم ، فأثبت أنها أحوال ، وفي الوقت

(١) أصول الدين للبغدادى (طبعة استانبول) (٢) الشهرستاني ٨٢/١ .

نفسه كان يرد على زميله الأشعري كما سيلي عما قليل في فكرته القائلة بأن الصفات الإلهية زائدة على الذات . ومن آراء أبي هاشم الطريفة تعليله للعقاب الأخرى إذ يقول : « إن القديم تعالى خلق فينا شهوة القبيح ونفرة الحسن ، فلا بد أن يكون في مقابلته من العقوبة ما يزجرنا عن الإقدام على المقبّحات ، ويرغبنا في الإتيان بالواجبات ، وإلا كان يكون المكلف مغرّى بالقبح ، والإغراء بالقبح لا يجوز على الله تعالى (١) » ، وكأنّه تنبّه بوضوح إلى أن الغرض من العقاب التريية وأن يحذّر الإنسان عواقب عمله الوخيم حتى يتنوّى عنه . وكان أبوه يرى أن التوبة عن الصغائر تجب سمعاً وعقلاً ، أما أبو هاشم فكان يرى أنها لا تجب إلا سمعاً ، لأن التوبة - في رأيه - إنما تجب لدفع الضرر عن النفس ولا ضرر في الصغيرة فلا التوبة تجب عنها (٢) . وكان أبوه يرى أن التوبة عن بعض الكبائر مع الإصرار على بعض آخر تصحّ ، أما أبو هاشم فكان يرى أنه لا تصح التوبة عن بعض الكبائر دون بعض ، فلا بد أن يتوب المذنب من جميع الكبائر توبة نصوحاً (٣) .

وتلميذ ثان لأبي على الجبائي انفصل عنه بأكثر مما انفصل ابنه أبو هاشم ، بل لقد استطاع أن يقيم مذهباً جديداً لا يعارض به أستاذه فحسب ، بل يعارض به المعتزلة جميعاً ، إذ أقامه على التوسط بين آرائهم وآراء أهل السنة ، حتى لقد عدّ هو نفسه مذهب أهل السنة ، ونقصه أبا الحسن (٤) . على بن إسماعيل ، سليل أبي موسى الأشعري الصحابي الجليل ، المتوفى سنة ٣٢٤ ، وقد ظل على مذهب المعتزلة أربعين عاماً كان يختلف فيها إلى حلقات أستاذه أبي على الجبائي ، ثم تاب من القول بالعدل وخلق القرآن وعدم رؤية الله بالأبصار وأن الإنسان يفعل أعماله بقدرته وإرادته الخالصة ، وظل يلقى محاضراته بالبصرة والناس يقبلون عليه إلى أن بدا له أن يتركها إلى بغداد وظل بها إلى وفاته .

وقد نُشرت له كتب مختلفة ، منها مقالات الإسلاميين التي رجعنا إليها مراراً .

بغداد ٣٤٦/١١ والفهرست ص ٢٧١
والجواهر المضية في طبقات الحنفية ١/٣٥٣
وابن خلكان وطبقات الشافعية للسبكي
٣٤٧/٣ والنجوم الزاهرة ٢٥٩/٣ ومذاهب
الإسلاميين لبدوي ٤٨٧/١ .

(١) شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار ص ٦٢٠
(٢) المصدر نفسه ص ٧٩٢
(٣) المصدر نفسه ص ٧٩٤
(٤) انظر في ترجمة الأشعري تاريخ

ومنها رسالته : الإبانة عن أصول الديانة واللامع ، وهما يصوران مذهبه تصويراً دقيقاً ، وهو مذهب كما قدمنا يوازن بين آراء أهل السنة ، وكل مسألة تُذكر فيها الأدلة العقلية والأدلة السمعية من الكتاب والسنة ، ونضرب مثلاً لذلك البراهين على وجود الله ، وقد اشتقها من القرآن اشتقاقاً على هذا النمط الذى ساقه الشهرستانى إذ يقول : قال الأشعرى : الإنسان إذا فكر فى خلقته من أى شىء ابتداءً ، وكيف دار فى أطوار الحلقة طوراً بعد طور حتى وصل إلى كمال الحلقة ، وعرف يقيناً أنه بذاته لم يكن ليدبر خلقه ، ويبلغه من درجة إلى درجة ويرقاه من نقص إلى كمال - عرف بالضرورة أن له صانعاً قادراً عالماً مريداً ، إذ لا يتصور صدور هذه الأفعال المحكمة من طبع لظهور آثار الاختيار فى الفطرة وتبين آثار الإحكام والإتقان فى الحلقة^(١) ، وواضح أنه يستلهم فى هذا البرهان ما جاء فيه من أطوار خلق الإنسان وتحواه من نقطة إلى علقة فضضة فعضام فكسوة من لحم ، ثم أطواره فى حياته . وإذا عرض مثلاً لبيان أن الله لا يشبهه شىء أدلى بالبرهان العقلى ثم أتبعه بالبرهان السمعى من مثل قوله تعالى : (ليس كمثله شىء) . وعلى هذه الشاكلة دائماً يسوق الأشعرى مع الأدلة العقلية الأدلة السمعية . وقلنا آنفاً إن مذهبه وسط بين مذهبي المعتزلة والمحدثين ، وقد تابع الأولين فى تنزيه الذات العلية عن التشبيه وكل ما يتعلق بالتجسيد ، وأخذ بقول المحدثين فى أن الله يُرى بالأبصار يوم القيامة ، مستدلاً على ذلك بأدلة سمعية أوضحها فى رسالته « الإبانة » إيضاحاً تاماً وبأدلة أخرى عقلية أوضحها فى « اللامع » . وتوسط بين المعتزلة والجبهرية فى أفعال الإنسان وخالقها ، فقد كان الجبهرية يذهبون إلى أن الله خالق أفعال الإنسان ، وقال المعتزلة ، بل الإنسان هو الذى يخلق أفعاله ، وتوسط الأشعرى فقال إن أفعال الإنسان لله خلقاً وصنعاً وهى للإنسان كسباً وإرادة فهو يريد بها والله يخلقها فيه^(٢) . وكان يرى أن صفات الله أزلية قائمة بذاته ، فهى ليست عين الذات الإلهية كما يقول أكثر المعتزلة ولا هى أحوال كما قال أبو هاشم الجبائى بل هى زائدة على الذات قائمة بها^(٣) . وحاول التوفيق فى مسألة خلق القرآن بين المعتزلة والمحدثين من أمثال ابن حنبل أى بين القولين القائلين بأن القرآن حادث أو هو قديم ، فقال إن « العبارات

(٣) الشهرستانى ١ / ٩٥

(١) الشهرستانى ١ / ٩٤ .

(٢) اللامع ص ٤٥ وما بعدها .

والألفاظ المنزلة على لسان الملائكة إلى الأنبياء عليهم السلام دلالات على الكلام الأزلّي ، والدلالة مخلوقة محدثة ، والمدلول قديم أزلي^(١) ، وبعبارة أخرى كان يرى أن القرآن وكلام الله القائم بذاته قديم ، أما الكتاب الذي بين أيدينا والذي نزل به الوحي في زمن من الأزمان فحدث . وأنزل العقل من مكانته القدسية عند المعتزلة وخاصة في الإلهيات ، إذ قال إن معرفة الله وشؤنه الإلهية ليس سبيلها ولا أدواتها العقل ، بل الوحي والشرع ونصوص القرآن والسنة ، فالعقل عنده لا يوجب شيئاً ولا يقتضي تحسيناً ولا تنقيحاً ، ولا يوجب على الله رعاية لمصالح العباد ، والواجبات كلها واجبات بالسمع ، وقد نُحَصِّل معرفة بالعقل ، ولكنها لا تجب إلا عن طريق السمع^(٢) .

الفصل الرابع

نشاط الشعر

١

علم الشعراء بأسرار العربية

كل من يتابع جهود اللغويين في القرنين الثاني والثالث للهجرة يلاحظ تَوًّا كثرة ما أودوه للعربية وشعرائها من دراسات متنوعة ، فقد جمعوا مادتها الشعرية واللغوية جمعاً مستقصياً صوروه في مباحث مفردة كبحث عن الإبل أو الشجر أو الكلاء أو النخل و الكرم أو خَلَقَ الإنسان أو الميسر والقداح أو الأنواء ، وكبحث عن الاشتقاق أو عن علامات التأنيث أو الهمز وتحقيقه أو عن فعلت وأفعلت أو عن الأضداد ، أو عن الوحش والسباع والطير والهوام وحشرات الأرض . وكادوا لا يتركون موضوعاً ولا صيغة لغوية فيها بعض الاشتباه إلا دَوَّنوا فيها الرسائل القصيرة والطويلة . ثم أَلْفَوْا الكتب المجلدة . واستطاعوا منذ أواسط القرن الثاني للهجرة أن يضعوا قواعد النحو العربي وضعاً نهائياً وبالمثل قواعد الصرف والتصريف ، وأيضاً قواعد الأوزان الشعرية والقوافي ، بحيث أصبح الشعر العربي ولغته جميعاً مَذَلَّلِينَ منقادين للناشئة ، وفي أثناء ذلك وُضِعَت القواعد لوضع المعجم العربي ، بحيث يضم بين دِفَتَيْهِ كل الكلمات العربية المستعملة والأخرى المهملة ، على نحو ما هو معروف عن معجم العين المنسوب إلى الخليل بن أحمد ، وأَلَفَ على غراره بأخرة من العصر ابن دريد معجمه المشهور : الجمهرة ، كما مرَّ بنا في غير هذا الموضع .

وعلى هذا النمط أخذ اللغويون يجمعون للناشئة من الشعراء وغير الشعراء مادة اللغة ، كما أخذوا يبسطون لهم قواعد النحوية والصرفية والموسيقية ، وقد مضوا منذ مطالع العصر العباسي يجمعون لهم عيون الشعر العربي في مجاميع كثيرة ، غير ما جمعهوه

من الدواوين القديمة الجاهلية والإسلامية، وما أخذوا يجمعونه من دواوين العصر العباسي للشعراء النابهين، وكانوا يشرحون ما يجمعونه من أشعار تلك الدواوين حتى تفقهه الناشئة فقهًا حسنًا، وشاركهم الشعراء في هذا الصنيع على نحو ما مر بنا في الفصل السالف مما صورناه عند أبي تمام والبحتري، وقد يكون مما دفعهما إلى هذه المشاركة أنهما وجدا اللغويين يهتمون في كثير من الأثر بالشعر الغريب، ليتخذوا منه مادة للتعليم على نحو ما يلقانا في كتابات ابن السكيت وثلعب، فأرادا أن يقفا الناشئة بجانب ذلك على طرائف الشعر القديم والحديث، وكان كثير من اللغويين قد عني بالترجمة للشعراء القدماء الجاهليين والإسلاميين، فانبرى بعض الشعراء والأدباء لترجم للشعراء العباسيين في كتب يفرضها لهم، كما يلقانا في كتاب طبقات الشعراء المحدثين لابن المعتز وكتاب الورقة لمحمد بن داود بن الجراح، وجمع ابن قتيبة بين القدماء والمحدثين في كتابه «الشعر والشعراء». وكانت قد سبقت ذلك كله كتب في تراجمهم للأصمعي وأبي عبيدة ودعلبل، وكتاب طبقات الشعراء لابن سلام مشهور.

وكل ذلك مكّن الناشئة من إتقان العربية والوقوف على كثير من أسرارها التركيبية والموسيقية، وزاد من وقوفهم على هذه الأسرار أن بيئة المتكلمين أخذت تُعنى منذ القرن الثاني الهجري بتلقين الناشئة بعض قواعد البيان والبلاغة، حتى يحسنوا الجدل والحوار وحتى يخلبوا ألباب سامعيهم، وإذا هذه القواعد تتفجر على ألسنتهم عند بشر بن المعتز وأمثاله، وإذا الجاحظ يؤلف في ملاحظاتهم وملاحظاته البيانية كتابه «البيان والتبيين» مصورًا فيه كثيرًا من أسرار البيان العربي تصويرًا يتيح للشباب أن يقفوا في غير مشقة على خصائص العربية وأن يندو قوا هذه الخصائص تدوقًا دقيقًا. وشارك الجاحظ في هذا المجال كثير من اللغويين، على نحو ما مررنا في الفصل السالف أمثال أبي عبيدة والبرد، ولم يلبث أن انبرى شاعرنا به هو ابن المعتز لتصوير فنون البيان الشعري الرائع في كتابه «البديع» واستطاع أن يضع لها المصطلحات التي كانت تجمعهما في عصره، وأن يتيح لها من التعريف بها ووصف أساليبها ما لم يتح لمتكلم أو لغوي أو شاعر من قبله، باثنا في ثنايا ذلك ملاحظات دقيقة في الفن الشعري وجماله المتنوع الذي لا يتضب معينه.

ومعنى ذلك كله أن العربية بخصائصها الجمالية والموسيقية والصرفية والنحوية وضعت تحت أعين الناشئة في القرن الثالث الهجرى وضعاً علمياً دقيقاً حتى أصبح في ميسور كل ناشئ أن يتقنها ، إذ يستطيع أن يقرأ أشعارها في غير غناء ويفهمها في غير مشقة ويتذوقها في غير تكلف ، بحيث يستطيع أن يسيغها ، بل أن يتمثلها تمثلاً دقيقاً . على أنه يحسن أن نعترف بأن عربية مولدة أخذت تشيع على ألسنة العامة بجانب العربية الفصحى ، وكانت تتداولها الطبقات الدنيا وقد يشاركها أفراد من الطبقات الوسطى ، وكانت تنتشر في العراق على ألسنة النبط وأهل الذمة ، وساعد على انتشارها تحول مقاليد الحكم العباسى من أيدي الفرس أصحاب الحضارة العريقة إلى أيدي الترك ، وكانوا لا يعرفون أى حضارة ولم يكن يعينهم أن يحسنوا العربية ، فاستخدموا اللغة الدارجة في أحاديثهم ، وكان ذلك عاملاً مساعداً في إشاعتها لهذا العصر بين من يعلمون معهم في الدواوين وأعمال الدولة المختلفة ، وليس ذلك فحسب ، فقد كان نفر من كتابهم يستظهرون على ألسنتهم بعض الكلمات العامية ، وعمم ذلك بعض الباحثين في الشعراء ، إذ رأوا ابن قتيبة يحيل كتابه « أدب الكاتب » إلى أسواط حامية يشوى بها وجوه الكتاب لعصره معلناً النكير عليهم لعنايتهم بالمنطق والفلسفة والهندسة وعلم الفلك ، مسجلاً قعودهم عن التثقيف ثقافة عميقة باللغة واشتقاقاتها وأبنيئها ، وكيف أنهم لا يعرفون المدلولات الدقيقة للألفاظ ولا مواضع استخدامها ، مع جهلهم بكثير من الصيغ وما بينها من الفروق ، فهم لا يعرفون فرق ما بين اسم المرة واسم الهيئة في الصيغة ، ولا كيف تتبادل الحروف أمكنتها ، وكذلك الأفعال اللازمة والمتعدية ، مع ما يلوكون من الكلمات الفارسية .

وطبيعى أن هذه الحملة التى شنّها ابن قتيبة على الكتاب لا تشمل جمهورهم ، إنما هى تشمل أفراداً منهم ، لم يكونوا من بلغاء العصر ولا من كتّابه الممتازين ، ومن أجل ذلك يجب ألا نعممها في الكتاب فضلاً عن الشعراء ، ويجب ألا يغيب عن بالنا أن اللغويين كانوا لهم بالمرصاد ، فمن انحرف منهم عن جادة الفصحى شنعوا عليه وسقطوا به من حالى سَقَطَةٍ لا إقالة له منها أبداً ، إذ كانوا يبعدون أنفسهم حُماة الفصحى ، وأن من نوّها به من الشعراء طار اسمه ومن أزرّوا به لم تقم له قائمة ، وكان الشعراء يسلمون لهم بهذه المنزلة ، فكانوا يعرضون عليهم أشعارهم

وخاصة في أول أمرهم ، كما يحدثنا أبو الشبل أحد الشعراء لعصر المتوكل إذ يقول :
 « لما عرض لي الشعر أتيت جاراً لي نحويًا هو المازني وأنا يومئذ حديث السن ،
 فقلت له إن رجلاً لم يكن من أهل الشعر ولا من أهل الرواية قد جاش صدره بشيء
 من الشعر ، فكره أن يُظهره حتى تسمعه ، قال : هاته ، وكنت قد قلت شعراً
 ليس بجيد ، إنما هو قول مبتدئ ، فأنشدته إياه فلما سمعه نهزني عليه وذمّه ^(١) ،
 ومنذ بشار بن برد في العصر العباسي الأول نجد اللغويين يتعقبون الشعراء في أساليبهم ،
 فكلما بدا من أحدهم انحراف عن جادة الفصحى أعلنوا النكير عليه ، حتى لو كان
 في انحرافه الظاهر إنما يقيس على أمثلة الشعراء القدماء وأبنيتهم أو على بعض
 أبنية العرب المسموعة ، وما يصور ذلك عند بشار أنه رأى العرب يصوغون من الفعل
 فعَلَى للدلالة على السرعة فيقولون حَجَلَى للدلالة على سرعة السير ، فقياس على
 هذه الصيغة وجَلَى من الوجَل قائلاً :

والآن أقصر عن سُمَيَّة باطلي وأشار بالوجَلَى على مشير

فأخذ كثير من اللغويين يحمل عليه مخطئاً له ^(٢) ، وبشار محق ، لأن من حقه
 القياس ، وإذا كان من حقنا أن نقيس في شئون الدين ، كما قرّر ذلك الفقهاء
 المعاصرون له من أمثال أبي حنيفة فأولى أن يقيس الشعراء في أبنية اللغة واشتقاقاتها
 الصرفية ، وارتضت كثرة اللغويين منهم أن يخضعوا أحياناً لضرورات الأوزان
 وأنغامها التي يصوغون عليها أشعارهم ، وسمّوا ذلك ضرورات شعرية ، غير أن بعض
 المحافظين المسرفين في محافظتهم كانوا يعدّون الضرورات عيوباً ، وكانوا لا يزالون
 يحصونها على الشعراء كما يحصون عليهم بعض أقيستهم مما لم يسمع عن العرب ، وظل
 ذلك دأبهم في هذا العصر كما كان دأبهم في العصر العباسي الأول حين كانوا
 يراجعون بشاراً وأضرابه . واحتفظ كتاب الموشح للمرزياني بطائفة كبيرة من مراجعاتهم
 لمعاصريهم ، من ذلك قول علي بن الجهم :

ونحن أناسٌ أهل سَمْعٍ وطاعةٍ يصحّ لكم إسرارُها وعِلاؤها

فقد ذكروا أنه أخطأ في قوله : « إعلانها » بكسر العين وإنما سُمع عن العرب : « إعلانها » وكأن ابن الجهم صاغ من كلمة العَلَن عَالَنه كما قالوا أعلنه واشتق منها : عَالَنه عِلَانًا . وسمعه المبرد يقول في بعض حديثه : « أظنني مأزوراً في قعودي » ، فقال : لقد نقص في عيني حين سمعت منه هذا القول ، إذ المسموع موزور لا مأزور^(١) ، وكأن ابن الجهم قاس هذه الصيغة على مثال مأجور ومأثور . وهذان المثالان هما كل ما رواه اللغويون من أخطاء ابن الجهم ، وحتى على فرض خطئه فيهما وأنه لم يُصب في اجتهاده كان يحسن أن يغفروهما له وأن يشيدا بمدى معرفته للعربية وأمثلتها في البنية والصياغة ، إذ لم يحدث أن أخطأ فيها — إن سلمنا لهما بهذا الخطأ — سوى مرتين . وشاعر ثان هو علي بن محمد العلوي الكوفي المعروف بالحماني فقد أخذوا عليه خطأين : خطأ نحويًا وخطأ اشتقائيًا صرفيًا ، فأما الخطأ النحوي ففي قوله :

وجهٌ هو البدر إلا أن بينهما فضلاً تلالاً في حافاته النورُ
في وجه ذاك أخاطيطٌ مسوَّدةٌ وفي مضاحك هذا الدرُّ منشورٌ

فقد قالوا إن حق كلمة « منشور » في آخر البيت الثاني النصب ، لأنها في موقع الحال ، والطريف أن المرزباني حاول إخراج الحماني من هذا الخطأ وردّه عنه ، فقال إن رفع منشور جائز بمعنى هو منشور^(٢) ، والمسألة لا تحتاج إلى كل هذا التأويل فإن الحماني تبادر إليه أن كلمة منشور خبر لكلمة الدر ، وكلمة « في مضاحك هذا » متعلقة بها ، ولا عيب ولا خطأ في ذلك . وأما الخطأ الاشتقائي الذي عابوه على الحماني ففي قوله :

أرقتُ وماليلُ المُضَامِ بنائِمٍ وقد ترقَّد العَيْنَانِ والقَابُ سَاهِرٌ

فقد قالوا إن الصواب متَّصِم بفتح الميم ، إذ لا يقال أضحمته وإنما يقال ضحمته^(٣) فهي في غير حاجة إلى التعدي بالهمزة . وربما سمع الحماني من العرب من يقول أضام أو ربما قرأ ذلك في بعض الأشعار القديمة . وهو على كل حال خطأ واحد يشهد

(١) انظر الموشح للمرزباني (طبعة

دار نهضة مصر) ص ٥٢٨ .

(٢) الموشح ص ٥٢٠ .

(٣) الموشح ص ٥٤٤ .

بسلامة لغته . وحتى البحترى الذى اشتهر بفصاحته وإتقانه للعربية وعلمه بأسرارها وقدرته البارة على استخدام مفاتيحها الموسيقية نجد اللغويين يتوقفون بإزاء بعض استعمالاته ليشبثوا عليه الخطأ فى هذا الموضع أو ذاك ، وقد زعموا أن من اللحن عنده قوله فى بعض شعره :

يا علياً بلْ يا أبا الحسن الما لك رِقْ الظريفة الحسناء

وواضح أن المنادى العلم ، وهو على ، فى أول البيت منصوب منون ، وحقه الضم^(١) ، وهى مسألة يعرفها الناشئة ومن يشدون شيئاً من النحو ، وغريب أن يخطئ فيها البحترى ، وهو فعلاً لم يخطئ ، فإن رواية الكلمة فى الديوان « يا على » وإذن لا خطأ ، وقد يكون تقوّل عليه ذلك بعض خصومه . وأخذوا عليه قوله فى الفتح بن خاقان :

يا مَادَحَ الفَتَحِ ويا آمَلُهُ لستَ امرأَ خَابَ ولا مُثْنٍ كَذَبَ

فقد قالوا إن كلمة « مثن » فى البيت كان حقها النصب ، فيقال مثنيًا ، لأنها معطوفة على منصوب هو كلمة « امرأ » وفاتهم أن البحترى رفع الكلمة على إضمار مبتدأ محذوف أى : « ولا أنت مثن كذب » ومن حقه أن يصنع ذلك حين يريد . وأخذوا عليه أيضاً قوله :

ولو أنصفَ الحَسَّادُ يوماً تَأَمَّلُوا مساعيك هل كانتَ بغيرك أَلْيَقًا

فإنه سكت كلمة « مساعيك » وكان حقها النصب : « مساعيك » لأنها مفعول به ، وأنكروا عليه قوله فى مطلع رثائه للمتوكل :

محلٌّ على القاطول أخلق دائرُهُ وعادتْ صروف الدهر جَيْشًا تغاوره^(٢)

وقالوا المروى : دَئِيرٌ مُخْلِقة ، ولا يقال : « أخلق دائره » لأن الدائر لا بقية له فخلق أى تبلى وتستجد ، وهم مبالغون فى قولهم ، لأن العرب يقولون أطلال دائرة ، وهم يريدون بقاياها أو قل بقايا الديار قبل أن تُمَحَى محوً نهائياً .

(٢) المحل هنا : قصر المتوكل الذى قتل فيه وكان قد بناه على جدول القاطول بسمراء .

(١) انظر فى هذا اللحن وما يتلوه ما أخذوه على البحترى الموشح ص ٥١١ وما بعدها .

ويلاحظ الصاحب بن عباد أنه ذكر الفعل الناقص : « نسيه » بإشباع الياء وإسكانها بدلا من فتحها في قوله^(١) :

أبو غالب بالجود يذكر واجبي إذا ما غيى الباخلين نسيه

وكان ابن عباد لم يلتفت إلى أن البحترى إنما صنع ذلك لضرورة القافية التي تنتهي بها قصيدة البيت ، وأيضاً فإنه لم يلتفت إلى أن هذه لغة معروفة لطبقة قبيلة الشاعر إذ ينطقون مثل « رضى » بفتح الياء « رضى » بإسكانها وإشباعها . وما يدل دلالة واضحة على تعنت اللغويين إزاء البحترى وغيره من الشعراء أن نجد صاحب خزانة الأدب يروى عنهم أنهم أنكروا عليه تسكين اللام في كلمة « طَلَّحاته » من قوله مادحاً :

عدلتم بِطَلَّحَةٍ عن حَقِّهِ ونَكَّبْتُمُ عن مِوالاته
وكيف يجوز لكم جَحْدُهُ وَطَلَّحتكم بعض طَلَّحاته

قالوا كيف يسوِّغ لنفسه تسكين اللام والوجه أن تكون مفتوحة^(٢) ، وواضح أنه صنع ذلك لضرورة الشعر ، ومعروف أنها تبيح للشاعر أن يخرج على القواعد النحوية والصرفية أحياناً ، فما بالناس بالحركة والسكون حين يتبادلان مواضعهما وفي الحق أن كل ما أنكروه على البحترى مما يحق له ولا تجوز مؤاخذته عليه ، وهي صورة من التزمّت وضيق الأفق عند بعض اللغويين . وما يدخل في هذا الباب من التعنت القبيح أن نجد بعض اللغويين يستمع إلى ابن الرومي يمدح الموفق حين قضى على ثورة صاحب الزنج التي مرت بنا في غير هذا الموضع ، فيقول في بعض مديحه مخاطباً الموفق :

ثناك له مقداره فكأنما تقوَّض ثَهْلانٌ عليه وصنَّددُ^(٣)

فيعرض على نطقه : « صنَّدد » بفتح الدال الأولى قائلًا إنها « صندد » بكسرها^(٤) . وإنما أطلنا في بيان ذلك كله لندل على أن اللغويين لم يكونوا يستطيعون

(١) الكشف عن مساوئ المتنبي للصاحب

ابن عباد (طبعة القاهرة) ص ٩ .

(٢) خزانة الأدب للبغدادى ٣/ ٣٩٤ .

(٣) ثهلان وصندد : جيلان .

(٤) ديوان المعاني لأبي هلال العسكري

(طبعة بغداد) ٥٦/٢ .

أن يتعلقوا في هذا العصر على الشعراء النابهين بأخطاء جوهريّة في اللغة أو في التصريف ، بل لقد كانوا لا يزالون يلتقطون بعض الضرورات الشعرية ليعدوها أخطاء ، وحتى الحركات الداخلية في الكلمات وأبنيتها كانوا لا يزالون يتعقبونها على نحو تعقبهم لابن الرومي في كلمة « صندد » . وكل ما ذكره المرزبانى وسجله عن علماء اللغة في هذا الباب لا يعدو مثل هذه الصور التي وصفناها ، ومثلها ما حاول بعض معاصريه أن يسجلوه مثل صاحب بن عباد وأبى هلال العسكري ، فإنهم لم يتجاوزوا في الغالب الضرورات الشعرية ، مما يدل دلالة قاطعة في العصر على سلامة اللغة وسلامة الألسنة ، وحقاً كما قلنا كانت هناك لغة عامية تتداول في الحياة اليومية ، ولكنها ظلت لا تجور على العربية ، وظلت الناشئة في كل مكان تتغذى بالفصحى وتتلقنها على أساتذتها النابهين . وكان هناك كثيرون لا يزالون يستخدمونها في حياتهم اليومية العاملة ، كان ذلك يرفع منهم في أعين الناس ، حتى ليقول إسحق^(١) بن خلف الطنّبوري :

النحو يبسط. من لسان الألكن والمرء تُعظمه إذا لم يَلْحَنِ
وإذا طلبت من العلوم أجلّها فأجلّها عندي مقيمُ الألسنِ

وإذا كان الإعراب في رأى بعض المغنين أو الضاربين على الطنبور يبلغ هذا المبلغ من المنزلة الرفيعة ، فأول أن تكون منزلته أرفع وأعلى شأنًا عند الشعراء الذين عاصروه ، وفي الحق أنهم ظلوا يحافظون بكل قوة على الصياغة العربية في المفردات والتراكيب وعلى قواعد الإعراب والتصريف ، بحيث نجد شاعراً ضخمًا مثل البحتري أو ابن الرومي لا يكاد اللغويون يتعلقون عليه بشيء ذى بال ، بل حتى الشعراء الذين اشتهروا بأنهم كانوا أميين لا يقرءون ولا يكتبون والذين لم يجالسوا العلماء لأخذ قواعد النحو والتصريف مثل الخبّيز أُرزي ، الذى كان يخبز بالبصرة خبز الأرز ويبيعه في دكان متكسباً به ، والناس يزدحمون عليه لسماع شعره كان لا يعدو الفصحى في نظمه .

(١) عيون الأخبار لابن قتيبة (طبعة
دار الكتب المصرية) ١٥٧/٢ .

ولعل في كل ما قدمنا ما يصور من بعض الوجوه كيف كان الشعراء يتزودون بالعربية الفصيحة أزواداً مكنتهم من الوقوف على خصائصها ودقائقها الإعرابية والصرفية، بحيث نفقوا عن أساليبهم كل الشوائب التي كان من المفروض أن تسيل من العامة المتداولة إلى الفصحى، ولم ينفوها فحسب، بل عملوا جاهدين على أن يحتفظوا بالصياغة العربية الأصلية بدون أن يدخل عليها نبوءاً أو انحراف أو أى اعوجاج أو أى نقص في الأداء. ويكفى أن يكون هم جماعة كبيرة من اللغويين أن يتعقبوا سقطات شاعر مثل البحتري فيعوزهم المثال، فيلجئون إلى بعض الضرورات الشعرية عنده يسجلونها، ومعروف أن شاعراً لم يكثر في هذا العصر كما أكثر ابن الرومي، ومع ذلك لم يسعفهم الفحص في أشعاره إلا أن يسجلوا في بناء عنده حركة داخلية على تقدير صحتها إن سلم لهم ذلك. فإذا قلنا إن الشعراء في هذا العصر تمثلوا العربية وأسرارها التركيبية أقوى تَمَثُّل وأروع لم نكن مغالين ولا مُبْغِدِينَ، بل لقد تمثلوا أسرارها الجمالية كما مر بنا تمثلاً بارعاً، وهو تمثل جعل الشعراء يُعَبِّنُونَ عناية بالغة باختيار الألفاظ والملاءمة الصوتية بين اللفظة واللفظة في الجرس، بل بين الحروف نفسها، حتى يلد الشعر الألسنة التي تنطق به والآذان التي تستمع له والأفئدة التي تصنى إليه، وما زال الشعراء مكبين على قيثاراتهم يستخرجون منها أعذب الأنغام، حتى استطاع البحتري أن يصل من ذلك إلى كل ما كان يحلم به الشاعر العربي منذُ وُجد امرؤ القيس حتى عصره، فإذا شعره يستحيل أنغاماً وألحاناً خالصة.

والبحتري إنما هو رمز لحركة التمسك بالصياغة العربية، بل التمثل لها بحيث تجرى في نفس الشاعر سليقة الشعر العربي بكل سماتها وشاراتها وبكل معانيها وخواصها، بل بحيث يفقه ذلك كله فقهاً تاماً دقيقاً، بما أتيح له عند العلماء وأصحاب البلاغة من ملاحظات جمالية، تنبع من الثقافة بالشعر السابق قديمه وحديثه ومن الذوق المصنفي المتحضر ومن الشعور المرهف الرقيق. وإذا لغة الشعر تصبح تارة رصينة ناصعة كأتم ما تكون النصاعة والرصانة، وحيناً تصبح عذبة خفيفة تكاد تطير لحفتها ورشاقتها عن الأفواه طيراناً. ومن هنا كنا نستطيع أن نقول إن أساليب الشعر في العصر ظل لها رونقها وبهاؤها، بل لقد ازدادت بهاءً

ورونقاً ، بفضل تمثل الشعراء الفريد في العصر للصياغة العربية السليمة وبصرهم بأسرارها وحذقهم لخصائصها حذقاً جعلهم يُسَوِّونَ منها جواهر ولآلٍ كثيرة . وإذن فمن واجبنا أن نحترس أشد الاحتراس من حديث يوهان فك في كتابه « العربية » عن اتساع الضميم الذي دخل في العصر على لغة الشعر وصياغته ، فإن هذا الضميم الذي ساقه حين يُسَبِّحُ لا يعدو ما لاحظناه آنفاً عند البحري ومعاصريه من أشياء تُعَدُّ على الأصابع ، وهي تدخل جملة في الضرورات الشعرية ، وكأن كل الضميم الذي خاله إنما هو سراب ظنه ماء ، ولا ماء هناك ولا ضميم حدث في الفصحى على ألسنة شعراء العصر ، بل لقد كانوا يتقنون المعرفة بأسرارها ورسومها وصياغاتها الباهرة كأشد ما تكون المعرفة دقة وعمقاً .

٢

ذخائر عقلية خصبة

مرَّ بنا نشاط الترجمة في العصر كما مر بنا النشاط العام للحياة العقلية ، حتى ليكاد يظن الإنسان أنه لم يكن هناك أحد لا تتسع قراءاته ، فتشمل جميع مواد الثقافات المعروفة حينئذ من عربية وإسلامية وأجنبية من موارد شتى : موارد هندية وفارسية ويونانية ، مع ما كان يداخل المعارف الهيلينية من موارد شرقية فارسية وغير فارسية . فكل ذلك كان تحت أبصار الناس من شباب وغير شباب ينهلون منه كما يشاءون دون حجاب ودون أية صعوبات ، فدار الحكمة مكتبة الدولة مفتوحة على مصاريعها ودور أخرى كثيرة عرضنا لها في غير هذا الموضع ، ودكاكين الوراقين بالمثل تعرض كل ما يطلبه القارئ ، وحلقات المساجد تروج بالمحاضرين في مختلف فروع المعرفة ، ولكل شخص الحق في أن يستمع إلى ما يرغب فيه من هذه المحاضرات .

وأخذ العرب حينئذ يشاركون مشاركة قوية فعالة في تاريخ الفكر الإنساني ؛ فإذا علماء وفلاسفة عظام يأخذون في الظهور بينهم ، ويكنى أن نذكر الخوارزمي العالم

الرياضى النابه واضع علم الجبر ، والكندى الفيلسوف أو أول فلاسفة العرب بالمعنى الدقيق لكلمة فلاسفة ، وهما معلمان كبيران فى العصر يدلان أقوى دلالة على نهضة العقل العربى وازدهاره حينئذ ، مما عرضنا لبعض مظاهره فى الفصل الماضى . وحدث فى أثناء ذلك أن أخذ بعض الأدباء يتجرد للمزج بين ثقافات العصر واستخلاص ثقافة عربية لها طابعها ومشخصاتها المستقلة ، على نحو معروف عن الجاحظ المعتزلى ، وكان المعتزلة قد أكبوا منذ أوائل العصر العباسى فى القرن الثانى الهجرى على الثقافات الأجنبية يتزودون منها ، واستطاع كثيرون منهم أن يكتفوا لأنفسهم نظريات تتصل بالطبيعة وما وراء الطبيعة مما صورناه فى كتابنا العصر العباسى الأول ، ونفذ الجاحظ فى العصر كما قلنا آنفاً إلى الوصل فى كتاباته بين الثقافتين العربية والإسلامية والثقافات الأجنبية ، بحيث غدت كتبه تغذى العقول والقلوب ، فالأدب فيها يلتقى بالفكر والعلم التقاء خصباً مثمراً ، على نحو ما نجد فى كتابه «الحىوان» . وخطا ابن قتيبة فى هذا الاتجاه من المزج بين الثقافات خطوة أخرى كما أسلفنا ، فزج فى كتابه « عيون الأخبار » بين الثقافة العربية والثقافة الفارسية مزجاً قوياً ، مزاجاً بين طائفة كبيرة من الآداب فى الثقافة الأولى والآداب السياسية فى الثقافة الثانية ، مع ما أضافه من الحكم الطريفة التى جلبها من كتاب كليله ودمنة المترجم عن الهندية ، وكذلك ما أضافه عن الثقافة اليونانية .

وكان طبيعياً لذلك كله أن تنمى الأبعاد والفوارق بين الفكر العربى الخالص والفكر الأجنبى ، فإذا هما يمتزجان فى بيئة الشعراء وغيرها من البيئات ، وإذا كثير من الشعراء يتعمقون الفلسفة والثقافات الأجنبية ، وحقاً ظلت طائفة لاتعنى بهذا التعمق على نحو ما مر بنا فى الفصل الماضى عند البحترى وأضرابه ، ولكن حتى هؤلاء وحتى البحترى نفسه لم يستطيعوا التخلص من معرفة بعض جوانب الفكر الأجنبى ، على حين نجد كثيرين غيره من أمثال ابن الرومى تعمقوا فى هذا الفكر ، بل لقد أقبلوا عليه يلتمهونه التهاماً ، بل لقد انقضوا عليه انقضاضاً ، وكأنما لا يريدون أن يبقوا منه بقية . على أنهم لم يفنوا فى هذا الفكر ، فقد ظلوا يحتفظون للشعر العربى بشخصيته ومقوماته الأساسية . فهم لا يذیبونه فى الفكر الأجنبى ، بل هم يخضعون هذا الفكر له ، أو بعبارة أدق هم يتخذون من هذا الفكر وسائل كى يتعمقوا فى تصوير المشاعر

والأفكار التي طالما عرض لها الشعر العربي ، مضيفين إليها معاني وخواطر حافلة بما يملأ النفس إعجاباً .

ولا ريب في أن ذلك كان على درجات ، فمن الشعراء من كان يغرق في التشقّف بالثقافات الأجنبية ، ومنهم من كان لا يشق على نفسه ، فهو إنما يلم بأطراف منها تقل وتكثر حسب ملكاته العقلية ، ومهما أسرف الشاعر في هذا الإلمام فإنه يحتفظ لأساليبه بالنصاعة والنقاء ، حتى من كان يرجع إلى أصول غير عربية ، فقد استقر في نفوس جميع الشعراء الاحتفاظ بتقاليد الشعر الموروثة وأن يظل شعرهم موصولاً بماضيه ، وحقاً حاول الشعريون أن يشككوكهم في هذا الماضي وأن يقطعوا صلتهم به ، ولكنهم لم يصيخوا إليهم ولا استمعوا إلى ضجيجهم ، فقد كانت شخصية الشعر العربي في نفوسهم أقوى من أن تزعزعها أو تهزها صيحات هؤلاء الشعريين المارقين ، فلم يزايدوها ولا انحرفوا عنها ولا عن أصولها التقليدية . بل لقد استطاعوا أن يثبتوا مرونة هذه الأصول ، وأنها تتسع لفنون البديع الجديد التي سجلها ابن المعتز اتساعاً كانت تحمل مقدماته في صدورهم من قديم ، بل لقد وجدوا في مرونة هذه الأصول ما يمكنها من أن تحمل كل صنوف الغذاء الفكري الجديد على اختلاف ألوانها ، غذاء الفلسفة والمنطق والعلوم المختلفة وغذاء الآداب الفارسية واليونانية والحكمة الهندية ، فكل سيول هذا التراث الثقافي الأجنبي من كل جنس يستوعبها الشاعر العباسي ويتمثلها ويتقنها علماً وفقهاً وتحليلاً دون أن ينحرف بشعره عن أصوله الموروثة ، بل إن هذه الأصول تونق وتزدهر ويصبح كل ما يُنْقَلُ إليها من الفكر الأجنبي عربي اللسان والصياغة المصفاة ، بل أهم من ذلك أن ذهن الشاعر العباسي يصبح ذهنًا عميقًا يتغلغل في حقائق المعاني نافذ إلى دخائلها وأغوارها البعيدة ، نفوذاً يتيح له ما لا ينفد من الخواطر الشعرية المبتكرة .

وحقاً أن هذا العمق في ذهن الشاعر العباسي يلاحظ منذ بشار ومن تلاه في القرن الثاني ، غير أننا كلما تقدمنا مع الزمن ازداد هذا العمق بعداً في بواطن المعاني المستمرة ، وهو عمق رافقته صور كثيرة من دقة التحليلات والاستنباطات والتقسيمات ، فن ذلك ما يرويه ابن قتيبة من أن بعض الشعراء أنشد الكندي الفيلسوف :

وفي أربعٍ مني حَلَّتْ منك أربعٌ فما أبنا أدري أيها هاج لي كربى

أَوْجُهُكَ فِي عَيْنِي أَمِ الطَّعْمُ فِي فَمِي أَمِ النُّطْقُ فِي سَمْعِي أَمِ الْحُبُّ فِي قَلْبِي
فَقَالَ لَهُ الْكَنْدِيُّ : وَاللَّهِ لَقَدْ قَسَّمْتُهَا تَقْسِيمًا فِلَسْفِيًّا^(١) ، وَتَكَثَّرَ مِثْلُ هَذِهِ
التَّقْسِيمَاتِ بَيْنَ الشُّعْرَاءِ إِذْ كَانَتْ تُعَدُّ مِنْ بَدْعِ الْعَصْرِ وَمُسْتَحْدَثَاتِهِ الطَّرِيفَةِ ،
وَمِنْهَا قَوْلُ ابْنِ الْمَعْتَزِ فِي جَمَالِ الذَّوَائِبِ^(٢) :

سَقَتْنِي فِي لَيْلٍ شَبِيهِ بِشَعْرَهَا شَبِيهَةً خَلَدِيهَا بِغَيْرِ رَقِيبٍ
فَأَمْسَيْتُ فِي لَيْلَيْنِ بِالشَّعْرِ وَاللُّجَى وَخَمْرَيْنِ مِنْ رَاحٍ وَخَدٍّ حَبِيبٍ
وَهُوَ تَقْسِيمٌ طَرِيفٌ لِلَّيْلِ وَالْخَمْرِ جَمِيعًا . وَعَلَى نَحْوِ مَا كَانُوا يَغْرِبُونَ فِي التَّقْسِيمِ
كَانُوا يَغْرِبُونَ فِي الْأَخْيَلَةِ ، وَقَدْ نَقَلُوا مِنْهَا مَا أَعْجَبَهُمْ فِي آدَابِ الْعَجَمِ ، مِنْ مِثْلِ
قَوْلِ عَلِيِّ بْنِ الْجَهْمِ فِي وَصْفِ الْوَرْدِ :

أَمَّا تَرَى شَجَرَاتِ الْوَرْدِ مَظْهَرَةً لَنَا بِدَائِعٍ قَدْ رُكِّبَتْ فِي قُضْبٍ
كَأَنَّهُنَّ يَوَاقِيتُ يُطِيفُ بِهَا زَبْرَجْدٌ وَسَطَهَا شَذْرٌ مِنَ الذَّهَبِ

وَالصُّورَةُ مِنْ قَوْلِ أَرْدِيشِيرِ : « الْوَرْدُ يَأْقُوتُ أَحْمَرَ وَأَصْفَرَ وَدَرُ أَبْيَضَ عَلَى كِرَاسِي
زَبْرَجْدٍ يَتَوَسَّطُهُ شَذْرٌ ذَهَبٌ »^(٣) . وَلَا تَكَادُ تُحْصَى صُورُ الشُّعْرَاءِ الطَّرِيفَةِ ، بَلْ إِنْ
صُورَ شَاعِرٌ وَاحِدٌ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ تُحْصَى ، غَيْرَ أَنَّهُ مِمَّا يَلَاظُ أَنَّهُمْ عُنُوا كَثِيرًا بِأَنْ
يَغْرُقُوا فِي الْوَهْمِ وَالتَّجْرِيدِ عَلَى شَاكِلَةِ قَوْلِ الْعَطْوِيِّ أَحَدِ مُتَكَلِّمِي الْمَعْتَزَلَةِ الْخِذَاقِ^(٤) :

فَوْحُ الْبَيْسَانِ يَعْضُدُهُ الْبَرُّ هَانٌ فِي مَاقِطٍ أَلَدُ الْخِصَامِ
هِيَ تَجْرِي مَجْرَى الْأَصَالَةِ فِي الرَّأْيِ يَوْمَجْرَى الْأَرْوَاحِ فِي الْأَجْسَامِ

وَوَاضِحٌ مَدَى إِغْرَابِهِ فِي الصُّورَةِ إِذْ مِثْلُ صَاحِبَتِهِ بِجَمَالِ الْأَصَالَةِ فِي الرَّأْيِ ،
وَهِيَ صُورَةٌ فَرِيدَةٌ ، وَتَوْضِيحُ إِحْسَاسِ الْعَطْوِيِّ بِمَا كَانَ يَنْفِذُ إِلَيْهِ الْمَعْتَزَلَةُ لِعَصْرِهِ مِنْ
تَفْكِيرٍ أَصِيلٍ مُنْتَهَى الْأَصَالَةِ ، وَهُوَ تَفْكِيرٌ كَثِيرٌ مَا كَانَ يَدْفَعُهُمْ إِلَى صُورٍ غَيْرِ

الديوان (طبعة المجمع العلمي بدمشق) ص ١١١ .

(٤) معجم الشعراء للمرزباني (طبعة الحلبي

بالقاهرة) ص ٣٧٧ .

(١) ابن أبي أصيبعة ص ٢٨٧ .

(٢) زهر الآداب للعصري ١٦/٣ .

(٣) ديوان المعاني للمسكوي ٢٣/٢ وانظر

مألوفة من التجريد والوهم البعيد ، وكأن الحسين بن الضحاك استعار منهم قيساً حين قال في بعض غزله^(١) :

إن من لا أرى وليس يرانى	نُصِبَ عيني ممثلاً بالأماني
بأبي مَنْ ضميرُهُ وضميرى	أبدًا بالمغيب يَنْتَجِيَانِ
نحن شخصان إن نظرتَ وروحا	ن إذا ما اختبرتَ يمتزجانِ
فإذا ما هممتُ بالامرِ أوه	م بشيءٍ بدأته وبداني
كان وفقاً ما كان منه ومنى	فكأنى حكيتُه وحكائى
خطراتُ الجفون منا سواء	وسواء تحرك الأبدان

وهو يعبر عن اتحاد بالمحبوب وفناء فيه حتى كأنما هما شخص واحد وروح واحدة وإن بديا شخصين وروحين فخواطرهما واحدة ، بل حتى حركات الأجسام واحدة . وكل ذلك بعد في الخيال إلى درجة الوهم ، وعلى شاكلته قول ابن المعتز :

وشكوى لو أنَّ الدمع لم يُطفِ حَرُّها تولد منها بينهن حريقُ
فلولا الدموع لاحترق العاشقان ، حرقتهما الشكوى المضمة التي لا يخمد أوارها ،
وقد تكون الصورة حسية ، ولكن نشعر إزاءها بالبعد في الخيال والإغراق في الوهم
كقول أبى العباس الناشئ المعتزلى في وصف سحاب يهطل ولا يكف عن
سقوطه^(٢) :

خليلى هل للمزن مقلّة عاشقٍ أم النارُ في أحشائه وهى لا تدرى
سحابٌ حكّتْ ثكلى أُصيبتْ بواحدٍ فعاجتْ له نحو الرياض على قبر

فالزن أو السحاب مقلّة عاشق ما تزال تتساقط منها حبات الدموع ، وما بريقة
إلا نار العشق الملتهبة في الأحشاء ، بل وكأنه ثكلى فقدت وحيدها ، فهى تبكى
عليه بكاء مرّاً لا ينقطع . وللشاعر أشعار كثيرة في الإشادة بأصحابه من المتكلمين

(١) أغاني (طبعة دار الكتب) ١٨٧/٧ .

(٢) زهر الآداب ١/ ١٧٧ .

المصر العباسى الثانى

وكيف أنهم ينبرون دياجي المشاكل المظلمة بأفكارهم الثاقبة، وكانت مناظراتهم لا تزال دائرة في العصر على الرغم من استعلاء أهل السنة عليهم، ولكنهم ظلوا يشعلون العراق بحججهم وحوارهم وجدالهم وظلوا يثيرون دفائن المعاني بردودهم ومناقضاتهم لخصوصهم، مما نرى آثاره عند الشعراء، ومعروف أن الشاعر العربي من قديم كان يشكو طول الليل حتى ليبدو عند بعض الشعراء مظلماً لا آخر لظلامه، ويلى ابن بسام بهذا المعنى، فينفي هذا الظلم عن الليل قائلاً^(١):

لا أظلم الليل ولا أدعى أن نجوم الليل ليست تغور
ليلي كما شاعت فإن لم تزر طال وإن زارت فليلي قصير

فالطول والقصر نسبيان، وهما معلقان بصاحبه إن هي زارت وقصر الليل وإن لم تزر طال، وبذلك نقض المعنى على من سبقه نقضاً، منصفاً ليل من الشعراء السابقين الذين طالما ظلموه. وقد يُقال: وأين شعر المعتزلة الذي استظهروا فيه عقيدتهم الاعتزالية ومصطلحاتهم الكلامية، ويبدو أنه كان لهم شعر كثير في هذا الباب سقط من يد الزمن، فالمرزباني في معجم الشعراء يترجم لشخص منهم يسمى محمد بن دكين المتكلم ويذكر أن له أشعاراً يحض فيها على القول بالعدل والتوحيد، غير أنه لا ينشد منها شيئاً^(٢).

وليست الأشعار الاعتزالية في نفسها شيئاً إلا ما قد تدل عليه من صلة أصحابها المعروفة بالفلسفة والفكر الأجنبي اليوناني وغير اليوناني، وأهم منها ما استودعه هذا الفكر في العقل العربي من خصب، ليس هو وحده مورده الوحيد، بل لعل تفاعل هذا العقل مع عناصر الفكر الأجنبي كانت أكثر خصباً، إذ استطاع أن يستوعبها ويتمثلها، ويصطنع لنفسه من خلالها مواد لا تقل عنها روعة ولا جمالا، وهي مواد يمكن رؤيتها رؤية واضحة في كثرة التوليدات العقلية. ولا نبالغ إذا قلنا إنه لا يوجد شاعر في هذا العصر إلا وقد نفذ إلى كثير من هذه التوليدات حتى الشعراء الشعبيون من أمثال الحمدوني وإسماعيل بن إبراهيم، ويروى أن أحد ممدوحيه وهو أحمد بن حرب المهلبى وهب له طيلساناً (ثوباً فارسياً)

(٢) معجم الشعراء ص ٤٠٧.

(١) المختار من شعر بشار للخالدين (طبع)
لجنة التأليف والترجمة والنشر ص ٢٠.

أخضر فلم يرضه ، فأخذ ينشد فيه مقطعات تتجاوز بها الخمسين من مثل قوله (١) :

طَيْلَسَانُ لابن حرب جاعنى قد قضى التمزيق منه وطَّره
فهو قد أدرك نوحاً فعسى عنده من علم نوحٍ خبره
أبداً يقرأ من أبصره : (أإذا كنّا عظاماً نخره)

ولا شك في أن هذه قدرة بارعة ، والحمد لله لم يملكها عفواً ، وإنما ملكها واستحوذ عليها بفضل خصب ملكته وما أتاحت الثقافة المعاصرة له من محصول غذاها به ، فإذا هو حين يتناول موضوعاً مثل طيلسان ابن حرب وأنه خلّص بال يستطيع أن يعرضه في صور متعددة لا تبلغ في العدد أصابع يد ولا أصابع يدين ، بل تتجاوز ذلك إلى عشرات من المقطوعات ، ولكل مقطوعة صورتها الطريفة الخاصة .

ويكاد الإنسان يقطع بأنه لا يوجد شاعر في العصر إلا وقد أذعن للثقافات المعاصرة المتنوعة واتخذ منها غذاء لعقله وقلبه ، وكأن شاعراً لا يستطيع منها فكاً كما ولا خلاصاً ، ونضرب مثلاً بالبحرئى الذى رأيناه في الفصل السابق يحمل حملة شعواء على من يكلّفون الشعراء دراسة المنطق والفلسفة ، فإننا حين نتصفح أشعاره نجد فيها آثار الثقافات التى عاصرتها ، حتى نراه يشيد بالعلم والمعرفة في بعض مدوحيه ، إذ يقول له (٢) :

عرف العالمون فضلك بالعلم م وقال الجهال بالتقليد

وهو لا يشيد بالعلم فحسب ، بل ينكر أيضاً التقليد وكأنه يدعو للاجتهاد واستخدام العقول ، بل إنه ليزعم أن التقليد جهل ما وراءه جهل ، وحرى بمن يدعو هذه الدعوة أن يطبقها على نفسه ، وأن يأخذها بالعلم والتثقيف ، وكل ما في الأمر أنه لم يكن يسرف في ذلك إسراف بعض معاصريه من الشعراء ولا كان يفرغ له ، فقد كان يعيش في شعره مع نفسه أكثر مما كان يعيش مع الثقافة التى

عاصرته ، بل إننا نحتاج إلى تقييد هذا الكلام ، فقد جمع من أشعار القدماء والمحدثين ديوان حماسة ضخماً . مما يؤكد أنه عكف على دراسة هذه الأشعار حتى استطاع أن يستخلص منها هذا الديوان ، وكأننا نعدم في العصر الشاعر الذي لا يطلب الثقافة الفنية ، بل الثقافة العامة ، وكل من يتابع البحترى في شعره يلاحظ أنه حوى لنفسه أطرافاً من تلك الثقافة أتاحت له أن يصبح من ذوى الملكات الحصبة ، وثقفه بأشعار أستاذه أبى تمام ذائع مشهور ، وهى نفسها تحجب إلى من يديم النظر فيها أن يأخذ بحظ أو حظوظ من الثقافات المعاصرة ، وصور بنفسه مدى تنوع هذه الثقافات وتنوع الكلام الذى يحملها فى قوله لبعض ممدوحيه (١) :

ولقد جمعتَ فضائلاً ما استُجِمِعَتْ يَفْنَى الزمانَ وذكرها لم يَهْرَمِ
مثلَ الكلامِ تفرقتْ أنوعُهُ فِرْقاً وتَجَمَّعُها حروفُ المُعْجَمِ

وحقاً لم يكن البحترى صاحب تعمق فى معانى الشعر مثل أبى تمام أو مثل معاصره ابن الروى ، ولكن كانت ملكته خصبة ، وكانت ما تزال تمدّه بخواطر لا تنفد ، ونستطيع أن نلاحظ ذلك فى سينيته التى وصف فيها إيوان كسرى وصفاً لم يُسَبِّقْ إليه ، كما نستطيع أن نلاحظه فى تنوع اعتذاراته للفتح بن خاقان تنوعاً خلب معاصريه ، كما خلبهم عنده إبداعه فى وصفه لخيال المحبوبة أو طيفها حين يلم به فى رؤاه وأحلامه ، وتغنى الشعراء بالخيال قديم منذ أوائل العصر الجاهلى ، ولكن الجديد عند البحترى أنه استطاع بملكته العباسية الحصبة التى تقدر على التوليد والإتيان بالصور المبتكرة والإكثار منها أن يستولى على إعجاب الأسلاف بمثل قوله (٢) :

سَقَى الْغَيْثُ أَجْرَاعاً عَهْدَتْ بِجَوْهَا غزالا تُراعِيه الجآذِرُ أَغْيَدًا (٣)
إذا ما الكرى أهدى إلى خياله شفى قربه التَّبْرِيجَ أو نَقَعَ الصِّدَا (٤)
ولم أَرْ مِثْلَيْنَا ولا مثل شأننا نُعَدُّ أَيْقَاطاً وَنَنْعُمُ هُجْدًا (٥)

منخفض الأرض . الجآذر : بقر الوحش .

(٤) نَقَعَ الصِّدَا : سكن الظما .

(٥) هُجْدًا : نانين .

(١) الديوان ٢٦٦٦/٤ .

(٢) الديوان ٦٧٠//٢ .

(٣) الأجرع : الرمال الطيبة . الجور :

وقوله (١) :

أَلَمْتُ بِنَا بَعْدَ الْهَدْوِ فَسَامَحْتُ بِوَصْلِ مَتَى نَطْلُبُهُ فِي الْجِدِّ تَمْنَعُ (٢)
وَمَا بَرَحْتُ حَتَّى مَضَى اللَّيْلُ وَانْقَضَى وَأَعْجَلَهَا دَاعِيَ الصَّبَاحِ الْمَلْعَعِ (٣)
فَوَلَّتْ كَأَنَّ الْبَيْنَ يَخْلُجُ شَخْصَهَا أَوَّانَ تَوَلَّتْ مِنْ حَشَايَ وَأَضْلَعِي (٤)

وواضح ما في الشطر الأخير بالأبيات الأولى من لفظة ذهنية واضحة ، ومثله آخر الأبيات الثانية فقد ولَّتْ وكأنها تُنتزَع من حشاها وأضلعه وروحه ، وكان يعرف البحتري كيف يمس قلب سامعه ، كما كان يعرف كيف يتأثر لنفسه ببعض الصور والمعاني ، فقد سمع أو حفظ قول القائل في وصف أحاديث بعض النسوة وما يُلدِّعْنَ فِيهِ مِنْ جَمَالٍ وَسُحَرِ :

إِذَا هُنَّ سَاقَطْنَ الْأَحَادِيثَ بِالضُّحَى يَسْقَاطُ حَصَى الْمَرْجَانِ مِنْ كَفِّ نَازِمٍ

فما زال يدير البيت في نفسه وما زال يحاول أن يضيف إليه إضافة بارعة ، وإذا ملكته تسعفه بقوله في وصف لقائه بمن خلبت لُبيَّة (٥) :

وَلَمَّا التَّقِينَا وَالنَّقَا مَوْعِدُ لَنَا تَبَيَّنَ رَأْيِي الدَّرَّ مِنَّا وَلَا قِطْعُهُ (٦)
فَمَنْ لَوْلَوْ تَعَجَّلُوهُ عِنْدَ ابْتِسَامِهَا وَمَنْ لَوْلَوْ عِنْدَ الْحَدِيثِ تُسَاقِطُهُ

ولعل أكبر شاعر في العصر يصور ذخائر الفكر حيثنذ في الشعر ومدى ما أثرت الحياة العقلية فيه ابن الرومي ، ويبدو عنده بوضوح أنه عكف على جميع الثقافات التي عاصرتها ، وأنه أخذ ينهل منها حتى تحولت إلى ذهنه وقلبه ، فإذا هو يستوعبها ، وإذا هو يتقنها ، بل إذا هو يتمثلها تمثلاً نادراً ، وكان مما دفعه إلى ذلك دفعاً اعتناقه مبكراً مذهب الاعتزال ، وفي

(١) الديوان ١٢٣٧/٢ .

(٢) الهدو : شطر من الليل .

(٣) الملّع : المزوج سواده بياضه

إشارة إلى أوائل الصباح .

(٤) يخلج : ينتزع .

(٥) ديوان المماني ٢٣٨/١ وانظر الديوان

١٢٣٨/٢ .

(٦) النقا : قطعة من الرمل .

شعره ما يدل على حرصه الشديد عليه كقوله^(١) :

أَرْفُضُ الْإِعْتِزَالَ رَأْيًا كَلًّا لِأَنِّي بِهِ ضَنِينٌ

فهو يؤمن به ويعتقه منحازاً إليه ، ولا يرضى به بديلاً ، وإنه ليمنحه كل حبه ، حتى ليصبح ضنيناً به ، وكأنه غدا جزءاً من جوهر نفسه ، ولعله لذلك كان يحسُّ بواشجة رحم بينه وبين نظرائه ممن يعتقدون هذا المذهب الذى كان معروفاً حينئذ بمبديئين يجادل فيهما أصحابه طويلاً ، وهما العدل على الله بحيث لا يعطل حرية الإرادة عند الإنسان حتى يكون مسئولا عن أعماله وينال ما يستحقه من الثواب والعقاب ، فلا جبر ولا حتم ولا إلزام ، ثم التوحيد وما يُطَوَّى فيه من تنزيه الله عن مشابهة المخلوقين ، فهو ليس بجسم ولا عرض ولا يحده زمان ولا مكان ، وإلى ذلك يشير فى بيان علاقته الوثيقة ببعض معاصريه قائلًا له^(٢) :

إِنْ لَا يَكُنْ بَيْنَنَا قُرْبَى فَاصِرَةٌ لِلَّذِينَ يَقْطَعُ فِيهَا الْوَالِدُ الْوَلَدًا
مَقَالَةُ «العدل والتوحيد» تجمعا دون المضاهين : مَنْ نَتْنَى وَنَ جَحْدَا
وواضح أنه يجعل لُحْصَةَ الاعتزال فوق لحمة القربى ، وكأنه يؤمن بأن القربى دم أما الاعتزال فعقل وروح ، وهو لذلك فوق القربى وشائج وأواصر . ولا يهمننا أنه كان يؤمن بالاعتزال من حيث هو ، وإنما يهمننا أن الاعتزال وصله بالثقافات الأجنبية على اختلاف صنوفها وألوانها ، فقد كان المعتزلة يتصلون مباشرة بهذه الثقافات لدعم عقولهم من جهة ولتبيين ما فيها من آراء فاسدة كانوا ينقضونها نقضاً ، وكانت أهم ثقافة أكبوا عليها الثقافة اليونانية بما فيها من فلسفة ومنطق ، وأكبر معهم كثير من الشعراء - وخاصة من كانوا يعتقدون الاعتزال - على هذه الثقافة ينهلون منها ويعبون ، وفى مقدمتهم ابن الرومى الذى يبدو أنه كان يفرغ لها وخاصة فى مطالع حياته ويُسْفِقُ فى ذلك أوقاتاً طويلة ، مما أتاح لأشعاره أن تصطبغ بأصباغ عقلية واضحة .

وأول ما يطالعنا من هذه الأصباغ صبغ يعم جميع أشعاره كما تعم الخضرة أشجار

(١) ديوان ابن الرومى (نشر كامل كيلانى) (٢) ابن الرومى : حياته من شعره (طبع
من ٩٢ . المكتبة التجارية) ص ٢٢٣ .

الطبيعة في الربيع ، ونقصد استقصاءه للمعاني ، فهو إذا ألمَّ بمعنى لم يكد يترك فيه بقية لأحد من بعده ، وكان لذلك تأثير مهم في قصائده إذ تبدو الأبيات فيها مترابطة ترابطاً لا يُعرَفُ لأحد غيره من شعراء العربية ، ترابطاً يجعل البيت لا يُفهمُ تمام الفهم إلا إذا نظر القارئ فيما يسبقه وما يتلوه ، حتى لتصبح القصيدة بناء متكاملاً متناسقاً ، مما يوثق الوحدة بينها لا الوحدة الموضوعية فحسب ، بل أيضاً الوحدة العضوية ، إذ تصبح كلاً واحداً مؤلفاً من أجزاء ولكل جزء أوبيت مكانه ، بحيث لو نُزع منه إلى مكان آخر لنبا به المكان الحديد . ومنشأ ذلك أن الأبيات يتولد بعضها من بعض ، أو قل هي الأفكار والمعاني ما تزال تتوالد وتتشعب ، وكل شعبة تنشأ عن سابقتها وتلتحم بها لحمسة القرابة ، بل لحمة الأعضاء في الجسد الواحد .

وتتصل بهذا الجانب عند ابن الرومي خصائص عقلية كثيرة ، لعل أولها هذا الخصب الذي لا حد له ، فقد أصبح العقل العربي يتعمق المعاني حتى يصل إلى قاعها وقرارها ، ويستخرج كل ما كان مستوراً بها من لآلئ كانت خافية عن الأنظار ، بل إن الشاعر يفوس في مسارب المعاني فيطالع على شعَب لا تكاد تحصى وهما جانبان : جانب التشبيب والتفريع وجانب الكشف والاستقصاء ، حتى يتضح المعنى من جميع جوانبه ، وحتى نصبح كأننا نستمع إلى صور من الحوار المعروف عند المعتزلة ، فهم ما يزالون بحوارهم يثيرون دقائق المعنى حتى ينكشف من جميع أطرافه ، وإذا هو واضح أشد ما يكون الوضوح بفضل علم المنطق الذي يستهدون به في مباحثهم وبفضل ملكاتهم العقلية التي صقلها الفكر الفلسفي . وكأنما تحولت المعاني الشعرية عند ابن الرومي إلى صورة من صور حوارهم ، فهي تنفرع إلى أقصى حد ، وهي تتضح أيضاً إلى أقصى حد ، ولذلك كانت القصيدة عنده تطول طويلاً مسرفاً لا يُعرَفُ لشاعر عربي من قبله ولا من بعده ، لأن المعاني تُدْكرُ بجميع شعبها ، وما يزال يستقصيها حتى تبدو واضحة أشد ما يكون الوضوح وهو الوضوح نفسه الذي يُشغَفُ به أهل المنطق أو قل من يعكفون على دراسة المنطق ، حتى يستأثر بكل ما يفكرون فيه ، وحتى يمنحوه عنايتهم الكاملة .

ليس من شك إذن في أن شعر ابن الرومي يصور تعمقه في دراسة المنطق وليس

ذلك فحسب ، فإن المنطق بأقيسته وعمله يستحيل عنده شعراً وفناً ، فإذا بنا نتنقل في طرائف لا تحصى من المعاني ، وكأنما أصبحت هذه الطرائف حدوداً للشعر ، فهو لا يُتَصَوَّرُ بدونها ، وإلا يكون شيئاً غشياً لا قيمة له ، وصور ذلك ابن الرومي نفسه في بعض حواراته مع شاعر أنشدته شعراً سليماً من العيوب مطبوعاً عارياً من دقائق المعاني ، فقال له : « نحن — أعزك الله — نطلب مع السلامة الغنيمة »^(١) . فلا شعر بدون غنيمة أو بدون معنى مبتكر أو بدون قياس سديد أو تعليل لافت دقيق ، من مثل قوله^(٢) :

عدوك من صديقك مستفاد فلا تستكثرن من الصحاب
فإن الداء أكثر ما تراه يكون من الطعام أو الشراب

وهذا التحذير من الصديق يدور في كثير من الأقوال والأمثال ، ولكن الطريف عند ابن الرومي هو التعليل البارع ، إذ قاس الصديق على الطعام والشراب الممتعين وكيف يستحيلان أحياناً داء لا شفاء منه ، وكأنما يؤتى الحذر من مأمته ، ومن تعليقاته الطريفة تعليله لمحبة الأوطان ، إذ يقول^(٣) :

وحبب أوطان الرجال إليهم مآرب قضأها الشباب هنالك
إذا ذكروا أوطانهم ذكرتهم عهد الصبا فيها فحنوا لذلك
فقد ألفتها النفس حتى كأنه لها جسد إن بان غودر هالك

وكان الشعراء قبله يتشوقون إلى أوطانهم ولا يعرفون العلة في ذلك حتى كشفها لهم ابن الرومي ، فكل يتعلق بوطنه ويشغف به ، لأنه ملاعب صباه وشبابه التي لا يبرح خيالها ذاكرته ، والتي طالما ألفتها النفس وأنست لها ، بل لقد التصقت بها التصاق الروح بالجسد ، بحيث لو انفصم أحدهما عن صاحبه أصبح في المالكين . وتكثر في شعر ابن الرومي كثرة مفرطة التعليقات والأدلة والأقيسة كقوله في بعض غزله^(٤) :

(٣) الديوان ص ١٣ زهر الآداب
٩٩/٣ .
(٤) زهر الآداب ١٢/١ .

(١) ذيل زهر الآداب (طبع المطبعة
الرحمانية بمصر) ص ١٩٠ .
(٢) الديوان ص ١٣٩ .

لا تكثرنَّ ملامةَ العشاقِ فكفاهمُ بالوجد والأشواقِ
 إن البلاءَ يُطاق غيرَ مضاعفٍ فإذا تضاعف كان غيرَ مُطاقِ
 لا تطفئنَّ جوى بلومٍ إنَّه كالريح تُغري النار بالاحراقِ

فهو يقيس تكرار اللوم للعشاق على تضاعف البلاء الذى لا يطاق ، ولا يكفيه هذا القياس ، وإذا هو ينفذ إلى قياس بديع ، فالهوى نار مشتعلة فى الصدور ، واللوم ربح عاصفة تفرقها يميناً وشمالاً ، حتى تأتى على كل ما تجاوره ، وكأنما لا يزال يغريها بأن تزداد تلظيماً وإحراقاً واشتعالاً . ويجانب هذه القدرة لدى ابن الرومى على الأقيسة والعلل ، نحس قدرة فائقة على الجدل وكسب القضية بالحق وغير الحق ، وكأنه معتزلى كبير يناقش بعض مسائل الاعتزال ويحاول أن ينقض على خصمه حججه وأدلته ، أو قل إنه يبدى بحجج وبراهين تمحو كل براهينه وحججه ، وهى براهين وحجج شعرية ، فيها فن وفيها جمال وفيها حس الشاعر وفطنته ، من ذلك أن يجد الناس من حوله مجمعين على إثارة الورد على النرجس ، فيرد عليهم إجماعهم بالدليل القاطع والبرهان الساطع يقول ^(١) :

خجلتْ خدودُ الورد من تفضيله خجلاً تورَّدها عليه شاهدُ
 أين العيونُ من الخدود نفاسةً ورياسةً لولا القياسُ الفاسدُ

فاحمرار الورد الذى طالما شبهه الشعراء بالخدود إنما هو احمرار خجل من تفضيل من لا يقدر على الجمال له على النرجس الذى يشبهه الشعراء بالعيون ، وأين الخدود من العيون روعة وجمالاً ، وهو بون بعيد لا يخطئ فيه إلا أصحاب القياس الفاسد الكليل . وما يتضح عنده فيه أثر الاعتزال واختلاطه بالمعتزلة أن نراه يعتمد إلى ذم شيء ذمّاً طبيعياً ، لأنه يستحق الذم ، ثم يعتمد بعد ذلك إلى مدحه ، بياناً لقدرته فى الحجاج والجدل . وينسب إلى الجاحظ كتاب فى المحاسن والأضداد بعامة ، وهو منحول عليه ، ولكننا نجد معاصراً لابن الرومى هو إبراهيم بن محمد البيهقي يؤلف كتاب المحاسن والمساوى وهو منشور ، ويدل بوضوح على أن الناس شغفوا فى العصر — يقودهم المعتزلة من أمثال الجاحظ — بمدح الشيء وذمه ، وعلى

قبس من هذا الصنيع عمداً ابن الرومي إلى ذم الحقد البغيض ، فقال (١) :

الحقدُ داءٌ دفينٌ لا دواءَ له يرى الصدورَ إذا ما جمرُهُ حُرثاً (٢)
فاستشف منه بصفحٍ أو معاتبَةٍ فإنما يبرئ المصدورَ ما نفثاً (٣)

فالحقد داء لا يمكن الشفاء منه ، وما يزال جمره متقدماً في الصدور ولا يمكن إطفائه ، ويحاول ابن الرومي أن يكتشف دواء لصاحبه ، فيوصيه بالصفح والعتاب فقد ينفسان عنه بعض الشيء ، ولكن أي تنفيس ؟ إنه تنفيس المصدور الذي قد ينفس عنه لحظة ما ينفثه ، وسرعان ما ينطوى صدره ثانية على مرضه أو قل على هذا الجمر جمر الحقد الذي يشوى صدر صاحبه شيئاً . وابن الرومي في ذلك كله متفق مع الناس جميعاً في ذم الحقد الكريه ، ولكن أليس من حقه أن يُغرب عليهم كما يغرب أحياناً المعتزلة أصحاب الحجاج واللسن واللدد في الخصومة ، فيمدح لهم الحقد البشع ويحمله شيئاً مستحباً لا بشاعة فيه ولا قبح ، يقول (٤) :

وما الحقدُ إلا توأمُ الشكر في الفتى وبعض السجايا ينتسبن إلى بعض
فحيث ترى حقدًا على ذى إساءةٍ فثم ترى شكرًا على حسن القرض
ولولا الحقودُ المستكناتُ لم يكن لينقض وتراً آخر الدهر ذو نقض

فالحقد توأم للشكر وقرين له ، وجرى بنا إذا تأملنا في حقيقته أن نعيد النظر فيه ، فإنه يستحب إزاء بعض الأشخاص ممن يسيئون إلى الناس ، بينما يستحب الشكر إزاء من يحسنون القرض والتفضل على من حولهم ببعض ما أنعم الله عليهم . ويلفت ابن الرومي إلى دليل قاطع يدل على أن الحقد محمود ، فلولا لضاع الوتر أو الثار ولم يأخذ موتور حقه من وافر . وبذلك استطاع أن يخرج الحقد الذميم في صورة حسنة محمودة ، بفضل مهارته في الحوار والجدل ، وكأنه معتزلي كبير يدافع عن قضية من قضايا المعتزلة الشائكة . وكثيرون من الشعراء وراعه أفادوا على شاكلته من حوار المعتزلة ومناظراتهم ، كما أفادوا من ثقافات العصر ما استحالت به ملكاتهم

(٣) المصدور: المريض بذات الصدر أو الرئة.

(٤) الديوان ص ١٦٣ .

(١) الديوان ص ١٣٧ .

(٢) يرى : يشمل .

العقلية خصبة إلى أبعد حدود الحصب ، بحيث أتاحت لهم ما لا يحصى من دقائق المعاني والأخيلة .

٣

التجديد في الموضوعات القديمة

ظلت الموضوعات القديمة المألوفة من مدح وغير مدح وهجاء تسيطر على الشعر والشعراء ، وكأنما كان هناك إصرار قوى أن تظل للشعر العربى شخصيته وموضوعاته وأن يظل حياً على الألسنة مع حياة الأمة ، فلا يضعف ولا يذوى عوده ، بل يقوى ويزدهر ، غير متحول عن أصوله ، مهما غدت ثقافات الفلسفية وغير الفلسفية ومهما عبر عن الحضارة العربية الحديثة ، فهو موصول دائماً بقديمه ، شأنه فى ذلك شأن الآداب الحية التى لا تنقطع صلتها بماضيها ، مهما وقع عليها وعلى أهلها من تأثيرات حضارته وثقافته ، إذ تظل متصلة بها اتصالاً يمكن لها فى التاريخ وفى الخلود . وحقاً تنعكس على موضوعات الشعر حينئذ آثار حضارية وثقافية كثيرة ، ولكنها لا تحدث تعديلاً فى جوهرها ، فجوهرها ثابت ، إنما تحدث بعض إضافات تكثر وتقل حسب ملكات الشعراء وحسب ما كانوا يتغذون به من الثقافات وما كان يداخلكم من إعجاب إزاء مظاهر الحضارة الجديدة .

وأول ما نتحدث عنه من الموضوعات المديح ، ومعروف أن الشاعر الجاهلى كان يصور فيه المثل الخلقى الرفيع فى عصره ، من الكرم والشجاعة والوفاء وحماية الجار والحلم والحزم وإباء الضيم وحصافة العقل ، حتى إذا كان العصر الإسلامى أخذ الشاعر يضيف إلى هذه المثالية مثالية الدين ، وخاصة إذا كان يمدح خليفة ، وكانوا يسجلون أعمال الخلفاء والولاة وما ينشرون من الأمن والعدالة التى لا تطيب حياة الناس بدونها ، وسجلوا أيضاً مواقع القواد مع الترك وغيرهم وبطولاتهم الحربية المختلفة . وبذلك كانت الملحة فى العصرين الجاهلى والإسلامى تشتمل بما تعرض من مثاليات على أسس قويمه خلقية ودينية لثريية الشباب ، كما كانت تشتمل على أعمال الدولة وأمجاد العرب الحربية . وكل ذلك اضطرم اضطراماً فى الملحة عند

شعراء العصر العباسي الأول ، مع محاولاتهم الجادة في التطور بمعاني المديح عمقاً وسعة وتنوعاً ، وظلت رغباتهم ومحاولاتهم في هذه الإضافة ترداد خصباً في هذا العصر ، وهم في ذلك لا ينسون مثالية المديح الموروثة ، فإذا مدحوا خليفة أو والياً أو قائداً تمثلوا فيه الفضائل العربية مرسومة ، وكذلك الفضائل الإسلامية ، وتمثلوا أيضاً العدل الذي يعصم الحاكم من الطغيان ويعصم الشعب من العبث والظلم والفساد. ويتردد ذلك دائماً على ألسنة الشعراء من مثل قول البحرى في المتوكل ، وكان اسمه جعفر^(١) :

خَلَقَ اللَّهُ جَعْفَرًا قِيمَ الدُّنْىَا سَدَادًا وَقِيمَ الدِّينِ رُشْدًا
أَظْهَرَ الْعَدْلَ فَاسْتَنَارَتْ بِهِ الْأَرْضُ وَعَمَّ الْبِلَادَ غَوْرًا وَنَجَّدَا

وقد مضى الشعراء يُضَمُّون هذه المثالية على الخلفاء في الحكم وفي التقوى وأيضاً في الخلق والشيم ، مهما كانت سيرتهم وكأنهم لم يكونوا يفكرون فيهم من حيث هم إنما كانوا يفكرون فيهم من حيث خلافتهم وقيامهم على حكم الرعية ، وهم لذلك يرفعون أمام أعينهم ما ينبغي أن يكون عليه الخليفة في خلقه وفي دينه وفي سيرته وفي حكمه ، وكأنما هو رمز ، رمز للأمة في حاكمها الرشيد ، وهم يبرزونه لها بالصورة التي تريدها ويريدونها معها ، صورة الحاكم المخلص الأمين الذي ينكر الظلم أشد الإنكار ، والذي يعمل بكل ما في وسعه على إشاعة العدالة بين أفراد رعيته حتى يتساووا في الانتفاع بالحياة تساوياً تاماً . وكان هناك من يبالغون في مديح الخلفاء حتى ليضيفون عليهم صفات قلسية ، وهي صفات خالها شعراء الشيعة على أئمتهم منذ عصر بني أمية ، وأخذ شعراء الخلفاء من حينئذ يستعبرونها ليسبغوها بدورهم على الخلفاء الأمويين والعباسيين ، من مثل قول ابن الجهم في المتوكل^(٢) :

إِمَامٌ هُدَى جَلَّى عَنِ الدِّينِ بَعْدَ مَا تَعَادَتْ عَلَى أَشْيَاعِهِ شَيْعُ الْكَفْرِ
وقوله^(٣) :

لَهُ الْمِنَّةُ الْعُظْمَى عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَطَاعَتُهُ فَرَضٌ مِنَ اللَّهِ مُنَزَّلٌ

فهو الهادى المهدي الذى تجب طاعته على جميع المسلمين ، وكان الشعراء من وراء ابن الجهم يبالغون فى بيان ذلك مبالغات شتى ، مما سنعرض له فى غير هذا الموضوع . ونرى كثيرين منهم يسجلون الأعمال الكبرى فى عصور الخلفاء ولناخذ مثلاً المتوكل ، فجميع أعماله مثبتة فى دواوين الشعراء وفى كتب التاريخ ، فمن ذلك أمره لأهل الذمة بلبس الطيالة العسلية والزنانير مما وقفنا عنده فى الفصل الأول ، فقد تغنى بهذا العمل ابن الجهم فى أشعاره^(١) ، ومن ذلك عقده البيعة لابنيه الثلاثة : المنتصر والمعز والمؤيد ، فقد تغنى شعرائه بهذا الصنيع طويلاً^(٢) .

ويكثر فى عهده بناء القصور على نحو ما أسلفنا ، وكلما شاد قصراً نوّه الشعراء به وبروعة بنائه وما يدل عليه من مظاهر الحضارة والعمران لعصره . وليس هناك حادثة جلّى من سجن وزير وتعذيبه مثل ابن الزيات ، أو غضب على قاض وتصفية أمواله مثل ابن أبى دؤاد ، أو على طبيب وقبض أمواله مثل بختيشوع أو على كاتب من كتاب الدواوين أو على بعض الولاة إلا ويسجل الشعراء ذلك فى أشعارهم مما يجعلها بحق وثائق تاريخية ، وأروع ما سجلته هذه الوثائق أجداد قوادنا وأبطالنا وجيوشنا فى حومات الوغى شمالاً وشرقاً ، وهى ليست تاريخاً يُسرّد كما تصنع كتب التاريخ ، وإنما هى أناشيد انتصارات رائعة لجنودنا وقوادهم البواسل فى حروب الروم والترك والأرمن ، وماتنى الجيوش العربية تخوض إليهم بحوراً من الدماء منزلة بهم صواعق الموت التى لا تبقى ولا تذر . وكان من أبطال هذه المعارك لعهد المتوكل يوسف بن محمد الثغرى ، وكان المتوكل قد ولاه بعد وفاة أبيه على أرمينية ، وكانت قد نشبت بها ثورات فأخذ يسحقها بجنوده المغاوير سحقاً ، وفيه وفى انتصاراته على بعض البطارقة الأرمنيين يقول البحرى^(٣) :

هو الملكُ المرجوُ للدين والعِلا فللهُ تقواه وللمجد سائره
له البأسُ يُخشى والسماحة تُرتجى فلا الغيثُ ثانيه ولا الليلُ عاشره^(٤)
كسرتهم كسر الزجاجة جِدة ومن يجبر الوهى الذى أنت كاسره
حسامٌ وعزمٌ كالحسام وجحفل شِدادٌ قواه مُحصّدتٌ مرائرُه^(٥)

(٤) عاشره : يبلغ معشاره .

(٥) محصّدت : محكمات . مرائرُه : قواه ،

وأصلها طاقات الجبال .

(١) الديوان ص ١٩٢ .

(٢) الطبرى ٩/ ١٨١ .

(٣) الديوان ٢/ ٨٧٧ .

وليس هناك وقائع حربية كبيرة إلا ودون الشعراء فيها البطولات العربية ، وكان من أهم هذه الوقائع ثورة الزنج ، وقد تغنى الشعراء فيها ببطولة الموفق غناء مدوياً ، ونرى الطبرى يسجل فى تاريخه طائفة كبيرة من أشعار هذا الغناء . وبالمثل نراه يدون أغاني وأنشيد أخرى فى حروب القرامطة ، وكأنما استقر فى نفوس المؤرخين أن الشعر الذى تغنى بهذه الحروب ووصفها لا يقل أهمية عن وثائق التاريخ ، فهو ليس مديحاً للبطولات وتمجيداً فحسب ، بل هو أيضاً تاريخ ، وهو تاريخ نابض بالحياة . ومن المحقق أنه حتى الآن لم يستغل هذا التاريخ الشعرى فى كتابة تاريخ العصر ، إذ كثيراً ما يحوى من التفاصيل ومن دقائق الأحداث ما لا نجده مصوراً فى كتب التاريخ ، ولذلك كان ينبغى على المؤرخين ألا يكتفوا بما يقرءون فى كتب التاريخ عن الأحداث والوقائع الحربية ، بل يضموا إلى ذلك وصف تلك الوقائع والأحداث الميثوث فى دواوين الشعراء ، حتى يطلعوا على كل جوانبها اطلاعاً مضبوطاً دقيقاً .

وظل شعراء المديح فى كثير من مدائحهم يقلدون الأقدمين فى الوقوف على الأطلال والبكاء على الدمن والآثار العافية ، وفى رأينا أن استبقاء الشاعر العربى على مدى العصور الماضية لهذا المطلع فى كثير من قصائده لم يكن لبيان صلته بأسلافه ولا استبقاء لصورة من صور حياتهم الرعوية فى العصر الجاهلى وما كان يتصل بها من الرحلة الدائرة حول مساقط الغيث والكلأ . وإنما كان لإحساس الشاعر إحساساً عميقاً بتعبير هذا المطلع عن كل ما ينمحي من حياة الإنسان إلى غير مآب ، سواء فى ذلك حبه وغير حبه ، فداًئماً لحظات ماضيه تذهب منه إلى غير مآب فى الشباب وغير الشباب ولا يستطيع لها رجعة ولا أوبة . وكأنما تصور الأطلال نوازع الفناء التى تطبق مخالبها على كل ما يمضى من حياة الإنسان ، وعادةً تُطبّق هذه المخالب عليه آخر الأمر ، فيصبح أثراً بعد عين ، وهو لذلك يقف بالأطلال باكيةً بدموع غزار ، متمنياً لو عادت إليها نضرة الحياة القديمة ، ولذلك قد يستسقى لها السحاب حتى تعود إليها النباتات والظلال وحتى تدبّ فيها الحياة ، فمن ذلك قول ابن المعتز يصف داراً وأطلالاً^(١) :

(١) الديوان (طبعة دار صادر بيروت)

ص ٣٥٤ وزهر الآداب ١ / ١٦٦ .

لا مثل مَنزلة الدَّوَيَرَةِ منزلٌ
 بُؤْساً لدَهرٍ غَيْرَتَكَ صُرُوفُهُ
 لم يَحُلْ للعَيْنين بعدكَ منظرٌ
 أَى المعاهد منك أُنْدَبُ طيِّبُهُ
 أم بَرْدُ ظِلِّكَ ذى الغصون وذى الجَنَّا
 وكأَنما سَطَعَتْ مجامرُ عَنبرٍ
 وكأَنما حَصَبَاءُ أَرْضِكَ جَـوهرٌ
 وكأَنما أَيْدَى الرِّبيعِ ضُحِيَّةٌ
 يا دارُ جادِكَ وإِبْلِ وسَقاكِ
 لم يَمَحُ من قَلْبِي الهوى ومَحاكِ
 ذُمُّ المنازلِ كُلِّهِنَّ سَواكِ
 مُمَسِّكِ بِالْأَصَالِ أم مَغْداكِ
 أم أَرْضِكَ المِيشَاءُ أم رِيَّاكِ^(١)
 أَوْفَتْ فَأَرُّ المِمْسِكِ فوق ثَرَاكِ
 وكَأَن ماءَ الوردِ دَمْعُ نَدَاكِ
 نَشَرْتُ ثِيَابَ الوَشْيِ فوق رُبَاكِ

وابن المعتز يلمُّ بتلك الدار ، ويراها وقد فقدت بهجتها القديمة وغيَّرتها صروف الزمان حتى محت أطلالها الدوارس ، ولا يزال هواه بها ماثلاً في قلبه ، وهو يدعو لها الغيث أن يجودها حتى تستعيد حُلَّتَها الدائرة . وتترأى له من خلال ذكرياته وعهود حبه الماضية ، فيرى كل الديار دونها ولا تقاس إلى جمالها ، ويبكيها ويندبها ، ويندب كل معهد فيها وما كان ينتشر فيه من طيب على الصباح الباكر وعلى الأصال في المساء وعلى الغصون ذات الظلال والثمار ، وتفوح الأرض برائحتها الساطعة ، وكأَنما تفوح مجامر عنبر ، أو كأَنما تفوح فَاة مسك ، وحتى الحصى كأنه جواهر سقطت من أهل تلك الدار ، وكأن قطرات الندى ماء ورد عاطر ، والربيع ينشر بها وشيا عجيب الألوان . وهو وصف يحمل حنيناً ووجداً لا نهاية لهما للدار وما كان بها من لقاء بين الأحبة ، لقاء جعل كل ما حولهم يبدو في هذه الصورة الفاتنة المحفورة في ذهن ابن المعتز حفرّاً لا يمكن أن يطمس أو تأتى عليه الأيام .

وكان الشاعر القديم ينزع نفسه من الأطلال وما يتصل بها من ذكريات الهوى والشباب الدائرة ، مفضيلاً إلى وصف رحلة له في الصحراء ، يتحدث فيها عن طول سُرَّاه وعن الفلوات وحيواناتها الأليف والوحشى ومدى ضَمَنًا بعيره في رحلته

(١) الجنّا : الثمر . المِيشاء : السهلة . الريا : الرائحة .

الطويلة الشاقة ، وكأنما يريد أن يجذب نفسه جذباً من أفكار الغناء ويتغلغل في نوازع الحياة . وتبعه الشاعر العباسي مستبقياً على كل هذه العناصر في قصيدة المديح ، وقد يفرد لوصف هذه الرحلة قصائد أو مقطوعات طريفة ، وهي متناثرة في دواوين الشعراء من مثل قول علي بن الجهم^(١) :

كم قد تجهمني السرى وأزالي ليلُ ينوءُ بصدري متناولُ
وهزرتُ أعناقَ المطى أسومها قصداً ويحجبها السوادُ الشامل
حتى تولى الليلُ ثاني عطفه وكان آخره خضابُ ناصِلُ
ورأيت أغباش الدجى وكأنها حرق النعام دُعرنَ فهي جوافلُ^(٢)

وهو يصور سُرَّاه في ليل متناول يجثم سواده على آفاق الكون ، وما زال يقطعه حتى نصل خضابه الأسود وبدت أغباشه وبقاياها وكأنها نعام مذعور ، فهي تفر فراراً من الضوء الذي أخذ ينتشر على قطع الظلام . وطالما وصف الشعراء نحول لبلهم وضناها كناية عن طول سُرَّاه ومدى ما عانته من نصب في وعاء السفر الطويل الذي لا يكاد ينتهى . وألم شعراء العصر كثيراً بهذا المعنى كقول البحتري في وصف إبله^(٣) :

يترقرقن كالسراب وقد خُضَّ نَ غِمَاراً من السراب الجارى
كالقيس المعطفات بل الأمه هم مبرية بل الأوتار^(٤)

فهي لا تكاد تبين نحولا وهزالا حتى لكانها أصبحت سراباً ، وإنها لتشبه القسي المنحنية ، بل هي أكثر نحولا فهي كالأسهم ، بل هي أيضاً أكثر ضناً وهزاً لا حتى غدت كالأوتار ضموراً . وكانوا في أثناء ذلك يعرضون لوصف حُمُر الوحش وأتونها التي يصادفونها في الفلاة ، وكذلك لوصف الطباء وبقر الوحش ، وكل يحاول أن ينفذ إلى صورة دقيقة من مثل قول ابن المعتز^(٥) :

-
- (١) الديوان ص ١٦٨ .
(٢) أغباش : بقايا . حرق : جماعات .
(٣) الديوان ٢ / ٩٨٧ .
(٤) المعطفات : المنحنيات .
(٥) الديوان ص ١٥٩ .
جوافل : منزعة .

وَجَرَتْ لَنَا سُحْحًا جَاذِرُ رَمْلَةٍ تَلُو الْمَهَا كَاللُّوْلُو الْمُتَبَدِّدِ^(١)
 قَدْ أَطْلَعْتُ إِبْرَ الْقُرُونِ كَأَنَّهَا أَخَذُ الْمَرَاوِدِ مِنْ سَحِيقِ الْإِثْمِدِ^(٢)

وكان ابن المعتز قد سبق بوصف إبر القرون وأطرافها المدببة بالمراد المغموسة في الكحل شديد السواد واللمعان ، فما زال يحاول النفوذ إلى صورة جديدة حتى قال يصف ثوراً وحشياً يقود إجلالاً أو قطيعاً من بقر الوحش^(٣) :

كَأَنَّ عَلَى طَائِرٍ مِنَ الْوَحْشِ نَاهِضٍ تَخَالُ قُرُونُ الْإِجْلِ مِنْ خَلْفِهِ غَابَا
 فَقُرُونُ الْبَقَرِ تَتَكَاثَرُ حَتَّى لِيَخَالُهَا ابْنُ الْمُعْتَزِ غَابَةَ نَبْتٍ فِي الْفَلَاةِ فَجَاءَهُ .

وكان الشعراء يعرضون أحياناً مع الربيع ووصفه للحديث عن الخمر ، على نحو ما كان يصنع أسلافهم العباسيون ، وشاعت حينئذ التهينة بعيد النيروز وبيوم المهرجان الكبير ، وكانت بغداد وضواحيها تتحول فيه إلى ساحات كرنفالات ضخمة على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضع ، وكان الشعراء يهتثون الخلفاء والولاة به ، وكثيراً ما كانوا يتحدثون عن ملاحيه ، وقد يسوقون الحديث إلى الخمر ، على نحو ما يلقانا عند ابن الرومي في قصيدة يوم المهرجان التي مدح بها عبيد الله بن طاهر محافظ بغداد حينئذ ، ونراه يصور تصويراً رائعاً ما كان بمجلسه من قيان يتغنين غناء يأسر القلوب ، يقول^(٤) :

وَقِيَانٍ كَأَنَّهَا أُمَّهَاتُ عَاطِفَاتُ عَلَى بَنِيهَا حَوَانِ
 مُطْفَلَاتُ وَمَا حَمَلْنَ جَنِينًا مَرْضِعَاتُ وَلَسْنَ ذَاتَ لِبَانِ^(٥)
 كُلُّ طِفْلِ يُدْعَى بِأَسْمَاءٍ شَتَّى بَيْنَ عَوْدٍ وَمِزْهَرٍ وَكِرَانِ^(٦)
 أُمُّهُ دَهْرَهَا تَتَرَجَّمُ عَنْهُ وَهُوَ بَادِي الْغِنَى عَنِ التَّرْجَمَانِ
 غَيْرَ أَنَّ لَيْسَ يَنْطِقُ الدَّهْرُ إِلَّا بِالتَّزَامِ مِنْ أُمِّهِ وَاحْتِضَانِ^(٧)

(٤) الديوان ص ٨٤ .

(٥) لبان : لبن .

(٦) الكران والمزهر من آلات الطرب الورتية .

(٧) التزام : اعتناق .

(١) سححا : عرضاً أو مارة من اليمن .

الجاذر : جمع جؤذر وهو ولد البقرة . المها :

بقر الوحش .

(٢) الإثمد : الكحل .

(٣) الديوان ص ٣٨ وطاو : جانح .

وقد مضى يتحدث عن تأثير هؤلاء القيان بغنائهن وبما كن يحملن من آلات الطرب على صدورهن ، وكأنها أطفال لهن ، فهن يعانقنها وكأنما يرضعنها ، ولكن لا بلبن وإنما بالحنان شجية تشقى الحزون من دائه ، ولكل منهن جمالها وسحرها وفتنتها وصوتها الذى يدلح الحزن والفرح جميعاً ، صوت تمده وتعلو به كما أرادت أو كما يقول فى قصيدته :

ذات صوتٍ تهزّه كيف شاءتْ مثلما هزّتِ الصّبا غُصْنَ بانِ
وإنما أردنا بذلك كله أن نصور كيف أن شاعر المديح فى هذا العصر حاول أن يضيف إلى عناصره الموروثة عناصر مستمدة من بيئته الحضارية ، ممثلاً فيها كثيراً من المعانى والصور الدقيقة ، وكانوا دائماً يلائمون بين مدائحهم ومدحجهم ، فإذا مدحوا وزيراً مثلاً عرضوا لسياسته وتفننه فى الكتابة ، وإذا مدحوا قائداً عرضوا لوقائعه وأجاده الحربية ، وإذا مدحوا عالماً أشادوا بعلمه ، وكذلك إذا مدحوا مغنياً أشادوا بغنائه . واضطرم حينئذ الهجاء كما اضطرم المديح ، ولم يكد يترك الشعراء خليفة ولا وزيراً ولا قاضياً ولا عالماً ولا مغنياً إلا كالوا له الهجاء كيلاً ، وأدأهم تنافسهم إلى أن يتبادلوا الهجاء ويريشوا كثيراً من سهامه . وقرأ فى أى ديوان من دواوين العصر فستجد دائماً هجاء كثيراً على نحو ما يلقانا فى ديوان البحرى مثلاً ، وقد اشتهر بهجائه بعض ممدوحيه حين يقلب لهم الدهر ظهر الحجن ، مثل أحمد ابن الخصيب ممدوحه ، فإنه حين نكبه المستعين أنشده قصيدة يحثه فيها على مصادرة أمواله وسفك دمه ، وظل يسّلقه بلسانه طويلاً بمثل قوله^(١) :

لابن الخصيب الوَيْلُ كيف انْبَرَى بإفـكه المُرْدَى وإبطاله
كاد أمينَ الله فى نفسه وفى مواليه وفى ماله
والرأى كلُّ الرأى فى قتله بالسيف واستصفاء أمواله

وله قصائد كثيرة يمجّد فيها المستعين وعهده ، حتى إذا خلّع وولّى الترك بعده المعزّز أصلاه ناراً حامية من هجائه فى ثنايا مديحه للخليفة الجديد . ولم يكن البحرى حاذقاً فى هذا الفن ، غير أنه كان هناك كثيرون يتقنونه ، مثل على

ابن بسام ، وكان يتعرض في هجائه كثيراً للخلفاء والوزراء وقلماء سلم أحد من لسانه
ومن قوله في العباس بن الحسن وزير المكتنى ^(١) :

وزارة العباس من نحسها تستقلع الدولة من أسها
شبهته لما بدا مقبلا في حُلٍّ يُخجل من لبسها
جارية رعناء قد قدرت ثياب مولاها على نفسها ^(٢)

وكان أكثر ما يعتمدون عليه في الهجاء من معانٍ التهوين والتحقير والتصغير
وما إلى ذلك من طعنات مصممة نافذة ، بما تحمل من سموم الانتقاص
والسخرية المريرة ، كقول إبراهيم بن العباس في صديق تنكر له ووجد
معروفه ^(٣) :

ولما رأيتك لا فاسقاً تهاب ولا أنت بالزاهد
وليس عدوك بالمتقى وليس صديقك بالحامد
أتيت بك السوق سوق الرقيق فناديت هل فيك من زائد
على رجل غادر بالصديق كفور لنعمائه جاحد
فما جاءني رجل واحد يزيد على درهم واحد
سوى رجل حار منه الشقا وحلت به دعوة الوالد
فبعثك منه بلا شاهد مخافة أدرك بالشاهد
وأبت إلى منزلي سالماً وحلّ البلاء على الناقد ^(٤)

والمقطوعة تمسخ هذا الصديق مسخاً ، حتى لتجعله حياً كيت وموجوداً
كعدم ، فلا هو من أهل المجون ولا من أهل الزهد ولا يخشى بأسه عدو ولا يحمد
صديق ، إنه كنود مهين ، ولذلك ذهب ببيعته الصولى في سوق الإنسان الكبيرة ،
معلناً عيوبه من الغدر وكفر النعمة والجحود ، مما جعل الناس يكفون عن شرائه إلا

(٣) ديوان المعاني ١ / ١٨٣ .

(٤) الناقد : المشتري .

(١) زهر الآداب ٣ / ٨٨ .

(٢) قدرت : فصلت وقطعت .

أن يكون بدرهم واحد ، إلا ما كان من رجل سيء الحظ كأنما استجيب فيه دعوة لأبيه ، أقدم على شرائه ، فباعه منه بدراهم معدودة ، وولى الصولى على وجهه يطلب السلامة من هذا البلاء الذى كان حلًّا به . وكان مما يؤذى المهجوين حينئذ إيداء شديد أن يوصفوا بالقذارة ، إذ كان العرب قد تحضروا وأسرفوا فى صور النظافة وفى التطيب بالعطور ، وكان من يوصف بنتن الرائحة يتلطف بعار ما بعده عار ، ويستغل ذلك الصولى فى أحد مهجويه قائلاً له ^(١) :

وكن كيف شئتَ وقل ما تشا وأبرقَ يميناً وأرعِدْ شِبالا
نجايبك لؤلؤمك منجى الذبابِ حمته مقاديره أن يُنالا

فليكن كما يشاء فإن أحداً لن يستطيع التعرض له لحقارته وقذارته . ومعروف أن ابن الرومى هو أكبر شعراء الهجاء فى العصر وأكثرهم سهاماً لمهجويه ، وكان يعرف كيف يصب عليهم التصغير والحقارة والضعفة ، كقولاه المشهور فى وصف بخيل ^(٢) :

يقتر عيسى على نفسه وليس بباقي ولا خالد
فلو يستطيع لتقتيره تنفس من منخر واحد

فتحة أنف واحدة كانت تكفيه ، ولو أنه رأى فيها حقاً كفاية ما انتفع بالفتحة الأخرى ، ولا حاول ذلك حرصاً وبخلاً وشحاً جبُل عليه . وكانت لابن الرومى حاسة تلتقط العيوب الجسدية وتستطيع تكبيرها على نحو ما يصنع أصحاب الصور الكاريكاتورية الهزلية ، فإنهم يعرفون كيف يستغلون دقائق العيوب فى الوجوه والأجسام ، وتستحيل مقطوعات وقصائد كثيرة فى ديوان ابن الرومى إلى صور ساخرة من مهجويه ، حتى ليأخذوا أحياناً شكل حيوانات مجتر وغير مجتر ، كقولاه فى بعض مهجويه ^(٣) :

ما ظننت الإنسان يجترُّ حتى كنتَ ذاك الإنسان عَيْنَ البقين

(١) الديوان فى مجموعة « الطرائف الأدبية » (٣) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى (الطبعة

السابعة بدار المعارف) ص ٢١٤ .

ص ١٦٣ .

(٢) الديوان ص ٣٧٥ .

أما أبو سليمان الطنبورى المغنى فقد استمع إلى غنائه القبيح يوماً ، فترأى له فى صورة بغلٍ لطحانٍ ما يزال يحرك فكّيه فى أكل طعامه من الفول وغيره ، أو كما يقول (١) :

وتحسب العين فكّيه إذا اختلفا عند التنغم فكّى بغلٍ طحانٍ

وهو جانب طريف عند ابن الرومى سنعرض له ثانية فى ترجمته ، والمهم أن نعرف الآن أنه استطاع أن ينمى الهجاء فى هذا الجانب الساخر إلى ذروة لم يصل إليها الشعر العربى قبله ولا بعده .

وظل الفخر نشطاً فى العصر ، وكان قد ضعف الفخر القبلى منذ العصر الماضى وظل ضعيفاً فى هذا العصر لضعف الشعور بالعصبية القبلية ، وإن كنا نجد هذا الشعور من حين إلى حين . ولكنه على كل حال كان شعوراً خافتاً ، ونجده أحياناً على لسان البحترى حين يفتخر بطيئ قبيلته ، وكذلك على لسان ابن الجهم القرشى حين يفتخر بقريش وجدها فهر بن مالك قائلاً (٢) :

أَبَتْ لى قُرُومٌ أَنْجَبَتْنى أَنْ أَرى وَإِنْ جَلَّ خَطْبٌ خَاشِعاً أَتَضَجُّرُ
أُولَئِكَ آلُ اللَّهِ فَهَرُ بْنُ مَالِكٍ ۝ يُجَبِّرُ الْعَظْمُ الْكَسِيرُ وَيُكْسِرُ
هَمُّ الْمَنْكِبِ الْعَالِى عَلَى كُلِّ مَنْكِبٍ سَيُوفُهُمْ تُغْنَى وَتُغْنَى وَتُفْقِرُ

وبقيت من ذلك بقية عند ابن المعتز : إذ نراه يفخر طويلاً على بنى عمومته العلويين ، وهو فخر سياسى يدور حول الخلافة وأن العباسيين أولى بها من العلويين ، وربما كان أروع من هذا الفخر عنده فخره العام الذى يخلطه بشكواه ، والذى يتحدث فيه عن حبه مقدماً لبعض صواحيبه فضائله من الشجاعة والبأس والكرم الفياض والوفاء ، ومن طريف فخره قوله (٣) :

لَا أَشْرَبُ الْمَاءَ إِلَّا وَهُوَ مُنْجَرِدٌ مِنْ الْقَدَى وَلِغَيْرِ الشُّوبِ وَالرَّنَقِ (٤)
عَزَى حَسَامٌ وَقَلْبِي لَا يَخَالَنِي إِذَا تَخَاصَمَ عَزَمُ الْمَاءِ وَالْفَرَقِ (٥)

(٤) الشوب : الماء المخلوط . الرنق :

الكدر .

(٥) الفرق : الخوف .

(١) الديوان ص ٣٦١ .

(٢) الديوان ص ١٣٢ .

(٣) الديوان ص ٣٣٠ .

مَيِّتُ السَّرَائِرِ ضَحَّاكٌ عَلَى حَقِّ مَا دَامَ يَعْجِزُ عَنْ أَعْدَائِي الْعَنْقُ
فهو يشرب الماء صنفوا وغيره يشربه كدراً وشوباً وطينياً ، وهو قوى العزيمة ،
يكنم سره ونيته ، أو هو بعبارة أخرى رجل كامل المروءة ، وقد تغنى الشعراء معه
طويلاً بالكرامة والعزة والأنفة والشيم العربية الرفيعة التي ظلت لا تبحر ذاكرة العرب
على مر العصور .

واحتدم الرثاء في العصر ، فلم يمت خليفة ولا وزير ولا قائد ولا نابه مشهور
إلا رثاه الشعراء ، وكان يحدث أن يقتل الخليفة أو يخلع ويموت في سجنه ، وكان
من الشعراء من يتأثر لذلك تأثراً عميقاً ، فتتفجر لوعاته على لسانه رثاء حاراً ، وما
يصور ذلك مقتل المتوكل الذي مرّ بنا الحديث عنه ، وكان البحري حاضراً مقتله
فتعمق التأثر نفسه ، فبكاه بقصيدته^(١) :

مَحَلٌّ عَلَى الْقَاطُولِ أَخْلَقَ دَائِرَةً وَعَادَتْ صُرُوفُ الدَّهْرِ جَيْشاً تَغَاوَرَهُ
ويقال إنه نظمها حين ولي ابنه المعتز الخلافة وهي ليست رثاء ولا تأبيناً فحسب ،
بل هي أيضاً ثورة على الجناة في مقدمتهم ولي العهد المنتصر ، إذ تحول صدره إلى
ما يشبه بركاناً لا يزال يقذف بالحُمَمِ الملتهبة ، حتى ليحرم على نفسه كل متاع
إلا أن يهب من يأخذ بثأر المتوكل ويسفح دماء قاتليه دمماً بدم ، ويعجب أن ابنه
وولي عهده يشترك في دمه ، ويدعو الله ألا يمتعه بترائه ، يقول :

حَرَامٌ عَلَى الرَّاحِ بَعْدَكَ أَوْ أَرَى دَمًا بَدَمٍ يَجْرِي عَلَى الْأَرْضِ مَائِرُهُ^(٢)
أَكَانُ وَلِيَّ الْعَهْدِ أَضْمَرَ غَدْرَةً فَمَنْ عَجَبُ أَنْ وَلِيَّ الْعَهْدِ غَادِرُهُ
فَلَا مُلَى الْبَاقِي تَرَاثَ الَّذِي مَضَى وَلَا حَمَلَتْ ذَاكَ الدَّعَاءُ مَنَابِرُهُ^(٣)

وكان ابن المعتز صديقاً حميماً للخليفة المعتضد ، وكان لا يبارى في شجاعته
وبأسه ، وكانت أيامه أيام أمن وسعود للخلافة ، فلما وافاه القدر جزع عليه ابن
المعتز جزعاً شديداً ، وبكاه وبكى دولته بطائفة من المراثي الحارة ، منها مرثيته^(٤) :

(٣) مل : متبع .

(٤) النجوم الزاهرة ٣/ ١٢٧ .

(١) الديوان ٢/ ١٠٤٥ .

(٢) مائره : سائله .

يادهُ وَيُحْكُ مَا أَبْقَيْتَ لِي أَحَدًا وَأَنْتَ وَالِدُ سُوءٍ تَأْكُلُ الْوَلَدَا

وقد مضى فيها يندب سكناه في دار موحشة ، وقد خلف من ورائه الجيوش والكنوز التي لم تكن تُحصَى عدداً ، والسريّر أو العرش الذي كان يملؤه مهابة وسؤدداً ، ويذكر سحقه للأعدى سحقاً لا يبقى ولا يذر ، والحياد والرماح تغدو عليهم وتروح ، كما يذكر قصوره ووصائفه وملاهيه وأجاده الحربية ، يقول :

ثم انقضيتَ فلا عَيْنٌ ولا أَثَرٌ حتى كأنك يوماً لم تكن أحداً
وعلى نحو ما تفجعوا على الخلفاء تفجعوا على أبنائهم وعزّوهم فيهم ، وبالمثل صنعوا مع الوزراء وذوى النباهة والشأن ، ومرّ بنا في حديثنا عن خزانات الكتب ما أقام على بن يحيى المنجم في ضيعة له من خزانة ضخمة للكتب كان الناس يؤمنونها من كل بلد ، فيجدون فيها نفقتهم وما يشاءون من كتب لا تكاد تحصى ، وكان الخلفاء منذ المتوكل يسبقون عليه عطايا جزيلة ، فكان ينفقها على مكتبته وعلى الناس من شعراء وغير شعراء ، فلما توفى رثاه على بن بسام رثاء رائعاً على هذا النمط^(١) :

قد زرتُ قبرك يا علىُّ مسلماً	ولك الزيارةُ من أقلِّ الواجبِ
ولو استطعت حملتُ عنك ترابه	فلطالما غنى حملتُ نوائبي
ودمى فلو أنى علمتُ بأنه	يروى ثراك سقاه صوبُ الصائبِ
لسكبتَه أسفاً عليك وحسرةً	وجعلتُ ذاك مكان دمعٍ ساكبِ
فلئن ذهبتْ بملءِ قبرك سُودُداً	لجميلٍ ما أبقيتَ ليس بذهابِ

والقطعة تفيض حسرة ولوعة ، حتى ليتنبى ابن بسام أن لو فُتداه بروحه ومات مكانه وحمل عنه ترابه ، ويقول إنه لو عرف أن دمه يروى ثراه اسكبه عليه ولم يسكب دموه المنهلة . ثم يسترجع نفسه فجميل ما أسدى إلى الناس من صنْعٍ لن يذهب سُدىً ، بل سيظل خالداً على مر الزمان . وكانوا يعزون الآباء في البنات وأن يحتسبوهن عند الله ، ولهم فيهن تعزيات طريفة ، من ذلك تعزية ابن الرومي

(١) زهر الآداب ٨٨/٣ وانظر معجم الشعراء للمرزباني ص ١٤٧ .

لابن المنجم المذكور في ابنة له على هذه الشاكلة (١) :

لا تبعدنْ كريمةً أودعتها صَهراً من الأصهار لا يُخزِيكَ
إني لأرجو أن يكونَ صداقُها من جَنَّةِ الفردوس ما يرضيكَا
لا نِيَّاسنَ لها فقد زوَّجتها كُفُوراً وضَمَنْتَ الصداقَ مَلِيكََا

وكانوا يحاولون النفوذ إلى العزاء بأن الموت مصير لا بد منه، وأن أحداً لن يعيش إلا إلى أجل محدود فنحن دائماً مشدودون إلى الموت، وكل لحظة تمضي تموت ولا تعود إلى الحياة أبداً، فالدهر لا يعيدها ولا تعيدها أيامه، بل لكأن الأيام خلقت لكي تنزل الكوارث على الناس، أما ما قد تجلبه لهم من حسن ونعم فهي إنما تجلبه عن غير عمد، وفي ذلك يقول ابن المعتز في بعض مراثيه (٢) :

أَلَسْتَ تَرَى مَوْتَ الْعُلَا والمحامد وكيف دَفَنَّا الخلق في قَبْرِ واحدٍ
وللدهر أيامٌ يُسْشَن عوامداً ويحسنُ إن أحسنُ غيرَ عوامدٍ

وسَعَرَ مَوْتُ الأبناء وذوى الرحم قلوب الشعراء، فبكوهم بدموع غزار وأنوا أنيناً حاراً من قلوب جريحة كوتبتا نار الفراق الملتهبة، ومضوا يتأوهون وجذوات الحزن الممض تلذع أفئدتهم لدعاً، ويشتهر في هذا الجانب ابن الرومي برثائه لابنه الأوسط وقد مات منزوفاً وهو لم يزل في المهمل صبيّاً، وأحس كأن القدر اختطف منه فلذة كبيرة من كبده، فامتلاّت نفسه حزناً وشقاء، وقعهما على قيثارته ودموعه تنحدر على خديه، وإنه ليخاطب عينيه أن ترسل الدموع غزيرة، علّها تنفس عنه شيئاً من محنته في ابنه، يقول (٣) :

بكاؤكما يَشْفِي وإن كان لا يُجْدِي فجودا فقد أودَى نَظِيرُكما عِنْدِي (٤)
أَرِيحَانَةَ العينين والأنف والحشَا أَلَيْتَ شعري هل تَغَيَّرَ عن عهدِي
كَأَنِّي ما استمتعتُ منك بِضَمَّةٍ ولا شَمَّةٍ في ملعبٍ لك أو مَهْدٍ
وَأَنْتَ وإن أفردتَ في دار وحشةٍ فَإِنِّي بدار الأنس في وحشة الفرد

(١) زهر الآداب ١٧٣/٢ .

(٢) الديوان ص ١٨٧ .

(٣) الديوان ص ٢٩ .

(٤) يجدي : يفيد . أودى : هلك .

والقصيدة جميعها على هذا النمط من التحسر الممض واللوعة المحرقة ، حتى
لكأنما أصبحت الدنيا كأنها في عين ابن الرومي قبراً موحشاً كبيراً ، قبراً يصب
عليه حزناً ثقيلاً . ومن رُزِيَّ بابنين له وبكاهما طويلاً إبراهيم بن العباس الصولي ،
وكان الموت قد فجأه في أولهما ، ثم لم يلبث أن فجأه في الثاني ، فقال (١) :

كلُّ لسانٍ عن وصف ما أُجِدُّ وَذُقْتُ تُكْلاً ما ذاقه أَحَدُ
ما عالج الحزن والحرارة في الآ حشَاء مَنْ لَمْ يَمِتْ لَهُ وَلَدُ
فُجِعْتُ بِابْنِي ليس بينهما إِلَّا لَيْالٍ ما بينها عَدَدُ
وكلُّ حُزْنٍ يَبْكِي على قدم الـ دَهْرٍ وَحُزْنِي يُجِدُّهُ الْكَمَدُ

وشاعرية الصولي كانت دون شاعرية ابن الرومي ، ولذلك لم يبلغ في تصوير
حزنه وأساه على فلذتي كبده ما بلغه ابن الرومي من تصوير كارتته في ابنه
وفاجعته فيه .

وذكرنا في كتاب العصر العباسي الأول أن شعراء هذا العصر بكوا بغداد حين
أصابتها كوارث النهب والتحريق في حروب المأمون والأمين ، وبذلك عرف الشعر
العربي لأول مرة رثاء المدن ، ونجد في هذا العصر الحديد بقية لهذا الرثاء حين
هجم صاحب الزنج بجموعه على البصرة وأنزل بها النهب والسلب والحرق وفتك
بأهلها فتسكناً ذريعاً ، حتى قيل إنه قتل منهم في هذا الهجوم ثلاثمائة ألف على نحو
ما مر بنا في هذا الموضع ، وقد أشرنا هناك إلى مرثي الشعراء لتلك المدينة وفي مقدمتها
مرثية ابن الرومي :

ذَادَ عَنْ مُقْلَتِي لَذِيذَ الْمَنَامِ شَغَلَهَا عَنْهُ بِالْدموعِ السَّجَامِ

وهو يستهلها ببيان ضخامة الحادثة وخطورتها ، فقد نزل بالبصرة من ضروب
الذل والهوان والخسف والعسف ما ملأ نفسه ألمًا وهولاً وحسرة وأوعدة ، حتى إنه
ليبكي بكاء مرّاً طوال نهاره وطوال ليله ، فقد انتهك الزنج محارم الإسلام ، وإن

(١) الديوان في « مجموعة الطرائف الأدبية »
ص ١٧٥ .

لهفته عليها لتدلع لهباً في قلبه كلهب النار التي حرقتها ، وإنه ليندب مجدها وأمنها
ومن سفكوا الدم فيها ، حتى كان الأخ لا يفكر في أخيه ولا الأب في بنيه ،
فالجميع مشغولون بأنفسهم كل يريد النجاة ولا منجى فالسيوف تحصدهم حصداً ،
أما النساء فساقدن سبايا حاسرات الوجوه ، وباعوهن بيع الرقيق . وخرّت المدينة
الكبيرة عند أقدام الزنج تترنّج إعياء ، وأصبحت القصور بالتحريق تلالاً ،
وأصبح الناس أشلاء مبعثرة في كل مكان ، وأصبح المسجد الجامع قفراً من عباده
ونسأكه . ويتحول ابن الرومي من وصف الكارثة المروعة إلى استصراخ الناس كي
يردوا سيل الزنج الكاسح عن البصرة ومدن العراق ، ويرفع لهم شعارات الجهاد
الديني ، ويستحثهم بما يكون بينهم وبين الله من حوار إزاء تلك الفاجعة إن هم
قعدوا عنها ، ويناديهم بلسان الرسول صلى الله عليه وسلم أن يردّوا عدوان الزنج
الأثيم ، ويستنفهم في حماسة بالغة ارد هذا العار وللثأر والانتقام ، ويختم ابن
الرومي المراثية ببيان فضل المجاهدين وما أعدّ لهم من الجنان والرضوان العظيم . وهي
بذلك تُعدّ مراثية من جهة واستصراخاً واستنفاراً لحرب الزنج من جهة ثانية ، وهو
استنفار يكتظ بالغيظ والحنق الشديد .

ومن موضوعات الرثاء التي استُحدثت في العصر العباسي الماضي رثاء المدلل
من الحيوانات المستأنسة ، ونرى شعراء هذا العصر يحاكون أسلافهم في هذا الباب ،
ومن أروع ما نظموه فيه مراثية الحسن بن علي بن أحمد بن بشار المعروف بابن
العلاف الضرير النهرواني ، وكان من أصدقاء ابن المعتز وابن الفرات وزير المقتدر ،
وكان له هر يأنس به تعود أن يدخل أبراج الحمام لدى الجيران ويأكل أفرانها ،
وكثر ذلك منه ، فأمسكه بعض أربابها وذبحوه ، وحزن عليه ابن العلاف ، فراثه
رثاء حاراً وكأنه يرثى صديقاً عزيزاً لديه نكبه بعض الخلفاء ، ولذلك قيل إنه كنى
بالهر عن ابن المعتز وقيل عن ابن الفرات ، خوفاً على نفسه من المقتدر الذي
نكبهما إن هو صرح بالاسم الحقيقي ، ويضيف ابن خلكان إلى هذين القولين قولاً
ثالثاً ، هو أنه كانت لعل بن عيسى وزير المقتدر جارية هويت غلاماً لابن العلاف ،
فمُطْن بهما فقتلا ، وبكى ابن العلاف غلامه وكفى عنه بالهر . وفي رأينا أن روعة
هذه المراثية هي التي جعلت القدماء يظنون بها هذه الظنون ، وهي خمسة وستون بيتاً ،

كلها من عيون الرثاء وغرره . وفيها يقول^(١) :

يا هِرُّ فارَقْتَنَا ولم تَعُدْ وكنتَ مِنَّا بِمَنْزِلِ الولدِ
فكيف ننفكُ عن هواك وقد كنتَ لنا عُدَّةً من العُدَدِ
تطردُ عنا الأذى وتحرسنا بالغيب من حَيَّةٍ ومن جُرَدٍ^(٢)
وتُخْرِجُ الفأرَ من مكانها ما بين مفتوحها إلى السُّدَدِ
حتى اعتقدتَ الأذى لجيرتنا ولم تكن للأذى بمعتقد
وحمتَ حول الردى بظلمهم ومن يحُمُّ حول حَوْضِهِ يَرِدُ
صادوك غيظاً عليك وانتقموا منك وزادوا ومنَ يَصِدُّ يَصِدُ
ما كان أغناكَ عن تصعُّدكَ الـ بُرْجَ لو كان جنة الخلدِ
والمرثية كلها تفجع على هذا المنوال ، وتزخر بالحكم مع الحسرة على فقد الهرِّ
ووع التأمّل في الموت وحقائق الحياة . ومن طريف ما نجد من مرثيات في العصر رثاء
أبي الشبل البرجُميِّ التميميِّ لقنديل حطمه كبش دخل بيته وعاث فيه^(٣) وكذلك
بكاهه قرطاساً سُرِقَ منه خلسة^(٤) .

وأكثر الشعراء في العصر من العتاب والاعتذار ، سواء بين المتحابين أو بين
الأصدقاء ، وقد تفننوا في ذلك على صور شتى تسعفهم ملكاتهم العقلية الخصبية
بمعان وخواطر لم تفد على سابقيهم ، أو لعلها وفدت ولكنهم أبرزوها إبرازاً جديداً ،
تسعفهم في ذلك مشاعرهم المرفهة وأذواقهم المتحضرة الرقيقة وهزارتهم في الإتيان
بالمعاني التي تروق وتروع العقول والقلوب جميعاً ، وربما كان من أجمل ما صاغوه
في العتاب قول سعيد بن حميد^(٥) :

أَقْلِلْ عتابك فالبقاء قليلُ والدهرُ يعدلُ نارةً ويميلُ

- (٢) الجرد : الفأر .
(٣) الأغاني (طبعة دار الكتب المصرية)
٢٠٤/١٤ .
(٤) الأغاني ٢٠٩/١٤ .
(٥) زهر الآداب ٢٤٦/٢ .

- (١) انظر في القصيدة وترجمة ابن العلاف
ابن خلكان (طبع مطبعة الوطن) ٢٤٥/١
وانظر طبقات الشعراء لابن المعتز (طبع
دار المعارف) ص ٣٥٩ وتاريخ بغداد
٣٧٩/٧ ونكت الهميان ص ١٣٩ .

لم أبك من زمنٍ ذممتُ صروفه إلا بكيت عليه حين يزول
ولعل أحداث المنية والردي يوماً ستصدع بيننا وتحول
فلئن سبقت لتبكين بحسرة وليكثرن عليك منك عويل
ولتفجعن بمخلص لك وامقٍ حبلى الوفاء بحبله موصول
ولئن سبقت ولا سبقت ليمضين من لا يشاكله لدى خليل
وأراك تكلف بالعتاب وودنا صافٍ عليه من الوفاء دليل
ولعل أيام الحياة قليلة فعلام يكثر عتبنا ويطول

إنها حماقة أن يتأذى الأصدقاء في العتاب ، والحياة من شأنها ألا تجرى سوية ، وكل ما نبكى منه يوماً نبكى عليه في يوم تال ، فأولى بنا ألا نفص إلى التشاؤم ، إذ سرعان ما يطوى بساط الحياة ، ولذلك خليق بالأصدقاء أن يعفوا عما قد يظنون بصداقتهم من كدر . ويعرض ابن حميد على صديقه الفراق الأخير الذي لا بد منه فراق الموت وكيف سيملاً صديقه عليه الفزع ويلتاع لوعة لا ينفعه إزاءها صراخ ولا عويل ، وكذلك شأنه إن سبقه صديقه ، وقيم العتاب وصداقتهم ما كانها صفاء وبر ، وحرى بهما أن ينعما بتلك الصداقة قبل أن يقرع الموت الأبواب ويفترق الصديقان افتراقاً لا لقاء بعده . ولابن الرومي في العتاب كثير من المعاني البارة ، من مثل قوله في آل وهب^(١) :

تخذتكم درعاً وترساً لتدفعوا نبال العدا عني فكنتم نصالها
وقد كنت أرجو منكم خير ناصرٍ على حين خذلان اليمين شالها
فإن أنتم لم تحفظوا لمودتي ذماماً فكونوا لا عليها ولا لها

وعفاء على هؤلاء الأصدقاء فقد كان يتخذهم دروعاً وترساً ، فإذا هم عون للأعداء ، وإذا هم يخذلونه خذلاناً مروعاً . خذلان اليمين للشمال ، وإنه ليتوسل إليهم إن لم يحفظوا ذمام مودته وحرمة أن يكفوه شرهم كما كفوه خيرهم ، فيكونوا

لا عليه ولاه . ولعل أشهر شعراء العصر في الاعتذار وأكثرهم تفنناً فيه البحري ، وقد أجمع القدماء على الإعجاب باعتذاراته للفتح بن خاقان وزير المتوكل ومن طريف ماله فيها قوله من قصيدة ميمية مدحه بها^(١) .

عَلَيْرِي مِنَ الْإِيَّامِ رَنَّقَنْ مَشْرَبِي وَلَقَيْنِي نَحْسًا مِنَ الطَّيْرِ أَشَامًا^(٢)
وَأَكْسَبَنِي سُخْطَ امْرِئٍ بَتُّ مَوْهِنًا أَرَى سُخْطَهُ لَيْلًا مَعَ اللَّيْلِ مَظْلَمًا^(٣)
وَقَدْ كَانَ سَهْلًا وَاضِحًا فَتَوَعَّرْتُ رُبَاهُ وَطَلَفًا ضَاكًا فَتَجَهَّمَا^(٤)
أُعِيدُكَ أَنْ أَخْشَاكَ مِنْ غَيْرِ حَادِثٍ تَبَيَّنَ أَوْ جُرْمٍ إِلَيْكَ تَقْدَمًا
وَلَوْ كَانَ مَا خَبَرْتَهُ أَوْ ظَنَنْتَهُ لَمَا كَانَ غَرَوًا أَنْ أُلُومَ وَتَكْرُمًا^(٥)
أَقْسَرُ بِمَا لَمْ أَجْنِهِ مُتَنَصِّلًا إِلَيْكَ عَلَى أَنِّي إِخَالُكَ أُلُومًا^(٦)
لِي الذَّنْبُ مَعْرُوفًا ، وَإِنْ كُنْتُ جَاهِلًا بِهِ فَلَكَ الْعُتْبَى عَلَى وَأَنْعَمَا^(٧)
وَمِثْلُكَ إِنْ أَبْدَى الْفَعَالُ أَعَادَهُ وَإِنْ صَنَعَ الْمَعْرُوفَ زَادَ وَتَمَمَا^(٨)

ولم نقل الاعتذار كله في القصيدة لطوله ، وجميعه يجري على هذه الشاكلة من التلطف ورقة الحاشية ، وحسن التأتى ، ودقة التنصل ، مع التضخيم للذنب الذى لا يعرفه والذى جعل الفتح يتغير عليه ، وهو لذلك يقدم شتى المعاذير ، فقد أتى جرماً لا يغتفر ، جرماً لم يجنه ، كدَّرَ وَرَدَهُ ، وأحال أيام سعده نحساً لا يطاق ، إذ غضب عليه الفتح ، وكأنما اسودَّت الدنيا في عينه ، ومثلُ الفتح حريٌّ بالعفو لو أن هناك جريرة حقيقية ، فما بالنا ولا جريرة ولا جرم ولا ذنب ، ويسلم البحري بذنبه ورقة وتلفظاً ، منوهاً بالفتح وفعاله الحميد ومعروفه الذى يواليه ، وكيف أنه من أهل الصفح الجميل .

ولا نغلو إذا قلنا إن أهم موضوع استغرق الشعراء واستنفد أشعارهم الغزل ، وكانوا ينظمونه تعبيراً عن عاطفة الحب الإنسانية الخالدة ، وتلبية لحاجات الناس

- | | |
|-----------------------------------|--|
| (١) الديوان ١٩٨٢/٣ . | (٥) غروا : عجباً . ألوم : ألوم . |
| (٢) رنقن : كدرن . الطير : الطير . | (٦) ألوما : أكثر لوماً . |
| (٣) الموهن : نحو منتصف الليل . | (٧) وأنعم هنا : وزيادة على ذلك . |
| (٤) التجهم : عيوس الوجه . | (٨) الفعال بفتح الفاء : الصنع الجميل . |

الوجدانية وحاجات المغنين والمغنيات من المقطوعات والأشعار التي كانت توقع على الآلات والمعازف الموسيقية ، ولذلك تطلبها دائماً دور القيان والطرب ، وكان الشعراء يختلفون إلى هذه الدور لسماع الغناء في أشعارهم ولمغازلة الجوارى والإماء . وكان منهم من يتقن نظم الشعر ، ومنهم من كن يُطارِحْنَ الشعراء في أغاني الحب وأناشيده . ولعبن دوراً واسعاً في دفع المجتمع العباس نحو الصبابة والعشق ، وكان منهم من ينحرفن عن الطريق السوي ، كما كان من الشعراء والشباب من حولهن شياطين لا يعرفون ديناً ولا خلقاً ولا عرفاً . وكان ذلك سبباً في أن يكثر الغزل الإباحي ، الذي لا يحتشم فيه الشاعر ، بل الذي يعبر فيه أحياناً عن جوعه الجسدي وغرائزه الحيوانية . ومن الحق أن ذلك كان امتداداً لموجة الغزل المكشوف الذي شاع في العصر العباسي الأول ، وكأنما ظلت لتلك الموجة حِدَّتْها ، وكانت دور القيان كما قلنا آتفاً من أسباب هذه الحدة ، إذ كان بعض جواربها يتحولن أدوات للإغراء والريبة والمجون ، وساعدهن على ذلك أنهن كن يُبْعَنْنَ وَيُشْرَيْن ولم يكن يشعرن بشيء من الكرامة ، وكن يعشن بين الخلاء والمجان وبين كثيرين ممن لا يعرفون ديناً ولا صيانة مروءة ولا يفكرون في عقاب ولا ثواب ، إنما يفكرون في المتاع المادي وغرائزهم النوعية وآربهم الرخيصة ، وطبيعي لذلك أن يشيع الغزل الإباحي المكشوف الذي لا يعرف لامرأة كرامة ولا للرجل مروءة ، إنما يعرف الهوان والابتذال البغيض . وعلى نحو ما ظل الغزل الماجن الخليع شائعاً في هذا العصر ظل كذلك الغزل الشاذ بالغلمان الذي يُزرى بكرامة الرجال . وأكبر الظن أن كثيراً من هذا الغزل وسالفه لم يكن يصور حقائق واقعة ، إنما كان يصور حقائق خيالية من بعض الوجوه ، إذ كان يراد به إلى التندير والفكاهة في مجالس هؤلاء المجان الخليعين ، فهم ينظمونه ويتداولونه للضحك والدعابة ، وعادة يصحبه الشاعر في إنشاده بحركات ليزيد من ضحك السامعين . ونظن ظناً أنه فات مؤرخي الأدب العباسي أن يلاحظوا هذه الظاهرة ، وكأنه يشبه من بعض الوجوه ما قد يجري على بعض الألسنة في عصرنا من نكت جنسية . وليس معنى ذلك أننا نريد أن ننكر إنكاراً باتناً الغزل المكشوف وأخاه الشاذ في العصر العباسي الأول والثاني ، إنما نريد أن نلفت إلى أن كثيراً منه صُنِعَ للتندير والفكاهة ، وأنه غاب ذلك عن أرخوا للأدب العباسي ، وتاريخهم لذلك في حاجة إلى غير قليل من التصحيح . ولا بد أن نلاحظ من جهة

ثانية أن هذا الغزل المادى الماجن كانت تحفّه دائماً وتتخلله معاني الغزل العربي العفيف الذى شاع فى العصر الأموى ، وكانت هذه المعاني تخفف من ماديته كما كانت تُشعل فيه جذوة الحب الطامئ وآلامه الثقال ، فلم يسقط فى كثير من جوانبه ومقطوعاته ، إذ ظلت فيه الحيرة والحنان والتضرع والاستعطاف وظل الشوق الجامح الذى يملك على النفس عواطفها وحسها وشعورها وأهواءها . وأيضاً لا بد أن نلاحظ بجانب ذلك أن الغزل العذرى العفيف نفسه ظل حياً لا من خلال معانيه التى تسربت فى الغزل المادى الصريح كما ذكرنا آنفاً ، وإنما من خلال بعض الشعراء الذين ارتفعوا عن أدْران الحِسِّ وأعراضه ، وعاشوا فى جبههم معيشة طاهرة نقية أعظم ما يكون الطهر والنقاء على نحو ما هو معروف عن محمد ابن داود الأصبهاني صاحب كتاب « الزهرة » فى الحب وأشعاره . وملاحظة أخيرة هى أن الضريرين من الغزل المادى الإباحى والعذرى العفيف استطاعت ملكات الشعراء الخصبة حينئذ أن تستثير فيهما كثيراً من خطرات الحب ودقائقه البديعة ، وابن الرومى لا يبارى فى نفوذه إلى هذه الدقائق ، كقوله فى العناق وطموحه إلى امتزاج الروحين^(١) .

أعانقُها والنفسُ بعدُ مشوِّقةٌ إليها ، وهل بعد العناق تَدانِ
وَأَلِّمُ فاما كى تزول حرارُ فيشتد ما أَلقى من الهيمانِ^(٢)
كَأَنَّ فَوَادى لَيْسَ يَشْفَى غليله سوى أن يرى الروحين يمتزجان

فالعناق لا يروى ظمأه ، وفى قلبه جذوة لا تطفئها القبلات ، بل تزيدها تَلْظِيماً واشتعالا ، ويحسُّ أن عذابه بجم صاحبه لن يخلصه منها إلا أن يمتزج روحه بروحها ، حتى ينعم بالوصل الحقيقى . وكثيراً ما يلجأ بالعناق وكثيراً ما يزدح فيه صوراً طريفة ، كقوله^(٣) :

طالما التفتُّ إلى الصُّبِّ ح لنا ساقُ بساقِ
فى قناعٍ من لثامٍ وإزارٍ من غناقِ

فقد كانا مكسوين طوال الليل كسوة غريبة من اللثام والعناق ، ونحس دائماً
عنده بطفرات الفكر العبقري وأخيلته كأن نراه يقول في الصدور^(١) :

صدورٌ فوقهنَّ حِقَاقُ عَاجٍ وَحَلَى زَانَهُ حُسْنُ اتِّسَاقٍ
يقول الناظرون إذا رَأَوْهَا أَهَذَا الْحَلَى مِنْ هَذِي الْحِقَاقِ

وهي صورة لا تفد بحق في ذهن شاعر من هذا العصر سوى ذهن ابن الرومي
الذي كان يشبه متحفاً كبيراً ما يزال يستخرج منه الدرر والتحف النفيسة، من مثل
قوله في جمال العيون ومدى تأثيرها وسحرها في العشاق^(٢) :

نَظَرْتُ فَأَقْصَدْتُ الْفُؤَادَ بِسَهْمِهَا ثُمَّ انْتَنْتُ عَنْهُ فَكَادَ يَهِيمُ
وَيَلَاهُ إِنْ نَظَرْتُ وَإِنْ هِيَ أَعْرَضَتْ وَقَسَّ السَّهَامُ وَنَزَعْنِ أَلِيمُ

وكان مَنْ حوله من الشعراء لا يزالون يحاولون بكل ما وسعهم أن يأتوا بدرة أو تحفة
تخلب ألباب سامعيهم ، ولتكن خاطرة طريفة أو صورة بدعية ، ولا يهم أن يكون
أصلها قد دار على ألسنة الشعراء ، فالمهم طرافة العرض وتحوير المعنى أو الصورة ،
من مثل قول ابن المعتز^(٣) :

يَا غُصْنًا إِنْ هَزَهُ مَشِيهِ . خَشِيتُ أَنْ يَسْقُطَ رُمَّانُهُ

وقول أبي العباس الناشي في بكاء إحدى صواحيبه وقد أحسَّت أن فراقه لها
سيطول أمدّه ، فقال وهو محزون الفؤاد^(٤) :

كَانَ الدَّمُوعُ عَلَى خَدِّهَا بَقِيَّةَ طَلٍّ عَلَى جُلْنَازٍ

وينفذ أحمد بن صالح بن أبي فنن إلى معنى دقيق فإنه حين ينظر إلى صاحبة
تتورد وجنتها خجلاً ، فتقتص منه في قلبه بما تصيبه به من سهام عينيها المصهوية ،
يقول^(٥) :

أَدْمَيْتُ بِاللَّحْظَاتِ وَجَنَّتْهَا فَاقْتَصَّ نَاطِرُهَا مِنَ الْقَلْبِ

(٤) زهر الآداب ٢/ ٢١٦ .

(٥) تاريخ بغداد ٤/ ٢٠٢ .

(١) ديوان الماني ١/ ٢٥٣ .

(٢) ديوان الماني ١/ ٢٣٦ .

(٣) الديوان ص ٤٢٢ .

ومرّ بنا في فصل الحياة الاجتماعية أن موجة المجون ظالت على تفاقمها وحدتها في هذا العصر ، وظل معها شرب الخمر المعتقد ، وكانت حاناتها تكتظ بها الكرخ في بغداد ودور النخاسة والبساتين كما كانت تكتظ بدنانها وكثوسها الديارات . وكان سقاتها أخلاطاً من النصارى والمجوس واليهود ، وأقبل يعبثها المجنّان والفسّاق وكان منهم المتمرد على الدين الحنيف ، ومنهم المجوسى ، ومنهم من لا يؤمن بأى دين ، فأكبوا عليها جميعاً ، دون رادع أو وازع ، ويفيض كتاب الأغاني بأخبارهم ، وكذلك كتاب الديارات للشابشتى ، حيث يتوقف مع كل دير ليترجم لماجن كبير مثل الحسين بن الضحاك وأبى الشبل البرجمى وعبد الله بن العباس الربيعى ، وغيرهم ممن كانوا يعكفون على الشراب فى الأديرة وغير الأديرة ، ومن عاشوا سكارى لا يفيقون إلا لى يعودوا إلى الشراب والمجون ، وهم فى أثناء ذلك يصفون الخمر والنشوة بها وكثوسها ودنانها وسقاتها مضيفين إلى ذلك غزلاً مسعوراً بالحوارى والغلمان . ويخيل إلى الإنسان كأنما تردى فى حمة هذه الرذيلة أكثر شعراء العصر ، ولذلك تزخر دواوينهم وأشعارهم بنعت الخمر والنشوة بها ، وجعلوا يحاولون فيها ما حاولوه فى أغراض الشعر الأخرى من النفوذ إلى معان وأخيلة تبهر السامعين ، من مثل قول ابن المعتز ^(١) :

شربنا بالكبير وبالصغير ولم نحفل بأحداث الدهور
وقد ركضت بنا خيلُ الملاحى وقد طرّنا بأجنحة السرور

وهو يصور نشوته بتلك الخمر التى شربوها بالقداح الكبيرة والصغيرة ، فلا تهم مسرة وفرحة ، حتى لكأنما يحملهم الاغتيباط على خيوله ، بل على جناحيه ، فهم يطيرون طيراناً ، ولم يبلغ شاعر مبلغ ابن الرومى فى بيان ما تفسح الخمر من آمال السكران حتى لىتمنى المستحيلات ، يقول ^(٢) :

ومدامة كحشاشة النفس	لطفت عن الإدراك والعسّ
لنسيمها فى قلب شاربها	روح الرجاء وراحة النفس
وقد فى أمل ابن نشوتها	حتى يؤمل مرجع الأمس
وكانها وكان شاربها	قمر يقبل عارض الشمس

(١) الديوان ص ٢٣٨ .

(٢) للديوان ص ١٠٧ .

وقد صور ابن الرومي في البيتين الأولين رقة المداومة وخفتها حتى لتكاد تلقى عن الحس، كما صور أثرها في قلب شاربها وما تمنحه من أمل بعد يأس وراحة بعد تعب، بل إنما لتمد في أمله، حتى ليظن أن ما يستحيل رجوعه سيعود ثانية وأنها تخلو من كل كدرة.

وينبغي أن نؤمن بأن حركة المجون في العصر لم تكن نعم الناس جميعاً، إنما كانت نعم في بعض قصور ذوى السلطان ومن كانوا يفيضون عليه من أموالهم من المغنين والشعراء، أما عامة الشعب فكانت تربض في مسغبة شديدة وقلاما عرفت شيئاً من الترف أو من الفراغ والثراء.

وكان الموضوع الذى يتصل بالعامّة حقّاً هو الزهد وما نشأ عنه من التصوف، وبدون شك كانت الحانات والأديرة لا تقاس من حيث الكثرة ولا من حيث عدد من يؤمنونها إلى المساجد، وكانت تكتظ بالفقهاء والمحدثين والعُباد والنسّاك الذين رفضوا متاع الحياة الدنيا، وعكفوا على عبادة الله. وكان بينهم كثيرون من الوعاظ الذين يعظون الناس صباح مساء، وقد رفعوا نصب أعينهم ثواب الآخرة من الجنان والفراديس وعقابها من الجحيم والعذاب المقيم، وهم في أثناء ذلك يدعون إلى الزهد وازدراء المتاع الفانى والإقبال على ما عند الله من المتاع الباقي، مكررين الحديث عن الموت وأن الحياة إنما هى رحلة قصيرة والناس فيها كركب وقوف ينتظر كل منهم دوره، وسرعان ما يختطفهم الموت، فأولى لهم أن يتدبروا حياتهم وأن يتزودوا زاداً كبيراً لآخرتهم، زاداً من التقوى والصلاح والقناعة. ويكثر الشعر الزاهد في العصر حتى ليتخذ أحياناً مقدمة للمديح من مثل قول على بن الجهم^(١):

وعاقبة الصبر الجميل جميلة	وأفضل أخلاق الرجال التفضل
وما المال إلا حسرة إن تركته	رغم إذا قدمته متعجل
وللخير أهل يسعدون بفعله	وللناس أحوال بهم تتنقل
ولله فينا علم غيب وإنما	يوفق منا من يشاء ويخذل

وبلغ من شيوع شعر الزهد حينئذ أن اشترك فيه كثير من الشعراء الذين تطفح

دواوينهم بالحديث عن الحمر والمجون ، لما كانوا يتنفسون فيه من ترف بالغ مثل ابن المعتز ، فكانوا ينظمون منه مقطوعات وأحياناً قصائد طويلة ، ولابن الرومي فيه قصائد ، بل مواعظ بديعة ، من مثل قوله ^(١) :

نَبْلُ الرَّدَى يَقْصِدُنْ قَصْدَكَ	فَأَجِدْ قَبْلَ الْمَوْتِ جِدَّكَ ^(٢)
وَدَعَ الْبَطَالَةَ وَالْغَوَا	يَةَ جَانِباً وَعَلَيْكَ رُشْدَكَ
فَكَأَنِّي بِكَ قَدْ نَعِي	تَ وَقَدْ بَكَى الْبَاكُونَ فَقَدْكَ
وَتَرَكْتَ مَنْزِلَكَ الْمَشِي	يَدَ مَعْطِلاً وَسَكَنْتَ لَحْدَكَ
وَخَلَوْتَ فِي بَيْتِ الْبِلَى	وَحَلَا بِكَ الْمَلِكُ الْوَحْدَكَ
وَسَلَكَ أَهْلَكَ كُلَّهُمْ	وَنَسُوا عَلَى الْأَيَّامِ عَهْدَكَ
يَتَمَتَّعُونَ بِمَا جَمَعَ	تَ وَلَا يَرُونَ عَلَيْهِ حَمْدَكَ
مَتَنَعِّمِينَ وَأَنْتَ تَحْ	تَ الرُّمَيْسَ يَرْعَى الدُّودُ جِلْدَكَ

وهو يرفع الموت نُصْبَ أعين الناس ، وكأنه مطبق عايهم ، حتى يرتدعوا عن البطالة والغنى ، فعمّا قريب سينزل بهم ، وسيرتفع الصباح والضجيج عليهم ، وسيتركون التصور المشيدة وينزلون اللحد المقفرة ، ويسألهم الملكان عما قدمت أيديهم ، ويسألهم الأهل وينسئونهم كأن لم يكونوا شيئاً مذكوراً ، على حين يتمتعون بأموالهم التي جمعوها دون حمد لهم أو ثناء عليهم ، وعلى حين يرعى الدود جشهم وجلودهم ، فحرى بالعاقل أن يتدبر أمره ، وأن يتزود للآخرة زاداً كبيراً من التقوى ، فإن الموت له بالمرصاد ، وهينئاً لمن انتفع بالموعظة وقدم من يومه وبره لغله . وقد أخذ ينمو من هذا الزهد موضوع جديد من موضوعات الشعر العربي هو التصوف وسنعرض له في غير هذا الموضع .

نمو الموضوعات الجديدة

على نحو ما حدث في الموضوعات القديمة من إضافات كثيرة سواء من حيث المعاني أو من حيث التصاویر، أخذت الموضوعات الجديدة التي عرضنا لها في كتاب العصر العباسي الأول تدخلها إضافات متنوعة، كما أخذت فروع من الموضوعات القديمة تستقل وتنمو نمواً واسعاً حتى لتصبح موضوعات جديدة جلة خالصة، وأول ما نقف عنده مما تفرع عن الموضوعات القديمة أو تولد منها، شعر التهاني الذي تحول إليه شعر المديح في بعض جوانبه، وخاصة التهاني بأعياد النيروز والمهرجان كما مر بنا آنفاً، وكان أول من افتتح التهاني أحمد بن يوسف للمأمون^(١)، ثم أصبح ذلك سنة عامة، ثم أخذ هذا الموضوع يتسع، فأكثروا من التهنة بالمواليد، وأيضاً فإنهم أكثروا من إرفاق الهدايا بأبيات من الشعر الرقيقة، من مثل قول سليمان بن وهب، وقد أهدي إلى سليمان بن عبد الله بن طاهر سلال رطب من ضيعته^(٢):

أَذَنَ الْأَمِيرُ بِفَضْلِهِ وَبِجُودِهِ وَبِنَيْلِهِ
لَوْلِيهِ فِي بَرِّهِ بِجَنَاحِهِ سُكَّرَ نَخْلِهِ
فَبَعَثْتُ مِنْهُ بِسَلَّةٍ تَحْكِي حَلَاوَةَ عَذْلِهِ

وكثيراً ما كانوا يتهادون بالورود والرياحين في أيام الربيع ويرسلون معها ببعض الأشعار، وكذلك كانوا يتهادون ببعض التحف والطرף النفيسة، وقد يصفون ما يهدونه نظرفاً كقول ابن الرومي في قدح أهده إلى علي بن يحيى المنجم^(٣):

وَبَدِيعَ مِنَ الْبَدَائِعِ يَنْسِي كُلَّ عَقْلٍ وَيَطْبِي كُلَّ طَرْفٍ
كَفَمِ الْحَبِّ فِي الْمَلَاةِ بَلْ أَشْ هَمِّي وَإِنْ كَانَ لَا يَنَاجِي بِحَرْفٍ
وَسَطِ. الْقَدَرِ لَمْ يَكْبُرْ لَجَرَعٍ مَتَوَالٍ وَلَمْ يَصْغُرْ لِرَشْفٍ

(٢) الديوان ص ٣٣.

(١) ديوان المعاني ٩٥/١.

(٢) الأغاني (طبعة الساسي) ٧١/٢٠.

وظل الشعراء يقدمون لمذائحهم كثيراً بوصف الأطلال كما مر بنا ، وفقد البحري من ذلك إلى موضوع جديد هو الحديث عن آثار الفرس ممثلة في إيوان كسرى على نحو ما هو معروف في قصيدته السينية التي تُعَدُّ من روائع الشعر العباسي ، وفيها يصور أطلال هذا الإيوان التي لا تزال ماثلة جنوبى بغداد إلى اليوم ، وكان قد زاره بعد قتل المتوكل ، فبكى همومه وأشجانه ، وبكى الأطلال الكسروية ودولة الفرس القديمة ودولتهم الحديثة التي أدال منها الترك لعصره وأصبح لهم السلطان والصولحان ، فإذا هم يطيحون بالخليفة ، وإذا هم يسفكون دمه غير مراعين إلا ولا عهداً . وإنه ليذكر يد الفرس في العصر العباسي الأول وتشيدهم لحضارته ومدنيته ، مما يجعله ينوه بمجدهم القديم حتى ليكاد يرفعهم على العرب تحسراً على ما آلت إليه شئون الملك والحضارة في عهد الترك . وهو لا يكاد يماسك حزناً وحسرة ولوعة في مستهل قصيدته لنبو ابن عمه عنه ، وكأنه يرمز بذلك لقتل المتوكل ، فإن أحداً من أهل بيته أو من أبناء عمومته لم ينصره ، بل لقد اشترك ابنه وولى عهده المنتصر في مؤامرة قتله ، ويشدد بنفسه تأثير الخنة ، فيتجه إلى المدائن عاصمة الفرس القديمة وإيوان كسرى تنفيساً عن نفسه ، ويلمّ به كثير من الشجون ، ويذكر إيران القديمة واتساع ملكها في الشمال من باب الأبواب على بحر قزوين إلى جبال أرمينية ، كما يذكر رفاهة العيش التي كانت بها ، ولين الحياة ونعيمها وتملاً نفسه أطلال الإيوان وما نقش عليها من الرسوم والصور وخاصة ما سُجِّلَ بها من تصوير معركة حامية الوطيس بين الفرس بقيادة كسرى والروم وقعت بإنطاكية سنة ٥٤٠ للميلاد ، يقول وقد لفظ كلمة الإيوان باسمها الفارسي « الجرماز »^(١) :

فكأن الجرماز من عدم الإند	س وإخلاقه بنية رَمَسِ ^(٢)
لو تراه علمت أن الليالى	جعلت فيه مائماً بعد عُرْسِ
وإذا ما رأيت صورة أنطا	كية ارتعت بين روم وفُرسِ
والنابايا موائل وأنوشُر	وان يُزجى الصفوف تحت الدرفسِ ^(٣)
وعراك الرجال بين يديهِ	في خفوت منهم وإغماض جَرَسِ ^(٤)

(٢) يزجى : يسوق . الدرفس : العلم الكبير .

(٤) خفوت : سميت . جرس : صوت خفى .

(١) الديوان ١١٥٥/٢ .

(٢) رسم : قبر . الإخلاق : البلى .

من مُشِيجٍ يَهْوَى بِعَامِلِ رُمُحٍ ومُليحٍ من السَّنانِ بَتْرُسٍ^(١)
تصف العين أنهم جدُّ أحياء لهم بينهم إشارة خُرُسِ
يَغْتَلِي فِيهِمْ ارْتِيَانِي حَتَّى تَتَقَرَّاهُمْ يَدَايَ بِلَمْسِ^(٢)

والبحترى لا يَبَارَى في تصويره الحسى ، حتى لكأنما ينقل المشهد بخدافيره ،
لأنبصره فحسب ، بل أيضاً لنلمسه بأيدينا ، فهذا الإيوان لم يعد إيوان قصر يكتظ
بالترف والنعيم ، بل أصبح بناء قبر ضخم لحضارة الفرس الباذخة وحال كل ما كان
فيه من أعراس إلى مآتم ، غير أن صفحة منه لا تزال ناطقة بشجاعة الفرس
ومجدهم الحربى ، إذ تجسدت فيها صورة معركة أنطاكية بين الروم والفرس ،
وكسرى هاجمٌ بجموع جيشه تحت العلم الفارسى الكبير ، يمزق جموع الروم
تمزيقاً ، والفرسان بين مهاجم ومدافع ولا صوت في المعركة ولا جلبة ، إنما هو
تصوير ولكن بلغ من نطقه وقوة تعبيره أن تظن العين أنها ترى المعركة كأنما تحدث تحت
بصرها ، بل إن هذا الظن ليزداد في نفس البحترى ، حتى ليندفع إلى الصورة ،
يلمسها بيده ارتياعاً وانبهاراً . ويمضى في الحديث عن الإيوان وثباته على الدهر حتى
لكأنما قَدْ أو نُحِتَ في جبل عال ويصور ما يجلله من كآبة ممضة ، وكأنما هو
أليف غاب عنه أنسُ أليفه ، أو زوج محزون لفراق عروسه ، فانعكست أيامها
ولياليها ، بل لقد انعكست ليالى هذا الأيوان فغربت عنه كواكب السعد وأظلت
عليه كواكب النحس المقيم ، حتى ما كان يرفل فيه من بُسْط الديباج وستور
الحرير تُزْرَع عنه نزعاً ، ومع ذلك لا تزال له كبرياؤه ولا تزال شرفاته شامخة شموخ
جبال المدينة والقدس تختال في ثيابها البيضاء الرائعة . وينقله خياله إلى ماضى هذا
الإيوان التليد ، فالوفود مزدهمة بأبوابه والحوارى من كل صنف تغص بها المقاصير
والغرف ، وكأن ذلك كان أول أمس ، كان اللقاء والفراق ، وصارت الرباع
التي كانت مكتظة بالسُرور ومتاعه منازل للغزاء والحزن الذى لا يريم ، والبحترى يبكيها
بدموع غزار ، لما كان لأهلها قديماً من عون للعرب في حروبهم من الأجباش وما كان
لهم حديثاً من عون في تشييد الخلافة العباسية وما رافقها من ازدهار الحضارة العربية ،

(٢) يفتل : يتجاوز الحد ويعظم .
تتقراهم : تتبعهم .

(١) مشيج : مقبل . عامل الرمح : صدره
مليح : خائف حذر .

ويبكي من خلال ذلك همومه وحزنه لمقتل المتوكل بأيدي الترك الذين صار إليهم بعد الفرس السلطان والصوبلجان .

وإذا كان وصف الأطلال القديم أوحى للبحرئى بهذا الموضوع الحديد ، فإنه أوحى له ولكثيرين من حوله أن يصفوا قصور الخلفاء التى كانوا يشيدونها ويطيلون فى وصفها ووصف ما حولها من رياض وما يتقدمها من فوآرات وبرك على شاكلة قول على بن الجهم فى وصف أحد القصور الكثيرة التى كان يسكنها المتوكل بضواحي سامراء ووصف فوارتها أو نافورتها^(١) :

صَحُونٌ تَسَافِرُ فِيهَا الْعَيُونُ	وَتَحْسِرُ عَنْ بُعْدِ أَقْطَارِهَا
وَقَبَّةٌ مُدَكَّ كَأَنَّ النُّجُومَ	مُ تَفْضِي إِلَيْهَا بِأَسْرَارِهَا
لَهَا شُرَفَاتٌ كَأَنَّ الرَّبِيعَ	كَسَاهَا الرِّيَاضَ بِأَنْوَارِهَا
نَظَمْنَ الْفُسَيْفِسَ نَظْمَ الْحَلِيِّ	لَعُونُ النِّسَاءِ وَأَبْكَارِهَا ^(٢)
فَهْنٌ كَمُصْطَبَحَاتِ بَرْزَنْ	بِفِضْحِ النَّصَارَى وَإِفْطَارِهَا ^(٣)
فَمِنْهُمْ عَاقِصَةٌ شَعَرَهَا	وَمِصْلَحَةٌ عَقَدَتْ زُنَارَهَا ^(٤)
وَفَوَارَةٌ شَارَهَا فِي السَّمَاءِ	فَلَيْسَتْ تَقْصُرُ عَنْ ثَارِهَا
تَرْدٌ عَلَى الْمُزْنِ مَا أَنْزَلَتْ	عَلَى الْأَرْضِ مِنْ صَوْبٍ مَدَارِهَا

وواضح أنه صور سعة أفنية هذا القصر وعظم قببته وصعودها فى السماء حتى لكأنما تفضى إليها النجوم بأخبار الغيب وأنبائه، كما صور شرفات القصر وما زينت به من الفسيفساء الملونة الجميلة جمال الحلئ على جيد النساء وأعناقهن، وتنوع أشكال تلك الشرفات ، حتى لقد أشبهت الفتيات حاملات الشموع فى عيد الفصح

(١) الديوان ص ٢٩ .

(٢) الفسيفساء : قطع من الرخام الملون

الرقيق كانت تزين بها الحيطان والسقوف

والشرفات . العون : جمع عون ، وهى السيدة

النصف .

(٤) تمقص شعرها : تشده على جيدها من

خلف أو من وراء . والزنار : حزام يشده

وسط الثوب على الحصر .

(٣) مصطبحات هنا : من أصبح أى أخرج ،

وذكرى قيامة المسيح، ومنهن من تلبّد شعرها وتشدّه وتجمّعه ، ومنهن من تنتطق بأحزمة الزنّار مختلفة ، وفوّارة مائتي ترسل سهامها إلى السماء كأنما لها ثأر عندها ، وكأنما تردّ على المزن قطرها .

وأهم من وصف القصور وصف الطبيعة ، وكان الشعراء في العصر العباسي الأول أكثرها من تصويرها في مقدمات مدائحهم ، وتبعهم شعراء هذا العصر يصفونها تارة في إيجاز وتارة في إطناب وإسهاب رامزين بها إلى عهد الممدوح وجماله ، وكثيراً ما وصفوا في هذه المقدمات الغيث والسحب والبرق لبيان كرم الممدوح من جهة وما شمل البلاد في زمنه من خصب وامتد على صفحاتها من جنات وعيون وزروع ، وتصور ذلك من بعض الوجوه حاثية ابن المعتز في مديح المعنّد ، وقد استلهمها بوصف البرق والسحاب الهاطل من مثل قوله^(١) :

مَنْ رَأَى بَرْقاً يُضِيءُ التَّاحَا ثَقَبَ اللَّيْلَ سَنَاهُ فَلَاحَا^(٢)
وَكُنَّ الْبُرُقُ مَصْحَفُ قَارٍ فَانْطَبَاقًا مَرَّةً وَانْفَتَاحَا
فِي رُكَّامٍ ضَاقَ بِالمَاءِ دَرْعًا حِينَمَا مَالَتْ بِهِ الرِّيحُ سَاحَا^(٣)
لَمْ يَدْعُ أَرْضاً مِنَ المَحَلِّ إِلَّا جَادَ أَوْ مَدَّ عَلَيْهَا جَنَاحَا^(٤)
وَسَقَى أَطْلَالَ هَنِيْدٍ فَأَضْحَتْ يَمْرَحُ القَطْرُ عَلَيْهَا مِرَاحَا

فالليل أضاءته مصابيح البرق ، وكأنها حين تشتعل وتنطفئ مصاحف بأيدي قُرّائها تنفتح وتنطبق ، وسيول المطر تندافع من كل صوب نافذة أعابها من جذب إلى جذب ومن حوض إلى حوض ، والسحب تمتد جناحها وتبسط ركامها والأرض تمرح في نباتاتها ورياحينها ويطاوحها الخضراء .

ومرّ بنا أنهم كانوا يكثرّون من وصف الربيع في تهنئاتهم بعيد النيروز ، وأخذ حينئذ وصف الطبيعة يستقل عن المديح ويصيح فنياً قائماً بنفسه ، له قصائده وأشعاره ، وهى تارة تُعسّنى بوصف جميع الأنوار في الربيع ، ولا يبارى ابن المعتز

فوق بعض .

(٤) المحل : الجذب .

(١) الديوان ص ١٤١ .

(٢) التاحا : التماعا .

(٣) ركام : سحاب مركب : متراكب بعضه

في هذا الاتجاه ، إذ يحاول في كثير من قصائده إحصاء كل نور وكل زهر من أبيض وأحمر وأصفر ، وكانت له خيلة تشبه آلة تصويرية دقيقة ، فهي ماتني تصور وتلتقط الدقائق وكأنها لا تريد أن تترك شيئاً ، ومن خير ما يصور ذلك عنده أرجوزته البستانية التي ذم فيها الصبوح أو خمر الصباح ، وهو يفتتحها على هذا النمط (١) :

أما ترى البُستانَ كيف نورًا ونَشَرَ المنشورُ زهراً أصفرا
وضحكَ الورد إلى الشقائق واعتنق القطرَ اعتناق وامق
في روضةٍ كحُللِ العروسِ وخُرِّمَ كهامة الطاووسِ (٢)

ومضى يذكر الياسمين والخشخاش والسوسن والبحار والجنانار إلى غير ذلك من أزهار ، ولكل زهر صورته ، الحية النابضة . وتعلق كثيرون بوصف الورد والتعبير عن روعته وفتنته التي تأخذ بالألباب ، ولابن الجهم فيه قطعة بديعة يتحدث فيها عن رياحين الربيع وطيوره الغردة ونشوة النفوس به نشوة لا تقل عن نشوة الراح يقول (٣) :

لم يضحك الوردُ إلا حين أعجبه حُسنُ الرياضِ وصوتُ الطائرِ الغرِدِ
بدا فأبدتْ لنا الدنيا محاسنها وراحتِ الرَّاحُ في أثوابها الجُددِ
ما عاينتُ قُصْبُ الرِيحانِ طَلْعَتَهُ إلا تبينَ فيها ذِلَّةُ الحَسَدِ
وقابنته يَدُ المشتاقِ تُسَدِّده إلى التَّرائِبِ والأحشاءِ والكَبَدِ
كَأَنَّ فيه شِفَاءً من صبايتِه أو مانعاً جَفَنَ عَيْنِيهِ من الشُّهَدِ
بين النديمين والخَلِيقِ مَضْجَعُهُ وَسَيْرُهُ من يَدِ مَوْصِلَةٍ بِيَدِ
قامتْ بِحُجَّتِهِ رِيحٌ مَعطَرَةٌ تَشْفِي القلوبَ من الأَوْصَابِ والكَمَدِ

وهو تصوير بارع لصبابة الناس بالورد ، حتى إنهم ليضمونه إلى الصدور والأحشاء والكبد يريدون أن يطنفئوا به نيران أشواقهم ، ويشفوا به لوعات صباياتهم

(٢) الديوان ص ٨٩ .

(١) الديوان ص ٤٧٣ .

(٢) الحرَم : زهر بنفسجي اللون .

وسهادهم الطويل ، وإنه لِيُسْتَرَأَى دَائِمًا يتهاداه الأُحبة وقد اتخذ مضجعه بينهم ، وهم يتبادلون كثوس الحب الصافية ، وأريجيه ينتشر شذاه في كل ما حولهم بلسماً يشفي القلوب الكليمة . ولعل شاعراً لم يتعلق بالطبيعة في العصر تعلق ابن الرومي والصنوبري ، ونحس عندهما بقوة الإحساس بفتنة الرياض النضرة والفاكهة اليانعة والمياه الجارية ، وغلب ذلك على الشعراء حينئذ ، حتى لنجد ابن قتيبة يدعو إلى نبذ وصف البساتين والورود والرياحين والعودة إلى وصف الفيافي وأزهارها ونباتاتها^(١) ، ولم يقف هذا التحول الحديد عند مجرد التخفف من موضوع الطبيعة الصحراوية الجافة والعناية بطبيعة الحياة الحضرية وورودها ورياحينها ، بل لقد تحولت هذه العناية إلى فتنة شديدة بجمال الرياض والبساتين ، فتنة خلّبت أبواب الشعراء وملأت عليهم حواسهم وملكت عليهم قلوبهم ، وخير من يصور ذلك ابن الرومي ، إذ نحس في وضوح شغفه بالطبيعة شغفاً يفوق كل وصف ، شغف العاشق بمعشوقته ، حتى ليحس كأنما الدنيا في الربيع تبرج له ولكل ناظر ، إذ يقول^(٢) :

تبرّجتْ بعد حياءٍ وخَفَرٌ تبرُّجُ الأنثى تصدّت للذكر

بل لكأنما تحولت جوانبها تحت عينيه إلى معابد ، فهو ما ينى يقدم لها قرابينه وأدعيته وابتهالاته مصوراً جمالها المنبت في كل أجزائها وما يجري فيها من حياة ، وبدون ريب يتقدم ابن الرومي شعراء العربية عامة في الإحساس بخفقات الطبيعة وهمساتها وكل حركة فيها ، حتى ليشبه في هذا الجانب من بعض الوجوه شعراء الرومانسية الغربية الذين يفنون في الطبيعة ، ويحسون امتلاءها بالحياة ، فكل ما فيها حي متحرك ناطق ، وكل ما فيها يخفق بالأحاسيس والمشاعر ، ومن خير ما يوضح ذلك عنده تصوييره لمشهد الغروب ، يقول^(٣) :

لقد رَنَقَتْ شَمْسُ الْأَصِيلِ وَنَفَضَتْ عَلَى الْأَفْقِ الْغَرْبِيُّ وَرَسًا مُدْعَدًا^(٤)
وودَّعتِ الدُّنْيَا لِتَقْضَى نَحْبَهَا وَشَوْلَ بَاقِي عُمْرَهَا فَتَشَعَّشَعَا^(٥)

(١) الشعر والشعراء (طبع دار المعارف ١٩٦٦) ص ٧٦ .

(٤) رنقت : ضففت . الورس : نبات أصفر . مدعدا : متفرقا .

(٢) الديوان ص ٨٩ .

(٥) شول : ذهب . تشعشع : بق أمله .

(٣) الديوان ص ٣٠٠ .

ولاحظتِ النُّوَّارَ وهى مريضةٌ وقد وضعتْ خدًّا إلى الأرضِ أضرعاً^(١)
 كما لاحظتْ عَوَّادَهُ عَيْنٌ مُدْنَفٍ توجع من أوصابه ما توجعاً^(٢)
 وبين إغضاءِ الفراقِ عليهما كأنهما خِلاً صفاءِ تودعاً^(٣)
 وظلت عيونُ النُّورِ تخضَلُ بالندى كما اغرورقتْ عَيْنُ الشَّجِيٍّ لندمها^(٤)
 وأزكى نسيمِ الروضِ ريعانُ ظِلِّهِ وغنى مغنى الطيرِ فيه فسجماً^(٥)
 وكانت أرائينُ الذُّبابِ هناكُم على شدَّواتِ الطيرِ ضرباً موقعاً^(٦)

وهو يصور وداع الشمس للطبيعة ساعة الغروب وما ترسل من الشفق الأصفر الشبيه بنبات الورس وزهره ، وأشعتها تتبدد إلا بقايا قليلة ، فهى توشك أن تلفظ أنفاسها ، وقد غلبها النزاع الأخير فهى تذل وتستكين وتضع خدها على الأرض إيداناً بالفراق وإعلاناً لما ألم بها من شدة الأوصاب والآلام ، آلام الوداع المرير للنوار والأزهار التى تترقق عيونها بندى بل بدمع سخين كما تترقق بالدموع عيون المحبين المحزونين ، على حين كان النسيم العليل يزكو وينمو والطير يشدو مرجعاً ومردداً ، وحتى الذباب لا ينساه ابن الروى فقد كان رنينه يخالط شدَّو الطير وغناؤه . ولم يكن الصنوبرى يبلغ هذا المبلغ من الإحساس بالطبيعة وعناصرها الحية ، ومع ذلك فهو أهم شعرائها فى العصر بعد ابن الروى ، إذ عاش مشغولاً بالرياض بلدته حلب شمالى الشام وحداثتها وأزهارها ، وأشعاره لاتصور فتنة عميقة بتلك الرياض على نحو ما نجد عند ابن الروى ، وإنما تصور براعة فى الخيال وإبراز الصور الظاهرية أو الخفية .

والطريف عند الصنوبرى وابن الروى جميعاً أنهما يعنيان بتصوير الفواكه والثمار بجانب عنايتهما بتصوير الرياحين والورود والرياض ، وما يدل على أن موضوع الطبيعة ازدهر فى العصر أن نجد حيثنذ فصلاً تفرد لها فى بعض الكتب مثل كتاب

(١) أضرع : ذليل .

(٢) مدنف : مريض سقيم .

(٣) إغضاء الفراق : وحشته وكآبته .

(٤) تخضل : تترقق وتندى . اغرورقت

العين بالدموع : جالت بها .

(٥) أزكى : نقى .

(٦) أرائين : جمع إرناى أى رنين .

الموشى ، فإن به فصلاً خاصاً لما نظم في وصف الورود ، بل قد نجد كتباً فيها مثل كتاب مفاخرة الورد على النرجس لابن أبي طاهر أحد شعراء العصر النابيهين .

ويدخل في وصف الطبيعة وصف حيوانها الوحشى ، ونرى البحرى يسوق مبارزة الفتى بن خاقان للأسد في بعض مدائحه وكان قد خرج إلى الصيد ، ففاجأه أسد في طريقه ، فنازله . وقتله ، وصور ذلك البحرى في مدحة بائية للوزير نراه فيها يتحدث حديثاً مفصلاً عن حياة الأسد في الغابات والرياض وبطون الأودية وأعاليها ، وكيف يهجم على قطعان الحمر وبقر الوحش وكيف يستلب عقائلها وينحرها لأشباهه ، ثم يصور المعركة بين الأسدين ، إلى أن خسر السبع يتضرع في دمائه ، يقول (١) :

فلم أرَ ضِرْغامَيْنِ أَصْدَقَ مِنْكُمَا عِرَاكًا إِذَا الْهَيَابَةُ النَّكْسُ كَذْبًا (٢)
فَأَحْجَمَ لَمَّا لَمْ يَجِدْ فِيكَ مَطْعَمًا وَأَقْدَمَ لَمَّا لَمْ يَجِدْ عِنْدَكَ مَهْرَبًا
فَلَمْ يُغْنِهِ أَنْ كَرَّ نَحْوَكَ مُقْبِلًا وَلَمْ يُنْجِهِ أَنْ حَادَ عَنْكَ مُتَنَكِّبًا
حَمَلَتْ عَلَيْهِ السَّيْفُ لَا عِزْمَكَ انْتَفَى وَلَا يَدُكَ ارْتَدَّتْ وَلَا حُدَّهُ نَبَاً

ولا يكتفى البحرى بوصفه لهذا الحيوان الوحشى ، فقد تصادف أن لقيه ذئب في بعض أسفاره ، فنازله وقضى عليه ، وأفاض في تصوير هذا الذئب مستمداً من ملكته البارعة في تصوير الحسيات تصويراً يجسد ما يصفه تجسيداً قوياً ؛ على شاكلة قوله (٣) :

وَأُطْلِسَ مَلَأَ الْعَيْنَ يَحْمِلُ زَوْرَهُ وَأَضْلَاعَهُ ، مِنْ جَانِبِهِ شَوَى نَهْدُ (٤)
لَهُ ذَنْبٌ مِثْلُ الرَّشَاءِ يَجْسُرُهُ وَمَتْنٌ كَمَتْنِ الْقَوْسِ أَعْوَجُ مِنْأَدُ (٥)
طَوَاهِ الطَّوَى حَتَّى اسْتَمَرَ مَرِيرُهُ فَمَا فِيهِ إِلَّا الْعِظْمُ وَالرُّوحُ وَالْجِلْدُ (٦)

الشوى : اليدان والرجلان . نهدي : بارز .

(٥) الرشاء : الحبل . منأد : معوج .

(٦) طواه الطوى : أضمره الجوع : استمر

مريره : قوى واشتد .

(١) الديوان ١/٢٠٠ .

(٢) الضرغام : الأسد . النكس : الجبان الضعيف .

(٣) الديوان ٢/٧٤٣ .

(٤) أطلس : منبر إلى سواد الزور : الصدر .

يَقْضُضُ عُضْلًا فِي أَسْرَتِهَا الرَّدَى كَقَضْقَضَةِ الْمَقْرُورِ أَرْغَدَهُ الْبَرْدُ^(١)
 سَمَّى وَبَى مِنْ شِدَّةِ الْجُوعِ مَابِهِ بَبِيدَاءَ لَمْ تُعْرِفْ بِهَا عَيْشَةَ رَغْدُ^(٢)
 كَلَانَا بِهَا ذَنْبٌ يَحْدُثُ نَفْسُهُ بِصَاحِبِهِ وَالْجَدُّ يُتَعَسَّهَ الْجَدُّ

وهو يصف لون الذئب المغبر إلى سواد، وأعضائه المكتنزة من الصدر والأضلاع واليدين والرجلين، وذنبه الرفيع ومتنه الصلب، وكيف أضمره الجوع وهزله حتى لم يبق فيه إلا العظم والجلد، وهو يصوت بأنياب صلبة معوجة كأنها السكاكين القاطعة وكأنه مقرور تصطلك أسنانه من شدة البرد وهوله. وقد التقيا في فلاة موحشة، كأنما استحال البحرى فيها لجوعه بدوره ذئباً مفترساً. ويحدثنا البحرى عقب ذلك عن استنارته للذئب ونزاله وطعناته فيه حتى خسر صريعاً. ويشتهر البحرى بوصفه للخيل وإتقانه لهذا الوصف حتى ليسبق فيه معاصريه بمثل قوله في وصف فرس^(٣):

يَهْوَى كَمَا تَهْوَى الْعُقَابُ وَقَدْ رَأَتْ صَيْدًا وَيَنْتَصِبُ انْتِصَابَ الْأَجْدَلِ^(٤)
 وَتَرَاهُ يَسْطَعُ فِي الْغَبَارِ لَهْيُهُ لَوْنًا وَشِدًّا كَالْحَرِيقِ الْمُشْعَلِ^(٥)
 هَزَجُ الصَّهِيلِ كَأَنَّ فِي نَغَمَاتِهِ نَبْرَاتٍ مَعْبَدَةٍ فِي الثَّقِيلِ الْأَوَّلِ^(٦)
 مَلَكُ الْعَيُونِ فَإِنْ بَدَأَ أُعْطِنَتْهُ نَظَرَ الْمَحَبِّ إِلَى الْحَبِيبِ الْمَقْبَلِ

والفرس يسرع كأنه عقاب تنقض على فريسة، ويقف منتصباً انتصاباً تاماً كالصقر المترقب، وكأنه حين يجرى في الغبار المتكاثف شعلة نار أو كأنه البرق الخاطف، وإن لصيحه لريناً جميلاً جمال أنغام معبد المغنى المشهور في العصر الأموى، وإنه ليسحر العيون حين تنظر إليه حتى ليقيدها به كما يقيدها المحبوب فلا تلتفت عنه يميناً ولا يساراً. ويكثر حينئذ وصف الديك والهر، وأهم من ذلك أنه يكثر شعر الطرد والصيد.

-
- (١) يقضض عضلاً : يصوت : بأنياب معوجة : أسرتها : خطوطها . الردى : الهلاك . المقرور : الذى يحس البرد بشدة .
 (٢) رغد : ناعمة .
 (٣) للديوان ١٧٤٥/٣ .
 (٤) العقاب : من الجوارح ومثلها الأجدل وهو الصقر .
 (٥) الشد : ارتفاع النار .
 (٦) معبد : أشهر من فى العصر الأموى .
 الثقل الأول لمن كان يودع فيه أكثر أغانيه .

وكان الشعراء منذ العصر العباسي الأول يلمنون بوصف الأطعمة وألوانها الحضارية الجديدة ، ونراهم في هذا العصر يكثر من وصفها ويخصونها بقصائد طويلة ، ويروى المسعودي في كتابه « مروج الذهب » مجلساً للخليفة المستكني جعله لإنشاد جلسائه وندمائهم — ما نظم الشعراء في أنواع الطعوم المختلفة ، وليس من شك في أن ابن الرومي يُعَدُّ أكبر من عُنِيَ بوصفها ، وكان منهوماً بالطعام ، فكاد لا يترك لوناً من ألوانه دون أن يخصصه بقصيدة أو مقطوعة ، من مثل قوله في دجاجة مشوية وما قُدِّمَ معها من الثريد والمرققات والقطائف (١) :

وسميطة صفراء دينارية	ثمناً ولوناً زفها لك خزور (٢)
عظمت فكادت أن تكون إوزة	وثوت فكاد إهابها يتفطر (٣)
ظلمنا نُقَشِّرُ جلدها عن لحمها	وكان تبرا عن لجين يُقَشِّرُ
وتقدمتها قبل ذاك ثرائد	مثل الرياض يمثلهن يصدر
ومرققات كلهن مزخرف	بالبيض منها ملبس ومدثر (٤)
وأنت قطائف بعد ذاك لطائف	ترضى اللهأة بها ويرضى الحنجر

ويخيل إلى الإنسان أنه لم يترك على موائد عصره طعاماً إلا وصفه وصورة مبدعاً في تصويره سواء أكان من طعام اللحوم أم طعام السمك ، وربما كان من أسباب اهتمامه بذلك عناية معاصريه بالولائم ، ومرّ بنا في غير هذا الموضع أنهم أكثروا حينئذ من التأليف في الأطعمة ، وأيضاً فإن أشعاره تدل على شدة نهمة بالأطعمة وحده شراسته ، وكان السببين جميعاً جعلاه يولع بالحديث عن المأكول والمشروب ، ومن طريف قوله في العروس والأرغفة (٥) :

رؤس وأرغفة ضخام فخمة	قد أخرجت من جاحم فوار
كوجوه أهل الجنة ابتسمت لنا	مقرونة بوجوه أهل النار

(٣) إهابها : جلدها . يتفطر : يتشقق .

(٤) ملبس ومدثر : مغطى .

(٥) ذيل زهر الآداب ص ٢٣٩ .

(١) الديوان ص ٤٧٨ وذيل زهر الآداب

ص ٢٣٦ .

(٢) خزور : غلام فيه فتوة . دينارية :

نسبة إلى الدينار . سميطة : دجاجة مسبوطة .

ويحدثنا في بعض شعره عن تخمته وبشامه ، كما يحدثنا عن تشوقه دائماً لكل ما على الموائد ولحفته عليه كقوله في قطائف قُدِّمَتْ إِلَيْهِ ^(١) :

قطائفٌ قد حُشِيَتْ بالدَّوْرِ والسرِّ الماذي حَشُو المَوْز ^(٢)
تَسْبَحُ في آذَى دُهْنِ الجَوْزِ سررتُ لما وقعتُ في حَوْزِي ^(٣)
سرورَ عباسٍ بقرب فوزٍ

فهو يغرم بتلك القطائف ، وكأنها معشوقته أو كأنه عباس بن الأحنف الذي اشتهر بعشقه لفوز عشقاً ملك عليه كل مشاعره وعواطفه وأهوائه . ، ولم يكن ابن الرومي يعيش القطائف وصنوف الحلوى والأطعمة فحسب ، بل كان يعيش معها أيضاً الفاكهة ، وكأنها كانت غذاء لقلبه قبل أن تكون غذاء لمعدته ، ومما كان يعشقه من ألوانها الموز وكذلك العنب الرازقي ، وفيه يقول ^(٤) :

ورازقٌ مُخْطَفِ الخُصُورِ كأنه مخازنُ البُلُورِ ^(٥)
وفي الأعلى ماءٌ وردٍ جُورِي لم يُبْقِ منه وَهَجُ الحرورِ ^(٦)
إلا ضياءً في ظروف نورٍ لو أنه يبقَى على الدهور
قَرَطَ آذَانَ الحسانِ الحورِ له مذاقُ العسلِ المَشُورِ
ونكهة المِسْكِ مع الكافورِ

ومرَّ بنا في حديثنا عن الملاحى أنه كان من أهم ملاحيهم لعبتا النرد والشطرنج ، ويسوق المسعودي في « مروج » طائفة من الأشعار التي نُظِمت حيثُتد في اللعبتين ، ويذكر أن أصحابهما وصفوهما في أشعار كثيرة ، ومما اختاره منها في الشطرنج ووصف اللعب به وما يدور على رقاعه من معاركه قول علي بن الجهم ^(٧) :

-
- (١) الديوان ص ٤٧٧ .
(٢) الماذي : شديد الحلاوة .
(٣) آذَى : موج .
(٤) الديوان ص ١٩٥ وزهر الآداب ٩ / ٢ .
(٥) مخطف : ضامر .
(٦) الورد الجوري : ورد شديد الحمرة .
(٧) مروج الذهب ٢٣٥ / ٤ والديوان
(طبعة المجمع العلمي العربي بدمشق) ص ١٧٩ .

أَرْضُ مَرْبَعَةٍ حُمْرَاءَ مِنْ أَدَمٍ مَا بَيْنَ الْفَيْنِ مَوْصُوفَيْنِ بِالكَرَمِ
 تَذَاكَرَا الْحَرْبَ فَاحْتَالَا لَهَا شَبَهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَأْتِمَا فِيهَا بِسَفْكَ دَمٍ
 هَذَا يُغَيِّرُ عَلَى هَذَا وَذَاكَ عَلَى هَذَا يَغْيِرُ وَعَيْنُ الْحَرْبِ لَمْ تَنْمِ
 فَانْظُرْ إِلَى الْخَيْلِ قَدْ جَاسَتْ بِمَعْرَكَةٍ فِي عَسْكَرَيْنِ بَلَا طَبْلٍ وَلَا عِلْمٍ
 وَيَدُو أَنَّهُمْ بَلَّغُوا حَنِيشَهُ مَبْلَغًا بَعِيدًا مِنَ الْمَهَارَةِ فِي لَعِبِ الشَّطْرَنْجِ ، وَكَانُوا
 يَعْقِدُونَ لَهُ مَجَالِسَ يَتَفَرَّجُونَ فِيهَا عَلَى لَاعِبِيهِ وَحَدِّقَهُمْ فِيهِ ، وَكَانُوا يَمْلِكُونَهَا بِقُنُونِ الزُّوَادِ ،
 وَمَنْ اشْتَهَرَ حِينَئِذٍ بِالْبَرَاعَةِ فِي لَعْبِهِ وَإِحْسَانِهِ إِحْسَانًا يَفُوقُ كُلَّ وَصْفِ أَبِي الْقَاسِمِ
 التَّوَزَّى الشَّطْرَنْجِي . وَوَصَفَ ابْنُ الرُّومِيِّ مَهَارَتَهُ فِي قَصِيدَةٍ طَوِيلَةٍ وَصَفًا رَائِعًا ،
 اسْتَهْلَهُ بَبَيَانِ نَفَازِ فِكْرِهِ وَبَصِيرَتِهِ فِي تِلْكَ اللَّعْبَةِ ، وَكَيْفَ أَنَّهُ كَانَ يَهْزِمُ كُلَّ مَنْ يَلَاعِبُهُ
 وَيَعْصِفُ بِهِ وَيَجْنُودُهُ وَرِخَاخَهُ بِتَدْيِيرِهِ اللَّطِيفِ الْخَفِيِّ ، حَتَّى لِيُوشِكَ أَنْ يَكُونَ أَخْفَى
 مِنَ السَّرِّ فِي ضَمِيرِ مَحَبِّ أَدَبَتِهِ عَقُوبَةُ الْإِفْشَاءِ ، وَمَا يَلْبَثُ أَنْ يَخَاطَبُهُ بِقَوْلِهِ (١) :

غَلِظَ النَّاسَ لَسْتُ تَلْعَبُ بِالشَّطْرَنْجِ لَكِنْ بِأَنْفُسِ اللَّعْبَاءِ
 لَكَ مَكْرٌ يَدْبُ فِي الْقَوْمِ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ الْغَدَاءِ فِي الْأَعْضَاءِ
 أَوْ دَبِيبِ الْمَلَالِ فِي مُسْتَهَامِيهِ نَ إِلَى غَايَةِ مِنَ الْبَغْضَاءِ
 أَوْ مَسِيرِ الْقَضَاءِ فِي ظُلْمِ الْغِيهِ بَ إِلَى مَنْ يَرِيدُهُ بِالتَّوَاءِ
 تَقْتُلُ الشَّاهَ حَيْثُ شَتَّتَ مِنَ الرُّقِّ مَعَهُ طَبًّا بِالْقِتْلَةِ النِّكَرَاءِ
 غَيْرَ مَا نَاطَرَ بِعَيْنِكَ فِي الدَّسِّ تَ وَلَا مَقْبَلَ عَلَى الرُّسْلَاءِ
 بَلْ تَرَاهَا وَأَنْتَ مُسْتَدْبِرُ الظُّهِرِ رَ بِقَلْبٍ مَصُورٍ مِنْ ذِكَاةِ
 مَا رَأَيْنَا سِوَاكَ قِرْنًا يَوُلِّي وَهُوَ يُرْدِي فَوَارِسَ الْهَيْجَاءِ

وَأَبُو الْقَاسِمِ — فِي رَأْيِ ابْنِ الرُّومِيِّ — لَا يَلْعَبُ بِالشَّطْرَنْجِ وَلَكِنْ يَلْعَبُ بِأَنْفُسِ
 لَاعِبِيهِ بِدِهَاءٍ أَشَدَّ خَفَاءٍ مِنْ سَرِيَانِ الْغَدَاءِ فِي الْجَسْمِ ، بَلْ سَرِيَانِ الْمَلَالِ فِي مَتَحَابِينَ
 حَتَّى يَنْتَهَى بِهِمَا إِلَى حَافَةِ الْبَغْضَاءِ ، بَلْ مَسِيرِ الْقَضَاءِ فِي حَجَبِ الْغَيْبِ إِلَى مَنْ

يُرْديه ، ويصوره قاتلاً للشاه في كل مكان من الرقعة بفنه وطبه ، دون أن ينتظر إليه وإلى مكانه من جنوده ، بل أيضاً يقتله وهو مدبر عن الدست بظهره ، وكأنما له عين يرى بها من خلفه حدة ذكاء ونفاذ بصيرة .

وذكرنا في كتاب العصر العباسي الأول كيف أن بعض الشعراء ، وفي مقدمتهم أبو تمام ، كانوا يضعون أحياناً في مقدمات قصائدهم شكوى مرة من الزمن وهمومه وأن منهم من أفرد للشكوى بعض قصائد ومقطوعات ، ولكن هذه الشكوى تظل في العصر السالف فردية ، أما في هذا العصر العباسي الثاني فإنها تصبح موجة عامة قل من لم تعمه ، لفساد الأحوال السياسية التي وصفناها في غير هذا الموضع ، فإذا المناصب يتولاها غير أهلها ، وإذا السعاليات تفشو ويفشو معها ارتفاع الوضع وتعظم الخنة ويستسلم الناس إلى غير قليل من اليأس ، ويحسون كأن لا أمل في الإصلاح ، فقد عم الظلم واضطربت القيم وكأنما لم يعد للشر والنكر غاية ينتهيان إليها أوحده يقفان عنده ، أو قل كأنما أصبحت الحياة بأساً متصلاً ، لذلك كان طبيعياً أن نجد الشكوى على كل لسان ، شكوى مريرة من الزمن وأهله ، على شاكلة قول الكندي الفيلسوف ^(١) :

أَنَافَ الذَّنَابِي عَلَى الْأُرُوسِ فغَمَضَ جُفُونَكَ أَوْنَكِسَ ^(٢)
 وضائلُ سوادك واقبضْ يديك وفي قَعْرِ بيتك فاستجلس
 وعندَ مليكك فابغِ العلوَّ وبالوحدة اليوم فاستأنس
 فإن الغنى في قلوب الرجالِ وإن التعزُّزَ بالأنفُسِ
 وكائنٌ ترى من أخى عُسْرَةَ غنىً وذى ثروةٍ مفلسِ
 ومن قائمٍ شخصه ميتٌ على أنه بعدُ لم يُرمَسِ ^(٣)

والكندي متشائم إلى أبعد حد ، فقد اختلت موازين الحياة ، فارتفع الوضع وهبط الرفيع ، ولم يعد هناك مفر من هذا البلاء ولا خلاص ، فاعتزل الدنيا ، وعش وحيداً بعيداً عن هذا النكر الذي يصطلي الناس ناره ، ولا تؤمل في أن ينقشع هذا

الرأس ذلاً .

(٢) يرمن : يقبر .

(١) ابن أبي أصيبعة ص ٢٨٨ .

(٢) أناف : أشرف : نكس : طأطأ .

الظلام ، فلم يعد لك من أمل سوى الالتجاء إلى مليكك وساحات برّه . ويزدري الكندي ما في أيدي أصحاب الجاه والسلطان من مال تغافه النفوس الكريمة ، فيقول إن الغنى غنى النفس العزيزة ، وكم من فقير هو في حقيقته غنى بقلبه وأخلاقه الرفيعة ، وكم من غنى هو في حقيقته فقير بأخلاقه الذميمة ، بل إنه ميت وإن بدا حيّاً ، ميت لم يُقْبَر ولم يوضع في رمله . وإذا كان الكندي قد بلغ من الشكوى هذا الحد فإن من عاصره من الشعراء ومن جاءوا بعده كانوا يشعرون بنفس المحنة ، حتى من نشأ منهم في بيوت الترف والدعة أمثال ابن المعتز ، والشكوى تكثر في ديوانه من مثل قوله^(١) :

لم يبق في العيش غير البؤس والنكد فاهرب إلى الموت من هم ومن نكد
ملأت يا دهر عيني من مكارهها يا دهر حسبك قد أسرفت فاقتصد

وكان طبيعياً أن يتعمق هذا الإحساس ابن الرومي الذي لم يكن يوسع له الوزراء والكبراء في مجالسهم وعطاياهم ، بل كانوا يلقونه في كثير من الأحوال بالحرمان والنكران، وكان يعرف في دقة عبقريته الشعرية، فضايق بالناس وضاق بالحياة، وكانت كما أسلفنا شراً ونكراً خالصين ، فعاش يتجرعها غصصاً ، ولا مغيث ولا خلص ولا معين ، فكان طبيعياً أن يتحول متشائماً وأن يصبح التشاؤم فلسفة له ، فالحياة كلها سواد وكلها ظلام وكلها بلاء لا يطاق ، ويصور ذلك تصويراً بديعاً في بكاء الطفل حين ولادته ، يقول^(٢) :

لما تؤذن الدنيا به من صروفها يكون بكاء الطفل ساعة يُولد
وإلا فما يبكيه منها وإنها لأفسح مما كان فيه وأرغد
إذا أبصر الدنيا استهل كأنه بما سوف يلقي من أذاها مهدد
وللنفس أحوال تظل كأنها تشهد فيها كل غيب سيُشهد

فالدنيا آلام ثقال وأهوال طوال ، والطفل يشعر بذلك ساعة ولادته فيبكي بكاء مرّاً ، وكان من الواجب أن يفرح لأن يبكي ، لأنه أخذ حظاً من الحرية

بالقياس إلى المكان الذي كان فيه ، وكأنما رأى بعينه ما يتهدد به في دنياه من الأذى الممض الذي سيملاً نفسه شقاء وعناء .

وصور الشعراء — على غرار أسلافهم العباسيين — كثيراً من العواطف الدقيقة ، وحلّلوا كثيراً من المشاعر والشيم الرفيعة والأخلاق الزرية ، فمن ذلك تصوير ابن المعتز لحساده وما يأكل قلوبهم من الحسد والضغينة ، يقول من قصيدة طويلة ^(١) :

يا مَنْ يَنَاجِي ضِغْنَهُ فِي نَفْسِهِ وَيَدِبُّ تَحْتَ بِالْأَفَاعِي اللَّدْغِ
وَيَبِيتُ تَنَهَضُ زَفْرَةٌ فِي صَدْرِهِ حَسَدًا وَإِنْ دَمِيتُ جِرَاحِي يُؤَلِّغُ ^(٢)
مَا زَالَ يَبْغِي لِي بِكُلِّ قَرَارَةٍ حُمَةً الْأَذَى وَيُشِيرُ إِنْ لَمْ يَلْدَغِ ^(٣)
نَغَلْتُ ضَمَائِرُ صَدْرِهِ مِنْ دَائِهِ نَغَلَ الْإِهَابُ مَعْطَنًا لَمْ يُدْبَغِ ^(٤)
لَا تَبْتَغِي مِنِّي الَّتِي لَا أَبْتَغِي إِنْ كُنْتَ مَشْغُولًا بِشَأْنِي فَافْرِغْ

وابن المعتز يصور حسوده في صورة كريهة ، فهو ما يزال يدب من تحته بأفاعيه السامة وما تزال زفراته تصعد في صدره وما يزال يلتمس جرحاً له ليؤلِّغ فيه في دمايته ، وما يزال يريد به الظامة الكبرى ، كعقرب إن لم تلدغ بِحُمَتِهَا أشارت تريد نزول الكارثة ، وقد نغلت وفسدت طوايا صدره وكأنها إهاب معطن يتمزق . وابن الرومي لا يبارى في تحليل مثل هذه المعاني وما يتصل بها من الطباع والشيم ، وله قصيدة طويلة يحلل فيها شيمة الصبر وكيف أنها تُحَمَّدُ حين لا تكون لها ضرورة فكيف بها إذا أوجبتها الضرورة والحاجة الملحة حين تنزل بالإنسان مكاره ليس له منها مهرب ، إن الصبر حينئذ يكون نعم الجُسنة والدرع الواقى . ويدفع ما يقال من أن من الناس من خلُق جزعاً هلوغاً ، فهو لا يستطيع الصبر وكظم النفس عند الشدائد ، يقول ^(٥) .

وقد يتظنَّى النَّاسُ أَنَّ أَصَاهُمْ وَصَبْرَهُمْ فِيهِمْ طِبَاعٌ مَرَكَّبٌ

- (١) الديوان ص ٣١٥ والمختار من شعر
بشار ص ٦٨ .
(٢) ولغته : شر به بطرف اللسان ، أو حرك
لسانه فيه .
(٣) الحمة : السم أو إبرة العقرب التي
يلدغ بها .
(٤) نغل : فسد .
(٥) الديوان ص ٣١٥ .

وَأَنَّهُمَا لَيْسَا كَشَيْءٍ مُّصَرَّفٍ بِصَرَفِهِ ذُو نَكْبَةٍ حِينَ يُنْكَبُ
وَلَيْسَا كَمَا ظَنُّهُمَا بَلْ كَلَاهُمَا لِكُلِّ لَبِيبٍ مُّسْتَطَاعٌ مُّسَبَّبُ
يَصْرِفُهُ الْمُخْتَارُ مِنَّا فَتَارَةً يُرَادُ فَيَأْتِي أَوْ يَذَادُ فَيَذْهَبُ

فالصبر الجميل والجزع الذميم مكتسبان يكتسبهما الإنسان بمحض إرادته واختياره ، ولا جبر فيهما ولا طبع ، بل هما من عمل الإنسان وبمشيئته ، إن شاء جزع عند المصيبة وإن شاء لم يصبه جزع ولا هلع ، بل عصم نفسه منهما واحتملهما صابراً جليداً شجاعاً أروع ما تكون الشجاعة والجلد والصبر .

وأخذ التصوف ينمو سريعاً منذ فاتحة هذا العصر ويستقل عن الزهد استقلالاً تاماً ، إذ مضى أصحابه يتحدثون عن الحب الإلهي ومقاماته وأحواله ، وكانوا يأخذون أنفسهم بمجاهدات عنيفة في التقشف والنسك مع الانقطاع عن الدنيا والخلوص التام للمحبة الإلهية والنشوة بها إلى درجة الفناء في الذات العلية ، ولهم أشعار كثيرة يصورون بها هذا العشق وما دلع في قلوبهم من لوعة لا يمكن إطفائها ، لوعة حب قوى حار ، استأثر بكل ما في قلوبهم من عواطف وشاعر ، وشغلهم عن كل شيء ، إذ شُغِفُوا بمحبتهم شغفاً عظيماً ، بل لقد تحول هذا الشغف عقيدة جمعوا فيها بين محبة الله وبين تقديسه وعبادته ، آملين منه في الرصال وأن يرفع ما بينه وبينهم من حجب ، ولكن أنى يكون ذلك ؟ إن الدرب دائماً يبدو طويلاً ودونه أهوال لا حصر لها ، أهوال تملأ قلوبهم حسرات ألا يستطيعوا آخر الأمر لقاء المحبوب ، ويصور ذلك من بعض الوجوه أبو الحسن النوري إذ يقول (١) :

كَمْ حَسْرَةٍ لِي وَقَدْ غُصَّتْ مَرَارَتُهَا جَعَلْتُ قَلْبِي لَهَا وَقَفًا لِبُلُوكِ
وَحَقٌّ مَا مِنْكَ يُبْلِنِي وَيُتْلِفُنِي لِأَبْكِيْنِكَ أَوْ أَحْطَى بِلِقْيَاكَ

وواضح أن النوري يتجرّع غُصَصَ الحسرات المرة ، بل إنه لينتظر البلى والتلف في سبيل فرحة نفسه باللقاء المنتظر ، وإنه ليحس الضنا ، بل إنه ليحس السقم والعلة ، ولا يجد شفاء لعلته وسقمه ، بل إنه ليجد لذة لا تعد لها لذة في هذا

(١) طبقات الصوفية للسلمي ص ١٥٣ .

السقم وما يتصل به من عذاب هذا الحب الظامئ وناره التي لا تخمد أبداً ، حتى
ليقول^(١) :

إِنْ كُنْتُ لِلْسَقَمِ أَهْلاً فَأَنْتَ بِالشَّكْرِ أَوَّلَى
عَذْبٌ فَلَمْ تُبْقِ قَلْباً يَقُولُ لِلْسَقَمِ مَهْلاً

فهو يشكره على سقمه لأنه يجد فيه متاعاً لا يشبهه متاع ، بل إنه ليطلب عذابه
لأنه لم يعد يشعر بقلبه ولا بما قد يألم من العذاب والسقم .

وكان طبيعياً أن ينمو في العصر الشعر الذي يصور حياة الشعب وما كان
يجرى فيها من بؤس وإقلال ومسغبة ، ومن خير الشعراء الذين يصورون هذا الجانب
جحظة البرمكي ، إذ نراه يكثر من بيان الشقاء والبؤس اللذين يعيش فيهما بمثل
قوله^(٢) :

إِنِّي رَضِيتُ مِنَ الرَّحِيقِ بِشَرَابِ تَمَرٍ كَالْعَقِيقِ
وَرَضِيتُ مِنْ أَكْلِ السَّمِيعِ لَذَّ بَأَكْلِ مَسَوْدٍ الدَّقِيقِ
وَرَضِيتُ مِنْ سَعَةِ الصَّحْ وَنَ بَمَنْزِلِ ضَنْكِ وَضِيقِ

وكان يذهب مذهبه في الكدية واحتراف التصعلاك والشحاذة الأدبية غير شاعر ،
وكان لهذه الطائفة مقدمات في العصر العباسي السالف ، ولكنها اتسعت في هذا
العصر ، وأصبح هناك كثيرون يتخذون الكدية حرفة لهم يبتزون بها أهوال الناس .
وظلت مجالس الخلفاء وعلية القوم تُعْنَى بالفكاهات والنوادر المستماعة ، وأشاع
ذلك روحاً هزلية في كثير من الشعراء ، وكانوا ما يزالون يتخذون الوسائل إلى ذلك ،
كأن نجد شخصاً يسمى سعيد بن أحمد بن خوسنداد يهدى إلى ابن حمدون شاة
هزيلة ، فينظم في وصفها كثيراً من المقطوعات ، تارة يصور هزالها وتارة يصور جوعها
وحرماتها وبؤسها في أبيات كلها دعاية وكلها سخرية وفكاهة من مثل قوله^(٣) :

(٣) زهر الآداب ٢ / ٢٣٤ .

(١) السلمي ص ١٥٦ .

(٢) ذيل زهر الآداب ص ١٤٩ .

لسعيد شويهة سلها الضر والعجف
 قد تغنت وأبصرت رجلا حاملا علف
 باني من بكفه برئ ما بي من الدنف
 فاتاهما مطمعا وأنته لتغلف
 فتولي فاقبلت تتغى من الأسف
 ليتنه لم يكن وقف عذب القلب وانصرف

فهى ليست شاة بل شويهة مصغرة من الضنا والهزال الذى أصابها لطول تعلقها بالعلف ، ولا تجده ولا تراه ، حتى إذا رأت يوماً رجلاً يحمل علفاً توسلت إليه وتضرعت أن يبرئها من سقمها ، وأطعمها الرجل ، ولكنه سرعان ما تولى عنها تاركاً لها الحسرة واللوعة ، وهى تتمنى لو أنه يقف ، فقد آلم قلبها وانصرف . ومن الموضوعات التى تندر بها كثيراً فى العصر وصف الثقلان والأكلة وموائد البخل وما عليها من قلة الطعام ، ولابن الرومى فى ذلك كله أشعار كثيرة ، وقد أشرنا فيما أسلفنا إلى ابتكاره فى الهجاء لوناً جديداً من التصوير الهزلى وقد تعقب فيه أصحاب العيوب الخلقية من مثل جاحظ العينين والأحذب وأصحاب اللحي الطويلة ، فعرضهم عرضاً هزلياً مضحكاً فى كل رسومه وصوره .

٥

نمو الشعر التعليمي

عرفنا فى كتاب العصر العباسي الأول أن الشعراء استحدثوا فيه فن الشعر التعليمي وأن أبرع من استخدمه أبان بن عبد الحميد ، فقد نظم فيه كلبلة ودمنة فى نحو أربعة عشر ألف بيت ، والأحكام الفقهية المتعلقة بباني الصوم والزكاة ، وسيرى أردشير وأنوشروان كما نظم قصيدة فى مبدأ الخلق ضمنها شيئاً من المنطق . وظل هذا الفن قائماً بعد أبان ، كما ظل ينمو عند بعض الشعراء ، وفى مقدمتهم على بن الجهم وابن

المعتز وابن دريد . أما ابن الجهم فعنى بنظم مزدوجة في التاريخ تقع في أكثر من ثلثمائة بيت ، جعلها في جزئين : جزء تناول فيه بدء الخليقة وتاريخ الأنبياء ، وجزء تناول فيه تاريخ الإسلام والخلفاء ، وربما تأثر في الجزء الأول بالقصيدة المنسوبة إلى أبان والتي قال الرواة عنها إنها كانت في بدء الخلق ، أما الجزء الثاني وهو الخاص بتاريخ الخلفاء ، فيعد سابقاً فيه فإن الشعراء من قبله لم يفكروا في نظم هذا التاريخ ، ونراه حريصاً في مفتتح الجزء الأول على ذكر مصادره فيه إذ يقول ، وقد بدأ بقصة خلق آدم :

يا سائل عن ابتداء الخلق مسألة القاصد قصد الحق
أخبرني قوم من الثقات أولو علوم وأولو هيات
تفرغوا في طلب الآثار وعرفوا موارد الأخبار
ودرسوا التوراة والإنجيلا وأحكموا التأويل والتنزيلا
أن الذي يفعل ما يشاء ومن له القدرة والبقاء
أنشأ خلق آدم إنشاءً وقد منه زوجه حواء

ويستمر في قصة حواء وآدم وسوسة إبليس لهما وهبوطهما من الجنة إلى الأرض ، وواضح أنه عني بذكر ماآخذه لهذه القصة وما يليها من قصص الأنبياء عن رجال الآثار والأخبار ، الذين درسوا التوراة والإنجيل وأحكموا دراسة التنزيل أو القرآن الكريم ، ويعرض لابن آدم قايين (قابيل) وهابيل ، ويأخذ في عرض تاريخ الرسل تباعاً ، بادئاً بنوح وقصة الطوفان وخالفه من الرسل وأقوامهم ، وخاصة إبراهيم وما كان من كسره للأصنام ودعوته إلى التوحيد ، ويذكر زوجته : هاجر وسارة وسكنى هاجر في البلد الأمين مع ابنها إسماعيل في جوار القبيلة القديمة جرهم ، ويتحدث عن إسحق ويعقوب وقصة يوسف وإخوته ويصور عصيان بني إسرائيل لأنبيائهم ، ويذكر أخبارهم مع بختنصر ، كما يذكر سليمان وأيوب ويونس والخضر وزكريا ويحيى وعيسى ، وبذلك ينتهي الجزء الأول من الأرجوزة . ويأخذ في التقديم للجزء الثاني فيتحدث عن أحوال الأمم بين زمن المسيح

وجيء الإسلام وما ساد من شرك وإثم إلى أن أشرقت الدنيا بطلعة الرسول صلى الله عليه وسلم ، يقول :

ثم أزال الظلمة الضياء وعاودت جدتها الأشياء
أَتَاهُمُ الْمُنْتَجِبُ الْآوَاهُ مُحَمَّدٌ صَلَّى عَلَيْهِ اللَّهُ

ويتحدث عن رسالته وموقف أهل مكة منه وخصومتهم له وهجرته إلى المدينة ثم يتحدث عن خلافة أبي بكر من بعده محدداتها بالسنة والشهر ، ودائماً يحدد المدة التي وليها كل خليفة تحديداً دقيقاً ، كما يعرض لأهم الأعمال في عهده ، يقول :

وقام من بعد أبي بكر عُمَرُ فبرزت أيامه تلك الغُرُ
تضعضت منه ملوك فارس وخرت الروم على المعاطس^(١)

ويتحدث عن عثمان وعلى بن أبي طالب ، ثم ينتقل إلى بني أمية متعقباً لهم خليفة خليفة ، كما يتعقب أهم الأحداث في عهودهم ، ويُسجى على يزيد بن معاوية باللوم والتعنيف لمقتل الحسين في عهده ، ولا يكاد يثنى على سيرة خليفة أموى إلا ما كان من عمر بن عبد العزيز فإنه خصه ببعض الثناء . ثم انتقل إلى الحديث عن الخلفاء العباسيين مهللاً لخلافتهم وتحول صولحان الملك إليهم ، منوهاً بهم . حتى إذا انتهت الخلافة إلى جعفر المتوكل أشاد بخلافته وانتظام شئون الملك والرعية لعهده ، ويأسى لقتل الفراغة الأتراك له وماصارت إليه الخلافة من الاختلال يقول :

وبايع الناس الإمام جعفراً خليفة الله الأغرَّ الأزهر
قد سکن الله به الأطراف فما ترى في ملكه خلافا
ثم تولَّى قتله الفراغنة وساعدتهم عصبة فراغنه
لأربع خلون من شوال فصأصبح الملك أخا اختلال

(١) خرت على المعاطس : ذلت . والمعاطس : الآثاف .

ويذكر بعده الخليفة المنتصر ثم المستعين الذي تلاه لسنة ٢٤٨ للهجرة ، وقد توفي لعهد سنة ٢٤٩ وكانه نظم هذه الأرجوزة بأخرة من حياته . والأرجوزة قوية النسيج مع سهولة في الصياغة ونصاعة في العبارة .

وفرى ابن المعتز يُعنى بنظم سيرة المعتضد الخليفة العباسي معاصره وكانت بينهما صداقة وثيقة ، وكان أبوه الموفق من قبله ولي عهد المعتضد ، وقد أعاداه معاً للخلافة العباسية هيبتها على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضع فقضيا على ثورة الزنج وهزما الصفار وأخذوا أنفاس كل ثائر ، واستقامت شئون الملك السياسية . وكانت أيام المعتضد أيام أمن ورفاهية وازدهار ، وكان لذلك وقع بعيد في نفس صديقه ابن المعتز فرأى أن ينظم في سيرته أرجوزة^(١) تصور استقرار الأحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية وما عم البلاد من العدل في عهده ، مقارناً بين تشعث الأمور قبله وانتظامها لزمته ، وهى في نحو أربعين بيت ، وقد افتتحها بحمد الله والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم أخذ في تصوير سيرة المعتضد وكيف كانت الخلافة قبله مختلة ، فالترك يخاعون الخلفاء ويقتلونهم ويتهكون الحرمات وينهبون الأموال :

كذلك حتى أفقرُوا الخِلافه وعودوها الرعبَ والمخافه
وارتُكبت عظامُ الآثام ، وهبَّ الثوار في كل مكان ، يتقدمهم قائد الزنج
قاتل الشيوخ والأطفال ومخرب البصرة والأهواز . ويذكر ابن المعتز القواد الذين
هزمهم ، حتى تصدى له الموفق وابنه المعتضد . وكان الموفق صورة للبأس الذي
ليس بعده بأس والحزم الذي ليس بعده حزم ، وبعد جهاد وصراع شديدين
قضى الله له بالنصر المبين - وحارب يعقوب الصفار بعد الزنج . فجزمه هزيمة
ساحقة - ويذكر تنكيه بالوزير أبي الصقر إسماعيل بن بابل انتقام طغيانه وما أذاق
عماله وجنوده الشعب من ظلم لا يطاق ، حتى كان الوارث لا يرث أباه الموسر
إلا إذا دفع الرشوة الباهظة ، وحتى كان التاجر الثرى تُغتصب منه أمواله قسراً ، مع
مجهونه وإيمانه بالمطيل واعتناقه للشرك . هكذا كان الظلم فاشياً قبل المعتضد حتى
إذا ولي شئون الرعية نشر فيها العدل الذي لاتصلح حياتها بدونه ، وسارع الثوار

(١) انظر فيها الديوان ص ٤٨١ .

بالإذعان خوفاً من بطشه وانتقامه ، وهرب اللصوص . وقبض الجند على أصحاب النهب والسلب وكيلوهم بالأصفاد والأغلال . وبعث برسله إلى ابن عيسى بن الشيخ ينذره ويتوعده ، فاستسلم خائفاً وأدّى أموالاً جلييلة ، واستنزل حمدان من حصنه في ماردين . وأسرهرون صاحب الشراة الخوارج ، ويطيل في ذمه وذم عقيدته وأنصاره ، كما يطيل في ثورة رافع بن هرثمة بخراسان وما كان من القضاء عليها وصلبه ببغداد . وكان المعتضد قد أخر المطالبة بالخراج من شهر آذار إلى الحادى عشر من حزيران حتى يتم الحصاد . وكان ذلك صنعاً جميلاً بالزراع والناس ، فأشاد ابن المعتز بهذه المكرمة وصور في ثنانيا ذلك صفوف التعذيب التى كانت تُصَبُّ على الناس صبباً لاستخراج أموال الخراج منهم بالعنف . وقد عرضنا لذلك في حديثنا عن الحياة السياسية ، إذ كانوا لا يزالون يرهقونهم وينكلون بهم حتى لا تبقى فيهم قدرة على المقاومة ، وحتى يتنازلوا عن كل ما يملكون جملة . ويتحدث عن أبنية المعتضد الشاغخة وخاصة قصره الرباب وبركته الكبيرة ، وهو أحد قصوره المعروفة باسم الثريا . ويعود إلى حديثه عن إخماد المعتضد للثورات وينوه بموظفيه وعلى رأسهم القاسم بن عبيد الله وزيره ، ويصور كيف ختك بعض قواده بصالح بن مدرك الذى كان يعيث في الأرض فساداً قاطعاً الطريق على الحجاج سافكاً للدماء ومتهكماً للحرمان وناهباً للأموال ، كما يصور قضاء إسماعيل بن أحمد السامانى وإلى خراسان على عمرو بن الليث الصفار الذى طالما تمادى في غيه بفارس ، فعادت مذعنة إلى الطاعة . ومثلها طبرستان وقضاء السامانيين فيها على محمد بن زيد العلوى . وكذلك قضاؤه على وصيف الخادم حين نقض الطاعة في الثغور . ويتحدث ابن المعتز عن القرامطة وتمزيق قواد المعتضد لهم ولجنودهم في عهده ، ويذكر وصول وفد الروم يحملون كتاب إمبراطورهم صاغرين طالبين الهدنة والفداء . ويعود إلى القرامطة ، ويفيض في ذم الكوفة مستقر الفرق الشيعية الغالية التى نبتت منها - فى رأيه - فرقة القرامطة ، وفيها يقول :

واستمع الآن حديث الكوفة مدينةً بعينها معروفة
كثيرة الأديان والأئمة وهمها تشتت أمر الأمة

ويتحدث عن خذلان أهلها لعل بن أبي طالب وقتله وقعودهم عن نصره الحسين ومصرعه تحت أعينهم دون أن يهبوا لنجدته ويعصفوا بقتلته ، يقول :

ثم بكوا من بعده وناحوا جهلا كذاك يفعل التمساحُ

ويبالغ في ذمهم حتى يجعلهم أس كل ضلال ومنبت كل الفرق لا من الشيعة فحسب ، بل أيضاً من الخوارج . وينوه بانتصار شبل غلام الطائي على القرامطة في سواد الكوفة وأسرهم لقائدهم ابن أبي قوس على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضع ، وما كان من صلبه لسنة ٢٨٩ على الجسر ببغداد ، وهي السنة التي توفي فيها المعتضد . وقد يدل ذلك على أن ابن المعتز لم يفرغ من نظمه لتلك الأرجوزة إلا في هذه السنة ، وربما فرغ منها قبل ذلك وأضاف إليها بأخرة هذا الجزء ، ولاريب في أنه ألحق بها الأبيات الثلاثة الأخيرة التي تشير إلى وفاة المعتضد وانتهاء خلافته لعام تسع وثمانين ومائتين . والأرجوزة قوية النسيج ، وهي تتفوق في هذا الجانب على أرجوزة ابن الجهم ، إذ تتناسق فيها الصياغة تناسقا بديعا ، وتبدو فيها بوضوح عواطف ابن المعتز ومشاعره ، مما يجعلها تحف بجوية قوية . وقد استطاع أن يودع فيها سيرة المعتضد وأحوال الشعب في عهده من جميع جوانبها السياسية والاجتماعية والاقتصادية . وبون بعيد بينها وبين كتب التاريخ مثل الطبري من هذه الناحية ، ففي تلك الكتب إنما نعرف الثورات والحروب وبعض الأعمال الكبرى ، وقلما اطلعنا على جانب من جوانب حياة الشعب ، أما في تلك الأرجوزة فالشعب ماثل أمامنا وسياط جباة الضرائب تنوشه ويُرَجَّج به في السجون ظلماً وعدواناً وأمواله تُسَلَّب منه بغياً وطغياناً .

وأما ابن دريد فكان عالماً لغوياً كبيراً ، ينظم الشعر ويحسنه ، وله ديوان مطبوع ، وقد عني بتفصيل طائفة من أشعاره بعض المعارف ، وأشهر ماله في هذا الباب مقصوده^(١) التي مدح بها عبد الله بن محمد بن ميكال وإلى الأشواز وابنه إسماعيل ، وقد بني قافيتها على الحرف المقصور وجعلها في نحو مائتين وخمسين بيتاً ، ويقال إنه ضمَّنها ثلث المقصور في اللغة^(٢) . وقد استهلها بالنسيب على طريقة

(٢) خزانة الأدب للبغدادى ٣/ ١٥٥ .

(١) انظر المقصورة في الديوان ، وهي مطبوعة بشرح الخطيب التبريزي في دمشق .

الشعراء القدماء مفتتحاً لها بقوله :

يا ظبية أشبه شئاً بالمها ترعى الخزاي بين أشجار النقا^(١)

وقد مضى يشكو من شبيه وجهه وسهاده لطول الفراق ، وكيف أنه يحتمل من آلام الشوق وعذابه ما لا يحتمله الصخر الأصم ، حتى لقد ذوى غصنه الرطيب وأصبحت حياته كلها غُصَصاً لا تطاق ، ويتجه إلى الدهر الذي يصب عليه الحن بالخطاب قائلاً :

يا دهرُ إن لم تك عُتْبَى فائتدُ فإن إرؤادك والعتبي سوا^(٢)
لا تحسبن يا دهر أني جازعُ لنكبة تعرّفتي عرق المدي^(٣)
مارست من لو هوت الأفلاك من جوانب الجو عليه ماشكا
لكنها نفثةٌ مصدورٍ إذا جاش لغام من نواحيها عما^(٤)

وهو يُبْندى أمام حن الدهر وخطوبه صلابة وقوة لا حد لها حتى لو خرت عليه الأفلاك ما تألم ولا شكا ، وقد مضى يتعزى بمن سطا الدهر عليهم قبل أن يحققوا آمالهم من أمثال امرئ القيس ويزيد بن المهلب ، واستطرد يتحدث عن بعض ذوى الهمم الشاغخة أمثال سيف بن ذى يزن وعمرو بن هند ، وكأنما سرت في روحه شجاعتههم فإذا هو في عُدّة الحرب رفيقاه السيف والفرس ، وينيض في وصفهما وخاصة في أوصاف الفرس . وكأنه يكتب فيه رسالة لغوية مستقلة . ويصف رحلته إلى الأهواز بفارس ، ثم يأخذ في مديح الأميرين . حتى إذا فرغ منه وصف فتاة ساحرة خلبت إبه ، ويعقب ذلك بطائفة من الحكم يحشدّها حشداً من مثل قوله :

وإنما المرء حديثٌ بعده فكن حديثاً حسناً لمن وعى

-
- (١) المها : بقر الوحش . الخزاي : المدي : السكاكين .
نبات زهره طيب . النقا : القطعة من الرمل .
(٢) اتد : تأن . الإرؤاد : الترفق .
(٣) تعرّقت : تفصل اللحم عن العظم .
(٤) اللغام : الزبد على فم البعير . عما : سقط

ويستطرد إلى وصف رحلة له في الصحراء مع بعض الفتية، مصوراً ما تجشمه في السرى من الصعاب وما كان ينزله من الآبار والذئاب تعوى حوله، ثم ينتقل فجأة إلى وصف الخمر، وكان منهوماً بها، وهو يصرح بذلك ولا يخفيه، بل إنه يتسع في تصريحه بأنه عبّ من كل ما كان يشتهيه. والطريف أن هذه الأرجوزة التي قصد بها ابن دريد إلى أخذ الناس بحفظ الألفاظ المقصورة في اللغة لا تتعمق في الإغراب اللفظي، فقد استطاع أن يسلك الكثرة من ألفاظها في أساليب سهلة يسيرة، وحتى الأساليب والصياغات الأخرى لا تتعمق في الإغراب، مما يدل على مقدرته الشعرية البارة.

ولابن دريد وراء هذه القصيدة قصائد أخرى تتضح فيها هذه الغاية اللغوية التعليمية، من ذلك قصيدته^(١) في المقصور والممدود، وقد اشتملت على سبع وخمسين كلمة مقصورة ومثلها ممدودة من نفس مادتها، وقد بدأها بما يفتح أوله فيُقصّر ويُسَمِّد والمعنى مختلف من مثل قوله:

لا تركننَّ إلى الهوى واحذرْ مفارقة الهـواء
يوماً تصير إلى الثرى ويفوز غيرك بالثراء

وتلا ذلك بما يكسر أوله فيقصّر ويمد والمعنى مختلف من مثل: اللوى^(٢) واللواء. ثم ما يكسر أوله فيقصّر، ويفتح فيمد، والمعنى واحد مثل: سوي وسواء. ثم ما يضم أوله فيقصّر، ويكسر فيمد والمعنى واحد، مثل: لقاً وليقاء. ثم ما يفتح أوله فيقصّر، ويكسر فيمد، والمعنى واحد مثل: الغدأ والغذاء. ثم ما يفتح أوله فيقصّر، ويكسر فيمد، والمعنى مختلف، مثل: السحأ والسحاء^(٣). ثم ما يضم أوله فيقصّر، ويفتح فيمد، والمعنى مختلف، مثل: ضحى وضحاء^(٤). وفي ديوانه قصيدة^(٥) ملاًها بالغريب، نظمها تحديداً لبعض علماء اللغة مورداً عليه طائفة كبيرة من ألفاظها الآبدة، وهي لذلك تُضمّ إلى القصيدتين التعليميتين السابقتين،

(١) ديوان ابن دريد (طبع القاهرة

ضرب من الشجر .

(٤) الضحى : وقت ارتفاع الشمس .

الضحاء : النهار .

(٥) الديوان ص ٨٨ .

(٢) اللوى : منقطع الرمل .

(٣) السحأ : القرطاس : السحاء :

فغايتها هي الأخرى علمية أو تعليمية واضحة . وأيضاً في الديوان بجانب ما قدمنا ثلاث مقطوعات^(١) أودع في أولها ما يذكر من أعضاء الجسم ولا يؤنث ، وفي ثانیتها ما يؤنث ولا يذكر ، وفي ثالثها ما يجوز فيه التذكير والتأنيث . وعلى هذا النحو سخر ابن دريد الشعر ليحمل مواد لغوية تعليمية بجانب ما حمل قبله من مواد تاريخية وغير تاريخية .

(١) الديوان ص ١٢٣ وما بعدها .

الفصل الخامس

أعلام للشعراء

١

على بن الجهم ^(١)

يرجع نسب على بن الجهم إلى بني سامة بن لؤي القرشيين ، وقد نزل أحد أجداده مدينة مرو بخراسان واستوطن هذا البلد الثاني مع من استوطنه من أبناء العرب الفاتحين لأواسط آسيا . وإلى هذا الموطن يشير على بن الجهم في إحدى مدائحه للمتوكل ، إذ يفاخر بأنه من أهل خراسان الذين أدالوا للعباسيين من الأمويين قائلاً ^(٢) :

مذهبي واضح وأصلي خراسا ن وعزى بغركم موصول

ويبدو أن الجهم رحل عن موطن أجداده بخراسان مبكراً إلى بغداد مع بعض إخوته وأسرته طلباً للرزق وشغل بعض الوظائف في الدولة . ويفتح له المأمون أبوابه ، ويوليه بريد اليمن وبعض الثغور ويتولّى في عهد الواثق شرطة بغداد ^(٣) وفي ديوان أبي تمام أشعار في أخيه عثمان وابنه إدريس ، مما يدل - من بعض الوجوه - على أنه كان لهذه الأسرة بعض الجاه والجاهة . ولا تُعرف بالضبط السنة التي أنجب فيها الجهم ابنه عليا ، ويغلب أن يكون مولده سنة ١٩٠ للهجرة وأن تكون بغداد مسقط رأسه ؛ ونراه في نعومة أظفاره يختلف من داره في شارع دُجَيْسِل

٢٤٩ والموشح للمرزباني ص ٣٤٤ وطبقات الحنابلة لابن أبي يعلى ص ١٦٤ وقد طبع ديوانه في المجمع العلمي العربي بدمشق خليل مردم ووضع له مقدمة قيمة .

(٢) الديوان ص ٢٦ .

(٣) تاريخ بغداد ٧ / ٢٤٠ .

(١) انظر في علي بن الجهم وترجمته وأشعاره طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣١٩ والأغاني (طبعة دار الكتب المصرية) ٢٠٣/١٠ ومجمع الشعراء للمرزباني (طبعة الحلبي) ص ١٤٠ وفيات الأعيان لابن خلكان في علي وتاريخ بغداد ١١ / ٣٦٧ وتاريخ ابن الأثير والنجوم الزاهرة في سنة

إلى كُتَّاب بالحي كان يتعلم فيه الأطفال ذكوراً وإناثاً مجتمعين ، ولفته ذات يوم
بُنَيَّة صغيرة بمحاسنها الدقاق فكتب إليها في بعض الألواح ^(١) :

ماذا تقولين فيمن شفه سَهْرٌ من جَهْد حبك حتى صار حيرانا
وسرعان ما أجابته البُنَيَّة في نفس اللوح على البديهة :

إذا رأينا محباً قد أضُرَّ به جَهْدُ الصبابة أو ليناد إحسانا

وفي بعض الروايات أن هذا البيت أول شعر نظمته ، وكأن هذه البُنَيَّة هي التي
أهمته الشعر وأنطقته . وكان لا يزال يملأ الدار على أبيه شغباً وعشاً ولعباً ، فسأل
معلمه في الكُتَّاب أن يحبسه تأديباً له ، وأجابه المعلم إلى حبسه ، فاغتاظ على من
أبيه غيظاً شديداً ، ولم يلبث أن كتب إلى أمه في شِقِّ لَوْحٍ مستغيثاً ^(٢) :

يا أُمَّتَا أفديكِ من أمٍّ أشكو إليك فظاظَةَ الجَهْمِ
قد سُرَّح الصبيان كلهم وبقيتُ محصوراً بلا جُرْمِ

وتوسطت له أمه عند أبيه وأطلت سراحه ، وكأنما كان هذا الهجاء لأبيه إرهاباً بما
سيصير إليه من حدة لسانه التي سيصلي فيما بعد ناراها . والحادثان كلتاها تدل
على أن موهبته الشعرية تفتحت مبكرة ، فإنه لم يكده ينهي دروسه في الكُتَّاب حتى كان
قد أصبح شاعراً ينظم الشعر في سر . وكانوا يتعلمون في الكُتَّاب شيئاً من علم
الحساب ومن النحو والعروض وبعض سور القرآن وبعض الأشعار والأحاديث
النبوية . ولا ريب في أنه كان يغدو ويروح بعد ذلك مع الشباب إلى
حلقات العلماء المتكلمين في المساجد ينهل منها ، وربما اطلع على شيء من
علوم الأوائل صنع لداته في عصره . وكانت في المسجد الجامع حلقة كثيراً ما يختلف
إليها وكثيراً ما اجتذبت ، ونقصد حلقة الشعراء إذ « كانوا يجتمعون كل جمعة في
القبة المعروفة بهم في جامع بغداد ، ينشدون الشعر ويعرض كل منهم على أصحابه
ما يكون قد نظمته بعد مفارقتهم في الجمعة السابقة » . وفي هذه الحلقة تعرف

(١) الديوان ص ١٨٤ .

(٢) الديوان ص ١٨٠ والجزم : الذنب .

على كثير من شعراء عصره وفي مقدمتهم أبو تمام الذي أصفاه ودّه وصوّر ذلك تصويراً رائعاً في شعره بمثل قوله (١):

إِنْ يَخْتَلِفُ مَاءُ الْوِصَالِ فَمَاؤُنَا عَذْبُ تَحَدَّرَ مِنْ غَمَامٍ وَاحِدٍ
أَوْ يَفْتَرِقُ نَسَبٌ يُوَلِّفُ بَيْنَنَا أَدَبُ أَقْمَنَاهُ مُقَامِ الْوَالِدِ

ولم يكد على يتجاوز العشرين ربيعاً حتى أخذ نجمه بين الشعراء المعاصرين له في الصعود ، وإذا هو يصبح من مُدَّاحِ المعتصم ومن يحظون بالوفود عليه ، ويُعْجِبُ به ، فيجعله على مظالم حلوان بالعراق (٢). ويفد على الواثق بمدحه ، غير أن ابن الزيات وزيره كان يزورُ عنه ، ويبدو أنه عزله عن عمله ، إذ نراه يصبُّ عليه جام غضبه (٣). وفي هذه الأثناء نراه يعقد صلة وثيقة بينه وبين عبد الله بن طاهر أمير خراسان ، مؤتسباً في ذلك بصديقه أبي تمام ، ويتوفى سنة مائتين وثلاثين للهجرة ، فيعزى فيه ابنه طاهر أخليفته على ولاية خراسان ويبكيه بكاء حاراً .

وتقبل الدنيا على ابن الجهم مع خلافة المتوكل سنة ٢٣٢ للهجرة إذ يصبح من أقرب الشعراء إلى نفسه ، ويتخذة جليساً وندبماً ، ويسرّ إليه بما يدور بينه وبين جواريه ومحظياتِه من مثل محبوبة وقبيحة أم المعتز ، ويفدق عليه أمواله وجوائزه حتى ليروى الرواة أنه دخل عليه يوماً ويبيده دُرَّتَانِ نفيسَتَانِ يقلِّبُهُمَا تعجباً واستحساناً ، ويبالغ الرواة فيقولون إن الواحدة منهما كانت تزيد قيمتها على مائة ألف ، وأنشده ابن الجهم قصيدة جعلته يقدم له إحدى الدُرَّتَيْنِ ، وكانت في يمينه ، والأخرى لا تزال في يساره ، فأسرع ابن الجهم يقول على البديهة :

بُسْرٌ مَنْ رَأَى إِمَامٌ عَدْلٍ تَعْرِفُ مِنْ بَحْرِ الْبَحَارِ
الْمَلِكُ فِيهِ وَفِي بَنِيهِ مَا اخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ
يُرْجَى وَيُخْشَى لِكُلِّ أَمِيرٍ كَأَنَّهُ جَنَّةٌ وَنَارُ

(٢) الديوان ص ١١٨ .

(١) ديوان أبي تمام ٤٠٧/١ .

(٢) أغاني ٢١٠/١٠ .

يداه في الجود ضَرَّتَانِ عليه كَلَّتَاهُمَا تَغَارُ
لم تَأْتِ مِنْهُ الْيَمِينُ شَيْئاً إِلَّا أَتَتْ مِثْلَهُ الْيَسَارُ

واهتز المتوكل طرباً وأعطاه الثانية^(١). وقد يكون في منادمته للمتوكل وملازمته له ما يدل على أنه كان ظريفاً جميل المحضر. ونراه يتحول منذ اليوم الأول في خلافته داعية كبيراً من دعائه، بل لقد تحول إلى ما يشبه أداة إعلام، فليس هناك عمل ينهض به المتوكل إلا ويدعوله إن احتاج إلى دعوة، بل إنه ليبالغ في الدعوة له مبالغة مفرطة. وليس هناك عمل يستحق التنويه إلا ويهتف به في أشعاره ويشيد إشادة بعيدة، وحتى هو إن غضب على بعض الوزراء أو بعض الكتاب والعمال رأيانه يَسْقُطُ عليهم بسياط أشعاره طالباً لهم التنكيل الشديد. وكان أول عمل عام نهض به المتوكل وقفه محنة القول بخلق القرآن على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضع؛ فقد كان الخلفاء منذ المأمون جعلوا هذا القول عقيدة رسمية للدولة، وعَسَفُوا بالفقهاء المنكرين لذلك وفي مقدمتهم أحمد بن حنبل عنفاً شديداً، حتى إذا ولي المتوكل وقف هذه المحنة التي أوشكت أن تؤدي إلى فتنة خطيرة، وبذلك أفل نجم أصحابها من المعتزلة الذين كانوا يُغَرِّون الخلفاء بها وسطع نجم الفقهاء وأهل السنة. ولا يزال ابن الجهم يُشيد بهذا الصنيع، إذ رآب المتوكل صدع فتنة كان يخشى أن تتفاقم وتؤدي إلى شر خطير، ونراه في أثناء ذلك يكيل هجاء ذمياً للمعتزلة، حتى ليصنفهم بالكفر على شاكلة قوله^(٢):

قَامَ وَأَهْلُ الْأَرْضِ فِي رَجْفَةٍ	يَخْبِطُ فِيهَا الْمَقْبَلُ الْمَدْبَرُ
فِي فِتْنَةٍ عَمِيَاءَ لَا نَارُهَا	تَخْبُو وَلَا مَوْقِدَهَا يَفْتَرُ
فَقَالَ وَالْأَلْسُنُ مَقْبُوضَةٌ	لِيُبْلَغَ الْغَائِبَ مِنْ يَخْضَرُ
إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ لَا	أُشْرِكُ بِاللَّهِ وَلَا أَكْفُرُ
لَا أَدْعِي الْقُدْرَةَ مِنْ دُونِهِ	بِاللَّهِ حَوْلِي وَبِهِ أَقْدِرُ

(١) الديوان ص ١٣٦ وانظر المقد
الفريد (طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر)

(٢) الديوان ص ٧٣ .

وابن الجهم يزعم في الأبيات أن القول بأن القرآن مخلوق من شأنه أن يؤدي بالإنسان إلى الكفر والشرك بالله ، وقد مضى ينفي عن المتوكل القول ببحرية الإرادة وأن الإنسان يصرف أفعاله كما تشاء له قدرته ، على نحو ما كان يؤمن المعتزلة ، فهو سني يأخذ بأقوال أهل السنة ، وبأن كل شيء بقضاء وقدر مقدور على الإنسان لا حول له إزاءه ولا قوة . ونراه في نفس القصيدة يزعم بأن أبا بكر قضى على الردة الأولى في الإسلام وأن المتوكل قضى على هذه الردة الثانية للمعتزلة . وكل ذلك زلل منه ، وكان حرياً به ألا يرسل لسانه في المعتزلة وأن يقف بعيداً عن خصومتهم ، أو على الأقل ألا يصممهم بوصفات الردة والشرك والكفر ، ولكنه كان قد وضع نفسه موضع الداعية للمتوكل وأعماله المحامي عنه أمام خصومه ، فبالغ وتورط في مبالغته أكثر مما ينبغي .

ومشكلة ثانية تورط فيها على نحو ما تورط ضد المعتزلة مندفعاً وراء المتوكل إذ كان شديد الانحراف عن علي بن أبي طالب وآله ، ومربباً في غير هذا الموضع ما يصور مدى هذا الانحراف إذ أمر في سنة ٢٣٦ بهدم قبر الحسين في كربلاء وهدم ما حوله من الدور وأن يحجرت موضع القبر ويؤزج ما حوله ، ونرى ابن الجهم منذ ولي المتوكل الخلافة يسبئ ويعيد في أن العباسيين أولى الناس بالأمر وحكم الأمة . وحققاً بدأ ذلك عنده في مبادئه للمعتصم ، ولكنه أصبح الآن نغمساً مستمراً يوقعه على قيثارته كلما مدح المتوكل ، فبيته أحق من البيت العلوي بالخلافة ، وهم أفضل الناس وخيرهم جميعاً علويين وغير علويين ، أما المتوكل فهو صفوة الله ، اختاره لعباده ، بل هو الميثاق والعهد الذي عاهد الله الناس عليه أن يسمعوا ويطيعوا ، يقول له (١) :

أنت ميثاقنا الذي أخذ الله علينا وعهده المسئول
بك تزكو الصلاة والصوم والحد يجوزك التسبيح والتهليل

وكان هذا الموقف من علي يثير عليه الشيعة ويجعلهم يبطنون له ضغينة مماثلة لما كان يبطنه له المعتزلة . وبجانب ذلك كان المتوكل كلما نكب أحداً زين عمله للرعية ،

ومعروف أنه نكب لأول عهده ابن الزيات وعذبه في سجنه حتى مات ، وكذلك نكب عمر بن فرج الرُّخَجِيّ وكان من عِلْيَةِ الكتاب ومشاهيرهم ، وبنوّه ابن الجهم بعمله وأنه إنما انتقم منهما للرعية ، إذ كان ابن الزيات - في رأيه - ظالمًا جائرًا يُزْرَى على سنن النبي ، وكان الرُّخَجِيّ يمحور في أحكامه وتصرفاته ^(١) . ويعقد المتوكل البيعة في سنة ٢٣٥ لبنيه الثلاثة محمد المنتصر وأبي عبد الله المعتز وإبراهيم المؤيد عاهدًا إليهم بولاية العهد على التوالى ، فيشيد ابن الجهم بهذا الصنيع وأن المتوكل أراد به صلاح الدين ^(٢) . وأمر المتوكل كما مرّ بنا في غير هذا الموضع لسنة ٢٣٥ بأن يلبس النصارى وأهل الذمة جميعًا الطبالسة العسلية تمييزًا لهم ويشدوا في أوساطهم الزناير وكتب بذلك إلى عماله في الآفاق ، فقال ابن الجهم ^(٣) :

العَسَلِيَّاتُ الَّتِي فَرَّقَتْ بَيْنَ ذَوِي الرُّشْدَةِ وَالغَيِّ
وَمَا عَلَى الْعَاقِلِ أَنْ يَكْثُرُوا فَإِنَّهُ أَكْثَرُ لِلْفَقِي

وآذى البيتان النصارى وأهل الذمة جميعًا ، وبذلك لم يوغر صدور المعتزلة والشيعة عليه وحدهما ، فقد أوغر أيضًا صدور النصارى وأهل الذمة ، ولم يَقِفْ إيفارُهُ الصدور عند هذه البيئات الثلاث ، فقد أوغر أيضًا صدور حاشية المتوكل جميعًا شعراء وغير شعراء ، وكان منهم مروان بن أبي الجنوب والبحترى والحسين بن الضحّاك وعلى بن يحيى المنجم وأبو العَيْنَاء وابن حمدون وعَزْرُونَ وَبَخْتِيشُوع الطبيب النصرائى وعبادة المضحك ، وساءهم جميعًا أنه كان كثير السعاية بهم إلى المتوكل والذكر لهم بالقبيح عنده ، وتصدّى له منهم البحترى ومروان بن أبي الجنوب يهيجوانه . وأخذ هؤلاء الندماء يسعون به إلى المتوكل ، فتارة يقولون له إنه يجمّش غلمانك ويلاعبهم ، وتارة ثانية يقولون له إنه كثير الإزراء عليك . وساعدهم كثيرون من حاشية المتوكل ممن لم نسّمهم ، وكان منهم المعتزلى والشيعى والنصرائى ومن يودوا انتقم منه شر انتقام ، غير من كان يحسده على منزلته من المتوكل ، فما زالوا يقعون فيه حتى ملأوا قلب المتوكل غيظًا وحنقًا عليهم ، فأمر بحبس سنة ٢٣٧ ونراه يرسل إلى أخيه من سجنه بقصيدة يصور فيها تجلده لنكبته وشكواه من رفاقه شكوى أليمة وأن

(٣) الديوان ص ١٩٢ والفى في البيت

الثانى : الفى وهو الغنيمه .

(١) الديوان ص ٣٩ وما بعدها .

(٢) الديوان ص ١٢٥ .

أحداً منهم لم يحام عنه في بلائه ، بل لقد خذلوه جميعاً ، وما يلبث أن يقول ^(١) :
تصافرت الروافض والنصارى وأهل الاعتزال على هجائي

وكانه كان يعرف في وضوح خصومه الذين ما زالوا يرجفون به عند المتوكل حتى ألقى به في غياهب السجون ، إنهم المعتزلة والشيعة والنصارى من حواشي الخليفة ثم منافسوه من الشعراء والتدماة وإن لم يتعرض لهم في هذه القصيدة بالذكر ؛ ويقول ابن المعتز : « إنما عنتي بالروافض الطاهريين وبأهل الاعتزال بني دؤاد وبالنصارى بختيشوع بن جبريل » ^(٢) . ومعروف أن الطاهريين هم أسرة عبد الله بن طاهر ، وكان ابنه محمد حاكماً لبغداد لعهد المتوكل ، وكان ابنه طاهر — كما أسلفنا — والياً لخراسان بعد أبيه عبد الله ، وأسرّها طاهر لابن الجهم كما سنرى عما قليل . وكان أحمد بن أبي دؤاد رأساً من رموس الاعتزال ، كان المتوكل يفسح له في مجالسه ، لأنه كان أحد من أخذوا له البيعة بعد وفاة الواثق ، فحفظ له المتوكل صنيعة ، على أنه لم يلبث أن نكبه هو وابنه أبا الوليد بعد نكبته لابن الجهم . أما بختيشوع فكان لا ينسى له ذكره العسليات في بيته السابقين وكان يكنّ له عداوة شديدة .

وظل ابن الجهم في محبسه يتوسل إلى المتوكل أن يعفو عنه ، مرسلًا له بقصائد يصور فيها ولاءه له وإخلاصه ووفاءه ، مندداً بخصومه بل هاجباً لهم أشد الهجاء وأعنفه ، ورقّ له المتوكل فردّ إليه حريته بعد عام ولكن ببطانة السوء من حوله دبّروا لابن الجهم مكيدة لا تُقبَلُ فيها التعلّات والمعاذير ، إذ اتهموه عند المتوكل بأن نفسه سوّلت له أن يهجو هجاء قبيحاً ، وثار المتوكل ثورة شديدة وأمر لسنة ٢٣٩ بمصادرة أمواله ونفيه إلى خراسان وكتب إلى أميرها طاهر بن عبد الله أن يُصلّبَ يوماً إلى الليل ، فلما وصل إلى ضاحية من ضواحي نيسابور تسمى الشاذياخ حبسه طاهر بها ، ثم أخرج من محبسه وصلّب يوماً إلى الليل مجرّداً ثم أنزل ^(٣) ، وكان طاهراً رأى في ذلك فرصة

(١) الديوان ص ٨٤ .

(٢) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٢٠ .

(٣) أغاني ١٠ / ٢٠٨ .

أن يقتصر من ابن الجهم على هذا النحو البشع ، لوصفه السالف له هو وبيته في أشعاره بأنهم روافض أو شيعة غالية ، وكأنما يريد أن يسجل عليهم الخيانة للمتوكل ودولته . وظل في سجن طاهر بالشاذياخ إلى أن كتب إليه المتوكل بإطلاقه فأطلقه ، ومثّل ابن الجهم بين يديه ، يقول :

أطاهر إني عن خراسان راحلٌ ومُسْتَخْبِرٌ عنها فما أنا قائلٌ

فقال له طاهر : لا تقل إلا خيراً فإني لا أفعل بك إلا ما تحب ، ووصله وحمله وكساه ^(١) ، وأخذ يبتغي إلى مودته كل الوسائل . ويبقى ابن الجهم في جواره مدة يسّمر فيها عنده ويلزمه في غدوه ورواحه إلى الصيد ^(٢) . وكان طبيعياً أن تترك هذه المحنة التي طالت سنواتها والتي شقى بها في بغداد وخراسان شقاء شديداً ظلاً كثيباً على نفسه حتى لنراه عقب ردّ حرّيته إليه يطيل المكث في القبور ، ويسأله رجل ما يجلسك بين المقابر ، فيجيبه ^(٣) :

يشتاق كل غريبٍ عند غربته ويذكر الأهلَ والجيران والوطنا

وليس لي وطنٌ أمسيت أذكره إلا المقابر إذ صارت لهم وطنا

وعاد ابن الجهم إلى العراق ، ولكنه لم يولّ وجهه نحو سامراء ؛ فقد ازورّ عنه المتوكل وأغلقت أبواب قصوره من دونه ، إنما ولّى وجهه نحو بغداد ، ونراه حينئذ يأسى لانصراف الناس عنه ، فقد تغير عليه الخليفة فتغير عليه الناس جميعاً ، ولم يعد يجد من بينهم الصديق الوفيّ ولا الأخ المخلص ، وحزن لذلك حزناً شديداً ، وأداه حزنه إلى أن يغرق أساه في كثوس اللهو عليها تنسيه كآثرته ، وازم جماعة ماجنة من فتيان بغداد كانوا يختلفون إلى منزل مقيّنين (بخّاس) بالكرخ يسمى المفضل ، كان منزله مكتظاً بالجوارى العابثات اللائي يتفنّن في جذب الشعراء والشباب إليهن ، ومرت بنا في الفصل الثاني أبيات لابن الجهم من قصيدة يصف فيها هؤلاء الجوارى وكيف كن يعجبّبن بقلوب الفتيان ويسّعرن أفئدتهم ناراً ^(٤) . ويسمّى إليه المتوكل لسنة ٢٤٧ للهجرة فيرثيه رثاء حاراً . وماتوا في سنة ٢٤٩ حتى يتناقل العالم

(٣) أغاني ١٠/٢٢٤ .

(١) أغاني ١٠/٢٠٩ وما بعدها .

(٤) الديوان ص ٥٢ :

(٢) أغاني ١٠/٢٢٧ .

العربي المأساة التي سبق أن أشرنا إليها في الفصل الأول ، وهي مقتل البطليين عمر بن عبيد الله الأقطع وعلى بن يحيى الأرمني في حروب الروم ، ويتصايح المتطوعون لتلك الحروب في كل مكان ، ونجد ابن الجهم كأنما يثوب إلى نفسه أخيراً ، فيعتزم الجهاد في سبيل الله مع المجاهدين ، ويخرج في قافلة إلى حلب لغزو الروم ، ويحاول أن يتجه من حلب إلى بعض الثغور^(١) ، ويعترضه أعراب من بني كلب ، ويقاتلونهم ، وهو يصيح فيهم بأشعار حماسية ملتهبة ، وتصيبه طعنة قاتلة ، فيقتل شهيداً دون غايته^(٢) .

وأشعار ابن الجهم موزعة بين المديح والاستعطاف والثناء والهجاء والغزل والفخر والوصف والحكمة وجلُّ مدائحهم في المتوكل ، فقد كاد لا يترك فيه فضلاً لغيره ، ومراً بنا آنفاً أنه ظل منذ توليه الخلافة سنة ٢٣٢ للهجرة حتى سنة سجنه وسخطه عليه يسجل كل أعماله ، بل لقد تحول داعية له ، يحامى عنه ويدافع ، بل يبرر ويزين ما يصدر عنه من فعل ، وظل ينوه بموقفه من المعتزلة وفتنة خلق القرآن ، بمثل قوله^(٣) .

بِهِ سَلِمَ الْإِسْلَامُ مِنْ كُلِّ مَلْحِدٍ وَحَلَّ بِأَهْلِ الزَّيْغِ قَاصِمَةُ الظُّهْرِ
وبالمثل كان يندد بالشيعة والعلويين ، وكان ما يزال يرفع من المتوكل والعباسيين ، حتى ليجعلهم فوق كل الناس علويين وغير علويين ، وحتى ليقول^(٤) :
لَنَا فِي بَنِي الْعَبَّاسِ أَكْرَمُ أَسْوَةٍ فَهُمْ خَيْرُ خَلْقِ اللَّهِ طَرًّا وَأَفْضَلُ
ويقول للمتوكل^(٥) :

وَلَنْ يُقْبَلَ الْإِيمَانُ إِلَّا بِحَبِّكُمْ وَهَلْ يَقْبَلُ اللَّهُ الصَّلَاةَ بِلَا طُهُرٍ
وكان لا يني يمدح المتوكل بحب الخير والرفق بالرعية والصفح عن الزلات ونشر الأمن الذي يحرر الناس من الخوف ونشر العدل الذي لا تصلح الحياة بدونه ، يقول^(٦) :

(٤) الديوان ص ٧٠ .

(٥) الديوان ص ١٤٨ .

(٦) الديوان ص ٣٥ .

(١) تاريخ بغداد ١١ / ٣٦٩ .

(٢) الأغاني ١٠ / ٢٣٣ وما بعدها .

(٣) الديوان ص ٢٢٢ .

ملكٌ باسطٌ اليَدَيْنِ إلى الخِيَرِ ر صفوحٌ عن الذنوب غفورٌ
أَمَّنَ الناسَ واستفاض به العَدُ لُ فلا خائفٌ ولا مقهورٌ

وله في المتوكل وراء مدائح تهنئة بعيد المهرجان ، وزراه يسوق في فاتحتها دعوة للصبوح بالخمير من أيدي الخُرَد الغيد ، ويُشيد بمجالسها وما فيها من غناء تهفو إليه النفوس ، ثم يأخذ في مديح المتوكل وأن خلافته تفتح للناس أبواب الرحمة على مصاريعها وما تزال تمسهم بأجنحة من الرفق والعطف ، ويعلن في صراحة صريحة أنه خراساني من شيعة بني العباس أصحاب الرايات السود شعارهم أو كما يسميها الحرق السود ، يقول (١) :

نحن أبناء هذه الخرقِ السُّو دِ وأهل التشيعِ المحمودِ

وأروع من هذه التهنة تهنة المتوكل بقضاء قائده بُغا قضاء مبرماً على إسحق ابن إسماعيل الثائر بأرمينية وهي أرجوزة أنشدتها ارتجالاً ، وفيها يصور بأس الجيش العباسي في تلك الحرب ، وكيف كان يهدم الحصون هناك بمجانيق ترسل عليهم صواعق من حجارة السجيل ، يشير بذلك إلى سورة الفيل ، وقد تدخل الاقتباس منها أبياته (٢) ، وهي تدل على طوعية الشعر له وأنه كان يصدر فيه عن نَسَب غزير .

ويدخل ابن الجهم السجن ، ويتحول من مديح المتوكل إلى استعطافه ، وزراه في ميمية قدّمها إليه يذكر سنّه التي أشرفت على الخمسين ، وكيف أن الناس أخذوا ينكرونه لإنكار الخليفة له ، ويظل يأسى لقلة الصديق حتى يقول للمتوكل مستعطفاً (٣) :

أما وأمير المؤمنين لقد رمى الـ هدوً فلا نِكْساً ولا متَهَضِّماً
ولا ناسياً ما كان من حسن رأيه لخطّة خَسَفِ سامنيها محتّماً
فخطّة الخسف والظلم والهوان ستنتشع عنه ، ولكنها لم تنتشع ، فعاد إلى

(١) الديوان ص ٢١ .

(٢) الديوان ص ٣٥ .

(٣) الديوان ص ١٧٦ .

استعطفه في لامية له استهلها بالحديث عن الصبر الجميل ، ويسترسل في مديحه ، ويقول إنه خير خلق الله وأعلمهم وأشدهم توجيهاً للإنصاف ، وكأنه يشير إلى ما يأمل منه من العفو والصفح والغفران حين يقول (١) :

يعاقب تأديباً ويعفو تطولاً وَيَجْزِي عَلَى الْحُسْنَى وَيُعْطَى وَيُجْزَلُ
وَلَا يُتَّبَعُ الْمَعْرُوفُ مَنْناً وَلَا أَدَى وَلَا الْبُخْلُ مِنْ عَادَاتِهِ حِينَ يُسْأَلُ
رَعَاكَ الَّذِي اسْتَرَعَاكَ أَمْرَ عِبَادِهِ وَكَافَاكَ عَنَا الْمَنِّعِ الْمُتَفَضَّلِ
وينكل به طاهر بن عبد الله بن طاهر ، كما أسلفنا ، وكان يمدح أباه وبيته ، غير أنه زلَّ زَلَّتْهُ الَّتِي تَحَدَّثْنَا عَنْهَا حِينَ أَحْسَنَ أَنَّ الطَّاهِرِيِّينَ لَا يَتَوَسَّطُونَ لَهُ عِنْدَ الْمُتَوَكِّلِ وَلَا يَهْمُهُمْ أَمْرُهُ ، فساهم رافضة ، وكأنما أراد من المتوكل أن يطير بهم طيرةً بطيئاً سقوطها ، وظل طاهر يسرها له ، حتى تمكن منه ، ويرسل له ابن الجهم من سجنه في الشاذياخ شعراً يستعطفه به من مثل قوله (٢) :

إِنْ كَانَ لِي ذَنْبٌ فَلَئِنْ حُرُمَةٌ وَالْحَقُّ لَا يُلْفَعُهُ الْبَاطِلُ
وَحُرْمَتِي أَعْظَمُ مِنْ زَلَّتِي لَوْ نَالَنِي مِنْ عَدْلِكُمْ نَائِلُ

ولكن الزلة في رأى طاهر كانت أكبر من الحرمة ، فلم يأبه باستعطفه ، حتى أمره المتوكل برد حرите إليه . حينئذ خشي معرفة لسانه ، فقرَّبَه منه وجعله من ندمائه وجلسائه .

ولابن الجهم مراث قليلة في مقدمتها مراثيه لعبد الله بن طاهر ، يعزى بها طاهراً ابنه ، مصوراً عظم الفادحة فيه ، حتى ليظن كأن ركناً من أركان الإسلام انقضى انقضاءً ، في يوم عبوس من أخنى الأيام وأشدها بلاء على الأنام ، على نحو ما يقول في مطلعها (٣) :

أَيُّ رَكْنٍ وَهَى مِنَ الْإِسْلَامِ . أَيُّ يَوْمٍ أَخْنَى عَلَى الْيَامِ .

ومضى يعزى آل الفقيد مصوراً عظم الكارثة فيه ، ثم انتقل إلى مديح طاهر

(١) الديوان ص ١٦٥ . (٢) الديوان ص ١٨٢ .

(٣) الديوان ص ١٦٩ والأغاني ١٠ / ٢١٨ .

ابنه وأنه نعم الخلف لسلفه . وأهم من هذه المراثية مراثيته لصديقه الروحي أبي تمام ، وهي أبيات أربعة صور فيها شاعريته وكيف عدت عليها الأيام ، حتى إن الشعر ليبيكيه بكاء مرّاً ، فقد هلك مثقفه ومرّوض قوافيه وجفّ غدير روضته ، وجفت بدائع فطنته ، يقول (١) :

غاضتْ بدائعُ فطنةِ الأوهامِ وعدتْ عليها نكبةُ الأيامِ
وغدا القريضُ ضئيلُ شخصٍ باكياً يشكو رزيتَه إلى الأَقلامِ
وتأوّهتْ غُرُرُ القوافي بعده ورى الزمانُ صحتها بسقامِ
أودى مثقفها ورائضُ صعبها وغديرُ روضتها أبو تمام

ومرّ بنا أنه رثى المتوكل رثاء حارّاً حين قتله بعض حرسه وحواشيه ، وهو يستهل رثاءه له بوصف سحابة أطلّت العراق وملأته أمطاراً وخصباً ، غير أن عاصفة هوجاء نَحَّتْهَا عنه ، وكأنما يرمز بها إلى المتوكل ، ثم أخذ يتفجع عليه تفجعاً مريراً ، مزرباً على جنوده أن لم ينصروه . مندداً بمن قتلوه تنديداً شديداً (٢) .

والهجاء عنده ليس كثيراً ، وهو يَخِزُ فيه وخز الإبر ، وأحياناً يطعن طعنات دامية ، مما جعل ابن المعتز يقول : إنه كان هَجَاءً يضع لسانه حيث يشاء ، ويقول المسعودي : « كان في لسانه فضل قَلَّ مَنْ سَلِمَ معه منه » ، ولعله يقصد تعرضه للشيعنة والعلويين والمعتزلة ، وكان يشتد هجاءه حين يحس بأنه أودى أو وقعت عليه إهانة ، ومن تعرّض لهم بالهجاء كثيراً أحمد بن أبي دؤاد شيخ المعتزلة ، لأنه سأله الشفاعة حين أمر المتوكل بحبسه فقعده عنه ولم يهتم به ، حتى إذا نكبه المتوكل شمت به هو وابنه أبي الوائِد ، وسلّ عليهما لسانه بمثل قوله (٣) :

يا أحمدُ بنَ أبي دُؤادِ دعوةٌ بعثتُ إليك جنادلا وحديدا
ما هذه البِدْعُ التي سميتها بالجهل منك العدل والتوحيد
أفسدت أمرَ الدين حين وليته ورميته ببأى الوليد وليدا

(٣) الديوان ص ١٢٥ .

(١) الديوان ص ١٨١ .

(٢) الديوان ص ٥٦ .

وكان أبو الوليد يتولى المظالم بسامراء وعزله عنها المتوكل حين صادر أمواله وأموال أبيه لسنة ٢٣٧ وابن الجهم يشير بالعدل والتوحيد إلى مبدئين أساسيين في الاعتزال، إذ كان المعتزلة يوجبون العدل على الله مما أداهم إلى القول بفكرة خلق الناس لأفعالهم وحرية إرادتهم حرية تامة دون جبر أو إلزام ، حتى يثابروا ويعاقبوا على أعمالهم وما يأتون من الخير والشر . وأما التوحيد فأرادوا به تنزيه الله عن مشابهة المخلوقين ، بحيث لا يحصره مكان ولا زمان . وكان مروان بن أبي الحنوب كثير التعرض له يذمه ويهجو ، ويقال إنه هجاه يوماً في مجلس المتوكل ، فأطرق ثم رماه بهذين البيتين المصنعيين (١) :

بلاءٌ ليس يشبهه بلاءٌ عداوةٌ غير ذى حسبٍ ودينٍ
يُبِيحُكَ مِنْهُ عِرْضاً لَمْ يَصْنُهُ وَيَرْتَعُ مِنْكَ فِي عِرْضٍ مَصُونٍ

وقد جرّده من الحسب والدين والعرض والشرف .

ولابن الجهم غزل كثير ، وهو تارة يضعه في مقدمات قصائده ، مذهباً فيه لواعج حبه ، وتارة يفرده بمقطوعات تصور ما يثير الحب في فؤاده من العواطف والمشاعر ، ومن مقدماته المشهورة التي طارت على كل لسان قوله في فاتحة إحدى مدائحه للمتوكل (٢) :

عيونُ المَهَا بين الرُصافة والجِسرِ جَلَبْنَ الهَوَى مِنْ حَيْثُ أَذْرِي وَلَا أَذْرِي
أَعَدْنَ لِي الشَّوْقَ الْقَدِيمَ وَلَمْ أَكُنْ سَلَوْتُ وَلَكِنْ زِدْنَ جَمْرًا إِلَى جَمْرٍ

وهو تصوير بديع لما ترسل العيون من سهام الحب التي تفد من كل مكان مكشوف وخبيء من حيث يدرى ابن الجهم ومن حيث لا يدرى ، وقد أعدن له جذوة الحب القديم التي لا سبيل إلى إطفائها وأوقدن بجانبها جذوات كثيرة حديثة ، وقلبه يلتاع لوعة شديدة . ومضى يتحدث عن صواحب تلك العيون وكيف أنهن يُضْضِنْنَ من بعيد كالأهلة تتزود منها الأبصار ، ولا متاع سوى متاع النظر والخيال ،

وقد التهبته منه جوانح الفؤاد ، ويشكو المشيب ويذكر اقتطافه زهرات الحب ذات ليلة ، ثم يعود إلى الشكوى من الهجر والفراق ، ويجرى حواراً طريفاً عن حبه بين فتاتين تتبادلان الرأي في وصله وصدده ، ومن طريف ما له في الغزل قوله (١) :

سَقَى اللهُ لَيْلًا ضَمَنَّا بَعْدَ فُرْقَةٍ وَأَدْنَى فَوَادًا مِنْ فَوَادٍ مَعَذِبِ
فَبِتْنَا جَمِيعًا لَوْ تَرَأَى زُجَاجَةً مِنْ الرَّاحِ فِيمَا بَيْنَنَا لَمْ تَسْرَبِ

وكانهما أصبحا روحين في بدن .

والفخر كثير في أشعار ابن الجهم ، وهو يردد الفخر بقرشيته وبفتوته التي أغرته بأن يكون صاحب هو ومجون على الأقل في فترات من حياته ، وصوراً حين حبس وصلب عرياناً صلابة نفس غير مألوفة ، إذ ظلت نفسه قوية وظلت لا تنكسر أبداً ، ويستشعر هذا المعنى في عمق حين يفتتح إحدى قصائده التي استعطف بها المتوكل بقوله (٢) :

هِيَ النَّفْسُ مَا حَمَلَتْهَا تَتَحَمَّلُ وَلِلدَّهْرِ أَيَّامٌ تَجُورُ وَتَعْدُلُ
وَلَا عَارَ إِنْ زَالَتْ عَنِ الْحَرِّ نِعْمَةٌ وَلَكِنْ عَارًا أَنْ يَزُولَ التَّجَمُّلُ

وكان لا يزال يشعر بقرشيته وأنه من أرفع الأسر العربية مكانة وأعلاها منزلة ، وكاد له خصومه عند المتوكل واستتيع كيدهم السجن والقيود والأغلال والظلم والعسف ، ولكنه احتمل وقاوم ، حتى ليقول لبعض صواحيبه (٣) :

فَلَا تَجْزَعِي إِمَّا رَأَيْتِ قَيُودَهُ فَإِنْ خَلَاخِيلَ الرِّجَالِ قَيُودُهَا

إنها ليست قيوداً وسلاسل بل هي حللي الرجولة والفتوة ، وهو خليق أن يتحلَّى بها مهما عرضته لشر أو ضيق أو ضرر ، ويحاول مراراً وتكراراً أن يظهر تجلده واحتماله لأثقال السجن وقيوده ، فنفسه لا تضعف ولا تهون ، بل لعل نيران هذه المحنة قد زادت بها صلابته فوق صلابته ، إنها من جوهر كريم لا تذيبه المحن والخطوب

(١) الديوان ص ٩٥ .

لابن المعتز ص ٣٢١ .

(٢) الديوان ص ١٦٢ وطبقات الشعراء

(٣) الديوان ص ٥١ .

ولا كل ما يسام به من ضروب الخسف والعسف ، ويبلغ ابن الجهم من ذلك حداً
يفوق كل وصف حين يقول لصاحبه (١) :

قالتِ حُبْسَتْ فَقُلْتُ لَيْسَ بِضَائِرِي حَبَسِي وَأَيُّ مَهْنَدٍ لَا يُغْمَدُ (٢)
أَوْ مَا رَأَيْتِ اللَّيْثَ يَأْلَفُ غِيلَهُ كِبَرًا وَأَوْبَاشَ السَّبَاعِ تَرَدُّدُ (٣)
وَالشَّمْسُ لَوْلَا أَنَّهَا مَحْجُوبَةٌ عَنْ نَظَائِرِكَ لَمَّا أَضَاءَ الْفَرْقَدُ
وَالْبَدْرُ يُدْرِكُهُ السَّرَارُ فَتَنْجَلِي أَيَّامُهُ وَكَأَنَّهُ مُتَجَسِّدُ (٤)
وَالْغَيْثُ يَحْضُرُهُ الْغَمَامُ فَمَا يُرَى إِلَّا وَرِيقُهُ يَرَّاحُ وَيَرْعُدُ (٥)
وَالنَّارُ فِي أَحْجَارِهَا مَخْبُوءَةٌ لَا تُصْطَلِي إِنْ لَمْ تُثْرَمَا الْأَزْنَدُ
وَالزَّاعِيَّةُ لَا يَقِيمُ كَعُوبَتِهَا إِلَّا التَّقَافُ وَجَدْوَةٌ تَتَوَقَّدُ (٦)

وهو يمثل نفسه لصاحبه سيفاً مسلولاً وُضِعَ في غمده ، بل كأنه أسد في
أجمته وشمس في حجابها وبلدر في سِراره ، بل وكأنه غيث مضمَر في غمامه
ونار مكنونة في زندها ورمح يَصْقَلُهُ مثقفه . وهي صور تعبر عن نفس صلبة قوية
وأنها ظلت على الرغم من محنة السجن سالمة لم يصبها وَهَنٌ وَلَا خَوَرٌ . وَيُسْفَى
إلى خراسان وَيُسْجَنُ ويصلبه أميرها يوماً عارياً وتظل له نفسه الصلبة ويزار
منشداً (٧) :

ما عابه أَنْ بُزَّ عَنْهُ لِبَاسُهُ فَالسَّيْفُ أَهْلٌ مَا يُرَى مُسْلُولاً
فهو مثل السيف أهول وأهيب ما يُرَى حين يُجَرَّدُ من غمده ويصوب إلى
الرقاب .

ولابن الجهم أشعار كثيرة في وصف الطبيعة الصحراوية وأطلالها ونوقها وفي وصف
الطبيعة الحضرية ورياضها ورياحينها ، ومرت بنا في الفصل الماضي قطعة له بديعة

-
- (١) الديوان ص ٤١ والأغاني ٢١٣/١٠ .
(٢) المهند : السيف .
(٣) الغيل : أجمة الأسد .
(٤) السرار : آخر أيام الشهر .
(٥) ريق الغمام : أوله . راح : تكثر
معه الرياح والمواصف الممطرة .
(٦) الزاعية : ضرب من الرياح المصمية .
(٧) الديوان ص ١٧٢ .

في وصف الورد وتهنأديه ووصف شذاه العطر الذي يشفي القلوب الكليمة ، وله أشعار مختلفة في وصف اللهو والملاهي ، ومن قوله في وصف مجلس أنس^(١) :

الْوَرْدُ يَضْحَكُ وَالْأَوْتَارُ تَصْطَخِبُ . وَالنَّائِي يَنْدَبُ أَشْجَانًا وَيَنْتَجِبُ
وَالرَّاحُ تُعْرَضُ فِي نَوْرِ الرَّبِيعِ كَمَا تُجَلَّى الْعُرُوسُ عَلَيْهَا الدَّرُّ وَالذَّهَبُ

وقد مضى يصور نشوته بالراح وبالورد وبالغناء . وأنشدنا في الفصل الماضي قطعة من وصفه لقصر من قصور المتوكل ونافورته العجيبة ، وكذلك وصفه للعبة الشطرنج وله قصيدة جيدة في وصف سفينة^(٢) .

وجعلته نكبته يكثر من التأمل في الحياة وفي سلوك الناس وأخلاقهم وأصنافهم ، مما جعل تجاربه تتسع وجعله ينثر منها كثيراً في أشعاره من مثل قوله^(٣) :

وَمَنْ طَلَبَ الْمَعْرُوفَ مِنْ غَيْرِ أَهْلِهِ أَطَالَ عَنَاءٌ أَوْ أَطَالَ تَنَدُّمًا
وَمَنْ سَامَحَ الْأَيَّامَ يَرْضَ حَيَاتِهِ وَمَنْ مَنَّ بِالْمَعْرُوفِ عَادَ مَذْمَمًا

وواضح مما أسلفنا من أشعار ابن الجهم أنه لم يكن ممن يتكلفون في أشعارهم ولا ممن يكثر من ترصيعها بأصناف البديع وأصداقه ، وما لا ريب فيه أن ملكاته كانت خصبة ، وكان كثيراً ما يلهم بمعان دقيقة وصور طريفة مع سهولة الألفاظ ومع شفافيتها وصفائها ومع نصاعتها ورصانتها ومع جمال الجرس والأداء .

٢

البحترى^(٤)

هو أبو عبادة الوليد بن عبيد ؛ طائى الأب شيبانى الأم غلب عليه لقب البحترى نسبة إلى عشيرته الطائية بْحِتر ، ولد سنة ٢٠٤ للهجرة بِمَسْبِج إلى

-
- (١) الديوان ص ١٠٥ .
(٢) الديوان ص ١١٤ .
(٣) الديوان ص ٢٠ .
(٤) انظر في البحترى وشعره الأغاني (طبعة الساسي) ١٦٧/١٨ ، والموشح للمرزبانى للصولي (طبع المجمع العلمى العربى بدمشق) =
- والموازنة بين الطائين للآمدى ، وطبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٩٤ ، ٤٥٨ ، والشريشى على مقامات الحريرى ٤٠/١ .
وعبث الوليد لأبي العلاء ، وأخبار البحترى

الشمال الشرق من حلب على الطريق المؤدية منها إلى الفرات ، وقيل : بل وُلد بقرية تجاورها تسمى « زَرْدَفَنَة » والرأى الأول أصح ، لأن البحترى نفسه يكرّر كثيراً في شعره « مَسْبُج » مسقط رأسه ، وكانت تنزلها عشائر من طي* ، وهى كما يقول ياقوت فى معجم البلدان : مدينة كثيرة البساتين عذبة الماء باردة الهواء ، أقطعها الرشيد عبد الملك بن صالح الهاشمى ، وفى ديوان البحترى مدائح كثيرة لابنه محمد ولطائفه من أسرته عاشت فى منبج وحلب .

وليس لدينا أخبار عن هيئته وصورته إلا ما رُوِيَ عنه فيما بعد من أنه كان أسمر طويل اللحية ، وقد نشأ فى أحضان عشيرته يتغذى من فصاحتها ويبدو أنه اختلف مبكراً إلى الكتّاب ، فحفظ القرآن أو شطراً كبيراً منه ، كما حفظ كثيراً من الأشعار والخطب ، واختلف حين شبَّ إلى حلقات العلماء فى المساجد يأخذ عنهم اللغة والنحو وشيئاً من الفقه والتفسير والحديث وعلم الكلام . واستيقظت فيه موهبة الشعر مبكرة ، وسرعان ما أخذ يكثر من نظمته فى بعض من عرفهم من عامة أهل بلدته أو كما يقول ابن خلكان من أصحاب البصل والبادنجان ، وامتد به طموحه فتجاوز به بلدته إلى بلاد أكبر من حوّلها ؛ إذ نراه ينزل حلب ، وهناك تعرّف على علوة بنت زريقة التى شغفته حبّاً ، ويبدو أن زريقة كانت مغنية ، وتعرّف أيضاً على صديق يسمى الذفانى مدحه ببعض شعره ، وهجاء فيما بعد لاقرانه بعلوة ، على شاكلة قوله^(١) :

نُبِئْتُهَا زُوِّجَتْ أَخَا خَنْثٍ أَغْنَى رَطْبَ الْأَطْرَافِ لَيْنَهَا

وظلت دار علوة قائمة بحلب ، حتى عصر ياقوت إذ يقول : « وفى وسط البلد "حلب" دار علوة صاحبة البحترى » . وقد يدل ذلك على يسار الذفانى وأنه شيد لها داراً فخمة . وظلت ذكرها لا تبرح ذاكرة البحترى حتى الأنفاس الأخيرة من

والفن ومذاهبه فى الشعر العربى (الطبعة السابعة - طبع دار المعارف) وديوانه بتحقيق حسن الصيرفى ومقدمته (طبع دار المعارف) .

(١) الديوان ٤ / ٢٣٢٥ .

= وتاريخ بغداد ١٣ / ٤٤٦ ، ومعجم الأدباء لياقوت ١٩ / ٢٤٨ ، وابن خلكان ، ومرآة الجنان لليافعى ٢ / ٢٠٢ ، وشذرات الذهب لابن العماد ٣ / ١٨٦ والنجوم الزاهرة ٣ / ٩٩ ، وحياة البحترى وفاته لأحمد أحمد بدوى ،

حياته . واتسع برحلاته إلى حمص ، وكأنما كان السَّعد معه على ميعاد ، فإذا هو يسمع بأن أبا تمام بها والشعراء يعرضون عليه أشعارهم ، فعرض عليه شعره ، فأقبل عليه ، وقال له : أنت أشعر من أنشدني فكيف حالك ، فشكا إليه خلَّة ، فكتب إلى أهل معرَّة النعمان : « يصل كتابي مع الوليد أبي عبادة الطائي وهو على بذاذته "سوء حاله" شاعر فأكرموه » واستقبلوه استقبالا حسنا ووظفوا له أربعة آلاف درهم^(١) . وفي رأينا أنه لم يصله بأهل معرة النعمان فقط ، فقد وصله أيضا ببعض ممدوحيه إذ نراه يقبل على بعض من خصَّهم بمدحهم فيمدحهم ، مثل آل حميد الطوسي في الموصل ، وخالد بن يزيد الشيباني وإلى أرمينية والثغور ، وأبي سعيد محمد بن يوسف الثغري الطائي الذي ولاه المعتصم حلب وثغور الشام والجزيرة ، وقد لزمه ولزم ابنه يوسف ، ويبدو أنه أول من اتصل بهم من ممدوحى أبي تمام . وتُخرج بعض الروايات ذلك مخرج القصص ، فتذكر أنه دخل عليه وأبو تمام عنده ، فأنشده قصيدته :

أأفاق صَبُّ من هَوَى فافيقا أم خان عهدًا أم أطاع شفيقا

فردَّها أبو تمام عليه من حفظه كأنها من نظمه ، وعرفه أبو تمام نفسه ، ولزمه البحري^(٢) . ونظن أن الرواة زادوا فيها أنه لم يكن يعرف أبا تمام ، فعرفته به أسبق من ذلك كما أسلفنا ، بل هو الذى حثه على مديح أبي سعيد الثغري ولقائه له وهو عنده . ولم يكتف أبو تمام بتقديم الشاعر الشاب إلى بعض ممدوحيه ، فقد مضى يتعهد شاعريته ، ويلقنه كيف يجيد الشعر ويحسنه ، حتى خرَّجه فيه شاعرا ممتازا راع معاصريه ، ويصرِّح بذلك البحري معترفاً بجميل أستاذه إذ يقول^(٣) :

« كنت في حدائتي أروم الشعر وكنت أرجع إلى طبع ، ولم أكن أقف على تسهيل مأخذه . . . حتى قصدت أبا تمام ، فانقطعت فيه إليه ، واتكلت في تعريفه عليه ، فكان أول ما قال لى : يا أبا عبادة تخيِّر الأوقات وأنت قليل الهموم صِفِر من الغوم . واعلم أن العادة في الأوقات أن يقصد الإنسان لتأليف شيء أو حفظه في وقت السحر ، وذلك أن النفس قد أخذت حظها من الراحة ، وقسطها من

(١) أخبار البحري ص ٥٦ ، والأغاني (٢) أخبار البحري ص ٦٣ ، والأغاني ١٦٩/١٨ .
(٣) زهر الآداب للحمصى ١٠١/١ .

النوم ، فإذا أردت النسب فاجعل اللفظ رقيقاً والمعنى رقيقاً ، وأكثر فيه من بيان الصبابة ، وتوجع الكتابة ، وقلق الأشواق ، ولوعة الفراق . وإذا أخذت في مدح سيد ذى أباد ، فأشهر مناقبه ، وأظهر مناسبه ، وأبن معاطه ، وشرف مقامه وتقاص المعاني واحذر المجهول منها ، وإياك أن تشين شعرك بالألفاظ الزرية .
وكن كأنك خيَّاط يقطع الثياب على مقادير الأجسام وإذا عارضك الضجر فأرح نفسك ، ولا تعمل إلا وأنت فارغ القلب . واجعل شهوتك إلى قول الشعر الذريعة إلى حسن نظمه ، فإن الشهوة نعم المعين . وجملة الحال أن تعتبر شعرك بما سلف من شعر الماضين ، فما استحسنته العلماء فاقصده ، وما تركوه فاجتنبه ترشد إن شاء الله تعالى .

وكأنما وضع أبو تمام نصب عيني البحرى دستوراً قوياً لإحسانه صناعة الشعر ، بل إن هذا بعض الدستور الذى وضعه ؛ إذ لا بد أنه أوصى البحرى وصايا كثيرة حتى يتقن صناعته . وهو فى هذا الجزء من وصاياه ينصحه أن يتخير أوقات إلهامه ، ثم يصف له الجودة التى يقوم عليها النسب والمديح جميعاً ، مع العناية بدقائق المعانى وجمال الألفاظ والأساليب ، ونظن ظناً أنه حين وجد فى تلميذه حسن الاستجابة ، واطمأن إلى أنه شاعر سيكون له شأن ، أخذ يعرفه لا على أهل معرفة النعمان فحسب ، بل أيضاً على ممدوحيه فى حلب والشام والجزيرة والموصل وأرمينية . وكاد محمد بن يوسف الثغرى بطل حروب بابل قديماً وحروب الروم حديثاً أن يستخلصه لنفسه ، وقد ظل يمدحه ويصف بلاءه فى الثغور حتى توفى سنة ٢٣٦ للهجرة ، وتغنى طويلاً بمدح كاتبه محمد بن عيسى القمى ، ويتحول إلى ابنه يوسف الذى خلفه على إمارته الأخيرة فى أرمينية وأذربيجان ويكثر من مدائحه . ونظن ظناً أن من أوائل مدائحه لأبى سعيد محمد بن يوسف الثغرى رائيته^(١) التى يعزیه فيها عن المعتصم حين توفى سنة ٢٢٧ للهجرة . ويبدو أن أبا تمام دفعه بعد هذا التاريخ لزيارة سامراء بعد أن وثق من براعته الشعرية ، إذ نراه ينزل بها ، ونرى أبواب الخليفة الواثق ووزيره ابن الزيات وكاتبه الحسن بن وهب مفتوحة أمامه ، وكأن صداقة أبى تمام للأخيرين

هى التى فتحت له سريعاً تلك الأبواب ، وإذا هو يَمَسُّهُلُ بين أيديهم جميعاً مادحاً ممجداً .

ويتولى الخلافة المتوكل سنة ٢٣٢ للهجرة ويعصف بابن الزيات ويظل البحرى بعيداً خوفاً على نفسه ، وخاصة أنه كانت قد جرت على لسانه بعض أبيات يتعصب فيها للمعتزلة وقولهم بأن القرآن مخلوق ضد أهل السنة من مثل قوله فى بعض الخارجين على أبى سعيد الثغرى :

يرمون خالقهم بأقبح فعلهم ويحرفون كلامه المخلوقا

وسأله سائل : أكنت معتزلياً ، فأجابه : « كان هذا دينى فى أيام النواثق ثم نزعته عنه فى أيام المتوكل ، فقال له : يا أبا عبادة ! هذا دين سوء يدور مع الدول ! » (١) . فقد نزع عن نفسه لعهد المتوكل ثوب الاعتزال الذى كان يدين به النواثق ووزيره ابن الزيات ، ولبس ثوب أهل السنة الذى فرضه المتوكل . وهو جانب سبى فى البحرى إذ كان متقلباً مسرفاً فى القلب ، يلتمس المنفعة لنفسه ما وجد إلى ذلك سبيلاً . على كل حال أحسَّ بادئ الأمر أن أبواب المتوكل موصدة من دونه ، ولكن ذلك لم يدفعه عن طريقه ، فقد أخذ يمدح بعض خاصته وخاصة وزيره الفتح بن خاقان وهو يحيى بن على المنجم ، الذى اشتهر بوصله الشعراء بهما وأخذهم الصلوات السنية منهما ، ووعد على أن يصله بالفتح ، ونراه يستنجز وعده فى بعض شعره (٢) ، وينجح على فى وصله بالفتح لسنة ٢٣٣ ويمدحه (٣) وينال جوائزه ، ولكن عينه لا تزال طامحة إلى مديح المتوكل ، ويلوِّح للفتح بطموحه ويعده الفتح ويتمعه به أن يبنى بوعدة فى غير قصيدة من مثل قوله (٤) :

وعدت فأوشك نُجَحَّ وعدك لانه من المجد إعجالُ المواعيد بالنُّجَحِّ
وأنت ترى نُصَحَ الإمام فريضة وإخباره عنى سبيلُ من النُّصَحِ

هب الدار ردت رجع ما أنت قائله
وأبدى الجواب الرابع عما تسأله
انظر الديوان ٣/ ١٦١٠ .
(٤) الديوان ١/ ٤٤٦ .

(١) أخبار البحرى للصول ص ١٢٢ .
(٢) الديوان ٢/ ١١٣٢ .
(٣) فى أخبار البحرى للصول ص ٨٣
لأن أول قصيدة مدح بها البحرى الفتح بن خاقان
لسنة ٢٣٣ هى :

وفتتح له المتوكل بيد الفتح أبوابه ، ويستمتع إليه وتتواتر صلاته وإقطاعاته عليه ، وكذلك إقطاعات الفتح وصلاته ، فقد كان ديوان الخراج إليه . ونراه يمدح الوزير الثاني للمتوكل عبيد الله بن يحيى بن خاقان ، ولم يكذب يترك أحداً من معاوني الفتح ومساعديه إلا مدحه ، فهو يمدح أبا نوح عيسى بن إبراهيم أحد كتّابه في دواوين الخراج وكان نصرانياً ، وكان نصرانيته لم تمنعه من مديحه ، وسنراه فيما بعد يكثر من مديح عبدون بن مخلد الراهب أخى صاعد وزير المعتمد . ويمدح أيضاً من كتاب الخراج والدواوين أعوان الفتح من أمثال أحمد بن المدير وأخيه إبراهيم ، ويظل يمدحهما طويلاً ، حتى بعد خروج أحمد للعمل في دواوين مصر والشام . وكان قد ترك زوجته في منبج وأنجب منها ابنة أبا الغوث فكان كثير الرحلة إلى مسقط رأسه ، ويبدو أنه كان يقضى في وطنه الصيف كله فراراً من حر العراق ولتفحّه ، يقول (١) :

نَصَبُ إِلَى طَيْبِ الْعِرَاقِ وَحُسْنِهَا وَيَمْنَعُ مِنْهَا قَيْظُهَا وَحَرُّوْهَا
هِيَ الْأَرْضُ نَهَوَاهَا إِذَا طَابَ فَصْلُهَا وَهَرَبُ مِنْهَا حِينَ يَحْمَى هَجِيرُهَا

وكان لا يترك وجيهاً ولا ولياً ولا صاحب خراج في طريقه من سامراء إلى منبج إلا ويقدم إليه مدائحه ويأخذ جوائزه ، من مثل بني حميد الطوسي الطائي وأبي سعيد الثغري وابنه يوسف صاحبي أرمينية وأذربيجان وآل عبد الملك بن صالح الهاشمي ، بل يبدو أنه كان يمد رحلاته في الشام فيمدح بعض العمال والولاة مثل مالك بن طوق صاحب دمشق والأردن وأبي مسلم الكجتي ، كما كان يمد رحلاته إلى بغداد وما وراءها من مدن العراق ، ونراه يكثر من مديح القائمين عليها من آل طاهر ، فهو يمدح منهم إسحق المصعبي ومحمد بن عبد الله بن طاهر الذي حكم بغداد منذ سنة ٢٣٧ ، وكذلك أخواه سليمان وعبيد الله ، وله في الأسرة شعر كثير . ومن أكثر من مديحهم لعهد المتوكل قائداه عبد الله بن دينار وابنه أحمد ، وإبراهيم ابن الحسن بن سهل وله فيه نحو عشر قصائد ، وله في الفتح بن خاقان تسع

وعشرون قصيدة، ومن عمال المتوكل الذين مدحهم دُليّل بن يعقوب النصراني ^(١) .
وتحوّل إزاء أعمال المتوكل وكل ما حدث في عصره إلى ما يشبه آلة راصدة ، فهو
يسجل لسنة ٢٣٥ عقده ولاية العهد لأبنائه الثلاثة : المنتصر والمعتز والمؤيد قائلاً ^(٢) :

قُدَّامَهُمْ نَوْرُ النَّبِيِّ وَخَلَفَهُمْ هَدْيُ الْإِمَامِ الْقَائِمِ الْمَحْمُودِ

ولا يترك نصراً على ثائر إلا ويدونه ، وكان بطارقة أرمينية خلعوا الطاعة وفتكوا
لسنة ٢٣٧ بيوسف بن محمد بن يوسف الثغري والى إقليمهم ، فوجه إليهم المتوكل
جيشاً سحقتهم سحقاً وألقوا عن يد وهم صاغرون ، ونوّه البحرى بهذا الانتصار
طويلاً . وكانت قد حدثت في أواخر العقد الرابع من القرن أو أوائل الخامس حروب
دامية بين قبائل ربيعة : تغلب وشيبان وغيرهما ، واستطاع الفتح بن خاقان أن يحقن
الدماء بينها وأن يردّها إلى الطاعة ، ومن الغريب أن لا تُعْنَى كتب التاريخ بهذا
الحدث العناية المنتظرة ، بينما نرى البحرى يسجلها ، وقد بلغ به الأسى أقصاه
إذ يرى هذه القبائل المنحدرة من أب وأصل واحد تفقد ما ينبغي أن يكون بينها
من البرِّ والعطف ، فإذا هي تفرع إلى السيف وإلى القوة والقهر وسفك الدماء ،
يقول ^(٣) :

وُفْرَسَانُ هِجَاؤٍ تَجِيْشُ صَدُوْرُهَا بِأَحْقَادِهَا حَتَّى تَضِيْقَ دُرُوْعُهَا
تَقْتُلُ مِنْ وَتَرٍ أَعَزَّ نَفْسُهَا عَلَيْهَا بِأَيْدٍ مَا تَكَادُ تَطِيْعُهَا
إِذَا احْتَرَبَتْ يَوْمًا فَفَاضَتْ دِمَاوُهَا تَذَكَّرْتُ الْقُرْبَى فَفَاضَتْ دِمَوْعُهَا
شَوَاجِرُ أَرْمَاحٍ تَقْطَعُ بَيْنَهُمْ شَوَاجِرُ أَرْحَامٍ مَكْلُومٍ قَطَوْعُهَا ^(٤)

فبعضهم يسفك دم بعض ويده لا تطاوعه ، والدماء تفيض والدموع تسيل
والرماح تقطع علائق الأرحام . وأعاد المتوكل ووزيره الفتح الأمر إلى نصايه من الأمن
والسلم ، فأغمدت السيوف وقرّت القلوب الخافقة ونامت العيون المسهّدة . ويشب
أهل حمص بعاملهم ^(٥) لسنة ٢٤٠ ويعودون إلى الوثوب والثورة في سنة ٢٤١ وينكل

(٤) الشواجر : المتشابكة المتداخلة .

(٥) تاريخ الطبرى ١٩٧/٩ وما بعدها .

(١) الديوان ١٦٨٩/٣

(٢) الديوان ٧٠١/٢

(٣) الديوان ١٢٩٩/٢

بهم المتوكل وسرعان ما يغفو عنهم ، ويسجل البحترى الحادث منوهاً بعفوه قائلاً (١) :

تداركت بالإحسان حمص وأهلها وقد قارفوا فعل الإساءة والخرق (٢)
وترسل تذورة إمبراطورة القسطنطينية إلى المتوكل لسنة ٢٤١ وفداً يطلب الفداء بين أسرى الروم والعرب ، ويستقبل الخليفة الوفد في حفل كبير يصفه البحترى ، ويطلق في وصف السباط الذي مُدَّ فيه وما علا وجوههم وسيامهم من ذهول وحيرة (٣) . وكان المتوكل قد فكَّر لسنة ٢٤٣ في أن يجعل دمشق حاضرة الخلافة حتى يبتعد عن سامراء ومنَّ بها من قواد الأتراك الطغاة ، ورحل إليها في سنة ٢٤٣ وتنبهوا لمقصده فعملوا على العودة به إلى سامراء واضطراً أن ينزل على إرادتهم ، ويذكر البحترى خروجه إلى دمشق وقدمه منها في غير قصيدة (٤) . ويأخذ منذ سنة ٢٤٥ في وصف قصوره التي سميت باسم المتوكلية والتي بلغت - كما مر بنا في الفصل الثاني - نحو العشرين ، وكان من أهمها البرج الذي عرضنا له هناك ، ويتوقف البحترى مراراً في مدائحه ليصف تلك القصور من مثل القصر المعروف بالجعفرى والصبيح والمليح وشبداز (٥) ، وما يزال ينوه بها مباهياً الأمم والشعوب . وفي قصر الجعفرى لقي المتوكل ووزيره الفتح مصرعهما لسنة ٢٤٧ تحت بصر البحترى وسمعه ، وهاله ما رأى ، مما جعله يرى المتوكل برائته زاعماً أنه دافع عنه بيديه ، ويسجل على ابنه المنتصر - كما مرَّ بنا في الفصل الماضي - اشتراكه في المؤامرة الباغية والفتك به ، قائلاً (٦) :

أكان ولي العهد أضمر غدره فمن عجب أن ولي العهد غادره

وحريُّ بنا أن نذكر أن البحترى لم يتورط مثل ابن الجهم في هجاء المعتزلة إرضاء للمتوكل ولا في هجاء العلويين ولا في هجاء النصارى . وأظلمت الدنيا في عينيه بعد مقتل المتوكل وصاحبه الفتح ، فخرج إلى المدائن يتعزى ، وهناك نظم

١٥١٤/٣ .

(٥) انظر الديوان ١٠٤١/٢ ، ٢٠٠٤/٣ .

(٦) الديوان ١٠٤٨/٢ .

(١) الديوان ١٥٤٦/٣ .

(٢) قارفوا : ارتكبوا . الخرق : الحق .

(٣) الديوان ١٦٠٢/٣ .

(٤) الديوان ٧٠٧/٢ ، ٧٠٩ ، ٩٩١٠ .

سينيته مودعاً فيها حزنه وأساه ، وعاد إلى سامراء وتركها إلى منبج وأهله . ودفعه الطمع إلى أن يعود إلى المنتصر سريعاً وأن يقف بباب وزيره أحمد بن الحصب متوسلاً إليه بكتابته الحسن بن مخلد حتى يقرّبه منه ويسترضيه له ، ويحييه إلى أمنيته ، فيعفو عنه المنتصر ، ويستمتع إلى قصيدته فيه ، وكان قد رفع المحنة التي أنزلها أبوه بالعلوين ودفع الأذى عنهم والتعرض لشيعتهم ، فأشار إلى ذلك البحترى منشداً^(١) :

وَأَلُّ أَبِي طَالِبٍ بَعْدَ مَا أَذِيعَ بِسِرِّهِمْ فَابْدَعَرُ
وَنَالَتْ أَدَانِيَهُمْ جَفْوَةٌ تَكَادُ السَّمَاءُ لَهَا تَنْفَطِرُ
وَصَلَتْ شَوَابِكُ أَرْحَامِهِمْ وَقَدْ أَوْشَكَ الْجَبَلُ أَنْ يَنْبَثِرَ

ويتوفى المنتصر بعد ستة أشهر من خلافته ويخلفه المستعين فيستبقى ابن الحصب في الوزارة ، وسرعان ما يغضب عليه قواد الترك فتُسْتَصْفَى أمواله ويُنفَى إلى جزيرة إقريطش (كريت) حيثئذ نجد البحترى يتنكّر له ، ويبالغ في تنكّره إرضاء للمستعين وقواده ، فيؤْلِيهم عليه ، ويحثهم - كما مرّ بنا في الفصل الماضي - على قتله قائلاً^(٢) :

لَا بِنَ الْخَصِيبِ الْوَيْلُ كَيْفَ انْتَبَرَى بِإِفْكِهِ الْمُرْدَى وَإِبْطَالِهِ

وهو جانب في البحترى لاحظته بعض معاصريه - كما مرّ في غير هذا الموضع - إذ تحدثوا عن كفره للإحسان وعدم وفائه ، حين يقلب الدهر مجنّه لبعض مملوحيه أو حين يسبق إليهم الموت ، فإنه بدلاً من أن يثير ذلك في نفسه ضرراً من الشفقة والرحمة ، يسارع إلى الوقوف مع خصومهم الجدد أصحاب الحكم والسلطان ابتغاء ما في أيديهم من المال والنفع ، ويضرب القدماء لذلك مثلاً موقفه من الخليفة المستعين إذ كان يمدحه ، وينال جوائزه حتى إذا خلعه قواد الترك وتولى المعتز الذي يرتجى نفعه أسرع إليه بقصيدة يمدحه فيها ويهجو المستعين هجاء مقذعاً بمثل قوله^(٣) :

(٢) الديوان ٢١٥/١ .

(١) الديوان ٨٥٠/٢ . اذبحر : تفرق .

(٢) الديوان ١٦٣٧/٢ .

بكى المُنْبَرُ الشرقُ إذ خَارَ فوقه على الناس ثُورٌ قد تَدَلَّتْ غَبَاغِبُهُ^(١)
فكيف رأيت الحقَّ قَرَّ قراره وكيف رأيت الظلم آلت عواقبه
وكان المعتر من أقرب الخلفاء إلى نفسه ، فأكثر من مديحه ووصف قصوره
وتسجيل الأحداث لزمته ، ومدح معه ابنه عبد الله وتوثقت بينهما الصداقة ، وما
سجله من الأحداث لعهدده وعهد المستعين قتل القائد التركي أتامش وكتابه شجاع^(٢)
لسنة ٢٤٩ و قتل بُغَا الشراي^(٣) قاتل المتوكل لسنة ٢٥٤ ونراه يمدح القائد التركي
وصيفاً^(٤) الكبير وابنه صالحاً^(٥) ويكرر حيثن تشوقه إلى وطنه ، ويستأذن مراراً
في الإلمام به . ويكثر من مديح الشاه ابن ميكال قائد المستعين ووزيره أبي صالح
محمد بن يزداد وابنه عبيد الله وأخيه القاسم . ويضطر قواد الترك المعتر إلى خلع
نفسه في سنة ٢٥٥ ويتولى المهتدي بعده الخلافة لنحو عام واحد ، ويغدو إليه
ويروح بقصائده مصوراً تقاه وزمده وانصرافه عن الملاهي ومتاع الحياة الزائل ونشره
للعدل في ربوع دولته وإذلال جيوشه للروم ونزولهم على إرادته صاغرين . وسرعان
ما ثار عليه الأتراك وخلعوه وولوا بعده المعتمد ، وهو آخر الخلفاء الذين مدحهم
البحترى ، وكان الخليفة الحقيقي لعهدده أخاه الموفق ، وكان حازماً شجاعاً واسع
التدبير ، وهو الذى قضى على ثورة الزنج وهزم يعقوب الصفار الثائر بلميران
هزيمة ساحقة . ويصور البحترى في مديحه للمعتمد بأس جيوشه وانتصاراتها
الحربية ، ويصف القصر الذى احتفل ببناؤه وسماه المعشوق ونوه به ، وله قصيدة
رائعة يهنئ فيها الموفق بقمعه لثورة الزنج ، وفيها يخاطبه بقواه^(٦) :

أخذت بوتر الدين مثنى وظفرت يداك فلم يفلت عدو تطالبه
ولم يترك حيثن وزيراً ولا كاتباً كبيراً إلا ويمدحه ويأخذ جوائزه ، وكان
المعتمد استوزر عبيد الله بن يحيى بن خاقان الذى وزر قديماً لأبيه المتوكل ، فازمه
البحترى ، وفكر في أن يرجع منه الضياع الكثيرة التى كان المتوكل أقطعها إياه ؛
فأكثر الشاعر من التوسل إليه ، حتى يتركها له ، وقصيدته^(٧) :

- (١) خار : صاح . الفباغب : ماتقضن
من الجلد في منبت المثنون أو اللحية حول النقن .
(٢) الديوان ٥٢٤/١ .
(٣) الديوان ٢٠١٩/٣ .
(٤) الديوان ١٤٠٣/٣ .
(٥) الديوان ٢١٧٤/٣ .
(٦) الديوان ٢٢٤/١ .
(٧) الديوان ٤٩٣/١ .

أمرتَجعُ مني حباءُ خلائِفِ توليتُ تسييرَ المديحِ لهم وحدي

تصور جزعه المفرط ، ويتوفى عبيد الله سنة ٢٦٣ ويخلفه الحسن بن مخلد ، فيمدحه بقصائد مختلفة شاكياً ضارِعاً ، فيجعل أمره إلى كاتبه السبيي ، ولا يسارع إلى استرضائه ، فيشكوه إلى ابن مخلد بحائثه ^(١) :

لَكَ الْخَلَائِقُ فِينَا السَّهْلَةُ السُّمْحُ وَالنَّيْلُ يَسْلُسُ لِلرَّاجِي وَيَنْسِرِحُ

ولا يكاد يسمعها الحسن حتى يبلغ بالبحري ما يريد ، ويزيل المطالبة عنه ^(١) . ويترك الحسن الوزارة سريعاً ويتولاها سليمان بن وهب الذي استوزره المهتدي من قبل ، ويقدم إليه البحري مدائح ، ويعصف به الموفق في سنة ٢٦٥ فيحبسه ويصادر أمواله . ويخلفه على الوزارة أحمد بن صالح بن شيرزاد لمدة شهر واحد ، والبحري فيه مدائح مختلفة ، ويلى الوزارة بعده أبو الصقر إسماعيل بن بلبل بينما يلى الكتابة للموفق صاعد بن مخلد ، ويكثر البحري من مديح ابن بلبل ، ويهجو له في بعض مديحه ابن شيرزاد الذي طالما مدحه ، ويمدح كاتبه جرادة على حين يذم كاتباً آخر كان نصرانياً يسمى إسرائيل ، ويلج على ابن بلبل في قصائد كثيرة أن يأذن له بالرحيل إلى موطنه بمثل قوله ^(٢) :

وَأَعْتَقْتَ الرُّقَابَ فَمُرْ بِعَتَقِي إِلَى بَلَدِي وَأَنْتَ بِهِ جَدِيرُ

وأكثر حينئذ من مديح صاعد بن مخلد كاتب الموفق ، وكان من وجوه النصاري ، وحين استكتبه الموفق أعلن إسلامه وله فيه وفي أخيه عبدون الراهب وابنه أبي عيسى العلاء مدائح كثيرة . وكان أبو عيسى مثقفاً ثقافة واسعة بعلم الفلك ، مما جعل البحري يكثر له في إحدى مدائحه من ذكر النجوم ^(٣) . ومن كبار الكتّاب الذين مدحهم حينئذ أبو العباس أحمد بن ثوبة صاحب ديوان الرسائل . وفي أثناء ذلك كان يمدح كثيرين من العمال والولاة وأصحاب الخراج والكتّاب والقواد مثل وصيف الصغير وأذكو تكيين والهيثم بن عبد الله التغلبي وإلى الموصل وأحمد بن محمد بن بسطام وإلى الشام وسيا الطويل وإلى حلب والعواصم ورافع بن هرثمة وإلى الري

(١) الديوان ٤٣٨/١ وأخبار البحري

(٢) الديوان ٩١٦/٢

(٣) الديوان ١٢٦٨/٢

وكتاب الجبل وأنفذ إليهم ذات مرة غلامه نصرأ ليطالبهم برسومه^(١) . ومن كان يمدحهم كثيراً أبو جعفر أحمد بن محمد الطائي وإلى الكوفة وآل نوبخت . وكان كثير الإلمام ببغداد ، وعُني بمدح كثيرين من آل طاهر حكاًمها كما مرّ بنا ، كما مدح بعض أعيانها وعلمائها مثل عبد الله بن الحسين بن سعد القطريلي والمبرد النحوي ، ومدح عبيد الله بن خرداذبة الجعفي صاحب البريد بناحية الجبل . ويبدو أن أصحاب الخراج عادوا يتعقبون البحري ويطالبونه بخراج إقطاعاته الكثيرة ، مما جعله يسأل ابن بلبل المعونة في خراجه ، كما يسأل المعتمد نفسه قائلاً^(٢) :

أخشي الخراجَ وقد دعوتُ لعُظمه ملكَ الملوك ورافد الرقاد

ومضى عمال الخراج يشقلون عليه ، وهو كل يوم يمشلُ بين أيديهم شاكياً ملحاً في أن يحطّوا عن كاهله ما يطلبونه منه ، ولا يكاد يظفر بما يبتغي منهم ، فيفكر في مبارحة العراق ، ويمدح ابن طولون صاحب مصر والشام حينئذ ويصرّح في مدحه له بما في نفسه قائلاً^(٣) :

فأصبحتُ في بغدادَ لا الظلُّ واسعٌ ولا العيشُ غُضٌّ في غُضارته رطبٌ
أأمدح عُمالَ الطّساسيجِ راغباً إليهم ولي بالشام مُستمتعٌ رغباً^(٤)

وكل شيء يؤكد أن البحري كان قد أثرى ثراء فاحشاً منذ عصر المتوكل ، فإنه نثر عليه أموالاً جمّة وإقطاعات عديدة ، بالإضافة إلى ما أغدق عليه الفتح بن خاقان وغيره من رجال الدواوين ، وخاصة آل المدبر وفي مقدمتهم إبراهيم ، وكان هو وأخوه أحمد من كبار الموظفين في دواوين الخراج والضياع ، ويقول الصولي إنه كان يوجب على إبراهيم في كل سنة أن يسقط أكثر خراجه أو يؤديه عنه ، وإنه استأجره مرة لشراء ضيعة فلامه لكثرة ضياعه ، وقال له : تكفيك ضياعك فقد

(٤) الطساسيج : الإقطاعات والضياع ،

ويقال إن سواد العراق كان مقسماً إلى ستين

طسوجاً . رغب : متسع .

(١) الديوان ١٨٥٦/٣ .

(٢) الديوان ٧٣٤/٢ .

(٣) الديوان ١٢٣/١ .

كثرت وعظمت ، غير أن البحترى تهادى فى إلحاحه عليه ، وأنشده قصيدته التى يقول فيها^(١) :

وما زالت العيس المراسيلُ تنبِرى فيُقضى لدى آل المدبر حَاجُها^(٢)
ولم لا أعالى بالضياح وقد دنا على مداها واستقام اعوجاجُها
إذا كان لى ترريعُها واغتلاها وكان عليك عُشرُها وخراجُها^(٣)

فأمر له بالمال الذى يشتري تلك الضيعة به^(٤) . وكلما تقدمنا مع البحترى فى الزمن بعد المتوكل زادت ضياعه ، وقد وصلته من المعتز ضياح وأموال كثيرة ، وهو مع ذلك لا يزال يلح عليه بالطلب حتى ليستهديه خاتم ياقوت ويهديه إليه^(٥) . وكان المعتز قد أهدى إلى ابنه عبد الله إقطاعاً جاوره البحترى فى بعضه ، وكأنه لم يكتف بما صار فى يده ، فقد مضى يسأل عبد الله أن يهب له من إقطاعه الضيعة التى تجاوره ، وتشفع إليه بأبيه وصنع فى ذلك أشعاراً ، منها قوله للمعتز :

يا واحدَ الخلفاء غيرَ مدافعٍ كرمًا وأحسنهم ندَى وصنيعا

فاتجه إلى ابنه عبد الله قائلاً له : اقض حاجة البحترى ، فوهبها له^(٦) . وتظل عنده شهوة تملك الضياح والإقطاعات ؛ إذ نراه يطلب من صاعد بن مخلد إقطاعاً^(٧) ومن ابنه أبى صالح ضيعة^(٨) ومن سليمان بن عبد الله بن طاهر حين أصبح حاكماً لبغداد إقطاعاً^(٩) . ويكثر عنده أن يسأل ممدوحيه أفراساً^(١٠) وسيوفاً^(١١)

أنه أمر بأن يزور بلده على خيل البريد

الرسمى . انظر الديوان ١٥٣٦/٣ .

(٦) أخبار البحترى ص ١٠٥ والديوان

١٣٠٩/٢ .

(٧) الديوان ١٥٢٤/٣ .

(٨) الديوان ١٠٠٨/٢ .

(٩) الديوان ٢٠٤١/٣ .

(١٠) انظر الديوان ٣٩٩/١ ، ٣/

١٤٨٥ ، ١٧٤٤ ، ١٩٨٩ ، ٢٠٣٠ .

(١١) الديوان ١٧٤١/٣ .

(١) الديوان ٤٢٧/١ .

(٢) العيس : الإبل . المراسيل : النوق

السهلة السير .

(٣) التريع : الإنماء . والعشر : عشر

الثمار وهو الخراج المفروض .

(٤) أخبار البحترى للصوى ص ١١٩ .

(٥) انظر التحف والهدايا للخالدين نشر

سامى الدهان ص ٧٣ ، وزهر الآداب ٩٧/٣ ،

وأخبار البحترى ص ١٠٨ وقد عدد فى القصيدة

عطايا المعتز له من الدنانير والخلع وكيف

وشراباً^(١) وثياباً^(٢) وغلماً^(٣) . وبذلك نستطيع أن نوفق بين شُحِّه وما يقال من أنه كان يمشى في موكب من غلمان^(٤) ، فقد كانوا جميعاً هبات من ممدوحيه ، وخصَّ نسيمًا من بينهم بغزل كثير ، وكان قد أهداه إليه محمد^(٥) بن عيسى القمي كاتب أبي سعيد الثغري ، وفي الأغاني « أن البحترى جعله باباً من أبواب الحيل على الناس فكان يبيعه ويتعمد أن يصيِّره إلى ملك بعض أهل المروءات ومن يستنقُ عنده الأدب ، فإذا حصل في ملكه شبَّب به وتشوَّقَه ومدح مولاه حتى يهبه له ، ولم يزل ذلك دأبه حتى مات نسيم فكُنِيَ الناس أمره »^(٦) . وقد يكون أبو الفرج مبالغاً في ذلك ، فإنه لم يثبت أن أحداً اشتراه سوى إبراهيم بن الحسن بن سهل ، وقد مدحه بأشعار كثيرة يصور فيها ندمه ، فردّه عليه^(٧) ، وأهل في ذلك كله ما يصور مدى ثراء البحترى من جانب وشدة طمعه من جانب آخر ، وقد ظلَّ يُلْحِفُ في سؤال العطاء والضياع فكان طبيعياً أن يلفت إليه أنظار معاصريه ، وحتى الخراج أو عشر الثمار كان ما ينبي يحتال في التخلص منه بالتضرع إلى وزير أن يدفعه عنه أو إلى كاتب كبير مثل إبراهيم بن المدبر . ويفكر في الإفادة من أحمد بن طولون — كما مرَّ بنا في غير هذا الموضع — فيمدحه لسنة ٢٦٩ وبمدح بعض كتابه وقواده مثل عفاص ويونس بن بُغْغَا وجعفر بن عبد الغفار ومحمد بن العباس الكلّابي . ويُسَوِّقُ ويخلفه ابنه أبو الجيش خمارويه لسنة ٢٧٠ وترى البحترى في بعض قصيده^(٨) يجمع بين مديحه ومديح أبي الصقر إسماعيل بن بابل وزير المعتمد . وفي سنة ٢٧٢ يغضب الموفق على صاعد كاتبه ويقبض عليه وعلى ابنه أبي عيسى العلاء وأبي صالح وعلى أخيه عبدون ويصادر جميع أهوالهم وأسبابهم^(٩) ، ويتوفى أبو عيسى العلاء في الحبس بعد ثلاثة عشر يوماً ويكتب البحترى ، ويرثه بقصيدة يقول فيها^(١٠) :

- | | |
|----------------------------------|-------------------------------------|
| (١) الديوان ١/ ٤٠٧ ، ٤٢٧ ، ٤٩١ ، | بالعمدة لابن رشيق ٢/ ١٥٠ . |
| ٥٥٩ ، والأغاني ١٨/ ١٧١ . | (٥) الديوان ١/ ٥٢٧ . |
| (٢) الديوان ٢/ ٨٣٧ ، ٨٩٢ وأخبار | (٦) الأغاني ١٨/ ١٧١ . |
| البحترى ص ١١٥ . | (٧) أخبار البحترى ص ١٢٧ وما بعدها . |
| (٣) انظر مثلاً ٢/ ٩٨٦ ، ١٠٦٧ ، | (٨) الديوان ٢/ ٩٠٩ . |
| ١٤٨٥/٣ . | (٩) تاريخ الطبري ١٠/ ١٠ . |
| (٤) راجع الأغاني ١٨/ ١٧٠ وقابل | (١٠) الديوان ٣/ ١٥٥٣ . |

ولم أرَ كالدنيا حَلِيلَةً وَاَمَقَ مَحَبٍّ مَتَى تَحُسِّنُ بَعِينِيهِ تَطْلُقُ
تَرَاهَا عِيَانًا وَهِيَ صِنْعَةٌ وَاحِدٍ فَتَحْسِبُهَا صُنْعِي لَطِيفٍ وَأَخْرَقِ

وحين سمع بعض خصومه البينين شَسَّعُوا عليه بأنه تَشَوَّى يؤمن بإلهمى النور والظلمة ، وشاع ذلك في عامة بغداد وكانت غالبية عليها حينئذ ، فخافهم البحترى على نفسه وخرج إلى منبج . ويبدو أن إقامته بها لم تطل وأنه عاد منها إلى سامراء وبغداد بعد حين إذ يحكى الصولى أن أول ما رأى البحترى سنة ٢٧٦ بمجلس المبرد في مسجده ببغداد . ونظن ظننا أن رحلاته إلى العراق لم تنقطع إلا بعد قبض الموفق على صديقه إسماعيل بن بلبل سنة ٢٧٧ وكأنما كانت هذه الحادثة سبباً في أن يصمم على مبارحة العراق إلى الأبد . وربما ولَّى وجهه حينئذ نحو مصر وصاحبها خمارويه^(١) ، ويبدو أنه كان يلقاه في رحلاته بالشام ، ثم مدَّها إلى مصر للقائه . ويؤكد نزوله بها كثرة مدائحه لكاتب خمارويه إسحق بن نصير . غير أنه كانت عكته كسيرة فلم يقيم بمصر طويلاً وعاد إلى منبج ، وظل بها سنواته الأخيرة حتى لبى نداء ربه لعام ٢٨٤ .

وكان البحترى يأخذ بمحفوظ مختلفة من الثقافة الإسلامية والعربية في عصره ، وليس معنى ذلك أنه تخصص في أحد فروعها ، ولكنه كان يلم بها ، إذ كانت حلقاتها مفتوحة للمصادر والوارد في جميع أنحاء العالم العربي حينئذ ، ويرمز إلى ذلك في شعره أننا نراه فيه يعرض لبعض اصطلاحات علم الحديث ، إذ يقول في مديحه لإبراهيم بن الحسن بن سهل^(٢) :

خُلِقَ أَتَيْتَ بِفَضْلِهِ وَسَنَائِهِ طَبْعاً فَجَاءَ كَأَنَّهُ مَصْنُوعٌ
وَحَدِيثٌ مَجْدٌ عَنْكَ أَفْرَطَ حُسْنُهُ حَتَّى ظَنَنْتَ أَنَّهُ مَوْضُوعٌ

وفي ذلك ما يؤكد صلته بالدراسات الإسلامية لعصره من حديث نبوي وتفسير وفقه ، وبالمثل كان على صلة بالدراسات العربية من تاريخية ولغوية ونحوية ، وهذا طبعه لأنه أعد نفسه ليكون شاعراً مرموقاً ، فكان لا بد له أن يتزوّد من اللغة ومن

(١) النجوم الزاهرة ٩٧/٣ .

(٢) الديوان ١٣١٦/٢ .

النحو ومن التاريخ العربى الإسلامى ، ونراه فى بعض شعره يعرض لعالم لغوى فى عصره هو الفضل بن محمد اليزيدى ، رآه يزرى على جميل وكثير ، فيقول إنه لا علم له بالشعر ، وكل علمه إنما هو التعمق فى الفاعل والمفعول (١) .

وكان لا يبارى فى ثقافته بالشعر ، مما جعله يضع فيه ديوان حماسة مشاكلة ومشابهة لأستاذه أبى تمام فى حماسته المشهورة ، ويقول ابن النديم إن له كتاباً ثانياً فى معانى الشعر ، غير أن هذا الكتاب سقط من يد الزمن . والكتاب الأول كاف فى تصور إكبابه على الشعر القديم إكباباً منقطع النظير . وبالمثل كان يكب على دواوين الشعراء المحدثين ، مما أتاح له ثقافة شعرية واسعة . ولكن هل نستطيع بذلك كله أن نقول إن البحرى كان مثقفاً بالثقافة الحديثة لعصره وما يتصل بها من علوم الأوائل ؟ حقاً له قصيدة ، كما أسلفنا ، أكثر فيها من ذكر النجوم ، ولكن هذا لا يعنى أنه كان ملماً بعلم الفلك والنجوم لعصره ، فقد كان منصرفاً عن هذا العلم وغيره من علوم الأوائل . وكان إذا ألم بها يلم من الظاهر إن صح هذا التعبير ، فهو لا يتعمقها أو هو بعبارة أدق لا يستطيع أن يتعمقها إذ كانت نشأته نشأة بدوية كما لاحظ القدماء ، وإن كان قد تحضر فيما بعد ، ولكنه ظل بعيداً عن الفقه بالثقافة الحديثة ، وخاصة الثقافة الفلسفية والمنطقية .

وكانت قد أخذت تتكوّن فى النقد والبلاغة — كما أشرنا إلى ذلك فى غير هذا الموضع — ثلاث بيئات : بيئة محافظة مسرفة فى المحافظة ترى أن الشعر ينبغى ألا يقاس إلا بالمقاييس العربية الخالصة ، وهى بيئة اللغويين ، وبيئة مجددة مسرفة فى التجديد ترى أن يقاس الشعر بمقاييس البلاغة اليونانية ، وهى بيئة المتفلسفة ، ممن كانوا يترجمون عن اليونان أو يقرءون ما ترجم عنهم ، وبيئة معتدلة ، فهى لا تحافظ محافظة اللغويين ولا تجدد تجديد المتفلسفة ، بل تقف موقفاً وسطاً ، فهى تقرأ ما يترجم وهى تنظر فيما أثير عن العرب من ملاحظات بلاغية ، ثم تحاول أن تنفذ من ذلك إلى مقاييس للبلاغة العربية تزنّها موازين دقيقة ، وهى بيئة المتكلمين ، على نحو ما نعرف عن الجاحظ فى كتابه البيان والتبيين ، وانحاز الشعراء غالباً إلى البيئتين المحافظة والمعتدلة ، وقلما انحاز أحد منهم إلى البيئة الثالثة

(١) الديوان ٣/ ١٨١٧ وما بعدها .

لأنها كانت تجافى الذوق العربى . غير أن هذه البيئة أخذت تشنّ حملات شعواء على بيئة المحافظين وخاصة على مثلها البحرى الذى لم يكن يتقن الثقافة الفلسفية ، ونرى بعض من يمثلون البيئة المعتدلة ينضمون إلى هذه الحملة بعامل المنافسة بينهم وبين البحرى وفى مقدمتهم ابن الروى . وكانت قد ساءت العلاقة بين البحرى وعبيد الله بن عبد الله بن طاهر صاحب شرطة بغداد ، ونظن ذلك حدث فى بعض فترات عزله عن وظيفته ، وسارع البحرى فلمسح إليه فى بعض شعره بما يشبه الذم ، وردّ عليه عبيد الله بمدّه صديقه ابن الروى بأشعار ملتبهة ، ويبدو أنهما ندّدا بضعف ثقافة البحرى وأنه لا يعرف فلسفة ولا منطقاً ، مما جعله يهجو عبيد الله بياثية يقول فيها ^(١) :

كلّفتُمونا حدودَ منطقكم والشعرُ يغنى عن صدقه كذبُهُ
ولم يكن ذو القُروحِ يلهجُ بالـ منطق ما نوعُهُ وما سببُهُ
والشعرُ لمنحٌ تكفى إشارته وليس بالهذر طُولتْ خطبُهُ

وحقاً لم يكن امرؤ القيس الملقّب بذى القُروح يعرف فلسفة ولا منطقاً لا لأنه صدّ عن ذلك ، ولكن لأن عصره كله لم يكن يعرفهما ، ولو أنه تأخر به الزمن إلى عصر البحرى لعكف على الفلسفة والمنطق كما عكف ابن الروى وأضرابه وغدّى بهما شاعريته غذاء رقيقاً . وهو يلمسح فى الشطر الأخير إلى ابن الروى وما اشتهر به من مطولات شعره .

وقد ساعد الذوق المحافظ الذى ساد فى العصر — كما أشرنا إلى ذلك مراراً — إلى أن ترجح كفة البحرى المحافظ كفة ابن الروى المجدد ، وأن يقف فى صفّه لا علماء اللغة وحدهم من أمثال المبرد بل كثرة كثيرة من الشعراء ، على حين كان ابن الروى يعيش لعصره فيما يشبه عزلة من معاصريه مع تفوقه على زميله تفوقاً واضحاً بملكاته الشعرية الخصبية ، ولكنه لم يكن يحتفظ للشعر بصياغته الموروثة وتقاليدها على نحو ما يحتفظ البحرى ، فوقع بعيداً عن ذوق الكثرة الغالبة من الشعراء والنقاد .

وليس معنى ذلك أن البحترى انفصل تماماً عن روح العصر ، فقد كان يلائم بين شعره وبين تلك الروح عن طريق ثقافة واسعة بشعر أستاذه أبي تمام وشعر من سبقوه ... أمثال مسلم وأبي نواس وبشار، المرة تلو المرة ، والمرات تلو المرات ، حتى أصبح ذلك جزءاً لا يتجزأ من جوهر شعره ، ولذلك نعتة معاصروه طويلاً بأنه يغير على أشعار من سبقوه فيسلبها لنفسه ، وفي ذلك يقول ابن الرومي لأبي عيسى العلاء بن صاعد حين نشر الأمن في ربوع بغداد^(١) :

أيسرق البحترى الناس شعرهم جَهراً وأنت نكّال اللصّ ذى الرّيبِ

وأهم ديوان ألحّ على تمثله ديوان أستاذه أبي تمام ، ولاحظ ذلك كله القدماء فأفردوا سرقاته بالبحث ، وكان أول من عُنِيَ بذلك عنده معاصره أحمد بن أبي طاهر ؛ إذ استخرج له ستمائة بيت ردها إلى أصولها عند الشعراء وخاصة عند أبي تمام ، وقد بلغ ما سلبه منه في رأى ابن أبي طاهر مائة بيت . وتلاه بشر بن تميم بمصنف ذكر فيه سرقاته من أبي تمام ، وعليه اعتمد الآمدى في الفصل الذى عقده لهذا الجانب من سرقات البحترى . وفي رأينا أنه استطاع بذلك أن يتلافى نقص ثقافته الحديثة ، فقد خالط الشعراء المحدثين وخاصة أبا تمام مخالطة نادرة ، بحيث تمثل المعانى والأخيلة الحديثة ، بل قل بحيث استخلصها لنفسه ، وأخذ يصدر عنها كما يصدر الضوء عن الشمس والشذى عن الزهرة . وحقاً أنه يوجد بون بعيد بين عرض هذه الأخيلة والمعانى عنده وعند أبي تمام ، فقد كان أبو تمام يغمس أفكاره وأشعاره في ليقة المنطق ، فإذا القصيدة عنده توشك أن تتحقق فيها الوحدة العضوية ، فالمعانى والصور يتولد بعضها من بعض ولا خنادق ولا ممرات بين الأبيات ، على حين تكثر هذه الممرات والخنادق عند البحترى ، ولاحظ ذلك القدماء فقالوا إنه لا يحسن الخروج من موضوع إلى موضوع في الشعر^(٢) ، لسبب بسيط وهو أنه لم يكن يخضع في شعره للمنطق على نحو ما صرّح بذلك آنفاً . وظاهرة ثانية هى أنه جارى أستاذه في

(٢) العمدة لابن رشيق ١/ ١٥٩ .

(١) ديوان ابن الرومي (نشر كامل

كيلانى) ص ٣٥ .

الاحتفال بألوان البديع واستظهارها في أشعاره ، ولكن حين نقرن أى لون عنده إلى أصله عند أبى تمام سنجد مفارق واسعة ، فأبو تمام مثلاً ينجح إلى استخدام نوافر الأضداد في أشعاره كما مر بنا في كتاب العصر العباسى الأول ، ولم يكن البحرى يستطيع أن يتعمق هذا التعمق ولذلك نراه يكتفى بالطباق بحيث إذا ذكر الوصل مثلاً ذكر معه المهجر ، وإذا ذكر الدل ذكر معه الكبر ، وإذا ذكرت السهولة ذكرت معها الوعورة ، وإذا ذكرت الحرية ذكرت معها العبودية . ولون آخر يتعمقه أبو تمام هو الاستعارة على نحو ما مر بنا أيضاً في حديثنا عن العصر العباسى الأول ، ولم يكن البحرى يتعمق هذا اللون تعمقاً من شأنه أن يبعده عن الذوق القديم ، ولذلك كله قال النقاد إنه يحافظ على عمود الشعر العربى^(١) ، يريدون محافظته على أصوله الموروثة ، ومن تنمة ذلك عنده أنه لم يكن يكثر من ألوان البديع إكثار أبى تمام ، ولا كان يستطيع أن يتغلغل في دقائق الفكر والأخيلة على نحو ما كان يتغلغل أبو تمام بحكم ثقافته الفلسفية ومواردها التى لا تنضب في أشعاره ، ولذلك كان يشيع في أشعاره الغموض ، مما جعل القدماء يختلفون في فهم كثير من أبيانه وتفسيرها وتأويلها ، لكثرة ما توحى به من معان ، وهو اختلاف لا يضيع منك هباء ، بل إنك تجد في أثنائه ما يشبه أقواس قزح ممتدة في أشعاره ، وهى أقواس بهيجة ، تزهى بالفكر العميق والخيال الواهم البعيد .

ولكن إذا كان البحرى لم يستطيع أن يحقق لنفسه هذا المدى الرائع من الشعر والفن ، بسبب ضعف ثقافته الفلسفية ، فإنه استطاع أن يحقق لنفسه مدى مقابلاً لا يقل روعة ، وهو مدى الجمال الصوتى البديع ، بحيث استطاع أن يرتفع باصطفاء الكلمات والملاءمة بينها في الجرس بل بين حروفها وحركاتها . ملاءمة رفعت إلى مرتبة موسيقية لم يلحقه فيها سابق ولا لاحق ، وكأنما كانت له أذن داخلية مرهفة ، تقيس كل حرف وكل حركة وكل ذبذبة صوتية ، فإذا به ينظم شعراً مصنفى مروقاً ، شعراً يلذ الألسنة والآذان والأذهان لذة لا تعادها لذة . وقد وقفنا طويلاً عند هذا الجانب في الفصل الثانى من كتابنا « الفن ومذاهبه في الشعر العربى » وأوضحنا مدى مشاكلمته بين أصوات الألفاظ والقوافى في بعض القصائد وموضوعاتها كما أوضحنا

مدى التوافق الصوري عنده بين الحروف والكلمات والحركات والسكنات ، وكأنما أعطت الموسيقى الشعرية كل مفاتيحها وكل أسرارها للبحترى ، فإذا هو يوقع على قيثارته أروع ألحان عرفتها العربية^(١) . وبذلك استطاع أن يتلافى بقوة قصوره الثقافى ، فإذا هو يوضع على قدم المساواة مع أبى تمام ، وإذا النقاد يتقابلون فى صفّين : صفّ يرفع أبا تمام إلى الذروة ، وهم المتفلسفة ومن يعنون بالتعمق فى المعانى والأخيلة ، وصف يرفع البحترى إلى نفس المرتبة ، وهم أصحاب الآذان المرفهة الذين يكبرون اللذة الصوتية ، وكان ينضم إليهم طوائف من المحافظين واللغويين ، وكان البحترى نفسه إذا سئل عنه وعن أبى تمام قال : جیده خير من جیدى وردیئى خير من ردیئہ ، وهو يريد بجید أبى تمام معانیہ وأخیلته الدقیقة التى لم یکن أحد من أهل زمانہ یستطیع أن یخلق فى آفاقها ، أما ردیئہ فیرید به بعض أبیاتہ التى یضطرب فیها اللفظ لأنه لم یکن یُعنى بألفاظه وأصواته عناية البحترى .

والمديح أهم موضوع استنفذ شعر البحترى ، فقد عاش ، كما مرّ بنا ، يمدح الخلفاء العباسيين من المتوكل إلى المعتضد ووزرائهم ولانهم وقوادهم وكتائبهم ، وكأنما وقف نفسه على الإشادة بالدولة ورجالاتها ، بحيث يُعدّ الشاعر الرسمى لها ، وكان طبيعياً لذلك أن ينتصر للعباسيين ضد خصومهم العلويين ، وأن يتغنى بذلك فى أشعاره ، حتى يثبت ولائه لهم وأنه يقف فى صفوفهم مدافعاً عنهم مناضلاً بمثل قوله للمتوكل^(٢) :

شرفاً بنى العباس إن أباكم عمّ النبیّ وعيضة المتفرع
إن الفضيلة للذى استسقى به عمرٌ وشُفّع إذ غداً يستشفّع
وأرى الخلافة وهى أعظم رتبة حقاً لكم ووراثه ما تنزع
أعطاكموها الله عن علمٍ بكم والله يعطى من يشاء ويمنع

فالعباس جلد العباسيين وعم الرسول صلى الله عليه وسلم من العيص ومنبت الشجر الضخم ، يريد أنه من الأصول بينما على بن أبى طالب من الفروع ، ويستدل على

(٢) الديوان ١٣١١/٢ .

(١) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى (الطبعة السابعة - نشر دار المعارف) ص ٧٧ وما بعدها .

فضله بأن عمر استسقى به في عام الرمادة حين أصاب الجزيرة القحط مستشفعاً به
 لربه ، ولم يَسْتَسْقِ بَابْنِ أَبِي طَالِبٍ ، ويشير إلى حكم الميراث في الإسلام
 وما فرضه من حَسَبِ الْعَمِّ لابن أخيه ، فالخلافة حق من حقوق العباسيين ، كما
 تقرر ذلك الشريعة الإسلامية ، وليس لأبناء علي وحفدته أى حق في منازعتهم .
 ويكرر البحتري في مديحه للمتوكل وغيره من الخلفاء العباسيين تقواهم ، وعلمهم
 الذى ينشرونه في ربوع الدولة ، ومدى رعايتهم للأمة ورفقهم بها ورقتهم لها وكيف
 يقومون على حمايتها بجنودهم وجموعهم الجرارة . وكان ينتهز كل فرصة ليدبج
 قصائده فيهم ، فن ذلك قصيدته في وصف موكب المتوكل في أثناء خروجه لأداء
 الصلاة في عيد الفطر ، وقد صور في فاتحتها قوة الإسلام حينئذ مجسمة في جيش
 ضخم كان يحفّ بالمتوكل وكأنه جبال تتحرك ، فترجف الأرض وتهتز لضخامته
 وعدده الكثيفة ، ويتحدث عن جلال الموكب وما استدار حول المتوكل من هالات
 قدسية ومن محبة للشعب وإعظام ، يقول (١) :

افتنّ فيك الناظرون فإضْبَعُ يُومَى إِلَيْكَ بِهَا وَعَيْنٌ تَنْظُرُ
 يجدون رويتك التى فازوا بها من أنعم الله التى لا تُكْفَرُ
 ذكروا بطلعتك النبىّ فهلّلوا لما طلعت من الصفوف وكبروا
 حتى انتهيت إلى المصلّى لأبساً نور الهدى يبدو عليك ويظهر
 فلو أنّ مشتاقاً تكلف فوق ما فى وسعه لسعى إليك المنبر

ولعل أهم وزير استصفاه لنفسه الفتح بن خاقان ، فله ألف ديوانه الحماسة ، وقد
 عاش نحو خمسة عشر عاماً يمدحه منوهاً بسياسته وحزمه وشجاعته وأناته في تسديد
 الأمور ، وعونه للضعيف وردّه للمظالم ونشره للعدل الذى لا تصلح حياة الناس بدونه
 وبُعْدَ غَوْرِهِ ويقظته وكفايته لحمل أمانة الحكم على خير وجه ممكن ، مع تقواه
 وتواضعه ومع صيانه للشعور وحطّمه بجيوشه للثوار والأعداء حطماً لا يبق ولا يذر ، ومع
 أخلاقه الرفيعة التى تتحلّى بها نفسه الأبية ، وكان ربما بدر منه ما يجعل الفتح ينصرف
 عنه . فكان يعتذر له بأشعار رائعة ، سبق أن صورناها في الفصل الماضى . ومديحه

فيه يكتظ بعاطفة حقيقية ، فقد كان يكنّ له ودّاً وحبّاً وإخلاصاً ، وكان ما ينى يتغنّى بمدحيه ، ومن طريف قوله فيه مصوراً هيئته^(١) :

إذا ما مشى بين الصفوف تقاصرت رءوس الرجال عن طوالِ سَمِيدَعِ^(٢)
وإن سار كفّ اللحظ عن كل منظرٍ سواه وغُضّ الصوت عن كل مَسْمَعِ
فلست ترى إلا إفاضةً شاخصٍ إليه بعينٍ أو مشيرٍ بإصبعِ^(٣)

ومرّ بنا أن أول نابه اتصل به وخصه بمدحيه محمد بن يوسف الثغرى ممدوح أبي تمام الذى كان فى مقدمة من قمعوا ثورة بابك الخرمى ، كما كان فى مقدمة جيوش المعتصم فى غزوه لعمورية ، وقد ظل ينازل الروم ويمحق جموعهم حتى وفاته سنة ٢٣٦ . وقد سجل البحترى حروبه وانتصاراته القديمة والحديثة جميعاً ، مجسماً بأس جيوشه ، وكيف كانوا يتهافون على الوغى كما يتهافت الفراش على النار ، لأنهم أبناء موت يطرحون أنفسهم تحت رحاه ، فلا تطحنهم وإنما تطحن أعداءهم طحناً ، وله فى تمجيد شجاعة محمد بن يوسف الثغرى أشعار وقصائد كثيرة ، ومن طريف ماله فى تصوير رباطة قلبه وسكون نفسه فى الحرب قوله^(٤) :

لقد كان ذاك الجأش جأش مسالمٍ على أن ذاك الزى زى محاربٍ
تسرّع حتى قال من شهد الوغى لقاء أعاد أم لقاء حائبٍ
وصاعقة فى كفّه ينكفى بها على أرويس الأقران خمس سحائب
فجأشهُ مطمئنٌ ونفسه هادئة ، حتى ليظن من يراه أنه فى سلّم وأمن ودعة
مع أن الزى زى محارب باسل ، وإنه ليُقبل على ميادين الحرب إقبال الحب على
حمى معشوقته هائناً مغتبطاً ، وإن السيف فى يده ليشبه أدق الشبه صاعقة تسقط
على الأعداء بشواظها من أصابعه الخمس ، وكأنها خمس سحائب مائى ترسل
عليهم الصواعق المدمرة . والبطل الثانى فى ديوان البحترى هو أحمد بن دينار ، وقد
سجّل بطولته فى معركة بحرية دمر فيها بأسطوله الأسطول البيزنطى تدميراً ذريعاً ،
ومن عجب أن الطبرى وغيره من مؤرخى العرب لم يدونوا هذه المعركة الخطيرة ،

(٣) الإفاضة : الاتجاه بالصر .

(٤) الديوان ١٧٨/١ .

(١) الديوان ١٢٣٩/٢ .

(٢) السميدع : السيد الكريم الشجاع .

ولا أشاروا إليها ، والمظنون أنها كانت لعهد المتوكل ، ولعل في تسجيل البحترى لها ما يؤكد ما قلناه مراراً من أن شعر المديح عند العرب يُعَدُّ في بعض جوانبه وثائق تاريخية مهمة ، وفيها يقول البحترى مصوراً زحف ابن دينار بمركبه « الميمون » ومن حوله المراكب تغص بجنوده البحريين الذين محقوا الأسطول البيزنطي وجنوده محققاً^(١) :

غدوت على الميمون صُبْحاً وإنما غدا المَرْكَبُ الميمون تحت المظفر
وحولك رَكَّابون للهول عاقروا كثوس الردى من دارعين وحُسر^(٢)
صَدَمْتَ بهم صُهْبَ العثانين دونهم ضراب كإيقاد اللَّطَى المتسعر^(٣)
يسوقون أسطولا كأن سفينه سحائب صَيْفٍ من جهام ومُطر^(٤)
فما رِمْتَ حتى أَجَلْتَ الحرب عن طُلَى مقطعة فيهم وهام مطير^(٥)

وكل شيء يشهد بأن الشعر كان لا يستصعب على البحترى ، فقد كان يتدفق على لسانه تدفقاً ، ومع ذلك يقال إنه نقل كثيراً من مدائحه ، حتى ليبلغ ذلك عشرين قصيدة ، إلى مدح أناس جدد^(٦) . وقد يكون في ذلك مبالغة ، على أننا نجد في الديوان رائية مرددة بين أبي الصقر إسماعيل بن بلبل ، والخضر بن أحمد والى الموصل ، واختلفت لذلك رواية بعض أبياتها^(٧) . ويدخل في هذه الظاهرة عند البحترى ما قيل من أنه هجا كثيرين ممن مدحهم ، حتى ليبلغ بهم بعض الرواة أربعين شخصاً^(٨) ، وقد عرضنا لذلك في غير هذا الموضع ، ولا شك في أن في العدد مبالغة .

وفي ديوانه أهاج مختلفة ترجع إما إلى حرمانه من جائزة ، وإما إلى كفران صنعة عند بعض معاصريه ، وإما إلى منافسة بينه وبين الشعراء وخاصة من كان منهم

(٥) رام يريم عن المكان: زال عنه وفارقه .

الطل: الأعناق . الهام : الروس .

(٦) الموشح ص ٣٣٦ .

(٧) الديوان ٨٧٠/٢ وما بعدها .

(٨) الموشح ص ٣٣٦ .

(١) الديوان ٩٨٢/٢ .

(٢) الردى : الموت . الدارع : لابس

الدرع . الحاسر : عكس الدارع .

(٣) صهب العثانين : شقر اللحى ، ويريد بهم

الروم .

(٤) السحاب الجهام : الذي لا ماء فيه .

يتعرض لشعره بالذم والنقد اللاذع . ويلاحظ أبو الفرج الأصبهاني في ترجمته أن بضاعته من هذا الفن قليلة ، ويُرَوَى عن ابنه أبي الغوث أن السبب في ذلك أن أباه أحرق هجاءه في الناس خوفاً من مغبة عداوتهم له ولأبنائه ، وكأن هذه الرواية لم تعجب أبا الفرج ، فقد عاد يؤكد أن أكثر هجائه ساقط غث الألفاظ ركيك لا يشاكل طبعه ولا يليق بمذهبه^(١) .

وبالمثل الفخر عند البحتري ضعيف ، هو حقاً يفخر في بعض قصائده بأله وعشيرته بخر وقبيلته طي ناعتاً لهم بالكرم والشجاعة والكثرة والحصافة ، ولكنه لا يصدر في ذلك عن إيمان قوى بالمجد ، وكأنما كانت عصبية القبيلة ضعيفة ، بل لقد كان إحساسه بعروبه أيضاً ضعيفاً ، ومرت بنا في الفصل السالف قصيدته في إيوان كسرى وبكاؤه لأعجاف الفرس ، وكأنما لم يكن يستشعر شيئاً من الإحساس العميق بالأعجاف العربية في مقابل الأعجاف الفارسية ، ولعله من أجل ذلك كان كثيراً ما يسترسل في إشادته بالأصول الفارسية لبعض ممدوحيه ، على نحو ما يلقانا في مديحه للحسن بن سهل بمناسبة عيد المهرجان ، وله يتوجه بالخطاب قائلاً^(٢) :

إِنَّ لِلْمَهْرَجَانِ حَقًّا عَلَى كَلِّ كَبِيرٍ مِنْ فَارِسٍ وَصَغِيرٍ
عِيدُ آبَائِكَ الْمُلُوكِ ذَوِي النَّبِيِّ جَانِ أَهْلِ النَّهْيِ وَأَهْلِ الْخَيْرِ^(٣)

ويعدّد طائفة من هؤلاء الملوك في مقدمتهم يَزْدَجَرْدَ ، وكسرى ، وأردشير ، ويصور ما كان لهم من أبهة الملك وما كانوا يغدون ويروحون فيه من السندس والحرير . وحتى العاطفة الإسلامية بدورها نجدها ضعيفة عند البحتري ، إذ امتدح كثيرين من النصاري على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضع .

وذكرنا في الفصل السالف مرثيته للمتوكل ، وأوضحنا كيف أعلنها ثورة مدوية على قاتليه وولى العهد الذي ناصره ، وقد استهلها بوصف قصر الجعفرى الذى قُتل به الخليفة وما حلَّ عليه من سواد وكآبة ، حتى غدا كأنه ماتم كبير ،

(١) الأغاني (طبعة السامى) ١٦٧/١٨ . (٢) الخير : الكرم والشرف .

(٢) الديوان ٨٨٦/٢ .

وَيَصُورُ فِزَعِ سَيِّدَاتِهِ الْجَمِيلَاتِ حِينَ عَلِمَ بِالْخَبَرِ الْفَاجِعِ وَكَيْفَ انْتَهَكَتْ حُرْمَاتِهِ
ثُمَّ يَصِفُ الْقَتْلَ وَالْقَتْلَةَ وَصِفًا مُؤَثِّرًا . وَلَهُ مَرثِيَّةٌ رَاضِيَةٌ يَرِثُ بِهَا طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي
حَمِيدِ الطُّوسِيِّ خَرُّوا صَرَخَى فِي مَيَادِينِ الثُّغُورِ دِفَاعًا عَنِ الْعَرَبِينَ الْعَرَبِي ،
وَفِيهِمْ يَقُولُ ^(١) :

قُبُورٌ بِأَطْرَافِ الثُّغُورِ كَأَنَّمَا مَوَاقِعُهُمْ مِنْهَا مَوَاقِعُ أَنْجَمٍ
مَضَوْا يَسْتَلْدُونَ الْمَنَابِيَا حَفِيزَةً وَحِفْظًا لِذَلِكَ السُّودْدِ الْمُتَقَدِّمِ
وَكُلُّهُمْ أَفْضَى إِلَيْهِ حِمَامُهُ أَمِيرًا عَلَى تَدْبِيرِ جَيْشِ عَرَمَرَمٍ ^(٢)
مَسَاعٍ عِظَامٌ لَيْسَ يَبْلَى جَدِيدُهَا وَإِنْ بَلَّيْتُ مِنْهُمْ رِثْمٌ أَعْظَمُ

وَالْمَرثِيَّةُ بِكَاءٍ حَارٍ لِهَوْلَاءِ الْأَبْطَالِ الَّذِينَ اسْتَشْهَدُوا تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ فِدَاءِ
لِوَطَنِهِمْ بِأَرْوَاحِهِمْ وَاسْتَبْسَالًا بَعْدَ أَنْ أَذَاقُوا الْأَعْدَاءُ كَثُوسَ الْمَوْتِ دِهَاقًا .

وَاشْتَهَرَ الْبَحْتَرِيُّ بِإِجَادَتِهِ لِلغَزْلِ ، وَمَرَّ بِنَا أَنَّهُ أَحَبُّ فِي شَبَابِهِ عَدُوَّةَ الْحَلْبِيَّةِ
وَوَضَعَتْ ذِكْرَهَا لَا تَبَارِحُهُ ، وَظَلَّتْ تَسْتَوِي عَلَى قَلْبِهِ ، وَكَانَتْ قَدْ صَبَتْ إِلَيْهِ كَمَا صَبَا
إِلَيْهَا وَبَادَلَتْهُ وَدَّأَ بُوْدُ ، ثُمَّ تَزَوَّجَهَا الذَّفَافِي كَمَا أَسْلَفْنَا ، فَسَلَّتْ عَنْهُ ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَسَلْ
عَنْهَا ، وَفِي دِيْوَانِهِ مَقْطُوعَةٌ يَهْجُوها بِهَا قَدْ يَكُونُ نَظْمُهَا فِيهَا سَاعَةٌ غَضَبٍ انْتَابَتْهُ ،
وَإِنْ كُنَّا نَظَنُّ أَنَّهَا مَنَحُولَةٌ عَلَيْهِ ، فَقَدْ ظَلَّ قَلْبُهُ لَهَا فِي سَامِرَاءَ وَبَغْدَادَ كَمَا ارْتَحَلَ
عَنْهَا ، فَهُوَ لَا يَنْبِي يَذْكُرُهَا بِمَثَلِ قَوْلِهِ فِي مَقْدَمَةِ مَلْحَةٍ لِلْمَعْتَزِ ^(٣) :

كَمْ لَيْلَةٍ فَيْكِ بَيْتٌ أَشْهَرُهَا وَلَوْعَةٍ فِي هَوَاكِ أَضْمَرُهَا
وَحَرْقَةٍ وَالْدمُوعُ تُطْفِئُهَا ثُمَّ يَعُودُ الْجَوَى فَيُسْعِرُهَا
يَا عَلُوْ عَلَّ الزَّمَانَ يُعَقِّبُنَا أَيَّامٍ وَصَلِي نَظْلٌ نَشْكُرُهَا

وَكُنَّ السَّنَوَاتُ الطَّوِيلَةُ الَّتِي مَضَتْ بَيْنَ حَبِّهِ لَهَا فِي شَبَابِهِ وَمَدِيحِهِ لِلْمَعْتَزِ
وَهُوَ فِي نَحْوِ الْخَمْسِينَ مِنْ عَمْرِهِ لَمْ تَطْفِئْ لَوْعَتَهُ وَحَرْقَتَهُ ، فَقَدْ ظَلَّتْ نَارُ شَوْقِهِ وَحَبِّهِ

(٢) الدِّيْوَانُ ١٠٧٤/٢ .

(١) الدِّيْوَانُ ١٩٤٥/٣ .

(٢) عَرَمَرَمٌ : كَثِيفٌ .

لها مشتعلة بين جوانحه ، وظل يصدر عنها في قطع مفردة وفي مقدمات مدائح
من مثل قول^(١) :

وخلافُ الجميل قولك للذا كر عهدَ الأحباب صَبْرًا جميلا
لا تَلْمُهُ على مواصلة الدَّم معِ فلوْمُ لَوْمُ الخليل الخليل
عل ماءَ الدموع. يُخمد نارا من جَوَى الحبِّ أو يبلُّ غليلا

وكانت لدى البحترى قدرة بارعة في وصف مظاهر العمران ، بما أتيح له من
دقة في التصوير والتعبير ، ولم يكده يترك قصراً بناه المتوكل دون أن يصفه موجزاً أو
مسهباً ، وبالمثل وصف ما بناه الخلفاء بعده من قصور . ومرّ بنا وصفه الرائع
لإيوان كسرى ، ومن القصور التي أجاد في وصفها قصر الكامل الذي بناه المعتز وفيه
يقول^(٢) :

ذُعِرَ الحَمَامُ وقد ترنَّم فوقه من منظرٍ خَطِرِ المزلَّةِ هائل^(٣)
رُفِعَتْ لِمُنْخَرِقِ الرِّيحِ سموكُه وزهتْ عجائبُ حسنه المتخايل^(٤)
وكانَ حَيْطَانُ الزَّجاجِ بجوِّه لُجَجٌ يَمُجِّنَ على جُنُوبِ سواحل
لبستُ من الذهبِ الصَّقِيلِ سُقُوفُه نوراً يضيء على الظلام الحافل^(٥)

وقد مضى يصف رخامه وخطوطه المتقابلة وما امتد أمامه من بستان أنيق وما يجري
فيه من مياه دجلة المفضضة ومن نسيم الصَّبَا الحاني . وكان القدماء يعجبون أشد
الإعجاب بوصفه لبركة أقامها المتوكل بأحد قصوره فكانت فتنة للناظرين ، وفيها
يقول البحترى^(٦) :

يا مَنْ رَأَى البِرْكََةَ الحسناءَ رُؤْيَتْها والآنساتِ إذا لاحَتْ مغانيها^(٧)
تنصبُّ فيها وفود الماء معجلة كالخيل خارجة من حَبْلٍ مُجْرِيها

(٥) الحافل : الكثير .

(٦) الديوان ٢٤١٦/٤ .

(٧) الآنسات هنا جوارى المتوكل وكانت

مناظرهن تحف بالبركة .

(١) الديوان ١٧٦٧/٣

(٢) الديوان ١٦٤٨/٣ .

(٣) المزلّة : المزلق .

(٤) منخرق الرياح : مهبط . سموكه : أعاليه .

كَأَنَّمَا الْفَضَّةُ الْبَيْضَاءُ سَائِلَةً مِنْ السَّبَائِكِ تَجْرَى فِي مَجَارِهَا
فَرَوْنَقُ الشَّمْسِ أحياناً يَضَاحُكُهَا وَرَيْقُ الْغَيْثِ أحياناً يَبَاكِهَا
إِذَا النُّجُومُ تَرَاءَتْ فِي جَوَانِبِهَا لَيْلًا حَسِبْتَ سَمَاءً رُكِبَتْ فِيهَا

ويتحدث عن السمك المحصور في البركة والصحن الممتد في أسفلها والبهو الممتد في أعاليها وتمثال الدُّلْفَيْنِ الذي كان مقاماً عليها ، والبساتين والرياض التي تحف بها والأزهار التي تشبه ريش الطواويس في تلاوينها العجيبة . ولعل في كل ما قدمنا ما يصور شاعرية البحتری الرائعة وكيف أنه استطاع أن يتلافى بملكاته الخصبية القصور في ثقافته الحديثة ، فإذا هو يملك من أدوات التعبير ما يستحيل به شعره إلى أنغام وألحان خالصة .

٣

ابن الرومي

هو علي^(١) بن العباس بن جريج ، ويبدو أن أول من أسلم من آبائه أبوه القريب العباس ، وقد نشأ على الولاء لعبد الله بن عيسى بن جعفر بن المنصور العباسي . وكان يوناني الأصل كما يشهد بذلك اسم جده ، وزراه في شعره ينسب نفسه إلى اليونان مراراً وقد يسميهم الروم أحياناً من مثل قوله :

ونحن بنو اليونان قومٌ لنا حِجِّي ومجدٌ وعيدانٌ صِلابُ المعاجمِ

شعره (للعقاد وحصاد الهشيم للمازني ، ومن حديث الشعر والنثر لطف حسين ، والفن ومذاهبه في الشعر العربي ص ٢٠٠ . واختيارات كامل كيلاني من ديوانه الضخم وقد نشرها باسم ديوان ابن الرومي ولا يزال الديوان مخطوطاً لم ينشر . وانظر اختيارات روفون جيست منه مع دراسة عن حياة ابن الرومي وشعره ترجمة حسين نصار .

(١) انظر ترجمته وأشعاره في مروج الذهب ١٨٢/٤ ، ١٩٤ ، وتاريخ بغداد ٢٣/١٢ والموشح للمرزباني ص ٣٥٧ ، وابن خلكان والنجوم الزاهرة ٩٦/٣ وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ١٨٨/٢ ، ومرآة الجنان لليافعي ١٩٨/٢ وابن داود في كتابه الزهرة وديوان المعاني للمسكري في مواضع متفرقة (انظر الفهرس) وابن الرومي (حياته من

وقوله في مواليه العباسيين :

مولاهمُ وغَذِيَّ نعمتهم والرُّومُ - حين تنصني - أَصْلِي

ولم تكن أمه رومية ، بل كانت فارسية ، وعلى نحو افتخاره بأصوله من الروم يفتخر بأصوله وختولته من الفرس ، حتى لينسب نفسه إلى ملوكهم الساسانيين ، وهي نسبة لم يكن عليها حجاب ، فكان كثير من الشعراء ذوي الأصول الفارسية يدعونها ، ومن فخره بنسبه العريق - في رأيه - من قبيل أبيه وأمه قوله :

كيف أغضى على الدنية والفُرُّ سُ خُثُولِي والرُّومُ هم أَعْمَامِي
وقد وُلد لأبويه ببغداد سنة ٢٢١ للهجرة نَضُوا ضَيْلًا نَحِيلًا دَمِيمَ الْوَجْهِ
تَقْتَحِمُهُ الْعَيُونُ ، وظل طوال حياته يَسْعَى على نفسه دقة جسمه وضآلته وقبحه ،
وله في ذلك أشعار كثيرة يصرح فيها بدمامته وما انضم إلى ذلك من صلعه الذي
كان يأخذ معظم رأسه حتى اضطر ألا يخلع العمامة أبدًا ، وله مقطوعة يصور
فيها صلعه وقبح وجهه ، ونراه يختمها بقوله ^(١) :

شَغِفْتُ بِالخُرْدِ الْحَسَانَ وَمَا يَصْلَحُ وَجْهِي إِلَّا لِذِي وَرَعٍ
كَيْ يَعْبُدَ اللَّهَ فِي الْفَلَاةِ وَلَا يَشْهَدَ فِيهَا مَسَاجِدَ الْجَمْعِ

ويبدو أن أباه كان على شيء من اليسار ، وحقًا توفي في مطالع حياته ، ولكن يظهر أنه ترك للأسرة ما يتيح لها على الأقل كفاف العيش . وكان له ابن آخر يسمى محمدًا عمل في الدواوين الحكومية ، كما كانت له فتاة ماتت قبل أمها ، وابن الرومي في نحو الخمسين من عمره . على كل حال مكَّن يسار هذه الأسرة لابن الرومي أن يتجه إلى التعلم فالتحق ببعض الكتاتيب ، وكانت تعني بتحفيظ القرآن الكريم وتلقين الناشئة النحو وبعض الأشعار والخطب وشيئًا من الحساب ، فالتهم ذلك كله الصبي ، ثم مضى يختلف إلى حلقات العلماء في المساجد تارة يستمع إلى محمد بن حبيب الراوية المعروف أو إلى زميله ثعلب ، وأخرى يستمع إلى بعض المحدثين أو بعض الفقهاء أو بعض رواة التاريخ والأخبار . وكانت دار الحكمة التي عني

(١) الديوان (مختارات الكيلاني) ص ١ .

بها الرشيد والمأمون مدَّ يده وعينه ، وكانت تكتظ بكتب الفلسفة وعلوم الأوائل فانقض عليها انقضاضاً يقرأ ويستوعب ويستسيغ ويتمثل تمثلاً نادراً^(١) . وتكثر في أشعاره الإشارة إلى حكماء اليونان الأقدمين ، كما تكثر أسماء الكواكب والنجوم . ومما لا ريب فيه أنه كان — كما مر بنا في غير هذا الموضع — يعتنق الاعتزال .

ويذكر معاصروه أنه كان ضيق الصدر سريع التغير والانقلاب ، وسرى أثر ذلك في أشعاره إذ كثيراً ما كان يضيق ببعض ممدوحيه فينقلب هاجساً لهم ، ويذكر معاصروه أيضاً أن من كان يلقاه يراه كالمتوجَّس المدعور ، وكأنما كان في أعصابه شيء من الاختلال ، ولعل ذلك هو الذي أعدّه لأن يصبح أكبر شاعر متطير في عصره . وكان إذا رجع في كثرة تطيره احتج بقوله إن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحب الفأل ويكره الطيرة ، أفتراه كان يتفاعل بالشيء ولا يتطير من ضده ، ويقول إن علياً لم يكن يغزو غزاةً والقمر في برج العقرب ، وكان يزعم أن الطيرة موجودة في الطباع قائمة فيها^(٢) . ويقصُّ معاصروه عن طيرته أخباراً كثيرة ، من ذلك أنه أغلق باب داره ثلاثة أيام لما تصادف من أنه كان يصير إلى الباب والمفتاح معه فيضع عينه على ثقب في خشب الباب فيرى جاراً له أحذب كان نازلاً بإزائه يقعد على الباب . فإذا نظر إليه رجع عن عزمه على الخروج وخلع ثيابه وقال لا يفتح أحد الباب^(٣) . وافتقده في مجلسه بعض الأمراء ، وكان يعلم حاله من الطيرة ، فأرسل له غلاماً يسمى إقبالاً ليتفأل به عند سماع اسمه ، غير أنه لم يكده يزعم على المضي معه حتى بدا له اسمه معكوساً هكذا : لا بقاء ، فقال له امض إلى سيدك وأنبأ بما في نفسه ! . وأرسل له بعض الأصدقاء غلاماً له يسمى حسناً ، وكان حسن الوجه ، طالباً إليه أن يزوره ، فخرج معه ، وإذا أمام داره دكان خياط درفتاه على هيئة اللام ألف ، هكذا : لا ، وحانت منه التفاتة فرأى تحت الدرفتين نوى تسمّر ، فتطير ، وقال إن هذا يشير إلى :

(٢) زهر الآداب للحصري ١٧٢/٢ .

(٣) زهر الآداب ١٧٧/٢ .

(١) أشار أبو العلاء في رسالة الغفران

إلى تفلسف ابن الرومي قائلاً إنه كان يتعاطى

الفلسفة . انظر طبعة كيلاني ٧٤/٢ .

أن « لا تمر » ورجع إلى داره ولم يذهب مع الغلام^(١). ومن المؤكد أن هذه الأخبار وما يماثلها دخلتها مبالغة كثيرة ، وقد يكون بعضها اختلق عليه اختلاقاً . ويتوقف القدماء عند قصيدة بائية مدح بها أبا العباس بن ثوبة الكاتب ، وكان قد دعاه لزيارته في سامراء ، فتعلل على سبيل الفكاهة بتصوير مخاطر الرحلة إليها من بغداد براً وبحراً بمثل قوله^(٢) :

لقيتُ من البرِّ التباريحَ بعد ما لقيت من البحر ابيضاضَ الذوائبِ
وقد مضى يصف دجلة وبلاد الركوب فيه متفكها ، فأدخلوا ذلك في باب طيرته ، ولا طيرة ولا ما يشبه الطيرة . وليس معنى ذلك أننا نريد أن ننفي تطيره ، إنما ننفي المبالغة فيه ، أما بعد ذلك فقد كان ابن الرومي يتطير حقاً ، واشتهر بذلك بين معاصريه ، حتى لرى الأخفش على بن سليمان النحوي ، وكان قد هجاه ، يقتصّ لنفسه منه ، بأن يقرع عليه الباب في الصباح ، فإذا قال من القارح ؟ أجابه بمثل مُرّة بن حنظلة أو حرب بن مقاتل وغير ذلك من الأسماء التي تملؤه طيرة ، فيحبس نفسه في بيته ، ولا يخرج يومه أجمع^(٣).

وقد تفتحت موهبته الشعرية مبكرة ، وهو لا يزال حداثاً في الكتاب ، إذ تُروى له أبيات حينئذ في هجاء غلام عباسي يسمى جعفرأ كان زميلاً له ، وكان ذلك كان إرهاباً بأن الهجاء سيغلب عليه طوال حياته . وقد مضى يتخذ الشعر — كدلائه — حرفة يتكسب بها ، فهو يعرضه على عليّة أهل بغداد ، وكان طبيعياً أن يعرضه على كبار الموظفين ورجال الدولة وفي مقدمتهم أبو العباس محمد بن طاهر حاكم بغداد منذ سنة ٢٣٧ ، وأسرة الطاهريين معروفة كان طاهر بن الحسين قائداً للمأمون وهو الذي قضى على ثورة الأمين ، وكان ابنه عبد الله بن طاهر أميراً لخراسان وخلّقه عليها ابنه طاهر . وحاول ابن الرومي الزلّفي إلى محمد بالمديح ، ويبدو أنه لم يكن يتسع في ثوابه ومكافأته ، وكان على علم بالشعر ، فأخذ ينقد بعض أشعار ابن الرومي ، وغاظ الشاعر الشاب نقده . بل لقد أخذ يحرمه نواله ، مما جعل ابن

(١) انظر في هذه الأخبار زهر الآداب

وذيله ص ٢٤٢ والعمدة لابن رشيّ ٤٠/١

ومعاهد التنصيص ١٤٣/١ .

(٢) انظر القصيدة في الديوان ص ٢ .

(٣) ذيل زهر الآداب ص ٢٤٣ ومعاهد

التنصيص ٤٣/١ .

الروى يوجه إليه مثل قوله^(١) :

مدحت أبا العباس أطلب رِفده فخيَّتي من رِفده وهَجَا شعري

ويبدو أنه كان بخيلاً ، وأن بخله كان السبب الحقيقي في انصرافه عن الشاعر ، متعللاً بأنه لا يعجب بشعره ، مما جعل ابن الروى يصبّ عليه سيّطاً حامية من الهجاء ، وهو يعمم فلا يقف بهجائه له عنده وحده ، بل يعمّ به أسرة الطاهريين جميعاً من مثل قوله^(٢) :

إذا حسنتُ أخلاق قومٍ فبئسما خلفتم به أسلافكم آلَ طاهرٍ
جنوا لكم أن تُمدّحوا وجنيتُم لموتاكم أن يُشتموا في المقابر

وترنو عينه إلى سامراء حاضرة الخلافة ومجمع كبراء رجال الدولة ووزرائها وموظفيها العظام ، ويقدم عليها لعهد المنتصر سنة ٢٤٨ ، ويمدح أحمد بن الخصب وزيره ، ويعود سريعاً إلى بغداد ويظهر أنه وجد الأبواب مغلقة أمامه . وقد يكون السبب الحقيقي في ذلك أنه عزف عن سامراء لتشيع فيه كان يضمّره في نفسه ، فتركها وعاد إلى مسقط رأسه . ولا يلبث يحيى بن عمر العلوي أن ينهض بثورة عارمة في الكوفة ضد الدولة ، ويجند جيشاً كثيفاً لحرب العباسيين ، ويلتقي به محمد بن عبد الله بن طاهر لسنة ٢٥٠ ، وتدور عليه الدوائر ، ويقتل في ساحة المعركة ويغضب له ابن الروى غضباً شديداً ، ويرثيه بحميمية^(٣) طويلة ، يندبه فيها ندباً حاراً ، مصوراً حرقه حزنه عليه بمثل قوله :

سلامٌ وريحانٌ وروحٌ ورحمةٌ عليك وممدودٌ من الظل سَجَسَجُ
ويا أسنى أن لا يردَّ تحيةٌ سوى أَرَجٍ من طيب نَشْرِك يَأْرَجُ
ألا إنما ناح الحمايم بعد ما ثويتَ وكانت قبل ذلك تهزج

ولا يبكيه وحده ، بل يبكي العلويين جميعاً منذ شهيدهم الحسين المقتول في كربلاء ، ويتفجع على قتله مصوراً جزاءه في علّيين ، ويأسى أن يكون للعلويين

(٣) الديوان ص ٢٢٤ .

(١) الديوان ص ٤٣٨ .

(٢) الديوان ص ٣٩٦ .

دائماً قتيلاً مضرج بالدماء دون خوف من الله وانتقامه ودون أى رعاية للرسول عليه السلام وآل بيته ، ويتناول العباسيين فى جرأة ، ويتوعدهم أن يُردّ الأمر إلى نصابه وأن يرجع الحق إلى أهله ، على يد علوى ثائر ، يحطم العباسيين بحيشه الكثيف حطماً . ويتوجه إلى محمد بن عبد الله بن طاهر بالخطاب متمنياً أن تزول دولته ودولة آلّه فى خراسان ، ويعلن أنهم أعداء الرسول والإسلام جميعاً ، وأن دولتهم لا بد أن تدول وتُمنحَق محققاً فينطقى غليل الصدور وتبرأ القلوب الكليمة .

وعلى هذا النحو أصبح ابن الروى يجاهر بتشيعه ، وأعل هذا الجانب فيه هو السبب الحقيقى فى أنه لم يحاول المثول بين يدى الخلفاء مادحاً ، وبالتالي لم يظهر فى مجالسهم بسامراء ، ومع ذلك كان كثير التردد عليها ، ولكنه لم يكن يتجاوز عتبة الوزراء ، ويلاحظ أنه لم يحاول أن يمدح قواد الترك ، وكأنهم كانوا أبعد من أن يفهموا الشعر أو يثيبوا عليه ، ويشير الطبرى إلى ذلك بقوله : إنهم لم يكونوا يعرفون حدود الكلام^(١) . ونمضى مع ابن الروى بعد مريثته الشيعية الآتفة الذكر ، فنجلده يقف مع عامة بغداد لسنة ٢٥١ حين لجأ إليها الخليفة المستعين ، ووقعت الحرب بينه - ومعه أهل بغداد - وبين المعتز الذى بايعه الترك والهند فى سامراء وينضم محمد بن عبد الله بن طاهر إلى عامة بغداد ، ويحارب معهم جند المعتز ، وتصفو العلاقة حينئذ بين ابن الروى وابن طاهر ، وبدا فى نهاية الأمر رجحان كفة جند المعتز ، فجنح ابن طاهر إلى الصلح وخلع المستعين ، وانتهت الأمور بعزله ثم قتله فى سنة ٢٥٢ . ويغضب ابن الروى ولكن كأنما ذلك كان سحابة عارضة ، فتظل صلته بابن طاهر وثيقة ، على نحو ما يتضح من دالية له يرثيه بها حين توفى سنة ٢٥٣ افتتحها بقوله^(٢) :

إن المنيّة لا تبقّى على أَحَدٍ ولا تهاب أَنّا عزٌّ ولا حَشَدٌ

وفيهما يُشيد بكرمه وعدله فى الرعية واصفاً حزنها لفقده وألمها لموته وما سكبت عليه من عبرات . ويترلى مكانه حكم بغداد أخوه عبيد الله بن عبد الله بن طاهر ،

(١) الطبرى ٩/ ٢٨٤ .

(٢) الديوان ص ٥٠ .

وهو أكثر الطاهريين معرفة وأدباً ، وله كتب مصنفه مختلفة وأغان مدونة . وهو أقرب ممدوحى ابن الروى إلى نفسه ، فقد أغدق عليه جوائز وأموالا كثيرة ، وكان شاعراً ، يحسن فهم الشعر وتذوقه ، كما كان يحسن الفلسفة وفروعها المختلفة ، ومرّ بنا تعرضه للبحترى ووقوفه ضده مع ابن الروى ممثلاً للذوق الجليل في الشعر لعصره . ووجد فيه ابن الروى راعيه الحقيقى ، راعيه المادى الذى يجزل له في العطاء وراعيه المعنوى الذى ينوّه بأشعاره ويصفق لطرائفه استحساناً ، وراعيه ضد خصومه أصحاب الذوق الأدبى المحافظ من أمثال البحتري . وهكذا وجد عنده كل ما كان يبتغيه لنفسه ، وكان عبيد الله يذهب إلى سامراء كثيراً للقاء الخليفة ، فكان يصحب معه ابن الروى . وزراه يمدح أحمد بن إسرائيل وزير المعتز لسنة ٢٥٣ ويتعرّف في هذه الأثناء بأبى العباس أحمد بن ثوبة كاتب القائل التركى بايكباك لعهد المعتز والمهتدى ، وأصبح فيما بعد رئيس ديوان الرسائل ، وهو كاتب نابه ، ومرّت بنا إشارة إلى ملحة له نظمها حين دعاه لزيارته في سامراء معتدراً بمخاطر الرحلة براً وبحراً ، آملاً أن تصله مكافأته في بغداد ، ولا تمضى صلته بابن ثوبة إلى نهاية الطريق ^(١) . وهكذا هو دائماً سرعان ما يتغير على ممدوحيه ، إما لقلة الجائزة وإما لمنعها منه وحرمانه ، وإما لأنه تخيل أى شىء عارض جعله يظن بصديق الأملس الظنون . ويتعرف عنده على أبى الحسن بن على الباقرانى كاتبه وزراه يعاتبه لتقديمه البحتري عليه ^(٢) . وأهم من ابن ثوبة وكاتبه أنه تعرف منذ سنة ٢٥٥ على أبى الصقر إسماعيل بن بلبل رئيس ديوان الضياع ، إذ نراه يهنئه برياسته لهذا الديوان ، وسنراه فيما بعد يكثر من مديحه حين أصبح وزيراً للمعتد . ويتردد على واسط ليمدح آل أبى شيخ .

ويُعزّل عبيد الله بن عبد الله بن طاهر عن حكم بغداد سنة ٢٥٥ ويولّى مكانه أخوه سليمان ، وكان أميراً لطبرستان فأخرجه منها الحسن بن زيد العلوى بعد حروب ومعارك طاحنة ، وكأنما أعطى بغداد مكافأة له على هزيمته ! . ويقف ابن الروى في صف عبيد الله ، ويعجب كيف يُعزّل ويولّى مكانه هارب ، وكأنما يُجزّى بذلك خير الجزاء ، أو قل كأنما هى غنيمة نالها ببأسه وشجاعته ، وإنه

(٢) الديوان ص ٢١٧ .

(١) انظر مديحته له في الديوان ص ٦١ .

لخذلان من شأنه أن يصرف الناس عن الإقدام في الحروب ، ويسخر منه في مقطوعات مختلفة من مثل قوله (١) :

هو الأسد الورْدُ في قَصْرِه ولكنّه تَغَلَّبُ المعركة

ويحدث أن يُجْمَع الأتراك أمرهم ويصمموا على خلع المعتز ، لإقدامه على قتل بعض رؤسائهم ، ويرسلوا إلى سليمان بن عبيد الله بن طاهر حاكم بغداد أن يبعث إليهم بمحمد بن الواثق ليبياعوه بالخلافة ، ويبعث به ، وكأنما يجد ابن الرومي في ذلك نكثاً من سليمان لبيعته للمعتز ، فيُصْلِيه بقطعة من هجائه قائلاً (٢) :

جاءَ سليمانُ بنى طاهرٍ فاجتاحَ معتزَّ بنى المعتصمِ
كَانَ بغدادَ لَدُنْ أَبْصَرَتْ طَلْعَتَهُ نَائِحَةٌ تَلْتَدِمُ
مُسْتَقْبَلٌ مِنْهُ وَمُسْتَدْبِرٌ وَجْهٌ بِخَيْلٍ وَقِفَا مِنْهُمْ

وتتطور الظروف ، ويحجب المعتز قواد الأتراك إلى الخلع ، ويُحْبَسُ ويُقتل في محبسه بعد خلعه ستة أيام ، وحينئذ نرى ابن الرومي يغيّر موقفه من المعتز فيحذّره حين حبس من أن يعاوده التفكير في الخلافة ، وينظم في ذلك قصيدة بائية يقول فيها (٣) :

دَعِ الخِلافةَ يا معتزُّ من كُتِبَ فليس يكسوك منها الله ما سَلَبَا

ويتغيّر تبعاً لذلك موقف ابن الرومي من سليمان بن عبد الله بن طاهر ، ويهديه بعض مدائحه ، ويمنحه سليمان بعض الجوائز ، ثم يحدث أن جاراً ، مكرراً له من تجار بغداد كان يعرف باسم ابن أبي كامل تطمح نفسه إلى شراء داره ، ويحاول أن يجبره على بيعها باغتصابه لبعض جدرانها وإفساد بعض جوانبها ، ويسْتَعْدِي عليه سليمان (٤) بن عبد الله بكافية طريقة سبق أن أنشدنا منها في الفصل الماضي تعليله المشهور فيها لحبة الأوطان ، وهو يدور على كل لسان ، وفيها يقول مصرّاً على أنه لن يبيع داره :

وَلِي وَطَنٌ آلَيْتُ أَنْ لَا أَبِيعَهُ وَأَنْ لَا يُرَى غَيْرِي لَهُ الدَّهْرَ مَالِكَا

(١) الديوان ص ٣٤١ .

(٢) الديوان ص ٢٨ .

(٣) الديوان ص ٤٥١ .

(٤) انظر زهر الآداب ٩٩/٣ .

ولوَّح لسليان بأنه يريد منه عوناً مالياً يصلح به داره ، ولكن سليان لم يبادر إلى عونه ، فسخط عليه سخطاً شديداً وعاد إلى هجائه بالخبث والبخل ، وكان جده طاهر يلقب بذي اليمينين ، فقال فيما قال من هجائه :

له شمالان حاز إرثهما عن ذي اليمينين شدَّ ما اختلفا
ويدخل عصر المعتمد وأخيه الموفق الذي كان يُعَدُّ الحاكم الحقيقي حينئذ ،
إذ قَلَّم أظفار الجند الأتراك وقضى على ثورة الزنج قضاء مبرماً وهزم يعقوب الصفار
هزيمة نكراء ، ودان له الولاة : الطولونيون وغيرهم مدعين خاضعين ، وكان يتخذ
صاعد بن مخلد كاتباً له ، ورفعته إلى مرتبة الوزارة سنة ٢٦٥ وامتدَّ يُمْنُه حينذاك
إلى ابنه العللاء فأصبحت بغداد وواليها تابعين له ، وكان عبيد الله قد عاد إلى حكم
بغداد سنة ٢٥٩ وظلَّ يحكمها ثلاث سنوات ، ثم وليها محمد بن طاهر بن عبد الله
ابن طاهر ثم عاد إليها عبيد الله تابعاً للعللاء بن صاعد سنة ٢٦٦ حتى سنة ٢٧١ .
وأقبلت الدنيا على ابن الرومي مع إقبالها على صديقه عبيد الله . فكانت تلك السنوات
أهنأ أيامه ، وأكثر فيها من مديح عبيد الله مع كل مناسبة : مع أعياد النيروز
والمهرجان ومع عيدي الفطر والأضحى . وفي ديوانه مدائح مختلفة لصاعد وابنه
العللاء ، ويغلب أن يكون اتصل بهما مبكراً ، حتى إذا أصبحت بغداد وعبيد الله
ابن عبد الله بن طاهر تابعين للعللاء أكثر من الصلة بهما ومن مديحهما ، وله فيهما
دالية ^(١) طويلة . وفيهما يقول :

وكل مديح لم يكن في ابن صاعد ولا في أبيه صاعد فهو حابطٌ
وكانت قد أخذت المنافسة بينه وبين البحترى تمتد ، وانقسم الأدباء قسمين :
قسماً هو الأكثر لما كان يؤازره من اللغويين ، وهم أنصار البحترى ، وقسماً مقابلاً
هو أنصار ابن الرومي وفي مقدمتهم عبيد الله بن عبد الله بن طاهر كما أسلفنا ، ونرى
ابن الرومي يهجو خصمه ببائية طويلة ^(٢) يقول فيها إن الحظ أعمى ولولا ذلك ما نال
البحترى ما نال من الشهرة بشعره الغث في رأيه ، ويزعم أنه ليس له فيه شيء فكله
إغارات وسرقات ونهب من دواوين أسلافه ، ويستعدي عليه — كما مرَّ بنا في غير
هذا الموضوع — العللاء بن صاعد الذي أمَّن الطرق من اللصوص قائلا :

أيسرقُ البحتريُّ النَّاسَ شعْرَهُمْ جَهْرًا وَأَنْتَ نَكَالُ اللَّصِّ ذِي الرِّيبِ
يعيبُ شعري وما زالت بصيرته عمياء عن كل نور ساطع اللَّهَبِ
وفى البيت الثاني ما يدل على أن البحتري كان بدوره يبادلُه نقدًا لشعره ،
وغضب له عبيد الله بن عبد الله بن طاهر كما مرَّ بنا ، وأصلَى البحتري أشعاراً
حامية ، نعى فيها عليه أنه غير مثقف بالثقافة الفلسفية الحديثة مثل ابن الرومي
الذي لا يُلْحَقُ شأوه ، والذي تعمق الفلسفة والمنطق . وردَّ عليه البحتري كما
أسلفنا في حديثنا عنه . وما زالت المنافسة مشتدة بين الشاعرين حتى جمع بينهما
بعض الأدباء مثل سليمان بن الحسن بن مخلد وعبد الله بن الحسين القطربليّ ،
فتصافيا وتوادّا واعترف كل منهما بفضل صاحبه .

ومن الغريب أن ابن الرومي لم يكن يستطيع أن يُسبِّقَ على علاقة حسنة بوزير
أوبابن وزير ، فقد كان يكفي كل منهما ألا يُنفذَ إليه الجائزة أو يُقالَ منها ، فإذا هو
خصم للدُّودِ ، وإذا هو يَسْئَلُ لسانه وَيَبْرِي شعره سهاماً مُدْمِية . وهو
ما حدث بينه وبين صاعد وابنه العلاء ، فقد أخذَا يهملان نواله على مدائحهما
بعض الإهمال واستشاط غضباً ، وأخذ ينزل عليهما شُواظ هجائه من مثل قوله ^(١) :
لِيَهْنِكُمْ أَنْ لَيْسَ يَوْجِدُ مِنْكُمْ لِبُوسُ ثِيَابِ الْمَجْدِ لَكِنْ خَلَوْعَهَا
وظل يشتمّي حتى بعد سقوطهما والإلقاء بهما في غياهب السجون سنة ٢٧٢ .
وكان يتصل ببعض كبار موظفي الدولة ، وكان منهم من يتعصب للبحتري فكانوا
يردُّونه ردّاً قبيحاً ، وقد يهملونه ولا ينيلونه أى عطاء على ما يقدم إليهم من المدائح
ومن خير الأمثلة على ذلك إبراهيم بن المدبر ممدوح البحتري وصديقه الذي ولى ديوان
الرسائل حيناً وتولى ولايات مختلفة . وكان قد اشترك - كما مر بنا في الحديث عن
البحتري - في حرب الزنج ، ومدحه ابن الرومي فلم يلتفت إليه ، وتصادف أن كان يلي
خراج الأهواز سنة ٢٥٧ ودخلها بعض جنود صاحب الزنج فثبت لهم فيمن ثبتوا ،
وأصابته شجّة في وجهه ، وأسر ، واستطاع التخلص من أسره ، ونرى ابن الرومي
يشتم به ، ويسجل عليه جنبه وبخله في قصائد ومقطوعات مختلفة ، وله يقول ^(٢) :

قل لى بآية حيلة أعملتها هتفوا بآنك - لاحفظت - جواد
لقد استفاض لك الثناء بحيلة صعب الأمور بمثلها ينقاد

ومرّ بنا أنه تعرف على أبي الصقر إسماعيل بن بلبل منذ عصر المعتز حين أصبح رئيس ديوان الضياع في سامراء ، وظل منذ هذا الحين موصولاً به ، وكان الموفق قرّبه منه واتخذّه كاتباً له ، فكان يغدو عليه ويروح سواء حين يكون في سامراء ، أو مع الموفق في واسط في أثناء معاركه مع الزنج . ورفع الموفق إلى مرتبة الوزارة فترة لسنة ٢٦٥ حتى إذا نكّل بصاعد سنة ٢٧٢ استوزره من بعده له ولأخيه المعتمد ، وفرح ابن الرومي بما ناله ، فدبّج فيه قصيدة طويلة ^(١) ، استهلها بالغزل نافذاً إلى طريقة جديدة ، إذ عرض من خلال وصفه لصاحبه ما في الحداثق من فواكه شهية ، حتى سماها عبيد الله بن عبد الله بن طاهر دار البطيخ أى حانوت الفواكه ، ومضى بعد ذلك في مديح أبي الصقر مدحاً رائعاً ، غير أنه لما استمع إلى قوله :

قالوا أبو الصقر من شيبان قلت لهم كلا لعمرى ولكن منه شيبان
ظن أنه يعرض به ، لأنه كان يدعى نسبه من شيبان ولم يكن شيباناً حقيقة فقال : هجاني ، وراجع بعض الحاضرين قائلاً له : إن هذا من أحسن المدح ، ألا تسمع ما بعده :

وكم أب قد علا بابن ذرى شرف كما علت برسول الله عدنان
فقال : أنا بشيبان ، وليست شيبان بي ، وملاه الغيظ والغضب على ابن الرومي ، فقليل له : ألم تسمعه يقول :

ولم أقصر بشيبان التي بلغت بها المبالغ أعراق وأغصان
لله شيبان قوم لا يشوبهم روع إذا الرّوع شابته منه ولدان
فاستمر في غيّه وسوء فهمه ، وقال : والله لا أثّبه على هذا الشعر ^(٢) . وواضح أن أبا الصقر لم يفهم معاني القصيدة ولا مراد ابن الرومي في البيت الأول وغيره من

(٢) زهر الآداب ١/ ٢٤٤ وما بعدها .

(١) الديوان ص ٢٠ .

الآبيات ، فكان طبيعياً أن يحرمه الجائزة ، وكأنه أيضاً لم يفهم قوله في القصيدة مادحاً له :

فَرَدُّ جَمِيعٍ يَرَاهُ كُلُّ ذِي بَصِيرٍ كَأَنَّهُ النَّاسُ طُرّاً وَهُوَ إِنْسَانٌ

ولم يكن هذا وبالا على ابن الرومي بقدر ما كان حرباً على ابن بلبل فقد أخذ يهجو ابن الرومي هجاء مرّاً ساخراً من ادعائه أنه شيباني حقيقة ، مثبتاً عليه أنه دعى في شيبان لصيق بها ، يقول ساخراً هازئاً به ^(١) :

تَشَيَّبَنَ حِينَ هَمَّ بِأَنْ يَشِيْبَا لَقَدْ غَلَطَ الْفَتَى غَلَطاً عَجِيباً ؟

وقد مضى يذكر أن شيبان ستشيب من هذا الخطب الجسم ، إذ يدعى النسب فيها أعجمي نبطي ، وينعى كيمياء الحظوظ التي أتاحت له مجد الوزارة . ويظل يهجو حتى يزج به المعتضد في السجن لعام ٢٧٩ وما يلبث أن يموت في سجنه ، وابن الرومي في أثناء هذه النكبة التي حلّت به يهجو أهاجي كثيرة من مثل قوله ^(٢) :

فَلَنْ نُكَبْتَ لَطَالَمَا نُكَبْتَ بِكَ هَمَّةٌ لَجَأَتْ إِلَى سَنَدِكَ
يَا نِعْمَةً وَلَّتْ غَضَارَتُهَا مَا كَانَ أَقْبَحَ حُسْنِهَا بِيَدِكَ

وكان عبيد الله بن عبد الله بن طاهر قد عُزل عن حكمه لبغداد سنة ٢٦٢ ثم عاد إلى حكمها - كما مرّ بنا - في سنة ٢٦٦ فكان يكتفى بالمعيشة في ظلّاله . وكانت العلاقة بينهما - كما أسلفنا مراراً - وثيقة ، ووظّف له أخوه محمد في بعض فترات حكمه لبغداد ، ومات وهو في خدمته ومات قبله بمدة أمه ، وله فيهما مرثيتان .

وكان طبيعياً أن يكثر مديحه لبعض ذوى البيوتات في بغداد وفيما حوّلها من المدين والضواحي ، ومن نراه ماثلين في ديوانه بنو فياض وهم يرجعون إلى أصول فارسية ، وكانت لهم إقطاعات وضياع واسعة في دير العاقول بالقرب من بغداد ، وتسمّل في ديوانه أسرة بنى نوبخت الفارسية الأصل ، وهي تشتهر من قديم بثقافة

(٢) زهر الآداب ٢٤٤/١ وما بعدها .

(١) الديوان ص ٤٨ .

أبنائها وكثرة ما ترجموا من الفارسية إلى العربية ، وأهم شخص يُكثر من ملحه بينهم أبو سهل إسماعيل بن علي ، وكان من رءوس الشيعة ، ويقال إنه مؤسس الفرقة الإثنى عشرية ، وفي صلته به ما يؤكد تشيعه وأن من الممكن أن يكون على مثاله إمامياً يعتنق مذهب الاثنى عشرية . ومن الأسر التي أكثر من ملحها أسرة بني حماد قضاة بغداد ، خاصة منهم القاضي إسماعيل بن حماد المتوفى سنة ٢٨٢ ونراه يمدحه في قصيدة بائئة محاولاً أن يبرئ نفسه من تهمة بالزندقة التي نُقلت إليه ، ويستشهد على صحة براءته بابن عديلن للقاضي يعرفان حقيقة أمره ، ويستحثه على التنكيل بوشاة السوء الذين دبّروا اتهماء بهذه التهمة النكراء ، ويقول لأنهم هم الذين دبّروا الثورة عليك وجعلوا العامة ترى دارك بالحصي والحجارة ، يقول^(١) :

حملوا حملةً على الدين تحكى حملة الروم رافعين الصليبا
وأرادوا بك العظيمة لكن أوسع الله سعيهم تخيبا
وكان الغوغاء لما تغاوا فرموا داركم قضوا تحصيبا^(٢)
زعموا أن ذاك غزوٌ وحج تبب الله أمرهم تنبيبا

ولم ترو كتب التاريخ هذه الفتنة أو الثورة ضد القاضي ، ولعل في ذلك ما يدل على أن الشعر في هذا العصر يقدم إلى المؤرخين وثائق تاريخية قد لا يجدونها في كتب التاريخ المعروفة ، على نحو ما مرّ بنا عند البحري وتسجيله لمعركة ابن دينار البحرية ضد الأسطول البيزنطي وحرقه ، فإن كتب التاريخ لم تشر إلى ذلك بحرف . وتتردد في الديوان أسماء أصدقاء كثيرين في مقدمتهم أبو عثمان الناجم راويته ، وقد حضر موته ، وابن المسيب الكاتب وأحمد بن عبيد الله وأحمد بن بشر المرتضى وكان كاتباً في ديوان الموفق وابن عمار^(٣) ، وكان شاعراً ومن نقدة الشعر في عصره . وأكثر قصائده التي وجه بها إلى المرتضى يطلب إليه فيها بعض السمك ، ويقال إنه كان قد وعده أن يبعث إليه كل يوم بوظيفة منه لا يقطعها ، فبعث إليه يوم سبت

(١) الديوان ص ٣٠٩ .
(٢) التحصيب هنا : ربي الجمار بمنى .
(٣) انظر توصيته لأبي سهل بن نوبخت به

في الديوان ص ١٢٣ .

بهدية منه ، ولم يرسل السبب التالى . فكتب إليه قصيدة يقول فيها (١) :

ما لحيثاننا جَفَتْنَا وَأَنْتَى أَخْلَفَ الزَّائِرُونَ مُنْتَظِرِهِمْ
قد سَبَتْنَا وما أَتَتْنَا وكانوا يوم لا يسبتون لا تأتِيهم

ومن الشخصيات التى ظل يمدحها طويلا على بن يحيى النجم ، وهو من كبار المثقفين فى عصره ، وسبق أن تحدثنا عن مكتبته العظيمة ، وكان شاعراً وندباً رفيعاً للخلفاء من المتوكل إلى المعتمد ، ولا يُعرف بالضبط بدء اتصال ابن الرومى به وله فيه قصائد ومقطوعات كثيرة ، وله يعاتبه (٢) :

لَتَهَنَّا رِجَالٌ لَا تَزَالُ تَجُودُهُمْ سَحَابٌ مِنْ كُلِّ يَدِيكَ مُوَاطِرُ
عُنَيْتَ بِهِمْ حَتَّى كَانَتْكَ وَالِدُ لَهُمْ وَهُمْ - دُونِي - بَنُوكَ الْأَصَاغِرُ

ومن تدور أسماءهم فى ديوانه جَحَظَةُ ، وكان شاعراً ويحسن الضرب على الطبل ، وكان ينادم المعتمد ، وهو نديم من نوع آخر غير نوع على بن يحيى النجم ، نديم مضحك ، يتخذ للهزؤ به والفكاهة . وكان يصطلم بكثير من الشعراء فى عصره فيكويهم بأهاجيه ، وفى مقدمتهم مثقال وهو محمد بن يعقوب الواسطى ، وإبراهيم البيهقى شاعر عبيد الله بن عبد الله بن طاهر ، وأبو حفص الوراق ، وابن أبى طاهر وابن الحبازة وخالد القحطبي ، فقد كان يُشِيبُ مع كل شاعر منهم معركة حامية الوطيس ، وكان دائماً هو المنتصر لخصب ملكاته وخياله . وتعرض بالهجاء للمبرد لأنه كان يقف فى صف البحرى ضده ، وتبعه تلميذه الأخفش فى هذا التعصب ولم يكتف بإعلان رأيه فى شعره ونقده فقد كان يأتيه من قبل تطيره كما أسلفنا ، ومن كان يعيب شعره نقطويه النحوى ، ولذلك لم يسلم من أهاجيه .

ويُظَلِّهُ عصر المعتضد منذ سنة ٢٧٩ ، وكانت قد عادت الخلافة إلى بغداد حاضرتها السابقة منذ سنة ٢٧٦ ، ويحس كأن الحياة أقبلت عليه وعلى مسقط رأسه كليهما . ويكثر من ذكر المعتضد فى قصائد ومقطوعات مختلفة ، ويبدو أنه لم ينشد أمامه واحدة منها ، فقد كان تشيعه لا يزال يبعده عن القصر ، وفى رأينا أنه

(١) ذيل زهر الآداب ص ٢٣٩ .

(٢) الديوان ص ٣٤٢ .

هو السبب الأهم في أن الوزراء كانوا يقبلون عليه ثم يزورون عنه اضطراراً لما ذاع من تشيعه. ونرى ابن الرومي يتعرض في أشعاره له لبسالته في حروب الزنج، ولتأخير النيروز مفتتح الخراج إلى الحادي عشر من حزيران وسماء النيروز المعتضدي قاصداً بذلك إلى الرفق بالرعية - كما مرّ بنا في غير هذا الموضع - وكان عملاً جليلاً. ويذكر بسالته في صيد الأسد، ويهنئه بالأعياد وبزواجه من قَطْرَ الندى الأميرة المصرية بنت خمارويه لسنة ٢٨١ وله يقول في هذه المناسبة^(١):

يا سيد العرب الذي زُفْتُ له باليُمْنِ والبركات سيدة العجم
اسعد بها كسعودها بك إنها ظفرت بما فوق المطالب والهمم
ظفرت بملئى ناظرها بهجةً وضميرها نبلا وكفيها كرم
شمس الضحى زُفْتُ إلى بدر الدجى فتكشفت بهما عن الدنيا الظلم

وكانت الوزارة قد تحولت منذ سنة ٢٧٨ إلى آل وهب، ويبدو أن صلة الشاعر بهم ترجع إلى أمد أبعد من ذلك، وبمجرد وصولهم إلى الوزارة نراه يقدم مدائح لعبيد الله بن سليمان بن وهب، وكان كاتباً مجيداً، ومديراً لشئون الدولة حصيفاً، وكان له أخ يسمى وهباً مدحه ابن الرومي في غير قصيدة كما مدح ابنه الحسن والقاسم، وهو يهمل طويلاً لحجى دولتهم، وتارة يمدحهم مجتمعين باسم آل وهب، وتارة يفرد لكل منهم القصائد الطويلة، ومن قوله في مديح عبيد الله^(٢):

إذا أبو قاسم جادت يداؤه لنا لم يُحمد الأجودان : البحر والمطرُ
وإن مضى رأيه أو حدَّ عزمته تأخر الماضيان : السيفُ والقدر
وإن أضاعت لنا أضواء غُمرته تضاءل النيران : الشمس والقمر
ينال بالظن ما يعنى العيان به والشاهدان عليه : العين والأثر

وكان القاسم الابن الأصغر لعبيد الله إلا أنه كان مقدماً عنده لذكائه، ولذلك

(التجارية) ص ٢٦٥.

(١) مروج الذهب للمسعودي ١٨٢/٤.

(٢) ابن الرومي للمقاد (نشر المكتبة

أخذ يوليّه بعض المناصب وهو صغير ، وكان إذا غاب أُنابه عنه . وكان يعطف على ابن الرومي قبل تولي أبيه الوزارة ، ويقال إنه كان يجري عليه راتباً ، حتى إذا دانت الدنيا لأبيه أخذ يُجْزَل له في العطاء ، مما جعل ابن الرومي يُصنّفه مديحاً رائعاً . ولا نكاد نقبل على سنة ٢٨٢ حتى تُعاود ابن الرومي طبيعته ، وكأنما ضاق القاسم وأبوه بكثرة شكواه وإلحاحه المتكرر على العطاء ، ويبدو أن بعض الوشاة الحساد أخذوا يدسون عليه عندهما ، فحاولا إبعاده ، وشعّر بضيق شديد فأخذ يعاتبهما ، وازداد الأمر - فيما يبدو - سوءاً إذ منعا عنه الجائزة أحياناً ، فأخذ يستعطفهما ، غير أنهما لم يصيخا له ، على الرغم من استصراخهما لبؤسه ، وعبثاً يناديهم ألا يضمنوا عليه بالقوت وأن يعرفوا له حق الأديب^(١) حيثذ يفرع إلى قوسه القديم ، قوس الهجاء المرير ، ويريش لهما سهاماً مصمية من مثل قوله^(٢) :

تسميتُ فينا ملوكاً وأنتمُ عبيدُ لما تحوى بطونُ المزاودِ
لكم نعمةٌ أضحتْ بضيقِ صدوركم مبرأةً من كلِّ مُثنٍ وحمادِ
فإن هي زالت عنكمُ فزوالها يجددُ إنعاماً على كلِّ ماجدِ
ويفسد ما بينه وبين آل وهب فساداً لا يمكن رآبه .

وتتردد في الديوان بأخرة من حياة ابن الرومي شخصيات من آل الفرات الذين سيسطع نجمهم في عهد المقتدر ، كما تتردد أسماء شخصيات كثيرة مثل أحمد بن محمد الطائي وإلى الكوفة لعهد المعتمد ، ويبدو أنه ظل متصلاً به حتى أواخر حياته . ويلقانا محمد بن داود بن الجراح الكاتب وأحمد بن محمد الوائلي صاحب شرطة بغداد وعيسى بن موسى المتوكل الذي نعى عليه بخله بمقطوعات ساخرة ، وكاتب مسيحي للقاسم يسمى عَمَرّاً ، وله فيه أهاج تقطر سماً زعافاً ، وابن فراس وكان فيما يبدو لغوياً .

ص ١٧٨ يدعى فيها أن آل وهب أحيوا
دين الصليب وعنوا بتشيد الكنائس وهدم
المساجد .

(١) الديوان ص ٢١٢ .
(٢) الديوان ص ٣٩٦ - ٣٩٧ وانظر
مقطوعة في كتاب ابن الرومي لروفون جيست

ويغصّ الديوان بأسماء كثير من الجوارى القيان المطربات مثل بستان وجلنار
وبدعة وشاجي ودُريرة وغنّاء ووحيد ومظلومة وظلوم ، وأكثرهن كن لوزراء أو لأمراء
مثل عبيد الله بن عبد الله بن طاهر والقاسم بن عبيد الله ، وكان بجوارهن قينات
وجوار لا يعجب بأصواتهن ولا بسماعهن ، مثل شُنْطَف ، وفيها يقول ^(١) :

وإن سكوتها عندي لبُشرى وإن غناءها عندي لمنعى
فقرطها بعقرب شهر زورٍ إذا غنّت وطوقها بأفعى

ومن أهم جوانب الضعف فيه أنه كان نهماً في الأكل نهماً شديداً ، ولذلك يكثر
في أشعاره وصف الأطعمة من كل لون حلو وحامض ، كما يكثر وصف الأشربة ،
ومن عجب أن القدماء وصلوا بين هذا النهم وموته لسنة ٢٨٣ أو ٢٨٤ فقالوا إن
القاسم بن عبيد الله دسّ إليه السم في خشكناجة ، فلما ازدردّها أحسّ بالسم
في بطنه فقام مسرعاً ؛ فقال له القاسم إلى أين ؟ فأجابه إلى حيث أرسلتني ،
فقال له : سلّم على والدي عبيد الله ، فأجابه : ما طريقى على النار . والصحيح
أنه توفي عن نحو ستين عاماً نتيجة لعلله وأمراضه ، وهى على كل حال سن
عالية .

ولابن الرومي ديوان ضخم لم ينشر حتى الآن ، إنما نشر منه الشيخ محمد شريف
سليم جزئين ، ونشر منه كامل كيلاني مختارات باسم ديوان ابن الرومي ، وهو الذى
نرجع إليه غالباً . ومن يتصفح ما نُشر منه يلاحظ تواتراً أنه يختلف عن دواوين
الشعر العربى التى عاصرتة وسبقته ، ففيه موضوعات متنوعة عن الحياة وشروورها
وعن الناس وحرفهم وملابسهم وعن الموت وعن الأطعمة والأشربة ومتنوع الحياة ،
وعن طبائع الناس وعن النساء وأخلاقهن وعن الطرّد والقنص وعن المسرات
والآلام ، بحيث يصبح من الصعب تشكيل موضوعاته بأعداد رقمية . ومع ذلك
سنعرض شعره على الموضوعات الأساسية للشعر العربى ، مع ملاحظة ما يمتاز
به من صفات خاصة به وبشخصيته الشعرية الخصبة . ومرّ بنا في الفصل
الماضى تصوير من بعض الوجوه لذخائره العقلية ، وكيف أدّاه اعتزاله مبكراً إلى أن

يتمثل جميع الثقافات في عصره فلسفية وغير فلسفية . وإذا هو يستقصي المعاني استقصاء نادراً حتى لا يكاد يترك في معنى شعبة دون عرضها والإلمام بها ، وإذا هو يوغل في الأفكار ويستنبط منها مستوراتها الخفية ، وإذا هو يسلط عليها أشعة المنطق بكل أقيستها وعللها ، فتبدو في أضواء واضحة وضوحاً مطلقاً ، وليس ذلك فحسب فإنه استطاع أن يغير في سمات كل موضوع قديم بفضل ما ألقاه عليه من الأضواء والظلال العقلية . وهو بحق يمثل النزعة التجديدية في العصر ، على حين كان البحرى يمثل النزعة التقليدية على نحو ما مرّ بنا في غير هذا الموضع .

وأول ما نقف عنده المديح ، وبعض قصائده فيه يطول طولاً مسرفاً حتى لتبلغ القصيدة نحو ثلثمائة بيت ، وعادة يقدم لمداخلة بما تعارف عليه الشعراء من قبله من مقدمات ، ولكنه ينوّع فيها ، فقد يختار النسيب مثلاً ، ولكنه يتحوّل به كما في قصيدته النونية^(١) التي مدح بها أبا الصقر إسماعيل بن بلبل إلى تجسيد فواكه البستان في المرأة ، حتى سمّي بعض معاصريه — كما أسلفنا — القصيدة باسم دار البطيخ وكانوا يطلقونها على دكان الفاكهة . وقد يختار وصف^(٢) الطبيعة والربيع ويُسند في وصفه ، إذ كان مفتوناً بها فتنة العاشقين الواهمين ، مما يميزه بحق عن شعراء العربية . وقد يدمج في القصيدة وصف^(٣) مجلس سماع ؛ فيصور آلات اللطرب ومن يحمّلونها من القيان في صور بديعة على نحو ما يلقانا في نونيته التي مدح بها عبيد الله بن عبد الله بن طاهر ، والتي يفتتحها بقوله^(٤) :

وقيانٍ كأنها أمهاتٌ عاطفاتٌ على بنّيتها حَوَانٍ

وقد أنشدنا منها قطعة في الفصل الماضي . ويضيف إلى وصف مثل هذا المجلس ذكر الخمر . وقد يختار بكاء الشباب الذي طالما تغنّى به الشاعر العربي ، ولكنه يعرضه عرضاً جديداً على نحو ما نرى في مقدمة قصيدته البائية^(٤) التي مدح بها علي بن يحيى المنجم ، فقد تحدث فيها عن الشيب والحضاب ودعاه حداداً كثيراً

(١) الديوان ص ٢٠ .

(٢) الديوان ص ٨٤ .

(٣) الديوان ص ١٧٧ .

(٤) الديوان ص ٢٩٩ ، وقد دون كامل

كيلاني المقدمة وحدها دون المديح .

على الشباب من شأنه أن يبكي صاحبه بدموع غزار ، ثم أخذ يصور سخرية
الفتيات بخضابه باكياً الشباب بكاء لا دعاً . ويحذف المقدمة أحياناً طلباً للاختصار
والوقوف عند عشرات الأبيات لا عند المئات - وتبلغ بعض المقدمات عنده أحياناً
نحو مائة بيت - ويتفنن بعد ذلك في المديح ، ومن الطريف أنه كان يلاحظ أن
الشعراء فيه يبالغون ويفرطون في مبالغاتهم فينسبون إلى الممدوحين ما لا يفعلون ،
مسبة لا تمحى وعار ما بعده عار ، حتى ليصدق عليهم قوله تعالى : (والشعراء
يتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ أَلَمْ تَرَأَهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ) (الشعراء
ويستوحى ابن الروي الآيات قائلًا^(١) :

يقولون مالا يفعلون مسبةً من الله مسبوبةً بها الشعراء
وما ذاك فيهم وحده بل زيادة يقولون مالا يفعل الأمراء
فهم يقولون ما لا يفعلون ، وليس ذلك فحسب ، بل يقولون أيضاً ما لا يفعل
الأمراء ، كذباً وبُهْتاناً . وكأن ابن الروي أحسَّ في قوة ما كان يحمله المديح
لعصره من كذب صراح . وإذا كنا لاحظنا أنه حاول التنويع في مقدمات المديح فإننا
نلاحظ أنه حاول التنويع في المديح نفسه ، فإنه لم يقصره على المعاني المطروقة ،
ويوضح ذلك مديحه لعلي بن يحيى المنجم في بائيته التي أشرنا إليها ، آنفاً ، فإنه مضى
فيها يمدحه على هذه الشاكلة :

لَوَدَعَىٰ لَهُ فَوَادٌ ذَكِيٌّ	ماله في ذكائه من ضريب
أَلْمَعَىٰ يَرَىٰ بِأَوَّلِ ظَنٍّ	آخر الأمر من وراء الغيب
لَا يَرَوِي وَلَا يَقْلِبُ كَفًّا	وأكفُّ الرجال في تقليب
حازم الرأي ليس عن طول تجريد	بِ لبيب وليس عن تليب
يَتَغَابَىٰ لَهُمْ وَلَيْسَ لَمُوقٍ	بل للبُّ يفوق لُبُّ اللبيب
لَيْنٌ عِظْفُهُ فَإِنْ رِيمَ مِنْهُ	مَكْسَرُ الْعُودِ كَانَ جِدًّا صَلِيبُ

وواضح أن هذا مديح من نوع غير مألوف ، مديح بالطباع والشماثل والملكات ؛

فهو يمدحه بالذكاء وحسن البديهة والنظر الثاقب ، دون إبطاء في الرأي أو ندم يلحقه ، وهو حازم لبيب بالفطرة ، يتغلب قصداً وسيد القوم المتغلب ، ويبدولين الملمس وهو صلب العود صلابة شديدة . ومصدر هذا الجانب في مديحه بدون ريب قدرته الخارقة على تحليل المعاني واستقصائها ، وكانت له قدرة خارقة أيضاً على النفوذ إلى كثير من الأخيلة المبتكرة من مثل قوله في حسّاد صاعد مصوراً مجده الوطيد^(١) :

وضدّ لكم لا زال يسفلُ جدُّه ولا برحتْ أنفاسُهُ تتصعدُ
ولو قاس باستحقاقكم ما منحتمُ لأطفأ نارا في الحشا تتوقّد
وأتق من عقد العقيلة جيدها وأحسن من سربالها المتجرّد

وكانت لديه قدرة بارعة على عرض أخيلته في مثل هذه الأقيسة ، فصاعد يستحق مجداً عظيماً فوق ما منح من مجد الوزارة الذي أسبغ عليه بفضل حزمه وحسن تدبيره ، وما مثل الوزارة بالقياس إليه إلا مثل العقد في الجيد الجميل جمالا يفوقه ، بل مثل الثوب يُضفّسى على الجسد الفاتن . ويجمع بين جمال الحلقة والأخلاق في بعض ممدوحيه وينفذ إلى هذه الصورة البديعة^(٢) :

كلّ الخصال التي فيكم محاسنكم تشابهت منكم الأخلاق والخلقُ
كانكم شجر الأترج طاب معاً حملاً ونوراً وطاب العود والورق

فهم مثل شجر الأترج يطيب عوده وورقه وزهره وثمره ، طيب على طيب ، وكثيراً ما تلقانا مثل هذه الأخيلة الدقيقة في مديحه كقوله في بعض ممدوحيه :

أوفى بأعلى رتبةٍ وتواضعتْ آلاؤه فأحطن بالأعناقِ
كالشمس في كبد السماء محلّها وشعاعها في سائر الآفاقِ

والهجاء فنّه الذي لا يبارى فيه ، وهو يتخذ عنده لونين : لوناً قائماً كله إقذاع وسبّ وهتك للأعراض وقد يُطيل فيه إلى مئات من الأبيات ، ولوناً زاهياً ينحو

والترجمة والنشر) ص ٧٠ .
(٢) زهر الآداب ١٤٦/٤ .

(١) زهر الآداب ١٨٣/١ وانظر المختار
من شعر بشار للتجوي (طبع لجنة التأليف

فيه منحى السخرية والإضحاك ، وهو اللون الأهم في هجائه ، لأن اللون السابق كثيراً ما نجده عند سابقيه ومعاصريه ، أما الهجاء الساخر فقد نَسَمَّاه إلى أبعد حد تُسَعِّفه في ذلك قدرة بارعة على استغلال العيوب الجسدية في مهجويته ، حتى ليصبح شبيهاً أدق الشبه بأصحاب الصور الكاريكاتورية ، فهم يستغلون العيوب الخلقية ويبرزونها بالطول أو بالعرض أو بالتضخيم أو بالتصغير لإبرازاً مضحكاً في كل صوره ، وكذلك كان ابن الرومي هَجَّاءً ساخراً يعرف كيف يصور العيوب الجسدية والمعنوية تصويراً مضحكاً ، ومرَّ بنا في الفصل الماضي تصويره لشُحِّ عيسى بن موسى بن المتوكل وأنه لو استطاع لتنفس من منخر واحد أو فتحة واحدة من فتحتي أنفه بخلا وحرصاً ، وكذلك تصويره لبعض مهجويته بحيوانات مجتره ، ولم يعجبه بعض المغنين فسوره في تحرك فكَّيه بالغناء بالبغل حين يحرك فكَّيه لأكل طعامه . ومرَّ بنا أنه كانت تؤذيه إيداء شديداً رؤية جار له أحْدَب ، وانتقم لنفسه منه بقوله فيه ^(١) :

قَصُرَتْ أَخَادَعُهُ وَغَابَ قَدَالُهُ فَكَأَنَّهُ مَتَرَبُّصٌ أَنْ يُضْفَعَا
وَكَأَنَّمَا صُفِّعَتْ قَفَاهُ مَرَّةً وَأَحْسَ ثَانِيَةً لَهَا فَتَجْمَعَا

فجعلله الدهر مصفوعاً يحاول أن يتقى صَفْعَهُ بتجميع قفاه إلى ظهره ، وكانت تؤذيه اللحي حين تخرج عن مقدارها الطبيعي فيهبجوها ويهبجو أصحابها هجاء ساخراً مضحكاً ، وله فيها مقطوعات هزلية قصيرة وطويلة ، ومن أطرفها وأجمعها للهزؤ والسخرية قوله في لحية بعض مهجويته ^(٢) :

إِنْ تَطُلْ لِحِيَةً عَلَيْكَ وَتَعْرِضْ فَالْمَخَالِي مَعْرُوفَةٌ لِلْحَمِيرِ
عَلَّقَ اللَّهُ فِي عِذَارِيكَ مِخْلًا وَلَكِنَّهَا بَغِيرِ شَعِيرِ
أَزَعُ مِنْهَا الْمُؤَسَّى فَإِنَّكَ مِنْهَا يَشْهَدُ اللَّهُ فِي أَثَامِ كَبِيرِ
مَا تَلَقَّاكَ كَوَسْجٍ قَطُ إِلَّا جَوَّرَ اللَّهُ أَيْمًا تَجْوِيرِ
لِحِيَةً أَهْمَلْتُ فطالَتْ وَفَاضَتْ فَإِلَيْهَا تَشِيرُ كَفُ الْمَشِيرِ

ما رأتها عينُ امرئٍ ما رأتها قَطُّ إلا أهلٌ بالتكبيرِ
 روعةٌ تستخفه لم يُرغها من رأى وجهَ مُنكرٍ ونكير
 فاتق الله ذا الجلال وغير مُنكرًا فيك ممكن التغير
 أو فقصرَ منها فحسبك منها نصفُ شبرٍ علامة التذكير
 لو رأى مثلها النبي لأجرى في لحيِ الناس سُنَّةَ التقصير
 واستحب الإحفاءَ فيهنَّ والحلَّ قَ مكان الإعفاء والتوفير

وقد استهل ابن الرومي المقطوعة بتشبيه تلك اللحية بمخللة حمار ولكن بدون شعر ، ونصح صاحبها أن يجعل الموسيقى يرعاها ويأخذها من جميع أطرافها ، وجعل محافظته عليها إثماً كبيراً فإن الكوسج خفيف اللحية إذا رآها نسب إلى الله الجور والظلم في قسمة الأرزاق ، وقد طالت حتى غدت فرجة للرائحين والغادين يشيرون إليها بأكفهم وأصابعهم متعجبين ، بل إنهم ليصيحون الله أكبر ، للروعة الشديدة التي تأخذهم ، وإنها لأكثر هولاً من وجه ملكي القبر : منكر ونكير ، ويدعوه أن يتق الله ويغير هذا المنكر الذي يحمله على وجهه في ذهابه وإيابه ، أوليْقَصْرَها ، فنصفُ شبرٍ منها كاف على التذكير والرجوة ، ويقول إن الرسول عليه السلام لو رآها لأبدل السنة فلم يجعلها تطويل للحي بل جعلها تقصيرها ، بل لعله كان يجعل السنة قصصاً ومحوها محواً . وهو يشير في البيت الأخير إلى الحديث النبوي : « احفوا الشوارب واعفوا اللحى » . وكان كاتبٌ مسيحي للقاسم بن عبيد الله يسمى عمرّاً كثيراً ما كان يحجبه ، فأصلاه ناراً حامية من أهاجيه^(١) . وكان لا يزل يلوح العيوب الجسدية في مهجويه ، عابثاً بهم عبثاً كله مسخرية وفكاهة يتندبر .

وكان ابن الرومي يجيد فن الرثاء ، بحكم قدرته على التعبير عن الأحاسيس والمشاعر ، وأيضاً فإنه كان يستشعر في أعماقه حزناً ممضاً ، لأنه لا يأخذ حقوقه في عصره بالقياس إلى غيره من الشعراء الذين يتفوق عليهم تفوقاً واضحاً ، فكان شعوره

بالبؤس والحرمان يضاعف حزنه ، وكأنما الحياة كلها أمامه كانت أحزاناً ومآتم ،
وتصادف أن مات له ثلاثة أبناء ، فبكاهم بكاء حاراً ، ومسرّ بنا في الفصل الماضي بكاءه
على ابنه الأوسط الذي مات منزوفاً وهو لا يزال في المهده طفلاً صبيّاً ، وقد نصب
بقصيدته له مأتماً كبيراً صور فيه موته ونزيفه تصويراً مخزناً ، ثم بكاه بكاء مرّاً .
ومن قوله في رثاء ابنه الثالث ^(١) :

أَبْنَىٰ إِنَّكَ وَالْعِزَاءَ مَعًا بِالْأَمْسِ لُفَّ عَلَيْكُمَا كَفَنُ
مَا فِي النَّهَارِ - وَقَدْ فَقَدْتِكَ - مِنْ أَنَسٍ وَلَا فِي اللَّيْلِ لِي سَكَنُ
مَا أَصْبَحْتُ دُنْيَايَ لِي وَطَنًا بَلْ حَيْثُ دَارَكَ عِنْدِي الْوَطَنُ

وله مرثية في أمه وأخرى في أخيه محمد ، وبجانب ذلك نجد له عزاء من حين
إلى حين ، وأسلمنا في الفصل الماضي عزاءه في ابنة علي بن يحيى المنجم ، وله عزاء
مشابه للمسيبي الكاتب صديقه يعزيه عن ابنته بأن أحداً لن يخلد في الدنيا ، وأن
تلك إرادة الله ولا راد لمشيئته ، يقول ^(٢) :

أَصْبَتَ وَمَا لِلْعَبْدِ عَنْ حُكْمِ رَبِّهِ مُحِيطٌ وَأَمْرُ اللَّهِ أَعْلَىٰ وَأَقْهَرُ
تَعَزَّيْتُ عَمَّنْ أَثْمَرْتُكَ حَيَاتُهُ وَوَشَكُُّ التَّعَزَّى عَنْ ثَمَارِكَ أَجْدَرُ
فَلَا تَهْلِكُنْ حَزَنًا عَلَى ابْنَةِ جَنَّةٍ غَدَتْ وَهِيَ عِنْدَ اللَّهِ تَحِيًا وَتُحَبَّرُ

وكان ما بنى ينفذ إلى أخيلة ومعان طريفة حتى في الموت ، ولعله أول من حبَّب
الموت إلى غيره ، وكأنما كان يراه خلاصاً من حياته ومن الناس والأصدقاء الذين
لا ينصفونه ، مما جعله يقول ^(٣) :

قَدْ قُلْتُ إِذْ مَدَحُوا الْحَيَاةَ فَأَكْثَرُوا لِلْمَوْتِ أَلْفَ فَضِيلَةٍ لَا تُعْرَفُ
فِيهِ أَمَانٌ لِقَائِهِ بَلْقَائِهِ وَفِرَاقُ كُلِّ مَعَاشِرٍ لَا يُنْتَصَفُ
وتعبيره عن أن الموت أمان للإنسان من خوفه المروع بلقائه من أدق ما يمكن ،
وهو لا يبارى في النفوذ إلى كثير من المعاني والأحاسيس الدقيقة . وقد عرضنا في

(٣) ديوان المعاني ١٧٢/٣ .

(١) الديوان ص ٣١ .

(٢) الديوان ص ١٠٤ .

الفصل الماضي مرثيته المتهبة للبصرة حين حرقها الزنج ودمروها .
ويكثر العتاب في ديوان ابن الرومي ، وقصيدته في عتاب أبي القاسم النوزي
الشطرنجي مشهورة ، ومترّ بنا في الفصل السالف قطعة بديعة منها في وصف
لعب أبي القاسم بالشطرنج ، وكان أمهر معاصريه في لعبه ، غير أنا نقف الآن
عند عتابه ، وقد عرضه عرضاً طويلاً طريفاً ، إذ أخذ يذكره بما كان بينهما من
صفاء ، ثم نشأت بعد ذلك هنوات لا يرضاها الصديق ، يقول :

كشفت منك حاجتي هنوات غُطِيتُ برهةً بحسن اللقاء
تركنتي ولم أكن سيئ الظَّ نَّ أسيءُ الظنون بالأصدقاء
قلت لما بدتُ لعيني شُنعاً رُبَّ شوهاء في حشاً حسناء

ومضى في حوار طويل بينه وبين تلك الهنوات الصغيرة ، يقول لها ليتني لم
أهتك سِرْكُنَّ وهن يقلن له بل لقد صنعت حسناً ، إذ لو لم تفعل ذلك لظلمت في
ظُلْمِ الشك من صاحبك ضالاً حائراً ، وإن من الخير أن ننكشف لك حتى تعرف
أمكنة الداء منه وتطب لها طبيباً يداويها دواء يشفي الصديق ، ويعتب على أبي القاسم
أنه لم يُنلِهُ نوالاً ولا ردّاً كريماً ، ويظل يستعطفه طويلاً . وقد أسلفنا في الفصل
الماضي قطعة بديعة له في عتاب آل وهب .

ولابن الرومي غزل كثير يأتي به مستقلاً تارة ، وتارة في مقدمات قصائده ، وقلما
يصوغه بصيغة المذكر مما يدل على أنه لم يكن صاحب غلمان مثل أبي نواس أو حتى
مثل البحري ، ومرت في الفصل الماضي قطع مختلفة له في وصف العناق وجمال العيون
ومن بديع ماله في وصف الشعر المسترسل حتى مواطي القدم قوله ^(١) :

وفاحمٍ واردٍ يقبلُ ممَّ شاكٍ إذا اختال مسبلاً غُدْرَهُ ^(٢)
أقبل كالليل من مفارقة منحدراً لا يذمُّ مُنْحَدْرَهُ
حتى تناهى إلى مواطئه يلثم من كل موطئ عَفْرَهُ ^(٣)
كأنه عاشقٌ دنا شغفاً حتى قضى من حبسه وطَرَهُ

(٣) المفرد : ظاهر التراب .

(١) زهر الآداب ١٦/٣ .
(٢) القدر : ذوائب الشعر وقطعه .

وهي صورة فريدة أسعفته بها قدرته على الاستقصاء في وصف المحسوسات ،
وكثيراً ما يفجأ قارئه بمثل هذه الصور النفيسة في غزاه ، وكأنما تحول عقابه إلى ما يشبه
كنزاً سائلاً بالدرر ، فهو لا يني يَطْرَف قارئه بمعنى مُسْتَحْدَث أو خيال مبتكر
من مثل قوله (١) :

لا شيء إلا وفيه أحسنه فالعين منه إليه تنتقل
فوائد العين منه طارفة كأنما أخرياتها الأول

فكل شيء وكل عضو في صاحبه فتنة من الفتن حسناً وجمالاً ، فالعين
ما تزال تنتقل ، وكلما تركت عضواً عادت إليه مفتونة ، حتى لكأنما انمحت
فكرة الأول وأعقابها ، فكل شيء من الأول ، وكل شيء لا يكاد النظر
يفرغ منه حتى يعود إلى التملّ به . وله قافية نظمها في جارية سوداء لممدوح له من
البيت العباسي هو عبد الملك بن صالح ، وفيها يقول معللاً علة حسنة لسوادها :

أكسبها الحب أنها صُبغت صبغة حبِّ القلوب والحدق

ويبدو أن بعض الجوّاري عَبَّشَنَ به وغدَرَنَه في حبه ومكْرَنَ مكرّاً خبيثاً ،
ولذلك نراه في نونيته المسماة بدار البطيخ يُصَدِّر أحكاماً قاسية على النساء عامة ،
من مثل قوله (٢) :

ومن عجائب ما يُمَنَى الرجال به مستضعفات لهم منهن أقرانُ
مناضلاتُ بنبلٍ لا تقوم له كئائبُ التُّرك يُزْجِيهِنَّ خاقانُ
ولا يذْمَنَ على عَهْدٍ لمعتقد أنى وهن - كما شُبَّهْنَ - بستانُ
يميل طوراً بحمل ثم يُعْذَمُه ويكتسى ثم يُلْفَى وهو عريانُ
يغدرن والغدر مقبوحٌ يزيْنُه للغايات وللغاوين شيطانُ

وقد يكون دافع ابن الرومي إلى مثل هذه الأحكام القاسية على المرأة في عصره
شيوع دور القيان ببغداد وأن كئيرات من الجوّاري لم تكن سيرتهن حسنة .

(٢) الديوان ص ٢٠ وما بعدها .

(١) ديوان الماعني للمعري ٢٣٢/١ .

وكانت الطبيعة تستأثر بكل مشاعره وعواطفه ، مما جعله يَكَلِّفُ بها كَسَلًا شديداً ، بل لقد تَحَوَّلَ عاشقاً لها عشقاً لا نألفه عند شعراء العربية من قبله ، فهو يعيش فيها مع كل حركة وكل همسة وكل وسوسة معيشة قوية حارة ، معيشة محب واله ، يرى الطبيعة من حوله ، وقد تحولت وجوهاً فاتنة ناطقة ، وكل شئ فيها يُغْرِيه بالنظر واللمس والشم ، حتى لنحس كأنما يفنى في الطبيعة فناء أصحاب المنزعة الرومانسي الغربي ، وكأنما الحجب تُرْفَعُ بينه وبينها في كل يوم فيزداد بها ولهاً ويزداد سروراً وغبطة ، وقد عرضنا في الفصل الماضي منظر الغروب وتجسيده لوداع الشمس للطبيعة وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة . ونكتفي هنا بأن نسوق مثلاً لتصويره الربيع ، يقول (١) :

ورياض تخاليل الأرض فيها	خَيْلاء الفتاة في الأبرار
ذات وشي تناسجته سوار	لبقات بحوكة وغوادي (٢)
فهى تشنى على السماء ثناء	طيب النثر شائعاً في البلاد
من نسيم كأن مسراه في الأر	واح مسرى الأرواح في الأجساد
منظر معجب تحية أنف	ريحها ريح طيب الأولاد
تداعى بها حمام شتى	كالبواكى وكالقيان الشوادي
تتغنى القرائن منهن في الأي	لك وتبكي الفرائد شجوة الأفراد

فالأرض تترامى له كأنها فتاة حسناء تختال في برود الربيع البهيجة ، وشيها الذى نسجته السحب نسجاً بديعاً ، وهى تُشْنى على السماء ثناء عاطراً ، والنسيم يسرى في الأرواح سريان الأرواح في الأجساد ، وما أجمله من منظر وما أروع من عطر للطبيعة يملأ النفس حناناً وعطفاً كرائحة الأولاد النجباء ، والحمام تتناغى بين باقيات وشاديات ، أما الشاديات فيتغنين لرفقائهن ، وأما الباقيات فنفرديات ليس هن قرين ، وكأنهن يبكين الانفراد . والقطعة تعج بالحياة ، بل قل إنها تعج بالحلب حب شاعر أغرم بالطبيعة وملأت قلبه برأ وحناناً ومودة . ولفت هذا الجانب

السواري والغوادي : السحب .

(١) الديوان ص ٧٥

(٢) تناسجته : اشتركت في نسجه .

عند ابن الرومي العقاد، فقال إنه أثر من آثار وراثته اليونانية، ولكن اليونان لم يُعرف عندهم شعر الطبيعة، هم ملأوها بالآلهة، ولكنهم لم يفصحوا عن مشاعرهم إزاءها على نحو ما نجد عند ابن الرومي، وأوربا نفسها في عصرها الكلاسيكي في أثناء القرنين السابع عشر والثامن عشر، حين كانت تحاكي الآثار اليونانية، لم يُعرف عندها هذا النوع من الشعر، إنما عُرف في العصر الرومانسي في أثناء القرن التاسع عشر، حين انفكَّت من محاكاة الآثار اليونانية^(١). على كل حال كان ابن الرومي يُشغَفُ بالطبيعة ويكأسفُ بها كاسفًا لم يعرف لشاعر قديم.

وجعلته قدرته على نقل المشاهد الحسية يسرع في وصف مجالس الأنس وما يجري فيها من خمر وسماع. وهو لا يتورط في المجون والإثم تورط أبي نواس وأمثاله، وليس معنى ذلك أنه لم يكن يحتسى الخمر، فقد كان شربها شائعاً في عصره، ومرّت بنا في غير هذا الموضع الأبيات المشهورة التي يقول فيها إن أبا حنيفة أحلَّ النبيذ. ودعا الخمر في بعض شعره ريق الدنيا، يقول:

فتى هجر الدنيا وحرّم ريقها وهل ريقها إلا الرحيق المبرّد
وقد أكثر من وصف مجالس السماع، وجعله ذلك يكثر من وصف المغنين والمغنيات، وكانت أذنه مرهفة وشعوره حاداً، فإذا لم يقع المعنى أو المغنية من أذنه موقعاً حسناً صبَّ عليهما شواظاً من هجائه، على نحو ما مرّ بنا في هجائه لشنطف، ولعل أروع تصوير لمغنية محسنة تصويره لغناء وحيد، وكانت فتنة صوتاً وحسناً، وفيها يقول^(٢):

تتغنى كأنها لا تُغنى	من سكون الأوصال وهي تجيد
لا تراها هناك تجحظ عين	لك منها ولا يدُرُّ وريد ^(٣)
من هلدو وليس فيه انقطاع	وسُجو وما به تبليد ^(٤)
مدّ في شأو صوتها نفس كا	ف كئفاس عاشقيها مديد

(٣) يدر: يتفتح ويتور. الوريد: عرق

في العنق.

(٤) الهدو: انخفاض الصوت. السجو:

مده. التبليد: التقطع.

(١) انظر في مناقشة هذه المسألة كتابنا

الفن ومذاهبه في الشعر العربي (طبع دار

المعارف) ص ٢٠٨ وما بعدها.

(٢) الديوان ص ٩٨

واشتهر بإكثاره من وصف ألوان الطعام والفاكهة ، وقد ذكرنا له في الفصل الماضي قطعاً مختلفة في وصف دجاج مشوى ومرققات وقطائف وعنب رازق ، وديوانه زاخر بأمثالها ، وهى أثر من آثار نهجه في الطعام ، وأيضاً من آثار براعته في وصف كل ما يشاهده ويقع عليه حسه ، وإه قطعة معروفة في وصف الرقاق وأخرى في وصف قالى الزلابية يقول فيها ^(١) :

كأنما زَيْتُهُ المقلَى حين بدا كالكيمياء التى قالوا ولم تصبِ
يُلْقَى العجين لُجِينًا من أنامله فيستحيل شبابيكاً من الذهب ^(٢)

وهذا الجانب عنده جعله قريباً من ذوق العامة ، وأدنى إلى أن يصبح شاعراً شعبياً ، ومن تنمة هذه الشعبية فيه أن نراه يصف الحمّالين والشوّائين ، كما يصف الثياب البالية ، وكان قد تعلق بوصفها الشاعر المعروف باسم الحمدوني ، فنزع منزعه في هذا الجانب بمثل قواه ^(٣) :

معمّرٌ قال نوحٌ حين أبصره إنا محيوك فاسلم أيُّها الطلّل
أميل في الطرُق خوفاً من مزاحمة تهده فكأنى شاربٌ تسمّل

وأكبر الظن أن هذا الجانب الشعبي هو الذى جعله يهتم بالزهاد والوعاظ ، وليس في حياته ما يصله بالوعظ والزهد ، وقد ذكرنا له موعظة في الفصل الماضي ، وكأنما كان يتغنى مشاعر الشعب في وعظه وتصويره للزهاد . وحقاً أن ديوانه يجرى فيه تشاؤم واسع ، ولكن التشاؤم شيء والزهد شيء آخر ، فالزهد انصراف عن الدنيا ومتاعها الزائل ، والتشاؤم — وخاصة عند ابن الرومى — نقمة على فقدان المتاع بالحياة ، وهى نقمة صُبّت على شاعر نابه امتاز بقلب ذكى وحس مرهف وشعور دقيق ، فضى في كثير من جوانب شعره بصور الحياة سوداء حالكة ، ويتخذها هى والناس وشروهم وطباعهم موضوعاً لدرسه وشعره . وعلى نحو ما كانت لديه قدرة على وصف كل ما يقع عليه حسه بجميع جزئياته كانت لديه قدرة على النظرات الكلية الجامعة ، فإذا

(١) الديوان ص ٣٧١ .
(٢) اللجين : الفضة .
(٣) انظر مقطوعات أخرى في الديوان ص ٣١٨ .

هو يضع لبعض الأخلاق الذميمة صوراً مجسمة كصورة المتكبر^(١) والأكول^(٢) والثقليل^(٣)، وبالمثل الأخلاق الحمودة كالصبر والتجملد، وقد مثلنا في الفصل الماضي لهما بقطعة من شعره .

وكان ابن الرومي لا يعود إلى أشعاره بتنقيح ولا تهذيب، وكان إذا نظم أكثر وامتد نفسه امتداداً بعيداً . فكان طبيعياً أن يكون في أشعاره ما يهبط درجات عما حوله ، ففيها المصقول وغير المصقول، وفيها ما يرتفع إلى الأفق الأعلى وما يدنو إلى الآفاق الدنيا ، بحكم أنه لا يعاود عمله، ويؤكد ذلك ما يروى عن تلميذه أبي عثمان الناجم من أنه رآه ذات مرة قد غضب، فصنع قصيدة طويلة لساعته كلها هجاء، فسأله أين مسودتها ؟ . فأجابه : هي هذه، فقال له الناجم : ما فيها حرف مصلح ، فقال : قد استوت بديهتي وفكرتي فما أعمل شيئاً فأكاد أصلحه . وليس معنى ذلك أنه يوجد في أشعاره غثّ كثير ، فقد تلافى ذلك عنده ما امتاز به من أفكار وأخيلة نادرة ، وما كان يحرص عليه من بث الفنون الجديدة في أشعاره وخاصة الجناس ، وكانت له أذن موسيقية رائعة . وكل ذلك حمى الصياغة عنده من الهبوط عن المستوى الرفيع إلا ما كان يريد أن يقترب فيه من الذوق الشعبي ، لشعبية كانت متأصلة في ذات نفسه . والحق أنه كان شاعراً بارعاً ، بل لا شك في أنه أبرع شعراء العصر لما يحفل به ديوانه من الموضوعات والمعاني والأخيلة المبتكرة مما يملأ النفس إعجاباً متصلاً به وبأشعاره .

٤

ابن المعتز^(٤)

وُلد عبد الله لأبيه المعتز بسامراء قبل مقتل جده المتوكل في سنة ٢٤٧ للهجرة بأربعين يوماً ، فلم يكد يستقبل الحياة حتى صُرِع جده هذا المصروع الخطير ،

للصولي ص ١٠٧ وما بعدها وكتاب الأغاني
(طبعة دار الكتب المصرية) ٢٧٤/١٠
والفهرست ص ١٧٤ وتاريخ بغداد ٩٥/١٠
ومروج الذهب ٢٠٣/٤ والطبري ١٠/١٤٠
ونزهة الألباء لابن الأنباري وابن خلكان =

(١) الديوان ص ٩٥ .
(٢) الديوان ص ١٧٥ .
(٣) الديوان ص ٧٣ .
(٤) انظر في ابن المعتز وحياته وشعره
كتاب الأوراق : أشعار أولاد الخلفاء

صرّعه جنده وقواده الأتراك الذين فسّح لهم في الحكم والسلطان والتسلط ، فإذا هم يسفكون دمه غير مراعين عهداً ولا ذمّة . وسرعان ما يتوفى ابنه المنتصر الذى خلفه ، ويصبح الخلفاء لعبة في أيديهم ، فيولّون المستعين ويخلعون ويقتلون ، ويولّون المعتز (٢٥٢ - ٢٥٥ هـ) وكان لا يزال في نحو العشرين من عمره ، وكان جميل الوجه ، وكأنما ورث جمال أمه الرومية التى سماها المتوكل قبيصة لجمال صورتها ، من أسماء الأضداد ، وكان مرهف الحس رقيق الذوق دقيق المشاعر ، مما أنطقه بالشعر المصفى . وكان يعكف على اللهو والصيد . فجالسه لا تزال غاصة بشارية وعريب وزُنام وابن بنان وغير هؤلاء من الغنيات والعنّين ، ومواكبه لا تزال ذاهبة آية من الصيد . وفي مواضع مختلفة من كتاب الديارات للشابشتى نرى قصفه وشرابه وسماحه للغناء في قصره وفي بعض الأديرة ^(١) ، ونطلع على جانب من ترفه في قصره « الزوّ » و « الكامل » بسامراء ، وصرّ بنا وصف البحرى للقصر الأخير وبستانه الممتد أمامه ، ولعله نفس البستان الذى كان يزخر بالحيوانات ، والذى كان يتسلّى بالفرجة فيه هو وأصدقاؤه على السبع والفيل كيف يتواثبان ^(٢) .

وكانت أم عبد الله بدورها من الجوارى ، ولعلها كانت أيضاً رومية الأصل مثل جدته ، فقد كان جميل الحياء ، وورث عن أبيه كل طباعه ، فهو مثله جميل السجيا رقيق المشاعر . وكان ذكى القلب صافى العقل ، فأضاف إلى ترفه الذى نشأ منغمساً فيه إقبالا متصلا على الدرس منذ نعومة أظفاره ، حتى ليلفت ذلك البحرى ، وهو لا يزال في التاسعة من عمره ، فيملحه قائلا ^(٣) :

أبا العباس برزت على قومه لك آداباً وأخلاقاً وتبريزا
فأما حليّة الشعر فتستولى على السبق بها قرصاً وتميزا

وطبعة القاهرة ، وطبع بعض المستشرقين منه جزوين في إستانبول . وتوجد منه مخطوطة برواية الصول بدار الكتب المصرية .

(١) الديارات ص ١١٠ ، ١٦٤ .

(٢) الديارات ص ١١١ .

(٣) ديوان البحرى ٢ / ١١١٩ .

= وفوات الوفيات ١ / ٢٤١ ومراة الجنان
لليافى ٢ / ٢٢٥ وشدرات الذهب ٢ / ٢٢١
والنجوم الزاهرة ٣ / ١٦٤ وفي مواضع مختلفة
وعبد الله بن المعتز العباسى لمحمد عبد العزيز
الكفراوى (طبع مكتبة نهضة مصر) بالقاهرة
وديوانه طبعة بيروت ، وهى التى نرجع إليها

وقد يكون في ذلك مبالغة على عادة الشعراء في الديح ، لكن على كل حال في البيتين وقصيدتهما ما يدل بوضوح على أن ابن المعتز كان يكبُّ على القراءة وأن موهبة الشعر بدأت تستيقظ في نفسه في هذه السن الصغيرة . ويبدو أن أباه كان معجباً به إعجاباً شديداً مما جعله يضرب باسمه الدنانير . ويسجل ذلك البحترى في مدحة (١) طويلة له ، يصور فيها جمال طلعتة وشأله الكريمة ، ثم يقول :

وَأَبْهَجْنَا ضَرْبُ الدَّنَانِيرِ بِاسْمِهِ وَتَقْلِيدِهِ مِنْ أَمْرِنَا مَا تَقْلِدًا

وفي الشطر الثاني ما يصور لإرهاص البحترى للمعتز بأن يولىَّ عبد الله العهد ، ومضى يصرِّح بذلك ويطالب به ويهتف في وضوح . ونراه في قصيدة (٢) ثلاثة يتشفع لعبد الله بأبيه كى يهب له من إقطاع أقطعه له ضيعة تجاور ضياعه بالشام ، وفي ذلك يقول في قصيدة رابعة (٣) :

وَمُلِّيتَ عَبْدَ اللَّهِ إِنَّ سَمَاحَهُ هُوَ الْقَطْرُ فِي إِسْبَالِهِ وَأَخُو الْقَطْرِ
شَفَعْتَ إِلَيْهِ بِالْإِمَامِ وَإِنَّمَا تَشَفَّعْتُ بِالشَّمْسِ اقْتِضَاءً إِلَى الْبَدْرِ

ولم يلبث الدهر أن قلب ظهر المحن للمعتز وابنه ، فإن جند الأتراك طالبوه في السنة الرابعة من خلافته برواتبهم وكانت خزائن القصر خالية من المال ، فاعتذر ، ولم يقبلوا عذره ، وظلوا يفاوضونه حتى قبلوا أن يدفع إليهم خمسين ألفاً ، ولكنه لم يجدها ، فصمموا على خلعه ، وهجموا عليه وضربوه بالدبابيس ، ثم جعلوه في بيت أوصدوا بابه حتى مات بعد أن أشهدوا عليه أنه خلع نفسه . وصادروا أموال أمه قبيحة كما مرَّ بنا في غير هذا الموضع ، ونفوها إلى مكة ونفوا معها عبد الله ابنه وابن عمه قُصَيَّ بن المؤيد وعبد العزيز بن المعتمد . وهما محنتان قاسيتان أترَّتا في نفس الصبي آثاراً بعيدة : محنته التي امتحن بها في أبيه الذي منحه الحياة والذي كان يغمره ببرّه وحنانه وعطفه ، ومحنته بالنفي وعذابه ونكاله وعناؤه ، وما مرَّ به في أثناء ذلك من أمل ويأس ورجاء وقنوط ، مع ما صلبى به من حزن عميق على أبيه ، مما ظل له أثر بعيد في نفسه ، وهو أثر يترامى بوضوح في أشعاره ، إذ يُطالِعنا

(٢) الديوان ١٠٠٧/٢

(١) الديوان ٦٧٠/٢

(٢) الديوان ١٣٠٩/٢

فيها دائماً الإحساس بآلام الحياة وما تكتظ به من كوارث وفواجع ، كبرها في نفسه وخياله ما كان ينعم به في صباه من ترف وحياة لاهية لم تلبث أن حَفَّتْ بها الدماء المسفوكة ، دماء أبيه ، كما حَفَّ بها النفي والتشريد ، فإذا النعيم يصبح جحيماً ، وينقضى عهده إلى غير مآب ، وفي ذلك يقول ابن المعتز باكياً صباه بدموع غزار (١) :

لَهَقَ عَلَى دَهْرِ الصَّبَا الْقَصِيرِ وَغُصْنُهُ ذِي الْوَرَقِ النَّضِيرِ
وَسُكُودِ وَذَنْبِهِ الْمَغْفُورِ وَمَرَحِ الْقُلُوبِ فِي الصُّدُورِ
وَطُولِ حَبْلِ الْأَمَلِ الْمَجْرُورِ فِي ظِلِّ عَيْشٍ غَافِلٍ غَرِيرِ

ودار عام وتولَّى المعتمد الخلافة لسنة ٢٥٦ فأرسل في طلبه وطلب جدته وابني عمه وردَّهم إلى سامراء ، وكانت شئون القصر أخذت تستقيم ، فلم يعد للترك تسلطهم ولا استطالتهم على الخلفاء ، إذ جعل المعتمد الأمر والنهي والسلطان لأخيه الموفق طلحة ، وكان من أحزم بني العباس وأشجعهم وأنبغهم في إدارة السياسة والحرب وهو الذي قضى على ثورة الزنج وثورة الصفَّاريين كما أسلفنا في غير هذا الموضع . فاطمأن الغلام المروَّع وأخذت جدته قبيحة تُعْنَى بتربيته ، وأحضرت له المعلمين في الفقه والحديث والأدب واللغة ، من مثل محمد بن عمران والحسن العنزي الإخباريين ، ومحمد بن هبيرة صاحب الفراء ، ويبدو أنه كان يأتى المبرد وثلعباً في أثناء زيارتهما لسامراء قبل انتقاله ونزوله ببغداد لسنة ٢٧٦ . وفي المختار من شعر بشار أن ثلعباً كان أحد مؤدبيه فقطعه وقتاً ، فكتب إليه من قصيدة طريفة (٢) :

يَا فَاتِحاً لِكُلِّ عِلْمٍ مُغْلَقٍ وَصَيْرَافِئاً عَالِماً بِالْمَنْطِقِ
إِنَّا عَلَى الْبُعَادِ وَالتَّفَرُّقِ لَنَلْتَقِ بِالذِّكْرِ إِنْ لَمْ نَلْتَقِ

وكان يقصد فصحاء الأعراب ويأخذ عنهم (٣) . وأهم معلميه أحمد بن سعيد الدمشقي المحدث الإخباري ، ويروى أن البلاذري المؤرخ سعى عند جدته كي يصبح من معلميه ومؤدبيه ، فغضب ابن سعيد ولزم بيته ، وكانت سن ابن المعتز

(١) ديوان المعاني ١٥٣/٢ .

التأليف والترجمة والنشر) ص ٥٤ .

(٢) المختار من شعر بشار (طبع لجنة

(٣) الفهرست ص ١٧٤ .

حينئذ ثلاثة عشر عاماً ، وعلم بغضب أستاذه فكتب إليه أبياتاً يترضاه بها ، وهي تصور ثقافته تصويراً دقيقاً ، إذ يخاطبه بقوله^(١) :

أصبحت يابن سعيد حُرَّتْ مكرمةً عنها يقصر من يحفى وينتعل
سرّ بآتني حكمة قد هذبت شيمى وأججت غرب ذهى فهو مُشتعل
أكون إن شئت قُسمًا فى خطابه أو حارثاً وهو يوم الفخر مُرتجل
وإن أشأ فكريد فى فرائضه أو مثل نعمان ما ضاقت بى الحيل
أو الخليل عرونيًا أنا فطن أو الكسائي نحويًا له عيل
عُقبك شكرٌ طويل لا نفاذ له تبقي معالمة ما أطت الإبل^(٢)

وهو يقول إن ابن سعيد خسرَّجه خطيباً فصيحاً لا يقل عن قُسم فى خطابه التى اشتهر بها بين الجاهليين ، كما لا يقل عن الشاعر الجاهلى الحارث بن حذافة فى شعره وبداهته ، ولا عن زيد بن ثابت فى عمله بالميراث ، ولا عن أبى حنيفة فى علمه بالفقه ، ولا عن الخليل بن أحمد فى علمه بالعروض ، ولا عن الكسائي فى النحو واستنباط علله . وهذه هى مواد ثقافته فى سن الثالثة عشرة ، ولم يذكر بينها فلسفة ولا منطقاً ، غير أنه ينبغى أن نحذر التعميم فى الحكم على ثقافته مما قاله عن نفسه فى تلك السن المبكرة ، ومن الطبيعى — وكان نهما بالقراءة — أن يكون قد اطلع على شىء من الفلسفة وقرأ بعض كتب الفلك والتنجيم ، فى أشعاره إشارات لهما^(٣) ، وإن كنا نظن ظناً أنه لم يلم بذلك فى مطالع حياته . ولعل من الطريف أن نجده يقول^(٤) :

ولا تفزعن من كل شىء مفزعٍ فيما كل تربيع النجوم بضائر

وكانه كان يتشكك فى حسابات المنجمين وما يزعمونه من طوابع السعد والنحس . ومضى يمنح أوقاته للشعر والأدب ، وكأنما قرر بينه وبين نفسه الانصراف عن السياسة وشئون السلطان ، فقد بلا منهما فى جده المتوكل وأبيه المعتز ما جعله يقرر فى حزم

(١) معجم الأدباء ١ / ١٣٣ .

(السابعة) ص ٢٦٣ .

(٢) أطت : أنتت تبتاً أو حنينا .

(٤) الديوان ص ٢٤٩ .

(٣) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى (الطبعة

الفراغ للحياة الأدبية ، وأنفق في ذلك أعواماً كثيرة . وكان يقرأ كتابات سابقيه ويفكر فيما يقرأ منها ناقداً محلاً ، وما نصل إلى سنة ٢٧٤ للهجرة حتى نجده يصنّف كتابه « البديع » محاولاً أن يضع من جهة لأول مرة فنونه وضعاً علمياً دقيقاً ، وأن يثبت من جهة ثانية أن هذه الفنون قديمة في الأدب العربي وكل ما للمحدثين العباسيين منها إنما هو الإكثار ، أما بعد ذلك فهي منثورة في القرآن الكريم والحديث النبوي وأشعار الجاهليين والإسلاميين . وألف كتباً أدبية أخرى كثيرة مثل كتاب الزهر والرياض ومكاتبات الإخوان بالشعر وكتاب الجوارح والصيد ، وكتاب فصول التأميل في الشراب وآدابه ، وكتاب السرقات ، وكتاب « طبقات الشعراء المحدثين » ذائع مشهور وهو يصور ثقافة واسعة بالشعر العباسي الحديث كما يصور نظرات نقدية طريفة وذوقاً مهذباً صافياً . وكان يُعنى منذ فواتح حياته بالغناء والموسيقى ، وفي ذلك يقول أبو الفرج الأصبهاني : « كان عبد الله حسن العلم بصناعة الموسيقى والكلام على النغم وعللها ، وله في ذلك وفي غيره من الآداب كتب مشهورة ، ومراسلات جرت بينه وبين عبيد الله بن عبد الله بن طاهر وبين بني حمدون وغيرهم تدل على فضله وغزارة علمه وأدبه ^(١) » . ويسوق أبو الفرج رسالة لعبيد الله إلى ابن المعتز ، ومنها نعرف أنه كان يميل في الغناء إلى التجديد ولا ينكر أن يغير الإنسان بعض نغم الغناء القديم ، ثم يورد أبو الفرج من صناعته بعض أصوات أو أدوار تدل في وضوح على أنه استطاع أن يتخطى دور المتاع بالغناء لعصره إلى دور الإنتاج فيه إنتاجاً ممتازاً جعل العصور تحمله من بعده ، وكثيراً ما كان يزوره بعض المغنين والمغنيات ويغنونه فيما يصنع من الشعر . ومن الجوارى اللاتي كن يكثرن من الاختلاف إليه والغناء في شعره زرياب وبنت الكُرَاعَة وخزاعي ، على نحو ما نجدنا عنهن أبو الفرج في ترجمته .

وكان ابن المعتز يأخذ بنصيب غير قليل من متاع الحياة ^(٢) ، وكأنه ورث عن أبيه كل مناجاة ، أو قل هي حياة التصور المترفة التي تدفع من يعيشها إلى اللهو ، مما جعله يفتح بيته للندماء في بعض الأيام وبعض الليالي يسمعون ويشربون ، وكان أكثرهم من الشعراء أمثال النسيبي ، وبينهما مراسلات شعرية طريفة ، وعلى بن مهدي

الأصبهاني الكسروي وبينهما مكاتبات بالأشعار ومجاوبات^(١) وجَحَظَة وهو الذي أعطاه لقبه الذي اشتهر به . وكان شغوفاً مثل أبيه بالصيد ، وسنعرض لبعض أشعاره فيه . وينبغي أن نلاحظ أن مجالسه لم تكن لهواً خالصاً ، فقد كان يختلف إليه نابهن كثير من علماء اللغة والأدب وفي مقدمتهم المبرد ونعالب أستاذاه وصديقه ، ويقول الصولي في ترجمته له بكتابه الأوراق : « كانت داره مغائلاً لأهل الأدب وكان يجالسه منهم جماعة » .

ومرّ بنا أن أباه وهبه إقطاعاً كبيراً بالشام ، ولا بد أن يكون قد وهبه إقطاعاً أو إقطاعات أخرى في العراق ، ومن أجل ذلك كنا نخالف من زعموا أنه كان يعيش في إقلال ، ثم كان عنده ما ورثه عن جدته قبيحة وإن كان القائد التركي صالح ابن وصيف صادر أموالها ، فقد كانت لها بقية عاشت منها حتى توفيت سنة ٢٦٤ . ولا بد أنه كان ينال راتباً كثيراً أو قليلاً من الدولة لعهد عمه المعتمد الذي امتد حتى سنة ٢٧٩ ، ويروي الصولي قصيدتين له مدحه بهما ، وفي إحداهما يقول^(٢) :

أهلاً وسهلاً بالإمام ومرحباً لو أستطيع إلى اللقاء سبيلاً

ولعل ابن المعتز نظم هذه القصيدة بعد أن ردّ الموفق أخاه المعتمد عن الموصل إلى بغداد لسنة ٢٦٩ وكان قد ظن بأخيه الموفق الظنون وعزم على اللحاق بمصر . وقد يكون في ذلك ما يدل على أن الناس ومعهم ابن المعتز كانوا يخشون حينئذ لقاء الخليفة خوفاً من غضب أخيه وبطشه . وفي أخبار ابن المعتز أنه كان يروي أشعار عمه المعتمد ، مما يدل على أنه كان كثير الاختلاف إلى مجالسه ، وكان عاكفاً على الملاذ والملاهي ، فكان طبيعياً أن يتصل الوديعين العم وابن أخيه وخاصة إذا كان مثل ابن المعتز شاعراً وإخبارياً ظريفاً . ونراه يسوق إلى عمه الموفق الذي أبلى بلاء عظيماً في محاربة الزنج والقضاء على أصحابهم قضاء مبرماً غير مدحة ، ويبدو أنه

الخلفاء من ١٣١ أنها في المعتضد .

(١) معجم الشعراء ص ١٤٩ .
(٢) الديوان ص ٣٧٦ وفي أشعار أولاد

أكثر حينئذ من تهانيه بظفره . من مثل قوله ^(١) :

ولما طغى أَمْرُ الدَّعَى رَمِيَتْهُ بَعَزَمُ يَرُدُّ السَّيْفُ وَهُوَ كَلِيلُ
وأَعْلَمْتَهُ كَيْفَ التَّصَافِحِ بِالْقَنَّا وَكَيْفَ تَرَوَى الْبَيْضَ وَهِيَ مُحُولُ ^(٢)

ويتوفى الموفق في سنة ٢٧٨ ويخلفه ابنه المعتضد وكان لا يقل شجاعة وحزماً عنه وكان عونته وظهيره في حرب الزنج ، ويسلم عمه المعتمد مقاليد الأمور إليه ، ويتوفى سنة ٢٧٩ فيخلفه المعتضد ، وكان مهيباً شديد الوطأة ، فخافه قواد الترك ، وظلموا كما كانوا في عهد أبيه خانعين . ويتحول بالخلافة إلى بغداد وتصبح حاضرة الدولة ، ونرى ابن المعتز يوجه إليه مدائح مختلفة يطلب فيها الإذن له بالتحول من سامراء إلى بغداد من من مثل قوله ^(٣) :

لعمري لئن أَمْسَى الإِمَامُ ببلدَةٍ وَأَنْتِ بِأُخْرَى شَائِقُ الْقَلْبِ نازِعُ
وما أَنَا فِي الدُّنْيَا بِشَيْءٍ أَنَالَهُ سِوَى أَنْ أَرَى وَجْهَ الْخَلِيفَةِ قَانِعُ

ويأذن له المعتضد وينزل بغداد، وتتحول داره إلى ندوة كبيرة للعلماء والأدباء، ويكثر المبرد من الاختلاف إليه فيها ، وتروى كتب الأدب بعض ما كان يدور بينهما من محاورات في الشعر والشعراء ^(٤) . ويصبح من ندماء ابن عمه ورفقائه على الشراب والسماع إلى الغناء ، وتقبل الدنيا عليه ، وتتعد صداقة بينه وبين عبيد الله بن عبد الله بن طاهر حاكم بغداد القديم وصديق أبيه ، ويهتبه باختيار ابنه محمد لشرطة بغداد قائلاً ^(٥) :

فَرَحْتُ بِمَا أَضْعَافُهُ دُونَ قَدْرِكُمْ وَقُلْتُ عَسَى قَدْ هَبَّ مِنْ نَوْمِهِ الدَّهْرُ
فَتَرَجَعَ فِينَا دَوْلَةٌ طَاهِرِيَّةٌ كَمَا بَدَأَتْ وَالْأَمْرُ مِنْ بَعْدِهِ الْأَمْرُ

وتوثق صداقة ثانية بينه وبين عبيد الله بن سليمان بن وهب وزير المعتضد، ويبدو أنها صداقة قديمة منذ وزر عبيد الله للمعتمد ، وهو يكثر من ملحه وشكره

الخلفاء ص ١٢٨ .

(٤) أخبار البحري للصول ص ١٦٤ .

(٥) أغاني ٢٨٦ / ١٠

(١) زهر الآداب للحصري ١٩٣ / ٣

وفي أشعار أولاد الخلفاء ص ١٣١ أنها في المعتضد .

(٢) البيض : السيوف - محول : مجدية .

(٣) الديوان ص ٣٠٧ وأشعار أولاد

على ما يصله به من أعطيات الدولة ، وتنشأ بينه وبين ابنه القاسم الذى وزر بعده صداقة ثالثة ومودة أكيدة ، وفى ذلك يقول منوهاً بتلك الأسرة^(١) :

لآل سليمان بن وهبٍ صنائعٌ إلىَّ ومعروفٍ لىَّ مُقدِّمًا
همُ علِّموا الأيام كيف تبرئنى وهم غسلوا عن ثوب والدى الدِّما

ويتوفى المعتضد سنة ٢٨٩ ، وكان ابنه المكتفى غائباً ، ويضطر رئيس الحرس مؤنس إلى حبس جماعة من وجوه العباسيين حتى تؤخذ البيعة للمكتفى ، وتمضى بسلام ، ويسلك فيهم ابن المعتز ، ونراه يجأر إلى القاسم بالشكوى من هذا الحبس الاضطرابى وسرعان ما يردُّ إليه القاسم حريته ، كما يرد إليه أعطياته ويوالى له العطاء ، فيكثر ابن المعتز من مدحه ، معترفاً له بصنيعه من مثل قوله^(٢) :

أصلح بنى وبين دهرى وقام بنى وبين حنفي

ولا يلبث القاسم أن يلبى نداء ربه لسنة ٢٩١ ويظل المكتفى يفسح لابن المعتز فى مجالسه ، وابن المعتز يكثر من مدائحه ، وينوه بانتصارات جيوشه على قرامطة الشام وزعيمهم الحسين بن زكروية القرمطى المعروف بصاحب الشامه ، ويناديه ويحضر مجالس سماعه وشرابه .

ويتوفى المكتفى لسنة ٢٩٥ للهجرة ويتولى الخلافة من بعده ابنه المقتدر وسنه لا تتجاوز الثالثة عشرة ، فيكثر اللغط حوله ويتكلم الناس فى شأنه ويقولون كيف يتولى الخلافة من لم يبلغ الحلم ، كما يقول كثيرون ينبغي خلعه . وتدخل سنة ٢٩٦ وما يوافق شهر ربيع الأول حتى يزداد اللغط والكلام لاستيلاء أمه شغب وقهرمانتها على الحكم كما مر بنا فى غير هذا الموضع ولقصوره الواضح عن تدبيره شئون الخلافة . وفى يوم السبت لإحدى عشرة ليلة بقيت من ربيع الأول اجتمعت جماعة كبيرة من القواد والقضاة واتفقت على خلع المقتدر وتولية عبد الله بن المعتز وبايعته فى اليوم التالى^(٣) ، وكان الرأس المدبر لذلك محمد بن داود بن الجراح الكاتب ،

الطبرى ١٠ / ١٤٠ والنجوم الزاهرة ٣ / ١٦٤

وذيل زهر الآداب ص ٢٠٤ .

(١) مروج الذهب ص ٢٠٤ .

(٢) الديوان ص ٣١٩ .

(٣) انظر فى بيعة ابن المعتز ومقتله

وقلّده ابن المعتز الوزارة وتكلم في المقتدر قائلا: إنه لم يبلغ الحلم وإنه لا تصبح للناس صلاة معه ولا حج ولا غزو وقد آن للحق أن يتضح للباطل أن يفتضح . ولم يكد يمر يوم على هذه البيعة حتى هبّ مؤنس الخادم في جند كثيرين فنقضها وجدّد للناس بيعة المقتدر وأخرج لهم الأموال وزاد في الأعطية . ولم يبق مع ابن المعتز أحد فهرب إلى دار ابن الحصاص تاجر الجواهر المشهور وقبض عليه مؤنس وقتله ، وبذلك لم تم له الخلافة إلا لمدة يوم وليلة ، وقيل بل لمدة نصف نهار فحسب . وما كان أحراره أن يبتعد عنها ، متعظاً بما أصاب أباه منها ، ولكن النفس أمارة بالسوء .

ولعل فيما سبق ما يوضح العناصر التي كونت شخصية ابن المعتز الأدبية ، فهو عربي عباسي يعتز بعروبته وأسرته ، وُلد في القصر العباسي وفي كل ما انبث فيه من لُهو وطرب ، على نحو ما هو معروف عن آبائه : الرشيد والمتوكل والمعتز ، إذ كانوا يفرغون للهوهم ومتاعهم كلما أتيح لهم الفراغ ، وقد يكون في ذلك بعض البواعث عنده على الإحساس المادى للأشياء ، أو قل على وصفها وصفاً مادياً ، إذ كان هذا الوصف هو الذي يلاثم مزاجه المترف ، كما كان يلاثم عقله الذي يعيش في النعيم فلا يستطيع أن يتعمق الأشياء ، وإنما يقف عند ظاهرها الحسى المكشوف ، وقديماً أشار ابن الرومي إلى تأثير بيئته المترفة في شعره ، وإن كانت إشارته من طرف آخر ولكنه يلتقي بما قدمنا ، فقد سأله شخص : لِمَ لا تشبه تشبيه ابن المعتز وأنت أشعر منه ؟ فقال له : أنشدني شيئاً من شعره أعجز عن مثله ، فأنشده وصف ابن المعتز للهِلال :

انْظُرْ إِلَيْهِ كَزَوْرٍ مِنْ فِضَّةٍ قَدْ أَثْقَلَتْهُ حَمُولَةٌ مِنْ عَنَبٍ

فقال ابن الرومي له : زدني ، فأنشده :

كَأَنَّ آذَرِيُونَهَا وَالشَّمْسُ فِيهِ كَالِيَةِ (١)

مِداهُنٌ مِنْ ذَهَبٍ فِيهَا بَقَايَا غَالِيَةِ (٢)

وصاح ابن الرومي : واغوثاه ! لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، ذلك إنما

(١) الآذريون : زهر أصفر في وسطه
(٢) الغالية : المسك ، وهو أسود .
حمل أسود .

يصف ماعون بيته ، لأنه ابن الخلفاء وأنا مشغول بالتصرف في الشعر وطلب الرزق به ، أمدح هذا مرةً وأهجو هذا كرامة . وأعاب هذا تارةً وأستعطف هذا طوراً^(١) . وابن الرومي يلاحظ التأثير المادي المترف للبيئة على ابن المعتز . وعنصر آخر اشترك في تكوين شخصيته الأدبية بقوة ، وهو عنصر ثقافته العربية الإسلامية ، وقد جعله ذلك أقرب إلى ذوق المحافظين منه إلى ذوق المجددين ، حتى إذا انقسمت بينات النقاد في عصره إلى مجددين مسرفين في التأثير بمقاييس البلاغة اليونانية وتحكيمها في الشعر العربي من جماعة المترجمين ومن التفت حولهم ، ومحافظين مسرفين في رفض هذه المقاييس والتأثر بالمقاييس العربية الحاصلة من جماعة اللغويين أمثال ثعلب والمبرد والبحرّى من الشعراء ، ومعتدلين يتأثرون الضربين من المقاييس دون إفناء الشخصية الأدبية العربية في المقاييس الأجنبية من أمثال أبي تمام وابن الرومي وجدناه يأخذ صف المحافظين لتعمق إحساسه بعروبه وتغلغل الثقافة العربية الإسلامية في نفسه ، ويصرّح بذلك في كتابه البديع الذي أنشأه ليثبت أن كل ما استحدثه العباسيون المستظهرون للثقافة اليونانية الفلسفية ليس محدثاً في حقيقته ، بل هو يستمد من أصول قديمة في الشعر الجاهلي والإسلامي والقرآن الكريم والحديث النبوي . ونخصّ أباً تمام برسالة احتفظ بها في ترجمته كتاب الموشح للمرزبانى ، وهي تحمل كل الأسس التي كوّن منها الآمدى حملته على أبي تمام . ومعنى ذلك أنه على الرغم من ذوقه المرهف وحسه الرقيق كان ينحونحو المحافظين في فهم الشعر ونقده ونظمه . وكتابه « طبقات الشعراء المحدثين » ، يدل على ثقافة واسعة بالشعر العباسي ولكنه استعان بتلك الثقافة نفسها على تأكيد الاتجاه المحافظ عنده ؛ إذ سخرها كما يتضح في كتابه « البديع » لإثبات أن العباسيين لم يأتوا بشيء ذى بال ، وأن كنوز الشعر العربي القديم لا تزال مفتوحة على مصاريعها ليستقى منها العباسيون كل بارع طريف .

ولا بد أن نلاحظ بجانب ذلك مؤثراً نفسياً أثر فيه وفي شخصيته وشعره آثاراً عميقة ، ونقصه به مقتل أبيه وجده من قبله ، مما أذى نفسه إيذاء شديداً ، إذ نشأ لا يعرف الأمن ولا اطمئنان القلب ، وظل يرافقه هذا الإحساس طوال حياته ،

إذ يجلل شعره بأس عميق ، وحقاً كان يُكسب كثيراً على اللهو يُغرق فيه أحزانه ، ولكنها كانت أعظم من أن تغرق أو تنمحي من نفسه ، ولعل ذلك ما جعله يكثر من الفخر بشجاعته ، وهو يخاف الترك وغير الترك ويتملق عمومته وأبناءهم خوفاً على حياته وإيثاراً لعافيته .

وتلك هي مكونات شخصيته ، بيئة مترفة ينغمس من فيها في ضروب عدة من اللهو والمتاع بالحياة ، وثقافة عربية إسلامية محافظة ، وأحداث خطيرة جعلت الشر يلم به مبكراً ، وتدلهم من حواله الخطوب ، فيفكر في الحياة والموت وما في الدنيا من بؤس وآلام ، وكأنما كتب عليه ألا يشرب كنوس الترف واللهو صافية ، فداثماً أو قل كثيراً ما تمتزج بها صور من الضيق بالحياة وما فيها من شر ونكسر وما ينتظر الإنسان من مصيره المحتوم ، وابن المعتز مع ذلك كله غزل ظريف حلو الدعابة جميل المخضر يألفه كثير من الأدباء .

ويبدو أن أكبر شاعر محدث كان يعجب به هو البحرى ، فقد روى عنه أنه قال : كان مما حبيب الشعر إلى أنى سمعت البحرى يُنشد الماضى (يريد أباه المعتز) شعراً تشوقه الناس واستحسنوه ووصفوه ، تصرف فيه بغزل ووصف ومدح وشكر ، وعدد أصناف ما أخذ ، وطلب خاتم ياقوت ، وهو عندى من أحسن شعره ، وهو :

بودى لو يَهْوَى العَدُولُ وَيَعْشَقُ فيعلم أسباب الهوى كيف تَعْلُقُ (١)

والبحرى يستهل القصيدة بغزل مليء بالشوق إلى علوة صاحبتة الحلبية ، ويصف طيفها الذى ألم به فى حلمه ولطفته على لقائها ، وعناقها وصبايته بها ودموعهما وقبلاتهما والتصاق خددوهما حين يلتقيان ، حتى ليقول :

فلو فهم الناس التَّلَاقُ وحُسْنَهُ لَحُبِّبَ من أَجَلِ التَّلَاقِ التَّفَرُّقُ

ويُقَيِّضُ فى مديح المعتز وما أضنى عليه من عطايا ، ويستوهبه فى رقة ولطف خاتماً . ويلفتنا إعجاب ابن المعتز بهذه القصيدة التى أنشدها البحرى أباه وسنه

لا تتجاوز التاسعة ، وتذوقه لها في هذه السن الباكرة يدل ذلك على أنه كان قد حفظ كثيراً من الشعر ، حتى تكوّن له ذوق يستطيع به أن يفقه ما في الشعر من جمال .
ومرّ بنا وصف البحترى له في حياة أبيه بأنه يستولى على حلبة الشعر مما يدل على أن الشعر سال على لسانه وهو بعد في الثامنة أو التاسعة من حياته .

ولم يكن البحترى وحده أستاذه في مطالع حياته ، فأهم منه أبوه المعتر إذ كان شاعراً بارعاً ، ولو قدّر له أن تمتد حياته لشغل النقاد بأشعاره على نحو ما شغلهم ابنه ، وكان ينفق كثيراً من أوقاته في اللهو والحجون والصيد ، وينظم في ذلك كله أشعاره ويطلب إلى هذا المغنى أو ذاك أن يتغنى فيما ينظم ، وكل ذلك ورثه ابن المعتر عن أبيه . وبذلك كان له في أوائل حياته أستاذان : أستاذ من بيته هو أبوه الذى كان يدرّبه على نظم الشعر ، وأستاذ من غير بيته هو البحترى .

ومن المحقق أن نسيج صياغته لا يرتفع في متانته وجزالته إلى مرتبة صياغة البحترى ، حقاً كثيراً ما يرتفع ، ولكنه قد يهبط درجات عن صياغته الجزلة الرصينة ، مما جعل كثيرين في عصره وبعده يميلون عليه ، وتصدى لهم أبو الفرج ملوحاً في وجوههم بقوله : « شعره إن كان فيه رقة الملوكية وغزل الظرفاء وهلهلة المحدثين فإن فيه أشياء كثيرة تجرى في أسلوب المجيدين ولا تقصر عن مدى السابقين وأشياء ظريفة من أشعار الملوك في جنس ما هم بسبيله ليس عليه أن يتشبه فيها بفحول الجاهلية ، فليس يمكن واصفاً لصَّبوح في مجلس شَكِيلٍ ظريف بين ندامى وقيان على ميادين من النور والبسِّفَسَج والنَّرْجس ومنضود من أمثال ذلك . . . أن يعدل عما يشبهه من الكلام السَّبِط (السهل) الرقيق الذى يفهمه كل من حضر إلى جَعْد الكلام ووحشيته وإلى وصف البِيد والمهامه والطَّبِئ والطَّلِيم والناقة والحمل والديار والقفار والمنازل الخالية المهجورة ، ولا إذا عدل عن ذلك وأحسن قيل له مَسِيءٌ ، ولا أن يُغَمِّط حقّه كلّهُ إذا أحسن الكثير وتوسَّط في البعض وقصّر في اليسير ويُنسب إلى التقصير في الجميع لنشر المقابح وطى الحاسن . فلو شاء أن يفعل هذا كلُّ أحد بمن تقدّم لوجد مَسَامَغاً^(١) . وأبو الفرج بذلك أنصف ابن المعتر ، ووضع في مكانه الصحيح ، فهو في أكثر شعره محسن ، وهو في بعضه متوسط الإجابة ، وفي اليسير

منه مقصّر ، وأكبر الظن أن هذا اليسير من شعر الارتجال إنما كان في أثناء سمره أو في أثناء سماعه للغناء وشربه . على أنه لا بد أن نشير إلى مهارته في الغناء والموسيقى وأن هذه المهارة جعلته من أصحاب الآذان الدقيقة التي تزن جرس الكلام ، ولذلك كنا نحس عنده دائماً بأنه لا يهمل الأسماع في شعره ، إذ كان يحاول أن يلدّها بأنغامه وألحانه . وظاهرة ثانية في أشعاره هي عنايته فيها بالتشبيهات والاستعارات والجناس والطباق وهي ظاهرة طبيعية ، إذ كتب في هذه الفنون كتابه « البديع » ونوّه بها ، غير أنه لم يفرط في الجناس والطباق إفراطاً بعيداً ، وقد عاب أباتمام بذلك في كتابه ، لأنه يخرج فيه على طريقة القدماء . والمحافظون من أمثاله وأمثال البحري كانوا يوازنون بين البديع المستحدث وصوره عند القدماء ، فلم يكونوا يُسْرِفون فيه مثل أبي تمام ومسلم ابن الوليد .

ولعل من الواجب أن نستعرض فنون الشعر عنده ، لتتضح لنا شاعريته ، وأول ما نقف عنده من تلك الفنون المديح ، ومرّ بنا أنه مدح من الخلفاء المعتمد والمعتضد كما مدح عمه الموفق البطل المظفر ، ونحس ببهجة حقيقية ومشاعر صادقة في مديحه لابن عمه المعتضد ، أما مديحه في غيره فقاصر ، وكان المعتضد كما أسلفنا بطلا مغواراً واستطاع — كما استطاع أبوه الموفق — أن يخضد شوكة الترك ، بل أن يقلم أظفارهم ، وكأنما كان يشفي غليل ابن المعتز وضعفه القديم عليهم ، إذ هم قتلة أبيه وسافكو دمه ، وليس ذلك فحسب هو الذي جعل المعتضد يقرب من نفسه ، فقد اتخلده نديماً وجليساً وتوالت عطاياه عليه ، فكان إذا مدحه انبعث في مديحه عن عاطفة صادقة حارة ، وربما كانت خير مدائحها فيه رائيته التي يستهلّها بقوله (١) :

سلمت — أمير المؤمنين — على الدَّهر ولا زلتَ فينا باقياً واسعَ العُمَرِ
حللت الثريّا خير دارٍ ومنزلٍ فلا زال معموراً وبورك من قَصْرِ
فليس له فيما بَتَّى الناسُ مشبهُ ولا ما بناه الجِنُّ في سالف الدَّهرِ
والثريا مجموعة من الدور والقصور بناها المعتضد ، ويقال — كما مر بنا في غير

هذا الموضع — إنه أنفق عليها أربعمائة ألف دينار وإنها كانت تمتد نحو ثلاثة فراسخ ، ومن حولها البساتين والرياض ، وقد صورها ابن المعتز تصويراً رائعاً ، إذ يقول في نفس القصيدة :

وَأَنْهَارُ مَاءٍ كَالسَّلَاسِلِ فُجِّرَتْ لَتُرْضَعَ أَوْلَادَ الرِّيحَيْنِ وَالزَّهْرِ
جِنَانٌ وَأَشْجَارٌ تَلَاقَتْ غُصُونُهَا فَأَوْرَقْنَ بِالْأَثْمَارِ وَالْوَرَقِ الْخُضْرِ
تَرَى الطَّيْرَ فِي أَغْصَانِهِمْ هَوَاتِفًا تَنْقَلُّ مِنْ وَكْرِ لَهْنٍ إِلَى وَكْرِ

ويتحدث عن بأس المعتضد وجراته وأنه يفوق فيهما ليث الغاب الذي يجرُّ إلى أشباله كل ليلة ذبيحة وحش أو ذبيحة من البشر ، والذي ما يزال يُفزع الناس بزئيره وبمن يفترس منهم ويتقضمه قضمًا . وكان المعتضد حقًا شجاعاً شجاعة خارقة ، ويصور ابن المعتز ما بسط في البلاد من عدل ومن رفق بالعباد وجبروت شديد يمثل قوله في القصيدة :

حَكَمْتَ بَعْدَ لِمَ يَرِ النَّاسُ مِثْلَهُ وَدَاوَيْتَ بِالرَّفَقِ الْجُمُوحَ وَبِالْقَهْرِ

وليس في أشعاره مديح أو تهنئات لولاة أو وزراء سوى عبيد الله بن عبد الله بن طاهر وعبيد الله بن سليمان بن وهب وزير المعتضد وابنه القاسم كما أسلفنا ، وخير مدائحه فيهم جميعاً ما مدح به عبيد الله بن سليمان بن وهب ، وهو على كل حال لا يبالغ في إطرائه له على عادة الشعراء المتكسبين بأشعارهم ، إنما هي أبيات ينفث بها صدره من مثل قوله ^(١) :

أَيَا مُوَصِّلَ النُّعْمَى عَلَى كُلِّ حَالَةٍ إِلَى قَرِيبًا كُنْتَ أَوْ نَازِحَ الدَّارِ
كَمَا يَلْحَقُ الْغَيْثُ الْبِلَادَ بِسَيْلِهِ وَإِنْ جَادَ فِي أَرْضٍ سِوَاهَا بِأَمْطَارِ
لَقَدْ عَمَرَ اللَّهُ الْوَزَارَةَ بِاسْمِهِ وَرَدَّ إِلَيْهَا أَهْلَهَا بَعْدَ إِقْفَارِ
وَكُنْتَ زَمَانًا لَا يَقَرُّ قَرَارُهَا فَلَاقَتْ نَصَابَا ثَابِتًا غَيْرَ خَوَارِ

وفي ديوانه وبين أشعاره مراث قليلة وأهمها ما نظمته في ممدوحيه السالفين وخاصة المعتضد صديقه فقد حزن عليه حزناً شديداً ، إذ أحس كأنما انهار ركن العباسيين الوطيد وانقض من أساسه ، كما أحس أن أيام أنسه عادت ظلاماً ، فقد طوت المنية صديقه الحميم ، وطار قلبه فزعاً ، واسودت الدنيا من حوله ، وقد مضى يرثيه ويتفجع عليه وعلى دولته وما بذله في حمايتها ووقايتها من جهد جهيد وبأس له شديد ، يقول والدموع تنهمر من عينيه وتكاد تخنقه خنقاً^(١) :

يا ساكنَ القبر في غبراءٍ مظلمةٍ بالطاهرةِ مقصّي الدارِ منفرداً^(٢)
 أين الجيوش التي قد كنت تسحبها أين الكنوز التي لم تُحصها عدداً
 أين السرير الذي قد كنت تملؤه مهابةً ، من رآته عينه ارتعدا
 أين الرماح التي غذيتّها مهجاً مُدّ ميت ما وردت قلباً ولا كبدا
 ويتحسر على قصره الثريا ووصائفه وملاهيه ، وكأنما أصبح طلالاً مهجوراً ، ولا أثر ولا عين ، كأنما لم يكن به المعتضد يوماً . ويحزن حين توفى قبله وزيره عبيد الله ابن سليمان بن وهب ، ولكنه لا ينظم فيه قصائد وإنما ينظم أبياتاً قليلة يبكي فيها قدرته الكتابية أو قدرته السياسية في الحكم والتدبير من مثل قوله^(٣) :

هذا أبو القاسم في نعشه قوموا انظروا كيف تسير الجبال
 يا ناصر الملك بآرائه بعدك للملك ليالٍ طوال
 وطبعي ألا نجد عند ابن المعتز هجاءً ، فقد كان يرتفع بنفسه عن هذا الفن الذي يستحيل في أيدي الشعراء سهاماً يسددونها إلى خصومهم ، ولم يكن له خصوم ، ولا كان يكنّ لأحد خصومة إلا ما قد يقوله تندراً ودعابة من مثل قوله لعلي بن بسام هجاء عصره^(٤) :

يا قذّي في العيون يا حرقه بي ن التراق حزازة في الفؤاد
 يا طلوع العذول ما بين إلفٍ يا غرباً وافي على ميعاد

(٣) الديوان ص ٣٨٩ .
 (٤) ذيل زهر الآداب ص ١٨١ .

(١) النجوم الزاهرة ٣ / ١٢٧ .
 (٢) الطاهرية : الدار التي دفن بها المعتضد
 غربي بغداد .

يا ركوداً في يوم غيم وصيفٍ يا وجوه التجار يوم الكسادِ
خَلَّ عنا فإنما أنتُ فينا واو عمرو أو كالحديث المعاد

ويُكثر ابن المعتز في شعره من الفخر بجوده وشجاعته ومضائه في الحروب
وفروسيته ، وهو يحاكي في ذلك القدماء في حماستهم ، فهو فخر مصطنع متكلف
في جمهوره ، ويفخر طويلاً بأسرته وبجده العباس عم الرسول صلى الله عليه وسلم
وبلائه في موقعة حنين ، وبشجاعة آباءه وعمومته وبلاغتهم ، وفي ذلك يقول (١) :

إنا لنتاب العداة وإن نأوا ونهزُّ أحشاء البلاد جموعا
ونقول فوق أسرةٍ ومنابرٍ عجباً من القول المصيب بديعا
قومٌ إذا غضبوا على أعدائهم جروا الحديد أزجةً ودروعا
وكانَ أيدينا تنفر عنهم طيراً على الأبدان كنَّ وقوعا

والصورة الأخيرة بديعة ، فهو يتصور رموس الأعداء كأنها طير يتطاير بالسيف
مزايلاً لمكانه من أبدانهم . ويمتزج الفخر عنده بشكوى كثيرة ، وهي شكوى مردّها
إلى ما كان يتعمق نفسه من حزن وألم منذ ألت به محنته في مقتل أبيه ، على نحو ما مرَّ
بنا آنفاً ، فقد خلّفت هذه المحنة في نفسه ضيقاً شديداً ولعل ذلك ما جعله يشكو
من إخوانه أحياناً .

وكان كثيراً ما يوجه فخره بأسرته إلى العلويين ، مبيناً أن بيته أحق بالخلافة
من بيتهم ، وقد ظلت ثوراتهم مشتتة لا تخمد طوال عصره ، مما جعله يكثر من
وعيدهم وتهديدهم ، مذكراً لهم بأن بيته هو الذي استطاع أن يثأر لهم من
الأمويين قتالة الحسين وزيد حفيده (٢) ، ويحاول في مقطوعات وقصائد مختلفة أن
يستلّ البغض والإحسان من نفوسهم على شاكلة قواه (٣) :

بنى عَمْنَا عودوا . نَعُدْ لودّةٍ فإنّا إلى الحسنى سِرَاعُ التعطّفِ
لقد بلغ الشيطان من آل هاشمٍ مبالغته من قبلُ في آل يوسف

(٢) الديوان ص ٥٠ .
(٣) الديوان ص ٣٢٧ .

(١) الديوان ص ٣٠٠ وأشعار أولاد
الخلفاء ص ١٦٥ .

فهم في رأيه بيت واحد وإخوة وينبغي أن يتحابوا لا أن يتباغضوا ويتقاطعوا كما حدث بين إخوة يوسف عليه السلام وبينه ، حتى باعوه لسيارة بثمن بخس دراهم معدودة . ويبدو أن بعض معاصريه لأمه على ما يوجه للعلويين من لوم وأشاعوا أنه يسب على بن أبي طالب ، فنظم قصيدة طويلة في مديحه والثناء عليه ، يقول في مطالعها^(١) :

أأكل لحمي وأحسو دمي فيا قوم للعجب الأعجب^(٢)
على يظنون بي بغضه فهلاً سوى الكفر ظنوه بي

ومضى يقول إن الذي يُشيع ذلك هم القرامطة الذين حادوا عن جادة الدين باسم التشيع لعل وهو منهم برى وفضله لا ينكره أحد ، وأخذ يصور بسالته وبلاغته وأخوته للرسول عليه السلام ونفوذ بصيرته في الحكم والقضاء وزواجه من السيدة فاطمة بنت الرسول ، وسمّاه بحر العلوم ، وذكر مواقفه العظيمة ، وأشاد بالحسن والحسين وما كان من مقتل الأخير بيد الأمويين الغاشمة ، وبكاء العباسيين عليه وأخذهم لثأره . ولا بد أن تفصل بين شعر ابن المعتز الموجه إلى العلويين ، والآخر الموجه إلى القرامطة والروافض ، فهو في الأول يغلب عليه الاعتدال والميل إلى الإنصاف أما في الثاني فيملؤه بإنذارات وتهديدات شديدة ، مع ما يسمهم به من الإلحاد والكفر والزندقة .

وتلقانا في ديوانه مقطوعات غزلية كثيرة ، ولكنها لا تنبئ عن حب حقيقي كان يكتبه بناره ، فهي مقطوعات وقد تكون استهلاكات لقصائد ، لا تصدر عن وجد شديد ، وإنما تصدر غالباً عن ود ، وكأن مثله من أبناء القصور لا يستطيع الحب أن يتعمقه ، ولذلك كنا نفقد عنده الإلحاح في الطلب والأمل والشوق المبرح والتضرع الحار ، وكل ما نجد إنما هو حب الشباب المترف الذي لا ينبع من أعماق النفس والقلب ، أو قل هي أبيات ينظمها فيمن كن يغشين مجالسه من الجوارى أمثال نشر وشيرة على سبيل الدعابة من مثل قوله^(٣) :

(٢) الديوان ص ٥٢ وأشعار أولاد الخلفاء

ص ٢٢١ والأغاني ١٠ - ٢٧٨ .

(١) الديوان ص ٦٧ .

(٢) أحسو : أنسب .

وابِلَآثِي من محضر ومغيبٍ وحبيبٍ منى بعيدٍ قريبٍ
لم تَرِدْ ماءً وَجْهه العينُ إِلَّا شَرِقَتْ قبلَ رِيَّها برقيبٍ
وقوله (١):

زاحم كُمِّي كُمَّةً فَالتَوَيَّا وافق قلبي قلبه فاستويا
وطالما ذاقا الهوى فاكتويا يا قُرَّةَ العينِ وياهمي ويا

وهي أبيات لا تصور عذاباً في الحب ولا ألماً من ناره المحرقة، إنما هي أقرب ما تكون إلى الدعابة، وختم البيت الرابع بقوله: «ويا» كما يقول الناس: يا أختي ويا ويا مستغنين بذلك عن الشرح. وقد تحولت هذه الصورة من التعبير فيما بعد إلى لون من ألوان البديع سَمَّاه المتأخرون باسم الاكتفاء. واقرأ في ابن المعتز فإنك لن تقف على حب لاهب، إنما تقف على دعابات وصور وفنٍّ من مثل قوله (٢):

تقول العاذلات تعزُّ عنها واطفِ لهيبَ قلبك بالسُّلُو
وكيف وقُبْلَةٌ منها اختلاسا أَلْدُّ من الشَّمَاتَةِ بالعدو
وقوله (٣):

إذا اجتنى وَرْدَةً من خَدَّها فمهُ تَكُونَتْ تحتها أخرى من الخَجَلِ
وكان — كما أسلفنا — يُنْفِق على شاكلة أبناء القصور — كثيراً من أوقاته في اللهو والخمر، وديوانه طافح بكنوسها ودنانها وسُقَاتها وأديرتها، فهو لا يشربها في بيته ومجالسه مع أصدقائه فحسب، بل يشربها أيضاً في أمكنتها المعروفة لعصره وخاصة الأديرة مثل دير عبدون، وهو يصرِّح بأنه كان يغرق فيها همومه إذ يقول (٤):

وليس للهَمُّ إِلَّا شُرْبُ صَافِيَةٍ كَأَنَّهَا دَمْعَةٌ من عين مهجور

(٢) مروج الذهب ٤ / ٢٠٥.

(٤) الديوان ص ٢٣٠.

(١) الأغاني ١٠ / ٢٧٩.

(٢) مروج الذهب ٤ / ٢٠٣.

فهو يقبل عليها لتنسيه همومه ، ولتمسح على كدر حياته بنصاعتها وصفائها ،
وليتسلى ويتعزى عن مقتل أبيه الذى لم ينسه يوماً ، ومثله فى الخمر مثله فى الحب ،
فهو لا يتعبدها كما كان يتعبد أبو نواس ولا يسبح بالآلها مقدماً إليها
قراينه من الشعر ، إنما هو يتسلى بها ويتسلى بما ينظمه فيها بمثل قوله فى مديح
الصبوح (١) :

أَمْسَقْنِي الرَّاحَ فِي شَبَابِ النَّهَارِ وَأَنْفِ هَمِّي بِالْخَنْدَرِيسِ الْعُفَارِ (٢)
قَدْ تَوَلَّتْ زُهُرُ النُّجُومِ وَقَدْ بَشَّ رَ بِالصُّبْحِ طَائِرُ الْأَسْحَارِ
مَا تَرَى نِعْمَةَ السَّمَاءِ عَلَى الْأَرْضِ وَشَكَرَ الرِّيَاضِ لِلْأَمْطَارِ
وَعَنَاءِ الطُّيُورِ كُلِّ صَبَاحٍ وَأَنْفَتَاقِ الْأَشْجَارِ بِالْأَنْوَارِ
فَكَأَنَّ الرَّبِيعَ يَجْلُو عُرُوسًا وَكَأَنَّ مِنْ قَطْرِهِ فِي نِشَارِ (٣)

وهى أبيات تصور إحساسه بما ينعكس على بصره من جمال الطبيعة صباحاً فى
الربيع ، ولكنها لا تصور حباً ولا تهالكاً على الخمر ، ولا عاطفة جاعة أو متقدة ،
إنها ليست أكثر من أبيات يتسلى بها ويتعزى ويظهر مقدرته على النظم فى الخمر ،
ولذلك يكون من السهل عليه أن ينقض هذا المديح للصباح ويضع قصيدة بل قل
مزوجة (٤) فى ذمه امتدت إلى نحو مائة وعشرين بيتاً وفيها يقول :

فَأَيُّ فَضْلٍ لِلصُّبُوحِ يُعْرَفُ عَلَى الْعَبُوقِ وَالظَّلَامِ مُسْدِفٌ (٥)

ويطيل فى الأسباب التى من أجلها يذمه ذمّاً قبيحاً ، كأن يعرض المصطبحين
للبرد القارص شتاء والحر اللافح صيفاً . وقد يكون مصدر هذا الذم شيوع المناظرات
لعصره وبيان محاسن الشيء ومساوئه ، كما مرّ بنا عند ابن الرومى فى ذمه للورد ، ولكن
من المؤكد أن ابن المعتز لم يصور فى ذلك عاطفة ، وإنما صور عبثاً عقلياً ، وقد

(١) الديوان ص ٢٣٢ وأشعار أولاد الخلفاء .

الدرهم الفضية .

(٤) الديوان ص ٧٣ ، وأشعار أولاد الخلفاء .

ص ٢٥١ .

(٥) مسدف : مرعى الستور .

(٢) الخندريس العقار : الخمر .

(٣) النشار : ما ينثر على العروس من

يكون أهم من هذا العتب وصفه للبستان في مزدوجة مشهورة له ، إذ يقول :

وياسمينٌ في ذُرَى الأَغْصَانِ منتظمٌ كقَطْعِ العِيقَانِ
والسُّرُوْ مثل قُضْبِ الزَّبْرِجِدِ قد اسْتَمَدَّ العَيْشُ من تُرْبِ نَدَى
على رِياضٍ وَثَرَى ثَرَى وَجَدُولٍ كالمِبْرَدِ الجَلَى
وَجَلَنَارٍ كاحمرار الخَدِّ أو مثل أَعْرَافِ دِيوَكِ الهِنْدِ

ويستمر في رصف مثل هذه التشبيهات والصور ، وكانت لديه مهارة خارقة في اجتلابها ، والملاءمة بينها وبين ماعون بيته كما لاحظ ذلك ابن الرومي آنفًا . وقد لا يستمدها من ماعون بيته ، ولكن نحس كأنما عقله كان كثرًا زاهرًا بالتشبيهات والصور . وأكثر من تصوير أضواء الصباح وهي تحسر عن الأفق خيوط الظلام وسواده ، فتارة يشبه الظلام بحبشي أسود والصباح يفتّر عن أسنانه ضاحكًا من فراره ، أو يشبهه بغراب قوادهم يبيض أو مقصوص الجناح ، أو بأسود عريان يمشي في الدجى بسراج ، وقد يشبه الهلال بزورق من فضة مملوء بالعنبر ، ومن بدیع تشبيهاته له تصويره بقوله^(١) :

كمنجَلٍ قد صِيعَ من فَضَّةٍ يَحْضُدُ من زهر الدَّجَى نَرْجَسًا

وتكثر في الديوان مثل هذه التشبيهات البارة لعناصر الطبيعة ، ولم يقف عند الطبيعة المتحضرة وحدها فقد كان يلم بالطبيعة الصحراوية . ولعل أبا الفرج الأصبهاني لم يرد في دفاعه عنه الذي مرّ بنا أن ينكر عليه أنه نظم بعض شعره في الأطلال والبيد وحيواناتها ، إنما أراد الإكثار من النظم في الصحراء إذ له أشعار مختلفة في وصفها ، وقد مرت بنا في غير هذا الموضع أبيات طريفة له في وصف الأطلال والديار الحالية ، وأخرى في وصف ثور الوحش وبقرة ، ومن طريف ماله في وصف الإبل قليلة اللبن وهي تُحَلَسَبُ قوله^(٢) :

رَأَيْتُ انْهَمَارَ الدَّرِّ بَيْنَ فَرْوَجِهَا كَمَا عَصَرْتُ أَيْدِي الْفَوَاسِلِ أَثْوَابَا

وقوله في أخرى وسُراه عليها طوال الليل ، كأنها هائمة تطلب شيئاً ضالاً منها^(١) :

فَكَانَ أَيْدِيَهُنَّ دَائِبَةً يَفْحَصْنَ لِيَلْتَهَنَ عَنْ صُبْحِ

وله في الخيل أشعار مختلفة ، وطبيعي أن يُعْنَى بها ، إذ كان شغوفاً بالصيد ، حتى ليحتل الطَّردُ جزءاً كبيراً من ديوانه وأشعاره ، ومن طريف ما نعت به قوله في مقدمة إحدى طردياته يصف فرساً له^(٢) :

قَدْ أَغْتَدَى وَالصَّبْحِ كَالْمَشِيبِ فِي أَفْقٍ مِثْلَ مَدَاكِ الطَّيْبِ^(٣)

بِقَارِحٍ مَسُومٍ يَعْجُوبُ ذِي أُذُنٍ كَخُوصَةِ الْعَسِيبِ^(٤)

أَوْ آسَةِ أَوْفَتْ عَلَى قَضِيبٍ يَسْبِقُ شَأُوَ النَّظَرِ الرَّحِيبِ^(٥)

أَسْرَعُ مِنْ مَاءٍ إِلَى تَصْوِيبٍ وَمِنْ رَجُوعٍ لِحِظَةِ الْمَرِيبِ

وينتقل من وصف الفرس إلى وصف الصقر أداته في تلك الرحلة للصيد ، ويصف مهارته في تعقب طرائده من الطير وانقضاضه عليها بمنسره ومخالبه ، يخزها ويطعننها مسيلاً لدمائها مزهقاً لأرواحها ، يقول :

وَأَجْدِلُ أَحْكَمَ بِالتَّأْدِيبِ سَوَطٍ عَذَابٍ وَاقِعٍ مَجْلُوبِ^(٦)

يَهْوَى هَوًى الْمَاءِ فِي الْقَلَائِبِ مَا طَارَ إِلَّا لَدَمٍ مُصِيبِ^(٧)

وعلى نحو ما يصور الصقور الجارحة في طرده وصيدها للطير يصور البزاة بأبصارها الثاقبة ومناسرها الحادة المرفقة كالأسنة المُشْرِعة ، ومن طريف ماله في تصوير عين باز قواه^(٨) :

وَمَقْلَةٌ تَصَدُّقُهُ إِذَا رَمَقَ كَأَنَّهَا نَرَجِسَةٌ بَلَا وَرَقَ

(٥) أوفت : أشرفت .

(٦) أجدل : صقر .

(٧) القليب : البئر .

(٨) أشعار أولاد الخلفاء ص ٢١٨ وديوان

المعاني ٢ / ١٤٠ .

(١) الديوان ص ١٤٠ .

(٢) الديوان ص ٨٦ وزهر الآداب ٢ / ٢٣

وأشعار أولاد الخلفاء ٢٠٩ .

(٣) المداك : الحجر الذي يسحق عليه الطيب .

(٤) قارح : مكتمل الخلق . مسوم : معلم

حسن الخلق . يعجوب . سريع الجرى .

وله في الكلاب طرديات كثيرة يأتي فيها بأبي نواس ، بل هو في طردياته جميعاً يأتي به ويحاكيه حتى في ألفاظه التي يفتح بها تلك الطرديات ، من مثل : قد أغتدى . وقد مضى في إثره يتحدث عن ضمورها ومتانة أعضائها وشدة سمعها وحدة براثنها ونشاطها وسرعة عدوها على شاكلة قوله في إحدى طردياته (٢) :

وَمُخْطَفٍ مَوْثِقِ الْأَعْضَاءِ ذِي أُذُنٍ سَاقِطَةِ الْأَرْجَاءِ (٣)
كُورِدَةِ السَّوْسَنِ الشَّهْلَاءِ وَبُرْثَنِ كِمِثْقَبِ الْحَذَاءِ (٤)
وَمَقْلَةٍ قَلِيلَةٍ الْأَقْدَاءِ صَافِيَةٍ كَقَطْرَةٍ مِنْ مَاءِ
تَنْسَابِ بَيْنَ أَكْمِ الصَّحْرَاءِ مِثْلَ انْسِيَابِ حَيَّةٍ رَقَطَاءِ (٥)

وله طرديات أخرى في الفهد ، وفي قوس البندق ، ويكثر فيها جميعاً من التشبيهات والصور الطريفة ، ومن الحق أنه كان بارعاً في تصوير أى شيء يلم به من كوكب في السماء أو نجم أو سحابة أو رياض وأزهار في الطبيعة المتحضرة أو حيوانات وأطلال في الطبيعة المتبدية ، وليس بين المحدثين من وصف الحيّة وصفه لها في قوله (٦) :

كَأَنِّي سَاوَرْتَنِي يَوْمَ بَيْنِهِمْ رَقَشَاءُ مَجْدُولَةٌ فِي لَوْنِهَا بَلَقُ
كَأَنَّهَا حِينَ تَبْدُو مِنْ مَكَامِنِهَا غُصْنٌ تَفْتَحُ فِيهِ النُّورُ وَالْوَرَقُ
يَنْسَلُّ مِنْهَا لِسَانٌ تَسْتغِيثُ بِهِ كَمَا تَعُوذُ بِالسَّبَابَةِ الْغَرِقُ

وله مراسلات بالشعر بينه وبين إخوانه وهي تكثر كثرة تجعلنا نظن ظناً أنه من أوائل من أعدوا لفتح باب الإخوانيات في الشعر العربي ، وهو في طائفة منها ينحو نحو الدعابة . ويكثر في شعره — كما قدمنا — من التفكير في الموت ومصير الحياة

(٣) السوسة : الزنبقة

(١) الديوان ص ١٨ وأشعار أولاد الخلفاء

(٤) رقطاء : رقصاء أى بها نقط سود وببيض .

ص ٢٠٧ .

(٥) الديوان ص ٣٣٠ .

(٢) مخطف : ضامر . ساقطة الأرجاء :

شديدة السمع .

والشكوى من الدنيا ومن الأصدقاء ، وعللنا ذلك آنفياً بأنها طوايع طبعتها في نفسه نكبتة بأبيه ونفيه إلى مكة في صباه ، وقد ظل يحنُّ إلى سامراء بعد نزوله ببغداد وما لقي من بعوضها ونقيق ضفادعها (١) .

وقد تحدثنا في غير هذا الموضع عن اهتمامه بالشعر التعليمي ونظمه فيه مزدوجة تاريخية صوراً فيها سيرة صديقه وابن عمه المعتضد والأحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية لعصره . ولعل في كل ما أسلفنا ما يشهد ببراعته وامتيازه بين الشعراء لعصره .

٥

الصنوبري (٢)

هو أحمد بن محمد بن الحسن الضبي الصنوبري ، وفي بعض المصادر أن اسمه محمد (٣) ، وهو خطأ ، إذ ذكر اسمه في ديوانه غير مرة باسم أحمد ، من مثل قوله معزياً نفسه في بعض الظروف :

أَرْضُ حَكَمِ الزَّمانِ يا أَحْمَدَ أَرْضُهُ إِنْ تَذُقْ ضَيْمَهُ فَقَدْ ذُقْتَ مَحْضَهُ (٤)

وصُحِّفَ لقبه « الضبي » نسبة إلى قبيلة ضَبَّةَ في فوات الوفيات ، فصار « الصنبي » ولا علاقة له بالصين ، إنما هو تصحيف النساخ . أما لقبه الثاني « الصنوبري » فزعم هو نفسه أن جدَّه كان يعمل في دار الحكمة لعهد المأمون فاشترك في مناظرة بين يديه وأعجِبَ به فقال له : إنك لصنوبري الشكل دلالة على ذكائه وحدة مزاجه ، ولعل المأمون لم يُرد بذلك إلا سَمَمَته وصورته وأن وجهه على

بتحقيق الدكتور إحسان عباس طبع الثقافة
بيروت .

(٣) الفهرست ص ٢٤٥ .

(٤) الضم : المزوج بالشوائب . والمحض :
خالص غير المشوب

(١) الديوان ص ٤٠١ .

(٢) انظر في ترجمته وأسماءه تهذيب تاريخ
ابن عساكر ٤٥٦/١ وفوات الوفيات
(طبعة محي الدين عبد الحميد) ١/١١١ والوفاء
بالوفيات للصفدي ٧/ ٣٧٩ وشرذات الذهب
٣/ ٣٣٥ وجمع البلدان لياقوت في (حلب) وديوانه

هيئة ثمر الصنوبر المخروط الصورة ، ويفخر الصنوبري بهذا اللقب لأسرته قائلاً^(١) :

إِذَا عَزَيْنَا إِلَى الصَّنَوْبَرِ لَمْ نُعْزَ إِلَى خَامِلٍ مِنَ الخَشَبِ

لا بل إلى باسق الفروع علًا مناسباً في أرومة الحسب

وهو من أهل أنطاكية ، ولكن منشأه ومرباه في حلب ، ولا ندرى كيف تحول أبوه به إليها ، وقد مضى مثل لداته يحفظ شيئاً من القرآن ويكسب على حفظ الشعر وتعلم العربية ، وكانت حلب مثلها مثل المدن الكبرى في العالم العربي تزخر بعلماء اللغة والحديث والفقه وكان بها بعض الأطباء ، وكانت الكتب على رفوف المكتبات تحت أعين الصبية والشبان . وفي ديوانه إشارات مختلفة إلى بعض العلماء في اللغة وإلى بعض القضاة وبعض الأسر المهتمة برواية الحديث النبوي وإلى بعض المتطبيين ، ونراه يذكر أرسططاليس وبقرات في بعض أشعاره^(٢) . وقد يدل ذلك من بعض الوجوه على أنه عكف منذ نعومة أظفاره على الدرس والتحصيل ، وأنه قضى في ذلك شطراً من حياته حتى تخرج شاعراً مثقفاً ، على الأقل ملمّاً بالثقافات لعصره ، إن لم يكن إماماً عميقاً ، فإنه على كل حال معرفة واطلاع .

وقد عاش حياته في حلب ، وكان يلم كثيراً بالموصل والرقتين ، وألم بدمشق ، ونجده لا يترك والياً على موطنه إلا ويقدم له مدائح وأشعاراً كثيرة ، وهو يستهل ذلك بمدح ليدكسا^(٣) بن عبد الله الأعور وإلى حلب منذ سنة ٢٩٥ حتى سنة ٣٠٢ وتحفظ بقية الديوان المنشورة باسم الصنوبري بقصيدة في مدح ابنه المظفر^(٤) يصفه فيها بالكرم والشجاعة ، ويوصيه بشاعر يسمى الطبراني أن يسبغ عليه من كرمه وجوده . وكان هذا الوالي يتخذ يحيى بن محمد التفرى وزيراً له وعوناً وظهيراً ، وللصنوبري فيه قصيدة طنانة يصور فيها بلاغته وبعوثه لحروب القرامطة والروم ، ويخلف هذا الوالي على حلب أحمد بن كتيغتلغ القائد المشهور في العصر ويظل

(١) الديوان ص ٤٥٦ .

(٢) الديوان ص ٢٧٩ .

(٣) انظر في هذا الوالي ومن بعده كتاب

زبدة الجلب لابن المديم بتحقيق الدكتور

سامي الدهان طبع دمشق الجزء الأول ص ٩٢

وما بعدها .

(٤) الديوان ص ١٥٦ .

بها نحو سنة ويعود إليها في سنة ٣١٧ ويظل بها سنة أخرى ، وكان عونته في حكمه لحلب ابنه العباس ، ويضفي عليهما مدائح كثيرة ، ويبدو أن صلات العباس له كانت متوالية ، ولذلك أكثر من مديحه . كما مدح محمود بن حبك الخراساني الذي حكم حلب بعد ولاية ابن كَيْسَغَلِغِ الأولي عليها وظل يحكمها حتى سنة ٣١٢ ونمضى مع الشاعر بعد ولاية ابن كَيْسَغَلِغِ الثانية فنجدته يمدح طريفاً السبكري حتى إذا خلفه أحمد بن سعيد الكلابي سنة ٣٢٤ وجه إليه مدائحه . وتدخل حلب في حكم ابن رائق صاحب دمشق ويعينه في حكمها أبو الحسين بن مقاتل منذ سنة ٣٢٧ ويمدحه الصنوبري مهنشاً له بشهر رمضان ، وسرعان ما يستولي يانس المؤنسي من قبل الحسن بن عبد الله بن حمدان صاحب الموصل على حلب سنة ٣٣٠ ويمدحه الصنوبري بمثل قوله ^(١) :

هو الفارِسُ المُرَوِّى من الدم سَيْفُهُ إِذَا لَمْ يُطْقَ رِىَّ السِّيفِ الفَوَارِسُ
وتنشب حروب بين الإخشيد والحمدانيين أصحاب الموصل من جهة وبين الخليفة والبريدى من جهة أخرى ، وينزل الخليفة عند الحمدانيين وينصرونه على خصوصه لسنة ٣٣٠ فيخلع على الحسن بن عبد الله بن حمدان لقب ناصر الدولة ، كما يخلع على أخيه على لقب سيف الدولة . وتشتعل الحروب بينه وبين الإخشيد في سنة ٣٣٣ ولكنهما يفيثان إلى الصلح وتخلص حلب لسيف الدولة ، وهو في أثناء ذلك بنازل الروم ويكبدهم خسائر فادحة في الأرواح . ومنذ قسَّع سيف الدولة لأبواب حلب واستيلائه عليها نجد الصنوبري يقدم له مدائحه ، وأعجب به سيف الدولة ، فلم يكتف بما أجزل إليه من صلات إذ اتخذته أميناً لمكتبته ^(٢) . ويبدو أن سيف الدولة لم يتعرف عليه قبل نزوله حلب ، وقد يؤكد ذلك أننا لا نجد في ديوانه مديحاً لأخيه ناصر الدولة وآبائهما في الموصل ، مع أن نجم الأسرة الحمدانية كان قد أخذ في التآلق منذ أواخر القرن الثالث الهجري ، ومع أنها كانت أسرة شيعية ، وكان الصنوبري نفسه شيعياً ، غير أنه ظل منحرفاً عنها ، حتى قدم سيف الدولة حلب وقد يرجع ذلك إلى اضطراب الأحوال في بغداد واشتراك هذه الأسرة في الفتن التي كانت تتعاقب

(١) الديوان ص ١٩٢

(٢) مطالع البدور للزول ١٧٦/٢ وآدم ميتز ص ٣٦٤ .

هناك ، وأعل هذه الفتن نفسها هي التي جعلته ينأى بنفسه عن بغداد وتقديم مدائحه لوزرائها وحكامها المختلفين . على أنه كان كثير المقام بالرقّة ، وكان يمدح بعض ذوى الوجاهة والنباهة بها ولكنه لم يفكر فى مديح أمرائها الحمدانيين ، إلا إذا كانت هناك أشعار أخرى لم يحملها ديوانه خصّها بمدائحهم .

على أن هذا الجانب يجعلنا نفكر فى شأن تشيعه ، فديوانه يمتلئ بمراثى لآل البيت وللحسين خاصة ، مما يؤذن بأنه كان متشيعاً حقاً ، وهو يذكر فيه ما يؤمن به الشيعة من أن الخلافة ليست مفوضة للأمة وأنها تنتقل بالوصية من الرسول إلى على وأبنائه ، على نحو ما نرى فى مثل قوله ^(١) :

جَاهَ بِالْوَصِيَّةِ إِذْ حَبَاهُ وَهُوَ ذُو دَنْفٍ

ويبدو أنه لم يكن غالبياً فى تشيعه ، بل يبدو أنه لم يعتقد مذهب الإمامية الاثنى عشرية الذى كان قد أخذ ينتشر فى بعض أركان العراق لعصره . وفى ديوانه قصيدة وجه بها إلى جعفر بن على صاحب الزاب فى المغرب الأوسط ، وصلة جعفر وأبيه على بالدعوة الإسماعيلية التى كانت قد أخذت فى الذبوع بتلك الديار مشهورة ، ولكن ينبغى ألا نفهم من ذلك أن الصنوبرى كان على صلة بتلك الدعوة لا فى مقرها الجديد بالمهدية فى المغرب ولا فى مقرها القديم بسلامية فى الشام ^(٢) ، وقد يؤكد ذلك أننا نجده يهاجم القرامطة ^(٣) الذين كانوا متصلين بتلك الدعوة حين أغاروا على الحجيج يوم التروية لسنة ٣١٧ وقاتلوه قتلًا ذريعاً ، كما مرّ بنا فى غير هذا الموضع . وربما كان أكثر من ذلك تأكيداً أننا نجده يمدح زيادة الله بن الأغلب صاحب تونس ، بعد أن هزمه أبو عبد الله الشيعى داعية الفاطميين لسنة ٢٩٦ ، وخرج من بلاده إلى العراق وأقام — حسب أوامر الخليفة — بالرقّة ^(٤) ، وظل بها حتى توفى سنة ٣٠٤ للهجرة ^(٥) . ونرى الصنوبرى حينئذ يمدحه بغير قصيدة ^(٦) ولو أنه كان على صلة بالدعوة الفاطمية الإسماعيلية ما نظم فيه بيتاً مثنياً عليه أو مادحاً . ونجده

(١) الديوان ص ٣٩٨ .

(٢) الديوان ص ٩٦ .

(٣) فى ديوانه مديح لصديق هاشمى من سامية

(٤) النجوم الزاهرة ٣ / ١٦٨ .

هو أبو إسحق السلماني ، ولكن ليس فى

(٥) النجوم الزاهرة ٣ / ١٩٠ .

مديحه له ما يصور شيئاً من الدعوة الإسماعيلية .

(٦) الأندلس ص ٣١٧ ، ٤٠٩ .

حين يمدح آل البيت يمدح حمزة وجعفر الطيار كما يمدح العباس^(١) جد العباسيين . وهو يكثر من مديح بعض الهاشمين من سلالة علي بن أبي طالب ، ولكنه أيضاً يكثر من مديح الهاشمين من سلالة العباسيين أمثال أبي العباس أحد أحفاد الرشيد وله يقول^(٢) :

أبناء الخلافة من قريش وساسة أمر عالمنا المسوس
ألنتم من حزون الدهر حتى توهمت الحزون من الوعوس^(٣)

وفي ديوانه ما يدل بوضوح على أنه كان لا يزال يترحل من حلب إلى الرقة على الفرات ، حتى لتعد كما نأما كانت موطنه الثاني وخاصة في أيام شبابه وإدماؤه على اللهو وخلعه للعدار . وكان لا يزال يؤم فيها مع بعض الفتيان والرفاق دير زكّى لحمال متزهاته ، ولما كان يجاوره من أماكن الصيد برّاً وبحراً . وكثيراً ما كان يلم بمدينة الرها هناك وكان بها دكان ورّاق يسمى سعداً ، وكان يجتمع فيه بكثير من أدباء العراق والشام ومصر . ومن الرقة حتى دمشق كان ينزل في كل ما بينهما من البلدان ، ولم يدع جواداً أو حامياً من حماة الأدب في تلك الأنحاء حتى قدم له مدائحهم ، ونستطيع أن نميز بين ممدوحيه عبد الرحمن الجلابي من أهل حرّان بالموصل وابن كوجك في طرابلس وعلى بن سهل بن روح في حمص ، أما الحليون فكثيرون من مثل أسرة السبيعيين ، وكان منهم من يعنى برواية الحديث النبوي مثل الحسن بن أحمد السبيعي وله كتاب « التبصرة في فضيلة العترة الطاهرة » ومثل القاضي أبي عبد الرحمن بن أخى الإمام ومثل على بن محمد بن حمزة العباسي الهاشمي وكان له قصر منيف وبساتين في موضع يسمى فارث ، وله فيه قصائد رائعة ، ومثل أبي عبد الله الكرخي صاحب الخراج . وكثير هم العلويون الذين مدحهم مثل إسماعيل بن الفضل الهاشمي وابنه أبي بكر وحفيده أبي عيسى ومثل طاهر بن محمد ومحمد بن الحسين الهاشمين . وكان يختلط في كل البلدان التي ينزل فيها بشعرائها وأدبائها ، وكان من أقربهم إلى

الصلبة ، والوعوس جمع وعس وهو الأرض السهلة .

(١) انظر الديوان ص ٣٣

(٢) الديوان ص ١٨٥

(٣) الحزون : جمع حزن وهو الأرض

نفسه المعوج الرق ويقال إنه أستاذه ، وقد توفي سنة ٣٠٧ وبكاه بمرثية طويلة يقول فيها ^(١) :

يا سماء الشعر التي لى عليها كل يوم سماء دمع تفيض
كيف تجنى الأفهام زهر المعاني بعد ماجف روضهن الأريض

ولعل أهم صداقة كانت بينه وبين شاعر الصداقة التي انعقدت بينه وبين كشاجم ، ونظن ظناً أنها بدأت في الرقة ، وكان كشاجم قد اتصل هناك بأبي الهيجاء عبد الله بن حمدان والد سيف الدولة ، فرعاه وصار من حاشيته ، ثم صار من حاشية ابنه ، ورافقه حين ألقى عصاه بحلب ، حتى نهاية حياته ، وكان أصغر سنّاً من الصنوبري ، وكأنه اتخذ منه معلمه ورائده في الشعر ، فسج على منواله ، في وصف الرياض وفي الحمريات والغزل ، وبينهما مداعبات ومعاينات واستعطافات كثيرة ، وكان الأستاذ دائماً كان حريصاً على رضا تلميذه . وتعي التلميذ يوماً أو أصره إلى أستاذه في ابنة ^(٢) له ، ولعل عالماً لغوياً لم يحظ بصداقة الصنوبري كما حظى على بن سليمان الأخفش الصغير ، وكان قد رحل عن بغداد إلى مصر سنة ٢٨٧ ثم تركها سنة ٣٠٠ مولياً وجهه نحو حلب ، فظل فيها حتى سنة ٣٠٥ . وفي هذه السنوات الخمس انعقدت له حلقة كبيرة بالمسجد الجامع أمّنها الشباب للثقف ، وكان بينهم الصنوبري ، فلك الأخفش عليه لبه ، وإذا هو ينظم فيه قصيدة طويلة يصور فيها نهله هو ورفاقه من ينبوعه العظيم ، بمثل قوله ^(٣) :

كرعنا منه في أبج ر علم غير منزوفه
وطالغنا رياض العدم بالآداب محفوفه

وتضطره بعض ظروفه إلى أن يرح محاضراته إلى أنطاكية مسقط رأسه ، فيكتب إلى الأخفش متشوقاً كما يقول ، واصفاً فراقه لهذا الفردوس العلمي ، متمنياً أو ذاعت عليه ظلاله . وتمتد به الأيام بعد ذلك نحو ثلاثين عاماً يقضي معظمها في اللهو ، ويفيق مرة من كنوسه في نحو الستين من حياته فيتمنى لو زهد في الدنيا ومتاعها الزائل

(٢) الديوان ص ٣٧٧ .

(١) الديوان ص ٢٦٢ .

(٣) الديوان كشاجم (طبعة بيروت) ص ٧٩ .

معلناً أنه بلغ السابعة والخمسين وأن له أن يزدجر ويرعوى ويكف عن اللهو وآثامه ، يقول (١) :

أَلَقْتُ رِداءَ اللهو عن عاتقِ خمسٍ وخمسون مضتْ واثنانِ

وفى البيت ما يدل على أنه لم يمِت وقد ناهز الحسين كما يقول ياقوت (٢) ، بل مات وقد ناهز على الأقل الستين ، ولا ندري هل هجر اللهو فعلاً كما تمنى أو ظل يشرب كنوسه صافية ومزوجة حتى الأنفاس الأخيرة من حياته لسنة ٣٣٤ للهجرة . وكان يعيش على ما يظهر فى يسر دائماً ، إذ نراه يذكر - كما يذكر ذلك كشاجم - أن له بحلب ضيعة وبستاناً وقصراً حوله الأشجار والورود والرياحين (٣) . وكثيراً ما نراه يدعو صحابه ورفاقه لمآدب عنده (٤)

وأخذ كثيرون يروون أشعاره وهو على قيد الحياة ، وعنى أحد تلاميذه من الشعراء وهو أبو العباس الصفرى برواية ديوانه وعنه رواه القاضى أبو عمر عثمان بن عبد الله الطرسوسى (٤) ، واهتم به معاصره أبو بكر الصولى فجمعه ورتبه على حروف الهجاء فى مائتى ورقة (٥) . ولم يلبث الديوان أن دخل الأندلس بعد وفاة صاحبه بنحو عشرين عاماً لعهد الحكم المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ) . على يد مواطن للصنوبرى ترجم له ابن الفرضى فى تاريخ (٦) علماء الأندلس ، هو محمد بن العباس الحلبى ، وعنه رواه اللغوى المشهور أبو بكر الزبيدى الإشبلى ، وذاعت هذه الرواية بين أدباء الأندلس ، ونرى ابن خير يذكر طرقها فى فهرسته (٧) . ولم يصل إلى عصرنا من الديوان إلا جزء منه يشتمل على قصائده من قافية الراء حتى القاف . أما الجزء الذى يسبقه والآخر الذى يلحقه ففقودان ، وحقّق الجزء الباقي تحقيقاً علمياً الدكتور إحسان عباس وألحق به ما وجده فى المصادر المخطوطة والمطبوعة من أشعار الصنوبرى

(١) الديوان ص ٥٠٣ .

(٢) انظر حلب فى معجم البلدان .

(٣) الديوان ص ٣٤٧ وانظر ديوان كشاجم

ص ٧٤ .

(٤) انظر مثلاً ص ١٥٥ فى الديوان .

(٥) الديوان ص ١٨٧ .

(٥) الفهرست ص ٢٤٦ .

(٦) تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى

رقم ١٤٠٢ .

(٧) فهرسة ما رواه ابن خير عن شيوخه

ص ٤٠٨ .

ونشر هذا الملحق مع الجزء المذكور باسم ديوان الصنوبرى ومعه فهرسه فى نحو ٥٨٠ صفحة .

ومن يقرأ فى شعر الصنوبرى يلاحظ تَوّاً أنه كان يعنى بصناعة شعره وأنه أكْبَ على الشعراء من قبله يقرأ فيهم ويستوعب ويتمثل ، وخاصة أبا تمام والبحترى وابن الرومى وابن المعتز ، فهو أحياناً يكثر من الجناس ومن فنون البديع على طريقة أبى تمام ، وأحياناً لا يذهب بعيداً فى استخدام هذه الفنون على طريقة البحترى ، وهو يكثر من التشبيهات والصور على طريقة ابن المعتز كما يكثر من وصف الطبيعة على طريقة ابن الرومى . وظل يمرن نفسه على نظم الشعر ويروضها على صناعته حتى قال (١) :

ما حلّ بى منك وقتَ مُنْصَرَفى ؟ ما كنت إلا قريسة التَّلَفِ
كم قال لى الشوق قِفْ لتلثمه فقال خوف الرقيب لا تقفِ
بسطت خطوى كرهاً وقد قبضتُ رجلى عن الخطو شدة الكلفِ
فكان جسمى فى زىٍّ منطلقٍ وكان قلبى فى زى منعطفِ

فارتضى حينئذ أن يعلن عن شاعريته وأن يقدم أشعاره لمن حواه ، والأبيات فيها غير قليل من التكلف فى التعبير ، وخاصة البيت الثانى ، ومع ذلك تمّ عن شاعرية جيدة ، وواضح فيها العناية بالطباق والمقابلة على نحو ما يلاحظ القارئ لبيتيه الثالث والرابع . وأخذ يسلس له الشعر وأسلم له قياده حتى أصبح من المجلّين فيه البارعين .

وإذا أخذنا نستعرض موضوعات الشعر عنده لاحظنا أنه عنى بالمديح عناية واسعة ، إذا اتخذ شعره متجراً له ومرجحاً . فهو يقدمه لولاة حلب ونوابهم وأبنائهم ومساعدتهم ، وكثيراً ما يصرّح فيه بتنجز الوعود ، وأنه لا يزال ينتظر هبة الممدوح وجائزته ، وأكثر من مديح العباس بن أحمد بن كَيْسَخْلَغ ، وفيه يقول (٢) :

وَكَيْفَ لَنُغْنِيَّ الْمَجْدَ يُلْفَنِي مَجْدُهُ ثَبَّتَ الدَّعَائِمَ مُحْصَدَ الْأُمْرَاسِ^(١)
 فَرَدُّ الْكِيَانِ فَكَفَّهُ مِنْ رَحْمَةٍ تَسَعُّ الْأَنْامِ وَقَلْبُهُ مِنْ بَاسِ
 أَعْدَى عَلَى صَرْفِ اللَّيَالِي الْمُعْتَدَى وَأَلَانَ مِنْ طَبِيعِ الزَّمَانِ الْقَاسَى
 يَوْمَاهُ ذَا عِيدٍ وَذَا عُرُشٍ وَإِنْ جَلَّأَ عَنِ الْأَعْيَادِ وَالْأَعْرَاسِ
 يَأْبَى الْحِجَابَ وَلَيْسَ يَحْجُبُ بَشْرَهُ عَنْ أَعْيُنِ النَّدَمَاءِ وَالْجُلَّاسِ

والأبيات مليئة بالجناسات والمقابلات والتقسيمات، على نحو ما يلاحظ في أعدى والمعتدى والحجاب ويحجب، وفي الكف والقلب واللين والقسوة والعيد والعرس. وكأنما كتب أشعاره على أضواء من ديوان أبي تمام، وإن كان لا يبلغ مبلغه في اقتناص المقابلات والجناسات: فقد كان أبو تمام أكثر دقة وأنفذ بصيرة. ولا نبالغ إذا قلنا إن أجود ما صاغه من مدائح صاغه في الهاشميين من عباسيين وعلويين، وأهم هاشمي عباسي أسبغ عليه مديحه على بن محمد بن حمزة الهاشمي، وكانت له - كما مر بنا - ضياع يتوسطها قصر في مكان يسمى فارث، وكان الصنوبري كثيراً ما ينزل عنده بهذا القصر وينعم بما فيه من ترف ومن أسباب النعيم ووسائله، وله فيه قصيدة عينية رائعة يصور فيها ما نعم به عنده من غناء بعض الجوارى ومن راح وخمر. كما يصور بستاناً حافلاً بالورد والرياحين وبركة حسناء تنهل فيها النجوم ويتحول إلى مديح ابن حمزة هاتفاً^(٢):

ابْقُوا بَنِي الْعَبَّاسِ مَا بَقِيَ الْحَصَا لَنَدَى يُؤْمَلُّ أَوْ لَخَرَقٍ يُرْقَعُ^(٣)

وبمدح كثيراً من العلويين المقيمين بجلب وغير حلب: ودائماً يذكر أنهم عترة المصطفى وأنهم الجوهر المصفى وسراج الدنيا. ومن خير مدائحه في الهاشميين مدائحه لأنبي إسحق السلداني. ويصفه بالعلم الغزير والاطلاع الواسع على الثقافة اليونانية حتى ليرفعه درجات على أرسططاليس وبقرات، قائلا^(٤):

وَأَدَقُّ مِنْ رَسْطَالِيسٍ نَظْرًا إِذَا نَظَرَتْهُ وَأَشْفَّ مِنْ بُقْرَاطٍ

(٣) يريد بالخرق: الفتنة.

(٤) الديوان ص ٢٧٩.

(١) محصد: قوى متين.

(٢) الديوان ص ٣٢٧.

فِكْرٌ غَدَتْ أَقْفَالُ فِكْرِ كُلِّهَا لَكِنَّهِنَّ مَفَاتِحُ اسْتِنْبَاطِ

والرثاء كثير في الديوان بصورة الثلاث من العزاء والتأبين والندب ، فهو يعزى جعفر بن طاروف عن أخيه^(١) بأن تلك حال الزمان يعصف بكل الأحياء ، وقديماً عصف بجرهم وطسم وأقيال حمير وكسرى وقيصر ، ويعزى ابن حمزة الهاشمي العباسي صديقه عن زوجته^(٢) وأن طائراً لم يطر إلا كما طار وقع ، ولا شرب أحد في دنياه جرعة حلوة إلا أعقبتها جرعة مرة . وحزن طويلاً على صديقه أبي إسحق السلماني حين وافاه القدر ، فأبنته كثيراً واصفياً علمه وباكياً عليه بمثل قوله^(٣) :

غَابَ أَبُو إِسْحَاقَ فِي الْأَرْضِ بَلْ غَابَ سِرَاجُ الْأَرْضِ فِي الْأَرْضِ
بَكْتُهُ عَيْنَايَ وَفَوْقَ الْبَكَاءِ حَتَّى بَكَى بَعْضِي عَلَى بَعْضِي

ومن أروع مراثيه نذبه للنبي عليه السلام ولآله ، وهو فيه يتحدث عن ابنته فاطمة الزهراء وعن علي واصفياً مقتله الأثيم ومؤكداً وصية الرسول له بالخلافة كما أسلفنا ، ويذكر حادثة له في غدير خم وأنه منه بمنزلة هرون من موسى ، ويعرض مقتل الحسين وما صبّه في نفوس المسلمين من جزع وكمد . ويخصّه بمرثاة كلها تفجع عليه ولوعات وزفرات ، ونراه في بعضها^(٤) يصور سيرة جده المصطفى العاطرة ليظهر مدى الإثيم في مقتله ، كما يصور سيرة أبيه علي ونصرته للإسلام وماله من حقوق على الأمة ، ويبكى مقتله في كربلاء بالقرب من الفرات ، وهو ساغب ، يريد بعض الماء ، فتعلق السيوف من دمه ودم شباب وصغار من بيته كانوا معه ، وتُعْمَلُ أم كلثوم ومن كان في ركبته من النساء عويلاً مُرّاً ، ويندد بقاتليه وفضاعة جريمتهم وما يزال يئنُّ لمصرع الحسين وهتك حرمة بمثل قوله^(٥) :

يَوْمَ الْحُسَيْنِ عَلَى الدِّينِ كُنْتُ يَوْمًا عَسِيرًا
مَلَأْتُ وَاللَّهِ كَرْبًا يَا كَرْبَلَاءُ الصَّدُورَا

(٤) أنظر الديوان ص ٢١٨ .

(٥) الديوان ص ٩٥ .

(١) الديوان ص ١٠٦ .

(٢) الديوان ص ٣٤١ .

(٣) الديوان ص ٢٦٥ .

والفاطميين تقرير هم السيوف الطيور
والفاطميات ينحز ن بالدموع النحور

ونراه في جوانب من تفجعه على الحسين وآل البيت يتوسل إلى الرسول عليه السلام وفاطمة الزهراء وعلى وابنيه الحسن والحسين أن يكونوا شفعاء له يوم القيامة ، حتى يغفر الله له ذنوبه ، وهو يضيف إلى شفاعه الرسول المقررة عند أهل السنة شفاعه آل البيت ، تشيعاً لهم ، كأنهم ورثوها فيما ورثوه عن النبي صلى الله عليه وسلم . يلتقى في الديوان تفجعه على الحسين بتفجعه على ابنته ليلي وحيدته كما يقول ، ويندبها في كثير من القصائد والمقطوعات ، وقد امتلأت نفسه شقاء وعناء ممضاً وامتلاً قلبه حشرات واوعات محرقة ، وما يزال يطلب إلى السحب أن تكسو الأرض من حول قبرها وشياً بعد وشى وحريراً بعد حرير وأزهاراً وأنواراً فائحة العبير ، ويناجيها في رمضان ذاكراً عبادتها فيه وعكوفها على القرآن الكريم ، وكيف تحول العيد بعدها لغيابها عنه مائماً ، ويبكيها في قصيدة ضادية ، ويبكي معها أختها التي ماتت منه في الرقة ، وفي ذلك يقول (١) :

لنا في الرقتين مضيضُ حزنٍ وفي حلب المضيضُ على المضيض
وظل جُرحه في ليلي لا يرقأ ، وكانت عروساً ، فانقلبت الفرحة حزناً بل كارثة ، وانقلب الرحيق حريقاً يصطلي الصنوبرى بناره ، ويتعذب عذاباً شديداً ، ولا مغيث له ولا ملجأ سوى الدموع والأنات والزفرات وأن ينوح عليها بمثل قوله (٢) :

يا ربة القبر المضيء الذي يضيء ضوء الكوكب الساري
أشتاق رؤياك فآتي فلا أرى سوى تُربٍ وأحجارٍ
قوى إلى دارك قد أنكرت صبرك عنها أي إنكارٍ
استوحشت دارك من أهلها واستوحش الأهل من الدار
ومن أروع مراثيه مرثيته في أمه ، وهو من أقدم من رثوا أمهاتهم إن لم يكن

أقدمهم ، وهو في رثائه لها يصور شعوراً عميقاً بالحزن ، وقد استهله بقوله: ^(١)

قد صَوَّحَتْ رَوْضِيَّ المونقة وانْزَعَتْ دَوْحِيَّ المورقة
ومضى يصور مرضها قبل موتها وكيف كان ينُّ لها أنيناً متصلاً . وله مراثية
طريفة لثوب أبلاه الدهر .

وهزته بل أثَّرت في نفسه تأثيراً عميقاً فاجعة الحرم المكي الكبرى لسنة ٣١٧
حين هجم القرامطة على الحجاج ، وهم يُهلون ويُلبَّسون يوم التَّروية فأعملوا فيهم
السيف في طرق مكة وفي البيت الحرام وهم متعلقون بأستاره ، حتى ليقال إنهم قتلوا
منهم نحو عشرة آلاف ، ونرى الصنوبري يبكيهم بكاء حاراً ، هاتفاً ^(٢) :

دموعهم تُجْرى خشوعاً وخشية وأرواحهم تجرى على البيض والسمُر
وما غُسلوا بالماء بل بدمائهم وما حُطُّوا إلا من التُّرْب لا العُطِرِ

ومضى يصف القرامطة بالكفر وأنهم لا يعرفون صلاة ولا سجوداً ولا طهراً
ولا وضوءاً ولا صوماً ولا حَجَّاً ولا شيئاً من فرائض الإسلام .

وله قصائد عدة في الفخر ، وهو كثيراً ما يفخر فيها بقبائل قيس والقبائل
المصرية عامة وبضبة قبيلته ، وأيضاً كثيراً ما يفخر فيها بالمصطفى وآله . ونراه
في قافية له يضيف إليه أبا بكر الصديق وعمر الفاروق وخلفاء بني العباس ، إذ
يقول في عَدَدٍ قومه لمناقبهم ومفاخرهم ^(٣) :

عَدُّوا النَّبِيَّ الهاشميَّ ورهطه ووزيره الصديق والفاروقا
ولهم خلائفٌ من بني العباس قد أعيوا جميع العالمين لحوقا

وفي ذلك ما يدل بوضوح على أنه لم يكن غالباً في تشيعه ، إذ يرتضى خلافة
الصديق والفاروق وخلفاء العباسيين ، بل يمجدها ويشيد بها في قوة . وله أهاج
كثيرة يملؤها بالفحش ، ومن أطرفها هجاؤه لزوج ابنته ليل التي رثاها طويلاً ، ويبدأ

(٣) الديوان ص ٤٠٤

(١) الديوان ص ٤٤٢

(٢) الديوان ص ٩٧

أنها توفيت عقب إعراسه بها ، فعده طائر شؤم وطالع نحس بغيص ، وهجاه مراراً وتكراراً بمثل قوله ^(١) :

ألا يابنَ الجُنَيْدِ اسمع وما أنت بذي سَمْعٍ
على التَّفْرِيقِ إِمْلَاكُ كَ هَذَا لا على الجَمْعِ ^(٢)
على التَّعَسِّ عَلَى الغَمِّ على النَّحْسِ على الفَجْعِ
على تَحْرِقُ القلبِ على تَحْدُرُ الدَّمْعِ

وله قصيدة ^(٣) في هجاء بعض الشامسة ، يصفه فيها بالشره في الأكل وبيعض العادات القبيحة ، وبالثقل حتى إنه ليتفوق على جبل رَضْوَى في ثقله ، وبالشؤم حتى ليوافى اليوم في شؤمه ، ومن قوله في ثقل ^(٤) :

لو مَرَّ من مِيلٍ توهمتَه قد مرَّ بين العَيْنِ والحاجِبِ

وفي ديوانه معاتبات واستعطافات بينه وبين بعض أصدقائه ، وألطفها ما نظمه في استعطاف صديقه ورفيقه الحميم كشاجم ، وكانا كأنهما روح واحدة في جسدين أو جسد واحد في ثوبين ، فقد جمعت بينهما لحمة الشعر ، وثقت بينهما من الصداقة ما لا توثقه قرابة الدم ، وله يقول متودِّداً مستعطفاً ^(٥) :

أخ لي عاد من بعد اجتنابِ وفرَّق بين قلبي واكتئابِ
وخاطبني فخلتُ بأن زهر الـ رَبِّى الموشى يُجَنِّى من خطَّابِ
فقرب بين أجفاني وعُمُضِي وباعد بين دَمْعِي وانسكابِ
أتانى أَرَى منطقة فعَفَى على ما دُقَّتْهُ من طَعْمِ صَابِ ^(٦)

وله غزليات كثيرة ، غير أن كثيراً منها في الغلمان ، وحاولنا — في غير هذا الموضع — أن نخفف من حِدَّة هذه المثلبة السيئة عند الصنوبرى وغيره ، فقلنا إن

(٥) الديوان ص ٤٥٧ .
(٦) الأرى : الشهد أو عمل النحل .
والصاب : العلقم .

(١) الديوان ص ٣٤٦ .
(٢) الإملاك : الزواج .
(٣) الديوان ص ٢٠٠ .
(٤) الديوان ص ٤٥٩ .

كثيراً من شعر الغلمان ، إن لم يكن جلده ، كان يُقال على سبيل الدعابة والتندير
في أثناء السكر وشرب الخمر . وله غزل في فتيات ونساء كثيرات ، ويغلب عليه
التكلف إذ نراه يبحث غالباً عن تشبيه أو صورة ، ومن غزلياته الطريفة
قوله^(١) :

تزايد ما ألقى فقد جاوز الحدَّ وكان الهوى مزحاً فصار الهوى جدًّا
وقد كنت جلدًا ثم أوهنني الهوى وهذا الهوى ما زال يستوهن الجلدًا
فلا تعجبي من غلبِ ضعفك قوتي فكم من طباءٍ في الهوى غلبتُ أسدًا
جرى حبكم مجرى حياتي ففقدكم كفقد حياتي لا رأيْتُ لكم فقدًا

ومع ذلك فالقطعة لا تخلو من تكلف ، حين يحوّل الهوى من المزح إلى الجد
وحين يصبح واهناً بعد أن كان جلدًا ، وحين يغلب الضعف القوة ، كل ذلك ليأتي
بالطباق . وأطرف من هذه المقطوعة مقطوعته التالية^(٢) :

لا النومُ أدري به ولا الأرقُ يدري بهذين مَنْ به رَمَقُ
إن دموعي من طول ما استبقتُ كلتُ فما تستطيع تستبق
ولي ملكٌ لم تبدُ صورته مُدَّ كان إلا صلت له الحدقُ
نويتُ تقبيلَ نارٍ وجنته وخفت أدنو منها فأحترق

والقطعة مع ما يترقق فيها من جمال يتعمقها التكلف ، على نحو ما يلاحظ
في البيت الثاني وتعب دموعه من استباقها وتقاطرها على خديه ، وتعبيره عن عبادته
لملكه بصلاة الحدق فيه أيضاً غير قليل من التكلف ، وواضح أن الشطر الأول في
البيت الأخير مجلوب اجتلاباً ليهي مكاناً للشطر الأخير . وله مقطوعة نظمها
في فتاة مسيحية ، تمضي على هذا النمط^(٣) :

لا ومكان الصليب في النحر منك ومجرى الزنار في الخصر
والحلق المستدير من سبج على الجبين المصوغ من دُر^(٤)

(٣) الديوان ص ٦٣ .

(٤) السبج : قطع الشعر المرسلة على الجبين .

(١) الديوان ص ٤٧٢ .

(٢) الديوان ص ٤٣٦ .

وَسُكَّرَ أَجْفَانُكَ الَّتِي حَلَفَ الْفَتَوْرُ أَلَّا تُفْقِكَ مِنْ سُكَّرٍ
وَأَقْحَوَانٍ بِفَيْكِ مُنْتَظِمٍ عَلَى شَبِيهِ الْغَدِيرِ مِنْ خَمَرٍ
مَا صَبَرَ الشَّوْقُ لِي فَأَصْبِرْ يَا مَنْ حُسْنُهُ فِيهِ قِلَّةُ الصَّبْرِ

ويكثر الصنوبري من الحديث عن الخمر ووصف كثوسها وسقاتها وندامها
ومجالسها ، يفرد لذلك القصائد والمقطوعات . وقد يضع نعت الخمر في مقدمة بعض
مدائحه ، مضيفاً إليها نعت بعض ليالي الأُنس وما كان في مجالسها من غناء
وقيان وجوار معقربات الأصداء . وقد يضيف إلى ذلك وصف البستان وما فيه من
أزهار ممتدة حول القصور ومجالسها . وكثيراً ما يقرن وصف الربيع إلى الخمر ، فهو
ربيع الدنيا وهي ربيع الفرح والسرور في رأيه . ويقرنها أيضاً دائماً إلى الأمطار ،
ولعله أول من قرنها بالثلج وانتثاره في الطبيعة ، وعرف له القدماء ذلك فقالوا إنه
أول من تغنى بالثلجيات على شاكلة قوله ^(١) :

ذَهَبَ كَثُوسَكَ يَا غُلَا مُ فَإِنْ ذَا يَوْمٍ مُقَضَّضُ
الْجَوُّ يُجَلِّي فِي الْبَيَا ضٍ فِي حَلِيِّ الدَّرِّ يُعْرَضُ
أَظْنَنْتَ ذَا ثَلْجاً وَذَا وَرْدٌ عَلَى الْأَغْصَانِ يُنْفَضُ
وَرْدُ الرَّبِيعِ مَلُونٌ وَالْوَرْدُ فِي كَانُونٍ أَبْيَضُ

وهو يفرح بهذا اليوم من أيام كانون شهر الشتاء القارس ، الذي يكسو
الأشجار ثياباً بيضاء ، وكأنها تجللى فيها ، فهو يوم من أيام عرسها ، وهو يعب
فيه من كثوس الخمر المذهبة الصافية ، فرحاً بمنظر الثلج على الأغصان ، وكأنما
قَطَعَهُ في عينه ورودٌ تُنْفَضُ على الأغصان وعلى الأرض ، ورود بيضاء ،
تكسو الطبيعة غلائل فضية بهيجة . وكان أكثر ما يفرغ لخمرة ولطوه ولذاته في
الرقعة ، وكان يختلف مع رفاقه إلى بساتينها ومتنزهاتها على جداول البليخ والهنى
والمرى . وله رائية ^(٢) يصور فيها نزهة في بساتين تلك الجداول وفي دير زكي الذي
كان يجاورها ، ذاكرةً قرأها التي كان يتنقل بينها من مثل هرقلية والصالحية

(١) الديوان ص ٢٥٥ .

(٢) الديوان ص ٥٤ .

وبيطّياس والرافقة وما كان يمتد في المروج هناك من أنوار وأزهار ، ويصف
عكوفه على الخمر وسقّاتها من الغلمان والحواري ، كما يصف صيده بالكلاب
هناك من الغزلان ، وكذلك صيده بالحوارج من الصقور والبزاة للطير من مختلف
الألوان ، ويصوّر من معه من الرفاق كما يصور نهر الفرات وسفنه المسرعة . وله
وراء ذلك أشعار كثيرة في دير زَكِيٍّ ونُزْهَةٍ في بساتينه وخِصْلَعِهِ مع بعض رفاقه للعدار
فيه ولهولهم مع بعض فتياته ، على نحو ما يحدثنا في قوله (١) :

لو على الدّير عَجَتْ يوماً لآلهتُ لك فنونٌ وأطربتك فنونٌ
كم غزالٍ في كفِّه الوردُ مبذو لٌ وفي الخدِّ منه وردٌ مصونٌ

ويبدو أنه ارعوى حين تقدمت به السنُّ بعد الخمسين ، وربما كان لموت ابنته
ليلي أثر في ذلك ، فقد صحا من خمره ولهو على موتها في سن البراعم الغضة ، ولعل
ذلك ما جعله يعلن أنه كفَّ عن النبذ في حزم وعزم أكيد ، حتى ليقول (٢) :

كنت أحبُّ النبذ جدًّا فصار حبِّي النبذ بُغْضًا
فلمست أرضاه لي شراباً والحمد لله لست أرضى

وينظم بعض أشعار في الزهد ، وله فيه قصيدة (٣) طويلة ، يتحدث فيها عن
الموت وعن ذنوبه ومعاصيه وأنه آن له بعد ما اقترف من الأثام أن يرعوى ويكف
عن السير في طريق اللهو ودروبه . ويتصل بهذا الموضوع عنده أن نجده يفرد
بعض القصائد لنصائح خلقية وسلوكية في الحياة ، وهو الباب الذي يسمّى في الشعر
وأغراضه باسم باب الأدب ، حيث تتوالى النصائح للبصر بالحياة ومسالكها الصعبة ،
من مثل قوله في إحدى قصائده التي خصّها بهذا الباب (٤) :

أضاع الحزَمَ مَنْ أَمْسَى مُطِيعاً طوالَ الدهرِ ذا حَزَمٍ مضاعٍ
وأكثرُ ما استطعت الحلمَ إني رأيتَ الحلمَ من كرمِ الطباعِ
ولا تتبّعْ أخا سَفِهٍ ودَعْهُ وَكُنْ للحرِّ - دهرَك - ذا اتباعِ

(١) الديوان ص ٤٩٥ .

(٣) الديوان ص ٣٩٣ .

(٢) الديوان ص ٢٥٨ .

(٤) الديوان ص ٣٢٣ .

ولم نتحدث حتى الآن عن الموضوع الأساسي في شعره ، وهو وصف الطبيعة التي عاش لَهَا وعاش بها وعاش فيها معيشة جعلته أستاذ هذا الموضوع في العربية . وقد مضى معاصروه مِن حوله وَمَن خَلَفَهُمْ في العصور التالية لا في المشرق وحده ، بل أيضاً في المغرب والأندلس يسIRON على هديه فيه ، حتى ضُرب المثل برومياته . وحقاً كان ابن الرومي مشغولاً بالطبيعة ووصف الرياض في الربيع ، ولكنه لم يَعِشْ لهذا الموضوع معيشة الصنوبري ولا اتخذ له بستاناً يزرع فيه الورود والرياحين والأزهار ويتعهدا تعهد الحب الوامق كما صنع الصنوبري . فهو بحق شاعر من شعراء الطبيعة ، عاش يتغذى خياله وروحه منها ، واصفاً لحداثقها وبساتينها ورياضها ، حتى ليصبح ذلك كل شغله وكل وَكْده من حياته ، وقديماً عاش تلك المعيشة أبو نواس ، ولكن في الصهباء وكثوسها ودنانها ، مما جعله يُعَلَى وصفها على وصف الأطلال والديار العافية ، وبالمثل نجد الصنوبري يُعَلَى وصف الطبيعة على وصف الديار والأطلال ، في مثل قوله (١) :

وَصَفَّ الرِياضُ كَفاني أَن أَقيمَ على وصف الطلول فهل في ذاك من باسٍ
يا واصفِ الروض مشغولاً بذلك عن منازلٍ أَوْحَشْتُ من بعد إيناسٍ
قُلْ للذي لام فيه هل تَرى كَلِفاً بأمَلحِ الروض إلا أَمَلَحَ الناسِ

فهو يُعَلَى وصف طبيعة بلاده على وصف الأطلال ، وكأنه أول تعبير قوى عن شغف شعراء الشام بطبيعة ديارهم الخلابة . ورأيناه في غزاه لا يهيم بالمرأة ، وكأنما استأثرت الطبيعة بكل ما فيه من عاطفة ، وشغلته بحماها الهاجع في الكون عن كل شيء ، حتى لكأنما يعيش لها كل لحظة من حياته ، وفي كل لحظة يصبو لها قلبه ويشتد وجده وتتابع أنفاسه ، ويصور ذلك في قصيدة الأبيات السالفة قائلاً عن رفاق له في أحد البساتين :

ما كدتُ أَكتُمهم وَجَدِي بِرَجِيسِهِ إلا استدلُّوا على وَجَدِي بِأَنفاسِي

فهو يجد بالرياض وجداً لا يكاد يشبهه وجد ، وكان يشتد به هذا الوجد في الربيع ، حين تأخذ الأرض زخرفها ويعبق الجو بروائح الأنوار والأزهار ، وتتغنى

الطيور على الأشجار ، وكأنما تتحوّل الرياض في عينيه إلى أعياد وأعراس ، حتى
ليقول^(١) :

ما الدهر إلا الربيعُ المستنير إذا أتى الربيعُ أتناك النُّورُ والنُّورُ^(٢)
فالأرضُ ياقوتةٌ والعجو لؤلؤةٌ والنبت فيروزجُ والماء بُلُورُ^(٣)
تظلُّ تنشر فيه السُّحبُ لؤلؤها فالأرضُ ضاحكةٌ والطير مسرورُ^(٤)
حيث التفتَ فقمرىٌ وفاختهٌ يغنيانِ وشفنينِ وزُرُورُ^(٥)
إذا الهزارانِ فيه صَوْتًا فهما السُّ رُ نايٌ والنَّايُ بل عودٌ وطنبورُ^(٦)

فالربيع كأنه دكانٌ مليءٌ بالجوهر ، والدنيا مليئةٌ بالبشر والسرور والطيور تغني
ويشدو عندليبان بصوتيهما الساحر ، وكأنما تجتمع جوقة موسيقية تخلب الألباب
بأغانيها الجميلة . ويهتف بالناس أن يفتحوا عيونهم وأبصارهم في الربيع ليروا مفاته
ويهتف بصواحيبه من النساء أن يتأملن في جماله الذي يملأ القلوب غبطة وابتهاجاً ،
يقول^(٦) :

يا ريمُ قومي الآن ويحك فانظري ما للرُّبى قد أظهرت أعجابه^(٧)
كانت محاسنُ وجهها محجوبةً فالآن قد كشف الربيع حجابها
وردُّ بدا يحكى الخدودَ ونرجسُ يحكى العيون إذا رأت أحبابها
وكانَ خرمهُ البديعَ وقد بدا رؤسُ الطَّوَّاسِ إذ تدير رقابها^(٨)
والسُّرُ تحسبه العيونُ غوانياً قد شمرت عن سوقها أثوابها^(٩)

فهو يوقظ صاحبه لترى الطبيعة وقد حسر الربيع نقابها ، فبدت خدودها
وعيونها الرانية ورعوسها الزاهية ، وكأنما السرو غانيات أقبلت مشمرة عن سيقانها

(٥) السرنای والنای : من آلات الطرب .

(١) الديوان ص ٤٢

(٦) الديوان ص ٤٥٤ .

(٢) النور : الزهر .

(٧) أعجاب : جمع عجب .

(٣) الفيروزج : الفيروز وهو حجر كريم

(٨) الخرم : زهر بنفسجي زاه .

أخضر اللون .

(٩) السوق : السيقان جمع ساق .

(٤) القمرى والفاخته : من الحمام ، والشفنين

اليمام ، والزُرُور : من المصافير .

تريد الرقص في هذا الجو العطر البهيج . ويفرد كثيراً من مقطوعاته اوصف بعض
الأزهار ، ولم يكن زهر يملك لُبَّةً كما كان يملكه زهر النرجس ، وهو أعظم الأزهار
في الشام وأكثرها انتشاراً فيه ، وقد تغنى به طويلاً على نحو ما نرى في قوله (١) :

أَرَأَيْتَ أَحْسَنَ مِنْ عَيُونِ النَّرْجِسِ أَمْ مِنْ تَلَاظِهِنَّ وَسَطَ الْمَجْلِسِ
دُرٌّ تَشَقَّقُ عَنْ يَوَاقِيَتٍ عَلَى قُضْبِ الزَّمْرَدِ فَوْقَ بُسْطِ السُّنْدِسِ
أَجْفَانُ كَافُورٍ حُبَيْنَ بَاغِيَيْنِ مِنْ زَعْفَرَانٍ نَاعِمَاتِ الْمَلْسِ

وهو في كثير من وصفه للنرجس يستهدي بابن الرومي ، إذ كان معجباً به مثله ،
ومرّ بنا في غير هذا الموضع أن ابن الرومي أدار مناظرة في شعره بينه وبين الورد ،
وقف فيها مع النرجس مُورداً من الحجج ما يؤكد فضله على الورد وأنه يفوقه
حسناً وجمالاً ، وكأما أراد الصنوبري أن يعارضه فنظم مقطوعة (٢) نصر فيها الورد ،
ثم عاد فأقام معركة بين الأزهار ، حاول فيها أن ينتصر للنرجس ، وفيها يقول (٣) :

خَجَلَ الْوَرْدُ حِينَ لَاحَظَهُ النَّرُّ جِسٌّ مِنْ حُسْنِهِ وَغَارَ الْبَهَارُ (٤)
فَعَلَتْ ذَاكَ حِمْرَةٌ وَعَلَتْ ذَا حَيْرَةٌ وَاعْتَرَى الْبَهَارُ إِصْفَرَارُ
وَعَدَا الْأَقْحَوَانُ يَضْحَكُ عَجَبًا عَنْ ثَنَائِيَا لِثَاتُهُنَّ نُضَارُ (٥)
عِنْدَهَا أَبْرَزَ الشَّقِيقِ خَدُودًا صَارَ فِيهَا مِنْ لَطْمِهِ آثَارُ (٦)
وَأَضَرَّ السَّقَامُ بِالْيَاسَمِينِ غَضُّ حَتَّى أَذَابَهُ الْإِضْرَارُ

ويمضي الصنوبري على هذا النمط واصفاً القتال بين النرجس والأزهار المختلفة ،
وكل منها يبوء بالهزيمة أمام النرجس وما يسلط من سهام عيونه الساحرة . وكان كلما
وصف بلدة من بلدان الشام وصف طبيعتها الجميلة ، وله في دمشق والرقعة قصائد
بديعة ، وأبدع منها قصيدته في موطنه حلب ، وهي أربعة أبيات ومئة استهلها

(٥) الأقحوان : زهر أبيض في وسطه اصفرار

وأوراقه مفلجة ، ولذلك يشبهونه بالأسنان .

(٦) الشقيق : ورد كبير أحمر .

(١) الديوان ص ١٨٠ .

(٢) الديوان ص ٤٩٨ .

(٣) الديوان ص ٧٨ .

(٤) البهار : نبت أصفر .

بالتشبيب ، ثم أخذ في وصف متزهاتها وقراها ونهرها قويق وبركها ، ثم وصف المدينة نفسها وجامعها وفيه يقول ^(١) :

حبذا جامعها الجا مع للنفس تقاها
ومراق منبر أء ظم شئ مرتقاها
وذرى مئذنة طا لت ذرى النجم ذراها
قبة أبدع بانيها بناء إذ بناها
لو رآها مبتنى قبّة كسرى مابناها

وتحدث عن حلقاتها الأدبية والعلمية ، ووصف الطبيعة حولها وأشجارها وأزهارها وصفاً رائعاً ، وتحدث مراراً عن نهر قويق مصرحاً بضحوه مياهه وأنه ليس فيه شيء من سفن الفرات ولا من تماسيح النيل وإنما فيه فقط نقيق الضفادع . وكان طبعياً أن يصف الفستق أعظم نُقْل تشتهر به حلب وفيه يقول ^(٢) :

زبرجدة ملفوفة في حريرة مضمّنة ذراً مغشى بياقوت

وكانت لديه قدرة على ملاحظة دقائق الأشياء ، ولذلك كان يحسن وصف أى شيء وصفاً دقيقاً ، وما اشتهر به وعُرف له وصفه لديك الصباح الذى ينبه وينبه الرفاق معه لخمير الصباح التى تسمى بالصَّبَّوح ، وكان الشعراء قبله يلمّون به أحياناً ، أما هو فخصّه بمقطوعة طريفة وفيها يقول ^(٣) :

مغرّد الليل ما يألوك تغريدا
لما تطرب هزّ العطف من طرب
كلابس مطرفاً مرخ جوانبه
ران بغصّي عقيق يدركان له
حالى المقلد لو قيست قلاوته
مل الكرى فهو يدعو الصبح مجهودا ^(٤)
ومد للصوت - لما مدّه - العجيدا
تضاحك البيض من أطرافه السوداء ^(٥)
من جدّة فيهما ما ليس محدودا
بالورد قصر عنها الورد توريدا

(٤) الكرى: النوم .

(٥) المطرف : ثوب من حرير مخطط .

(١) الديوان ص ٥٠٦ .

(٢) الديوان ص ٤٦٤ .

(٣) الديوان ص ٤٧٣ .

وكان كثيراً ما يخرج مع رفاقه للصيد والقنص ، وخاصة في الرقة ، يصيدون بالكلاب الغزلان أو يصيدون بالجوارح طير الماء ، وقد يصيدون السمك من الفرات بالشباك ، وكل ذلك نجد وصفه في أشعاره ، وله طائفة (١) يصف فيها جواده الذي يركبه للصيد وقد جنّ جنونه من السرعة حتى لكأنه حاقده على الفضاء ، أما يده فكأنها منبر للشاهين الذي سيطلقه على بَطّ الماء أو طيّره ، وفيه يقول :

كَأَنَّمَا مِخْلَبُهُ لِأَذُنِ الطَّيْرِ قُرْطُ

ويصور سرعة مضيه حتى كأنه سهم يخرج عن قوس ، فلا يكاد يرتد البصر حتى يأتي بصيده . ويتركه إلى وصف ما معه من كلاب الصيد ، مصوراً سرعتها هي الأخرى وهيئتها وانقضاضها على فرائس الصيد من الغزلان وغير الغزلان ، وفيها يقول :

مَوَكَّلَاتٍ بِالْفَلَا يَطْوِينَهَا طَيَّ البُسْطُ .

كَأَنَّمَا آذَانُهُ نَّ مَوْسِنٌ لَمْ يُجِنَ قَطُّ

كَأَنَّمَا أَجْفَانُهَا عَنْ قِطْعِ الْجَمْرِ تَعْطُ (٢)

وساعدته حاسة التصويرية على أن يصور كل ما حواه وكل ما يقع عليه نظره ، من ذلك تصويره للجُرْذَانِ والهَيَّرِ (٣) ، ونراه يقدم لذلك بتصوير هيئة كل منهما ، فالهر أحذب الظهر منتصب الرأس ، والجُرْذَانِ دقيقة الحراطم والآذَانِ والأذَنَابِ حادة الأظفار والأنياب ، ثم يتحدث عن إفسادها لكل شيء وكيف تنقب الحيطان والجدران وتصيب من كل طعام وشراب ، والهَيَّرُ لها بالمرصاد ، يقول :

نَاصِبٌ طَرْفُهُ إِزَاءَ الزَّوَايَا وَإِزَاءَ السَّقُوفِ وَالْأَبْوَابِ

يَسْحَبُ الصَّيْدَ فِي أَقْلٍ مِنَ اللَّحْمِ حَاحَ وَلَوْ كَانَ صَيْدُهُ فِي السَّمَاحِ

ويصور لنا فرحه به حتى لقد ألبسه قُرْطاً وقلادة ، وخضبه بالحناء ، وكأنه عروس مقلدة عقداً نفيساً ، تمشي بأقدامها الحمراء على عُنَّاب ، وكل ذلك

(٢) الديوان ص ٤٥١ .

(١) الديوان ص ٢٨٣ .

(٢) تعط : تشق .

فرح بهذا الليث الذى قضى له على الجرذان قضاءً مبرماً . ومن تصاويره قوله فى
شمعة (١) :

مَجْدُولَةٌ فى قَدِّهَا تَحْكِي لَنَا قَدَّ الْأَسَلِ
كَأَنَّهَا عُمُرُ الْفَتَى وَالنَّارُ فِيهَا كَالْأَجَلِ

وهى صورة طريفة ، ولعل فى كل ما أسلفنا ما يشهد بخصب خيال الصنوبرى
وأنه كان خيالا خالقاً ، لا يزال يرسل الصور الطريفة تلو الصور ، صور تحفل
بما يملأ نفس قارئه إعجاباً ، وكان إلى ذلك شغوفاً بالرياض والطبيعة شغوفاً ملك
عليه حواسه ، حتى أصبح فيه قدوة للعصور التالية .

الفصل السادس

شعراء السياسة والمديح والمهجاء

١

شعراء الخلفاء العباسيين

عرفنا في كتاب العصر العباسي الأول أن حزب الخوارج الذي كان يصارع الأمويين مصارعة عنيفة خَمَدَ أَوَارُهُ ، ولم تَبَسَّقْ منه حينئذٍ إلا أسراب قليلة حتى إذا كنا في هذا العصر العباسي الثاني كادت تجفُّ هذه الأسراب ، ولم يَعدْ من يُعلن أنه خارجي أو يدافع عن الخوارج إلا أفراد قد نجدهم هنا أو هناك دون أن يكونوا حزباً أو يعملوا على نشر دعوة ، إنما هي أفكار قد تَعِنَ لشخص ، وقد يتبنّاها ، ولكن دون أن يَحْتَمِلَ من أجلها السلاح ودون أن يتغنّى بها شعراً ، إلا ما كان من صاحب الزنج فإنه مزج في دعوته بين التشيع ومذهب الأزارقة من الخوارج على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضع ، إذ كان يستحلّ قتل أطفال المسلمين ونساءهم ويرى المسلمين جميعاً كفاراً ينبغي استئصالهم ، بالضبط على نحو ما كان يذهب الأزارقة . ولكن حتى هذه الحركة الثائرة حركة الزنج لا نستطيع أن نسميها حركة من حركات الخوارج ، لأنها كانت تزعم أو يزعم صاحبها أنها حركة شيعية ناسباً نفسه إلى فاطمة الزهراء كذباً وافتراء . وكأنما كان اضمحلال مذاهب الخوارج هو الذي جعله ينسب دعوته إلى البيت العلوي .

أما حزب الشيعة فقد ظلت نيرانه لا تخمد في هذا العصر ، بل لعلها ازدادت اشتعالاً ، بكثرة من كانوا يثورون من العلويين في الحجاز وفي طبرستان وشرق الدولة ، وكان وراء هذه الثورات شعر كثير يؤازرها ويناصرها ويرمي بقذائفه وشعله على العباسيين . وكان كثير من الشعراء يقف مع العباسيين ، بل لقد كانت كثيرتهم

الغامرة تقف معهم ؛ لأنهم أصحاب الدولة وفي أيديهم خزائنها وأموالها يكيلون لهم منها كسيلاً ، فكان طبيعياً أن يكثر مدّاحهم ودُعائهم ، بل إن كثيرين من شعراء الشيعة أنفسهم كانوا يُظْهِرون غير ما يُبْطِنون ، فيمدحون هذا الخليفة العباسي أو ذاك لقاء ما يُسْتَرُّ عليهم من دراهم ودنانير . وكان منهم المعتدل الذي لا يتحمّل على البيت العلوي ولا يضطغن مثل المنتصر ، وكان منهم المتحامل المبعض مثل أبيه المتوكل أول خلفاء هذا العصر ، وقد مرّ بنا أمره بحرث قبر الحسين ومسح أرضه ومسح الناس من زيارة مكانه وكذلك زيارة قبر أبيه في النجف ، وغدا آل أبي طالب في محنة عظيمة طوال عهده يخافون على أنفسهم من القتل أو من الحبس . وتقرب إليه غير شاعر من مثل علي بن الجهم يشتم على رضى الله عنه كما أسلفنا ، إما نصّاً وإما تعريضاً كقول الجهمّاز أحد ندائه^(١) :

ليس لي ذنبٌ إلى الشِّعة إلا خلتين
حبّ عثمان بن عفّان وحبّ العُمَريّين

يريد بالعمرين أبا بكر الصديق وعمر بن الخطاب ، ملوّحاً بأنه من أهل السنة ، وأنه على مذهب المتوكل في التسنّن ومقت الشيعة . وفتح المتوكل أبوابه للشعراء كي يمدحوه ويمدحوا بيته ويبرهنوا على أنه هو البيت الوارث حقّاً للخلافة ، ملوّحين في وجوه العلويين ومن يقفون معهم من الشيعة . وعرف الشعراء فيه هذا الجانب ، فاستغلّوه يتقدمهم ابن الجهم وروان بن أبي الجنوب وغيرهما كثيرون ، وأتوه من كل فجّ من الشام والموصل والكوفة والبصرة والجزيرة العربية . وكان ممن أقبل عليه من الكوفة أبو الشَّيْبَلِ البُرْجُمِيِّ ، حتى إذا دخل عليه أنشده قصيدة مؤلفة من ثلاثين بيتاً استهلّها بقوله^(٢) :

أقبل فالحَيْرُ مقبلٌ واتركي قولَ المعلّل
وثقي بالنُّججِ إذ أبصرت وجهَ المتوكل

وما إن انتهى منها حتى أمر له بألف درهم لكل بيت ، فانصرف بثلاثين ألف

(٢) الأغاني (طبع دار الكتب المصرية)

١٩٣/١٤

(١) معجم الشعراء للمرزباني (طبعة الحاي)

ص ٣٧٥

درهم . وكان يَغْدُو وَيَسْرُوحُ فِي رِكَابِهِ الْبَحْتَرَى يمدحه في كل مناسبة مشيداً بآبائِهِ وورائته لنور النبوة وإمامته يهنئه وعذله ، ويتحول إلى ما يشبه داعية له في كل عمل من أعماله . ومن طريف ما نقرأ من مدائح للمتوكل عند غيره مدحة لإبراهيم بن المدبر وكان لا يزال شاباً يعمل في دواوينه ، فرض المتوكل ثم عوفي ، ودخل الناس على طبقاتهم يهنئونه بالإبلال من مرضه ، ودخل إبراهيم ، ولم يكده يقف بين يديه حتى أنشدته قصيدة يهنئه فيها بسلامته مهللاً مبتهجاً مع المبتهجين المهللين ، وفيها يقول ^(١) :

اليوم عادَ الدينُ غَضَّ العودِ ذا وَرَقٍ نَضِيرِ
يا رحمةً للعالمِ نَ ويا ضياءَ المستنيرِ
يا حجةَ الله التي ظهرتْ له يَهْدَى ونورِ

والمبالغة واضحة وكأننا بإزاء غال من غلاة الشيعة يمدح إمامه ، وقد لعبت فيما بعد كلمة « حجة الله » دوراً كبيراً في المذهب الإسماعيلي الفاطمي . وكان طبيعياً أن يَطْرَبَ المتوكل حين سمع القصيدة ، فيأمر له بخمسين ألف درهم ويتقدم إلى وزيره عبيد الله بن يحيى أن يوليه عملاً جليلاً ينتفع به . وكان كثيرون يسيل لُعابهم لمثل هذا العطاء الجزيل ، حتى كبار الكُتَّاب من أمثال إبراهيم بن العباس الصولي ، وكانوا ما يزالون يشتهزون القرص من الأعياد والمناسبات ، وكان من أكبر هذه المناسبات عقد المتوكل البيعة لولاية العهود أبناءه الثلاثة : المنتصر فالمعتز فالمؤيد ، وصنع لذلك موكباً ضخماً ، سار فيه مع أولاده حتى نزل القصر الذي سَمَّاهُ العروس وأذن للناس فدخلوا إليه ، فلما تكاملوا بين يديه وقف الصولي بين الصَّفَّيْنِ ، واستأذن في الإنشاد فأذن له فقال ^(٢) :

أَضَحَّتْ عُرَى الْإِسْلَامِ وَهِيَ مَنْوُطَةٌ بِالنَّصْرِ وَالْإِعْزَازِ وَالتَّأْيِيدِ
بِخَلِيفَةٍ مِنْ هَاشِمٍ وَثَلَاثَةِ كَنَفُوا الْخِلَافَةَ مِنْ وُلاَةِ عَهْدِهِ

التأليف والترجمة والنشر) مع مجاميع شعرية
أخرى ص ١٣١ .

(١) أغاني (طبعة الساسي) ١٩ / ١١٤ .

(٢) أغاني (طبعة دار الكتب) ١٠ / ٦٤ .

وانظر الطبري ٩ / ١٨١ والديوان (طبع لجنة

قمرٌ توافَتْ حوله أقمارُهُ فَحَفَفْنَ مَطْلَعَ سَعْدِهِ بسعود
 كَنَفَتْهُمْ الآبَاءُ واكتنفت به فَسَعَوْا بِأَكْرَمِ أَنْفُسٍ وجدود
 فأمر له المتوكل بمائة ألف درهم وأمر له ولاية اليهود بمثلها . ويتولى بعده المنتصر ،
 فيرفع المحنة عن آل أبي طالب ويدفع عنهم الأذى ويردُّ عليهم الأمن ، ويتغنى
 شعراؤه بهذا الصنيع ، يتغنى البحترى ويتغنى غيره ، ويتغنى شعراء الشيعة من
 أمثال يزيد^(١) بن محمد المهلبى . وسرعان ما يخلفه المستعين ، وفيه يقول أحمد بن
 يحيى البلاذرى^(٢) :

ولو أَنَّ بُرْدَ المصطفى إِذْ لَيْسَتْهُ يَظُنُّ لَظَنَ البُرْدُ أَنَّكَ صَاحِبُهُ
 وَقَالَ وَقَدْ أَعْطَيْتَهُ وَلَيْسَتْهُ نَعَمْ هَذِهِ أَعْطَاكَ وَمَنَاقِبُهُ
 ويتولَّى الخلافة بعده المعتز ، وكان شاعراً مجيداً ، ولو امتدت به الخلافة
 لكان مثل ابنه عبد الله فى خصب ملكاته الشعرية ، وقصده كثير من الشعراء ،
 ليأخذوا جوائزهم أو ليصبحوا من ندمائه إذ كان صاحب لهُو وقصيف ، فلم يكذ يتسلم
 مقاليد الخلافة حتى فتح أبوابه لهم ، وكان ممن دخل عليه وأنشده مهتماً أبو على
 البصير قائلاً^(٣) :

أَبَ أَمْرُ الإسلام خير مآبٍ وغدا الملك ثابتاً فى نصايه
 مستقراً قراره مطمئناً أهلاً بعد نايه واغترابه

وتطول مدة المعتمد نحو عشرين عاماً أو تزيد سنوات ، وكان فيه لهُو وانغماس
 فى الترف ، ولكن يده كانت مكفوفة عن المال ، كَفَّهَا أخوه ولىّ عهده الموفق
 أشد بنى العباس شكينة لعصره وأحزمهم بكل معانى الحزم وأروعه . وكأنما اختاره
 القدر فى عصر أخيه لينازل الزنج وصاحبهم فى ثورتهم العارمة ويقضى عليها قضاء
 مبرماً . فكان طبيعياً أن ينصرف الشعراء عن الخليفة إلى ولىّ عهده وأمجاده الحرية
 فى وقائعهم مع الزنج من جهة ومع يعقوب الصفَّار من جهة ثانية . وقد صورنا هذه

(٣) مروج ٤ / ٨٢ .

(١) مروج الذهب ٤ / ٥٢ .

(٢) النجوم الزاهرة ٣ / ٩٨ .

الوقائع في غير هذا الموضع ، وفي وقائعه مع الصفار يقول ابن فسيّد الطائي مصوراً انتصاره^(١) :

ووليّ عهد المسلمين موقّق بالله أمضى من شهابٍ ثاقبٍ
يافارس العرب الذي ما مثله في الناس يُعرف آخرُ لنواثبٍ

وتولّى الخلافة المعتضد ، وكان مثل أبيه شجاعة وفروسية وحزمًا ، ومرّ بنا أنه كان من مدّاحه ابن الرومي فهو يهنئه في الأعياد المختلفة وينتهاز كل مناسبة لينظم فيه أشعاره مهللاً ممجداً . ونظم فيه ابن المعتز كثيراً من مدائحه ، كما أسلفنا ، وكان قرّة عينه ، وله صنع أرجوزته التاريخية التي صوّر فيها عهده تصويراً بارعاً ، وفيها أصلّتي خصوم العباسيين ناراً حامية ، مصوراً بشاعة ثورتي الزنج والقرامطة ، وكأنما جرّد من نفسه محامياً أمام أبناء عمومته العلويين مدافعاً عن بيته وحقوقه في الخلافة ، ومرّ بنا ذلك في حديثنا عنه . ويتولّى المكتفي بعد أبيه المعتضد ويُسبغ عليه ابن المعتز مدائحه ، كما يُسبغها أبو بكر الصولي وغيره . ثم تكون خلافة المقتدر وتأخذ الدولة في الانتكاس . ويظل الشعراء يقدمون مدائحهم للخلفاء طلباً للنوال من أمثال ابن بسّام^(٢) وغير ابن بسام . ونحن نقف عند ثلاثة من شعراء العصر طالما مدحوا خلفاءه ، وهم مروان بن أبي الجنوب وعلي بن يحيى المنجم وأبو بكر الصولي .

مروان بن أبي الجنوب أبو السمط^(٣)

حفيد مروان بن أبي حفصة شاعر الخليفة المهدي ، أصل موطنهم البامة ، وقد سلك مسلك جدّه في الطعن على آل علي بن أبي طالب ، فكان طبيعياً أن يفتح له جعفر المتوكل أبواب قصره وقد بلغ من حسنّقه على أبناء عمه العلويين

والطبري ٩ / ٢٣٠ والأغاني (طبعة السامي) ٩ / ٣٤

وتاريخ بغداد ١٣ / ١٥٣ والفهرست لابن

الديم ٢٣٥ ومعجم الشعراء للمرزباني

ص ٣٢١ والموشح ص ٣٤٤ وفيات الأعيان

وخزانة الأدب للبغدادى ١ / ٤٤٧

(١) طبري ٩ / ٥٢٠ .

(٢) انظر أخبار الرازي والمتقى في كتاب

الأوراق للصول .

(٣) راجع في أخبار مروان وأشعاره الشعر

والشعراء لابن قتيبة وطبقات الشعراء لابن المعتز

ص ٣٩٢ ومروج الذهب ٤ / ٥٢ ، ٨٣

'سورّاه في غير هذا الموضع . ويبدو أن الواثق لم يكن يُعجّب به ولا بشعره ففناه إلى اليّامة ، فلما ولي الخلافة بعده المتوكل بعث إلى ابن أبي دؤاد مستشاره بقصيدة مدحه بها ، ذم فيها ابن الزيات وزير الواثق ذمّاً قبيحاً ، وكان المتوكل قد قبض على أمواله وعذّب به في تسنور من خشب ملاء بمسامير من حديد حتى مات فقال فيه مروان :

وقيل لي الزيات لاقى حِمَامَهُ فقلتُ أتانى الله بالفتح والنّصر
لقد حفر الزيات بالغدر حُمْرَةً فألقى فيها بالخيانة والغدر

وكان ابنُ الزيات أولَ من عمل هذا التّسور ، وعذّب به نفراً . وما إن صارت القصيدة إلى ابن أبي دؤاد حتى طار إلى المتوكل وأنشده البيتين السالفين ، فأمره بإحضاره . فقال له إنه باليامة ، كان الواثق نفاه لمودّته لأمر المؤمنين ، وعليه دينٌ : ستة آلاف دينار ، فقال المتوكل : يُعطّاها . فأعطيت له ، وجيء به إلى سامراء ، فدخل على المتوكل وأنشده قصيدة لامية يقول فيها :

كانتُ خلافة جعفر كنبوّة جاءت بلا طلب ولا بتنحلّ
وهبَ الإلهُ له الخلافةَ مثمّلاً وهبَ النبوة للنبيّ المرسل

فأمر له بخمسين ألف درهم . وأخذت هباتُ المتوكل الغدقة تنثر عليه نشرّاً ، فهو يغدو ويروح عليه بالمدايح . والمتوكل يُسبِّغ عليه عطاياه ، وكان مما أخذ فيه نوالاً كبيراً قصيدته النّالية التي أنشدها المتوكل حين عقد ولاية العهد لأبنائه الثلاثة : محمد المتنصر وعبد الله المعتز وإبراهيم المؤيد ، وفيها يقول :

ثلاثة أملاك فأما محمدٌ فنورٌ هدى يهدى به الله من يَهْدِي
وأما أبو عبد الإله فإنه شبيهك في التقوى ويُنْجِدِي كما تُجْدِي
وذو الفضل إبراهيمُ الناس عصمةٌ تَقِيّ وَفِيّ بالوعيد وبالوَدِّ
فأولهم نورٌ وثانيهم هدى وثالثهم رُشدٌ وكلهم مَهْدِي

فلما أتمَّ إنشادها أمر له المتوكل بمائة وعشرين ألف درهم وخمسين ثوباً وبغلة وفرس وخمار . فما برح حتى قال في شكره :

تَغْيِيرُ رَبِّ النَّاسِ لِلنَّاسِ جَعْفَرًا فَمَلَّكَهُ أَمَرَ الْعِبَادَ تَخْيِيرًا

حينئذ ردَّ عليه ضياعه التي كان ابن الزيات قد صادرها ، وجعل له راتباً في الديوان ، ولعل أهم من كل هذا المديح أنه دافع بحرارة في جواب من مدَّحه عن حقوق العباسيين في الخلافة مؤتسماً في ذلك بمجده مروان بن أبي حفصة ، وائتسَى به أيضاً في الرد على العلويين ونَقَضَ ما يدَّعونه من وراثته الرسول في الخلافة ، إذ هم أبناءُ السيدة فاطمة الزهراء والعلمُ مقدم على أولاد البنت في الوراثة حسب حكم الشريعة . ومن خير ما يصور ذلك عنده قصيدته الميمية التي تمضي على هذا النمط :

مُلْكُ	الْخَلِيفَةِ	جَعْفَرٍ	لِلدِّينِ	وَالدُّنْيَا	سَلَامَةٌ
لَكُمْ	تَرَاثُ	مُحَمَّدٍ	وَبَعْدُ لَكُمْ	تَنْفَى	الظُّلَامَةُ
يَرْجُو	التَّرَاثُ	بَنُو	الْبَنَاتِ	وَمَا لَهُمْ	فِيهَا
وَالصَّهْرُ	لَيْسَ	بِوَارِثٍ	وَالْبَنْتُ	لَا تَرِثُ	الْإِمَامَةَ
أَخَذَ	الْوَرَاثَةَ	أَهْلُهَا	فَعَلَامٌ	لَوْ مُمْكُمُ	عَلَامُهُ

وهو يشير بوضوح في الأبيات إلى أن مصاهرة علي بن أبي طالب للرسول عليه السلام لا توجب له وراثته ، كما يشير إلى أن السيادة فاطمة بنت ، والبنت لا تترث الولاية على المسلمين ولا تحقق لها الإمامة ، فكيف تُورثُ الإمامة من قبلها ؟ والشريعة واضحة في ذلك . وطار المتوكل حين سمع القصيدة ابتهاجاً ، وقلَّده اليامة والبحرين وخلع عليه أربع خلع ، وخلع عليه ولي عهده المنتصر . وأمر المتوكل له بثلاثة آلاف دينار فنُشرت على رأسه ، وأمر ابنه المنتصر وسعداً الإيتاخى بابتقطانها له دون أن يلتقط هو منها شيئاً إكراماً له ، ويقال إنه حشا فمه جوهراً ، ومن طريف ماله فيه قوله :

تَخْشَى	الْإِلَهَ	فَمَا تَنَامُ	عَنَاءَةً	بِالْمُسْلِمِينَ	وَكُلَّهُمْ	بِكَ	نَائِمٌ
لَوْ	كَانَ	لَيْسَ	لَهَا شَيْءٌ	فِيهَا	مَعْنَى	سَلَفٌ	سَوَاكُ لَقَامَتْ بِكَ

وقال بعض معاصريه إن المتوكل أعطاه مائتي ألف دينار من ورق (فضة)

وذهب، وكُسُوة . وكانت هذه العطايا الغامرة تملأ نفوس بعض الشعراء من حوله وحول المتوكل حسداً أن تعلو جائزته جوائزهم ، فكانوا يتبادلون معه بعض الأهاجي حتى شاعرنا " مثل علي بن الجهم نراه يتهاجي معه ، ولم يكن مروان يصمت بل كان يبادر أحياناً إلى الهجاء ، ويُروى أن ابن الجهم قال في فاتحة قصيدة له في المتوكل :

الله أكبر والنبي محمد والحق أبلغ والخليفة جعفر

ولم يكذ يسمع مروان قوله ، حتى أعمل فكره ، وبادره يقول له ساخراً منه
سخرية شديدة بل سخرية مرة شديدة المرارة :

أراد ابن جهم أن يقول قصيدة بمدح أمير المؤمنين فأذنا
فقلت له لا تعجلن بإقامة فلست على طهر فقال : ولا أنا

وكان يقدم لدائحه بنسب رقيق يحیی فيه نجداً ويدعو لها ولأهلها بالسقيا
ويتمنى زورة لهم أو إلمامة قصيرة . وله أبيات جيدة يتحدث فيها عن الشيب ،
والشباب وعهده وعهوده ، وحبه الماضي ، وفيها يقول :

شمس الشباب على اليوم طالعة وسوف تغرب إن الدهر ذو غير
إذا الشباب مضت عنا بشاشته فما نبالي متى صرنا إلى الحفر
لنا من الشوق أكباد مصدعة وأعین كحلت بالدفع والسهر
سقياً ورعياً لأطعان مؤكبة فيها خرائد كالغزلان والبقر
ودعتهن وداعاً زادني كمداً ما كان إلا كورد الطائر الحذر

وله شعر في المعتز رواه المسعودی في المروج مما يدل على أنه عاش حتى عصره .
ولعل فيما قدمنا من أشعاره ما يدل على خصب شاعريته وأنه كان مثل جمده يعني
بصقل أشعاره وانتخاب ألفاظه حتى تروق سامعيه بما فيها من جزالة وطلاوة .

على بن يحيى المنجم

من أصل فارسي أسلم أبوه يحيى على يد المأمون ونُحِصَّ به ، ويقال إن جَدَّ يحيى أبرسام البزرج كان وزيراً لأردشير وصاحب أمره . وشملت عناية المأمون هو وابنه على ، وتوالى عليهما برُّه ، وأخذ نجم الأسرة في التألق ببلاط المأمون والمعتصم ، وتوثقت الصلة بين علي ومحمد بن إسحق بن إبراهيم المصعبي ، ثم بينه وبين الفتح بن خاقان وزير المتوكل ، ووصفه له وقدَّمه إليه ، وأعجب به المتوكل وقربه منه ، حتى صار أكبر ندمائه ، يساعده في ذلك علمه الواسع بالرواية والأخبار . وكان أشبه بالموسوعيين فهو يأخذ من كل علم وكل أدب بطرف ، مع إحسانه اختيار الطرائف والنوادر ، حتى كان المتوكل لا يصبر على بعده . ويقال إنه بلغ مجموع ما وصله به ثلاثمائة ألف دينار ، وخلفه المنتصر فغلب عليه أيضاً ، وقدَّمه على جميع جنسائه ، وقلَّده أعمال الحضرة ، وأقرَّه المستعين على ما تقلده من تلك الأعمال . ثم خلص الأمر للمعتز ، فكان أول من طلبه للمنادمة على بن يحيى ، وحين قدم عليه تلقاه أجمل لقاء وخلع عليه ووصله ، وقلَّده الأسواق والعمارات ، وقدَّمه على جميع الندماء ووصله بثلاثة وثلاثين ألف دينار وقلَّده قصره الكامل فبناه ووصله عند فراغه منه بخمسة آلاف دينار ، وأقطع ضيعة كبيرة . ثم أفضى الأمر إلى المعتد ، فسَحَطِيَّ في عهده حُطُوة كبيرة . ووصله صلوات سنِّيَّة ، وقلَّده أعمال الحضرة ، وما زال يحظى برعايته ورعاية أخيه الموفق حتى نهاية حياته .

وابن المنجم نموذج رفيع لندماء الخلفاء ، فقد كان هناك ندماء كثيرون مضحكون كل همهم إضحاك الخلفاء وإدخال السرور على نفوسهم بما يوردون على أسماعهم من الأجوبة الهازلة أو ما يدخلون على ملابسهم وحركاتهم من الصور المضحكة . وكان ابن المنجم مع ظرفه وما يورد على الخلفاء من النوادر والأخبار والقصص المستحبة ، بل قل مع اكتمال خصال المنادمة فيه ومعرفته بضررب الثقافات ، حتى

والأغانى (طبعة السامى) ٢٢/٩ وتاريخ بغداد
١٢١/١٢ وروج الذهب ١٩١/٤ والنجوم
الزاهرة ٧٣/٣ .

(١) انظر في حياة على بن يحيى وأشعاره
معجم الأدباء ١٤٤/١٥ ومعجم الشعراء
للمرزبانى ص ١٤١ والفهرست ص ٢١١

قيل إنه طيب ومنجم وأديب وشاعر ومغن وجليس ومضحك ، مع هذا كله كان فيه غير قليل من الوقار ، وكان يُعَدُّ من رعاة الأدب في عصره حتى كان بيته مألُفًا للأدباء ، وكان يصل كثيراً منهم بالخلفاء والأمراء ، ويستخرج لهم منهم الصلات ، وكان يبلغ من عنايته بهم أن يهدى إلى الخلفاء والوزراء عنهم الهدايا الطريفة ، حتى ينفحوهم بالنوال السابغ ، وكان كثيراً ما يهب من ماله لمن يحرمون الصلات من الأدباء . وليس ذلك كل ما يرفع منه ، فتمد أُلُهمه تفكيره الصائب أن يستغل الأموال الكثيرة التي كانت تُشْتَرُ عليه من المتوكل وغيره من الخلفاء في إقامة مكتبة ضخمة ، مرَّ بنا حديث عنها في غير هذا الموضع ، وكان طلاب العلم يقصدونها من كل مكان والكتب مبدولة لهم ، وكذلك النفقة مهما طالت إقامتهم . وبذلك كان من رعاة طلاب العلم والأدب في عصره ، بل لعله كان أكبر رُعَاتِهِمَا ، ولا شك في أن ما عُرِف عنه من خبرة تامة بالكتب وثقافة واسعة بها هو الذي جعل الفتح بن خاقان يطلب إليه صُنْعَ مكتبة له يباهي بها معاصريه . ومن تنمة ثقافته أن يُدْكَرَ له من التصانيف كتاب الشعراء القدماء والإسلاميين ، وكتاب أخبار إسحق الموصلي وكتاب الطبيخ ، والكتابان الأخيران بتصالان بمنادمته لاتصالهما بأخبار المغنين وبتذوق الأطعمة .

وكان شاعراً ، وله شعر كثير كما يقول ياقوت في ترجمته ، غير أنه لم يكن يُعْجَبُ بشعره ، ولذلك لم يكثر من الاستشهاد به إلا ما جاء في سياق أخباره ، ولو أنه صنع لاطلعنا بوضوح على أشعاره في الخلفاء والوزراء . ولعل أول شعر قاله ما نظمته في رثاء المأمون ومديح المعتصم ، مما رواه ياقوت في ترجمته ، وبدون ريب كانت له أشعار كثيرة في المتوكل ومن تلاه من الخلفاء ، ونستطيع أن نتخذ صورة لهذه الأشعار قوله في المعتز حين استولى على مقاليد الخلافة :

بَدَا لَابِسًا بُرْدَ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ	بِأَحْسَنَ مِمَّا أَقْبَلَ الْبَدْرُ طَالِعَا
سَمِيَّ النَّبِيِّ وَابْنَ وَارثِهِ الَّذِي	بِهِ اسْتَشْفَعُوا أَكْرَمَ بِذَلِكَ شَافِعَا
وَكُلَّ عَزِيزٍ خَشِيَّةٌ مِنْهُ خَاشِعٌ	وَأَنْتَ تَرَاهُ خَشِيَّةَ اللَّهِ خَاشِعَا

وهو شعر متوسط . شعر يعتمد على المناسبة الحاضرة ، ولذلك كان يستساغ في

وقتها كما تستساغ كلمات الندماء ونوادهم وفكاهاتهم . وهكذا دائماً شعرهم ، فهو
لأنما يُعجب في لحظة قوله ، ولذلك كان يُروى مع أخبارهم . ومن هذا الطراز
نفسه قصيدته في الفتح بن خاقان التي أنشد ياقوت منها بعض أبياتها ، وله وراء
ذلك أشعار يصور بها سمو نفسه ، لعل من أطرفها قوله :

سيعلم دهري إذ تنكر أننى صبورٌ على نكرانه غير جازع
وأنى أسوس النفس في حال عُسرها سياسةً راضٍ بالمعيشة قانع
كما كنت في حال اليسار أسوسها سياسة عَفٍّ في الغنى متواضع
وأمنعها الورْدَ الذى لا يليق بى وإن كنت ظمآنًا بعيد الشرائع

فهو يصور نفسه صابرة لا تجزع مهما ادهمت الخطوب ، كما يصور نفسه
لا تهون في حال عسر أو شدة ، بل تتقبلها راضية قانعة كما تقبلت اليسر قبلاً
مزدرية مغرياته في تواضع غير مسفة دون أى إحساس باستعلاء ، ولأنه ليمنع نفسه
الإلمام بأى وردٍ دنى مهما كان ظمآن ، كاظمًا لظمئه ، محتملاً لحرارة عطشه .
وله في الطيف :

بأبى والله من طرَقا كابتسام الصبح إذ خفقا
زادنى شوقاً برؤيته وحشاً قلبى به حرقا
زارنى طيفُ الحبيب فما زاد أن أغرى بى الأرقا

وكأنما أراد أن يحاكي البحترى في كثرة أشعاره التي نظمها في الطيف . ولا شك
أنه من طراز متوسط ، فأجنته ليست من القوة بحيث تستطيع أن تحلق به في
الأفق الذي يحلق فيه البحترى . ومرة بنا آنفًا رعايته للأدباء والشعراء ، مما جعل
غير شاعر ينظم فيه بعض مدائحه ، مصورًا كرمه الفياض من مثل قول
أبى هفان :

لربيع الزمان في الحول وقت وابنٌ يحبى في كل وقت ربيع
رجلٌ عنده المكارم سوقٌ يشتري دهره ونحن نبيع

ولذلك حين وافاه القدر سنة ٢٧٥ عن أربعة وسبعين عاماً بكاه كثير من الشعراء ، وفي مقدمتهم ابن بسّام ، وقد أنشدنا في غير هذا الموضع مرثيته له ، وهي مرثية جيدة .

أبو بكر الصولي^(١)

هو محمد بن يحيى بن عبد الله بن العباس الصولي من بيت كتابة وشعر ، تقلد أصحابه كثيراً من الأعمال السلطانية ، مثل عمه إبراهيم بن العباس ، وكان أكبر كاتب في دواوين المتوكل . وهما من أسرة صول تكين أحد أمراء جرجان . كان قد ظفر به يزيد بن المهلب في بعض حروبه وهو وال على خراسان للحجاج ، فأسلم على يديه ، ولزمه وأصبح من رفاقه ، حتى إذا ثار يزيد على بني أمية في أوائل القرن الثاني للهجرة ثار معه عليهم محارباً في صفوفه ، ودارت عليهما معاً الدوائر فسقطا قتيلين في ميادين المعارك . وقد تتلمذ أبو بكر لعلماء عصره في بغداد : أبي داود السجستاني وثلعب والمبرد ، وكذلك لأصحاب الأخبار والمؤرخين ولأصحاب الهندسة ، وتدل صلته بالآخرين على معرفته بعلوم الأوائل . وكان يُحسّن لُعبة الشطرنج حتى قالوا إنه كان أكبر حاذق لها في زمنه . وأكبّ على معارف عصره إكباباً منقطع النظر ، وجعله هذا الإكباب يُعَمّنِي بجمع الكتب ، وما زال يجمعها حتى كوّن لنفسه مكتبة ضخمة تحدث عنها معاصروه ، كما أسلفنا ، وراعتهم فيها جلود الكتب المختلفة الألوان ، إذ جعل لكل صف من الكتب لوناً ، فصف أحمر وصف أخضر إلى غير ذلك . وفتحت له معارفه الواسعة ومهارته في لعبة الشطرنج أبواب الخلفاء منذ عهد المعتضد ، وهو مع ذلك يغدو عليهم ويروح بمدائحهم ، وهم ينثرون عليه أموالهم ، مما جعله يعيش معيشة رَغْدَة . وكلّفه المقتدر تعليم ولديه الراضى وهرون ، فأحسن تعليمهما ، وخرّج أولهما شاعراً وأديباً لَسِيناً ، حتى إذا ولى الخلافة اتّخذَه نديمه ومستشاره . ويزورُ عنه الخليفة المتقي بعده فيترك بغداد إلى

الآداب ص ٢٤٥ ومعجم الأدباء ١٩ / ١٠٩
وفيات الأعيان والنجوم الزاهرة ٣ / ٢٩٦
وله في كتابه أخبار الراضى والمتقى أشعار كثيرة .

(١) انظر في أخبار أبي بكر الصولي وأشعاره
الفهرست ص ٢٢١ وتاريخ بغداد ٣ / ٤٢٧
ومعجم الشعراء للرزباني ص ٤٣١ وديوان
المعاني للمسكري (انظر الفهرس) وذيل زهر

بمحكم التركي حاكم واسط سنة ٣٢٩ وبتوفى المتقى سنة ٣٣٣ فيعود إلى بغداد وسرعان ما تحل به ضائقة ، فتركها إلى البصرة سنة ٣٣٥ حيث لبى نداء ربه ويقال بل إن الخليفة المستكنى عرف تشييعه لآل على بن أبى طالب فطلبه ، وفرّ منه إلى البصرة .

وقد صنع الصولي دواوين كثيرة لطائفة كبيرة من الشعراء المحدثين في مقدمتهم أبو نواس وأبو تمام وابن الرومي وابن المعتز ، وصنّف كتباً جليلة في أخبار الخلفاء وسيرهم وأخبار من تقدم وتأخر من الشعراء والوزراء والكتّاب والرؤساء . ومن كتبه النفيسة كتابه « الأوراق » وقد نُشر منه ثلاثة أجزاء : جزء خاص بأخبار الشعراء المحدثين وجزء خاص بأشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم وجزء خاص بالخليفتين : الراضى والمتقى . ونُشر له مصنفه أدب الكتّاب وكتاب أخبار أبى تمام وهو فيه ينتصر له ضد خصومه ، ولعل في ذلك ما يصور بصره بالشعر العباسى ، وأنه كان يقف في دقة على أساليبه ومذاهبه ؛ إذ نبّه على أن أبا تمام صاحب مذهب جديد في الشعر ولا مَ من يعيبونه ببعض أبيات فاته التوفيق فيها متناسين تحليقه في آفاق الشعر العليا التي تنقطع من دونها الرقاب .

وعلى هذا النحو كان أبو بكر الصولي شاعراً ناقداً عالماً ، وكان مثقفاً ثقافة واسعة بكل مواد المعرفة في عصره . ولم يصل إلينا ديوانه ولكن وصلت طائفة من أشعاره التي كان يُنشدها الراضى في حفلات القصر وفي المناسبات المختلفة دونها بنفسه في أخباره ، كما وصلت إلينا مقطوعات متنوعة احتفظت بها الكتب الأدبية والتاريخية . وسقطت من يد الزمن مدائح في المعتضد إلا بعض أبيات دالية ذكر المسعودى أنه أنشدها في قصيدة مدحه بها ، وفيها يقول :

لَأَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ الْمُعْتَضِدُ بِحَرْ جُودٍ لَيْسَ يَعْدُوهُ أَحَدٌ

ولم يصل إلينا من مديحه للمكتنى سوى قصيدة واحدة ، وقد اضطر — كما يقول — إلى أن ينشدها المتقى حين استولى على مقاليد الخلافة ، وكان قد طُلب إليه أن ينشده عاجلاً قصيدة يهنئه فيها بالخلافة ، ويقول إنه وضع فيها كلمة المتقى بدلا من كلمة المكتنى ، وفيها يقول :

مددت على الإسلام أكنافَ نعمةٍ لأعطاها ظلُّ عليه ظليلٌ
ولولا بنو العباس عمُّ محمدٍ لأصبح نور الحق فيه خمولٌ
لكم جبلا الله اللذان اصطفاهما يقومان بالإسلام حين يميل
نبوته ثم الخلافة بعدها وما لهما حتى اللقاء حويل^(١)
وكلُّ ما في القصيدة من صياغة وخيال يدلُّ على أن الصولي كان يتكلف هذا
المديح تكلفاً. حقاً هو يبالغ فيه ويغلو على عادة شعراء الدعوة العباسية، ولكن نحس
أن الكلام يفقد الروح وأنه لا يصدر عن عاطفة حقيقية، وبالمثل ما رواه له عريب
في ذيل الطبرى من مديح للمقتدر، وحتى الراضى تلميذه الذى أغدق عليه عطاياه
حتى لكأنما تحولت إلى نهر فياض نجد في مدائحه له نفس هذا الطراز المتكلف.
وكان لا يترك مناسبة من عيد أو نيروز أو فتح إلا أنشده فيها قصيدة، وقد تطول
طولا مسرفاً، ومع ذلك نفقد فيها الحرارة من مثل قوله يهنئه بانتصار جيوشه على
مردويج الثائر بأصبهان :

آنس الله بالخليفة ملكاً موحش الربع واهن التأسيس
يانسيم الحياة أضحكت دهرأ كان لولاك دائم التعبيس
مردويج بسيف حظك مقتو ل فاهون بذاك من مرموس^(٢)
قصفته رياح أيامك الغ ر فأخمدن منه نار المعجوس
وتولت بماتم الدهر أيا م أتننا تجر ذيل العروس

والتكلف واضح في الأبيات، والصور لا تقع في مكانها، فالخلافة كانت موحشة
وكانت واهنة، والخليفة نسيم الحياة، نسيم أضحك دهرأ كان عبوساً قمطيراً ومردويج
لم يهزمه أبطال الدولة وإنما هزمه الحظ ورياح دولة الراضى الغراء، وخلعت الأيام سواد
الحزن، وجاءت تجر ذيل الفرع. كلام متلاصق، وليس شعراً حياً نابضاً
بروح، وربما كانت خير قصائده فيه قصيدته الدالية التى أنشدها فى مجلسه
لسنة ٣٢٧ وفيها يقول :

(٢) مرموس : من الرمس وهو القبر .

(١) حويل : تحول .

خليفة أكمِلَتْ فضائله ففرَّعه طيب ومَحْتَدَه
 تعبَّد المجد فهو يَمْلِكُه طارفه عنده ومُتَلَدَه
 قد رضى الراضى الإله لإصـ الاح زمان سواه مفسده
 فهو بتفويضه الأمور إلى الا ٤ بحسن التوفيق يعصده

ولا يخفى ما فى هذه الأبيات من تكلف يتضح فى بناء الشطر الثانى من البيت الأول على سابقه ، كما يتضح فى جعل المجد عبداً للممدوح وكأنه استذلَّه ، والجناح بين رضى والراضى شديد التكلف ، وكلمة سواه نابية فى مكانها غير مستقرة والصياغة فى البيت الرابع تتنافر أجزاؤها تنافراً شديداً . ومن هذا الطراز نفسه عزائه للراضى فى أخيه هرون ، وهو يستأنس على هذا النمط .

تَعَزَّ يا خير الوَرى عن أخٍ لم يَشْبِه الإخلاص باللَّيْس
 كان صديقاً وافرأ وده صداقة الأنفس والعِجْس
 تَعَزَّ عنه بنى الهدى محمد إذ حلَّ فى الرِّمْس

والقصيدة مزيج من الندب والتأبين والعزاء ، مع أنه افتتحها بطلب التعزى والتسلى ، فكان ينبغى أن يقصرها على العزاء لأن يندب فى هرون إخلاصه وصداقته لأخيه كما فى هذه الأبيات ، ولا يحاول أن يذكر همته وسؤدده مؤبداً له كما فى أبيات تالية . ونحس نبواً شديداً فى البيت الثانى إذ يذكر عن هرون أنه كان وافر الود ، وكان يحسن أن يغير كلمة وافر بكلمة أخرى مثل صادق ، وأيضاً فإنه جعل صداقته لأخيه صداقة جنس . والتعبير عن الرسول عليه السلام بأنه حلَّ فى الرمس خلو من رهافة الحس أو من الحس الأدبى الدقيق . وقد يكون مصدر التكلف فى العزاء والمديح جديعاً أنه كان موالياً للعلويين كما قال بعض من ترجموا له ، وكأن هذا الرثاء والمديح لم يكونا يتصلان بروحه وقلبه ، فقلبه وروحه مع آل أبى طالب ، ولسانه وحده مع العباسيين ومع ما يغدقون عليه من صلوات ثرة . وقد يشهد لذلك أننا إذا تركنا مدائحه لبني العباس ونظرنا فيما روى له من غزل لقيتنا له مقطوعات كثيرة بديعة من مثل قوله :

أَحْبَبْتُ مِنْ أَجْلِهِ مَنْ كَانَ يَشْبَهُهُ وَكُلُّ شَيْءٍ مِنَ الْمَعشُوقِ مَعشُوقٌ
 حَتَّى حَكَيْتُ بِجَسْمِي مَا بِمَقْلَتِهِ كَأَنَّ سَقَمِي مِنَ جَفْنِيهِ مَسْرُوقٌ
 وَقَوَاهُ يَصِفُ الدَّمُوعَ فِي سَاعَةِ الْوَدَاعِ ، وَهِيَ تَسْقُطُ بِيضَاءً سَقُوطًا مُتَابِعًا عَلَى
 خُدُودِ حِدْرَاءِ حَمْرَةٍ الْوَرْدِ فِي الرَّبِيعِ :

لَوْ كُنْتُ يَوْمَ الْوَدَاعِ حَاضِرًا وَهَنٌ يَطْفُئُنْ لَوْعَةَ الْوَجْدِ
 لَمْ تَرِ إِلَّا الدَّمُوعَ جَارِيَةً تَسْقُطُ مِنْ مَقْلَةٍ عَلَى خَدِّ
 كَأَنَّ تِلْكَ الدَّمُوعَ قَطْرَ نَدَى يَقْطُرُ مِنْ نَرْجَسٍ عَلَى وَرْدٍ

وكان ينفذ في أثناء ذلك إلى كثير من الصور النادرة الغريبة التي تنبئ عن
 شاعرية جيدة من مثل قوله في بيان إعجابه بغناء إحدى القيان :

وَعِغَاءٌ أَرْقَ مِنْ دَمْعَةِ الصَّ بٌ وَشَكْوَى الْمُتِمِّ الْمَهْجُورِ

وله في وصف أرمَد ومحاولة تعليل رمده بعلّة غريبة لا تقع إلا في عقل واهم بعيد
 الخيال بيتان كان القدماء يعجبون بهما إعجاباً شديداً إذ يقول :

يَكْسِرُ لِي طَرَفًا بِهِ حَمْرَةٌ قَدْ خَلَطَ النَّرْجَسَ فِي وَرْدِهِ
 مَا أَحْمَرَتِ الْعَيْنَ وَلَكِنَّهُ يَكْحَلُهَا مِنْ وَرْدَتِي خَدَّهُ

وكان هذه الأبيات وما وراءها من أبيات في الحمر لم نَرَوْهَا كانت تصدر
 عن نفسه ، مما جعل صياغتها سَوِيَّةً وأخيلتها بديعة بعيدة الغرابة في بعض
 الأحيان . وله بجانب ذلك حِكْمٌ يَصُورُ فِيهَا عِبَرُ الدَّهْرِ وَمَوَاعِظُهُ مِنْ مِثْلِ قَوْلِهِ :

يَابَانِيًّا وَالْدَّهْرُ فِي نَقْضِهِ يَا رَاكِضًا يَسْرِعُ فِي رَكْضِهِ
 يَلْهُو وَأَيْدَى الْمَوْتِ أَخَاذُهُ مِنْ طَوْلِهِ طَوْرًا وَمِنْ عَرْضِهِ

فالإنسان يَبْتَنِي ، ولا يعرف أن داره سَتَنْقُضُ بعد أيام ، بل هو نفسه
 سَيَنْقُضُهُ الدَّهْرُ ويَحِلُّهُ ضَعْفًا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ، يوهن عظمه وينحل جسمه ، وَيَحْنِي

ظهره ويأخذ من طوله ومن عرضه ، حتى يصبح أنقاضاً خالصة ، وكأنما الدنيا أضغاث أحلام . والصولي في كل هذه المقطوعات الأخيرة شاعر بارع ، لا تنقصه جزالة الصياغة ولا روعة الخيال .

٢

شعراء الشيعة

ذكرنا فيما أسلفنا أن الخوارج خمدت دعوتهم وحروبهم منذ العصر العباسي الأول ، وعمَّ هذا الخمود في هذا العصر التالي بحيث لم يعودوا يكوّنون حزب معارضة حقيقياً للدولة العباسية ، وقد نهض بتلك المعارضة في أحد صورها حزب الشيعة فكان كثير من العلويين يخرجون ويعلنون خروجهم ويشهرون هم وأنصارهم سيوفهم في وجه الدولة ، وكانت تلقاهم بجموشها وقلما كتب لهم النصر ، ولكن ما كانت حرب لهم تكاد تخدم حتى تنشب حرب أخرى ويشتد أوارها وبذلك ظلت المعارك بينهم وبين الدولة محتدمة طوال العصر . وتنسب لذلك المتوكل ، فرأى أن يقف زيارة الشيعة لقبر الحسين وبكاءهم عنده وتفجعهم عليه ، ومضى يأخذهم بغير قليل من الشدة ، محرّضاً شعراءه على النيل منهم ومن آل على عامة ، وأمر — فيما أمر — بحبس الطالبين في سامراء^(١) وأخذ يُنزل بهم نكالا شديداً ، ومع ذلك لم يسلم عهده من خروج نفر منهم في الحجاز على نحو ما سنرى عما قليل في حديثنا عن محمد بن صالح العلوي .

ولا بد أن نلاحظ أن الكوفة كانت لا تزال أكبر مركز للشيعة وأن مذهبهم التي عرفناها في العصر العباسي الأول كانت لا تزال حية ، فكان كثير من يؤمنون بالنظرية الزيدية ، وأكثر منهم من كان يؤمن بالنظرية الإمامية الاثني عشرية ، وأخذت النظرية الإسماعيلية تجد لها أنصاراً ، واستغلها القرامطة في ثورتهم ، دون أن تصبح عقيدة حقيقية لهم ، وبذلك كان ينبغي أن ننحيهم عن الشيعة . وملاحظة ثانية هي أن المذهب الشيعي الذي غلب على العراق حينئذ كان مذهب الإمامية ، وكان يجعل

(١) أغاني (سأسي) ١٩ / ١٤١ .

التقية أصلاً من أصوله ، فكان يعمل سراً وقلماً عمل جهرًا ، وكان يأذن لأنصاره أن يمدحوا العباسيين تقيّةً ، ومضى كثيرون منهم يمدحونهم طلباً لما في أيديهم من أموال ، وهم يُسِرُّون لهم كرهًا وحسَنًا ، ومن هنا كنا كثيرًا ما نقرأ عن شاعر أنه مدح هذا الخليفة أو ذاك ويُقال إنه كان يتشيع . وهم أكثر من أن نسميهم أو نخصيهم . وملاحظة ثالثة هي أنه قيل شعر شيعي كثير في العصر ، وهو موزع بين بعض آل البيت وبين أنصارهم ممن يَشُدُّون الشعر وينظمونه ، ومن أهم الشعراء العلويين حينئذ محمد بن صالح العلوي الأنف ذكره والحماني وسنخصه هو الآخر بترجمة قصيرة ، ومنهم محمد^(١) بن علي بن عبد الله أحد أحفاد العباس بن علي بن أبي طالب ، وكان في أيام المتوكل ، وهو يكثر من الافتخار بآبائه وبنسبه الطاهر إلى الرسول الكريم ، ويردّد في أشعاره نظرية بيته العلوي في الخلافة وأن الرسول عليه السلام أوصى بها إلى جده علي حين نزل بغدير خمّ إذ قال له : « أنت مني بمنزلة هرون من موسى » وإلى ذلك يشير بقوله :

وجدى وزير المصطفى وابن عمّه على شهاب الحرب في كل ملحم
وأول من صلّى ووحد ربّه وأفضل زوّار الحطيم وزمزم
وصاحب يوم الدّوح إذ قام أحمدٌ فنادى برفع الصوت لا يتهمهم
جعلتك مني يا على بمنزل كهرون من موسى النجى المكلم

وما فصل إلى سنة ٢٥٠ في عصر المستعين حتى تثور ثائرة الشعراء الشيعيين ، وذلك أنه كان قد أعلن الثورة في الكوفة يحيى بن عمر الطالبي ، وكان قد تورّع عن أخذ أموال الناس ظلماً وأمر بحقن الدماء ، وكان ورعاً زاهداً ناسكاً ، فتبعته ألوف ، ونشب القتال بينه وبين جيوش محمد بن عبد الله بن طاهر حاكم بغداد وجنوب العراق . وتمزقت جموعه ، وخسر قتيلًا ، وحُمِلَ رأسه إلى بغداد . وضجّ الناس لمقتله وصلّب رأسه ، ويروى أنه لما جلس محمد بن عبد الله بن طاهر للشعراء يستقبل تهانيمهم بالفتح دخل عليه أبو هاشم الجعفرى ، وقال له : أيها الأمير إنك لتهنأ بقتل رجل لو كان رسول الله صلى الله عليه حياً لعزّى به ، فلم يجبه

(١) انظر فيه معجم الشعراء ص ٣٨١ .

الأمير ، فولّى وجهه خارجاً ، وهو يقول^(١) :

إِنْ وَتَرًا يَكُونُ طَالِبَهُ الْإِلَهِ لَوْتَرُ نَجَاحُهُ بِالْحَرَى

ونصب له الشيعة مأتماً كبيراً ناح فيه الشعراء وبكو اطويلاً ، ومرت بنا في غير هذا الموضع برثية ابن الرومي له ، وهي صرخة من أعماقه تناول فيها العباسيين تناولاً ذميمةً ، واصفياً لهم بالظلم والطغيان هم ولولايتهم ، ومنذراً برجوع الحق إلى نصابه ، بل متوعداً بجيش يأخذ بثأر يحيى ويدمر خصومه تدميراً . وكثر رثاؤه وندبه والنواح عليه بمثل قول أحمد بن أبي طاهر^(٢) :

سَلَامٌ عَلَى الْإِسْلَامِ فَهُوَ مَوْدَعٌ إِذَا مَا مَضَى آلُ النَّبِيِّ فَوَدَعُوا
فَقَدْنَا الْعُلَا وَالْمَجْدَ عِنْدَ افْتِقَادِهِمْ وَأَضْحَتْ عُرُوشُ الْمَكْرَمَاتِ تَضَعُّضُ
لَقَدْ أَقْفَرَتْ دَارُ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ مِنَ الدِّينِ وَالْإِسْلَامِ فَالِدَارُ بَلْقُعُ
وَقُتِلَ آلُ الْمُصْطَفَى فِي خِلَالِهَا وَبُدِّدَ شَمْلُ مِنْهُمْ لَيْسَ يُجْمَعُ

وسرعان ما يثور في نفس السّنة بطبرستان الحسن بن زيد العلوي سليل الحسن بن علي بن أبي طالب ، ويغلب عليها وعلى جرجان بعد حروب ومعارك كثيرة ، ويظل مسيطراً عليها إلى أن يلبي نداء ربه لسنة ٢٧٠ وطبعي أن يصبح مقصداً للشعراء ، وأن يتغنى غير شاعر باسمه في المناسبات المختلفة ، ونجد شاعراً من جرجان يسمى محمد بن إبراهيم يهنئه حين اقتصد بقوله^(٣) :

قَدْ رَأَيْنَا مَجَالِسًا عَطَرَاتِ هُيِّئَتْ عِنْدَنَا لِفَصْدِ الْإِمَامِ
إِنَّمَا غِيبَ الطَّبِيبُ شَبَا الْمَدِّ ضَعَّ عِنْدِي فِي مَهْجَةِ الْإِسْلَامِ
سُرَّتِ الْأَرْضُ حِينَ صُبَّ عَلَيْهَا دَمُ خَيْرِ الْوَرَى وَأَعْلَى الْأَنَامِ

والترعة الشيعية واضحة في الأبيات . وكان من الشعراء حينئذ من يستر تشيعه ما كراً برجال الدولة العباسية ، إذ ينزل عليهم بسياط هجائه ، لا لشيء إلا لأنهم

(٣) معجم الشعراء ص ٣٩٧

(١) الطبري ٩ / ٢٧٠ والمروج ٤ / ٦٤ .

(٢) مروج الذهب ٤ / ٦٤ .

يخاصمون آل علي ، وربما اتخذ لذلك وسائل مأكرة ، ومن اشتهر بهذه الطريقة أبو نعامه الدقيق الكوفي ، إذ قال الرواة إنه استنفذ شعره في هجاء رجال الجيش العباسي ، يرميهم بالأبنة ، وصنع في قُودهم ورؤساء الدولة قصيدة مزدوجة سماها السنيّة ، رماهم فيها بالقبايح الشنيعة . وما زال هذا شأنه ، حتى تصادف أن دخل بغداد مفلح القائد التركي في طريقه إلى حرب صاحب الزنج ، فدلّاه عليه قوم من أهل بغداد ، وقالوا إنه يتشيع وشهدوا عليه بالرفّض ، فضربه مفلح بالسياط حتى تلتف نفسه ومات لسنة ٢٦٠ .

وكان قد خلف الحسن بن زيد على طبرستان حين توفي أخوه محمد ، واستقام أمره فيها وعظم شأنه ، فدخل ديار الديلم ودانت له ، حتى إذا كانت سنة ٢٨٧ جهّز جيوشاً كثيرة من الديلم وغيرهم لغزو جرجان ، فلقيته جيوش إسماعيل بن أحمد الساماني صاحب خراسان من قبل العباسيين ، ودارت عليه الدوائر وأُشخِنَ بالخرّوب ، وتوفي ، فدُفن بباب جُرجان ، يقول المسعودي : وقبره هناك معظم إلى اليوم . ويبدو أنه كانت له بطانة كبيرة من الشعراء تنصر دعوته من مثل محمد بن حبيب الضبيّ القائل فيه^(١) :

إن ابن زيد كل يوم زائد
علا علوا لا يساويه أحد

لو صال بالطود إذن أدله
أو زجر البحر إذن صار زبد

وأهم من هذا الشاعر شاعر يسمى أبا المقاتل نصر بن نصير الحُلواني ، نراه يغلو في مدحيه ، حتى لنصبح وكأننا بإزاء بعض غلاة الشيعة وما يحيطون به أمتهم من هالة قدسية ترفعهم عن البشر درجات ، وفيها يقول^(٢) :

لا تقل بُشْرَى وقل لي بُشْرِيَانِ
غُرّة الداعي ويوم المهرجان

ابن زيد مالك رِقّ الزمان
بالعطايا والمنايا والأمان

خُلِقَتْ كَفَاه مَوْتاً وَحَيَاةً
وَحَوَتْ أَخْلَاقَهُ كُنْهَ الْجَنَانِ

مخْتَفٍ فِكْرَتُهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ
فَهُوَ فِي كُلِّ مَحَلٍّ وَمَكَانٍ

(١) معجم الشعراء ص ٣٩٧ .

(٢) مروج الذهب ٤ / ٢٥١ .

يتنأى لفظنا عنه ولكن هو بالأوصاف في الأذهان دان
كافر بالله جَهْرًا والمثاني كلُّ من قال : له في الخلق ثان

ويبدو أن محمد بن زيد كان قد خطا في الدعوة الشيعية خطوات فسمي نفسه الداعي ، وأخذ يوحى إلى الشعراء أن يُسبِّغوا عليه صفات إلهية ، فهو ظاهر في العيان ، وهو مختف في كل مكان ، وهو لا تحدُّه الألفاظ ، وإنما تقربه الأوصاف وليس له ندٌّ ولا شبيه ، وكافر بالله والمثاني السبع أو القرآن من يقول له في الخلق ثان . ونحن نعرض ثلاثة من شعراء الشيعة منهم اثنان علويان والثالث من الأنصار المخلصين ، وهم محمد بن صالح العلوي والحِمَّاني والمفجَّع البصري .

محمد بن صالح العلوي (١)

من فتيان البيت العلوي وشجعانه وشعرائه ، امتعض لبيته حين أنزل به المتوكل ما أنزل من سخطة وغضبه ، وما كان من هدمه لقبر الحسين ومنعه الناس من زيارة قبره وقبر أبيه على بالنجف . وكان موطنه سُويِّفَةً في بادية الحجاز كان ينزلها مع أسرته من الحسينيين أحفاد الحسن بن علي بن أبي طالب ، فعزم على الخروج وأخذ يجمع الناس لذلك ، وتصادف أن حجَّ بالناس في نفس السنة أبو الساج أحد قواد المتوكل الترك فسمع بنيته وأنه لبس البياض مع كثير من أنصاره ، وكان البياض كان حينئذ يتخذ شعاراً للعلويين ضد العباسيين المسوِّدين أو الذين يتخذون السواد شعاراً لهم . وفاجأه هو وأنصاره أبو الساج فأخذهم وقيدهم وقتل نفرًا منهم وأخرب سويقة وحرقت منازلهم بها واستأصل كثيرًا من نخيلها وأثر فيها آثاراً سيئة ، وحمل محمد بن صالح فيمن حمل منهم إلى سامراء ، فحبس ثلاث سنوات ، ثم عفا عنه المتوكل بسبب شعره وبفضل وساطة وزيره الفتح بن خاقان له ، وذلك أنه نظم أبياتاً جيدة يعزى فيها نفسه عن حبسه ، ويتجمل بالصبر قائلاً :

الطالبيين للأصبهاني (طبعة الحلبي) ص ٦٠٠
ومعجم الشعراء ص ٣٨٠ .

(١) انظر في محمد بن صالح الأغاني (طبع)
دار الكتب المصرية) ٣٦١/١٦ ومقاتل

طَرِبَ الفؤادُ وعادَتْ أحزانه وتشعبتْ شُعباً به أشجانه
وبدا له من بعد ما اندمل الهوى برقٌ تالِقٌ موهِناً لمعانه
فدنا لينظر كيف لاح فلم يُطِقْ نظراً إليه ورده سَجَانُهُ
فالنارُ ما اشتملتْ عليه ضاوعه والماء ما سحَّتْ به أجفانه
ثم استعاذ من القبيح ورده نحو العزاء عن الصبا إيقانه
وبدا له أن الذي قد ناله ما كان قدره له دِيَّانُهُ

والشعر جزل مصقول ، والشاعر يبتُّ في أوائله حيناً لأيامه الماضية وكأنها
عهود هوى وحب سقطت منه ، وينظر إلى البرق متطلعاً لليوم الذي تُردُّ إليه فيه
حريته ، فيعنف به السجَّان ، ويحس كأن نار الوجد اندلعت في ضلوعه ظمئاً إلى
أهله وموطنه . وتسحُّ الدموع وتنهل لا تجف ، ويرده إيمانه و يقينه ، فيستسلم للقضاء
محزون الفؤاد شجيته . وتشيع الأبيات وتصل إلى سمع الفتاح بن خاقان ومغنى المتوكل
بنان ، ويصنع بنان فيها صوتاً يلحنه أمام المتوكل فيستحسن الشعر والالحن ويسأل
عن قائله ، فيندكر له ، ويكلمه الفتاح في أمره وما يزال يرقق قلبه حتى يعفو عنه ،
غير أنه يشترط أن يظل عند الفتاح وفي يده وألا يبرح سامراً حتى لا تحدثه نفسه
بالعودة إلى الثورة . وتردُّ إليه حريته فيمدح المتوكل ويغمدق عليه من صلاته ، كما
يمنح المنتصر . وفراه يبالغ في التقية من المتوكل فلا يكتفى بمديح له عام ، بل
يسوق الدلائل والبرهان على أن العباسيين أحق من العلويين بالخلافة ، يقول :

يابنَ الخلائف والذين بهديهم ظهر الوفاء وبانَ غدرُ الغادرِ
وابنَ الذين حوَّوا ثراثَ محمدٍ دون الأقارب بالنصيب الوافرِ
نطق الكتابُ لكم بذاك مصداقاً ومضتْ به سننُ النبي الطاهرِ

وهو يشير في البيت الأخير إلى قوله تعالى ذكره في سورة الأنفال : (وأولوا
الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله) يريد أن العباسيين مقدّمون في وراثته
الخلافة على أبناء بنت الرسول عليه السلام ، لأن العم يتقدمهم في الميراث كما تنصُّ

على ذلك شريعة الإسلام في القرآن الكريم ، وكما مضت بذلك السنة النبوية الطاهرة . ولم يتورط فيما كان يتورط فيه شعراء بغداد من التعلق بالجواري والإماء ، فقد كان يَكَلِّفُ بزوجهِ وحدها ، وكانت تَحْتَلُّ قلبه بجمالها ، وَيُشْغَفُ بها شغفًا شديدًا وفيها يقول :

لعمري حمدونةً إني بها لمُغْرَمُ القلب طویلُ السَّقامِ
مجاوِزُ للقدر في حبها مباينُ فيها لأهل الملامِ
جَشَمْنِي ذلك وجدى بها وَفَضَّلُها بين النساءِ الوِسامِ
زَيْنُها الله وما شأنها وأعطيت مُنِيَّتَها من تمامِ

وكان جميل المحضر حلو الحديث رقيق الشائل ، فانعقدت الصداقة بينه وبين نفر من الأدباء ، في مقدمتهم سعيد بن حميد أحد كتّاب الديوان المجيدين ومِمَّنْ كانوا يحسنون صنع الشعر بجانب إحسانهم لفن الكتابة ، وكان محمد بن صالح يمنحه ودًا حقيقياً وفيه يقول :

أصاحبُ من صاحبت تُمَتَّ أَنْثَى إِلَيْكَ أبا عثمانَ عطشانَ صَادِياً
وكنّا إذا جِئْنَاكَ لم نَبْغِ مشرباً سواكَ وروينا العظام الصَّوَادِيا

وتصويره لمودته له وأن عطشه للقاءه يبلغ منه عظامه تصوير جيد ، وكان إبراهيم ابن المدبر زميل سعيد في الدواوين يؤليه فضلاً كثيراً ، وانعقدت بينهما صداقة وثيقة حتى كانا يُمَضِّيان كثيراً من الليالي والأيام معاً لا يفترقان ، وله رائية طويلة في مدحها ، وفيها يقول :

أخْ واساك في كَلْبِ الليالى وقد خَذَلْ الأَقاربُ والنَّصِيرُ
فإن تشكر فقد أَوَّلَ جَمِيلاً وإن تكفر فإنك للكفورُ

وله مقطوعة يصور فيها لجواري يندبن ويلطمن عند قبر لبعض ولد المتوكل ، وهو فيها يتحدث عن فتور عيونهن وجمالها ، ويخال كأنما سينفخ هذا الجمالُ

الفاتن في العظام الهامدات ، فتعود مرة ثانية إلى الحياة الدنيا ، يقول :

رَأَيْتُ بِسَامِرًا صَبِيحَةً جُمُعَةً عَيُونًا يَرُوقُ النَّاظِرِينَ فَتَوَرُّهَا
تَزُورُ الْعِظَامَ الْبَالِيَاتِ لَدَى الثَّرَى تَجَاوَزَ عَنْ تِلْكَ الْعِظَامِ غَفَوَرُّهَا
فَلَوْلَا قَضَاءُ اللَّهِ أَنْ تَعْمَرَ الثَّرَى إِلَى أَنْ يَنَادَى يَوْمَ يُنْفَخُ صُورُهَا
لَقُلْتُ عَسَاهَا أَنْ تَعِيشَ وَأَنْهَسَا سَتُنَشَّرُ مِنْ جَرًّا عَيُونٍ تَزُورُهَا
ولعل في كل ما قدمنا ما يصور شاعرية محمد بن صالح العلوي الفذة ، ويُظِلُّه
عصر المنتصر فيصيبه فيه جُذَرِيٌّ ويلبى نداء ربه ، " ويرثيه غير صديق بأكبر
خِصَالِهِ الحميدة .

الْحِمَانِي الْعَلَوِيّ

سُمِّيَ الْحِمَانِي نسبة إلى حي بالكوفة نشأ وعاش فيه ؛ وهو علي بن محمد بن
جعفر العلوي ، خرج أبوه محمد الملقب بالديباجة في المدينة لأوائل عصر المأمون
قبل تحوله من خراسان إلى بغداد ، غير أن ثورته ضد العباسيين لم تنجح ، وحُصِّلَ
إلى بغداد ، ونُفِيَ منها إلى خراسان ، فنزل بساحة المأمون هناك ، وسرعان ما وافاه
الموت ويقال إنه لما حمل الرجال نعشه دخل المأمون بين عموديهِ ، فاشترك في
حَمَلِهِ حتى نزوله في لحده ، وكان مما قال : هذه رَحِمٌ مجفوة منذ مائتي سنة .

وانتقلت أسرة الديباجة بعده إلى الكوفة ، وبها نشأ ابنه علي ، وعُيِّنَتِ الْأُمُّ
والأسرة بثقيفه ، فلم يُحَسِّنْ صنع الشعر فحسب ، بل أحسن صنوفاً من الآداب
وعُلُومِ الشريعة ، مما جعل العلويين في تلك البلدة يختارونه نقيبهم ومدرّسهم
ولسانهم ، كما يقول المسعودي . ونُصِيَ إلى المتوكل أن في داره سلاحاً وأن الشيعة
يجتمعون عنده ، وقيعة فيه من بعض حساده ، فوجه إليه جنداً اقتحموا عليه داره
فجأة ، فوجدوه يتعبّد ربه في غرفة مغلقة مرتدياً ثوباً بسيطاً من الصوف ،

ص ٢٣٧ والمختار من شعر بشار الخالدين

ص ١٦ ، ٢٥١ وديوان المماني ١/ ١٠٩ ،

٢/ ٦٥٨

(١) انظر في الحماني وأشعاره مروج الذهب

٢٩/٤ ، ٦٥ ومقاتل الطالبين ص ٦٦٢

وكتاب الزهرة نشر نيكل طبع بيروت سنة

١٩٣٢ (انظر الفهرس) وكتاب الديارات

ولا بساط في البيت إلا الرمل والحصى ، وهو يتلو القرآن مترنماً بآيه . فحملوه إلى المتوكل ووصفوا له ما يعيش فيه من شظف ، فرقاً له ، وسأله : ما يقول آل بيتك في العباس بن عبد المطلب (جد العباسيين) ، فأجابه بقوله : وما يقول آل بيتي يا أمير المؤمنين في رجل افترض الله طاعة نبيه على خلقه وافترض طاعته على نبيه ؟ ولأن قلب المتوكل له فأمر بإعطائه أربعة آلاف دينار ، وقيل بل مائة ألف درهم . ولم يُردِ الحماني في إجابته ظاهرها من طاعة العباس على نبيه كما يتضح في الشطر الثاني من الجواب ، وإنما أراد طاعة الله على نبيه .

ومرّ بنا أن الشعراء أكثروا في عصر المتوكل من ذمّ العلويين لإرضاء له ، وكان من أكثرهم قدحاً في علي وآله علي بن الجهم وكان ينتسب إلى بني سامة بن لؤي القرشيين ، وافتخر مراراً بهذا النسب في أشعاره ، وكان طبيعياً أن لا يسكت الحماني على هذا القدح ، وخاصة أنه تتداوله الألسنة وتعمل بغداد على نشره ، فطعن علي بن الجهم طعنة بطعنات ، ولكن لا بالقدح في خلقه وعرضه على عادة الشعراء في عصره ، وإنما بالقدح في نسبه إلى سامة ، فهو ليس من أحفاده ، وبالتالي ليس قرشياً ولا فيه من القرشية شيء . يقول :

وسامةٌ مِنّا فأما بنوه فأمرهم عندنا مظلم
أناسٌ أتونا بأنسابهم خرافة مضطجع يحلم

وعرف علي بن الجهم له فضله وحقه وحق أسرته العلوية ، فلم ينبس ببنت شفة واجداً عليه ولا هاجياً ، وإنما اكتفى بأبيات ينوّه فيها بفضله ، ويعترف له فيها بحقه وحقوق بيته .

وقد حزن الحماني حزناً شديداً على ابن عمه يحيى بن عمر حين خرج لعهد المستعين داعياً لنفسه بالخلافة ، وقُتل دون أمنيته ، وحدث أن الحسن بن إسماعيل قائد الجيش الذي نكّل به دخل الكوفة عقب انتصاره مهدداً متوعداً ، ولم يمض الحمانى للسلام عليه ، وكان الوحيد الذي تخلف من العلويين عن لقائه ، ولاحظ ذلك الحسن بن إسماعيل ، فبعث إليه بجماعة أحضره حتى إذا دخل مجلسه أظهر شجاعة

وجلسدأ وأنه لا يخشى سُلوة القائد ، ولم يلبث أن أنشده :

قتلت أعزَّ مَنْ ركب المطايا وجئتك أستلينك في الكلام
وعزَّ على أن ألقاك إلا وفيما بيننا حدُّ الحسام

وهو موقف كريم إذ لم يتملق القائد كما كان يظن ولا داراه ، بل جاهره بما في نفسه دون خوف أو وجل . وله مرث كثيرة في يحيى ، يبكيه فيها ويندبه ، ويصور أنه مات موتاً كريماً ، موت البطل الشجاع الذى لا يرهب الموت بل يلقاه فى قوة وصلابة مهما ادهمت الخطوب من حوله ، ومهما أظلمت الدنيا فى عينيه ، حتى لتَهول بطولته خصومه ، وحتى ليطلبون لقبره السَّقْيَا وله الرحمة ، يقول :

فإن يكُّ يحيى أدرك الحتفُ يومه فما مات حتى مات وهو كريم
وما مات حتى قال طلابُ روحه سقى الله يحيى إنه لصميم

ويصور فى مرثيه له مأساة البيت العلوى وأن أفرادَه دائماً بين قتيل وجريح . وللحِمَّانِ مرث كثيرة - بجانب مرثيه لابن عمه يحيى - فى أهله ، وفى أخيه لأمه إسماعيل وهو لا يرثى فيه الأخ والرحم القريبة فقط ، بل أيضاً يرثى الصديق شقيق النفس والروح ، ويتفجّع عليه تفجّعاً شديداً بمثل قوله :

هذا ابن أُمى عديل الروح فى جسدى شقَّ الزمانُ به قَلْبِي إلى كبدى
مَنْ لى مثلك ياروحَ الحياة ويا يمنى يديَّ التى شُلَّتْ من العَصْدِ
قد ذُقْتُ أنواعَ تُكَلٍّ أَنْتَ أبلغها على القلوب وأخناها على الجِلْدِ
فاليوم لم يبقَ شيءٌ أستريح له إلا تفتَّتْ أحشائى من الكمدِ
قل للردى لا يغادرُ بعده أحداً وللمنية مَنْ أَحْبَبَتْ فاعتمدى
إن السرور تقضى ، بعد فُرْقته وآذن العيش بالتكدير والنكدِ

والمرثية مؤثرة وهى سيل من الدموع والزفرات والأنين الموجه . وللحِمَّانِ

غزليات كثيرة تتداولها بعض كتب الأدب وهي تنمُّ على شعور رقيق وخيال خصب
من مثل قوله :

مَنْ أَرْتَجَى يَوْمًا شِفَاءً مِنَ الضَّنَا إِذَا كَانَ جَانِيهِ عَلَى طَبِيبِي
وله فخر يتحدث فيه عن آبائه . ويصور سمو نفسه وارتفاعها عن النقائص ،
كما يصور كبر همته وأنها ملء قلبه بل أكبر من قلبه ، يقول :

قَلْبِي نَظِيرُ الْجَبَلِ الصَّعْبِ وَهَمِّي أَكْبَرُ مِنْ قَلْبِي
فَاسْتَخِرِ اللَّهَ وَخُذْ مُرْهَفًا وَافْتِكْ بِأَهْلِ الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ
وَلَا تَمُتْ إِنْ حَضَرَتْ مِيتَةٌ حَتَّى تَمِيتَ السَّيْفَ بِالضَّرْبِ

وهو ممن أكثروا من ذم الشيب وكراهته ، وصوّر ذلك في أشعار كثيرة كأن
نراه يكره الشيب ويكره مفارقتة لأنها تعني فقدته للحياة ، وكأنه — على بغضه له —
يود أن لا يفارقه ، يقول :

بَكَى لِلشَّيْبِ ثُمَّ بَكَى عَلَيْهِ فَكَانَ أَعَزَّ فَقْدًا مِنْ شَبَابٍ
فَقُلْ لِلشَّيْبِ لَا تَبْرَحْ حَمِيدًا إِذَا نَادَى شَبَابُكَ بِالذَّهَابِ

وبجانب ذمه للشيب يأسى كثيراً على الشباب وأيام لهوه ومتاعه بالنظر إلى الغايات
فقد ضل ذلك منه ، أضله الشيب ، وهل من غانية تنظر إلى شيخ فان ، يقول :

لَقَدْ كُنْتُ تَمْلِكُ الْحَاضِرَ فَصِرْتُ يُعْرِثُكَ لِحْظًا مُعَارًا
وَأَصْبَحْتَ أَعْقَبَ بَعْدَ الْوَدَادِ بَعَادًا وَبَعْدَ السَّكُونِ النَّفَارَا

وله وصف كثير في سرى الليل وفي اعتساف الفلوات بالإبل والخيول نجد منه
مقتطفات في كتب الشعر ، ومن طريف نعتة لطول الليل وسكونه وجثومه على الكون
دون أى حركة قوله :

كَأَنَّ نَجُومَ اللَّيْلِ سَارَتْ نَهَارَهَا وَوَأَفَتْ عِشَاءَ وَهِيَ أَنْضَاءُ أَسْفَارِ
فَخِيَمُنَ حَتَّى تَسْتَرِيحَ رِكَابَهَا فَلَا فَلَكَ جَارٍ وَلَا كَوْكَبٌ سَارِ

وكان يكرر من ذكر المنازل والديار ، وله قصيدة بديعة يتحدث فيها عن المنازل القريبة من الكوفة مثل آثار قَصْرِ الخَوَرَنَقِ والسَّدير ، وكانا من قصور الحيرة ، وديارات الأساقف المطلة على نهر الغدير هناك وما حول هذه المنازل من رياض نضرة ترف فيها الأنوار والأزهار ، ومن قوله في تلك القصيدة :

كم وقفة لك بالخور نقي لا توازي بالمواقف
بين الغدير إلى السَّدير ر إلى ديارات الأساقف
دَمْنٌ كَانَ رياضها يُكْسِنُ أعلامَ المطارف
تلقى أوائلها أو خرها بألوان الزخارف

وواضح من هذه الأشعار التي وقفنا عندها للحماني أنه كان شاعراً مجيداً ، فعنده كثير من الخواطر والأخيلة البارعة ، وبالغ بعض الشيعة المتحمسين له فقالوا إنه كان أشعر شعراء قمرته . وقد توفي سنة ٢٦٠ للهجرة .

المفجع البصري^(١)

هو أبو عبيد الله محمد بن أحمد الكاتب ، عالم أديب ، وتدل كلمة الثعالبي في اليتيمة أنه حين توفي ابن دريد العالم اللغوي الإخباري المشهور سنة ٣٢١ قام مقامه في التأليف والإملاء ، على أنه كان واسع الرواية وصاحب معرفة دقيقة باللغة والأخبار ، ويشهد لذلك أنه ترك مصنفات مختلفة مثل كتاب سماه كتاب الترجمان في الشعر ومعانيه . وفي كتاب الفهرست لابن النديم بيان كامل بأسماء مصنفاته . ويلفت النظر أنه شيعي وليس من أهل الكوفة بل من أهل البصرة ، ومعروف أن الكوفة كانت حتى القرن الثالث الهجري مركز التشيع وداره . بينما كانت البصرة بعيدة عن التشيع وأهله^(٢) ، وكأنما امتد تيار التشيع مع نهاية القرن الثالث وأوائل الرابع إلى البصرة ، وأخذت تتحول إلى مركز من مراكزه .

بالوفيات (طبعة إستانبول) ١/ ١٢٩ .
(٢) ثلاث رسائل للجاحظ (طبعة فان
فلوتن) ص ٩

(١) انظر في المفجع وأخباره وأشعاره اليتيمة
للثعالبي (طبعة محي الدين عبد الحميد) ٢/ ٣٦٣
والفهرست ص ١٢٩ ومعجم الأدباء لياقوت
١٧/ ١٩٠ ومعجم الشعراء ص ٣٨٠ والوفاء .

ويبدو أن المفجع كان شيعياً إمامياً ، فقد شاع مذهب الإمامية في العراق من قديم ، ويقولون إن لقبه المفجع لزمه بيت قاله ، وأكبر الظن أنه لُقب بهذا اللقب إشارة إلى تفجعه الكثير على قتلى العلويين ، وكان - على ما يظهر - يكثر من مديح الهاشميين ، وخاصة أبا الحسن محمد بن عبد الوهاب الزينبي الهاشمي البصري وفيه يقول :

للزينبي - إلى جلاله قدره - خلق كطعم الماء غير مزبد
وشهامة تقص الليث إذا سطا وندي يفرق كل بحر مزبد^(١)
يحتل بيتاً في ذوابة هاشم طالت دعائه محل الفرق
بضياء سننه المكارم تقتدى وبجود راحته السحاب تهدي
وله قصيدة طويلة يمدح فيها علياً - رضي الله عنه - سماها « ذات الأشباه »
إشارة إلى أثر مسند إلى أبي هريرة ذكر فيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
قال وهو في محفل من أصحابه : « إن تنظروا إلى آدم في علمه ونوح في همه وإبراهيم
في خلقه وموسى في مناجاته وعيسى في سننه ومحمد في هديه وحلمه فانظروا إلى هذا
المقبل . فتناول الناس فإذا هو علي بن أبي طالب » . وعلى هدى هذا الأثر نظم
المفجع قصيدته مصوراً فيها مناقب علي وهي تطرد على هذا النمط :

أيها اللأثمى لحبى علياً	قم ذميماً إلى الجحيم خزيماً
أشبه الأنبياء كهلاً وزولاً	وفطيماً وراضعاً وغدياً ^(٢)
كان في علمه كآدم إذ عد	م شرح الأسماء والمكنيا
وكنوح نجى من الهلك من س	ير في الفلك إذ علا الجودياً ^(٣)
وحقاً في رضا الإله أباه	واجتواه وعده أجنبياً
كاعتزال الخليل آزر في الله	ه وهجرانه أباه ملياً ^(٤)
ولو أن الوصي حاول مس الذ	جهم بالكف لم يجده قصياً

(٣) الجودي : جبل بشمال العراق .

(٤) آزر : أبو إبراهيم .

(١) تقص : تدق وتحطم .

(٢) الزول : الفنى .

وطبيعي أن تفقد القصيدة العذوبة لأنها إلى الشعر التعليمي أقرب منها إلى الشعر
الغنائي وافر النغم والألحان . وليس معنى ذلك أن شعره جميعه يجرى على هذا المنوال
فالآبيات السابقة في مديح الزينبي أسلوبها مستو وليس فيه استواء فقط ، بل أيضاً
فيه جزالة ورصانة . ويقول الثعالبي إن شعره كثير الحلاوة يكاد يقطر منه ماء الظرف
من مثل قوله :

زفرتُ تعتادني عند ذكرا ك وذكراك ما تريم فؤادي
وسروري قد غاب غنى مذعب مِ فهل كنتما على ميعاد
ليس لي مفزعٌ سوى عبرات من جفونٍ مكحولة بالسُّهاد
وبحسبي من المصائب أنى في بلاد وأنتم في بلاد

وكان مثل أستاذه ابن دريد لا يجد بأساً في أن يُقبل أحياناً على الشراب، إذا
صح ما رُوى عنه من احتساء الخمر، ونراه يصف مجلساً من مجالسها في ليلة من
ليالي الأُنس بها ، يقول :

أداروها وليلٌ اعتكارُ فخلتُ الليل فاجأه النهارُ
فقلتُ لصاحبي والليل داجٍ ألاح الصُّبحُ أم بدتِ العُقارُ
فقال : هي العُقار تداولوها مُشعَّعةٌ يطير لها شرارُ
ولولا أننى أمتاح منها حلفتُ بأنّها في الكأس نارُ

وبين أشعاره مقطوعات في بعض الغلمان ، ومراً بنا ما قلناه من أن أكثر
ما كان ينظمه الشعراء فيهم إنما كانوا ينظمونه دعابة وفكاهة على مجالس الخمر
بقصد التندير والضحك، ولذلك كان ينبغي ألا نصنع صنيع المستشرقين في تضخيمهم
لهذه السَّوْعة سواء عند المنجّع البصرى أو عند غيره . وراه « متر » ينظم قصيدة في
الجامع الكبير بالبصرة ومن فيه من الغلمان قائلًا :

ألا يا جامع البَصْرَةِ لا خربك الله
وسقَى صحنك المَزْنُ من الغيث فرواه

فكم ظبي من الإنس ملىح فيك مرعاه
نصبنا الفخّ بالعلم له فيك فصّدناه
وكم من طالبٍ للشّع رٍ بالشعر طلبناه

فظن أنه وقع على وصمة كبرى ، وذهب يقول إن الشاعر يحكى كيف كان يُغوى الصبيان في الجامع المذكور ويستنزل العاصي الصعب منهم^(١) . والدليل على أنه لم يكن خالص النية في حكمه أنه أنشد القصيدة وأسقط منها هذين البيتين :

ألا يا طالبَ الأمرِ دِ كُذِبُ ما ذكرناه
فلا يغرُرْكَ ما قلنا فما بالجدِّ قلناه

فالمفجع إنما قال ما قال من هذه القصيدة كذباً وبهتاناً وعبثاً ودُعابة ، فكان يحسن بمتز أن لا يسوقها في مجال الحديث عن التولع بالغلمان ونصب الشباك لهم وأين ؟ في المساجد الطاهرة ، فالمفجع إنما أراد إلى أن يدفع سامعيه إلى الفكاهة والضحك العريض . ولم يطل به المقام في مكان أستاذ ابن دريد يُسملى ويحاضر الطلاب ، فما هي إلا ست سنوات بعد وفاة ابن دريد حتى لبى نداء ربه سنة ٣٢٧ للهجرة .

٣

شعراء الثورات السياسية

لم تكن ثورات الشيعة بزعامة العلويين وحدها هي التي أفضت مضاجع الخلفاء في هذا العصر ، فقد اشتعلت بجانبها ثورات أخرى ، كان بعضها يزيغ لنفسه شعاراً علوياً حتى يجمع العامة في صفوفه وتحت لوائه . وكان من زعماء هذه الثورات من ينظم الشعر ، فهو ثائر من جهة ، وهو شاعر من جهة ثانية . وبهمنا الوقوف

(١) انظر الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجرى ١٣١ / ٢

على هؤلاء الشعراء الثوار ومن كان يُعِينُهُم أحياناً بأشعاره من أنصارهم . ونلاحظ أن هؤلاء الشعراء من الأنصار لم تهتم بهم كتب التاريخ ، فهي دائماً تسوق ما قيل في انتصارات العباسيين على الثوار ولا تُعْنِي أَى عناية بما قاله أصحاب هؤلاء الثوار في قليل ولا كثير .

ومن أوائل من ثاروا في العصر محمد بن البعيث لعهد المتوكل سنة ٢٣٤ وكان يحسن الشعر ، وسنعرض له في موضع آخر . وما نصل إلى رمضان لسنة ٢٥٥ للهجرة حتى يُشْعَلُ فارسي ثورة الزنج بالبصرة متزعماً لها ، وفصلنا في الفصل الأول القول في هذه الثورة وكيف دوخت الدولة العباسية وعرضتها لكارثة عظيمة ، إذ استطاع أن يستثير الزنج ويجعلهم يستشعرون سُخْطاً هائلاً على كبار الملاك الإقطاعيين الذين كانوا يُسَخِرُونَهُمْ في كَسْحِ أرض البصرة وزرعها دون أى رحمة أو شفقة وبأجور زهيدة لا تكاد تحقق لهم غذاء ولا كساء . وتجمع حواه الزنج واستحالوا إلى جيش لَسَجِبِ اجْتَسَاحَ جنوبي العراق وكاد يمتاح العراق كله في بعض الأوقات لولا أن تجرد لهم ولزعيمهم الموفق ولي عهد الخليفة المعتمد ، كما مرّ بنا في غير هذا الموضع ، وكان بطلا مغواراً لا يُشَقُّ غباره ، وكانت الجيوش توالى في حرب هذا الثائر وأصحابه ، وكان يمزقها شراً ممزق ، حتى تولى قيادتها الموفق ، فاستحالت الهزيمة نصراً ، ولكن أى نصر ؟ لقد كان نصراً بطيئاً ، إذ كانت تقف بينه وبين الثوار مستنقعات البصرة ، وظل يأخذها منهم قطعة قطعة .

ومن المحقق أن هذه الثورة أقدم ثورة عرفها العرب في المطالبة بالحرية ونقض الاسترقاق وتحقيق العدل الاجتماعي ، ولكن زعيمها لم يمتص بها في السعى إلى هذه الغايات كما كان يَعدُّ في أول ثورته ، فقد استباح في حروبه استرقاق الأحرار ، وكأنما ألغى رده الحرية على الزنج بفرضه الاسترقاق على غيرهم ، فانعكست صورة الاسترقاق ، ولكنها ظلت كما هي وظلت طبقات من الناس تسترق طبقات أخرى . وكان قد رأى إنجاحاً لثورته أن يُضْنِي عليها مسحة دينية ، كما مر بنا في الفصل الأول ، فأشاع في الناس أن اسمه على بن محمد وأنه من سلالة زيد بن علي بن الحسين ، حتى يؤمنوا بأنه صاحب حق شرعى في الخلافة وأن من حقه الثورة على العباسيين ، بل من حقه عليهم أن ينصروه ويؤازروه . وانضم إليه كثيرون من

الأحرار وأعراب البوادي بجانب من انضموا إليه من الزنج وعبيد العراق ، ولكن ثورته باءت - بعد أربعة عشر عاماً من المعارك العنيفة - بالإخفاق الذريع .

ولا نريد أن نقف عند هذه الثورة الآن وما كان من صاحبها الذي ظلت ثورته أربعة عشر عاماً أو تزيد ، والذي كان يُسْرَفُ في القتل وسفك الدماء ، حتى قالوا إنه قتل في البصرة في يوم واحد من غاراته الكثيرة ثلاثمائة ألف ، وإنه كان يُسْتَهَب أصحابه الأموال ويَحْرَقُ الدور والقصور . كل ذلك لا نريد أن نقف عنده ، ولا عند ما يقال من أنه كان دائماً يخطب في أنصاره^(١) . إنما نريد أن نقف عند ما بقى لنا من بعض أشعاره^(٢) . يقول المرزبانى : « تُرَوَّى له أشعار كثيرة في البسالة والفتك » ، ويذكر أن ابن دريد كان يؤكد أنها من نظمه وأنها قُرِئت عليه أمامه ، فشهد بأنها له ، ولم يُسْكَرْها ، وكأن من معاصريه مَنْ كان يشكُّ في أنه شاعر يحسن صنع الشعر ونظمه ، مما جعل ابن دريد يؤدي الشهادة السالفة . وكان من قرية تسمى وَرَزْدِينَ بإيران ، وكأنه تلقَّى فيها من الآداب العربية ما جعله يحسن الخطابة والشعر جميعاً ، وله يخاطب بنى العباس :

بَنَى عَمَّنَا لَا تَوْقِدُوا نَارَ فِتْنَةٍ بَطِيءٌ عَلَى مَرِّ اللَّيَالِي خَمُودُهَا
بَنَى عَمَّنَا إِنَّا وَأَنْتُمْ أَنْأَمَلُ تَضَمَّنْهَا مِنْ رَاحَتِهَا عَقُودُهَا
بَنَى عَمَّنَا وَلَيْتُمْ التَّرْكُ أَمَرْنَا بَدِيئاً وَأَعْقَاباً وَنَحْنُ شُهُودُهَا
فَأَقْسَمَ لَا ذُقْتُ الْقَرَّاحَ - وَإِنْ أَدُقُّ فَبُلُغَةُ عَيْشٍ - أَوْ يُبَارَ عَمِيدُهَا^(٣)

وهو يسوق كلامه إلى العباسيين كأنه حقاً ابن عمهم على بن أبى طالب أو حفيده ، ويزعم أنهم يوقدون ضده نار فتنة ، وكان ينبغي أن يستسلموا له فليسوا جميعاً إلا أنامل يد هاشمية واحدة . ويلومهم أن أسلموا قيادة الدولة للأتراك ، وأنه سيجاهدكم جهاداً مريراً . وكان يكثر من تصوير ما يجري في قصورهم من خمر ومجون ينبغي أن تبرأ منه

(١) الطبرى ٩ / ٤١٤ وما بعدها .

ص ١٥٥ وما بعدها .

(٢) انظر في أشعار صاحب الزنج معجم

(٣) الماء القراح : البارد المذبذبة . بلغة

الشعراء للمرزبانى ص ١٤٨ وذيل زهر الآداب

العيش : أقل ما يكنى . يبار : يهلك .

العصر العباسى الثانى

قصور الخلافة وأن تكون قصور نسك وطهارة لاقصور إثم وعصيان ، وفي ذلك يقول :
لَهْفَ نَفْسِي عَلَى قُصُورٍ بِبَغْدَا دَ وَمَا قَدْ حَوَتْهُ مِنْ كُلِّ عَاصٍ
وخمورٍ هناك تُشْرَبُ جَهْرًا ورجالٍ على المعاصي حِرَاصٍ
لستُ بَابِنِ الْفَوَاطِمِ الزُّهْرِ إِنْ لَمْ أَقْجِمِ الْخَيْلَ بَيْنَ تِلْكَ الْعِرَاصِ

وهو يسجل على العباسيين انصرافهم عن حياة الدين والعبادة إلى حياة اللهو والمجون والعبث واقتراف الآثام ، حتى يستثير الناس معه . وينسب نفسه إلى فاطمة الزهراء ، بل إلى الفواطم الزهر ، حتى يستهوى القلوب . ويعلن أنه سيجاهد العباسيين ويستمر في جهاده حتى تسقط بغداد . وظل ثابتاً في جهاده مخلصاً له في أحلك الظروف ، حتى بعد أن فقد الأمل ، فإنه لم يستسلم للموفق بعد أن استسلمت عامة أنصاره ، ولا رضى الأمان حين عرضه عليه كما رضى أكثر جنده والبقية الباقية منهم ، بل ظلّ يقاتل حتى سُفِكَ دمه أمام منزله وهو ينشد :

عَلَيْكَ سَلامُ اللَّهِ يَا خَيْرَ مَنْزِلٍ خَرَجْنَا وَخَلَفْنَاهُ غَيْرَ ذَمِيمٍ

وتلقانا بعد ثورة صاحب الزنج ثورة بكر بن عبد العزيز بن أبي دُلَاف في الكرج وكان شاعراً ، وسنعرض له عما قريب . ونسبت ثورة القرامطة ، وكان دعائها يَصِلُونَهَا بالدعوة الإسماعيلية الشيعية ، كما مرَّ بنا في الفصل الأول . وكان غير ناثر من هؤلاء الدعاة يَصِلُ نفسه مباشرة بمحمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق ، مزيفاً لذلك سلسلة نسب كاذبة ، على نحو ما صنع صاحب الزنج لنفسه نسباً يصله بزيد بن علي زين العابدين . وكان داعيتهم الأول قرمط مكوّن الفرقة قد التقى في سواد الكوفة بأحد دعاة الحركة الإسماعيلية ، فانضم إليه ، وأخذ في تنظيم حركته القرمطية واضعاً لها من المبادئ الاشتراكية العادلة ما استهوى به قلوب العامة ، فتبعه خلق كثير أخذ يُغَيِّرُ بهم على سواد الكوفة . وما نصل إلى سنة ٢٨٩ حتى نجلده يخفى في ظروف غامضة ، ويتولى زعامة حركته زَكَرَوِيَّة الدَّندَانِي ، ويرى — كما مرَّ بنا — الدولة بالمرصاد له ولجماعته ، فيرسل بأبنائه : يحيى والحسين ومحمد إلى قبيلة كلب ببادية السماوية بين العراق والشام ، لأهلهم يستجيبيون إلى دعوتهم ، ويتبعهم كثيرون ، ويبايعون أكبرهم يحيى بن زكرويه الذي زعم لهم أنه من سلالة

محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، وتسمّى لهم باسم أبي عبد الله على بن محمد، وقيل بل تسمى باسم محمد، وتكهّن لهم مدعيًا أنه يُوحى إليه، وكشف لهم عن عَصْدُ له ناقصة وزعم أنها آيته أو معجزته، كما زعم أن ناقته التي يركبها مأمورة وأنهم إذا ساروا وراءها في لقاء أى عدو جاءهم نصر الله والفتح المبين. ومضى بجموعه في سنة ٢٩٠ يهاجم المدن السورية ويغيث في الأرض فساداً. وكانت الشام حينئذ تتبع الدولة الطولونية، ولقيه أحد قوادها فتغلب عليه ومضى إلى الرقة يقتل ويسفك الدماء، ودَحَرَ جيشاً للعباسيين، وعاد يحاصر دمشق، غير أنه قُتل على أبوابها. وكان شاعراً، ترجم له المرزباني في معجمه^(١). ونراه في بعض أشعاره على شاكلة صاحب الزنج ينسب نفسه إلى الفواطم من بنى هاشم، يقول:

أنا ابنُ الفواطم من هاشمٍ وخيرُ سُلالةٍ ذا العالمِ
وطئتُ الشامَ برغم الأنامِ كوطءِ الحمامِ بنى آدمِ

وهي نسبة كاذبة. ومن المؤكد أنه لم يكن يقصد بشورته نصرة العلويين ولا كان فيها متشيعاً لهم، إنما كان متشيعاً لنفسه يريد أن يصل إلى الملك والسلطان، ولذلك فصلناه مثل صاحب الزنج — على نحو ما مرّ بنا — عن العلويين وثوراتهم ودعواتهم السياسية، وله أبيات يذكر فيها النجوم والكواكب: المريخ والعيّوق وسعد الذابحين ملوحاً للعامة التي تتبعه بأن علم التنجيم قد كشف له عن نصر عظيم يلقاه في الموصل ومدينة الرّحبة التي بناها طوق بن مالك ومدينة الرافقة، بل إنه سيدمر بغداد تدميرًا وينهب كل ما في قصورها من أموال يقول:

تقاربت النجومُ وحان أمرُ قرانٍ قد دنا منه النذيرُ
فمريخُ الذبائح مستهلٌ قوى ما لوقدته فتورُ
عيّوقُ الحروب له احمرارُ وسعدُ الذابحين له بدورُ
فبشّرُ رَحْبَتِي طوقِ بيومٍ من الأيام ليس له نظيرُ
ورافقةُ الضلالة ليس يُغنى إذا ما جئتها بابٌ وسورُ

وبغداد فليس بها اعتياض على أمرى وليس لها نكير
أصبحها فأتركها هشيماً وأحوى ما حوته بها القصور
ومن ثوار القرامطة الشعراء أبو طاهر الجسنابي صاحب الأحساء والبحرين ،
وكان أبوه أبو سعيد من أنصار قرامط ، وكلفه بنشر الدعوة في جنوبي إيران ، وأخفقت
مساعدته ، وعاد إلى قرامط ، فأرسله إلى البحرين والأحساء ، وسرعان ما استجابت له
قبيلة عبد القيس . ودخلت المنطقة في سلطانه منذ سنة ٢٨٦ للهجرة ، وقتله غلام
صقلبي في سنة ٣٠١ فخلفه ابنه أبو طاهر ، وعظم أمره ، إذ وقع عساكر الخليفة
المقتدر مراراً كما مرّ بنا في الفصل الأول وفتك بغير جيش من جيوشه ، واتسع
ملكه في شرق الجزيرة العربية ، وكثر أتباعه وجنوده ، ونال ما لم ينله قرامطي قبله .
وكان يزعم أنه داعية عبيد الله المهدي الخليفة الفاطمي الإسماعيلي ، وكان شأنه قد
أخذ يعظم في إفريقية ، ولم يكن يدعو له حقيقة ، بل كان يتخذ ستاراً لخروجه
على الخلافة العباسية . وكان كثيراً ما يُغير على البصرة وينكّل بأهلها ، ويسفك
دماءهم ، ويحرق دورهم كما يحرق المساجد . وكثيراً ما كان يُغير على قوافل الحجاج
يفتك ويقتل وينهب ، وجيوشه تغدو وتروح إلى عاصمته « هجر » محملة
بالأموال ، فكان طبيعياً أن يمتدّ به طمعه وطموحه إلى أن يستولى على بغداد ، بل
إلى أن يستولى على العالم الإسلامي كله . وبلغ به تهويله على العامة أن كان يزعم
لها أنه سيظلّ حياً حتى ينزل عيسى من السماء بأخرة ، وفي ذلك كله يقول من
قصيدة طويلة مهدداً متوعداً ^(١) :

فَمَنْ مَبْلَغُ أَهْلِ الْعِرَاقِ رِسَالَةً بَأْنِي أَنَا الْمَرْهُوبُ فِي الْبَدْوِ وَالْحَضَرِ
فَيَا وَيْلَهُمْ مِنْ وَقْعَةٍ بَعْدَ وَقْعَةٍ يُسَاقُونَ سَوَاقَ الشَّاءِ لِلذَّبْحِ وَالْبَقْرِ
سَأَصْرِفُ خَيْلِي نَحْوَ مِصْرَ وَبَرْقَةٍ إِلَى قَبْرِ وَانِ التُّرْكِ وَالرُّومِ وَالْعَزْرِ
أَكِيلُهُمْ بِالسَّيْفِ حَتَّى أُبَيْدَهُمْ فَلَا أَبْقَى مِنْهُمْ نَسْلٍ أَنْثَى وَلَا ذَكَرَ
أَعْمَرُ حَتَّى يَأْتِ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ فَيَحْمَدُ آثَارِي وَأَرْضِي بِمَا أَمَرُ
وعزم في سنة ٣١٥ على غزو بغداد ، فخرج إليها في ألف فارس وخمسة

آلاف راجل، فجهز المقتدر لحربه جيشاً بقيادة يوسف بن أبي السَّاج، والتقى الجيشان، ودارت الدوائر على ابن أبي السَّاج وجيشه، وأخذ أسيراً، وأسرع مؤنس بجيش كثيف في نحو أربعين ألفاً، وانضم إليه الحمدانيون وغيرهم من عرب العراق والموصل، والتقى بأبي طاهر وجيشه عند الأنبار، غير أن أبا طاهر انصرف راجعاً إلى بلاده، ولم يواقع مؤنس مع ما اشتهر به من شدة بأسه، وكأنما خشي على نفسه مغبة الحرب، مما جعل أبا طاهر يرسل له بالأبيات التالية ساخرًا منه سخرية شديدة (١):

قُولُوا لِمُؤَنَسِكُمْ بِالرَّاحِ كُنْ أَنْسًا واستتبع الرَّاحَ سُرنِيَا وَمَزْمَارَا
وقَدْ تَمَثَّلْتُ عَنْ شَوْقٍ تَقَاذِفُ بِي بيتاً من الشعر للماضين قَدْ سَارَا
نَزُورَكُمْ لَمْ نَوَازِدْكُمْ بِجَفْوَتِكُمْ إِنَّ الْكَرِيمَ إِذَا لَمْ يُسْتَزَرَ زَارَا
وهو يهزأ به وبشجاعته التي عُرِفَ بها، ويقول له إنك لست من أهل الحرب والبأس، وإنما أنت من أهل الكاس والطاس وآلات الطرب من السرنای وغير السرنای، ويستمر في هزؤه، فهو سيزوره ويزور بلاده للفتك به وبجنوده.

وتطغى أبا طاهر الجنابي انتصاراته على جند الخلافة، وبغره بالله الغرور، ويشتهر عنه أنه لا يصلي ولا يصوم ولا يعرف حدود الله. وما يوافي شهر ذى الحجة في سنة ٣١٧ حتى ينقل غاراته على الحجَّاج من قوافلهم إلى البيت الحرام، وإذا السيوف تنوشهم وتسيل دماؤهم أنهاراً يوم التَّروِيَةِ، وهم يهللون لربهم ويلسبون، وهو وأنصاره ينسحرون فيهم، كأنهم كباشٌ أعدت للذبح، دون أى شفقة أو رحمة. ولم يكتفوا بمن ذبحوهم في فجاج مكة، فقد دخلوا المسجد الحرام ينحرون ويلبجون والناس يتعلقون بأستار الكعبة وهم يمزقونها ويمزقون جلودهم بسيوفهم، ولا شفيع لهم ولا نصير من هذا الشيطان الرجيم. وبلغ من سفهه وخرقه أن أمر بطرح القتلى في بئر ززم، واقتلع الحجر الأسود من موضعه، وأخذ معه إلى هجر وظل بها حتى سنة ٣٣٩ إذ أعاده القرامطة إلى مكة خوفاً من الخليفة المطيع وخشية من بأسه وبأس البويهيين. وجرد أبو طاهر الكعبة من كل ما كان بها من تحف

أهداها الخلفاء على مرّ السنين . وروى المؤرخون أنه كان في أثناء هذا العمل الوحشي الفظيع يترنم بأشعار له مبتهجة ؛ وكأنما كان يشفي غليل نفسه من الإسلام وصاحبه وأهله بما ارتكبه من هذه الخطايا الموبقات ، وبما كان يُنشده من هذه الأشعار التي يحادّ بها الله ورسوله من مثل قوله ^(١) :

ولو كان هذا البيتُ بيتاً لرَبُّنا لصبَّ علينا النارُ من فوقنا صَباً
لأنّا حَجَجْنَا حِجَّةً جاهليّةً محلّلةً لم تبق شرقاً ولا غرباً
ولكنّ ربَّ العرش جلّ جلاله ولم يتخذ بيتاً ولم يتخذ حُجْجاً
وكأنه بذلك يعلن كفره ، صريحاً غير موار ، بفريضة الحج إلى بيت
الله ، التي تُعدّ ركناً أساسياً من أركان الإسلام . وبذلك يتضح أن أبا طاهر
لم يكن ثائراً عنيفاً فحسب مثله مثل يحيى بن زكرويه وصاحب الزنج ، بل إنه
يتقدمهما خطوات في الثورة الدامية والعنف والانفصال عن العلويين ، إذ خلع
الإسلام كله من عنقه ومضى يحارب أهله ويسيل دماءهم ويذبحهم ذبحاً حيث
لا يحل صيد الحيوانات ولا الطيور ، غير ما انتهكه من حرّات بيت الله المقدس
انتهاكاً ليس له سابقة ولا لاحقة في التاريخ . ولعل من الخير أن نبسط القول
قليلاً في شاعرين ثارا على الخلافة العباسية في القرن الثالث الهجري ، وهما محمد بن
البيث وبكر بن عبد العزيز بن أبي دُؤلف .

محمد ^(٢) بن البيث

من فتيان بني أسد نزلت عشيرته في أذربيجان ، واشتهر أبوه بأنه كان من
الفُتّاك الصعاليك ، واستطاع محمد أن يمتلك في تلك الديار قلعتين : قلعة تسمى
شاهي وأخرى تسمى بكدر ، وكانت شاهي أشدّ مناعة فكان يقيم فيها كثيراً .
واشتهر أمره في عصر المعتصم وحروب بابك ، فإنه كان يحاول أن يكون محايداً بين
الطرفين المتخاصمين ، فإذا نزلت سرايا أحدهما أضافها وأحسن الضيافة ، وهو في
أثناء ذلك يراوغ ، وقد ينقل للجيش العباسي وقواده أخبار بابك ، وقد ينقل إلى بابك

١٧٠ ، ١٧١ ، مروج الذهب ٤١ / ٤
ومعجم الشعراء ص ٣٨٥ .

(١) تكملة تاريخ الطبري للهمداني ص ٦٢ .
(٢) انظر في ثورة محمد بن البيث وأخباره
الطبري ٩ / ٢٥ ، ٢٧ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ،

أخبار الجيش العباسي . وكان هواه مع العباسيين ، غير أن وقوفه متفرجاً دون أن يُقحم نفسه في تلك الحروب وينصر العباسيين جعل إسحق بن إبراهيم المصعبي أحد قواد المعتصم يقبض عليه ويُلْقَى به في غياهب السجون . ويتوسط له بعض القواد ، فيُفْرَج عنه ، على ألا يبرح سامراً حتى إذا كانت سنة ٢٣٤ لعصر المتوكل هرب إلى دياره وحصونه فيها ، واختار حصن مَرْتَد ، فجمع فيه عُدَّه وأسلحته وأنصاره وزادهم ، ورمى ما كان وهى من سورها ، وكان في داخلها وخارجها بساتين ، تدور من حولها أشجار كثيرة . ووجهه إليه المتوكل بعض الجيوش فلم تستطع أن تصل إليه ، ثم وجهه إليه بُغَا الشرائي ، فزحف إلى الحصن وقطع ما حواه من الشجر نحواً من مائة ألف شجرة ، ونصب عليه المجانيق ، ويثس ابن البعيث من مطاولة الحصار ، ففرَّ على وجهه وهو ينشد :

كم قد قضيتُ أموراً كان أهملها غيرى وقد أخذ الإبلأس بالكظم^(١)
لا تعذليني فيما ليس ينفعني إليك عني جَرَى المقدارُ بالقَلَمِ
سأتلف المال في عُسرٍ وفي يُسرٍ إن الجواد الذي يعطى على العدم

وتبعه نَقَرٌ من الجيش العباسي ، فلحقوه ، وهو راكب دابة متقلد سيفاً يريد أن يصير إلى نهر عليه رَحَى ليستخفي في الرَحَى ، وأخذوه أسيراً ذليلاً ، وانتهب الجند داره ودور أصحابه وبعض دور المدينة ، ونادى مناد بالامتناع عن النهب . وأتى بابن البعيث إلى المتوكل ، فأمر بضرب عنقه ، فطُرح على نِطْع ، وجاء السيَّافون فلوَّحوا له بسيوفهم ، وقال له المتوكل حانقاً غاضباً : ما دعا يا محمد إلى ما صنعت ؟ فأجابه : الشَّقْوَةُ وأنت الحبل الممدود بين الله وبين خلقه ، وإن لي فيك لظنَّين أسبقهما إلى قلبي أولاًهما بك ، وهو العفو ، ثم اندفع ينشده :

أبى الناسُ إلا أنك اليوم قتلت إمام الهدى والصَّفْحُ بالحرِّ أجْمَلُ
وهل أنا إلا جُبْلَةٌ من خطيئة وعفوك من نور النبوة يُجْبِلُ^(٢)
تضاءل ذنبي عند عفوك قِلَّةً فَمَنْ بَعَفُوْكَ منك والعَفْوُ أَفْضَلُ
فإنك خير السابقين إلى العلا ولا شك أن خيرُ الفاعلين تَفَعَّلُ

(٢) الحجة : الحلقة والطبيعة .

(١) الكظم : مخرج النفس من الحاق . الإبلأس : انقطاع الحجة .

فقال المتوكل : أفعل خيرهما وأمنٌ عليك ، ارجعْ إلى منزلك ، وخفّف عنه الحكم من الإعدام إلى الحبس وظل فيه حتى وافاه الموت . وفي الطبرى أنه كما كان ينظم بالعربية بعض أشعار له كان ينظم بالفارسية أشعاراً أخرى . وكان جواداً ممدحاً طالما قصده الشعراء بمدحهم ، وأجزل لهم في عطائه ، ومن ذكر منهم المرزبانى في معجمه يحيى^(١) بن أحمد من أهل مدينة الرّحبة في الموصل ، وفيه يقول : « كان في ناحية محمد بن البعيث ، ومدحه مدحاً كثيراً » منه قصيدة أولها :

لا زال محسوداً على أفعاله وحسوده في الناس غير محسدٍ
شطراه بين معاقبٍ أو غافرٍ أو عائدٍ متفضّلٍ أو مُبتدئٍ
شفعاً ووتراً كلّ ذاك فعّاله كالدهر إلا أنه لا يعتدئ
فالناس تحت لوائه من راغبٍ أو راهبٍ أو رائجٍ أو مُعتدئٍ

وكان ابن البعيث يستخدم يحيى في الدعاية له ، وهو يصوره فارساً رائحاً غادياً على أعدائه ، والناس بين راهب من بطشه وراغب في كرمه الفياض ، وتارة يعاقب أعداءه عقاباً أليماً ، وتارة يعفو عفواً رحيماً ، ويدعو له أن يظل محسوداً متسنماً لذروة المجد الرفيعة . ومن قوله فيه :

متى ألق من آل البعيث محمداً أحلّ رياضاً للعلّا بمحمدٍ
وتضحك أم البشر عني بنيليه فأرجع محسوداً بنيل محسدٍ

ويبدو أن ابن البعيث كان شخصية ممتازة ، فهو جواد ، وهو شجاع من أهل البأس والفتوة ، وهو أديب يحسن العربية والفارسية . وبلغ من ثبات جأشه وجنانه أن أنشد المتوكل الأبيات السالفة وهو على النطع والسياف شاهر سيفه يريد أن ينقض عليه وأن يحز رأسه ويُرْزَق روجه ، وشرّر الغضب يتطاير من عيني المتوكل وقد انتفخت أوداجه . وكأن ذلك كله لم يملأ نفسه خوفاً ولا هلعاً ، فظل رابط الجأش مجتمع القلب ، لا تخونه الكلمة في اللحظة الحرجة ، بل لا يخونه البيت

(١) انظر في ترجمته وأشعاره معجم الشعراء
س ٤٩١ .

الذى يستلُّ الغضب من نفس المتوكل . وقد بلغ منه مبلغاً خطيراً ، حتى أوشك أن يقضى عليه قضاء مبرماً . وهى قدرة نفسية كانت تمتاز بقدرة البياينة .

بكر^(١) بن عبد العزيز بن أبي دلف

حفيد أبي دُلَف القاسم بن عيسى العَجَلَى الشيباني البطل المغوار الذى أبلى بلاء عظيمًا فى حروب بابك لعهد المأمون والمعتمد ، وكان هرون الرشيد ولأه — وهو حدث السن — أعمال الجبل فى إيران ، ولم يزل عليها إلى أن تُوُفِّي سنة خمس وعشرين ومائتين . وكان أديبًا شاعرًا وله مقطوعات تردّد فى كتب الأدب ، وهو ممدوح أبي تمام وعلى بن جبلة الذى قال فيه :

إنما الدنيا أبو دُلَف بين باديه ومحتَضِرِه
فإذا وَلَّى أبو دُلَف وَلَّت الدنيا على أثره

وقد تولَّى إقليم الجبل ابنه عبد^(٢) العزيز وكان شاعرًا ، وشجاعًا باسلاً ، وعزله عنه المعتز وولى عليه موسى بن بغا ، فثارت ثورة عبد العزيز وفتر إلى قلعة له ولعشيرته فى الكَرَج بين همدان وأصفهان ، وظل ينازل الدولة العباسية . ونراه فى سنة ٢٥٤ يَسْجَى همدان . ويخلفه ابنه أحمد ، فيتولى زعامة أسرته ويمد سلطانة إلى أصبهان ويتوفى سنة ٢٨٠ فيتنازع الرئاسة بعده أخواه عمر وبكر ، ويتم لعمر القيام بالأمر ، ولا يرسل إليه الخليفة المعتضد بالولاية ، حتى لا يثور بكر ، غير أنه عاد فولَّى فى سنة ٢٨٣ عيسى التُّوشَرِّى على أصبهان ، وغضب بكر ومن كانوا ينضوون تحت لوائه من الأعراب ، فولَّى وجهه معهم نحو الأهواز ، وخرج فى طلبه القائد التركى وصيف حتى بلغ حدود فارس . ولحقه ، ولكنه لم يحاول أن يبادره بالحرب ، وباتا كل واحد منهما قريب من صاحبه ، وارتحل بكر ليلاً ولم يتبَّعه وصيف ، وعاد بكر إلى أصبهان ورجع وصيف إلى بغداد . وكتب المعتضد إلى بدر غلامه المعروف باسم بدر المعتضدى يأمره بطلب بكر بن عبد العزيز وعربيه .

وكان بكر شاعرًا انحدر إليه الشعر من أبيه وجده ، وله ديوان صغير نُشِر فى

(٢) انظر فى عبد العزيز وولايته على الجبل
الطبرى ٩ / ٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٣٨١ .

(١) انظر فى بكر وأشعاره ديوانه وتاريخ
الطبرى ١٠ / ٤٧ ، ٥١ ، ٦٣ .

دهلي باسم شعر بكر بن عبد العزيز وهو يتغنى في أشعاره بفتوته وفروسيته ، وله
ميمية طريفة نظمها حين سمع بأن المعتضد أمر بدراناً غلامه أن يتعقبه ، وفيها يتوعده
ويتهده به بمثل قوله :

أَلْقَى الْأَحِبَّةُ بِالْعِرَاقِ عَصِيَّهُمْ وَبَقِيَتْ نُصَبَ حَوَادِثِ الْأَيَّامِ
وَتَشَعَّبَ الْعَرَبُ الَّذِينَ تَصَدَّعُوا فَذَبِبتُ عَنْ أَحْسَابِهِمْ بِخُسَامِي
فَلَا قَرَعَنَّ صَفَاةَ ذَهْرٍ نَابَهُمْ قَرَعًا يَهْدُ رِوَاسِي الْأَعْلَامِ
وَلَا تَرَكَنَّ الْوَارِدِينَ حَيَاضَهُمْ بِقَرَارَةٍ لِمَوَاطِي الْأَقْدَامِ
يَا بَذْرُ إِنَّكَ لَوْ شَهِدْتَ مَوَاقِفِي وَالْمَوْتَ يَلْحَظُ وَالصَّفَاحُ دَوَامِي
لذَمَّتْ رَأْيِكَ فِي إِضَاعَةِ حُرْمَتِي وَلِضَاقِ ذَرْعِكَ فِي أَطْرَاحِ ذِمَامِي
حَرَّكْتَنِي بَعْدَ السَّكُونِ وَإِنَّمَا حَرَّكْتَ مِنْ حِصْنِي جِبَالَ تِهَامِ
وَوَاضِحٌ مِنْ حَدِيثِهِ فِي مَطَالِعِ هَذِهِ الْأَبْيَاتِ أَنَّهُ يَأْسَى لِلْعَرَبِ فِي عَصْرِهِ ، فَقَدْ
تَشَعَّبُوا وَتَفَرَّقُوا شَيْعَةً وَطَرَائِقَ شَتَّى ، فَعَصَّاهُمْ أَنْدَهْرُ بَنِيهِ وَأَصْبَحَتْ حَيَاضُهُمْ
مَبَاحَةً يَرُدُّهَا الْأَعَاجِمُ وَغَيْرُ الْأَعَاجِمِ ، وَهِيَ هِيَ وَحْدَهُ يَقِفُ لِلدِّفَاعِ عَنْ عَرَبَيْنِهِمْ ،
وَلَا مَعِينَ لَهُ غَيْرَ عَزِيمَتِهِ الْمَاضِيَةِ وَسَيُوفِهِ الْقَاطِعَةِ . وَإِنَّهُ لَيَتَهَدَّدُ الدَّهْرُ أَنْ يَنْزِلَ بِهِ أَشَدَّ
النِّكَالِ كَمَا يَتَهَدَّدُ مِنْ اسْتِبَاحَا حِمَى الْعَرَبِ وَالْعُرُوبَةِ بِالذِّلِّ وَالْهَوَانِ حَتَّى لَيَصْبَحُونَ
مَوْطِنًا لِلْأَقْدَامِ ، وَيَتَحَوَّلَ إِلَى بَدْرِ الْمُعْتَضِدِ وَأَصْفًا لَهُ مَوَاقِفُهُ الْبَطُولِيَّةُ حِينَ تُسَلِّ
السُّيُوفُ وَتُسَدُّ الرِّمَاحُ وَيَلْتَقِمُ الْمَوْتَ الْأَبْطَالُ ، حَتَّى يَسْتَشْعِرَ النَّدَمَ عَلَى تَضْيِيعِهِ
لِذِمَامِهِ وَتَحْرِيكِهِ لِلْحَرْبِ الْمُبِيرَةِ بَعْدَ سَكُونِهَا . وَيَبْدُو أَنَّ بَدْرًا رَأَى أَنَّ يَسْكِلَ أَمْرَهُ
إِلَى غَيْرِهِ ، فَكَلَّفَ عَيْسَى النُّوشَرِيَّ بِمُجَاهَدَتِهِ ، وَصَدَّعَ لَتَكْلِفِهِ ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَنْجَحْ
سَرِيعًا فِي مَهْمَتِهِ ، وَاضْطَرَّ فِي بَعْضِ الْمَوَاقِفِ أَنْ يَنْسَحِبَ بِحَيْشِهِ ، فَقَالَ بَكْرٌ يَذْكُرُ
فِرَارَهُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ، وَيَتَهَدَّدُ بَدْرًا صَاحِبَهُ ، مِنْ قَصِيدَةِ طَوِيلَةٍ :

لَيْسَ كَالسَّيْفِ مَوْثُنٌ حِينَ يَغْرُو حَادِثٌ مَعْضَلٌ وَيَفْدَحُ أَمْرُ
أَوْقَدُوا الْحَرْبَ بَيْنَنَا فَاصْطَلَوْهَا ثُمَّ حَاصُوا فَايُنْ مِنْهَا الْمَقَرُّ (١)
وَبَغَوْا شَرَّنَا فَهَذَا أَوَانُ قَدْ بَدَأَ شَرُّهُ وَيَتْلُوهُ شَرُّهُ

قد رأى النُوشريُّ لما التقينا مَنْ إذا أُشْرِعَ الرماحُ يَفِرُّ
جاءَ في قَسْطَلٍ لُهامٍ فَضْلُنَا صَوْلَةٌ دُونَهَا الكِماةُ تَهَيَّرُ
غَرًّا بَذْرًا حَلَمِي وَفَضْلُ أَنانِي واحتمالي وذاك مما يَغُرُّ

على أنه سرعان ما اضطرَّ إلى الفرار أمام جيوش الخلافة سنة ٢٨٤ إذ التقى به النُوشري في حدود أصفهان ، فقتل رجاله واستباح عسكره . وأفلت في نفر يسير ، وغادر إقليم الجبل متجهًا إلى محمد بن زيد العلوي صاحب طبرستان ، فأكرم وفادته عليه ، وقرَّبه منه ، وولاه على إقليم رويان ، غير أنه مات مسمومًا في طريقه إليها لسنة ٢٨٥ .

٤

شعراء الوزراء والولاة والقواد

لا نبالغ إذا قلنا إن جميع وزراء العصر وأكثر ولايته وقواده داروا على السنة الشعراء بمدحونهم طلبًا للنوال ، إذ كانت بأيديهم أموال الدولة ، وكانوا ينثرونها نَشْرًا على الدعاية لهم ، ولم يكن للدعاية حينئذ لسان سوى الشعر ، فالوزير وكذلك الوالي والقائد حين يَسطريه شاعر ويثني عليه بطير اسمه في الناس ، ولذلك كان كثيرون يَجمَعون الشعراء من حولهم ، لكي يعدّوا مناقبهم ، ويصوروا كفاءتهم وأنهم من الصفوة المختارة للأمة . وكان من بينهم شعراء وأدباء يقدرون الشعر وأصحابه ، ويرفعون منزلتهم عالية . وكان في مقدمتهم لعصر المتوكل وزيره الفتح بن خاقان وكان كثيرون يكادون يقصرون أنفسهم على مديحه وما يصلحهم من نواله^(١) ، وهو من ممدوحى البحرى كما مر بنا في غير هذا الموضع ، وكان شاعرًا مرهف الذوق ، وله البيت المشهور^(٢) :

ليس يُسْتَحْسَنُ في شَرَعِ الهَوَى عاشقٌ يُحْسِنُ تَأْلِيفَ الحُجَجِ

(٢) معجم الشعراء ص ١٩١ .

(١) انظر مثلا ترجمة ابن أبي فنن الشاعر في تاريخ بغداد ٤ / ٢٠٢ .

ومثله من وزراء المتوكل في كثرة مادحيه عبيد الله بن يحيى بن خاقان ، وهو أيضاً ، من ممدوحى البحرى ، ومن مادحيه ^(١) محمد بن غالب الأصبهاني والقنبري ^(٢) ، وفيه يقول أبو هيفان يوم النسيروز وفيه تقدّم هدايا كثيرة ^(٣) :

إذا نحن مدحناك رعيناً حرمة المجد
وما استطرفت للإهداء إلا طرف الحمدي

وكان يَزِرُ المنتصر أحمد بن الحبيب ولم تكن له رصانة صاحبيه ، بل كان فيه حمق كثير ، ومع ذلك مدحه غير شاعر طلباً للربح والنوال ، من مثل قول محمد بن غياث الكاتب فيه ^(٤) :

سموه أحمد فالإسلام يحمدُه والدهر كاسم أبيه ممرعُ خصبِ
فلا فضائل إلا منه أولها ولا مواهب إلا دون ما يهبُ

ووزر للمستعين أبو محمد صالح بن يزداد ، ويردّ البحرى في ديوانه مدبجّه ، وتلقانا مدائح في وزراء المعتز مثل عيسى بن فرخان شاه وجعفر بن محمود الإسكافي . ويتولى وزارة المهتدى سليمان بن وهب ، وهو كما يقول الفخرى أحد كتّاب الدنيا وأحد عقلاء العالم ، وكان يُحسّن الشعر كما كان يحسن الكتابة ، وهو من ممدوحى البحرى ، وفي كتاب الأغاني ترجمة طويلة له ، وكثير من المدائح قدّمت إليه من مثل قول هرون بن محمد البالسي ^(٥) :

أسفرَ الشُّرُقُ منك والغرب عن ضو
أنشرَ الناسَ غيثُكم بعدما كا من العدل فاق ضوءَ البدورِ
نوا رُفَاتاً من قبل يومِ الشُّورِ ^(٦)

ووزر للمعتمد الحسن بن مَخْلَد ، وكان ماهراً في الكتابة ، وهو أيضاً من ممدوحى البحرى ، وكان مقصداً للشعراء . ويخلفه إسماعيل بن بلبل ، وهو كسابقه

-
- (١) معجم الشعراء ص ٤٠٩ .
(٢) نفس المصدر ص ٤٢٣ .
(٣) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٤٠٩ .
(٤) معجم الشعراء ص ٣٧٨ .
(٥) أغاني (سأى) ٦٧/٢٠ ومعجم
الشعراء ص ٤٦٤ .
(٦) أنشر : أحي .

من ممدوحى البحتري ، ومدائح ابن الرومي وأهاجيه فيه مشهورة . ويكثر البحتري وابن الرومي معاً من مديح وزير المعتمد صاعد وابنه العلاء وأخيه عبدون ، كما يكثر ابن الرومي من مديح عبيد الله بن سليمان بن وهب وزير المعتمد وابنه القاسم وزير المعتضد ، وفي ديوان ابن المعتز مدائح لهما مختلفة . وتداول أسماء وزراء المكتفي والمقتدر على ألسنة الشعراء ، وفي ابن الفرات وزير المقتدر يقول ابن العلاف (١) :

يَتَلَقَّى النَّدَى بِوَجْهِ حَيٍّ وَصَدُورَ الْقَنَا بِوَجْهِ وَقَاحٍ
هَكَذَا هَكَذَا تَكُونُ الْمَعَالِي طُرُقُ الْجَدِّ غَيْرَ طُرُقِ الْمِزَاحِ

ولأبي بكر يحيى بن محمد الصولي أشعار ومدائح كثيرة في وزراء العصر المتأخرين منذ عصر المقتدر ، وكان يدمج مديحهم في مديح الخلفاء ، وقد يمدحهم مدحاً مستقلاً من مثل قوله في أبي عبد الله البريدي وزير الخليفة المتقي (٢) :

مَا رَأَى النَّاسُ بِالْوَزِيرِ الْبَرِيدِ كَذَا الْيَوْمِ مِنْهُ حُسْنًا وَفَخْرًا
الَّذِي يَعْشَقُ الْمَكَارِمَ وَالْمَجْدَ وَيَشْرِي بِالْمَالِ حَمْدًا وَشُكْرًا

ولعل أكثر الولاة مديحاً في هذا العصر آل طاهر ، وفي مقدمتهم طاهر بن عبد الله بن طاهر والي خراسان ، ومحمد بن عبد الله بن طاهر حاكم بغداد وأخواه عبيد الله وسليمان ، وعرضنا فيما أسلفنا مدائح البحتري وابن الرومي فيهم ، ومن كان منقطعاً إليهم أبو الأشعث المروزي (٣) . وفي طاهر يقول مدرك بن غزوان الجعفرى من قصيدة (٤) :

حَمَى طَاهِرٌ شَرْقَ الْبِلَادِ بِيَمِينِهِ وَشَعَثَ النَّوَاصِي لَا تَجْفُ لِبُودِهَا (٥)
يُنِيخُ بِهَا أَرْضَ الْعَدُوِّ وَيَبْتَنِي مَسَائِرَ مَجْدٍ كَانَ قَدْماً يَشِيدُهَا

(٣) معجم الشعراء ص ٣٩٢ .

(٤) معجم الشعراء ص ٣٣٤ .

(٥) شعث النواصي : الخيل .

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٥٩

مقابلة على ص ٤٥٤ .

(٢) أخبار الرازي والمتقي بالله للصولي

ص ٢٠٢ .

ومن كان يخص محمد بن عبد الله بن طاهر بمدائحه ابن أبي فتنس ،
وتصادف أن كانت له ضيعة بجوار إقطاع له ، وكان عامل الحراج والعشور يلح
عليه في طلب عشوره وخراجه ، وربما آذاه ، فكتب إلى محمد يستغيث به من
قصيدة طويلة ^(١) :

أَبْنَى حُسَيْنٍ إِنِّى أَصْبَحْتُ فِي كَنَفِ الْأَمِيرِ
وَلَنَا مَعَاشٌ فِي قَطِيعِ مَعْتِهِ عَلَى الْمَاءِ النَّمِيرِ
لَوْلَا تَرَدُّدُ عَامِلٍ كَالْكَلْبِ فِي يَوْمٍ مَطِيرِ
فَهَلِ الْأَمِيرُ بِجُودِهِ مِنْ قَبْجِ طَلْعَتِهِ مَجِيرِ

فلما قرأ محمد القصيدة وَقَعَ تحتها قد أجزأك أبا عبد الله وأمرنا لك باحتمال
خراجك - وكان في كل سنة ستة آلاف درهم - وحمل إليه ألف دينار ، وحلف
عليه أن يقبلها . قال ابن أبي فتنس : وصرت منذ هذا الحين أمدحه في كل عام
بقصيدة . ومن الولاة الذين طالما مدحهم الشعراء أبو جعفر أحمد بن محمد الطائي
والى الكوفة . وهو من ممدوحى البحتري وابن الرومي ، ومثله إبراهيم بن المدبر الذى
ولى الدواوين فى سامراء وبغداد وولى فى بعض السنوات البصرة فأغرق الشعراء بأمواله
وأغرقوه بمدائحهم ، وهو ممدوح البحتري . ونرى شاعراً يكاد يخصه بمدحيه
وخاصة طوال مقامه فى البصرة ، وهو أبو شُرَاعَةَ شاعرها ، وكان لا يفارقه أيام
تقلده لها ولا يمنعه حاجة ولا شفاعة يسألها إلا حققها له ، وفيه يقول ^(٢) :

إِنَّمَا لَدَّتْكَ فِي الْمَالِ شَتَّى صَوْنُكَ الْعِرْضَ وَابْتِذَالَ الْمَالِ
مَا نَبَالَى إِذَا بَقِيَتْ سَلِيمًا مِنْ تَوَلَّيْتُ بِهِ ضُرُوفُ اللَّيَالِ

ومرَّ بنا فى حديثنا عن البحتري أنه مدح أحمد بن طولون أمير مصر وابنه
خمارويه وبعض قواده ، وأنه كان يمدح الهيثم بن عبد الله التغلبي والى الموصل
وسيا الطويل والى حلب ورافع بن هرثمة والى الرى ، كما مدح بعض قواد الترك مثل
وصيف الصغير وأذكوتهكين . ولا بد أن شعراً كثيراً نُظِمَ فى مدح القواد ، إذ تشير

(٢) أغاني (طبع الساسى) ٣٦/٢٠ .

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٩٦
والديارات ص ١٢٥ .

نصوص كثيرة إلى أن هذا الشاعر أو ذاك كان من شعراء العسكر ، ومع ذلك نفتقد الشعر الذى يصوّر بطولة قواد العصر إلا ما نُظِم في الموفق وابنه المعتضد ، مما مرّت بنا الإشارة إليه عند البحترى وابن الروى وابن المعتز . ويتعرض أبو بكر الصولى لبعض القواد في عصره وخاصة في مديحه لبعض الخلفاء من مثل محمد بن ياقوت القائد في عصر الراضى ، وكان يتحكم في شئون الدولة حتى أصبح ابن مقلة الوزير معه كالعارية وله فيهما ضادية طويلة ^(١) . وامتدح الشعراء كثيرين من الكتاب ورؤساء الدواوين — وأكثر من سميناهم من الوزراء عملوا في الدواوين أولاً — ومن كان ممدّحاً منهم آل ثوابة ، وقد توارثوا ديوان الرسائل منذ عصر المعتضد ، وكان من أكثرهم جوداً وكرمًا أبو العباس أحمد بن محمد بن ثوابة ، وهو ممدوح البحترى ، وكان يمدحه شعراء كثيرون دبّجوا فيه أشعاراً بديعة من مثل قول أبي هيفان ^(٢) :

الثوَابِي فَيَ لَيْسَ لَهُ فِي سَوَى السَّوْدِ والمَجْدِ وَطَرٌ

وقوله ^(٣) :

نَفْسِي فِدَاءُ أَبِي الْعَبَّاسِ مِنْ رَجُلٍ لَمْ يَنْسِنِي قَطُّ فِي نَائِي وَلَا كَثْبِ
يَقْرَى وَبِالرَّقَّةِ الْبَيْضَاءِ مَنْزِلُهُ مِنْ بِالْعِرَاقِينَ مِنْ عَجْمٍ وَمِنْ عَرَبٍ

ولعل من الخير أن نعرض ثلاثة من شعراء هؤلاء الرؤساء ليتضح لنا مديحهم في أضواء أكثر وضوحاً ، وهم أبو على البصير وأحمد بن أبي طاهر وابن دُرَيْد .

أبو على ^(٤) البصير

اسمه الفضل بن جعفر بن الفضل بن يونس ، أصل أسرته من الأتبار ، انتقلت إلى الكوفة فنزلت في حى النَّخَع ، وهى أسرة فارسية الأصل . وكان أبو على ضريباً

- | | |
|--|------------------------------------|
| (١) أخبار الراضى والمتقى للصولى ص ١٠ . | ومروج الذهب للمسعودى ٦٢ / ٤ ، ٨٤ |
| (٢) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٤١٠ . | ومعجم الشعراء للمرزبانى ص ١٨٥ ونكت |
| (٣) ديوان المعاني ١ / ٦٥ . | الهميان ص ٢٢٥ وزهر الآداب للحصرى ٣ |
| (٤) انظر في أخبار أبي على البصير وأشعاره | ٩٥ / ١٩٣ ، ٨١ ، ٢٤٨ |
| كتاب طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٩٨ | والفهرست ص ١٨٤ |

ولُقِّبَ البصير على العادة في التفاؤل أو لذكائه وفطنته . وكان شيعيَّ الهوى على مذهب أهل بلدته الكوفة ، وأكبر الظن أنه كان إماميًّا يؤمن بالتقيَّة ، ولذلك لم ير بأسًا في أن يترك الكوفة إلى بغداد وسامراء . ونزل الأخيرة في خلافة المعتصم ومدحه ومدح جماعة من قواده ، ولزم المتوكل والفتح بن خاقان بمدحهما وبنال جوائزهما ، ولحق زمن المعتز وهنأه بالخلافة كما مر بنا في غير هذا الموضع . ولم يكن شاعرًا فحسب ، بل كان أيضًا صاحب رسائل نثرية بارعة ، وفي الجزء الرابع من جمهرة رسائل العرب لأحمد زكي صفوت قطعة منها بديعة . ويقول المسعودي : « كان من أطبع الناس في زمانه لا يزال يأتي بالبيت النادر والمثل السائر الذي لا يأتي به غيره ، وله في الفضل حفيد الحسن بن سهل :

ملكٌ ندفع - ما نخشى - به - نصلح منا ما فسَدُ
ينجز الناس إذا ما وعدوا وإذا ما أنجز الفضلُ وعد

ودقة العبارة واضحة ، وواضح معها دقة الفكرة في البيت الثاني ، فالفضل لا يزال يؤدي وعوده وكلما أدَّى وعداً وعد ثانية ، فهو بحر من الجود لا ينقطع فيسِّضه ، ومن طريف ماله في الفتح بن خاقان قوله واصفًا بلاغته وشعره :

سمعنا بأشعار الملوك فكلُّها إذا عَصَّ مَتْنِيهِ الثُّقَافُ تَأَوَّدَا
سوى ما رأينا لامرئ القيس إننا نراه متى لم يشعر الفَتَحُ أَوْحَدَا
أقام زماناً يسمع القول صامتاً ونحسبه إن رام أكْدَى وَأَصْلَدَا^(١)
فلما امتطاه راكباً ذلَّ صعبه وسار فأضحى قد أغار وأنجدَا

فأشعار الملوك قبل الفتح لا تثبت عند الثُّقَاف والتمحيص ولا تستقيم بل تتأوَّد وتتنثني إلا ما كان من شعر امرئ القيس ، ولكن بشرط ألا ينظم الفتح وكأنه يعلو به على أبي الشعر العربي كله . وصورة يطيل إرهاف سمعه لمادحيه ، حتى ليظن الراي أنه لا يحسن قول الشعر ولا نظمه ، حتى إذا رامه ونظمه ذاع في طول البلاد وعرضها وفي حزنِّها وسهولها ونجادها وأغوارها . ويقول الرواة إنه كان يتشيع وإن له في ذلك أشعاراً ، ولم يصلنا من هذه الأشعار شيء ولعل كثيراً منها كان في مدح آل البيت .

(١) أكْدَى وأصلد : أعطى قليلا .

وروى له الحصرى تهنئة بمولود ، نظن ظننا أنه قدمها لأحد أفراد البيت العلوى ،
وفيهما يقول :

أتانى البشير بأن قد رُزقتَ غلاماً فأبهجنى ما ذكرُ
فعمرَكَ اللهُ حتى ترا ه قد قارب الخطو منه الكبرُ
وحتى ترى حوله من بنيه وإخوته وبينهم زُمُرُ
وأوزعكَ اللهُ شكرَ العطاء فإن الزيدَ لعبدٍ شكر
وصلى على السلف الصالحين من منكم وبارك فيمن غبرُ

وكان يؤذى نفسه إيداء شديداً أن يقدم شعره أحياناً لبعض الرؤساء أو بعض
رجال الدولة فلا يأبه له أو لا يعطيه ما يستحقه ، وتصادف أن أفراداً مختلفين وقفوا
منه هذا الموقف فى صور مختلفة ، فعزّت عليه نفسه وكرامته ، وأنشأ يقول :

وإنى قد بلوتكمُ جميعاً فما منكم على شكرى حريضُ
وأرخصتُ الثناء فغفتموه وربّما غلا الشئى الرخيص
فغفّت نوالكم ورجبتُ عنه وشرُّ الزاد ما عاف الخَصيصُ^(١)

ولعل شخصاً لم يؤذ نفسه وكبريائه كما آذاه الملقى بن أيوب أحد قواد الجيش ،
ولعل ذلك ما جعله يخصّه ببيتين كأنهما سَهْمَان مُصْمِيَان ، إذ يقول فيه :

لعمُر أبىك ، ما نُسب الملقى إلى كرمٍ وفى الدنيا كريمُ
ولكن البلاد إذا اقشعرت وصوّح نبتُها رُعى الهَشيمُ^(٢)

وكان يحسّ فقدّه لبصره إحساساً عميقاً ، ولكن ذلك لم يسكسر نفسه ولا
أصابه بهوان ، إذ نراه يُدَلُّ بأن غيره من المبصرين يستمدُّون علمهم من الكتب
المخلّدة ، أما علمه فدَقَّتْهُ القلب وحَبَّرَهُ السمع ، ويعتذر اعتذارات طريفة
عن أنه لا يستطيع شيئاً إلا بغيره كما نرى فى مثل قوله :

(١) الخَصيص : من الحصاصة ؛ وهى الفقر
(٢) اقشعرت : أجذبت . وصوّح : يس .
والاحتياج .

لئن كان يهديني الغلام لوجهي ويقتادني في السير إذ أنا راكبُ
لقد يستضيء القوم بي في أمورهم ويخبو ضياء العين والرأى ثاقب

وهو كثير السخرية في أشعاره . وله مداعبات ومجاوبات تدل على بديهة
حاضرة حضوراً شديداً ، وكثير منها كان يدور بينه وبين أبي العيناء الضرير
ويُروى أنه قال له : إنني وُلدت وقت طلوع الشمس ، فقال له تَوّاً : لذلك خرجت
مُكندياً (شحاذاً) لأنه وقت انتشار المساكين . وله غزل بارع من مثل قوله :

أَلْتِ بِنَا يَوْمَ الرَّحِيلِ اخْتِلَاسَةً فَأَضْرَمَ نِيرَانَ الْهَوَى النَّظَرُ الْخَلْسُ (١)
تَأَبَّتْ قَلِيلًا وَهِيَ تُرْعَدُ خِيفَةً كَمَا تَتَابَى حِينَ تَعْتَدِلُ الشَّمْسُ
فَخَاطَبَهَا صَمْتِي بِمَا أَنَا مَضْمُرٌ وَأَنْبَسْتُ حَتَّى لَيْسَ يُسْمَعُ نِي حِسُّ (٢)
وَوَلَّيْتُ كَمَا وَلَّى الشَّبَابُ لَطِيفَةً طَوَتْ دُونَهَا كَشْحًا عَلَى نَفْسِهَا - النَّفْسُ

والقطعة بديعة وتدل على رهافة الحس ودقة الشعور وخصوصية التفكير ،
وكأن البصير روى لنا قصة لا مجرّد خطرات في الحب والوجد . وكان يشارك أحياناً في
الحمز والمجون واللهو ، وله دعاية نظمها وهو يريد الحج ، صور فيها نفسه أَلَمَ بالكوفة
والأديرة القائمة حولها في الحيرة ، فنازعته نفسه أن يشرب في أحد الأديرة ويتزوّد
من خمرها ما يكفيه حتى العودة ، فقال لصاحبه : حُطُّ أَثْقَالَنَا ، وسار الناس
وأقاما ، يقول :

خَرَجْنَا نَبْتَغِي مَكَةَ حُجَّاجًا وَزُورًا
فَلَمَّا شَارَفَ الْجَيْرَ هَادِي جَمْلَى حَارًا
فَقُلْتُ : احْطُطْ بِهَا رَحْلِي وَلَا تَحْفِلْ بَعْنِ سَارَا
فَقَضَّيْنَا لُبَانَاتٍ لَنَا كَانَتْ وَأَوْطَارَا
وَمَا ظَنَّاكَ بِالْحَلْفَا ءِ إِنِّ أَشْعَلْتَهَا نَارَا

(٢) أنبس : همس بكلامه .

(١) الخلس : المختلس .

ويقال إنه تغيّر عقل أبي على البصير قبل موته بقليل ، وكان يثوب إليه عقله ،
فيأسى على نفسه وما أصابه من خرف الشيخوخة ، وفي ذلك يقول :

خبّا مصباحُ عقلِ أبي عليٍّ وكانت تستضيء به العقولُ
إذا الإنسان مات الفهم منه فإن الموت بالباقي قليل
ولعل في كل ما ذكرناه من شعره ما يدل على حذقه حقاً وأنه كان خصب
الذهن . وكان لا يزال يعرض على معاصريه ما يزيدهم به إعجاباً وبشعره
استحساناً .

أحمد^(١) بن أبي طاهر

اسم أبي طاهر طيفور ، وأحمد ابنه رُزق به في بغداد لسنة ٢٠٤ ، وأصل
الأسرة من مَرّو ، ويقال إنها من سلالة ملوك خراسان . أخذ عن علماء بغداد ،
حتى إذا استوى عوده جلس للتعليم في بعض الكتاتيب ، ثم ترك التعليم واحترف
الوراقة ، مما جعله يقرأ كثيراً من مصنفات عصره والعصر السابق له ، وسرعان ما
تحوّل إلى مؤرخ كبير ، كما يشهد بذلك كتابه تاريخ بغداد في أخبار الخلفاء
والأمراء وأيامهم ، وهو أحد المصادر الأساسية التي اعتمد عليها الطبري في تأليف
كتابيه تاريخ الرسل والملوك : أهم مرجع تاريخي للخلفاء حتى أوائل القرن الرابع
الهجري . وله بجانب ذلك كتاب المشور والمنظوم الذي يشتمل على أبرع الرسائل
المدوّنة في العصر . وله كتاب فضائل الورد على النرجس وكأنه صنعه ردّاً على ابن
الرومي وأمثاله ممن كانوا يفضلون النرجس على الورد . وكان يتشيع ، ولكن ليس
لدينا من شعره الشيعي سوى القصيدة التي أشرنا إليها في غير هذا الموضع والتي
رثى بها يحيى بن عمر الطائي المقتول بالكوفة في زمن المستعين . ويبدو أنه
كان إمامياً يأخذ بالتقية ، ولا يجد بأساً في مديح الخلفاء العباسيين ورجال دولتهم ،

٢١١ / ٤ ومعجم الأدباء ٨٧ / ٣ وكتاب
الزهرة لابن داود (انظر الفهرس) وديوان
المعاني ٤٨ / ١ ، ٩٤ والموشح للمرزباني
ص ٣٥١ .

(١) انظر في أخبار أحمد بن أبي طاهر
طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٤١٦ ومروج
الذهب ٦٤ / ٤ والفهرست ص ٢١٥ حيث
ذكر له ثمانية وأربعين كتاباً وتاريخ بغداد

وفتحوا له جميعاً أبوابهم . وربما كان من أهم الأسباب في فتحها كتابه السالف « تاريخ بغداد » الذي أرّخ فيه للدولة وخلفائها . وفتح له كتاب المشور والمنظوم أبواب الأدباء لا في بغداد وحدها ، بل أيضاً في سامراء طوال اتخاذها حاضرة للخلافة . ويجانب تصنيفاته كان شاعراً بارعاً ، ولكن قبل أن نعرض لشعره يحسن أن نقف عند ما قاله بعض معاصريه من أنه « كان مؤدّب ككتّاب عامياً ثم تخصص وجلس في سوق الوراقين في الجانب الشرقي ببغداد ، وليس فيمن شهر بمثل ما شهر به من التصنيف للكتب وقول الشعر أكثر تصنيفاً منه ولا أبلد علماً ولا ألحن ، قال : ولقد أنشدني شعراً يعرضه عليّ في إسحق بن أيوب لحن في بضعة عشر موضعاً منه وكذا قال لي البحترى فيه » . وشهادة البحترى فيه مردودة ، لأنهما كانا يتهاجيان ولا يرضى كل منهما عن صاحبه ، ونفس أبي طاهر — كما في كتاب الموشح للمرزباني — يصف البحترى باللحن في شعره . وبالمثل شهادة هذا المعاصر له مردودة لأنه كان يخاصمه على ما يبدو . وليس في شعره الذي بين أيدينا ما يصور لهذا اللحن ، ونرى معاصريه ومن جاءوا بعدهم يشهدون له بالفصاحة والبلاغة ، فالخطيب البغدادي — ومثله ياقوت — يقولان : « كان أحد البلغاء الشعراء الرواة » . وشعره يشهد ببلاغته ، وأخباره تدل على إعجاب معاصريه به وبشعره . وكان يغدو به ويروح على الوزراء ، فيُسبغون عليه جوائزهم من مثل قوله في أبي الصقر إسماعيل بن بلبل وزير المعتمد يهنئه بأحد أعياد النيروز أوائل الربيع :

أبا الصَّقَرِ لا زالت من الله نعمةٌ تجدُّها الأيامُ عندك والدَّهرُ
ولا زالت الأعيادُ تمضي وتنقضي وتبقى لنا أيامُك الغرُّ الزُّهرُ
فإنك للدنيا جمالٌ وزينةٌ وإنك للأحرار دُخْرٌ هو الدُّخْرُ
رأيت الهدايا كلها دون قدركم وليس بشيء عند مقداركم قَدْرُ
فأهديت من حلّ المديح جواهرًا مفصَّلةً يزهي بها النظم والنثرُ

وكانوا يتقدمون للوزراء وعلية القوم في أعياد النيروز بالهدايا كل حسب قدرته من الجواهر أو من الرياحين ، ورأى ابن أبي طاهر أن خير ما يهديه لإسماعيل بن بلبل عقود أشعاره المرصوفة بالجواهر والآلى . والأبيات قوية جزلة مصقولة ، وتدل

على أن يند شاعر صَنَاع هي التي كتبتها وصاغتها هذه الصياغة المتينة . وأروع من هذه القصيدة، قصيدته في أبي أحمد عبید الله بن عبد الله بن طاهر نائب أخيه محمد في حكم بغداد ، ثم حاكمها بعد وفاته سنة ٢٥٢ ، وهي تلتقى بقصيدة تُروى لابن الرومی سبق أن أنشدنا منها في ص ٣١٠ بعض أبيات . ولعل القصيدتين اختلطتا في أذهان الرواة ؛ ومن قصيدة ابن أبي طاهر في مديح أبي أحمد كما جاءت عند بعض الرواة :

مَنْ لَمْ يَكُنْ حَذِرًا مِنْ حَدِّ صَوْلَتِهِ لَمْ يَدْرِ مَا الْمَرْعِجَانِ : الْخَوْفُ وَالْحَذَرُ
حُلُوٌّ إِذَا أَنْتَ لَمْ تَبْعَثْ مَرَاتِهِ فَإِنْ أَمَرَ فَعَلُوْهُ عِنْدَهُ الصَّبْرُ
سَهْلُ الْخَلَائِقِ إِلَّا أَنَّهُ خَشِنٌ لَيْنُ الْمَهْزَةِ إِلَّا أَنَّهُ حَجَرٌ
إِذَا الرِّجَالُ دَجَّتْ آرَاوَهُمْ وَعَمُّوا بِالْأَمْرِ رُدَّ إِلَيْهِ الرَّأْيُ وَالنَّظَرُ
الْجُودُ مِنْهُ عِيَانٌ لَا ارْتِيَابَ بِهِ إِذْ جُودٌ كُلُّ جَوَادٍ عِنْدَهُ خَيْرٌ

وبلغ من إعجاب القدماء بهذا المديح أن قال بعض أدبائهم : لو استعمل الإنصاف لكان هذا أحسن مدح قاله متقدم ومتأخر . وهي أبيات — إن صحَّ أنها لابن أبي طاهر — تدل على بصير بالشعر وروعة فنونه البديعية ، وله رسالة في سرقات البحري تدل من بعض الوجوه على ثقافته الشعرية ، بل لقد اتسعت دراسته للشعر العربي على نحو ما يصور ذلك كتابه المنظوم والنثور . وقد مضى يُحْكَمُ في القصيدة التقسيم كما في الأبيات الأربعة الأولى ، كما أحكم الطباق والتقابل بين المعاني والألفاظ على نحو ما يتضح في الأبيات الأربعة الثانية . وكان يُحْكَمُ — بجانب المديح — الهجاء اللاذع الذي يلسع كما تلسع الإبر دون فحش من مثل قوله في أبي العيناء الضرير نديم المتوكل والخلفاء ومضحكهم بإجاباته ونوادره :

كُنَّا نَخَافُ مِنَ الزُّمَا نَ عَلَيْكَ إِذْ عَمِيَ الْبَصَرُ
لَمْ نَدْرِ أَنَّكَ بِالْعَمَى تَغْنَى وَيَقْتَرُّ الْبَشَرُ
وكان يتعرض أحياناً للمبرّد ، فيخشى معرفة لسانه ، ويقال إنه استقبله في

يوم صيف شديد الحرارة فأكرمه وبالغ في إكرامه ، فأطعمه غذاء طيباً ، وسقاه بارداً ، وأخذ يباسطه في الحديث ، مؤملاً أن يمتدحه ببعض شعره ، وإذا هو ينشده :

ويوم كحَرِّ الشَّوْقِ فِي صَدْرِ عاشقٍ على أَنه مِنْهُ أَحْرُ وَأَرْمَدُ
ظَلَلْتُ بهِ عِنْدَ الْمَبْرَدِ قَائِلاً فَمَا زِلْتُ فِي أَلْفَاظِهِ أَتَبَرَّدُ^(١)
فَقَالَ لَهُ الْمَبْرَدُ : قَدْ كَانَ يَسْعُكَ إِذَا لَمْ تَحْمَدِ أَنْ لَا تَذِمَ ، وَمَا لَكَ عِنْدِي جَزَاءُ
إِلَّا أَنْ تَتَغَرَّبَ عَنْ عَيْنِي . فَتَرَكَهُ وَهُوَ يَضْحَكُ مِنْ أَثَرِ دُعَابَتِهِ فِي نَفْسِ الْمَبْرَدِ
شَيْخُ الْعَرَبِيَّةِ لَعَصْرِهِ . وَأَنشَدَ لَهُ ابْنُ دَاوُدَ طَائِفَةً كَبِيرَةً مِنْ غَزَلِيَّاتِهِ ، مِنْ مِثْلِ
قَوْلِهِ :

حَبِيبِي حَبِيبُ يَكْتُمُ النَّاسَ أَنَّهُ لَنَا - حِينَ تَرْمِينَا الْعَيُونَ - حَبِيبُ
يَبَاعِدُنِي فِي الْمُلْتَقَى وَفَوَّادُهُ - وَإِنْ هُوَ أَبْدَى لِي الْبَعَادَ - قَرِيبُ
وَيُعْرِضُ عَنِّي وَالْهَوَى مِنْهُ مَقْبَلُ إِذَا خَافَ عَيْنًا أَوْ أَشَارَ رَقِيبُ
فَتَحْرَسُ مِنَّا أَلْسُنُ حِينَ نَلْتَقِي وَتَنْطِقُ مِنَّا أَعْيُنُ وَقَاوِبُ
فَهُمَا يَتَنَاقِرَانِ أَمَامَ النَّاسِ ، وَكُلُّ مِنْهُمَا شَدِيدُ الْكَتْلَفِ وَالْوَلَعِ ، يَتَجَرَّعُ
غَضَصَ الْهَوَى وَآلَامَهُ ، وَلَا يَسْتَطِيعُ الْبُوحَ بِمَا فِي ضَمِيرِهِ ، وَهُمَا لَذَلِكَ يَصْطَلِعَانِ
التَّحْفِظَ وَالْإِحْتِشَامَ ، وَقُلُوبُهُمَا تَحْتَرِقُ وَجَدًّا ، وَقَدْ خَرَسَتْ مِنْهُمَا الْأَلْسُنَةُ وَنَظَقَتْ
الْعَيُونَ بِمَكْنُونِ الضَّمِيرِ . وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يَكْثُرُ مِنَ الْإِخْتِلَافِ إِلَى دَارِهَا وَمَجْلِسِ مَوْلَاهَا
وَلَيْسَ مِنْ رِسَالِ بَيْنِهِ وَبَيْنَهَا سِوَى لُغَةِ الْعَيُونَ ، يَقُولُ :

إِذَا مَا التَّقِينَا وَالْمُشَاةَ بِمَجْلِسٍ فَلَيْسَ لَنَا رُسُلٌ سِوَى الطَّرْفِ بِالطَّرْفِ
فَإِنْ غَفَلَ الْوَاشُونَ فُزْتُ بِنَظَرَةٍ وَإِنْ نَظَرُوا نَحْوِي نَظَرْتُ إِلَى السَّقْفِ
فَهُوَ يَسَارِقُهَا النَّظَرَ وَيَخْتَلِسُ مِنْهَا النَّظْرَةَ فِي الْحَيْنِ بَعْدَ الْحَيْنِ ، حَتَّى لَا يَفْتَضِحَ
أَمْرُهُمَا لِلْوَاشِينَ وَيَجْعَلُهُمْ يَقْفُونَ عَلَى حَبِيبِ الْمَرْأَةِ وَحَبِيبِهَا لَهُ وَأَنَّهَا لَا تَفْرُطُ فِيهِ ، بَلْ
شَدِيدَةُ الْحَرَصِ عَلَيْهِ . وَمَعَ ذَلِكَ يَجْرَى بَيْنَهُمَا حَدِيثُ صَامِتٍ لَا أَوَّلَ لَهُ وَلَا آخِرَ

(١) قَائِلاً : مَسْتَرْحِماً وَقَدْ قِيلَ لَوْلَا ؛ وَهِيَ

عن عذابهما في الحب وما يصطليان من ناره ، على الرغم من الرقباء والوشاة ،
يقول :

عرفتُ بالسَّلام عَيْنَ الرَّقِيبِ وَأَشَارْتُ بِلِحْظِ طَرْفِ مُرِيبِ
وَشَكْتُ لَوْعَةَ النَّوَى بِجَفْوَنِ أَعْرَبْتُ عَنْ ضَمِيرِ قَلْبِ كَثِيبِ
رُبَّ طَرْفٍ يَكُونُ أَفْصَحَ مِنْ لَفْظٍ وَأَبْدَى لِمُضْمَرَاتِ الْقُلُوبِ

فهى تلفته بلحظها الفاتن إلى الرقيب ، وتشكو لوعة النوى وحرقة الحب
بعيونها ، واصلة نظرها الشَّرَرَ إلى الرقيب بنظرها اللين إليه مُعْرَبَةً عن ضميرها
وما يخفى في صدرها من الحب له والكلف به . وهو يحدثها بنفس اللغة ، فيفهم
قلبها عن قلبه وضميرها عن ضميره ، وتبادلها بنفس اللغة أنها على الوفاء له مقيمة ،
يقول :

أَلَا حَظُّهَا خَوْفَ الْمَرَاقِبِ لِحْظَةً فَأَشْكُو بِطَرْفٍ مَا بَقْلَبِي مِنَ الْوَجْدِ
فَتَفْهَمُهُ عَنْ لِحْظٍ عَيْنِي بِقَلْبِهَا فَتَوَمَّى بِطَرْفِ الْعَيْنِ أَنِّي عَلَى الْعَهْدِ
فهما دائماً يتكلمان بلغة الطرف ، لغة بصمت فيها اللسان ، وتنطق القلوب
بما تضمنت من الوجد ولوعاته ، وهما يتغامزان بالنظرات ويتلاحظان ، وكأنما
لا يتكلمان بتلك اللغة الصامته الفصيحة فقط بل يراسلان بها ويتكاتبان
مكاتبات حارة ، يقول :

كُتِبْتُ إِلَى الْحَبِيبِ بِكُسرِ عَيْنِي كِتَابًا لَيْسَ يَقْرَؤُهُ سِوَاهُ
فَأَخْبَرَنِي تَوَرَّدُ وَجَنَّتِيهِ وَكَسَّرُ جَفْوَنِهِ أَنْ قَدْ قَرَأَهُ

ولعل في كثرة رسوم ابن أبي طاهر لهذا الموقف ما يدل على دقة حسه من طرف
وثناء خواطره وأفكاره من طرف آخر ، وفي كثير من هذه الرسوم براعة في التصوير
كما نرى في البيت الأخير ، ومن بديع تصويره قوله في إحدى المحجبات اللاتي
شُغِفَ بهن :

حِجَابٌ فَإِنْ تَبَدُّو فَلِلدَّمْعِ جَوْلَةٌ يَكُونُ لَهُ مِنْ دُونِ رُوَيْتِهَا سِتْرًا

فهو دائماً منها في حجابين ، حجاب حين لا يلقاها . وحجاب من دموعه حين يلقاها ، وكأنها محجبة دائماً ، وراء أستار من الحجاب صفيقة وأستار أخرى رفيقة من الدموع الغزار . ويحدثنا ياقوت نقلاً عن أحد الرواة أنه كان يلمُّ ببعض الأديرة أحياناً في طريقه إلى سامراء أو بعد رجوعه منها ، ويُسشد له خميرة ، ويبدو أن الخمر لم تكن من متاعه إلا في بعض أحوال عارضة . وما زال يُعنى بالتصنيف ونظم الشعر حتى توفي سنة ٢٨٠ للهجرة .

ابن^(١) دريد

هو أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد ، من أزد عُمان ، كانت أسرته على شيء من اليسار ، وقد استوطن أبوه البصرة ، وفيها وُلد له سنة ٢٢٣ وعُنى عمه الحسين بتعليمه فألحقه منذ نعومة أظفاره بالكتاتيب ثم بحلقات العلماء ، وكانت له ذاكرة عجيبة لا يكاد شيء يسمعه يفلت منها ، مما أعدّه لأن يكون من كبار اللغويين في عصره . وقد أكبَّ على محاضرات الرياشي وأبي عثمان الأشجستاني وأبي حاتم السجستاني وغيرهم من علماء البصرة ، فأخذ كل ما عندهم . ولما استباح الزنج البصرة سنة ٢٥٧ ونكّلوا بأهلها تنكيلاً شديداً فرَّ مع عمه الحسين إلى عُمان ووطن قبيلته الأزد ، وظل بها اثني عشر عاماً إلى أن قضى الموفق على ثورة الزنج قضاء نهائياً ، وحينئذ يعود إلى البصرة حين عاد إليها الأمن والسلام . ويظل بها إلى أن يستدعيه عبد الله بن محمد بن ميكال وإلى الأهواز وفارس لتأديب ابنه أبي العباس إسماعيل وتثقيفه . ويلجئ الدعوة ، ويرحب به الوالي ترحيباً عظيماً ، ويقبله ديوان إمارته فارس وتقبل عليه الدنيا إذ تنهال عليه الأموال . وينظم في الوالي وابنه قصيدته الطويلة المشهورة باسم المقصورة ، التي عرضنا لها في حديثنا عن الشعر التعليمي وتطير شهرتها وتتكاثر شروحها ، وتُطبع في عصرنا بشرح التبريزي وبشروح

تاريخ الطبري للهمداني ص ٧٦ والوفاء بالوفيات
لصفدي ٢ / ٣٣٨ وروج الذهب للمسعودي
٤ / ٢٢٩ وطبقات الشافعية ٣ / ١٣٨ والنجوم
الزاهرة ٣ / ٢٤٠ وروضات الجنات ٦٠٥ وقد طبع
ديوانه في القاهرة .

(١) انظر في ترجمة ابن دريد وأشعاره
معجم الشعراء ص ٤٢٥ وتاريخ بغداد ٢ / ١٩٥
وابن خلكان ومعجم الأدباء ١٨ / ١٢٧ ونزهة
الألباء . والفهرست ص ٩٧ وشذرات الذهب
٢ / ٢٨٩ ولسان الميزان ٥ / ١٣٢ وتكملة

أخرى وتكثر تخميساتها على مرّ القرون . وفي أثناء عمله عند ابن ميكال أُلّف
الجمهرة لابنه إسماعيل ، وهي معجم لغوي بدأ فيه على طريقة معجم العين
المنسوب إلى الخليل بالثنائي ثم بالثلاثي ثم بالرباعي ثم بملحقه ثم بالحماسي
والسداسي وملحقاتهما ، وجمعَ النوادر في باب منفرد . أملاها أولاً في فارس ، ثم
أملاها في البصرة ثم في بغداد ولذلك اختلفت نسخها اختلافات كثيرة . وكان من
أهم ما ألّفه لإسماعيل ، كي يحسن العربية ، كتاب الأربعين حديثاً ، قصّ فيه حكايات
عربية قديمة تقوم على الحب غالباً كما تقوم على التاريخ ، ويقول الحُصْرِي
عن هذه الأحاديث إنها هي التي ألهمت بديع الزمان مقاماته ^(١) . ويبدو أنه أُلّف عند
ابني ميكال كثيراً من مصنفاته ، ومما نُشر له منها في عصرنا كتاب الاشتقاق وكتاب
السَّرج واللجام وكتاب صفة السحاب والغيث وكتاب الملاحن ويشتمل على
ألغاز لغوية . وما زال يعيش في رحاب ابني ميكال حتى عزّلا عن فارس ، فانتقل
إلى مسقط رأسه ، ثم تركها إلى بغداد سنة ٣٠٨ وكان صيته وشهرته العلمية سبقاه ،
فاستقبلته بغداد استقبالا حافلا ، وأجرى عليه المقتدر خمسين ديناراً شهرياً إلى
أن توفي سنة ٣٢١ عن نحو ثمانية وتسعين عاماً . وأهم مدائحه وأشعاره مقصودته
التي ذكرناها آنفاً ، وقلم حملناها في حديثنا عن الشعر التعليمي ، ونقف منها
الآن عند مديحه للأمير عبد الله بن محمد بن ميكال وابنه أبي العباس إسماعيل ،
وفيهما يقول :

تلافيا العيش الذي رنَّقَهُ صَرَفُ الزمان فاستساغ وَصَفَا ^(٢)
وأجريا ماء الحيا لي رَغَدَا فاهتزَّ غُصْنِي بعد ما كان ذَوَى ^(٣)
إن ابن ميكال الأمير انتاشني من بعد ما قد كنت كالشيء اللَّقَا ^(٤)
ومدَّ ضَبْعِي أَبُو العباس من بعد انقباض الذَّرْعِ والباع الوَزَى ^(٥)

(٤) انتاشني : تناولني . واللقا : المرى
في عرض الطريق لا يعاب به .

(٥) الضبع : وسط العُضد . ومد ضبعيه :

بسطهما ، كناية عن اتساع حاله . وانقباض

الذرع والباع كناية عن ضيق الحال .

(١) انظر زهر الآداب ١ / ٣٠٧ وكتابنا
الفن ومذاهبه في النثر العربي (طبع دار المعارف -
الطبعة السادسة) ص ٢٤٨ .

(٢) رنقه : كدّره .

(٣) الحيا : الغيث والخصب .

ذاك الذى ما زال يسمو للعلا بفعله حتى علا فوق العلا
لو كان يَرْقَى أَحَدٌ بجوده ومجده إلى السماء لا رَتَقَى
ما إن أتى بحرَ نَدَاهُ مُعْتَفٍ على أَوَارَى عِلْمٍ إِلَّا ارْتَوَى^(١)
نَفْسِي الفِدَاءَ لِأَمِيرٍ ، وَمَنْ تحتَ السماءِ لِأَمِيرِ الفِدا

وطبىعى أن يُعْنَى ابن دريد في هذا المديح بإدماج شئ فيه من الألفاظ الغريبة ،
لأنه أراد بالقصيدة أن تكون متنناً لغوياً ، وتحققت له إرادته ، لا بما وضع فيها
من ألفاظ غريبة فحسب ، بل أيضاً بما حشد فيها من الألفاظ المقصورة . ومع
ذلك فقد استطاع فيها أن يوازن بين ما جمع من الألفاظ الغريبة ولغة الشعر العذبة ،
فاختار لها أسلوباً وسطاً بين الإغراب والسهولة ، كما أشرنا إلى ذلك في غير هذا
الموضع . وهذه الأبيات نفسها تصور هذا المسلك . فهي لا تتعمق في الإغراب ،
بل تظل فيها نضرة الشعر وجماله . وله وراءها مدائح مختلفة لا يغمسها في الغريب
والأفاظه من مثل قوله في أبي أحمد حُجْرُ الجوىمى أحد رجالات فارس النابيين :

حُجْرُ بن أحمد فارغُ الشرف السدى خضعتُ لعزته طُلَى الأعناق^(٢)
انظرُ أنامله فلسنَ أناملاً لكنهن مفاتحُ الأرزاقِ
وانظرُ إلى النور الذى لو أنه للبدر لم يُطْبِعَ برينَ محاقِ^(٣)

وكان يجيد فن الرثاء ، وله مرثية بديعة في عمه الحسين بن دريد الذى تعهد
تربيته ، ومن خير مراثيه مرثية في محمد بن جرير الطبرى علّمَ الدراسات الدينية
والكتابات التاريخية في عصره ، وفيها يقول :

إن المنية لم تُتْلَفْ به رجلاً بل أتلُفَتْ علماً للدين منصوباً
كان الزمان به تصفو شاربه والآن أصبح بالتكدير مَقْطُوباً^(٤)
كلا وأيامه الغرُّ التى جُعِلَتْ للعلم نوراً وللتقوى محاريباً

(١) الندى : الكرم . المعتق : طالب النوال .

(٢) الرين : الأذى . يطبع : يندس .

(٣) مقطوباً : مزوجاً .

(٤) طلى : جمع طلية ، وهى أصل العنق .

وتُنسب له قصيدة في ذكرى الرسول عليه السلام نشك في نسبتها إليه لأن قصائد هذه الذكرى إنما ذاعت وشاعت في عصر متأخر . وله قصيدة طويلة في رثاء الإمام الشافعي ، أو بعبارة أدق في بيان مكانته العلمية الخطيرة ، وفيها يقول :

لرأي ابن إدريس ابن عم محمد ضياء - إذا ما أظلم الخطب - صادع
إذا المعضلات المشكلات تشابهت سما منه نور في دجَاهُنَّ ساطع
أبى الله إلا رفَعَهُ وعلوه وليس لما يُعليه ذو العرش واضع

وهي قصيدة بديعة . وبحق يقول المسعودي إنه كان يذهب في الشعر كل مذهب ، فطوراً يحزل وطوراً يرق ، وطوراً يصبح بدوياً متعمقاً في الفلوات وفي وصف الإبل والخيول ، وطوراً يصبح حضرياً يصف الرياض والزهور ، ومن قوله في الرجس :

عيون ما يلم بها الرقاد ولا يحو محاسنها السهاد
لها حدق من الذهب المصنئ صياغة من يدين له العباد
وأجفان من الدر استفادت ضياء مثله لا يستفاد

ومن تمام هذا الإحساس الحضاري عنده أن نجده يتغزل أحياناً غزلاً رقيقاً ، من مثل قوله واصفاً مدى فتنة الناس بمحبوبته ، حتى كأنهم جميعاً شركاء له في الحب وضنائه :

أعداء من أجلك لا من ضنئ وسائر العواد أشراكي
ولست أشكوك إلى عائد أخاف أن أشكو إلى شاكي

فالناس يزورونه من ضنائه في حب صاحبه لا من ضنا مرض ألم به ، وهو لا يشكو لهم من عذابه في حبها ولا من وصبه فيه ، لأنه يراهم جميعاً مثله ، يعانون ما يعانون من لوعات الحب وآلامه . وكان يتورط في الخمر وإثمها ، كما كان يتملق بالغناء وآلاته ، حتى ليقول بعض معاصريه ممن كانوا يزورونه في شبخوخته إنه كان يستحي مما يرى من الشراب والعيدان المعلقة ، ومن قوله يصف الخمر قبل المزج وبعده :

وحمرء قبل المَرْج صفراء بعده أئت بين ثوبى نرجس وشقائق
حكّت وجنة العشوق صِرْفاً فَسَلَطُوا عليها مزاجاً فاكست لون عاشق
ويقال إنه عرض له في أواخر عمره فالج (شلل) وسقى الدرياق فبرئ ،
ورجع إلى أفضل أحواله وإملائه على تلامذته . ثم مرض به ثانية ، وظل سنتين
توفى في نهايتهما ، وتصادف أن كانت وفاته في نفس اليوم الذى توفى فيه أبوهاشم
الجُبَّائى المتكلم المعتزلى المشهور ، ودُفنا معاً ببغداد في مقبرة الخيزران .

٥

شعراء الهجاء

مرّ بنا في كتاب العصر العباسى الأول أن شعر العصبية القبلية خبت ناره
فيه وخبت معه نار النقائص ، وحل محله شعر شعوبى أحياناً . ولكن الكثرة الكثيرة
كانت هجاءً شخصياً يتعرض للأعراض مزرياً بالمهجوّين محقراً لهم ومهوّناً . ونستطيع
أن نطرد هذا الحكم في العصر العباسى الثانى ، مع ملاحظة أن الشعر الشعوبى خبت
ناره بدوره . ويبدو أن الفرس هم الذين كانوا يمدون تلك النار بوقود جزل ، فلما
ضعف شأنهم في العصر وحل الترك محلهم في السلطان ولم يعد لهم حول ولا قوة خفّت
حدة شعوبيتهم ولم يعد شعراؤهم يتغنون بها إلا نادراً ، وحتى هذا النادر لم تحتفظ
به المصادر إلا قليلاً جداً ، لأنه لم يكن لشعراء نابيين إنما كان لشعراء مغمورين قلما
عنى بهم أحد مثل محمد بن أبان الذى كان يكثر من الافتخار بالعجم^(١) ، ولم يبق
من افتخاره شيء . وبذلك كان الهجاء الشخصى هو اللون العام في العصر ، وسبق
أن لاحظنا في كتاب العصر العباسى الأول أن شعراء أكثروا في هجائهم من
القول الفاحش المقذع في الأمهات والأخوات وظل ذلك في هذا العصر وظل معه
ذكر العورات مما ينبو عن الذوق هو وكل ما يتصل به من بداءة ، لن نقف عندها ،
إنما نقف عند الهجاء غير البذى ، وكانت نيرانه مضطربة طوال العصر ، فالشعراء

(١) معجم الشعراء ص ٣٧٩ .

يسارعون إليه كلما حجبهم وزير أو قصر في عطائهم ، وكذلك كلما لقيهم قائد أو وال أو كاتب أو شخص نابه أو عالم لقاء غير حميد . وكثيراً ما كانت تجربتهم المنافسة إلى الدخول في معارك هجاء حامية الوطيس . ومراً بنا في غير هذا الموضع ، ما قيل عن البحترى من أنه هجا كثيراً من ممدوحيه ، وبالغ بعض القدماء فقالوا إنه هجا نحواً من أربعين رئيساً ممن مدحهم ، منهم خليفتان هما المنتصر والمستعين ، وساق بعدهما الوزراء ورؤساء القواد ومن جرى مجراهم من جلة الكتاب والعمال ووجوه القضاة والكبراء^(١) . وإذا صحح هذا عن البحترى الذى كانت تفتش له الأبواب الموصدة ، وكان يمشى — بفضل جوائز الكثرة — في موكب من عبيده فضلاً عما كان يملك من الضياع فإن كثيرين غيره تورطوا في الهجاء للرؤساء بأكثر من تورطه . ومراً في حديثنا عن ابن الروى إكثاره من الهجاء ونفوذه فيه إلى لون من التصوير الهزلى الساخر يكبر فيه عيوب المهجوين الجسدية والمعنوية . وابن الروى والبحترى أكبر شعراء العصر ، وعلى غرارهما كان الشعراء جميعاً يستهمون في هذا الفن ، وكثيراً ما كانوا يخصصون به الوزراء حين يحرمونهم الجائزة ، ولن ينفع الوزير عندهم أن يكون ممدحاً ، بل لعل ذلك أدعى إلى أن يسلط عليه الشاعر سهام هجائه ، من مثل قول دندن في عبيد الله بن يحيى بن خاقان وزير المتوكل وكتابه ابن يزداد^(٢) :

وإن ابن يزداد لأحولُ حُولُ ولكنه يَقْرَأ (إذا الشمس كَوَّرت)
فقلْ لعبيد الله أَحْيَيْتْ دولتى مكاسير زَمْنِي (عُطِلَّت) فتَحِيرْتِ
وَأَنْتِ - إِذَا مُيِّزَتْ - أَبْلَدُ مِنْهُمْ فَصَوْتَكُمْ : حَى الْمَنَازِلَ أَفْقَرْتِ

ومجئته بالآية القرآنية وكلمة (عُطِلَّت) الواردين في سورة التكوين يريد أن يشير بذلك إلى خراب الدولة ، لأن السورة في وصف نهاية العالم وما يكون بعد ذلك من البعث والنشور . وكان الشعراء كثيراً ما يتعرضون لأحمد بن إسرائيل وزير المعتز بالهجاء من مثل قول محمد بن مكرم^(٣) :

(٣) معجم الشعراء ص ٣٩٧ .

(١) الموشع للبرزبانى ص ٣٣٦ .

(٢) معجم الشعراء ص ٣٩٦ .

إِنْ زَمَانًا أَنْتَ مُسْتَوَزِرٌ فِيهِ زَمَانٌ عَسِيرٌ أَنْكَدُ
يَذِمُّكَ النَّاسُ جَمِيعًا فَمَا يَلْقَاكَ مِنْهُمْ أَحَدٌ يَحْمَدُ

ولما انتكست الوزارة في عصر المقتدر وكثرت الرشوة وعم الفساد في الحكم وعم معه الظلم كما عمت مصادرة الأموال ، توالى على الوزارة اثنا عشر وزيراً ، ومنهم من تولى الوزارة مرتين وثلاثاً ، وكل وزير يصادر الذى قبله ويعمل كل ما فى وسعه لينهب أكثر ما يمكن من أموال الدولة ، لما حدث كل هذا الانتكاس لأداة الحكم كثر هجاء الوزراء من مثل قول بعضهم فى هجاء الخاقانى الوزير ^(١) :

للدواوين - مذ وليت - عويلٌ ولمال الخراج سقمٌ طويلٌ
يتلقى الخطوبَ حين أَلَمْتُ منك رأى غثٌ وعقلٌ ضئيلٌ
إِنْ سَمَنْتُمْ مِنَ الْخِيَانَةِ وَالْجَوْرِ فَلِلْإِرْتِفَاعِ جِسْمٌ نَحِيلٌ

وكان الخاقانى معروفاً بسوء السيرة والتدبير ، وأخذ الرشوة ممن يولّيههم الأعمال ، ولذلك كثرت فى أيامه الولاية والعزل ، وكأن الدولة أصبحت دولة لصوص وقطاع طرق . ومن هؤلاء اللصوص وقطاع الطرق ابن البريدى الوزير بأخرة من العصر وفيه يقول أبو الفرج الأصبهاني من قصيدة طويلة ^(٢) :

يا سماء اسْقُطِي وَيَا أَرْضِ مِيدِي قَدْ تَوَلَّى الْوِزَارَةَ ابْنُ الْبَرِيدِي
هَذَا رَكْنُ الْإِسْلَامِ وَانْتَهَكَ الْمَلَكَ وَمَحَّتْ ^(٣) آثَارَهُ فَهُوَ مُودِي
فَاسْتَهْلَى يَا عَيْنُ بِالْذَّمِّ سَحًّا وَقَلِيلٌ أَنْ تَذَرْفِي وَتَجُودِي

ومرّ بنا آنفاً أن المنافسة بين الشعراء كثيراً ما دفعتهم إلى التهاجى ، ومن تعرّضوا له بالهجاء كثيراً مروان بن أبى الجنب شاعر المتوكل ، إذ كانوا ينفسون عليه الجوائز الطائلة التى كان يخصّه بها المتوكل ، حتى من كانت تصلهم منه جوائز مماثلة ، وكأنه تحاسد أهل الحرفة الواحدة ، على نحو ما حدث بينه وبين على بن

(٣) محت : درست .

(١) الفخرى ص ١٩٨ .

(٢) تكملة تاريخ الطبرى للهمدانى ص ١١٣ .

الجهنم ، وكان أكثر توقراً منه في هجائه ، إذ لم يكن يُسِفُ فيه إلى ذكر الأعراض .
ويتهاجى مع أبى نعمة الدقيقى ، ويكويه بمثل قوله فى نعت شعره ^(١) :

رَأَيْنَا الْبَرْدَ مُشْتَدًّا فَسَاءَ لَنَا عَنْ الْقِصَّةِ
فَقَالُوا مُنْشِدٌ يُنْشِدُ شِعْرَ ابْنِ أَبِي حَفْصَةَ

وكان أبو نعمة كما مرَّ بنا شيعياً وكان خبيث اللسان ، فقصر شعره على هجاء القواد ورؤساء الدولة فى أيام المتوكل ورماهم بأشنع القبايح ، وهو هجاء كانت بواعثه سياسية . وكانوا ربما يهجون بالترندق والانحراف عن الدين والإلحاد من مثل قول الجسمَّاز فى الجاحظ ^(٢) :

يَا فَتَى نَفْسُهُ إِلَى مِلَّةِ الْكُفْرِ تَائِقَةٌ
لَكَ فِي الْفَضْلِ وَالتَّزْهِدِ لِـ وَالتُّسْكِ سَابِقُهُ
فَدَعِ الْكُفْرَ جَانِبًا يَا دَعِيَّ الزِّنَادِقَةَ

وهو كذب وبهتان على الجاحظ أحد المحامين عن الإسلام فى عصره المدافعين المناضلين ، ولكنه الهجاء يصمُّ الناس بوصمات كاذبة افتراء وبهتاناً . ومن مثل هذا الافتراء والبهتان قول شاعر فى محمد بن يزيد المبرِّد العالم النحوى المشهور ^(٣) :

سَأَلْنَا عَنْ ثُمَالَةَ كُلِّ حَيٍّ فَقَالَ الْقَائِلُونَ وَمَنْ ثُمَالَةُ
فَقُلْتُ مُحَمَّدُ بْنُ يَزِيدٍ مِنْهُمْ فَقَالُوا زِدْنَا بِهِمْ جَهَالَةَ

وثُمالة هى عشيرة المبرِّد ، والبيتان يحملان تحقيراً شديداً وتهويماً بعيداً للمبرِّد وأنه خامل الذكر، وكان قد طبَّقَ آفاق البلاد العربية شهرة فى عصره وقصده الطلاب من كل بلد يحملون عنه علمه . وبلغ من شيوع الهجاء حينئذ وانتشاره فى كل الأوساط أن المرأة شاركت فيه ، وكان لها قديماً مشاركة فى رثاء أهلها وندبهم والتفجع عليهم والنواح ، وكذلك كان لها مشاركة فى الغزل والتعبير عن عواطف الحب ومشاعره ، حتى إذا كان هذا العصر رأيناها تضيف إلى هذين الموضوعين مشاركة فى الهجاء من

(٣) ديوان المعانى ١/ ١٧٨ .

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٩٢ .

(٢) معجم الشعراء ص ٣٧٥ .

مثل قول الخنساء جارية هشام المكفوف في أبي الشبل الشاعر الماكن ، تهوّن من رجولته طاعةً له في الصميم^(١) :

ما ينقضي عجبى ولا فكري من نعيّة تكنى أبا الشبل
لما اكتنيت لنا أبا الشبل ووصفت ذا النقصان بالفضل
كادت تميد الأرض من جزع وترى السماء تذوب كالمهل

وهي تصوره متمرداً على حقيقته ، فهو من النعاج ويزعم أنه من الآساد ، وكأنما الدنيا انقلبت صورها وأوشكت على الزوال ، فالأرض تميد جزعاً ، وكأن يوم القيامة حل مواعده ، فالسما تذوب كالمهل أو الزيت المغلي . ولعل من الخير أن نعرض ثلاثة من كبار الهجائيين في العصرهم الصيمري والحمدوني وابن بسّام .

الصيمري^(٢)

هو أبو العنّيس محمد بن إسحق ، أصله من الكوفة ، وتولى القضاء بالصيمرية فنُسب إليها ، وهي نهر بالبصرة عليه قرى وبلد وزروع ، قدم سامراً في عصر المتوكل فقرّبه منه واتخذته نديماً له ، لما كان يمتاز به من الفكاهة والتندير ، وكأنما أتيح له مبكراً أن يفرغ للتأليف ، إذ روى له ابن النديم في الفهرست طائفة كبيرة من المصنفات ، ونجد بينها ما يتصل بالمنادمة ، ككتب الأطعمة وكتاب الجوابات المسكتة . وكان عالماً بالنجوم ، وله فيها كتابان . ولم يكن يجمع بين الهزل والعلم ، فقط ، فقد كان يضيف إليهما الشعر ، ويقولون إنه كان خبيث اللسان ، هاجى أكثر شعراء زمانه ، ومع ذلك لم يصلنا من هجائه إلا أشعار قليلة من مثل قوله في إبراهيم بن المدبر ، وكان قد تولى الولايات الكثيرة وترأس بعض الدواوين ، في سامراء وبغداد :

ومروج الذهب ٤ / ٩ ومعجم الأدباء ١٧ / ٨
والنجوم الزاهرة ٣ / ٧٤ والواقى بالوفيات
١٩١ / ٢ .

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٤٢٥ .
(٢) انظر في الصيمري وأخباره وأشعاره
كتاب الأغاني (طبعة السامي) ١٨ / ١٧٣
والفهرست ص ٢٢٢ وتاريخ بغداد ١ / ٢٣٨

أَسْلُ الذي عَطَفَ المُوا كَبَ بالأَعْنَةِ نَحْوَ بابِكْ
وَأَذَلَّ مَوْقَى العَزِيدِ زَ عَلَى وَقُوفِي فِي رِحَابِكْ
وَأَرَاكَ نَفْسَكَ مَالِكا مَالِمَ يَكُنْ لَكَ فِي حِسَابِكْ
أَلَّا يُطِيلَ تَجَرُّعِي غُصَصَ المَنِيَّةِ مِنْ حِجَابِكْ

وله خبر طويل مع البحرى هجاء فيه وسخر منه سخرية مرة ، إذ حدث الرواة أنه كان من عادة البحرى إذا أنشد المتوكل شعره أن يتشادق ويتزاور في مشيه مرة متقدماً ومرة متأخراً ويهز رأسه مرة ومنكبيه مرة أخرى ويشير بكمه ويقف عند كل بيت ويقول : أحسنت والله ، ثم يقبل على المتوكل ومن في مجلسه فيقول : مالكم لا تقولون أحسنت ؟ هذا والله ما لا يحسن أحد أن يقول مثله . وكان المتوكل يضمجر من ذلك ، فأقبل على الصيمرى والبحرى ينشداه ملحنته فيه :

عن أَيْ ثَغْرِ تَبْتَسِمُ وَبِأَى طَرْفٍ تَحْتَكُمُ

وقال له : أما تسمع ما يقول ؟ فقال له الصيمرى : بَلَمَى . فمُرَّتْ فِيهِ بِمَا أَحْبَبْتَ . فقال : اهْجُجْهُ عَلَى هَذَا الرَّوِّ ، فحضرته على البديهة قصيدة هجاء طويلة من نفس الوزن والقافية ، وفيها يقول :

يَا بُحْتَرِي حَذَارَ وَيْ لَكَ مِنْ قُضَاقِضَةٍ ضَغْمٌ (١)
فَبِأَى عِرْضٍ تَعْتَصِمُ وَبِهْتَكَةٍ جَفَّ الْقَلَمُ
وَلَقَدْ أَسْلَتَ بِوَالِدِي لَكَ مِنَ الْهَجَا سَيْلَ الْعَرَمِ
يَا بَنَ الثَّقِيلَةِ وَالثَّقِي لَ عَلَى قُلُوبِ دَوَى النِّعَمِ

ومضى يُفْشِحُ فِي الْقَصِيدَةِ وَيُقْنَدِعُ فِيهَا إِقْدَاعًا قَبِيحًا . وَلَا رَيْبَ فِي أَنَّ نَظْمَهُ قَصِيدَةٌ طَوِيلَةٌ بِهَذَا النَّمطِ عَلَى الْبَدِيعَةِ يَدُلُّ عَلَى شَاعَرِيَّةٍ قَوِيَّةٍ . وَظَلَّ خَفِيفًا عَلَى قُلُوبِ الْخُلَفَاءِ . يَسْلُكُونَهُ فِي نَدَمَائِهِمْ حَتَّى عَصَرَ الْمُعْتَمِدُ : أَوْ بَعْبَارَةً أُخْرَى حَتَّى تَوَفَّى فِي عَصْرِ هَذَا الْخَلِيفَةِ لِسَنَةِ ٢٧٥ . وَهُوَ يَهْجُو طَبَاخَهُ الْمُسَمَّى صَالِحًا :

(١) القضاقة : الأسد . ضم : مفترس .

يا طيبَ أياي بمعشوقِ ونحن في بُعدٍ من السُّوقِ
إذا طلبت الخبز من فارس ينفخ لي صالحٌ بالبوقِ

وله بجانب أهاجيه مدائح لبعض الوزراء ورؤساء الدواوين ، وما احتفظت له المصادر به قطعة في مديح الحسن بن مخلد وزير المعتمد حين كان يتولى ديوان الضياع للمتوكل ، وهي تطرد على هذا النمط :

زارني بدرٌ على غُصْنٍ قابلاً وَصَلِيَّ يَقْبَلُنِي
خلته لما أتى حُلُمًا وهو رُوحِي رُدٌّ في بدني
إن لي عن مثله شُغْلًا بمقال الشعر في الحسنِ
وأبيه مخلدٌ فَبِهْ قد لبسنا سابغ المِنَنِ
كاتبٌ قَلَّ النُّظِيرُ له فاضلٌ في العلم واللِّسَنِ

وشعره يسيل غدوبة ، وكأنما كان يقول أكثره ارتجالاً : فلا تكلف فيه ولا تعمِّلْ ، ومع ذلك لا نجد فيه هلهلة في النسيج ، إنما نجد المتانة التي تجعله سائغاً في الآذان والأسماع . وله بعض نظرات وتأملات جيدة من مثل قوله :

كم مريضٍ قد عاش من بعد يأسٍ بعد موت الطبيب والعوادِ
قد يُصاد القَطَلُ فينجو سليماً ويحلُّ القضاء بالصيادِ

وهي فكرة دقيقة ، فقد يعيش المريض الميتوس من شفائه المبكى عليه من محبيه وأودائه ، ويموت الطبيب الصحيح المعافي . وبالمثل قد يصاد طائر ، ويخطف الموت صائده ، بينما تُردّ له حرите ويعود إلى رفوفته في الهواء طليقاً .

(١) الحمدوني

اسمه إسماعيل بن إبراهيم الحمدوني ، جَدُّهُ حَمْدٌ وَبَنُوهُ صاحب الزنادقة لعهد الرشيد الذي كان يتعقبهم ويأمر بحبسهم أو محاكمتهم ، ونجد أبنائه وأحفاده في أواخر العصر العباسي الأول وفي هذا العصر يخدمون الخلفاء ويتخذونهم ندماء لهم . وعُرف إبراهيم أبو إسماعيل بأنه كان ينادم المعتصم ثم الواثق ثم المتوكل ، وكان ابنه أحمد على غراره نديماً للمتوكل ثم للمستعين . ولا نشك في أن إسماعيل كان على شاكلة أخيه وأبيه ينادم الخلفاء ، وكل شيء فيه كان يُعِدُّه لهذه المناذمة ، إذ كان فكهماً خفيف الروح ، وكان شاعراً . وصاحب قصص وأخبار ونوادر مضحكة ، واتجه بشعره إلى الهجاء ، ولكن أي هجاء ؟ الهجاء الذي يَلْسَعُ لَسْعُ الإبر من مثل قوله في سعيد بن حميد حين ولي رئاسة ديوان الرسائل سنة ٢٤٩ ساخرًا منه ومن ملابسه الديوانية الجديدة :

لبس السيفَ سعيدٌ بعد ما عاش ذا طُمُرٍ لا نوبةَ له
إن لله لآياتٍ وذا آيةَ لله فينا مُنزَلَةٌ

فقد جرَّده من كل استحقاق للوظيفة وزَيَّها والسيف الذي كان يتقلده من يشغلها لعصره ، فهو خلو من كل كفاءة ، حتى ليعد تعيينه فيها معجزة لله لا يعلم سرها سواه . وكان سعيد ممن أتقنوا فن الكتابة لعصره وبلغوا فيه شأواً بعيداً . ومن هجائه اللاذع قوله في بَغِيض :

سألتك بالله إلا صدقتَ وعلمي بأنك لا تصدقُ
أتُبَغِضُ نفسك من بُغضها وإلا فأنت إذن أَحَقُّ

لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة
٢/ ٢٩٨ و ٣/ ٢٤ ، ٥٥ / ٣٤٣ و ٧ / ٢٨٧
وديوان المغانى ١ / ٢٧٨ وزهر الآداب
٢٣٣ م وما بعدها

(١) انظر في الحمدوني وأخباره وأشعاره
طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٢٧١ وفوات
الوفيات ١ / ٢٤ والأغاني ١٢ / ٦١ وترجمة
أخيه أحمد في معجم الأدباء ٢ / ٢١٧ وتاريخ
الطبرى ٩ / ٢٦٤ والمقد الفريد (طبعة

فهو خَلِيقُ بَأَن يَشْتَرِكُ مَعَ مَبْغُضِيهِ فِي بَغْضِ نَفْسِهِ ، وَكَأَنَّمَا أَصْبَحَ تَمَثَالًا لِلْبَغْضِ
الْكُرْبِيِّ ، لَا عِنْدَ النَّاسِ فَحْسَبٌ ، بَلْ أَهَمُّ مِنْ ذَلِكَ عِنْدَ نَفْسِهِ . وَيَا وَيْلَ مَنْ كَانَ
يَسْلُطُ عَلَيْهِ سَهَامُ هِجَائِهِ ، فَإِنَّهُ كَانَ مَا يَنْبَغِي يُرْسَلُهَا عَلَيْهِ . وَحَدَّثَ أَنَّ مَدْمُوحَهُ
أَحْمَدَ بْنَ حَرْبٍ الْمَهْلَبِيَّ الَّذِي طَالَمَا دَبَّحَ فِيهِ مَدَائِحَهُ وَهَبَ لَهُ طَيْلَسَانًا أَخْضَرَ
لَمْ يَرْضَهُ ، فَضَيَّ يَنْظُمُ فِي طَيْلَسَانِهِ مَقْطُوعَاتٍ ، وَكَلَّمَا فَرَّغَ مِنْ مَقْطُوعَةٍ نَظَّمَ مَقْطُوعَةً
جَدِيدَةً حَتَّى أَكْمَلَهَا خَمْسِينَ مَقْطُوعَةً طَارَتْ عَلَى أَلْسِنَةِ الْأَدْبَاءِ وَالنَّاسِ فِي عَصْرِهِ كُلِّ
مَطَارٍ مِنْهَا :

يَا بْنَ حَرْبٍ كَسَوْتَنِي طَيْلَسَانًا مَلٌّ مِنْ صَحْبَةِ الزَّمَانِ وَصَدَا
إِنْ تَنَفَّسْتُ فِيهِ يَنْشَقُّ شَقًّا أَوْ تَنَحَنَحْتُ فِيهِ يَنْقَدُّ قَدًّا
طَالَ تَرْدَادُهُ إِلَى الرَّفْوِ حَتَّى لَوْ بَعَثْنَاهُ وَحْدَهُ لَتَهَدَّى

وَأَلْذَعُ الْأَبْيَاتِ الْبَيْتَ الْأَخِيرَ : بَلْ كُلُّهَا لَادْعَةٌ . فَالطَّيْلَسَانُ أَكَلَ الدَّهْرَ عَلَيْهِ
وَشَرِبَ ، حَتَّى لَكَأَنَّمَا مَلٌّ صَحْبَةُ الدَّهْرِ ، فَقَدْ آتَى لَهُ أَنْ يَسْلَى وَيَسْتَرِيحَ ، وَإِنْ
أَيُّ حَرَكَةٍ فِيهِ لَتَمَزَّقَهُ إِرْبًا ، وَكُلُّ يَوْمٍ يَنْخَرِقُ فِيهِ خَرْقٌ وَيَذْهَبُ بِهِ إِلَى دُكَّانِ
الرَّفَاءِ ، حَتَّى لَوْ بَعَثَ بِهِ إِلَيْهِ لَعَرَفَ الطَّرِيقَ مِنْ طُولِ تَرْدَادِ سِيرِهِ فِيهِ . وَتَنَوَّعَ
هِجَاؤُهُ لِهَذَا الطَّيْلَسَانِ الْقَدِيمِ الْبَالِي ، فَهُوَ تَارَةٌ يَضُمُّنَهُ بَعْضُ أَلْفَاظِ قِرَائِيَّةٍ مِنْ مِثْلِ
قَوْلِهِ :

طَيْلَسَانُ لَا بِنَ حَرْبٍ جَاعَنِي خَلْعَةٌ فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ
فَإِذَا مَا الرِّيحُ هَبَّتْ نَحْوَهُ طَيْرَتُهُ كَالْجَرَادِ الْمُنْتَشِرِ

وقوله :

فِيمَا كَسَانِيهِ ابْنُ حَرْبٍ مُعْتَبِرٌ فَانْظُرْ إِلَيْهِ فَإِنَّهُ إِحْدَى الْكُبَرِ
قَدْ كَانَ أَبْيَضَ ثُمَّ مَا زِلْنَا بِهِ نَرْفُوهُ حَتَّى اسْوَدَّ مِنْ صَدَا الْإِبْرِ

وتتوالى ألفاظ القرآن في الأبيات كما هو واضح في ألفاظ : (في يوم نحس مستمر) و (كالجراد المنتشر) و (إحدى الكبر) ، وكان يعرف كيف يضع اللفظة والآية القرآنية في مكانها السوي . وتارة كان يضمّن هذا الهجاء بعض أبيات شعرية من مثل قوله :

وهبتَ لنا ابن حربٍ طيلَسَاناً يزيد المرءُ ذا الضَّعةِ اتِّضاعاً
ولستَ أشكُّ أنْ قد كان قِدماً لنوحٍ في سفينتهِ شِراعاً
وقد غَنَيْتُ إذ أبصرتُ منه جوانبه على بدني تداعى
« قفى قبل التفرُّق يا ضُباعاً ولا يك موقفٌ منك الوداعا »

وسخرية مرة أن يزعم أن هذا الطيلسان العتيق كان شراعاً لسفينة نوح في أغتق الأزمنة ، وصوّر نفسه ملثاعاً إزاء تداعيه على جسده نفس لوعة القطامي التي اشتعلت في صدره عند فراقه لصاحبه « ضُباعة » . وقطع كثيرة كان يتغنى في نهايتها بأبيات على شاكله بيت القطامي تصور أساه ، ودائماً يعرف كيف يختارها ، مما جعل القدماء يقولون إنه كان يحسن التضمين في شعره سواء لأبيات الشعر أو للألفاظ والآيات القرآنية . ومرّ بنا في غير هذا الموضع أن سعيد بن أحمد بن خوسنداذ أهداه شاة هزيلة فضى يكثر من نظم مقطوعات كثيرة في تلك الشاة مصوراً هزلاً وبؤساً ، صانعاً نفس ما صنعه بهجاء طيلسان ابن حرب من التضمين لأبيات الشعر المشهورة في الغزل والحب ، من مثل قوله :

مَرَّتْ على عَلفٍ فقامتْ لم تَسِرْ عنه وَغَنَتْ والمدامعُ تَسْجُمُ
« وقف الهوى بي حيث أنتِ فليس لي متأخراً عنه ولا متقدماً »

والبيت الثاني من قطعة في الغزل مشهورة لأبي الشيص كان يعجب بها معاصره أبو نواس إعجاباً شديداً . وعلى الرغم مما كانت منادمة الخلفاء توفره له من أموال كان يدعى الحاجة وأنه مقتّر عليه في الرزق ، وله يشكو ضيق عيشه ، بينما غيره موسّع له في الرزق ينعم بأسباب الترف والنعيم :

مَنْ كَانَ فِي الدُّنْيَا لَهُ شَارَةٌ فنحن من نَظَّارَةِ الدُّنْيَا
نَرْمَقُهَا مِنْ كُتُبِ حَسْرَةٍ كَأَنَّا لَفْظٌ بِلَا مَعْنَى

وله قصيدة رواها ابن عبد ربه في العقد الفريد نظمها معارضة للامية تأبط
شراً المشهورة ، وفيها يتحدث عن حبه وفترته وعزمه ومضائه وبأسه وشجاعته من
مثل قوله :

هُوَ سَيْفٌ غِمْدُهُ بُرْدَتَاهُ يَنْتَضِيهِ الْحَزْمُ حِينَ يُسَلُّ
لَا يَشْكُ السَّمْعُ حِينَ يَرَاهُ أَنَّهُ بِالْيَدِ سَمْعٌ أَزَلٌ ^(١)

وألفاظه في القصيدة وقوافيه تلتقي مع قوافي تأبط شراً وألفاظه ، وكأنما قصد إلى
ذلك قصداً يريد تضمين قصيدته نفس كلماته . وله في الغزل قطع تصور حبه
واوعته فيه وظمأه إلى رؤية محبوبته وما قد يصلاه من عذاب الهجر ونيرانه ، وله في
وصف طروق طيف الخيال في المنام قطعة جيدة يقول في تضاعيفها :

وَصَلَ الْحَلْمُ بَيْنَنَا بَعْدَ هَجْرٍ فَاجْتَمَعْنَا وَنَحْنُ مَفْتَرِقَانِ
وَكَأَنَّ الْأَرْوَاحَ خَافَتْ رَقِيباً فَطَوَتْ سِرَّهَا عَنِ الْأَبْدَانِ

ولعل في كل ما قدمنا ما يصور خصب شاعريته . ومن أكبر الدلالة على ذلك
القطع الكثيرة التي أنشدها في هجاء شاة سعيد وطيلسان ابن حرب ، وكأنه كان
يستمد من نبع لا ينضب رصيده .

(١) السمع : الذئب . الأزل : المتولد بين
ذئب وضع

هو على بن محمد بن نصر بن منصور بن بسام ، من بيت كتابة وأدب ، كان جده نصر يتولى دواوين الخاتم والنفقات والأزمنة في أيام المعتصم وهو من ممدوحى أبي تمام ، بينما كان أبوه محمد من ممدوحى البحتري . ويقول المسعودي إنه كان مترفاً حسن الزى ظاهر المروءة مشغولاً بالبناء ، ويرى عن بعض معاصريه ما يصور بذخه في بناء داره وفي ثيابه وطعامه وشرابه . وكان قد تزوج أمامة بنت حمدون النديم ، والحديث عن بني حمدون في المصادر مضطرب ، ويبدو أنها كانت أخت إسماعيل المترجم له آنفاً ، ومنها أنجب ابنه علياً ، وقد عني بتربيته أبوه ، حتى أصبح شاعراً ، وحتى أصبح التأليف إحدى هواياته . ويروى له ابن النديم ومترجموه كتباً مختلفة عن عمر بن أبي ربيعة والأحوص ومناقضات الشعراء ، ويذكرون له ديوان رسائل ، مما يدل على أنه كان كاتباً كما كان شاعراً . ونراه يتجه منذ نشأته بشعره نحو الهجاء ، وقد يكون لحاله الحمد في أثر في ذلك . وكان شيعياً ، وربما كان لتشيعه أثر في ذلك أيضاً ، فقد كان الشيعة ناقلين على الدولة والناس انصرافهم عنهم ، بل كانت نقيمتهم على الدولة أشد وأدهى ، للزج بهم في السجون وتقتيلهم ، وكأنما اتخذ الهجاء سلاحاً له ضد الخلفاء والمجتمع ويبدو أن أباه كان موالياً للعباسيين ، ولعل هذا هو السر في كثرة أهاجيه له ، حتى عدّ في العققة الذين لا يبرون آباءهم بل يحدون فضلهم ، وله في أبيه أهاج كثيرة من مثل قوله فيه وكان يكنى أبا جعفر :

بَنَى أَبُو جَعْفَرٍ دَارًا فَشَيْدَهَا وَمِثْلُهُ لَخِيَارِ الدُّورِ بِنَاءُ
فَالْجُوعَ دَاخِلَهَا وَالذُّلَّ خَارِجَهَا وَفِي جَوَانِبِهَا بُؤْسٌ وَضَرَاءُ

وكانت قصرًا عظيمًا يدور من حوله بستان وتلمع أمامه بركة ويموج بالغلزلان والطيور البهيجة الألوان . ويتمادى في هجائه له حتى ليقول فيه وفي داره أيضًا :

وما يليها وذيل زهر الآداب ص ١٨٠ وديوان
المعاني ٢٣ / ٢ ، ٢٣٤ والنجوم الزاهرة
١٨٩ / ٣

(١) انظر في ابن بسام وأخباره وأشعاره
الفهرست ص ٢٢٠ ومعجم الشعراء ص ١٥٤
وتاريخ بغداد ٢ / ٦٣ ومروج الذهب للمسعودي
٣٠٦ / ٤ وما بعدها وزهر الآداب ٨٧ / ٣

شَدَّتْ دَارًا خِلَتَهَا مَكْرُمَةً سَلَطَ اللَّهُ عَلَيْهَا الْعَرَقَا
وَأَرَانِيكَ صَرِيحًا وَسَطَهَا وَأَرَانِيهَا صَعِيدًا زَلَقَا^(١)

صورة سيئة من العقوق أن يتلقى من أبيه الحياة ، فلا يشعر بأن له عليه ديناً إذ منحه الوجود وقام على تربيته ، بل لكأنما جَنَنِي عليه جناية لا تغتفر ، ولا يمكن أن يزيلها عن نفسه ويمسح أوضارها عن جسده إلا اللعنات يصبها على أبيه . ومضى يصبها على الخلفاء والوزراء والكتّاب وكبار رجال الدولة غير هيّاب ولا وجل ، بل لكأنما كان يبحث عن ينقم منه ويطير به طيرة بطيئاً سقوطها . وكان من أوائل من تعرض لهم بالهجاء الموفق صاحب البلاء العظيم في حروب الزنج والصفار ، ونراه ينظم فيه وفي ولاته ووزرائه وموظفيه قصيدة يستهلها بقوله :

أَبْرِجُو الْمَوْفِقُ نَصَرَ الْإِلَهَ وَأَمْرُ الْعَبَادِ إِلَى دَانِيهِ

ويأخذ في هجاء ولاته من مثل الطائي أمير البصرة وإسحق بن عمران أمير الكوفة ووزرائه من مثل إسماعيل بن بلبل ، وصاعد بن مخلد وكان نصرانياً وأسلم واستورزه الموفق ، ويصيح :

فخَلَّ الزَّمَانُ لَأَوْغَادِهِ إِلَى لَعْنَةِ اللَّهِ وَالْهََاوِيهِ

ويُظَلِّهُ عصر المعتضد المعروف بجبروته وأنه كان يلقى الأسد وحده وأنه إذا غضب على قائد أمر أن تُحْفَرَ له حَفِيرَةٌ وَيُلْقَى فِيهَا وَتُطْمَ عَلَيْهِ ، ومع ذلك نراه لا يخاف بطشه ولا يخشى بأسه . إذ نراه يتعرض له بالهجاء ، وتارة يقدح فيه وتارة يخز وخز الإبر من مثل قوله في احتفاله بختان ابنه المقتدر :

انصرفت الناس من خَتَانٍ يَرْعُونَ مِنْ جُوعِهِمْ خَزَايَ^(٢)

فقلت لا تعجبوا لهذا فهكذا تُخْتَنُ الْيَتَامَى

وهو يصفه بالبخل الشديد وأن احتفاله بهذا الختان كان بائساً ، حتى لكأنما هو خِتَانُ بعض اليتامى الذين لا يجدون من يتيح لهم احتفالاً عظيماً بختانهم .

(١) صعيداً زلقاً : أرضاً ملساء . (٢) الخزاي : من أزهار البادية

وزراه يكثر من هجاء إسماعيل بن بلبل ، على نحو ما أكثر من هجاء صاعد ابن مخلد ، وفيه يقول :

سجدنا للقرود رجاء دنيا حوتها دوننا أيدي القرود
فما نالت أناملنا لشيء عملناه سوى ذل السجود

وكان نصيب عبيد الله بن سليمان بن وهب وزير الموفق وأخيه الخليفة المعتمد من أهاجيه كبيراً ، تارة يصفه بخلط الرأى ، وتارة يهدده بسوء المصير . وزراه ينتهز فرصة وفاة ابنه الحسن فيهجو ابنه القاسم ، مادحاً للحسن حتى يملأ نفس القاسم غيظاً وحنقاً إذ يقول :

قل لأبي القاسم المرجى قابلك الدهر بالعجائب
مات لك ابنٌ وكان زيناً وعاش ذو الشين والمعائب
حياة هذا كموت هذا فلست تخلو من المصائب

ولاكت الألسنة البيت الأخير وسمعه المعتضد فنصح وزيره القاسم أن يوظفه في عمل وأن يبرّه ويصله حتى يكفّ عن هجائه ، فولّاه بريد الصيّمرة وما والاها ، وقيل بل ولاه بريد قنسرين والعواصم ، وبقي في عمله إلى آخر أيام المعتضد ، ويبدو أن العباس بن الحسن وزير المكتفي رأى الاستغناء عنه ، ولعله لذلك أكثر من هجائه ، ومرّ بنا بعض هذا الهجاء في حديثنا عن نشاط الشعر ، وفيه يقول :

تحمل أوزار البرية كلّها وزيرٌ بظلم العالمين يُجاهرُ

واتخذ من شعره سياطاً يلهب بها ظهور ابن الفرات والحقاقى وزيرى المقتدر وله في الأخير أهاج كثيرة تصور خياناته لأموال الأمة وما كان يدفع إليه الناس من تقديم الرشوة في كل عمل يحققه لهم ، وسبق أن عرضنا بعض هذا الهجاء في حديثنا عن فساد الحكم حيثئذ . وكانت له مناقضات مع الشعراء يقصد بها إلى الدعابة ، ومرّ بنا في حديثنا عن ابن المعتز أنه نظم فيه مقطوعة دالية داعبه فيها واصفاً ثقله ، ونرى ابن بسام يردّ عليه بقوله على نفس طريقتة :

فقدتُك يا قَدْأَةً في شرابٍ دخلتُ من الدناءة كلَّ بابٍ
وأثقلُ — حين تبدو — من رقيبٍ وأكذبُ — حين تنطقُ — من سرابٍ
وأعذرُ للصديق من اللبائى وأنكى للقلوب من العتاب

وكان يناقض جحظة البرمكى كثيراً . وكان على غراره كثير الهجاء ، وكان قبيح الحلقة تقتحمه العيون ، وصوّر ذلك ابن بسام عابثاً به وبقبحه ، إذ يشكره على إقباله عليه بدابته وانصرافه عنه بوجهه الذميم ، يقول :

لِجَحْظَةِ المحسنِ عندى يدٌ أشكرها منه إلى المحشرِ
لما أرانى وجهه برذونه وصاننى عن وجهه المنكر

وعلى هذا النحو لم يسلم من هجاء ابن بسام خليفة ولا وزير ولا أمير ولا صغير ولا كبير ، بل لم يسلم منه أبوه وأهل بيته . وله وراء هذا الهجاء مديح لبعض الوزراء مثل ابن مقبله ونعت لبعض الأزهار مثل النرجس ، وله فى الزهد وفناء الحياة أبيات طريفة تجرى على هذا النمط :

أَقْصَرْتُ عن طلب البطالة والصِّبا لما علانى للمَشِيبِ قِناعُ
لِللهِ أيامُ الشباب ولهوهُ لو أن أيامَ الشباب تُباعُ
فَدَعَ الصِّبا يا قلبُ واسلُ عن الهوى ما فىك بعد مشيبك استمتاعُ
وانظرُ إلى الدنيا بعين مودِّعٍ فلقد دنا سَفَرٌ وحن وداعُ
والحادثاتُ موكِّلاتٌ بالفتى والناسُ بعد الحادثات سماعُ

والأبيات تصوّره قد وخطّه الشيب وأخذ يفكر فى غده ويستعدّ لمصيره ، بعد تلك الرحلة الطويلة التى كان يجاهد فيها مجتمعه بأهاجيه حتى وفاته سنة ٣٠٣ للهجرة . ومن المؤكد أن أهاجيه تصور العصر فى صورة أدق من تلك التى يصورها المديح ، وأن الحياة فيه لم تكن صافية ولا رائقة ، بل كانت كدرة قائمة ، اختلست فيها الموازين والقيم اختلالاً شديداً .

الفضل السابع

طوائف من الشعراء

١

شعراء الغزل وشاعرائه

ظل تسيّر الغزل حاداً في العصر ، وظل الشعراء ومن كان ينسطق به من الجوّاري ينظمونه ، مضيفين فيه كثيراً من الخواطر والمعاني ، ويخيّل إلى الإنسان كأن كل من شدّأ بالشعر نظم فيه ، مصوراً ألواناً من هذا الحب الذي كان يستأثر بالنفوس ويملك عليها من أمرها كل شيء . وكانوا ينظمونه في نفس الاتجاهين اللذين عرضنا لهما في العصر العباسي الأول ، ونقصدا اتجاه الغزل الصريح واتجاه الغزل العفيف ، وكان الاتجاه الأول هو الغالب على الشعراء ، بسبب كثرة الإماء ودور النخاسين التي كانت تزخر بالجوّاري من كل جنس : روميات وفارسيات وغير فارسيات وروميات . ويصور الجاحظ في رسالته الخاصة بالقيان مدى ما كنّ يشبعن في جوّ بغداد من التحلل الخلقي ، فكان طبيعياً أن تنشق سوق الغزل المادى ، وخاصة أن القيان والجوّاري كنّ يكثرن من التغنى به على إيقاعات الطبول والآلات الموسيقية ، فسعّرن قلوب الشعراء شباباً وكهولاً ، ولم يعودوا يستطيعون أن يردّوا أنفسهم إلى شيء من القصد ، فقد أخذ الحب الصريح يثور في نفوسهم وأخذوا يعبرون عنه تعبيراً صريحاً حرّاً ، بل حارّاً له حرارة الحمى . وظل اتجاه الغزل العفيف النقي الطاهر حياً بجانب هذا الاتجاه ، وكانت تمدّه أسراب كثيرة من غزل العذريين في العصر الأموي ومن غزل من ساروا في دروبهم من شعراء العصر العباسي الأول أمثال العباس بن الأحنف ، غزل له حمماً ولكن بشوره لا تظهر على الجسد ، غزل قوى حار ، لا يعرف المتاع المادى ولا اقتطاف زهرات الحب وثماره ، إنما يعرف ناره المحرقة كما يعرف الحرمان والشقاء به ، مهما أمّل صاحبه ومهما استعطف ومهما تضرّع ، فليس

هناك إلا العذاب وإلا تجرّع الغصص واحتمال الأهوال والآلام ، ولا مشفق ولا رحيم .

وعلى هذا النحو ظل الغزل الصريح يجوار الغزل العفيف ، يَحْيِيّ معه هذه الحياة التي تضيف إليه خصباً فوق خصب ، إذ كان الغزلون الماديون يستمدون دائماً من مخازن الغزل العفيف كثيراً من المعاني التي تصور لوعات الحب وعذابه . ولن نستطيع أن نعرض طرائف الذوعين . فقد مرت من ذلك لحظة ، إنما يكفي أن نذكر شيوعهما على ألسنة الناس جميعاً من خلفاء ووزراء وولاة وكتّاب ورجال ونساء ، مكتفين ببعض النماذج والأمثلة . وأكبر شاعر بين الخلفاء — وإن لم تبق خلافته سوى يوم وإيلة — هو ابن المعتز . ومرّ بنا حديث مفصّل عنه . وكان عمه المنتصر شاعراً . وله قطع مختلفة في الحب ، كان يطرحها على المغنين ويوقعونها على آلات الطرب ، وفي مقدمتهم مغنيه بسان . ومما غنّاه به قوله ^(١) :

رأيتك في المنام أقلُّ بُخلاً وأطوع منك في غير المنام
ولو أن النعاس يُباع ببيعاً لأغليت النعاس على الأنام

وكان أشعر منه الخليفة الراضى ، وكان له ديوان شعر سقط من يد الزمن ، وروى له الصولى في كتابه : « أخبار الراضى بالله والمتقى بالله » طائفة كبيرة من أشعاره . وله قطعة تداولتها الكتب في ترجمته وهى فى وصف جارية مغنية كان يُغَنِّينُ بها ، وتجرى على هذا النمط ^(٢) :

قد أفصحت بالوتر الأعجم وأفهمت من كان لم يفهم
جارية تحب من لطفها مخاطباً ينطق لا من فهم
جست من العود مجارى الهوى جس الأطباء مجارى الدم

وكثير من الوزراء كانوا شعراء ، ومعروف أنهم كانوا يُخْتَارُونَ من صفوة كتّاب الدواوين . وكان كثير منهم يسيل الشعر على لسانه ، فيعبر به عن عواطفه

ومشاعره وأهوائه ، وطبيعي أن يوقد الحب في نفوسهم الجذوة التي طالما أوقدها في نفوس المحبين ، فإذا هم ينظمون قطعاً من الأبيات يسجلون بها بعض خواطرهم ، من مثل قول الفتح بن خاقان وزير المتوكل (١) :

أيها العاشقُ المعذَّبُ صَبِراً فخطايا أخى الهوى مغفورة
زفرةً في الهوى أحطُ للذنبِ من غزاةٍ وجِبةٍ مبرورة

وكان سليمان بن وهب وزير المهتدي يحسن الشعر ونظمه ، وله في الأغاني ترجمة طويلة ومثله القاسم حفيده وزير المعتضد كان يصوغ بعض خواطره شعراً ، وروى له المرزباني مقطوعات متعددة في الحب من مثل قوله (٢) :

كثيبٌ حزينٌ واكفُ الدَّمعِ هاملُهُ نخوَّنه من آجلِ البَيْنِ عاجِلُهُ
جريحٌ صُدودٍ قد أضربَ به الهوى ورقٌ له عوَّادُهُ وعَوَّاذِلُهُ

واشتهر بعض كبار رجال الدولة من الولاة ورؤساء الدواوين ممن كانوا يحسنون الشعر بحب عفيف كان يختلأ أفئدتهم ويستأثر بكل ما فيهم من عواطف ومشاعر ، وفي مقدمتهم إبراهيم بن المدبر وسعيد بن حميد وعبيد الله بن عبد الله بن طاهر ، وقد تولى إبراهيم - كما مرَّ بنا - ولايات مختلفة منها ولاية البصرة ورأس بعض الدواوين التي كان يعمل بها منذ زمن المتوكل وكان يهوى عريب ولهما أخبار كثيرة ساقها أبو الفرج الأصبهاني في ترجمته لكل منهما (٣) . كما ساق كثيراً مما كان بينهما من المعاتبات والمحاورات ، ومن قوله فيها (٤) :

زعموا أني أحب عريباً صدقوا والله حُباً عجيباً
حلَّ من قلبي هواها محلاً لم تدع فيه لخلي نصيباً
هي شمسُ والنساءِ نجومٌ فإذا لاحت أفلنَ غيوباً

وهو في هذه الأبيات يصريح بأنه لا يشرك معها جارية في حبه وهيامه ، ولكن

(١) معجم الشعراء ص ١٩١ .

(٢) معجم الشعراء ص ٢٢٠ .

(٣) أغاني (طبعة الساسي) ١٨ / ١٧٥ ،

١١٤ / ١٩ .

(٤) أغاني ١٩ / ١٢٤ .

يبدو أنه كان يشرك معها من حين إلى حين أخريات ، كن يأسرنه بجمالهن وفتنتهن
وما يزرعن في القلوب من الهوى مثل جارية تسمى نبثا ، كانت من الجوارى القيان ،
وفيها يقول (١) :

نَبَثُ إِذَا سَكْتَتْ كَانَ السَّكُوتُ لَهَا زَيْنًا وَإِنْ نَطَقَتْ فَالْدُرُّ يَنْتَشِرُ
وَإِنَّمَا أَقْصَدْتُ قَلْبِي بِمَقْلَتِهَا مَا كَانَ سَهْمٌ وَلَا قَوْسٌ وَلَا وَتَرٌ

وكان سعيد بن حميد يعمل في الدواوين ، وأسندت إليه رئاسة ديوان الإنشاء
في عهد المستعين ، واشتهر بتبادله الحب مع فضل الشاعرة ، وسنعرض في ترجمتها
لما كان بينهما من محاورات شعرية طريفة ، وله فيها غزل كثير بديع من مثل قوله
يشكو السهاد وطول الليل (٢) :

يَا لَيْلُ بَلْ يَا أَبَدُ أَنَا نَائِمٌ عَنْكَ غَدُ
يَا لَيْلُ لَوْ تَلَقَى الَّذِي أَلْقَى بِهَا أَوْ تَجِدُ
قَصْرٌ مِنْ طَوْلِكَ أَوْ ضَعْفٌ مِنْكَ الْجَلْدُ
أَشْكُو إِلَى ظَالِمَةٍ تَشْكُو الَّذِي لَا تَجِدُ
وَقَفْتُ عَلَيْهَا نَاضِرٌ وَقَفْتُ عَلَيْهِ السُّهْدُ

وعُرف عبيد الله بن عبد الله بن طاهر حاكم بغداد بأن قينة تسمى شاجي
شَغَفَتْ قلبه حبًّا ، فنظم فيها شعراً كثيراً ، وتزوجها وظل يهيم بها ويشملها
بحبه وعطفه وحنانه ويكلف بها كلفاً شديداً ، كما كان يكلف بها قبل زواجه وفي
شبابه ، وإلى ذلك يشير بقوله (٣) :

زَرَعْتُ وَشَاجِي بَيْنَنَا فِي شَبِيبَتِي غِرَاسَ الْهَوَى فَاعْتَمَّ بِالشَّمْرِ الْعَذْبِ
وَمَاتَ قَبْلَهُ ، فَظَلَّ يَبْكِيهَا بَكَاءَ مَرًّا ، جَازِعًا عَلَيْهَا جَزَعًا لَمْ يَرِ مِثْلَهُ ، وَظَلَّ
يُزُورُ قَبْرَهَا وَهُوَ يَنْوَحُ عَلَيْهَا وَيَتَفَجَّعُ بِمِثْلِ قَوْلِهِ (٤) :

(٣) كتاب الديارات ص ١١١ .

(٤) الأغاني (طبعة السامى) ٤٣/٨ .

(١) أغاني ١١٧/١٩ وأقصدت : جرحت .

(٢) المختار من شعر بشار ص ١٨ .

يَمِيناً بَأْنَى لَوْ بُلَيْتُ بِفَقْدِهَا وَبَى نَبْضِ عِرْقٍ لِلْحَيَاةِ وَلِلنَّكْسِ
لَأَوْشَكْتُ قَتْلَ النَّفْسِ عِنْدَ فِرَاقِهَا وَلَكِنَّهَا مَاتَتْ وَقَدْ ذَهَبَتْ نَفْسِي

وكثير من الجوارى فى العصر كن ينظمن الشعر ويحسن نظمها ، وكُنَّ -
كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع - يكتبن أبياتاً منه على طُرْهَن وعصائبهن وجوانب
ثيابهن ، فيوقدن الحب فى قلوب الرجال ويشعلنه إشعالا . ونرى ابن المعتز يفرّد
لمجموعة منهن صحفاً فى كتابه طبقات الشعراء المحدثين ، ويذكر بينهن عريب
وفضلاً الشاعرة ، والخنساء جارية هشام المكفوف . ومن الجوارى اللاتى
كن يحسن الشعر إحساناً بعيداً محبوبة جارية المتوكل ، وكانت قد أدّبت
وتُفقت ، وتمرّنت على قول الشعر حتى أحسنته . وكانت تلحّنه وتغنى به على العود .
وكانت تحلُّ من قلب المتوكل محلاً رفيعاً ، ويروى أنه غاضبها ذات يوم ، ولم
يلبث قلبه أن نازعه إليها ، فاقترب من حجرتها ، فإذا هى تضرب على عود وتغنى
على ضرْبها مصوِّرة لوعتها من خصامه ومغاضبته وأنها لا تطيق الصبر عن
لِقائه (١) :

أدور فى القصر لا أرى أحداً أشكو إليه ولا يكلمنى
حتى كأتى أتيت معصيةً ليس لها توبةً تخلّصنى
فمن شفيح لنا إلى ملكٍ قد زارنى فى الكرى وصالحنى
حتى إذا ما الصباح عاد لنا عاد إلى هجره وقاطعنى

فصنق المتوكل طرباً ، ودخل إليها ، وتصالحا . ويروى أنه رأى ذات يوم
جارية من جواريه كتبت على خدها بالمسك اسمه : « جعفرًا » . فأعجبه ذلك وتنى
لو صور ذلك شاعر من شعرائه : البحترى أو على بن الجهم أو مروان بن
أبى الجنوب ، وبادرت محبوبة ممسكة بعودها ، وتغنّت (٢) :

وكتابةً فى الخدِّ بالمسك جعفرًا بنفسى محطّ المسك من حيث أثرّا

(٢) مروج الذهب ٤٢/٤ .

(١) مروج الذهب ٤٣/٤ والأغانى (طبعة
السامى) ١٣٤/١٩ .

لئن أودعت خطأ من المسك خدّها لقد أودعت قلبي من الوجد أسطراً
 فيا من لملوك يظلّ ملكه مطيعاً له فيما أسرّ وأظهرها
 وهى من أبيات قالتها على البديهة مما يدل على شاعرية جيدة . وكانت محبوبة
 وأضرابها يتطارحن مع الشعراء خواطرهن الرقيقة ، وليس من ريب فى أنهم علمن
 على أن يعبر الشعراء فى الحب عن حسن دقيق وذوق مرهف . ونعرض بالتفصيل
 ثلاثة : شاعرين وشاعرة اشتهروا بكثرة ما نظموا من الغزل فى العصر ، وهم خالد
 ابن يزيد الكاتب ، ومحمد بن داود ، وفضل .

خالد^(١) بن يزيد الكاتب

كان أحد كتّاب الجيش ، وأصله من خراسان ، وليس بين أيدينا عنه أخبار
 كثيرة ، وأول ما يلقانا من أخباره أنه كان على ديوان النفقات فى الجيش الذى
 خرج بقيادة على بن هشام أحد قواد المأمون للقضاء على فتنة بمدينة « قم » الفارسية
 وفى الطريق بلغ عليّاً أنه شاعر فأحضره وأنس به واتخذة فى ندمائه . ولما وزر
 الفضل بن خالد للمعتصم قَرَّبَه منه ، حتى إذا أخذ المعتصم فى بناء سامراً بادر
 خالد ينظم مقطوعة يشيد فيها بالخليفة وبناء تلك المدينة العظيمة ، ونقلها الفضل
 إلى المعتصم فسُرَّ بها ، وأمر لخالد بخمسة آلاف درهم . وينظم فيه وفى المدينة
 أشعاراً أخرى ويغنى المغنون المعتصم بها ، وينثر على خالد جوائزه . وظل قريباً
 منه ومن وزيره محمد بن عبد الملك الزيات . ولا نقرأ له أشعاراً فى مديح الخلفاء فى
 العصر مع أنه عاصر منهم المتوكل والمنتصر والمستعين والمعتز والمهتدى والمعتمد ،
 إذ يقال إنه توفى سنة ٢٦٢ وقيل بل سنة ٢٦٩ . ويقول مترجموه إنه قصر نفسه
 على الغزل فكان لا ينظم إلا فيه ، ولا يُعَسِّنِي بمديح ولا هجاء ، ومع ذلك نجد له
 بعض الهجاء القليل فى بعض منافسيه من الشعراء ، غير أنه لم يبرز فيه
 فأنصرف عنه ، وقصر نفسه على الغزل ، ويقال إنه وسوس واختلط عقله

(انظر الفهرس) ومعجم الأدباء ٤٧ / ١١
 والنجوم الزاهرة ٣ / ٣٦ وله ديوان مخطوط
 بالمكتبة العمومية بدمشق

(١) انظر فى ترجمة خالد وأشعاره الأغاني (طبعة
 السامى) ٢١ / ٣١ وطبقات الشعراء لابن المعتز
 ص ٤٠٥ وتاريخ بغداد ٨ / ٣٠٨ والديارات

في أواخر حياته . ويُجمع من ترجموا له على أنه لم يكن يتجاوز في الغزل أربعة أبيات ، وكأنه كان يرى الزيادة عنها فضلا ، ويقول ابن المعتز : شعره حسن جداً ، وليس لأحد من رقيق الغزل ماله ، وينشد من غزله قوله :

وَضَعَ الدُمُوعَ مَوَاضِعَ الْحُزْنِ حَيَّ السَّهَادَ وَمَيَّتَ الْجَفْنِ
عَبْرَاتُهُ نَطَقَتْ بِمَا ضَمِنَتْ أَحْشَاؤُهُ وَلِسَانُهُ يَكْنِي
فِي كُلِّ جَارِحَةٍ لَهُ مُثَلٌّ تَبْكِي عَلَى قَلْبٍ لَهُ رَهْنٌ
لَمْ يَنْدِرْ إِلَّا حِينَ أَسْلَمَهُ قَدَرٌ لِلْحِظَةِ وَاحِدِ الْحُسْنِ

والأبيات فيها دقة في التفكير وفيها خيال بعيد ، وتعبيره بميت الجفن تعبير غريب ، ومثله في الحسن تعبيره عن الجوارح بأن لها مقلاً تبكي على قلبه الذي رهنته منه صاحبه ، وأيضاً تعبيره عن صاحبه بأنها واحدة الحسن ، وكأنه كان يحاول أن يأتي بأفكار مبتكرة ، من مثل قوله :

كَيْفَ خَانَتْ عَيْنُ الرَّقِيبِ الرَّقِيَا أَخْطَأْتَنِي لَمَّا رَأَيْتُ الْحَبِيَا
رَحِمْتَنِي فَسَاعَدْتَنِي فَقَبَّلْتُ تُ بَعْنِي مَعَ الْحَبِيبِ الرَّقِيَا

فهو لا يشكو من الرقيب على عادة الشعراء ، فالرقيب قد رحمه وساعده ، وقلب الشكوى المنتظرة شكراً ، وإذا كان الشعراء ألبوا بالليل ووصف استطائته شاكين من ذلك متبرمين فإنه يعترف بأن ليل المحبين دائماً طويل لسهادهم المستمر ، يقول :

رَقِدْتَ وَلَمْ تَرْتِ لِلْسَّاهِرِ وَلَيْلُ الْمَحَبِّ بَلَا آخِرِ
وَلَمْ تَنْدُرْ بَعْدَ ذَهَابِ الرِّقَا دِ مَا صَنَعَ الدَّمْعُ بِالنَّظَرِ

وهو ليس سهاداً فحسب ، بل هو سهاد ودموع وإحساس عميق بظلام لا ينتهي ، وصاحبه بجانبه ولا تدرى ما يعاني من عذاب الحب المبرح ، وهو يتجرع غصص حبه محتملاً مقاوماً ، والصباح كأنما ضل طريقه ، فعم الكون ليل لا آخر له ، ومن قوله :

قد استعار الحسن من وجهه والغصن الناعم من قدّه
وقد تعاتبنا بأبصارنا فيما جناه الخلف من وعده
حتى تجارحنا بتكرارنا للحظ في قلبي وفي خدّه
فأدرك الثار وأدركته وسرّني بالصدّ عن صدّه

فمنها يستعير الحسن جماله والغصن قدّه وقوامه ، وهما يتعاتبان عتاباً رقيقاً ،
ويكرران النظر ، وكأنما يؤلم طرفه خدّه صاحبه ويترك فيه أثراً من طول تكراره ،
أما طرفها فيؤلم قلبه بما يرسله من سهامه التي تجرحه في الصميم . وكأنما كل منهما
ظفر من صاحبه بثأره ، ولكن شتان ما بين الثارين : ثار يجرح الحدود وثأر يجرح
القلوب . ويختم الأبيات بفكرة طريفة إذ يقول إنها صدّت عن الصد وانصرفت
عن الهجر . وكان يلمّ أحياناً ببعض الأديرة أو يفضي إلى تعاظم بعض كنوس
الخمير ، أو لعله كان يذكر ذلك على سبيل الدعابة ، وكان يمزج هذا الحديث
بغزله على عادته ، فالغزل دائماً مبتغاه من شعره على نحو ما نرى في قوله :

رأت منه عيني منظرين كما رأت من البدر والشمس المضئّة بالأرض
عشيّة حيّاتي بوردي كأنّه خدودٌ أضيفتُ بعضهن إلى بعض
وناولني كأساً كأنّ رُضابها دموعي لما صدّ عن مقلتي غمضي
وولّي وفعل السُّكر في حركاته من الراح نعل الرّيح بالغصن الغصّ

وتشبيه الورود المجتمعة بخدود المحبين ، وقد تلاصقت وسرى فيهم الخجل ،
نوّه به القدماء طويلاً ، وهذه الكأس التي ناوّلها صاحبه كأس المحبين التي طالما شربوا
منها لا الخمر وإنما الدموع ، دموعهم التي لا تجف والتي ماتني تسقط فتمتلئ
منها كنوسهم التي لا يعرف الناس أتملئ شراباً أم ناراً . وله :

إذا كنت في كلّ بكلك مُفرغاً فأى مكانٍ من مكانك اللفظ
فمنّي إذا ما غبت في كل مفصلٍ من الشوق داعٍ كلما غبت يهتف
فهما روحان في جسد ، وهو يحس فراغاً لا حدّ له إذا غابت عنه ، وكأن كل

جزء فيه يفقد تمامه ، فهو ما يني يهتف بها حتى يستكمل وجوده ، فقد غاب نصفه وهويتبه ، ويتبعه قلبه من ورائه ؛ قلبه الممزق مثل مفاصله ، ومثل كبده الجريح ، يقول :

كبدٌ شَفَّها غليلُ التَّصَابِي بين عَتَبٍ وَسَخَطَةٍ وَعَذَابِ
كلُّ يومٍ تَدْمَى بجرحٍ من الشو قِ ونوعٍ مجدِّدٍ من عذابِ
ياسقِيمَ الجفونَ أَسْقَمَتَ جِسْمِي فاشْفِنِي كيف شئت ، لابلِك ماني

فهو يَصَلِّي نيران العتاب والسخط ، وكل يوم يتجدد جرحه ويتجدد عذابه ، وقد أعداه مريض الجفون ولكن لا في جفونه وإنما في جسمه بما أصابه به من نحول وذبول وهزال وضنأ . ومن أرق الدعاء قوله في آخر الأبيات : « لا بك ماني » . وتدور له في كتب الأدب أبيات مفردة تروع بخفتها وطرافة فكرتها من مثل قوله :

كيف تُرَجِّي لذاعة الإغماض لمريضٍ من العيون المراضِ
وقوله :

ليت ما أصبح من رَقَّة خَدَّيك بقلبك
وقوله :

وبكى العاذلُ من رَحْمَتِي فبكائي لبُكا العاذلِ

ولعل في كل ما أسلفنا ما يدل أوضح الدلالة على صدق كلمة ابن المعتز عنه من أنه يبلغ الغاية في رقة الغزل . وجعله ذلك مألفاً لكثير من معاصريه أمثال علي بن المعتصم . وكان كثيرون يدعونه إلى مجالسهم ليسمعوا منه غزله ويطرحوه على المغنين والمغنيات ، ليكمل الأنس والطرب ، ونحس دائماً أنه ظامئ إلى لقاء محبوبته ، ويقال إنه فعلاً أحب جارية في مطالع حياته ، ولم يستطع لقاءها وقد ظل ظامئاً إلى هذا اللقاء حتى مماته .

محمد^(١) بن داود الظاهري

أبوه داود بن علي بن خلف الأصفهاني مؤسس المذهب الظاهري في الفقه ، أصله من الكوفة ودرس ببغداد ، واعتنق مذهب الإمام الشافعي ، ومضى يجتهد حتى استطاع أن يؤسس له في الفقه مذهباً مستقلاً عن المذاهب الأربعة : المذهب الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي . وقد أقامه على رفض القياس والرأي والتقليد للأئمة المذكورين واشتقَّ الأحكام الفقهية من ظاهر الكتاب والسنة . ولذلك سُمي مذهبه باسم المذهب الظاهري . وعُني بتربية ابنه محمد . وبدأ من ذلك بتحفيظه القرآن ، ويقال إنه حفظه وله سبع سنوات . ثم دفعه إلى التأدب على ثعلب الإمام اللغوي والنحوي المشهور ، وهو يروى في كتاب الزهرة كثيراً من الأشعار عنه . ولزم حلقة أبيه وتمثَّل مذهبه ولما توفي سنة ٢٧٠ كان لا يجاوز السادسة عشرة من سنه ، فعلمه على رئاسة المذهب ، ومضى يحاور ويجادل فيه العلماء وخاصة ابن سريج إمام المذهب الشافعي في عصره . وكانت حلقة تدريسه تغصُّ بالطلاب ، وله مصنفات مختلفة في المذهب الظاهري . ومن أهم مصنفاته كتاب الزهرة الذي عُني نيكل وإبراهيم طوقان بنشر جزئه الأول . والكتاب كله مائة باب جعلها في جزئين خصَّ الأول منهما بالحلب العذري العفيف ، وهو يتضمن خمسين باباً في كل باب مائة بيت من الشعر . وبالمثل أبواب الجزء الثاني الخمسون . فكل منها يشتمل على مائة بيت . وأهمها ما دار في تعظيم أمر الله عز وجل والتنبيه على نعمة وقدرته والتحذير من سطوته . ويهمننا في حديثنا عن الغزل الجزء الأول ، وهو في الأبواب الأولى منه يتحدث عن أسباب الهوى ، ثم يتاوها بأحواله من الفراق والشوق ويخصُّ الأبواب الأخيرة بالحديث عن الوفاء ، وعادة يضع للباب عنواناً مسجوعاً مثل « من كثرت لحظاته دامت حشرات » و « ليس بلبيب من لم يصف ما به لطيب » و « التذلل للحبيب من شيم الأديب » . وهي عناوين غير مضبوطة ،

وطبقات الشافعية للسبكي في ترجمة ابن سريج ٢٣/٣ وما بعدها ، وطبع له الجزء الأول من كتاب الزهرة ببيروت .

(١) انظر في حياة ابن داود وأشعاره تاريخ بغداد ٢٥٦/٥ ومروج الذهب للمعصدي ٢٠٥/٤ وابن خلكان والوافي بالوفيات للصفدي ٥٨/٣ ومرآة الجنان لليافعي ٢٢٨/٢

وبالمثل ما يليها من الأشعار، ولاحظ هو نفسه ذلك فقال إنه اضطُرَّ لأن يضيف إلى البيت المتصل بموضوع الأبيات أبياتاً أخرى حتى لا يكون مبتوراً . والأبيات أو قل الشواهد في الأبواب تمتد على طول الزمن من العصر الجاهلي حتى عصره . وقد بدأ بتأليف الكتاب في حياة أبيه وهو لا يزال حداثاً ، وفي ذلك يقول : « بدأت بعمل كتاب الزهرة وأنا في الكتّاب ونظر في أكثره » . وكان فطناً ذكياً نافذ البصيرة كما كان شاعراً . ويُروى أن شخصاً سأله في حلقته عن حد السكر متى هو؟ ومتى يكون الإنسان سكران؟ فأجابه : إذا عزبت عنه الهموم : وباح بسرّه المكتوم . وفي هذه الإجابة ما يدل على أنه كان ظريفاً . ويُروى أيضاً أن رجلاً جاء إلى حلقته فدفع إليه ورقة ، فأخذها وتأمّلها طويلاً ، وظن تلامذته أنها مسألة فقهية ، وقلّبها وكتب في ظهرها الإجابة ، فراجعوها . وخاصة حين عرفوا أن الرجل هو ابن الرومي الشاعر المشهور ، وإذا في الرقعة مكتوب :

يا بن داود يا فقيه العراق أفْتِنَا في قِوَاتِلِ الْأَحْدَاقِ

هل عليهن في الجروح قصاصٌ أم مباحٌ لها دُمُ العِشَاقِ

وإذا الجواب :

كيف يفتيكم قتيلاً صريعٌ بسهامِ الفراقِ والإشتِاقِ

وقتيلاً التّلاقِ أحسنُ حالا عند داودَ من قتيْلِ الفراقِ

ويقال إنه كان يهوى فتى من أصبهان يقال له محمد بن جامع الصيدلاني العطار وكان طاهراً في هواه . فهو إن صح كان هوى نقيّاً . أو قل إنه كان تعلقاً أوشك أن يكون هوى أو ظنه الناس هــوى . وكان ترجماناً للهوى العذرى في عصره كما كان مؤلفاً فيه ، إذ صنّف في أشعاره الجزء الأول من كتابه الزهرة كما أسلفنا . وله فيه أشعار كثيرة يعزوها أو ينسبها إلى أهل عصره كما لاحظ ذلك المسعودي . من مثل قوله :

ع كبدى من خيفة البينِ لوعةً يكاد لها قاي أسمى يتصدّع

يخاف وقوعَ البينِ والشمْلُ جامعٌ فيكى بعينِ دمعُها متسرّع

فلو كان مسروراً بما هو واقعٌ كما هو محزونٌ بما يتوقع
لكان سواءً برؤيه وسقامه ولكن وشك البين أدهى وأوجع

وهو يشكو من لوعات الحب التي تكاد تنزق قلبه حسرات . وهو يخاف
البين قبل وقوعه ، فيبكي بدموع غزار ، فما باله والبين يوشك أن يقع ؟ إنه يضمن في
البكاء ويضمن في الابتلاع ويضمن في الألم والعذاب ، ومن قوله :

تمتّع من حبيبك بالوداعِ إلى وقت السرور بالاجتماعِ
فكم جربتُ من وصلٍ وهجرٍ ومن حال ارتفاعٍ وانخفاضِ
وكم كأسٍ أَمَرَّ من المنايا شربتُ فلم يَضِقْ عنها ذِراعى
ولم أَرِ في الذى لا قيتُ شيئاً أَمَرَّ من الفراقِ بلا وداعِ
تعالى الله كلّ مواصلاتٍ وإن طالتْ تزول إلى انقطاعِ

وهو يدعو إلى ألا يشكو الحب من الفراق لحظة الوداع التي طالما عصرت قلوب المحبين ،
ويقول إنها ليست آخر لحظة يلتقي فيها الحبيب ، فستأتي بعدها لحظات لقاء ،
وهكذا الحب أحوال من وصل وفراق ولقاء وهجر . ويقول كم شرب من الحب
كنوساً مرة أَمَرَّ من الموت ، فتحملها صابراً . وليس أَمَرَّ من الفراق بلا وداع
ولا سلام ولا حتى تحية من بعيد ، فإن هذا عذاب لا يطاق ، عذاب كأنه الجحيم .
ويثوب الفقيه إلى رشده فالله قد كتب على كل شيء الزوال والفناء . ومن تنمة ذلك
عند الفقيه أن يرضى بالقدر المقدور وما كتبه القضاء المحتوم ، كأن يقول في بعض
غزله :

أفوض أسبابي إلى الله كلّها وأقنعُ بالمقدور فيها وأرتضى

فهو دائماً يسلم - في عذابه بالحب وآلامه فيه وما يتصلّنى من هجر وبعد
وفراق - بما أرادته له المقادير . وتشيع في شعره كلمات فقهية كثيرة مثل كلمات الحلال
والحرام والتوبة ، ويعلن غير مرة أن حبه عفيف نقي طاهر لا تشوبه أدنى شائبة ،
يقول :

لَا تُلْزِمْنِي فِي رَغِي الْهَوَى سَرَفًا وَمَا أَوفِيهِ إِلَّا دُونَ مَا يَجِبُ
فِي عِفَّةٍ نَتَحَامِي أَنْ يُلَمَّ بِهَا سُوءُ الظَّنِّ وَأَنْ تَغْتَالَهَا الرَّيْبُ
وَيُكْثِرَ فِي غَزَلِهِ مِنْ ذِكْرِ الْمَنَازِلِ وَالْدِيَارِ وَالْفَيَافِي وَالْقِيَعَانِ وَالرُّكْبَانِ وَالْمَطَايَا ،
وَهُوَ يَتَسَاءَلُ وَالْمَنَازِلَ لَا تَجِيبُ ، فَقَدْ رَجَلَ الْأَحْبَةَ وَخَلَفُوا لَهُ وَجَدًا مَا مِثْلُهُ وَجَدَ ،
وَعَبَسًا يَخْفِيهِ فَكُلَّ مَا حَوْلَهُ يَبْصُرُهُ ، يَقُولُ :

يُخْفِي هَوَاهُ وَمَا يَخْفَى عَلَى أَحَدٍ حَتَّى عَلَى الْعَيْسِ وَالرُّكْبَانِ وَالْحَادِي
وَيَتَذَيِّعُ شَعْرَهُ فِي بَغْدَادٍ وَيَغْنَى فِيهِ الْمَغْنُونُ وَالْمَغْنِيَاتُ ، وَهُوَ لَا يَدْرِي مِنْ أَمْرِهِ
شَيْئًا فَقَدْ كَانَ مِنْكِبًا دَائِمًا عَلَى حُلُقَاتِ الدَّرْسِ وَعَلَى التَّصْنِيفِ وَالتَّأْلِيفِ . وَيَسَايِرُ
ذَاتَ يَوْمٍ الْقَاضِي مُحَمَّدَ بْنَ يُونُسَ فَيَسْمَعُ جَارِيَةً تَغْنَى بِقَوْلِهِ :

أَشْكُو غَلِيلَ فَوَادٍ أَنْتَ مُتْلَفُهُ شَكْوَى عَلِيلٍ إِلَى إِلْفٍ يَعْْلَلُهُ
سَقَمِي تَزِيدَ عَلَى الْأَيَّامِ كَثْرَتُهُ وَأَنْتَ فِي عُظْمٍ مَا أَلْقَى تَقْلَلُهُ
اللَّهُ حَرَّمَ قَتْلِي فِي الْهَوَى سَلَفًا وَأَنْتَ يَا قَاتِلِي ظَلَمًا تَحْلَلُهُ
وَيَلْتَفَتَ إِلَى صَاحِبِهِ قَائِلًا : كَيْفَ السَّبِيلُ إِلَى ارْتِجَاعِ مِثْلِ هَذَا الشَّعْرِ الَّذِي
تَلَوَّكَ أَفْوَاهُ الْمَغْنِينِ وَالْمَغْنِيَّاتِ . فَيُؤْتِيهِ مِنْ رَدِّهِ قَائِلًا : هَيْبَاتُ سَارَتِ بِهِ الرُّكْبَانُ .
وَمِنْ طَرِيفٍ مَا يُرْوَى لَهُ :

فَلَا تُطْفِئِ نَارَ الشُّوْقِ بِالشُّوْقِ طَالِبًا سُلُوءًا فَإِنَّ الْجَمْرَ يُسْعَرُ بِالْجَمْرِ
وَلَمْ تَمْتَدِ حَيَاتُهُ طَوِيلًا . فَقَدْ تَوَفَّى سَنَةَ ٢٩٧ وَهُوَ فِي الثَّانِيَةِ وَالْأَرْبَعِينَ مِنْ عَمْرِهِ ،
وَيُقَالُ إِنَّهُ لَمَّا مَاتَ جَلَسَ ابْنُ سَرِيحٍ مُنَاطِرُهُ الْمَذْكُورَ آنَفًا فِي مَجْلِسِهِ وَبَكَى وَجَلَسَ عَلَى
الْتَرَابِ . وَقَالَ : مَا آسَى إِلَّا عَلَى لِسَانِ أَكَلِهِ التُّرَابِ مِنْ ابْنِ دَاوُدَ . وَحَزَنَ عَلَيْهِ
تَلَامِيذُهُ حَزْنًا شَدِيدًا . وَيُقَالُ إِنَّ نَفْطُوِيَهَ جَزَعَ عَلَيْهِ جِزْعًا عَظِيمًا . وَلَمْ يَجْلِسْ فِي
حُلُقَتِهِ لِلنَّاسِ بِحَاضِرِهِمْ سَنَةً كَامِلَةً .

فضل^(١)

كانت أمها من مولدات اليمامة ، وكانت هي من مولدات البصرة ، نشأت في دار رجل من قبيلة عبد القيس أدبها وثقفها ثم باعها ، ووقعت لرجل من النخاسين في الكرخ ببغداد يقال له حسنويه ، فاشتراها منه محمد بن الفرج الرُّخَجِّي ، وأهداها إلى المتوكل سنة ٢٣٣ للهجرة . ولم يكن بين الجوارى في زمانها أفصح منها ولا أشعر ، ويقول فيها بعض النخاسين : كانت في نهاية الجمال والكمال . ولما دخلت على المتوكل سألها أشاعرة أنت ؟ فقالت : كذلك زعم من باعني واشتراني ، فضحك ، وقال لها : أنشدنا شيئاً من شعرك ، فأنشده تملحه :

استقبل الملكُ إمامَ الهدى عامَ ثلاثٍ وثلاثين
إنا لنرجو يا إمامَ الهدى أن تملك الناس ثمانين
لا قدس الله امرءاً لم يقلْ عند دعائي لك آميناً

فاستحسن الأبيات ، وأمر لها بجائزة وأمر عريب أن تغنيه بها ، فغنت وطرب طرباً شديداً . وكانت حاضرة البديهة فكان الشعراء من حاشية المتوكل ومن غيرها يتعرضون لها ببعض أبيات يلقونها عليها ، فتجيزها في سرعة شديدة ، وكان المتوكل نفسه يلقى عليها أحياناً بعض الأبيات فتُسرع في إجازتها ببديعتها الحاضرة ، من ذلك قول بعض الشعراء :

تعلمتُ أسبابَ الرضا خوفَ عتبها وعلمها حُبِّي لها كيف تغضبُ
ولم يكد يلفظ بالبيت حتى قالت :

تصدُّ وأدنو بالمودةً جاهداً وتبعد عني بالوصال وأقربُ

المعز ص ٤٢٦ ، والنجوم الزاهرة ٣ / ٢٨ وزهر
الآداب للحصري ٤ / ١٦٥

(١) انظر في فضل وأخبارها وأشعارها
الأغانى (طبعة الساسي) ٢١ / ١١٤ ، ٢ / ١٧
وفوات الوفيات للكتبي وطبقات الشعراء لابن

وكما كان لها مديح كان لها هجاء خصت به معاصرتها الخنساء ، ولكن جمهور
أشعارها كان في الغزل ، وهو غزل رقيق رقة شديدة من مثل قولها :

عَلِمَ الجمال تركنتني في الحب أشهرَ من عِلْمِ
ونصبتني يا مُنْتِنِي غرضَ المظنة والتَّهْمِ
فارقنتني بعد الدذ و فصرت عندي كالحلم
ما كان ضَرْكَ لو وصا تَ فحَفَّ عن قلبي الألم

وهي تقول لصاحبها إنك وصلتني وشهرتني بحبك ثم هجرتني وأنزلتني هذه
المنزلة الخزية من القطيعة ، حتى صرت وصارت أيام وصلك كأنها حلم وخيال ،
وهي تود لو ظفرت بحبه ثانية وظفرت بوصله ، فخرجت من آلامها المبرحة . وأكثر
غزلها في معشوقها سعيد بن حُصَيْنَة رئيس ديوان الرسائل لعصر المستعين ، وله
فيها بدوره غزل كثير ، وبينهما محاورات ومكاتبات شعرية طريفة . من ذلك أنه
عتب عليها يوماً أنها لا تُقْبِل عليه في مجلسها ولا تذكره باسمه في غزلها ،
فكتبت إليه :

وعيشك لو صرَّحت باسمك في الهوى لأَقْصَرْتُ عن أشياء في الهزل والجِدِّ
ولكنني أبْدِي لهذا مودتي وذاك وأخلو فيك بالبت والوجد
فكتب إليها سعيد :

تنامين عن ليلي وأسهره وحدي وأنهي جنوني أن تبشك ما عندي
فإن كنت لا تدرين ما قد فعلته بنا فأنظري ماذا على قاتل العمدِ
وكان لا يقلُّ عنها كَلَمًا ولا غرامًا ، وكانا كثيرًا ما يتغاضبان ويتعاتبان ويمودان
إلى الرضا بعد أن يصف كل منهما هيامه بصاحبه ودموعه المتحدرة ، وكانت لاتي
الرقاع والرسائل بينهما ذاهبة راجعة ، وما كتبه له في إحدى الرقاع :

الصَّبْرُ ينقصُ والسَّقامُ يزيدُ والدارُ دانيةٌ وأنت بعيدُ
أشكوك أم أشكو إليك فإنه لا يستطيع سواهما المجهود

وكان حريئاً بصاحب الأغاني أو قل بمعاصريهما أن يحتفظوا للأجيال التالية بهذه الرسائل التي اتصلت بينهما ، ولكنهم لم يحتفظوا منها إلا بالقليل مع أنها تُعَدُّ من طرائف الشعر العباسي . ويقال إنه بلغها أنه واصل جارية من جوارى القيان وملأت قلبه فتوناً ، فكتب إليه غاضبة ساخطة :

يا عالي السنَّ سيِّءَ الأدبِ شَبِثَ وَأَنْتَ الغلامُ في الأدبِ
وَيَحْكُ إنَّ القِيانَ كالشُّرْكِ الـ منصوب بين الغرور والعطب
لا يتصدِّينَ للفقير ولا يَتَبَعْنَ إلا مواضع الذهب

فالجارية لا تحبه لشخصه وإنما تحبه لذهبه ودنانيره ، وكأنها تريد أن تقطع أوصال هذه العلاقة الناشئة ، حتى لا يعود إلى التفكير في تلك الجارية أبداً . ويقال إنها كانت في الغاية والنهاية من التشيع . فلما هويت سعيداً انتقلت إلى مذهبه من الانحراف عن آل الرسول عليه السلام . وكانت منذ مقتل المتوكل تمر بها أوقات حزينة تشعر فيها بالبؤس فكانت تنفّس عن نفسها بمثل قولها :

إن الزمان يَدْخُلُ كان يطلبنا ما كان أغفلنا عنه وأَسْهانا^(١)
مالى وللدهر قد أَصْبَحَتْ هِمَّتُهُ مالى وللدهر . مالى للدهر ، لا كانا
والبيتان رائعان ، ويدلان كما تدل الأبيات السابقة على نبع شعري غزير ،
واختلف في زمن وفاتها ، ف قيل سنة ٢٥٨ وقيل سنة ٢٦٠ ، ويقال إن سعيد بن حميد كان يقول بعد موتها : ما رسائل المدوِّنة عند الناس إلا من إنشائها تجلَّةٌ لها ولأدبها وملكتها الشعرية .

٢

شعراء اللهو والمجون

ظل كثيرون من الشعراء يندسسون في اللهو والمجون كما انغمس أسلافهم في العصر الماضي ، وكان بعض هذا الانغماس يرجع إلى تحلل في الأخلاق ، وبعضه يرجع إلى الهروب من الحياة والتخفف من أعبائها الثقيلة ، وساعد على ذلك اختلال في الموازين

وفساد في القيم شاعا في حياة الدولة وفي حياة الناس . وكان الشك يتسلط على نفوس كثيرين وتتسلط معه ألوان الإلحاد والزندقة ، وكان الكسرخ مليئاً بالخانات وبدور النخاسين ، والشعراء المجنّان يغدون ويروحون ليل نهار ، وبعض الجوارى لم يكن يعرف حشمة ولا وقاراً إنما كنّ يعرفن اللهو والابتذال . وكانت هناك الديارات متناثرة حول بغداد وعلى طول الطرق إلى البصرة والكوفة جنوباً والموصل شمالاً ، وكانت مفتوحة الأبواب للشعراء دائماً لا في الأعياد المسيحية فحسب ، بل طوال العام ، فهم يلمتّون بها ويتناولون الخمر منها ، وقد يعكفون على الشرب فيها أياماً متصلة . وكل ذلك عمل على أن يكثر بين الشعراء أصحاب الخلاعة والحجون في أسوأ صورهما ، حتى لنجد كثيرين يتغزلون غزلاً شاذّاً بالغلمان ، وَصَمّةٌ ظلت في هذا العصر كما كانت في العصر الماضي ، وكثير من هذا الغزل كان يُنظم في أثناء السكر وشرب الخمر ، للضحك والفكاهة ، ولكن تبقى بقايا وراء ذلك تصوّر الفساد الخلقي في أبشع صورهِ . وحقّاً لا نجد خليفة تورط في حب غلام ، ولكن أيضاً كان كثيرون منهم يعكفون على الملاهي والملاذات ، وكانت قصورهم تطفح بجماعات المجان في صورة ندماء ومضحكين ، وأكثرهم كانوا مُجَنّاناً محترفين . وفي كل مكان نلتقي بهذه الجماعات أو العصابات ، وكانوا يتعاشرون ويترافقون تارة في الديارات وتارة في دور النخاسين أو في الخانات أو في بيوتهم ، ومن أهمهم جماعة أوعصابة أبي هفان ومحمد بن الفضل ومحمد بن مكرم وأبي على البصير وأبي العيشاء ، وفيهم يقول المرزباني : كانوا يتعاشرون وكانوا شياطين العسكر في الظرف والحجون^(١) ، ومنهم جماعة أبي السفاح الأنصاري وعبد الله بن رضا وإسماعيل بن يوسف ، وقد تعاهدوا ألا يقولوا شعراً إلا في صفة الخمر ، ويقول ابن المعتز إنهم ظلوا على ذلك إلى أن ماتوا^(٢) . وكان لشيوع مجالس الخمر حينئذ أثرها في ظهور كتابات كثيرة عن آداب المنادمة والنديم ، وما اشترطوه لها قلة الخلاف والمعاملة بالإنصاف والمساخفة في الشرب والتغافل عن رد الجواب وإدمان الرضا واطّراح ما مضى وإسقاط التكليف وستر العيب وحفظ الغيب . ونعرض لبعض هؤلاء الشياطين وخمرياتهم فمنهم أبو العيناء الضرير ، وكان ظريفاً لسنّاً سريع الجواب ، واتخذهُ

(١) معجم الشعراء ص ٣٩٨ .

(٢) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٣٩ .

المتوكل في ندمائه . وكان ينزل مع رفاقه الأديرة ويستطيب خمرها المعتقة ، وقد يبق فيها أياماً لا يفيق من سكره ، وله في دير باشهراً ، وكان بين سامراً وبغداد قوله ^(١) :

نزلنا ديرَ باشهراً على قسيِّه ظهراً
وسقانا ورواناً من الصافية العذراً
وطاب الوقتُ في الدَّيرِ فربطنا به عَشراً
ونلنا كلَّ ما نهوا ه من لذاتنا جهراً

ومن كبار الشياطين في العصر مصعب الوراق . وكان من أشد المجان نهتكاً وأكثرهم خلاعة وتطرحاً في الحانات والديارات ، وكثيراً ما كان يلم بدير الزعفران من ديارات الموصل ، وفيه يقول ^(٢) :

عمرتُ بقاعَ دَيرِ الزَّعفرانِ بفتيان غطارفة هِجانٍ ^(٣)
بكل فتى يحنَّ إلى التصابي ويهوى شربَ عاتقة الدَّنان
بكل فتى يميل إلى الملاهي وأصواتِ المِثالي والمِثاني ^(٤)
ظَلَمْنَا نَعْمَلُ الكاساتِ فيه على روضِ كنعشِ الخُسراني
وأغصانٍ تميل بها ثمارٌ قريباتٌ من الجاني دواني

ومن كانوا يتورطون حينئذ في الخمر وآثامها أبو عثمان الناجم راوية ابن الرومي ، إذ روى عنه أكثر شعره وكان يلزمه ولا يكاد يفارقه ، وله كثير من المعاني الدقيقة في الخمر وغير الخمر ، وكأنما كان يتأثر بأستاذه ، وفيها يقول ^(٥) :

مشمولةٌ كشعاع الشمس في قدحٍ مثل السَّراب يُرى من رِقَّةٍ شَبَحَا
إذا تعاطيتها لم تدر من لُطفٍ راحاً بلا قدحٍ عاطتكَ أم قدحاً

وكثيراً ما كان يلم بدير الخوات ، وهو دير كبير شمالي سامراً وسط البساتين والكروم ، وكانت تسكنه نساء مترهبات ، وكان من منازل القاصِّف ومواطن اللهو .

(٤) المِثالي والمِثاني : من أوتار العود .

(٥) المختار من شعر بشار ص ١٢٧ وانظر

الديارات ص ٩٣ .

(١) الديارات للشابتي ص ٨٠ .

(٢) الديارات ص ١٩٢ .

غطارفة هِجان : سادة كرام .

وذكره كثيراً في أشعاره . ومثله دبر العذارى وكان قريباً من بغداد ، وواضح من اسمه أنه كان ينزله جوار متبتلات عذارى ، ونزل به عبيد الله بن عبد الله بن طاهر حاكم بغداد . فأقام به يومين واستطابه وشرب فيه ، وله مقطوعة يصور فيها ما امتد حول الدَيْر من بساتين فاتنة وعكوفه على الشرب فيه بمثل قوله (١) :

ورياض كأنهن بُرودُ كل يوم لهن صَبْعٌ جديدُ
وكان الشَّقِيقَ فيها عشيقُ وكانَ البَهارَ صَبَّ عَميدُ (٢)
وكانَ الثَّارَ والورقَ الخُضَّ رَ ثيابٌ من تحتهن نهودُ
فاسقنيها راحاً تريح من الهَمِّ وتُبْدِي سرورنا وتُعِيدُ
وانتهز فرصة اللذازات في دَيْرِ العَذاري فعلها لا تعود

وكان كثيرون لا يَغْلُون في المجون ولا يغرقون في اللذات . وإنما يلمون بالخمير من حين إلى حين ، وقد يكون في حياتهم ما دفعهم إلى ذلك ، إما سخط شديد على الحياة السياسية ، وإما شك واستهانة بكل شيء ، وإما محنة نزلت بهم أو إحساس بضرب من ضروب الإخفاق . وبذلك نستطيع أن نعلل إقبال بعض المتكلمين على تناولها أحياناً أو قل بعبارة أدق على وصفها ، إذ ربما وصفوها بحجارة للشعراء في عصرهم ، على نحو ما نجد عند أبي العباس الناشئ إذ يقول (٣) :

ومُدَامَةَ يَخْفَى النِّهَارُ لنورها وتَذَلَّ أَكْنَافُ الدُّجَى لضياها
صُبَّتْ فَأَحْدَقَ نورُها بزجاجها فكأنها جُعِلَتْ إِنَاءٌ إِنَائِها
وتكاد إن مزجت لَرَقَةً لونها تتماز عند مزاجها من مائها
صفراء تَضْحَى الشَّمْسُ إن قِيسَتْ بها في ضوئها كالليل في أضوائها
وإذا تصفحتَ الهواءَ رأيته كدِرِ الأَدِيمَةِ عند حُسْنِ صفائها
لا شيء أعجبُ من تولد بُرْنِها من سُقْمِها ودوائها من دائها

(١) الديارات ص ١٠٩ .

(٢) الشقيق : ورد أحمر . والبهار :

زهر أصفر ، والكناية واضحة .

(٣) زهر الآداب ١٤٩/٢ .

وهي خميرية بديعة لعب فيها خيال الناشئ بفكرة ضوء الحمر ، فهي تارة تحيل الشمس ظلاماً ، وتارة تُرَى وكأنما لا يحملها إناؤها أو قل كأسها الزجاجي . وهي متناهية في الرقة حتى لتكاد تتميز من الماء حين يُسَرَّجُ بها ، وهي أيضاً متناهية في الصفاء حتى ليسرى الجو الصافي كدراً بالقياس إليها ، وهي داء ودواء وسقام وشفاء . ونقف عند ثلاثة اشتهروا باللهو والمجون في العصر . وهم الحسين بن الضحاك وأبو الشبل البرجمي وعبد الله بن العباس بن الفضل بن الربيع .

الحسين^(١) بن الضحاك

من كبار الخلعاء المجان ، وُلد بالبصرة ونشأ بها ، ثم تركها إلى بغداد لعصر الأمين ، وربما قبل عصره ، فقد عاش دهرًا طويلاً ، وكان ظريفاً ، فاتخذه الأمين نديماً له ، ونادم من بعده المعتصم والواثق والمتوكل والمنتصر ابنه . وقد جزع جزعاً شديداً حين توفي الأمين ، ورثاه مرثي كثيرة ، وكان مما قال فيه باكيةً متفجعاً .

هلا بقيتَ لَسَدٌ فاقتنا فينا وكان لغيرك التَّلَفُ
قد كان فيك لمن مضى خلفُ فاليوم أعوزَ بعدك الخلف

فلما جاء المأمون من خراسان إلى بغداد علم بموقفه منه ، وأنه طالما نظم أشعاراً ضد طاهر بن الحسين قائده في حرب الأمين كما نظم أشعاراً يبكي بها بغداد حين ضربها طاهر بالمجانيق ، وكان أشد ما أسخطه عليه البيتان السالفان ودعاؤه فيهما عليه بالتلف : فلما ذُكر له في الشعراء قال : لا حاجة لي به ولا يرى وجهي إلا على قارعة الطريق أي في مواكبه العامة . وظل لا يتقرب القصر طوال خلافة المأمون ، بل لقد بارح بغداد إلى البصرة ، حتى إذا خلفه المعتصم استقدمه من موطنه وقربه منه . ففضى يمدحه وينال جوائزه . وقد أقطعه كما أقطع رجال

١٥٦ / ٢ وشذرات الذهب ١٢٣ / ٢ وأشعار
الخليع الحسين بن الضحاك جمع وتحقيق
عبد الستار فراج (طبع دار الثقافة ببيروت) .

(١) انظر في ترجمة الحسين بن الضحاك
وأشعاره ابن المعتز ص ٢٦٨ وتاريخ بغداد
٨ / ٥٤ والأغاني (طبع دار الكتب) ١٤٣ / ٧
ومعجم الأدباء وابن خلكان ومراة الجنان

حاشيته داراً في سامراء ، واتخذته الواثق نديماً له ، وله فيه مدائح كثيرة ، وخلفه المتوكل فسلكه في ندمائه ، وكذلك صنع ابنه المنتصر ، وله فيه مدائح مختلفة مثل أبيه ، ومن قوله في تهنته له بالخلافة :

هَتَنَتِكَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ خَلِيفَةً جَمَعَتْ بِهَا أَهْوَاءَ أُمَّةٍ أَحْمَدَ

وَأَعْنَجِبَ الْمُنْتَصِرَ بِالْقَصِيدَةِ ، فَقَالَ لَهُ : إِنْ فِي بَقَائِكَ بَهَاءً لِلْمَلِكِ ، وَلِحَقِّ بَعْدِهِ عَصْرِ الْمُسْتَعِينَ ، وَفِيهِ تَوَفَى سَنَةَ ٢٥١ لِلْهِجْرَةِ .

وكان يُعْرَفُ بِاسْمِ الْخَلِيعِ لِكثْرَةِ مَجُونِهِ وَعَكُوفِهِ عَلَى الْخَمْرِ ، حَتَّى أَصْبَحَ اسْمُهُ مَقْرُونًا بِاسْمِ أَبِي نَوَاسٍ أَكْبَرَ مَا جُنَّ فِي الْعَصْرِ السَّابِقِ ، وَهُوَ مِثْلُهُ فَارَسَى الْأَصْلَ ، وَكَانَ يَصْحَبُهُ فِي شَبَابِهِ ، وَيَبْدُو أَنَّهُ تَمَثَّلَ أَشْعَارُهُ تَمَثُّلاً نَادِراً وَخَاصَةً أَشْعَارُ الْخَمْرِ وَالْمَجُونِ ، حَتَّى اخْتَلَطَ الْأَمْرُ عَلَى الْقَدَمَاءِ فَنَسَبُوا كَثِيراً مِنْ أَشْعَارِهِ إِلَى أَبِي نَوَاسٍ ، وَزَعَمَ نَفَرٌ مِنْهُمْ أَنَّ أَبَا نَوَاسٍ كَانَ يَحَاكِيهِ فِي بَعْضِ أَشْعَارِهِ . وَالصَّحِيحُ أَنَّ الْحُسَيْنَ هُوَ الَّذِي كَانَ يَحَاكِي أَسْتَازَهُ وَأَسْتَازَ الْخَمْرِ وَالْمَجُونِ فِي الْعَرَبِيَّةِ عَامَةً . وَيَقُولُ ابْنُ الْمُعْتَزِّ إِنَّهُ كَانَ أَتَى مِنْ أَبِي نَوَاسٍ شِعْراً وَأَقْلَ تَخْلِيطاً مِنْهُ ، وَهِيَ مَلَاخِظَةٌ صَحِيحَةٌ غَايَةُ الصَّحَّةِ ، فَإِنَّ أَبَا نَوَاسٍ كَانَ يَخْتَلِطُ بِأَبْنَاءِ الشَّعْبِ الْبَغْدَادِيِّ مِنَ الْمَجَّانِ وَغَيْرِهِمْ فِي الْحَانَاتِ بِالْكَرْخِ وَغَيْرِ الْكَرْخِ فِي الْأَدِيرَةِ ، وَكَانَ لَا يَرْتَفِعُ بَلِغَتُهُ وَأَلْفَاظُهُ عَنْهُمْ ، بَلْ كَانَ يَدْنُو مِنْهُمْ دُنُوّاً شَدِيداً . وَكَانَ يَنْظُمُ كَثِيراً مِنْ خَمْرِيَّاتِهِ فِي أَثْنَاءِ سُكْرِهِ ، فَبَدَأَ فِي أَشْعَارِهِ تَخْلِيطاً كَمَا لَاحِظُ ابْنُ الْمُعْتَزِّ ، فَهُوَ تَارَةً يَرْتَفِعُ حِينَ يَنْظُمُ فِي مَجْلِسِ الْأَمِينِ أَوْ فِي مَجْلِسِ بَعْضِ الْوُزَرَاءِ وَالنَّابِئِينَ . وَتَارَةً يُسِفُّ حِينَ يَنْظُمُ فِي مَجَالِسِ الْعَامَةِ ، وَخَاصَّةً حِينَ يَخَاطَبُ غُلَامَانَ الْحَانَاتِ وَكَانُوا أَخْلَاطاً مِنَ الْفَرَسِ مِمَّنْ لَا يَحْسُنُونَ الْعَرَبِيَّةَ الْقَصِيدَةَ . أَمَّا الْحُسَيْنُ فَكَانَ فِي جَمْهُورِ حَيَاتِهِ يَعِيشُ فِي قُصُورِ الْخُلَفَاءِ وَالْوُزَرَاءِ وَأَبْنَائِهِمْ ، فَكَانَ يُعْنَى أَشَدَّ الْعَنَاءِ بَلِغَتُهُ وَأَلْفَاظُهُ ، وَلَا يَكْتَفِي فِيهَا بِالْفَصَاحَةِ بَلْ يَطْلُبُ أَيْضاً الرِّصَانَةَ وَالْجَزَالَهَ حِيناً : وَحِيناً الْعَذُوبَةَ وَالزُّعْمَةَ وَمَا يَلَامُ الْأَذْوَاقَ الرَّفِيعَةَ فِي الْمَجْتَمَعِ ، لِذَلِكَ قَلَّ التَّخْلِيطُ عِنْدَهُ كَمَا يَلَاظُ ابْنُ الْمُعْتَزِّ ، بَلْ كَادَ يَنْعَلِمُ انْعِدَاماً ، وَالَّذِكُ أَيْضاً شَاعَ فِي أَشْعَارِهِ النِّقَاءُ وَالصِّفَاءُ إِذْ كَانَ يَطْلُبُ فِيهَا دَائِماً أَنْ تَلِدَ الْأَسْمَاعُ وَالْأَفْئِدَةُ . وَظَاهِرٌ ثَانِيَةٌ يَخْتَلِفُ فِيهَا عَنْ أَسْتَازِ الْمَجُونِ وَالْخَمْرِ فِي عَصْرِهِ هِيَ شَيْءٌ مِنَ الْحَشْمَةِ الْمَصْطَنَعَةِ فِي مَجُونِهِ ، فَهُوَ لَا يَذِيعُ فِيهِ مَا يَذِيعُهُ

أبو نواس من الفحش ، لأنه كان يعيش في أوساط الخلفاء والوزراء وأبنائهم ، فكان يحتشم وقلما يعلن أنه يقترب إثمًا منكراً ، أما أبو نواس فلم يكن يعرف شيئاً من الحشمة ولا كان يخفي شيئاً من آثامه . وليس معنى ذلك أن الحسين كان أقل من أبي نواس مجوناً وشغفياً بالخمير ، فقد كان مثله مفتوناً بها فتنة شديدة ، وكان يطلبها في الحانات وفي الأديرة وكان دائم الاختلاف إليها ، ومن طريف ما نظمته في دير سابر بقرب بغداد وخمره المعتقة قوله :

وعسواتي باشرتُ بينِ حدائقٍ ففَضَضْتُهُنَّ وقد حَسُنَ صِحَاحًا^(١)
 أتبعْتُ وَخْزَةَ تلكَ وَخْزَةَ هذه حتى شربتُ دماءَهنَّ جِرَاحًا
 أبرزهنَّ من الخدورِ حَوَاسِرًا وتركتُ صَوْنَ حريمهنَّ مُبَاحًا

وهو يصور فتنته بزقاق الخمر المثلثة التي لم يمسسها أحد قبله ، وقد ضحكك الطبيعة في دير سابر من حواه ، وهو يفتح الرقاق ويشرب من دمائها أرتالا . وكان يختلف إلى ديارات العراق عامة ، وله في دير سَرَجِسْ بالقرب من الكوفة قصيدة بديعة ، يقول فيها :

أخوئِي حَيَّ عَلَى الصُّبُوحِ صَبَاحًا هُبَا وَلَا تَعْدَا النَّدِيمَ رَوَاحًا
 مهما أَقامَ عَلَى الصُّبُوحِ مَسَاعِدُ وَعَلَى الغُبُوقِ فلنَ أَرِيدَ بَرَاحًا^(٢)
 عُدَا لِعَادَتِنَا صَبِيحَةَ أَمْسِنَا ذَالْعُودُ أَحْمَدُ مُغْتَدِيٍّ وَمَرَاحًا
 هل تَعْذِرَانِ بَدِيرَ سَرَجِسْ صَاحِبًا بِالصُّحُورِ أَوْ تَرِيانِ ذَاكَ جُنَاحًا
 إِنِّي أَعِيدُكُمْ بِأَلْفَةِ بَيْنِنَا أَنْ تَشْرَبَا بِقَرَى الْفُرَاتِ قَرَاحًا^(٣)
 عَجَّتْ قَوَافِرُنَا وَقَدْسٌ قَسْنَا هَزَجًا وَأَصْخَبْنَا الدَّجَاجَ صِيَاحًا^(٤)

وهو يتلطف إلى صاحبيه في آخر الليل ويدعوهما أن يتناولوا معه الصبح كما تناولاه بالأمس ، ويعذراه ولا يريا في ذلك جُنَاحًا ولا إثمًا ، ويستحلفهما بما

(١) العواتق : زقاق الخمر .

(٣) الماء القراح : الماء الصافي .

(٢) الصبح : شرب الصباح ، والغُبُوق : القداح .

(٤) القوافز : القداح . وقدس القس : رتل

بعض التراتيل .

شرب المساء .

بينهما وبينه من ألفة ومودة وأخوة ألا يشربا ماء الفرات النмир ، بل يشربا معه
صبروحه المسكر المحبب إلى نفسه . وكان أبو عيسى بن الرشيد يدفع غلامه « يسُرا »
إلى معابثته فكان ينظم فيه بعض غزله ، وكذلك كان المتوكل يدفع غلامه « شفيعاً »
إلى العبث به ، وكان وضئ الوجه مثل يسر فكان ينظم فيه أيضاً بعض الغزل ،
وواضح أنه غزل كان يُراد به إلى الهزل وإضحاك المتوكل وأبي عيسى . وله في الغزل
عامة شعر كثير من مثل قوله :

وَصَفَ الْبَدْرُ حُسْنَ وَجْهِكَ حَتَّى خَلْتُ أَنَّى - وَمَا أَرَاكَ - أَرَاكَ
وَإِذَا مَا تَنْفَسُ النَّرْجِسُ الْغَضُّ تَوَهَّمَتْهُ نَسِيمَ شَدَاكَ
خُدْعُ لِلْمَنَى تَعَلَّلْنِي فِيكَ بِإِشْرَاقِ ذَا وَهَجَةٍ ذَاكَ
لَأَدُومَنَّ يَا حَبِيبِي عَلَى الْوَدِّ لِهَذَا وَذَاكَ إِذْ حَكَاكَ

والقطعة رائعة التصوير وتسيل عذوبة ، وهي عذوبة تشيع في كثير من أشعاره
الغزلية والخمرية ، وهي طبيعية اشاعر كان يعيش في قصور الخلفاء ومجالسهم ،
ويسمع في كل ليلة أوتار العيdan والطنايير والمعازف من كل لون ، مما جعل أذنه
الموسيقية تُرْهَفُ إرهافاً شديداً ، فإذا كثير من شعره يتحول ألحاناً وأنغاماً .
خالصة على شاكلة قوله :

عَالَمٌ بِحَبِيبِهِ مُطَرِّقٌ مِنَ التَّيِّبِ
يُوسِفُ الْجَمَالَ وَفَرَّ عَوْنُ فِي تَعْدِيهِ
وَهُوَ غَيْرُ مَكْتَرٍ لِلَّذِي أَلَا قِيَهُ
لَا وَحَقٌّ مَا أَنَا مِنْ عَطْفِهِ أَرْجِيهِ
مَا الْحَيَاةُ نَافِعَةٌ لِي عَلَى تَبَائِيهِ
النَّعِيمُ يَشْغَلُهُ وَالْجَمَالَ يُطْفِئُهُ

والقطعة من وزن عباسي حديث هو وزن المقتضب ، وهي تطير عن الفم
بخفة . ولم يقف تأثير الغناء وآلات الطرب لعصره في شعره عند الملاءمة بين
العصر العباسي الثاني

جرس الكلمات ، بل تجاوز ذلك إلى الأوزان ، فكان يفزع إلى مجزواتها كثيراً
إرضاءً لآذان السامعين ، وحتى يتيح للمغنين والمغنيات في شعره الفرص كي يمجروا
بألفاظه ويهمسوا بها حسب حاجاتهم الغنائية .

أبو الشبل^(١) البرجمي

اسمه عاصم بن وهب ، ولد بالكوفة ونشأ وتادب بالبصرة ، يقول أبو الفرج :
«قدم إلى سامراء في أيام المتوكل ومدحه ، وكان طبيباً نادراً ، كثير الغزل ، ماجناً
فنفق عند المتوكل بإيثاره العبث ، ونادمه وخص به فأثرى » ثم يذكر بعض مديحه
للمتوكل وما أسبغ عليه من عطاياه . ويبدو من اصطفاء المتوكل له أنه كان ظريفاً
خفيف الروح ، ويقص ابن المعتز بعض نوادره ، مما يدل على أنه كان فكاه
المحضر . وكان خليعاً مثل الحسين بن الضحاك يسرف على نفسه في المحون
ويتهالك على اللذات ، ويطلبها في الحانات وفي الديارات ، ويقول من ترجموا له
إنه كان عاكفاً على الشراب لا يفارقه ، ولا يوجد إلا سكران قد أخذ منه السكر
مأخذاً شديداً ، ويقولون إنه كان يتطرح في الديارات والحانات ومواطن اللهو ،
لا يُغيبها ولا يتأخر عنها ، بل دائماً في حانة أو في دَيْر أو في بستان أو متنزه وقد
شرب وأغرق في الشرب حتى لم يعد يستطيع أن يقف على قدميه ، بل لم يعد يستطيع
حراكاً . وكان كثير الاختلاف إلى دير أشموني بقرية قُطْرَبُل شمالي بغداد
وكانت القرية أشبه بحانة كبيرة يختلف إليها أصحاب البطالة والمحون . وكان عيد
هذا الدير في اليوم الثالث من أكتوبر ، وكان يجتمع فيه كل من ببغداد من أهل
الطرب واللهو ، يخرجون إليه جماعات ، منهم من يركب السفن النهرية بدجلة ،
ومن يركب الخيل المطهمة ، وينزلون في أكناف القرية وحاناتها ودَيْرها الكبير ضاربين
خيامهم وفساطيطهم ، وكل قد أعد ما استطاع لقصفه ولهو ، والقيان تعزف
عليهم ، وآلات الطرب تُسمّع في كل مكان ، والناس يطربون ويشربون وقد
يرقصون طرباً واستحساناً لما يسمعون . وطبيعي أن يتأثر الماجن الكبير أبو الشبل

ومعجم الشعراء للمرزباني ص ١٢٣ والديارات
للأشعري ص ٥٠ وما بعدها .

(١) انظر في أبي الشبل وأخباره وأشعاره
طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٨٠ والأغاني
(طبع دار الكتب المصرية) ١٩٣ / ١٤

بمنظر هذا العيد ، وقد أخذ الشراب منه مأخذاً عظيماً فيتغنى بمثل قوله :

شهدتُ مواطنَ اللذاتِ طُرّاً وجئتُ بِقاعِها بَحْراً وبرّاً
فلم أرَ مثلاً أَشْمونى مَحَلّاً أَلَدَّ لِحاضِريه ولا أَسْراً
به جيشان من خَيْلٍ وَسُفْنٍ أَنَاخا في ذُراه واستنـسـراً
كأنهما زحوفٌ وَغَىٌّ وَلَكِنْ إلى اللذاتِ ماكراً وفراً
سلاحُهما القَوَاقِزُ والقَنَاني وأَكْوَاسٌ تدور هَلَمَّ جَراً^(١)
وَضَرْبُهما المِثَالُثُ والمِثَانِي إذا ما الضربُ في الحربِ استَحْراً

وكان مثل الحسين وعامة مجّان عصره يُكثّر من الغزل ، وكان يستهتر فيه أحياناً ويتهتك ويتمدح بالتهتك والاستهتار مسفهاً في شعره ، وكأنما كان ينظم مثل هذا اللون من الغزل للمجان من أمثاله مُشيعاً فيه غير قليل من الفحش . وكان ينظم بجانبه غزلاً آخر لا يسف فيه هذا الإسفاف ، بل يُبقي فيه على مروءته وكرامته إن كان للمجان من أضرابه فضل من كرامة ، على شاكلة قوله :

بأبى ريمٍ رى قَدْ بى بِالْحَاضِ. مِرَاضِ^(٢)
وَحَمَى عَيْنِي أَنْ تَدْ تَدْ طِيبَ الإِغْمَاضِ
كلما رُمْتُ انبساطاً كَفَّ بَسْطِي بانقباضِ
أَوْ تَعَالَى أَمَلِي فِيهِ رَمَاهُ بانخفاضِ
فمَنى يَنْتَصِفُ المَظْ لَوْمُ وَالظَالِمُ قَاضِي

والأبيات خفيفة ، ولكنه لا يلحق الحسين بن الضحّاك في عذوبة نغمه وخفة روحه وحرارة عاطفته . وكان الحسين أعف منه لساناً إذ لم يكن يسف إلى الفحش إسفافه ، وقد عُمِّرَ عمرّاً طويلاً حتى وهن العظم منه واشتعل الرأس شيئاً وبلغ من الكبر عتياً ، وكان طبيعياً أن ينصرف عنه حينئذ الجراى . وفي ذلك يقول :

عذيرى من جِوارى الحىِّ إذ يرغبن عن وصى

(١) القواقر : القداح كما مر . والأكواس : (٢) الريم : الطي خالص البياض .
الكتوس .

رَأَيْنَ الشَّيْبَ قَدْ أَلْبَسَنِي أَبْهَةً الْكَهْلِ
فَأَعْرَضَنَ وَقَدْ كُنَّ إِذَا قِيلَ أَبُو شَيْبَلٍ
تَسَاعَيْنَ فَرَّقَنَ الْكَوَى بِالْأَعْيُنِ النَّجَلِ^(١)

ومرّ بنا هجاء الخنساء جارية هشام المكفوف له ، وله فيها هجاء مسف إسفافاً شديداً ، وهو في هجائه يفحش إلى درجة بعيدة تؤذى الأذواق السليمة . وكان قد اشترى كبشاً لعيد الأضحى فظل يعلفه ويسمّنه ، وأفلت يوماً منه على قنديل كان يُسرجه بين يديه وعلى سراج وقارورة للزيت ، فكسر القنديل وانصب الزيت على ثيابه وكتبه وفرشه ، فلما رأى منه ذلك ذبحه قبل الأضحى ، ونظم قصيدة في رثاء قنديله يقول فيها :

يَا عَيْنُ بَكِّي لَفَقْدَ مَسْرَجَةٍ كَانَتْ عَمُودَ الضِيَاءِ وَالنُّورِ
صَيْنِيَّةَ الصَّيْنِ حِينَ أَبْدَعَهَا مَصَوِّرُ الْحَسَنِ بِالتَّصَاوِيرِ
مَسْرَجَتِي كَمْ كَشَفْتَ مِنْ ظُلَمٍ جَلَّيْتَ ظُلُمَاءَهَا بِتَنْوِيرِ
إِنْ كَانَ أَوْدَى بِكَ الزَّمَانُ فَقَدْ أَبْقَيْتَ مِنْكَ الْحَدِيثَ فِي الدُّورِ

ومضى يصور كيف انتقم للمسرجة ، فذبح الكبش ومزقه بالمُدَى وألقى به في القدور وكيف أن السنانير والحِداة والغربان والكلاب طعمت من لحمه وعظامه ، وكان ذلك عرساً لها جميعاً بدون مزامير ومغنين . وتلك عاقبة البغي ، مصرعه وخيم . ودخل داره بعضُ أصدقائه ورأى أن يعبث به ، ولفته ثلث قرطاس كان يحتفظ به أبو الشبل ، فأخذه ولم يُعلمه بما صنع ، فلما مرت بعض أيام جاء صديقه ، فأنشدته مرثية طويلة لذلك الجزء من القرطاس ، وفيه يقول :

فِكْرُ تَغْتَرِي وَحُزْنُ طَوِيلُ وَسَقِيمٌ أَنْحَى عَلَيْهِ النَّحُولُ
لَيْسَ يَبْكِي رَسْمًا وَلَا طِلَامَةً حَ كَمَا تُنْدَبُ الرَّبِّي وَالطَّائِلُ^(٢)
إِنَّمَا حَزَنُهُ عَلَى ثُلْثٍ كَا نَ لِحَاجَاتِهِ فَعَالَتُهُ غَوْلُ^(٣)

(٣) غالت : أهلكته .

(١) الكوي : الخروق في الأبواب والنوافذ .

(٢) مح : عفا ودرس .

كان للسر والأمانة والكين مان إن باح بالحديث الرسول

وضحك صديقه طويلا : واعترف له بأخذه ، وردّه عليه . وهذا هو أبو الشبل ماجن خليع ، يسرف في الخلاعة والمجون ، بل في الاستهتار والتهتك ، وهو مع ذلك صاحب نوادر ، لا نوادر يحكيها فحسب ، بل نوادر حدثت له كان يحكيها وينظم فيها أشعاره .

عبد الله^(١) بن العباس بن الفضل بن الربيع

حفيد الفضل بن الربيع وزير الرشيد والأمين ، نشأ في الحلية والترف والنعيم ، وقد عني أبوه بتعليمه وتنقيفه حتى أحسن الشعر ، وكان يقوله على الطبيعة مُرسلاً نفسه على سجيته ، لا يتكلف فيه ولا يتعسّل . ويقول أبو الفرج شعره مطبوع ظريف مليح المذهب من أشعار المترفين وأولاد النعم ، ويقول : كما كان شاعراً مطبوعاً كان مغنياً محسناً جيد الصنعة . ويقال إن سبب تعلمه الغناء أنه تعلق بجارية لعمته رقية كانت تتقن الغناء ، تسمى عسّاليج ، شغفت قلبه حباً ، فكان يلزمها بعلة الغناء ، وكان يأخذ عنها وعن صواحبها ما أحسنه من الأصوات والأدوار ، حتى أقرن له بالحدق . وصار يلزم من يختلفون إلى بيته من المغنين أمثال إسحق الموصلي ، وكاد لا يترك لهم صوتاً دون أن يأخذه . وكان جوارى الحارث بن بسخسر وابنه محمد يدخلن إلى داره فيطرحن على الجوارى بها ما ليس عندهن من غناء . وكل ذلك أتاح له أن يتثقف بالغناء ، بل أن يصبح ماهراً فيه . وترفع شهرته في إحسانه إلى آذان الخلفاء ، فيطلبونه اسماع أغانيه ، وكان أول من طلبه الواثق ، وله فيه أصوات مدحه بها ، وغنّاه فيها فلاه طرباً ، من ذلك ما يروى من أن الواثق عوفى من مرض ألمّ به فطلبه مع طائفة من المغنين ، فلما صار قريباً من مجلسه بحيث يسمع صوته ضرب على عود مغنياً بيتين قالهما في طريقه إليه على هذا النمط :

١٠ / ٣٦ والديارات من ٦٣ وما بعدها
وذيل زهر الآداب من ١١٥ .

(١) انظر في عبد الله وحياته وأشعاره الأغاني
(طبعة الساسي) ١٧ / ١٢١ وتاريخ بغداد

اسلمْ وعمرْكَ الإلهَ لأمةً بك أصبحتْ قهرتْ ذوى الإلحادِ
لو تستطيعَ وقتك كلَّ أذيةٍ بالنفس والأموال والأولادِ

وكان الواثق يغمره بجوائزه وصلاته ، وغمره من بعده المتوكل بالأموال ، ويقصُّ صاحب الأغانى من ذلك بعض أخبار ، وله فيه أيضاً مدائح قصيرة كان يغنيه بها فيهتز طرباً ، وفيه يقول :

أكرمَ الله الإمامَ المرتضى وأطال الله فينا عمرة
سره الله وأبقاه لنا ألف عامٍ وكفانا الفجره

وكان يغنى الخليفين والمتنصر من بعدهما فى غزل كثير من أشعار السابقين وفى كثير من غزله الذى نظمه فى عساليج وفى غيرها من الجوارى اللاتى فتن قلبه وفى مقدمتهن مصابيح جارية الأحذب المقيمين وكانت تغنى فى كثير من شعره . وهى جارية نصرانية هام بها قلبه هياماً شديداً ، ويقال إنه كان يلزم بيع النصارى فى أعيادهم من أجلها شغفا بها ، وفيها يقول :

تتشنى بحسنٍ جيدٍ غزالٍ وصليبٍ مفضضٍ آبنوسٍ
كم رأيت الصليب فى الجيد منها كهلالٍ مكذلٍ بشموسٍ

وتردد فى غزله أسماء الأعياد المسيحية كما يتردد ذكر كثير من الديارات مثل دير سرجس ودير قوطا القريب من بغداد ، وكان ينزل فيهما أياماً مع بعض رفاقه ، يشربون ويقصفون ويسمجنون ، وله بصور ما كان من هذا المجون والقصف والشراب مع بعض صحبه فى دير قوطا ، إذ يقول :

يا دَيْرَ قُوطَا لقد هيجت لى طرباً أزاح عن قلبى الأحزان والكربا
كم ليلةً فيك واصلتُ السرور بها لما وصلتُ لها الأدوار والنخبأ
فى فتية بذلوا فى القصف ما ملكوا وأنفقوا فى التصابي المال والنشبأ^(١)

وهو يكثر من الحديث عن صاحبه النصرانية وعن جوارى البيع والأديرة ،
وكأنما كان قلبه يتبعهن جميعاً ويتمنى أو استطاع أن يجنى معهن زهرات الحب ،
أو لو أتيح له ذلك من حين إلى حين ، ومن قوله في إحدى جوارى الدير
السالف :

وشادنٍ ما رأت عيني له شَبهاً في الناس لا عَجماً منهم ولا عرباً
إذا بدا مقبلاً ناديتُ واطرباً وإن مضى مُعْرِضاً ناديتُ : واخرَباً
ويصرّح مراراً بأنه لا يحب سوى خمر الأديرة المعنقة ، لما كان يخامرهُ فيها من
سكرين : سكره بالخمر الحقيقية وسكره برؤية الراهبات المتبتلات ومن يراهن
هناك من العذارى الفاتنات . وله يتحدث عن خمر قرية من قرأهن تسمى كركين
وعن يوم الشعانين وهو العيد المسيحي الذي يقع في يوم الأحد قبل عيد
الفصح :

ألا أصبحاني يومَ الشعانين من قهوةٍ عُنُقَت بِكَرْكِينِ
عند أناسٍ قلبي بهم كَلِفٌ وإن تولّوا ديناً سوى ديني

ومن الحق أنه لم يكن يُبقي لنفسه شيئاً من الحشمة في مجونه، وهو من هذه
الناحية شبيه بأبي الشبل، بعيد الشبه من الحسين بن الضحاك مع أنه كان مثله يعاشر
الخلفاء والأمراء ، وكان هذه العشرة كانت شيئاً سطحيّاً ، وهو نفسه كان حفيد
وزير ومن أسرة رفيعة أو أرستقراطية . وربما جاءه ذلك من أنه كان لا يفيق من
الخمر ، إذ يقول أبو الفرج إنه كان يشرب الصَّبُّوح كل يوم من دهره ما عدا أيام
الجمع وشهر رمضان ، فهو نهاره سكران ، وكذلك كان ليله . ومثله يسفّ ويهبط
إلى الدنيّات ، لذلك لا نعجب إذا رأينا الشابشي يقول عنه : « كان صاحب غزل
ومجون كثير التطرح في الديارات والحانات والاتِّباع لأهل اللهو والخلاعة » . ومع
ذلك له غزل كثير رقيق اشتهر به بين معاصريه، ويُروى أن ابن الزيات وزير
الواثق وكان أديباً بارعاً في الشعر والنثر قال له : أنشأني شيئاً من شعرك ، فقال
إنما أعبت ببعض الأبيات ، ولست بمكان من ينشدك شعره ، فقال له : أتقول هذا
وأنت القائل :

يا شادناً رامَ إذ مَ رَ في الشعانين قَتَلِي
تقول لي كيف أَصْبَحَ ت كيف يُصْبِحُ مثلي

أنت والله أغزل الناس وأرقهم شعراً ، ولولم تقل غير البيت الأخير لكفاك
ولكنت شاعراً مجيداً . وروى له الأغاني أشعاراً كثيرة كان يغنى فيها هو وعسايبج
ومصاييح وغيرهما من مغنيات العصر ومغنيه . ومن الأصوات التي طرب لها الواثق
طرباً شديداً حين غَنَّاهُ بها قوله :

بأني زورٌ أتاني بالقلسِ قمت إجلالاً له حتى جلست
فتعانقنا جميعاً ساعة كادت الأرواحُ فيها تُختلس
قلتُ يا سؤلى ويا بذرَ الدجى في ظلام الليل ما خفت العسس
قال : قد خفتُ ولكنَّ الهوى آخذُ بالروح مني والنفس
زارني يَخطِرُ في مشيته حوله من نور خديهِ قبس

والقطعة بديعة في خواطرها وفي تصويرها للهيام بالمعشوق ، وللمعشوق نفسه وجماله
الساحر الوضي ، وأيضاً في صياغتها وموسيقاها . وشعر عبد الله كله شعر وافر الموسيقى ،
وهو شيء طبيعي لأنه كان يغنيه ويوقعه على آلات الطرب ، وكان الجوارى والمغنون
من حوله يغنون فيه ، فكان يضعه في نسق موسيقى ، تشترك فيه آذانه الداخلية : أذن
الشاعر وأذن المغنى وأذن الموسيقى ، شركة تصفيه من كل الأدران ، فإذا ألفاظ الشعر
متلاحمة مع قوافيه تلاحماً إلى أبعد حدود الدقة ، فلا عوج ولا انحراف لا في
لفظ بل لا عوج ولا انحراف في حرف ولا في حركة ، إذ يعم الانسجام والإحكام .
وهذا الأثر الموسيقي في الألفاظ والحروف والحركات كان يرافقه أثر آخر في الأوزان
إذ نرى عبد الله يشغف بالأوزان المجزوءة والأخرى القصيرة حتى يوفر لأغانيه أو قل
لبعضها كل ما يريد من خفة ورشاقة موسيقية .

شعراء الزهد والتصوف

هذه الموجة من اللهو والمجون إنما كانت مقصورة على البيئات المترفة التي أفسدها الترف وعلى الحانات والأديرة ومن كان يختلف إليها من الناس والشعراء؛ ولم يكونوا يؤلفون إلا شطراً ضئيلاً من الجمهور. أما شطور الجمهور الأخرى فلم تكن تعرف الترف ولا كانت تنغمس في الخمر والإثم، إنما كانت تعرف شظف العيش وتعرف تقوى الله وتجده فيها ما يعينها على احتمال أعباء الحياة، مما جعلها تنصرف إلى سماع الوعاظ في المساجد ببغداد وغير بغداد وسماع أهل الحديث والفقه والتفسير. وكانت دائماً تدوى في آذانهم كلمات الوعاظ والنسّاك وما يدعون إليه من رفض الدنيا ومتاعها الآثم والتفكير في مصير الإنسان وما ينتظره من ثواب وعقاب في الآخرة. وكان هؤلاء النسّاك والوعاظ كثيرين كثرة مفرطة، وكان لكثير منهم حلقات في المساجد يستدير الناس من حولهم فيها لسماع ما يتحدثون به عن الوعد والوعيد وعذاب النار ونعيم الجنان والمحشر وما يكون فيه من أهوال. وفي كل مكان نجد بينهم قصصاً يقصّون على الناس من سير الأنبياء والأئمّة الدائرة ما يدفعهم دفعاً إلى العمل الصالح. وتقرأ ترجمات هؤلاء القصاص والوعاظ فتحس فيهم إيماناً صادقاً وورعاً مخلصاً، وكانوا كلما عرض خليفة أو وال على شخص منهم عملاً أو منصباً رفضه في إصرار، مؤثراً حياته الخشنة على اللباس اللين والطعام الطيب والماء البارد، حياة كلها خشوع وزهد واحتقار لمتاع الدنيا في جانب ما أمّل من متاع الآخرة. وظل نفر منهم يرافق الجيوش في الثغور واعظاً وقاصّاً ومذكراً بما أعدّ الله للمجاهدين والمستشهدين من ثواب عظيم، على نحو ما هو معروف عن أبي العباس الطبري المتوفى سنة ٣٣٥، وكان من أخشع الناس قلباً إذا قصّ، ويروى عن موته أنه قص على الناس بطرسوس (من ثغور الشام) فأدركته روعة مما كان يصف من جلال الله وعظمته وملكوته فخرّ مغشياً عليه من الموت^(١).

(١) طبقات الشافعية للسبكي ٥٩/٣.

ولا نبالغ إذا قلنا إن القصاص والوعاظ جميعاً كانوا من هذا الطراز ، وكانوا لذلك قريين من قلوب العامة ، وقد استطاعوا أن ينشروا موجة حادة من الزهد ، لافى الطبقة العامة وحدها ، بل أيضاً في الطبقات الأرستقراطية ، على الأقل من حين إلى حين ، كأن نرى واعظاً يقف بين يدي هذا الخليفة أو ذاك محذراً من الظلم وعواقبه وداعياً إلى الإقبال على ما عند الله ونسبذ متاع الحياة الزائل ، أو مخوفاً منذراً بالموت وما بعده من العذاب الأليم والنعم المقيم . وطبيعي — والزهد قوت العامة في حين كان المجنون قوت الخاصة — أن يتعلق بالنظم فيه أكثر الشعراء ، حتى شعراء المجنون أنفسهم نرى لهم شعراً زاهداً كثيراً على نحو ما هو معروف عن أبي نواس في العصر الماضي فقد كان الشعر الذى تتطلبه العامة والذى تجد فيه غذاءً مشاعرها وعواطفها ، مما جعل الشعراء ينظمون فيه قصائد ومقطوعات كثيرة . وكان الخلفاء إذا سمعوا منه شيئاً غلبهم التأثير حتى لو كانوا في مجلس شراب على نحو ما يروى عن المتوكل فإن الحِمَاني نقيب العلويين في الكوفة الذى ترجمنا له في الفصل الماضي دخل عليه وهو في مجلس شراب ، فأنشده ^(١) :

باتوا على قُللِ الأَجبال تحرسهم غلبُ الرِّجال فما أَغْنَتْهُمُ القُللُ
واستنزِلوا بعد عِزٍّ من معاقلهم فادْعُوا حُقراً يابِئسَ مانزلوا
ناداهمُ صارخٌ من بعد ما قُبِروا أين الأَسرةُ والتَّيجانُ والحُللُ
وأفصح القَبْرُ عنهم حين ساءَ لهم تلك الوجوه عليها الدودُ يَقتتلُ
قد طالما عَمروا دوراً لثَحصنهم ففارقوا الدورَ والأهلين وانتقلوا

ومضى في موعظته وبكى المتوكل بكاء طويلاً حتى بَلَّتْ دموعه لحيته وبكى مَنْ حضره ، وأمر برفع الشراب ، وكأنما ثاب إلى رشده . ومن كان يكثر في العصر من الوعظ في شعره العتاهية وأشعار أبيه الزاهدة مشهورة . ويقول ابن المعتز عن الأب إنه كان ناسك الظاهر وكان خبيث الدين يذهب مذهب التَّسَنُّويَّة ، أما الابن فكان صحيح الدين ورعاً وولى القضاء برهة ، ويروى له موعظة حاثية يستهلها بقوله ^(٢) :

(٢) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٦٤ .

(١) مروج الذهب ٤ / ١١ .

أراذك شَيْبٌ في السَّوَادِ يَلُوحُ يَبْتَ بِأَسْبَابِ الْبِلَا وَيَنُوحُ

والموعظة تدور على أن الشيب ناقوس الموت . وقد بدأ يدق بقوة ، فعمّا قليل ستزهق الروح . ويذكر المرزباني شاعراً معاصراً للمعتر من المعتزلة ، ويقول إن له أشعاراً يحض فيها على القول بالعدل والتوحيد المبدئين المعروفين في الاعتزال ، ثم يذكر له أشعاراً^(١) كلها مواعظ ودعوة إلى التقوى ، وتخويف من الموت وما بعده . وقد قلنا آنفاً إن شعراء اللهو ومن وراءهم من شعراء الخمر كثيراً ما نظموا في الزهد ، ولا يكاد شاعر ممن ترجمنا لهم يخلو ديوانه أو تخلو أشعاره من بعض أبيات زاهدة ، وفي ديوان ابن المعتز والصنوبري وابن الرومي زهد كثير ، ولعل أحداً لم يرسم صورة الزاهد في هذا العصر كما رسمها ابن الرومي في قصيدة بديعة من قصائده ، نكتفي منها بالأبيات التالية^(٢) :

بات يَدْعُو الواحد الصمدا	في ظلام اللَّيْلِ منفردا
في حَشَاهُ من مَخَافَتِهِ	حُرُقاتٌ تَلْدَعُ الكَا
كَلِمَا مَرَّ الوعيد بِهِ	سَحَّ دَمْعُ العَيْنِ فَاطْرَدَا
قَائِلٌ : يا منتهى أَمَلِي	نَجْنِي مِمَّا أَخَافُ غَدَا
وخطيئاتي التي سَلَفَتْ	لستُ أَحْصِي بعضها عددا
وَيَحَ عَيْنِي سَاءَ مَا نَظَرْتُ	وَيَحَ قَلْبِي سَاءَ مَا اعْتَقَدَا

وهذه الموجة الحادة من الزهد أخذت تلتقي بها منذ أواخر القرن الثاني الهجري موجة صوفية ، تعد وليدة الموجة السابقة ، ومرّ بنا في الفصل الثاني حديث مفصل عن نشأتها وتطورها ومقوماتها وكيف أنها قامت على فكرة المحبة الإلهية وما يتصل بهذه الفكرة من إنكار الذات ومن التوكل على الله توكلًا خالصًا . ونمضي في العصر ويلقانا ذو النون المصري الذي يُعَدُّ الأب الحقيقي للتصوف ، وهو أول من تكلم عن المعرفة الصوفية فارقاً بينها وبين المعرفة العلمية والفلسفية التي تقوم على

(١) معجم الشعراء ص ٤٠٨

(٢) ديوان ابن الرومي (نشر كامل كيلاني)

الفكر والمنطق ، على حين تقوم المعرفة الصوفية على القلب والكشف والمشاهدة ، فهي معرفة باطنة تقوم على الإدراك الحدسي ، ولها أحوال ومقامات ، ومن قوله يخاطب ربه ^(١) :

أَمُوتُ وما ماتتُ إِلَيْكَ صَبَابَتِي وَلَا قُضِيَتْ مِنْ صِدْقِ حُبِّكَ أَوْطَارِي
تَحْمَلُ قَلْبِي فِيكَ مَا لَا أَبْثُهُ وَإِنْ طَالَ سَقَمِي فِيكَ أَوْطَالَ إِضْرَارِي

ويخلفه أبو يزيد البسطامي فيذيع فكرة الفناء في الذات الإلهية ، كما مر بنا في غير هذا الموضع ، ويقصد بها تجرد النفس عن رغباتها وقسمعها لشهواتها وانمحاء إرادتها في الإرادة الإلهية . ونغضى حتى نلتقي بالجنيد رأس الطبقة الثانية من المتصوفة ونراه يعبر عن فئاته في الذات الربانية بمثل قوله ^(٢) :

أَفَنَيْتَنِي عَنْ جَمِيعِي فَكَيْفَ أَرْعَى الْمُحَلًّا

وهو الذي عمل على ترسيخ نظام الطرق والمريدين في التصوف ، وكان يكثر من العبارات والشطحات الموهمة في مواعظه . وكان يعاصره أبو الحسن النوري ، وكان شاعراً ، ويكثر في أشعاره من التعبير عن الحب الإلهي وفكرة الفناء في الذات العلية بمثل قوله ^(٣) :

تَأْمَلْ بَعِينَ الْحَقِّ إِنْ كُنْتَ نَاطِرًا إِلَى صِفَةٍ فِيهَا بَدَائِعُ فَاطِرٍ
وَلَا تُعْطِ حَظَّ النَّفْسِ مِنْهَا لَمَّا بَهَا وَكُنْ نَاطِرًا بِالْحَقِّ قَدْرَةَ قَادِرٍ

ويلقانا أبو الحسين سَحَنُونُ الْخَوَاصِ ، وله شعر كثير في المحبة الربانية وما يصحبها من وجد لا يماثله وجد وشوق لا يماثله شوق ، وكذلك في فكرة الفناء المطلق في الله بحيث لا يصبح في المتصوف أي فضل لإحساس أي شيء من حوله ، فقد فنيت فيه جميع الصفات والرغبات ولم تبق إلا رغبة واحدة هي رغبة الانمحاء في الذات الربانية التي تملك عليه كل شيء من أمره ، يقول ^(٤) :

(٣) السلمي ص ١٥٥

(٤) السلمي ص ١٨٩

(١) طبقات الصوفية للسلمي ص ٢٧ .

(٢) السلمي ص ١٥٦

وكان فؤادى خالياً قبل حبكم
فلما دعا قلبي هواك أجابه
رُميتُ ببينٍ منك إن كنتُ كاذباً
وإن كل شيءٍ في البلاد بأسرها
وكان بذكر الخلق يلهو ويمزح
فلمست أراه عن فنائك يبرح
وإن كنتُ في الدنيا بغيرك أفرح
إذا غبتَ عن عيني بعيني يعلُحُ

ومن تلامذة الجنيد المهمين أبو علي الرُّوذ باري ، وكان يقول : المرید الذی لا یرید لنفسه إلا ما أراد الله له ، یرید أنه هو الذی تفتی إرادته فی الإرادة الإلهية ، بحيث لا یحس المرید أو المتصوف شيئاً فی الـكون سوى الله ، وكان شاعراً ومن شعره فی فكرة الفناء وغیاب روحه عن حیسّ أي شيء من أشياء الـكون (١) :

روحي إليك بكلّها قد أجمعتُ لو أنّ فيها هُلكها ما أقلمتُ
تبكي عليك بكلّها عن كلّها حتّى يُقال من البكاء تقطعتُ

والبيتان يحدان فكرة الفناء وفكرة المحبة التي تخلّص النفس لربها . والفكرتان تنداخلان فی التصوف ، فالمحبة التي ننكر الذات تنتهي إلى فكرة الفناء والغیاب عن كل حَسٍّ وكل خاطرة إلا الذوبان فی الذات العلية . ونعرض لاثنتين من كبار المتصوفة بشيء من التفصيل وهما الحلاج والشبلي .

الحلاج (٢)

أشهر تلاميذ الجنيد هو الحسين بن منصور المعروف باسم الحلاج ويقال إن أباه هو الذي كان حلالاً جماً يخلج الصوف أو القطن أما جدّه فكان مجوسياً أسلم ودخل فی الدين الحنيف ، وقد نشأ فی مدينة تُستَمر ، فلزم سهلاً التسترى

والنجوم الزاهرة ٢٠٢/٣ وشذرات الذهب
٢٥٣/٢ وكتاب أخبار الحلاج (طبع
باريس) وكتاب فی التصوف الإسلامی
لنيكلسون (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر)
وكتابه الطواصين نشر ماسينيون بباريس
وكتاب ماسينيون عنه .

(١) السلمي ص ٣٦٧
(٢) راجع فی ترجمة الحلاج وأخباره وأشعاره
السلمي ٣٠٨ وتاريخ مسكويه ١/٧٦
والفهرست ص ٢٨٣ والفخری فی الآداب
السلطانية ص ١٩٢ وتاريخ بغداد ٨/١١٢
والطبري ١٠/١٤٧ وابن الأثير وتكملة
تاريخ الطبري ص ٢٣ وابن خلكان

الصوفي ، الذي أضاف إلى التوبة عند المتصوفة عنصر الندم ، والذي أخذ عن الشيعة فكرة عمود النور محل نفوس المؤمنين ، وكأن الله يتجاسى فيهم منذ البدء .

وقدم بغداد بعد أن أصبح مزوداً بكثير من المعارف وصحب الجنيد وأخذ عنه شطحاته وعباراته الطنانة الموهمة ، وبالغ فيها وأسرف إسرافاً شديداً ، ووقع في نفسه أنه أعلى من الجنيد في عالم التصوف وأرفع ، وأنه رقى مرتبة الكمال التي طالما حلم الجنيد ببلوغها دون أن يدركها . وفارقة متجهماً إلى أداء فريضة الحج وأقام بمكة سنة ، ثم أخذ يطوف في البلدان وتعرّف في طوافه على أبي بكر الرازي أشهر أطباء العصر وتخرج عليه في الفلسفة اليونانية وعلم الكيمياء ، وتعمق في طوافه ورحلاته حتى بلغ الهند ، وتعرف فيها على ما يشيع بها من السحر والشعوذة والنجيات . وفي عودته التحق بالقرامطة وتمثّل عنهم عقيدتهم . وأدى فريضة الحج للمرة الثانية ، وعاد إلى بغداد سنة ٢٩٥ للهجرة وأخذ ينشر بها آراءه في أن الزاهد إذا تحمل المشاق والآلام وظل يصنّي نفسه بالمجاهدات والرياضات المضنية انتهى إلى الدرجة الرفيعة التي يبتغيها إذ يتمثّل في نفسه حقيقة الصورة الإلهية التي سَوّأها الله فيه ، وبذلك يصبح هو والحق بمنزلة سواء . وجادله أستاذه الجنيد في هذه الفكرة طويلاً ، غير أن كثيرين من المريدين اجتمعوا حوله ، وأخذ يُكثر من الشطحات ومن الكلام الموهّم للكفر والخروج حتى على متصوفة عصره من مثل «أنا الله» ، ويقال إن الشبلي قال له : بل أنت بالله ، ومثل «أنا الحق» ، ويقال إن الجنيد قال له : بل أنت بالحق . ويبدو أنه كان يضيف إلى ذلك بعض الشعبدات والمخلوطات الكيمائية التي تعلمها على الرازي والنجيات التي تعلمها في الهند ، وأحاطت به ريب المعتزلة واتهموه بالزندقة ، وأثار الفقهاء عليه رجال الدولة ، فسيق إلى السجن لسنة ٣٠١ وظل فيه ثمانى سنوات ، كان يُسمَح له فيها بأن يزوره مريدوه وأن يتراسل مع من يشاء . وحاولت «شعب» أم الخليفة المقتدر وحاجبه نصر أن يخلصاه من السجن ، فدعا الوزير حينئذ حامد بن العباس قضاة المذاهب الأربعة لمحاكمته ، وانعقدت جلسات المحاكمة ، وتقدم الشهود ، وشهدوا بأنه ادعى الربوبية والنبوة ، ولكنه أنكر ذلك ، وثبت عليه أنه يقول بأن الحج ليس من الفرائض الواجب أدائها شرعاً . ولعل هذه التهمة هي التي دفعت الفقهاء إلى الفتوى بـ«بطلان» ، فقد أنكر ركناً أساسياً من أركان الدين . ويبدو أنه لم يكن يُحِيلُ المتصوف الذي بلغ مثل منزلته بالمجاهدات

الشاقة من فريضة الحج وحدها ، بل كان يحلُّه من جميع الفرائض رافعاً عنه التكليف إذ أصبح مساوياً للحق. ومن الممكن أن يكون دعا سراً للقرامطة وأن تكون هذه الدعوة من الأسباب في سجنه وصلبه . وقد نُفِّذَ الحكم عليه في الثاني عشر من ذي القعدة لسنة ٣٠٩ فضُرب ألف سوط ثم قُطعت يداه ورجلاه ، وحُزَّ رأسه ونُصب يومين على الجسر ، ثم حُمِلَ إلى خراسان فطيف به هناك ، أما جنته فأُحرقت وأُتِيَ برمادها في دجلة . وهرب مریدوه إلى خراسان وأخذوا يُحْيُونَ بها ذكراه ، وظلت خالدة على مرّ الأجيال بين متصوفة العرب والفرس والترك .

وكان أهم ما جعل بعض العلماء والناس في عصره حتى اليوم يذهبون إلى زندقته نظريته في الخالق وخلقته فقد كان يظهر أنه يؤمن في الخالق بتزييه كما يبدو ذلك في كلمات كثيرة له مثل : «إن الله تعالى لا تحيط به القلوب ولا تدركه الأبصار ولا تمسكه الأماكن ولا تحويه الجهات ولا يتصور في الأوهام ولا يتخايل للفكر ولا يدخل تحت كيف ولا يُنمَّت بالشرح والوصف » وهذا تنزيه مطلق عن التشبيه بال مخلوقات ولكنه كان يعود فيقول إن الإنسان إذا أقبل على تحمل المشاق والآلام انطبعت في نفسه الصورة الإلهية ، فالله يُرى فيه ، مع إيمانه بأنه غير مخلوقاته وأنه فوق كل شيء ، وهذا هو معنى قوله : أنا الله وأنا الحق ، فهو صورة له ، وليس هو بعينه ، وكأنما الأثر القديم : «إن الله خلق آدم على صورته» ، هو الذي جعله ينطق بالكلمتين السابقتين ، وهو لا يريد ظاهرهما ، إنما يريد أن الله يتجلّى فيه ، كما يتجلّى في خلقه ومن هنا أثر عنه أنه كان يقول : ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله فيه . وهو لم يستمد النظرية من الأثر السابق وحده فقد استمدّها أيضاً من نظرية الناسوت واللاهوت اللذين يؤلفان الطبيعة الثنائية للمسيح ، إذ آمن باتحاد الناسوت وهو الروح الإنساني في اللاهوت وهو الروح الإلهي ، وبذلك يظهر الله بصورته في الإنسان ، ونراه يصرح بذلك إذ يقول في الطّواسبين :

سُبْحَانَ مَنْ أَظْهَرَ نَاسُوتَهُ سِرّاً سَنَّا لَاهُوتَهُ الشَّاقِبِ
ثم بدا لخلقهِ ظاهراً في صورة الأكل والشارب
حتى لقد عاينَهُ خَلْقُهُ كَلْحَظَةِ الحَاجِبِ بِالْحَاجِبِ

وهو يشير في البيت الأول إلى آدم وفي البيت الثاني والثالث إلى ذريته ، فهم جميعاً ناسوت يُظهر أسرار اللاهوت ، ويصدق ذلك على الحلاج كما صدق عند المسيحيين على عيسى ، ومن هنا قال عن نفسه كما قدمنا : أنا الحق أو أنا الله ، ومثّل ذلك في عبارات طنانة ، وهو فيها تارة يشعر بالانفصال بين الطبيعيين وأنهما لا تتمزجان في مثل قوله : « اللهم إنك المتجلي من كل جهة المتخلي من كل جهة ، فإن بحق قيامك بحق وبحق قيامي بحقك ، وقيامك بحق يخالف قيامي بحقك ، فإن قيامي بحقك ناسوتية وقيامك بحق لاهوتية » ، وتارة ثانية يشعر بأنهما متمزجان امتزاجاً تاماً ، يقول مخاطباً ربه :

مُزِجَتْ رُوحُكَ فِي رُوحِي كَمَا تُمَزَجُ الْخَمْرُ بِالْمَاءِ الزُّلَالِ
فَإِذَا مَسَّكَ شَيْءٌ مَسَّنِي فَإِذَا أَنْتَ أَنَا فِي كُلِّ حَالٍ
وكانه يشاهد الله في ذاته ، أو كأنما حلّ اللاهوت فيه بالضبط كما آمن المسيحيون في المسيح ، فالروح الإلهية أو اللاهوت يحلّ فيه حتى لتشع أنواره في كل كيانه ، ويصور ذلك بمثل قوله :

حَوَيْتِ بِكُلِّي كُلَّكَ يَا قُدْسِي تَكَاشَفْنِي حَتَّى كَأَنَّكَ فِي نَفْسِي
وقوله :

أَنْتَ بَيْنَ الشُّغَافِ وَالْقَلْبِ تَجْرِي مِثْلَ جَرَى الدَّمْعِ مِنْ أَجْفَانِي
وَتَحُلُّ الضَّمِيرَ جَوْفَ فَوَادِي كَحُلُولِ الْأَرْوَاحِ فِي الْأَبْدَانِ
وهكذا تجرى على لسانه كلمة الحلول ، وكل ذلك يؤكد أنه تنقّف بالثقافة المسيحية وعرف ما قيل فيها من طبيعة المسيح معرفة بيّنة واستقر في نفسه أن كل ما قيل عن اللاهوت والناسوت فيه يصدق على كل متصوف جاهد جهاداً عفيفاً في الاتصال بربه ومحبه محبة تملك عليه الشغاف من قلبه ، حتى ليحس في قوة بالاتحاد معه ، مما جعله يقول :

أَنَا مَنْ أَهْوَى ، وَمَنْ أَهْوَى أَنَا نَحْنُ رُوحَانِ حَلَلْنَا بَدَنًا
فَإِذَا أَبْصَرْتَنِي أَبْصَرْتَهُ وَإِذَا أَبْصَرْتَهُ أَبْصَرْتَنَا

وقد رفع الرسول صلى الله عليه وسلم مراتب فوق جميع الخلق ، ويبدو أنه أول من أعد لفكرة الحقيقة الحمديدية ، وأن محمداً بتلك الحقيقة لا بصورته الجسدية يُعَدُّ مبدأ العالم ، إذ هو النور الذي تَفْجَّرَتْ من ينابيعه جميع أنوار النبوت ، بل هو مبدأ الوجود كله وتَبَعُهُ الفياض السابق لكل موجود ، أو بعبارة أخرى هو الحقيقة الإلهية السارية في الوجود .

وتكرر عنده كلمات الوجد ولهيبة المشتعل في القلب والسكر ونشوته التي تفقده وعيهِ والفناء الذي تفنى فيه جميع حواسه ، حتى ليرى كأن وجوده هو نفس وجود الذات العلية ، وفي ذلك يقول :

إذا بلغ الصَّبُّ الكمالَ من الهوى وغاب عن المذكور في سطوة الذكر
فشاهدَ حقاً حين يشهده الهوى بأن صلاة العارفين من الكفر

فكمال الحب الصوفي عنده أن يجاهد المتصوف ويعانى ويلقى الأمرين في حبه بمداومة ذكر محبوبه وتسبيحه حتى ليغيب عند ذكره حين تأخذه نشوته به ، فيغيب عن ربه ويغيب عن الوجود كله . وحينئذ يصل المتصوف إلى حال تجعله يؤمن بأن صلاة أمثاله من الكفر ، وهو يريد أنه حين يصل إلى هذه الحال يرتفع عنه التكليف . وبذلك يتضح أنه هو الذي أعد للانفصام بين أهل الحقيقة من المتصوفة وأهل الشريعة من الفقهاء . وظل هذا الانفصام قائماً بعده عند الغلاة من المتصوفة حتى رتب فتحة القشيري والغزالي في القرن الخامس الهجري . ويُسبِّدُ ويُعيد في تصوير مجاهداته وما يحتمل فيها من أهوال طوال وآلام ثقال ، كقوله في بعض مناجاته للذات العلية : « أنت نَعْلَمُ ولا تُعْلِمُ ، وتَسْرَى ولا تُسْرَى . . . وأنا بما وجدت من روائح نسيم حبك وعواطر قربك أستحققر الراسيات . وأستخف الأراضين والسموات ، وبحقك لو بيعت منى الجنة بلمحة من وقى أو بطرفة من أحر أناسي لما اشتريتها . ولو عرضت على النار بما فيها من ألوان عذابك لاستهونتُها في مقابلة ما أنا فيه من حال استتارك عني » . ومن قوله في وصف مجاهداته :

لقد ركبتُ على التغير واعجبا ممن يريد النجاة في المسلك الخطير
كأننى بين أمواج تقلبني مقلَّبٌ بين إصعاصٍ ومنحدر

الْحَزَنُ فِي مَهْجَتِي وَالنَّارُ فِي كِبْدِي وَالذَّمْعُ يَشْهَدُ لِي فَاسْتَشْهَدُوا بِصَمِي

وَلَعَلْنَا لَا نُسَبِّعُ إِذَا قُلْنَا إِنَّهُ هُوَ الَّذِي وَضَعَ فِي التَّصَوُّفِ الْإِسْلَامِي فِكْرَةَ أَنَّ
الْأَدِيَانَ جَمِيعًا تَوْدَى إِلَى اللَّهِ . وَفَقَط تَخْتَلِفُ شَعَائِرُهَا ، وَلَكِنَّهَا تَتَّحِدُ فِي الْغَايَةِ .
وَبِذَلِكَ تَخْطِئِي حُدُودَ الْإِسْلَامِ إِلَى حُدُودِ الدِّيَانَاتِ جَمِيعًا ، مِمَّا جَعَلَهُ يَقُولُ :

أَلَا أَبْلَغُ أَحِبَّائِي بِأَنِّي رَكِبْتُ الْبَحْرَ وَانْكَسَرَ السَّفِينَةُ

فَفِي دِينِ الصَّلِيبِ يَكُونُ مَوْتِي وَلَا الْبَطْحَا أُرِيدُ وَلَا الْمَدِينَةَ

وَهُوَ لَا يَرِيدُ أَنْ يَقُولَ إِنَّهُ انْسَلَخَ عَنِ الْإِسْلَامِ وَأَصْبَحَ لَا يَرِيدُ الْمَوْتَ فِي بَطْحَاءِ
مَكَّةَ وَلَا فِي الْمَدِينَةِ الْمُقَدَّسَةِ . إِنَّمَا يَرِيدُ أَنْ يَقُولَ إِنَّهُ يَرَى اللَّهَ فِي الْمَسْجِدِ وَفِي الدَّيْرِ وَفِي
كُلِّ مَعْبَدٍ مِنْ مَعَابِدِ الدِّيَانَاتِ . فَالْدِّيَانَاتُ جَمِيعًا عِنْدَهُ سَوَاءٌ . وَفِي الْحَقِّ أَنَّ أَشْعَارَهُ
وَأَقْوَالَهُ تَحْمِلُ كَثِيرًا مِنَ الْإِيْهَامِ وَالْغَمُوضِ حَتَّى لَتَصْبِحَ أَحْيَانًا - كَمَا فِي كِتَابِهِ
الطَّوَّاسِينَ - أَلْغَازًا خَالِصَةً .

الشُّبْلِيُّ (١)

كُنِيَّتُهُ أَبُو بَكْرٍ . وَاسْمُهُ دُكَلْفُ بْنُ جَحْجَحْدَرٍ . وَقِيلَ : جَعْفَرُ بْنُ يُونُسَ ،
وَقِيلَ جَعْفَرُ بْنُ دَلْفٍ ، وَقِيلَ غَيْرَ ذَلِكَ . وَأَصْلُ أَهْلِهِ مِنْ أَشْرُوسَةِ جَنُوبِي طَشْتَشْتَنْدُ
الْحَالِيَةِ . فَهُوَ تَرَكِي الْعِرَاقِ . رَفِيَ أَبُوهُ فِي قَصْرِ الْخِلَافَةِ حَتَّى أَصْبَحَ حَاجِبَ
الْحُجَّابِ ، وَكَانَ خَالَهُ يَلِي إِمْرَةَ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ بِمِصْرَ . وَيَبْدُو أَنَّهُ اسْتَعَانَ بِهِ فِي عَمَلِهِ
لَعَدَّةِ سِنَوَاتٍ إِذْ يَزْعَمُ بَعْضُ مَنْ تَحَدَّثُوا عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ مِصْرِيًّا وَأَنَّهُ وَرَدَ بَغْدَادَ مِنْ
مِصْرَ . وَقَدْ تَرَكْتَ مِصْرَ وَالْإِسْكَانْدَرِيَّةَ فِيهِ بَعْضُ طَوَّابِعِهِمَا . إِذْ نَرَاهُ يَعْتَنِقُ مَذْهَبَ

وَحِلْيَةُ الْأَوْلِيَاءِ لِأَبِي نَعِيمٍ ٣٦٧/١٠ وَتَبْلِيسُ
إِبْلِيسَ لِابْنِ الْجَوْزِيِّ ٣٤٧ وَشَذَرَاتُ الذَّهَبِ
٣٣٨/٢ وَرَوْضَاتُ الْجَنَاتِ ص ١٦٠ وَدِيَوَانُهُ
(طَبَعَ الْمَجْمَعُ الْعِلْمِيُّ الْعِرَاقِيُّ) بِتَحْقِيقِ كَامِلِ
مِصْطَفَى الشُّبْلِيِّ وَمَا ذَكَرَ فِيهِ وَفِي تَقْدِيمِهِ مِنْ
مَرَاجِعَ

(١) انْظُرْ فِي الشُّبْلِيِّ وَحَيَاتِهِ وَأَشْعَارَهُ السَّلْمِيُّ
ص ٣٤٠ وَتَارِيخُ بَغْدَادَ ٣٨٩/١٤ وَابْنُ
خُلِكَانَ وَنَشَوَارُ الْمَخَاضَةِ لِلنَّوْخِيِّ ١٧٢ وَالدِّيْبَاجُ
الْمَذْهَبُ لِابْنِ فَرَحُونَ ص ١١٦ وَصِفَةُ الصَّفْوَةِ
١٦١/٢ وَالْأَنْسَابُ لِلْسَمْعَانِيِّ الْوَرَقَةُ ٣٢٩
وَتَذَكُّرَةُ الْأَوْلِيَاءِ لِفَرِيدِ الدِّينِ الْعَطَّارِ ١٢٧/٢

المالكية الذي كان يعتنقه أهل الإسكندرية ومحافظة البحيرة القريبة منها . وعاد إلى العراق ، فقرّبه منه الموفق - ولي عهد المعتمد وصاحب الأمر من دونه في خلافته - واتخذّه حاجباً له ، ثم ولاّه دُنْبَاوَنْدَ . بالقرب من الرّىّ ويَحْدُثُ منه ما يجعل أمير الرىّ التابع له يصرفه عن عمله . وكان ذلك نعمة كبرى عليه ، فإنه انصرف إلى مجالس المتصوفة وخاصة مجلس خير النّسّاج تلميذ السّريّ السقّطى ، وأبى حمزة البغدادى وعلى يديه تاب وأتاب . ولم يلبث أن لحق بالجُنَيْدِ أستاذ الصّوفية ببغداد حينئذ ، ويقال إنه عاد إلى ولايته يستسمح الناس ويطلب منهم العفو إن كان قد أساء إلى أحد منهم وفرّق أمواله فى الفقراء ، ورجع إلى الجنيد فأخذه برياضات ومجاهدات عنيفة ، ويذكرون أنه قال له فى أول سلوكه الطريق : « لقد حدثونى أن عندك جوهرة العلم الرّبّانى . فلما أن تمنّيتها ، وإما أن تبعتها ؟ فقال له الجنيد : لا أستطيع أن أبيعكها فما عندك ثمّنها ، وإن منحتها لك أخذتها رخيصة فلا تعرف قدرها ، ألنّك بنفسك غير هَيَّابٍ فى عُبَابِ هذا المحيط مثلما فعلتُ ، فعلمك - إن صبرت - أن تظفر بها » . ومضى الشّبل يجاهد ويَضُنّى فى جهاده ويَشْتَمّى طوال حياة شيخه الجنيد حتى إذا توفى سنة ٢٩٧ صحب الحلاج ، وكان يزوره فى سجنه ، ولكنه لم يعتنق مذهبه الذى صورناه آنفاً وما اتصل به من أفكار اللاهوت والناسوت والحلول والاتحاد ورفع التكاليف الشرعية ، فقد كان يصل بقوة بين الحقيقة أو الحقائق الصّوفية والشرعية متابعاً أستاذه الجنيد فى اتباع الكتاب والسنة ، بل فى التفقه ورواية الحديث النبوى ، وبذلك لم يترك الحلاج فيه أى أثر . ويزعم بعض من تحدّثوا عنه من القدماء أنه كان شيعياً ، وقد عرفنا آنفاً أنه كان مالكي المذهب ، وهو لذلك يُسَلِّكُ مع أهل السنة . ويقال إنه لما قُتِلَ الحلاج خشى على نفسه ليردده عليه ، فتظاهر بالخجل لئلا يُمْتَسَحَنَ ، وأُدْخِلَ المارستان ، ثم خرج منه ، وتفرّغ للوعظ ، فكان ينعقد له مجلس أيام الجمع ، يحضره الناس على تفاوت طبقاتهم ، وكان يحضره على بن عيسى وزير المقتدر ، وذاع صيته ، فكان يقصده الطلاب والمتصوفة من كل فجّ . وما زال يحتلّ ببغداد هذه المكانة العليّة حتى توفى سنة ٣٣٤ للهجرة عن سبعة وثمانين عاماً .

وكان الشبلى فى تصوفه دائماً سُنِّيًّا ، فلم يكن يزعم لنفسه حال غيبة ولا ابتعد عن ظاهر الشريعة ، ويقال إنه سئل مَنْ أَسْعَدُ أَصْحَابِكَ بِصَحْبَتِكَ ؟ فقال : أَعْظَمُهُمْ حُرْمَاتِ اللَّهِ وَأَهْجَهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ وَأَقْوَمُهُمْ بِحَقِّ اللَّهِ وَأَسْرَعُهُمْ بِإِبَادَةِ اللَّهِ فِي مَرْضَاةِ اللَّهِ وَأَعْرَفُهُمْ بِقَضَائِهِ وَأَكْثَرُهُمْ تَعْظِيمًا لِمَا عَظَّمَهُ مِنْ حُرْمَةِ عِبَادِهِ . وكان يقول إن الله موجود عند الناظرين فى صُنْعِهِ مَفْقُود عند الناظرين فى ذَاتِهِ ، وسأله سائل : هل يتحقق العارف بما يبدو له ؟ فقال : كيف يتحقق بما لا يثبت ؟ وكيف يطمئن إلى ما لا يظهر ؟ وكيف يأنس بما يخفى ؟ ولم يلبث أن قال :

فَمَنْ كَانَ فِي طَوْلِ الْهَوَى ذَاقَ سَلْوَةً فَإِنِّي مِنْ لَيْلَى لَهَا غَيْرُ ذَائِقِ
وَأَكْثَرُ شَيْءٍ نَلْتُهُ مِنْ نَوَالِهَا أَمَانِي لَمْ تَصْدُقْ كَلِمَةً بَارِقِ
فهو لم يكن يقول حتى بالشهود فضلاً عن الحلول والاتحاد . وكان ينكر كل ما قيل ، أو بعبارة أدق كل ما قاله الحلاج عن تجلى الله فى عبده ومخلوقاته ، فالله واجب الوجود وخالق العالم شئ والعالم بكل ما فيه من مخلوقات شئ آخر ، وهو يخاطب ولكن لا يرى ولا يشاهد ، يقول :

وَخَاطَبْتُ مَوْجُودًا بِغَيْرِ تَكَلُّمٍ وَلاَحِظْتُ مَعْلُومًا بِغَيْرِ عِيَانِ
وكان يقول : « تعززت به وما افترقنا وكيف نفترق ولم يسجّر علينا حال الجمع أبداً » . وكان يتحدث كثيراً عن الأحوال والمقامات ، ويبعدى ويبعد فى الحديث عن حبه ، ومن قوله : « أَدْخَلْتُ الْمَارِسْتَانَ كَذَا وَكَذَا مَرَّةً ، وَأَسْقَيْتُ الدَّوَاءَ كَذَا وَكَذَا مَرَّةً ، فَلَمْ أَزِدْ إِلَّا جُنُونًا » ، وكثيراً ما كان ينشد قوله :

جَرَى حَبْلُكَ فِي قَلْبِي كَجَرَى الْمَاءِ فِي الْعُودِ

وقوله :

هَذِهِ دَارُهُمْ وَأَنْتَ مُحِبٌّ مَا بَقَاءُ الدَّمُوعِ فِي الْأَمَاقِ

ويطيل الحديث عن عذابه فى حبه وما يتحمل فيه من أهوال وما يسكب من دموع غزار ، حتى فى العيد ، فالناس فيه يفرحون ويبعدون الراح والريحان وآلات الطرب ، أما هو فينفضى إلى حزن شديد ونوح وتعديد ، حتى لكانما يحمل تحت

ثيابه قبراً ، فهو دائم البكاء دائم النواح ، يقول :

قَبُورُ الْوَرَى تَحْتَ التَّرَابِ وَلِلْهَوَى رِجَالٌ لَهُمْ تَحْتَ الثِّيَابِ قَبُورُ
وَعِنْدِي دُمُوعٌ لَوْ بِكَيْتُ بِبَعْضِهَا لَفَاضْتُ بِحُورٍ بَعْدَهُنَّ بِحُورُ

وكان يؤمن بالفناء في الذات الإلهية مثل أستاذه الجنيد ، ولكن لم يكن يَقْنَسِي فيه عن نفسه الواعية ، فتصوفه دائماً تصوف صَحْوٍ لا تصوف غَيْبٍ ، وإن بدا في كلامه أحياناً أن فناءه إنما يكون في حال غيبة من مثل قوله وقد سُئِلَ : متى يكون العارف بمشهد الحق ؟ فأجاب : إذا بدا الشاهد وفنيت الشواهد وذهبت الحواس واضمحَلَّ الإحساس » ، وذُكِرَ عنه أنه كان يقول : « هذا مجنون بنى عامر كان إذا سُئِلَ عن ليلى يقول : أنا ليلى ، فكان يغيب بليلي عن ليلى حتى يبقى بمشهد ليلى ويغيبه عن كل معنى سوى ليلى ، ويشهد الأشياء كلها بليلى » . ولكن ينبغي ألا نظن من مثل هذا القول أنه كان يؤمن بانمحاء التفرقة بين الشاهد والمشهود مثل الحلاج ، إنما يريد الإحساس بالفناء في الذات العلية ، ومن طريف ماله من ذلك قوله :

تَسْرَمَدَ وَقْتِي فِيكَ فَهُوَ مُسْرَمَدٌ وَأَفْنَيْتَنِي عَنِّي فَعُدْتُ مُحَدِّدًا
وَكُلِّي بِكُلِّ الْكَلِّ وَصَلُّ مُحَقِّقٌ حَقَائِقُ حَقٌّ فِي دَوَامٍ تَخْلُدًا
وقواه :

تَغْنَى الْعُودُ فَاشْتَقْنَا إِلَى الْأَحْبَابِ إِذْ غَنَّى
وَكُنَّا حَيْثَا كَانُوا وَكَانُوا حَيْثَا كُنَّا

وكان ينكر كل ما تورط فيه الحلاج من شعوزات ونيرنجيات مما رواه عنه بعض مريديه ، وتتردد على لسانه كثيراً كلمة السكر ، وسأله سائل : هل شاهد الله أحدٌ بحقيقته ؟ فقال : الحقيقة بعيدة ، ولكن ظنون وأمانى وحُسْبَان .

شعراء الطرد والصيد

مَرَّ بنا في كتاب العصر العباسي الأول أن الخلفاء والوزراء وعِدَّة القوم شَغِفُوا بالصيد والطَّرْد حينذاك وأن الشعراء وفي مقدمتهم أبو نواس نظموا طَرْدَ بَيَّات كثيرة، اختاروا لها وزن الرجز، ولأبي نواس نحو خمسين طَرْدَ يَّة أحسن فيها غاية الإحسان. واستمر الخلفاء وأبناءؤهم وكثير من الناس في هذا العصر يُؤَاعُونَ بالصيد، ومن كان يولع به من الخلفاء ولَعَمَّا شديداً المتوكل، إذ كان يُولَعُ بالفهود والصيد بها كما كان يولع بالشباك. ولعل خليفة في العصر لم يُشَغَفْ بالصيد كما شَغِفَ المعتضد ومَرَّ بنا في الفصل الثاني أنه كان يخرج لصيد الأسود، ويقال إنه كان يتقدَّم لها وحده، وفي ذلك يقول له بعض معاصريه^(١):

يا صائد الأسد إن صَيْدَ كُها لجامعٌ خَلَّتَيْنِ من رَشَدٍ
فَلَذَّةٌ تُجْتَنَى ومنفعةٌ للسالكين السَّبِيلِ والقَعْدِ^(٢)

ويذكر الصابى أنه كان يُسَنِّقُ يومياً سبعين ديناراً لأصحاب الصيد من البازياريين والفهَّادين والكلَّابيين^(٣). وورث ابنه المكتفى عنه هذه الهواية، فكان يولع بالفهود والعقبان والصيد بهما. وكان المعتز مثلهما يخرج للصيد في مواكب حافلة. وانتشر ذلك بين ذوى الوجاهة انتشاراً واسعاً. مما أهَّلَ لازدهار شعر الطرد في العصر، حتى كاد لا يكون هناك شاعر نابه لا ينظم فيه طَرْدَ يَّة بل طرديات، وقد مضوا ينظمونها في بحور وأوزان مختلفة غير مكتفين بالرجز، إذا نحن استثنينا ابن المعتز، وكأنه رأى أن يظل متمسكاً بوزنها القديم، أما معاصروه فرأوا الاتساع بها، بحيث تُنظَّمُ في أى وزن حسب مشيئاتهم الفنية، ولم يتركوا ضارياً من ضواري الصيد إلا وصفوه ولا جارحاً من جوارحه إلا نعتوه، نعتوا الكلاب

(١) المصايد والمطارد لكشاجم ص ١٧٣. (٢) كتاب الوزراء ص ١١ وما بعدها.

(٢) القعد: جمع قاعد.

والفهود والبزاة والشواهين والصقور والعقبان ، ونعتوا الصيد من حُدر الوحش وأتسبه
وثيرانه وبقره وظبائه ونعامه وكذلك من الأرانب والثعالب والذئاب والآساد والطير
والإوز ، وألما بآلاته من النّسبَل والسهم والنشّاب والفِخاخ والشباك والحبال المسماة
بالأوهاق التي تُجْعَلُ في أطرافها أنشوطة وتُرْمَى على الحيوان فتمسك بهنقه ،
والجسّاهق وهو بندق مدور من طين يُرْمَى به . وكان لهذا النشاط الواسع في الصيد وما
يتصل به من الشعر أثر في أن أخذت تُولَف كتب مختلفة في البَيَازة وفي المصايد
والمطارد . تفصّل القول في الصيد وآلاته وضواريه وجوارحه . وقد نُظِمت حينئذ
طرديات كثيرة . لا نستطيع أن نستقصيها ولا أن نستقصى شعراها أكثرتهم
المغرطة ، ونكتفي بالوقوف عند أعلامهم ، وأول من نقف عنده على بن الجهم ،
وكان قد خرج يوماً مع طاهر بن عبد الله بن طاهر أمير خراسان إلى الصيد واتفق
لهما في مَرَجٍ للزعفران كثيرٌ من الطير والوحش . فاصطادا منهما كثيراً بالبزاة
والصقور والشواهين والكلاب . وفي ذلك يقول (١) :

وَطِئْنَا رِياضَ الزَّعْفَرَانِ وَأَمْسَكْتُ عَلَيْنَا الْبُزَاةُ الْبَيْضُ حُمَرَ الدَّرَاجِ (٢)
وَلَمْ تَحْمِهَا الْأَذْغَالُ مِنَّا وَإِنَّمَا أَبْحَنَّا حِمَاهَا بِالْكَلابِ النَّوَابِجِ (٣)
بِمُسْتَرْوَحَاتٍ سَابِحَاتٍ بِطُونِهَا عَلَى الْأَرْضِ أَهْثَالُ السَّهَامِ الزَّوَالِجِ (٤)
وَمُسْتَشْرِفَاتٍ بِالْهُوَادِي كَأَنَّهَُا وَمَا عَقَفَتْ مِنْهَا رُؤُوسُ الصَّوَالِجِ (٥)
وَمِنْ دَالَعَاتٍ أَلْسِنًا فَكَأَنَّهَُا لِحَى مِنْ رِجَالٍ خَاضِعِينَ كَوَاسِجِ (٦)
فَلَيْتَنَا بِهَا الْغِيظَانَ فَلَيْتَا كَأَنَّهَُا أَنَا مُلُّ إِحْدَى الْغَانِيَاتِ الْحَوَالِجِ (٧)
قَرَنَّا بُزَاةً بِالصَّقُورِ وَحَوِّمْتُ شَوَاهِيْنُنَا مِنْ بَعْدِ صَيْدِ الزَّمَامِجِ (٨)

وهو يصور الصقور والكلاب تصويرات بدیعة . فنقار الصقر كأنه صوّلجان ،

الصوالج : جمع صولجان .
(٦) دالعات : مخرجات . الكواسج : جمع
كوسج وهو من لحيته على ذقنه دون عارضيه .
(٧) فلينا : فحصنا . الحوالج : اللائ
يخلص البذور من القطن .
(٨) الزمامج : جمع زنج : طير جارح
أصغر من العقاب

(١) ديوان على بن الجهم ص ١٢٠ .
(٢) الدراج : جمع دراج وهو طير ملون
الريش .
(٣) النوابيج : النوابيج .
(٤) مستروحات : تشم آثار الصيد .
سابحات : مسرعات . الزوالج : التي تنزلق بسرعة .
(٥) الهوادي : الأعناق . عقلت : تموجت .

والكلاب حين تَدْلَعُ ألسنتها لاهثات كأنما ألسنتها لحى مرسلة على الذقون ، وقد فحصت المرج البُرْزاة والكلاب فحصاً دقيقاً حتى لكانها أنامل دقيقة لسيدة تفلئ القطن وتخلص الحب منه ، فلا تبقى حبة محتبئة ، بل كل الحب يُسْتَخْلَصُ ، تستخلصه أنامل مرهفة . ومرّ بنا في الفصل الرابع تصوير البحترى اصيد الأسد وكذلك تصويره لصيده الذئب وقد لقيه في فلاة موحشة ، وهما لوحتان رائعتان . ولا بن الرومى غير قصيدة في الطَّرْدِ والصيد ، ونكتفي من طردياته بالقطعة التالية التى يصور فيها صَيْدَ صحابه للطير ، وقد تقلدوا أوعية حمراء من جلد أودعوها كثيراً من البُسْدُق الذى يُرْمَى به . وأشرعوا أقواسهم مسددين البندق منها للطير الهاجع وقت السحر ، يقول (١) :

وَجَدْتُ قِيسَ الْقَوْمِ فِي الطَّيْرِ جِدَّهَا	فَظَلْتُ سَجُوداً لِلرَّمَاةِ وَرُكْعَا
طَرَاخَ مِنْ بَيْضٍ وَسُودٍ نَوَاصِعِ	تَخَالَ أَدِيمَ الْأَرْضِ مِنْهُنَّ أَبْقَعَا (٢)
فَكَمْ ظَاعِنٍ مِنْهُنَّ مُزْمَعٍ رِحْلَةٍ	قَصَرْنَا نَوَاهِ دُونَ مَا كَانَ أَزْمَعَا (٣)
وَكَمْ قَادِمٍ مِنْهُنَّ مُرْتَادٍ مَنْزِلِ	أَنَاحَ بِهِ مِنَّا مُنِيخٌ فَجَعَجَعَا (٤)
هَنَالِكَ تَغْدُو الطَّيْرُ تَرْتَادُ مَضْرَعَا	وَحُسْبَانَهَا الْمَكْدُوبُ تَرْتَادُ مَرْتَعَا
مَبَاحٌ لِرَامِيهَا الرَّمَايَا كَأَنَّمَا	دَعَاها لَهُ دَاعِي الْمَنَايَا فَاسْمَعَا
لَهَا عَوْلَةٌ أَوَّلَى بِهَا مَا تُصَيِّبُهُ	وَأَجْدُرُ بِالْإِعْوَالِ مَنْ كَانَ مَوْجَعَا
وَمَا ذَاكَ إِلَّا زَجَرُهَا لِبَنَاتِهَا	مَخَافَةٌ أَنْ يَذْهَبْنَ فِي الْجَوِّ ضَيْعَا
وِظْلٌ صَحَابِي نَاعِمِينَ بَبُوسِهَا	وِظْلَتْ عَلَى حَوْضِ الْمَنِيَّةِ شُرْعَا (٥)

ويبث ابن الرومى فى وصفه حيوية خافقة ، فالطير ما تنى ساقطة ساجدة راکعة ، منها ما هبط إلى الأرض جُشَّةً هامدة ، ومنها ما هو فى سبيله إلى الهبوط ، وهى مطروحة فى الأرض أبيضها وأسودها ، وكأنما أصبحت الأرض أديماً مخططاً ،

(٤) الجمعية : صوت البعير ورغاؤه عند

إناخته .

(٥) شرعاً : واردة الماء .

(١) الديوان ص ٣٠٠ .

(٢) الأبقع : ما به سواد وبياض .

(٣) يريد بالنوى وجهته فى الارتحال .

مزمع : عازم .

وكم طائر كان يريد الارتحال فحالوا بينه وبين وجهته ، وكم طائر كان يريد المقام سقط دون أمنيته ، وهو يصرخ صراخ البعير عند إناخته ، لقد كان يريد المرتع الحصب فإذا هو يجد المصراع الذى لم يكن له على بال ، وكأنما دعاه ودعا رفاقه من الرمايا داعى الموت فأسمع وأصممتى ، والطير تُعْمَلُ غير متنبهة للرمى والرماة ، خيفة على بناتها من أن تضل الطريق فى الجو ، على حين تتراعى على حياض الموت ، يؤس ما بعده يؤس والصائدون ناعمون نعيمًا ما بعده نعيم . وقد عرضنا فى غير هذا الموضوع بعض طرديات لابن المعتز . وعلنا لا نبالغ إذا قلنا إنه أكبر شاعر نظم طرديات فى العصر . ويذكر مترجموه أنه صنّف كتابًا فى جوارح الصيد وضواريه ، ولا يكاد ضار أو جراح يُفْلِت منه فى شعره أو قل فى طردياته ، فمنها ما يصف فيه كلاب الصيد وفهوده ومنها ما يصف فيه بُزّاته وصقوره ، ومنها ما يصف شباكه وبندقه ، ودائمًا تجرى الكلاب وراء الطباء والأرانب حتى تصيدها وقلما أفلتت منها ، ومن قوله فى كلبة ماهرة فى الصيد^(١) :

قد أَغْتَدَى والليلُ كالغُرابِ دَاجِى القِنَاعِ حالكِ الخِضابِ
بكلبةٍ تاهتْ على الكلابِ تفوت سبِقاً لَحْظَةً المرتابِ
تنساب مثل الأرقم المنسابِ كأنما تنظر من شهاب
بمقلةٍ وَقَفٍ على الصوابِ

فهو يخرج بكلبته وقت السحر ، والليل لا يزال فى دُجَاه وحلوكته ، تصحبه كلبة تيسّاهة على الكلاب بسرعتها حتى لتسبق لحظة من وقعت فى نفسه الريبة ، فهو ينظر خِلْسَةً وفى سرعة يريد أن يتحقق من صحة رَيْبِهِ ، وهى تنساب زاحفة كأنها أفعى ، مسرعة لا تلوى ، ناظرة لا بعين لداسحة ، وإنما بشهاب قبس ، مقلة لا تخطئ الصيد ، بل دائماً تصيب وتصيد . ومن قوله فى وصف باز من بُزّاته^(٢) :

والمصايد والمطارد الكشاجم ص ٦٧ .

(١) الديوان وأشعار أولاد الخلفاء ص ٢٠٩ .

(٢) أشعار أولاد الخلفاء للصولي ص ٢٠٩ .

ذو مقلة تَهْتِكُ أَسْتَارَ الْحُجُبِ كَأَنَّهَا فِي الرَّأْسِ مَسْمَارُ ذَهَبٍ
يَعْلُو الشَّمَالَ كَالْأَمِيرِ الْمُتَنَصِّبِ أَمَكْنَهُ الْجَوْدُ فَأَعْطَى وَوَهَبِ
ذو مَنَسِرٍ مِثْلَ السَّنَانِ الْمُخْتَضِبِ وَذَنْبٍ كَالذَّيْلِ رَيَّانِ الْقَصَبِ^(١)
كَأَنَّ فَوْقَ سَاقِهِ إِذَا انْتَصَبَ مِنْ حُلْلِ الْكَتَّانِ رَانًا ذَا هُدُبِ^(٢)

وتشبيه مقلة البازي الصفراء بمسمار الذهب تشبيه بديع ، ويقول إنه يقف رافع الرأس كالأمير يفرق عطاياه ويهب ما يصيد ، ثم يصف منسره بأنه كسنان الرمح المخضب بالدماء من كثرة ما يصيد ، ويقول إن ذنبه كالذيل الزاهي بريشه ، وكأن فوق ساقه ثوباً أبيض من الكتان تسترسل أهدا به ، وله في باز آخر^(٣) :

فَارْسُ كَفٍّ مِثْلُ كَالِإِسْوَارِ ذُو جُوجُورٍ مِثْلَ الرِّخَامِ الْمَرْمَارِ^(٤)
أَوْ مَصْحَفٍ مُنَمَّمٍ ذِي أَسْطَارٍ وَمَقْلَةٍ صَفْرَاءٍ مِثْلَ الدِّينَارِ
تَرْفَعُ جَفْنًا مِثْلَ حَرْفِ الزُّنَّارِ وَمَخْلَبٍ كَمِثْلِ عَطْفِ الْمَسَارِ
وهو فارس كف لأنه يُحْمَلُ عَلَى الكف عادة . ويقول إن صدره مثل الرخام الناعم أو مثل المصحف المزخرف بالسطور ، أما مقلة فصفراء مثل الدينار ، وأما جفنه فكحرف الزنار الذي يضعه النصراني في أواسطهم تمييزاً لهم ، وأما المخلب فكعطفة المسمار . وله يصف فهدة^(٥) :

وَلَا صَيْدٌ إِلَّا بَوْتَابَةٌ تَطِيرُ عَلَى أَرْبَعٍ كَالْعَذَبِ^(٦)
فَإِنْ أُطْلِقَتْ مِنْ قِلَادَاتِهَا وَطَارَ الْغَبَارُ وَجَدَّ الطَّلَبُ
فَزُوبَعَةٌ مِنْ بَنَاتِ الرِّيحِ تُرِيكَ عَلَى الْأَرْضِ شَيْئًا عَجَبُ
تَضُمُّ الطَّرِيدَ إِلَى نَحْرِهَا كَضْمِ الْمَحَبَّةِ مِنْ لَا يَحِبُّ
فَأَرْجُلُهَا كَالْحَيُوطِ مِنْ خَفْتِهَا ، وَحِينَ تَطْلُقُ مِنْ قِلَائِدِهَا وَيَجِدُّ طَلَبُهَا لَطَائِدِهَا

- (١) المنسر لسباع الطير بمنزلة المتقار لغيرها .
(٢) رانا: ثوباً .
(٣) الديوان وديوان المعاني ٢ / ١٤٠ .
(٤) الجوجور: الصدر . المرمار : الناعم .
(٥) المصايد والمطارد ص ١٩٢ وأشعار أولاد الخلفاء ص ١٢١ .
(٦) العذب : خيوط ترفع بها الموازين .

ويعلموها الغبار لسرعة عَدْوِها تصبح كأنها زوبعة أو عاصفة من بنات الرياح ،
 مما يملؤك عجباً ، وإذا هي قد صادت الطريد وضمته إلى نَحْرِها وصدرها لا ضمَّ
 حنان ولكن ضمَّ عُدْوَان ، كضم الحبة من لا يحبها . وهو تصوير رائع . وللصنوبري
 طرديات مختلفة ، منها قوله في باز^(١) :

ذو مَنَسِرٍ أَقْنَى وَرُسْعٍ كَزُّ ومُخَلَّبٍ لَمْ يَعُدْ إِشْفَاً^(٢) الْخَرَزُ
 مُسْرَبِلٌ مِثْلَ حَبِيكَ الْقَرْزُ أو مِثْلَ جَزَعِ الْيَمَنِ الْأَرْزَى^(٣)
 لَمَّا لَزَزْنَا الطَّيْرَ بَعْدَ اللَّزِّ بِأَسْفَلِ الْقَاعِ وَأَعْلَى النَّشْرِ^(٤)
 آبَ لَنَا بِالْقَبَجِ وَالْإَوْزِ مِنْ جَبَلٍ صَلْدٍ وَمَرْجٍ نَزِّ^(٥)

وهو يصور منسره ومخالبه الحادة التي يَسْتَقْصُ بها على الطير انقضاءً فلا
 تستطيع منه خلاصاً ، ويصور ثيابه من الريش كأنها الحرير أو كأنها الجَزَع أو
 الحرز اليماني الذي تغنى به امرؤ القيس ، والطير مبشوة في القيعان وعلى المرتفعات
 وقد آب منها بكثير من الحجل والإوز . ومن قوله في الطَّرْدِ ووصف كلابه وما
 صادت من الوحش^(٦) :

يَا رَوْضَةً مِنْ حُلَلٍ مَا خَاطَهَا خِيَّاطُ
 الْوَحْشِ فِي أَرْجَائِهَا قِبَائِلُ أَخْلَاطُ
 غَادِيَتُهَا وَلَمْ يُقِمَّ أَعْلَامُهَا الْعَطَاطُ^(٧)
 بِأَكْلِبٍ لَوْ لَمْ تَطِرْ أَطَارَهَا النَّشَاطُ
 فَجِئْنَا وَالطَّلُّ عَلَى آذَانِهَا أَقْرَاطُ
 انبَسَطَتْ كَالشُّهْبِ لَا يُعْجِزُهَا انْبِسَاطُ

(١) ديوان الصنوبري ص ١٣٣ .

(٤) النشز : المرتفعات .

(٢) إشفا : نخرز .

(٥) القيج : الحجل . نز : به بعض
 المياه .

(٣) حبيك : محبوبك . القز : الحرير .

(٦) الديوان ص ٢٨٧ .

والجزع اليماني : خرز . أرزى : أبيض
 كالأرز .

(٧) العطاط : القطا .

وظفقت والوحش في مجالها بساط
صرعى تشق قمصها عنها ولا تخاط

وهو يبدأ بالحديث عن الروضة مكان الصيد وما انتشر عليها من حُلل الأزهار والأنوار ، ويذكر كثرة الوحش بها وأنه باكرها قبل أن يستيقظ القبطا وغيره من الطير مُرسلا عليها كلابه المسرعة التي تكاد تطير طيراناً ، غير آبهة ببرودة الطقس وما قرط به آذانها من الندى ، فقد زحفت وانتشرت كالشهاب الساطع ، تصرع كثيراً من الوحش وتشق عنه جلده وأديمه وتمزقه وتمزقاً لا يمكن رتقه . وكما يعرض لصيد البرّ يعرض لصيد البحر بصنانيره الشبيهة بالأظفار وبالشبكة وعيونها الكثيرة ، وفي ذلك يقول (١) :

أَفْضَلُ ما أَعَدَّتْهُ من العُدَّةِ وما حَوَى صَحْبِي بِهِ غِنَى الأَبَدِ
بَنَاتُ قَيْنٍ حَازَ في الحَذَقِ الأَمْسَدِ على مَقَادِيرِ مَخَالِبِ الصُّرَدِ (٢)
لَهَا رَعُوسٌ في أَعَالِيهَا أَوْدُ كَمَثَلِ أُنْيَابِ الأَفَاعِي وَأَحَدَ (٣)
عُجْنًا بِهَا من حيث ما عَاجَ أَحَدُ في ظِلِّ صَفْصَافٍ عَلَيْنَا قَدْ بَرَدَ (٤)
شَاطِئُ نَهْرٍ لَابِسٍ دِرْعَ زَبَدٍ ولم تَزَلْ تُرْسَلُ طَوْرًا وتُمدُّ
ثم بَعَثْنَا أَلْفَ عَيْنٍ في جَسَدٍ فَجِئْنَا بِمَثَلِهِنَّ في العَدَدِ
أَلْفٍ مِنَ الحَيَاتَانِ بَيضٍ كَالْبَرَدِ

وواضح أنه صَوَّرَ الصنانيير والصيد ثم الشبكة وما صور أفاء الله عليهم من الحياتان الكثيرة . ولعل من الخير أن نكتفي بهذا العرض عند أعلام الشعراء ، وأن نتركهم إلى شاعر اشتهر بكثرة طرد يئاته في العصر هو أبو العباس الناشي فقد كان مولعاً بالطرد والصيد ، وله طرديات كثيرة .

(١) الديوان ص ٤٧٥ .

(٣) أود : عوج إذ تشبه حرف الراء .

(٢) القين : الحداد صانمها . الصرد :

(٤) عجنا : عرجنا وانعطفنا .

طائر ضخم الرأس والمتقار وهو من الجوارح .

أبو العباس (١) الناشئ الأكبر

هو عبد الله بن محمد المعروف بابن شرشير ، من أهل الأنبار وفيها وُلد ونشأ ، ثم تركها إلى بغداد ، واستقر بها طويلاً ، وفيها تلقّن علم الكلام كما تلقّن كثيراً من العلوم ، وكان ذكياً ذكاء حاداً ، وصرف ذكائه في مناهضة العباقر من عالمه والعالم الخارجي ، إذ ألف كتاباً ينقض به منطق أرسطو وكتاباً ثانياً ينقض به آراء الخليل ابن أحمد في العروض ومثّل لقواعده بغير أمثله . وحاول أن ينقض علل النحويين . ونظم قصيدة طويلة في فنون العلوم والآداب بلغت أربعة آلاف بيت في روى واحد وقافية واحدة لم تصلنا ، وربما كانت منها الأبيات التي أنشدتها الحصري له في موضوعات الشعر وصفاته اللفظية والمعنوية . وكان شيعياً ، وربما شيعيته شى التي جعلته يترك بغداد عاصمة الدولة العباسية إلى مصر ويتوفى بها سنة ٢٩٣ للهجرة .

وله كتاب في تفضيل الشعر مما يدل على أنه لم يكن شاعراً ولا عالماً فقط بل كان أيضاً ناقداً ، وأهل هذا الكتاب هو الذي جعل أبا حيان التوحيدي يعجب به وينقده للشعر إذ يقول : « ما أصبت أحداً تكلم في نقد الشعر وترصيفه أحسن مما تكلم به الناشئ المتكلم ، وإن كلامه إيزيد على كلام قدامة وغيره ، وله مذهب حلو وشعر بديع واحتفال عجيب » ، وينقل أبو حيان في تضاعيف كتابه بعض ما قرأه له ، فمن ذلك حديثه عن دواعي الشعر وبواعثه ، وهو يجري على هذا النمط : « أول الشعر إنما يكون بكاءً على دِمَن ، أو تأسفاً على زمن ، أو نزوعاً لفراق ، أو تلوعاً لاشتياق ، أو تطلعاً لتلاق ، أو إعداراً إلى سفيه ، أو تغمداً لهفوة ، أو تنصلاً من زلّة ، أو تخضيضاً على أخذ بثأر ، أو تحريضاً على طلب أوتار ، أو تعديداً للمكارم ، أو تعظيمًا لشريف مقام ، أو عتاباً على طويّة أو متاباً من مقارفة ذنب ، أو تعهداً لمعاهد أحباب ، أو تحسراً على مشاهد أطراب ، أو

ومقالات الإسلاميين ص ١٨٤ ، ٥٠٠ وزهر
الآداب ١ / ٣٠١٧٧ / ٥٠ ، والمصايد والمطار
لكشاجم (انظر الفهرس) والعمدة لابن رشيق
٧ / ١ والديارات ص ٢٦ والفهرست ص
٢٥٥ وديوان المعاني ١ / ٢٥٤ و ٢ / ٢٢٨ .

(١) انظر في الناشئ حياته وأشعاره طبقات
الشعراء لابن المعتز ص ٤١٧ وتاريخ بغداد
١٠ / ٩٢ وابن خلكان والنجوم الزاهرة ٣ / ١٥٨
وشذرات الذهب ٢ / ٢١٤ والبصائر والذخائر
لأبي حيان ٢ / ١١٧ ، ٢٦٠ ، ٢٧٣ ، ٦١٩ .

ضرباً لأمثال سائرة ، أو قمرعاً لقوارع زاجرة ، أو نظماً لحكم بالغة ، أو تهيداً في حقير عاجل ، أو ترغيباً في جليل آجل ، أو حفظاً لأقديم نسب أو تدويناً لبارع أدب . والقطعة تلم في دقة بالبواعث النفسية لنظم الشعر ، فهو شاعر بصير بفنّه وبصناعته وقد روى له الحصري قطعة في وصفه لشعره يقول فيها :

يتحير الشعراء إن سمعوا به في حُسن صنْعته وفي تَأليفه
شَجَرٌ بدا للعين حُسنُ نباته ونَأى عن الأيدي جَنّا مَقْطُوفه

ويذكر من ترجموا له أنه كان شاعراً بارعاً غزير الشعر ، وسلكه ابن خلكان في طبقة ابن الرومي والبحتري ، ويبدو من بقايا أشعاره أنه نظم في موضوعات شتى ، منها ما يتصل بعلم الكلام وافتخاره بالمتكلمين عامة لما ينبرون من المشكلات الصعبة ، يقول :

مطالع الحق ما من شُبْهَةٍ غَسَقَتْ إِلَّا ومنهم لديها كوكبٌ يَقْدُ (١)
ومنها ما يتصل بالطبيعة وبالغزل ومجالس الأنس ، وصف أكثر عنايته على وصف الطرد والصيد وجوارحه وضواريه ومصيداته وآلاته . ويكفي لبيان كثرة هذا الجانب عنده واستنفاده لأكثر شعره أن نجد « كشاجم » يجعل أشعاره ركناً أساسياً صنع « كتابه المصايد والمطارد » فقد اعتمد فيه على طَرْدِ ياتِه اعتماداً شديداً ، وأول ما نقف عنده في هذا الكتاب طردية له في صيد أحد الكلاب يستهلّها على هذا النمط :

قد أَغْتَدَى والفَجَرُ في حِجَابِهِ لَمْ يَحُلِّلِ العُقْدَةَ من نِقَابِهِ
بِأَغْضَفٍ عَيْشُهُ من عَذَابِهِ من صَوْلَةٍ بِظُفْرِهِ وَنَابِهِ (٢)
يَرَّاحُ أَنْ يُدْعَى لِيُغْتَدَى بِهِ رُوحَةَ ذِي النِّشْوَةِ من شِرَابِهِ (٣)
يَحْطُ بِالْبُرْتَنِ في تَرَابِهِ خَطًّا يَدِ الْكَاتِبِ في كِتَابِهِ (٤)

والطريف في هذا الاستهلال أنه جعل الكلب كادحاً لا يقيم أوده إلا بعرق جبينه وصولاته بظفره ونابه ، وأيضاً فإنه جعله يشمر بنشوة ما بعدها نشوة حين

(١) غسقت : دجت وأظلمت . يقْدُ : يشتعل . (٢) يراح : يجد خفة ونشاطا .

(٢) أغضف : مسترخى الأذن . (٤) البرتن : الخلب

يندبه صاحبه للصيد ، وتستحيل الأرض كأنها مَشْتَقٌ أو صحيفة وهو يخطّ فيها
ببرائته ، ويُسْتَبَعُ كشاجم هذه الطَّرْدِية بطردية أخرى تطرّد على هذا السياق :

يا ربَّ كلبِ ربُّه في رزقه يَرى حقوقَ النفسِ دونَ حقِّه
متبعاً بِخُلُقِه لِخُلُقِه كأنما يملك عقْدَ رِقِّه
يَصُونُه بِجُلَّةِ ودِّقِه كأملي من مالك لِعِتْقِه (١)
تراد في تَسْرِيحِه ورَبِّقِه كعاشقٍ أضنادَ طولُ عشقِه (٢)
أصفر يُلْهِى العينَ حسنُ خُلُقِه كذهبٍ أبرزته من حُقِّه
ذو غُرَّةٍ فارقةٍ لفَرْقِه وذو حُجُولٍ بَيَّنَّتْ عن سَبْقِه (٣)

وقد جعل الناشئ ربَّ هذا الكلب وصاحبه يقدِّمه على نفسه في غذائه ،
ويأتسى به ، حتى لكأنما يشق أخلاقه من أخلاق هذا الكلب أو قل السيد المطاع
الذي يملك رقه . وإنه ليرعاه في كل كبيرة وصغيرة . وكأنه عبد يتقرب لمالكه بكل
ما يصونه ويحفظه حتى يفك رقبته ويرد عليه حريته . ويعود إلى فكرة عشق الكلب
للصيد ، فيجعله حين يكون في ربقته وجبله كعاشق طال عليه البَيِّنُ والهجران ،
حتى أصابه ضنَّ شديداً ، ويتحدث عن حسنه وجمال صفرته الأخاذة وغرته في جبهته
وحجواه في سيقانه ، وبياضها يلمع في أثناء عدوه كأنه ضوء ساطع . وله في البازي
طرديات مختلفة يصور فيها حسنه وما خلع عليه الخالق من ريشه وجماله ،
وفيه يقول :

ألْبسه الخالقُ من ديباجِه ثوباً كفى الصانعُ من نِساجِه
حالُ من السَّاقِ إلى أوداجِه وشياً يحار الطُّرْفُ في اندراجِه (٤)
في نَسَقِ منه وفي انعراجِه وزانَ فَوْدِيَه إلى حِجاجِه (٥)
بزيْنِه كفتِه عزَّ تاجِه وظُفْرُه يخبر عن علاجِه
لو استضاء المرءُ في إدلاجِه بعينه كفتِه عن سراجِه
فانخالق جِلَّ شأنه كساه ثوباً من الدِياجِ يملأ النفسَ إعجاباً بوشيه وخطوطه

(١) الجل واللق : الكثير والقليل .

(٢) الربق : من الربقة وهي حبل يشد منه الكلب .

(٣) الحُجُول : بياض في سيقان الكلب .

(٤) الأوداج : عروق في العنق .

(٥) الحجاج : عظم الحاجب .

ونقوشه من ساقه إلى مفرقه وعلى رأسه ، وكأنما حَلَّاهُ بتاج كتاج الملوك المذائق بحليه وزينته ، ويذكر مخالبه الحادة حدة الإبر ، وعينه المضئ ضياء السراج في الليالي الداجية . وينظم في الصقر غير طردية ، وفي إحداها يقول :

سَيَاهُ مَنْ كَانَ بِهِ خَلِيقًا فَرَحًا صَغِيرًا مَا أَقَلَّ مَوْقَا
زَيْنُهُ بِرَأْيِهِ شَفِيقًا كَمَا يَصُونُ الْعَاشِقُ الْمَعشُوقَا
حَتَّى انْتَهَى وَحَمَلَ الْحَقُوقَا وَنَفَعَ الصَّاحِبَ وَالصَّدِيقَا

وهو يصور تدريب صاحبه له ، وكيف أنه رَبَّاهُ صغيراً وما زال يرعاه محبباً له حب العاشق لمعشوقه ، وما زال يثقفه ويدربه على الصيد ، حتى مهر فيه . وحتى أصبح يَجْلِبُ من الإوز وغيره ما ينفع به أصدقاء صاحبه وأحببائه . ومن قواه في وصف شاهين :

يَظَلُّ مِنْ جَنَاحِهِ الْمَزِينِ فِي قُرْطُيٍ مِنْ خَزَّةِ الثَّمِينِ^(١)
يَشْبَهُ فِي طَرَاذِهِ الْمَصُونِ بُرْدَ أَنْوَ شِرْوَانٍ أَوْ شِيرِينِ
ذُو مَنَسَرٍ مُحَدِّدٍ مَسْنُونِ وَافٍ كَشَطْرِ الْحَاجِبِ الْمُقَرُونِ
مَنْعُطٍ مِثْلَ انْعَاطِافِ النُّونِ

وهو يتحدث عن جمال هذا الشاهين وتلاوين ريشه التي تجعله يلبس قرطفاً أو قباء مفوفاً من الحرير كأنه ثوب أنوشروان أو ثوب شيرين زوج كسرى أبرويز . وإن منسره أو مخلبه المنحني كحرف الراء ليشبه شطر حاجب مقرون أو كأنه انعطاف حرف النون . وله طردية طريفة في وصف صيد الطير بالجتلا هو أو البندق . تحدث فيها عن صيد الكراكي . وهي طير طويل المتقار والرجلين . مفردة كركي . ويسمى الغرنق وجمعه غرائق . ويطرد وصفه عند الناشئ على هذا النمط :

وَهَوْرِدُ يُجْدِلُ قَلْبَ الْوَامِقِ مَنْظَمٌ بِالْغُرِّ وَالْغَرَانِقِ^(٢)

(١) القرطى : قباء ذو طابق واحد . الغر : طير الغرائق : الكراكي .
(٢) يجدل : يسر . الوامق : مديم النظر .

وكلَّ طيرٍ صافِرٍ أو ناعقٍ مكتهلٍ وبالغٍ ولاحقٍ
 مَوْشِيَّةٍ الصدور والعواتقِ بكلِّ وَشِيٍّ فاخِرٍ وفائقٍ^(١)
 تختال في أجنحةٍ خوافقِ كأنما تختال في قرَاطِقِ
 يَرْفُزْنَ في قُمْصٍ وفي يَلامقِ كأنهن زَهْرُ الحَدائقِ^(٢)
 حُمْرِ الحِدَاقِ كُحْلِ الحِمَالِقِ كأنما يَجُلْنَ في مَخَانِقِ^(٣)

وهو يصوّر مورداً عذباً يسر قلب الناظر إليه رُصّع بالطير والكرامى من صافرة وناقة وكبيرة وصغيرة، إذ وُشِّيت في صدورهما وكواهلها بوشى بديع، وقد اكتست أجنحتها بقراطق وأقبية أنيقة، بل إنها لترفل في كُسُوة ذات تلاوين حتى لكانها زهر حدائق مختلف الأصباغ والنقوش. وهى هناك بأحداقها الحمر وجفونها المكحولة، تطوق أعناقها القلائد الباهرة. وفي كتاب المصايد والمطارد بجانب الطرديات السابقة طرديتان في صيد الأسد، ونرى الناشئ يصوره في إحدهما بهذه الصورة الفذة:

رُبَّ ذِي سَبْلَيْنِ قَسُورَةٍ قد أَحْمَّ الحَيْنُ في أَجْمَةٍ^(٤)
 لا ترى حَيًّا يُطِيفُ به لا ، ولا يَدْنُو إلى حَرَمَةٍ
 كَمِجَنٍّ الحرب هَامَتُهُ وكَعُورٍ الغارِ رَحْبُ قَمَةٍ^(٥)
 وكأنَّ البرق ما قدحتْ عَيْنُهُ بِاللَّحْظِ من ضَرَمَةٍ
 وكأنَّ الموتَ مُعْتَرِضٌ بين لَحْيَيْهِ ومُلْتَشِمَةٌ

وهو يقول إن هذا الأسد القسورة هبط به القضاء في عرينه، إذ حان حينه، بعد أن كان الناس لا يلمنون بحرمه مخافة بأسه وسطوته، لما ملأهم به من الرعب والفرع والهلح، ويقول إن هامته كانت مثل ترس حرب صلابة وقوة، وكان فيه كالغار

(١) العواتق : الكواهل .

(٢) اليلامق : جمع يلقى وهو نوع من القباء .

(٣) الحمالق : جمع حمالق ، وهو باطن

جفن العين . الخائق : القلائد .

(٤) أحم : نزل . الحين : الموت . الأجم : بيت الأسد

(٥) المجن : الترس .

يسقط فيه كل ما يتقضمه ، أما عينه فمن شدة توقدها كانت كأنها البرق الخاطف ،
وكان الموت كان يحجم على فمه بين لحييه وملتشمه .

والناشيء وراء طردياته أشعار كثيرة تدل على أنه حقاً كان صاحب شاعرية
خصبة ، وقد رفدها مبكراً بثقافته الكلامية التي أعدته ليحاور ويداور أرسطو
والخليل بن أحمد وعلماء النحو واللغة ، ولا ريب في أنها وصلته بكل ينابيع الثقافة
في عصره يونانية وغير يونانية ، ويقول من ترجموا له إنه كان يقول في خلاف كل
معنى قالت فيه الشعراء ، غير أنهم لم يوردوا لنا شيئاً من هذا القول ، إنما أوردوا له
هنا وهناك بعض أبيات رائعة الصور من مثل بيتيه اللذين أنشدناهما في الفصل الرابع
وهما في وصف سحاب هاطل .

وفي الحق أنه كان يعرف كيف يولد الصور وكيف يستخرجها من مكانها
وكيف ينظمها شعراً عذباً ، يحفل بكل ما يملأ النفس إعجاباً به على شاكلة
قوله :

متعاشقان مُكَّانَ هَوَاهُمَا قد نام بينهما العتابُ فطابا
يتناقلان اللحظَ من جَفْنَيْهِمَا فكأنما يتدارسان كتابا
وقوله :

يلوح في خدّه وَرْدٌ على زهرٍ يعود من حسنه غَضًا إذا قُطِفَا
والزهر في البيت طبعاً هو زهر النرجس الذي تشبه به العيون ، وعبر عن
القبلة بأنها اقتطاف لورد الحدود ، وجعلها تثير فيها من الحمرة ما يعود بها غَضَّةً
إلى أول مُجَسَّنَاها وباكورتها . وله :

ليس شيء أحرَّ في مُهْجَةِ العَا شق من هذه العيون المراضِ
والخدودِ المضرَّجاتِ اللَوَا شيب جِرْيَالُهَا بِحُسْنِ البِيَاضِ
وطروقِ الحبيبِ والليلِ دَا حين هَمَّ السَّارُ بِالْإِغْمَاضِ

فهذه العيون مع مرضها فتورها تندلّع في قلب العاشق قطعاً من النار ، وتدلّع فيه نفس القطع الحدودُ المشربة بالحمرة ، ويشعله إشعالا ، زيارةُ المحبوبة ليلا ، وقد همَّ السُّمَّارُ بالنوم . والقطعة جيدة ، ويبدو أنه كان قريباً من نفوس الجوارى في بلدته ، فابن المعتز يروى أنه اجتمع مع بعض رفاقه على الشراب في بعض المتنزهات ومعهم قينة محسنة طيبة الصوت ، وما زالت تغنيهم حتى إذا أنشدتها مقطوعة له ختمها بقوله :

وقد آذنونا بوقت الرحيل فإن كنت تهويني فارحلي

يقول ابن المعتز : فلما سمعت الجارية هذا البيت وقعت في قلبها النيران ، وكانت تهواه ويهواها ، فقامت وارتحلت معه ، لكلفها به . واجتمع مع رفاق آخرين ، ودعوا مغنية ، فجاءت ومعها رقيقة جميلة ، فلما أخذ الشراب منه ومن صحبه طلب رقعة وكتب فيها ، موجهاً حديثه إلى تلك الرقيقة :

فديتك لو أنهم أنصفوك لردوا النواظر عن ناظرِك
تردين أعيننا عن سواك وهل تنظر العين إلا إليك
وهم جعلوك رقيقاً علينا فمن ذا يكون رقيقاً عليك
ألم يقرءوا - ويحهم - ما يرو ن من وحي حُسنك في وجنتيك

ولعل في كل ما أسلفنا ما يدل بوضوح على روعة الملكة الشعرية عند الناشئ ، وهي ملكة استطاع أن يتغذوها بالثقافات المعاصرة له ، فإذا هي تُصَقِّلُ وإذا هي تزداد خصباً ، وإذا الناشئ لا يزال يُطْرَف سامعيه بخواطر وأخيلة طريفة رائعة .

شعراء شعبيون

لا نغلو إذا قلنا إن الشعر العربي دائماً كان موصولاً بالشعب ، اتصل به في العصر الجاهلي ، فقد كان الشاعر وشعره صورةً لقبيلته ، وظلت له هذه الصلة

فى العصر الأموى، وإن تحولت أحياناً من الشعور القبلى إلى الشعور الجماعى، أما منذ العصر العباسى الأول فقد أخذ يغلب الشعور بالروح الجماعية ويقلّ الشعور بالروح القبلى، حتى إذا كان هذا العصر نضب هذا الشعور جداً بينما ظلّ الشعور بالروح الجماعية حياً مشتعلاً. وكان من أهم العوامل فى ذلك أن جمهور الشعراء كان من الطبقة العاملة، وقلما نبغ شاعر من الطبقة الأرستقراطية. حتى من عاش من هؤلاء الشعراء حول موائد الخلفاء وفى قصورهم ظلّ موصولاً بروح الشعب، فهو يتغنّى بتقوى الخليفة وبما ينشر من العدالة التى لا تصلح حياة الرعية بدونها. وكانوا يمدحون أبطال المعارك الحربية معبرين عن روح الشباب والحمية الوطنية والإسلامية. وإذا كان المديح يتصل بروح الشعب على هذا النحو فأولى لغيره من أغراض الشعر أن تكون صلته أوثق وأقوى. وحتى حياة الحجون وما اتصل منها بوصف الأعياد الإسلامية والمسيحية والفارسية وملاهيها كان يُحسّسها الشعب وتعيشها على الأقل فى تلك الأعياد أسراب منه. أما شعر الزهد والتصوف فكان يُلقي على العامة وكان من وحي حياتها وما يسرى فيها من شظف وضنك وإعسار. وبهذا الأسلوب نفسه يمكن الوصل بين الغزل والفنون الأخرى وبين الشعب، ولكن ليس هذا ما نريده من الشعر الشعبى الذى نتحدث عنه، فنحن نريد منه نوعاً خاصاً، هو النوع الذى يصور ما كانت عليه الرعية من تعاسة وبؤس، فالخلفاء والوزراء والأمراء وذوو الوجاهة ومن لحق بهم من بعض المغنين والشعراء يعيشون فى النعيم وأدواته ووسائله مستمتعين بالحياة أقصى ما يكون الاستمتاع دون أن يبذلوا أى جهد ودون أن يحتملوا أى عناء، على حين ترزح عامة الشعب تحت أثقال البؤس الممضّة جائعة ظامئة، غير آمنة من العبث والطفغان اللذين صورناهما فى فصل الحياة الاجتماعية. وكان طبيعياً أن يكثر الشعراء الذين يصورون ما يتجرّعون ويتجرّعه الشعب من الفقر والإمعان فى البؤس والتعاسة. ومن المؤكد أن جُلّ ما نظموه ضاع، لأنهم من أبناء الشعب، وهم عادة لا يهمهم تسجيل ما ينظمونه، بل هم آخر من يهتم بمثل هذا الشرف، وحتى ما سجّل من هذا الشعر لم يسجّل معه اسم صاحبه إلا نادراً^(١).

وقد هَيَّأَ هذا البؤس لظهور طائفة بين الناس تُعرَف بالمُسكدين ، وأولُ من تحدث عنهم الجاحظُ في مطالع كتابه البخلاء ، وهو يورد فيه أسماءهم وحيثياتهم في اقتناص الدراهم من الناس ويصوِّر البيهقي أعمالهم ونواديرهم ^(١) ، وهم جماعات من المتسولين وكان ينضم إليهم كثير من الأدباء والشعراء ، وهم يكوّنون في العصر طبقة كبيرة ، طبقة تتكسب بالتحامق وإضحاك الناس .

وخير من يصوِّر طائفة الشعراء المكدين حينئذ أبو العبير ^(٢) العباسي الذي عاش في هذا العصر إلى خلافة المنتصر وكان قد ظل خمسين عاماً يَحْيَا حياة جادة إلى أن ولى المتوكل فترك الجِدَّة وعدل إلى الحمق والشهرة به ، ويقال إنه لم يكن في عصره صناعة إلا وهو يعملها بيده حتى العجين والخبز : وفي بعض أحاديثه ما يدل على أنه كان ببغداد لعصره معلمون يعلمون الأحداث الهزل ، وأنه أخذ عن معلم منهم ما عُرِف به من قلب الكلام رقاعة إذ كان يقول له ولرفقائه : أول ما تصنعون قلبُ الأشياء فكنت أقول إذا أصبح كيف أمسيت ؟ وإذا أمسى كيف أصبحت ؟ وإذا قال لي : تعال ، تأخرت إلى الخلف . ويقال إنه حاول أن يملِك المتوكل إليه فقلب زِيَّه إذ جعل في رجله قلنسوتين وعلى رأسه خُفّاً (حذاء) وجعل سراويله قميصاً و قميصه سراويل . فلما لمح المتوكل قال علىَّ بهذا المُشكلة ودخل عليه فقال له : أنت شارب إني أضع الأدهم (القيد) في رجلك وأنفيك إلى فارس ، فقال تَوّاً : ضَع في رجلي الأشهب وانفني إلى راجل ، فقال المتوكل أتراني في قتلِكَ مأثوم ؟ فقال : بل ماء بصل ، فضحك المتوكل . ويقال إنه أخذ منه أكثر مما أخذه أي شاعر بالجدِّ ، وقد اتخذه في مجلسه أضحوكة ، فكان يرمى به في البركة التي وصفها البحري في بعض مدائحه ، وتُطْرَحُ عليه الشباك ويصُاد ، ويخرج وهو يقول :

ويأمر بي ذا الملك فيطرحني في البرك
ويصطادني بالشبك كافي بعض السمك

الخلفاء الصولي ص ٣٢٣ والأغاني (طبع
السامي) ٨٩ / ٢٠ والفهرست ص ٢٢٣
والوفا بالوفيات (طبع إستانبول) ٤١ / ٢ .

(١) المحاسن والمساوى ٤١٣ / ٢
(٢) انظر في أبي العبر وحياته وأخباره وأشعاره
طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٤٢ وأشعار أولاد

وسأله ثعلب العالم النحوى المشهور: الظَّبْبِيُّ معرفة أو نكرة؟ فأجابه: إن كان مشوياً على المائدة فعرفة وإن كان فى الصحراء فهو نكرة، فقال ثعلب له: ما فى الدنيا أعرفُ منك بالنحو. وكان يَسْجُلُسُ الغلمان «الأدبائية» إليه ليسجلوا كلامه، مما جعله يصنّف لهم كتابَ جامعِ الحماقات ومأوى الرقاعات وكتاب نوادره وكتاب المنادمة، ويُروى أن غلاماً سأله: لم صار نهر دجلة أعلى من نهر الفرات والقطن أبيض من الكمأة (ثمرّة صحراوية أرضية) فأجابه: لأن الشاة ليس لها منقار وذنب الطاووس أربعة أشبار. وكان بهذا وأشباهه تروج بضاعته عند المُكْنَدِينَ من الأدبائية وغير المكدين، وسُئِلَ عن لغته التى يتكلم بها وما فيها من استحالات أى شىء أصلها؟ فقال: إني أبكرُ فأجلس على الجِيسِرِ ومعى دواة وقرطاس فأكتب كل شىء أسمعُه من كلام الذاهب والجانى والملاحين والمُكَارِين حتى أملأُ القرطاس من الوجهين، ثم أقطعه عرضاً وألصقه مخالفاً فيجىء منه كلام ليس فى الدنيا أحق منه. وكان ما يزال يُعْرَبُ فى كل ما ينظم من شعر، ملتزماً للغة العامة وما يشبهها، ومن قوله فى بعض غزله:

وباضَ الحبُّ فى قلبى فَوَاوَيْلى إذا فَرَخَ

ويستمر فى مثل هذا الهزل، وكان ينصح بعض شباب الشعراء من حوله أن يقولوا الشعر جيداً جيداً وإلا فليكن بارداً بارداً مثل شعره، ومما رواه له ابن المعتز من كلامه الهزلى البارد المضطرب الوزن قوله:

أنا أنا أنت أنا أيا أبو العبرنة
أنا الفتى الحمقوقو أنا أخو المجنة
أنا أحرر شعرى وقد يعجى بَرْدَنَّة

وواضح أنه أضاف إلى أبياته النون المشددة الهاء هزلاً وطلباً للإضحاك من حوله. وله أشعار من هذا النمط كلها هزل ودعابة، وقد اتخذ الشعراء «الأدبائية» الذين خلفوه إماماً لهم فى مثل هذا الهزل وما كان يَسْلُكُه فى أشعاره من ألفاظ العامة وأساليبهم الركيكة.

ومن شعراء الكُندية الذين ذهبوا مذهب أبي العبر في التحامق والهزل أبو العجل^(١) وله أشعار كثيرة يدعو فيها إلى اتخاذ التحامق حرفة ، وأى حرفة ، لقد درت عليه خيراً كثيراً وأموالا وبغالا وغلماًناً : يقول :

أيا عاذلي في الحُمق دَعَى من العذلِ فإني رَخِيُّ البَالِ من كثرة الشُّغْلِ
ومُرني بما أَحْبَبْتَ آتِ خِلافَهُ فَإِنْ جِئْتَنِي بِالْجِدِّ جِئْتُكَ بِالْهَزْلِ
وإن قلتَ لي : لِمَ كان ذاك؟ جوابه لأنني قد استكثرت من قِلَّةِ العقلِ
فأَصْبَحْتُ في الحَمَقَى أميراً مؤمراً وما أَحَدٌ في الناس يمكنه عَزْلِي
وصير لي حُمَتِي بَغَالاً وَغِلْمَةً وكنت زمانَ العقلِ ممتطيّاً رِجْلِي

فلا داعي للعذل واللوم فإن حرفة الكُندية جعلته سيداً مطاعاً وأثرت به نثره واسعاً ، وأصبح الناس لا يضيّقون به ، بل يرحّبون به في كل مكان . وكان الشعراء المكدون حينئذ يطوفون في بلدان العراق وغير العراق ، جَوَّالين مكثرين من الأسفار في الاحتيال لجلب الأموال . وفي ذلك يقول أبو العجل لبعض من عدلوه على كُدَيْتِهِ وحرفته :

أَعْلَى الحماقة لُمْتَنِي قد كنت مثلك أَوْلا
فدخلت مصرَ وأرضها والشامَ ثم الموصلا
وَقَرَى الجزيرة لم أَدْعُ فيها لِيَحْيَ منزلا
إِلَّا حَلَلْتُ فَنَاءَهُ بالعقل كي أتموَّلا

ومن اتخذ الكُندية حرفةً في العصر أبو عبد الله اليعقوبي وكان كثير الوصف لنفسه بالجوع والفقر والتطفيل ، وروى له المرزبانى أشعاراً^(٢) تدخل في الزهد . وتقف قليلا عند جمحظة والخبز أرزى وتصويرهما لبعض جوانب النزعة الشعبية .

(١) انظر فيه وفي أشعاره طبقات الشعراء لابن المعتز

(٢) معجم الشعراء ص ٣٩٩ .

جحظة (١)

اسمه أحمد بن جعفر من نَسْل البرامكة ، كان شاعراً حسن الشعر ، وكان يحسن الغناء على الطنبور كما كان يحسن فنوناً مختلفة مثل الطبخ والنجوم ، وله في الطنبوريين كتاب غير كتب أخرى في عدة فنون ، وكان من ظرفاء عصره وصاحب أخبار ومناذمة حاضر النادرة . وابن المعتز هو الذي لقبه بجحظة لقبه الذي اشتهر به إذ كان في عينه نتوء شديد ، وكان قبيح الوجه تقتحمه العيون ، وفي ذلك يقول ابن الرومي :

وَارْحَمْتَا لِمَنَادِيهِ تَحْمَلُوا أَلَمَ الْعَيْنِ لِلذِّقِّ الْآذَانِ
وكان الخليفة المعتمد يقرّبه منه ، ولكن بيوت الخلفاء لم تَفْتَحْ له بعده ، وِفُتِحَتْ بعض بيوت الوزراء مثل العباس بن الحسن وزير المكتفي وابن مقلة وزير المقتدر . وكان لا يُبْقَى على شيء يَصِلُهُ من خليفة أو أمير أو وزير ، فأكثر أيامه كانت بائسة ، ولولا صنعة الطنبورية لعاش معدماً . وهو من خير من يمثلون حياة الشعب التسعة ، فقد كان كثير من الحكام والوجهاء يزورون عنه لا لدمامته فقط ، بل أيضاً لما قيل من أنه كان دائماً وسخ الثياب ، وكان شيعياً ، فانصرف عنه كثيرون وأغلَقُوا أبوابهم في وجهه . وكل ذلك كان يدفعه دفعاً للاختلاط بأبناء الشعب وكانوا يتعلّقون بشعره ، فما إن ينظم شعراً حتى يدور في بغداد وحتى تتناقله المجالس ويرويه الشباب وغير الشباب ، حدّث هو نفسه ، قال : كنت يوماً عند عبد الله ابن المعتز فطلبت نَعْلِي فلم أجده ، فجعلت أقول :

يَا قَوْمُ مَنْ لِي بِنَعْلِي أَوْ فِي مَصْحَفٍ نَعْلٍ
يقصد بِنَعْلٍ يركبه . يقول : فسار هذا البيت حتى رواه الصبيان . وكان كثير من أشعاره الأخرى يرويها الصبيان أيضاً ، وكثير منها يحكي قصة يؤسه من مثل قوله :

الآداب ٢ / ١٣٧ وذيل زهر الآداب ص ١٤٩ وتكملة الطبري ص ٨ ، ١٩٠ والنجوم الزاهرة ٣ / ٢٥٠ .

(١) راجع في جحظة وأخباره وأشعاره تاريخ بغداد ٤ / ٦٥ والفهرست ص ٢١٤ ومعجم الأدباء ٢ / ٢٤١ وابن خلكان والديارات ص ٢١ ، ٤٧ ، ٩٧ وزهر

أنا الذى دينه إسعافُ سائله والضُرُّ يعرفه والبؤسُ والعَدَمُ
أنا الذى حُبُّ أهل البيتِ أفقره فالعدلُ مستعيرُ والجورُ مُبتَسِمُ

وهو يعلِّلُ لبؤسه من بعض وجوهه بتشيعه لأهل البيت كما أسلفنا ، وكأنا علمت
عوامل كثيرة على أن يعيش معيشة بائسة أكثر جوانبها ضيقٌ وإقلالٌ فى الرزق ،
وليس المهم أن يعيش تلك المعيشة ، ولكن المهم أن تتعمق أحاسيسه وأن يصدرَ
عنها بمثل قوله :

أَحْمَدُ اللهَ لَمْ أَقْلُ قَطُّ. يَا بَدْرُ وَيَا مُنْصَفَا وَيَا كَافُورُ
لا ، ولا قلتُ أَيْنَ أَيْنَ الشَّوَاهِدِ—يُنْ ووزَّانُنا وَأَيْنَ البَنُورُ (١)
لا ، ولا قيل : قد أَتَاكَ مِنَ الضُّيُوعَةِ بُرٌّ مَوْفَرٌ وَشَعِيرُ
أنا خَلَوُ من المَمَالِكِ والآءِ. لَكَ جَلْدٌ عَلَى الْبَلَا وَصَبُورُ
ليس إِلَّا كُثِيرَةٌ وَقُدَيْحٌ وَخُلَيْقٌ أَتَتْ عَلَيْهِ الدَّهْورُ

فهو ليس ممن يخدمهم الغلمان وتكتظُّ بهم داره من مثل بَدْرٍ وَمُنْصَفٍ
وكافور ، وهو ليس ممن يحتاج إلى ميزانٍ ووزَّانٍ يزن الحصاد ، لأنه ليس من
أصحاب الضياع الذين يَجْنُونَ من ضياعهم البُرَّ والشعير . ليس عنده أملاك
ولا ممالك إنما عنده الجلد والصبر على احتمال حياة الشظف والحرمان ، عنده ما
يَقْشُرُهُ من كِسْرَةٍ وقُدَحِ ماء وثوب خَلَقَ أَكَلَ الدهر عليه وشرب ، وقلبه يمتلئ
حسرة ولوعة ، فغيره يتقلب فى أعطاف النعيم وهو يتقلب فى أشواك الحسرات
والشقاء والعناء ، يقول :

الحمد لله ليس لى كاتبٌ ولا على باب منزلى حاجبٌ
ولا حمارٌ إذا عَزَمْتُ على ركوبه قِيلَ جَحْظَةٌ رَاكِبُ
ولا قَمِيصٌ يكون لى بدلا مخافةً من قَمِيصَى الذاهب
وأجرة البيتِ فهى مُقَرَّحَةٌ أَجْفَانِ عَيْنِي بِالْوَابِلِ السَّاكِبِ

إن زارني صاحبٌ عَزَمْتُ على بَيْعِ كِتَابِ لَشْبَعَةِ الصَّاحِبِ

فهو ليس من أصحاب الجاه والسلطان فلا كاتب له ولا حاجب ، بل ليس من أصحاب الوجاهة والثراء فلا حمار له يركبه لقضاء مهمَّاته كُسِّيَ كِسْوَةً حَسَنَةً ، ولا قميص له جديد بدلا من قميصه البالي ، وما أشد كدره ، فأجرة البيت وعجزه عن سدادهما ينغصانه ، بل يُبْكِيانه ، حتى لقد تَقَرَّحَتْ أَجْفَانُهُ لِكَثْرَةِ بَكَائِهِ ، ولا من رحيم يرق قلبه له أو يعطف عليه . وحتى إن زاره صاحب لم يجد ما يغذوه به ويطعمه له إلا أن يبيع كتاباً من كتبه يشتري له به بعض ما يقيم أودّه . فيا للبؤس وبِالْظُّلُمِ الصَّارِخِ الذي جعل أبناء الشعب يَتَكَدَّحُونَ وَيَضُنُّونَ وَالْحُكَّامُ يَسْجُونُونَ وَيَقْطِفُونَ ثَمَارَ أَعْمَالِهِمْ وَلَا يُسَبِّقُونَ لَهُمْ مِنْهَا إِلَّا الذَّلَّ وَالْهَوَانَ . وَيَنْتَابُهُ مَرَاراً الشُّكُّ فِي حِرْفَتِهِ الْأَدْبِيَّةِ وَتَأْلِيفِهِ وَمَا يَنْظُمُ مِنْ أَشْعَارٍ ، فيقول :

حَسْبِيَ ضَجْرَتُ مِنَ الْأَدَبِ وَرَأَيْتُهُ سَبَبَ الْعَطَبِ
وَهَجْرَتُ إِعْرَابَ الْكَلَامِ وَمَا حَفِظْتُ مِنَ الْخُطَبِ
وَرَهْنَتُ دِيْوَانَ النَّقَا نَضِ وَأَسْتَرَحْتُ مِنَ التَّعَبِ

فهو قد صمم على أن يهجر حِرْفَةَ الْأَدَبِ الَّتِي لَمْ يَجْنِ مِنْهَا سِوَى الشَّقَاءِ وَالْعَنَاءِ أما كتاب النقائض بين جرير والفرزدق فعن نفاسته رَهْنَتَهُ لِيَسُدَّ بِهِ رَمَقَهُ ، وكأنما أحسَّ فيه وفي غيره من كتب الأدب الَّتِي صَنَعَهُمْ عَلَى هَجْرَانِهَا أَعْبَاءٌ ثَقَالًا كَانَتْ تَسْهَظُ كَتْفَيْهِ ، فهو يتخلص منها ليريح ويستريح .

وكان طبيعياً أن يشتد سخطه — مع أبناء الشعب — على فساد الحياة السياسية في عصر المقتدر وأن يصبَّ جام غضبه على الوزراء الذين كانوا يعتصرون الشعب ليعيشوا هم والخلفاء والقواد في النعيم ، ولا ضَيْرَ مَنْ أَنْ يَعِيشَ الشَّعْبُ فِي الْجَحِيمِ ، لذلك كان طبيعياً أن يتمنى للوزراء أَنْ تَحْقِيقَ بِهِمُ الْكَوَارِثُ حَتَّى يَتَخَلَّصَ الشَّعْبُ مِنْ ظَلَمِهِمْ وَفَسَادِ حُكْمِهِمْ . وَيُرَوَّى أَنَّ بَعْضَ أَصْدِقَائِهِ دَخَلَ عَلَيْهِ فِي عَصْرِ الْمَقْتَدِرِ ، فَقَالَ لَهُ : مَا تَتَمَنَّى ؟ فَقَالَ تَوَّأَ : لَمْ يَبْقَ لِي مَشْيٌ غَيْرَ نَكَبَاتِ الْوُزَرَاءِ ، فَقَالَ لَهُ : قَدْ نَكَبَ ابْنُ الْفَرَاتِ ، فَقَالَ جَعِظَةً عَلَى الْبِدْيَةِ :

أَحْسَنُ مِنْ قَهْوَةٍ مَعْتَقَةٍ تَخَالِهَا فِي إِنْهَايَا ذَهَبَا

من كَفٍّ مَقْدُودَةٍ مَنَعَةٍ تَقْسِمُ فِينَا أَلْحَاطُهَا الْوَصْبَا^(١)
نَعْمَةٌ قَوْمٍ أَزَالَهَا قَدَرٌ لَمْ يَحْظَ حُرٌّ فِيهَا بِمَا طَلِبَا

فقد أفرحته نكبة ابن الفرات وانتشى بها كما ينتشى السكارى بالخمير
نشوة لا تتعد لها نشوة . ويشمت به لأن أحداً لم يُصب شيئاً مما كان فيه من
نعمة ، وإنه ليضيق به كما ضاق به الشعب ، إذ كان يملأ الأرض ظلماً وشرّاً
ونكراً ، وإنه ليبغضه ويبغض دولته التي حرمت الأحرار كل برٍّ وكل خير .
وكان يكثر من هجاء البخلاء الأشحاء الذين يقدمون الطعام للضيوف على كره منهم ،
وكثيراً ما يصوغ هذا الهجاء في قالب فكاهة من مثل قوله في صديق :

دعاني صديقُ لي لأَكُلَ القَطَائِفِ فَأَمَعَنْتُ فِيهَا آمِنًا غَيْرَ خَائِفِ
فَقَالَ وَقَدْ أَوْجَعْتُ بِالْأَكْلِ قَلْبَهُ رُوَيْدَكَ مَهْلًا فَهِيَ إِحْدَى الْمُتَالِفِ
فَقُلْتُ لَهُ : مَا إِنْ سَمِعْنَا بِهَالِكٍ يَنَادِي عَلَيْهِ : يَا قَتِيلَ الْقَطَائِفِ

وكانت القَطَائِفُ صادفت منه مسغبة وجوعاً شديداً ، فأكل منها أكل النَّهَمِ
وصديقه ينظر إليه شزراً ، فقال له : إني أخاف عليك التخمّة ، بل التلف والهلاك ،
فردّ عليه هذا الرد الظريف . وله في قوم ببخلاء يحفظون القرآن :

قد حفظوا القرآن واستعملوا ما فيه إلا سورة المائدة

وتُروى له أبيات مختلفة من هذا الطراز تدل على أنه كان حلو الدعابة على
الرغم من قبح وجهه وراثته ثيابه . وله هجاء كثير لاذع يدل على أنه كان سريع
الإحساس طويل اللسان . ولم يكن يخشى أحداً فهو يهجو الوزراء والحجّاب وغير
الحجّاب والوزراء ، وخاصة البخلاء منهم ، وكانوا يتحامونه لما يعلمون من شيوع
شعره على ألسنة الصبيان في الشوارع والأرقة . ومن قوله في ثقيّل :

يا لَفْظَةَ النَّعْيِ بِمَوْتِ الْخَلِيلِ يَا وَقْفَةَ التَّوَدِّيعِ بَيْنَ الْحُمُولِ

(١) مقدودة : رشيقة القد . الوصب :

يا طلعة النَّعْشِ ويا منزلاً أَقْفَرَ من بعد الأَنْسِ الحُلُولِ
يا نعمةً قد آذنتُ بالرحيلِ ونكسةً من بعد بُرءِ العليلِ

ويستمر طويلاً في وصف الثقيل بمثل هذه الصفات التي تجعله تمثلاً لكل شر ، وكأنما تجمعت له شرور الحياة في أسوأ صورها ، لكي يصممه بما يشاء منها ، وتتوالى الشرور في أبشع هيئاتها ، ويضع بينها طلعة النعش ونكسة العليل . وكان يلم بالديارات ، وقد روى الشاشي له بعض أشعار في الخمر كان يغنيها على طنبُوره من مثل قوله في دَيْرِ أَشْمُونِي وهو فيه :

سَقِيًّا لِأَشْمُونِي وَلَذَاتِهَا والعِشْرِ فِيمَا بَيْنَ جَنَاتِهَا
سَقِيًّا لِأَيَّامٍ مَضَتْ لِي بِهَا مَا بَيْنَ شَطِئِهَا وَحَانَاتِهَا

ويبدو أن إمامه بالأديرة كان قليلاً لقلّة أشعاره فيها ، وربما كان الذي أقعده عنها بؤسه الذي كثيراً ما كان يرافقه . وله في الغزل بعض قطع وأبيات طريفة من مثل قوله :

فَقُلْتُ لَهَا : بَخِلْتِ عَلَيَّ يَقْظَى فَجُودِي فِي الْمَنَامِ لِمُسْتَهَامِ
فَقَالَتْ لِي : وَصَرْتَ تَنَامُ أَيْضاً وَتَطْمَعُ أَنْ أَزُورَكَ فِي الْمَنَامِ

وقد توفي سنة ٣٢٣ عن سن عالية ، ويقال إنه عاش نحو قرن ، ولعل فيما أسلفنا من أشعاره ما يصور شاعريته الخصبية . وقد أسقطنا من أشعاره ما كان يستخدمه من الألفاظ والأساليب العامية ، وهي أثر من آثار شعبيته واختلاطه بالعامية في بغداد .

الخبزُ أرزى^(١)

اسمه نصر بن أحمد ، شاعر بصرى ، كان أمياً لا يكتب ولا يقرأ ، وكان يَحْبِزُ خُبْزَ الأَرزِ في دُكَّانِهِ بِمِـرْبَدِ البصرة يتكسب بذلك معاشه ، وفي أثناء عمله كان يُنْشِدُ أشعاره المقصورة على الغزل ، والشباب والناس يزدحمون عليه لاستماع شعره ، ويتعجبون من حاله وأمره ، وشعره يذيع في الناس لقرب مأخذه وسهولته . وعنى بعض معاصريه ممن كانوا يتتابون دُكَّانَهُ بجمع أشعاره ، وجمعوا له ديواناً ، وفي معهد المخطوطات بالجامعة العربية نسخة مصورة منه ، ويقول المسعودى فيه : « أحد المطبوعين المجودين في البديهة المعروفين بالغزل » . ويقول أيضاً : « أكثر الغناء المحدث في وقتنا هذا من شعره » . والخبز أرزى بكل ما قدمنا شاعر شعبى بالمعنى الكامل ، فهو من بيئة شعبية ، صاحب صناعة وحرقة ، وهو أمدى لا يعرف القراءة ولا الكتابة ، وشعره يدور على كل لسان في بلدته والشباب والصبيبة ينشدونه في كل مكان والمغنون يغنون فيه على جميع آلات الطرب . وقدم بغداد فاستقبله أدباؤها وشبابها استقبالا حسناً لما كان قد سبقه إليهم من أشعاره الخفيفة السهلة العذبة . ومن الغريب أن نجد الثعالبي في اليتيمة يقول إنه كان على وشك إهماله وطمى أشعاره لسفسفة كلامه ، لولا أن وجد من معاصريه من اهتم بجمع ديوانه ، فرأى أن يضمّن كتابه « اليتيمة » لُـمَعَةً من شعره علقت بحفظه ، وفي الوقت نفسه رأى الإعراض عن التصفح لباقي شعره وترك الفحص فيه عما لا يصلح لإلحاقه باليتيمة من مُلَحِّحه . وبذلك فوّت على نفسه عملاً أدبياً ونقدياً جليلاً كان يمكن أن يضيفه لكتابه ولا ينقص منه ، بل لعله يرفعه درجات ، إذ يحتوى مادة شعرية شعبية كان جديراً أن تُعَرَّضَ كاملة ، حتى يُرَى مدى ما حدث من تطور في اللغة الشعبية البصرية بالقياس إلى الفصحى ، سواء في جوانبها اللغوية أو الأسلوبية ، ويُرى أيضاً مدى ما ظل بينهما من تواصل . ولكن هذا غاب عن

٢٧٦ / ٣ وديوان المعاني ١ / ٢٧٢ ، ٢٩٧

وزهر الآداب ٢ / ١٣٧ وذيّل زهر الآداب

ص ١٤٩ .

(١) انظر في الخبز أرزى وحياته وأشعاره

اليتيمة ٢ / ٢٦٧ وروج الذهب ٤ / ٢٥٩

وابن خلكان في نصر بن أحمد والنجوم الزاهرة

ذهنه ، وأكبر الظن أنه إنما اختار أشعاراً ليس فيها عامية . ومع ذلك فنحن نؤمن بأن الفوارق حينئذ بين العامية والفصحى لم تكن واسعة . ومن ملاحه التي رواها له قوله :

خليّ هل أبصرتما أو سمعتما بأكرم من مولّى تمشّى إلى عبدي
أتى زائراً من غير وعدٍ وقال لي أصونك عن تعليق قلبك بالوعد
فما زال كأس الوصل بيني وبينه يدورُ بأفلاك السعادة والسعد
فطوراً على تقبيل نرجس ناظرٍ وطوراً على تعريض تفاحة الخد

وفي كلمة أصونك عن تعليق قلبك ما يصور رقته وأنه يخشى عليه من تعلق قلبه بالانتظار ، والبيتان الثالث والرابع جيدان في التصوير . وما روى له الثعالبي أيضاً من ملاحه قوله :

كم أناس وقوا لنا حين غابوا وأناس جفوا وهم حضار
عرضوا ثم أعرضوا واستألوا ثم مالوا وجأوروا ثم جاروا
لا تلمهم على التجنى فلو لم يتجنوا لم يحسن الاعتذار

والآيات زاخرة بجناسات وطباقات تدل على أنه كان يتقنه صنعة الشعر وصناعة البديعيين فيها فقهها حسناً . فوفوا تقابل «جفوا» وغابوا تقابل «حضر» وبين كل كلمتين متعاقبتين في البيت الثاني جناس وطباق محكمان ، وحسن التعليل واضح في البيت الأخير . والكلمات عذبة حلوة خفيفة . ومن ملاحه قوله :

رأيت الهلال ووجه الحبيب فكانا هلالين عند النظر
فلم أدر من حيرتي فيهما هلال الدجى من هلال البشر
ولولا التورّد في الوجنتين وما راعني من سواد الشعر
لكنت أظن الهلال الحبيب وكنت أظن الحبيب القمر

والخيال جميل ، وأحاله إلى طرفة نفيسة حقاً بتلك الحيرة التي انتابته ، فلم يدّر أين هلال الدجى وأين هلال البشر ، ثم أخذ يتأمل ، وبعد أناة طويلة لاحظ

تورّد الوجنتين وسواد الشعر فعرف أين الهلال وأين الحبيب وإلا ظل غارقاً في حيرته . ومن مَلَّحِه :

قد كان لي فيما مضى خاتمٌ فالיום لو شئتُ تمنّطقتُ بهِ
وذُبتُ حتى صِرتُ لو زُجَّ بي في مُقلّة النائم لم ينتبهِ

وهي مبالغة واضحة فيما أصابه من ضنّاً بسبب حبه وشقائه فيه وعذابه .
فحتى المبالغة التي كانت قد أخذت تشيع بين الشعراء نجدّها عنده ، وكأنّه
توفّر على الشعر في عصره وقبل عصره حتى استقامت له ملكته ، وحتى تمثّله
بجميع مقوماته وخصائصه . وكان خفيف الروح فكهاً مما جعله محبوباً عند أهل
البصرة في حياته وبعد مماته . ومن طريف ماله قوله في قلة الطعام على مائدة أحد
أصدقائه :

ولعمري كان الخوانُ ولكنْ لم يكن ما يكون فوق الخوانِ
وجفانٍ مثل الجوّابِ ولكنْ ليس فيهن ما يرى بالعيان^(١)
فإذا ما أدرتُ فيها بنائي لم أجد ما أمسه بينانِ
إنني ما ضغُ على غير شيء غير صلك الأَسنان بالأسنانِ
ترجع الكفّ وهى أفرغ منها عند مدّى لها قدأبى وشانى

والأبيات تدل على روح الدعابة عنده وأنه كان جميل المحضر عذب الفكاهة
خفيف الظل على نفوس مواطنيه وعارفيه وعلى الشباب البصري خاصة مما جعلهم
يتعلقون به تعلقاً شديداً . ويبدو أنه نظم بجانب مقطوعاته التي كان ينشدها في
خبزه للأرز قصائد طويلة ، فقد أشار من ترجموا له إلى قصيدة طويلة طنانة
استهلّها بقوله :

بات الحبيبُ منادى والسكرُ يصبغُ وجنتيه

وواضح مما أنشدناه له أنه كان عذب الشعر رقيقه وهو شعر شعبي بالمعنى
الدقيق ، فقد نظمّه صانع من صناع الشعب ، لم يكن يحترف صنع الشعر للتكسب

به وعرضه على الخلفاء وغير الخلفاء ليمنحوه الجوائز المالية الضخمة ، فهو ليس
 ممن يقدمون شعرهم للطبقة الأرستقراطية إنما هو شاعر شعبي يقدم أشعاره للجمهور ،
 متبغياً لإرضاءه بتصويره لأحاسيسه في الغزل ، وباتخاذهُ لُغَتَهُ السهلة التي لا تجد
 في فهمها أى عسر أو مشقة . وقد لبى نداء ربه سنة ٣٣٠ للهجرة ، ويقول
 المسعودى أشيع أن الوزير البريدى غرقه لأنه كان هجاء ، وقيل : بل فتر من
 البصرة إلى هجر والبحرين وتوفي هناك ، ومهما يكن فقد حزن البصرة وشبابها
 لوفاة ، وظلت ذكراه ماثلة لأهلها طويلاً .

الفصل الثامن

نشاط النثر

١

تطور النثر

رأينا في كتاب العصر العباسي الأول كيف أن النثر العربي تطوراً تطوراً خطيراً ، فقد حملت أوانيه الثقافات الأجنبية المختلفة من يونانية وفارسية وهندية وسريانية حَمَلًا لا يزال يروع الباحثين ، وكأنما كان في اللغة العربية طاقات مستكنة لكي تحمل في يُسْر هذه الثقافات ولا تتأبى عليها ، واشتهر كثيرون بالنهوض بهذا العمل في مقدمتهم ابن المقفع . ثم رَعَت الدولة الترجمة ، وأنفقت عليها إنفاقات هائلة ، بحيث كاد أن لا يبقى كتاب نفيس في الثقافات المذكورة إلا نُقل إلى العربية وبحيث يمكن أن يسمّى العصر العباسي الأول عصر النقل والترجمة . وظلت من ذلك بقايا إلى هذا العصر ، وتحول المترجمون فيه يعيدون النظر في كثير مما تُرجم في العصر الماضي ، وكانت عامة الترجمة فيه حرفية ، فالفقرة من الفقر في كتاب تُترجم حرفياً ، اللفظة مقابل اللفظة ، مما قد يصيب الكلام بشيء من الالتواء أو التعثر أو الاضطراب في التعبير . وكان ذلك دافعاً للمترجمين أن يعيدوا النظر في كثير مما تُرجم وأن يترجموه ثانية على أساس جديد ، هو ترجمة المعاني لا الترجمة الحرفية ، بمعنى أن المترجم يقرأ الفقرة وينقل معناها كما ارتسم في ذهنه دون التقيد الحرفي حتى يطرّد نسق الكلام ولا يظهر فيه شيء من الاختلال الذي كثيراً ما تدفع إليه الترجمة الحرفية . وحقاً من المترجمين الأوائل من استطاعوا أن ينفذوا إلى هذه الطريقة الثانية للترجمة مبكرين ، على نحو ما هو معروف عن ابن المقفع وترجماته ، ولكنه كان يُعَدُّ شاذّاً وعُدَّ في الوقت نفسه من بلغاء العربية ، لأننا قلما نحس عنده نشازاً أو التواء أو انحرافاً من شأنه إفساد التعبير ،

إلا ما قد يكون أصاب بعض رسائله لطول المسافة بيننا وبينه ، وما أدخلته أيدى النساخ على مر العصور في كتاباته ، من بعض الخلل . وهو على كل حال خلل قليل جداً ، وبين أيدينا ترجمته لكليلة ودمنة ، وهى من أروع الترجمات القديمة ، وتدلُّ بحق على أنه كان أحد بلغاء العربية لعصره . ولكن ابن المقفع يُعدُّ شخصية نادرة بين مترجمي العصر العباسى الأول ، إذ لم يكن لكثرتهم بلاغته ولا فصاحته ، لذلك أحسَّ المترجمون في العصر العباسى الثانى عندهم غير قليل من الانحراف في التعبير ، وتنبهوا إلى أن ذلك جاءهم من الترجمة الحرفية ، فأخذوا يعيدون ترجمة كثير مما نقلوه . وكان هذا كسبباً للنثر العربى فإن الضميمة الذى كان يداخل الترجمات أخذ يزيلها . واتبع حنين بن إسحاق — أكبر مترجمى العصر — منهجاً في ترجمته أن يجمع للكتاب المترجم كل ما يمكنه من مخطوطاته ، وأن يعارضها بعضها على بعض مقابل بين عباراتها ، محاولاً أن يستخلص منها المعانى بكل دقة . وهو أستاذ المترجمين والترجمة في العصر العباسى الثانى الذى وضع بقوة فكرة ترجمة المعانى لا ترجمة الألفاظ أو الترجمة الحرفية . وكان يعمل بين يديه كثير من الشباب في مقدمتهم ابنه إسحاق وابن أخته حبيش ، يترجمون حسب منهجه ، وهو يراجعهم ويصّله لهم بعض ما ترجموه على هدى طريقتة الجديدة . وكان من الكتب التى أعادت ترجمتها هذه المدرسة كتاب الخطابة لأرسططاليس ، ترجمه إسحاق بن حنين وينصُّ ابن النديم في الفهرست على أنه كان قد نُقل قبل ذلك نقلاً آخر ، ولا يعين صاحبه ، غير أنه يسميه « النقل القديم » . وقد يقال إذا كانت الترجمة في هذا العصر أصلحت الترجمات القديمة ، وبدت في أسلوب عربى مستقيم ، فلماذا يبدو الخلل والاضطراب الشديد في ترجمة متى بن يونس لكتاب أرسططاليس عن الشعر ؟ وأكبر الظن أن هذا الاضطراب والخلل مصدرهما أن موضوع الكتاب وهو المأساة وما اتصل بها من الشعر القصصى لم يرتسما في ذهن متى رسماً بيئياً ، إذ كان السريان — مثل العرب — لا يعرفون شيئاً عن الشعر اليونانى وفنونه التى ظهرت عندهم القصصية والغنائية والتمثيلية ، وهذا هو السبب فيما أصاب ترجمة كتاب الشعر لأرسطو عند متى من تعثر وخلل . وقد يكون الخلل والعثر موجودين في الأصل السريانى الذى نُقل عنه الكتاب .

على كل حال انتقلت الترجمة في هذا العصر نقلة واسعة ، فقد أخذ المترجمون يمثّلون المعاني التي ينقلونها ويُسَيِّغونها ثم يترجمونها إلى لغة عربية فصيححة لا تشوبها شوائب الترجمة الحرفية القديمة . والذي لا ريب فيه أن معرفتهم بخصائص العربية كانت أدق من معرفة أسلافهم ، إذ ذلّلها لهم علماء اللغة والبيان ، وكانت قد ألفت كتب كثيرة في بيان طوابعها ومقوماتها ، مما عرضنا له في غير هذا الموضع ، فطبيعي أن يتقنها غير مترجم . وهذا نفسه يُلاحَظُ فيما أخذ ينشأ منذ العصر العباسي الأول من الأساليب الفلسفية والعلمية ، فإن هذه الأساليب لانت وأخذ يزايها الالتواء ، بل أخذ يجري فيها الاستواء والتناسق ، وكأن الفلاسفة والعلماء أخذوا أنفسهم بإرادة قوية في التثقف بالعربية . وليس ذلك فحسب ، بل أيضاً بالسيطرة على أساليبها سيطرة تقيم تلاؤماً وتوازناً دقيقين بين الألفاظ والمعاني التي تؤدّيها ، بل إن منهم من شارك في الشعر والنثر مثل الكندي أول فيلسوف بالمعنى الكامل ظهر عند العرب ، فقد أثرت عنه بعض أشعار ، كما أثرت عنه بعض رسائل جيدة ، سنعرض لها في موضع آخر ، فهو قد أتقن العربية وفقه أسرارها وخصائصها فقهياً جيداً ، ونضرب لذلك مثلاً من أسلوبه الفلسفي ، وفيه يتحدث عن صانع الكون ومدبره والشواهد العقلية على وجوده ، يقول (١) :

« إن في الظاهرات للحواس ، أظهر الله لك الخفيات ، لأوضح الدلالة على تدبير مدبر أول ، أعني مدبراً لكل مدبر ، وفاعلاً لكل فاعل ، ومكوّناً لكل مكوّن ، وأولاً لكل أولاً ، وعلة لكل علة ، لمن كانت حواسه الآلية موصولة بأضواء عقله ، وكانت مطالبه وجدان الحق وخواصه (معرفة) الحق وغرضه الإسناد للحق واستنباطه والحكم عليه . والمزكّي عنده - في كل أمر شجر بينه وبين نفسه - العقل . فإن من كان كذلك انتهكت عن أبصار نفسه سجوف (٢) سدّف الجهل ، وعافت نفسه مشارب عكّر العجب ، وأنفست من ركافة معالجة الزهو ، واستوحشت من تولّج (٣) ظلم . الشبهات ، وخرجت من الرّيب على غير تبيين ، واستحيت من الحرص على

(١) رسائل الكندي الفلسفية تحقيق الدكتور

عبد الهادي أبي ريذة (طبعة الاعتماد بمصر)

(٢) سجوف : أثار . سدّف : ظلمات.

(٣) تولّج : دخول .

اقتناء ما لا تجدد ، وتضييع ما تجدد ، فلم تضاد ذاتهما ولم تتعصب لأضدادها .
فَكُنْ كَذَلِكَ ، كان الله لك ظهيراً ، أيها الصورة المحمودة والجوهر النفيس يتضح
لك أن الله ، جَلَّ ثَنَاؤُهُ ، وهو الإِنِّيَّةُ (الموجود) الحقّ التي لم تكن لِيَسّاً
أبداً ، لم يَزَلْ - ولا يزال - أَيْسٌ أبداً ، وأنه هو الحى الذى
لا يتكثَّرُ بَتَّةً ، وأنه هو العلة الأولى التى لا علة لها ، الفاعلة التى لا فاعل لها ،
المتمة ، التى لا متمم لها . . . وإن فى نظم (انتظام) هذا العالم وترتيبه وفعل
بعضه فى بعض وانقياد بعضه لبعض وتسخير بعضه لبعض وإتقان هيئته
على الأمر الأصلى فى كون كل كائن وفساد كل فاسد وثبات كل
ثابت وزوال كل زائل لأعظم دلالة على أتقن تدبير .

والقطعة تدل بوضوح على مهارة الكندى البيانية ، وأنها لا تقف عند فصاحة
التعبير ، بل تتعدى ذلك إلى إدخال تلاوين من التكرار ومن الصور البيانية ، وما المعنى
الذى يريد أن يوضحه الكندى ؟ إنه يريد أن يقول إن ما يبصره الإنسان من ظواهر الكون
ويحسه من مشاهدته ويراه من نظامه واتساق أجزائه دليل على أن هناك مدبراً أعلى للكون ،
وضع له قوانينه ، التى تحول بينه وبين أى اختلاط أو اضطراب ، كما يشهد بذلك نظامه
الذى يخلو من كل عوج وخلل وفساد ، ولكنه أخرج هذه الفكرة فى صورة فلسفية
مُطَنَّبَةٍ ، وهو فى إطنابه لا ينسى خصائص الأسلوب الأدبى وجمال الترادف فيه على نحو
ما نرى فى قوله : « أغنى مدبراً لكل مدبر ، وفاعلاً لكل فاعل ، ومكوّناً لكل
مكوّن ، وأولاً لكل أول ، وعلة لكل علة » ، فقد عبّر عن معنى واحد بخمسة
كلمات متوالية ، ليقوّى المعنى ، وليضيف إليه شيئاً من الجمال الذى يلاحظ فى
التكرار الصوتى . وهو لا ينسى أيضاً ما فى الأسلوب الأدبى من روعة التصوير التى
تخلب ألباب السامعين ، على نحو ما نقرأ فى قوله : « فإن من كان كذلك انتهكت
عن أبصار نفسه سُجُوف سُدَف الجهل ، وعافَت نفسه مشارب عسكر
العُجْب ، وأنفت من ركافة معالجة الزهو ، واستوحشت من تولُّج ظلم
الشبهات » ، والصور متلاحقة فى هذه العبارات ، وكأننا بإزاء كاتب أدبى لا كاتب
فلسفى . وفى ذلك ما يدل بوضوح على التقاء الفلسفة بالأدب بل على امتزاجهما ،
فهذا الكندى الفيلسوف يعرض فلسفته فى أسلوب أدبى يشتمل على غير قليل من
الروعة البيانية . وتلقانا فى أسلوبه اصطلاحاته الفلسفية كاصطلاح (الإِنِّيَّة) بمعنى

(الموجود) واصطلاح (ليس) بمعنى المعلوم و (أيس) بمعنى الموجود . وهذه الاصطلاحات لا تجوز على العبارات في الأسلوب ، بل يندمج فيها لقدرة الكندي كما قلنا آنفاً على المزج بين العبارة الفلسفية والعبارة الأدبية .

وحقاً لم يكن من وراء الكندي من المتفلسفين يبلغون مبلغه في العربية والوقوف على أسرارها وخصائصها الأدبية ولكن من الحق أنهم جميعاً عنوا بفصاحة عباراتهم وسلامتها بقدرما استطاعوا حتى عند من كان منهم ينادى باتخاذ مقاييس البلاغة اليونانية معياراً للفن البياني في النثر . ومراً بنا في غير هذا الموضع أنه كانت هناك ثلاثة أذواق: ذوق ينادى بالرجوع إلى اليونان ومعاييرهم البلاغية ، وكان يمثلهم المترجمون السريان ومن التف حوهم من الكتّاب الذين كانوا يعكفون على النظر في علم النجوم وفي المنطق والفلسفة والذين كانوا يتحدثون دائماً عن الكون والفساد ، وسمّ الكيان ، والكيفية والكمية ، والجوهر والعرض ، ورأس الخط النقطة ، والنقطة لا تنقسم مما كانوا يقرءونه في الكتب المترجمة ، على نحو ما يصور ذلك ابن قتيبة في مقدمة كتابه « أدب الكاتب » . وكان يقابل هذا الذوق المجدد إلى أبعد حدود التجديد حتى ليرفض المقاييس العربية ذوقاً كان يرتضى هذه المقاييس ، بل كان يرى خطل الاحتكام إلى سواها ، فالأدب أدب عربي له ملكاته الراسخة ، وله أساليبه الموروثة المصفاة . وينبغي ألا نعدل عن معايير الذاتية إلى معايير أخرى ليست من طبيعته ولا من بيئته . وكان يمثل هذا الذوق علماء اللغة المحافظون ومن سار في فلكهم . وبين الذوقين كان هناك ذوق ثالث معتدل ، لا يغلو غلو الأولين في رفض المقاييس العربية ولا غلو الأخيرين في رفض المقاييس الأجنبية ، بل يقف موقفاً وسطاً بين الطرفين المتعارضين ، فهو يعتد بالمقاييس العربية ويأخذ منها ما يوافق العصر ويلائمه ، وهو ينظر في المقاييس الأجنبية ويأخذ منها ما يتفق وروح البيان العربي . وكان يمثل هذا الذوق المتكلمون على نحو ما يلاحظ في كتاب « البيان والتبيين » للجاحظ ، وهو فيه يعرض ملاحظات العرب منذ الجاهلية عن البيان ومقوماته ولا يكاد يترك ملاحظة هنا أو هناك لحطيب عربي إلا ويسجلها ، وينقل عن الهند واليونان والفرس آراءهم — التي استطاع الحصول عليها — في البلاغة دون أن يُعنى فريقاً على فريق أو ينصر فريقاً ضد فريق .

وكانت بيئة المتكلمين أسبق من البيئتين الآخرين في وضع قواعد البلاغة الثرية ، إذ أخذت تحاول منذ العصر العباسي الأول وضع هذه القواعد ، وكان من أهم ما دفعها إلى ذلك تدريبُ الشباب على المهارة في الخطابة والبيان وكيف يتغلب على الخصوم في حجاجه وجدله . وكانت المناظرات مندلعة بينها وبين أصحاب الفرق الأخرى ، وكانت تندلع أحياناً فيما بين أفرادها ، فكثير كلامهم عن صفات الخطيب وجهارة صوته ووضوح عبارته وخلابتها وملامعة كلامه للسامعين وما يحسن من حركاته وإشاراته ودقة أدلته وبراهينه ، وكيف يتقَرع حجة الخصم بالحجة الناصعة وكيف ينقض كلامه نقضاً . وأخذوا يحاولون مبكرين التعرف على مقومات البيان العربي ، ودار بينهم كلام كثير عن البلاغة وقواعدها البيانية وما ينبغي في ألفاظ العبارات أحياناً من رشاقة وعدوبة وأحياناً أخرى من جزالة ورصانة ، وما ينبغي للمعاني من وضوح مهما دقت مسالكها . وبحق لاحظ ابن تيمية أن هذه البيئة هي التي فترقت بين الحقيقة والحجاز وأعدت لمباحث البيان العربي المعروفة^(١) . ويلقانا في هذا العصر الجاحظ وكتابه البيان والتبيين الذي ذكرناه آنفاً ، وهو يشتمل على كل الملاحظات البيانية والبلاغية التي أوصى بها المتكلمون الأدباء ، حتى يحوزوا لأنفسهم بياناً ناصعاً رائعاً . وتهمنا ملاحظات الجاحظ نفسه ، لأنه هو الذي عايش العصر ، وترك آثاراً واضحة فيه ، ومن أهم ما رددته طويلاً فكرة مطابقة الكلام للسامعين ، فلا يصح لتكلم أن يكلم العامة بمصطلحات علم الكلام أو يكلم علماء الكلام بكلام الأعراب المستلى بالغريب أو بكلام العوام المبتذل المسف يقول : « قبيح بالتكلم أن يفتقر إلى ألفاظ المتكلمين في خطبة أو رسالة أو في مخاطبة العوام أو في مخاطبة أهله . . . أو في حديثه إذا حدث أو في خبره إذا أخبر وكذلك من الخطأ أن يجلب ألفاظ الأعراب وألفاظ العوام في صناعة الكلام ، ولكل مقام مقال ولكل صناعة شكل^(٢) » . ولا يمل الجاحظ من الدعوة إلى الوضوح ، وألا يوجز كاتب ولا عالم في كلامه حتى يصبح الغارز ، وقد حمل على كتب الأخفش لما فيها من صعوبة وغموض ، كما حمل على كل تكلف ، يقول : « متى شاكل - أبقاك الله - اللفظ معناه ، وأعرب عن فحواه ، وكان لتلك الحال وفقاً ، والملك القدر

(٢) الحيوان ٣/٣٦٨ والبيان والتبيين ١/١٤٤ .

(١) كتاب الإيمان لابن تيمية ص ٣٤ .

لِفِسْقًا ، وخرج من سماجة الاستكراه وسلم من فساد التكلف كان قمينًا بحسن الموقع وبانتفاع المستمع»^(١) . وتحدث كثيرًا عن جزالة الألفاظ وعذوبتها وعن تلاحمها وتنافرها وعن حسن موقعها في مكان وسوئه في مكان آخر ، كما تحدث عن دقة استخدام الكلمات ، يقول : « قد يستخف الناس ألفاظًا ويستعملونها ، وغيرها أحق بذلك منها ، ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن الجوع إلا في موضع العقاب أو في موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر ، والناس لا يذكرون السَّغْب ويذكرون الجوع في حال القدرة والسلامة . وكذلك ذكر المطر ، لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا في مواضع الانتقام ، والعامّة وأكثر الخاصة لا يَفْصِلُون بين ذكر المطر وبين ذكر الغيث»^(٢) . ويتوقف مرارًا ليشيد بجمال اختيار الألفاظ وجودة الصياغة والسبك وحسن الرِّصْف والنظم ، ونراه ينوّه بالسجع وأثره في نفوس السامعين^(٣) ، كما ينوّه بالازدواج وما فيه من جمال^(٤) صوتي ، وكأنّه هو الذي أعدّ لهذين الأسلوبين كي يشيعا على ألسنة الأدباء منذ عصره ، وكان هو نفسه يستخدم الازدواج كثيرًا في أسلوبه ، واستخدم السجع قليلًا ، وتردّدت على لسانه فنون بديعية وببائية كثيرة ، مثل : الأسلوب الحكيم والاحتراس ، وكان يسميه لإصابة المقدار ، والاعتراض ، والكناية والحقيقة والحجاز والاستعارة والتشبيه والتشليل . وبذلك هيئًا فيما بعد لابن المعتز أن يكتب كتابه البديع مصورًا فيه المحسنات البيانية والبديعية وفيه ينص على أن الجاحظ اكتشف بين تلك المحسنات محسنًا عقليًا هو « المذهب الكلامي » ويريد به الجاحظ دقة حَيْسَلِ المتكلمين في الغوص على الحجج والعلل والمعاذير . وظلت كتابات الجاحظ في البيان والتبيين وكذلك في الحيوان مخازن لا تنفد للبلاغيين المتأخرين ، كل يأخذ منها حسب ذوقه وقدرته العقلية .

وقدّمت بيئة اللغويين كتبًا مختلفة ، منها ما يعتمد على رواية الأشعار الغريبة وبعض أخبار عن الأعراب مثل مجالس ثعلب ، ومنها ما يُعْنَى بضبط ألفاظ وتفسيرها مثل كتابه «الفصيح» ، وأهم كتاب قدمته هذه البيئة كتاب الكامل للمبرد ، وهو معرض جيد لنماذج من الشعر والنثر ، لا تبلغ في الغرابة مبلغ نماذج ثعلب في

(١) البيان والتبيين ٧/٢ .

(٣) البيان والتبيين ١/٢٨٤، ٢٩٧، ٤٠٨ .

(٢) البيان والتبيين ٢٠/١ .

(٤) البيان والتبيين ١١٦/٢ .

مجالسه ، ولذلك شُغِف الأدباء في عصر المبرد وبعد عصره بهذا الكتاب ، وعدُّوه أحد كتب الأدب الأربعة الأساسية . ونراه يتأثر بما كتبه الجاحظ عن فنون البيان ، فيشير إلى الحقيقة والمجاز والاستعارة ، ويتحدث عن الكناية ويوزعها على ثلاثة أنواع ، فهي إما للتعمية وإما لتحاشي اللفظ الحسيس وإما للتفخيم^(١) ، ويجعل التشبيه أربعة أضرب ، فهو إما تشبيه مفرط ، وإما تشبيه مصيب ، وإما تشبيه مقارب ، وإما تشبيه بعيد^(٢) . والكتاب يمثل ذوقاً محافظاً ، فليس فيه أى شيء يتصل بآراء الأجانب في البيان والبلاغة ، وليس فيه أى استضاءة بهذه الآراء . ومن الغريب أن نجد ابن قتيبة ، وسنعرّف في موضع آخر أنه كان مثقفاً بالثقافات الأجنبية المعاصرة ، ينجح في ذوقه إلى هذه البيئة اللغوية المحافظة في كتابه « أدب الكاتب » وقد مضى فيه يعرف الكتّاب بالاستعمالات اللغوية الصحيحة للكلمات ، فمن ذلك الطّرب يذهب الناس إلى أنه في الفرح دون الجزع ، وليس كذلك إنما الطرب خفة تصيب الرجل لشدة السرور أو لشدة الجزع^(٣) ، ومن ذلك المأتم يذهب الناس إلى أنه المصيبة ، يقولون كنا في مأتم ، وليس كذلك إنما المأتم النساء يجتمعن في الخير والشر ، والجمع مأتم ، والصواب أن يقولوا كنا في مناحة ، وإنما قيل لها مناحة من النوائح لتقابلهن عند البكاء^(٤) . ويظل يفتح نحو خمسين باباً لتعليم الكتّاب ألفاظاً يجب أن يعرفوا دقة استخدامها ، منها ما يتصل بأسماء الحيوان ومنها ما يتصل بأسماء الأفلاك ، ومنها ما يتصل بأسماء النبات ، ومنها ما يُعرّف واحده ويُشكّل جمعه ، ومنها ما يتصل بالطعام أو الشراب أو الثياب أو السلاح . ويخرج من ذلك إلى أبواب تتصل بكتابة الكلمات من ذوات الألف أو الواو أو الياء إلى غير ذلك . وينتقل إلى أبواب تقويم اللسان ناصباً فيها على ما يسببه الدماغ للعامة من الوقوع في الخطأ كأفعال تُهْمَزُ والعامة تدع حذفها وما هو بالسين ويقولونه بالصاد وما جاء مفتوحاً وهم يكسرونه إلى جَمٍّ من مثل هذه المسائل . ويمضى إلى أبنية الأفعال ومعانيها وأبنية الأسماء ومعانيها ، وفي أثناء ذلك يعقد باباً طريفاً^(٥) لما يتكلم به العامة من الكلام الأعجمي ، سواء

(١) ليدن (ص ٢٢ .

(١) الكامل للمبرد (طبعة رايت) ص ٤١٢ .

(٤) أدب الكاتب ص ٢٤ .

(٢) الكامل ص ٥٠٦ .

(٥) أدب الكاتب ص ٥٢٦ .

(٣) أدب الكاتب لابن قتيبة (طبعة

أكان أصله روميًّا أم نبطيًّا أم فارسيًّا أم سريانيًّا . والدوق العام في الكتاب ذوق لغوى محافظ شديد المحافظة .

وعلى ضوء الدوقين اللذين وصفناهما للبيتين السالفتين صنّف معاصر لابن قتيبة هو إبراهيم بن المدبر المتوفى سنة ٢٧٨ رسالة^(١) بديعة في موازين البلاغة وأدوات الكتابة ، سماها الرسالة العذراء ، وهي أول رسالة تناولت بدقة صناعة النثر ، وهو يستهلها بأن شخصاً طلب إليه أن يعرفه بجوامع أسباب البلاغة وآداب الكتابة ، ويشيد بهذه الصناعة ، ويطلب ممن يريد حيدّقها طول الاختلاف إلى العلماء ومدارسة كتب الحكماء ورسائل المتقدمين والمتأخرين والوقوف على الأشعار والأخبار والسير والأسمار والخطب ومحاورات العرب ومعاني العجم وحدود المنطق وأمثال الفُرس ورسائلهم وعهودهم وسيرهم ، مع التزود بالنحو والتصريف واللغة والفقه . وابن المدبر بذلك كله يلتقي بذوق علماء الكلام كما يمثلهم الجاحظ فيما حكاها من الثقافات الأجنبية ، كما يلتقي بعلماء اللغة والتصريف ، فهو ينصّئ بهم جميعاً . ويدعو من يريد التخصص بهذه الصناعة أن يمهر في نزع آي القرآن الكريم ووضعها في مواضعها ، وكذلك الأمثال والأشعار وإن كانت الأخيرة لا تُستَحَبُّ في مخاطبة الخلفاء ، وهو في هذه الملاحظة يستمد من الجاحظ مباشرة^(٢) وقد استمد منه كثيراً في رسالته . والمهم أنه يشيد في تكوين ثقافة الأديب بالثقافة العربية ، ويضعها جنباً إلى جنب مع الثقافات الأجنبية ، مما يدل بوضوح على أنه كان يتأثر ببيئة المتكلمين تأثراً عميقاً . ويتحدث عن زِي الكاتب وحسن هندامه ، ويطلب — في إلحاح — كما طالب الجاحظ من قبله بالملاءمة الدقيقة بين الكلام وطبقات الناس من الخلفاء والوزراء والكُتّاب وولاة الثغور وقواد الجيوش والقضاة والعلماء وذوى النباهة والظُرف . ويقول إن لكل طبقة من هذه ما يناسبها من الألفاظ والمعاني ، حتى لا يُجرى الأديب شعاع بلاغته في غير مساربه ولا ينظم جوهر كلامه في غير سلكه . ولا بد — كما قال الجاحظ مراراً وتكراراً — من المشاكلة الدقيقة بين الألفاظ والمعاني ، حتى توضع الألفاظ في مواضعها وتنزل

(٢) البيان والتبيين ١/ ١١٨ .

(١) جمهرة رسائل العرب لأحمد زكي

صفوت ٣ / ١٩٩ .

مواطنها . ثم يتوقف — مهتدياً بابن قتيبة — إزاء أبنية ينبغى تركها واستعمال أبنية أخرى ، فثقل الدعاء : « أبقاك الله طويلاً » ليس مُسْتَحْسَباً ، إنما المستحب « أطال الله بقاءك » مع أنه لا فرق في المعنى بين العبارتين ، ولكنهم جعلوا الثانية أرجح وزناً وأنبه قدراً . وكذلك الدعاء : « جُعِلت فداك » يرى أنه قد ابتُذِلَ حتى مَجِّتَهُ الأَفْواه ، إلى غير ذلك من أدعية كانت تنبوع عن ذوق الأدباء من أمثاله . ويقول إن مديح الخلفاء والوزراء في الرسائل ينبغى ألا يكون بالفروض الواجبة مثل : يصدق في وعده وبني بعهدته ، لأن ذلك من الواجبات التي ينبغى أن تكون في كل شخص . ولا بد أن يعرف الأديب لكل كلمة مكانها ، ويضرب مثلاً لذلك أن شخصاً كتب إلى داود بن خلف الأصبهاني معاصره صاحب مذهب الظاهرية عن شخص آخر على هذا النمط : « وإن قال كذا فقد خرج عن الملة » ، والحمد لله « ورد عليه داود متعجباً عن وضع الحمد في هذا المكان قائلاً : « تحمد الله على أن تُخرج امرءاً مسلماً من الإسلام ، هذا موضع استرجاع ، وللحمد مكان يليق به ، وإنما يقال في المصيبة : إنا لله وإنا إليه راجعون » . ويطلبُ ابن المدبّر أن يوضع مع ذكر الشكوى مثل : « والله المستعان ، وحسبنا الله ونعم الوكيل » ، ومع ذكر البكوى : « نسأل الله دفع المخذور ، ونسأل الله صَرْفَ السوء » ومع ذكر النعم مثل : « الحمد لله خالصاً ، والشكر لله واجباً » . ويمضي في إثر الجاحظ ، فيقول إنه لا يجوز في الرسائل الإيجاز المفرط ولا استعمال الألفاظ المشتركة أو المبهمة ولا محاكاة الشعر فيما يجري فيه من حذف أو ضرورات . ويحذر من استعمال كلمة « إياك » ويحسُّ ثقلها في مثل « كلمت إياك » . ويبسُدئ ويبُعِد — على ضوء الجاحظ — في أن الألفاظ ينبغى أن توضع في مواقعها بدقة . ويدعو إلى الاستهلال في مقدمات الرسائل بحيث تشير في صدرها إلى المراد منها ، ويوصى بعدم إطالة المقدمات في الكتابة ، ويقول إنها ينبغى ألا تزيد عن سطرين أو ثلاثة . ثم يُغَيِّضُ في أوصاف القلم واختيار مادته وطريقة برّيه وأنواعه وأجودها ، ويوصى بعدم إغفال الصلاة على الرسول عليه السلام . ويُلَفِّتُ إلى كيفية كتابة التاريخ بالقياس إلى الشهر ، فإن كان الماضي أقل من نصف الشهر قال الكاتب : لكذا ليلة مضت من شهر كذا ، وإن كان الباقي أقل من النصف قال : لكذا ليلة بقيت . ويتحدث عن القراطيس والكتابة فيها وطبيعتها . ويشير — على هدى ابن قتيبة — إلى العناية

بميزان التصريف . ويعود إلى وضع الألفاظ في أماكنها ، وَيَسْتَهَيِّ - كما نهى المتكلمون من قبل - مَنْ لَيْسَتْ لَهُ موهبة أدبية عن محاولة الانتظام في هذه الصناعة . وينقل عن أحد المتكلمين ، وهو العتّابي ، رأيه في اختيار الألفاظ وصعوبته . وينصح الكاتب بِعَرَضِ ما يكتبه في باكورة حياته على المختصين ليروا مقدار صلاحيته للصناعة . وَيَسْتَهَيِّ - على هدى الجاحظ - عن الألفاظ الخوشية والمبتذلة ، وينقل عنه إعجابه بالكتّاب إذ قال : « ما رأيت قوماً أمثل طريقة في البلاغة من الكتّاب ، فإنهم التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعراً وحشياً ولا ساقطاً سوقياً » . ويعود إلى فكرة الوضوح الجاحظية . وينقل عنه بعض كلامه . ويذكر أرسطو وينقل عنه بعض ما قاله في النّصبة التي تدل على اللفظ والإشارة والخط والعقد كأعلام الأفراح ، وينقل أيضاً عنه حذّره للإنسان وأنه الحى الناطق ، وهو بذلك يقترب من ذوق المتكلمين وانتفاعهم ببعض ما تُرجم دون الذوبان فيه . ويبيّن أهمية الكتب المخبّرة تحبيراً جيداً في استئزال الجلبارة وأنها قد تصنع ما لا تصنعه الجيوش اللّسجية . ثم يسوق صفحات جليتها من البيان والتبيين عن تعريف اليونان والروم والفرس للبلاغة . ولا يكتفي بذلك بل ينقل أيضاً الصحيفة التي دوّنها الجاحظ عن الهنود في البلاغة ، ويتأوها بما دوّنه عن بعض بلغاء العرب والمتكلمين مثل خالد بن صفوان وعمرو بن عبيد والخليل بن أحمد ، وكل ذلك دليل واضح على أن ابن المدبر وضع نُصَبَ عينه في كتابته لرسائله العذراء ابن قتيبة والجاحظ ، ولكن أثر الجاحظ وكتابه البيان والتبيين أبعد مدى وأعق أثراً .

وحى الآن لم نتكلم عن كتاب يمثل بيئة المترجمين والمتفلسفة ومن كان ينهج نهجهم في الدعوة لمعايير البلاغة اليونانية ، ولعل خير كتاب قدمته هذه البيئة في مجال النثر والكتابة هو الكتاب الذي نُشر باسم نقد النثر منسوباً إلى قدامة بن جعفر ، وقد تبين فيما بعد أنه جزء من كتاب البرهان في وجوه البيان لإسحق بن إبراهيم بن سايمان ابن وهب ، وهو من أسرة ظلت تعمل في دواوين الخلفاء العباسيين منذ المأمون ، وكان جده وزيراً للمهتدي والمعتمد ، وتوفي سنة ٢٧٢ فيبينه وبين حفيده جيل واحد مما يدل على أنه ممن عاشوا بأخرة من هذا العصر . وزراه في مستهل كتابه يَزرى على كتاب الجاحظ : « البيان والتبيين » ، وهذا طبيعي لأنه يمثل بيئة المتفلسفة

والمتربصين التي كانت تعارض المتكلمين في مقاييسهم البلاغية ، لأنهم لم يستوعبوا في رأيه كتابات أرسطو في المنطق والجدل والخطابة . وهو يفتتح كتابه بمباحث في العقل تدل على أنه شيعي إمامي ، ويعقد فصلاً للقياس يحلله فيه على طريقة أرسطو ، ويقول إنه جعل عماداً وعياراً على العقل كما جعل البركار لتقويم الدائرة والمسطرة لتقويم الخط . ويفيض في مباحث تتصل بالأخبار وبالفقه . ويتكلم عن بعض خصائص التعبير كما يتكلم عن الرمز ويقول إنه أتى منه كثير في كتب المتقدمين من الفلاسفة وكان أكثرهم استعماله أفلاطون . ويعود إلى الحديث عن بعض خصائص العبارات وعن الأمثال والالفاظ وعن المبالغة ويرتضيها متأثراً بأرسطو ، ويعرض لمبحث الفصل والوصل بين العبارات وكذلك لمبحث التقديم والتأخير . ويقسم الكلام المنشور إلى خطابة وترسل واحتجاج وحديث ، وينوّه بالإيجاز الذي حذر الجاحظ منه ، ويقول إن أرسطو وأوقليدس كانا شديدي الإيجاز ، بينما امتاز بالإطناب جالينوس ويوحنا النحوى . ويعقد فصلاً في نحو عشرين صحيفة ، أجمل فيه كتاب الجدل لأرسطو . وواضح أنه توسّع في تشريعه للنثر العربي ووضّعه لمعاييره في الأخذ عن كتابي أرسطو في المنطق والجدل . وهو أخذ يبدو فيه الجفاف وأنه ينبو عن الذوق العربي ، ولذلك لم يسلّق هذا الكتاب ترحيباً من المتأدبين . وكان لذلك أثره في أن نقاد العرب لم ينقلوا عنه شيئاً في كتاباتهم عن الخطابة والنثر . إذ رأوه يحتكم إلى أشياء غير وثيقة الصلة بأدبهم ، ومن أجل ذلك ظل الكتاب وصاحبه مجهولين من عامة النقاد . ولا نبعد إذا قلنا إن بيئة المتكلمين هي التي سيطرت بما وضعت من معايير على أذواق الكتاب والأدباء في العصر ، وظل ذلك حقبة متطاولة ، وهي كما قلنا بيئة معتدلة كانت تزوج بين المعايير العربية والمعايير الأجنبية بحيث ظلت أوضاع العربية قائمة ، كما ظلت مقوماتها حيّة ، مقومات تعتمد على التراث القديم وتتطور بما يلائم العصر والثقافات الحديثة ، تطوراً لا يَجَسُنِي على العربية ، بل تجنى منه ثماراً رائعة ، غذاء للعقول وشفاء للقلوب والأرواح .

وعلى هذا النحو كان ذوق بيئة المتكلمين هو الذوق الأدبي العام ، وكان لذلك أثره في أن ازدهر النثر العربي وأخذت موضوعاته تتنوّع تنوعاً واسعاً ، وقاد هذا الازدهار الجاحظ المتكلم المشهور ، إذ نراه يُعْنَى بتصوير الطبقات في مجتمعه ، فهو يكتب عن الأتراك والسودان والموالى والعرب والنصارى واليهود ، ويَقْسَحُ

للطبقات العامة ، فيكتب عن اللصوص والمُسكدين وحياتهم والقيان والمرأة .
وكأنما أحدث موضوعات جديدة لكتب السمر التي كانت تُقرأ في كل مكان .
وكانت قبله لا تعدو بعض كتب الآداب الفارسية وبعض قصص الحب العربية
وقصص البطولة والإسرائيليات . وظل الاتجاه إلى ترجمة بعض القصص الفارسية
قائماً ، وكان أهم ما تُرجم في هذا العصر حكايات ألف ليلة وليلة واسمه بالفارسية
هزار أفسان أى ألف حكاية . ويُفهم من كلام المسعودى عنه أن حكايات
السندباد لم تكن جزءاً منه في عصره ، بل كانت مستقلة . ويقول إن مؤلفها حكيم
هندي يسمى السندباد ، وهي تشتمل على كتاب الوزراء السبعة ، والمعلم والغلام ،
وامرأة الملك . ويذكر المسعودى أنه كانت هناك حكايات مماثلة تُرجمت عن
الرومية ^(١) . وما تُرجم حينئذ أو قل مما استمدَّ من أصول فارسية كتاب التاج
المنسوب إلى الجاحظ ، وقد ألفه أحد معاصريه وقدَّمه إلى الفتح بن خاقان وزير
المتوكل ، وهو يصور نُظم الساسانيين حكام الفرس قبل الإسلام وتقاليدهم .
ومعنى ذلك أن النقل عن الفارسية ظل محتدماً في هذا العصر ، ولكن أخذت
الشخصية العربية تُثبت وجودها في قوة ، فبمجرد أن تُرجم كتاب ألف ليلة وليلة
ألف محمد بن عبدوس الجهشيارى المتوفى سنة ٣٣١ للهجرة كتاباً على نسقه به ألف
حكاية من حكايات العرب وغيرهم . وظهرت في العصر كتب أسمار كثيرة ، كانت
تتلهم عليها العامة ، وخاصة ما دار منها حول الحب وأقاصيصه أو حول الجن
أو حول بعض النساء . وكثرت كتب النوادر والكتب التي تصوّر أحوال الحمقى
وأقوالهم وأفعالهم ، وكتب الندماء والمنادمة ، وكذلك الكتب التي تصوّر أخلاق العامة
مثل كتابات مساوى العوام وأخبار السفلة والأغنام للصيمرى .

وكثرت كتب الأدب التهذيبي ، ومن أكثر منها ابن أبي الدنيا المتوفى
سنة ٢٨١ وقد نُشر في القاهرة مختصر صنعه السيوطي لكتابته الفرج بعد الشدة ،
وكانت له كتب مختلفة في مكارم الأخلاق . ومثله محمد بن خلف بن المرزبان

(١) انظر في ذلك كله مروج الذهب

المتوفى سنة ٣٠٩ وقد ترجم كتباً كثيرة عن الفارسية وله تصانيف حسان في الأخلاق وأحوال الناس ، منها كتابه : « تفضيل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب » ، ومثلهما أبو بكر الخرائطي السامري المتوفى سنة ٣٢٥ ، وله مكارم الأخلاق ومعاليها ومحمود طرائقها ومراضيتها ، نُشر بالقاهرة .

وبجانب كتب الأدب والسمر فتح الجاحظ موضوعاً جديداً ، هو وصف البلدان ، إذ ألّف كتاباً فيه سماه كتاب الأمصار وعجائب البلدان تحدث فيه عن مكة وقريش والمدينة ومصر والبصرة ، وذكر خصائص كل بلدة وطباع أهلها وأثر البيئة فيها^(١) . ويبدو أنه اعتمد في وصف بعض البلدان على بعض الإخباريين مما جعله يخطئ في جوانب من كلامه على نحو ما لاحظ المسعودي إذ يقول : « وقد زعم عمرو بن بحر الجاحظ أن نهر مهران الذي هو نهر السند من نيل مصر ، ويستدل على أنه من النيل بوجود التماسيح فيه ، ولست أدري كيف وقع له هذا الدليل ، ذكر ذلك في كتابه المترجم بكتاب الأمصار وعجائب البلدان . . . لأن الرجل لم يسلك البحار ولا أكثر الأسفار . . . إنما كان ينقل من كتب الوراقين^(٢) . وملاحظة المسعودي صحيحة ، ولكنها لا تغضُّ من أهمية هذا الكتاب الذي فتح به الجاحظ لمعاصريه موضوعاً جديداً للكتابة ، وكان ممن تابعه فيه معاصره يعقوب بن أحمد بن أبي يعقوب بن واضح ، وكتابه البلدان منشور . وتعاقت بعد ذلك الكتب في هذا الموضوع . والمهم أن الجاحظ أثار في كتابه بقوة فكرة البيئة وطوابعها في السكان ، وقد كتبه بأسلوبه الأدبي البارع .

٢

الخطابة والمواعظ والنثر الصوفي

ضعفت الخطابة السياسية في هذا العصر ، كما ضعفت الخطابة الحفلية ، فكلاهما أصبح شيئاً نادراً ، وحتى ما بقي منهما إنما هو شظايا قليلة كتلك الشظايا

(٢) انظر مروج الذهب ١/١١٤ .

(١) راجع كتاب الجاحظ للدكتور طه الحاجري (طبع دار المعارف) ص ٣٨٩ وما بعدها .

التي حكها الطبري عن صاحب الزنج، بل لقد أجمل ما رواه من خطبه^(١) بحيث لا نكاد نثنيها في وضوح. وضعفت الخطابة الدينية على ألسنة الخلفاء وإن ظلت مزدهرة في المساجد وفي خطب الجمع والعيد، فقد أصبح من المعتاد ألا يخطب الخليفة يوم الجمعة إلا ما كان من الخليفة المهتدى الورع الذي ظل في الحكم نحو عام، فإنه كان يذهب إلى المسجد الجامع بسامراء في كل جمعة ويخطب الناس ويؤمهم^(٢)، ويروى أن الخليفة المعتضد حاول أن يخطب في بعض الأعياد، فأرتج عليه ولم تستمع خطبته^(٣)، ولم يخطب خليفة بعده في العصر سوى الراضي، ولم تؤثر خطبه.

ولكن الخطابة الدينية إن كانت قد ضعفت على ألسنة الخلفاء فإنها نشطت نشاطاً عظيماً في المساجد فقد كانت تُعقَدُ حلقات للوعاظ والقُصَّاص وكان الناس يتحلقون من حولهم فيما يشبه احتفالات الأعياد، وكان منهم الرسميون الذين تعيّنهم الدولة للخطابة في أيام الجمع ومنهم غير الرسميين، وهم الجمهور الأكبر. وكانوا يستمدون في وعظهم وقصصهم من القرآن الكريم والحديث النبوي وقصص الأنبياء والمرسلين، ومنهم من كان يقرأ القرآن الكريم ويفسره، وكانوا يُعَسِّونَ بعَوْن الضعفاء والمساكين واليتامى وبالجهاد وحرب الأعداء مستعينين في ذلك بأعمال البر. وكثير منهم كان يذهب مع الجيوش المجاهدة للوعظ في الحرب وبث روح الحماسة الدينية في نفوس المجاهدين من مثل أبي العباس الطبري الذي مرّ ذكره والذي كان يعظ ويقص على المجاهدين في طرسوس. ولم يكن يخلو يوم من أيام رمضان من واعظ أو قاص بعد الصلاة. وكانت العامة تشغف بهم شغفاً شديداً، حتى ليشحكي عن الطبري أنه تعرّض لقاص ببغداد يُنكر عليه بعض ما يقوله، فصاحت به العامة ورموا باب داره بالحجارة. ولا بد أن نفرق بين هؤلاء القصاص الوعاظ وبين قصّاص آخرين كانوا يجلسون للشباب والعلماء في الطرقات ببغداد ويقصّون عليهم نوادر الأخبار والحكايات الهزلية، وكانوا يُسلّكون في المشعوذين، ويضطرب بعض المستشرقين فيخلط بينهم وبين القصاص الوعاظ،

(٣) طبري ١٠/٣١.

(١) الطبري ٩/٤١٤ وما بعدها.

(٢) مروج الذهب ٤/٩٦.

ولا صلة بين الطرفين إلا في الاسم ، وهؤلاء هم الذين كانت الدولة تطاردهم أحياناً كما مرَّ بنا في غير هذا الموضع ، أما قُصَّاصُ المساجد الوعَّاظ فكانوا موضع رعاية الدولة منذ عصر بني أمية ، وظل ذلك بعدهم ، حتى لنجد بعض من يُسند إليهم القصص في المساجد يُسندُ إليهم القضاء^(١) . أما الوعَّاظ فكان منهم دائماً خطباء المساجد في الجمع والأعياد وأئمتها في الصلاة ، وكان منهم كثيرون فصحاء بلغَاءَ ، فكان الناس يحتشدون حولهم ، مُكبرين لهم لإكباراً عظيماً .

وكانت المساجد دائماً مفتوحة ليلاً ونهاراً ، ودائماً يوجد فيها الناس للصلاة وتوجد فيها حلقات التدريس ، فكان الواعظ يختار أى وقت يشاء لموعظته ، وإن كان عادة يجعلها تالية لبعض الصلوات . ومن كبار الوعَّاظ الذين شهدتهم بغداد في العصر أبو الحسن علي بن محمد الواعظ المصري المتوفى سنة ٣٣٨ وكان يحضر مجلس وعظه الرجال والنساء .

وأخذت تنشأ منذ أوائل العصر طبقة جديدة من الوعَّاظ ، كانوا يسمون بالمدكرين ، ويسمى مجلسهم باسم مجلس الذكر أى ذكر الله وتسبيحه ، وكانوا من الصوفية ، بل كانوا خطباءهم ووعَّاظهم الممثلين صلاحاً وتقوى وورعاً ، وكانوا يعظون الناس في المساجد وفي الزوايا ، خالطين الخوف بالرجاء ، مستشهدين ببعض آي القرآن وبعض الحديث ، وقد يفسرونهما ويعلقون عليهما ، مضيفين من حين إلى حين عباراتهم الصوفية التي تأسرُ العقول والقلوب . ومن وعَّاظهم في العصر يحيى بن معاذ الرازي المتوفى عام ٢٥٨ ويروى أنه جاء إلى شيراز ، فصعد المنبر ، واجتمع إليه الناس فأول ما بدأ به قوله :

مواعظُ الواعظِ لَنْ تُقْبَلَ حَتَّى يَعْجِبَهَا قَلْبُهُ أَوَّلًا

وانهال الناس عليه بعد ذلك انهياراً . ومن أكبر وعَّاظهم في العصر أبو حمزة الصوفي المتوفى سنة ٢٦٩ وهو — كما مرَّ بنا في الفصل الثاني — أول من تكلم على رموس المناير ببغداد خالطاً مواعظه باصطلاحات

(١) الولاية والقضاة للكندي (طبعة جيبست) ص ٤٢٧ .

الصوفية وأفكارهم من صفاء الذكر وجمع الهمم والمحبة والعشق والأنس . وكان هؤلاء الوعّاظ يسجدون إليهم الناس بأكثر مما يجذبهم الوعّاظ العاديون لقيام حياتهم على الزهد والتقشف ورَفَض كل متاع .

وتكوّنت حول هؤلاء الوعّاظ من المتصوفة سريعاً حكايات كثيرة تصوّر جهادهم العنيف في قَسَم شَهوات النفس وإذاتها وكيف كان الصوفي يَفْرَض على نفسه عَناء شاقاً مُضْئِلاً لا يُطَبِّقُه إلا أولو العزم . وعادة تحتوى القصة أو الحكاية ما يلفت الصوفي إلى تقصيره وأن عليه أن يتحمل أهوالاً ثقالاً ، فمن ذلك ما يروى عن بشر الحافي المتصوف المتوفى قبيل هذا العصر سنة ٢٢٧ من أنه مرَّ ببعض الناس فسمعهم يقولون : هذا الرجل لا ينام الليل كله ولا يُفْطِر إلا في كل ثلاثة أيام مرة ، فبكى حين سمعهم يردّدون هذا الكلام ، وسأله سائل : ما يُبْكيك ؟ فقال : إني لا أذكر أنى سهرت ليلة كاملة ، ولا أنى صحت يوماً ولم أفطر من ليلته ، ولكن الله سبحانه وتعالى يأتى في القلوب أكثر مما يفعله العبد لطفاً منه سبحانه ^(١) وكرمًا . ويحكى عن السريّ السقّطى المتوفى سنة ٢٥١ أنه كان إذا أفطر كل ليلة ترك لقمة ، فإذا أصبح جاءت عصفورة ، وأكلت تلك اللقمة من يده ، وذات يوم انتهى أن يأكل الخبز بالقديد (لحم مقدّد) فامتنعت العصفورة من أكل اللقمة التي تعودت أكلها ، فعاهد نفسه ألا يتناول أبداً شيئاً من الإدام ^(٢) ! . ويروى ابن أخته الجنّيد أنه دخل عليه يوماً ، فوجده يبكى ، فقال له : ما يُبْكيك ؟ فقال : جاءتني البارحة الصبية ، فقالت : يا أبت هذه ليلة حارة ، وهذا الكوز أعلّقه ههنا ، ثم إني نمت فرأيت جارية من أحسن الخلق نزلت من السماء فقلت لها : لمن أنت ؟ فقالت : لمن لا يشرب الماء المبرّد في الكيزان ، فتناولت الكوز ، فضربت به الأرض فحطمته ^(٣) . وهما خبران رمزيان يصوران ما كان يأخذ به السريّ نفسه من الشظف في العيش والحرمان الشديد . ويحكى عن رُوَيْم بن أحمد المتوفى سنة ٣٠٣ ، وكان مجرداً من الدنيا زاهداً ورعاً ، أنه اجتاز في بغداد وقت الهاجرة ببعض الطرقات وهو عطشان ، فاستسقى من دار ، ففتحت

(٢) القشيري ص ١٠ .

(١) رسالة القشيري (طبعة سنة ١٣٤٦ هـ)

(٣) القشيري ص ١١ .

بمصر ص ٢٠ .

الباب صبيّة ومعها كوز ماء ، فأخذها منها وشرب ، فاستدارت له قائلة : صوفى يشرب بالنهار ! فما أفطر بعد ذلك اليوم قط ^(١) .

وهذه الحكايات الصوفية أخذت تكون ضرباً من ضروب الآداب الشعبية العربية ، إذ كان الناس يتداولونها رجالاً ونساءً وشبيهاً وشباناً ، وكأن التصوف كان عاملاً قوياً في ظهور تلك الآداب وطبعها بطوابع الشعب ولغته وألفاظه . وتتصل بها الحكايات التي أخذت تؤثّر عن كرامات المتصوفة ، ومرّ بنا في الفصل الثالث أن الحكيم الترمذى المتوفى سنة ٣٢٠ صنّف في تلك الكرامات كتاباً سمّاه « ختم الولاية » يريد ولاية الصوفية وأنهم أولياء الله في أرضه ، ولذلك تظهر على أيديهم كرامات كثيرة . ومن تكثر إضافة الكرامات إليه في هذا العصر بُنّان الحمّال المصرى المتوفى سنة ٣١٦ ، فقد قيل إن خمارويه أمر بأن يُطرح بين يدي سبع ، فطرح وبقى ليلته ، وجعل السبع يشمه ولا يضره ، فلما أصبحوا وجدوه قاعداً مستقبل القبلة والسبع بين يديه . وعجب خمارويه ، فأطلقه واعتذر إليه ^(٢) . وحكى أنه كان لرجل على آخر دين : مائة دينار ، بوثيقة ، فطلب الرجل الوثيقة فلم يجدها ، فجاء إلى بُنّان ليدعو له ، لعله يجد الوثيقة الضائعة ، فقال له بُنّان : أنا رجل قد كبرتُ وأحب الحلواء ، اذهب إلى قريح (حلوانى) فاشتر رطل حلواء واثنى به ، أدعوك ، ففعل الرجل ، وجاءه . فقال له بُنّان : افتح ورقة الحلواء ، ففتحها ، فإذا هى الوثيقة ، فقال : هذه وثيقتى ، فقال بُنّان : خذها ، وأطعم الحلواء صبيانك . ولم يكن يؤمن بمثل هاتين الكرامتين إلا عوامُ المتصوفة ، وهو ما يعيننا ، إذ دارت حكايات هذه الكرامات على السنة العامة ، وبذلك كان التصوف عاملاً قوياً في العصر على ذبوع لون شعبي جديد من الأدب ، وهو لون قصصى ، وقد أخذت تؤلف فيه المصنّفات مثل كتاب « ختم الولاية » الآنف ذكره ، وكانت بدورها مصنّفات شعبية تتداولها كثرة من الأيدى . ولعله من المهم أن نعرف أن خاصة المتصوفة وكبارهم في العصر كانوا ينكرون هذه الكرامات إنكاراً باتاً ، فيُحكى عن أبي يزيد البسطامى المتوفى سنة ٢٦١ أنه قيل له إن فلاناً يمشى في ليلة إلى مكة ، فقال :

الشیطان یمشی فی ساعة من المشرق إلى المغرب فی لعنة الله . وقیل له : فلان یمشی على الماء ویطیر فی الهواء ، فقال : الطیر یطیر فی الهواء والسمک یمر على الماء^(١) . وجاء رجل إلى سهل التستری المتوفی سنة ٢٧٣ ، فقال له : إن الناس یقولون إنک تمشی على الماء ، فقال له : سَلْ مُؤَذِّنَ الحَلَّةِ ، فإنه رجل صالح لا یکذب ، قال : فسألته ، فقال المؤذن : لا أدری هذا ، ولكنه نزل حوض الماء فی بعض الأيام لیتطهر ، فوقع فی الماء ، فلولم أکن أنا لبقی فیهِ^(٢) . ویروى عن بعض الصوفیة أنه قال : کان فی نفسی شیء من هذه الکرامات ، فأخذت قصبة من الصبیان وقمت بین زورقین ، ثم قلت : وعزَّتیک لئن لم تخرج لی سمكة قدرها ثلاثة أرتال لأغرقنَّ نفسی ، قال : فخرجت لی سمكة قدرها ثلاثة أرتال ، فبلغ كلامه الجنید ، فقال : کان حقّه أن تخرج له أفعی تلدغه .

والمهم أن التصوف نشرَ بهذه الحکایات المتصاة باحتمال المتصوفة لأثقال الشظف وما اعتقدته العامة فیما جرى على أيديهم من الکرامات أدباً شعبياً قصصياً کان یدور بین الناس . ولون ثالث من هذه الحکایات کان یقص أخبار المتصوفة لعل خیر ما یصوره کتاب أخبار الحلاج ، وهو أخبار وحکایات عنه بألسنة تلاميذه . تحمل أحواله وآراءه ومعتقده ، فن ذلك ما رواه تلميذه إبراهیم الحلوانی . قال (٣) :

« دخلت على الحلاج بین المغرب والعشاء . فوجدته یصلی . فجلست فی زاوية البيت . كأنه لم یخسّ بی لاشتغاله بالصلاة ، فقرأ سورة البقرة فی الركعة الأولى . وفی الركعة الثانية آل عمران ، فلما سلّم سجّد وتکلّم بأشیاء لم أسمع بمثلها ، فلما خاض فی الدعاء رفع صوته كأنه مأخوذٌ عن نفسه . ثم قال : یا إله الآلهة ویا ربّ الأرباب ویا من (لا تأخذه سنة ولا نوم) ردّ إلى نفسی لثلاثیفتین بی عبادک . یا هو أنا : وأنا هو . لافرق بین إنسیتی (وجودی) وهویتک إلا الحدوث والقیدم . ثم رفع رأسه ونظر إلى وضحک فی وجهی ضحکات . ثم قال : یا أبا إسحق أما ترى أن ربی ضرب قیدمه فی حدوثی حتى استهلك حدوثی فی قیدمه ، فلم

(٣) أخبار الحلاج ص ٢٠ .

(١) القشیری ص ١٦٣ .

(٢) القشیری ص ١٦٤ .

يبقى لى صفة إلا صفة القديم ، ونُطْقُ في تلك الصفة . والخلق كلهم أحداث ينطقون عن حدوث . ثم إذا نطقتُ عن القدم ينكرون على ويشهدون بكفرى ويسعون إلى قتلى ، وهم بذلك معذورون ، وبكل ما يفعلون بى مأجورون .

والحكاية تصور عقيدة العلاج فى أنه بتحملة الآلام النقال أصبح - كما يزعم - فى مرتبة عليا ، بحيث ارتسمت الصورة الإلهية فيه ، إذ ظهر فيه اللاهوت ، وأصبح لا يفرق بين نفسه وربّه : فقد امتزج الحدث أو الحدائنة فيه بالقدم ، بل إنه لم تبق فيه صفة إلا صفة القدم ، بخلاف من حوله من الناس ، فهم جميعاً يستشعرون الحدوث ، أو قل كلهم حادثون ، وهو وحده الذى أصبح يستشعر القدم ، فلماذا ينكرون عليه التكلم عن القدم . مع أنه هو - كما يزعم - والقديم شىء واحد ! . وله عبارات تدل على أنه كان فى بعض أحواله يؤمن بتنزيه الذات العلية عن التشبيه بالمخاوقات وفى أخباره عن أحمد بن سعيد الإسبىجاني قال (١) :

سمعت العلاج يقول : ألزم (الله) الكلّ الحدوث لأن القدم له . والذى بالجسم ظهوره العرض يلزمه . والذى بالإرادة اجتماعه قواها تمسكه . والذى يؤلفه وقت يفرقه وقت . والذى يقيمه غيره الضرورة تمسه . والذى الوهم يظفر به التصوير يرتقى إليه . ومن آواه محل أدركه أين . ومن كان له جنس طالبه كَيْف . إنه تعالى لا يظله فوق ولا يقله (يحمله) تحته . ولا يقابله حد ولا يزاحمه عند ، ولا يأخذه خلف ولا يحده أمام . ولا يظهره قبيل ولا يفنيه بعد . ولا يوجد له كان ، ولا يفقده ليس (عدم) . وصفه لا صفة له . وفعله لا علّة له . وكونه لا أمدة له . تنزهه عن أحوال خلقه . ليس له من خلقه مزاج ، ولا فى فعله علاج ، باينهم بقدمه كما باينوه بحدوثهم .

ويستمر العلاج فى مثل هذا التنزيه لله ، فهو لا يشبه الكائنات فى شىء ولا يشبهونه فى شىء ، تفرّد بذاته وصفاته عن ذواتهم وصفاتهم فهم حادثون وهو قديم ، لا يلزمه شىء ولا يمسكه شىء ، كل واحد لا أجزاء له ، لا تمسه ضرورة ولا يلحقه وهم ، ولا يؤويه مكان ولا تحتويه صفة ، لا شىء فوقه ولا آخر تحته ، لا يحده حد ولا جهة من الجهات ، موجود قبل كل وجود ، ولا يلحقه عدم

ولا فناء ، ولا يصفه وصف لا يُسأل عما يفعل ، أزلى أبدى ، ليس كمثل شئ ، قديم والخلق جميعاً حادثون . ومراً بنا أنه ربما كان أول صوفي دعاً للانقسام بين الحقيقة (التصوف) والشريعة ، وفي أخباره أنه . قال في رسالة له أرسل بها إلى بعض تلامذته ^(١) :

« اعلم أن المرء قائم على بساط الشريعة ما لم يصل إلى مواقف التوحيد ، فإذا وصل إليها سقطت من عينه الشريعة واشتغل باللوائح الطالعة من معدن الصدق ، فإذا ترادفت عليه اللوائح وتتابعت عليه الطوابع صار التوحيد عنده زندقة والشريعة عنده هوساً ، فبقى بلاعين ولا أثر . إن استعمل الشريعة استعمالها رسماً . وإن نطق بالتوحيد نطق به غلبة وقهراً » .

وواضح أنه يجعل الشريعة للناس العاديين ، أما أهل الحقيقة من أمثاله فإنهم يُسقطون الشريعة ويسقطون معها الفروض الدينية ! فلا صلاة ولا صوم ولا حج ولا زكاة ، بل إن المتصوف إذا ظل راقياً في مراقى الحقيقة العليا ، سقطت عنده لا الشريعة وحدها ، بل كل شئ حتى التوحيد ! . ولعل في الفقرة الأخيرة من كلامه ما يشير إلى لون رابع من ألوان النثر الصوفي ، هو تصوير الصوفية لمعتقداتهم في مصنفات خاصة . على نحو ما يلقانا في كتاب الطواسين له ، ويحسن أن نعرض منه قطعة أو فقرة تصور كتابته الصوفية ، واتكن القطعة التي كتبها عن شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم في مستهل الفصل الأول من كتابه ، وهي تجرى على هذا النمط ^(٢) :

« طس سراج من نور الغيب بدياً وعاد . وجاوز السراج وساد ، قمر تجلّى من بين الأقمار ، برّجُه في فلك الأسرار ، سَمَّاه الحق أمياً لجمع همته ، وحرمياً لعظم نعمته ، ومكيناً لتمكينه عند قربه ، شرح صدره ، ورفع قدره ، وأوجب أمره ، فأظهر بدره . طلع بدره من غمامة اليامة ، وأشرق شمسُه من ناحية تهامة . . . (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون) . أنوار النبوة من نوره برزت ، وأنوارهم من نوره ظهرت ، همته سبقت الهمم ، ووجوده سبق العدم ، واسمه سبق القلم ، لأنه كان قبل الأُم . . . وهو سيد البرية الذي اسمه أحمد ، وزعمته أوحد ، كان مشهوراً

(١) أخبار الحلاج ص ٧٣ .

(٢) الطواسين ص ٩ - ١٤ .

قبل الحوادث والكوائن والأكوان ولم يزل ، كان مذكوراً قبل القبل وبعد البعد ، هو الذى جتلاً الصّدأ عن الصدر المغلول ، وهو الذى أتى بكلام قديم لا مُحَدَث ولا مقول ولا مفعول . . . فوقه غُثَمامة برقت ، وتحتَه برقة لمعت وأشرفت وأمطرت وأثمرت . العلوم كلها قطرة من بحره ، والحكم كلها غَرْفة من نهره ، الأزمان كلها ساعة من دهره ، هو الأول فى الوصلة ، والآخر فى النبوة ، والباطن بالحقيقة ، والظاهر بالمعرفة . »

و«طس» تبتدئ بهاسور معروفة فى القرآن الكريم ، وقد اختار جمعها اسماً لكتابه ! وهو يشيد بالرسول عليه السلام متمثلاً فيه فكرة اللاهوت ، بل إنه ليجعل نوره الحمى أول شىء خلقه الله . وقد ظل يظهر فى نبوات الأنبياء منذ آدم ، وليس ذلك فحسب ، فهو مبدأ الوجود وروحه ، وهو منبع العلم والعرفان والحكمة ، أو هو الأول السابق فى الوجود لكل وجود ، وهو الآخر فى النبوات وبين الأنبياء ، وكأنه الحقيقة الإلهية السارية فى الوجود كله . فمنها يستمد الكون وجوده وكل نبى نوره . بل إنه هو المشاهد فى كل نور . وذكر أن الرسول عليه السلام أتى بكلام قديم . وبذلك خالف المعتزلة مخالفة صريحة فى قولهم بأن القرآن كلام الله ليس قديماً بل هو مخلوق وحادث .

وواضح أن الحلاج كان يستخدم فى كتابه الطواسين السجع ، وبذلك لاءم بين أسلوبه وأسلوب الكتابة فى أواخر القرن الثالث وأوائل الرابع فإن السجع أخذ يعم فى الكتابات الأدبية . وربما كان فى اختياره لهذا الأسلوب ما يدل على أنه أراد أن يرتفع بكتابه الطواسين عن الطبقة العامة إلى الطبقة الخاصة محاولاً أن يؤثر فيها بما حشده فيه من السجع تارة ومن الشعر تارة ثانية ، وكأنه كان يعرف قبل غيره أن العامة لن تفهم أفكاره الصوفية المعقدة . فقدّمها إلى الطبقة الخاصة مُودِعاً فيها من السجع والشعر ما يَنفَسِحُ للرُمز والتأويل .

المناظرات

مرّ بنا في كتاب العصر العباسي الأول ما يصور اندلاع المناظرات بين المعتزلة وطوائف المتكلمين وبينهم وبين أصحاب الملل والنحل اندلاعاً هيباً لظهور كثير من كبار المناظرين في شئون الدين والعقل كما هيأ لبسط المعاني ومدّها بلخائر جديدة من توليد الأفكار وتشجيعها والتعدي في مساربها الخفية ، وقد أسلفنا أن مجد المعتزلة سقط في هذا العصر منذ وقف المتوكل قولهم القائل بخلق القرآن وقسح لآراء أهل السنة ، وقد غضب غضباً شديداً على ممثل المعتزلة في بلاط المعتصم والوائق من قبله ، ونقصد أحمد بن أبي دؤاد .

لم يعد للمعتزلة مجدهم القديم ، ولكنهم لم يراجعوا عن الوظيفة التي ندبوا لها أنفسهم إزاء أصحاب النحل والملل ، فكانوا بالمرصاد للملاحدة ، ومرّ بنا كتاب الانتصار للخياط المعتزلي الذي ردّ ردّاً مفحماً على ابن الراوندي الملحد . وظل الجدل عنيفاً بين المعتزلة وغيرهم من المتكلمين ، على نحو ما يصور لنا ذلك الجاحظ في كتاباته وخاصة في كتابه « فضيلة المعتزلة » وتلاه في رياسة المعتزلة بالبصرة أبو يعقوب الشَّحَّام ، وكان يعاصره في بغداد جعفر بن حرب المعتزلي ، وحكى الخياط مناظرة بينه وبين السَّكَّاك الرافضي في علم الله جلّ جلاله وحدوثه وقدمه وإثباته ونفيه ^(١) ، وفي موضع آخر يحكى المناظرات التي انعقدت بين هذا الرافضي وأبي جعفر الإسكافي المعتزلي قائلاً : « وهذه مجالسة مع أبي جعفر الإسكافي معروفة يعلم قارئها والناظر فيها مقدار الرجلين وفرق ما بين المذهبين ^(٢) » . وكانت تدور في مجالس أبي علي الجببائي المتوفى سنة ٣٠٣ مناظرات كثيرة أهمها ما دار بينه وبين ربيبه وتلميذه أبي الحسن الأشعري المتوفى سنة ٣٢٤ ، وكانت ترجح كفة الأشعري غالباً . من ذلك مناظرتهم في الصلاح والأصلح إذ كانت المعتزلة ومعهم أبو علي الجببائي يوجبون على الله فعل الأصلح ، وقد سأله الأشعري في أثناء احتدام

(١) الانتصار للخياط ص ١١٠ .

(٢) الانتصار ص ١٤٢ .

المناظرة عن عاقبة ثلاثة : مؤمن وكافر وصبي ماتوا جميعاً ، فأجابه بأن المؤمن من أهل الدرجات والكافر من أهل الهلكات والصبي من أهل النجاة . وأخذ الأشعري يراجعته إلى أن قال له : فلو قال الكافر : يا رب علمت حال الصبي وأنه لو بقي لعصى وعوقب فراغت مصلحته ، وعلمت حالى مثله ، فهلاً راعيت مصلحتي . حينئذ انقطع الجبائي وألزمه الأشعري أن الله يخص من شاء برحمته ومن شاء بعقابه وأن أفعاله غير معلّلة ^(١) .

وكان الخلاف واسعاً بين بعض أصحاب المذاهب الفقهية ، فكثرت المناظرات بينهم ، وفي طبقات الشافعية للسبكي أطراف من هذه المناظرات ، وما يذكره أن أبا العباس بن سريج القاضي رئيس الشافعية ببغداد كان مشغولاً بمناظرة داود الظاهري ، حتى إذا توفي داود مضى ينظر ابنه محمداً في المذهب الظاهري ، يقول : ولهما المناظرات المشهورة والمجالس المروية ، ويحكى أن ابن داود قال لابن سريج يوماً : أبلغني ربي ، فقال له : أبلغتك نهر دجلة ، وقال له يوماً : أمهلني ساعة ، فقال له : أمهلتك من الساعة إلى قيام الساعة ^(٢) . وبالمثل كان اللغويون والنحاة يتناظرون ، وشائعة معروفة "مناظرات المبرد مع ثعلب بدار محمد بن عبد الله بن طاهر حاكم بغداد في مسائل اللغة والنحو" ^(٣) . وكان تلاميذ ثعلب يتعرضون أحياناً للمبرد في محاضراته بالمسجد ، فما يزال يناظرهم ويجادلهم ويحاورهم حتى ينزعهم من أستاذهم ثعلب ويلحقهم بتلامذته وحلقته ^(٤) .

ومن المناظرات التي اشتهرت بأخرة من العصر مناظرة السيرافي ومثنى بن يونس المترجم المتفلسف في مجلس الوزير الفضل بن جعفر بن الفرات لسنة ٣٢٠ وكان السيرافي من علماء النحو النابيين ، وله كتاب كبير في شرح كتاب سيويه . وكان موضوع المناظرة النحو والمنطق أيهما أكثر نفعاً في معرفة صحيح الكلام من سقيمه . وقد روى المناظرة أبو حيان التوحيدي ونقلها عنه ياقوت في معجمه ^(٥) ، والطريف أنه يذكر في فاتحتها من كان في المجلس من العلماء والفضلاء ، ويذكر

١ / ١٤١ ومعجم الأدباء ٥ / ١٣٧ .

(٤) معجم الأدباء ١٩ / ١١٧ .

(٥) معجم الأدباء ٨ / ١٩٠ .

(١) طبقات الشافعية للسبكي ٣ / ٣٥٦

وما بعدها .

(٢) السبكي ٣ / ٢٣ .

(٣) تاريخ بغداد ٥ / ٢٠٨ وإنباء الرواة

أنهم كتبوا المناظرة في ألواح وبمحابر كانت معهم ، مما يعطى صورة عن مجلس المناظرات حينئذ . وتبدأ المناظرة بسؤال السيرافي لمتى بن يونس عن المنطق ما يعنى به ، حتى يكون كلامه معه في قبول صوابه و رد خطئه على ستن مرضى وطريقة معروفة ، ويحييه متى : أعنى به أنه آلة من الآلات يُعرفُ بها صحيح الكلام من سقيمه وفاسد المعنى من صالحه كالميزان فإنه يُعرفُ به الرجحان من النقصان والشائل من الجانح . ويقول السيرافي :

« أخطأت لأن صحيح الكلام من سقيمه يُعرف بالعقل . هببك عرفتَ الراجح من الناقص من طريق الوزن من لك بمعرفة الموزون أهو حديد أو ذهب أو شبه (نحاس) أو رصاص ؟ وأراك بعد معرفة الوزن فقيراً إلى معرفة جوهر الموزون وإلى معرفة قيمته وسائر صفاته التي يطول عدُّها ، فعلى هذا لم ينفعك الوزن الذي كان عليه اعتمادك ، وفي تحقيقه كان اجتهدك ، إلا نفعاً يسيراً من وجه واحد ، وبقيت عليك وجوه ، فأنت كما قال الأول : « حفظت شيئاً وضاعت منك أشياء » وبعد فقد ذهب عليك شيء ههنا ، ليس كل ما في الدنيا يُوزن ، بل فيها ما يوزن ، وفيها ما يُسكال ، وفيها ما يُدَّرع (يقاس بالذراع) وفيها ما يُمسح ، وفيها ما يُحزَّر . وهذا وإن كان هكذا في الأجسام المادية فإنه أيضاً على ذلك في المعقولات المقروءة ، والإحساس ظلال العقول ، وهي تحكيها بالتبديد والتقريب مع الشبه المحفوظ والمماثلة الظاهرة . ودع هذا إذا كان المنطق وضعه رجل من يونان على لغة أهلها واصطلاحهم عليها وما يتعارفونه بها من رسومها وصفاتها من أين يلزم الترك والهند والفرس والعرب أن ينظروا فيه ويتخذوه حكماً لهم وعليهم وقاضياً بينهم ما شهد له قبلوه وما أنكروه رفضوه . قال متى : إنما لزم ذلك لأن المنطق يبحث عن الأغراض المعقولة والمعاني المدركة ويتصفّح الحواطر السانحة والسوانح الهاجسة والناس في المعقولات سواء ، ألا ترى أن أربعة وأربعة ثمانية عند جميع الأمم ؟ وكذلك ما أشبهه » . قال السيرافي :

« لو كانت المطلوبات بالعقل والمذكورات باللفظ ترجع مع شعبها المختلفة وطرائقها المتبانية إلى هذه المرتبة البينة في أربعة وأربعة أنهما ثمانية زال الاختلاف

وحضر الاتفاق ، ولكن ليس الأمر هكذا ، ولقد موهت بهذا المثال ، ولكم عادة في مثل هذا التدويه ، ولكن ندع هذا . إذا كانت الأغراض المعقولة والمعاني لا يوصلُ إليها إلا باللغة الجامعة للأسماء والأفعال والحروف أفليس قد ازهدت الحاجة إلى معرفة اللغة ؟ .

ويناقش السيراني مَسْنَى في ترجمة المنطق من اليونانية إلى السريانية ثم إلى العربية وأنه ربما حدث حَيْفٌ على المنطق في أثناء هذا الطريق الطويل الذي سلكه إلى الفصحى ، ويقول له : كأنك تقول لا حجة إلا عقول يونان ولا برهان إلا ما وصفوه . ويقول مَسْنَى إنهم أصحاب عناية بالحكمة وأولاهم ما نشأت العلوم وأصحاب الصناعات . وهو تعميم أكثر مما ينبغي . وَيَحْتَسِدُ الجدل ، ويسأله السيراني عن حرف واحد من الحروف التي يهتم بها النحو يدور في كلام العرب وهو حرف الواو ومعانيه المتميزة عند النحاة ، ويقول له استنبطتها من ناحية منطق أرسطاطاليس الذي تُدَلِّ به وتباهى بتفخيمه وعرفنا ما أحكامه وكيف موقعه وهل هو على وجه واحد أو وجوه . وَيُسَبِّهَتُ مَسْنَى ، ويقول : هذا نحو ، والنحو لم أنظر فيه ، لأنه لا حاجة بالمنطق إلى النحو ، أما النحو فيحتاج إلى المنطق ، لأن المنطق يبحث عن المعنى والنحو يبحث عن اللفظ ، فإن مرَّ المنطق باللفظ فبالعرض وإن عبَّرَ النحو بالمعنى فبالعرض ، والمعنى أشرف من اللفظ ، واللفظ أوضع من المعنى . وينكر عليه السيراني قواه ويحاول أن يثبت أن النحو يدور على المعاني ويسأله عن معاني الواو وكيف أنه يجهلها ، وهي حرف واحد ، فما باله لو سأله عن معاني جميع الحروف ، ويصور له معانيها وأن المنطق الذي يُزْهِى به مَسْنَى لا يستطيع بيانها . ثم يعرض عليه قولهم : « زيد أفضل الإخوة » ، ويسأله أيحوز أن يقال : زيد أفضل إخوته ، ولا يستطيع مَسْنَى التفرقة بين العبارتين فيقول له إن العبارة الثانية لا تصح في الكلام لأن إخوة زيد هم غير زيد ، وزيداً خارج عن جملتهم ، وَيَقْصِمُه في متشابهات نحوية وعبارات موهمة لا يحلُّها سوى النحو . ويعرض عليه طائفة من مصطلحات المناطقة والفلاسفة ، ويقول له إن كل ذلك لا حاجة لعقل السليم به . وفي الحق أن لَسَنَ السيراني وفصاحته وقدرته على التعبير كل ذلك هو الذي أتاح له الظفر بخصمه في تلك المناظرة الطويلة التي امتدت إلى أكثر من عشرين صحيفة ،

وقد أردنا بعرضها أن نصور احتدام المناظرات في العصر وأنها تناوأت كل جوانب المعرفة .

وحق الكتب المؤلفة في العصر نجد عليها مسحة المناظرة والجدل واضحة، حتى على عنواناتها ، إذ كثيراً ما تُعَسَّنُ بكلمة الرد أو كلمة النقض ، فالكتاب يؤلف ردّاً أو نقضاً لكتاب آخر ، وكأن المناظرات لم تقف عند المجالس والمحاضرات في المساجد ، بل امتدت إلى الكتب والمصنفات . ويوضح ذلك الجاحظ في بعض كتبه ورسائله . فقد بُنيت في جمهورها على فكرة المناظرات إذ نرى « الحيوان » يُبَسَّنَى على مناظرة امتدت إلى أكثر من مجلد بين معبد والنظام في الكلب والديك أيهما أفضل ؟ . وله كتاب افتخار الشتاء والصيف وهو مناظرة واضحة بين الفصائل ، وكتاب الفخر ما بين عبد شمس ومخزوم ، وهو مناظرة بين العشيرتين القرشيتين ، وكتاب فخر القحطانية والعذانية وهو مناظرة بين اليمنية والمضرية . وقد يمدح الشيء في رسالة ثم يذمه في أخرى ، وكأنه يكتب مناظرة في رسالتين مثل رسالته في مدح النبيذ ورسالته في ذم النبيذ ومثل رسالته في مدح الكتاب ورسالته في ذم الكتاب ، ومثل رسالته في مدح الوراق (بائع الكتب) ورسالته في ذم الوراق . وله كتب مختلفة يجعل عنوانها كلمة الرد مثل كتاب الرد على المشبهة وكتاب الرد على النصارى وكتاب الرد على اليهود ، وله كتاب العثمانية وكتاب الرد على العثمانية ، وله كتاب نقض الطب . ومن رسائله التي أدارها على المناظرة رسالته « فخر السودان على البيضان » ورسالته « مفاخرة الجوارى والغلمان » . وقد لا توضع فكرة المناظرة أو الرد والنقض أو المدح والذم على الكتاب والرسالة ، فإذا قرأنا فيهما وجدناهما يأخذان شكل مناظرة كبيرة مثل كتاب التبريع والتدوير ، نراه فيه ينتصر للقصر تارة وللطول تارة ثانية ، وتارة ثالثة للتوسط بين الطرفين المتناقضين .

وكأنما كانت المناظرات والمحاورات لغة العصر الفكرية ، فدائماً مناظرات ومجادلات في كل مكان وفي كل موضوع علمي أو فلسفي أو أدبي ، والمناظر ينتصر تارة ، وتارة ينهزم في تلك الساحة الفكرية الكبيرة : بغداد ، وهم لا يكدون ولا يملون ولا يتوقفون فدائماً جدل وحوار وتشعيب للدقائق المعاني وغوص على خفياتها وكوامنها

المستورة ، ولا يمنع الانهزام يوماً صاحبه من التجمع للمناظرة والتحضر للحوار في يوم ثان أو لقاء ثان ، بل قد ينهزم المناظر وينتصر في المجلس الواحد مراراً ، وفي هذا الحوار الواسع ومعاركه الدائرة دون توقف يقول ابن الرومي مشيراً إلى المتناظرين وجدالهم العنيف :

لنوى الجدال إذا غدوا لجدالهم حُجَجٌ تَصِلُ عن الهدى وتَجورُ
وهمُ كآنية الزجاج تصادمتُ فهوتُ وكلُّ كاسِرٍ مكسورُ

ويبدو ابن الرومي نفسه في شعره مناظراً كبيراً ، إذ تُطْبِعُ جوانب من شعره - كما أسلفنا - بطوايع الجدال وما يُطَوِّى فيه من قدرة وبراعة على نَسْجِ الأدلة تارة ونقضها تارة أخرى . ومراً بنا ذمه للورد ونقضه لمحاسنه وقلبها مساوئ ذميمة في قصيدته « النرجس والورد » وهي مناظرة شعرية طريفة .

وتسرى هذه الروح في قصصه وحكايات وأخبار جُمِعت ونُسِقت في الكتاب المسمى بكتاب المحاسن والأضداد المنسوب خطأ إلى الجاحظ . لأنه يُفْتَتَحُ بكلمة : « قال أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ » وتوالى نقول عنه في فضائل الكتب ووصف فوائدها ، نجدها مبثوثة في كتاب الحيوان . ولعل هذا الاستهلال هو الذى جعل القدماء يظنون أن الكتاب من تأليف الجاحظ ، وأيضاً فإنه ينقل عنه في بعض فصوله نقولاً مختلفة . ولكن من يعرف أسلوب الجاحظ المطرد في كتبه يعرف تنوعاً أن الكتاب ليس له ، والطريف أن صاحبه ذكر في مستهله عن الجاحظ قوله في بعض رسائله : « إني ربما ألقت الكتاب المحكم المتقن في الدين والفقه والرسائل والسيرة والخطب والحراج والأحكام وسائر فنون الحكمة وأنسبه إلى نفسى فيتواطأ على الطعن فيه جماعة من أهل العلم بالحسد المركب فيهم ، وهم يعرفون براعته ونصاعته ، وأكثر ما يكون هذا منهم إذا كان الكتاب مؤلفاً للملك معه المقدرة على التقديم والتأخير والخط والرفع والترهيب والترغيب فإنهم يحتاجون عند ذلك احتياج الإبل المغتلمة . . . وهم قد ذموه وثلبوه لما رأوه منسوباً إلى وموسوماً بى . وربما ألقت الكتاب الذى هو دونه في معانيه وألفاظه فأترجمه باسم غيرى وأحيله على من تقدمنى عصره مثل ابن المقفع والخليل وسلم صاحب بيت الحكمة ويحيى بن

خالد والعنّابى ومن أشبه هؤلاء من مؤلفى الكتب فيأتينى أولئك القوم بأعيانهم الطاعنون على الكتاب الذى كان أحكم من هذا الكتاب لاستنساخه وقراءته على ، ويكتبونه بخطوطهم ويصيّرونه إماماً يقتدون به ويتدارسونه بينهم ويتأدّبون به ويستعملون ألفاظه ومعانيه فى كتبهم وخطاباتهم ويروونه عنى غيرهم من طلاب ذلك الجنس فتثبت لهم به رياسة . ويأتى بهم قوم فيه لأنه لم يترجم باسمى ولم يُنسب إلى تألّفى . وقد يكون فى ذلك ما يدل على أن المؤلف رأى أن يحاكى الجاحظ فى إنكاره لاسمه أحياناً على بعض آثاره . فنسبه إليه . ليرى رأى الناس فيه وحكمهم عليه . وربما كان هو نفس مؤلف كتاب المحاسن والمساوى الذى سنعرض له عما قليل . وما يشهد بأن الكتاب ليس للجاحظ وإنما هو لمؤلف تال عصره أن نجد فيه نقولاً عن عبد الله بن المعتز ^(١) ، وكان فى الثامنة من عمره حين توفى الجاحظ .

والكتاب مجموعة كبيرة من المناظرات فى الأخلاق والشئال ، فكل خلق أو كل شىء تُعرّضُ محاسنه ثم تعرض معاييه ، وتصورُ المعايير والمحسن فى أخبار وأقاصيص وحكايات ، تلتقى فيها الثقافات المعروفة حينئذ وما كان يتسرب منها إلى كتب السمر . وفى مقدمتها الثقافة الإسلامية ، وهى تتضح فى الاقتباس أحياناً من الذكر الحكيم ^(٢) والاستشهاد الدائم بالأحاديث النبوية ^(٣) . وتتسع الثقافة الدينية لتجلب بعض أقوال الزهاد أو بعض قصص الأنبياء أو بعض وصايا من التوراة من مثل : « اشكر من أنعم عليك ، وأنعم على من شكرك ، فإنه لا زوال للنعم إذا شكرك ولا إقامة لها إذا كُفرت . والشكر زيادة فى النعم وأمان من الغير » ^(٤) وبجانب ذلك تلقانا عناصر كثيرة من الثقافة العربية فى مقدمتها الأمثال ^(٥) ، والأشعار وهى أكثر من أن ندلّ عليها فى موضع معين من الكتاب . وتكثر أخبار الجاهليين وأقاصيصهم المصورة لمكارم أخلاقهم أو مذامها . وبالمثل أخبار حكمّام العرب وحكاياتهم على توالى الحقب من إسلاميين وعباسيين وخاصة حكماء بنى أمية والرشيد والمأمون ، وتكثر أخبار الأعراب وأقاصيصهم ويلمع فيها اسم الأصمعى .

(١) المحاسن والأضداد (طبع دار مكتبة

العرفان بيروت) ص ١٣٨ ، ١٦٩ .

(٢) المحاسن والأضداد ص ٣٩ ، ٤٢ .

(٣) انظر مثلاً ص ٣٢ .

(٤) المحاسن والأضداد ص ٣١ .

(٥) انظر مثلاً ص ٥٥ ، ١٠٤ ، ١٧٥ .

وتلقانا بحكم وأقاصيص منقولة عن بعض كتب الهند من مثل : « ليس
لكذوب مروءة ولا لصجور رياسة ولا للملوك وفاء ولا لبخيل صديق »^(١) ، وبالمثل
تلقانا أقاصيص وأخبار وحكم منقولة عن اليونان من مثل : « كَلَّم رجل سقراط عند
قتله بكلام أطالهِ ، فقال أنساني أول كلامك طولُ عهدي وفارق آخره فهدى لتفاوته ،
ولما قدَّم بكت امرأته فقال لها : ما يبكيك ؟ قالت : تُقَتِّل ظالمًا قال : وكنت
تحين أن أقتل مظلومًا أو أقتل ظالمًا »^(٢) . وللملوك الفرس ووزرائهم شطر كبير من
الأقاصيص والأخبار . ونختار بابًا من أبواب المحاسن نسوق منه ما يصور سيول هذه
الثقافات ، وهو باب محاسن السخاء ، ومما جاء فيه^(٣) :

« روى عن نافع قال : لقي يحيى بن زكريا عليه السلام إبليس لعنه الله فقال
له : أخبرني بأحب الناس إليك وأبغضهم ، قال : أحبهم إلى كل مؤمن ببخيل
وأبغضهم إلى كل منافق سخي قال : ولم ذاك ؟ قال إبليس : لأن السخاء
خلق الله الأعظم فأخشى أن يطلع عليه في بعض سخائه فيغفر له .
وقال النبي صلى الله عليه وسلم : السخي قريب من الناس بعيد من النار ، والبخيل
بعيد من الله بعيد من الجنة قريب من النار ، والجاهل السخي أحب إلى الله عز وجل
من عابد ببخيل ، وأدوا الدواء البخل . وقال صلى الله عليه وسلم : ما أشرقت شمس
إلا ومعها ملكان يناديان يُسمعان الخلائق غير الجن والإنس وهما الثقلان : اللهم
عجل لمنفق خلفًا ولمسك تلفًا ، وملكان يناديان : أيها الناس هلموا إلى ربكم
فإن ما قل وكفى خير مما كثر وألهى . وعن الشعبي قال : قالت أم البنين ابنة
عبد العزيز أخت عمر بن عبد العزيز وزوجة الوليد بن عبد الملك : لو كان البخل
قميصًا ما لبسته أو طريقًا ما سلكتها ، وكانت تعتق في كل يوم رقبة (عبدًا)
ونحمل على فرس مجاهدًا في سبيل الله . . . وقال بهرام جور : من أحب أن
يعرف فضل الجود على سائر الأشياء فلي نظر إلى ما جاد الله به على الخلق من المواهب
الجليلة والرغائب النفيسة . . . وقال الموبدان لأبرويز (ملك فارس) : أكنتم تَمَسُون
أنتم وآباؤكم بالمعروف وترصدون عليه المكافأة ؟ قال : ولانستحسن ذلك لعبيدنا ، فكيف

(٣) المحاسن والأضداد ص ٦٢ وما بعدها .

(١) المحاسن والأضداد ص ٣٨ .

(٢) المحاسن والأضداد ص ٢٢ .

نرى ذلك وفي كتاب ديننا (كتاب زرادشت : الأفتا) من فعل معروفًا خفيًا وأظهره ليتطوّل به على المنعم عليه فقد نبذ الدين وراء ظهره واستوجب ألا نعدّه من الأبرار ولا نذكره في الاتقياء والصالحين . وسُئل الإسكندر : ما أكبر ما شيدت به ملكك ؟ قال : ابتداري إلى اصطناع الرجال والإحسان إليهم . وكتب أرسططاليس في رسالته إلى الإسكندر : اعلم أن الأيام تأتي على كل شيء فتُخلقه (فتبليه) وتخلق آثاره وتميت الأفعال إلا ما رسخ في قلوب الناس ، فأودع قلوبهم محبةً بأثرِكَ تُبقي بها حُسْنُ ذكرك وكريم فعالك وشريف آثارك . ولما قدّم بزرجمهر (وزير فارسي) إلى القتل قيل له : إنك في آخر وقت من أوقات الدنيا وأول وقت من أوقات الآخرة ، فتكلم بكلام تُدكرُ به ، فقال : أي شيء أقول ، الكلام كثير ولكن إن أمكنتك أن تكون حديثًا حَسَنًا فافعل . وتنازع رجلان أحدهما من أبناء العجم والآخر أعرابي في الضيافة فقال الأعرابي : نحن أقرى للضيف ، قال : وكيف ذلك ؟ قال : لأن أحدهما ربما لا يملك إلا بغيراً فإذا حُلَّ به ضيف نحره له ، فقال له الأعجمي : فنحن أحسن مذهباً في القرى (الضيافة) منكم ، قال : وما ذاك ، قال : نحن نسمي الضيف : مِهْمَان ، ومعناه أنه أكبر من في المنزل وأملكناله . وقال المأمون : الجود بذل الموجود والبخل سوء الظن بالمعبود . وشكا رجل إلى إياس بن معاوية (قاضي البصرة المشهور في العصر الأموي) كثرة ما يهب ويصل وينفق ، فقال : إن النفقة داعية إلى الرزق ، وكان جالساً بين بابين فقال للرجل : أغلق هذا الباب ، فأغلقه ، فقال : هل تدخل الريح البيت قال : لا ، قال : فافتحه ، ففتحه ، فجعلت الريح تخترق البيت ، فقال : هكذا الرزق أغلقت البيت فلم تدخل الريح ، فكذلك إذا أمسكت لم يأتك الرزق . ونزل على حاتم ضيف ولم يحضره القرى فنحر ناقة الضيف وعشاه وغداه ، وقال له : إنك أقرضتني ناقتك فاحتكم عليّ ، قال الرجل : راحلتين قال حاتم : لك عشرون أراضيت ؟ قال : نعم وفوق الرضا . . . وقيل في المثل هو أجود من كعب بن مامة الإيادي ، وبلغ من جوده أنه خرج في ركب فيهم رجل من بني النَمِر في شهر قَيْسَظ . فصلوا وتَصَافَوا (تقاسموا بالحصص) ماءهم ، فجعل النمر يشرب نصيبه ويظهر أنه عطشان ، فكان كعب إذا أصاب نصيبه قال للساق : آثر أخاك النَمِرَ حتى أضرب به العطش فلما رأى ذلك استحث راحلته وبادر حتى وصل

إلى وِرْد ماء ، وقيل له : رِدْ كعب ، إنك وارد ، ولكن العطش غلبه فمات . . .
ومن قول أبي تمام :

ولو لم يكن في كفه غير نفسه لجاد بها فليتنق الله سائلُهُ »

ولنما سقنا ذلك كله لندل على المزيج الثقافي الذي يتكوّن منه كتاب المحاسن والأضداد ، وهو مزيج به عناصر قصصية عن الأنبياء وعناصر إسلامية من الحديث النبوي وعناصر عربية من أخبار العرب رجالا ونساء ، وعناصر فارسية من أخبار الفرس وحكاياتهم وعناصر يونانية من أخبار الإسكندر المقدوني وكلام أرسططاليس . وبين السطور نحسُّ شعوبية المؤلف حين يُعَلّي ضيافة الفرس وكرمهم على ضيافة العرب وما عُرِف عنهم من خصلة الكرم والجود . ولم يكفه ذلك فقد جعل حاتمًا يذبح ناقة ضيفه ليقدم له الغداء والعشاء ، وإن عاد يقول إنه أعطاه بدلا منها عشرين ناقة ، فكأنه يريد أن يستر شعوبيته . ولعل هذا الجانب في الكتاب هو الذي جعل المؤلف لا يُظهر اسمه ، حتى لا يؤخذ به . وفي هذه الفقرة الطويلة ما يصور سيول الأخبار وما قد يكون فيها من قصص . ودائمًا نلتقي في الكتاب بطرائف من الحكم والأخبار ، على نحو ما جاء في محاسن حفظ اللسان إذ قيل : إنه تكلم أربعة من الملوك بأربع كلمات كأنما رُميت عن قوس واحد ، قال كسرى : أنا على رِدّ ما لم أقل أقدر مني على رِدّ ما قلت . وقال ملك الهند : إذا تكلمت بكلمة ملكتنى وإن كنت أملكها . وقال قيصر : لا أندم على ما لم أقل وقد ندمت على ما قلت . وقال ملك الصّين : عاقبة ما قد جرى به القول أشد من الندم على ترك القول^(١) . وفي الكتاب قصص كثير متنوع في موضوعاته وفي مصادره وموارده ، ويكثر فيه القصص عن المرأة العربية ، وكذلك عن المرأة الفارسية ، فما جاء فيه عن المرأة العربية قصة رواها العُتبي على هذا النمط^(٢) :

« قال العتبي : كنت كثير التزوج ففرتُ بامرأة فأعجبني ، فأرسلتُ إليها ألك زوج ؟ قالت : لا فصرت إليها ، فوصفت لها نفسي ، وعرفتها موضعى فقالت : حسّبتك قد عرفناك ، فقلت لها : زوجيني نفسك ، قالت نعم :

ولكن ههنا شيء هل تحتمله ؟ قلت : وما هو ؟ قالت : بياض في مفرق رأسى . قال : فانصرف ، فصاحت بى ارجع ، فرجعت إليها ، فأسفرت عن رأسها : فنظرت إلى وجه حسن وشعر أسود ، فقالت : إنا كرهنا منك ، عافاك الله ، ما كرهت منا ، وأنشدت :

أرى شَيْبَ الرجال من الغَوَاىِ بموضع شَيْبهنَّ من الرجال »

وهى قصة طريفة ، وفى الكتاب قصص عن النساء ووفائهن وكيدهن ، تكثر فيها عناصر التشويق ، مما يجعلها قصصاً بديعة من ذلك قصة أضيفت إلى شيرين الملكة الفارسية المشهورة ملخصها أن زوجها كسرى أبرويز أتاها صياد بسمكة كبيرة^(١) فتأعجب به وأمر له بأربعة آلاف درهم ، فقالت له شيرين : أمرت لصياد بأربعة آلاف درهم فإن أمرت بمثلها لرجل من وجوه حاشيتك قال : إنما أمرلى بمثل ما أمر به للصياد . فقال لها كيف أصنع وقد أمرت له بما أمرت ؟ قالت إذا أتاك فقل له : أخبرنى عن السمكة أذكرهى أم أنثى ؟ فإن قال : أنثى فقل : لا تقع عيني عليك حتى تأتبنى بالذكر ، وإن قال : ذكر ، فقل له : لا تقع عيني عليك حتى تأتبنى بالأنثى ، فلما غدا الصياد على الملك قال له : أخبرنى عن السمكة أذكرهى أم أنثى ؟ قال : بل أنثى قال : فتأتبنى بذكرها ، قال : عمر الله الملك إنها كانت بكرأ لم تتزوج بعد ، فقال له الملك : حسناً ، حسناً ، وأمر له بأربعة آلاف درهم ، وأمر أن يكتب في ديوان الحكمة : إن الغدر ومطاعة النساء يورثان الغرْم . وبعض قصص النساء بها غير قليل من الفحش ، وقد تذكر أشياء غريزية تنبؤ عن الأذواق^(٢) على نحو ما يجرى فى بعض قصص ألف ليلة وليلة ، وكانت قد تُرجمت ، وربما تأثر المؤلف بها ، وربما تأثر المؤلف فى ذلك بالشعر الفحش الكثير الذى كان موجوداً فى العصر . وقد يكون ذلك من أسباب تنكر المؤلف وإخفائه لاسمه . ويلقانا قصص دينى عن بعض الزهاد ، وقد نلتقى بحكايات صوفية ، بل قد نلتقى بما يصور كرامات المتصوفة التى سبق أن تحدثنا عنها التى كان ينكرها وشيوخهم الأجلاء ، فمن ذلك ما رواه الكتاب ،

(٢) انظر مثلاً القصة فى ص ١٩٣ و ص ٢١٤ .

(١) المحاسن والأضداد ص ٢٠١ .

قال^(١) : « عن أبي مسلم الخولاني قال : إنه خرج إلى السوق بدرهم يشترى لأهله دقيقاً ، فعرض له سائل ، فأعطاه بعضه ، ثم عرض له سائل آخر فأعطاه الباقي ، فأتى درب النَجَّارين ، فلأ جِرابه أو مِرْزوده من نشارة الخشب ، لتتفع بها امرأته في إيقاد التَّنُّور وأتى منزله ، فألقاه ، وخرج هارباً من زوجته . وأخذته فإذا هو دقيق أبيض حوَّارٍ (فاخر) لم تر مثله ، فمجنَّته وخبزته ، فلما جاء ووجد الخبز سأله : من أين لك هذا الخبز ، قالت له : من الدقيق الذي جئتُ به » ! . ويذكر الكتاب كرامة لسفيان الثوري لا تقل غرامة عن الكرامة السابقة . ولا نريد أن نسترسل في نقل هذا القصص الكثير الذي يزخر به كتاب المحاسن والأضداد ، إنما نريد أن نوضح كيف أن هذا القصص يحتوى على عناصر مشوقة كثيرة ، وأنه كان يدخل في الأدب الشعبي العام ، ولذلك يخلو من استعمال السجع والأساليب المنمقة ، والطريف أنه عُرِضَ لجسَم وجهين متقابلين في كل خُلُق وكل خصلة ، فثلاً الصدق له محاسنه ، ولهذه المحاسن أقاصيصها وله معاييه ، ولهذه المعايير أقاصيصها . وبالمثل كل فضيلة ، وفواء النساء لمحاسنه أقاصيصها ولعاييه أقاصيص تقابها وتناقضها أشد المناقضة . وبذلك يأخذ عرض هذه الأقاصيص وما يتصل بها من الأخبار والأقوال والأشعار شكل مناظرات أدبية لا تعتمد على الجدال والحوار بالدليل ضد الدليل والحجة العقلية ضد الحجة العقلية ، وإنما على الحوار والجدال بالخبر ضد الخبر والشعر ضد الشعر والقصيدة ضد القصيدة والحكاية ضد الحكاية .

ويلتقى بهذا الكتاب في موضوعاته وأكثر مادته كتاب المحاسن والمساوى لإبراهيم بن محمد البيهقي ، وقد أغفلت الحديث عنه كتب التراجم ، غير أنه يُفهم مما ذكره عن الخليفة المقتدر في آخر حديثه^(٢) عن محاسن المسامرة أنه ألف كتابه في زمنه . وهو يستهل كتابه بالحديث عن فضائل الكتب ووصف محاسنها مثل المحاسن والأضداد ، ويمثله أيضاً في النقل كثيراً عن الجاحظ . ثم يفتح طائفة من الفصول لم ترد في الكتاب السالف يتحدث فيها عن محاسن الرسول صلى الله عليه وسلم

وفضائله ومساوئ المتنبيين ومحاسن الخلفاء الراشدين ومناقبتهم ومساوئ من عادى على بن أبى طالب ومحاسن ابنه الحسن والحسين ومساوئ قتلة الأخير ومحاسن السابقين إلى الإسلام ومساوئ المرتدين ومحاسن كلام الحسن بن على وعبد الله بن العباس وفضائل بنى هاشم ومحاسن الافتخار بالرسول . وكل هذه المقدمات ينفردها هذا الكتاب بالقياس إلى كتاب المحاسن والأضداد ، وبمجرد أن نفرغ منها نجد الكتائين يلتحمان ، حتى ليصبح كتاب المحاسن والمساوئ كأنه نسخة جديدة لكتاب المحاسن والأضداد ، مما يؤكد أن مؤلفيهما واحد ، وكأن البيهقي ألّف الكتاب الأول ، وأقحم فيه ما أقحم من أفكار الشعوبية والفحش فى القصص ، ثم رأى أن يخرجها إخراجاً جديداً وينسبه إلى نفسه ، مُنَحِّياً منه ما يصور شعوبيته وما ينبو عن الأذواق السليمة من القصص المفحش مع وضع المقدمات آنفة الذكر . ويبدو منها أنه كان يُكِنُّ نزعة شيعية ، وإن لم يُبَسِّرْها بقوة خوفاً على نفسه من المقتدر وحواشيه . وهو فى هذه النسخة الجديدة للكتاب يذكر ابن المعتز^(١) على نحو ذكره له فى النسخة القديمة أو بعبارة أخرى فى المحاسن والأضداد .

وطبعي أن تكون مصادر هذا الكتاب هى نفسها مصادر الكتاب الأول المنحول للجاحظ ، لأنه ليس أكثر من نسخة مجدّدة له ، وغاية ما هناك أنه دخله تنقيح وتهذيب كثير ، وإذن فكل ما قلناه عن المزيج الثقافى فى المحاسن والأضداد ينطبق بخلافه على هذا الكتاب ، ففيه بعض آى القرآن والأحاديث النبوية وأقوال بعض الصحابة والزهاد ، وفيه أخبار وأقاصيص منقولة عن الأنبياء وعن عيسى وحواريه ، ومن طريف ما نقله عنه ، قوله^(٢) :

« إن ابن آدم خلُق فى الدنيا فى أربع منازل ، هو فى ثلاثة منها واثق بالله عزّ وجلّ ، وهو فى الرابعة سَيِّئ الظن ، يخاف خذلان الله عزّ وجلّ إياه ، فأما المنزلة الأولى فإنه خلُق فى بطن أمه خَلْقاً من بعد خلق فى ظلمات ثلاث : ظلمة البطن وظلمة الرّحيم وظلمة المشيمة ، يُنْزَلُ الله جلّ وعزّ عليه رزقه فى جوف ظلمة البطن . فإذا خرج من ظلمة البطن وقع فى اللب لا يخطو إليه بقدم

(١) راجع المحاسن والمساوئ ص ٢٧٦/١ ، (٢) المحاسن والمساوئ ١/ ٤٥٩ .

ولا ساق ولا يتناولاه بيد ولا ينهض بقوة ويُكرِّه عليه إكراهًا ، حتى يثبت عليه عظمه ودمه ولحمه . فإذا ارتفع من اللبن وقع في المنزلة الثالثة في الطعام بين أبوين يكتسبان عليه من حلال وحرام ، فإن مات أبواه من غير شيء عطف عليه الناس ، هذا يُطعمه ، وهذا يسقيه ، وهذا يؤويه . فإذا وقع في المنزلة الرابعة واشتدَّ واستوى وكان رجلا خشى ألا يُرزق ، فيثب على الناس ، فيخون أماناتهم ، ويسرق أمتعتهم ويكاثروهم على (يغصبهم) أموالهم مخافة خذلان الله عزَّ وجلَّ .
إياه .

والنص موجود في المحاسن والأضداد^(١) ، ولكن العبارة هنا نُقِحت وهُدِّبَتْ بصور مختلفة ، وكذلك النصوص الأخرى حين نعارض الكتابين فيها بعضهما على بعض نجد دائماً هذا التنقيح ، مما يشهد بأن يداً واحدة هي التي كتبتهم ، وأن أولهما كان أشبه بمسودة واتخذ الثاني شكل نسخة مهيبة منقحة قد صُنِّيت وأُخِّلِيت من كل الشوائب اللغوية وغير اللغوية ، ودخلتها إضافات من الأمثال والأحاديث النبوية والأشعار والأخبار والأقاصيص ، كهذه الأقصوصة التي تلتقنا في الحديث عن محاسن الولايات ، وهي تَمْضِي على هذا النمط^(٢) :

« دخل محمد بن واضح دار المأمون ، وختلَّفه أكثر من خمسمائة راكب ، كلهم راغب إليه وراهب منه ، وهو إذ ذاك يلي عملاً من أعمال السَّواد (الأرض المزروعة) في العراق . فدعا به المأمون فلما حضر بين يديه قال : يا أمير المؤمنين أعفني من عمل كذا وكذا ، فإنه لا قوة لي عليه ، فقال له المأمون : قد أعفيتك . واستعني من عمل آخر . وهو يظن أنه لا يُعَفِّيهِ . فأعفاه ، حتى خَرَجَ من كل عمل في يده في أقل من ساعة ، وهو قائم على قدميه . فخرج وما في يده شيء من عمله . فقال المأمون لسالم الحوائجي : إذا خرج فانظر إلى موكبه وأحص من بقى معه - وكان المأمون قد رآه من مستشرف له حين أقبل - فخرج سالم وراء محمد بن واضح وقد استفاض الخبر بعزله عن عمله . فنظر فإذا هو لا يتبعه أحد إلا غلام له بغاشية^(٣) . فرجع سالم إلى المأمون فأخبره ، فقال : ويلهم

(٣) غاشية : غطاء .

(١) المحاسن والأضداد ص ١٢٨ .

(٢) المحاسن والمساوي ١ / ٢٧٣ .

أو تجمّلوا له ريثما يرجع إلى بيته كما خرج منه ، ثم تمثل فيهم :
 وَمَنْ يَجْعَلِ الْمَعْرُوفَ فِي غَيْرِ أَهْلِهِ يَلَاقِ الَّذِي لَا قِيَامَ لَهُ عَامِرٌ^(١)
 ثم قال : صدق رسول الله وكان للصدق أهلا حين قال : لا تنفع الصنيعة
 إلا عند ذي حسَبٍ أو دين .

ويُفيض هذا الكتاب كما تفيض مسودته : « المحاسن والأضداد » بكثير من
 أحوال العصور العربية السياسية والاقتصادية والحضارية ، وخاصة العصر العباسي ،
 ونرى البيهقي يفتح فيه — كما أشرنا إلى ذلك في غير هذا الموضع — فصلا طويلا عن
 أصناف^(٢) المكدين وأفعالهم وهو فيه ينقل عن الجاحظ وما كتبه عنهم في مصنفه
 البخلاء ، وقد عرض فيه حيلهم وتجعّروا لهم في البلدان ونواذرهم ، فمن ذلك^(٣) :

« أنه أتى سائل داراً يسأل منها ، فأشرفت عليه امرأة من غرفة ، فقال لها :
 يا أمة الله بالله أن تصدّقي على بشيء ، قالت : أي شيء تريد ؟ قال : درهماً ،
 قالت : ليس عندي ، قال : فدائماً (جزءاً من درهم) ، قالت : ليس عندي ،
 قال : ففلساً (جزءاً من دنانير) ، قالت : ليس عندي ، قال : فكسوة ،
 قالت : ليس عندي ، قال : فكفناً من دقيق ، قالت : ليس عندي ، قال :
 فزيتاً . . . حتى عدّ كل شيء يكون في البيوت ، وهي تقول ليس عندي ، فقال
 لها : فاجلسك عندك ، مررتي ، أسألي معي . »

وواضح أننا لا نعثر في المادة الأدبية التي يحتويها هذا الكتاب وسألفه على شيء
 من السجع أو التكلف لألوان البديع أو لأي زخرف أو تنميق ، فهي مادة سهلة ،
 ليس فيها أي حليات لفظية ولا غير لفظية ، وليس فيها أي صعوبات لغوية ،
 وهي لذلك تعدّ مادة شعبية . أو قل إن الكتّابين مصنفان كبيران من الأدب
 الشعبي في العصر ، وضعهما أديب ممتاز في شكل مناظرات ومحاورات ، حتى
 يشوق إلى قراءتهما . ولم يكتف بهذا التشويق العام ، فقد أدخل في الأخبار
 والأقاصيص عناصر كثيرة منه تدفع العامة والخاصة إلى الشغف بقراءة
 الكتّابين .

(٣) المحاسن والمساوي ٢ / ٤١٧ .

(١) أم عامر : الضبع .
 (٢) المحاسن والمساوي ٢ / ٤١٣ .

الرسائل الديوانية

مرّ بنا في العصر العباسي الأول كيف أن الدواوين كانت كثيرة ومتنوعة ، فديوان للخراج ، وديوان للنفقات وديوان للضياع وديوان للرسائل وديوان للخاتم وديوان للجيش أو دواوين ، ودواوين لشرق الدولة وغربيها ، ولكل ولاية ديوان وأحياناً دواوين . وفوق كل هذه الدواوين ديوان الزمام الذي يُشرف عليها . وهذه الصورة العامة للدواوين في سامراء وبغداد كانت تقابلها دواوين أخرى في حاضرة كل ولاية . وكان لأولياء العهد والوزراء دواوين بدورهم ، وكذلك لكبار القواد ، وحتى نساء الخلفاء كان هن دواوين يقوم عليها كُتّاب ينظرون في الدخّل والخرج والنفقات .

وكان ذلك عاملاً قوياً في نشاط الكتابة إذ اشتغل بها كثيرون ، وخاصة أنها كانت تعود عليهم برواتب وأرزاق ضخمة . وكان الكاتب في دواوين الدولة إذا أظهر نبوغاً ارتقى سريعاً ، وما يزال يرتقى حتى يصبح رئيس مجموعة من الدواوين وقد يصبح وزيراً يدبّر أمور الدولة كلها ، فإن فاتته الوزارة أصبح والياً لمدينة كبيرة مثل إبراهيم بن المدبر الكاتب إذ ولي - فيما ولي - البصرة . وكثير من الولاة كانوا يستقنون الكتابة مثل محمد بن عبد الله بن طاهر وأخيه عبيد الله حاكمي بغداد بالتعاقب .

وكانت الدواوين في سامراء وبغداد لذلك أشبه بمدرسة فنية كبيرة ، يتفد عليها الشباب ، ويختبرون اختباراً دقيقاً ، فمن نجح في الاختبار وُظّف فيها ، ولزم غيره من الكتاب القدماء وعمل بين أيديهم . ويدبج بعض الرسائل ، فإذا نالت رسالة حُظوة من رئيس الديوان تمّ له سَعْدُه . وربما ألحقوهم ببعض الولاة أو العمال ، وقد يقفزون بهم قفزاً إلى القيام على أحد الدواوين . ولا ريب في أن ذلك جعل التنافس على النهوض بالكتابة فيها يبلغ الذروة ، وهو تنافس دفع إلى التثقف

الواسع بكل ألوان الثقافات ، وفي مقدمتها الثقافة اللغوية ، ومرّ بنا كيف أن ابن قتيبة ألّف لهم في ذلك كتابه « أدب الكاتب » . ولا بد من إتقان الفقه لحاجة الكاتب إليه في شئون الخراج ، وأيضاً لا بد من إتقان الحساب لنفس الغاية . وكانوا يُكَيِّفُون خاصة على علوم التنجيم والمنطق والهندسة وعلى الفلاسفة مما جعل ابن قتيبة يظنّ بهم الظنون وأنهم يغرقون إلى آذانهم في علوم اليونان وفلسفتهم حتى ليفوتهم إتقان العربية . وتوفّروا على ما تُرجم من الثقافة الهندية من الحكم والقصص وكذلك على ما ترجم من الثقافة الفارسية مما يتصل بتقاليد الساسانيين وأنظمة الحكم وآداب السياسة وأخبار ملوكهم ووزرائهم . فكل ذلك كانوا يعكفون عليه ويتزوّدون به ، حتى يستمدوا منه في معانيهم ومنطقهم . وكانوا يلتزمون الوضوح لأن رسائلهم توجّه إلى العامة ولا بد أن تتفهّم ما تسمع دون حاجة إلى شرح أو بيان . كما كانوا يلتزمون فيها شيئاً من التنديق حتى تنال استحسان مَنْ يكتبون عنه من الخلفاء والوزراء والولاة والأمراء والقواد . وكانت الرسائل تتناول جميع شئون الدواة من منشورات تتصل بأهل الذمة أو الرعية ومن ولاية عهود أوبيعة خليفة أو خاسع أو دعوة إلى الجهاد في سبيل الله أو تولية وزير أو وال أو تنويه بموسم حج أو عيد أو أخبار الولايات أو أمر بمعاينة بعض الجناة . وتفنّسوا في المقدمات وخاصة في التحميدات وما اتصل منها برسالة الخميس التي كانت تُكْتَبُ إلى الولايات حين يستولى خليفة على مقاليد الحكم .

ونحن نعرض طائفة من الكتاب مرتّبين على عهود الخلفاء لنتبين من خلال كتاباتهم روعة بيانهم من جهة وما حدث من تطور في الكتابة الديوانية وأساليبها في العصر . ومعروف أن أول كاتب نابّه يلقانا في العصر هو إبراهيم بن العباس الصولي الذي حرّر أكثر ما صدر عن المتوكل من منشورات وكتب ورسائل في الفتوح ، وإن نقف عنده لأننا سنخصه بحديث مفصل في الفصل التالي . ومن كتّاب المتوكل عبيد الله بن يحيى بن خاقان الذي استكتبه سنة ٢٣٦ ، ثم جعله وزيره وللبحتري فيه مدائح مختلفة ، وقد احتفظ له الطبري برسالة كتب بها عن الخليفة إلى محمد بن عبد الله بن طاهر حاكم بغداد يأمره بضرب رجل ألف سوط لِمَا صَحَّ من شهادة شهود كثيرين عليه بشتمة لأبي بكر وعمر والسيدة عائشة والسيدة

حفصة زوجي الرسول ، والرسالة تخلو من السجع ومحاولة التثنية (١) .

ويدخل عصر المنتصر ، ويستوزر أحمد بن الحبيب ، وكان كاتباً أديباً ، مما جعله يعهد إليه بكتابة الكتب التي تصدر عنه ، وكان من أوائلها كتاب في الجهاد كتبه لسبع ليال خلت من الحرم سنة ثمان وأربعين ومائتين حين اتجه وصيف إلى الغزو في أرض الروم ، وفيه يقول (٢) :

« قال عز وجل أمرأ بالجهاد مفترضاً له : (انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) . وليست تمضي بالمجاهد في سبيل الله حال لا يكابد في الله نصيباً ولا أذى ، ولا يُسْتَفَقُ نفقة ولا يقارع عدواً ، ولا يقطع بلداً ، ولا يبطأ أرضاً ، إلا وله بذلك أمر مكتوب وثواب جزيل وأجر مأمول ، قال الله عز وجل : (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ) (٣) في سبيل الله ولا يَطْشُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ وَلَا يُسْتَفَقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) . . . وليس من شيء يتقرب به المؤمنون إلى الله عز وجل من أعمالهم ، ويستسعون به في حظ أوزارهم وفكاك رقابهم ، ويستوجبون به الثواب من ربهم إلا والجهاد عنده أعظم منه منزلة ، وأعلى لديه رتبة ، وأولى بالفوز في العاجلة والآجلة ، لأن أهله بذلوا لله أنفسهم ، لتكون كلمة الله هي العليا ، وممحوا بها دون من وراءهم من إخوانهم وحریم المسلمين وببعضتهم ووقتهم (قمعوا) بجهادهم العدو » .

وصياغة الكتاب جزلة رصينة ، وفيها محاولة واضحة للدقة في التعبير وأن يروق السمع والذهن ، ولكن لا بسجع ، وإنما بعبارات متوازنة متقابلة . مما يشهد لابن الحبيب بأنه كان كاتباً مجيداً . واحتفظ الطبري له بكتاب ثان خلع فيه المنتصر أخويه المعتز والمؤيد (٤) ، نحا فيه منحى الكتاب السابق في الصياغة . ويتولى المستعين الخلافة ، ويتخذ سعيد بن حميد أحد الكتاب البلغاء على

(٣) غمصة : جوع شديد .

(٤) طبري ٩ / ٢٤٧ .

(١) طبري ٩ / ٢٠٠ .

(٢) طبري ٩ / ٢٤١ .

ديوان رسائله ، وسنخصصه بحديث مستقل في الفصل التالى . وسرعان ما يتولّى المعتز الخلافة ، ويستوزر أحمد بن إسرائيل ، ويقول الفخرى إنه أحد الكتاب الحذّاق الأذكياء^(١) . وكان من كبار ولاته وأقربهم إلى نفسه محمد بن عبد الله بن طاهر حاكم بغداد ، وكان أديباً بارعاً ، وفي الطبرى رسالة له وجهه بها إلى عمّال النواحي حين أعطاهم المعتز الحق في التنكيل بأعدائه ، وهى تمتلئ وعيداً وتهديداً على هذا النمط^(٢) :

« أما بعد فإن زيغ الهوى صدف بكم عن حزم الرأى ، فأقحمكم حبال الخطأ ، ولو ملّكتكم الحق عليكم وحكمتم به فيكم لأوردكم البصيرة ونفقتى غيابة^(٣) الحسيرة ، والآن فإن تجنّحوا للسلم تحقّقوا دماءكم وترغّدوا عيشكم ويصفح أمير المؤمنين عن جريرة جارمكم^(٤) ، ويسبغ النعمة عليكم ، وإن مضيت على غلّوّائكم وسوّلكم الأمل أسوأ أعمالكم فتأذّنوا بحرب من الله ورسوله بعد نسيب المَعذرة إليكم وإقامة الحجة عليكم . ولئن شئت الغارات وشبّ ضرام^(٥) الحرب ، ودارت رحاها على قُطّيبها وحسّمت^(٦) الصّورم أوصال حمايتها ، واستجرت^(٧) العوالى من نهمها ، ودُعيت نزال^(٨) ، والتحم الأبطال ، وكسّحت^(٩) الحرب عن أنيابها أشداقها ، وألقت للتجرّد عنها قناعها . واختلفت أعناق الخيل ، وزحف أهل النجدة إلى أهل البغى لتعلمن أىّ الفريقين أسمع بالموت نفساً ، وأشدّ عند اللّقاء بطشاً ، ولات حين معذرة ، ولا قبول فدية ، وقد أعذر من أنذر (وسيعلم الذين ظلموا أىّ منقلب ينقلبون) » .

وصياغة الرسالة صياغة مضبوطة محكمة ، ويكثر فيها التقابل بين العبارات ويكثر التفاضل واستخدام كلمات القرآن الكريم وبعض آيه مثل : (فإن تجنّحوا للسلم) ومثل : (فتأذّنوا بحرب من الله ورسوله) (وسيعلم الذين ظلموا أىّ منقلب ينقلبون) مما يدل على تمكن الكاتب من العربية والثقافة الإسلامية القرآنية : وقد استخدم كلمة :

- | | |
|-----------------------------------|---|
| (١) الفخرى ص ١٨٢ . | (٦) حسمت : قتلعت . |
| (٢) طبرى ٩ / ٣٦٧ . | (٧) استجرت : اجتريت . |
| (٣) غيابة : غشاوة . | (٨) دعيت نزال : كناية عن احتدام الحرب . |
| (٤) جريرة جارمكم : جريمة مذنبكم . | (٩) كسّحت : كثرت . |
| (٥) ضرام : وقود . | |

« واستعجرت » بدلا من كلمة : « واجترت » دلالة على قدرته في القياس والتصريف ، وأتى بأمثال مختلفة مثل : « ودعيت نزال » وهو مثل يضرب لاحتمام الحرب ، ومثل : « من أعذر فقد أندر » . وثىء أهم من ذلك كله واضح في الرسالة وضوحاً بيّناً ، وهو كثرة الصور فيها مثل غيابة الحيرة وإسباغ النعمة وضرام الحرب و « دارت رحاها على قطبها ، وحسمت الصوارم أوصال حمايتها واستعجرت العوالى من نهمها . . . وكلمت الحرب عن أنيابها أشداقها وألقت للتجرد عنها قناعها » . صور مترامية ، قصد إليها الكاتب قصداً ليدل على براعته الفنية ، وأنه ليس الشعر وحده الذى يستطيع أن يحمل حشود الصور ، فالنثر بدوره يمكن أن يحمل منها ما يحمل الشعر ، بل يمكن أن يزداد حملة وأن يصبح صوراً خالصة يأخذ بعضها بزمان بعض .

ويخلف المعتز المهتدى ، وهو أعظم خلفاء العصر سيرة حميدة وتقوى وورعاً وعبادة ، وكان كما مرّ بنا يخطب في الناس كل جمعة يعظهم ويذكرهم الآخرة ، وكان يعمل في دواوينه سعيد بن عبد الملك ، ويقول صاحب الفهرست : البلغاء الحديثون ثلاثة : الحسن بن وهب وإبراهيم بن العباس الصولى وسعيد بن عبد الملك^(١) ، وله كتاب في التنويه بخليفة وخطابته في عيد الفطر . ولا نرتاب في أنه يريد المهتدى ، لأن من وليه من خلفاء القرن الثالث كانوا يندبون عنهم من يخطب يوم الجمع ، ومرّ بنا ما أصاب المعتضد من حصر حينما حاول الخطابة في أحد الأعياد ، فالمهتدى المقصود بتلك الرسالة ، وفيها يقول^(٢) :

« أدام الله صلاح الأمة ولا أخلاها من بركة رعايته ، ومن ولايته وسياسته ، ولا زالت في كنف السلامة بسلامته ، وظلّ العافية بعافيته ، وعلى سبيل نجاة هدايته . وقد كتبت إلى أمير المؤمنين فيما وليه الله به في منخرجه إلى عيده من يوم فطره وما وقّعه له من التقرب إليه بوسائل التذلل في طاعته والاجتهاد في شكره والمناصحة في مخاطبة من حضره وإنصاتهم لوعظه وتذكيره ، وما وليه الله به من العافية والسلامة الشاملة ، والنعمة الكاملة ، والعز الموصول بالسكينة . . . منّا من الله خـصّ به

خليفته وأعطاه فضل مزيته بما وفقه له من العدل والنصفه ، والبر والمرحمه ،
والعطف والرأفة » .

وفى هذه الفقرة ما يصور كيف أخذ كتّاب الرسائل الديوانية منذ أواسط القرن
الثالث الهجرى يصطنعون السجع في جوانب من رسائلهم على نحو ما نرى الآن
عند سعيد بن عبد الملك ، وحقاً أخذ السجع يدخل في الرسائل الشخصية منذ
القرن الثانى كما صور ذلك كتابنا العصر العباسى الأول على نحو ما يلقانا في رسالة
ابن سبابة المشهورة ، ولكن الرسائل الديوانية ظلت تكتتب بأسلوب مرسل ، يشيع
فيه أحياناً الازدواج ، أما السجع فيندر أن نلتقى به في تلك الرسائل ، وكأن الأذواق
أخذت تستعد لشيوعه وانتشاره في الكتابة الديوانية لهذا العصر .

ويخلف المهتدى المعتمد ، ويظل وزيراً له ، كما كان وزيراً لسابقه ، سليمان بن
وهب ، ويقول الفخرى ^(١) عنه : أحد كتّاب الدنيا ورؤسائها فضلاً وأدباً وكتابة
وأحد عقلاء العالم وذوى الرأى منهم ، ويسرى عنه أنه كان يكتب ، في أول عهده
بالعمل ، بدواوين الدولة بين يدى محمد بن يزداد وزير المأمون . وكان إذا انصرف في
الليل إلى داره نأب عنه في دار المأمون أحد الكتاب الصغار بالنوبة لمهمّ عساه
يعرض في الليل . يقول سليمان : وبينما أنا نائب عنه في إحدى الليالى إذ طلبنى
المأمون ، فقال لى : اعمل نسخة في المعنى الفلافى ، ووسّع بين سطورها وأحضرها
لأصلح منها ما أريد إصلاحه ، فخرجت سريعاً وكتبت الكتاب وبسّضته وأحضرتة إليه ،
فلما رآنى قال : كتبت مسودة ؟ قلت : بل كتبت الكتاب ، فقال : بسّضته ؟
قلت : نعم ، فزاد فى نظره إلى كالمعجب منى ، فلما قرأه تبينت الاستحسان على
وجهه ، وقال : يا صبي لا أدري من أى شىء أعجب أمن سرعة فهمك أم من
من حسن خطك ، بارك الله فيك . ونعجب أن يظل سليمان بن وهب يعمل في
الدواوين ويكتب رسائل ديوانيه مختلفة حتى عصر المعتمد ومع ذلك لا تحتفظ له
كتب الأدب برسالة واحدة من تلك الرسائل ، وحتى رسائله الشخصية لم تحتفظ
منها إلا بما كتبه شعراً على نحو ما يلاحظ قارئ ترجمته في الأغانى ، وإلا فقرة
نثرية من كتاب اعتذار على هذا النحو ^(٢) :

« أنا مقرّر معترف ، فها تُترك صانعاً بمن أعلمك زمامه ، وأمكنك من قياده ، وحكمتك في أمره ، معاقباً له أو متفضلاً عليه بالعمو عنه ؟ لكنني أرجو أن أستقبل طاعة لا تمتنع من شكرها ، واغتفار كل تقصير خلا في جنبها ، فالأيام بما تحب أمامك » .

والقطعة قصيرة ، ولكنها على كل حال تصوّر صياغة جزلة رصينة ، كما تصوّر ذوقاً مهذباً في الاعتذار والاستعطاف ، حتى يجعل زمامه وقياده بيد صديقه ويحكمه في أمره ، وله الخيار إما أن يعاقب ، وإما أن يتفضل بالعمو . وكان يكتب بين يديه حين وزر للمعتضد أبو العباس أحمد بن ثوبة ، وهو من أعلام الكتاب في العصر ، وسنخصه في الفصل التالي بحديث مستقل .

وكان يلي وزارة المعتضد عبيد الله بن سليمان بن وهب ، وفيه يقول الفخرى ^(١) :
« من كبار الوزراء ومشايخ الكتاب ، وكان بارعاً في صناعته حاذقاً ماهراً لبيساً جليلاً ، مات للمعتضد جارية كان يحبها فجزع عليها ، فقال له عبيد الله بن سليمان : « مثلك - يا أمير المؤمنين - تهون المصائب عليه ، لأنك تجد من كل مفقود عروضاً ، ولا يجد أحد منك عوضاً ، وكان الشاعر عسّاك بقوله :

يُبْكِي علينا ولا نَبْكِي على أحدٍ لنحن أغلظ أكباداً من الإبل »

وليس بين أيدينا من رسائل عبيد الله الديوانية إلا رسالة كان قد أمره المعتضد بإنشائها في لَعْن معاوية ، حتى يقرأ بها الخطباء بعد صلاة الجمعة على المنابر ، وقد استهلّها عبيد الله بالتحميد قائلاً ^(٢) :

« بسم الله الرحمن الرحيم : الحمد لله العلى العظيم ، الحليم الحكيم ، العزيز الرحيم ، المنفرد بالوحدانية ، الباهر بقدرته ، الخالق بمشيئته وحكمته ، الذي يعلم أسرار الصدور وضماير القلوب لا تخفى عليه خافية ، ولا يعزّب عنه مثقال ذرة في السموات العلّاء ، ولا في الأرضين السفلى ، قد أحاط بكل شيء علماً ، وأحصى كل شيء عدداً . وضرب لكل شيء أمداً ، وهو العليم الخبير . والحمد لله الذي برأ خلقه لعبادته ، وخلق عباده لمعرفة ، على سابق علمه في

طاعة مطيعهم ، وماضى أمره فى عصيان عاصيهم ، فبينَ لهم ما يأتون وما يتقون ، ونهَجَ لهم سبيلَ النجاة ، وحذَّرَهم مسالكَ الهلكة ، وظاهرَ عليهم الحجة ، وقدَّم إليهم المَعْدرة ، واختارَ لهم دينهم الذى ارتضى لهم وأكرمهم به . وجعلَ المعتصمين بحبله والمتمسكين بعُرْوَتِهِ أولياءه وأهل طاعته ، والعائدين عنه والمخالفين له أعداءه وأهل معصيته (لَيْسَ هَٰذَا مِنْ هَٰلِكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنْ اللَّهُ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ) . والحمد لله الذى اصطفى محمداً رسوله من جميع بريته ، واختاره لرسالته ، وابتعنه بالهدى والدين المرتضى إلى عبادته أجمعين ، وأنزل عليه الكتاب المبين المستبين ، وتأذَّنَ له بالنصر والتمكين ، وأيدَّه بالعز والبرهان المتين ، فاهتدى به مَنْ اهتدى ، واستنقذ به مَنْ استجاب له من العمى ، وأضلَّ مَنْ (أُصِرَ وَتَوَلَّى) حتى أظهر الله أمره ، وأعزَّ نصره ، وقهر مَنْ خالفه ، وأنجز له وعده ، وختم به رُسُلَه ، وقبضه مؤدياً لأمره ، مبلغاً لرسالته ، ناصحاً لأُمته ، مرضياً مهتدياً إلى أكرم مآبِ المنقلين ، وأعلى منازل أنبيائه المرسلين ، وعباده الفائزين ، فصلَّى الله عليه أفضل صلاة وأتممها ، وأجلَّها وأعظمها ، وأزكاها وأطهرها ، وعلى آله الطيبين .

ويكثر السجع فى مقدمة هذه الرسالة التى كتبت لسنة ٢٨٤ وهو شئ طبعى ، فقد دخل السجع الرسائل الديوانية ، وحقاً لم يطَّرد فيها بعد ، حتى فى هذه الرسالة نفسها فإن عبيد الله تخلص بعد ذلك منه فى الرسالة . وقد مضى يصور استجابة بنى هاشم للرسول عليه السلام حين دعا قومه للهدى ومؤازرتهم له ومناصرتهم فيما كان ممن عانده ونابذه وكذبه وحاربه أبو سفيان بن حرب وأشياعه من بنى أمية ، حتى علت كلمة الله وهم لها كارهون . ثم يذكر آثاراً فى ذم أبى سفيان وابنه معاوية وما كان من حربه لأفضل المسلمين فى الإسلام مكاناً وأقدمهم إليه سبقاً وأحسنهم فيه أثراً وذكرأ على بن أبى طالب . ويذكر أعمال معاوية وكيف أنه أباح المحارم ومنع الحقوق أهلها وقتل صبراً نفراً من خيار التابعين ويعرض أعمال يزيد بن معاوية وإيقاعه بأهل الحرَّة وسقَّكه دم الحسين مع موقعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومكانه منه ومنزلته من الدين والفضل ، اجترأ على الله وكفراً بدينه وعداوة لرسوله ومجاهدة لِعِصْرَتِهِ واستهانة بحرمته . ويذكر ما كان من

بنى مروان من تعطيل كتاب الله وأحكامه ونصبهم المجانيق على بيته ورميهم له بالنيران استباحه وانتهى كآ ، ويختمها بقوله :

« أيها الناس بيننا هداكم الله ، ونحن المستحفظون فيكم أمر الله ، ونحن ورثة رسول الله والقائمون بدين الله : فقفوا عند ما نفقكم عليه . وانفذوا لما نأمركم به ، فإنكم ما أطعتم خلفاء الله وأئمة الهدى على سبيل الإيمان والتقوى . وأمير المؤمنين يستعصم الله لكم ، ويسأله توفيقكم ، ويرغب إلى الله في هدايتكم لرشدكم وفي حفظ دينه عليكم ، حتى تلقوه به مستحقين طاعته مستحقين (حاملين) لرحمته » .

وراجع المعتضد نفسه ، وخشى أن يجمع الكتاب قلوب العامة حول العلويين ، لما كان لجدِّهم على بن أبي طالب من بلاء عظيم في إعلاء كلمة الله وإلقاء كفار قريش له عن يده وهم صاغرون . وفي الكتاب إطراء عظيم له ولأبنائه . فأمسك عما كان عزم عليه . ووضح من الفقرة الأخيرة أن عبيد الله كاتبه ، إن كان تخلص من السجع بعد تقديمه فإنه ظل يحتفل بصياغته ، ويبدو أنه كان يستخدم السجع في جوانب من كتابته في الحين بعد الحين . وخاصة في توقيعاته ، فقد كتب إليه أبو العيناء يذكره بأمره وأنه من زرعه وغرس يده ، فوقع في رقعة^(١) :

« أنا - أسعدك الله - على الحال التي عهدت ، وميسل إليك كما علمت ، وليس من أنسيناه أهملناه . ولا من أخرناه تركناه ، مع اقتطاع الشغل لنا ، واقتسامه زماننا ، وكان من حتمك علينا أن تذكرنا بنفسك ، وتعلمنا أمرك ، وقد وقعت لك برزق (راتب) شهرين لتزيج علتك وتعرفني مبلغ استحقاقك ، لأطلق لك باقى أرزاقك ، إن شاء الله ، والسلام » .

والتوقيع - كما هو واضح - سجع خالص . وسرى عما قليل أن سريان السجع في الرسائل الشخصية طوال القرن الثالث الهجري كان أقوى منه في الرسائل الديوانية ، حتى إذا كان عصر المقتدر (٢٩٥ - ٣٢٠ هـ) أخذ السجع يعم في جميع ما يصدر من الرسائل الديوانية ، فليس هناك وزير ولا كاتب في الدواوين إلا وهو يتأنق في كتابته ويبالغ في تأنقه حتى يجعل كتابته سجعاً خالصاً . وبذلك

أخذ كل ما يصدر عن الخليفة منذ سنة ٣٠٠ للهجرة يوشى بالسجع^(١)، وبالمثل ما يصدر عن وزرائه وفي مقدمتهم ابن الفرات . وكان على بن عيسى الوزير لا يقل عناية عنه بالسجع ، وقد ذكر له الهلال مجموعة كبيرة من رسائله كلها مسجوعة : ومثله وزير المقتدر الثالث الخاقاني ، فقد كان شغوفاً بالسجع شغفاً شديداً ، وتروى له في ذلك نوادر كثيرة ، منها أن عامل النيل أحد فروع الأنهار في العراق تأخر في حمل غلّة إليه ، فكتب إليه هذه العبارات : « احمل الغلّة ، وأزح العليّة ، ولا تجلس متودّعاً في الكليّة (الستر) » ولاحظ أنه قد حشر الكليّة في الكلام لاستكمال السجع ، فالتفت إلى الكاتب وقال له : أفى النيل بتّ يحتاج إلى كلل ؟ فقال له الكاتب مداجياً مرثياً : إى والله وأى بتّ ، ومن أجله يلزم الناس الكليل ليلاً ونهاراً^(٢) . ووقع في رسالة وجه بها إلى بعض عمّاله : « الزم - وفّقك الله المنهاج ، واحذر عواقب الاعوجاج ، واحمل ما أمكن من الدجاج ، إن شاء الله » ، وكان أن حمل العامل إليه دجاجاً كثيراً ، فقال : هذا دجاج وفّرت بركة السجع^(٣) . وكان الولاة يقلدون الوزراء في هذا البدع الجديد فقد ذكر الرواة أن الولاة على كدور الأهواز كتب إلى على بن عيسى كتاباً سجع فيه ، فكتب إليه وقد صمّم على عزله : « عولت بنا على كلام ألفته ، وخطاب سجعته أوجب صرّفك عما توليته^(٤) » .

وكان كتاب الدواوين على شاكلة الوزراء يسّجعون في كتاباتهم ، وفي مقدمتهم محمد بن جعفر بن ثوابة القائم على ديوان الرسائل لعهد المقتدر والمتوفى سنة ٣١٢ ، وكان في باكورة حياته يكتب بين يدي عبيد الله بن سليمان بن وهب ، وكلّفه أن يجيب على كتاب خمارويه حين أنفذ ابنته إلى المعتضد ، فقال في الفصل الذي احتاج فيه إلى ذكرها :

« وأما الوديعة فهي بمنزلة شيء انتقل من يمينك إلى شمالك ، عناية بها ، وحيطة عليها ، ورعاية لمودتك فيها » ، ورآه عبيد الله يعجب بهذه العبارات ،

(١) تاريخ الوزراء للهلال بن الحسن ص ٣٣٧ (٢) نفس المصدر والصفحة . وما بعدها .

(٣) تاريخ الوزراء ص ٣٣٥ .

(٤) تاريخ الوزراء ص ٢٧٧ .

فأخذ ينقدها له قائلاً : « تفاعلت لامرأة زُفَّت إلى زوجها بالوديعة ، والوديعة مستردّة . وقولك من يمينك إلى شمالك أقبح ، لأنك جعلت أباهما اليمين وأمير المؤمنين الشمال ، ولو قلت : بمنزلة شيء انتقل من حال إلى حال لكان أحسن . وكان خيراً من ذلك كله أن تقول :

« وأما الهدية فقد حسُنَ موقعها منا ، وجعلَ خطرُها عندنا ، وهى وإن بعدت عنك بمنزلة ما قرب منك لتفقّدنا لها ، وأنسنا بها ، واسرورها بما وردت عليه واعتباطها بما صارت إليه » لكان أحسن^(١) .

وواضح ما حمل نقد عبید الله بن سليمان إلى الشاب في مطالع عمه بالدواوين من لفت قوى إلى العناية بصياغته ومعانيه وكأنه هو الذى حمّله على أن يأخذ نفسه بتكلف شديد . ومعروف أن عبید الله توفى سنة ٢٧٨ ، ولا نصل مع محمد بن جعفر إلى عصر المقتدر ، حتى يصبح أكبر كاتب في دواوينه ، وحتى يعمّده إليه بتولى ديوان الرسائل ، ويأخذ حينئذ نفسه بالحرص على السجع في كل ما يصدر عنه ، على نحو ما يصور ذلك منشورٌ وجهته باسم الخليفة المقتدر إلى العمال في البلدان المختلفة ينوّه فيه بابن الفرات في وزارته الثانية لسنة ٣٠٤ ، وفيه يقول^(٢) :

« لما لم يجد أمير المؤمنين غِنًى عنه ، ولا للملك بُدّاً منه . وكان كتاب الدواوين على اختلاف أقدارهم ، وتفاوت ما بين أخطارهم مقرّين برياسته ، معترفين بكفايته ، متحاكين إليه إذا اختلفوا واقفين عند غايته إذا استبقوا ، مدعنين بأنه الحوّل القلّيب ، المحنّك المجرب ، العالم بيدرة المال كيف نُحلب ، ووجهه كيف تُطلب ، انتضاه^(٣) من غمّده ، فعاود ما عُرِف من حدّده ، فنقّذ الأعمال كأن لم يغب عنها ، ودبّر الأمور كأن لم يسخل منها » .

فالسجع أصبح ظاهرة عامة في الرسائل الديوانية ، ويبدو أن ابن مُقْلّة وزير المقتدر والخلفاء من بعده كان يستخدمه ، إن لم يكن دائماً ففي الحين بعد الحين ، وكان كاتباً بليغاً ، وفيه يقول الصولي : « ما رأيت وزيراً منذ توفى القاسم بن عبید الله

أخرى له مسجوعة في الهداني ص ٢٠ .

(٣) انتضاه : سله .

(١) معجم الأدباء ١٨ / ٩٨ وزهر

الأدب ٢ / ٢٨٩ .

(٢) معجم الأدباء ١٨ / ٩٧ وانظر رسالة

ابن سليمان بن وهب (وزير المكتفي) أحسن حركة ، ولا أظرف إشارة ، ولا أملح خطأ ، ولا أكثر حفظاً ، ولا أسلط قلماً ، ولا أقصد بلاغة ولا آخذَ بقلوب الخلفاء من ابن مُقَمَّلَة^(١) وهو صاحب الخط الذي تضرب به الأمثال ، وهو أول من نقله من الوضع الكوفي إلى الوضع الذي شاع في العالم العربي ، وكان أول من رفع من قدره أبو الحسن بن الفرات ، وخاصة في وزارته الثانية آنفة الذكر ، حتى علت حاله وعرضَ جاهه ، ولكنه عاد فاستوحش منه ونكبه . ثم خلاص من المحنة ، واستوزره المقتدر ومن جاءوا بعده ، واحتفظ له كتاب النجوم الزاهرة برسالة أنفذ بها إلى ابن الفرات وقد طالبت به المحنة ، تجرى على هذا النمط^(٢) :

« أمسكتُ — أطال الله بقاء الوزير — عن الشكوى ، حتى تناهت البَلَوَى ، في النفس والمال ، والجسم والحال ، إلى ما فيه شفاء للمنتقم ، وتقويم للمجترم ، حتى أفضيت إلى الحيرة والتبلد ، وعيالي إلى الهُتُكَة والتشرد . وما أبداه الوزير — أيده الله — في أمري إلا بحق واجب ، وظنٌ غير كاذب . وعلى كل حال فلي ذِمَامٌ وحرمةٌ ، وصحبة وخدمة إن كانت الإساءة أضاعها فرعاية الوزير ، أيده الله تعالى بحفظه ، ولا مفرع إلا إلى الله بلطفه ، وكنف الوزير وعطفه ، فإن رأى — أطال الله بقاءه — أن يلحظ عبده بعين رأفته ، ويُنْصَحَ بإحياء مهجته ، وتخايصها من العذاب الشديد ، والجَهْدَ الجَهِيد ، ويجعل له من معروفه نصيباً ، ومن البلوى فرجاً قريباً » .

وكأن السجع أصبح لغة جميع الرسائل منذ أوائل القرن الرابع للهجرة ، بل مع أواخر القرن الثالث ، فليس هناك كاتب إلا ويسجع ، وإن فاته السجع في مكان من رسالته عاد إليه في الأمكنة الأخرى . وقد خلف محمد بن جعفر بن ثوابة ابنه أحمد منذ سنة ٣١٢ ، وظل على ديوان الرسائل من بعده إلى أن توفي سنة ٣٤٩ ، فخلفه عليه أبو إسحق الصابى . ولا ريب في أن أحمد مضى في إثر أبيه يسجع في رسائله وكل ما يصدر عنه من كتابات ديوانية ، وقد بقيت منها بقايا قليلة تصور سجعه وإغراقه فيه من مثل قوله في وصف فتح^(٣) :

(٢) الهمداني: تكملة تاريخ الطبرى ص ١٥٨ .

(١) النجوم الزاهرة ٣ / ٢٦٨ .

(٢) النجوم الزاهرة ٣ / ٢٦٨ .

« فلم يُسفر العَجَاج^(١) إلا عن قتيل مرسل ، أو غريق معجّل ، أو جريح معطل ، أو أسير مكبّل ، أو مستأمنٍ محصّل ، أو حقيبة ملاءها الله بلا تعب ، أو غنيمة أفاءها الله بلا نصّب » .

وواضح من كل ما قدمنا أن السجع أصبح منذ خلافة المقتدر اللغة العامة للدواوين ، فالرسائل تمتلئ بزخارفه وآلئه . إذ غدا المثل الأعلى للجمال الفني في الكتابة الديوانية ، فلا بد فيها من قوافيه وفواصله ، ولا بد من تساوق أنغامه وألحانه في الكلام .

٥

الرسائل الإخوانية والأدبية

رأينا في كتاب العصر العباسي الأول كيف أن الرسائل الإخوانية ازدهرت حينذاك ، إذ اتخذها الأدباء لتصوير عواطفهم ومشاعرهم في الخوف والرجاء والرغبة والمديح والهجاء والتنهاني والعتاب والاعتذار والاستعطاف والتعزية والاستمناع . وبذلك نافس النثر الشعري في مجالاته الخاصة : مجالات الوجدان ، وأظهر الكتاب في ذلك براعة فائقة ، إذ كان كثير منهم بلغ الذروة في الفن الكتابي ، وأيضاً فإن الشعراء أنفسهم أدلّوا ببدلائهم في تلك الرسائل حين وجدوها شديدة التأثير في نفوس من توجّه إليهم . وبذلك توفّر للرسائل الإخوانية كثيرون من الكتاب والشعراء النابهين ، الذين استطاعوا أن يبتشوا في النثر طاقات جديدة من طرافة التفكير ودقة التعبير ، حتى لنرى قوماً إذا سُئلوا عن الكلام أو الوصف هل يكون شعراً أو نثراً فضّلوا أن يكون نثراً ، فقد روى المسعودي عن أبي العباس المكي نديم محمد بن عبد الله بن طاهر أنه كان ينادمه ذات ليلة في سنة ٢٥٠ للهجرة ، فسأله أن يصف له الطعام والشراب والطيب والنساء والخليل ، فقال له : أ يكون ذلك منشوراً أو منظوماً ؟ قال : لا ، بل منشوراً^(٢) . فالنثر أصبح له القيدُح المعلن على

(١) العجاج : غبار الحرب .

(٢) مروج الذهب للمسعودي ٧٠ / ٤ .

الشعر ، لا لأن أصحابه كانوا يرقون إلى الوظائف العليا في الدولة ودواوينها فحسب ولا لأنه كان يُختار منهم الوزراء فحسب ، بل أيضاً لأنه أصبح يضارع الشعر في التأثير في وجدان القارئ ، بما وفّر له كُتّابه العظام من جزالة الألفاظ ورسائنها ومن حسن تلاؤمها في الجرس . فالكاتب ما يزال يلائم بين لفظة ولفظة ، بل أحياناً بين حَرْف وحرف ، حتى يأسر العقول والألباب . وكان أكثر من الشعر طواعية لحمل الأفكار بحكم يُسرّ تعابيره وما يجري فيها من مرونة ، مما جعل الشعراء أنفسهم يتخذونه في بعض الأحوال أداة لتصوير خواطهم ومشاعرهم وأفكارهم ، كما ذكرنا آنفاً . وتَحْمَل كتب الأدب كثيراً من الرسائل الإخوانية لكتّاب بارعين ، ونحن نعرض طائفة منها تصوّر مدى ما كانوا يحققونه لها من إجادة وإتقان ، فمن ذلك رسالة للحسن بن وهب كتب بها إلى المتوكل في عيد نيروز ، يهنئه بالعيد ، وكلها دعاء وابتهاال ، يقول (١) :

« أسعدك الله — يا أمير المؤمنين — بكرّ الدهور ، وتكامل السرور ، وبارك لك في إقبال الزمان ، وبَسْطِ بَيْسُمنِ خلافتك الآمال ، وخصّك بالمزيد ، وأبهجك بكل عيد ، وشدّ بك أزرّ التوحيد ، ووصل لك بشاشة أزهار الربيع المونق ، بطيب أيام الحريف المُغْدِقِ (كثير المياه) وبمواقع تمكين لا يجاوزه الأمل ، وغبطة إليها نهاية ضارب المثل ، وعمّر ببلاتك الإسلام ، وفسح لك في القدرة والمدة ، وأمتع برأفتك وعدلك الأمة ، وسرّبلك (ألبسك) العافية ، وردّك السلامة ، ودرّعك العزّ والكرامة ، وجعل الشهور لك بالإقبال متصدّية ، والأزمنة إليك راغبة متشوقة ، والقلوب نحوك سامية ، تلاحظك عشقاً ، وترفرف نحوك طرباً وشوقاً » .

وكانت قد أخذت تشيع التهنئات بالأعياد الفارسية والإسلامية شعراً فجعلها الحسن بن وهب نثراً ، وفي رأينا أنه لم يعيش طويلاً في عصر المتوكل . وكانوا قد اعتادوا كثيراً في العصر العباسي الأول أن يتهدّوا التحف والطرف ، وعادة كانوا يرسلون مع الهدية بعض الأشعار ، وأخذ النثر يزاحم الشعر في هذا الموضوع ، فمن ذلك أن نرى الكندي الفيلسوف المتوفى سنة ٢٦٠ كما مرّ بنا يهدى إلى بعض إخوانه سيفاً ويكتب معه (٢) :

(٢) غرر الخصائص الواضحة ص ٤٤٧ .

(١) المحاسن والأضداد ص ٢٨٥ .

« الحمد لله الذى خَصَّكَ بمَنافع ما أهدَى إِيَّاكَ ، فجعلك تهتَرُ للمكارم ، اهتزاز الصارم (السيف) ، وتمضى فى الأمور ، مضاء السيف المأثور (المتأثر) (اللامع) وتصون عِرْضَكَ بالإِرْفاد (الإعطاء) كما تُصان السيوف فى الأغمار ، ويظهر دم الحياء فى صفحة خَدِّكَ المَشُوف (المحلول) كما يَشِفُّ الرونق فى صفحات السيوف ، وتَصْقِلُ شرفك بالعطيات ، كما تُصْقِلُ مُتُون المَشْرِفِيَّات (السيوف) » .

والرسالة تتقدم فى السجع خُطْوَةً عن سابقتها ، فإن الحسن بن وهب كان يترك السجع أحياناً أما الكندى فإنه فى رسالته يتشبث بالسجع ، وكأنما لحق عصرًا كانت عنايته به أقوى وأشد من عصر الحسن بن وهب . ومَرَّ بنا أبو على البصير بين الشعراء ، ويقول ابن المعتز كان كاتباً رسالياً (صاحب رسائل) ليس له فى زمانه ثان . . . وقد قلنا فى أخبار العتّابى (وكان شاعراً كاتباً) : إن هذا قلما يتفق للرجل الواحد ، لأن الشعر الذى للكتّاب ضعيف جداً ، فإذا اجتمع فى الواحد فهو المنقطع القرين « (١) . وقد أثرت عن أبى على البصير رسائل كثيرة ، فمن ذلك رسالة كتب بها إلى عبيد الله بن يحيى بن خاقان وزير المتوكل مادحاً له معددا فضائله ، وفيها يقول (٢) :

« إن أمير المؤمنين لما استخلصك لنفسه ، وائْتَمَنَكَ على رعيته ، فنطق بلسانك ، وأخذ وأعطى بيدك ، وأورد وأصدَرَ عن رأيك . . . ولم يزد — أكرمك الله — رفعة وتشریفاً إلا ازددت له هبةً وتعظيمًا ، ولا تسليطًا وتمكينًا إلا زدت نفسك عن الدنيا عزًّا وفناً وتنزيهاً ، ولا تقريبًا واختصاصاً إلا ازددت بالعامّة رأفةً وعليها حدًّا بًا ، لا يُخرجك فرطُ النصيح له عن النظر لرعيته ، ولا إثارة حقه عن الأخذ بحقها عنده . . . ولا يشغلك معاناة كبار الأمور عن تفقد صغارها . . . تمضى ما كان الرشيد فى إمضائه ، وتُرْجى ما كان الحزم فى إرجائه . . . وتلين فى غير تكبر ، وتعمُّ فى غير تصنع ، لا يشقى بك الحقُّ وإن كان عدوًّا ، ولا يسعد بك المبطل وإن كان وليًّا . . . وكافّة الرعية — إلا من غمط (بطّر) منهم النعمة — مُشْنُون عليك بحسن السيرة ، ويُسَمِّن النقيبة » .

وقدرة أبي على البصير على اختيار الألفاظ بارعة ، فقد كان يعرف كيف يختار مفرداته وكيف يؤلف بينها تأليفاً حسناً ، يجرى فيه التقابل والتوازن ، وإن لم يسجّر في هذه الرسالة السجع ، ولكن يجرى فيها ماء ورونق . وهو لم يسق في مديح عبيد الله عبارات طنانة فحسب ، بل ساق معاني سياسية جيدة ، فهو رءوف بالشعب حديد عليه ، وحق كل فرد فوق حق الخليفة نفسه ، مدبر حازم . مترفع عن الصغائر ، في تواضع لا يسف به إلى الدنيات دون تكلف . لا يؤذى محقاً وإن كان عدواً ، ولا يسر مبطلاً وإن كان صديقاً . والرعية جميعها تحبه وتشتي عليه لسيرته وفضائله الطيبة . وإه رسالة مسجوعة تدخل في العتاب أو بعبارة أدق في الهجاء كتب بها إلى أبي العيناء منافسه في منادمة الخلفاء والوزراء ، وفيها يقول (١) :

« من أبي على البصير ، ذى البرهان المنير ، المبالغ في التحذير ، المعذّر في النكير ، إلى أبي العيناء الضّرير ، ذى الرأى القصير ، والخطل الكثير ، والإقدام بالتعير ، سلام على المخصوصين بالسلام ، من أجل حقيقة الإسلام ، المؤمنين بالحلال والحرام ، والفرائض والأحكام ، فإني أحمد الله إلى نفسه وأوائمه من خلّقه ، على ما هداني من دينه ، وعرفني من حقه ، وامنّ عليّ به من تصديق رسله . . . أما بعد فإنك الرجل الدقيق حسبه ، الرديء مذهبه ، الدنيء مكسبه ، الخسيس مطلبه ، البذئء لسانه ، المبتلى به إخوانه . . . قد صيرت القحة (الوقاحة) جنة (وقاية) وشتم الأعراض سنة . . . صديقك على وجل منك إن شاهدته عافك ، وإن غبت عنه خافك ، تسأله فوق الطاقة ، وترهقه عند الفاقة (الفقر) فإن اعتذر إليك لم تعذره ، وإن استنظرك لم تنظره (تمهله) وإن أنعم عليك لم تشكره ، لا تزيدك السن إلا نقصاً ، ولا يفيدك الغنى إلا حرصاً . . . وتعرض للناس بالسؤال ، غير محتشم من الإملال . . . من أطاعك في ماله حربته (سلبته) ، ومن منعك بعدر واضح سببته . . . ومن أكرمك أهنته وتناولت عليه ، ومن أهانك استكنت له ولينت في يديه . . . إرثك عن أهلك السعاية ، ونقل الأخبار والوشاية . »

والرسالة كلها — على هذا النحو — هجاء وإقذاع في الهجاء ، وقد استهلها
لمسحاً إلى أن أبا العيناء لا يؤمن بحلال ولا حرام ولا بفرائض ولا أحكام مخرجاً له من
الملة حامداً لنفسه هداة وتصديق الرسل الذين يكفر بهم أبو العيناء. ثم يسبه في حسبه
وفي مذهبه ومكسبه واصفهاً له بالخسة والذناة ، وأنه لا يحترم صديقاً مهما أكرمه ،
مع الشّح والتعرض للناس. بالسؤال والإلحاف فيه . ويقول له في نهاية رسالته :
« قد ملّيتُ إلى السجع على علمي بخساسة حظه وركاكة معانيه واقفله ، إذ
كنت تسلّوِي به لسانك ، وتَشْنِي إاليه عِنانك ، قطعاً لحجتك ، وإزاحة لعلتك » .
وكان أبو العيناء على شاكلة أبي على البصير يملأ رسائله بالسجع على نحو ما نجد
في رسالة كتب بها إلى عبيد الله بن يحيى بن خاقان يشكو له ابنه محمداً إذ أهدها
فرساً غير فاره ، وفيها يقول^(١) :

« أعلم الوزير — أيده الله — أن أبا على محمداً أراد أن يبرّني فعقّني ، وأن
يُرْكِبني فأرجلني ، أمر لي بفرس كالقضيب اليابس عَجَفَناً (هزلاً) وكالعاشق
المهجور دَنَفَناً (سقمًا) . قد أذكر الرواة عُرُوة العُدْرِيّ ، والمجنون العامري ...
قد حفظ الأشعار ، وروى الأخبار ، ولحق العلماء في الأمصار ... وإنما
أتيت من كاتبه الأعور ، الذي إذا اختار لنفسه أطاب وأكثر ، وإن اختار لغيره
أخْبِثَ وأنزَرَ (قلّيل) » .

والرسالة سجع خالص ، وكأن من الكتاب من أخذ يصطنعه منذ أوائل هذا
العصر في بعض الرسائل ، فإن لأبي العيناء نفسه رسائل أخرى في الاستمناح^(٢) وطلب
النوال وفي الشكر^(٣) ، يكتفي فيها بالعبارة المصقولة والألفاظ المتخبة المختارة دون أن
يعنى بالسجع وترصيفه وتنميقه . ومن الكتاب انبلاء المعاصرين لأبي العيناء وأبي
على البصير محمد بن مكرم ، وفيه يقول صاحب الفهرست : « كاتب بليغ مترسل ،
وله كتاب رسائل »^(٤) ، وتداوله في الكتب مجموعة من الرسائل ، منها رسالة في
الاعتذار لبعض الرؤساء على هذه الشاكلة^(٥) :

(٤) الفهرست ص ١٨٥ .

(٥) عيون الأخبار ٣ / ١٠٥ وزهر

الآداب ٣ / ٣٨٢ .

(١) زهر الآداب ٢ / ١٦٥ .

(٢) زهر الآداب ١ / ٢٩١ .

(٣) زهر الآداب ٣ / ٩٥ .

« نَبَتَ بِي عَنْكَ غِرَّةً (غفلة) الحَدَاثَةِ ، فَرَدَّتْ بِي إِلَيْكَ التَّجَرِبَةُ ، وَبَاعَدَتْ بِي عَنْكَ الثِّقَةَ بِالْأَيَّامِ ، فَأَدْنَتْ بِي إِلَيْكَ الضَّرُورَةُ ثِقَةً بِإِسْرَاعِكَ إِلَيَّ ، وَإِنْ أَبْطَأْتُ عَنْكَ ، وَتَقْبُولُكَ لِعَذْرَى وَإِنْ قَصَّرْتُ عَنْ وَاجِبِكَ . وَإِنْ كَانَتْ ذُنُوبِي قَدْ سَدَّتْ مَسَالِكَ الصَّفْحِ عَنِّي ، فَرَاجِعْ فِي مَجْدِكَ وَسُؤْدَدِكَ . وَإِنِّي لَا أَعْرِفُ مَوْقِفًا أَذِلَّ مِنْ مَوْقِفِي ، لَوْلَا أَنَّ الْمُخَاطَبَةَ فِيهِ لَكَ ، وَلَا خُطَّةً أَدْنَى مِنْ خُطَّتِي ، لَوْلَا أَنَّهَا فِي طَلَبِ رِضَاكَ . »

والرسالة محكمة ، وكل عبارة كأنما حاكتها أو قل صَبَّحَتْهَا فِي قَالِبِهَا يَدٌ صَنَاعٌ وَحَقًّا لَمْ يُحِثَلِ الرِّسَالَةُ بِالسَّجْعِ ، وَلَكِنْ الْعِبَارَاتُ كُلُّهَا كَأَنَّهَا حَلَى مُخْتَارَةً ، سِوَاءٍ فِي اصْطِفَاءِ الْأَلْفَاظِ ، أَوْ فِي تَوْشِيَتِهَا بِأَلْوَانِ الْبَدِيعِ ، فَالْغُرَّةُ أَمَامَ التَّجَرِبَةِ ، وَالْبَعْدُ أَمَامَ الدَّنْوِ ، وَالسَّرْعَةُ أَمَامَ الْبُطْءِ . ثُمَّ تَتَعَاقَبُ الِاسْتِعَارَاتُ وَالصُّوَرُ ، فَالذَّنُوبُ قَدْ سَدَّتْ بِحِجَابِ غَلِيظِ دُرُوبِ الصَّفْحِ وَمَسَالِكِهِ ، وَهُوَ يَتَوَسَّلُ أَنْ يَرَاجِعَ فِيهِ مَجْدَهُ وَسُؤْدَدَهُ . ثُمَّ يَأْتِي التَّلَطُّفُ وَقَبُولُ الذِّلِّ وَكَأَنَّهُ يَقْبَلُهُ مِنْ حَبِيبٍ . وَهِيَ رِسَالَةٌ جَيِّدَةٌ فِي تَعْزِيَةِ سُلَيْمَانَ بْنِ وَهْبٍ عَنْ أَخِيهِ الْحَسَنِ حِينَ لَبَّيْ نِدَاءَ رَبِّهِ ، وَنَكَتِي مِنْهَا بِهِذِهِ الْفَقْرَةُ (١) :

« إِنْ الرَّمَضُ (حَرَقَةُ الْغَيْظِ) وَالْهَلَعُ إِنَّمَا يَكُونَانِ لِلْمُصِيبَةِ الْخَاصَةِ الَّتِي لَا تَعْدُو صَاحِبَهَا ، وَلَا يَجِدُ مُسْعِدًا (مَعِينًا) عَلَيْهَا ، وَلَا شَرِيكًا فِيهَا ، وَقَدْ أَعَانَكَ اللَّهُ عَلَى مُصِيبَتِكَ بِالْوَاشِيحِ (الْمُشْتَبِكِ) رَحِمًا بِكَ وَالْبَعِيدِ نَسَبًا مِنْكَ ، وَجَمَعَ فِي ثِقَلٍ مَسْحَمَلِهَا وَلَمْ فَجَّعْهَا صَدِيقُكَ وَعَدُوُّكَ ، وَكُلُّ مُكْتَسَسٍ مِنْهَا سِرِّبَالٌ وَحِشَّةٌ ، وَمِنْطَوٍ عَلَى دَخِيلِ حَزْنٍ ، وَنَازِرٌ مِنْ أَعْقَابِهَا فِي مَنْظَرٍ وَعَرٍ ، فَجَمِيعُهُمْ فِيهَا مُشْتَرِكٌ ، وَأَنْتَ بِالتَّعْزِيَةِ حَقِيقٌ قَسَمِينَ » .

والقطعة كالرسالة السابقة ، أَلْفَاظُهَا مُحْكَمَةٌ ، وَيَجْرِي فِيهَا الطَّبَاقُ وَالتَّقَابِلُ وَالِاسْتِعَارَاتُ وَالصُّوَرُ وَالرَّصْفُ الدَّقِيقُ لِلْعِبَارَاتِ ، فَالنَّسَجُ مَتِينٌ ، وَعَلَيْهِ أَلْوَانٌ وَصُورٌ تَلَفَّتِ الْأَذْهَانُ . وَمِنْ الْكِتَابِ الْبُلْغَاءِ أَحْمَدُ بْنُ سُلَيْمَانَ بْنِ وَهْبٍ ، وَهُوَ مِنْ بَيْتِ كِتَابَةٍ ، كَانَ أَبُوهُ وَعَمُّهُ الْحَسَنُ مِنَ الْبُلْغَاءِ الْمَفُوهِينَ ، وَهِيَ فِي الصَّدَاقَةِ رِسَالَةٌ كَتَبَ بِهَا إِلَى بَعْضِ أَصْدِقَائِهِ ، وَفِيهَا يَقُولُ (٢) :

(١) جمهرة رسائل العرب ٤ / ٢٤٨ .

(٢) معجم الأدباء ٣ / ٦٢ .

« ليس عن الصديق المخلص والأخ المشارك في الأحوال كلها مذهب ، ولا وراءه للوائق به مطلب ، والشاعر يقول :

وَإِذَا يُصِيبُكَ وَالْحَوَادِثُ جَمَّةٌ حَدَّثَ حَدَاكَ إِلَى أَخِيكَ الْأَوْثَقِ

وأنت الأخ الأوثق ، والولىّ المُشْفِق ، والصديق الوصول ، والمشارك في المكروه والمحبوب ، قد عرفني الله من صدق صفائك وكرم وفائك ، على الأحوال المتصرفة ، والأزمنة المتقلبة ، ما يستغرق الشكر ، ويستعبد الحر ، وما من يوم يأتي على إلا وثقتي بك تزداد استحكاماً ، واعتمادى عليك يزداد تأكيداً والتناماً ... وأعنيك بالله من العيون الطامحة ، والألسنة القاذحة ، وأسأله أن يجعلك في حِرْزه الذي لا يُرام ، وكسَنفه الذي لا يُضَام ، وأن يحرسك بعينه التي لا تنام ، إنه ذو المَنِّ والإِنعام .

واستخدامه للسجع واضح ، وليس سجعاً متكلفاً ، مما يدل على أنه خلق صناعته ، حتى أصبح السجع ينحدر عن لسانه انحداراً سهلاً طبيعياً ، لا عوج فيه ولا التواء ، ولا تكلف ولا عثرات هنا أو هناك ، بل أسلوب مستومتناسق . ومن الشعراء الكتاب الذين نبغوا في كتابة النثر والشعر أحمد بن أبي طاهر طيفور ، وممرت بنا ترجمة له بين الشعراء ، ويحتفظ كتابه : « اختيار المنظوم والمثثور » بطائفة من رسائله ، منها رسالة في شكر على بن يحيى المنجم على بير^١ واسع أغدقه عليه ، تمضى على هذا النحو^(١) :

« إن أحقَّ معروف بأن يُشْكِرَ ، وبَدَّ بَارَةً بأن لا تُكْفَرَ ، وأحق وأجب بأن يؤدَّى ، وإحسان وبر^٢ بأن يُجَاوَزَ معروفك — أعزك الله — عندي ، ويدك قبلي ، وحقت على ، وإحسانك إليّ ، لأن المعروف يحسن عند الأحرار موقعه ، ويجب عليهم شكره ونشره والإشادة بذكره . تتطوَّع مبتدئاً ، وتشفع ما تقدّم معقباً ، وتحسّن ربّ ما أسديته متفضلاً ، لا أخلاك الله من بير^٣ وإحسان ، ولا أخلانا منك في حال . »

والرسالة فيها سجع قليل ، ولكن له رسائل أخرى يكثر فيها السجع ، وكان

(١) جمهرة رسائل العرب ٤/ ٣٤٤ .

كثير الهجاء للكتّاب ، ويبدو أنه قلما كان أحد يسلم من لسانه ، ومن هجاءهم وأقذع في هجائهم ابن ثوبة وابن مكرم ، ومن قوله في رسالة كتب بها إلى أبي علي البصير يذم له الأخير ويعدد مثالبه^(١) :

« الْمَقْلِيّ الْمَذْمُومُ ، المِهْنِ ابن مَكْرَمٍ . . . العاكف على ذنبه ، الصادف عن ربه ، الوضع في خلائقه ، العاقى على خالقه . . . عدوه آمنٌ من غائلته ، وصديقه خائف من بائقته . . . مَنْ استخفَّ به أكرمه . وَمَنْ وصله صرّمه (قطعه) . . . يخلف ليحنت ، ويعهد لينكت ، إسناده عن المذمومين ، وبلاغته في ذم الصالحين ، وطرفه قَدَفُ الْمُحْصَنَاتِ ، وسعيه في كسب السيئات » .

ولابن المعتز رسائل إخوانية كثيرة في التهاني والتعازي والاعتذار والشوق والفرق وفي السؤال عن بعض المرضى والدعاء لهم بالشفاء ، وبكل ذلك احتفظ كتاب الأوراق للصولي في ترجمته ، كما احتفظ بكثير منه كتاب زهر الآداب ، ويقل السجع في رسائله الإخوانية ، ولكنه يُعْنَى أشد العناية بصياغة كلامه ، على نحو ما نرى في الرسالة التالية ، وهي في تهنئة صديقه عبيد الله بن وهب وزير المعتمد في يوم عيد^(٢) :

« أَخْرَجْتَنِي الْعِلَّةُ عَنِ الْوَزِيرِ - أَعَزَّهُ اللَّهُ - فَحَضَرْتُ بِالدَّعَاءِ فِي كِتَابِي لِيَنْوِبَ عَنِّي ، وَيَعْمُرَ مَا أَخْلَتْهُ الْعَوَاقِقُ مِنِّي ، وَأَنَا أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَ هَذَا الْعِيدَ أَعْظَمَ الْأَعْيَادِ السَّالِفَةِ بَرَكَةً عَلَى الْوَزِيرِ ، وَدُونَ الْأَعْيَادِ الْمُسْتَقْبَلَةِ فَيَايُسُحِبُّ وَيُحَبِّبُ لَهُ ، وَيَقْبَلُ مَا تَوْسَّلُ بِهِ إِلَى مَرْضَاتِهِ ، وَيَضَاعِفُ الْإِحْسَانَ إِلَيْهِ عَلَى الْإِحْسَانِ مِنْهُ ، وَيَمْتَعَهُ بِصَحْبَةِ النِّعَةِ وَلِبَاسِ الْعَافِيَةِ ، وَلَا يُرِيهِ فِي مَسَرَّةٍ نَقْصًا ، وَلَا يَقْطَعُ عَنْهُ مَزِيدًا ، وَيَجْعَلَنِي مِنْ كُلِّ سُوءٍ فِدَاءَهُ ، وَيَصْرِفَ عَيُونَ الْغَيْرِ (حوادث الدهر) عَنْهُ وَعَنْ حَظِّي مِنْهُ » .

والرسالة أدعية للوزير الصديق ، وهو يُعْنَى فيها أشد العناية بجزالة العبارة ونصاعتها ، ولكن دون أن يلجأ إلى سجع . ويحتفظ له كتاب الأوراق بفصول كثيرة من بعض رسائله ، فمن ذلك فصل في الشوق يقول فيه : « إِنِّي لَأَسْفُ عَلَى كُلِّ يَوْمٍ فَارَغٍ مِنْكَ ، وَكُلِّ لَحْظَةٍ لَا تُؤْنِسُنِي رُؤْيَاكَ ، وَسَقَمِيًّا لَدَهْرٍ كَانَ مُوسِمًا

بالاجتماع معك ، معموراً بآلقائك ، جمع الله شمل سرورى بك ، وعسر بقائى بالنظر إليك^(١) . ومن ذلك فصل فى شفاعته : « موصل كتابى فلان ، وقد جعلت الثقة به مطيته إليك ، فلا تُنْضِها (تهزئها) بِمَظْلِكْ ، وأسرع ردها بسابق لإنجازك ، وتصديق الأمل فيك والظن بك »^(٢) ، ولا ريب فى أنه كان يسجع أحياناً فى بعض فصوله : « قد ملت إليك فما أعتدل ، ونزلتُ بك فما أرتحل ، ووقفت عليك فما أنتقل »^(٣) وفى فصل آخر : « تولّى الله عني مكافأتك ، وأعان على فعل الخير نيتك ، وأصبح بقاءك عزّاً يبسط يدك لوليك وعلى أعدائك ، وكلاءة (حراسة) تذبُّ عن ودائع مَنته عندك ، وزاد فى نعمك وإن عظمت ، وبلغك آمالك وإن انفسحت »^(٤) . وإله فى وصف الكتاب والقلم^(٥) :

« الكتاب والنج الأبواب ، جرىء على الحجاب ، مُفهم لا يفهم ، وناطق لا يتكلم ، به يشخص (يخصر) المشتاق ، ومنه يد آوى الفراق . والقلم مجهزٌ لحيوش الكلام يخدم الإرادة ، ولا يعمل الاستزادة ، يسكت واقفاً ، وينطق سائراً ، على أرض بياضها مظلم ، وسوادها مضىء ، وكأنه يقبل بساط سلطان ، أو يفتح دُوار بستان » .

والوصف يكثر فيه السجع ، كما يكثر التصوير ، فقد شخص الكتاب وجسمه فى صور كثيرة ، وبالمثل صنع بالقلم ، وأخرجه مع الصحف التى يكتبها فى صور بدیعة :

وكان الكتّاب يكثر من الدعوة للزيارة واقتضاء بعض الوقت فى اللهو واسماع الغناء أو للسمر والطعام . وأكثروا من التهانى فى كل مناسبة فى الأعياد وفى الزواج وفى إنجاب الأولاد وفى ختانهم ، وفى الحج وقضاء مناسكه ، وفى وصف الطبيعة شتاء وفى الربيع . . . وقد تعقبنا انتشار السجع فى الرسائل الإخوانية طوال العصر ، لنجد على أن ذوقاً عاماً أخذ يُعْنِي به ، وهى عناية جعلته يعم فى تلك الرسائل مع أواخر القرن الثالث ، بل لقد أخذ يعم — منذ أواسطه — عند أبى على

(١) أشعار أولاد الخلفاء للصوى ص ٢٩٢ .

(٤) الصولى ص ٢٩٤ .

(٢) الصولى ص ٢٩٠ .

(٥) الصولى ص ٢٩٢ وزهر الآداب .

(٣) الصولى ص ٢٩١ .

البصير وأبى العيناء في بعض رسائلهما . وقد أخذت تنتشر مع ذلك عناية باصطناع الصور البيانية وبعض ألوان البديع على نحو ما لاحظنا في بعض رسائل ابن مكرم ، وكان الكاتب لا يريد أن يؤلف كلاماً فحسب ، بل يريد أن يصوغ درراً ، مما هيئاً لسيادة السجع وسيطرته على جميع الرسائل سياسية وإخوانية منذ عصر المقتدر ، بل لقد هيأ ذلك لظهور كتاب الألفاظ الكتابية التي ألف فيها عبدالرحمن ابن عيسى الهمداني المتوفى سنة ٣٢٠ كتابه الذي وقفنا عنده في موضع آخر ، وهو يدل بوضوح على أنه أخذت تسود فكرة النموذج في الكتابة : في التهاني والتعازي والبشارة والإنذار والاعتذار ، وأيضاً في كتابة الرسائل الديوانية ، ففي كل ذلك درر من السجع والصور تحفظ وتصيح مادة للكتّاب ، تُعينهم في كتابة الرسائل ، وكأنما كان صنيع الهمداني نذيراً بجمود النثر العربي وأن يصبح صيغاً برّاقة ، تخب بما فيها من أسجاع قبل أن تخب بما فيها من معان .

ولم يقف انتشار السجع وشيوعه عند الرسائل الإخوانية والديوانية ، فقد أخذ يشيع في الرسائل الأدبية الخالصة ، وكان الجاحظ قد أشاع في تلك الرسائل أسلوب الازدواج المعروف به ، غير أن من تآكده في القرن الثالث الهجري أخذوا يدخلون عليها السجع ويكثر منه ، على نحو ما تصوّر ذلك رسالة لابن المعتز كتب بها إلى بعض أصدقائه يصف سامراً ويأسى لخرابها ويذم بغداد وأهلها ، وهي أشبه بمناظرة بين البلدين : العاصمة القديمة سامراء ، والعاصمة الجديدة بغداد ، وكان قد انتقل إليها المعتمد منذ سنة ٢٧٦ وانتقل معه ابن المعتز . ولعل من الخير أن نسوق أكثر هذه الرسالة الطريفة ، وهي تمضي على هذه الصورة^(١) :

« كتبت إليك من بلدة قد أنهض^(٢) الدهر سكّانها ، فشاهدُ البأس فيها ينطق وحسبُ الرجاء فيها يتقصّر ، فكأن عُمرانها يُطوى وكأن خرابها يُنشَرُ ، وقد وُكِّلَتْ إلى الهجر نواحيها ، واستُحِثَّ باقيها إلى فانيها ، وقد تمزّقت بأهلها الديار ، فما يجب فيها حقُّ جوار ، فالظلمة عن منها محوُّ الأثر ، والمقيم بها على طَرَف سفر ، نهاره إرجاف ، وسروره أحلام . . . فحالها تصف

(٢) أنهض هنا : بث على الرحيل .

(١) زهر الآداب ١ / ٢٠٧ وجمهرة رسائل

للعيون الشكوى ، وتشير إلى ذم الدنيا ، بعد ما كانت بالمراى القريب جنة الأرض ،
 وقرار الملك ، تفيض بالجنود أقطارها ، عليهم أرد ية السيوف وغلائل الحديد ،
 كأن رماحهم قرون الوعول ، ودروعهم زبد السيول ، على خيل تأكل الأرض
 بجوافرها ، وتند بالنتقع (الغبار) سرآدقها ، قد نُشِرت في وجوها غرر كأنها
 صحائف البرق ، وأمسكها تحجيل كأنه أسورة اللجيين ، وقرطت عذراً^(١)
 كالشنوف ، في جيش يتلقف الأعداء أوائله ، ولم تنهض أواخره ، قد صب عليه
 وقار الصبر ، وهبت له روائح النصر ، يصرفه ملك يملأ العيون جمالا ، والقلوب
 جلالا ... قبل أن تسخب (تعدو) مطايا الغير ، وتسفير وجوه الحذر ، وما زال
 الدهر مليئاً بالنوائب ، طارقاً بالعجائب ، يؤمن يومه ، ويغد رُغدُه . على
 أنها — وإن جفيت — معشوقة السكى ، حبيبة المشوى (المنزل) كوكبها يقظان ،
 وجوها غريان (صحو) وحصباؤها جواهر ، ونسيمها معطر ، وترابها مسك^٢
 أذفر (ذكى) ويومها غداة (لطيف الطقس) وأيلها سحر ، وطعامها هنىء ،
 وشرابها مرىء ، وتاجرها مالك ، وفقيرها فانك (غير محتاج) لا كبغدادكم
 الوسخة السماء ، الويدة (الراكدة) الهواء ، جوها نار ، وأرضها خببار (ابنة)
 وحيطانها نزوز (تتر بالماء) وتشربها (أكتوبر) تحوز (بولاية) فكم في شمسها
 من محترق ، وفي ظليها من غرق ، ضيقة الدار ، قاسية الجوار ، ساطعة الدخان ،
 قليلة الضيفان ، أهلها ذئاب ، وكلامهم سياب ، وسائلهم محروم ، وما لهم
 مكتوم ، لا يجوز إنفاقه ، ولا يحل خيافه (كيسه) وحيطانهم خصاص
 (أكواخ) وبيوتهم أفاص (ضيقة) ولكل مكروه أجل ، وللبقاع دُول ، والدهر
 يسير بالمقيم ، ويمزج البؤس بالنعيم .

والسجع زاخر في الرسالة كما يرى القارئ ، وكأن ابن المعتز أراد أن يجعلها
 رسالة أدبية خالصة ، فهو يختار لها الأسلوب الذى أخذ يشيع في عصره أسلوب
 دُرر السجع ولآله التى أصبحت موضع إعجاب الكتّاب والى كانت تروقهم
 إلى أقصى حد ، مما هيا الأذواق لأن ترفع اللفظ فوق المعنى ، فالمدار على جمال

(١) العذر : جمع عذار وهو من اللجام ما سأل
 على خد الفرس . الشنوف : جمع شنف وهو القرط .

الجسد لا جمال الروح ، والعبرة بالشكل لا بالجواهر ، وبالقالب لا بما يحتويه ، وبالبريق الخارجى للمعاني لا بالبريق الداخلى . وعمّ ذلك حتى طغى فى كتابة بعض الأخبار ، وحتى نجد الخليفة القاهر (٣٢٠ - ٣٢٢ هـ) يطلب من بعض أصحاب التاريخ وَصَفَ الخلفاء العباسيين الذين سبقوه ، ويقول له : « لا تغيّب عني شيئاً ، ولا تحسّن القصة ولا تسجع فيها » ^(١) ، فهو لا يريد فى وصفهم إدخال زينة السجع ، حتى لا يجرى اللفظ على المعنى . وكأنما أصبح السجع أسلوب الكتابة العامة واطّرد ذلك فى العصر التالى ، وظل آماداً متطاولة .

وابن المعتز لا يكتفى فى هذه الرسالة الأدبية بالسجع ، بل يضيف إلى ذلك ألواناً من البديع ، إذ تطالعنا فيها تسوّا الطباقات . فانهوض أوالرحيل يقابل القعود ، واليأس يقابل الرجاء ، والحرب يقابل العمران ، والنشر يقابل الطمى ، والباقي يقابل الفانى ، والطاعن يقابل المقيم . وبجانب الطباقات ما اشتهر به فى شعره من كثرة التشبيهات وإيراد الصور الطريفة ، فالحيل تأكل الأرض بجوافرها وتمد من الغبار سرادقاً ضخماً يظل الجيش ، والغرر فى وجوهها كأنها صحائف البرق ، والتسحجيل فى سيقانها كأنه الأساور من فضة تحيط بها ، وما سال على حدودها من اللجم كأنه أقرط فى آذانها ، والحصباء جواهر ، والتراب مسك أذفر . وتتوالى الصور والتشبيهات وابن المعتز دائماً يستمد من مخازن لا تنفد ، مخازن تعطيه كل ما يريد من زخارف السجع وزخارف الصور والأخيلة ، وكأنه لم يلبث أن انضم بقوة إلى الركب ، ركب العناية بالوشى . ويُطِيل القرن الرابع ، وإذا هذه العناية تصبح هى الذوق العام فى الكتابة الأدبية ، فليس هناك كاتب نابه إلا ويتخذ هذا الأسلوب الفنى الجديد أسلوب السجع وما يُطَوَّى فيه من زخارف البديع .

الفصل التاسع

أعلام الكتاب

١

إبراهيم^(١) بن العباس بن محمد المولى

كان جده صول حاكماً لجرجان مع أخيه فيروز ، وكانا تركيين يدينان بالمجوسية ويتشبهان بالفرس ، ودخل صول الإسلام على يد يزيد بن المهلب إلى خراسان للحجاج ، وأصبح من خاصته ، حتى إذا ثار يزيد على بني أمية في مطالع القرن الثاني الهجري حارب تحت لوائه حتى قُتل معه في موقعة العتقر بالقرب من الكوفة . وكان ابنه محمد من رجال الدولة العباسية ودُعاتها ، ونشأ له ابنه العباس في ظلال تلك الدولة ، ورُزق ولدين : عبد الله وإبراهيم ، وكان عبد الله أكبر سنّاً من أخيه . وقد وُلد إبراهيم سنة ١٧٦ للهجرة ، وقيل بل سنة ١٦٧ ويقول مترجموه إن أمه كانت أخت العباس بن الأحنف الشاعر المشهور ، وكأنه هو وأخاه تأدباً عليه في باكورة حياتهما ، كما تأدبا على ابن عمهما عمرو بن مسعدة الكاتب المشهور في عصر المأمون . ومن المؤكد أن إبراهيم لزم — على عادة ليدانه — حلقات العلماء والشعراء حتى أصبح يُتقن العربية ، وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة . وكان أخوه عبد الله سبقه إلى العمل مع ابن عمه عمرو بن مسعدة في دواوين الفضل بن سهل الملقب بذى الرياستين وزير المأمون ، حين كانا لا يزالان في مَرَوْ قبل تحول المأمون

دارالمعارف) ص ١٣٦ وابن خلكان في إبراهيم وتاريخ الطبري في ترجمة المتوكل وجمهرة رسائل العرب لأحمد زكي صفوت ، وديوانه بتحقيق عبد العزيز الميمنى في كتاب الطرائف الأدبية طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر .

(١) انظر في ترجمة إبراهيم بن العباس ورسائله وشعره وأخباره الأغاني (طبع دار الكتب) ٤٣/١٠ والفهرست لابن النديم ص ١٨٢ وتاريخ بغداد ١١٧/٦ ومعجم الأدباء لياقوت ١٦٤/١ ومروج الذهب ٢٣/٤ وكتاب الورقة لابن الجراح (طبع

إلى بغداد . ويبدو أن إبراهيم أراد الالتحاق بأخيه وابن عمه وعملهما ، فرحل إليهما ، وتصادف حين وصوله أن كان المأمون قد عهد بالخلافة من بعده إلى علي بن موسى الرضا . ويمدح إبراهيم ولي العهد الجديد ، ويهبه عشرة آلاف درهم من دراهم كانت ضربت باسمه ، ويقال إنه احتفظ بها وجعل منها مهور نسائه ، وأبقى بعضها لكفنه فيما بعدُ وجهًا زه إلى قبره^(١) . وألحقه الفضل بن سهل بدواوينه ، ومن حينئذ ظلَّ يعمل في الدواوين إلى أن توفي سنة ٢٤٣ وهو على ديوان النفقات والضيايع للمتوكل ، ويقول صاحب الفهرست : « كان إليه ديوان الرسائل في مدة جماعة من الخلفاء »^(٢) .

وقد ترك الدواوين مدة قصيرة لعهد الواثق جرَّت عليه بلاء عظيم ، ذلك أن ابن الزيات الوزير - وكان صديقاً له - ولَّاه على معونة الأهواز وخراجها ، ثم تنكَّر له ، فوجهَّ إليه بمحاسب كبير يسمى أبا الجهم ليكشفه ، فتحامل عليه تحاملاً شديداً ، وقال إن أموالاً كثيرة لم تُؤدَّ إلى بيت الخراج ، وغضب ابن الزيات ، وأمر بعزله واعتقاله في ولايته . وكانت محنة كبيرة لإبراهيم لم يسبُلُ فيها صديقه ابن الزيات وحده ، بل بسلاً فيها كثيراً من الأصدقاء ومن كانوا يظهرون له المودة ، إذ قَلَّبتْ له منهم جماعة ظهر المَجْنَن مثل أحمد بن المدبر ، الذي كان يُرغِر صدر ابن الزيات عليه ويحثه على محاسبة عمَّاله واستخراج الأموال منهم ، مما جعله يزهد فيما بعد في صحبة الإخوان والرفقاء وكان إذا سُئِلَ في ذلك قال : « ما مَسَّلُ الإخوان إلا كمثل النار قليلها مقنعٌ وكثيرها محرقٌ أو قليلها متاعٌ وكثيرها بَـوَارٌ » . ولعل ذلك ما جعله ينظم أشعاراً كثيرة في الصداقة والصديق ، كأنما يريد أن يرسم واجباتها ومسئولياتها . ولم يعدم بعض الإخوان الذين كانوا يشفعون له عند ابن الزيات وهو ماضٍ في النكاية به ، وقد كتب إليه شعراً ونثراً كثيراً يستعطفه ، ومن أطرف ما كتب له هذه الرسالة^(٣) :

« كَتَبْتُ إِلَيْكَ وَقَدْ بَلَغْتَ الْمُدَّةَ الْمَحْزَرَّةَ ، وَعَدَدَتِ الْأَيَّامُ بِكَ عَلَيَّ بَعْدَ عَدْوِي بِكَ عَلَيْهَا ، وَكَانَ أَسْوَأُ ظَنِّي وَأَكْثَرُ خَوْفِي أَنْ تَسْكُنَ فِي وَقْتِ حَرَكَتِهَا ،

(١) الأغاني ١٠ / ٥٢ .

(٢) الفهرست ص ١٨٢ .

(٣) الأغاني ١٠ / ٥٦ ومعجم الأدباء ١ / ١٧٠ :

وتكفَّ عند أذاها ، فصرتَ على أضرَّ منها ، وكفَّ الصديق عن نصرتي
وبادر إلى العدو تقرُّباً إليك . وكتب تحت ذلك :

أخُ بيني وبين الله ر صاحبَ آينا غلبا
صديقي ما استقام فإن نبأ دهرُ على نبأ
وثبتُ على الزمان به فعاد به وقد وثبنا
ولو عاد الزمان لنا لعاد به أخاً حديباً

والرسالة توضِّح شخصيته الأدبية فهو كاتب شاعر ، ويقول المسعودي : « كان
كاتباً بليغاً وشاعراً مجيداً ، لا يُعلم فيمن تقدم وتأخر من الكتاب أشعر منه »^(١) .
ويقول ابن الجراح في كتابه الورقة : « أشعر نظرائه الكتاب وأرقهم لساناً ، وأشعاره
قصار ثلاثة أبيات ونحوها إلى العشرة ، وهو أنعتُ الناس للزمان وأهله غير مدافع »^(٢)
ويقول أبو الفرج الأصبهاني : « كان يقول الشعر ثم يختاره ، ويسقط ردَّله ،
ثم يسقط الوسط ، ثم يسقط ما سبق إليه ، فلا يدع من القصيدة إلا اليسير ،
وربما لم يدع منها إلا بيتاً أو بيتين »^(٣) . وشعره مقطوعاتٌ حقاً ، ولكنها
مقطوعات ترقى إلى مرتبة رفيعة في البلاغة ، مشكلها مثلُ هذه الرسالة القصيرة
التي كتب بها لابن الزيات راجياً أن يخلصه من محنته ، فكل كلمة فيها قد اختارها
ذوق أدبي مصفى ، وكل عبارة قد أحكمت ، أحكمتها يد صناع ، فالمدية قد
بلغت المحز كناية عن بلوغ المحنة الحد الأقصى ، والأيام تعدو بابن الزيات عليه
بعد أن كان يعدو به عليها ، لقد كان ينتصر به عليها ، فإذا هي تقهره به ، وما أدق
قوله له في رسالة أخرى^(٤) :

وكنت أعدك للنائبات فها أنا أطلب منك الأمانا

فناصره أصبح قاهره . ويتوالى الطباق في الرسالة ، فالسكون يقابل الحركة
والكف يقابل المبادرة والصديق يقابل العدو . وظل ابن الزيات لا يعفو عنه ،
حتى بلغ منه كل مكروه ، ثم عرف الواثق تحامله عليه وأنه مظلوم فيما نسبته إليه

(٢) الأغاني ١٠ / ٤٣ .

(١) مرجع الذهب ٤ / ٢٣ .

(٤) الأغاني ١٠ / ٥٧ ومعجم الأدباء ١٧١ / ١ .

(٢) كتاب الورقة ص ١٣٦ .

أبو الجهم ، فأمر ابن الزيات بردّ حربته إليه وانتظامه في خاشيته وبلاطه مصوناً ، فبسط لسانه في غريمه ونظم فيه أشعاراً كثيرة دأماً هاجياً . وقد يكون ما حدث بينه وبين ابن الزيات هو الذي جعل المتوكل يقرّبه منه منذ أول عهده بالخلافة ، فقد كان بدوره ينقم على ابن الزيات أشياء كثيرة ، فلم يكد يتقلّد الخلافة حتى صادر أمواله ، وعذبه في تنّور ملئ بمسامير من الحديد حتى مات .

وأصبح إبراهيم بن العباس حظيّاً عند المتوكل ، فقلّده ديوان رسائله ودواوين مختلفة ، وظل حتى وفاته يكتب عن المتوكل كل الكتب التي تصدر عنه ، سواء أكانت منشورات أم عنوداً لأولياء العهد أم فتوحاً أم تهنئات بالأعياد أم تعازي باسم الخليفة ، وأحياناً ينصّ الطبري أن هذا الكتاب أو ذاك من إنشائه ، وأحياناً لا ينصّ . ومن أوائل ما كتب له المنشور الموجه إلى عمّاله في الآفاق بشأن النصارى وأهل الذمة وأخذهم بلبس الطيّالسة والزّنانير ، مما عرضنا له في غير هذا الموضع ، وهو يستهله على هذه الشاكلة ^(١) :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد فإن الله تبارك وتعالى بعزّته التي لا تحاول وقدّره على ما يريد ، اصطفى الإسلام ، فرضيه لنفسه ، وأكرم به ملائكته ، وبعث به رسله ، وأيدّ به أوليائه ، وكفّه بالبير ، وحاطه بالنصر ، وحرسه من العاهة ، وأظهره على الأديان ، مبرّأ من الشبهات ، معصوماً من الآفات ، محبواً بمناب الخير ، مخصوصاً من الشرائع بأطهرها وأفضلها ، ومن الفرائض بأزكاها وأشرفها ، ومن الأحكام بأعدلها ، ومن الأعمال بأحسنها وأقصدّها ، وأكرم أهله بما أحلّ لهم من حلاله ، وحرّم عليهم من حرامه ، وبيّن لهم من شرائعه وأحكامه ، وحدّ لهم من حدوده ومناهجه ، وأعدّ لهم من سعة جزائه وثوابه ، فقال في كتابه فيما أمر به ونهى عنه ، وفيما حضّ عليه فيه ووعظ : (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون) » .

وواضح من هذا الاستهلال للمنشور مدى ما كان يأخذ به إبراهيم بن العباس نفسه من الاحتفال بصناعة الكلام . فهو لا يكتب ما يرِدُّ على ذهنه عنثواً ،

بل هو يفكر فيما يكتب ، ويختار له الألفاظ الجزلة الناصعة مُحَدَّثًا بينها ضروبًا من التلاؤم بحيث يبدو كلامه مقطوعًا ، وإن لم يتخذ شكل تقطيع السجع ، وهو بذلك أقرب إلى ذوق أسلوب الازدواج الذي يوازن بين العبارات دون أن يُحِيلها سجعًا وتنميقًا خالصين . وكان من أحداث خلافة المتوكل ثورة إسحق بن إسماعيل في شبلى أرمينية وإحراقه لمدينة تفليس سنة ٢٣٨ وقد نازلته جيوش المتوكل ، وهزمت هزيمة ساحقة ، وأُخِذَ أسيرًا ، فضربت عنقه وصُلِبَت جثته وحُمِلَ رأسه إلى سامراء . ولإبراهيم بن العباس رسالة في هذا الفتح نوّه بها القدماء ، وفيها يقول ^(١) :

« قَسَمَ اللهُ عَدُوَّهُ أَقْسَامًا ثَلَاثَةً : رُوحًا مَعْجَلَةً إِلَى عَذَابِ اللهِ ، وَجُثَّةً مَنْصُوبَةً لِأَوْلِيَاءِ اللهِ ، وَرَأْسًا مَنْقُولًا إِلَى دَارِ خِلَافَةِ اللهِ ، اسْتَنْزَلُوهُ مِنْ مَعْقَلٍ إِلَى عَقَالٍ (أَغْلَالٍ) وَبَدَّلُوهُ آجَالًا مِنْ آمَالٍ ، وَقَدِيمًا غَدَّتْ الْمَعْصِيَةُ أَبْنَاءَهَا ، فَحَلَبَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ دَرَّهَا (لِبْنِهَا) مُرْضِعَةً ، وَبَسَطَتْ لَهُمْ مِنْ أَمَانِيهَا مَطْمَعَةً ، وَرَكِبَتْ بِهِمْ مَخَاطِرَهَا مُوَضِّعَةً (مُسْرَعَةً) حَتَّى إِذَا وَثِقُوا فَأَمْنُوا ، وَرَكَبُوا فَاطْمَأَنُّوا ، وَانْقَضَى رِضَاعُ وَآنِ فِطَامٍ ، سَقَتَهُمْ سُمًّا ، فَفُجِّسَتْ بِجَارِي أَلْبَانِهَا مِنْهَا دَمًا ، وَأَعْقَبَتْهُمْ مِنْ حُلُوِّ غَدَائِهَا مُرًّا ، وَنَقَلَتْهُمْ مِنْ عِزٍّ إِلَى ذُلٍّ ، وَمِنْ فَرَحَةٍ إِلَى تَرَحُّعٍ ، وَمِنْ مَسْرَةٍ إِلَى حَسْرَةٍ ، قَتَلَتْ وَأَسْرَتْ ، وَغَلَبَتْ وَقَسَّسَتْ ، وَقَتْلَ مَنْ أَوْضَعَ (أَسْرَعَ) فِي الْفِتْنَةِ مُرْهِجًا (مُثِيرًا) وَاقْتَحَمَ لَهْبَهَا مُؤَجِّجًا ، إِلَّا اسْتَلْجَحَسَتْهُ (تَبَعَتْهُ) آخِذَةً بِمَخْنَقِهِ (بِحُلْقِهِ) وَمُوَهَّنَةً بِالْحَقِّ كِيدَهُ حَتَّى جَعَلْتَهُ لِعَاجِلِهِ جِزْرًا ، وَلَا جَلَّةَ حَطْبًا ، وَلِلْحَقِّ مَوْعِظَةً ، وَعَنِ الْبَاطِلِ مَزْجَرَةً ، أَوَّلْتُكَ لَمْ خِزِي فِي الدُّنْيَا ، وَلِعَذَابِ الْآخِرَةِ أَكْبَرَ ، وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ » .

وبلاغة الصولى التى اشتهر بها واضحة فى هذه الرسالة ، فهو يُعَنِّى بكلامه محملاً له معانى غزيرة ، ومُطَرِّفًا فيه بكل ما يستطيع من تقسيم على نحو ما صنع أول هذه النقرة . وهو يضيف إلى ذلك مقابلة بين المعانى تنتهى إلى الطباق ، فقد كان إسحق بن إسماعيل فى معقل فأصبح فى عقال ، وكان فى آمال وحياة رغدة فأصبح فى آجال وموت رهيب . ويضيف إلى ذلك الصور ، فقد أرضعتهم

المعصية من لبنها وأطعمتهم باسطة لهم في الأمانى العذاب ، وأسرت بهم مخاطرهما . وكل تلك صور متلاصقة . ثم يسوق عبارة كأنها مثل من الأمثال ، إذ يقول . انفضى رضاع وأن فطام . والكناية واضحة . وعاد إلى التصوير ، وكأنما يريد أن يرسم لوحة ذات خطوط وظلال وأضواء . ويعود إلى الطباق ، فيضع الرضاع مع الفطام والمر مع الحلو والدل مع العز والترحة مع الفرحة والحسرة مع المسرة . ثم يعود ثالثة إلى التصوير ، وكأنما الفتنة جحيم يتأجج باللهب ، وتعم حتى لتأخذ بمخدق كل شخص ، وحتى تجعله في دنياه جزراً وقطعاً من اللحم تنوشها السباع ، أما في الآخرة فتجعله حطباً ووقوداً للنار . ويختم الفقرة بأى من القرآن . والطباق اللون البديعى العبقلى الذى كان يروع العباسيين يكثر فيها ، كما يكثر التصوير ، وكأن إبراهيم بن العباس يريد أن يثبت إبداعه باستخدام فنون البديع التى كانت تخلب معاصريه ، فهو يبدؤها بالتقسيم ، وهو يشيع فيها الجناس كما يشيع الطباق على نحو ما يتضح فى مثل : معقل وعقال وآجال وآمال ، وفرحة وترحة وأسراً وقسراً وعاجل وآجل . ومضى يوغل فى الموازنة بين عباراته ، وإذا هو لا يكتفى بما قد يحدث فيها من تقطيعات صوتية ، إذ يطلب ازدياداً فى التلاؤم وفى الجرس ، فليس يكتفى أن تتقابل العبارات وتتوازن ، بل يحسن أن تلتحم نغماتها وإرنائاتها ، فإذا هو يكثر من السجع وترصيفه . واحتفظت كتب الأدب بتحميده لهذه الرسالة ، وهو يمتضى فيه على هذا النحو^(١) :

« الحمد لله معز الحق ومُديله (ناصره) وقامع الباطل ومُزيله ، الطالب فلا يفوته مَنْ طلب ، والغالب فلا يعجزه مَنْ غلب ، مؤيد خليفته وعبد ، وناصر أوليائه وحزبه ، الذين أقام بهم دعوته ، وأعلى بهم كلمته ، وأظهر بهم دينه ، وأدال بهم حقه ، وجاهد بهم أعداءه ، وأثار بهم سبيله ، حمداً يتقبله ويرضاه ، ويوجب أفضل عواقب نصره ، وسواغب نعمائه » .

والتحميد يحمل نفس الخصائص المبثوثة فى الرسالة ، وفيه اتجاه واضح نحو السجع وأن الكاتب يريد أن يسلط كلامه الأسماع والآذان ، كما يسلط العقول والأذهان ، بملاأماته بين الكلمة والكلمة فى الجرس ، وبما يستخدم من طباقات

وجناسات وتصويرات مختلفة . ولم تصلنا رسالة الخميس التي كتب بها إلى الولايات المختلفة بتولى المتوكل الخلافة ، ولكن وصلنا التحميد الذي وضعه في صدرها على هذا النحو ^(١) :

« أما بعد فالحمد لله الذي جعلت نعمه ، وتظاهرت منسئه ، وتتابع آياديه ، وعمَّ إحسانه ، إله كل شيء وخائقه ، وبارئهم ومصورهم ، والكائن قبله ، والباقي بعده ، كما قال في كتابه : (كلُّ شيء هالكٌ إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون) العالی فی مشیتته والقاهر فوق عباده المتعالی عن شبه خلقه : (ليس كمثل شيء وهو السميع البصير) خلق العباد بقدرته ، وهداهم برحمته ، وأوضح لهم السبيل إلى معرفته ، بما نصَّب لهم من دلائله ، وأراهم من عيبره ، وصرفهم فيه من صنعه ، كما قال جلَّ جلاله : (الذي أحسن كلَّ شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ، ثم سوَّاه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون) . وذلك كله من خلقه إياهم بتمثيله ما مثل لهم من الدلائل التي نصبها لهم والأعلام التي جعلها إزاء قلوبهم وأسماعهم وأبصارهم ، ويسرَّ لهم خواطرهم وفكرهم ، والهيئة التي هيئها لهم ، ليقع الأمر والنهي عليهم ، فلا يكلفهم فوق طاقتهم ، ولا يجشدهم ما يقصُر عنه وسعهم ، نظراً منه تبارك وتعالى إليهم ، ورحمةً بهم ، ليؤمنوا به ويعبدوه ، فيستحققوا به رحمته ورضوانه والحدود في النعيم المقيم والظلَّ المديد والعيش الدائم ، كما قال تعالى ذكره : (إلاَّ من رَحِمَ رَبُّكَ ولذلك خلقهم) . وكان من نظره ورأفته بهم أن بعث فيهم أنبياءه ورسله ، يدعونهم إلى طاعته ، ويبينون لهم هُداه ، ويوضحون لهم سبيله ، وينذرونهم إلى رحمته ، ويعلمونهم ثوابه ، وينذرونهم عقابه ، ويبسِّطون لهم توبته ، ويحذرونهم سخطه ، ويبينون لهم سنَّته وشرائعه ، ويكشفون لهم مواعظه ، ويعلمونهم كتابه وحكمته ، كما قال تبارك وتعالى : (لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيِيََا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ) وكان من رأفته بهم ونظره لهم أن بعثهم إليهم بالحجج الظاهرة ، والأعلام البَيِّنَة ، والشواهد الناطقة التي أظهر بها صدقهم ، وأقام بها

برهانهم ، وأوضح بها دليلهم ، وأثابهم عمل سواهم ليكون أدعى لهم إلى تصديقهم والقبول عنهم ، وأؤكد للحجة على من أبى ذلك منهم .

والتحميد يدور على موضوعين أساسيين هما : نعم الله وآلاؤه على الناس إذ بسط لهم الأسباب في الهدى والرشاد ، ونعمه أيضاً وآلاؤه إذ أرسل لهم الرسل مبشرين ومنذرين . ونراه في مستهل تحميده يشير إلى تنزيه الله عن شبه خلقه ، وهو أصل من الأصول الأساسية عند المعتزلة ، فهو منزّه عن التحيز في جوهر وعرض ، لا يدركه حس ولا يحيط به خيال ، منزّه عن كل شبه بالآدميين في خصالهم وصفاتهم . وليس من الضروري أن يكون من المعتزلة ، فيكفي أن يكون على صلة بمباحثهم ، وهو ما نريد إثباته ، فالتحميد كله كأنما كتبه اعتزالي كبير إذ كانوا يتكلمون كثيراً عن تنزيه الله في صفاته وذاته وإبداعه للكون والإنسان بما يشهد بعظمته وقدرته . وكانوا يستمدون ذلك كله من القرآن وما دعا إليه من التأمل في النظام الكوني وما بَشَّ الله فيه من آيات تدل على وحدانيته وقدرته الباهرة . ويصور القرآن كما في آيات خلق الإنسان التي اقتبسها الصولي كيف أنشأ الله الخلق إنشاءً بديعاً وكيف أودع فيهم من ملكات السمع والبصر والأفئدة ما يحقق لهم جميع حاجاتهم وكما لا تنهم ، وإنه لحري بهم أن يستغلوا هذه الملكات ليستقر في نفوسهم الإيمان بالكائن الأعلى . ويبسّ الصولي هذه الفكرة في الشطر الأول من تحميده . ويخرج منها إلى الفكرة التي طالما كررها المعتزلة فكرة أنه كان من رحمة الله بالناس أن أرسل إليهم الرسل ليهدهم إلى طريق الحق والخير ، إذ لم يخلقهم عبثاً ولا دون غاية سامية ، فقد خلقهم ليتبعوا هداياه ، وليقع الأمر والنزى عليهم ، فكان لا بد لهم من رسل يوضحون لهم سبل الهدى ، حتى يعرفوا العمل الصالح وما ينظرهم في الآخرة من ثواب وعقاب ، مبينين لهم السنن والشرائع التي تكفل لهم السعادة في الدارين ، وكيف أن من يجور عن الطريق يحق عليه العذاب لإلّا من تاب وأتاب فإن الله غفور رحيم . وقد صاغ إبراهيم بن العباس هذه المعاني في ألفاظ جزالة رصينة ، يجري فيها التقطيع الصوقي الذي ذكرناه آنفاً ، وإن لم يبلغ مداه في الرسالة السابقة ، إذ لم يتحول به إلى إرئانات السجع التي شاعت فيها ، وكأنما كان مشغولاً هنا عن السجع بالمعاني التي أثارها في تحميده والتي جعلته يتدبّل ببعض

آى الذكر الحكيم. وبالمثل كان مشغولاً عن الجناسات والطباقات والصور إلا ما جاء في النادر وعفو الخاطر. ومن تحميداته في أحد الفتوح (١) :

« الحمد لله الغالب ذى القدرة ، والقاهر ذى العِزَّة ، الذى لم يقابل بالحق باطلاً في موطن من موطن التحاكم بين عبادِه إلا جعل أولياء الحق منهم حِزْبَه وجُنُودَه ، وجعل الباطل بهم فِتْلاً (هزيمًا) منكوبًا ، ودَحِيضًا (باطلاً) زَهُوقًا إن نهض به أولياؤه كانت مراصد عواقبه مفرقةً مَجْمُوع ، ومبترةً (مستأصلة) ما أعدَّ ، وقائدةً بأشياعه إلى مَصْرَع الظالمين ، حتى يكون الحق الطالب الأعزُّ والباطلُ المطلوب الأذلُّ ، وأولياء الحق الأعْلِيَّين يَدًا وأَيْدِئاً (قوة) وأشْياعُ الضلال الأَخْسَرِينَ أَعْمالًا وكيدًا ، قضاءُ الله وسنته ، وعادةُ الله وإرادته ، في الفِئَةِ المنصورة أن تَعِزَّ فلا تَرَام ، وأن يَمَكِّنَ لها في الأرض كما مَكَّنَ للذين من قبلها ، وفي الفِئَةِ الناكبة عنه أن تذلَّ ، فتَكُنْ كَلِمَتُهَا السُفْلَى وكَلِمَةُ اللهِ هِيَ العُلْيَا والله عزيز حكيم » .

ونحسُّ قدرته على اصطفاء الكلمات في هذا التحميد ، ولا نصل إلى قوله : « وجعل الباطل بهم فِتْلاً منكوبًا ودَحِيضًا زَهُوقًا » ، حتى يتجسَّد لنا هذا الاصطفاء وأن الكاتب يُعْنَى بالموازنة الدقيقة بين العبارات. ويتضح لنا ذلك أكثر حين نصل إلى قوله : « يكون الحق الطالب الأعزُّ ، والباطلُ المطلوب الأذلُّ ، وأولياءُ الحق الأعْلِيَّين يَدًا وأَيْدِئاً ، وأشْياعُ الضلال الأَخْسَرِينَ أَعْمالًا وكيدًا » وكأن العبارات توضع في صفوف لا في سطور ، لتأخذ كل كلمة بيد أختها ، وكأننا في مرقص للكلمات تتشابك فيه أيديها ، فكل كلمة توشك أن تُمسك بيد أختها في العبارة التالية لعبارتها . فكلمة الحق تتلاقى مع كلمة الباطل ، وتتلاقى كلمة الطالب مع كلمة المطلوب وكلمة الأعز مع كلمة الأذل . وبالمثل تتلاقى في العبارتين التاليتين كلمة الحق وكلمة الضلال وكلمة الأعْلِيَّين يَدًا وكلمة الأَخْسَرِينَ أَعْمالًا . فالكلمات في العبارات تتجاذب تتجاذبًا شديدًا ، في الصوت والجرس والأداء وفي المعاني المتقابلة المتناقضة ، فقد عمَّ فيها الطباق وكأنما أحدث بكثرته بينها نوعًا من صلة القرْبى ووشائج الرحم . وانظر كيف وضع إبراهيم بن العباس كلمة « يَدًا »

بجانب كلمة « أبدأ » طلباً للتلاؤم في الجرس الذي قد يخفى أحياناً ، وأحياناً يتضح وضوح الشمس في كبد السماء . وفي ذلك ما يدل بوضوح على مدى إحكامه لصناعة الكتابة وقدرته على اختيار اللفظ وانتخابه بحيث يروق اللسان والحنان . ويسمى الرسالة باقتباس من القرآن الكريم ، ويكثر عنده اصطناعه لبعض ألفاظه الموثقة كقوله في هذا التحميد : « الأخسرين أعمالاً » . ودائماً نحس عنده القدرة على استخدام العبارة المُنطبعة والأخرى الجملة الموجزة ، حتى لكأنما يصوغ أمثالا كما أشرنا إلى ذلك آنفاً . ومن خير ما يصور ذلك عنده رسالة كتب بها لسنة ٢٤٠ عن المتوكل إلى أهل حمص حين ثاروا على عامل المعونة وقتلوا جماعة من أصحابه وأخرجوا صاحب الخراج من مدينتهم ، والرسالة تمضى على هذا النمط (١) :

« أما بعد فإن أمير المؤمنين يرى من حق الله عليه ، مما قوم به من أود (عوج) وعدل به من زيغ ، ولم به من منتشر ، استعمال ثلاث ، يقدم بعضهن على بعض ، أولاهن ما يتقدم به من تنبيه وتوقيف ، ثم ما يستظهر به من تحذير وتخويف ، ثم التي لا يقع حسم الداء بغيرها :

أناة فإن لم تُغن عَقَبَ بعدها وعيداً فإن لم يُغنِ اغْتَت عَزَائِمُهُ »

وقرأ إبراهيم بن العباس الرسالة على المتوكل فلأت نفسه إعجاباً ، وأوأ إلى وزيره عبيد الله بن يحيى بن خاقان — وكان حاضراً — أما تسمع ؟ فقال : يا أمير المؤمنين إن إبراهيم فضيلةٌ نخبأها الله لك ، وذخيرةٌ ذخَرها على دولتك . ويقال إن البيت في هذه الرسالة أول شعر نفذ في كتاب عن الخلفاء العباسيين . والمتوكل إنما أعجب بالرسالة لأن إبراهيم أدنى الغرض الذي كانت تُكَنِّبُ فيه الرسائل الطويلة بأوجز عبارة دون أى تقصير ودون أى إخلال ، بل مع الوفاء به إلى أبعد حد . وكأننا لا نقرأ صيغاً متعاقبة في رسالة ، وإنما نقرأ حكماً وأمثالا ، الدقة المعاني ودقة أدائها وصياغتها ، وقد أجرى فيها ضرباً من التقطيعات الصوتية ، وإن لم تأخذ الصورة النهائية على نحو ما يتضح في أوائلها ، ولم يابث أن أضاف فيها سجعاً طريفة ، كما أضاف صورة بديعة إذ عبّر عن الحرب بحسم الداء . والكتاب يحق

يصور مراناً طويلاً على استخدام الكلام ووضع في مواضعه ، بل قل إنه يصور خبرة طويلة امتدت عشرات السنين . ومن طراز هذه الرسالة رسالة أكثر منها قِصراً كتب بها في شفاعة إلى أحد أصدقائه يزكّي رجلاً يستحق العناية به^(١) :

« فلانٌ ممن يزكو (ينمو) شكره ، ويحسن ذكره ، ويعينني أمره ، والصنيعة عنده واقعةٌ موقعها ، وسالكةٌ طريقها :

وأفضل ما يأتيه ذو الدين والحجى إصابةٌ شكرٍ لم يضع معه أجرٌ »

والرسالة موجزة ولكنها تؤدّي الغرض منها أداء واضحاً ، وقد استخدم فيها إبراهيم بن العباس السجع ، وبلغ من شدة تدقيقه في المعنى أن أخرج البيت الذي ضمّته الرسالة مخرج الأمثال . وكان كُتّاب الرسائل يكتبون في عيى الفطر والأضحى رسائل إلى الرعية يبشرونهم فيها بسلامة الخلفاء ، وقد يوجهونها إلى حكام الولايات ليحمدوا الله على سلامة الخليفة ويذكّروهم واجبههم ، من ذلك قوله في رسالة^(٢) :

« أما بعد فإن لكل فرع أصلاً ، عنه مَورِدُه ومُسْتَنْبَطُه ، وإليه مَرَجَعُه ومَوَئِلُه ، ومتى رُجع من أصول الأمور إلى تأصيلها (تأصيلها) وتمكّنها ، رُجع من فروعها إلى استنباطها واستقامتها . وأفضل ما تدبّرهُ أمورُ دين الله وخلافته ، وحقوقُ الله وعباده . فكان الأصلُ وزكاؤه (نماؤه) ما جمع بإذن الله سكون الدّماء (العامة) وصلاح البيضة (الولاية) وأمن السّرب (الجماعة) وتظاهر النعم فيما قُربَ وبَعُدَ ، ودنا ونأى ... فافعلْ ذاك مُعَانَةً على أمرِك » .

والترادف والازدواج واضحان في السطور الأولى من الرسالة ، فورده يليها مستنبطه بنفس المعنى ، وبالمثل مرجعه تليها موئله ، وتأصيلها يليها تمكّنها ، واستنباطها يليها استقامتها . وفي ذلك حرص واضح على إرضاء الأذن ، وفي كلامه عن الأصول والفروع ما قد يشير إلى أنه كان مثقفاً ثقافة فقهية ، وقد جمع الأصول الدالة على حسن الحكم وتدبيره في أربعة : سكون الناس دون إحداث أى فتن أو ثغرات مما يدل على رضاهم عن حاكمهم ، وصلاح الولاية في شئونها السياسية والاقتصادية

(١) الأغاني ١٠ / ٥٣ ومعجم الأدباء ١ / ١٧٨ . (٢) جمهرة رسائل العرب ٤ / ١٨٩ .

والإدارية ، وأمن الناس على نفوسهم ، وظهور النعم عليهم وأنهم لا يُعانون
البؤس والضنك في الحياة . ويكتب باسم المتوكل وأبنائه تعزيات مختلفة ، من ذلك
تعزية باسمه إلى طاهر بن عبدالله واليه على خراسان ، وفيها يقول (١) :

« أما بعد فإن أحقَّ مَنْ أَرْضَى الله في نعمته بشكره وفي مصائبه بالتسليم له ،
مَنْ فَهَّمْ مَا فِي شُكْرِ النِّعَمِ مِنْ اسْتِدْعَاءِ تَمَامِهَا ، وَمَا فِي التَّدَلُّلِ لِلْمَقَادِيرِ مِنْ
اسْتِحْقَاقِ رِضْوَانِهِ ، وَقَدْ جَعَلَ اللهُ مَحَلَّكَ مِنَ الْحَالَتَيْنِ جَمِيعًا مَحَلَّ الْمَتَقَدِّمِ بِنَيْتِهِ
وَمَعْرِفَتِهِ . وَاللهُ يُمَتِّعُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فِيكَ بِصَالِحِ قَسَمِهِ فِيمَنْ مَضَى ، وَالْجَارِيَّ
عَلَى مَنْ بَقِيَ وَيَبْقَى ، حَتَّى يُوَدِّيَ الْفَنَاءُ الَّذِي لَا بَقَاءَ مَعَهُ إِلَى الْبَقَاءِ الَّذِي لَا فَنَاءَ
بَعْدَهُ . وَأَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَعْظُكَ بِاللَّهِ ، وَهُوَ أَحَقُّ مَنْ وَعَظَ بِهِ ، وَيُرْشِدُكَ مِنْ إِيثارِ اللهِ
لَمَّا نَدَبَكَ لَهُ مِنْهُ . . . فَقَدْ تَمَّ حَقُّ اللهِ عَلَيْكَ بِطَاعَتِكَ لَهُ فِيمَا أَمَرَكَ بِهِ ، وَاتَّقِ اللهُ
فِي مَوَاقِعِ أَقْدَارِهِ بِكَ ، تَسْقُتْ نَصْرًا بِذَلِكَ مِنْ ثَوَابِ اللهِ أَفْضَلَ عَرِوضِ الصَّالِحِينَ » .

والرسالة تحمل طائفة من دقائق المعاني ، فواجب الإنسان إزاء ربه شكره على
نعمه واستسلامه لما يُنزل به قضاؤه فإنه بذلك يستحق رضوانه . والله يمتع أمير المؤمنين
به حتى يطوف به طائف الفناء الذي لا بقاء معه ، والذي ينتقل به إلى البقاء الذي
لا فناء بعده . ويقول له : قد تمَّ حق الله عليك بالطاعة له والرضا بقدره ، وبذلك
تستحق ثوابه ، هو خير عوض للراضين المقرّين . وفي كتب الأدب قطع مختارة لإبراهيم
ابن العباس تزخر بالسجع ، ويبدو أنه كان يستخدمه أحياناً في جوانب من
رسائله مُسْتَهْبِئاً فِيهِ ، عَلَى نَحْوِ مَا نَرَى فِي الْقِطْعَةِ التَّالِيَةِ الَّتِي احْتَفَظَ بِهَا يَاقُوتُ فِي
معجم الأدباء إذ يقول :

« وَوَجَدَ أَعْدَاءُ اللهِ زُخْرُفَ بَاطِلِهِمْ ، وَتَعْوِيَةَ كَذِبِهِمْ سَرَائِبًا بِتَقْيِيغَةٍ
(يَحْسِبُهُ الظَّمآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا) وَكَوْمِيضَ بَرْقٍ عَرَّضَ فَأَسْرَعَ ،
وَلَعَّ فَأَطْمَعَ ، حَتَّى إِذَا انْحَسَرَتْ (انْكَشَفَتْ) مَغَارِبُهُ ، وَتَشَعَّبَتْ مَوَاسِيَةُ مَذَاهِبِهِ ،
وَأَيَقُنَ رَاجِيهِ وَطَالِبِهِ ، أَنْ لَا مَلَاذَ وَلَا وَزَرَ ، وَلَا مَوْرِدَ وَلَا صَدَرَ (صُدُورَ)
وَلَا مِنَ الْحَرْبِ مَفْرًا ، هُنَالِكَ ظَهَرَتْ عَوَاقِبُ الْحَقِّ مُنْجِيَةً ، وَخَوَاتِمُ الْبَاطِلِ مُرْدِيَةً ،

(١) جمهرة رسائل العرب ص ١٨٢ .

(٢) معجم الأدباء ١/ ١٩٠ .

سَنَّةُ اللَّهِ فِيهَا أزاله وأداله (هزمه) (ولن تجد لسنة الله تبديلاً) ولا عن قضائه تحويلاً .

والقطعة سجع خالص ، وتحمل اقتباسات من آى القرآن ، وكلماتها منتخبة انتخبها ذوق مرهف ، وتجرى فيها الخصائص التى ذكرنا لإبراهيم بن العباس ، ففيها الازدواج والتكرار فى مثل : « زخرف باطلهم وتمويه كذبهم » ، ومثل « أزاله وأداله » ، وفى الكلمة الأخيرة جناس ناقص . وتلقانا بعض طباقات مثل : « ولا مورد ولا صدر » ومثل « عواقب الحق وخواتم الباطل » ونعثر على بعض صور مثل زخرف الباطل وتمويه الكذب ومثل تشبيه زخرف الباطل بالسراب . وكأنه كان فى نثره مثل شعره وما وصفه به أبو الفرج ، كما مر بنا ، يكتب ثم يختار ، وما يزال يُصْلَحُ ويُسْقِطُ حتى تخرج الرسالة نخبة من الصياغات الأدبية الطريفة . وإله توقيعات بدیعة تدور فى الكتب الأدبية ، فمن ذلك أن بعض الكتاب كتب إليه يذم شخصاً ويمدح آخر ، فوقع فى الرسالة ^(١) :

« إذا كان للمحسن من الجزاء ما يُقْنَعُه ، وللمسئء من النكال ما يَقْصِمُه ؛
بذل المحسن الواجب على رَغْبَةٍ ، وانقاد المسئء للحق رهبة » .

والسجع واضح فى التوقيع ، ولكن المهم طرافة التقسيم . ويقرل المسعودى :
« ولإبراهيم بن العباس مكاتبات قد دونت ، وفصول حسان من كلامه قد جمعت » .
ويروى عنه أنه كان يقول : « مثل أصحاب السلطان مثل قوم علوا جبلاً ثم وقعوا منه ، فكان أقربهم إلى التلف أبعدهم فى الارتقاء » ^(٢) . ويذكر ياقوت له ديوان شعر وديوان رسائل ، وفى الحق أنه كان كاتباً بليغاً بلاغة رائعة .

(١) جمهرة رسائل العرب ٤ / ٤٦١ .

(٢) مروج الذهب ٤ / ٢٦ .

الملاحظ (١)

اشتهر بلقبه الدال على نتوء حنك قسّيته وجحوظهما ، واسمه أبو عثمان عمرو بن بحر . وقيل إنه من كنانة ، وقيل بل هو كنانى ولأه وإن جدّه فزارة كان عبداً أسود جسمًا لعمرو بن قلع الكنانى . واختلفت في السنة التي وُلد فيها ، على حين اتفق الرواة على أنه توفي سنة ٢٥٥ للهجرة ، والمظنون أنه وُلد في العقد السادس من القرن الثاني للهجرة ، وكأنه عاش ما يقرب من مائة سنة ، ويروى عنه أنه قال في أواخر حياته يشكو من الفالج (الشلل) والقرس (الروماتزم) : « أنا في هذه العلل المتناقضة التي يتخوّف من بعضها التلف ، وأعظمها ست وتسعون سنة » (٢) . وليس بين أيدينا شيء واضح عن نشأته إلا أنه نشأ بالبصرة ممسقط رأسه ، وفي مطالع الجزء الثاني من كتابه « الحيوان » ما يشير إلى أنه كان يختلف إلى بعض الكتاتيب مع ليداته من الصبّية ، وكانوا يتعلمون فيها القراءة وشيئًا من النحو والفقه والحساب ، ويحفظون بعض القرآن وبعض الأشعار ، حتى إذا شَبَّ عن الطوق مضى إلى المساجد يستمع إلى محاضرات العلماء فيها ، وكانوا يحاضرون في كل فن ، وكانت أشبه بحامعات مفتوحة الأبواب لكل من أراد الدرس . وقد أخذ يلتهم كل ما يسمعه فيها من فقه وعلوم شريعة ومن نحو وعلوم لغة ومن مناقشات وخواصات بين المتكلمين من كل الفرق . وكان يختلف إلى المربد يأخذ عن فصحاء العرب اللغة وبعض ما ينشدونه من الأشعار ، وكان المربد سوقًا تجارية وأدبية كبيرة منذ

الاعتدال ٢٤٧/٣ وضحي الإسلام لأحمد أمين
١ / ٣٨٦ وكتابتنا الفن ومذاهبه في التراث العربي
ص ٥٤ وبالمخطوطات الحجازية (طبع دار المعارف)
والملاحظ لشارل بلات (طبع دار اليقظة العربية
للتأليف والترجمة والنشر) .
(٢) تاريخ بغداد ١٢ / ٢١٩ ومعجم الأدباء
١٦ / ١١٣ .

(١) انظر في الملاحظ وحياته وأخباره
وثقافته الفهرست ص ١٧٥ وتاريخ بغداد
١٢ / ٢١٢ ومروج الذهب ٤ / ١٠٩ ومعجم
الأدباء ١٦ / ٧٤ وزهرة الألباء لابن
الأنباري وابن خلكان في عمرو ورواة الجنان
لليافعي ٢ / ١٥٦ وأمالى المرتضى ١ / ١٩٤
ولسان الميزان ٤ / ٣٥٥ والأنساب الورقة ١١٨ وميزان

العصر الأموي . وفي أخباره أنه كان يبيع الخبز والسمك بسيحان^(١) أحد نهيرات البصرة ، وقد يشير ذلك إلى أن نشأته كانت بسيطة ، وأنه كان في حاجة إلى أن يكتسب معاشه . ويروى أن أمه ضاقت بانهماكه في الدرس والقراءة ، فطلب منها يوماً طعاماً ، فجاءته بطبق مليء بكراريس أودعها البيت ، وقالت له : ليس عندي من طعام سوى هذه الكراريس ، تريد أن تنبهه إلى التكبس . فذهب إلى الجامع مغتمماً ، ولقيه مؤيس بن عمران أحد رفاقه الأثرياء في الدرس ، فسأله ما شأنك ؟ فحدثه بحديث أمه ، فأخذه إلى منزله وأعطاه خمسين ديناراً ، فأخذها فرحاً ، ودخل السوق ، واشترى الدقيق وحمله الحمّالون إلى داره ، وسألته أمه من أين لك هذا ؟ فقال لها من الكراريس التي قدّمتها لي^(٢) . وكان مؤيس بن عمران كان رمزاً مبكراً لما سيصيبه من أموال وعطايا من الخلفاء والوزراء .

ولم تقف ساحات تثقفه عند المسجد والمربد وما كان يأخذه عن جليلة العلماء أمثال الأصمعي وأبي زيد والأخفش وأبي عبيدة أصحاب اللغة والأخبار ولا عند أبي الهذيل العلاف وبشر بن المعتمر وثمامة بن أشرس والنظام من المعتزلة ، ولا عند كبار الفقهاء والحدّثين في عصره ، بل امتدت إلى كل فروع الثقافة ، عن طريق المكتبات ، وكان الكتاب بمجرد أن يؤلّف أو يترجم في البصرة أو في بغداد تتكاثر نسخه في أيدي الوراقين أصحاب المكتبات ودكاكين الكتب . ومعروف أن البصرة كانت دار الترجمة قبل نشوء بغداد وفيها ترجم ابن المقفع كليلية ودمنة وكتب الآداب الفارسية ومنطق أرسططاليس ، وبهذه الثقافة العلمية التي حققتها لنفسها مبكرة استطاعت أن تضع علم النحو وقوانينه النهائية ، كما استطاعت أن تظفر بالمعتزلة أصحاب الفكر الحر في الدراسات الدينية ، وصلة المعتزلة بالفلسفة مقررة معروفة ، ولذلك يكون من الخطأ أن يزعم زاعم أن الجاحظ لم يقرأ الترجمات اليونانية إلا في بغداد^(٣) بعد أن تجاوز الأربعين من عمره ، حين دخلها وأقام فيها لعهد المأمون ، فقد كانت تحت بصره في دكاكين

(٢) الجاحظ لشارل بلات ص ١١٥ وفي

مواضع متفرقة .

(١) معجم الأدباء ١٦ / ٧٤ .

(٢) المعتزلة لابن المرتضى ص ٣٨٠ .

الوراقين ، ولم يكن يكتفى بقراءة كتاب أو كتب في اليوم الواحد ، إذ يذكر صاحب الفهرست أنه كان يكتري دكاكين الوراقين ويبيت فيها للقراءة والنظر^(١) . ويقول أبو هيفان : « لم أرقط ولا سمعت من أحب الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ ، فإنه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته كائن ما كان »^(٢) . وكان أشبه بآلة مصورة فليس هناك شيء يقرؤه إلا ويرسم في ذهنه ، ويظل في ذاكرته آماداً متطاولة . ومن أكبر الدلالة على شغفه بالقراءة والكتب المقدمة الطويلة التي وضعها بين يدي كتابه الحيوان ، وهي نحو مائة صفحة في تمجيد الكتب ، وقد ضمنها فهرست كتبه الكثيرة التي صنّفها قبل الحيوان .

وكان من أهم ما شُغف به الاعتزال ، وقد مضى يلزم أساتذته في عصره ، ويستوعب كل ما كان عندهم ، بادئاً بأبي الهذيل العلاف ، وكلما اشتهر معتزلي لزم حلقة ، وكان من أهم من لزمهم النظام^(٣) ، وكان لا يبارى في المناظرة وإفحام الخصوم بالبراهين والأدلة القاطعة ، فتلقّن ذلك عنه ، وسراه يطبقه في كل جانب من جوانب كتاباته الكثيرة ، وفيه يقول : « لولا مكان المتكلمين هلكت العوام من جميع الأمم ، ولولا مكان المعتزلة هلكت العوام من جميع النحل ، وأقول لولا أصحاب إبراهيم ، وإبراهيم (النظام) هلكت العوام من المعتزلة فإنّي أقول إنه قد أنهج لهم سُبُلاً وفق لهم أموراً واختصر لهم أبواباً ظهرت فيها المنفعة وشملت بهم بها النعمة »^(٤) وكان النظام يمزج بقوة بين الاعتزال والفلسفة ، وكأنه هو الذي دفع الجاحظ دفعاً للتردد من جدالهما بكل ما استطاع . ويبدو أنه هو الذي غرس في نفسه فكرة الثقافة الموسوعية فإن ما رواه عنه في كتابه « الحيوان » يدل على أنه كان مستوعباً لكل الثقافات في عصره من فارسية وهندية وعربية وإسلامية . وهدهاء طول تفكيره في آراء أساتذته الاعتزالية وغيره من المعتزلة إلى أن يعتنق مجموعة من الآراء ورّثت له فرقة سميت بالجاحظية نسبة إليه ، ويعرض الحياط المعتزلي في كتابه الانتصار طائفة من هذه الآراء ، ويشيد بكتابه فضيلة المعتزلة طويلاً^(٥) . ولا نعرف متى بدأ الجاحظ كتاباته

(٥) الانتصار ص ١٠٣ وانظر في آراء

الجاحظ فهرس هذا الكتاب والفرق بين الفرق

للبيهادي ص ١٧٥ .

(١) الفهرست ص ١٧٥ .

(٢) معجم الأدباء ١٦ / ٧٥ .

(٣) معجم الأدباء ١٦ / ٧٥ .

(٤) الحيوان ٢٠٦ / ٤ .

ويبدو أنه كان يتلقى كثيراً من الإهمال في أول أمره ، حتى كان يضطر حين يؤلف كتاباً أو رسالة أن ينسب عمله إلى بعض الكتاب القدماء النابيين أمثال ابن المقفع أو الخليل أو العتّابي أو سلتهم صاحب بيت الحكمة ، حينئذ كان الكتاب يروج ، ويأتى الناس لروايته^(١) عنه . وكان زملاؤه وأساتذته من المعتزلة يعرفون فضله ، وفي مقدمتهم بشر بن المعتز وشماعة بن أشرس ، حتى إذا شغل المأمون بعقيدة الإمامة ومستحقيها من العباسيين أو الشيعة بعد رجوعه من مرو إلى بغداد أشار عليه شماعة بأن يطلب إلى الجاحظ الكتابة في هذا الموضوع ، وكتب الجاحظ وأعجب المأمون إعجاباً لا حدَّ له بما كتب^(٢) ، وكان ذلك فاتحة عهد جديد للجاحظ ، لا لأنه تحول من البصرة إلى بغداد ، ولكن لأنه أصبح كاتباً رسمياً للدولة ، ونظن ظناً أنه أصبح له راتب منذ هذا التاريخ ، ويقال إن المأمون حاول أن يقلده ديوان الرسائل ، ولكنه لم يستطع المقام به سوى ثلاثة أيام^(٣) ، عاد بعدها إلى صناعته من التأليف والكتابة الأدبية ، مكتفياً - فيما يبدو - براتبه . وربما كان قبّحه الذي عُرِف به هو السبب الحقيقي في أنه وجد وظيفة ديوان الرسائل لاتلائمه . وفي بغداد طاب له المقام وأخذ يتعرف على بيئاتها الأدبية والعلمية في النوادي والمساجد وحلقات الدرس والمناظرة . وتتحول الخلافة إلى سامراء في عهد المعتصم ، ويتحوّل معها الجاحظ ، ويتخذ سامراء دار مقام له وتتوثق الصلة بينه وبين وزير المعتصم ابن الزيات الكاتب الشاعر المشهور ، وفيها يتعرّف على كثير من الأدباء ، وخاصة أصحاب الفكاهات والنوادر من أمثل أبي العيّن والجسمّاز وغيرهما من المضحكين ندماء الخلفاء ، وجعلته صالته بابن الزيات يقف في صفه ضد خصمه أحمد بن أبي دؤاد قاضى القضاة ، ولا يلبث المعتصم أن يتوفى ويتبعه ابنه الواثق وتصير الخلافة إلى المتوكل ، وكان يضطّغين على ابن الزيات أموراً كثيرة مما جعله يقبض عليه ويعذّبه في تسنور حمى بالنار حتى يموت . ويقرب المتوكل في هذه الأثناء ابن أبي دؤاد ، ويرسل في طلب الجاحظ ، ويأتونه به مقيّداً ، يأخذ في تعنيفه ، ويقول له الجاحظ :

(٢) البيان والتبيين ٣ / ٢٢٣ .

(٣) معجم الأدباء ١٦ / ٧٨ .

(١) مجموعة رسائل الجاحظ (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ١٠٨ .

« خَفَضَ عَلَيْكَ - أَيَّدَكَ اللَّهُ - فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَكُونَ لَكَ الْأَمْرُ عَلَى خَيْرٍ مِنْ أَنْ يَكُونَ لِي عَلَيْكَ ، وَلَأَنْ أَسْئَرَ وَتَحْسَنَ أَحْسَنُ مِنْ أَنْ أَحْسَنَ فَتَسْئَرَ ، وَأَنْ تَعْفُو عَنِّي فِي حَالِ قَدْرَتِكَ أَجْدَلُ مِنْ الْإِنْتِقَامِ مِنِّي » . وعفا عنه ابن أبي دؤاد^(١) . ولا نلبث أن نرى الفتح بن خاقان وزير المتوكل شغوفاً به وبمجالسته ونراه يكتب إليه بأمر من المتوكل أن يصنف رسالة في الرد على النصارى^(٢) ، ويغلب أن يكون هذا التكليف في سنة ٢٣٥ ، وهى السنة التى أخذ فيها المتوكل النصارى وأهل الذمة بلبس الطيالس كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع . وكان مهمته كاتباً رسمياً للدولة ظلت قائمة منذ مطلع القرن الثالث الهجرى حتى هذا العام . ولا بد أن الدولة كانت تكفيه عيشه كما كانت تكفى كثيرين من العلماء والشعراء ، وكان حين يُهْدَى الوزراء والقُوداد وكبار الكتّاب بعض كتبه يُهْمَدُونَهُ بعض أموالهم ، فقد أهداه ابن الزيات خمسة آلاف دينار على كتابه الحيوان حين قدّمه إليه ، وبالمثل صنع ابن أبي دؤاد حين أهدى إليه كتاب البيان والتبيين وإبراهيم بن العباس الصولى حين أهدى إليه كتاب الزرع والنخيل . وكان قليل من المال يسدُّ حاجته ، إذ لم يتزوج ولم يرزق الأولاد ، إنما هو وجاريتان ، وهذا كل ما هناك . ويظهر أن مرض الفالج (الشلل) ألمَّ به مبكراً ولكنه لم يُفْعِلْهُ عن الحركة ولا عن الكتابة ، فقد ألّف كتاب الحيوان الذى قدّمه لابن الزيات المتوفى سنة ٢٢٣ للهجرة وهو مفلوج^(٣) ، وبالمثل البيان والتبيين والزرع والنخيل وكثير من رسائله الأدبية . وأصابه النقرس وطال به العُمر ، وإذا صح أنه صاحب الفتح بن خاقان فى زيارته لدمشق سنة ٢٤٣ فإنه يكون قد ظل محتفظاً بقواه على الأقل حتى هذا التاريخ . وحين اشتد به المرض عاد إلى البصرة وأمضى بها بقية حياته . ويقول المبرد : « دخلت على الجاحظ فى آخر أيامه . فقلت له : كيف أنت ؟ فقال : كيف يكون من نصفه مفلوج لو حُزَّ بالمنشير ما شَعَرَ به ، ونصفه الآخر منقرس لو طار الذباب بقربه لآله » . ووجه إليه المتوكل فى سنة ٢٤٧ شخصاً يحمله إليه ، فقال : « وما يصنع أمير المؤمنين بامرئ ليس بطائل ، ذى شِقِّ مائل ، ولُعَاب سائل ، وعَتَقْل حائل^(٤) ! » .

(٣) ذيل زهر الآداب للحصرى ص ١٦٥ .

(٤) انظر فى الخبرين السابقين معجم الأدباء ١٦ / ١١٣ .

(١) معجم الأدباء ١٦ / ٧٩ .

(٢) معجم الأدباء ١٦ / ٩٩ وما بعدها
ونراه فى كتابه إليه يشير إلى راتب شهرى
معلوم كان يجرى على الجاحظ .

ويُعَدُّ الجاحظ أكبر كاتب ظهر في العصر العباسي ، وهو في الحق الثمرة الناضجة لكل الجهود العقلية الخصب التي نهض بها المعنزة ، سواء من حيث وضوح المنطق أو من حيث قوة الاستدلال أو من حيث القدرة على التوايد للمعاني ، وكأنه يستمد من مخازن عقلية لا تنفد ، ولاحظ ذلك ابن المعتز وغيره من القدماء عنده ، فقالوا إنه يستخدم المذهب الكلامي في كتاباته^(١) ، ويريدون به قوة الحجة المنطقية والقدرة على التسبب والتعليل ، وكأنما يأخذ من نهر لا ينضب ، نهر لا يزال يجلب منه الحجة ونقيضها ، تُسَعِّفه في ذلك قدرة على الجدل والحوار لا تتوقف عند حد ، ومن أجل ذلك قال ابن العميد عنه عبارته المأثورة : « إن كتب الجاحظ تعلم العقل أولاً والأدب ثانياً » بما يستنبطه من خفيات المعاني وما يثيره من دقائق الفكر في الروح والجسم والحواس والخير والشر والجرم والعرض ، بل أيضاً من خفايا المجتمع الذي عاشه وظواهره وما فيه من أخلاق وغير أخلاق مما يتصل بطبقاته الشعبية من لصوص ومُكْدِنٍ ورقيق وغير رقيق وقيان وغير قيان وما يتصل بطبقاته الوسطى من تجار وموظفين في الدواوين وعلماء وشعراء وما يتصل بطبقاته العليا الحاكمة وغير الحاكمة من خلفاء ووزراء ورؤساء دواوين وقضاة وقواد وما يتصل بأهل الدمة من الخبوس والنصارى واليهود ، وما يتصل بالحيوان وبالنبات وبالعرب والعجم وفصائل الشعوب ، وكأنك تدور في كتاباته بمتحف لا تزال تفجؤك فيه الطرف والصور . وتارة يعرض عليك مسألة كلامية معقدة ، وتارة يعرض حادثة من حوادث الحياة اليومية في البصرة أو في بغداد أو في سامراء ، ومرة يطوف بك في ردهات الفكر العميق أو في بعض آي القرآن ، ومرة يطوف بك في شوارع المدن السابقة وأزقتها وحوانيتها الصغيرة والكبيرة ودور النخاسة ومن فيها من الجوارى ، وهو في هذا كله لا تفوته قسمة وجه ولا إشارة يد ولا دخيلة نفس .

وبجانب هذا الفكر المنطلق في البحث وفي الوصف وفي الرواية الذي يتقل لك الواقع بكل شياته وسماته ، وكأنك بإزاء أشرطة سينمائية تعرض عليك كل ما في مدن العراق الكبيرة من صور الحياة في أشدها ترفاً ونعيماً وأشدها بؤساً وضنكاً ، حتى وكأنما كتبه دائرة معارف لكل ما كان هناك من أزياء وعادات ومستوى معيشة وأخلاق . ويبلغ من قلة لواقع مجتمعه أنه كان لا يتحرج من ذكر أي شيء حتى

(١) كتاب البديع لابن المنز (طبعة

كراتشيوسكي) ص ٥٣ .

العورات أحياناً ، ويعلن ذلك في صراحة صريحة دون أى مواربة إذ يقول : «وبعض الناس إذا انتهى إلى ذكر (العورات) ارتدع وأظهر التقزز واستعمل باب التورع ، وأكثر من تجده كذلك فإنما هو رجل ليس معه من العفاف والكرم والنبل والوقار إلا بقدر هذا الشكل من التصنع ، ولم يكشف قط صاحب رياء ونفاق إلا عن لؤم مستفحل ونذالة متمكنة .^(١)»

وبجانب ذلك لا يزال الجاحظ يحاول إطفافك بالنوادر المضحكة ، وكان القدماء يلاحظون ذلك بوضوح ، حتى ليقول المسعودى : «كتب الجاحظ مع انحرافه المشهور (يريد خصومته للشيعية ، وكان المسعودى متشيعاً) تجلو صدى الأذهان وتكشف واضح البرهان ، لأنه نظمها أحسن نظم ، ورصفها أحسن رصف ، وكساها من كلامه أجزل لفظ ، وكان إذا تخوف مال القارئ وسامة السامع خرج من جيد إلى هزل ، ومن حكمة بليغة إلى نادرة ظريفة^(٢)» ويصور ذلك الجاحظ نفسه فيقول : «وليس ينبغي لكتب الآداب والرياضات أن يُحتمل أصحابها على الجدل الصرّف وعلى العقل المحض وعلى الحق المرّ وعلى المعاني الصعبة التي تستكد النفوس وتستفرغ المجهود ، وللصبر غاية والاحتمال نهاية ، ولا بأس أن يكون الكتاب موشحاً ببعض الهزل^(٣) . وخصّ الهزل والنوادر بكتابه المشهور «البخلاء» وهو مجموعة كبيرة من الأقاصيص الفكاهة عن الأشحاء البخلاء في عصره . وبنتى رسالة له في هجاء أحد الكتاب المسمى بأحمد بن عبد الوهاب ، وهى رسالة الترييع والتدوير ، على الضحك به والتندر عليه إذ كان قصيراً مليئاً ، فجعل يصفه في رسالته وصفاً مضحكاً ، ثم حوّله إلى دراسة واسعة في الجمال ، وهل يكون في القصر أو يكون في الطول أو يكون في النحافة أو يكون في الامتلاء أو يكون في الترييع والتدوير ، وهى تمتد إلى عشرات الصفحات وتملأ بالدعابة تارة وبالسخرية تارة أخرى ، وفيها يقول مدافعاً عن المزاح : «ولو استعمل الناس الرصانة في كل حال والجد في كل مقال . . . لكان السفه الصّراح خيراً لهم ، والباطل محضاً أردّ عليهم . . . ولكن لكل شيء قدر ولكل حال شكل ، فالضحك في موضعه كالبكاء في موضعه^(٤) .

(١) الحيوان ٣ / ٤٥ .

(٢) مروج الذهب ٤ / ١٠٩ .

(٣) رسالة في النساء مجموعة رسائل الجاحظ .

نشر السندوبى ص ٢٦٦ .

(٤) رسالة الترييع والتدوير (طبعة شارل

بيلات بدمشق) ص ٥٣ .

المصر العباسى الثانى

وجسّرتْ رغبةُ الجاحظ في أن يتخلَّل كتاباته بالنوادر وما يُطرَف القارئ رغبةً مماثلة في أن يورد في تضاعيف كتاباته بعض آى القرآن وبعض الآثار والأخبار وبعض الأشعار والحكم ، مما أشاع في رسائله وكتبه كثرة الاستطراد ، وكان يقصد إياه قصداً ويتخذ مذهباً في كتابته ، حتى لا يملَّ القارئ ، وحتى يظل له نشاطه وإقباله على ما يكتبه ، وهو يعلن ذلك مراراً في كتبه ، كقوله في كتاب الحيوان : « قد عزمتُ - والله الموفِّق - أنى أرسِّح هذا الكتاب وأفصل أبوابه بنوادر من ضروب الشعر والأحاديث ليخرج قارئ هذا الكتاب من باب إلى باب ومن شكل إلى شكل فأنى رأيت الأسماع تملُّ الأصوات المطربة والأغاني الحسنة والأوتار الفصيحة إذا طال ذلك عليها ، وما ذلك إلا في طريق الراحة التي إذا طالت أو رثت الغفلة »^(١) . ويقول في موضع آخر : « ومتى خرج (القارئ) من آى القرآن صار إلى الأثر ، ومتى خرج من أثر صار إلى خبر ثم يخرج من الخبر إلى شعر ، ومن الشعر إلى نوادر ، ومن النوادر إلى حكم عقلية ومقاييس سيداد ... حتى يُفضى إلى مَزَحٍ ونكاهة ، وإلى سُخْفٍ وخراطة »^(٢) .

ودائماً يُعنى الجاحظ بصياغته ، بادئاً بموادها من الألفاظ ، فهي تارة ألفاظ جزلة رصينة ، وتارة ألفاظ عذبة رشيقة ، ولكل لفظة موضعها من الكلام ومن المعنى الذى تؤدِّيه ، وهو يصيح في البيان والتبيين وغيره من كتاباته : اللاؤم - اللاؤم - ومطابقة الكلام لمقتضى الحال ، أو بعبارة أخرى لسانه به ، يقول : « وكما لا ينبغي أن يكون اللفظ عامياً وساقطاً سوقياً فكذلك لا ينبغي أن يكون غريباً وحشياً إلا أن يكون المتكلم بدوياً أعريبياً ، فإن الوَحْشِيَّ من الكلام يفهمه الوحش من الناس ، كما يفهم السوقى رطانة السوقى »^(٣) . ودائماً يَبْدئُ وَيُعِيدُ فى أن الأسلوب ينبغي أن يكون وسطاً بين لغة العامة ولغة الخاصة ، وأن تشف الألفاظ عن المعانى حتى تَلَدَّ الأسماع والقلوب ، يقول : « أحسن الكلام ما كان قليله يُغْنِيكَ عن كثيره ومعناه فى ظاهر لفظه . . . وإذا كان المعنى شريفاً واللفظ بليغاً . . . صَنَعَ فى القلوب صنيع الغيث فى التربة الكريمة »^(٤) . وأكثر من

(٣) البيان والتبيين ١ / ١٤٤ .

(٤) البيان والتبيين ١ / ٨٣ .

(١) الحيوان (طبعة الحلبي) ٣ / ٧ .

(٢) الحيوان ١ / ٩٣ .

الحديث في البيان والتمييز عن حسن الصياغة وجمال العبارات ، وهو بحق الذي أعدَّ في قوة لشيوع أسلوب جديد في الكتابة ، هو أسلوب الازدواج ، وهو أسلوب يقوم على التوازن الدقيق بين العبارات بحيث تتلاحق في صفوف متقابلة ، دون أن تتحد نهاياتها على نحو ما هو معروف في السجع . هي تتقابل وتتبادل صوتياً ، ولكن دون أن تحقق التوازن الصرقي المألوف في السجع ، ومع ذلك تحقق ضرورياً من الإيقاع ، فالكلمات تتوازن وتتبادل ، ودأن كل كلمة في عبارة تقابلها كلمة في العبارة التالية على شاكلمة قوله : « لا أعلم قريناً أحسن موافاة ، ولا أعجل مكافاة ولا أحضر معونة ، ولا أخف مثونة ، ولا شجرة أطول عمراً ، ولا أجمع أمراً ، ولا أطيب ثمرة » ، ولا أقرب مُجَنَّبَتِي ، ولا أسرع إدراكاً ، ولا أوجد في كل لبأن من كتاب ، ولا أعلم نِتاجاً في حدائث سنه ، وقرب ميلاده ، وريخص ثمه وإمكان وجوده ، يجمع من التداير العجيبة ، والعلوم الغريبة ، ومن آثار العقول الصحيحة ، ومحمود الأذهان اللطيفة ، ومن الحكم الرفيعة ، والمذاهب القويعة ، والتجارب الحكيمة ، ومن الإخبار عن القرون الماضية ، والبلاد المتنازحة ، والأمثال السائرة ، والأهم البائدة . ما يجمع لك الكتاب » (١) . ويمثل هذا الأسلوب المتدفق الذي ينفث به جمال الصوت من كل جانب دون أن يخرج به الجاحظ إلى تكلف السجع كان يؤلف ويصنّف الكتب الطوال والرسائل المتنوعة الموضوعات ، دون أن تتأبى عليه كلمة أو صيغة ، فقد أصبحت اللغة مرنة في لسانه وعلى قلمه إلى أقصى حد ، لغة شفافة يشيع فيها الوضوح وهذا الأسلوب المصنّى الذي يروق الآذان والأسماع بأصواته كما يروق القلوب والعقول بمعانيه وأفكاره .

ودائماً تلقانا هذه الخصائص العامة لكتابات الجاحظ ، إذ يُعنى دائماً بأسلوبه وسريان الازدواج فيه وبألفاظه وصياغاته وملاعنتها لمعانيها وموضوعاتها وقرآنها ، كما يُعنى يسريان روح الدعاة والاستطراد من شعر إلى خبر إلى فكرة كلامية إلى نادرة إلى بيان سيمّة لشخص من معاصريه إلى قرآن أو حديث إلى فكرة عن علم من علوم عصره كالفلك إلى عقيدة للمجوس إلى ما لا يُحصى من المعارف

وأحوال مجتمعه . وبذلك ينفرد عن أدباء عصره إذ جعل أدبه أدباً واقعياً يصور مجتمعه وكل ما فيه من أخلاق وعادات تتصل بالرجال أو بالنساء والقيان وكيدهن . ودائماً تلقاك طوابعه العقلية من القدرة على الجدل واستنباط البراهين والأداة ودقائق المعاني والأفكار خائضاً بك في أعماق المباحث الكلامية من تنزيه الله عن الشبه بال مخلوقات أو الكلام عن صفاته أو في المعرفة أو في الاستطاعة ، مع ذكر أطراف مما يجري فيه الناس ويخوضون فيه ، ومع التنقل في كل الموضوعات من الإنسان أو الحيوان أو النبات .

ولسنا بصدد البحث العام في الجاحظ ، إنما نريد أن نقف قليلاً عند عرضه لبعض المناظرات وما كتبه من رسائل إخوانية وأدبية ونثر قصصى ونوادر ، ومراً بنا أنه طبع كثيراً من رسائله بطابع المناظرة والحوار في مدح الشيء وذمه ، ولعل أكبر مناظرة ساقها مناظرة النظام ومُعَبَّد في الكلب والديك أيهما أفضل ، إذ شغلت نحو مجلد ونصف من كتاب الحيوان ، ويذكر أن الغرض منها بيان حكمة الله وتدييره في الكلب والديك ، يقول : « إنما تنتظر (نجادل) فيما وضع الله عز وجل فيهما من الدلالة عليه وعلى إتقان صنعه وعلى عجيب تدييره وعلى لطيف حكمته ، وفيما استخزنهما من عجائب المعارف وأودعهما من غوامض الإحساس وسخر لهما من عظام المنافع والمرافق ، ودلَّ بهما على أن الذي ألبسهما ذلك التديير وأودعهما تلك الحكم يجب أن يفكر فيهما ويُعْتَبَر بهما ويسبَّح الله عز وجل عندهما » . وهو يردِّد ذلك في جوانب من المناظرة ليبين الغاية منها والغرض . وقد بدأ فيها بالحديث عن الكلب وما قاله معبد في ذمه وما قاله النظام في مدحه ، واخصَّ ذلك يقول^(١) :

« باب ما ذكر صاحب الديك من ذمِّ الكلاب وتعداد أصنافها ومعانيها ومآلها من لؤمها وجُبُسها ، وضعفها وشرِّها ، وغَدَرها وبَدَأَتها ، وجهلها وتسرعها ، ونِسْتها وقَدَرها ، وما جاء في الآثار من النِّهْي عن اتخاذها وإمساكها ومن الأمر بقتلها وطَرْدها ، ومن كثرة جنائياتها وقلة ودِّها ، ومن ضرب المثل بلؤمها ونمالتها ، وقبحها وقبح ملازمتها ، ومن سماجة نُباحها وكثرة أذاها ، وتقذُّر المسلمين

من دنوّها وأنها تأكل لحوم الناس ، وأنها كالخُلُقِ المركب ، والحيوان الملقق :
 كالبعغل في الدوابّ وكالراعيّ في الحمام ، وأنها لا سبع ولا بهيمة ، ولا إنسيّة
 ولا جنسيّة ، وأنها من الجنّ دون الجنّ ، وأنها مطايا الجنّ ونوع من المسخّ
 وأنها تنبش القبور وتأكل الموتى ، وأنها يعترىها الكسلُ من أكل لحوم الناس .
 فإذا حكينا ذلك حكينا قول منّ عدّد محاسنها ، وصنّف مناقبها ، وأخذنا في
 ذكر أسمائها وأنسابها وأعرافها ، وتفديّة الرجال إيّاها ، واستهتارهم بها ، وذكر
 كسبها وحراستها ، ووفائها وإفهامها وجميع منافعها ، والمرافق التي فيها ، وما أودعت
 من المعرفة الصحيحة ، والفطن العجيبة ، والحسّ اللطيف ، والأدب الجود .
 وذلك سوى صدق الاسترواح وجودة الشم ، وذكر حفظها ونفاذها واهتمامها ،
 وإثباتها لصور أربابها وجيرانها وصبرها ، ومعرفتها بحقوق الكرام ، وإهانتها
 اللثام ، وذكر صبرها على الجفّةاء ، واحتمالها للجوع ، وذكر ذمامها وشدة
 مسّنها معاقدة الدمار منها ، وذكر يقظتها وقلة غفلتها ، وبُعْد أصواتها ،
 وكثرة نسلها وسرعة قبورها . . . مع اختلاف طبائع ذكورها . . . وتردّها في
 أصناف السباع ، وسلامتها من أعراق البهائم ، وذكر لقننها وحكايتها ، وجودة
 ثقافتها ومتهنّئها وخِدَمَتها ، وجِدّها وإِعْصَبها في جميع أمورها ، بالأشعار
 المشهورة والأحاديث الماثورة ، وبالكتب المنزلة ، والأمثال السائرة ، وعن تجربة
 الناس لها وفراستهم فيها ، وما عاينوا منها ، وكيف قال أصحاب الفأل فيها
 وأخبار المتطيرين عنها ، وعن أسنانها ومنتهى أعمارها ، وعدد جرائنها ، ومدة حملها
 وعن سِماتها وشيائها ، وعن دوائها وأدوائها وسياستها ، وعن اللاتي لا تَلْقُنُ منها ،
 وعن أعرافها والخارجيّ منها ، وعن أصول مواليدها ومخارج بُلْدانها .

وعلى هذا النحو يستقصى الجاحظ جميع الوجوه التي تُدَمُّ بها الكلاب ،
 فيذكرها على لسان معبّد وينقضها على لسان النظام ، ثم يأتي بمحاسنها ومحاولات
 معبّد في نقضها ، وفي أثناء ذلك يستعين بالأشعار وبآي القرآن والحديث ومعارف
 العرب ، كما يستعين بمعارف غيرهم وبنوادرهم ونوادر اليونان . مع الرجوع دائماً إلى
 التجربة . وهو في تضاعيف ذلك يستطرد إلى كثير من المباحث الكلامية وإلى

كثير أيضاً من عادات العرب . والمناظرة في رأينا مناظرة بين الشعوبية والعرب ، أما الشعوبية فرمزهم الديك الذى يُرى في قراهم ومدنهم ، وأما العرب فرمزهم الكلب الذى لا يفارقهم في منازلهم ومراعيهم ، وكأن معبداً والنظام المعتزليين اسمان اختارهما الجاحظ ليقم مناظرته ، أما في حقيقة الأمر فليس هناك معبد ولا النظام ، وإنما هناك الجاحظ بلسنه وقدرته الرائعة على دراسة الموضوعات سواء اتصلت بالحيوان أو لم تتصل ، وهناك العرب والشعوبية التى تستقدر الكلب وحيوانات الصحراء ، مما جعل الجاحظ يعقد في حيوانه مناظرة أخرى بين البعير والثيل^(١) ، فدائماً الشعوبية تتحرش بالعرب وتهجن حياتها وكل ما اتصل بها ، وكأن الجاحظ أقام نفسه رسداً لهم ، ومن الممكن أن يكون من هذا الباب كتابه الزرع والنخيل الذى أهده إلى إبراهيم بن العباس الصولى ، فالزرع رمز الحضارة والشعوبية ، والنخيل رمز العرب والبادية ، وقد هاجم الجاحظ الشعوبية مراراً ، في كتابه البيان والتبيين إذ أفرد لها فصلاً طويلاً وفي كتابات أخرى له متعددة عن العرب والعجم . ونسوق فقرة من ذم صاحب الديك للكلب وبعض صفاته وردت صاحب الكلب عليه ، وهى تجرى على هذه الصورة^(٢) :

« قال صاحب الديك : إن أطعمه اللص بالنهار كسيرة خُبِرَ خَلَاة ، ودار حواه ليلاً ، فهو في هذا الوجه مُرْتَشٍ وآكلٌ سُحْتٍ ، وهو مع ذلك أَسْمَجُ الخلق صَوْتاً ، وأحدق الخلق يقظة ونوماً ، ينام النهار كله على نفس الجادة (الطريق) وعلى مَدَقِّ الخوافر ، وفي كل سُوقٍ وملقى طريق . . . وقد سَهَرَ الليل كله بالصياح والصخب ، والنصب والتعب ، والغيط والغضب ، وبالجمجى والذهاب ، فيركبه من حب النوم على حسب حاجته إليه ، فإن وَطِنَتْهُ دابة فأسوأ الخلق جَزَعاً ، وألأمه لؤمًا ، وأكثره نُبَاحًا وعُواءً ، فإن سلم ولم تطأه دابة ولا وَطِنَتْهُ إنسان فليست تتم له السلامة ، لأنه في حال متوقع للبلية ، ومتوقع البلية في بليّة ، فإن سلم فليس على ظهرها مبتلى أسوأ حالاً منه ، لأنه أسوأهم جزعاً وأقلهم صبراً ، لأنه الجانى ذلك على نفسه ، وقد كانت الطرق الحالية له معرضة ، وأصول الحيطان مباحة ، وبعد فإن كلَّ خُلُقٍ فارق أخلاق الناس فإنه

(٢) الحيوان ١/ ٢٨٢ وما بعدها .

(١) الحيوان ٧/ ١٩٣ .

مذموم ، والناس ينامون بالليل الذى جعله الله تعالى سَكَنًا ، وينتشرون بالنهار الذى جعله الله تعالى لحاجات الناس مسرحًا . قال صاحب الكلب : لو شئنا أن نقول إن سهره بالليل ونومه بالنهار خَصْلَةٌ ملوكية لقلنا . ولو كان خلاف ذلك أَلَدًا لكانت الملوك بذلك أولى . وأما الذى أشرتم إليه من النوم فى الطرق الخالية ، وعَبْتَدَوْه به من نومه على شوارع الطرق والسكك العامرة ، وفى الأسواق الجامعة فكل امرئ أعلمُ بِشَأْنِهِ ، ولولا أن الكلب يعلم ما يلقى من الأحداث والسفهاء وصبيان الكُتَّاب من رَضٍ عظامه بالأواحهم إذا وجدوه نائمًا فى طريق خال ليس بحضرته رجالٌ يَهَابُونَ ، ولا مشيخة يرحمون ويزجرون السفهاء ، وأن ذلك لا يعتربه فى مجامع الأسواق لَقَلَّ خلافه عليك ولما رَقَدَ فى الأسواق . وعلى أن هذا الخلق إنما يعترى كلاب الحجر أس ، وهى التى فى الأسواق مأواها ومنازلها ، وَبَعْدُ فَن أَخْطَأُ وَأُظْلَمُ مَن يَكْلِفُ السَّبَاعَ أَخْلَاقَ النَّاسِ وعادات البهائم ؟ وقد علمنا أن سباع الأرض عن آخرها إنما تهيج وتَسْرَحُ وتَلْتَمِسُ المعيشة ليلا ، لأنها تبصر بالليل . . . أما تركه الاعتراض على اللص الذى أطعمه أيامًا ، وأحسن إليه مرارًا ، وإنما وجب عليه حفظ أهله لإحسانهم إليه وتعاهدهم له . فإذا كان عهده ببرِّ اللص أحدث من عهده ببرِّ أهله لم يَكْلِفُ الكلب النظر فى العواقب وموازنة الأمور . والذى أضسر اللص من البِئِمَاتِ غَيْبٌ قد سُرَّ عنه ، وهو لا يدرى أجاء ليأخذ أم جاء ليعطى . . . وأهل أهله أيضًا أن يكون قد استحقوا ذلك منه بالضرب والإجاعة ، وبالسبِّ والإهانة . وأما سماعه الصوت فالبغل أسمعُ صوتًا منه ، وكذلك الطاووس على أنهم يتشاعمون به . وليس الصوت الحسن إلا لأصناف الحمام من التمازى والدَّباسى وأصناف الشفانين (ضرب من العصافير) فأما الأسد والنذب وابن آوى والخنزير وجميع الطير والسباع والبهائم ، فكذلك ، وإنما لك أن تدم الكلب فى الشيء الذى لا يعم . . . وربما كان من الناس - بل كثيرًا ما تجده - مَن صوته أقبح من صوت الكلب ، فلم تَخْصُصْ الكلب بِشَيْءٍ عامة الخلق فيه أسوأ حالا من الكلب . وأما عَوَاؤُهُ من وطء الدابة وسوء جَزَعِهِ من ضرب الصبيان فجزع الفرس من وقع عَدَبَةٍ (طرف) السوط أسوأ من جَزَعِهِ » .

وواضح كيف أن صاحب الديك ثلب الكلب مثالب مختلفة في وفائه لأصحابه وفي غلظ صوته وفي نومه بالنهار على الطرق وفي الأسواق ، وفي كثرة نباحه وعُوانه حين تطؤه دابّة . وينتفضُ صاحب الكلب كل تلك المثالب فهو ينام بالنهار مثل الملوك والسلاطين ، وفي الأماكن الجامعة لما يلقى من السفهاء والصبيان ، حتى يزجرهم الناس ، ومع ذلك ليست كل الكلاب ترقد في الأسواق إنما تلك كلاب الحراسة ، وهذا طبيعي لأن الأسواق دورها ومنازلها . أما أنه لا يني لأصحابه حين يُلقي له لَصّ بكسرة خبز ، فإن محاسبته على ذلك لإحسانهم إليه ، وإحسان اللص أحدث من إحسانهم ، ثم هو كلب لا يعرف نية اللص وما أضمر من سرقة أهله ، ولا يدرى أجراء ليأخذ أجراء ليعطى ، وربما كان أهله يعاملونه معاملة سيئة . وسماجة صوته ليست مثلبة ، فالبغل أسمع صوتاً منه ، وكذلك الطاووس الجميل المنظر ، والصوت الحسن إنما يكون لأصناف الحمام دون جميع الطير والسباع والبهائم . وحتى الناس منهم من تهبط منزلة صوته في القبح درجات عن صوت الكلب ، وذلك لا يعيبهم . أما جزعه من وطء والدوابّ ضرب الصبيان له فربما كان جزع الفرس من ضرب السياط أسوأ من جزعه . وهكذا تسقط جميع المثالب التي وصف بها صاحب الديك الكلب ولا يبقى منها في يده شيء . وهي براعة فائقة في الحوار وفي الاستدلال والتلطف للبرهان والاحتياط له بالعقل الثاقب ، مع التأني والتمكين للحجج ، وهي توضع في صورة أدبية بديعة ، هي صورة الأسلوب المزدوج الذي تتوازن فيه العبارات والصيغ وتتعاذل إيقاعاتها تعادلاً محكماً . وتمتد المناظرة في الكلب ومحاسنه ومساوئه من صفحة ١٩٠ في الجزء الأول من الحيوان إلى صفحة ٢٣٣ من الجزء الثاني فتشغل بذلك مجلداً ضخماً ، ثم تبدأ المناظرة في مساوئ الديك ومحاسنه وتستمر إلى صفحة ٣٧٥ من هذا الجزء الثاني . وما احتج به صاحب الديك من محاسنه صياحه الدال على معرفته لساعات الليل في الفجر وغير الفجر ، حتى كأنه فوق الإسطرلاب الذي يرصد الفلك ومنازل القمر ، ويردُّ عليه صاحب الكلب هذه المحملة ، لأن الحمار يشرك الديك فيها بنهيقه في الأسحار ، يقول ^(١) :

(١) الحيوان ٢ / ٢٥٥ وما بعدها .

« لولا أن وجدنا الحمار المضروب به المثل في الجهل يقوم في الصباح وفي ساعات الليل مقام الديكة لقد كان ذلك قولاً ومذهباً غير مردود ، ولو أن متفقداً تفقد ذلك من الحمار لوجده منظوماً يتبع بعضه بعضاً على عدد معلوم ، ولوجد ذلك مقسوماً على ساعات الليل ، وإكان لقائل أن يقول في نهيق الحمار في ذلك الوقت : ليس تجاوباً إنما ذلك شيء يستوفي معاً ، لاستواء العلة ، فلم تكن للديك الموصوف بأنه فوق الإسطرلاب فضيلة ليست للحمار . . . والحمار أجهل الخلق ، فليس ينبغي للديك أن يُقضى له بالمعرفة ، والحمار قد ساواه في يسير علمه » .

وعلى هذا النحو لا يُدلى صاحب الديك بمحمدة إلا وينقضها عليه النظام نقضاً ، وبالمثل ينقض معبد محامد الكلب . ويشد الحوار بين المتناظرين ، وتُصبح وكأننا بإزاء بائنين لحصون من الأدلة والبراهين لا تلبث حين تقوم أن تنقض . وكما قلنا ليس البائنان والناقضان سوى الجاحظ نفسه ، فهو الذي أقام تلك المناظرة التي ظاهرها كلب وديك وباطنها عرب وشعبية ، وكان يتعصب للعروبة في أعماقه ، مما جعله ينفض عن الكلب كل مذامته ومثالبه ويضفي عليه كثيراً من المحامد والمحسن في حماسة بالغة .

وهذا لون من ألوان أدبه . ولون ثان هو رسائله الإخوانية ، وهي تموج بطرف فكره وبلاغته ، فمن ذلك أن صديقه ابن الزيات تلون له وتنگر فترة إذ أحسّ انشغاله عنه ، فكتب إليه الجاحظ يستعطفه بالرسالة التالية (١) : « أعاذك الله من سوء الغضب ، وعصمك من سرف الهوى ، وصرف ما أعارك من القوة إلى حب الإنصاف ، ورجع في قلبك إيثار الأناة (الحلم) فقد خفتُ — أيديك الله — أن أكون عندك من المنسويين إلى نزع السفهاء ، ومجانبة سبل الحكماء ، وبعد فقد قال عبد الرحمن بن حسان بن ثابت :

وإن أُمراً أُمسى وأصبح سالماً من الناس إلا ما جنى لسعيد
وقال الآخر :

ومن دعا الناس إلى ذمه ذمه بالحق وبالباطل

فإن كنتُ اجترأتُ عليك - أصلحك الله - فلم أجترئُ إلا لأن دوام تغافلِكَ
عنى شبيه بالإهمال الذى يورث الإغفال ، والعَمَلُ المتتابع يُؤمّن من المكافأة
(المجازاة) ، ولذلك قال عيينة بن حصن بن حذيفة لعُثمان رَحِمَهُ الله : عمر كان
خيراً لى منك : أرهبنى فأَتَقَانى ، وأعطانى فأَغْنَانى . فإن كنت لا تهيب عقابى
- أَيْسَدَكَ الله - لِحُرْمَةِ ، فَهَسْبَهُ لَأَيَادِيكَ عِنْدى ، فإن النعمة تشفع فى النعمة ،
وإلاّ تفعلْ ذلك لذلك فَعَدُّ لحسن العادة ، وإلا فافعل ذلك لحسن الأحداثِ ،
وإلا فَآت ما أنت أهلُه من العفو ، دون ما أنا أهلُه من استحقاق العقوبة . فسبحان
مَنْ جَودَكَ تعفو عن المتعمد ، وتنجانى عن عقاب المُصِرِّ ، حتى إذا صرت
إلى مَنْ هَمَوْتَهُ بِكَرٍّ (أولى) وذنبه نسيان ، ومن لا يعرف الشكر إلا لك ، ولا
الإِنْعَام إلا منك هجمت عليه بالعقوبة . واعلم - أَيْسَدَكَ الله - أن شَيْنَ غَضَبِكَ
على كَرِيْمٍ صَفَحَكَ عَنى ، وأن موت ذكرى مع انقطاع سَبَبِيْ مِنْكَ ، كحياة
ذكرى مع اتصال سببى بك ، واعلم أن لك فطنة عليم ، وغفلة كريم ، والسلام .

والرسالة على قصرها تحمل خصائص الجاحظ الأدبية ، ففيها شعر وخبر ،
وفيهما المهارة العقلية على التذليل واستنباط الأفكار ، فأبن الزيات هو الذى طال
تغافله عن الجاحظ ويشبه التغافل بالإهمال ضرباً من القياس ليصل إلى إغفاله له ،
ويسوق دليلاً ملزماً ، فهو دائماً يعفو عنه والعفو المتتابع يجعل العفو عنه آمناً من
المجازاة وأن يصاب بسوء . ثم مضى يُلْزِمُهُ الرضا عنه ، بمنازل متعددة منه ، إما
لمنزاة حرمة منه ، وإما لما تتابع عليه من أياديه ، والنعمة تشفع فى النعمة ، برهاناً
ساطعاً ، وإما لحسن العادة ، وإما لحسن الأحداثِ ، وإما لأنه أهل للعفو عن
المستحقين للعقوبة من أمثاله . ويتلطّف له قائلاً إنه أول ذنب لى وأيس ذنبى إلا
النسيان ، وهل عرفت الشكر إلا لك ولا الإِنْعَام إلا منك . فإذا يملك ابن الزيات
إزاء هذا البيان الرائع إلا أن يعود إلى الرضا التام ؟ وتتقابل عبارات الرسالة فى
صفوف ، وكأن كل كلمة فى عبارة سابقة تجذب قرينتها فى العبارة اللاحقة ، دون
محاولة لسجع أو نغم متمائل فى نهايات الجمل المتلاحقة ، وهكذا الجاحظ دائماً
يكتفى بجمال التوازن العام فى أسلوبه المزدوج . وانظر إلى التوازن الدقيق فى العبارات
الآخيرة من الرسالة ، « فشين غضبك » توازن « زين صفحك » ، و« موت ذكرى

مع انقطاع سببي» توازن «حياة ذكرى مع اتصال سببي». وتكامل مثل هذا التوازن في أسلوبه يتيح له وفرة في النغم، مع ما يتسم به أسلوبه عامة من رصانة وجزالة ونصاعة. واون ثالث من كتاباته هو الرسائل الأدبية، وهي تُعَدُّ بالعشرات، ويكفي أن نرجع لعنوانات المطبوع منها لنرى مدى تنوعها وأنها تناولت جوانب كثيرة من المجتمع ومن المسائل الكلامية ومن الأخلاق ومن الطوائف كالترك والمعلمين والقيان والمغنين غير ماله من رسائل في حنجج النبوة واستحقاق الإمامة وخلق القرآن. وكثير منها مكتوب بأسلوب الجدل والمناظرة، إن لم نقل إنها جميعها كتبت بهذا الأسلوب ونكتفي بعرض رسالة منها ولتكن رسالته^(١) في فخر السودان على البيضان، وقد عرض فيها مناقب السودان ممثلة في شخصيات بارزة مثل لقمان الحكيم وسعيد بن جبير العبد الصالح الذي قتله الحجاج وبلال الحبشي والمقداد الصمخاني الجليل أول مَنْ عَدَّ آبه فرسه في الإسلام، ومثل مكحول الفقيه والحسيقطان الشاعر الذي يفخر بقومه، ويذكر قصيدة له تحتج بها العجم والحبش على العرب، ويشرح أبياتها، ومثل سُسَيْخ بن رباح المعاصر لحرير ويروى قصيدته في الفخر بالزنج، ويذكر أبناء الزنجيات من العرب مثل العباس بن مرداس وعنترة الفوارس. ويذكر من احتجاجهم أنهم ملكوا ذات يوم بلاد العرب من لدن الحبشة إلى مكة وقتلوا ذا نواس وأقيال (تبابعة) حمير، ويذكر مشاركتهم في بعض الأحداث والحركات السياسية في العصرين الأموي والعباسي، ثم يقول:

«الناس مجمعون على أنه ليس في الأرض أمة السخاء فيها أعم وعاليها أغلب من الزنج... وهم أطبع الخلق على الرقص الموزون من غير تأديب ولا تعليم. وليس في الأرض أحسن حُلُوقاً منهم، وليس في الأرض أخف على اللسان من لغتهم، ولا في الأرض قوم أذرب (أفصح) ألسنة، ولا أقل تمطيطاً منهم... والرجل منهم يخطب عند الملك بالزنج من لدن طلوع الشمس إلى غروبها، فلا يستعين بلمسنة ولا بسكنة حتى يفرغ من كلامه. وليس في الأرض أمة في شدة الأبدان وقوة الأسر أعم منهم فيهما، وإن الرجل ليرفع الحجر الثقيل الذي تعجز عنه

(١) انظر الرسالة في مجموعة رسائل الجاحظ.

(نشر مكتبة الجاهلي) ١ / ١٧٧ - ٢٢٦.

الجماعة من الأعراب وغيرهم ، وهم شجعان أشداء الأبدان أسخياء . وهذه هي خصال الشرف . والزنجى مع حسن الخلق وقلة الأذى لا تراه أبداً إلا طيب النفس ضحكوك السنّ حسن الظنّ ، وهذا هو الشرف » .

ويرد على أناس قالوا إنهم صاروا أسخياء لضعف عقولهم ، ويقول لو كان البخل بمقدار قوة العقل ، لكان الصقالية أعقل من الروم لأنهم أبخل منهم والروم أشد عقولا . ويقول لخصومهم إنكم أقررتهم لهم بالسخاء وادعيتهم عليهم ما لا يعرف من ضعف العقل ، ولو كان هذا القياس صحيحاً لكان الجبان أعقل من الشجاع . ويذكر فخر الزنج بملوكهم . ثم يعود إلى ذكر طائفة من شعرائهم وافتخارهم بالنجاشى الذى أكرم المهاجرين إليه من الصحابة ، ثم يقول بلسانهم :

« ونحن أهولُ فى الصدور وأملأ للعيون ... كما أن الليل أهولُ من النهار ...
ودُهم الخليل أبهى وأقوى ، والبقر السود أحسن وأبهى ، وجلودها أثمن وأنفع وأبقى ،
والحُمُر (ج حمار) السود أثمن وأحسن وأقوى ، وسود الشَّاء أدسمُ ألباناً وأكثر
زبداً ... وكل جبل وكل حجر إذا كان أسود كان أصلب صلابة ، وأشدّ يبوسة ،
والأسد الأسود لا يقوم له شيء ، وليس من التمر شيء أحلى حلاوة من الأسود
ولا أعم منفعة ولا أبقى على الدهر ، والنخيل أقوى ما تكون إذا كانت سود الجذوع
... وأحسن الحضرة ما ضارح السواد ، قال الله عز وجل : (ومن دونهما جنتان)
ثم قال لما وصفهما وشوق إليهما : (مُدْهُمَاتَان) قال ابن عباس : خضراوان من
الرى سوداوان ، وليس فى الأرض عود أحسن خشباً ولا أغلى ثمناً ولا أثقل وزناً ...
ولا أجدر أن ينشب فيه الخط من الآبنوس ... والإنسان أحسن ما يكون فى العين
ما دام أسود الشعر ، وكذلك شعورهم فى الجنة ، وأكرم ما فى الإنسان حدقتاه وهما
سوداوان ، وأكرم الكحل الإنسي ، وهو أسود ... وأنفع ما فى الإنسان له
كبده » .

ونحنس كأن الكلام سيول تتدافع ، وهى سيول تحيط بفكرة السواد وترفع منها
محصية إحصاء دقيقاً مواقعه فى الطبيعة وفى الحيوان وفى الجماد وفى الثمار والأشجار
وفى الزروع والأعواد والأخشاب وفى الإنسان وفى الجنة ونعيمها الخالد . وكل ذلك

يسوّى فى أسلوب الازدواج وما يحمل من متاع موسيقى للأذان والأسماع . ويتحدث الجاحظ عن اقتران السواد بالشدّة والصلابة والصرامة ، وأنه لا يوجد لون أرسخ فى جوهرة من السواد ، ويذكر أن العرب تفخر بسواد اللون وأنه كان كثيرون من سادتهم سوداً دهمياً . ويتحدث عن كثرة عدد الزنج ، وكيف أن كثيرين من العرب مثل الفرزدق كانوا يفضلون زوجاتهم السودانيات . ويجعل سكان الجزر الهندية وكذلك القبط جنساً من السودان ويذكر أن إبراهيم الخليل تزوج منهم امرأة ولدت له إسماعيل عليه السلام . ويقول إن الله تعالى لم يجعلهم سوداً تشبّوياً لخلقهم ، وإنما فعلت بهم ذلك البيئة ، ويسلك فيهم من العرب بنى سليم بن منصور وكل من نزل الحرّة لسريان السواد فيهم ، ويقول إنه بلغ من أمر تلك الحرّة (حرّة بنى سليم) أن طبأها ونعامها ، وهوامها وذبابها ، وثعالبها وشاءها ، وحميرها وخيلها ، وطيرها ، كلها سود .

ونحس فى حرارة دفاعه عن السودان كأنه يدافع عن أصوله إذا صحّ أن جده كان عبداً أسود . وأكبر الظن أنه أول من أشاد بالسودان فى عصره ، وكأنما أصبح لهم شيء من الخطر فى الحياة الاجتماعية العباسية ، ولم تمض على وفاته سوى عشر سنوات حتى شبت ثورة الزنج التى تحدثنا عنها فى غير هذا الموضع . ولون رابع من كتاباته هو النثر القصصى ، إذ كان بارعاً فى تصوير الشخصيات والنفوس ، ولو أنه عرف الأدب التمثيلى لأسعفته ملكته فى المناظرة والحوار بقصص تمثيلية كثيرة ، وهو بحق لا يبارى فى وصف الحركات الجسدية والمشاعر النفسية ، ومن خير ما يصور هذه النزعة القصصية عنده أقصوصته فى كتابه الحيوان عن «القاضى والذباب» وهى تجرى على هذه الصورة الرائعة (١) :

« كان لنا بالبصرة قاض يقال له عبد الله بن سوار ، لم ير الناس حاكماً قط ولا زميلاً (٢) ولا ركيناً (٣) ، ولا وقوراً حليماً ضبط من نفسه ، وملك من حركته ، مثل الذى ضبط وملك . كان يصلّى الغداة (٤) فى منزله ، وهو قريب

(١) الحيوان ٣/ ٣٤٣ .

(٢) ركيناً : رزيناً .

(٣) زميناً : وقوراً .

(٤) الغداة : صلاة الضحى النافلة .

الدار من مسجده ، فيأتي مجلسه ، فيسحبني ، ولا يتكئ ، فلا يزال
مُنْتَصِباً ، لا يتحرك له عضو ولا يلتفت ولا يحلُّ حُبُوتَه^(١) ، ولا يحول رجلا
عن رجل ، ولا يعتمد على أحد شِقِيئِهِ ، حتى كأنه بناء مبنئ أو صخرة منصوبة
فلا يزال كذلك حتى يقوم إلى صلاة الظهر ، ثم يعود إلى مجلسه . فلا يزال
كذلك حتى يقوم إلى صلاة المغرب . . . كذلك كان شأنه في طَوَالِ الأيام وفي
قِصَارِها ، وفي صيفها وفي شتائها ، وكان مع ذلك لا يحرك يده ولا يشير برأسه ،
وليس إلا أن يتكلم فيوجز ويبلغ بالكلام اليسير المعاني الكثيرة . فبينما هو كذلك
ذات يوم وأصحابه حوَالِيهِ وفي السَّهَاطِينِ^(٢) بين يديه ، إذ سقط على أنفه ذباب ،
فأطال المُسْكَنُ ، ثم تحول إلى مُؤَقٍّ^(٣) عينه ، فرام الصبر في سقوطه على المؤق
وعلى عَصَهِ ونفاذ خُرْطومه ، كما رام الصبر على سقوطه على أنفه من غير أن يحرك
أَرْنَبَتَهُ^(٤) أو يغضن وجهه أو يذب بإصبعه . فلما طال ذلك عليه من الذباب
وشغله وأوجعه وأحرقه ، وقصد إلى مكان لا يحتمل التغافل أطبق جَفَنَهُ الأعلى
على جَفَنِهِ الأسفل ، فلم ينهض (الذباب) فدعاه ذلك إلى أن وآلى بين الإطباق
والفتح ، فتنحى ريثما سَكَنَ جَفَنَهُ ، ثم عاد إلى مُؤَقِّهِ بأشد من مَرَّتِهِ الأولى ،
فغمس خُرْطومه في مكان كان قد أوهاه قبل ذلك ، فكان احتمال له أضعف
وعجزه عن الصبر في الثانية أقوى . فحرك أجنانه وزاد في شدة الحركة وفي فتح العين
وفي تتابع الفتح والإطباق ، فتنحى عنه بقدر ما سكنت حركته ، ثم عاد إلى موضعه ،
فما زال يُلْدِحُ عليه حتى استفرغ صبره وبلغ مجهوده . فلم يجد بُدّاً من أن يذب عن
عينيه بيده ، ففعل ، وعينُ القوم إليه ترمقه . فتنحى عنه بقدر ما ردَّ يده وسكنت
حركته ، ثم عاد إلى موضعه ، ثم ألجأه إلى أن ذب عن وجهه بطرف كُمِّهِ ، ثم
ألجأه ، إلى أن تابع بين ذلك . وعلم أن فعله كله بعين مَنْ حَضَرَهُ من
أَمَنَائِهِ وجلسائه . فلما نظروا إليه قال : أشهد أن الذباب أَلَسَّ من الخُسْفُسَاءِ
وأزهى من الغراب ، وأستغفر الله ، فما أكثر من أعجبته نفسه ، فأراد الله عز وجل
أن يعرفه من ضعفه ما كان عنه مستوراً . وقد علمت أني عند الناس من أُرْمِتِ

(٣) المؤق : طرف العين مائل الأنف .

(٤) أرنبته : طرف أنفه .

(١) يحتئ : من الحيوه ، وهي أن يجمع

الرجل بين ظهره وساقيه بعمامة ونحوها .

(٢) السهاتين : مشى سباط وهو الصف .

الناس ، فقد غلبني وفضخني أضعف خلقه ، ثم تلا قواه تعالى : (وَإِنْ يَسْتَلْبِهِمُ
الذَّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ) .

والأقصوصة تتألف من ثلاثة أجزاء واضحة ، أما الجزء الأول فيصف فيه
الجاحظ وقار القاضي عبد الله بن سَوَّار وتزمته وما بلغه من سيطرته الشديدة — التي
لم يبلغها أحد — على نفسه وحركته . وهي سيطرة كانت تظل تلازمه طوال اليوم من
الغداة حتى صلاة المغرب ، بل لكانما أصبحت له فطرةً ثابتة ، فإذا هو يجلس
مُحْتَبِئًا غير متكئ في المسجد ، منتصبًا كأنه سارية أو عمود من أعمده ،
لا يتحرك له عضو ولا يلتفت يمنة ولا يسرة ، ولا يغيّر وضعًا له في جلسته ،
حتى لكانه بناء مبنى أو صخرة منصوبة . ويقول إنه يتخذ هذا الوضع لا في يوم
من أيام السنة ، بل في جميع أيامها طوالها وقصارها ، وشيء منه لا يتحرك ،
لا رجل ولا يد ولا رأس ، حتى إذا اجتمع الناس له في سماطين وعظهم وعظما بليغاً .
وهذا هو الجزء الأول في القصة أو الأقصوصة ، يليه جزء ثان يصور فيه الجاحظ إلحاح
الذباب الضعيف على هذا البناء الضخم من الوقار والتزمت والرزانة وهو يسترسل في
العظة ، ويصمد البناء لهذا الإلحاح فترة ، ثم تأخذ قواه في الوهن شيئاً فشيئاً ،
والجاحظ يلاحظ ويسجل ملاحظاته مصوراً أدق الدقائق من حركة الذباب وكيف
تحول من أنف القاضي إلى مؤقته ، والقاضي يستشعر وقاره صابراً صبراً عظيماً
على عَضِّ الذباب لمؤقته ونفاذ خرطوميه فيه دون أن يُغْمَض طرفه أو يغضن
وجهه أو يذبّه . ويظل على وقاره صابراً يوجهه الذباب ويحرّقه ، حتى
إذا نفذ صبره أطبق جفنه الأعلى على جفنه الأسفل ، فلم يتنحّ الذباب وظل في
إحراقه وإيجاعه ، فوالى بين الإطباق والفتح وهو لا يفقد وقاره . وتنحى الذباب
قليلاً ثم عاد بأشد مما كان ، لأن المكان كان قد وهى ، فكان احتمال له أضعف ،
فحرّك أجنافه وزاد في شدة الحركة وفي تتابع الفتح والإطباق . فتنحى الذباب عن
المؤق ولم يلبث أن عاد إلى موضعه ، وما زال يلحّ على القاضي حتى نفذ صبره ،
فذبّ عن عينيه بيده وعيون الجالسين أمامه ترمقه . وتنحى عنه بقدر مارد يده
وسكنت حركته ، ثم عاد إلى موضعه . حينئذ خرج عن وقاره المألوف إذ لم يجد بداً
أن يذبّ عن عينيه بطرف كفه . وعادوه مراراً ، وهو يتابع ذبّه بطرف الكم . وتنتقل
مع الجاحظ إلى الجزء الثالث من الأقصوصة وفيه يصور تعلق أعين السامعين ،

الذين شهدوا المنظر بالقاضى ، ناظرين إليه وكأنهم يريدون منه تعليقاً أو عظة .
ويبدأ ببيان إلحاح الذباب ، ويعترف بضعفه أمام أضعف مخلوقات الله ، ويصرّخ
بأن الذباب غلبه وقهره وفضح ، وأنه لا يختلف فى ذلك عن بنى جنسه بشهادة
الآية القرآنية الكريمة . والأقصوصة محبوبة حكمةً دقيقةً بما أودعها الحاحظ من
دقائق التصوير والتفاصيل ، وكأنها مشهد نراه بأعيننا إذ نقله لنا بحذافيره نقلاً واعياً ،
أو قل نقل عين بصيرة لا يفوتها شيء فى الرؤية الحسية ولا فى الرؤية النفسية .

ولون خامس فى كتابات الحاحظ الأدبية هو كثرة ما أذاع فيها من نودار
ترويحاً عن نفس القارئ وتشيطاً له ، على نحو ما صور ذلك بنفسه فيما أسلفنا
من الحديث عن خصائصه ، وقد وضع لها قاعدة لغوية عامة ألا تغير ولا تبدل
صورتهما اللفظية ، سواء جرّت على السنة البدو أو السنة العامة ، يقول (١) :

« وبقى سمعت - حفظك الله - بنادرة من كلام الأعراب ، فإياك أن
تحكيها إلا مع إعرابها ومخارج ألفاظها ، فإنك إن غيرتها بأن تلحن فى إعرابها
وأخرجتها مخارج كلام المولدين والبلديين خرجت من تلك الحكاية وعليك فضل
كبير . وكذلك إذا سمعت بنادرة من نودار العوام وملّحة من ملّح الحشوة والطغام
فإياك أن تستعمل فيها الإعراب ، أو تتخير لها لفظاً حسناً أو تجعل لها من فيك
مخرجاً سرياً ، فإن ذلك يفسد الإمتاع بها ، ويخرجها من صورتها ومن الذى
أريدت له ، ويذهب استطابتهم إياها واستملاحتهم لها » .

وطبق هذه القاعدة على نفسه تطبيقاً شديداً ، فالنادرة تُروى بألفاظها كما
نَدّت من السنة أصحابها ، وإذا كان لفظها عامياً أو أعرابياً مسرفاً فى البداوة
ظلت كما اجْتُلبت دون أى تعديل ، فإنها إن عُدلت مُسخت وأصبحت مشوّهة
الحلق ، وفارقتها طبيعتها ، ولم تعد مضحكة . وتكثر النودار فى البخلاء بل كل
الكتاب نودار إن صح هذا التعبير ، وهو يعرض فيه شخصيات المجتمع القذرة
الفلسفية والكلامية ومخركاته من شعبية وغير شعبية وكثيراً من تقاليده ومطامعه
وملاپسه ، فكل ما فى المجتمع البصرى من صور حياة يعرض عرضاً دقيقاً بكل
شيائه وسماته . وله فى المعلمين كتاب ملأه بنودارهم ، ونسوق له هذه النادرة
التي صور فيها حمق المعلمين وضعف عقولهم للازمتهم الصبئية ، قال :

(١) البيان والتبيين ١/١٤٥ .

« كنت ألفت كتاباً في نوادر المعلمين وما هم عليه من الغفلة ، ثم رجعت عن ذلك وعزمتُ على تقطيع الكتاب ، فدخلت يوماً قرية ، فوجدت فيها معلماً في هيئة مسنة ، فسألت عليه فردَّ عليَّ أحسن ردِّ ، ورحَّب بي ، فجلست عنده ، وباحثته في القرآن ، فإذا هو ماهر ، ثم فاتحته في الفقه والنحو وعلم المعقول وأشعار العرب ، فإذا هو كامل الأدوات ، فقلت : هذا والله مما يقوى عزى على تقطيع الكتاب . وكنت أختلف إليه وأزوره ، فجيئت يوماً لزيارته وطرقت الباب ، فخرجت إليَّ جارية وقالت : ما تريد ؟ قلت : سيِّدك . فدخلتُ وخرجتُ ، وقالت : باسم الله ! . فدخلتُ إليه ، وإذا به جالس كئيباً ، فقلت : عظم الله أجرك (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة) ، (كل نفس ذائقة الموت) ، فعليك بالصبر ، ثم قلت له : هذا الذي توفى ولدك ؟ قال : لا ، قلت : فوالدك ؟ قال : لا ، قلت : فأخوك ؟ قال : لا ، قلت : فزوجتك ؟ قال : لا . فقلت : وما هو منك ؟ قال : حبيبتي . فقلت في نفسي : هذه أول المناحس . فقلت : سبحان الله ! النساء كثير ، وستجد غيرها ، فقال : أنظن أني رأيتها ؟ قلت : هذه منحسة ثانية ، ثم قلت : وكيف عشقت من لم ترَ ؟ فقال : اعلم أني كنت جالساً في هذا المكان ، وأنا أنظر من الطاق (النافذة) إذ رأيت رجلاً عليه بُردٌ (ثوب) وهو يقول :

يا أمَّ عمرو جزاك الله مكرمةً رُدِّي عليَّ فؤادي أيما كانا
لا تأخذين فؤادي تلعبين به فكيف يلعبُ بالإنسان إنسانا

فقلتُ في نفسي : أولاً أن أم عمرو هذه ما في الدنيا أحسن منها ما قيل فيها هذا الشعر ، فعشقتها ، فلما كان منذ يومين مرَّ ذلك الرجل بعينه ، وهو يقول :

لقد ذهب الحمارُ بأمَّ عمرو فلا رجعتُ ولا رجع الحمارُ

فعلمت أنها ماتت ، فحزنتُ عليها ، وأغلقت المكتب ، وجلست في الدار ، فقلت : يا هذا : إني كنت ألفت كتاباً في نوادركم معشر المعلمين ، وكنت حين صاحبك عزمت على تقطيعه ، والآن قد قويتُ عزى على إبقائه ، وأول ما أبدأ فيه بك إن شاء الله .

والنادرة طريقة منتهى الطرفة ، والمعلم فيها يأخذ سمياً جاداً ، يزينه في أول الأمر علمه الواسع بالقرآن وتفسيره وبالفقه والنحو وبأشعار العرب وما شدا من علوم الأوائل أو علم المعقول كما يقول الجاحظ ، حتى ظن أنه كامل الأدوات وعزم على تقطيع كتاب كان ألتمه في نوادر المعلمين وغفلتهم وحنقهم . ويصحبه فترة ، ويلاحظ أنه أغلق كتابه فيزوره في داره ، وإذا هو جالس جلسة حزين مكتئب ، فظن أنه فقد عزيزاً لديه ، وأخذ يسأله عنه ، وهو يجيب جاداً ، حتى عرف أنه فقد معشوقته . وكأنما أطل حمقه على الجاحظ ، وإذا هو يقول له إنه لم يرها ، وتتوالى غفلته في هذا الحب الأحمدى الذى تهوى فيه كل قواعد المنطق ، وكأننا في مسرح هزل نفصى فيه إلى الضحك ، وكلما مضينا فى النادرة أغربنا فيه ، لا نتوقف ، وكأنما اختل توازننا ، أو كأنما نندفع فى انحدار بقوة ولا نملك الوقوف أو السيطرة على أنفسنا من هذا السيل الجارف للغفلة المحسمة وما يُطوى فيها من حمق فظيع ، حمدق يدفعنا إلى الضحك العريض . ولعل من الطريف أن الجاحظ كان يتندّر على كل شيء حتى على نفسه وشكله القبيح ، ويروى عنه أنه قال : « ما أخرجنى إلا امرأة مرت بى إلى صائغ فقالت له : اعمل مثل هذا ، فبقيت مبهوتاً ، ثم سألت الصائغ فقال : هذه امرأة أرادت أن أعمل لها صورة شيطان ، فقلت : لا أدرى كيف أصوره ، فأنت بك لأصوره على صورتك » .

ولعل فى كل ما قدمنا ما يصور شخصية الجاحظ الأدبية وخصائصه الفنية فى كتاباته . ومن المؤكد أن العربية لم تعرف كاتباً فرض نفسه على عصره والعصور التالية كما عرفت فى الجاحظ الذى ملأ الدنيا وشغل الناس بملكاته النادرة ، وما وصلها به من ذخائر الثقافات الأجنبية ، وما جسدها فيه من طوابع عقلية ومن جيد وهزل ومن نقل لكل صور الحياة فى مجتمعه ومن استطرادات تحمل كثيراً من الطُرف والنوادر ومن أسلوب مليء بالنغم ، يجرى فيه دائماً الازدواج الذى يروع القارئ بجبرسيه ، إذ يُمْتَعُ الألسنة حين تنطق به والآذان حين تُصْغِي إليه ، كما يُمْتَعُ بمضامينه العقول والأفئدة .

ابن قتيبة (١)

هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ، ولد سنة ٢١٣ للهجرة ببغداد وقيل بالكوفة ، أصله فارسي أو تركي من مرو بخراسان ، ومن ثم نسب إليها ، فقيل المروزي ، اختلف في صباه إلى الكتاب ، فحفظ شيئاً من القرآن الكريم والحديث النبوي والأشعار وشدا شيئاً من الفقه والنحو والحساب ، ولم يكذب ، يشب عن الطوق حتى أخذ يختلف إلى المساجد الجامعة بموطنه بغداد يأخذ عن علمائها كل ما عندهم من علوم اللغة والشريعة والحديث ، وعكف على الترجمات يقرأ فيها ويستوعب ، وخاصة ما تُرجم عن الفارسية ، ولع اسمه في بيئة الفقهاء ، فتولّى القضاء بدِينُور ، ولذلك يقال له الدينوري . وعاد إلى بغداد مؤثراً الاشتغال بالتدريس والتعليم حتى توفي سنة ٢٧٦ للهجرة . وقد أكتب على كتب الجاحظ يد رسها ويتمثلها ، مع أنهما كانا على طرفي نقيض ، فقد كان الجاحظ معتزلياً كما مرّ بنا ، وكان ابن قتيبة سُنيّاً ، وله كتابان : مشكل القرآن وتأويل مختلف الحديث ، وفيهما وخاصة في الثاني يحمل على الجاحظ والمعتزلة حملات شعواء ، وهما منشوران . وله بجانبهما كتب كثيرة منها كتاب في الفقه وكتاب في دلائل النبوة وغريب القرآن وكتب غيرهما كثيرة في مختلف الميادين سقطت من يد الزمن . ومن كتبه المنشورة المعارف وفيه يتحدث عن مبدأ الخلق وقصة الطوفان نقلاً عن ترجمة للتوراة ، ويُعقب ذلك بتاريخ الأنبياء والرسل والعرب الجاهليين وسيرة الرسول عليه السلام ، ثم أخبار موجزة عن العلماء في كل فن وعن الفرس قبل الإسلام . وله كتاب الأشربة وهو منشور بدمشق وكتاب الميسر والقيداح وهو منشور بالقاهرة وكتاب الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبّهة وهو منشور أيضاً بالقاهرة ونُشر

وابن خلكان والنجوم الزاهرة ٢ / ٧٥ والديباج

لابن فرحون طبع القاهرة ص ٣٥ وشذرات الذهب

٢ / ١٦٩ ومرة الجنان لليافعي ٢ / ١٩١ .

(١) انظر في ابن قتيبة الفهرست ص ١٢١

والأنساب للسماعى الورقة ٤٤٣ وتاريخ بغداد

١٠ / ١٧٠ وإنباء الرواة للقفطي ٢ / ١٤٣

ونزهة الألباء (نشر دار نهضة مصر) ص ٢٠٩

باسمه كتاب الإمامة والسياسة وهو منحول عليه . ومن أهم كتبه كتاب الشعر والشعراء وهو تراجم قصيرة لشعراء العرب حتى عصره ، وهو منشور مراراً . وله كتاب معاني الشعر الكبير . وألف طائفة من الكتب لتتيف الكتاب الناشئين ؛ منها كتابه « أدب الكاتب » ، الذي عرضنا له في غير هذا الموضع ، وهو يمدُّ الكاتب فيه بثقافة لغوية واسعة ، وأهم منه كتابه « عيون الأخبار » وهو يمدُّ الكاتب فيه بكنوز الثقافات التي تُسَعِّفه في مادة عمله .

وابن قتيبة يُعَدُّ أكبر مؤلف أدبي ظهر في العصر بعد الجاحظ ، وهو سني محافظ ولذلك يكون من المنطق أن تتضح محافظته في آرائه النقدية ، غير أنه كان فيما يبدو يوازن بين النزعة المحافظة لعصره والنزعات المجددة المعتدلة عند الجاحظ وأمثاله من المعتزلة . ويتضح ذلك في مقدمته الطويلة لكتابه « الشعر والشعراء » إذ نراه يعلن أنه لن ينظر إلى المتقدم من الشعراء بعين الجلالة لتقدمه ولا إلى المتأخر بعين الاحتقار لتأخره ، فإن الله لم يقصر البلاغة على زمن دون زمن ولا خصَّ بها قومًا دون قوم . وهي نظرة مُنْصَفَّة ، ولكنه يعود فيقول : « ليس لتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدمين . . . فيقف على منزل عامر أو يبكي عند مشيد البنيان لأن المتقدمين وقفوا على المنزل الدائر والرسم العافي ، أو يرحل على حمار أو بغل ويصنفهما لأن المتقدمين رحلوا على الناقة والبعير ، أو يردَّ على المياه العذاب الجوارى لأن المتقدمين وردوا الأواجن والطواحي ، أو يقطع إلى الممدوح منابت الرجس والآس » وأورد لأن المتقدمين جروا على ذكر منابت الشَّيْخِ والحَسَنَةِ (١) والعَرَارة وهي لا شك نظرة محافظة تستمد من الجو السُّنِّي في العصر الذي حل محل جَوِّ الاعتزال منذ فاتحة عهد المتوكل . وكانت هذه النظرة تلتقي مع النظرة السابقة التي لا تضع في موازين القيمة الشعرية قدم الشعر وحداثته ، حتى لا يكون محافظاً جامد العقل ، بل هو محافظ أميل إلى روح التجديد والمعاصرة . ومربِّنا في غير هذا الموضع أنه كان أحد خصوم الشعوبية ، بل كان ثاني اثنين خاضا معركة حامية مع أصحاب هذه النزعة ، وعرضنا هناك لمصنِّفه : « كتاب العرب أو الرد على الشعوبية » وكانت له وراء ذلك في نفس الموضوع كتب مختلفة .

(١) الحنة والعارة : من أزهار البادية .

وأهم من هذا الموقف له ضد الشعوبية أن نجده يُدخل بقوة الثقافات الأجنبية: اليونانية والفارسية والهندية على الثقافة العربية الإسلامية ، ويعمل على تكوين مزيج موحد منها جميعاً ، بحيث لا يُشغَل أصحاب كل ثقافة بالدعوة والترويج لها ، مما أحدث هذا الصراع العنيف بين الشعوبيين والعرب الذى طال عليه الأمد منذ عهد المهدي حتى عصره . وحقاً حاول ذلك الجاحظ من قبله ، ولكن غلبة النزعتين الكلامية والأدبية عليه حالت دون النفوذ إلى نهاية الغاية ، وكانت الثقافة اليونانية أكثر شىء يشغله ، حتى ليقول : « لا يكون المتكلم جامعاً لأفطار الكلام متمكناً فى الصناعة ، يصلح للرياسة ، حتى يكون الذى يحسن من كلام الدين فى وزن الذى يحسن من كلام الفلسفة »^(١) وأشار غير مرة إلى أن كتابه « أخذ من طُرفِ الفلسفة » . ولم يكن اليونانيون أصحاب النزعة الشعوبية فى العصر ، فقد كان الفرسم الذين يحملون علمها ويبذلون قصارى جهدهم فى الدعوة لها مشيرين دائماً إلى كتب الآداب الفارسية . فكان لا بد كى يُقضى على هذه النزعة الحادة من أن تلتقى — على يد كاتب عظيم — ثقافتها وكذلك الثقافة اليونانية والهندية بالثقافة العربية الإسلامية ، وتدخل جميعها فى مجرى النهر العربى الإسلامى بحيث تتلاشى فيه نهائياً ، ولا يصبح لها وجود مستقل ، فوجودها جزء لا يتجزأ من وجود الثقافة العربية الإسلامية العامة .

وهو ما نهض به ابن قتيبة فى أروع صورة ، إذ مضى ينسّق مختارات ومقتطفات من الآداب الفارسية ، مع مقتطفات ومختارات من الآداب العربية الخالصة ومع مقتطفات ومختارات من الثقافتين الهندية واليونانية ، وكانت ثمرة ذلك أربعة مجلدات ضخمة ألّفت كتابه « عيون الأخبار » ، وقد وزعه على عشرة كتب ، أولها كتاب السلطان ، وفيه يتحدث عن سيرته وسياسته وصُحبته واختياره للعمال والقضاة والحجّاب والكتّاب ، ويبدوّه بأحاديث نبوية ، ثم يذكّر بعض وصايا لشخصيات عربية فى الحكم وسياسة السلطان ، ولا يلبث أن يقول : « قرأت فى كتاب من كتب الهند : « شر المال ما لا يُنفق منه ، وشرّ الإخوان الخاذل ، وشرّ السلطان من خافته البرىء ، وشرّ البلاد ما ليس فيه خِصْب ولا أمن . . . وخير سلطان من أشبه النسر »

حواله الجيفُ لا مَنَ أشبه الخيفة حولها النسورُ» ويذكر أقوالا لابن مسعود وعمر بن الخطاب ، ثم ينقل فصلاً طويلاً من كتاب اليتيمة لابن المقفع وما يصور من الأدب الأخلاقي في عهد ملوك الفرس الساسانيين ، ثم يقول : « قرأت في التاج (وهو في سيرة أنوشروان) لبعض الملوك : هموم الناس صغار وهموم الملوك كبار ، وألباب الملوك مشغولة بكل شيء يتجلى ، وألباب السُّوق مشغولة بأيسر الشيء » . ويعود إلى النقل عن بعض النابيهين من العرب ، ثم يقول : « قرأت في بعض كتب العجم كتاباً لأردشير بن بابك إلى الرعية ، وينقل الكتاب جميعه ، ويعقب عليه بكتاب من أرسططاليس إلى الإسكندر وفيه : « املك الرعية بالإحسان إليها تظهر بالحب منها ، فإن طلبك ذلك منها بإحسانك ، هو أدوم بقاء منه باعتسافك ، واعلم أنك إنما تملك الأبدان ، فتخطها إلى القلوب بالمعروف ، واعلم أن الرعية إذا قدرت أن تقول قدرت على أن تفعل ، فاجتهد ألا تقول تسلم من أن تفعل » . ويستلوه ذلك بقوله : « قرأت في كتاب الآيين (في أنظمة الملك والدولة الساسانية) أن بعض ملوك العجم قال في خطبة له : « إني إنما أملك الأجساد لا النيات ، وأحكم بالعدل لا بالرضا ، وأفحص عن الأعمال لا عن السرائر » ويذكر أخباراً عن أنوشروان ومعاوية وعبد الملك بن مروان وعمر الفاروق وعن سياسة الحجاج في رعيته ، ثم يقول : « قرأت في كتاب التاج : قال أبرويز لابنه شيرويه وهو في حبسه : « لا توسعنَّ على جندك فيستغوا عنك ، ولا تضيقنَّ عليهم فيضجوا منك ، أعطهم عطاء قصداً ، وامنعهم منعاً جميلاً ، ووسع عليهم في الرجاء ، ولا توسع عليهم في العطاء » . ويروي عن عمر بن الخطاب « إن للناس نفرة عن سلطانهم ، فأعوذ بالله أن تدركني وإياك عمياء مجذولة وضغائن محمولة ، أقم الحدود ولو ساعة من نهار ، وإذا عرض لك أمران : أحدهما لله والآخر للدنيا فآثر نصيبك من الله ، فإن الدنيا تنفذ والآخرة تبقى . . . وإياك يا عبد الله أن تكون بمنزلة بهيمة مرت بواد خصب فلم يكن لها هم إلا السمن ، وإنما حتفها في السمن » . ثم أخبار عن عبد الله بن الزبير في الرعية ، ولا يلبث أن يقول : وفي كتاب من كتب العجم أن أردشير قال لابنه : « يا بُنَيَّ إن الملك والدين أخوان لا غنى بأحدهما عن الآخر ، فالدين أس والملك حارس ، وما لم يكن له أس فهو دهم ، وما لم يكن له حارس فضائع » ثم يذكر صفات ذميمة لا يصح

أن تكون في السلطان . ويتحدث عن اختيار العمال ويختم حديثه بقوله : قرأت في كتاب للهند « السلطان الحازم ربما أحب الرجل فأقصاه وأطرحه مخافة ضرره ، فعِلَ الذي تُلَسع الحية لإصبعه ، فيقطعها لئلا ينتشر سُُمُّها في جسده ، وربما أبغض الرجل فأكره نفسه على توليته وتقريبه لغَسَاء يجده عنده كتكاره المرء على الدواء البشع لنفعه » . ويعرض لصحبة السلطان وآدابها وتغير السلطان وتلونته ، ويقول : « قرأت في كتاب للهند : صحبة السلطان على ما فيها من العز والثروة عظيمة الخطار ، وإنما تُشَبَّه بالجيل الوعر فيه الثمار الطيبة والسباع العادية ، فالارتقاء إليه شديد ، والمقام فيه أشد . . . ولا خير في الشيء الذي في سلامته مال وجاه ، وفي نكته الجائحة والتلف » . وينقل عن بعض العرب ورجالاتهم وعن آداب ابن المقفع وعن بعض النساك والمعتزلة والوعاظ وعن بعض كتبه التي كتب بها إلى الحكام والوزراء وعن بعض الكتاب وعن أبرويز في بعض ما كتب به إلى ابنه شيرويه وعن بعض رجال الحكم من العرب ، ويستشهد ببعض الأشعار للقطامي وبشار وغيرهما ، ويعرض لخانات العُصَمَاء ، وينقل من كتاب التاج : أن أبرويز قال لصاحب بيت المال : « إني لا أحتملك على خيانة درهم ، ولا أحمدك على حفظ ألف ألف درهم ، لأنك إنما تحقق بذلك دملك وتعمُرُّ به أمانتك ، فإنك إن خُستَ قليلاً خنت كثيراً » . ويكثر في فصل القضاء المعقود في هذا الكتاب من النقل عن العرب وأحكام الإسلام ، ويروى كتاب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري في القضاء ، وهو دستور عظيم في عدالة القضاء ونزاهته . وتتوالى فصول عن الأحكام والشهادات والظلم ، وفيها يكثر من النقل عن العرب ثراً وشعراً ، ويعود في الفصول التالية إلى النقل عن كتب الهند والفرس .

والكتاب الثاني كتاب الحرب ، وفيه يتكلم عن آدابها ومكايدها وأوقاتها وحيلها وعُدَّدها وسلاحها ، ويبدؤه بحديث عن الرسول عليه السلام وبيع بعض وصايا أبي بكر وعمر للجيش وقوادها عند عقد الألوية ، ويذكر بعض ما قرأ في كتب العجم والهند ، ومما قرأه في الأخيرة : « الحازم يحذر عدوه في كل حال ، يحذر المواثبة إن قرب ، والغارة إن بعد ، والكمين إن انكشف ، والاستطراد إن ولَّى ، والمكر إن رآه وحيداً ، ويكره القتال ما وجد بُدّاً ، لأن النفقة فيه من الأنفس ، والنفقة في

غيره من المال». ويذكر بعض حيل الفرس والعرب في الحرب ، ويتحدث عن آداب الفروسية عند الأمتين ، ويُفيض في الحديث عن الشجعان وإنشاد الشعر الحماسي .

والكتاب الثالث كتاب السؤدد ، ويتكلم فيه عن مخايله وأسبابه ، ويعرض لجوانب كثيرة من الشرف والأخلاق الرفيعة ، ويفتح فيه فصلاً للمزاح والرخصة فيه ، ويدعو إلى التوسط في الدين والحلم والعقل والغنى والإنفاق ، وكأنه يتأثر بنظرية الأوساط المعروفة عند أرسططاليس . ويُفرد الكتاب الرابع للطبائع والأخلاق المذمومة من مثل الحسد والغيبة والسعاية ، وفيها يقول : قرأت في كتاب للهند : « قلما يُسَمَّع القلب من القول إذا تردّد عليه ، فإن الماء ألين من القول ، والحجر أصلب من القلب ، وإذا انحدر عليه وطال ذلك أثر فيه ، وقد تُقَطَّعُ الشجرة بالفئوس فتَتَنَبَّئُ ، ويُقَطَّعُ اللحم بالسيوف فيندمل ، واللسان لا يندمل جرحه والنصول تغيب في الجوف فتُسزَعُ ، والقول إذا وصل إلى القلب لم يُسزَع ، ولكل حريق مطفى : للنار الماء ، وللسم الدواء ، وللحزن الصبر ، وللعشق الفُرقة ، ونار الحقد لا تعبو » . ويذكر أن واثياً وشي برجل إلى الإسكندر فقال له : « أتحب أن أقبل منك ما قلت فيه على أن أقبل منه ما قال فيك ؟ قال : لا ، قال فكفّ عن الشرّ يكفّ عنك الشر » ، وينقل في هذا الكتاب عن كثيرين من العرب شعراً ونثراً ، ويستطرد إلى الحيوانات وطبائعها متأثراً باللاحظ ، ويعرض للحشرات وينقل فيها عن أطباء العصر ، كما يعرض للنبات . ويعقب الكتاب الخامس للعلم والبيان ، ويستهلّه بحديث عن الرسول ويقول : في كتاب للهند : العالم إذا اغترب فعمه من علمه كاف كالأسد معه قوته التي يعيش بها حيث توجه ، ويذكر عن بُزُرْجِسَمهر أنه قيل له : بِمِ أدركت ما أدركت من العلم ؟ فقال بيكور كبكور الغراب ، وحرص كحرص الخنزير ، وصبر كصبر الحمار » ويذكر عن أفلاطون أنه قال : « لولا أن في قول لا أعلم سبباً لأنّي أعلم لقلت إني أعلم » . ويروى بعض كلمات للمسيح عليه السلام ، ويفتح فصلاً للقرآن الكريم والحديث الشريف والفرق والأهواء في الدين ، ويعرض لبعض صور الكلام والشعر ، كما يعرض طائفة كبيرة من الخطب منذ الرسول عليه السلام إلى المأمون .

والكتاب السادس كتاب الزهد ، وفيه تبرز بجانب مواظب كبار النساء والوعاظ والزهاد المسلمين ثقافة ابن قتيبة الدينية لا الإسلامية وحدها ، بل أيضاً ثقافته بالكتب السماوية وكيف أنه عكف عليها وعلى كل ما يتصل بها يقرأ وينقل ، تارة مما كتبه أمثال وهب بن منبه عما أوحى الله عز وجل إلى أنبيائه . وينقل من التوراة ومن الإنجيل ، من ذلك قوله : « قرأت في الإنجيل : لا تجعلوا كنوزكم في الأرض حيث يفسد ما السوس والدود وحيث يستنقب السرّاق واكنن اجعلوا كنوزكم في السماء ، فإنه حيث تكون كنوزكم تكون قلوبكم » ويذكر أن رجلاً من الحواريين قال للمسيح : أتأذن لي أن أدفن أبي ؟ فقال له : دع الموتي يدفنون موتاهم . ويذكر له دعاء طويلاً حين أخذه اليهود ليصلبوه بزعمهم فرفعه الله إليه ، كما يذكر دعاء داود وتحميداً طويلاً ودعاء ليوسف ، ويسرّوي عن المسيح أنه قال : حب الدنيا أصل كل خطيئة ، والمال فيها داء ؛ قيل : ما دأؤه ؟ قال : لا يسلم صاحبه من الفخر والكبر ، قيل وإن سلم ؟ قال : يشغله إصلاحه عن ذكر الله . وبذلك يكون ابن قتيبة قد أضاف إلى الثقافة الإسلامية ثقافة عامة بالكتب السماوية وأقوال أنبيائها المرسلين . والصلاة بين هذا الكتاب وكتاب الزهد في البيان والتبيين للجاحظ واضحة .

والكتاب السابع كتاب الإخوان ، وفيه يتحدث عن اختيارهم وما ينبغي أن يكون بينهم من الوشائج والصلات والاشتراك في السرّاء والضراء . ، وتلقانا من حين إلى حين نقول عن بعض كتب الهند أو بعض ملوك العجم ، كما تلقانا أحاديث نبوية وأشعار وأخبار ونصائح ووصايا على ألسنة كثيرين من رجال العرب النابهين . والكتاب الثامن كتاب الحوائج واستنجاحها والمواعيد وتنجزها ، ويظل فيه ينقل عن كتب العجم مثل قول بزرجمهر : « إذا أقبلت عليك الدنيا فأنفق ، فإنها لا تقسنى ، وإذا أدبرت عنك فأنفق فإنها لا تبقى » . والكتاب التاسع كتاب الطعام وفيه يعرض صنوفه وأخبار العرب في ماكلهم وآداب الطعام والضيافة وأخبار البخلاء وأواني الأكل والحسية وشرب الدواء والتخمس والمياه والأشربة ومنافع بعض النباتات والبقول . وتلقانا نفس الثقافات العربية والفارسية واليونانية ، ويصرّح بأنه ينقل في هذا الكتاب عن الجاحظ وأثر كتابه البخلاء واضح فيه ، ويذكر في الحسية عن الطبيب اليوناني جالينوس أنه قيل له : إنك تُقِلُّ من الطعام ؟ قال : غرضي من

الطعام أن آكل لأحياء وغرض غيرى من الطعام أن يَحْيَا لِيَأْكُل. وبالمثل يَسْقُل عن أبقراط اليونانى نقولا ، كما ينقل عن أطباء العصر العباسى مثل ابن ماسويه وعن كتاب الآيين الأعجمى . والكتاب العاشر كتاب النساء ، وفيه يتكلم عن أخلاقهن وما يُقْبَلُ منهن وما يُكْرَهُ والجحمال والقبح والمهور والزواج وسياسة معاشرتهن والحوارى والقيان ومساوى النساء ، ويحكى هنا قصة حصار أردشير لمدينة الحضرة الأبطورية التى يقال إنها كانت قائمة فى الزمن القديم بين دجلة والفرات ، وكيف أن فتاة ملك الحضرة رأتة فعشقتة ، وسرعان ما أرسلت إليه أن تدله على موضع يفتح منه المدينة إن هو وعدّها الاقتران بها ، ووعدّها ، فدلته على الموضع ، ودخل المدينة هو وجنوده .

ولعل فيما قلنا ما يصور بوضوح كيف مزج ابن قتيبة بين الثقافات العربية والإسلامية والفارسية والهندية واليونانية ، وكذلك ثقافة أهل الكتاب ، فكل الثقافات الأجنبية والعربية من مدنية ودينية استحالت عنده إلى هذه الصورة الجديدة التى نقرأها فى عيون الأخبار . وبلغت هذه الصورة من النجاح أنه خفّت صوت الشعوبية ، فإن الكنوز التى كانت تباهى بها تحوّلت إلى عالم العروبة على يد ابن قتيبة وأصبحت من لبّه ، بحيث لم يعد هناك مجال للفخر بها ، إذ لم تعد مستقلة ولم تعد تشقّ لنفسها جداول تجرى فيها وحدها ، فقد صبّت فى نهر العروبة الكبير وذابت فيه ، أذا بها ابن قتيبة ببصيرته النافذة وقلمه الباهر ، وأكبر الدلالة على ذلك لاتضاؤل صوت الشعوبية تضاؤلاً شديداً مع السنين فقط ، بل أيضاً أنا لانعود نسمع عن ترجمات لكتابات الفرس الأدبية والتاريخية ، فقد أصبحت غير ذات موضوع بعد أن تداولت الأيدى كتاب عيون الأخبار ، وبعد أن أصبح المصدر الأساسى لكل من يريد التعرف على الآداب الفارسية وما يمكن أن يفيد الأدب العربى منها ومن الثقافتين الهندية واليونانية وثقافة أهل الكتب السماوية . فكل ذلك قد أصبح تحت أيدى العرب وأبصارهم ، ولم يعودوا فى حاجة إلى مزيد منه ، ولذلك لم يهتموا فيما بعد بما دوّن الفردوسى فى الشاهنامه من شعر قصصى ولا بما كتب حافظ الشيرازى وغيره من شعر صوفى . وكان من آثار ذلك أن أعداء العرب لم يعودوا يوصفون بوصف الشعوبية والزندقة معاً ، فقد أصبحوا غالباً يوصفون بالزندقة والإلحاد

فحسب، وشاع ذلك على ألسن العرب وعلمائهم منذ أواخر القرن الثالث الهجري، مصورين بذلك بواعثهم وحقائقهم النفسية .

ولا نغلو إذا قلنا إن من أهم الأسباب في أن كتاب عيون الأخبار أخذ هذه المكانة الممتازة أسلوب ابن قتيبة فيه ، فإن كل هذه المواد الثقافية التي نسقتها سبكها في أسلوب أدبي رائع ، أسلوب يمتاز بوضوحه واصطفاء ألفاظه والمزاوجة بينها على طريقة الجاحظ أحياناً ، وأحياناً يسترسل دون محاولة الازدواج ، ولكن مع العناية باختيار الكلمات والملازمة بينها بحيث لا تجد فيها أى نشاز ولا أى اضطراب أو انحراف ، فقد كانت اللغة مرنة في يده ، وكان لا يتأبى عليه أى لفظ ، ولا تستعصى عليه أى كلمة . وبهذا الأسلوب المتناسق وما يجرى فيه من استواء صنف كتابه عين الأخبار جميعه ، بحيث غدا كأنه مصبوب في قوالب متماثلة ، قوالب تستريح لها الأذن ، وتجد فيها القلوب والعقول متاعاً لا ينفد ، وقرأ سطورهِ الأولى في المقدمة ، فإنها تطرد على هذا المنوال :

« الحمد لله الذى يُعجز بلاؤه صفة الواصفين ، وتفوت آلاؤه عدد العادين ، وتسع رحمته ذنوب المسرفين ، والحمد لله الذى لا تُحسب عنه دعوة ، ولا تخيب لديه طلبية ، ولا يضل عنده سعى ، الذى رضى عن عظيم النعم بقليل الشكر ، وغفر بعقود الندم كبير الذنوب ، ومحا بتوبة الساعة خطايا السنين . والحمد لله الذى ابتعث فينا البشير النذير ، السراج المنير ، هادياً إلى رضاه وداعياً إلى محبته ، ودالاً على سبيل جنّته ، ففتح لنا باب رحمته ، وأغلق عنا باب سخطه ... أما بعد فإن لله في كل نعمة أنعم بها حقاً ، وعلى كل بلاء أبلاه زكاة ، زكاة المال الصدقة ، وزكاة الشرف التواضع ، وزكاة الجاه بذله ، وزكاة العلم نشره ، وخير العلوم أنفعها ، وأنفعها أحملها مغيبةً ، وأحمدها مغيبةً ما تعلم وعلم الله وأريد به وجه الله تعالى . »

وهذه القطعة في مستهل الكتاب تصور ضرباً من العناية بالألفاظ فيه يشبه عناية الجاحظ ، فالجاحظ يعمد إلى الازدواج أو العبارات المتقابلة ، وقد يجرى السجع على لسانه في غير تكلف بالضبط كما نرى الآن عند ابن قتيبة . والعبارات الأخيرة التي ردّها فيها ابن قتيبة كلمة الزكاة ، وتعقب فيها الكلمة الأخيرة وردّها

كما في كلمة «أنفعها» و «أحمدها» هذا الأسلوب بعينه نجده عند الجاحظ ،
وكان ابن قتيبة تمثل أسلوبه بجميع خصائصه ونمضى معه في المقدمة ، فنراه
يقول :

« وهذه عيون الأخبار نظمناها لمغفيل التأدب تبصرةً ، ولأهل العلم تذكرةً ،
ولسائن الناس ومسوسهم مؤدباً ، وللملوك مستترأحاً ، وصنفناها أبواباً ،
وقرنت الباب بشكله ، والخبر بمثله ، والكلمة بأختها ، ليسهل على المتعلم علمها ،
وعلى الدارس حفظها ، وعلى الناشد طلبها ، وهي لتقاسم عقول العلماء ، وتحتاج
أفكار الحكماء ، وزبدة المختص ، وحليمة الأدب ، وثمار طول النظر ،
والتخير من كلام البلغاء ، وفطن الشعراء ، وسير الملوك ، وآثار السلف » .

ولو أننا لم نعرف أن ابن قتيبة هو الذي كتب هذا الكلام ، وسألنا عن صاحبه
لأجبنا توأ الجاحظ ، إذ نشعر كأنما فصل من أسلوبه بخواصه من الموازنات
والمعادلات بين العبارات ، بحيث تتقابل الكلمات في صفوف ، وكل كلمة كأنما
تمسك بمثلتها في العبارة التالية ، وكل عبارة كأنما تصافح أختها السابقة ، فهي
على وتيرتها ومن نفس جنسها ونوعها ، وكان هذا يحدث تماسكاً شديداً في أسلوب
الجاحظ ، لولا ما يداخله أحياناً من استطراد . أما عند ابن قتيبة فلا استطراد
ولا خروج من دائرة الفكرة التي يعالجها ، وكتابته من هذه الناحية مرتبة مبررة
في أدق نسق . ويكفي أن ننظر في فهرس عيون الأخبار فسرى الكتاب من
كنبه العشرة يُفتتح ، ولكل كتاب فصوله المترابطة معه ، وكأنها حلقات في سلسلة
متتابعة وليس في داخلها ما يوهن العلاقات المنطقية بين الكلام ، بل كأنما الكتاب
خيط ممتد أحكم فصوله ونسقت موادته تنسيقاً دقيقاً . وابن قتيبة يخطو
بالتأليف الأدبي من هذه الناحية بعد الجاحظ خطوات واسعة ، إذ لا يسمح لأي
فصل داخلي في كتاب فضلاً عن الكتاب نفسه بأي استطراد يُخلخل الكلام أو
يُفقده سياقه . ولكن إذا كان قد تفوق على الجاحظ من حيث نسق التأليف فإن
الجاحظ يتفوق عليه في وصله الأدب بمجتمعه ، على نحو ما صورنا من صنيعه في
هذا الجانب . وحقاً نجد عند ابن قتيبة أشعاراً معاصرة له ، ولكنه لم يتحك
أخبار الخلفاء والوزراء الذين عاصروهم على نحو ما حكى الجاحظ ، ولا حكى أخبار

طبقات المجتمع وخاصة الطبقة العامة . وهو لذلك لا يُعَدُّ كاتباً واقعياً على نحو ما يُعَدُّ الجاحظ ، وإن كان قد حاول أحياناً أن يقتنى أثره . ومَرَّ بنا أنه بلغ من واقعية الجاحظ أنه لم يكن يجد أى حرج فى أى شىء يخجل منه المتزمتون ، حتى العَوَرَات كان لا يرى فى ذكرها أى بأس ما دام الكلام يستلزم ذكرها ، ويتابعه ابن قتيبة فى تقديمه لعيون الأخبار قائلاً : « إنما مثلُ هذا الكتاب مثل المائدة تختلف فيها مَذاقات الطعوم لاختلاف شهوات الآكلين ، وإذا مَرَّ بك حديث فيه إفصاح بذكر عَوْرَةٍ أو وصف فاحشة فلا يحملنك الخشوع أو التخاشع على أن تصعّر خَدَّكَ ، وتُعَرِّضَ بوجهك ، فإن أسماء الأعضاء لا تُؤثِّمُ ، وإنما المَآثِمُ فى شَتَمِ الأعراض وقول الزور والكذب وأكل لحوم الناس بالغيب » . ومع ذلك فإنه لم يبلغ مبلغ الجاحظ فى صراحته ، إذ كان فى حقيقته محافظاً متزماً لا يستطيع أن يترك لنفسه — مثل الجاحظ — العنان فى الصراحة دون أى مواربة .

ومرَّ بنا أن الجاحظ كان يجعل خلط الجلد بالهزل خاصة قوية من خصائص كتابته ، ومع أن ابن قتيبة كان من أهل السنَّة المحافظين الذين يأخذون أنفسهم بالجد والوقار نراه فى مقدمته لعيون الأخبار يعلن أنه سيأخذ بهذا المنهج فى كتابته ، يقول : « ولم أخُله من نادرة طريفة ، وفطنة لطيفة ، وكلمة معجبة ، وأخرى مضحكة . . . لأروِّحَ بذلك عن القارئ من كَدِّ الجِدِّ وإتعاَبِ الحقِّ ، فإن الأذن مَبْجَاجَةٌ ، وللنفس حَمَمٌ ، والمرح إذا كان حقاً أو مقارباً ، ولأحايينه وأوقاته ، وأسباب أوجبه مُشَاكِلًا ، ليس من القبيح ولا من المنكر ولا من الكِبائر ولا من الصغائر إن شاء الله . وسينتهى بك كتابنا هذا إلى باب المزاح والفكاهة وما رُوِيَ عن الأشراف والأئمة فيهما ، فإذا مَرَّ بك أيها المتزمت حديث تستخفه أو تستحسنه أو تعجب منه أو تضحك له فاعرف المذهب فيه وما أردنا به » .

وإذا انتهينا — كما يقول ابن قتيبة — إلى باب المزاح والفكاهة وهو من أبواب كتاب السؤدد لاحظنا تَوّاً أن فكاهاته ونوادره من طراز آخر غير طراز الجاحظ ، فنهها كثير لا يثير ابتساماً ، وما يثير الابتسام قليل جداً ، ويكفى أن يقول إنها مما رُوِيَ عن الأشراف والأئمة لنعرف مقدِّماً أنها نوادِر وفكاهات يسمح عليها الوقار وأنه يَسْنَدُ أن ترسم معها ابتساماً على الشفاه . ونسوق منها هذه النوادِر عن الشَّعْبِيِّ (من علماء الكوفة) لتُعَرِّفَ طوابعها ومدى ما فيها من المزاح :

« دخل رجل على الشعبي ومعه في البيت امرأة ، فقال لهما : أيكما الشعبي ، فأجابه الشعبي : هذه . وسأل سائل الشعبي عن لحم الشيطان هل يجوز أكله ؟ فأجابه : نحن نرضى منه بالكفاف . ودخل على الأعمش زميله يعوده في مرض ، ونظر من حواه إلى المنزل وما فيه من أثاث بسيط ، ثم قال له : أما أنت فتُعَرَفُ في منزلك أنك لست من أهل القرَّيتين (مكة والطائف) عظيماً . »

وأين هذه النوادر ، من نادرة المعلم الأحمق التي روينها آنفًا ، والتي مثَّلَ فيها الجاحظ حُصْمَتَهُ تمثيلاً هزلياً مضحكاً ؟ . ولا ريب في أن هذا يرجع إلى اختلاف مزاج الشخصيتين ، فالجاحظ أديب فكاه بطبعه متحرر من كل قيد ، يُضْحِكُ وتستغرق في الضحك ولا تستطيع أن تعود منه وتستردّ نفسك إلا بعد ضحك عريض ، وابن قتيبة أديب وقور تغلب عليه المحافظة وإن حاول التحرر ، ويغلب عليه استشعار الجدل ، وكأنه إذا هزَلَ أو تندرَّ خرج عن طبعه ، أو قل كأنه إنما كان يريد أن يتشبه بالجاحظ . ومن بقية هذا التشبيه عنده في باب النوادر والمزاح أن نراه يزعم في تقديمه لكتاب العيون أنه سيحكى النوادر العامة بلفظها وبما فيها من لحن ، ومربنا كلام الجاحظ في هذا الموضوع وأنه ينبغي أن تظل النادرة العامة بصيغتها وأحسنها وإلا ضاع ما فيها من فكاهة إذا انقلبت ألفاظها من العامة إلى الفصحى وتبدلت صورتها الفكاهة ، ويقول ابن قتيبة محتجاً لذلك : « اللّٰسِحْنُ إن مرَّ بك في حديث من النوادر فلا يذهب عليك أنا تعمدها وأردنا منك أن تتعمدها ، لأن الإعراب ربما سَلَبَ بعض الحديث حسنه ، وشاطر النادرة حلاوتها ، وسأمثل لك مثلاً ، قيل لِمُزَيْدَ المديني (المضحك) - وقد أكل دُهاً كظَهْ (أتخذه) - قِي (قِي) فقال : ما أقي ، أقي نَقْماً (مخاً) ولحم جدوى ! مرَّ قِي طاق لو وجدت هذا قياً لأكلته . ألا ترى أن هذه الألفاظ لو وفيت بالإعراب والهمز حقوتها لذهبت طلاوتها ، ولا استبشعها سامعها » . والنادرة نفسها التي تمثَّل بها ابن قتيبة ثقيلة وتدلُّ - هي وما سبقها بوضوح - على أنه من مزاج آخر غير مزاج الجاحظ .

والجاحظ في الواقع قمة بعيدة المنال في الأدب العربي كله ، ومن الظلم لابن قتيبة أن نزنه به ونقيسه إليه ، فقد كان فريداً في عصره والعصور السابقة جميعها ، ويكفي ابن قتيبة مجداً أدبياً أسلوبه الواضح الناصع الذي وصفناه وأنه أخرس إلى الأبد

أصحاب الشعوبية بما سوى للعربية في عيون الأخبار من هذا الأدب العربي الرفيع الذي وسَّعَ مختلف الثقافات ومزج بينها بحيث أصبح له طوابع جديدة مميزة .

٤

سعيد بن حميد (١)

أبوه حُصَيْنْد بن سعيد فارسي الأصل ، كان من أهل النباهة في بغداد ووجَّهًا من وجوه المعتزلة وكان يُحسِّن نظم الشعر ، ولا نعرف متى وُلد له سعيد ، ويبدو أنه عُنى به عناية شديدة منذ نعومة أظفاره ، فألحظه بكتَّاب حفظ فيه شيئًا من القرآن والنقء والحديث والنحو واللغة والأشعار والحساب ، حتى إذا خطا خطوات في العقد الثاني من عمره دفعه إلى حلقات الدرس في المساجد ، ويُرَوَّى أنه عُنى خاصة بأن يلحقه بحلقة ابن الأعرابي المتوفى سنة ٢٣١ وأنه سمع منه أرجوزة في نحو عشرين بيتًا وحفظها بمجرد سماعها ، مما يدل على ذكائه وقوة ذاكرته . ولم يكتف سعيد بحلقة هذا العالم اللغوي الكبير ، فقد مضى يختلف إلى حلقات العلماء من كل صنف ، مُكَيِّبًا عليها ناهلا منها متمثلا لما يقدر فيها من غذاء أدبي وفكري ، مما جعل المسعودي يقول عنه : « كان سعيد حافظًا لما يُستحسن من الأخبار ويستجد من الأشعار متصرفًا في فنون العلم ، مُستَعِمًّا إذا حدث ، مُفِيدًا إذا جواس » . ولعل ذلك ما جعل فضلا الشاعرة تُعجَّبُ به ، وتعقد بينها وبينه مودة ظلت فترة طويلة ، وظلا يتبادلان فيها الرسائل الشعرية ، على نحو ما مرَّ بنا في حديثنا عن فضل . وكان قد ملأه الطموح بالنجاح في سامراء عاصمة الخلافة فتحول من بغداد إليها . ولا ريب في أن حلاوة محضره وعدوبة أحاديثه جعلتا كثيرين من أدباء عصره تشرَّب أعناقهم إلى صحبته ، وكانت فيه دُعابة تجعل مجلسه خفيف الروح ، مما جعل أبا علي البصير وأبا العيساء نديمي المتوكل يألفانه ويختلفان إلى مجالسه ، وتدور بينهما مداعبات ومعاتبات ومكاتبات ، كما قال الرواة . ويبدو

رسائل سعيد بن حميد وأشعاره ليونس
أحمد السامرائي (طبع بغداد) وجمهرة
رسائل العرب لأحمد زكي صفوت .

(١) انظر في ترجمة سعيد ورسائله الفهرست
ص ١٨٥ والأغانى (طبعة الساسي) ٢ / ١٧
ومرج الذهب ٤ / ٦١ وابن خلكان وكتاب

أنه كان ينتظم بين كُتَّاب الدواوين لعهد المتوكل ، إن لم يكن قد انتظم فيها قبل ذلك ، وإنما يدفعنا إلى هذا الرأي ما اشتهر به من تعصبه على آل علي بن أبي طالب تعصباً شديداً حتى ليقول ابن المعتز : « كان سعيد من أشد الناس نَصَباً (عداء) لعلی وانحرافاً عن آل الرسول عليه السلام »^(١) ويقول المسعودي : « كان يتنصَّب ويظهر التسنن والانحراف عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وعن الطاهرين من ولده » . ومرةً بنا في غير هذا الموضوع موقف المتوكل من العلويين وأمره بهدم قبر الحسين في كربلاء وانحرافه عن علي وآله ، وكأن سعيداً اعتنق أفكاره إما حقيقة وإما رياء للخليفة الموظف بدواوينه . على كل حال نطن في هذا الانحراف عند المتوكل وسعيد معاً أنه كان يعمل في ظله ، وأنه استحال بوقاً من أبواقه . ويقول صاحب الفهرست إن له كتاب انتصاف العجم من العرب ويعرف بالتسوية ، والكتاب لم يصلنا ، ولا ندرى هل كان ينحرف عن العرب بدورهم انحرافاً شديداً أو انحرافاً خفيفاً ، على أن في كلمة ابن النديم أن الكتاب يُعرف بالتسوية ما قد يشير إلى أنه لم يكن شديد العصبية فيه على العرب وأنه إنما كان يطالب بالتسوية بينهم وبين الأعاجم ، والتسوية كما مرَّ بنا في هذا الكتاب وكتاب العصر العباسي الأول لا تدخل في العصبية المنحرفة لدى بعض الأعاجم والمعروفة باسم الشعوبية . وفي أشعاره ما يدل على أنه كان معتزلياً مثل أبيه على نحو ما نرى في قوافه^(٢) :

قد قلتُ بالعدل ولكنني عدلتُ في الحبِّ عن العدلِ
فقلتُ بالإجبار مستغفراً لله من قولي ومن فعلي

فهو يؤمن بنظرية العدل على الله المعروفة عند المعتزلة ، والتي تتيح للإنسان حرية الإرادة والاستطاعة ، حتى يكن ثوابه وعقابه جزاء لما قدمت يداه ، بينما يذهب أصحاب الجبر إلى أن كل شيء بقضاء وقدر وأنه لا مفر من الاستسلام للمقادير .

ولعل في ذلك كله ما يصور شخصية سعيد وأنه كان مثقفاً ثقافة واسعة ، ثقافة بالعربية وبمواد المعرفة الأجنبية ، وهياً له ذلك أن يصبح من كُتَّاب الدواوين

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز ص (٢) كتاب رسائل سعيد بن حميد وأشعاره

مبكراً . وما يزال يرقى فيها وأعين رؤسائها ترمقه وتلاحظه ، إذ كان شاعراً بارعاً
وكاتباً نابغاً .

وكانت أولُ حادثة لمع فيها اسمه البيعة المنتصر بعد مقتل أبيه المتوكل سنة ٢٤٧ ،
فقد ذكر أن أحمد بن الحبيب وزير المنتصر قال له : ويلك يا سعيد ! أمعلك
كلمتان أو ثلاث تأخذ بها البيعة ؟ قلت : نعم وكلمات ، وعملتُ كتابَ البيعة .
وهو كتاب طويل استهلّه بقوله^(١) :

« بسم الله الرحمن الرحيم . تباعون عبد الله المنتصر بالله أمير المؤمنين بيعة طوع
واعتماد ورضاً ، ورغبة بإخلاص من سرائركم ، وانشراح من صدوركم ، وصدق
من نيّاتكم لامُكْرَهين ولا مُجْبَرين ، بل مقرّين عالمين بما في هذه البيعة
وتأكيدها من طاعة الله وتقواه ، وإعزاز دين الله وحقه ، ومن عموم صلاح عباد الله
 واجتماع الكلمة ، ولِسَمِّ الشَّعْثِ ، وسكون الدِّهْماء ، وأمن العواقب ، وعزّ
الأولياء ، وقَمْعِ الملّحين . . . لا تشكّون ولا تُدْهِنون (تمالّتون) ولا تميّلون ،
ولا ترتابون ، وعلى السمع له ، والطاعة والمسالمة ، والنصرة والوفاء والاستقامة والنصيحة
في السر والعلانية ، والخُفوف والوقوف عند كل ما يأمر به » .

وأكبر الظن أن صوت سعيد انضح في هذه السطور القليلة ، فهو يُعْزِي
أشد العناية باختيار لفظه ، وهو لا يطيل عباراته ، بل يجعلها قصيرة ، حتى لتصبح
كلمة مثل : « طوع واعتماد ورضاً » ، ومثل « اجتماع الكلمة ، ولِسَمِّ الشَّعْثِ ،
وسكون الدهماء ، وأمن العواقب ، وعزّ الأولياء ، وقمع الملّحين » فالكلمات
تتعاقب ، جزلة حقاً ، ولكنها خفيفة على الأفواه والشفاه ، إذ لا تلبث أن تحملها
حتى ترسلها . ويظل كاتباً لأحمد بن الحبيب طوال خلافة المنتصر ، حتى إذا ولي
الخلافة بعده المستعين لسنة ٢٤٨ عزل ابن الحبيب من الوزارة ، واستوزر مكانه
أبا صالح عبد الله بن محمد بن يزداد وسرعان ما عزله واستوزر محمد بن الفضل
الجرجاني ، فجعل رئاسة ديوان الرسائل لسعيد بن حميد^(٢) ، وبذلك أصبح
الكاتب الأول في الدولة الذي تَصْنُدُ عنه جميع رسائلها الديوانية ، ومما كتبه حينئذ
رسالة خطيرة عن محمد بن عبد الله بن طاهر إلى أهل بغداد ، وكان المستعين قد

(١) انظر الطبري ٢٣٥ / ٩ وما بعدها .

(٢) طبري ٢٦٤ / ٩ .

نزلها سنة ٢٥١ بُعْدَ عَنْ سَامِرَاءَ مَدِينَةَ التُّرْكِ وَبَغْيِهِمْ ، فَبَايَعُوا الْمُعْتَزَ ، وَنَازَلُوا ابْنَ طَاهِرٍ بِبَغْدَادٍ فَهَزَمَهُمْ ، حِينَئِذٍ نَرَاهُ يَأْمُرُ سَعِيدَ بْنَ حَمِيدٍ بِكُتَابَةِ رِسَالَةٍ تَذَكُرُ الْوَقْعَةَ حَتَّى تُقَرَّرَ عَلَى أَهْلِ بَغْدَادٍ فِي مَسْجِدِ جَامِعِهَا ، وَهِيَ رِسَالَةٌ طَوِيلَةٌ طَوِيلًا شَدِيدًا نَقُتْطِفُ مِنْهَا بَعْضَ الْفَقْرِ التَّالِيَةِ :

« سَارُوا نَحْوَ مَدِينَةِ السَّلَامِ (بَغْدَادٍ) مُعْلِنِينَ لِلْبَغْيِ وَالْإِقْتِدَارِ ، مُظْهِرِينَ لِلْغَيِّ وَالْإِصْرَارِ ، فَتَأَنَّنَاهُمْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ (الْمُسْتَعِينَ) وَفَسَحَ لَهُمْ فِي النَّظَرَةِ ، وَأَمَرَ بِالْكِتَابِ إِلَيْهِمْ بِمَا فِيهِ تَبْصِيرُهُمُ الرُّشْدَ . . . وَأَنْ يَبَيِّنَ لَهُمْ مَا سَلَفَ مِنْ بَلَاءِهِ عِنْدَهُمْ مِنْ أَسْنَى الْمَوَاهِبِ ، وَأَرْفَعَ الرِّغَائِبِ ، وَالِاخْتِصَاصِ بِسِنَى الْمَرَاتِبِ ، وَالتَّقَدُّمِ فِي الْحَافِلِ ، فَأَبَوْا إِلَّا تَمَادِيًا وَنَفَارًا ، وَتَمَسَّكًا بِالْغَيِّ وَإِصْرَارًا . . . وَقَابَلُوا الْمَوْعِظَةَ بِالْإِصْرَارِ عَلَى الذَّنْبِ ، وَعَارَضُوا التَّبْصِيرَ بِالِاسْتِبْصَارِ فِي الْبَاطِلِ . . . وَصَدَّقَتْهُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ (جُنُودُ الْمُسْتَعِينَ وَابْنُ طَاهِرٍ) فِي لِقَائِهِمْ بِقُلُوبٍ مُسْتَجِيعَةٍ لَهُمْ ، وَعَلِمَ أَنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ وَعْدَهُ فِيهِمْ ، فَجَالَتْ الْخَيْلُ بِهِمْ جَوَاةً ، وَعَاوَدَتْ كُرَّةً بَعْدَ كُرَّةٍ ، طَعَنًا بِالرُّمَاحِ ، وَضَرْبًا بِالسُّيُوفِ ، وَرَشَقًا بِالسَّهَامِ ، فَلَمَّا مَسَّهُمْ أَلَمُ جِرَاحِهَا وَكَسَلَتْهُمْ (جِرْحَتُهُمْ) الْحَرْبُ بِأَنْيَابِهَا ، وَدَارَتْ عَلَيْهِمْ رَحَاها ، وَصَمَدٌ لَهُمْ أَبْنَاؤُهَا ظَنَمًا إِلَى دِمَائِهِمْ ، وَلَوُوا أَدْبَارَهُمْ ، وَمُنَحَ اللَّهُ أَكْتَاْفَهُمْ ، وَأَوْقَعَ بِأَسَهِ بِهِمْ ، فَقَتَلَتْ مِنْهُمْ جَمَاعَةً لَمْ يَحْتَسِرُوا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ بِتَوْبَةٍ ، وَلَمْ يَتَحَصَّنُوا مِنْ عِقَابِهِ بِإِنَابَةٍ . . . فَن قَتِيلٌ غُودِرَتْ جَنَّتُهُ بِمَصْرَعِهِ ، وَنُقِلَتْ هَامَتُهُ إِلَى مَصِيرٍ فِيهِ مُعْتَبَرٌ لغيره ، وَمَنْ لَاجِئٌ مِنَ السَّيْفِ إِلَى الْغَرَقِ لَمْ يَجِرْهُ اللَّهُ مِنْ حَذَارِهِ ، وَمَنْ أُسِيرَ مَصْفُودٌ (مَوْثُوقٌ بِالْأَغْلَالِ) يُقَادُ إِلَى دَارِ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ وَحَزْبِهِ ، وَمَنْ هَارَبَ بِحُسْشَاشَةٍ نَفْسَهُ . . . فَرِقْنَا أَرْبَعًا تَجْمَعُهَا النَّارُ ، وَيَشْمَلُهَا عَاجِلُ النِّكَالِ عِظَةً وَمُعْتَبَرًا لِأُولَى الْأَبْصَارِ » .

وَوَاضِحٌ "تَقْطِيعُ الْعِبَارَاتِ وَتَقَابُلُ الْكَلِمِ فِي الرِّسَالَةِ ، وَكَأَنَّا بِإِزَاءِ حَائِثِكَ ، يَقِيسُ ثِيَابًا مِمَّا ثَلَّةَ مَقْدَرَةً عَلَى مَعَانِيهَا . وَقَدْ يَتَكَامَلُ التَّقْطِيعُ ، فَيُظْهِرُ السَّجْعَ ، وَلَكِنَّهُ لَيْسَ سَجْعًا مُتَكَلِّفًا ، فَلَيْسَ مُرَدَّةً إِلَى مُحَاوَلَةِ صَنْعَةٍ ، وَإِنَّمَا مُرَدَّةٌ إِلَى دَقَّةِ التَّقْطِيعِ ، حَتَّى لَتَأْخُذَ الْعِبَارَاتُ شَكْلَ سَجْعَاتٍ مُتَوَالِيَةٍ . وَمَا نَزَالَ نَتَقَنُّلُ بَيْنَ تَقَاطِيعِ طَرِيفَةٍ ، حَتَّى نَفْصَلَ مَعَ سَعِيدٍ إِلَى تَقْسِيمِ الْجَيْشِ الَّذِي دَارَتْ عَلَيْهِ الدَّوَائِرُ أَقْسَامًا أَرْبَعَةً :

فهم بين قتيل وغريق وأسير وفار على وجهه لا يارى .

ولسعيد تحميدات طريفة كان يضعها بين يدى رسائله الديوانية ، فمن ذلك تحميد كتب به فى فتح نهض به القائد التركى وصيف ، يستهله بقوله (١) :

« أما بعد فالحمد لله الحميد المجيد ، الفعّال لما يريد ، الذى خلق الخلق بقدرته وأمضاه على مشيئته ، ودبره بعلمه وأظهر فيه آثار حكمته ، التى تدعو العقول إلى معرفته ، وتشهد لذوى الألباب بربوبيته ، وتدلّ على وحدانيته ، لم يكن له شريك فى ملكه فينازعه ، ولا مُعين على ما خلق فتلزمه الحاجة إليه ، فليس يتصرف عباده فى حال إلا كانت دليلاً عليه ، ولا تقع الأبصار على شيء إلا كان شاهداً له بما رسم فيه من آثار صنّعه ، وأبان فيه من دلائل تدبيره ، إغذاراً بحجّته ، وتطويلاً بنعمته ، وهداية إلى حقّه ، وإرشاداً إلى سبيل طاعته . . . والحمد لله العزيز القهار ، الملك الجبار ، الذى اصطفى الإسلام واختاره ، وارتضاه وطهره ، وأعلاه وأظهره ، فجعله حُجّةً أمّله على مَنْ شاقّهم (خالفهم) ووسيلتهم إلى النصر على مَنْ عَسَدَ (مال) فى حقهم ، وابتغى غير سبيلهم » .

والسجع كثير فى هذا التحميد ، وهو دليل على أنه ظهر ثمرة لكثرة التقاطيع فى العبارات ، وإحساس الكتاب بأنه لا بأس من استكمال هذه التقاطيع ، ولكن لا على أساس الجور على المعانى ، وإنما على أساس الوفاء بها . وسعيد يستوفى فى أول تحميده صفات الله جلّ شأنه من خلق وتقدير وعلم وحكمة فى تدبير الكون ، مما يشهد بوحدانيته . ونحس أثر قرأته لمباحث المتكلمين حين يلمُّ بالوحدانية إذ يقول : لو كان هناك إلهان أو آلهة لتنازعت فيما بينها على السلطان ، وأيضاً فإن هذا يؤول إلى أن يكون هناك آلهة تُعينه فى الخلق وتساعد ، ولو صحّ ذلك لأصبح الله محتاجاً إليها وانتفت عنه ألوهيته ، إذ يمسه الضعف والعجز من بعض الوجوه ، ويعرض حجة على ربوبيته التأمل فى خلق الإنسان وفى نظام الكون مما يهدى إلى طريق الرّشاد .

ولسعيد بجانب الرسائل الديوانية التى كان يكتبها فى أثناء عمله بالدواوين رسائل إخوانية كثيرة ، منها تهنئات بعيد النيّروز وشوق وعزاء واعتذار ودعوة إلى

مجالس الأنس وشكر وهجاء واستمناح لبعض الأشخاص وتوصيات ، ونعم طائفة منها بادئين بتهنئاته في عيد النيروز ، فمن ذلك رسالة إلى أبي صالح يزداد وزير المستعين^(١) :

« النفسُ لك ، والمالُ منك ، والرجاءُ موقوفٌ عليك ، والأمرُ مصروفٌ إليك ، فما عسانا أن نُهدي لك في هذا اليوم ، وهو يوم سهَّلت فيه العادة ، سبيل الهدايا للسادة ، وكرهت أن نخليه من سنَّته فنكون من المقصرين ، أو ندَّعى أن في وسعنا ما يَنفِي بحقك علينا فنكون من الكاذبين ، فاقصرنا على هدية تقضى بعض الحق ، وتقوم عندك مقام أجمل البير ، وهى الثناء الجميل ، والدعاء الحسن ، لا زلت أيها الأمير دائم السرور والغبطة في أتم أحوال العافية ، وأعلى منازل الكرامة ، تمر بك الأعياد الصالحة ، والأيام المفرحة ، فتُخلِّقها وأنت جديد ، وتستقبل أمثالها ، فتلقاك ببهائها وجمالها . وقد بعثت الرسول بالسكر لطيبه وحلاوته ، والسفرجل لفأله وبركته ، والدرهم لبقائه عند كل من ملكه ، ولا زلت حُلُوَ المذاق على أوليائك ، مُرّاً على أعدائك ، متقدِّماً عند خلفاء الله الذين تليق بهم خدمتك وتحسن أفنيتهم (ساحاتهم) بمثلك » .

والرسالة تحمل أسلوب سعيد وما يميزه من التقطيعات المتوالية والمعاني المتقابلة ، فالنفس يقابلها المال ، والرجاء يقابله الأمر . ويسقط السجع سقوطاً طبعياً ، كأنه ثمر يسقط من شجرة مورقة . ويمسح على ذلك لطف الحضارة ، وما يمتاز به أهلها من دقة الحسِّ ورهافة النوق ، على نحو ما يتضح في المعاني التي تحملها الهدية ، فالسكر رمز للحلاوة والسفرجل رمز للبركة والدرهم رمز لبقاء الوزير في عِزِّه . ويكتب برسالة مماثلة إلى الحسن بن مخلد وزير المعتمد على هذا المنوال^(٢) :

« أيها السيد الشريف ! عشت أطول الأعمار بزيادة من العمر ، موصولة بقرائنها من الشكر ، لا ينقضى حق نعمة ، حتى تجدد لك أخرى ، ولا يمر بك يوم إلا كان مقصراً عما بعده ، مُوفياً على ما قبله . إني تصفحت أحوال الأتباع الذين تجب عليهم الهدايا إلى السادة ، فالتمست التأسي بهم في الإهداء ، وإني إن

(١) المقد الفريد ٢٨٢ / ٦ وديوان المعاني

(٢) عين الأخبار ٣ / ٣٩ ، والمقد الفريد ٢٨١ / ٦ وديوان المعاني ٩٤ / ١ .

أهديت نفسي فهي ملك لك ، لاحظ فيها لغيرك ، وإن رميتُ بطرفي إلى كرائم مالى وجدتها منك . . . وفزعتُ إلى مودتي فوجدتها خالصة لك قديمة غير مستحدثة فرأيتُ إن أنا جعلتها هديتي لم أجدد لهذا اليوم الحديد بيراً ولا لَطَفَها (هدية) ولم أفسد منزلة من شكرى بمنزلة من نعمتك إلا كان الشكر مقصراً عن الحق ، والنعمة زائدة على ما تبلغه الطاقة ، فجعلت الاعتراف بالتقصير عن حَقِّك هدية إليك ، والإقرار بما يجب لك بيراً أتوصِّل به .

والرسالة تحمل في جوهرها معاني الرسالة السابقة ، وفيها نفس التلطف ، وإن كان قد ازداد رقة في الدعاء وفي التعبير عن الاعتذار بالتقصير ، فليس هناك ما يستطيع تقديمه حتى نفسه ومودته قد مهما من قبل ، ولم يبق في طاقته سوى الحمد والثناء والشكر الذى لا يماثل شكر ، وتتوافر التقطيعات في الرسالة ويظهر السجع أحياناً في خفة وبدون أى تكلف لجهد أو عناء . ويكتب لصديق عزُل عن عمله ، مسلياً له (١) :

« حفظك الله بحفظه ، وأسبغ عليك كرامته ، وأدام إليك إحسانه ، إن سرورى بصرفك أكثر من سرور أهل عملك بما خصُّوا به من ولايتك . وقد كنت - أعزَّكَ الله - فيما يُربِّأ بك عنه بما أنت عليه في قدرك واستهالك ، ولكننا رجونا أن يكون سبباً لك إلى ما تستحق ، فطبتنا نفوساً بالذى رجونا . فالحمد لله الذى سلَّمك منه ، ونسأله تمام نعمه عليك وعلينا فيك ، بتبليغك أملك وآمالنا فيك وشفع (قرن) ما كان من ولايتك بأعظم الدرجات ، وأشرف المراتب ، ثم خصَّكَ الله بجميل الصَّنْع ، وبلِّغك غاية المؤمنين . إن من سعادة الولي - حفظك الله - وأعظم ما يُخصَّص به في عمله وولايته السلامة من بوائق (دواهي) الإثم ، وفوائب الدنيا وشرها ، والعاقبة مما يخاف منها ، وقد خصَّكَ الله منها - بِمَنِّهِ وَطَوْلِهِ (إنعامه) ما نرجو أن يكون سبباً لك إلى نيل ما تستحق من المراتب ، والله نسأل إيزاعك (إلهامك) شكر ما مَنَّ به عليك ، وتبليغك غاية أملك في جميع أمورك ، برحمته وفضله . »

والرسالة طريفة غاية الطرافة إذ لا عكس سعيد العزاء عن العمل ، وجعله تهنئة

خليلةً بأن تُنْصَبَ لها أعلام السرور . ومضى يصوّر سروره وأنه يزيد على سرور أهل عمله حين جاءهم نبأ تولية هذا العامل عليهم . ويؤكد سروره بقوله إنه طاب نفساً ، وقد أحسن اختيار هذه الكلمة . ثم أخذ يحمد له السلامة من هذا العمل ويعدُّ ذلك نعمة ليس فوقها نعمة ، ويدعو له بأن يبلغ أعظم الدرجات وأشرف المراتب ، كما يدعو له بأن يعرف حق هذه النعمة ويشكر الله عليها أصدق الشكر ، ويتمنى له أن يبلغ غاية آماله . وكأنما الرسالة ضرب من الحيل العقلية التي كانت تدور في المجالس ، والتي كانت تعرض محاسن الشيء ومساوئه . فقد يكون حسناً وينقلب سيئاً ، وقد يكون سيئاً وينقلب حسناً ، ولا يرى فيه إلا الحسن ، بفضل النخائر العقلية التي حازها لنفسه العصر العباسي . وله من رسالة تعزية ^(١) :

« إذا استوى المعزى والمعزى في النائية استغنى عن الإكثار في الوصف لموقع الرزية... وأنا أقول إنا لله وإنا إليه راجعون ، إقراراً له بالهلكة ، واعترافاً بالمرجع إليه ، وتسليماً لقضائه ، ورضاً بمواضع أقداره ، وأسأل الله أن يُصَلِّيَ على محمد صلاة متصلة بركاتها ، وأن يُوقِّفَكَ لما يُرْضِيهِ عنك قولاً وفعلاً ، حتى يُكْمَلَ لك ثواب الصابر المحتسب وجزاء المطيع المنتجز للوعد ، ويَرْحَمَ فلاناً ويُحْلِلَهُ أعلى منازل أوليائه الذين رضى سَعْيِهِمْ ، وتطول بفضلهم عليهم ، إنه وليٌّ قدير » .

والحيلة أيضاً في هذه الرسالة واضحة ، فقد جعل وفاة الشخص شركة بينه وبين المعزى ، فهو أيضاً حرى بأن يُعزَّى فيه ، وكأن المصيبة فيه مصيبة عامة ، والحزن عليه لا يقف عند من أرسل له هذه الرسالة ، بل يشمل كثيرين هو أحدهم . وقد أخذ يحتال على أن يَسْأَلُوْهُ عنه صاحبه ، تسليماً للقضاء ، واعترافاً بأن كل من عليها فان ، ورضاً بالمقادير ، وإنه ليدعو الله أن يوفق صاحبه للصبر على المصيبة ، حتى يحوز ثواب المحتسب الصابر ، ويدعو للمتوفى أن يرحمه الله وينزله مع أوليائه وأصفياه في الدرجات العلية . وله يهنئ بعض إخوانه بولاية ^(٢) :

« أنا أهني بك العمل الذي وكيته ، ولا أهنئك به ، لأن الله أصاره إلى من يورده موارد الصواب ، ويصدره مصادر الحجة ويصونه من كل خلل وتقصير ، ويمضيه بالرأى الأصيل ، والمعرفة الكاملة . قرآن الله لك كل نعمة بشكرها ،

(٢) جمهرة رسائل العرب ٤ / ٢٨٩ .

(١) جمهرة رسائل العرب ٤ / ٢٩٢ .

وأوجب لك بطوّله المزيد منها، وأوزعَكَ (أهملك) من المعرفة بها ما يصونها من الفن ويحوطها من النقص .

والرسالة مع إيجازها تبدأ بجيلة من حيل الفكر العباسي الحصب الحافل بما يلفت السامع ويروعه ، وهي أن العمل هو الذى يهنأ بهذا الوالى ، لا أن الوالى هو الذى يهنأ به ، إمعاناً فى المدح والإطراء ، فقد كان من حسن حظ هذا العمل أن صار بيد من يدبره على خير وجه ممكن فى الإيراد والإصدار ، ومن يصونه ويحفظه من أى خلل أو تقصير ، مع الفكر الحصيف والمعرفة التامة . ويدعوله بالأمن فى عمله والسلامة من الفتن والثورات ، وهو خطاب مقتضب ، ولكنه جامع شامل ، مع اللفظ المنتقى والأسلوب المصفى . وله من رسالة فى ذم بعض الأشخاص وهجائه ^(١) : « رجلٌ يَعْنِفُ بالنعم عُسْفَ من قد ساءته بمجاورتها ، ويستخفُّ بحقها استخفافاً من لا يخفُّ عليه محملها ، ويقصّر فى الشكر تقصير من لا يعلم أن الشكر يرتبطها . . فكيف يتسع الصدر للصبر عليه ؟ إن الله لا يخاف الفوت فهو يُمَهِّلُهُ ، وإنه إن مات لم يخرج من سلطان الله جلّ وعزّ إلى سلطان غيره فيعاجله . »

وهذه الكلمات على قصرها من ألدع الهجاء ، وهل هناك شخص تسوؤه النعم سوى هذا الشخص الذى لا يعرف قدرها ، بل إنه يعنف بها عنف عدوّ غاشم ، وإنه ليستخفُّ بحقوقها استخفافاً مَنْ ثقل عليه النهوض بها وحملها ، وهو لذلك كله يطرح الشكر عليها اطراح الجاهل بأن الشكر هو الذى يكفل لها البقاء ، وهو لا يدري أنه مع طغيانه وبغيه على نعمة ربه سيلقى جزاءه ، إنه يُمَهِّلُهُ ، لأنه لا يعرف أنه لن يخرج حين يموت عن دائرة سلطانه . والكلمات والعبارات مختارة بدقة . وله فى الدعوة إلى يوم أنس من رسالة ^(٢) :

« لا عُدْرَ فى التخلف عنك ، وإن حال الاشتغال بيننا وبينك ، فإن كنت ساحت على العُدْر قبل الاعتذار ، وسبقت إلى فضيلة الاغتفار ، فلا زلت على كل خير دليلاً ، وإليه داعياً ، وبه آمراً ، وقد التقينا قبل وصول كتابك لقاء أحدث قَطْرًا (دموعاً منهجرة) وهاج شوقاً ، وأرجو أن تتسع لنا الجمعة بما بخلت به الأيام ، فننال حظاً من محادثتك والأنس بك . »

وهو يعترف بأنه مقصر وخليق بالاعتذار لتخلفه عن زيارة صديقه ، ويعتذر بكثرة أعماله ، ويتلطف معه ، فيجعله قَبِيلَ عذره قبل تقديمه وغفر له تقصيره . وانظر كيف عبّر عن مدى تأثيرهما عند اللقاء بقوله إنه لقاء أحدث قَطْرًا . ودائمًا لانفوته الكلمة الموجزة المعبرة أدق تعبير وأقواه . ومن رسالاته عن فضل محبوبته وقد ظن بها الظنون وأنها تعشّرت في حبال غيره^(١) :

« أصبحتُ — والله — من أمر فضل في غرور ، أخادع نفسي بتكذيب العيان ، وأمنيتها ما قد حيل دونه . والله إن إرسالي إليها — بعد ما قد لاح من تغييرها — لذلٌّ ، وإن عدلى عنها — وفي أمرها شُبُهَةٌ — لعجز ، وإن تصسّرى عنها لمن دواعي التلف » .

والقطعة محبوكة العبارات ، وقد عمد فيها إلى بيان حالته النفسية لإزاء تغيير فضل عليه ، متصوراً ثلاثة مواقف ، فهو إن راسلها كان ذلك ذلاً له وهواناً ما بعده هوان ، وهو إن انصرف عنها ولا يزال مشتبهاً في أمرها لم يتبين بالضبط قطيعتها له كان ذلك عجزاً منه وتقصيراً ، وهو إن أخذ نفسه بالصبر عنها كان ذلك فوق طاقته وأدّى به إلى التلف والهلاك . ودائمًا نحسُّ عنده دقة التعبير ، وكأن الكلمات سهام تصيب مرماها . وله فصول بديعة تدور في كتب الأدب من مثل قوله في رسالة لصديق مصوراً مودته^(٢) :

« إني أهديت مودتي إليك رغبةً ، ورضيت بالقبول منك مثوبةً ، فصرت بقبولها قاضياً لحق ، ومالكاً لرقٍّ ، وصرتُ — بالتسرع إلى الهدية والتخير للمثوبة — مُرْتَهَنَ اللسان بالرضا ، واليدين بالوفا » .

وانظر تصويره لمودته بأنها هدية أهداها لصاحبه ، ودائمًا تُرَدُّ الهدايا ، وهو لا يريد لها رداً ولا جزاء سوى قبول الصديق لها ، ويقول إنك إن قبلتها أصبحت ناهضاً بحق ومالكاً لعبد ، جعل رِقَهُ في يديك وحرية طوع مشيتك ، وكل ذلك كناية عن مدى إخلاصه في أخوته وصداقته . وهو يصور نفسه ، وقد قدّم الهدية وتخير جزاءها مودة صديقه بل قبوله لها ، قد أصبح لسانه مرتهنًا بجرمتها ويداه مقيدتين بالوفاء لها ونفسه مستعبدة له . ولا تُعرَف بالضبط السنة التي توفي فيها سعيد ، وأكبر

(٢) جبهة رسائل العرب ٤ / ٢٩٧ .

(١) الأغاني (طبعة الساسي) ٢١ / ١١٩ .

الظن أنه عاش إلى أواسط عصر المعتمد (٢٥٦-٢٧٨ هـ) . ولعل في كل ما قدمنا ما يصور مهارته البيانية في الرسائل الإخوانية والديوانية ، فقد كان يُعْنَى أشد العناية باختيار ألفاظه وتقطيع عباراته حتى لينتهي التقطيع أحياناً إلى السجع ، كما كان يُعْنَى بمعانيه وجسلب ما يروق منها بدقته وطرافته .

٥

أبو العباس بن ثوابة (١)

هو أبو العباس أحمد بن محمد بن ثوابة المتوفى عام ٢٧٧ للهجرة ، وهو من أسرة أصلها مسيحي ، عملت في دواوين الخلافة ، منذ أواسط القرن الثالث للهجرة إلى منتصف القرن الرابع . وأول من لمع اسمه منهم محمد بن ثوابة وكان يعمل في دواوين الدولة ، وهو من ممدوحى البحري ، وكان ابنه جعفر يتولّى ديوان الرسائل في أيام عميد الله بن سليمان بن وهب الوزير بأخرة من عصر المعتمد ، وقد توفى سنة ٢٨٤ للهجرة ، وخلفه على رئاسة هذا الديوان ابنه أحمد بن محمد بن جعفر بن ثوابة ، وسبق أن عرضنا له في الفصل الماضي وقلنا إنه كان يسجع في رسائله الديوانية ، وقد توفى سنة ٣١٢ فخلفه على رئاسة الديوان ابنه أحمد حتى سنة ٣٤٩ للهجرة . ويبدو أن السجع نما على أيدي هذه الأسرة وكانت عاملاً من عوامل انتشاره في الكتابتين الديوانية والإخوانية .

وليست بين أيدينا معلومات واضحة عن نشأة أبي العباس بن ثوابة ، ولكن لا بد أن أباه وكان يشتغل في الدواوين أخذ مبعراً بالدرس والتحصيل ، بادئاً معه من الكتاب ، ومنتهياً به إلى حلقات العلماء في المساجد ، حتى إذا غزرت ثقافته تحول به إلى الدواوين الرسمية ونراه متألقاً فيها منذ عصر المهتدي (٢٥٥-٢٥٦ هـ) ، وما زال نجمه في صعود حتى اختير لرئاسة ديوان الرسائل لأوائل عصر المعتمد . وكانت لانتعاشه لإلمن أثبت كفاءته وعُرفت بلاغته . وكان طبيعياً أن تكثر الصلات والمودات بينه وبين سعيد

رسائل العرب ٤/ ٣٢٣ وما بعدها .
(٢) الأغاني (طبعة السامي) ٢٠/ ٦٩ .

(١) انظر في أبي العباس بن ثوابة الفهرست
ص ١٩٣ ويعين الأدباء ٤/ ١٤٤ وجمهرة

ابن حميد وغيره من كتّاب عصره وشعرائه، ولابن الرومي فيه مدائح مختلفة ، وكذلك للبحرّي ويروى له توقيع وقّع به في قصيدة له ، استمنحه فيها قضاء حاجة على هذا النحو : « مقضية ولو أتلفت المال ، وأذهبت الحال ، فقل - رعاك الله - ما شئت منبسطاً ، وثيق بما أنا عليه لك مغتبطاً ، إن شاء الله تعالى » . ويبدو أنه ظلّ على ديوان الرسائل حتى تولى إسماعيل بن بلبل الوزارة للمعتمد سنة ٢٦٥ ، وكانت بينهما وحشة شديدة . ودخل عليه أبو العباس ووقف بين يديه ، ثم قال أيها الوزير : (لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين) ، فقال له ابن بلبل : (لا تثريب عليكم) يا أبا العباس ، ورفع مجلسه ، غير أنه صرفه عن الديوان وولاه نواحى بابل وسواد بغداد الغربى ، فضايف - وزاد - في الدعاء له ، ويقال إنه ظل على تلك النواحى حتى وفاته .

وأبو العباس أحد كتّاب العصر وبلغائه ، وفي أخباره أنه كان شديد العناية بأناقته وبكل ما يتصل بحياته شديد التكلف ، ويضرب الرواة لذلك مثلاً بعبارات له شديدة الغرابة ، وأنه قال يوماً وقد استمع إلى حاجم : على بماء الورد أغسّل في من كلام الحاجم . وأثير له عهد طويل إلى أحد الولاة من الموفق ولّى عهد المعتمد ، ومربّنا أنه كان الخليفة الحقيقي طوال عصر أخيه ، ولذلك كانت العهود إلى الولاة تصدر عنه ، والعهد يبتدىء على هذا النمط ^(١) :

« هذا ما عهد به أبو أحمد الموفق بالله ولّى عهد المسلمين إلى فلان حين ولاه الصلاة بأهل كورة الرّى ودُنْباوند ونواحيهما ، والحرب والأحداث فيهما . أمره بتقوى الله وطاعته ، وخشيته ومراقبته ، في سرّية وعلانية ، وظاهر أمره وباطنه والعمل بما أمر الله به ، والانتهاض عما نهى عنه فيما وافقه وخالفه ، وأرضاه وأسخطه فلمنه من يتق الله يتق الله ، ومن يعتصم به يهنّده ، ومن يطعنه يتولاه ويسكفه (إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) . وأمره أن يملأ قلبه خيفة الله وهيبته والتفويض إليه ، والاعتماد عليه ، وأن يجعل كتاب الله عزّ وجلّ له إماماً ، وسنّة نبيه صلى الله عليه وسلم مثلاً ، فإن فيهما دلالة وتبييناً ، وضياءً ونوراً وشفاءً لما في الصدور وهُدًى ورحمة للمؤمنين . وأمره أن يكون أولُ

ما يُعْنَتِي به ويقْدَمُه ، ويراعيه ويؤثره ، إقامة الصلاة لمواقبتها بإتمام ركوعها وسجودها وأداء فَرَضِ الله فيها ، إذ كانت عماد الدين ، وأفضل ما تقرب به المؤمنون ، وكان مَنْ أَضَاعَهَا وقَصَّرَ في واجبها ، أشدَّ تضييعاً لما سواها من حقوق الله عزَّ وجلَّ وفرائضه ودينه وشرائعه (وإنها لكبيرةٌ إلا على الخاشعين) . وأمره أن يُلْهِمَ نفسه في كل حال من حالاته وصغير وكبير من أمره ، ذكرَ الله جل ثناؤه ، وألا يُمْضِيَ أمراً إلا بعد استخارة الله عزَّ وجلَّ فيه ، واستقصائه في ذلك بالذي هو له أَرْضَى ، وعنده أَرْكَى ، فإن العاقبة للتقوى ، وإن أفضل الأمور خَيْرُهَا عاقبةً ، وأحمدُهَا مَغْشَبةً ، وما التوفيق إلا بالله ، عليه يتوكل المتوكلون . »

وقد استهلَّ أبو العباس بن ثوبة العهد — كما يلاحظ القارئ — بالسجع ، ثم رآه سيطول إذ يمتد نحو ثمانى صفحات ، فانصرف عنه مكتئباً بتقطيع العبارات وباصطفائها واصطفاء الألفاظ التي تتألف منها . وقد حاول أن يُنْهِى كل أمر بآية أو كلمة من القرآن تناسبه . وهو يُمْضِي في العهد ، فيأمر الوالي بحسن سياسته لأهل عمله وأخذهم بالعدل والنَّصْفَةِ وإحقاق الحقوق ، وأن يتخذ مساعديه في إدارة الحكم من أهل العفاف والكفاية ، وأن يقدم أهل الفضل والصلاح والمشايخين للدولة ويتخذ منهم مستشاريه ، وأن يقيم الحدود متبعاً لما جاء في محكم التنزيل والسنة النبوية وما نصَّ عليه الفقهاء ، وأن يجعل دَبْرَ أذنه ما قد يكون بينه وبين بعض الرعية من حقد وضغينة ، وأن يجمع أهل الدعارة والفساد بإقامة الحدود عليهم دون إفراط ، فإن لكل شيء قدراً ، وأن يصرف عنايته إلى أطراف ولايته ، وخاصة التي تقابل الأعداء فيسدَّ خللها ويرتق فتَنُّها ، ويعاجل أى متسرع للفتنة أو الثورة بها . ويطلب إليه أن يراقب التجار ولا يدعهم ينقلون زَاداً ولا عَسَاداً من الأسلحة إلى ديار العدو ، وينزل العقاب بمن يخالف منهم هذا الأمر ، وهو يدلّ على يقظة الدولة . ويأمره أن يحسن التعاون مع صاحب الخراج وأن يقدم له ما يريد من المساعدين ، حتى يَسْدِرَ الخراج ويكثر حيلابه ، كما يأمره أن يتفقد مَنْ في السجون ، ويكثر عَرَضَهم والنظر في أمورهم والأسباب التي حُبَسُوا بها ، آخذاً بمشاورة أهل الفقه فيهم . ومن أطرف ما في العهد أن نراه يأمر الوالي بالأمانة في

ولايته ، وألا يأخذ أى ضرائب استثنائية من الرعية ، لا بحجة الضيافة ولا بأى حجة أخرى . ومرةً بنا فى الفصل الأول كيف أن الولاة تحولوا لصوصاً وقطّاع طرق يختلسون الأموال من الناس . إن أى رحمة أو شفقة ، وكأن أبا العباس بن ثوبة يشير إلى ذلك على لسان الموفق إذ يقول للوالى إنه :

« أمره ألا يتقسم على أهل عمله قسمةً بسبب نزل (ضيافة) ولا غيره ، مما كان شرار العمال يُوظّفونه ويقسمونه على أهل أعمالهم ، ويتجنب الطعم (وجوه المكاسب) الشائنة ، والمكاسب الرديئة . ويحذر أن يعرض لشيء منها ، أو يطلقه لأحد من كفّاته (معاونيه) فيترد عليه من النكير ما هو حريّ بتوقيه والتصون عنه » . ويعرض فى العهد لوظيفة الحسبة . وكان المحتسب يراقب الأسعار فى الأسواق ، ويقوم فيها مقام رجل الشرطة والقاضى معاً ولذلك كان يُختار من رجال الفقه والشرعية . فهو يحقق ويحكم ويدين ويردّ عن المظلوم الظلم ، ويراجع المكاييل والموازين ، ويعاقب الغاشّ المخادع ، وفى ذلك يقول عن لسان الموفق لواليه :

« وأمره أن ينخير الحسبة على أهل الأسواق وسائر أصحاب الصناعات والبياعات (السلع) فى عمله منّ يُعرف بالقصد فى مذهبه ، والستر فى نفسه ، والعفاف فى طعمته (وجهه مكسبه) واستيفاء الحق فيما يقلّده ويستكفى القيام به ، ويتقدّم إليه فى أخذ كل طبقة من أهل الطبقات التى يقع عمله فى الحسبة فيها بتصحيح المعاملة ورفع الغشّ ، وتجنب كل ما عاد بمضرة على المسلمين أو تحييف (تنقص) لهم ، وتغيير (قياس) المكاييل والموازين فى سائر عمله ، وإقامتها على الوفاء والعدل ، ونحسبها بالرصاص ، وحمل المبتاعين فيها وغيرهم عليها ، والإشراف على ما يرسمه ، ويتقدم بامتناله فى سائر جوه الحسبة ، حتى لا يخالف شيء منه إلى غيره ، ومعاقبة منّ عسى أن يرّده ، ويعظ منّ سواه ، فإن الله عزّ وجلّ أوفوا الكيّل الناس أشياءهم ولا تكونوا من المخسرين وزنوا بالقسط المسته ولا تعشوا فى الأرض مفسدين) » .

وهى قطعة طريفة فى العهد ، إذ تصوّر أعمال رجال :

يُسْتَرْطُ فِيهِمْ مِنْ مَعْرِفَةِ بِالشَّرِيعَةِ وَحُدُودِهَا وَأَنْ يَكُونُوا مِنَ التَّقَاةِ أَهْلُ السُّتْرِ وَالْعَافِ حَتَّى لَا يَتَحَوَّلُوا إِلَى ذُنَابٍ فِي الْأَسْوَاقِ فَارْضِينَ عَلَى التَّجَارِ وَأَصْحَابِ الصَّنَاعَاتِ هُدَايَا وَرِشَاوَى ، مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تَفْسِدَ الذِّمَّ فَسَادًا لَا حَدَّ لَهُ ، وَبِالتَّالِي تَفْسِدَ الْأَسْغَارَ وَالْبَيْعَ وَالشِّرَاءَ . وَيَصَوِّرُ مَهْمَةَ الْمُحْتَسِبِ بِأَنَّهَا تَصْحِيحُ الْمَعَامَلَاتِ بَيْنَ النَّاسِ وَرَفْعُ الْغُشِّ وَالْخِدَاعِ وَالْمَرَاجَعَةُ الدَّائِمَةُ لِعِيَارِ الْمَكَايِيلِ وَالْمَوَازِينِ وَخَتْمُ الدَّقِيقِ مِنْهَا خَتْمًا يَدُلُّ عَلَى صِلَاحِهِ ، بِحَيْثُ لَا يَسْتَعْمَلُ سِوَى الْمَوَازِينِ وَالْمَكَايِيلِ الْمُخْتَوِمةِ الَّتِي أَقْرَأَهَا الْمُحْتَسِبُ ، وَكُلُّ مَنْ حَدَّثَهُ نَفْسُهُ بِمُخَالَفَةِ ذَلِكَ يَنْبَغِي أَنْ يُنْزَلَ بِهِ الْمُحْتَسِبُ عِقَابًا رَادِعًا . وَقَدْ كُتِبَ الْعَهْدُ بِدُونِ سَجْعٍ ، وَكَانَ ابْنُ ثَوَابَةٍ يَفْزَعُ إِلَى السَّجْعِ كَثِيرًا ، وَلَعَلَّهُ لَاحِظٌ أَنَّهُ مُوجَّهٌ لِلرَّعِيَةِ كَمَا جَاءَ فِي نَهَايَتِهِ ، وَأَنَّهُ يَنْبَغِي لِلذَّكَاءِ أَنْ يَكُونَ فِي لُغَةٍ وَاضِحَةٍ لَا يَحْتَجِبُ السَّجْعُ بَعْضُ مَعَانِيهَا ، وَلَا يَحُولُ بَيْنَ الْعَوَامِ وَتَبَيَّنَ مَا فِيهَا .

وَأَثَرَتْ لَهُ رِسَائِلُ إِخْوَانِيَّةِ كُتِبَ بِبَعْضِهَا إِلَى نَفَرٍ مِنَ الْوُزَرَاءِ ، وَهُوَ فِيهَا تَارَةً يُكْثِرُ مِنَ السَّجْعِ وَتَارَةً يَتَخَفَّفُ مِنْهُ بَلْ قَدْ يَهْمَلُهُ تَمَامًا عَلَى نَحْوِ مَا نَجِدُ فِي الرِّسَالَةِ التَّالِيَةِ الَّتِي كُتِبَ بِهَا إِلَى الْوَزِيرِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ بُلْبُلٍ يَهْنَثُهُ بِمَصَاهِرَةِ الْمَوْفِقِ وَلِيَّ عَهْدٍ الْمُعْتَمَدِ وَفِيهَا يَقُولُ ^(١) :

« بَلَّغْنِي لِلْوَزِيرِ - أَيْدَهُ اللَّهُ - نِعْمَةً زَادَ شُكْرُهَا عَلَى مَقَادِيرِ الشُّكْرِ ، كَمَا أُرَبِّى مَقْدَارُهَا عَلَى مَقَادِيرِ النِّعْمَةِ ، فَكَانَ مَثَلُهَا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْعَبَّاسِ الصَّوْلِي :

بَنُوكَ - غَدًا - آلُ النَّبِيِّ وَوَارِثُوهُ الْخِلَافَةُ وَالْحَاوُونَ كِسْرَى وَهَاشِمًا

وَأَنَا أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَهَا مَوْهَبَةً تَرْتَبِطُ مَا قَبْلَهَا ، وَتَنْتَظِمُ مَا بَعْدَهَا ، وَتَصِلُ جَلَالَ الشَّرَفِ ، حَتَّى يَكُونَ الْوَزِيرُ - أَعَزَّهُ اللَّهُ - عَلَى سَادَةِ الْوُزَرَاءِ مُوَفِّيًا ، وَبِلَحْمِلِ الْعَادَةِ مُسْتَحَقًّا ، وَلِحَمْدِ الْعَاقِبَةِ مُسْتَوْجِبًا ، وَأَنْ يُلْبَسَ أَوْلِيَاءَهُ مِنْ هَذِهِ الْحُلُلِ الْغَالِيَةِ مَا يَكُونُ لَهُمْ ذِكْرًا بَاقِيًا وَشَرَفًا مُخْلَدًا » .

وَالرِّسَالَةُ تَخْلُو مِنَ السَّجْعِ ، وَلَكِنَّهَا تَحْوِي الْكَثِيرَ مِنَ الْمَهَارَةِ الْفَنِيَّةِ ، وَخَاصَّةً فِي تَقْطِيعِ الْجَمْلِ وَتَقَابُلِهَا وَاسْتِيفَاءِ مَعَانِيهَا ، عَلَى نَحْوِ مَا يَنْضَحُ فِي الْعِبَارَتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ

منها ، واقتبس فيها بيتاً لإبراهيم بن العباس الصولى شديد الصلة بما تريد الرسالة أن تؤدّيه من معان . ويُعقّبه بعبارات مقطّعة متقابلة ، وكأنما الكلمات تتشابه بالأيدى ، فقد كان يعرف كيف يضمّ اللفق إلى اللفق والنظير إلى النظير ، بحيث تناسك الكلمات وكأنها فى بناء متراس . وأشرنا فى الفصل السابق إلى إنكار إبراهيم بن المدبر فى رسالته العذراء التى وجّه بها إلى الكتّاب أن يقولوا فى رسائلهم : « جُعِلْتُ فداك » وإنما أنكر العبارة لاشتراك معناها كما يقول واحتمالها أن تكون فداء من الخير أو فداء من الشر ، ويقول إن كتّاب العسكر (الجيش) وعوامهم أوعوا بهذه اللفظة ، حتى استعملوها فى جميع محاوراتهم وجعلوها دأبهم فى مخاطبة الشريف والوضيع والكبير والصغير . وكأنما صدر أبو العباس بن ثوبة عن روح هذا النقد ، إذ كتب إلى الوزير عبيد الله بن سليمان رسالة خالية من قولهم : « جُعِلْتُ فداك » فعاتبه عبيد الله ، ولم يكذ يسمع عتابه ، حتى كتب إليه برسالة ثانية ، يصوّر فيها نقد إبراهيم بن المدبر السالف ، وفيها يقول^(١) :

« الله يعلم — وكفى به عليمًا — لقد أردت مكاتبتك بالتفدية ، فرأيت عيبًا أن أفديك بنفس لا بد لها من الفناء ، ولا سبيل لها إلى البقاء ، ومنّ أظهر لك شيئًا يضمن خلاقه فقد غشّ ، والأمر إذا كانت الضرورة توجبه ، وتحقق أنه ملك لا يتحقّق ، وعطاء لا يتحصّل ، لم يجز أن يخاطب به مثلك ، وإن كان عند قوم نهاية من نهايات التعظيم ، ودليلا من دلالات الاجتهاد ، وطريقًا من طرق التقرب . »

وقد التمس أبو العباس بن ثوبة لإنكار التفدية علة أخرى غير علة ابن المدبر ، لعلمها أكثر منها تعبيراً عما أصاب الذوق الأدبى فى العصر من رقة بالغة عند بعض الكتّاب ، حتى لتؤذيه الكتابة بالتفدية بنفس فانية غير باقية ، وهو إفراط فى الحسّ والشعور والرقة والدمائة . وبذلك نفهم عبارة أبى العباس السابقة حين استمع إلى كلام حاجم ، فقال : علىّ بماء الورد أغسل فى من كلام الحاجم ، وكان سماع الكلام الذى لا يعجبه لا يؤذى أذنه فحسب ، بل يؤذى فمه ، وإنه لإيذاء غريب ، ولكن لا غرابة أن يصدر من أبى العباس ، فقد كان يتكلف

(١) زهر الآداب ٣ / ١٦ وجمهرة رسائل العرب ٤ / ٣٣٢ .

الدمائة والحسن المفرط والشعور الحاد . وله من فصول في رسالة كتب بها إلى نفس الوزير عبيد الله بن سليمان ، يقول فيه ^(١) :

« لم يؤت الوزير من عدم فضيلة ، ولم أوت من عدم وسيلة ، وغلبة (حرارة) الصّادى (العطشان) تأبى له انتظار الوارد ، وتُعجل عن تأمل ما بين الغدير والوادي ، ولم أزل أترقب أن يُخطرنى بباله ، ترقب الصائم لفطره ، وانتظره انتظار السارى لفجره ، إلى أن برح (انكشف) الخفاء وكُشف الغطاء ، وشمت الأعداء ، وإن في تخلفي وتقدم المقصرين لآية للمتوسمين ، والحمد لله رب العالمين » .

والفصل مكتوب بكل دقة ، فالوزير لم ينسه نقصاً فيه إذ اكتملت فضائله وأوفت على الغاية ، وهو لم يؤت من نقص ، فبلاغته ذائفة معروفة يعرفها القصي والداني ، وإذن فليبحث عن علة ، ويقول إن الحرارة المشتعلة في صدر العطشان تدفعه إلى عدم الانتظار لما قد يرد عليه ، وتُعجله عن النظر فيما بين الغدير والوادي من خيرات ومياه وطيبات . ويمضي فيقول إنه كان يترقب إقباله ترقب الصائم الجائع لفطره والسارى بالليل الداجي لفجره ، غير أن أضواء الصباح العابس تفسدت من الأفق ، فاتضح الخفاء وانكشف الغطاء وأن الوزير لن يشمله برعايته ، وشمت الأعداء . وكأنما يعاتب عبيد الله بكل ذلك عتاباً رقيقاً وهو يختمه بقوله إنه أصبح في عداد المتخلفين ، بينما تقدمت في رحاب الوزير كثرة من المقصرين الذين لا يبلغون شأوه ، ويقول إن في ذلك لآية للناظرين ، ولا ينسى حمد الله رب العالمين الذي لا يُحمد في مكروهه سواء . والعبارات في الفصل متسقة اتساقاً وثيقاً ، إذ لأم أبو العباس بينها بقسطاس دقيق ، ونحس أنسجاماً بين الكلمات منذ العبارتين الأولىين ، وهو انسجام انتهى بهما إلى أن تصبحا سجتين . ويضيف إلى ذلك في العبارتين التاليتين مادة تصويرية طريفة ، حتى إذا سَوَّاهما تلاهما بعبارات يلتحم فيها السجع والتصوير معاً . وبذلك يسبغ أبو العباس بن ثوبة صاحب الدمائة المفرطة والرقعة المتناهية كل ما كان ينتظر له من تأنيق في التعبير الأدبي ، إذ يتحول عنده إلى زخرف خالص ، زخرف يحمل كل ما يريد من وشى السجع ووشى الصور النادرة . وله من جواب عن تعزية ^(٢) :

« وصل كتابك بالتعزية عن أخي ، وقد جَلَسْتُ مصيبتى به وعظمت ، فنسَكَات (جرحت) القلب ، وهَدَّت الركن ، وأذهبت القوة ، ونَغَصَّت العيش ، وأزْرَت بالأمل . فعند الله أحْتَسِبُه ، وإياه أسأل تفضلاً عليه ، وصفحاً عنه ، وتغمداً (غفراناً) لذنوبه ، وصَبْرًا على حادث قضائه فيه ، واستعداداً للموت وتأهباً له ، فإنه مَصْرَعٌ لا بُدَّ منه ، وموردٌ لا مَحْيَصَ عنه » .

والانسجام واضح بين الكلمات والعبارات ، فقد صَوَّرَ حزنه على أخيه بجملة متناسقة ، ولا شك في أنه بذل جهداً عنيفاً في اجتلابها ووضعها متلاحقة ، وكل جملة تضيف خَطًّا إلى لوحة الحزن السوداء ، فعبرةٌ تحمل جرح القلب ، وثانية تحمل انهداد الركن ، وثالثة تحمل ذهاب القوة ، ورابعة تحمل تَنْغِصَ العيش ، وخامسة تحمل الإزراء بالأمل . ويتجه إلى الله بجملة مماثلة يدعو فيها لأخيه ولنفسه أما أخوه فيدعو له بالتفضل عليه والصفح عنه ، والغفران لذنوبه ، ثلاث دعوات ويقابلها لنفسه ثلاث أيضاً : الصبر على حادث القضاء ، والاستعداد للموت بالعمل الصالح ، والتأهب له . وهكذا كل عبارة وكل كلمة كأنما توضع بميزان دقيق يزنها في عبارتها ، ويزن عبارتها بالقياس إلى قرينتها أو قرائنها . ويذكر صاحب معجم الأدباء أن البحترى هجا بنى ثوبة في قصيدة له فبعث إليه أبو العباس يترضاه بهدية نفيسة فردّها وقال لحاملها قُلْ لأبي العباس : قد أسلفتكم إساءة فلا يجوز معها قبول صلتكم ، فكتب إليه :

« أما الإساءة فمغفورة ، والمعذرة مشكورة ، والحسنة يُذْهِبُ السيئات ، وما يَأْسُو (يداوى) جراحك مثلُ يدك ، وقد رددتُ إليك ما رددته عليّ ، وأضعفته ، فإن تلافيت ما فَرَطَ منك أثبتنا وشكرنا ، وإن لم تفعل احْتَسِمْنَا وصبرنا » .

فَتَقَبَّلَ البحترى ما بعث به ووعد أبا العباس أن يأتيه ثناؤه ومديحه . والكلمات التي كتب بها إلى البحترى تحمل نفس خصائصه من وزن الكلام بقسطاس ، وجعله القسطاس هذه المرة يلازم أشد الملاءمة بين العبارات ، فإذا هي تأخذ صورة سجع خالص ، وهو سجع حافل بالعدوبة . ولا نبالغ إذا قلنا إن أبا العباس كان أحد من أعدوا بقوة في القرن الثالث الهجري لشيوع السجع وانتشاره .

خاتمة

هذا الجزء خاص بتاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الثاني ، وقد بدأته بالحدث عن الحياة السياسية وما حدث فيها من تحول خطير ؛ إذ غرب نجم القرس ولم يعد لهم شيء من السلطان والنفوذ ، فقد أصبح النفوذ كله والسلطان كله بيد الجند الأتراك وقوادهم ، وكانوا بلدوا رُحَلَاءً ، لا علم لهم بصناعة ولا بزراعة ولا بتجارة ، ولا بفنون ولا بآداب ، ولا بنظم ملك وسياسة ، وكانوا قد قبضوا على زمام الحكم في أواخر العصر السابق ، وظلوا مسيطرين عليه طوال هذا العصر . وعيشاً حاول المتوكل التخلص منهم ، ولكنهم ظفروا به وقتلوه ، ولوا مكانه المنتصر ، ومضوا يولّون ويعزلون ويقتلون في الخلفاء ، وزادوا عنفهم بهم بأخرة من العصر ، فكانوا يسملون أعينهم . وطبيعي أن تتدهور الخلافة ، وزاد في تدهورها انغماس الخلفاء في اللهو والترف واشتداد سفههم ، إذ مضوا يبنون القصور بالأموال الطائلة ، غير مفكرين في خزائن الدولة ولا فيما ينبغي أن تُنفَقَ فيه الضرائب من مرافق الشعب ومصالحه وإعداد الجيوش بالعتاد المادى والحربى . وفسد الحكم فساداً لا حدَّ له فقد تحول الوزراء إلى لصوص ينهبون أموال الدولة ، وتؤخذ منهم الملايين ويصادرون ولا رادع ولا زاجر ، والشعب يقاسى كل صنوف البؤس والشقاء . وتشبَّ ثورة الزنج في البصرة وتظل أربعة عشر عاماً ، وتشبَّ ثورات القرامطة وتظل سنوات متطاولة ويُقتضى عليها في العراق والشام ، ولكن تظل منها شعبة في البحرين ، تهدّد الدولة وتكلفها كثيراً من الأموال والرجال حتى نهاية العصر . وتكاثرت الأحداث ، وكان من أهمها إعلاء الدولة لأهل السنة على المعتزلة ووقف القول بخلق القرآن وامتحان الفقهاء فيه . وكانت الغزوات الصيفية للروم البيزنطيين لا تزال ذاهبة آية ، وتكاثرت ثورات العلويين في الكوفة وطبرستان ، وثار الصفاريون في سجستان وكرمان وفارس ، واستسلموا آخر الأمر . ولا نصل إلى أواخر العصر ، حتى يتغلب كثير من الحكام على ولاياتهم ، وكأن ذلك كان إيذاناً بانتهاء هذا العصر وانتهاء

الحكم التركي معه ، إذ استولى بنو بويه الفرس على بغداد ، وصار لهم السلطان فيها والصوبلخان .

وكان المجتمع العباسي يتألف من ثلاث طبقات : طبقة تنعم بكل أسباب الترف والنعيم ، وهى طبقة الخلفاء والوزراء والأمراء وكبار موظفي الدولة وأصحاب الإقطاعات ورعوس التجار . وطبقة وسطى ، معيشتها بين الترف والشظف وهى طبقة رجال الجيش وصغار الموظفين ومتوسطى الدخل من التجار والصناع . وطبقة دنيا ، معيشتها بؤس وضنك وإعسار ، وهى الطبقة العامة من الزراع وأصحاب الحرف الصغيرة والرقيق . ومن يطالع على ما كان يُسَنَقُّ حينئذ فى قصور الخلفاء والوزراء يُخَيِّلُ إليه أنه يقرأ فى أقاصيص ألف ليلة وليلة ، إذ يبلغ ما كان يُسَنَقُّ على المطابخ أحياناً ثلاثين ألف دينار شهرياً ، أما القصر فكان يبلغ ما ينفق عليه أحياناً مليونين ونصفاً ، والقصور الباذخة تشيّد ، والشعب يكدح ويتصبّب من جبينه العرق ليصبح ما يملكه وزير أكثر من عشرة ملايين دينار ، ولكل وزير حرسه الذى يزيد عن المئات على حين يزيد حرس الخليفة عن الآلاف . وكان كثير من أهل الطبقة الوسطى تسيل إليهم من هذا الترف وأمواله سيول ، وخاصة الأطباء والمغنين والمترجمين والشعراء ، أما الطبقة الدنيا فكانت مع بؤسها تُبَشِّرُ منها الأموال بكل الطرق ، واضطُرَّ كثيرون منها إلى أن يصبحوا قسراً دين وحوّاثين ومتسولين بطرق شتى . وكان أهل الذمة يعاملون معاملة سمحة ، وكان كثير من النصارى يعملون فى بیمارستانات أطباء وفى الدواوين كُتّاباً . وكان قصر الخلافة كثيراً ما يتحول إلى مقصف كبير للهو والغناء ، ولم يتوقف فيه البذخ والترف طوال العصر . وكان الرجال والنساء جميعاً يبالغون فى الأناقة : الأناقة فى الملابس وكل ما يتصل به من طيب وعطر . وتفتنوا فى المطاعم إلى غير حد كما تفتنوا فى الحلواء وفى الشراب . وعُتُوا بالسمر والمنادمة وضروب كثيرة من الملاحى . وكان الرقيق - وخاصة رقيق الجوارى - يملأ الدور والقصور ، وكانت النخاسة قائمة على ساق ، وكانت دورها فى الكرخ وغير الكرخ تكتظ بالقيان . ولم يُعَنَّ المجتمع العباسي بفن كما عُنى بالغناء والموسيقى وكانت فيهما مدرستان : محافظة ومجددة ، وكانت المدرسة المحافظة أكثر أنصاراً . وأثّر الجوارى حينئذ أثراً كبيراً فى شيوع الظرف والركة واللطف . وظلت موجة المجون

والشعبوية والزندقة حادثة في العصر ، وكانت ضاحية الكرخ والبساتين والأديرة تمتلئ
بجانات الخمر ، وكان الناس يقصفون ويمرحون في أعياد الإسلام والمسيحية والمجوس .
وكانت نار الشعبوية لا تزال مُتَّقِدَةً ، وَصَبَّ عَلَيْهَا الجاحظ وابن قتيبة مياهاً كادت
تطفئها إلا قليلاً ، ولذلك قلما نسمع بها بعد هذا العصر إنما نسمع عن الإلحاد
والزندقة ، ومن رموس الزنادقة الملحدين في العصر ابن الرأوندي ومحمد بن زكريا
الرازي . ولم يكن هذا كله الصوت القوي في الأمة ، إنما كان الصوت القوي هو
الانصراف عن المجون وكل ما يتبعه من إثم والعكوف على الدين الحنيف والاستماع
لوعاظه والانتفاف حول عباده ونسائه . وهياً ذلك لاتساع حركة التصوف ،
وكانت قد بدأت مع أواخر القرن الثاني الهجري ولكنها تأخذ حقاً في الازدهار بهذا
العصر ، إذ أتيح لها أعلامٌ أرسوها ، بحيث أصبحت لها قواعد وأصول ثابتة .

ونشطت الحياة العقلية نشاطاً واسعاً ، وكانت المساجد أشبه بجامعات حرة ،
والطلاب يقدون عليها من كل صوب متحوّلين من حلقة إلى حلقة ناهلين ما يشاءون
من العلوم اللغوية والشرعية والكلامية . وقامت بجوار المساجد دكاكين الوراقين
التي كانت تحفل بكتب العلماء من كل صنف وبما تُرجم من علوم الأوائل
وثقافات اليونان والفرس والهند . وتأسست مكتبات كثيرة منها ما كان
عاماً مثل خزانة الحكمة ، ومنها ما كان خاصاً لبعض الأفراد .
وتُرَوَّى أقاصيص كثيرة عن شغف الناس بالعلم ورحلتهم في سبيله
وانقضاضهم — حتى العامة منهم — عليه انقضاض الأسد على فريسته ، ولعل ذلك
ما جعل الجاحظ وابن قتيبة يحاولان تقريب الثقافة إلى الشعب ، حتى يتزوّد منها
بطرق يسيرة سهلة . ويظل نقل الثقافات الأجنبية وخاصة الثقافة اليونانية محتمداً ،
ويتطور النقل من النقل الحرفي إلى نقل معاني الفِقَر بحيث تصبح صياغة الكتب
الترجمة ناصعة شديدة النضوج . ونهضت العلوم الطبيعية والطبية حينئذ نفضة
واسعة ، وليس ذلك فحسب ، فقد أصبح للعرب بدورهم فلاسفة نابهن مثل الكندي
في أوائل العصر والفارابي في أواخره . وتزدهر العلوم اللغوية والنحوية ، فتُشَرِّحُ
النصوص القديمة شروحاً موسّعة ، وتوضع بعض المعاجم ، وينشط تلامذة المدرستين
البصرية والكوفية في النحو ، وتنشأ المدرسة البغدادية . وتكثر حينئذ المباحث البلاغية

في بيئات اللغويين المحافظين والمترجمين والمتفلسفة المجددين والمعتزلة المعتدلين ، ويتم الغلب للأخيرين ، ويكتب ابن المعتز كتابه الطريف « البديع » ويخطو النقد خطوات نحو تقنين مبادئه ، ويشاطر فيه الجاحظ مشاطرة قوية يتأثره فيها ابن قتيبة ، ويُصَدِّر قدامة كتابه « نقد الشعر » . وتنشط الكتابة التاريخية في السيرة النبوية وفي تاريخ الأمم والدول وتاريخ المدن وسير الرجال وتراجم الشعراء . وينهض علم القراءات ويفرض ابن مجاهد القراء السبعة المشهورين على العالم العربي الذي ارتضى ما أَدَّى في ذلك من جهد علمي خصب . ونهض التفسير بدوره على يد أهل السنة والمعتزلة والصوفية ، وبالمثل نهض تدوين الحديث ، ووُضعت فيه كتب الصحاح الستة . وظلت الدراسات الفقهية مزدهرة ، وظهرت فيها مذاهب صغرى أهمها مذهب داود الظاهري الذي كُتِب له الذبوع في الأندلس والمغرب وخاصة في عصر دولة الموحدين . وعلى الرغم من إعلاء الدولة لأهل السنة على المعتزلة ظل لهم نشاطهم ، وظهر بينهم أئمة مرموقون على رأسهم أبو علي الجُببائي وابنه أبو هاشم ، وتفرَّع حينئذ من الاعتزال المذهب الأشعري الذي يتوسط بين آراء المعتزلة وآراء أهل السنة ، والذي كُتِب له الانتشار في العالم الإسلامي .

ويظل للشعر نشاطه وازدهاره ، ويظل اللغويون يقدِّمون للشعراء دراسات تمكنهم من إتقان العربية على خير وجه والوقوف على كثير من أسرارها التركيبية والموسيقية ، ودعَّم هذا الوقوف مباحثُ النقاد والبلاغيين وملاحظاتهم على الخصائص الجمالية للبيان العربي . وأخذت تنشأ عربية مولدة ولكنها لم تَجَرُّ على ألسنة الشعراء ولا أدخلت على أساليبهم شيئاً من الضميمة ، إذ كانوا يتمثلون العربية بخصائصها الجمالية والموسيقية تمثلاً تاماً . وتعمق الشعراء الثقافات الأجنبية والمباحث الفلسفية ، مما جعل عقولهم تحفل بذخائر خصبة من الأفكار الدقيقة والتقسيمات الطريفة والبعد في الخيال إلى درجة الوهم وكثرة التوليدات العقلية ، وحتى البحتری الذي اشتهر بمحافظته على أصول الصياغة الموروثة للشعر العربي يمسُّه حظ من الثقافات المعاصرة . وكان حظ ابن الرومي وافرأ ، ولذلك كثرت عنده العلل والأقيسة والأخيلة المبتكرة والقدرة على مدح الشيء وذمه . وظل الشعراء يبالغون في مديح الخلفاء حتى ليسبغون عليهم صفات قدسية ، وسجَّلوا في مدائحهم البطولات الحربية ،

واحتفظوا فيها أحياناً بوصف الأطلال نافذين إلى الخواطر بديعة . وظلوا يستطردون إلى وصف الصحراء ، واتسعوا في وصف الربيع والطبيعة الحضرية والأعياد وملاهيها . ونشط الهجاء ، وكانوا يعمدون فيه إلى التهوين والتحقير ، ونفذ فيه ابن الرومي إلى نوع جديد من الهجاء الساخر . وظل الفخر نشطاً ، واحتدم الرثاء ، وتفجّعوا على أبنائهم تفجّعاً مريراً ، كما تفجّعوا على البصرة حين هوت تحت أقدام الزنج . ولابن العتّاف مراثية في هـِرّ تُعَدُّ من عيون الرثاء ودُرّره . وصوّروا في عتابهم واعتذاراتهم رقة أهل الحضر ودمائهم . وظل للغزل ازدهاره سواء الغزل العفيف الطاهر أو الغزل المادى الماجن ، ونفذوا فيه إلى كثير من دقائق المعاني والأخيلة ، ولكن كثيرين منهم خمريات تطفح بالمتاع الآثم . ونشط شعر الزهد نشاطاً واسعاً . وأكثروا من التهاني والتراسل بالأشعار مع الهدايا ، وللبحتري وصف رائع لإيوان كسرى . ولهم أشعار كثيرة في وصف قصور الخلفاء وبذخهم في البناء ، وأكثروا من وصف الطبيعة والورود والرياحين ، كما أكثروا من وصف الوحش والصيد وكلابه والأطعمة على اختلاف ألوانها والملاهي ، وفَسَّحُوا للشكوى من الزمن ولوصف الأخلاق ولشعر التصوف ولشعر التعليمي على نحو ما يلاحظ عند ابن الجهم وابن المعتز في نظمهما للتاريخ ، وعند ابن دريد في نظمه للمعارف اللغوية . وأعلام الشعراء في العصر على بن الجهم والبُحتري وابن الرومي وابن المعتز والصنّـوبـريّ ، فأما ابن الجهم فقرشى الأصل وكُد ونشأ ببغداد ، وفتحت موهبته الشعرية مبكرة ، فمدح المعتصم والوائق ويتخذ المتوكل جليساً ونديماً بينما يدبج فيه المدائح والأشعار وقد اندفع وراء المتوكل في الهجوم على المعتزلة والعلويين والنصارى ، فتكاثر خصومه ، وسعوا به عند المتوكل فأمر بحبسه عاماً ، ثم نفاه إلى خراسان . وعاد منها إلى بغداد ثم رأى الاشتراك في نضال البيزنطيين ، ولكنه قُتل دون غايته . وأروع أشعاره ما نظمته في الاستعطاف وليلى الأُنس بالكسرخ ، وأكثرها توهجاً تصويره لصلابة نفسه حين سُجِنَ وصَلَّى نار النَفْى ، وكأنما كان صخرة عاتية لا تستطيع الكوارث والحن أن تمس نفسه .

وكان البحتري عربياً شامياً من طيء ، سال الشعر على لسانه مبكراً ، وفي حلب تعرّف بفتاة تسمى عسكو ، ظلت لا تَبْرَحُ ذاكرته ، ولقى في حمص أبا تمام حامل لواء الشعر في عصره غير مدافع ، واستمع إلى شعر الفتي الناشئ ،

فشجّعته ، وأهداه بعض نصائح كان لها أثر بعيد في شعره . وقد عكف البحترى على شعر هذا الشاعر الكبير يدرسه ويتمثله . وقدّمه أبو تمام إلى ممدوحيه ، ونزل سامراء وأصبح شاعر البلاط الرسمي من عهد المتوكل إلى عهد المعتمد . ولم يكد يترك وزيراً ولا موظفًا كبيراً ولا أميراً ولا والياً إلا صاغ فيه مديحه . وهو ممن يمثلون النزعة المحافظة في عصره ، ويعدُّ بحق أستاذ الفن الموسيقي في الشعر العربي ، وكأنما وقف على جميع أسرارهِ ودقائقهِ ، وأكثر شعره في المديح ، ومن روائع مدائحه مدحته لأحمد بن دينار وفيها صور معركة بحرية بقيادته دُمِّرَ فيها الأسطول البيزنطي . ولم يكن بارعاً في الهجاء ، وله فخر ضعيف . ومراثيه قوية ، وله غزل يترقق فيه الوجد كما يترقق الماء في الغصن ، وكان ماهراً في وصف مظاهر العمران والحضارة والطبيعة .

وكان ابن الرومي يوناني الأصل وُلِدَ ونشأ ببغداد ، وكانت ملكاته خصبه أروع ما يكون الحصب ، وكان شديد الحساسية إلى درجة التطير ، وتروى عنه فيه أفاصيص كثيرة . وكان يتشيع ، ولعل ذلك ما جعل كثيرين يزورون عنه ، كما جعل أبواب الخلداء والوزراء تُغلقُ دونه ، ويَلُفُّ لمن كان يهجوهُ . وتردّد في ديوانه أسماء ممدوحين كثيرين وكذلك أسماء كثيرات من الجوارى والقيان ، واستطاع بملكاته الخصب أن ينفذ إلى لون ساخر جديد في الهجاء كما أسلفنا ، وله مرث تفيض بالحسرات واللوعات ، وعتابه لأبي القاسم التّوّزّي وحواره مع هَنّاته من أطرف ما نظمهُ شعراء العربية ، وله في الغزل معان وأخيلة نادرة وكان يُشغَفُ بالطبيعة وله فيها أشعار رائعة ، وهو يُكثّر من وصف مجالس الأُنس وألوان الطعام ، وله أشعار بديعة في الزهد .

وكلُّ الشعراء السالفين من أبناء الشعب ، أما عبد الله بن المعتز فكان أبوه ابن الخليفة المتوكل وظل في الخلافة نحو ثلاثة أعوام ، وقبلة الترك ونفوا أمه قبيحة وابنه عبد الله إلى مكة ، وأعادهما المعتمد إلى سامراء وفيها مضى عبد الله ينهل من كل الثقافات ، وله مصنفات مختلفة أهمها كتابه البديع ، وكان يحسن الضرب على الآلات الموسيقية ، وله أصوات حملتها العصور بعده ، وله مدائح مختلفة في عميه المعتمد والموفق وفي المعتضد وابنه المكتفي . وكانت مأساته في أبيه وجَدّه تصرفه عن التفكير في الخلافة ، ولكن حدث أن تولّاها المقتدر وهو

غلام ، وتُجَمِّع طائفة كبيرة من رجال الدولة على خِصْلَتِهِ والبيعة لابن المعتز ، ويكون في ذلك حَسَنَةً . وآثار بيئته المترفة واضحة في أشعاره ، وخير مدائحهم ومراثيه ما نظمهم في ابن عمه وصديقه المعتضد ، وله فخر كثير وفيه يلوح من حين إلى حين في وجوه العلويين ، بأن أسرته أحق منهم بميراث الخلافة . وله أشعار كثيرة في الغزل واللهمو والخمر وذم الصُّبُوح ، وتكثر في شعره التشبيهات والاستعارات كما يكثر وصف الصيد وكلاجه وآلاته .

وكان الصَّنَوْبَرِي من أهل أنطاكية ، ولكنه نشأ وتربَّى في حلب ، وعاش حياته بها إلا فترات كان يتردّد فيها على الموصل . وأكثر من المديح ، وكان شيعياً ، وهو لا يَغْلُو في تشييعه ، وانعقدت صداقة بينه وبين كشاجم موطنه الذي ينزل منه منزلة التلميذ من أستاذه . وفي أشعاره عناية واضحة بصناعاتها ونثر فنون البديع فيها ، وله مدائح كثيرة ، وأروع مراثيه بكافؤه على آل البيت وتفجعه على ابنته ليلي ، وله غزل في فتاة مسيحية . ويكثر من وصف الخمر ، وله أشعار في الزهد ، وأهم موضوع شغله واشتهر به وصف الطبيعة حتى ضُربَ المثل بروضياته ، وله غناء كثير بالثلجيات ، ويُعَدُّ فاتح هذا الباب في العربية ، وله أشعار بديعة في وصف الديك والصيد والهِرِّ والجُرْدَان ، مما يشهد بملكته التصويرية الدقيقة .

وتكاثر شعراء السياسة والمديح والهجاء في العصر ، وفي مقدمتهم شعراء الخلفاء العباسيين ، إذ كانت أموال الدولة بأيديهم ، فكثُر مدائحهم حتى بين الشيعة ، ولكل خليفة شعرائه الذين أشادوا به وبأحقية بيته في ميراث الخلافة ، ومن أهمهم مروان بن أبي الجنوب وعلى بن يحيى المنجم وأبو بكر الصولي ، أما مروان فكان يسير سيرة جدّه مروان بن أبي حفصة في الطعن على البيت العلوي ، مما جعل المتوكل يغمره بعطاياه ، وكان يُعَسِّي مثل جدّه بصقل أشعاره . وكان علي بن يحيى المنجم من أصل فارسي ، وهو مثال للتدعيم المثقَّف ثقافة واسعة ، وله شعر كثير في مديح الخلفاء والوزراء وفي تصوير سمو نفسه . وكان أبو بكر الصولي التركي الأصل من بيت علم وكتابة ، وفتحت له ثقافته الواسعة ومهارته في لُعبَةِ الشَّطْرَنْج أبواب القصور العباسية منذ خلافة المعتضد ، وخير مدائحهم ما نظمهم في الخليفة الراضي ، وله غزل رقيق كثير . وكان شعراء البيت العلوي يقفون مدافعين منافحين عنه ، وأهمهم

في العصر محمد بن صالح العلوي والحماني والمفجّع البصري ، وكان محمد بن صالح قد ثار بالحجاز ، وزجّ به المتوكل في غياهب السجون ، ثم عفا عنه وعاش في سامراء يمدحه ، وله أشعار طريفة في زوجه وفي بعض أصدقائه . وكان الحماني نقيب العلويين في الكوفة وله مرث كثيرة ليحيى بن عمر العلوي يبكيه فيها بكاء حاراً . وكان المفجّع شيعياً إمامياً ، وكان يُكثّر من مديح علي وأبنائه . وكثرت الثورات السياسية في العصر ، وكان بعض الثوار شاعراً مثل صاحب الزنج فله أشعار تدور في كتب التاريخ والأدب ، ومثله يحيى بن زكروية القرمطي الناصر بالشام وأبو طاهر الجنّابي صاحب الأحساء والبحرين . وأهم شعراء الثورات محمد بن البعيث وبكر بن عبد العزيز بن أبي دلف ، أما ابن البعيث فنثار بأذربيجان ، واستطاع حين أتى به أسيراً إلى المتوكل أن يستلّ غضبه بشعره فيعفو عنه . وأما حفيد أبي دلف فنثار بأعمال الجبل بين همدان وأصفهان ، وله أشعار مختلفة يتهدّد بها قواد المعتضد وينذرهم - إن هاجموا - إنذارات خطيرة . ويكثّر كثرة مفرطة شعراء الوزراء والولاة والقواد ، وفي مقدمتهم أبو علي البصير وابن أبي طاهر وابن دريد ، ولأولهم مدائح كثيرة في الفتح بن خاقان وله مداعبات ومعان طريفة في الغزل وفقد بصره وشيخوخته . ولابن أبي طاهر مدائح كثيرة في الوزراء ، وله أهاج لاذعة . واشتهر ابن دريد بمدائحه لابن ميكال وإلى الأهواز ، وخاصة بمقصودته فيه وقد شرّحت مراراً وتكراراً . وخمد في العصر الهجاء القبلي ، وظل الهجاء الشخصي محتدماً ، ومن أكبر الهجائيين في العصر الصيّمرى ، وخبره مع المتوكل والبحترى مشهور . وأشد إيلاماً وخزراً منه في الهجاء الحمدوني ، وقد دارت على كل لسان في عصره أهاجيه في طيلسان ابن حرب وشاة سعيد بن أحمد . وهجاء العصر غير منازع ابن بسّام ، وله في أبيه أهاج كثيرة ، ولم يكد يترك خليفة ولا وزيراً ولا أميراً ولا كبيراً في عصره دون أن يكوّيه بميسم هجائه .

ويكثّر شعراء الغزل وشاعراته ، ويظل الغزل الغفيف حياً حياة خصبة بجوار الغزل المادى الصريح ، ويكثّر الناظمون للغزل من كل الأوساط ، وكثيرات من الجوارى في العصر كن ينظمنه ويتقن نظمه ، وأشهر شعراء الغزل حينئذ خالد ابن يزيد الكاتب ومحمد بن داود الظاهري وفضل الشاعرة وكان خالد كاتباً في الدواوين ، وله رقائق غزلية كثيرة يصوّر فيها حباً ظامناً لا يروى أبداً ، أما

محمد بن داود فكان فقيهاً ظاهرياً وغزله أفلاطوني نقي طاهر ، وكانت فضل من مولدات البصرة ، وهى أشعر الجوارى فى عصرها ، ولها معاتبات ومراسلات كثيرة مع سعيد بن حميد . وكان كثير من الشعراء ينغمس فى اللهو والمجون ، وكانوا يترافقون فى الديارات وفى الحانات وفى دور النخّاسين ومن أكثرهم خلاعة ومجوناً الحسين بن الضحّاك وأبو الشَّيْلُ البرُجَمِيّ وعبد الله بن العباس بن الفضل ابن الربيع . ونادم الحسين غير خليفة ، وهو فارسى الأصل ، وتَشَبَّعَ فى غزلياته ونحمرياته عنوبة مفرطة ، ولا يلحقه أبو الشَّيْلُ فى تلك العذوبة ولا فى خفة روحه . وكان عبد الله بن العباس بن الفضل بن الربيع يُسْرِفُ فى الخلاعة والمجون ، وله أشعار فى نصرانية هام بها هياماً شديداً ، وشعره مثل شعر الحسين بن الضحّاك وافر الموسيقى . وكان يقابل شعراء الحمر والمجون شعراء الزهد والتصوف ، وكانوا أقرب منهم إلى قلوب العامة التى كانت تعيش على شطف العيش وتعرف ربّها وتقيه فى السر والعلن ، ويتغنّى كثيرون بأشعار زاهدة ، ويتكاثرون المتصوفة ويتكاثرون شعرهم فى المحبة الإلهية والفناء فى الذات العلية . ويظهر الحلاج الذى تمثل فى نفسه الحقيقة الإلهية ، مع إيمانه بتنزيه الله واتحاد الناسوت وهو الروح الإنسانى فى اللاهوت وهو الروح الإلهى على نحو ما يصوّر ذلك كتابه الطواسين وما فيه من حديث عن هذا الاتحاد ، وهو أول من أعدد لفكرة الحقيقة المحمدية وأن الأديان جميعاً تؤدّى إلى الله جلّ جلاله . وكان الشَّيْلُ الصوفى لا يغلو غلوه ، إذ كان تصوفه سُنيّاً ، مما جعله ينحى عن نفسه أفكار الاتحاد والشهود ، ومع ذلك كان يكثر من الحديث عن الأحوال والمقامات ، وكان يؤمن بفكرة الفناء فى الذات الإلهية . ويلقانا فى العصر شعراء كثيرون ينظمون فى الطرد والصيد ، وكان هوى ومتاعاً للخلفاء والوزراء وعلية القوم ، وكانوا يخرجون إليه فى مواكب ومعهم الشعراء وكادوا لا يركون ضارباً من ضواري الصيد ولا جارحاً من جوارحه إلا نعتوه ، كما نعتوا الصيد من حُسْمُ الوحش وأتته وثيرانه وبقرة وذبائنه ونعامه وأرانبه والطير والإوز ، وبالمثل نعتوا آلاته من النَّبَلِ والسَّهام والفِخاخ والشباك والبندق . ومن أهم الشعراء الذين شغفوا بوصف الصيد والقنص أبو العباس الناشئ ، وكان من المعتزلة ، وكان عالماً وناقداً كما كان شاعراً بارعاً ، وقد اعتمد كشاجم على أشعاره فى صنع كتابه المصايد والمطارد مما يدل بوضوح على كثرة نظمه فى الطرد والصيد ، وله أشعار

بديعة في وصف الكلاب والبزاة والشاهين والطير وأيضاً في وصف الأسد وكانوا يفتخرون طويلاً بصيده . ويكثر في العصر شعراء النزعات الشعبية ، وخاصة شعراء البؤس المكدين وغيرهم ممن صوروا ضيق الحياة وما يجري فيها من ضنك شديد ، وصور كثيرون التحاقق في صور هزلية . ولا يبارى جحظة البرمكي - الضارب على الطنبور - في تصوير تعاسة الطبقة العامة ، وكثيراً ما صبَّ سياطه على الحكام الفاسدين . ويمثل الخبزر أرزى هذه الطبقة فقد كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، ولغته حلوة خفيفة ، وكان مواطنوه في البصرة يشغفون بأشعاره شغفاً شديداً .

وازدهر في العصر النثر ازدهاراً عظيماً ، وقد ظلت حركة الترجمة ناشطة ، وشاع الاستواء والتناسق فيما تُرجم من آثار ، وظهر الكندي أول فيلسوف للعرب بالمعنى الدقيق لكلمة فلسفة ، وكان شاعراً وناثراً ممتازاً إذ كان يتمثل العربية ودقائقها وخصائصها تمثلاً بارعاً . وأخذت بيئات مختلفة تتجادل في معايير البلاغة العربية ، فكانت هناك بيئة محافظة مثلها اللغويون ، وبيئة تفرط في التجديد مثلها المترجمون ، وبيئة معتدلة مثلها المتكلمون ، وهي التي كُتب لها السداد والنجاح ويمثلها الجاحظ وما وضع للبلاغة والبيان العربي من مقاييس فنية . وأبلى اللغويون بلاء حسناً في تثقيف الناشئة والأدباء باللغة والشعر ويتأثر بهم ابن قتيبة في كتابه « أدب الكاتب » الذي وضعه نبراساً للكتاب يهتدون به . ويصنف إبراهيم بن المدبر رسالة بديعة في موازين البلاغة وأدوات الكتابة . وتحاول بيئة المترجمين والمفلسفة أن تضع تشريعاً لمقاييس البلاغة العربية في النثر على ضوء المقاييس اليونانية ، ويكتب في ذلك ابن وهب كتابه : « البرهان في وجوه البيان » ولا يقف عند الاحتكام إلى كتاب الخطابة لأرسطو ، بل يحتكم أيضاً إلى كتابيه في المنطق والجدل . غير أن الأدباء في عصره وبعد عصره ازوروا عن كتابه ومنهجه ، وساد بينهم منهج المدرسة الكلامية وذوقها الأدبي العام الذي مثله الجاحظ في كتاباته خير تمثيل . وضعفت الخطابة في العصر ، ولكن المواعظ لم تضعف ، بل ازدادت اضطراماً على أيدي المتصوفة ، وأخذت تنتشر لهم حكايات وأقاصيص كثيرة تصور جهادهم في قمع شهوات النفس ومطالبها من لذات الحياة ، وتداولها الناس بحيث أصبحت ضرباً من ضروب الأدب الشعبي حينئذ ، كما تداولوا عنهم حكايات كثيرة عن كراماتهم وأخبارهم . وليس ذلك فحسب ، فإن

بعض المتصوفة كتب في تصوفه مقالات نثرية بجانب ما كتب من أشعار على نحو ما يلاحظ في كتاب الطواسين للحلاج . وكثرت المناظرات في العصر بين المتكلمين وكذلك بين الفقهاء ، ومناظرة الحسن بن عبد الله السيرافي ومتي بن يونس في النحو والمنطق مشهورة ، وبالمثل مناظرات اللغويين . وكأنا أصبحت المناظرات لغة العصر الفكرية حتى يُعَسِّنُونَ كثير من الكتب باسم الرد أو النقص ، وشاعت هذه الروح في قصص وأخبار جمعت ونُسقت في كتابي المحاسن والأضداد والمحاسن والمساوى ، وهما كتابان نفسيان، تلتقي فيهما الثقافات العربية والإسلامية والأجنبية ومأثورات قصصية كثيرة عن الفرس والهند واليونان . وطبيعي أن تظل الرسائل الديوانية ناشطة في العصر فقد كانت الدواوين تجذب إليها كتّاب العصر البارعين من أمثال عبید الله بن يحيى بن خاقان وزير المتوكل وأحمد بن الحصبب وزير المنتصر . ونبغ بعض الولاة في كتابة تلك الرسائل مثل محمد بن عبد الله بن طاهر ، ومن كتابها النابهي لعهد المهتدي سعيد بن عبد الملك . وارتقى كاتب من كتابها المرموقين إلى مرتبة الوزارة في عصر هذا الخليفة هو سليمان بن وهب ، وكان ابنه عبید الله وحفيده القاسم من كبار الوزراء ونابهي الكتّاب . ويشيع السجع في الرسائل الديوانية لعصر المقتدر ، ويصبح منذ هذا التاريخ ظاهرة عامة لا تخلو رسالة من وشيه وزخارفه . ويظل للرسائل الإخوانية نشاطها بدورها ، ولا تترك موضوعاً للشعر إلا وتشاركه فيه ، ويشيع فيها السجع مبكراً ، وتلقانا بعض رسائل مسجوعة سجعاً خالصاً ، منها رسالة طويلة لأبي علي البصير كلها هجاء مرير . وكان أبو العيّناء يسجع في رسائله الشخصية . وكان ابن مكرم لا يشيع السجع في رسائله ، ولكن ألفاظه كأنها درر مختارة سواء في اصطفاء اللفظ أو فيما يوشيهها به من زخرف البديع . وكان أحمد بن سليمان بن وهب يسجع في رسائله بينما كان يتخفف منه ابن أبي طاهر ، ومثله ابن المعتز . وتنشط كتابة الرسائل الأدبية ، وكان الجاحظ يشيع فيها أسلوب الازدواج ، على حين نجد ابن المعتز في رسالة طريفة يمدح فيها سامراً ويلزم بغداد بملؤها بالسجع وألوان البديع وزخارفه . وكأن ذلك كله كان إرهاباً بأن السجع سيعم مع أواخر القرن في جميع الرسائل سواء أكانت أدبية أو إخوانية أو ديوانية .

وأعلامُ الكتّاب في العصر إبراهيم بن العباس الصولي والجاحظ وابن قتيبة وسعيد ابن حمّيس وأبو العباس بن ثوبة . وقد ولد إبراهيم بن العباس ونشأ ببغداد ، وظهرت فيه مخايل الأدب مبكرة ، فالتحق بدواوين الفضل بن سهل ، وظل يعمل في دواوين الدولة وولاياتها حتى نكبه ابن الزيات وزير المعتصم والواثق وسجنه ، وعفا عنه الواثق ، حتى إذا كان عهد المتوكل ابتسمت له الدنيا ، فقلّده ديوان الرسائل ودواوين مختلفة ، وظل يكتب كل ما يصدر عن المتوكل من منشورات وفتوح وعهود لأولياء العهد وتهنئات بالأعياد . وكثير من ذلك كله احتفظ به الطبرى ، وهو يَصوّر عنايته بتقطيع العبارات واصطفاء الألفاظ واستخدام بعض ألوان البديع دون إفراط ، وقد يضيف إلى ذلك أحياناً اجتلاب بعض الأسجاع . وفي تحميداته ما يدل على ثقافة اعتزالية واضحة . وكان يوازن بين عباراته موازنات دقيقة في الصوت والجرس والأداء ، كما كان يعنى أشد العناية بمعانيه ، حتى تروق كتاباته اللسان والحنان ، وقد تصبح بعض القطع عنده سجعاً خالصاً .

والجاحظ أكبر كتّاب العصر ، بل أكبر كتّاب العربية قاطبة ، وقد نشأ بالبصرة وتمثّل كل ما كان فيها من معارف ، وهو معتزلى كبير بل صاحب مذهب اعتزالى قائم بنفسه سُمّي الجاحظية نسبة إليه . وهو لا يبارى في وضوح كتاباته وقدرته على التوليد في المعانى ، واستنباط خفياتها ودقائقها . وقد صوّر في أعماله مجتمعه بجميع طبقاته العليا والوسطى والدنيا . وكان يُعنى بصياغته عناية كاملة ، واستطاع أن يفرض على العربية أسلوبه الذى ابتكره ، ونقصد أسلوب ازدواج ، وحقاً نجد له مقدمات عند غيره ، ولكنه هو الذى استمسك به وأشاعه في جميع آثاره ، مع روح الدعابة التى يتميز بها ومع الاستطرادات الكثيرة حتى لا يمل القارئ . وقد عرضت خمسة ألوان من كتاباته : اللون الأول المناظرات واخترت مناظرة معبد والنظام التى وضعها في أوائل كتابه الحيوان واحتلت فيه نحو مجلد ونصف ، وهى لاشك من عمله إذ جميعها بصياغته وأسلوبه . واللون الثانى رسائله الشخصية وهى حافلة بمهارته في استنباط الأفكار وجمال أسلوبه . ومثلها اللون الثالث وهو رسائله الأدبية الباهرة . واللون الرابع والخامس هما القصص والنوادر ، إذ كان قصاصاً ممتازاً كما كان بارعاً في سرد النوادر .

وأكبر مؤلّف أدبى ظهر في العصر بعد الجاحظ ابن قتيبة ، وهو بحكم

ثقافته الدينية يبدو محافظاً في بعض آرائه النقدية ويشتهر بسياطه التي ألهم بها ظهور الشعوبيين، وأهم أسلحته الحربية التي اتخذها ضدهم في رأينا أنه حاول في كتابه « عيون الأخبار » المزج بين الثقافات الإسلامية والعربية والفارسية واليونانية والهندية مزجاً أسقط به الصراع العنيف بين الشعوبيين والعرب ، فليس هناك ما يسمى فارسيّاً مستقلاً أو هنديّاً أو يونانيّاً أو إسلاميّاً أو عربيّاً ، بل هي ثقافة واحدة ، وهي ثقافة تشمل أيضاً ما عند أهل الكتاب ، فكل الثقافات دينية ومدنية تستحيل إلى هذه الصورة الجسدية التي صاغها ابن قتيبة ، بحيث خفّت صوت الشعوبية ، فكل ما كانت تفتخر به على العرب أصبح من صميم العربية . وصاغ ابن قتيبة ذلك في أسلوب أدبي ناصع يمتاز بالوضوح وانتخاب الألفاظ الرصينة واستخدام الازدواج محاكاة للجاحظ أحياناً والاسترسال أحياناً أخرى . وقد يجرى السجع على لسانه ، ولكن دون أى تكلف ، ويتشبه بالجاحظ أحياناً في نقل الواقع وفي خلط الجدل بالهزل وإيراد بعض النوادر .

وسعيد بن حميد من أصل فارسي ، عني أبوه بتثقيفه والتحق بالدواوين وتألق نجمه فيها حتى أصبح رئيساً لديوان الرسائل في عصر المستعين ، وينص الطبري على بعض ما كتبه من رسائل ديوانية ، وكان يعنى أشد العناية بانتخاب ألفاظه وتقطيعها وتقابل الكلمات ، وقد يتكامل التقابل والتقطيع حتى يصبح الكلام سجعاً ، وله بجانب رسائله الديوانية رسائل إخوانية بنفس الأسلوب الذي وصفناه ، ونحس عنده دائماً رغبة قوية في النفوذ إلى أفكار مبتكرة ، حتى لتصبح الرسالة ضرباً من الحيل العقلية يروع بطرافته ، مع دقة التعبير وجماله .

وأبو العباس بن ثوبة من أسرة أصلها مسيحي ، عملت في دواوين الدولة العباسية ، وتميّز هو من بين أفرادها في منتصف القرن الثالث الهجري إذ التحق بدواوين الدولة ، وما زال يصعد في مراتبها حتى اختير لرياسة ديوان الرسائل ، وله عهد طريف إلى أحد الولاة كتبه عن الموفق ، وهو يصور فساد الحكم حينئذ ، كما يصور عمل صاحب الحسبة ، وله رسائل إخوانية مختلفة ، يتضح فيها الحس المفرط والشعور الخاد كما يتضح السجع مضيفاً إليه مادة تصويرية بديعة .

فهرس الموضوعات

صفحة

٧-٥	مقدمة
٥٢-٩	الفصل الأول : الحياة السياسية
٩	١- استيلاء الترك على مقاليد الحكم
١٧	٢- تدهور الخلافة
٢٦	٣- ثورة الزنج
٣٣	٤- ثورة القرامطة
٤٣	٥- أحداث مختلفة
١١٤-٥٣	الفصل الثاني : الحياة الاجتماعية
٥٣	١- طبقات المجتمع
٦٧	٢- الحضارة والترف والملاهي
٨٠	٣- الرقيق والحواري والغناء
٩١	٤- المجون والشعبية والزندقة
١٠٤	٥- الزهد والتصوف
١٧٩-١١٥	الفصل الثالث : الحياة العقلية
١١٥	١- الحركة العلمية
١٢٩	٢- علوم الأوائل : نقل ومشاركة وتفلسف
١٤٢	٣- علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد والتاريخ
١٦٠	٤- علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه
١٧٠	٥- الاعتزال وانبثاق المذهب الأشعري
٢٥٤-١٨٠	الفصل الرابع : نشاط الشعر
١٨٠	١- علم الشعراء بأسرار العربية
١٨٩	٢- ذخائر عقلية خصبة

صفحة

٢٠٣	٣ - التجديد في الموضوعات القديمة
٢٢٨	٤ - نمو الموضوعات الجديدة
٢٤٦	٥ - نمو الشعر التعليمي
٣٦٨ - ٢٥٥	الفصل الخامس : أعلام الشعراء
٢٥٥	١ - علي بن الجهم
٢٧٠	٢ - البحترى
٢٩٦	٣ - ابن الرومي
٢٢٤	٤ - ابن المعتز
٣٤٧	٥ - الصنوبري

الفصل السادس : شعراء السياسة والمدح والهجاء ٣٦٩ - ٤٤٢

٣٦٩	١ - شعراء الخلفاء العباسيين : مروان بن أبي الجنوب أبو السمط ، علي بن يحيى المنجم ، أبو بكر الصولي
٣٨٥	٢ - شعراء الشيعة : محمد بن صالح العلوي ، الحيماني العلوي ، المنفجج البصري
٣٩٩	٣ - شعراء الثورات السياسية : محمد بن البعيث ، بكر بن عبد العزيز بن أبي دلف
٤١١	٤ - شعراء الوزراء والولاة والقواد : أبو علي البصير ، أحمد بن أبي طاهر ، ابن دريد
٤٢٨	٥ - شعراء الهجاء : الصيمري ، الحمدوني ، ابن بسام

الفصل السابع : طوائف من الشعراء ٤٤٣ - ٥١٢

٤٤٣	١ - شعراء الغزل وشاعراته : خالد بن يزيد الكاتب ، محمد بن داود الظاهري ، فضل
٤٥٨	٢ - شعراء اللهو والحجون : الحسين بن الضحاك ، أبو الشبل البرجمي ، عبد الله بن العباس بن الفضل بن الربيع

- ٣ - شعراء الزهد والتصوف : الحلاج ، الشبلى . . . ٤٧٣
- ٤ - شعراء الطرد والصيد : أبو العباس الناشيء الأكبر . . . ٤٨٦
- ٥ - شعراء شعبيون : جحظة ، الحيز أرزى . . . ٤٩٩

الفصل الثامن : نشاط النثر ٥١٣ - ٥٧٣

- ١ - تطور النثر ٥١٣
- ٢ - الخطابة والمواعظ والنثر الصوفي ٥٢٦
- ٣ - المناظرات ٥٣٥
- ٤ - الرسائل الديوانية ٥٥٠
- ٥ - الرسائل الإخوانية والأدبية ٥٦٢

الفصل التاسع : أعلام الكتاب ٥٧٤ - ٦٤٠

- ١ - إبراهيم بن العباس بن محمد الصولى ٥٧٤
- ٢ - الجاحظ ٥٨٧
- ٣ - ابن قتيبة ٦١١
- ٤ - سعيد بن حميد ٦٢٣
- ٥ - أبو العباس بن ثوبة ٦٣٣

خاتمة ٦٤١ - ٦٥٣

كتب للمؤلف مطبوعة بالدار

- في الدراسات القرآنية
 - سورة الرحمن وسور قصار : عرض ودراسة
 - الطبعة الأولى ٤٠٤ صفحات
- فصول في الشعر ونقده
 - الطبعة الأولى ٣٦٨ صفحة
- في الدراسات البلاغية واللغوية
 - البلاغة : تطور وتاريخ
 - الطبعة الثانية ٣٨٠ صفحة
 - المدارس النحوية
 - الطبعة الثانية ٣٧٦ صفحة
- في تاريخ الأدب العربي
 - العصر الجاهلي
 - الطبعة السادسة ٤٣٦ صفحة
 - العصر الإسلامي
 - الطبعة السادسة ٤٦١ صفحة
 - العصر العباسي الأول
 - الطبعة الخامسة ٥٧٦ صفحة
- في مجموعة نواحي الفكر العربي
 - ابن زيدون
 - الطبعة السابعة ١٢٠ صفحة
- في مكتبة الدراسات الأدبية
 - الفن ومذاهبه في الشعر العربي
 - الطبعة الثامنة ٥٢٤ صفحة
 - الفن ومذاهبه في النثر العربي
 - الطبعة السابعة ٤٠٠ صفحة
 - التطور والتجديد في الشعر الأموي
 - الطبعة الخامسة ٣٤٠ صفحة
 - دراسات في الشعر العربي المعاصر
 - الطبعة الرابعة ٢٩٢ صفحة
 - شوقي شاعر العصر الحديث
 - الطبعة السادسة ٢٨٦ صفحة
 - الأدب العربي المعاصر في مصر
 - الطبعة الخامسة ٣٠٨ صفحات
 - البارودي رائد الشعر الحديث
 - الطبعة الثانية ٢٣٢ صفحة
 - البحث الأدبي : طبيعته ، مناهجه ، أصوله ، مصادره
 - الطبعة الأولى ٢٧٨ صفحة
- في مجموعة فنون الأدب العربي
 - الرثاء
 - الطبعة الثانية ١٠٨ صفحات
 - المقامة
 - الطبعة الثانية ١١٢ صفحة
 - النقد
 - الطبعة الثالثة ١١٢ صفحة
 - الترجمة الشخصية
 - الطبعة الثانية ١٢٨ صفحة
 - الرحلات
 - الطبعة الثانية ١٢٨ صفحة
- في التراث المحقق
 - المغرب في حلى المغرب لابن سعيد
 - الجزء الأول - الطبعة الثانية ٤٦٨ صفحة
 - الجزء الثاني - الطبعة الثانية ٥٧٢ صفحة
 - كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد
 - الطبعة الأولى ٧٨٨ صفحة
- في الدراسات النقدية
 - في النقد الأدبي
 - الطبعة الثالثة ٢٥٠ صفحة
- في سلسلة اقرأ
 - العقاد
 - البطولة في الشعر العربي